بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله أولا ، حمداً كثيراً متوالياً ؛ وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين .
وأصلى وأسلم على رسله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .
وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث عزمى من تحرير كتاب فى إحياء علوم الدين .
وأنتدب لقطع تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالى فى العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف فى التقريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها ، أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ؛ وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ؛ واقية من حلول الدركات وأهوالها ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أطلع به فجر الإيمان من طلمة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لاقاطع لاتصالها .

وبعد : فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث «إحياء علوم الدين» فى سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عزب عنى علمه ثم شرعت فى تبييضه فى مصنف متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطئ فى إكماله غير متعرض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه وتكرر السؤال من جماعة فى إكماله فأجبت وبادرت إليه ولكنى اختصرته فى غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله فى الأسفار فاقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ماليس له أصل فى كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فإن كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من خرجه من بقية الستة وحيث كان فى أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون فى كتاب التزم مخرجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه فى الإحياء وحيث كرر المصنف ذكر الحديث ، فإن كان فى باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره فى باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه ، وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات ، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت مايغنى عنه غالباً وربما لم أذكره . وسميته :

المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار : فى تخريج مافى الإحياء من الأخبار

جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم .

والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ؛ فلقد حل عن لساني عقدة الصمت وطوقني عهدة الكلام وقلادة النطق : ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق ، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ماتعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب ، وتداركا لبعض مافرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن عمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه [1] » ولعمري إنه لاسبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجم الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إدّ والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد : فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفا حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام ، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه : فقها وحكمة وعلما وضياء ونوراً وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسيا .

ولما كان هذا ثلما في الدين ملماً وخطباً مدلهما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً ، إحياء لعلوم الدين ، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحا لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين .

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لأكشف أولا عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم [2]» وأميز فيه العلم النافع من الضار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لاينفع [3] » وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب ، وانخداعهم بلامع السراب ، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب .

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

أحاديث الخطبة

(١) حديث « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما (٣) حديث « نعوذ بالله من علم لاينفع » رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لايكون من علماء الآخرة من لايطلع عليه ، وأكثر ذلك مما أهمل فى فن الفقهيات .

وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع فى مجاريها وهى مما لايستغنى عنها متدين .

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدّه وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها تترتب ثم العلامات التى بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التى بها منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التى بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر فى كل خصلة حدّها وحقيقتها وسببها الذى به تجتلب وثمرتها التى منها تستفاد وعلامتها التى بها تتعرف وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ؛ ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور (الأول) حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه (الثانى) ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه (الثالث) إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه (الرابع) حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه (الخامس) تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرّد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه ، أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب ، أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ؛ فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

وإنما حملنى على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما ـ وهو الباعث الأصلى ـ أن هذا الترتيب فى التحقيق والتفهيم كالضرورة لأن العلم الذى يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأعنى

بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التى لارخصة فى إيداعها الكتب وإن كانت هى غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا فى علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال - والعلماء ورثة الأنبياء - فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاقتداء ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح - وإلى علم باطن - أعنى العلم بأعمال القلوب والجارى على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر فى علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثانى . أنى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة فى الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته فى المنافسات وهو مرتب على أربعة أرباع والمتزيى بزى المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً فى استدراج القلوب ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعا فى الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة والتلطف فى اجتذاب القلوب إلى العلم الذى يفيد حياة الأبد أهم من التلطف فى اجتذابها إلى الطب الذى لايفيد إلا صحة الجسد، فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد ، فأين منه الطب الذى يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد فى أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد ، إنه كريم جواد .

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) فى فضل العلم والتعليم والتعلم (الباب الثانى) فى فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا (الباب الثالث) فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره (الباب الرابع) فى آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل (الباب الخامس) فى آداب المعلم والمتعلم (الباب السادس) فى آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة (الباب السابع) فى العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الأول

فى فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عز وجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) فانظر

كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم ؛ وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا . وقال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال عز وجل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وقال تعالى ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ﴾ تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ ردّ حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله . وقيل فى قوله تعالى ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم ـ يعنى العلم ـ وريشاً ـ يعنى اليقين ـ ولباس التقوى ﴾ يعنى الحياء . وقال عز وجل ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان . وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء » (٢) ، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم « يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض » (٣) وأى منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك » (٤) ، وقد نبه بهذا على ثمراته فى الدنيا ، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان لايكونان فى منافق : حسن سمت وفقه فى الدين » (٥) ولا تشكن فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان ، فانه ما أراد به الفقه الذى ظننته ، وسيأتى معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه » (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم » (٧) وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم

كتاب العلم : الباب الأول

(١) حديث (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده) متفق عليه من حديث معاوية دون قوله (ويلهمه رشده) وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير (٢) حديث (العلماء ورثة الأنبياء) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء (٣) حديث (يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض) هو بعض حديث أبى الدرداء المتقدم (٤) حديث (الحكمة تزيد الشريف شرفا . . . . الحديث) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وابن عبد البر فى بيان العلم ، وعبد الغنى الأزدى فى آداب المحدث من حديث أنس باسناد ضعيف (٥) حديث (خصلتان لاتجتمعان فى منافق ... الحديث) أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حديث غريب (٦) حديث (أفضل الناس المؤمن العالم .... الحديث) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان موقوفا على أبى الدرداء باسناد ضعيف ولم أره مرفوعا (٧) حديث (الإيمان عريان .....الحديث) أخرجه الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبى الدرداء باسناد ضعيف

على ما جاءت به الرسل [(١)] » . وقال صلى الله عليه وسلم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم [(٢)] » وقال عليه الصلاة والسلام « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [(٣)] وقال صلى الله عليه وسلم « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء [(٤)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتى أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة [(٥)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من حمل من أمتى أربعين حديثا لقى الله عز وجل يوم القيامة فقيها عالما [(٦)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه فى دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب [(٧)] » وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم [(٨)] » وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أمين الله سبحانه فى الأرض [(٩)] » وقال صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس : الأمراء والفقهاء » [(١٠)] وقال عليه السلام « إذا أتى علىّ يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم [(١١)] » ، وقال صلى الله عليه وسلم فى تفضيل العلم على العبادة والشهادة « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى [(١٢)] » فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب [(١٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء [(١٤)] » فأعظم بمرتبة هى تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد فى فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله تعالى بشىء أفضل من فقه فى الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقه [(١٥)] » وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه [(١٦)] » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على

---

(١) حديث « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٢) حديث « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » أخرجه الطبرانى وابن عبد البر من حديث أبى الدرداء ، وأصل الحديث عند أبى الدرداء (٣) حديث « الناس معادن ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف .

(٥) حديث « من حفظ على أمتى أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة » أخرجه ابن عبد البر فى العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « من حمل من أمتى أربعين حديثا لقى الله يوم القيامة فقيها عالما » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٧) حديث « من تفقه فى دين الله كفاه الله همه .. الحديث » رواه الخطيب فى التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدى بإسناد ضعيف (٨) حديث « أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم » ذكره ابن عبد البر تعليقا ولم أظفر له بإسناد (٩) حديث « العالم أمين الله فى الأرض » أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (١٠) حديث « صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس .. الحديث » أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (١١) حديث « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (١٢) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن صحيح (١٣) حديث « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبى الدرداء المتقدم (١٤) حديث « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف (١٥) حديث « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين ... الحديث » رواه الطبرانى فى الأوسط ، وأبو بكر الآجرى فى كتاب فضل العلم ، وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف . وعند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » (١٦) حديث « خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف ، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بإسناد جيد ، والشطر الثانى عند الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف

المؤمن العابد بسبعين درجة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم أصبحتم فى زمن كثير فقهاؤه قليل قراؤه وخطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه ، العمل فيه خير من العلم . وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة (٣) » وقيل : يارسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال « العلم بالله عز وجل » فقيل : أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم « العلم بالله سبحانه » فقيل له : نسأل عن العمل وتجيب عن العلم ! فقال صلى الله عليه وسلم « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لاينفع مع الجهل بالله (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يامعشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم (٥) » نسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل : ياكميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال على أيضا رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة لايسدها إلا خلف منه وقال رضى الله عنه نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ماكان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شىء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم ؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه ، فان الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنا منه ، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم ، وأى شىء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام « من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى خيرا منه فقد حقر ما عظم الله تعالى » وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به ؛ إذ حب الدنيا

(١) حديث (فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة) . أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ولأبى يعلى نحوه من حديث عبد الرحمن بن عوف . (٢) حديث (إنكم أصبحتم فى زمان كثير فقهاؤه .... الحديث) أخرجه الطبرانى من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف (٣) حديث (بين العالم والعابد مائة درجة) الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال (سبعون درجة) بسند ضعيف ، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة (٤) حديث (قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بالله . . . الحديث) أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث (يبعث الله العباد يوم القيامه ثم يبعث العلماء ... الحديث) رواه الطبرانى من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وشغله بها أبطل إحساسه ؛ كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا ؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيما ثم لا ينفعه وذلك كإحساس الآمن خوفه والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه موت رواته ، فوالذي نفسي بيده ليودّنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فإن أحداً لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها ، وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أي الأشياء تقتنى ؟ قال : الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعني العلم وقيل . أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس إماما ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعي رحمة الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح ، ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضي الله عنه : ياأيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم ردّاه الله عز وجل بردائه ، فإن أذنب ذنباً استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مصيره . وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراني مولاي بثلثمائة درهم وأعتقني ، فقلت بأي شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له . وقال الزبير بن أبي بكر : كتب إليّ أبي بالعراق : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك في وصايا لقمان لابنه قال : يابني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهري رحمه الله : العلم ذكر ولا تحبه إلا ذكران الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقاً يطلب فيه علما سلك الله به طريقاً إلى الجنة [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم

---

(١) حديث (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال (٣) حديث (لأن تغدو فتتعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك ، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ، وابن عبد البر موقوفا على الحسن البصري ، ولم أره مرفوعا إلا بلفظ (خير له من مائة ركعة) رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر

ولو بالصين [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال عليه الصلاة والسلام « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة . السائل والعالم والمستمع والمحب لهم [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغى للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه [٣] » وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة » فقيل يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ [٤] » وقال عليه الصلاة والسلام « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة [٥] » وأما الآثار فقال ابن عباس رضى الله عنهما ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وكذلك قال ابن أبى مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها . وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا وإذا أفتى فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ وقال بعض الحكماء : إنى لا أرحم رجالا كرحمتى لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله: كنت عندمالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلى فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى ﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى فى الشهادة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه [٦] » وقال تعالى ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ﴾ وقال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خيرلك من الدنيا ومافيها [٧]

---

(١) حديث «اطلبوا العلم ولو بالصين» أخرجه ابن عدى والبيهقى فى المدخل والشعب من حديث أنس ، وقال البيهقى: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة (٢) حديث (العلم خزائن مفاتيحها السؤال ... الحديث) رواه أبو نعيم من حديث على مرفوعا بإسناد ضعيف

(٣) حديث « لا ينبغى للجاهل أن يسكت على جهله » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه فى التفسير وابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف (٤) حديث أبى ذر (حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر (٥) حديث « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ... الحديث » أخرجه الدارمى وابن السنى فى رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، وقيل : هو ابن على ، وقيل : هو ابن يسار البصرى مرسلا (٦) حديث « ما آتى الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفى الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة

(٧) حديث قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفى الصحيحين من حديث سهل ابن سعد أنه قال ذلك لعلى

وقال صلى الله عليه وعلى آله و سلم « من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقا [١] » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل : أنتم عندى كبعض ملائكتى اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة [٢] » وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم لا العلم اللازم الذى لا يتعدى . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو معلما أو متعلما [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة فى جحرها حتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعلمها ويعمل بها خير له من عبادة سنة [٩] » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه والثانى يعلمون الناس ، فقال « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما ثم عدل إليهم وجلس معهم [١٠] » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ [١١] » اهـ ، فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه ، والثانى ذكره مثلا للنافع ، والثالث للمحروم منهما

---

(١) حديث « من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث « إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة . . . الحديث » أخرجه أبو العباس الذهبى فى العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث « إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس . . . الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : حديث حسن (٥) حديث « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها . . . الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف (٦) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها . . . الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى حسن غريب .

(٧) حديث « إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال غريب ، وفى نسخة : حسن صحيح (٨) حديث « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه ، ولأبى نعيم من حديث عبد الله بن عمرو « ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى » (٩) حديث « كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها . . . الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلا نحوه ، وفى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف « كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة » (١٠) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله . . . الحديث : أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (١١) حديث « مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به (١) الحديث » وقال صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لاحسد إلافى اثنتين : رجل آتاه الله عزوجل حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « على خلفائى رحمة الله » قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال « الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله (٤) » وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثورى رحمه الله قدم عسقلان فمكث لايسأله إنسان ، فقال : اكروا لى لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم . وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى ، فقلت : مايبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شيء . وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم : أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمنا . قيل وماهو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل : علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ماتجهل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ماجهلت وحفظت ما علمت. وقال معاذ بن جبل فى التعليم والتعلم ورأيته أيضا مرفوعا « تعلموا العلم فإنّ تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لايعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها (٥) » لأن العلم حياة القلوب من العمى . ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

---

(١) حديث (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث (الدال على الخير كفاعله) أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال غريب . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبي مسعود البدرى بلفظ (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) (٣) حديث (لاحسد إلا فى اثنتين ... الحديث) متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث (على خلفائي رحمة الله ... الحديث) رواه ابن عبد البر فى العلم ، والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن ، فقيل هو ابن على وقيل ابن يسار البصرى فيكون مرسلا ، ولابن السنى وأبى نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث على نحوه . (٥) حديث معاذ (تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة .. الحديث بطوله) رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب ، وابن عبد البر وقال : ليس له إسناد قوى

فى الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة فى نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أولغيره من الخصال . فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداحكيم أم لا ، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهى الزيادة ؛ فإذا تشارك شيئان فى أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهماكانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشىء كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه فى قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل ؛ لأنّ تلك زيادة فى الجسم ونقصان فى المعنى وليست من الكمال فى شىء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لالجسمه ؛ فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ؛ بل شدّة العدو فضيلة فى الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة فى ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد فهى فضيلة على الإطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشىء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى مايطلب لغيره ، وإلى مايطلب لذاته ، وإلى مايطلب لغيره ولذاته جميعا فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره : الدراهم والدنانير فإنهما حجران لامنفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة . والذى يطلب لذاته : فالسعادة فى الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذى يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشى بها والتوصل إلى المآرب والحاجات ، وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا فى نفسه فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولايتوصل إليه إلا به ، وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ماهو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولايتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لاوقد تعرف فضيلة الشىء أيضاً بشرف ثمرته ! وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى ، هذا فى الآخرة وأما فى الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام فى الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها : هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتى بيانه وتتفاوت لامحالة فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل ، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا ولانظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهى الآلة الموصلة إلى الله عزوجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن يتخذها مستقرا ووطنا ؛ وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لاقوام للعالم دونها ، وهى أربعة : الزراعة ، وهى للمطعم . والحياكة ، وهى للملبس . والبناء ،

وهو للسكن . والسياسة ، وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

(الثانى) ماهى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها : كالحدادة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها .

(الثالث) ماهى متممة للأصول ومزينة ، كالطحن والخبز للزراعة ؛ وكالقصارة والخياطة للحياكة ؛ وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملته فإنها ثلاثة أضرب أيضا : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ؛ وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالايستدعيه سائر الصناعات ، ولذلك يستخدم لامحالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى ـ وهى العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً فى ظاهرهم وباطنهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظاهرهم لاعلى باطنهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولايرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولاتنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع .

والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم ؛ وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغريزة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العقول العقلية على اللغوية : إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ، وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة : إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة ؛ وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتى بيانه ؛ إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة . وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه ، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل ، فتعليم العلم من وجه : عبادة لله تعالى ، ومن وجه خلافة لله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله ؛ فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته . فهو كالخازن لأنفس خزائنه ؛ ثم هو مأذون له فى الإنفاق منه على كل محتاج إليه ؛ فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه فى تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى ، جعلنا الله منهم بكرمه ؛ وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثانى

فى العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذى هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين » واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام ومايحرم من المعاملات وما يحل ، وعنوا به مايحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه . وقال أبو طالب المكى : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الإسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله »[1] إلى آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب . والذى ينبغى أن يقطع به المحصل ولايستريب فيه ماسنذكره : وهو أن العلم كما قدمناه فى خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة . والمعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ؛ إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل[2] . فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذى هو فرض عين عليه فى الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا فى الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له ، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضروريا فى حق كل شخص بل يتصور الانفكاك وتلك العوارض إما أن تكون فى الفعل وإما فى الترك وإما فى الاعتقاد . أما الفعل : فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت . ويحتمل أن يقال : وجوب العلم الذى هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال . وهكذا فى بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم : وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس ؛ وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع ، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين ؛ فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم مايجب عليه من الزكاة ، ولكن لايلزمه فى الحال إنما يلزمه عند

(١) حديث (بنى الإسلام على خمس ... الحديث) متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث : اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل : مشهور فى كتب السير والحديث ؛ فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة .

تمام الحول من وقت الإسلام ؛ فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل ، وكذلك فى سائر الأصناف ، فإذا دخل فى أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخى فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغى لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخى على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه فى المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نفل فعلمه أيضاً نفل فلا يكون تعلمه فرض عين وفى تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج فى الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدريج فى علم سائر الأفعال التى هى فرض عين . وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ، ولا على البدوى تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير ، أو جالساً فى الغصب ، أو ناظراً إلى غير ذى محرم ، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابساً له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى إذا كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه . وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك . فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئى وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر فى المعتقدات ، فقد مات على الإسلام إجماعاً ، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد ، فإن كان فى بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغى أن يصان فى أول بلوغه عنها بتلقين الحق ، فإنه لو ألقى اليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك ، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع فى البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا ، وهذا هو الحق فى العلم الذى هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب ، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين ، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضاً ولكن فى حق من يتصدى له ، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعى الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجا إليه ، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (١) ولا ينفك عنها بشر ، وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات ، وإزالتها فرض عين ، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها ؛ فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده ، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ، وأكثر ما ذكرناه فى ربع المهلكات من فروض الأعيان ، وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعنى . ومما ينبغى أن يبادر فى إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تتمة كلمتى الشهادة ، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا

---

(١) حديث (ثلاث مهلكات : شح مطاع ... الحديث) أخرجه البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف

ينبغى أن يفهم الرسالة التى هو مبلغها : وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ، ومن عصاهما فله النار ، فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو فى مجارى أحواله فى يومه وليلته لايخلو من وقائع فى عبادته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا ؛ فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام فى قوله صلى الله عليه وسلم ؛ طلب العلم فريضة على كل مسلم ؛ علم العمل الذى هو مشهور الوجوب على المسلمين لاغير ؛ فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه ، والله أعلم .

بيان العلم الذى هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ؛ وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة : فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ماهو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة : أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان . وكالحساب ؛ فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد . وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلايتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فان أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة . فإنه لوخلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك . فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه . فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله . وأما ما يعد فضيلة لافريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه . ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه . وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها . وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه .

أما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان : فهى محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومةفتنقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتمات وهى أربعة أضرب (الضرب الأول) الأصول : وهى أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل فى الدرجة الثالثة . وكذا الأثر فإنه أيضاً يدل على السنة . لأن الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لاتحيط العبارات بما أدرك بالقرائن . فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفن (الضرب الثانى) الفروع : وهو مافهم من هذه الأصول لابموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام « لايقضى القاضى وهو غضبان (١) » أنه لايقضى إذا كان خائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض .

---

(١) حديث (لا يقضى القاضى وهو غضبان) متفق عليه من حديث أبى بكرة .

وهذا على ضربين : أحدهما : يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثانى : مايتعلق بمصالح الآخرة وهوعلم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى ، وماهو مكروه وهو الذى يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعنى جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها ، وهو الذى يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب . (والضرب الثالث) المقدمات ، وهى التى تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ؛ فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذجاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لاتظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلاأن ذلك ليس ضروريا إذكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أميا . ولو تصور استقلال الحفظ بجميع مايسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز فى الغالب ضروريا (الضرب الرابع) المتممات : وذلك فى علم القرآن ؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى مايتعلق بالمعنى كالتفسير ؛ فإن اعتماده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجردها لاتستقل به وإلى مايتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر . وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضا . وأما المتممات فى الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة فى الرواة، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك مايتعلق به ؛ فهذه هى العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات » فإن قلت . لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار ؛ فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها مايصلح للتزود ؛ فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا ، ولعمرى إنه متعلق أيضاً بالدين . لكن لابنفسه بل بواسطة الدنيا ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا . والملك والدين توأمان ؛ فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لاأصل له فمهدوم ، وما لاحارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه . وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الأولى ؛ بل هو معين على ما لايتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أن الحج لايتم إلا ببذرقة تحرس من العرب فى الطريق ولكن الحج شىء وسلوك الطريق إلى الحج شىء ثان ، والقيام بالحراسة التى لايتم الحج الا بها شىء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شىء رابع ، وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روى مسندا « لا يفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور

---

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أى لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا « أنا محمد النبى الأمى » وفيه ابن لهيعة ، ولابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى وصححه من حديث ابن مسعود « قولوا اللهم صل على محمد النبى الأمى » وللبخارى من حديث البراء « وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » .

أو متكلف [1] ، فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتون ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما : وهو الذى يتقلد تلك العهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحترزون عن الفتوى ، حتى كان يحيل كل منهم على صاحبه ، وكانوا لايحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفى بعض الروايات بدل المتكلف : المرائى ؛ فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال » فإن قلت : هذا إن استقام لك فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التى هى أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام ؛ فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لايجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، وإذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر . أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفى شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبه ؟ [2] » للذى قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف ممتد إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادام له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم [3] » جعل أثر ذلك فى الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ، وليس ذلك من الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض فى الكلام والطب وكان خارجا عن فنه . وأما الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا فى جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكير فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لاتنفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الإسلام لاينفع ، ولكن الفقيه يفتى بالصحة أى أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لايتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه ، وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهرا حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، فحكى ذلك لأبى حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته فى الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب (الأولى) الورع الذى يشترط فى عدالة الشهادة : وهو الذى يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر (الثانية) ورع الصالحين : وهو التوقى من الشبهات التى يتقابل فيها الاحتمالات . قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك [4] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب [5] » (الثالثة) ورع

---

(١) حديث « لايفتى الناس الا ثلاثة . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ « لايقص على الناس » وإسناده حسن . (٢) حديث « هلا شققت عن قلبه » أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد

(٣) حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الاالله . . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمر وابن عمر

(٤) حديث « دع مايريبك الى مالا يريبك » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن حبان من حديث الحسن بن على

(٥) حديث « الإثم حزاز القلوب » أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن مسعود ، ورواه العدنى فى مسنده موقوفا عليه

المتقين وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه أداؤه إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس [١] » وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدى إلى مقارفة المحظورات (الرابعة) ورع الصدّيقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر إلى مالا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام ، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى : وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدح فى العدالة والقيام بذلك لا ينفى الإثم فى الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك [٢] » والفقيه لا يتكلم فى حزازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يقدح فى العدالة فقط ، فان جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التى بها صلاح طريق الآخرة ، فان تكلم فى شىء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل فى كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل فى كلامه شىء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة فى النحو والشعر . وكان سفيان الثورى وهو إمام فى علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة ، كيف وقد اتفقوا على أن الشرف فى العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف ، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح فى الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال * فان قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضا يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضا صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه علم شرعى إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فانه ليس من علم الشرع (والثانى) أنه لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض . وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون (والثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر فى أعمال الجوارح ، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية فى الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء فى المزاج والأخلاط وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضا شرف علم طريق الآخرة * فان قلت : فصل لى علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله . فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشىء من هذا العلم : بدعة ، أو كبر . وقيل : من كان محبا للدنيا أو مصرا على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئا وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيـــه

وهو علم الصدّيقين والمقربين ، أعنى علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته

---

(١) حديث « لايكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى . (٢) حديث « استفت قلبك وإن أفتوك » أخرجه أحمد من حديث وابصة .

[redacted]

المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ،وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبى، ومعنى الوحى ، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ،ومعنى قوله تعالى ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وبعضهم يدعى أموراً عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل ، وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام : وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم ، فنعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن فى جوهر الإنسان لولا ان مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإنما نعنى بعلم طريق الآخرة : العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التى هى الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى جميع أحوالهم ، فبقدر ما ينجلى من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التى يأتى تفصيلها فى موضعها ، وبالعلم والتعليم ، وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء منها إلا مع أهله ،وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة ، وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فاذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه ، فان الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه [1] » وأما القسم الثانى : وهو علم المعاملة ، فهو علم أحوال القلب : أما ما يحمد منها فكالصبر ، والشكر ، والخوف ؛ والرجاء ، والرضا ، والزهد ، والتقوى ، والقناعة ، والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى فى جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة ،

(١) حديث « إن من العلم كهيئة المكنون ... الحديث » رواه أبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين له فى التصوف من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف .

وأما ما يذم ، فخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل ، والحقد ، والحسد ، والغش ، وطلب العلو ، وحب الثناء ، وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع ، والكبر ، والرياء ، والغضب ، والأنفة ، والعداوة ، والبغضاء والطمع ، والبخل ، والرغبة ، والبذخ ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والخيلاء ، والتنافس ، والمباهاة والاستكبار عن الحق ، والخوض فيما لا يعنى ، وحب كثرة الكلام ، والصلف ، والتزين للخلق ، والمداهنة ، والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ،وشدّة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضعف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى فى سلب ماأعطى ، والاتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمخادعة وطول الأمل ، والقسوة ، والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، وقلة الحياء ، وقلة الرحمة ، فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة . وأضدادها ـ وهى الأخلاق المحمودة ـ منبع الطاعات والقربات ، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين فى فتوى علماء الآخرة ، فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك فى الآخرة ، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا ، فنظر الفقهاء فى فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا ، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعانى حتى عن الإخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذى فى إهماله هلاكه فى الآخرة ، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء منها ، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهاراً وفى حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم فى نفسه فى الدين ، وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ؛ فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال مالا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ؟ هيهات هيهات ، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ؛ فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان ، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب : كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يجلس بين يدى شيبان الراعى كما يقعد الصبى فى المكتب ويسأله : كيف يفعل فى كذا وكذا ؟ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوى ؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه . وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخى ولم يكن فى علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه ، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب ولا سنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « سلوا الصالحين واجعلوه شورى

بينهم[1] ، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك ، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت . وقال الجنيد رحمه الله قال لى السرى شيخى يوماً: إذا قمت من عندى فمن تجالس ؟ قلت : المحاسبي ، فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث: أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه * فإن قلت : فلم لم تورد فى أقسام العلوم : الكلام والفلسفة ، وتبين أنهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التى ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الاسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شىء منه مألوفا فى العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبعت جماعة لفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذى يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حدّ محدود ـ سنذكره فى الباب الذى يلى هذا إن شاء الله تعالى ـ وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هى أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب ، وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ؛ فإن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما ـ لا لعينهما ـ كما يصان عصبي عن شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع فى النهر وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه ، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم (الثانى) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحدّ وشروطه ، وهما داخلان فى علم الكلام (الثالث) الإلهيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ؛ وهو داخل فى الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب : بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة (والرابع) الطبيعيات ، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى نورده فى أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الاجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الاطباء ؛ إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون فى جميع الاجسام من حيث تتغير وتتحرك ؛ ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه . وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة إليها فإذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البذرقة فى طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ؛ ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ؛ فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ؛ فليعلم المتكلم حدّه من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس فى طريق الحج ؛ فإذا تجرّد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم إذا تجرّد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهد

---

(1) حديث : قيل له كيف نعمل إذا جاء أمر لم نجده فى كتاب الله ولا سنة رسوله ؟ ... الحديث . رواه الطبرانى من حديث ابن عباس وفيه عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور .

القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التى شاركه فيها سائر العوام وهى من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامى بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه فى علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومانعا عنه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التى جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ * فإن قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذى به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار فى متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك فى الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشىء وقر فى صدره [1] كما شهد له سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فليكن حرصك فى طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلا ، ولقد كان ابن عمر رضى الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذى تقلد أمور الناس ، وضعها فى عنقه إشارة إلى أن الفتيا فى القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة ، ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذى مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذى سد باب الكلام والجدل وضرب ضبيعا بالدرة لما أورد عليه سؤالا فى تعارض آيتين فى كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شىء وما ينال به الشهرة عند الناس شىء آخر ؛ فلقد كان شهرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذى وقر فى قلبه وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته ، وبقصده التقرب إلى الله عز وجل فى ولايته وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن فى سره ، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب فى الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد ، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ، وقد انقسموا ، فنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبه عن

---

(١) حديث « ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من قول أبى بكر بن عبد الله المزنى ولم أجده مرفوعا

سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عزوجل بعلمه . وأقسام مايتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة ، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعا ، فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة فى حزب علماء الله ، وأعمال الله تعالى ، أوفى حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما ، فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به فى طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ماتعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم وأنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة فإنهم ماقصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ، وقد شوهد من أحوالهم ماهو من علامات علماء الآخرة كما سيأتى بيانه فى باب علامات علماء الآخرة ، فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه ، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ماصرف الصحابة عن التصنيف والتدريس فى الفقه ، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى والصوارف والدواعى متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها .

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم فى أعمالهم وسيرهم . فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق ـ أعنى الذين كثر أتباعهم فى المذاهب خمسة : الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثورى رحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة وفقيها فى مصالح الخلق فى الدنيا ومريدا بفقهه وجه الله تعالى ، فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهى التشمير والمبالغة فى تفاريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لاتصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة ، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين ، فلنورد الآن من أحوالهم مايدل على هذه الخصال الأربع ، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة .

أما الإمام الشافعى رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا : ماروى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثا للعلم ، وثلثا للعبادة . وثلثا للنوم . قال الربيع : كان الشافعى رحمه الله يختم القرآن فى رمضان ستين مرة كل ذلك فى الصلاة. وكان البويطى أحد أصحابه يختم القرآن فى رمضان فى كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسى : بت مع الشافعى غير ليلة فكان يصلى نحوا من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فمائة آية ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا ، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره فى أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعى رحمه الله : ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة ، فانظر إلى حكمته فى ذكر آفات الشبع ، ثم فى جده فى العبادة ، إذ طرح الشبع لأجلها ، ورأس التعبد تقليل الطعام . وقال الشافعى رحمه الله : ماحلفت بالله تعالى لاصادقا ولا كاذبا قط ، فانظر

إلى حرمته وتوقيره لله تعالى، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه. وسئل الشافعى رضى الله عنه عن مسئلة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدرى الفضل فى سكوتى أوفى جوابى؟ فانظر فى مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر، وبه يستبين أنه كان لايتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب. وقال أحمد بن يحيى بن الوزير: خرج الشافعى رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعى إلينا وقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شىء فى إنائه فيحرص أن يفرغه فى أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقى بها قائلها. وقال الشافعى رضى الله عنه: كتب حكيم إلى حكيم: قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم. وأما زهده رضى الله عنه فقد قال الشافعى رحمه الله: من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فى قلبه فقد كذب. وقال الحميدى: خرج الشافعى رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء فى موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها. وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامى مالا كثيرا. وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا. وسخاوة الشافعى رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء، لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا فى عينه وهو معنى الزهد. ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة: ماروى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا فى الرقائق فغشى على الشافعى فقيل له: قد مات، فقال: ان مات فقد مات أفضل زمانه. وماروى عبد الله بن محمد البلوى قال: كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتذاكر العباد والزهاد فقال لى عمر: مارأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه: خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا وكان الحارث تلميذ الصالح المرى فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآية عليه ﴿ هذا يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فرأيت الشافعى رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهى هب لى جودك وجللنى بسترك واعف عن تقصيرى بكرم وجهك. قال: ثم مشى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مربى رجل فقال لى: يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة، فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة، فأسرعت فى وضوئى وجعلت أقفو أثره، فالتفت إلى فقال: هل لك من حاجة؟ فقلت: نعم، تعلمنى مما علمك الله شيئا، فقال لى اعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد فى الدنيا قرت عيناه مما يراه من ثواب الله تعالى غدا، أفلا أزيدك؟ قلت: نعم. قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان: من أمر بالمعروف وائتمر ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود الله تعالى، ألا أزيدك؟ قلت بلى، فقال: كن فى الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا واصدق الله تعالى فى جميع أمورك تنج مع الناجين، ثم مضى، فسألت: من هذا؟ فقالوا: هو الشافعى فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه! ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فإنه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولم يستفد الشافعى رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه، بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار

إذحكم الأولين والآخرين مودعة فيهما . وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه ، وروى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ؟ وفي أي ثواب ترغب ؟ ومن أي عقاب ترهب ؟ وأى عافية تشكر ؟ وأى بلاء تذكر ؟ فإنك إذا تفكرت في واحد من هذه الخصال صغر في عينك عملك ، فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب ! وقال الشافعي رضي الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال : مامن أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عز وجل ، وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوما : أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين ، فقال الشافعي رحمه الله : التمكين درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة ، فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكن ؛ ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا ، والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن ، قال الله تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ـ الآية ﴾ فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق في علم الدين فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالما ، فإنه قيل لجالينوس إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة ! فقال : إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل ، فهذا وأمثاله مما لايحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة .

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى : فيدل عليه ماروى عنه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ومانسب إلى شيء منه ، فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه بجرد النية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه . ماناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ . وقال : ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه : وقال : ماأوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا كابرنى أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عينى ورفضته ، فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة ، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا ، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : مارأيت ولا رأى الراءون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى ، فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعو له وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار ومابينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ، ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أى رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال أحمد : يابنى كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين من خلف وكان أحمد رحمه الله يقول : مامس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعى لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد فيه . ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله فان ذلك خارج عن الحصر ، وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذى صنفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسى رحمه الله تعالى فى مناقب الشافعى رضى الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الإمام مالك رضى الله عنه فانه كان أيضا متحليا بهذه الخصال الخمس ، فانه قيل له : ما تقول يا مالك فى طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذى يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه ، وكان رحمه الله تعالى فى تعظيم علم الدين مبالغا ، حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له فى ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية ، وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدال فى الدين ليس بشىء . ويدل عليه قول الشافعى رحمه الله : إنى شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال فى اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى . ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدرى ، ولذلك قال الشافعى رضى الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ، وما أحد أمن على من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث فى طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله ، فروى على ملأ من الناس : ليس على مستكره طلاق ، فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقا فى حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف . وأما زهده فى الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدى أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكن أحدثك ، سمعت ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره ، وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتر بها دارا فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله : ينبغى أن تخرج معنا فانى عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضى الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده فى الأمصار فحدثوا ، فعند كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة »[1] ، وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »[2] ، وقال عليه الصلاة والسلام « المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد »[3] ، وهذه دنانيركم كما هى إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعنى أنك إنما تكلفنى مفارقة المدينة لما اصطنعته إلى فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهكذا كان زهد مالك فى الدنيا . ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها فى وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال : وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام فى ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعى رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه فقال : هو هدية منى إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها

---

(١) حديث « اختلاف أمتى رحمة » ذكره البيهقى فى رسالته الأشعرية تعليقاً وأسنده فى المدخل من حديث ابن عباس بلفظ « اختلاف أصحابى لكم رحمة » وإسناده ضعيف (٢) حديث « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » متفق عليه من حديث سفيان ابن أبى زهير (٣) حديث « المدينة تنفى خبثها . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

فقال : إنى أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لتربة المدينة ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا : ماروى أنه قال دخلت على هرون الرشيد فقال لى : يا أبا عبد الله ينبغى أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال : فقلت أعز الله مولانا الأمير ، إن هذا العلم منكم خرج فان أنتم أعززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتى ، فقال : صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس .

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضا عابداً زاهدا ، بالله تعالى ، خائفا منه ، مريدا وجه الله تعالى بعلمه ، فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبى سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوما فى طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشى فقال لآخر : هذا هو الذى يحيي الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله وقال : أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس فى من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلنى يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبى حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى ، فضربه عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب ! قال الحكم بن هشام الثقفى : حدثت بالشام حديثا فى أبى حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك ، فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها . وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبى حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم . قال : فما رضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال ، فدخل عليه ، فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أى هذه عادته . فقال : ضعوا المال فى هذا الجراب فى زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه : إذا مت ودفنتمونى فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن ابن قحطبة فقل له خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فما أصلح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده فى الدنيا ، وقد قال ابن جريج : قد بلغنى عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعى : كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطنى والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتى الصمت والزهد فقد أوتى العلم كله ، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة .

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثورى رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ، وسفيان أقل أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن فى غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال فى الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان ، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا فى دعواهم أم لا

الباب الثالث

فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذى قد يكون به بعض العلوم مذموما وبيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

بيان علة ذم العلم المذموم لعلك تقول : العلم هو معرفة الشىء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشىء علما ويكون مع كونه علما مذموما ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم فى حق العباد لأحد أسباب ثلاثة (الأول) أن يكون مؤديا إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق ، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر [١] رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر فى قعر بئر ، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية فى مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة فى الشخص المسحور ، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر ، فكان ذلك هو السبب فى كونه علما مذموما ، بل من اتبع وليا من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه فى موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه ؛ بل وجب الكذب فيه ؛ وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشىء على ما هو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر (الثانى) أن يكون مضرا بصاحبه فى غالب الأمر ، كعلم النجوم ، فانه فى نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسمان : قسم حسابى ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال عز وجل ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . والثانى : الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهى استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض ، وهو معرفة لمجارى سنة الله تعالى وعادته فى خلقه ولكن قد ذمه الشرع . قال صلى الله عليه وسلم ؛ إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا [٢] » . وقال صلى الله عليه وسلم « أخاف على أمتى بعدى ثلاثا : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكذيب بالقدر [٣] » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فانه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب ، وقع فى نفوسهم أن الكواكب هى المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها فى القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها ، ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها ،

الباب الثالث

(١) حديث « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٣) حديث « أخاف على أمتى بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى محجن بإسناد ضعيف

وينمحى ذكر الله سبحانه عن القلب ، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذى يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى ، ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس ، مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد ، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى فى نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الإرادة المحركة اليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ؛ فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة . مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب ؛ فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم . وثانيها : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك فى حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً ، فالحكم به حكم بجهل ، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق ، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس فى قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر أخطأ ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان فى أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ومجرد الغيم ليس كافياً فى مجىء المطر وبقية الأسباب لا تدرى ، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة فى الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها ، فتارة يصيب فى تخمينه وتارة يخطئ ، ولهذه العلة يمنع القول عن النجوم أيضاً . وثالثها : أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يغنى وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان فى غير فائدة وذلك غاية الخسران ؛ فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة . فقال : بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب . فقال : علم لا ينفع وجهل لا يضر[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » فإذن الخوض فى النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض فى جهالة من غير فائدة ، فإن ما قدر كائن ، والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته مما يطلع عليه ، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه (السبب الثالث) الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ يطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ، ففى ذلك مقنع للموفق ، فكم من شخص خاض فى العلوم واستضر بها ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن فى الدين مما صار اليه ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبى الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكى أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد ، فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى

---

(١) حديث : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال « ماهذا ؟ فقالوا : رجل علامة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى هريرة وضعفه . وفى آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة ... إلى آخره » وهذه القطعة عند أبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو

أربعين يوما ، وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها ، وأخرجت أموالها وفرقتها ، وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولاتشرب حتى انقضت المدة فلم تمت ، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له : لم تمت ، فقال الطبيب : قد علمت ذلك فجامعها الآن فإنها تلد ؛ فقال : كيف ذاك؟ قال : رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها ، فعلمت أنها لاتهزل إلا بخوف الموت ، فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة : فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع [1] »فاعتبر بهذه الحكاية ولاتكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابة رضى الله عنهم ، واقتصر على أتباع السنة ، فالسلامة فى الاتباع ، والخطر فى البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولاتكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ماهى عليه ، فأى ضرر فى التفكر فى العلم فإن مايعود عليك من ضرره أكثر ، وكم من شىء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك فى الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار فى المعالجات يستبعدها من لايعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية ، فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض فى أصبعه فيقتضى عقله أن يطليه ، حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطلى الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لايعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ؟ فهكذا الأمر فى طريق الآخرة ، وفى دقائق سنن الشرع وآدابه ، وفى عقائده التى تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست فى سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن فى خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذى به يجذب المغناطيس الحديد ؛ فالعجائب والغرائب فى العقائد والأعمال ، وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقى إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما فى الأدوية والعقاقير ، وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها ففالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع فى حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لايطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبى صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته ، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلاتسلم إلا به والسلام ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم جهلا وإن من القول عيا [2] » ومعلوم أن العلم لايكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل فى الإضرار . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم [3] » وقال عيسى عليه السلام : ماأكثر الشجر وليس كلها بمثمر وليس كلها بطيب ، وماأكثر العلوم وليس كلها بنافع !

بيان مابدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض

---

(١) حديث « نعوذ بالله من علم لاينفع » أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن ، وهو عند ابن ماجه بلفظ « تعوذوا » وقد تقدم . (٢) حديث « إن من العلم جهلا ... الحديث » رواه أبو داود من حديث بريدة وفى إسناده من يجهل . (٣) حديث « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » لم أجد له أصلا ، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى الدرداء ، وقال « العقل بدل العلم » ، ولم يخرجه ولده فى مسنده

الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ؛ فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم (اللفظ الأول) الفقه ؛ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل ؛ إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ؛ فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه ، ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ؛ ويدلك عليه قوله عز وجل ﴿ ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة ؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له . وقال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ وأراد به معانى الإيمان دون الفتاوى ؛ ولعمرى إن الفقه والفهم فى اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم فى عادة الاستعمال به قديما وحديثا . قال تعالى ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ﴾ الآية ؛ فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه ؛ فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم ماذكرناه من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء فقهاء »[1] ، للذين وفدوا عليه . وسئل سعد بن إبراهيم الزهرى رحمه الله أى أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم لله تعالى ؛ فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه ، والتقوى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأقضية . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ، قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه »[2] ، ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب »[3] ، قال : فالتفت إلى زيد الرقاشى وزياد النميرى وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا ، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعد نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها . قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله ، وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة »[4] ، وروى أيضا موقوفا على أبى الدرداء رضى الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا » ، وقد سأل فرقد السبخى الحسن عن الشىء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ؛ فقال الحسن رحمه الله : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ؛ ولم يقل فى جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق

---

(١) حديث « علماء حكماء فقهاء » رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد ، والخطيب فى التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف

(٢) حديث « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ... الحديث » رواه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق ، وأبو بكر بن السنى وابن عبد البر من حديث على . وقال ابن عبد البر : أكثرهم يوقفونه على على

(٣) حديث أنس « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس ... الحديث » رواه أبو داود بإسناد حسن .

(٤) حديث « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال : لا يصح مرفوعا .

العموم والشمول أو بطريق الاستتباع ؛ فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك فى القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذى هو اسم محمود فى الشرع (اللفظ الثانى) العلم : وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله فى عباده وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله ، لقد مات تسعة أعشار العلم فعرّفه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه فى الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها ؛ فيقال :هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل فى العلم ، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعدّ من حملة الضعفاء ولا يعدونه فى زمرة أهل العلم . وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص ، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره فى العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشىء سوى رسوم جدلية فى مسائل خلافية ، فيعدّ بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم (اللفظ الثالث) التوحيد . وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شىء فى العصر الأول بل كان يشتدّ منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة ؛ فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التى تسبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به : وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله ؛ فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتى بيانه فى كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى . وكانت إحدى ثمراته قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه لما قيل له فى مرضه أنطلب لك طبيباً فقال : الطبيب أمرضنى ، وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطبيب فى مرضك ؟ فقال : قال لى إنى فعال لما أريد . وسيأتى فى كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك . والتوحيد جوهر نفيس وله قشران : أحدهما أبعد عن اللب من الآخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية ؛ فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره . والقشر الثانى : أن لا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث : وهو اللباب ـ أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد فى الأرض

عند الله تعالى هو الهوى (١) » وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وانما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى ،ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم ، فإنّ من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصدّيقين ، فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه ، وكيف اتخذوا هذا معتصما فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى ، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ﴾ وهو أوّل كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص : فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض . حتى يكون المتوجه اليها متوجهاً إليه ، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق فى قوله وقلبه متردّد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف فى طلب الحيل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية إليها ، فمتى وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحد هو الذى لايرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو امتثال قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وليس المراد به القول باللسان ، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه (اللفظ الرابع) الذكر والتذكير ، فقد قال الله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقد ورد فى الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال . مجالس الذكر (٢) » وفى الحديث « إنّ لله تعالى ملائكة سياحين فى الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتونهم ويحفون بهم ويستمعون . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم (٣) » فنقل ذلك إلى ماترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهى بدعة ، وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا لم يكن ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ولا فى زمن أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما ، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجنى إلا القاص ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثورى نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال ولوا البدع ظهوركم ، وقال ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا . فقال: وفق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه ، فقال القاص ، ياشيخ ، ألا تستحى ؟ فقال : لم ؟ أنا فى سنة وأنت فى كذب ، أنا الأعمش وما حدّثتك وقال أحمد ، أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال . وأخرج على رضى الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة ،

---

(١) حديث « أبغض إله عبد فى الأرض عند الله هو الهوى » اخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس وحسنه .

(٣) حديث « إن لله ملائكة سياحين فى الهواء سوى ملائكة الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله فى الهواء والترمذى « سياحين فى الأرض » وقال مسلم سيارة .

(٤) حديث : لم تكن القصص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن

فلما سمع كلام الحسن البصرى لم يحرجه إذا كان يتكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد فى شكره ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذى روى الحث عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض ، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، فقيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم [1] » وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو ، فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ،ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم : وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التى تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن وتزيد عليها ، فان من القصص ما ينفع سماعه ، ومنها ما يضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار ، فمن هذا نهى عنه ، ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فان كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى بها بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أوعن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطى عليها ، فان العامى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا بصدد المعاصى ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدرى ، فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلابأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى مايشتمل عليه القرآن ، ويصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار ، ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزعات الشيطان ، فإن فى الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع فى الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعدّ ذلك من التصنع . قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه عمر ـ وقد سمعه يسجع ـ : هذا الذى يبغضك إلى لاقضيت حاجتك أبدا حتى تتوب ـ وقد كان جاءه فى حاجة ـ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة فى سجع من ثلاث كلمات « إياك والسجع يا ابن رواحة [2] » فكأن السجع المحذور المتكلف ما زاد على كلمتين : ولذلك لما قال الرجل فى دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك يطل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أسجع كسجع الأعراب [3] » وأما الأشعار فتكثيرها فى المواعظ مذموم . قال الله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار : ما يتعلق بالتواصف فى العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ؛ فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ماهو مستكن

---

(١) حديث أبى ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم فى الباب الأول

(٢) حديث « إياك والسجع يا ابن رواحة » لم أجده هكذا ، ولأحمد وأبى يعلى وابن السنى وأبى نعيم فى كتاب الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ولابن حبان واجتنب السجع ، وفى البخارى نحوه من قول ابن عباس (٣) حديث « أسجع كسجع الأعراب » أخرجه مسلم من حديث المغيرة

فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ؛ وأكثر ذلك أوكله يرجع إلى نوع فساد، فلاينبغى أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة [1] » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فان أولئك لا يضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه ، كما سيأتى تحقيق ذلك فى كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يتكلم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين وحضر جماعة باب دار ابن سالم ، فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ، ما هؤلاء أصحابى ، إنما هم أصحاب المجلس ، إن أصحابى هم الخواص : وأما الشطح : فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية (أحدهما) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله أنا الحق ، وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال سبحانى سبحانى ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره ، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » فإنه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية (الصنف الثانى) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم [2] » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله [3] » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله . فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى

---

(١) حديث « ان من الشعر لحكمة » أخرجه البخارى من حديث أبى بن كعب

(٢) حديث « ما حدث أحدكم قوما بحديث لايفهمونه إلا كان فتنة عليهم » رواه العقيلى فى الضعفاء وابن السنى وأبو نعيم فى الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، ولمسلم فى مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود (٣) حديث « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ... الحديث » رواه البخارى موقوفا على على ، ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم

عليه السلام : لاتضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء . وفى لفظ آخر من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقا وإن لها أهلا ، فأعط كل ذى حق حقه . وأما الطامات فيدخلها ماذكرناه فى الشطح ؛ وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لايسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات ؛ فهذا أيضا حرام وضرره عظيم ؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لايوثق به والباطن لاضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى ؛ وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له ؛ وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهر المصنف فى الرد على الباطنية . ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفى قوله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أى مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يلقيه . وفى قوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فإن فى السحور بركة [1] » أراد به الاستغفار فى الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا ، كتنزيل فرعون على القلب ؛ فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : تسحروا [2] »وهلموا إلى الغذاء المبارك [3] » فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لايتعلق بها الإحساس ؛ فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار [4] » معنى إلا هذا النمط : وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ، ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب أن لايفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات مانقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة . ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متنافية لاتقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل [5] »

(١) حديث « تسحروا فإن فى السحور بركة » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « تناول الطعام فى السحور » رواه البخارى من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا (٣) حديث « هلموا إلى الغذاء المبارك » رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن القطان .

(٤) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه ، وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد ، وعند النسائى فى الكبرى (٥) حديث « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس رواه البخارى من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كمن يضع فى كل مسئلة يراها حقا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ معقده من النار [1] » بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبدلة للثقة بالألفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى فإن اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف فى العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما ، فإن اسم الحكيم ، صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ (اللفظ الخامس) وهو الحكمة ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا ومافيها [2] » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق ، ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » ، حتى كرروا عليه فقال « هم علماء السوء [3] » فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف . أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فقيل : ومن الغرباء ؟ قال « الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتى والذين يحيون ما أماتوه من سنتى [4] » وفى آخر « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم [5] » وفى حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبغضهم فى الخلق أكثر ممن يحبهم [6] » وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ، ولذلك قال الثورى رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل

(١) حديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من حديث أبى هريرة وعلى وأنس .

(٢) حديث « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا » تقدم بنحوه (٣) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » الحديث . رواه الدارمى بنحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا وهو ضعيف ، ورواه البزار فى مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف .

(٤) حديث « بدأ الإسلام غريباً .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً ، وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه (٥) حديث « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم » يقوله فى وصف الغرباء ، لم أر له أصلا .

(٦) حديث « الغرباء ناس قليلون صالحون » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

أحوال البدن ، فإن منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها مايذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها مايحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإن التبذير لايحمد فيه وهو بذل ، وكالشجاعة فإن التهور لايحمد فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه فى دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لافائدة فيه أصلا ،وصرف العمر الذى هو أنفس مايملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة . ومنه مافيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر فى الدنيا ، فإنّ ذلك لايعتدّ به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ،وسنته فى خلقه . وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فإنه البحر الذى لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر مايسر لهم ، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى فى حقهم ، وهذا هو العلم المكنون الذى لا يسطر فى الكتب، ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة ، كما سيأتى علاماتهم ، هذا فى أول الأمر ويعين عليه فى الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لابقدر الجهد ولكن لاغنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لامفتاح لها سواها وأما العلوم التى لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص فهى العلوم التى أوردناها فى فروض الكفايات ، فإن فى كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل ، واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لامرد له إلى آخر العمر ، فكن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذى هو فرض عليك بحسب مايقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما الأهم الذى أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم ، إذ لاينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات ، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهى الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة بالفصد والإسهال ،وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الآخرة لايشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب ، وإنما فرع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفرع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة، فلا يزال يتعب فى الطلاء ويزيد فى المواد وتتضاعف به الأمراض ، فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من الهلاك الأبدى فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه فى ربع المهلكات ، ثم ينجرّ بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة فى ربع المنجيات لامحالة ، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود؛ والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفى زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه ، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعى والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لايغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به . وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا

لك وعادة متيسرة فيك ـ وما أبعد ذلك منك ـ فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها ؛ فابتدئ ، بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك فى السنة ، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ؛ وهكذا إلى بقية العلوم على مايتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ؛ ولاتستغرق عمرك فى فن واحد منها طلباً للاستقصاء ؛ فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل مايطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ؛ فاقتصر من شائع علم اللغة على ماتفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه ، واقتصر من النحو على مايتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء . ونحن نشير إليها فى الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها ، فالاقتصار فى التفسير ما يبلغ ضعف القرآن فى المقدار كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوجيز ؛ والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر . وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل مافى الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث . وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ؛ ولك أن تعول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ماتحتاج إليه عند الحاجة ؛ وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ماخرج عنهما مما ورد فى المسندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل مانقل من الضعيف والقوى والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة فى النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم . وأما الفقه فالاقتصار فيه على مايحويه مختصر المزنى رحمه الله وهو الذى رتبناه فى خلاصة المختصر ، والاقتصاد فيه مايبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذى أوردناه فى الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ماأوردناه فى البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات . وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لاغير ؛ وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها ، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر ؛ وهو القدر الذى أوردناه فى كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه مايبلغ قدر مائة ورقة وهو الذى أوردناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامى ، وذلك لاينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم ، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئا يسيرا فقلما ينفع معه الكلام ؛ فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جوابا ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة . وأما العامى إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء ؛ فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ؛ إذ التعصب سبب يرسخ العقائد فى النفوس وهو من آفات علماء السوء ؛ فإنهم يبالغون فى التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة ، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم فى التمسك بما نسبوا إليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح فى الخلوة ـ لافى معرض التعصب والتحقير ـ لأنجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لايقوم إلا بالاستتباع ولايستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم ، وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة

فى النفوس . وأما الخلافيات التى أحدثت فى هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات مالم يعهد مثلها فى السلف فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال وهو الذى رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها . وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال : الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك ، فعلى الخبير سقطت . فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه : فلا يغرنك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف ، فإن علل المذهب مذكورة فى المذهب ، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم ، بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه ، فإن الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر ، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه ، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعالى بأنه يطلب علل المذهب ، وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب ، فكن من شياطين الجن فى أمان ، واحترز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الإغواء والإضلال ، وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك فى العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودع عنك ماسواه والسلام . وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء فى المنام فقال له : ما خبر تلك العلوم التى كنت تجادل فيها وتناظر عليها فبسط يده ونفخ فيها وقال : طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركعتين خلصتا لى فى جوف الليل . وفى الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل [1] » ثم قرأ ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ وفى الحديث فى معنى قوله تعالى ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ﴾ الآية : « هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى : فاحذرهم [2] » وقال بعض السلف : يكون فى آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل . وفى بعض الأخبار إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل [3] وفى الخبر المشهور « أبغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم [4] » وفى الخبر « ما أتى قوم المنطق إلا منعوا العمل » [5] والله أعلم .

الباب الرابع

فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء فى أحكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها

---

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى أمامة . قال الترمذى : حسن صحيح

(٢) حديث « هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم » متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث « إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل » لم أجده (٤) حديث « أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم » متفق عليه من حديث عائشة (٥) حديث « ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل » لم أجد له أصلا .

بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم ، وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة ؛ فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة ، وتعرفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فنهم من حرم ومنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء ـ بعد أن كانوا مطلوبين ـ طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله ، وقد كان أكثر الإقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها : فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار ؟ فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين

بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

أعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، هكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم فى مشاوراتهم كتشاورهم فى مسألة الجد والأخوة وحد شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفا من عمر رضى الله عنه ؛ وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعى وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبى يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى . ويطلعك على هذا التلبيس ما أذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان ، الأول : أن لا يشتغل به وهو من

فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان ، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب . ومثاله من يترك الصلاة فى نفسه ويتجرد فى تحصيل الثياب ونسجها ويقول عرضى أستر عورة من يصلى عرياناً ولا يجد ثوباً ؛ فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التى عنها البحث فى الخلاف ممكن . والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هى فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه رد وديعة فى الحال فقام وأحرم بالصلاة التى هى أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به ، فلا يكفى فى كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب . الثانى : أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة ، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل له فى البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية فيقول هذا لايخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفى البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب ؛ إذ لايوجد فى أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ولا يرغب أحد من الفقهاء فى الاشتغال به ، وكذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظر فى مجلس مناظرته مشاهداً للحرير ملبوساً ومفروشاً وهو ساكت ويناظر فى مسألة لايتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات . وقد روى أنس رضى الله عنه أنه « قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ فقال عليه السلام : إذا ظهرت المداهنة فى خياركم والفاحشة فى شراركم وتحول الملك فى صغاركم والفقه فى أراذلكم (١) » الثالث : أن يكون المناظر مجتهداً يفتى برأيه لا بمذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبى حنيفة ترك مايوافق رأى الشافعى وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضى الله عنهم والأئمة . فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتى فيما يسأل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجزله أن يتركه ، فأى فائدة له فى المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول : لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإنى لست مستقلا بالاجتهاد فى أصل الشرع : ولو كانت مباحثته عن المسائل التى فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه ، فإنه ربما يفتى بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التى فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتا . الرابع : أن لايناظر إلا فى مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً فإن الصحابة رضي الله عنهم ماتشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو مايغلب وقوعه كالفرائض ، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التى تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التى تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر ،

(١) حديث أنس «قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الحديث» أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن .

وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات ، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الإخبار ! أو لأنها لأنهـا ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام . والمقصود فى الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول . الخامس : أن تكون المناظرة فى الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفى حضور الجمع مايحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم جمع لم يغادر فى قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام . السادس : أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقاً فى طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته فى طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ؛ فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضى الله عنه ونبهته على الحق وهو فى خطبته على ملإ من الناس فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضى الله عنه فأجابه فقال : ليس كذلك ياأمير المؤمنين ولكن كذا كذا فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذى علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما فقال أبو موسى : لاتسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم . وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل فى سبيل الله فقتل فقال : هو فى الجنة . وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال : أعده على الأمير فلعله لم يفهم ؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود . وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو فى الجنة . فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ؟ ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال : لايحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظرى زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يخجل به وكيف يجهد فى مجاحدته بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره ثم لايستحى من تشبيه نفسه بالصحابة رضى الله عنهم فى تعاونهم على النظر فى الحق ؟ السابع : أن لا يمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف : ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيماله وعليه كقوله : هذا لايلزمنى ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك : فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضى فى المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعلة يظنها فيقال له : ماالدليل على أن الحكم فى الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لى ؛ فإن ظهر لك ماهو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه . فيصر المعترض ويقول فيه معان سوى ماذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لايلزمنى ذكرها ، ويقول المستدل عليك إيراد ماتدعيه وراء هذا ويصر المعترض على أنه لايلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله : إنى أعرفه ولا أذكره إذ لايلزمنى ، كذب على الشرع : فإنه إن كان لايعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها وإن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ماعرفه من أمر الشرع . وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه فإن كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولا خلاف أن إظهار

ماعلم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمعنى قوله : لا يلزمنى ؛ أى فى شرع الجدل الذى أبدعناه بحكم التشهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لايلزمنى وإلا فهو لازم بالشرع ، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهى هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل مايخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه . الثامن : أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم . والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً فى ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن فى هذه الشروط الثمانية مايهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة . واعلم بالجملة أن من لايناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدو له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى المجتهد فيها مصيب أو مساهم للمصيب فى الأجر فهو ضحكة الشيطان وعبرة للمخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى نعددها ونذكر تفاصيلها ؛ فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس . ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة . وكما أن الذى خير بين الشرب والفواحش وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها فى النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة . وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ربع المهلكات . ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المناظرة فمنها الحسد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[1] » ولا ينفك المناظر عن الحسد فانه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره . فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكره بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً فلا بدّ أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه . والحسد نار محرقة فمن بلى به فهو فى العذاب فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم ؛ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس فى الزريبة . ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم « من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله[2] » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى « العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته[3] » ولا ينفك المناظر عن التكبر على

---

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة ، وقال البخارى : لايصح . وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف ، وفى تاريخ بغداد بإسناد حسن

(٢) حديث « من تكبر وضعه الله ... الحديث » أخرجه الخطيب من حديث عمر باسناد صحيح وقال : غريب من حديث الثورى» ولابن ماجه نحوه من حديث أبى سعيد بسند حسن (٣) حديث «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى...الحديث» أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة وهو عند مسلم بلفظ «الكبرياء رداؤه » من حديث أبى هريرة وأبي سعيد .

الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه فى الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم فى الدخول عند مضايق الطرق ، وربما يتعلل الغبى والمكار الخداع منهم بأنه يبغى صيانة عز العلم ، « وأن المؤمن منهى عن الإذلال لنفسه[1] » فتعبر عن التواضع الذى أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالا للخلق به كما فعل فى اسم الحكمة والعلم وغيرهما . ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود[2] » ، وورد فى ذم الحقد مالا يخفى . ولا ترى مناظراً يقدر على أن لا يضمر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف فى كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته فى نفسه وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة فى غالب الأمر . وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله فى إيراده وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس فى صدره حقد لايقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر . ومنها الغيبة وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته ، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب فى الحكاية عنه فيحكى عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة ، فأما الكذب فبهتان وكذلك لايقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة . ومنها تزكية النفس ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه . ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم على الأقران ولا ينفك فى أثناء المناظرة عن قوله : لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن فى العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه . ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا ومنها التجسس وتتبع عورات الناس ، وقد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه فى إفضاحه وتخجيله إذا مست اليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء ، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم . ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارهم ومن لايحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه فى الفضل ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظراً تغير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أو سبعاً ضارياً ، فأين الاستئناس والاسترواح الذى كان يجرى بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم فى السراء

---

(١) حديث « نهى المؤمن عن إذلال نفسه » أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة « لاينبغى للمؤمن أن يذل نفسه » (٢) حديث « المؤمن ليس بحقود » لم أقف له على أصل .

والضراء حتى قال الشافعي رضى الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل ؟ فلا أدرى كيف يدعى الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ! فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيهات هيهات وناهيك بالشر شرا أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين . ومنها النفاق فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد فى ذمه وهم مضطرون إليه فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدّا من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور فإنهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا فى الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم[1] » رواه الحسن وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة . ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه فى المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاما إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه فى أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض ، والمراء فى مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل . قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا فى ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة[2] » وقد سوّى الله تعالى بين من افترى على الله كذبا وبين من كذب بالحق فقال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد فى استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو الداء العضال الذى يدعو إلى أكبر الكبائر – كما سيأتى فى كتاب الرياء – والمناظر لايقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه ؛ فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدى إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح فإن أولئك ليسوا معدودين فى زمرة الناس المعتبرين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لاينفكون عن هذه الخصال العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له فى الدرجة . ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل : الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع ، وحب طلب المال ، والجاه للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء ، والخوض فيما لا يعنى ، وكثرة الكلام ، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء الغفلة عليه حتى لايدرى المصلى منهم فى صلاته ما صلى وما الذى يقرأ ومن الذى يناجيه ؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر فى العلوم التى تعين فى المناظرة مع أنها لاتنفع فى الآخرة : من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ

---

(١) حديث « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث سلمان بإسناد ضعيف (٢) حديث « من ترك المراء وهو مبطل ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف . قال الترمذى : حسن .

وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لاتحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولاينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلا عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها .
واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهى لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران . وبالجملة هى لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى فى الآخرة فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ؛ وليته نجا منه رأسا برأس ؛ وهيهات هيهات فخطر العلم عظيم ؛ وطالبه طلب الملك المؤبد ، والنعيم السرمد ، فلا ينفك عن الملك أو الهلك ؛ وهو كطالب الملك فى الدنيا ، فإن لم يتفق له الإصابة فى الأموال لم يطمع فى السلامة من الإذلال بل لابدّ من لزوم أفضح الأحوال * فإن قلت : فى الرخصة فى المناظرة فائدة وهى ترغيب الناس فى طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم ؛ فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان فى المكتب وذلك لايدل على أن الرغبة فيه محمودة ، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم . ولايدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[2] » فطالب الرياسة فى نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله فى ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضمر قصد الجاه ، فمثاله مثال الشمع الذى يحترق فى نفسه ويستضىء به غيره فصلاح غيره فى هلاكه وأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التى تأكل نفسها وغيرها . فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطنا ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذى يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا فى ظاهره وقصده فى الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ، فانظر من أى الأقسام أنت ومن الذى اشتغلت بالاعتداد له ؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل . وسيأتيك فى كتاب الرياء بل فى جميع ربع المهلكات ما ينفى عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى .

الباب الخامس

فى آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لاتصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائى من حديث أنس بإسناد صحيح .
(٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة[1] » وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى ﴿إنما المشركون نجس﴾ تنبيها للعقول على الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ملطخ بالخبائث . والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها فى الحال مهلكات فى المآل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب[2] » والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم ؛ والصفات الرديئة مثل والغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لايقذفه الله تعالى فى القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء﴾ وهكذا مايرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرءون عن الصفات المذمومات فلايلاحظون إلاطيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا . ولست أقول المراد بلفظ « البيت » هو القلب و « بالكلب » هو الغضب والصفات المذمومة ولكنى أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة ، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يعبر ماذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخلق إلى القلب الذى هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذى ذم لصفته - لالصورته - وهو مافيه من سبعية ونجاسة إلى الروح الكلبية وهى السبعية . واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب فى المعنى وقلب فى الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعانى لاالصور . والصور فى هذا العالم غالبة على المعانى والمعانى باطنة فيها . وفى الآخرة تتبع الصور المعانى وتغلب المعانى . فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية « فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا . والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا ، والمتكبر عليهم فى صورة نمر ، وطالب الرياسة فى صورة أسد[3] » وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار . فإن قلت : كم من طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم فهيهات ماأبعده عن العلم الحقيقى النافع فى الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذى تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم فى شىء . قال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب . وقال بعضهم : إنما العلم الخشية لقوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله » أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا

الباب الخامس

(١) حديث « بنى الدين على النظافة » لم أجده هكذا . وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « النظافة تدعو إلى الإيمان » (٢) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبى طلحة الأنصارى (٣) حديث « حشر الممزق لأعراض الناس فى صورة كلب ضار ... الحديث » أخرجه الثعلبى فى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

حديثه وألفاظه . فإن قلت : أرى جماعة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا فى الفروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها ؟ فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن مااشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقت إلى هذا إشارة . وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى . الوظيفة الثانية : أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل « العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر » والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه مايجتمع ويبلغ المزدرع . الوظيفة الثالثة : أن لايتكبر على العلم ولا يتأمر على معلم بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبى « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه ياابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا فى طلب العلم [2] » فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان ؛ فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعـالى ... كالسيل حرب للمكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لاتعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب فى بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لاخبرة له به ، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ ثم لم يصبر ولم يزل فى مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا

---

(١) حديث « أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت » وقوله « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » أخرجه الطبرانى والحاكم والبيهقى فى المدخل إلا أنهم قالوا « هكذا نفعل » قال الحاكم : صحيح الاسناد على شرط مسلم (٢) حديث « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة باسنادين ضعيفين

دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

* فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ فالسؤال مأمور به ؟ فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال : أى دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف . ومالم يدخل أوان الكشف فى كل درجة من مراقى الدرجات لايدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضى الله عنه : إن من حق العالم أن لاتكثر عليه بالسؤال ولا تعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ولاتأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرا ولاتغتابن أحدا عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

الوظيفة الرابعة : أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدإ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة : فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلايصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يعد فى عمى الحيرة وتيه الجهل ، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوى إلى النظر فى الاختلافات يضاهى حث القوى على مخالطة الكفار ؛ ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفى ذلك قال بعضهم : من رآنى فى البداية صار صديقا ، ومن رآنى فى النهاية صار زنديقاً ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض ؛ فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيهات فذلك مرابطة القلب فى عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذى هو أفضل الأعمال على الدوام ؛ وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة فى كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى فى البحر والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز . ولا يدرى المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسه يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته ، ولمثل هذا جوز للنبى صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره حتى أبيح له تسع نسوة [1] إذ كان له من القوة مايتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى مابينهن من الضرار إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى فى طلبه رضاهن . فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة : أن لايدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ؛ فإن العلوم متعاونه وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه فى الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب

---

(١) حديث « أبيح له صلى الله عليه وسلم تسعة نسوة » وهو معروف . وفى الصحيحين من حديث ابن عباس « كان عند النبى صلى الله عليه وسلم تسع ... الحديث » .

جهله ؛ فإن الناس أعداء ماجهلوا قال تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعا من الإعانة ، ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لايخوض فى فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم . فإن العمر إذا كان لايتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفى منه بشمه ويصرف جمام قوته فى الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة . وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ؛ ولست أعنى به الاعتقاد الذى يتلقفه العامى وراثة أو تلقفا ؛ ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة فى تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبى بكر رضى الله عنه الذى لو وزن بإيمان العالمين لرجح[1] كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فما عندى أن مايعتقده العامى ويرتبه المتكلم الذى لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاما ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم يزدرى مايسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول ؛ فينبغى أن تتئد فى هذا فعنده ضيعت رأس المال ، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك فى الطلب .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لايدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفى يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب

الوظيفة السابعة : أن لايخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضروريا وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج . قال الله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ أى لايجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملا ، وليكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ماهو فوقه ؛ فينبغى ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ؛ فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات ، متعللين فيها بأنها لوكان لها أصل لأدركه أربابها ؛ وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب (معيار العلم) وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر . والكل خطأ ، بل

---

(١) حديث « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح » أخرجه ابن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ؛ ورواه البيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بإسناد صحيح.

ينبغى أن يعرف الشىء فى نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ولذلك قال على رضى الله عنه : لاتعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما : شرف الثمرة والثانى : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الابدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فان علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى : ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فاياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة : ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه فى المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية ، ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ هم درجات عند الله ﴾ والفضيلة نسبية . واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لايدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين فى العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه ورفعه لا محالة . الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ـ ومعنى المهم ما يهمك ـ ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لايعرف فى هذا العالم قدره إلا الأقلون . والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ـ أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون ما سبق إلى فهم العوام والمتكلمين ـ على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعا وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل ، الأول . تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة والثانى السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل . والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركنا بعد ركن ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة ، وله فى كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ،

من أول سلوك البوادى إلى آخره ، ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد فى إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه ، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا . وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها كذلك لا يغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه فى تراجم المكاشفة وههنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون فى جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هى أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع ، وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك فى ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة . وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذى يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه فى ضبط الناس على منهج العدل والسياسة فى ناصية الفقيه . وأما أسباب الصحة ففى ناصية الطبيب ومن قال «العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان» وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة . فإن قلت : لم شبهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة ؟ فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس بل هو من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل لا رخصة فى ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلهى كما قال تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن فلله الخلق والأمر جميعا ، والأمر أعلى من الخلق . وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر : ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فان القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدرى ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن فهو وراء ما نحن بصدده . والمقصود أن هذه اللطيفة هى الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها واليه

مرجعها ، وأما البدن فطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها ، فالبدن لها فى طريق الله تعالى كالناقة للبدن فى طريق الحج وكالراوية الخازنة للماء الذى يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية . ولايخفى أن الطب كذلك فإنه قد يحتاج إليه فى حفظ الصحة على البدن ولوكان الإنسان وحده لاحتاج إليه : والفقه يفارقه فى أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ وفى تحصيل الملبس والمسكن وفى إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة . ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال فى الأخلاط المتنازعة من داخل ،وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال فى التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس فى المعاملات والأفعال فقه . وكل ذلك لحفظ البدن الذى هو مطية فالمتجرد لعلم الفقه أوالطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج . والمستغرق عمره فى دقائق الكلمات التى تجرى فى مجادلات الفقه كالمستغرق عمره فى دقائق الأسباب التى بها تستحكم الخيوط التى تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه : فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غاليا ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة فى النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف فى وظائف المتعلم .

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلم أن الإنسان فى علمه أربعة أحوال كحالة فى اقتناء الأموال : إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال . وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغنى عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال : فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات فإنه كالشمس تضئ لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب والذى يعلم ولايعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضىء للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه (الوظيفة الأولى) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده [1] » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا : ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية.ولولا المعلم لانساق ماحصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة أعنى معلم علوم الآخرة أو علوم

---

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة

الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، وأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق . والترافق فى الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق فى طريقه ؟ ولا ضيق فى سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة فى سعادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم . والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وداخلون فى مقتضى قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الوظيفة الثانية) أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة وثوابك فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) فإن المال وما فى الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذى يقوم فى العرض الأكبر مع المجرمين ناكسى رءوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفى غيرهما ؟ فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل فى خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له فى كل نائبة وينصر وليه ويعادى عدوه وينتهض جهارا له فى حاجاته ومسخرا بين يديه فى أوطاره : فإن قصر فى حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضى من التدريس نشر العلم تقربا إلى الله تعالى ونصرة لدينه ! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات (الوظيفه الثالثة) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده : فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذى يطلبه فإن كان هو علم الخلاف فى الفقه والجدل فى الكلام والفتاوى فى الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التى قيل فيها « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله » وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعا فى الوعظ والاستتباع ولكن قد يتنبه فى أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك

يوشك أن يؤدى إلى الصواب فى الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره . ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل . وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع فى هذه العلوم فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا فى الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية . ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد والله المستعان . وقد رؤى سفيان الثورى رحمه الله حزينا فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجرا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا (الوظيفة الرابعة) وهى من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح . وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنه إلا وفيه شىء [1] » وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمراً بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته (الوظيفة الخامسة) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه . ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن ؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة (الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم [2] » فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال على رضى الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ « إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة » وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير « ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار : وسئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار [3] » ؟ فقال :

---

(١) حديث « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ... الحديث » لم أجده (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ... الحديث » رويناه فى جزء من حديث أبى بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه وعند أبى داود من حديث عائشة « أنزلوا الناس منازلهم » (٣) حديث « من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد ضعيف ؛ وتقدم حديث أبى هريرة بنحوه .

اترك اللحام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى فقد قال الله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق :

أأنثر درا بين سارحة النعم فأصبح مخزونا براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة وإلا فمخزون لدى ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله . وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغى أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى وينقلب شيطانا مريداً يهلك نفسه وغيره ؛ بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك . وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص (الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل فى المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال على رضى الله عنه قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه . والله اعلم .

الباب السادس

فى آفات العلم وبيان علامات علما الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة . فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونعنى بعلماء الدنيا

علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم « إنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم فى القلب فذلك العلم النافع [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس اليكم فمن فعل ذلك فهو فى النار [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كتم علماً عنده ألجمه الله بلجام من نار » وقال صلى الله عليه وسلم « لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال . فقيل : وما ذلك ؟ فقال : من الأئمة المضلين [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً [6] » وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين ، فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فان العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد وإنه بالخوض فى العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة . وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة له . وقيل لإبراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندما ؟ قال : أما فى عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لايشكره وأما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة ، رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولايدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لايدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لايدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه . وقال سفيان الثورى رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فاذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر وعالما تلعب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشترى دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

الباب السادس

(١) حديث « لايكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا » أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء ، والبيهقى فى المدخل موقوفا على أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا (٢) حديث « العلم علمان علم على اللسان ... الحديث» أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عبدالبر من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح ، وأسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزى (٣) حديث « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة » أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف (٤) حديث «لاتتعلموا العلم لتباهوا به العلماء» أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (٥) حديث «لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال .. الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد (٦) حديث « من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وحديث على بإسناد ضعيف إلا أنه قال «زهداً» وروى ابن حبان فى روضة العقلاء موقوفا على الحسن « من ازداد علما ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعدا » وروى أبو الفتح الأزدى فى الضعفاء من حديث على « من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضبا »

وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ العالم ليعذب عذاباً يطيف به أهل النار استعظاماً لشدة عذابه [(١)] » أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه [(٢)] » وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل ﴿ إنّ المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ وقال تعالى ـ فى قصة بلعام بن باعوراء ـ ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ حتى قال ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) فكذلك العالم الفاجر فان بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات . وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى :

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشدّ عذابا من الجاهل . وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر . فان من لايعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل . فان المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لاعقل له ؟ ومن لايعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لاإيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ؟ فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخر فكيف يعدّ من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟ وفى أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى « إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى ، ياداود لا تسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى ، ياداود إذا رأيت لى طالباً فكن له خادما ؛ ياداود من رد إلى هاربا كتبته جهبذا ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبدا » ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ: إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء

---

(١) حديث « إن العالم يعذب عذابا يطيف به أهل النار . الحديث » لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد « يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى فى النار فتندلق أقتابه . الحديث » متفق عليه باللفظ « الرجل » بدل « العالم »

فهو لص ، وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فان كل محب يخوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت فى بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم ، وكان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: ياأصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية ومآثمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقال الآخر :

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وقيل لبعض العارفين : أترى أن من تكون المعاصى قرة عينه لا يعرف الله ؟ قال لاشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير ولا تظنن أن ترك المال يكفى فى اللحوق بعلماء الآخرة فان الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر « حدثنا » باب من أبواب الدنيا فاذا سمعت الرجل يقول « حدثنا » فانما يقول : أوسعوا لى . ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول : أنا أشتهى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت ، وقال هو وغيره : إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت فاذا لم تشته فحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم فى الدنيا فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثورى : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لاتخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا) وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص . وقال : الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين والمخلص على وجل حتى يدرى ماذا يختم له به . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذى لا يحتاج اليه فى طلب الآخرة ، وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة [1] » وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد . فقال عز وجل فى علماء الدنيا (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا) وقال تعالى فى علماء الآخرة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم) وقال بعض السلف : العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين . وفى معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه . وروى

(١) حديث أبى هريرة « من طلب علما مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضا ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد

أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر إياى يخادعون وبى يستهزئون لأفتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران[١] » ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علماء هذه الأمة رجلان : رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتر به ثمناً فذلك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يوافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علماً فى الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذلك يأتى يوم القيامة ملجما بلجام من نار ينادى مناد على رءوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً فى الدنيا فضنّ به على عباده وأخذ به طمعاً واشترى به ثمنا فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس[٢] » ، وأشد من هذا ماروى « أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثنى موسى صفى الله حدثنى موسى نجى الله حدثنى موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم قال هو هذا الخنزير ، فقال موسى : يارب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل اليه : لو دعوتنى بالذى دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به ؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين » ، وأغلظ من هذا ماروى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا فى رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع[٣] » ، وفى الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفى الصمت سلامة وعلم . ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك فى الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شىء من علمه أو تهوون بشىء من حقه غضب فذلك فى الدرك الثانى من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلا فذلك فى الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتى بالخطأ والله تعالى يبغض المتكلفين فذلك فى الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك فى الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلا وذكراً فى الناس فذلك فى الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فان وعظ عنف وإن وعظ أنف فذلك فى الدرك السابع من النار . فعليك يا أخى بالصمت فبه تغلب الشيطان . وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشى فى غير أرب . وفى خبر آخر « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة[٤] » ، وروى أن الحسن حمل اليه رجل من خراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال . يا أباسعيد هذه نفقة وهذه كسوة ؛ فقال الحسن . عافاك الله تعالى ، ضم اليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من

---

(١) حديث أبي الدرداء « أوحى الله الى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين . الحديث » أخرجه ابن عبد البر بإسناد ضعيف (٢) حديث ابن عباس « علماء هذه الأمة رجلان . . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف (٣) حديث معاذ « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم وابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث « إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة » لم أجده هكذا وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة »

جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هـذا لقى الله تعالى يوم القيامة ولا خـلاق له . وعن جابر رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخـلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة (١) ، وقال تعـالى ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنـا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ الآية ، فعرّف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا . ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو أول عامل به .قال الله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقال تعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقال تعالى فى قصة شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقال تعالى (واتقوا الله واعلموا ـ واتقوا الله واسمعوا) وقال تعـالى لعيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتى عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخيار خيار العلماء (٣) » وقال الأوزاعى رحمه الله : شكت النواويس ما تجد من نـتن جيف الكفار فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتن ممـا أنتم فيه . وقال الفضيـل بن عياض رحمه الله : بلغنى أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات. وقال الشعبى: يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهى عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله ليس فى القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو. وقال مالك ابن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لهـا وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر : لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوب عليه « اقلبنى تعتبر » فقلبته فإذا عليه مكتوب « أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم مالم تعلم » ؟ وقال ابن السماك رحمه الله : كم من مذكر بالله ناس لله ! وكم من مخوف بالله جرىء على الله : وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ! وكم من داع إلى الله فار من الله ! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ! وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لقـد أعربنا فى كلامنا فلم نلحن ولحنا فى أعمالنا فلم نعرب . وقال الأوزاعى : إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال: حدثنى عشرة

---

(١) حديث جابر « لا تجلسوا عند كل عالم .. الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن الجوزى فى الموضوعات

(٢) حديث « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أنس .

(٣) حديث « هلاك أمتى عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء .. الحديث » أخرجه الدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا آخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ، كنا ندرس العلم فى مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا [1] » وقال عيسى عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضى الله عنه : إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق ، وقال عمر رضى الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتى على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفئ مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر فى عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب ! فوالله الذى لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفى التوراة والإنجيل مكتوب : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . وقال حذيفة رضى الله عنه : إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك ، وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين . واعلم أن مثل العالم مثل القاضى وقد قال صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة : قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك فى الجنة وقاض قضى بالجور وهو يعلم أولا يعلم فهو فى النار وقاض قضى بغير ما أمر الله به فهو فى النار [2] » وقال كعب رحمه الله : يكون فى آخر الزمان علماء يزهدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون، ويخوفون الناس ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال ؛ يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، فقيل : يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال للعلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل [3] » وقال سرى السقطى (اعتزل رجل للتعبد كان حريصا على طلب علم الظاهر فسألته فقال : رأيت فى النوم قائلا يقول لى « إلى كم تضيع العلم ضيعك الله » فقلت . إنى لأحفظه فقال « حفظ العلم العمل به » فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : (ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية) وقال الحسن: تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية: وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئا . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا وسيأتى قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم والعالم الذى لا يعمل كالمريض الذى يصف الدواء وكالجائع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها . وفى مثله قوله تعالى ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وفى الخبر « إنما أخاف على أمتى زلة عالم

---

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » علقه ابن عبد البر وأسنده ابن عدى وأبو نعيم والخطيب ــ فى كتاب اقتضاء العلم العمل ــ من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمى موقوفا على معاذ بسند صحيح .

(٢) حديث « القضاة ثلاثة .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٣) حديث « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم . الحديث » فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف

وجدال منافق فى القرآن [١] » ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة المرغب فى الطاعات مجتنباً للعلوم التى يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال . فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا فى وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذى هو مؤاخذ به ، وذلك محض السفه . وقد روى « أنّ رجلا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت فى رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال نعم ، قال: فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : إذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم [٢] » بل ينبغى أن يكون المتعلم من جنس ماروى عن حاتم الأصم ـ تلميذ شقيق البلخى رضى الله عنهما ـ أنه قال له : شقيق منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة ، قال : فما تعلمت منى فى هذه المدّة ؟ قال : ثمانى مسائل ، قال شقيق له : إنا لله وإنا اليه راجعون ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإنى لا أحب أن أكذب ، فقال هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها ، قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر فاذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبى فاذا دخلت القبر دخل محبوبى معى . فقال : أحسنت ياحاتم فما الثانية ؟ فقال : نظرت فى قول الله عز وجل ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانّ الجنة هى المأوى ﴾ فعلمت أنّ قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . الثالثة أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شىء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فكلما وقع معى شىء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً . الرابعة : أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هى لاشىء ثم نظرت إلى قول الله تعالى ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريما . الخامسة : أنى نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عنى . السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله عز وجل (إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً) فعاديته وحده واجتهدت فى أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدوّ لى فتركت عداوة الخلق غيره . السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فعلمت أنى واحد من هذه الدواب التى على الله رزقها فاشتغلت بما لله تعالى علىّ وتركت مالى عنده . الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه ـ وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى

---

(١) حديث « إنما أخاف على أمتى زلة عالم .. الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى الدرداء ، ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين (٢) حديث « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال علمنى من غرائب العلم .. الحديث» رواه ابن السنى وأبو نعيم فى كتاب الرياضة لهما ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا

قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي ، قال شقيق : ياحاتم وفقك الله تعالى فإني نظرت فى علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التى بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام ، ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه فى المطعم والمشرب والتنعم فى الملبس والتجمل فى الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد فى جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل فى جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه وارتفع فى علماء الآخرة حزبه . ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخواص ـ وكان من أصحاب حاتم الأصم ـ قال : دخلت مع حاتم إلى الرى ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلا يريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم: ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل ؟ قال حاتم عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أجيء معك . وكان العليل محمد بن مقاتل ـ قاضي الرى ـ فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقي حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذه الحالة ؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حسناء فوراء واسعة نزهة وإذا بزة وستور فبقي حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه وإذا بفرش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس فقال لا أجلس فقال لعل لك حاجة فقال: نعم، قال: وما هي؟ قال: مسئلة أسألك عنها قال : سل ، قال : قم فاستو جالساً حتى أسألك . فاستوى جالساً قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ فقال : من الثقات حدثوني به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل . قال حاتم ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان فى داره إشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عز وجل المنزلة أكبر : قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت أبالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم بفرعون ونمروذ اول من بنى بالجص والآجر ؟ ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة : أفلا أكون أنا شراً منه ؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا وبلغ أهل الرى ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له : إن الطنافسى بقزوين أكثر توسعاً منه . فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال . رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال : نعم وكرامة ياغلام هات إناء فيه ماء . فأتى به فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : هكذا فتوضأ . فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافسى وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً اربعاً فقال الطنافسى : ياهذا اسرفت . قال له حاتم : فبماذا ؟ قال غسلت ذراعيك اربعاً . فقال حاتم : يا سبحان الله العظيم انا فى كف من ماء أسرفت وأنت فى جميع هذا كله لم تسرف ؟ فعلم الطنافسى

أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ولكن أعجمى وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمى أفرح إذا أصاب خصمى وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسى أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ماأعقله قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه قال له : يا أباعبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أباعبد الله لاتسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيسا ، فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : ياقوم أية مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأين قصررسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلى فيه ؟ قالوا : ماكان له قصر إنما كان له بيت لاطئ بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا : ماكان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ؛ قال حاتم : ياقوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا . هذا العجمى يقول هذه مدينة فرعون ، قال الوالى : ولم ذلك ؟ قال حاتم : لاتعجل على أنا رجل أعجمى غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصر . . . وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ فأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر ؟ فخلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى . وسيأتى من سيرة السلف فى البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك فى مواضعه .

والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بحرام ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب فى الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى من المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخر هى محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاض فى الدنيا لا يسلم منها ألبتة ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لايبالغ فى ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم [1] ونزع خاتم الذهب فى أثناء الخطبة [2] إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلى كتب إلى مالك ابن أنس رضى الله عنهما « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين ، من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطىء وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطى وارتحل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك ؛ فاتق الله تعالى يامالك وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة منى كتابا مااطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام » ، فكتب إليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك ابن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلى كتابك فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، فأما ماذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن

---

(١) حديث « نزع القميص المعلم » متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث « نزع الخاتم الذهب فى أثناء الخطبة » متفق عليه من حديث ابن عمر .

ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعا ومثل مالك فى منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف فى مثل هذه النصيحة فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لايحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات وأما غيره فلا يقدر عليه فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية وخاصية علماء الله تعالى الخشية وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر . ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلايدخل عليهم ألبتة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدى السلاطين . والمخالط لايخلو عن تكلف فى طيب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدرهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف فى كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح أو أن يطمع فى أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتى فى كتاب الحلال والحرام مايجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين ومالا يجوز من الإدرار والجوائز وغيرها . وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقال صلى الله عليه وسلم « من بدا جفا ـ يعنى من سكن البادية جفا ـ ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع أبعده الله تعالى . قيل : أفلا نقاتلهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لاماصلوا [2] » وقال سفيان : فى جهنم واد لايسكنه إلا القراء الزائرون للملوك . وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هى ؟ قال : أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ماليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى مالم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم [3] » رواه أنس . وقيل للأعمش : ولقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك فقال : لاتعجلوا ثلث يموتون قبل الإدراك وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقى لايفلح منه إلا القليل . ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص . وقال الأوزاعى ما من شىء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء [4] » وقال مكحول الدمشقى رحمه الله ، من تعلم القرآن وتفقه فى الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه وطمعا فيما لديه خاض فى بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ماأسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلايوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ؛ إذ مادخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ماألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافا مع أنى لاآخذ منه شيئا ولاأشرب له شربة ماء . ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بنى إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق

---

(١) حديث « من بدا جفا .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس

(٢) حديث « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة

(٣) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله .. الحديث » أخرجه العقيلى فى الضعفاء ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٤) حديث « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم. وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم فى الإسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال عبد الله بن المبارك عنى به سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ـ قال وكان لا يغشى السلاطين وينفر عنهم . فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الإسلام فلو أتيتهم ، فقال : يابنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ؛ قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالا قال ، يابنى لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا قال الحسن : خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان . وفى هـذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لايسلم من النفاق ألبتة وهو مضاد للإيمـان . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لاتصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه : أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم مايزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ويخوض فى الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين . وكان يقال : العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا : وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشر على بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة . هذا فى عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أزهد أهل زمانه ! فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستتب طلب غيرهم ومخالطته ؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثورى وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما لميلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين منها أن لايكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزاً ماوجد إلى الخلاص سبيلا . فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لاأدرى ! وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفى الخبر « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى [1] » قال الشعبى : « لاأدرى » نصف العلم . ومن سكت حيث لايدرى لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم . كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه ؛ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل مايستفتونه لمجنون ، وقال : جنة العالم « لاأدرى » فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس شىء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول : انظروا إلى هذا سكوته أشد على من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ؛ أى لايتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا فإن اضطروا أجابوا وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام . ومر على وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال : هذا يقول اعرفونى . وقال بعضهم : إنمـا العالم الذى إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون

---

(١) حديث « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى » أخرجه الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا إلى جهنم . وقال أبو حفص النيسابورى : العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت ؟ وكان إبراهيم التيمى إذا سئل عن مسئلة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى حتى احتجتم إلى . وكان أبو العالية الرياحى وإبراهيم بن أدهم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير فإذا كثروا انصرفوا . وقال صلى الله عليه وسلم « ماأدرى أعزير نبى أم لا ؟ وماأدرى أتبع ملعون أم لا ؟ وماأدرى ذو القرنين نبى أم لا ؟ (١) » ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير البقاع فى الأرض وشرها قال « لاأدرى » حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال « لا أدرى » إلى أن أعلمه الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق (٢) » وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من يقول « لاأدرى » أكثر ممن يقول « أدرى » منهم سفيان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل ابن عياض وبشر بن الحرث . وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر : كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو فى غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر ؛ هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوبا والمطلوب مهروبا عنه ؟ ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مسندا عن بعضهم . أنه قال : لايفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء ؛ الإمامة والوصية والوديعة والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما وأشدهم دفعا لها أورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى خمسة أشياء : قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة : أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى (٣) » وقال تعالى ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من أهل الكوفة فى المنام فقال : مارأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال : ماوجدناه شيئا وماحمدنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتى فى مسئلة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر . فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة (٤) » وقيل العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب ، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون . وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يغترف منها ، ومثل بشر بن الحرث مثل بئر عذبة مغطاة لايقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم

---

(١) حديث « ما أدرى أعزير نبى أم لا .. الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدرى حتى نزل جبريل .. الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر (٣) حديث « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاث . . الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذى حديث غريب (٤) حديث « إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا .. الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث ابن خلاد بإسناد ضعيف

وفلان متكلم وفلان أكثر كلاما وفلان أكثر عملا ، وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل : إذا كثر العلم قل الكلام وإذا كثر الكلام قل العلم وكتب سلمان إلى أبى الدرداء رضى الله عنهما ـ وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . يا أخى بلغنى أنك قعدت طبيبا تداوى المرضى ، فانظر فان كنت طبيبا فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطبباً فالله الله لاتقتل مسلما . فكان أبو الدرداء يتوقف بعدذلك إذا سئل وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة ابن زيد وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال : ماعندى إلا مارويت ، فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثا حديثا ، فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه ! فأخذ الصحابى كفا من حصى ورماهم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فان المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تفى بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تتفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة مع حضور القلب بصافى الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ، وكم من مقتصر على المهم فى التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ماتحار فيه عقول ذوى الألباب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم (٢) » وفى بعض الكتب السالفة : يابنى إسرائيل لاتقولوا العلم فى السماء من ينزل به إلى الأرض ولا فى تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر به ، العلم مجعول فى قلوبكم تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين وتخلقوا لى بأخلاق الصديقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم . وقال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله : خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء . ثم تلا قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به (٣) » . . . الحديث ، فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة اليه . وكذلك فى علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فان كل علم من هذه العلوم بحر لايدرك عمقه وإنما يخوضه كل طالب بقدر مارزق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل وفى وصف هؤلاء العلماء قال على رضى الله عنه فى حديث طويل . القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع اتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا

---

(١) حديث « مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء » أخرجه البخارى من حديث أبي جحيفة

(٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعفه (٣) حديث « لايزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصراً » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « سمعه وبصره » وهو فى الحلية كما ذكره المؤلف من حديث انس بسند ضعيف

بنور العلم ولم يلجئوا الى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق ، والعلم دين يدان به تكتسب به الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته ؛ العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومنفعة المال تزول بزواله مات ، خزان الأموال وهم احياء والعلماء احياء باقون مابقى الدهر ، ثم تنفس الصعداء وقال . هاه إن ههنا علما جما لو وجدت له حملة « بل اجد طالبا غير مأمون يستعمل آلة الدين فى طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على اوليائه ويستظهر بحجته على خلقه ، او منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لابصيرة له لاذا ولا ذاك ؛ أو منهوما باللذات سلس القياد فى طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ؛ اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكم وأين أولئك ؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً أعيانهم مفقودة وامثالهم فى القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم : هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله فى أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم فهذا الذى ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذى يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة .

ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليقين الإيمان كله[١]» فلا بد من تعلم علم اليقين أعنى أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين[٢] » ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم: ما من آدمى إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة[٣] » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من أقل ما أوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال مافاته من قيام الليل وصيام النهار[٤] » وفى وصية لقمان لابنه يابنى لايستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه ، وقال يحيى بن معاذ إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين ، وأراد به اليقين ، وقد أشار الله تعالى فى القرآن إلى ذكر الموقنين فى مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات « فان قلت . فما معنى اليقين وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولا ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فان مالا تفهم صورته لايمكن طلبه ؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات ، الأول أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن

---

(١) حديث « اليقين الإيمان كله » اخرجه البيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث « تعلموا اليقين » اخرجه ابو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلا وهو معضل رواه ابن أبى الدنيا فى اليقين من قول خالد بن معدان (٣) حديث (قيل له . رجل حسن اليقين كثير الذنوب) اخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أنس باسناد مظلم (٤) حديث (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . . الحديث) لم أقف له على أصل . وروى ابن عبد البر من حديث معاذ (ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحلم) الحديث

شخص معين ، أن الله تعالى يعاقبه أم لا ؟ وهو مجهول الحال عندك فإن نفسك لاتميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكا . الثاني . أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لايمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح . ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب فى باطنه وسريرته فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظنا . الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها إذ رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله . الرابع المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فاذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا عند هؤلاء ، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل فى الوجود شيء هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس وليس العلم بوجود شيء قديم أزلى ضرورياً مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال ، فان هذا أيضا ضرورى لحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على الارتجال والبديهة ، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له . إن لم يكن فى الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فإن كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمؤدى إلى المحال محال ، فيلزم فى العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة . وهى أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة فان كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الكل حادثا فهو محال إذ يؤدى إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول . وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ماذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر ، كالعلم بوجود مكة أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لاتفاوت فى نفى الشك . الاصطلاح الثانى اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل : حتى يقال . فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لاشك فيه ؛ ويقال : فلان قوى اليقين فى إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لايأتيه ، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع سمى ذلك يقينا ولا شك فى أن الناس يشتركون فى القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لا يلتفت اليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعا لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ، ولذلك قال بعضهم . مارأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من

الموت ، وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ونحن إنما أردنا بقولنا « إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين » بالمعنيين جميعا وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . فاذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا « إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام » بالقوة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلاء ، فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لاتتناهى وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني وأما التفاوت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضاً ، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر - أعنى الاصطلاح الثاني- وفيما انتفى الشك أيضا عنه لاسبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلا وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك في الأمرين جميعا فمستندهما جميعا التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة فانه ليس وضوح مالاح له بدليل واحد كوضوح مالاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علما من فلان ، أي معلوماته أكثر . ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين في جميع ماورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين في بعضه * فإن قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاءه وخفاءه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفيماذا يطلب اليقين فإني مالم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟ فاعلم أن جميع ماورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقه المعلومات التي وردت بها الشرائع فلا مطمع في إحصائها ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها . فمن ذلك : التوحيد . وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لاحكم لها فالمصدق بهذا موقن ، فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين ، فان غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ونزل الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع فانه لايشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقنا بالمعنى الثاني وهو الإشراف ، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والنجوم والجمادات والنبات والحيوان وكل مخلوق فهي مسخرات بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقنا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ، فهذا أحد أبواب اليقين . ومن ذلك : الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ماقدر له سيساق اليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا في الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما فاته ، وأثمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة . ومن ذلك : أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع ، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبا للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها

وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصى قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها ؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات الخطرات والمبالغة فى التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ . ومن ذلك ؛ اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك فى كل حال ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك وأما بالمعنى الثانى وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان فى خلوته متأدباً فى جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لايزال مطرقا متأدباً فى جميع أعماله متماسكا محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكالئة أشد من مبالغته فى تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام فى اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة فاليقين فى كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق فى القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه ، وسيأتى ذلك فى ربع المنجيات إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف فى معنى اللفظ الآن . ومنها أن يكون حزينا منكسرا مطرقا صامتا يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع ، وقد قيل ماألبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع فى سكينة فهى لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء وأما التهافت فى الكلام والتشدق والاستغراق فى الضحك والحدة فى الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التسترى رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لابأيام الله وهم المفتون فى الحلال والحرام وهذا العلم لايورث الخشية ، وعالم بالله تعالى لابأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين ، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم ، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه . وقال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولاتكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع . وفى الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفى الخبر « إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه ، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء ، أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة ، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة [1] » وقال الحسن : الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله . وقال بشر بن الحارث من طلب

---

(١) حديث « إن من خيار أمتى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذابه .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان

الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فإنه ممقوت فى السماء والأرض . ويروى فى الإسرائيليات أن حكيما صنف ثلثمائة وستين مصنفا فى الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقا ولم تردنى من ذلك بشىء وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا . فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة فى الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له الآن وفقت لرضاى . وحكى الأوزاعى رحمه الله عن بلال بن سعد : أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله منه وينظر إلى علما الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطى . وروى أنه قيل « يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله تعالى ، قيل : فأى الأصحاب خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيته ذكرك ، قيل : فأى الأصحاب شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : صاحب إن نسيت لم يذكرك وإن ذكرت لم يعنك ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال : أشدهم لله خشية ، قيل : فأخبرنا بخيارنا نجالسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : الذين إذا رؤوا ذكر الله ، قيل : فأى الناس شر ؟ قال : اللهم غفرا . قالوا : أخبرنا يارسول الله قال: العلماء إذا فسدوا [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أمانا يوم القيامة أكثرهم فكرا فى الدنيا وأكثر الناس ضحكا فى الآخرة أكثرهم بكاء فى الدنيا وأشد الناس فرحا فى الآخرة أطولهم حزنا فى الدنيا [(٢)] » وقال على رضى الله عنه فى خطبة له : ذمتى رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علما أغار به فى أغباش الفتنة سماه أشباه له من الناس وأرذالهم عالما ولم يعش فى العلم يوما سالما ، تكثر واستكثر فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلما لتخليص ما التبس على غيره ، فإن نزلت به إحدى المهمات هيألها من رأيه حشو الرأى فهو من قطع الشبهات فى مثل نسج العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب ؟ ركاب جهالات خباط عشوات لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، تبكى منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لا ملىء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثلات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال على رضى الله عنه : إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب . وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحكة مج من العلم مجة . وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المعلم : العقل والأدب وحسن الفهم . وعلى الجملة فالأخلاق التى ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وماينبغى أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى ان يقف عنده ينثره نثر الدقل [(٣)] . وفى خبر آخر بمثل معناه : كنا أصحاب رسول الله صلى الله

---

(١) حديث « قيل يارسول الله أى الأعمال افضل » قال . اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله . . الحديث » لم أجده هكذا بطوله ، وفى زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلا « سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل . قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » وللدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا « ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء » وقد تقدم . (٢) حديث « إن أكثر الناس أمنا يوم القيامة أكثرهم خوفا فى الدنيا . . الحديث » لم أجد له أصلا (٣) حديث ابن عمر « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث » أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى

عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وستأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا ؟ فذلك حظهم (١) . وفى لفظ أولئك شرار هذه الأمة . وقيل خمس من الأخلاق هى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عزوجل : الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد ، فأما الخشية فمن قوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وأما الخشوع فمن قوله تعالى ﴿ خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ وأما التواضع فمن قوله تعالى ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ وأما الزهد فمن قوله تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقيل له ما هذا الشرح ؟ فقال « إن النور إذا قذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح » قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله (٢) » ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر فإن أصل الدين التوقى من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن فى معرفة مايفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة ، وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات فى الحكومات والأقضية ويتعبون فى وضع صور تنقضى الدهور ولاتقع أبدا ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لالهم ، وإذا وقعت كان فى القائمين بها كثرة ، ويتركون مايلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار فى خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه . وشرها فى أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لاينتفع فى الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين ، ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك وكان أكثر كلامه فى خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس ؛ وقد قيل له : ياأباسعيد إنك تتكلم بكلام لايسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لايسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لايسبقنى علمه (٣) وقال مرة : فعلمت أن من

---

(١) حديث « كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف (٢) حديث « لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود

(٣) حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر .. الحديث » أخرجاه مختصراً .

لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفى لفظ آخر : كانوا يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا ؟ يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول يارسول الله مايفسد كذا وكذا ؟ فلما رآنى أسأله عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم . وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر رضى الله عنه يسأل عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك ، وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر . فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا وإذا تعرض العالم لشىء منه استغرب واستبعد وقيل هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق ؟ ويرون أن التحقيق فى دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم فهم على مهـل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت ، ومتى تكثر الرغبة فى هـذا الطريق ؟ ولذلك قيل : إنه كان فى البصرة مائة وعشرين متكلما فى الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم فى علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم ـ سهل التسترى والصبيحى وعبد الرحيم ـ وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يبذل للعموم فأمره قريب . ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فى تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصا على فهم أسراره فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وفعله لا بد وأن يكون لسر فيه فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ؛ فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار . ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار فى نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبى بن كعب ثم خالفهما فى الفقه

(١) حديث ابن عباس « ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه الطبرانى من حديثه برفعه بلفظة « من قوله ويدع »

والقراءة جميعا . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ منه ونترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال : وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرائن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل فى الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة مايحرسهم فى الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضى فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد . بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شىء منها فى زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضى الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ؛ بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصحيف القرآن فى مصحف وقالوا : كيف نفعل شيئاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا : نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم ، حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفا من تخاذل الناس وتكاسلهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه فى كلمة أو قراءة من المتشابهات فانشرح صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك فجمع القرآن فى مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك فى تصنيفه الموطأ ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم وقيل : أول كتاب صنف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة . ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثورى . ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض فى الجدال والغوص فى إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين فى الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالما والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما ، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطويا ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم ؛ فلان أعلم أم فلان ؟ يقولون : فلان أكثر علما وفلان أكثر كلاما . فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت . ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم وليكن حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم اكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة ؟ أم كان فى الخوف والحزن والتفكر المجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك

من علوم الباطن ؟ واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم لطريق السلف فنهم أخذ الدين . ولذلك قال على رضى الله عنه « خيرنا أتبعنا لهذا الدين » لما قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغى أن يكترث بمخالفة أهل العصر فى موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الناس رأوا رأيا فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه . ولذلك قال الحسن : محدثان أحدثا فى الإسلام : رجل ذو رأى سيئ زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار . وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه وصاحب هوى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتفى آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا . وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسندا أنه قال : « إنما هما اثنتان الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى رسول الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ألا لايطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم ، ألا كل ماهو آت قريب ، ألا إن البعيد ما ليس بآت[1] » وفى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالط أهل الفقه والحكم وجانب أهل الزلل والمعصية ، طوبى لمن ذل فى نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة[2] » وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : حسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضى الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق فإن أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة رضى الله عنهم إذ من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وإنفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجاج . فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا . وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات . ومن ذلك التلحين فى القرآن والأذان . ومن ذلك التعسف فى النظافة والوسوسة فى الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة فى نجاسة الثياب مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك . ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أنتم اليوم فى زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول : تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه

---

(١) حديث ابن مسعود « إنما هما اثنتان الكلام والهدى » . الحديث » أخرجه ابن ماجه

(٢) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه » . الحديث » أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن على بسند ضعيف والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره والطبرانى والبيهقى من حديث ركب المصرى وسط الحديث وكلها ضعيفة

(ومعناه أنهم كانوا ينظرون فى دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان فحشه ظاهرا) وكان هشام بن عروة يقول : لاتسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله يقول : لا ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما فى نفسه ، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال : يا مروان ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست بدعة إنها خير مما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير مما أعلم أبداً والله لاصليت وراءك اليوم ! وإنما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر[1] » وفى الحديث المشهور « من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد [2] » وفى خبر آخر « من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يا رسول الله وما غش أمتك ؟ قال : أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها [3] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته [4] » ومثال الجانى على الدين بإبداع مايخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك فى قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره فى خدمة معينة ، وذلك قد يغفر له فأما فى قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ماتكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع إليه التالى [5] » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الضلالة لها حلاوة فى قلوب أهلها قال الله تعالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ فكل ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو . وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده فى وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئا وقد أتعبونا ! فقال : إنكم لاتقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا : مارأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشىء بعد الشىء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ! فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم

---

(١) حديث « كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا » أخرجه الطبرانى من حديث البراء ونحوه فى يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ، رواه فى الصغير من حديث سعد القرظى « كان إذا خطب فى العيدين خطب على قوس وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجه بلفظ « كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس .. الحديث »
(٢) حديث « من أحدث فى ديننا ما ليس فيه فهو رد » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « فى أمرنا ما ليس منه » وعند أبى داود « فيه » (٣) حديث « من غش أمتى فعليه لعنة الله .. الحديث » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جدا (٤) حديث « إن لله ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته » لم أجد له أصلا (٥) حديث « عليكم بالنمط الأوسط . . الحديث » أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث موقوفا على على بن أبى طالب ولم أجده مرفوعا .

حسنات ، قال : لجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها دينا لايستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاءوا . فإن قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك ؟ فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لايعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة ـ كما يكون فى المنام ـ وهذا أعلى الدرجات وهى من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول ، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التسترى رضى الله عنه : إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة . وكل عالم خاض فى الدنيا فلا ينبغى أن يصغى إلى قوله بل ينبغى أن يتهم فى كل مايقول لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ويدفع مالا يوافق محبوبه ، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العامى العاصى معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ماهو مشتغل به من العلوم التى هى وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر ؛ بل لايزال مستمرا عليه إلى الموت . وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذى الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم ـ كما سيأتى فى كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى ـ ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشى : ما ظنك بمن بقى لا يجد أحدا يذكر الله تعالى معه إلا كان آثما أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لايجد أهله ؟ ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علما أو يستفيده ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معينا له على ذلك وردءا وظهيرا ومهيئا لأسبابه كالذى يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ، ولذلك لايرخص له فى البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق . فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ؛ فكن أحد رجلين إما متصفا بهذه الصفات أو معترفا بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين . نعوذ بالله من خدع الشيطان ، فبها هلك الجمهور . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور .

الباب السابع

فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه — بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف فى إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة ؟ أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الشيخ فى قومه كالنبي فى أمته[1] » ، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التى هى ثمرة عقله . ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطنا فى نفسه بطون العقل فشرف العقل ما يدرك بالضرورة ؛ وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات فى ذكر شرفه وقد سماه الله نورا فى قوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة﴾ وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ وقال سبحانه ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس﴾ وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنىء المنزلة رث الهيئة ، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نطوقا فالقردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه ، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياك فإنهم من الخاسرين[2] » . وقال صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال الله عز وجل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب[3] » . فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟ فاعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة ، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضى الله عنه قال « أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور

الباب السابع فى العقل

(١) حديث « الشيخ فى قومه كالنبي فى أمته » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمى من حديث أبى رافع بسند ضعيف .

(٢) حديث « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل .. الحديث » أخرجه داود بن المحبر أحد الضعفاء فى كتاب العقل من حديث أبى هريرة ؛ وهو فى مسند الحارث بن أبى أسامة عن داود

(٣) حديث « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين

الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم [١] » . وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس [٣] » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار فى النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير [٤]) وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارى « ماالسودد فيكم ؟ قال : العقل ، قال : صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت ، ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السودد ؟ فقال : العقل [٥] » وعن البراء ابن عازب رضى الله عنه قال : كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شىء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا [٦] » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون : فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم لكم به ، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم [٧] » وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا [٨] » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفى الآخرة ؟ قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون [٩] » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شىء مطية ومطية المرء العقل ولكل شىء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب

---

(١) حديث أنس « أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فى الثناء فقال كيف عقل الرجل .. الحديث » أخرجه ابن المحبر فى العقل بتمامه والترمذى الحكيم فى النوادر مختصرا (٢) حديث عمر « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل .. الحديث » أخرجه ابن المحبر فى العقل وعنه الحارث بن أبى أسامة (٣) حديث « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله .. الحديث » أخرجه ابن المحبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذى مختصر دون قوله « ولا يتم » من حديث عائشة وصححه (٤) حديث أبى سعيد « لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله .. الحديث » أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث (٥) حديث عمر أنه قال لتميم الدارى « ما السودد فيكم ، قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث » أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث (٦) حديث البراء « كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شىء مطية .. الحديث » أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث

(٧) حديث أبى هريرة « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان .. الحديث » أخرجه ابن المحبر (٨) حديث البراء بن عازب « جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله بالعقل .. الحديث » أخرجه ابن المحبر كذلك وعنه الحارث فى مسنده ، ورواه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر (٩) حديث عائشة « قالت يارسول الله بأى شىء يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل .. الحديث » أخرجه ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه

عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرىء عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصدّيقين الذى ينسبون إليه ويذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب فى طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « أتمكم عقلا أشدّكم لله تعالى خوفا وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا وإن كان أقلكم تطوعا [٣] » .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا فى حدّ العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم . والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ـ كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدّة وما يجرى هذا المجرى فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حدّ واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه ـ فالأول : الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذى استعدّ به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل : إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسوّى بين الإنسان والحمار فى الغريزة والإدراكات الحسية . فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق فى الإنسان علوما وليس يخلقها فى الحمار والبهائم لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد فى الحياة ، ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق فى الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة . فإنه لو قدر الحمار جمادا ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد . وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد فى الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الإنسان البهيمة فى إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التى تفارق غيرها من الأجسام فى حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهى الصقالة . وكذلك العين تفارق الجبهة فى صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغى أن تفهم هذه الغريزة . الثانى : هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد ، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضا صحيح فى نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلا ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم . الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال

(١) حديث ابن عباس « لكل شىء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل .. الحديث » أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث

(٢) حديث « إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب فى طاعة الله . . الحديث » أخرجه ابن المحبر من حديث ابن عمر ، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف (٣) حديث « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا .. الحديث » أخرجه ابن المحبر من حديث أبى قتادة

إنه غبي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا . الرابع : أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضا من خواص الإنسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان ، فالأول : هو الأس والسنخ والمنبع . والثانى : هو الفرع الأقرب إليه . والثالث: فرع الأول والثانى ؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب والرابع : هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب . ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل [١] » والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك [٢] » وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء رضى الله عنه « ازدد عقلا تزدد من ربك قربا ، فقال : بأبى أنت وأمى ! وكيف لى بذلك ؟ فقال : اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز [٣] » وعن سعيد بن المسيب « أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل ؟ قالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا : أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته [٥] » ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك فى الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشىء بثمرته فيقال : العلم هو الخشية والعالم من يخشى الله تعالى . فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول ، والصحيح وجودها بل هى الأصل . وهذه العلوم كأنها مضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشىء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت ، ومثاله الماء فى الأرض فإنه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شىء جديد ، وكذلك الدهن فى اللوز ، وماء الورد فى الورد ولذلك قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

---

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » اخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة (٢) حديث « إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث على « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربهم عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب » وإسناده ضعيف (٣) حديث « ازدد عقلا تزدد من ربك قربا .. الحديث » قاله لأبى الدرداء أخرجه ابن المحبر ومن طريقه الحارث ابن أبى أسامة والترمذى الحكيم فى النوادر (٤) حديث ابن المسيب « أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله من أعلم الناس فقال العاقل .. الحديث » أخرجه ابن المحبر (٥) حديث « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته » أخرجه ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلا وفيه قصة

ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فإنهم انقسموا فى إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقر وإلى جاحد ولذلك قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ماهى عليه أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك . ثم لما كان الإيمان مركوزاً فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل (لعلهم يتذكرون ـ وليتذكر أولوا الباب ـ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد فكأن التذكر ضربان ؛ أحدهما . أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه لكن غابت بعد الوجود . والآخر : أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه[1] السماع والتقليد دون الكشف والعيان . ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات ويتعسف وفى تأويل التذكر بإقرار النفوس أنواعا من التعسفات ويتخايل إليه فى الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار فيقول : ما لهذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له : إنها فى مواضعها وإنما الخلل فى بصرك . فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وسمى ضده عمى فقال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية . وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها .

بيان تفاوت النفوس فى العقل

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق . والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى : وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم فى مكانين وكون الشىء الواحد قديما حادثا وكذا سائر النظائر وكل مايدركه إدراكا محققا من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها ، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه . فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا ، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقدم من يساويه فى العقل على ذلك

(١) قوله « يستروجه » من الرواج أى يكون السماع والتقليد رائجا عنده فتأمل اه مصححه

إذا لم يكن طبيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة لكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات وكسرها . وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصى وأعنى به العالم الحقيقى دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان . فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضاً فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لامحالة أشد . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة وإما تفاوتا فى الممارسة ، فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومبادى إشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ؛ ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس . وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عز وجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر فى الصبى عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات . ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل ، ومن ظن أن عقل النبى صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؟ كما قال تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام ، وعن مثله عبر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزى به [1] » وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحى الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع ، ودرجات الوحى كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة . ولا تظن أن معرفة درجات الوحى تستدعى منصب الوحى إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها فالعلم شىء ووجود المعلوم شىء آخر فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبياً ولا ولياً ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى مالا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض فى صفاتها فكذلك اختلاف النفوس فى غريزة العقل . ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل : ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت « يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟

---

(١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه . . الحديث » أخرجه الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه ، والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف

قال : نعم : العقل ، قالوا : ومابلغ من قدره ؟ قال : هيهات لايحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا ، قال الله عز وجل : فإنى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك [1] » فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية إذ كان لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه وإن ذم فما الذى بعده يحمد ؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالعقل المذموم الذى لايوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما ولا يلتفت إلى من يقول : إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل . فإنا نريد بالعقل : مايريده بعين اليقين ونور الإيمان ، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور : وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ ؛ فهذا القدر كاف فى بيان العقل والله أعلم .

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة التى هى أحد مبانى الإسلام

فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطش الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعرف إياهم أنه فى ذاته واحد لاشريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لاند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلى لابداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لانهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لاانصرام له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال

---

(١) حديث ابن سلام « سئل النبى صلى الله عليه وسلم » فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يارب هل خلقت شيئا أعظم من العرش الحديث أخرجه ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً

لايقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآحال بل ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾

التنزيه : وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل والأجسام ولافى التقدير ولا فى قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ولا هو مثل شيء . وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات . وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته . وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لاتزيده قربا إلى العرش والسماء كما لاتزيده بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد (وهو على كل شيء شهيد) إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل فى شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال . وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم .

الحياة والقدرة : وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لايعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون فى قبضته . وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لايشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، لاتحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر فى جو الهواء ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال لابعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال ،

الإرادة : وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلايجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أوضر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته . فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن لايخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولافلتة خاطر بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد لاراد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته . ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أويسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك . وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها

مريدا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير . دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى . ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق . ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لاتشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

الكلام : وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لايقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأفعال : وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته لايقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره . ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق فى الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما . وأنه عزوجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لابحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لايجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق . وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

(معنى الكلمة الثانية) وهى الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبى الأمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر . ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول « لا إله إلا الله » مالم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك « محمد رسول الله » وألزم الخلق تصديقه فى جميع ماأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة . وأنه لايتقبل

إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد فى قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له : من ربك ومادينك ومن نبيك [١] ؟ وهما فتانا القبر [٢] وسؤالهما أول فتنة بعد الموت [٣] . وأن يؤمن بعذاب القبر [٤] وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على مايشاء . وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقا لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله [٥] . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار [٦] . وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط [٧] من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء [٨] فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر [٩] . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش فى الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل

كتاب قواعد العقائد

(١) حديث « سؤال منكر ونكير » أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة « إذا قبر الميت — أو قال أحدكم — أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير » وفى الصحيحين من حديث أنس « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه .. الحديث » (٢) حديث « إنهما فتانا القبر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر : أترد علينا عقولنا ؟ .. الحديث » (٣) حديث « إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت » لم أجده (٤) حديث « عذاب القبر » أخرجاه من حديث عائشة « إنكم تفتنون أو تعذبون فى قبوركم . الحديث » ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة « استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر » (٥) حديث « الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طباق السموات والأرض » أخرجه البيهقى فى البعث من حديث عمر « قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان ... الحديث » وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ، ولأبى داود من حديث عائشة « أما فى ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ » زاد ابن مردويه فى تفسيره » قالت عائشة : أى حتى قد علمنا الموازين هى الكفتان فيوضع فى هذه الشيء ويوضع فى هذه الشيء فترجح إحداهما وتخف الأخرى » والترمذى وحسنه من حديث أنس « واطلبنى عند الميزان » ومن حديث عبد الله بن عمرو فى ! حديث البطاقة « فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة .. الحديث » وروى ابن شاهين فى كتاب السنة عن ابن عباس « كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها » (٦) حديث « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر » أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة « ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم » ولهما من حديث أبى سعيد « ثم يضرب الجسر على جهنم » زاد مسلم « قال أبو سعيد : إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف » ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب ، والبعث من حديث أنس وضعفه ؛ وفى البعث من رواية عبد الله بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود « الصراط كحد السيف » وفى آخر الحديث مايدل على أنه مرفوع

(٧) حديث « الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون » أخرجه مسلم من حديث أنس فى نزول ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ « هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم » ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد « أنا فرطكم على الحوض » ومن حديث ابن عمر « أمامكم حوض كما بين جرباء وأذرح » وقال الطبراني « كما بينكم وبين جرباء وأذرح » وهو الصواب . وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبى ذر وجابر ابن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء (٨) حديث « من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء » من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حديث أنس « فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » وفى رواية لمسلم « أكثر من عدد النجوم » (٩) حديث « فيه ميزابان يصبان من الكوثر » أخرجه مسلم من حديث ثوبان « يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق

الجنة لغير حساب وهم المقربون فيسأل الله تعالى[١] من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين[٢] ويسأل المبتدعة عن السنة[٣] ويسأل المسلمين عن الأعمال[٤]. وأن يؤمن بأخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لايبقى فى جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد فى النار موحد[٥]. وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان[٦]. وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم[٧]. وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثنى عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين[٨] فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات فى الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى.

---

(١) حديث «الايمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه الى مناقش فى الحساب ومسامح فيه والى من يدخل الجنة بغير حساب» أخرجه البيهقى فى البعث من حديث عمر «فقال يارسول الله ما الايمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت والبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله .. الحديث» وهو عند مسلم دون ذكر «الحساب» وللشيخين من حديث عائشة «من نوقش الحساب عذب قالت قلت يقول الله تعالى ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ قال ذلك العرض» ولهما من حديث ابن عباس «عرضت على الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ولمسلم من حديث أبى هريرة وعمران بن حصين «يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب» زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم «وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا» زاد أحمد من حديث عبدالرحمن بن أبى بكر بعده: هذه الزيادة فقال «فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى هكذا — وفرج عبد الرحمن بن أبى بكر بين يديه — . الحديث» (٢) حديث «سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين» أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد «يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته ... الحديث» ولابن ماجه «يجىء النبى يوم القيامة ... الحديث» وفيه «فيقال هل بلغت قومك ... الحديث» (٣) حديث «سؤال المبتدعة عن السنة» رواه ابن ماجه من حديث عائشة «من تكلم بشىء من القدر سئل عنه يوم القيامة» ومن حديث أبى هريرة «ما من داع يدعو إلى شىء الا وقف يوم القيامة لازما لدعوة ما دعا إليه وان دعا رجل رجلا» وإسنادهما ضعيف (٤) حديث «سؤال المسلمين عن الأعمال» أخرجه أصحاب السنن، من حديث أبى هريرة «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته .. الحديث» وسيأتى فى الصلاة.

(٥) حديث «إخراج الموحدين من النار حتى لايبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه» أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة فى حديث طويل «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله الا الله. الحديث» (٦) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان» أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» وقد تقدم فى العلم. وللشيخين من حديث أبى سعيد الخدرى «من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من الايمان فأخرجوه» وفى رواية «من خير» وفيه «فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط .. الحديث» (٧) حديث «أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على» أخرجه البخارى من حديث ابن عمر قال «كنا نخير بين الناس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان» ولأبى داود «كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى أفضل أمة النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم» زاد الطبرانى «ويسمع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ولا ينكره» (٨) حديث «إحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم» أخرجه الترمذى من حديث عبد الله ابن مغفل «الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضا بعدى» وللشيخين من حديث أبى سعيد «لا تسبوا أصحابى» وللطبرانى من من حديث ابن مسعود «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا»

الفصـــل الثـانى

فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أنّ ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئاً فشيئاً ؛ فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك مما يحصل فى الصبى بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض ؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف فى الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه فلا بد من تقويته وإثباته فى نفس الصبى والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل . وليس الطريق فى تقويته وإثباته إن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه . ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإنّ ما يشوّشه الجدل أكثر مما يمهده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب . والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانا فناهيك بالعيان برهانا . فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ لاتحركه الدواهى والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليدا ؛ إذ لا فرق فى التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شىء والاستدلال بالنظر شىء آخر بعيد عنه . ثم الصبى إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا . وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصدّيقين والمقربين ، وإليه الإشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حيث فضل به الخلق . وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفى الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه (مسألة) فإن قلت : تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو

مباح أو مندوب اليه ؟ فاعلم أنّ للناس فى هذا غلوا وإسرافا فى أطراف فمن قائل إنه بدعة أو حرام وأنّ العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ، ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى . وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعى رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد ـ وكان من متكلمى المعتزلة ـ يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشىء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه ، وقال أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام . وحكى الكرابيسى « أنّ الشافعى رضى الله عنه سئل عن شىء من الكلام فغضب وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله ، ولما مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له : من أنا ؟ فقال : حفص الفرد ، لاحفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه . وقال أيضا لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد ؟ وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى ؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . قال الزعفرانى : قال الشافعى حكمى فى أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام ؟ وقال أحمد بن حنبل : لايفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل، وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ! وقال احمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة . وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ؛ فقال بعض أصحابه ـ فى تأويله ـ أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق . وقال الحسن : لاتجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون[١] » أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم مايأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستنجاء[٢] ، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم[٣] ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا[٤] عن القدر . وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم . وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة . وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التى لم تعهدها الصحابة

---

(١) حديث « هلك المتنطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء » أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسى (٣) حديث « ندبهم الى علم الفرائض وأثنى عليهم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة (تعلموا الفرائض وعلموها الناس ... الحديث) وللترمذى من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت

(٤) حديث (نهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا) تقدم فى العلم

رضى الله عنهم فالأمر فيه قريب ، إذا ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقص والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التى تورد على القياس لما كانوا يفقهونه . فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها فى مباح ، وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لانعنى به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء فى الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ، وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً وقد قال الله تعالى (قل هاتوا برهانكم) وقال عز وجل (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة) وقال تعالى (هل عندكم من سلطان بهذا) أى حجة وبرهان وقال تعالى (قل فلله الحجة البالغة) وقال تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه - إلى قوله - فبهت الذى كفر) إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه فى معرض الثناء عليه وقال عز وجل (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وقال تعالى (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقال تعالى فى قصة فرعون (وما رب العالمين - إلى قوله - أولو جئتك بشىء مبين) وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين فى التوحيد قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفى النبوة (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفى البعث (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) إلى غير ذلك من الآيات والأدلة . ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى (وجادلهم بالتى هى أحسن) فالصحابة رضى الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة وكانت الحاجة اليه قليلة فى زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق : على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، إذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فقال : ذلك فى قتال الكفار ! أرأيتم لو سبيت عائشة رضى الله عنها فى سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهى أمكم فى نص الكتاب ؟ فقالوا: لا، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان . وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القدر وناظر على بن أبى طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية وناظر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يزيد بن عميرة فى الإيمان ، قال عبدالله: لو قلت إنى مؤمن لقلت إنى فى الجنة ؟ فقال له يزيد بن عميرة : ياصاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ؟ ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة . فقال ابن مسعود صدقت والله إنها منى زلة ، فينبغى أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيراً لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة ، فيقال أما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر فى ذلك الزمان ، وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم. وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها ، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم فى الفقه والتفسير والحديث أيضا ، فان جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التى لا تتفق إلا على الندور إما إدخار اليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشحيذا للخواطر فنحن أيضا نرتب طرق

المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين * فإن قلت : فما المختار عندك فيه ؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه فى كل حال أو بحمده فى كل حال خطأ بل لابد فيه من تفصيل . فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولى « لذاته » أن علة تحريمه وصف فى ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم فى وقت الخيار والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذى يقتل قليله وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور ، وكأكل الطين . وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل فى الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق . وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده باللطف فى أسرع زمان إلا إذا كان نشوءه فى بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه ؟ وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره . وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور فى أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق فى صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التى ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه . والناس متعبدون بهذه العقيدة التى قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا فى موضعه وذلك فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم

التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذى ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح . وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدال الموضوع على شرط المتكلمين ؛ إذ العامى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع فى شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام . واستقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه . وأما فى بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتربص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ـ وهو قدر خمسين ورقة ـ وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين . فإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالبا والمرض ساريا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه .

فأما الخارج منه فقسمان ؛ أحدهما : بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن الخوض فى الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى ؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات . والقسم الثانى : زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً . ولو قال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر . والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضاً وذلك هوس فإن الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التى يذم فيها والحال التى يحمد فيها والشخص الذى ينتفع به والشخص الذى لا ينتفع به * فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه فى دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما ؟ وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم

يتعلم فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضا من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإنّ الحاجة ما كانت ماسة إليه . فاعلم أن الحق أنه لا بد فى كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لايحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر . فالعالم الذى ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال ؛ إحداها : التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية : الذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه . الثالثة : أن يكون فى طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع للسد الذى بينه وبين الملاذ فلايحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه . وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة فى الكلام إنما هى من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة فى القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل فى التقسيمات والتدقيقات التى لايفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمهاصاحبها للتلبيس ، فإذا قابله مثله فى الصنعة قاومه . وعرفت أن الشافعى وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذى نبها عليه . وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن على رضى الله عنه من المناظرة فى القدر وغيره كان من الكلام الجلى الظاهر وفى محل الحاجة وذلك محمود فى كل حال . نعم قد تختلف الأعصار فى كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التى تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هى عليه وإدراك الأسرار التى يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافى عن شوائب المجادلات وهى رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذى لايدرك غوره ولا يبلغ ساحله (مسألة) فإن قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلى يبدو أولا وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسر الخالى عن كل شىء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه ؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا فى أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً وحدّا ومطلعا »[١] ، وقال على رضى الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ إنّ ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »[٢] ، وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم »[٣] ، وقال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال

(١) حديث « إن للقرآن ظاهرا وباطنا .. الحديث » أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢ حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .. الحديث » تقدم فى العلم (٣) حديث (ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم ... الحديث » تقدم فى العلم

صلى الله عليه وسلم « إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى [١] » الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم اضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا [٢] » فليت شعرى إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى . وفى لفظ آخر : لقلتم إنه كافر ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر فى صدره [٣] » رضى الله عنه ولا شك فى أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره ، وقال سهل التسترى رضى الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة فى حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة (مسألة) فإن قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإنّ الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال : إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو ويزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفى والجلى واحد ؟ فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فإن العقائد التى ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق « ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه فى هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه فى الشطر الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقى هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انجر الكلام إلى تحريك خيال فى مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز فى حله . فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التى يختص بها المقربون بدركها ولا يشاركهم الأكثرون فى علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : القسم الأول : أن يكون الشىء فى نفسه دقيقا تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك . وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه [٤] من هذا القسم فإن حقيقته بما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه . ولا تظنن أنّ ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنّ من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه

---

(١) حديث (إن من العلم كهيئة المكنون .. الحديث) تقدم فى العلم (٢) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً) أخرجاه من حديث عائشة وأنس (٣) حديث (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام . الحديث) تقدم فى العلم
(٤) حديث (كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال (فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ... الحديث)

فكيف يعرف ربه سبحانه ؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل فى صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة . ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذى يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق . والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل . وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هى حاضرة له فى الحال أو مما كانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا فى الشرف والكمال فليس فى قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحويمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[1]» وليس المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصدّيق رضى الله عنه : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة إلى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم «إن لله سبحانه وتعالى سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره[2]» القسم الثانى : من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصدّيقون عن ذكرها ما هو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه لكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصدّيقين . وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل ، وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوله إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم ؟ وقد ألحد ابن الراوندى وطائفة من المخذولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم ، ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر فلعل المدة اليها بعيدة فيطول الأمد ، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا ، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

---

(١) حديث (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده (٢) حديث (إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة (بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور) وإسناده ضعيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرائيل هل ترى ربك ؟ قال إن بينى وبينه سبعين حجابا من نور وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل بن سعد (دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة) ولمسلم من حديث أبى موسى (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه) ولابن ماجه (شيء أدركه بصره)

القسم الثالث : أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب وله مصلحة فى أن يعظم وقت ذلك الأمر فى قلبه ، كما لو قال قائل ؛ رأيت فلانا يقلد الدرّ فى أعناق الخنازير ؛ فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قديسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه درّ ولا كان فى موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس فى ذلك ، ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك ... متقابلان على السماك الأعزل

لازال ينسج ذاك خرقة مدبر ... ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى فى الإقبال والإدبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التى تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار [١] » وأنت ترى أن ساحة المسجد لاتنقبض بالنخامة ، ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار [٢] » وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ؛ ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهى البلادة والحمق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار فى معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذى هو قالب المعنى. إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [٣] » إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً فى تفهيم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل فى كنايته عن الاقتدار قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فإن ظاهره ممتنع إذ قوله « كن » إن كان خطابا للشىء قبل وجوده فهو محال إذا المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين . ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع فى النفوس فى تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد فى تفسير قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وأن بعضها احتملت شيئاً كثيراً وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل . والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التى تنفع الناس تمكث . وفى هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ماورد فى الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر . القسم الرابع : أن يدرك الإنسان الشىء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثانى كاللباب ، والأول كالظاهر والثانى كالباطن.

---

(١) حديث (إن المسجد لينزوى من النخامة .. الحديث) لم أجد له أصلا (٢) حديث (أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام .. الحديث) أخرجاه من حديث أبى هريرة (٣) حديث (قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

وذلك كما يتمثل للإنسان فى عينه شخص فى الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضدّ الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والإيمان والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع بل للإنسان فى الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة ، الأول: تصديقه بوجوده قبل وقوعه . والثانى . عند وقوعه . والثالث : بعد تصرمه . فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقيق قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففى هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس فى شىء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام . الخامس : أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل :قال الجدار للوتد لم تشقنى ؟ قال : سل من يدقنى فلم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى ؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فالبليد يفتقر فى فهمه إلى أن يقدّر لها حيـــاة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان ﴿ أتينا طائعين ﴾ والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير . ومن هذا قوله تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول « سبحان الله» ليتحقق تسبيحه . والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدّسا بذاته وشاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقال :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال . وكذلك ما من شىء إلا وهو محتاج فى نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده فى أطواره فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر . ولذلك قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله إذ لكل شىء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته ، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر . وفى هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف فى رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) وقوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) وكذلك المخاطبات التى تجرى من منكر ونكير وفى الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة فى قولهم (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال . وغلا آخرون فى حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله (كن فيكون) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فى كل لحظة بعدد كون مكون حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله

صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه [١] » وقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمنين بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن [٢] » ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر . والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسما للباب ورعاية لصلاح الخلق . فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حدّ الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمروها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل فى كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية . وزاد المعتزلة عليهم حتى أوّلوا من صفاته تعالى الرؤية وأوّلوا كونه سميعا بصيرا وأوّلوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأوّلوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة . ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب الشحوم . ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأوّلوا كل ما ورد فى الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون . وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهى لا بالسماع ، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هى عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه وما خالف أوّلوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف . والأليق بالمقتصر على السمع المجرد : مقام أحمد بن حنبل رحمه الله . والآن فكشف الغطاء عن حدّ الاقتصاد فى هذه الأمور داخل فى علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه ؛ والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة . وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التى حررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى فى الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق . فلنورد فى هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ما حررناه لأهل القدس وسميناه « الرسالة القدسية فى قواعد العقائد » وهى مودعة فى هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس فنقول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف

(١) حديث (الحجر يمين الله فى الأرض) أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو (٢) حديث (إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن) أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة فى حديث قال فيه (وأجد نفس ربكم من قبل اليمن) ورجاله ثقات

الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أنّ النطق بما تعبدوا به من قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهى أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول (الركن الأول) فى معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهى العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة ولا مستقرا على مكان وأنه يرى وأنه واحد (الركن الثانى) فى صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حيا عالما قادراً مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة (الركن الثالث) فى أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأنّ له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وأنّ له إيلام البرىء ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأنّ بعثه الأنبياء جائز وأنّ نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزة (الركن الرابع) فى السمعيات ومداره على عشرة أصول : وهى إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأنّ فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان : فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنّ الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) معرفة وجوده تعالى وأوّل ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شداداً وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ إلى قوله ﴿ للمقوين ﴾ فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره ؛ بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا « لا إله إلا الله » وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله . فإن ذلك كان مجبولا فى فطرة عقولهم من مبدإ نشوهم وفى عنفوان شبابهم . ولذلك قال عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى

فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فإذاً فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن مايغنى عن إقامة البرهان . ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول : من بداءة العقول أن الحادث لايستغنى فى حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث فإذاً لايستغنى فى حدوثه عن سبب . أما قولنا «إن الحادث لايستغنى فى حدوثه عن سبب » فجلى فإن كل حادث مختص بوقت يجوز فى العقل تقدير تقديمه وتأخيره فاختصاصه بوقته دون ماقبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص وأما قولنا « العالم حادث » فبرهانه أن أجسام العالم لاتخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لايخلو عن الحوادث فهو حادث . ففى هذا البرهان ثلاث دعاوى ؛ الأولى : قولنا « إن الأجسام لاتخلو عن الحركة والسكون » وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فإن من عقل جسما لاساكناً ولا متحركا كان لمتن الجهل راكباً وعن نهج العقل ناكبا . الثانية : قولنا « إنهما حادثان » ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد فى جميع الأجسام ماشوهد منها ومالم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارئ منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه ؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ـ على ما سيأتى بيانه وبرهانه فى إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس ـ الثالثة : قولنا « ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث » وبرهانه أنه لولم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لاتنتهى النوبة إلى وجود الحادث الحاضر فى الحال وانقضاء ما لانهاية له محال ، ولأنه لوكان للفلك دورات لانهاية لها لكان لايخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وتراً أو شفعاً ووتراً جميعاً أو لاشفعاً ولا وترا ، ومحال أن يكون شفعاً ووتراً جميعاً أولاشفعاً ولا وترا . فإن ذلك جمع بين النفى والإثبات ؛ إذ فى إثبات أحدهما نفى الآخر وفى نفى أحدهما إثبات الآخر . ومحال أن يكون شفعاً لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد . وكيف يعوز ما لانهاية له : واحد ؟ ومحال أن يكون وتراً إذ الوتر يصير شفعاً بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لانهاية لأعدادها . ومحال أن يكون لاشفعاً ولاوتراً إذ له نهاية . فتحصل من هذا أن العالم لايخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة (الأصل الثانى) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول بل هو أول كل شىء وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لوكان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى مالانهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه (الأصل الثالث) العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ماثبت قدمه استحال عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لايخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ولو جاز أن ينعدم شىء يتصور دوامه لجاز أن يوجد شىء يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب . وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لوكان قديما لما تصور الوجود معه . وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده فى القدم ومعه ضده ؟ فإن كان الضد المعدم حادثا كان محالا ؛ إذ ليس الحادث فى مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث (الأصل الرابع) العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز . وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون

وهما حادثان ، ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ولو تصوّر جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماه مسم جوهراً ولم يرد به المتحيز كان مخطئاً من حيث اللفظ لامن حيث المعنى ﴿الأصل الخامس﴾ العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر . إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهرا مخصوصا بحيز بطل كونه جسما لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهده سمات الحدوث. ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطا فى الاسم مع الإصابة فى نفى معنى الجسم ﴿الأصل السادس﴾ العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل لأن العرض ما يحل فى الجسم ، فكل جسم فهو حادث لامحالة ويكون محدثه موجودا قبله . فكيف يكون حالا فى الجسم وقد كان موجودا فى الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق - كما سيأتى بيانه - وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لاتعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته . وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض . وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فاذا لايشبه شيئا ولا يشبهه شيء بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصور مصوره . والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته ﴿الأصل السابع﴾ العلم بأنّ الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات فان الجهة إما فوق وإما أسفل وأما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف ، وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا ، والآخر يقابله ويسمى رأسا . فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس واسم السفل لما يلى جهة الرجل حتى إنّ النملة التى تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حقها تحتا وإن كان فى حقنا فوقا . وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك اليه فحدث اسم القدام للجهة التى يتقدم اليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها ، فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة . فكيف كان فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة ؟ وكيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له ؟ أبأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلى جهة الرجل ؛ وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص العرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرا أو عرضا فاستحال كونه مختصا بالجهة ؛ وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا فى الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذياً له، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر ، فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء . وفيه أيضا إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء ﴿الأصل

الثامن) العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لاينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق اليه سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرآن (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطل إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » على القدرة والقهر ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه » على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال ، وما يؤدى إلى المحال فهو محال ﴿ الأصل التاسع ﴾ العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار مرئى بالأعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ولا يرى فى الدنيا تصديقا لقوله عز وجل ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام ﴿ لن ترانى ﴾ وليت شعرى كيف عرف المعتزل من صفات رب الأرباب ماجهله موسى عليه السلام ؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟ ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال ، فإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فاذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك ﴿ الأصل العاشر ﴾ العلم بأن الله عز وجل واحد لاشريك له فرد لاند له انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لامثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناويه : وبرهانه قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وبيانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمرا فالثانى إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهرا والأول ضعيفا قاصراً ولم يكن إلهاً قادرا

الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول

﴿ الأصل الأول ﴾ العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ صادق لأن العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لاقدرة له كان منخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل ﴿ الأصل الثانى ﴾ العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات (لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء) صادق فى قوله ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لاتستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف (الأصل الثالث) العلم بكونه عز وجل حيا فان من ثبت

علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات (الأصل الرابع) العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدئ المعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده؟ ومالا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده. والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلابد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين. ولو أغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق بوجوده لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه (الأصل الخامس) العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء: وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له ﴿لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا﴾ ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما (الأصل السادس) أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره. والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول: لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم، فاقطع عن عقلة طمعك وكف عن خطابه لسانك. ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شىء. وأن الباء قبل السين فى قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما فنزه عن الالتفات إليه قلبك فلله سبحانه سر فى إبعاد بعض العباد ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون: وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل فى حاسة السمع ماعقله فى حاسة البصر. وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع مادل عليه من العبارات. وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالألسنة محفوظا فى القلوب مكتوبا فى المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ولاحترق (الأصل السابع) أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا

للحوادث داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل فى قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزل فى أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها فى قبول التغير ؟ وينبنى على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هى الأصوات الدالة عليه ، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما فى قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذى قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذى دل عليه قوله عز وجل (اخلع نعليك) بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم (الأصل الثامن) أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته . ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر . فكهذا ينبغى أن يفهم قدم علم الله تعالى (الأصل التاسع) أن إرادته قديمة وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست فى ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة (الأصل العاشر) أن الله تعالى عالم بعلم ، حى بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم كقوله : غنى بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل ، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف .

الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) العلم بأن كل حادث فى العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه . خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له فى قوله تعالى (الله خالق كل شىء) وفى قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وفى قوله تعالى (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أمر العباد بالتحرز فى أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم لعلمه بموارد أفعالهم . واستدل على العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهى متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها فما الذى يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها ؟ أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هى باختراعها دون رب الأرباب وهى غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ؟ هيهات هيهات ! ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت .

جبار الأرض والسموات (الأصل الثانى) أنّ انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له فإنها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا ، وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أوكيف يكون خلقا للعبد وهو لايحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب . وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ؛ إذ قدرة الله تعالى فى الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلا بها وهى عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق فيه يظهر أنّ تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها (الأصل الثالث) أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه . فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته . ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴿لايسئل عما يفعل وهم يسألون﴾ ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة «ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن» وقول الله عز وجل ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ وقوله تعالى ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصى والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجارى على وفق إرادة العدو أكثر من الجارى على وفق إرادته تعالى فليت شعرى كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم فى القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والمعصية هى الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيراً . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له * فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟ قلنا : الأمر غير الإرادة . ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان ـ فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه ـ فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان ، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ، ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهدا ، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال (الأصل الرابع) أنّ الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال ؛ إذ هو الموجب والآمر والناهى وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذى فى تركه ضرر إما آجل ؛ كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه فى الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل : كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . وإما أن يراد به الذى يؤدى عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدى إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا ، فإن أراد الخصم بأنّ الخلق واجب على الله بالمعنى الأول

فقد عرّضه للضرر وإن أراد به المعنى الثانى فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم وقوله « يجب لمصلحة عباده » كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب فى حقه معنى . ثم إنّ مصلحة العباد فى أن يخلقهم فى الجنة فأما أن يخلقهم فى دار البلايا ويعرّضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما فى ذلك غبطة عند ذوى الألباب (الأصل الخامس) أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق مالايطيقونه - خلافاً للمعتزلة - ولولم يجزذلك لاستحال سؤال دفعه وقدسألوا ذلك فقالوا ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ ولأنّ الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأنّ أبا جهل لا يصدقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه فى جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه فى أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده ؟ (الأصل السادس) أنّ لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لا حق خلافاً للمعتزلة - لأنه متصرف فى ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف فى ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما : ويدل على جواز ذلك وجوده فإنّ ذبح البهائم إيلام لها وماصب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة ؛ فإن قيل : إنّ الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟ فنقول : من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ؛ إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال ، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعانى المذكورة للواجب (الأصل السابع) أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شىء بل لا يعقل فى حقه الوجوب فإنه ﴿ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ وليت شعرى بما يجيب المعتزلى فى قوله « إنّ الأصلح واجب عليه » فى مسألة نعرضها عليه : وهو أن يفرض مناظرة فى الآخرة بين صبى وبين بالغ ماتا مسلمين فإنّ الله سبحانه يزيد فى درجات البالغ ويفضله على الصبى لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك - عند المعتزلى - فلو قال الصبى : يارب لم رفعت منزلته على فيقول : لأنه بلغ واجتهد فى الطاعات ، ويقول الصبى : أنت أمتنى فى الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتى حتى أبلغ فأجتهد « فقد عدلت عن العدل فى التفضل عليه بطول العمر له دونى فلم فضلته ؟ فيقول الله تعالى : لأنى علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت فى الصبا - هذا عذر المعتزلى عن الله عز وجل - وعند هذا ينادى الكفار من دركات لظى ويقولون : يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا فى الصبا فإنا رضينا بما دون منزلة الصبى المسلم ؟ فماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا إلا القطع بأنّ الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟ ٭ فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة ؟ قلنا : القبح ما لايوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشىء قبيحاعند شخص حسنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه . فإن أريد بالقبيح مالا يوافق غرض البارى سبحانه فهو محال إذ لاغرض له فلا يتصور منه قبح كما لايتصور منه ظلم إذ لايتصور منه التصرف فى ملك الغير . وإن أريد بالقبيح ما لايوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد تشه يشهد بخلافه ماقد فرضناه من مخاصمة أهل النار ؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية

الأصلح ؟ وأما الحكيم منا يراعى الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به فى الدنيا ثناء وفى الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة . وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى (الأصل الثامن) أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل ـ خلافا للمعتزلة ـ لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لايوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لايخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال فى حقه تعالى فإنه يتقدس عن الأعراض والفوائد بل الكفر ، والإيمان والطاعة والعصيان فى حقه تعالى سيان ، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له فى الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية فى حقه يتساويان ، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ، ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر * فإن قيل : فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لايستقر مالم ينظر المكلف فيه ؛ فإذا قال المكلف للنبي : إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لايثبت عندى إلا بالنظر ولست أقدم على النظر ، أدى ذلك إلى إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : هذا يضاهى قول القائل للواقف فى موضع من المواضع إن وراءك سبعا ضاريا فإن لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقى ، فيقول الواقف لايثبت صدقك مالم ألتفت ورائى ولا ألتفت ورائى ، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك ؛ فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولاضرر فيه على الهادى المرشد ؛ فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لى صدقى بالالتفات إلى معجزتى وإلا هلكتم » فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين » فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت. والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان مايقوله فى المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ، ومعنى كون الشىء واجبا أن فى تركه ضررا ، ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع فإن العقل لايهدى إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات ، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما فى تقدير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا ، إذ لامعنى للواجب إلا مايرتبط بتركه ضرر فى الآخرة (الأصل التاسع) أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ـ خلافا للبراهمة ـ حيث قالوا : لافائدة فى بعثتهم إذ فى العقل مندوحة عنهم لأن العقل لايهدى إلى الأفعال المنجية فى الآخرة كما لايهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة ، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة . (الأصل العاشر) أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ؟ وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر [1] وتسبيح الحصى [2] وإنطاق العجماء [3] وماتفجر من بين أصابعه من الماء . ومن آياته الظاهرة التى تحدى بها ـ مع كافة العرب ـ القرآن العظيم

---

(١) حديث : انشقاق القمر ؛ متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث « تسبيح الحصى » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى ذر . وقال صالح بن أبى الأخضر ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بنى سليم لم يسم عن أبى ذر (٣) حديث : إنطاق العجماء ، أخرجه أحمد والبيهقى بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة فى البعير الذى شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أهله . وقد ورد فى كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقى فى الدلائل

فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا اسمه ونهبه وقتله وإخراجه ـ كما أخبر الله عز وجل ـ عنهم ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن فى قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب فى أمور تحقق صدقه فيها فى الاستقبال كقوله تعالى ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين﴾ وكقوله ﴿ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى . فمهما كان مقرونا بتحدى النبى صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله « صدقت » وذلك مثل القائل بين يدى الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فانه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد ـ على خلاف عادتك ـ ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضرورى بأن ذلك نازل منزلة قوله « صدقت »

الركن الرابع فى السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه
ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) الحشر والنشر [1] وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه فى العقل ممكن ؛ ومعناه الإعادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى (قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فاستدل بالابتداء على الإعادة وقال عز وجل (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول (الأصل الثانى) سؤال منكر ونكير [2] وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به فهم الخطاب وذلك ممكن فى نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له ، فان النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه [3] ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه (الأصل الثالث) عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر [4] وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت فى بطون السباع وحواصل الطيور ، فان المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها (الأصل الرابع) الميزان وهو حق قال الله تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ وقال تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه) الآية ووجهها أن الله تعالى يحدث فى صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة

---

(١) حديث « الحشر والنشر » أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « إنكم محشورون إلى الله .. الحديث » ومن حديث سهل « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء .. الحديث » ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » ومن حديث أبى هريرة « يحشر الناس على ثلاث طرائق .. الحديث » ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبى صلى الله عليه وسلم « أفتنا فى بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر . الحديث » وإسناده جيد (٢) حديث : سؤال منكر ونكير ، تقدم

(٣) حديث « كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه » أخرجه البخارى ومسلم من حديث عائشة قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقالت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى » قلت وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم .

(٤) حديث « الاستعاذة من عذاب القبر » أخرجاه من حديث أبى هريرة وعائشة وقد تقدم

للعباد حتى يظهر لهم العدل فى العقاب أو الفضل فى العفو وتضعيف الثواب (الأصل الخامس) الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحدّ من السيف قال الله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ وهذا ممكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير فى الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط (الأصل السادس) أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ فقوله تعالى ﴿ أعدت ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال لا فائدة فى خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (الأصل السابع) أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا ؛ إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود فى البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفى هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجرئ على اختراعه إلا الروافض ، واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلى رضى الله عنهما كان مبنيا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية فى الإمامة ؛ إذ ظن على رضى الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدى إلى اضطراب أمر الإمامة فى بدايتها فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك . وقد قال أفاضل العلماء : كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلا (الأصل الثامن) أن فضل الصحابة رضى الله عنهم على ترتيبهم فى الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد فى الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة[1] وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل ، فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف . (الأصل التاسع) أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش[2] » وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق (الأصل العاشر) أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان فى صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته ، لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال ، فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التى أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذى يبنى قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الإمام وبفساد الأقضية وذلك محال . ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغى فى بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة ؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هى قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة . فالله تعالى يسددنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

---

(١) حديث « الثناء على الصحابة » تقدم (٢) حديث « الأئمة من قريش » أخرجه النسائى من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر

الفصل الرابع من قواعد العقائد

فى الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال وما يتطرّق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل

﴿ مسألة ﴾ اختلفوا فى أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه ؟ فقيل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيئان لا يتواصلان وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر . وقد أورد أبو طالب المكى فى هذا كلاما شديد الاضطراب كثير التطويل فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل مالا تحصيل له ، فنقول فى هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين فى اللغة ، وبحث عن المراد بهما فى إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما فى الدنيا والآخرة ، والبحث الأول لغوى ، والثانى تفسيرى ، والثالث فقهى شرعى . البحث الأول : فى موجب اللغة ؛ والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق ؛ قال الله تعالى ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أى ؛ بمصدق ، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرّد والإباء والعناد ، وللتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترجمان . وأما التسليم فإنه عام فى القلب واللسان والجوارح فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح . فموجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام ؛ فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا : البحث الثانى : عن إطلاق الشرع ؛ والحق فيه أنّ الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل ، أما الترادف ففى قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس [١] » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس [٢] وأما الاختلاف فقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) ومعناه استسلمنا فى الظاهر ، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح ، وفى حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره ، فقال : فما الإسلام ؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس [٣] » فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل . وفى الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر ؛ فقال له سعد : يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلم وأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] » وأما التداخل فما روى أيضا أنه

---

(١) حديث « بنى الإسلام على خمس » أخرجاه من حديث ابن عمر (٢) حديث « سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس أخرجه البيهقى فى الاعتقاد من حديث ابن عباس فى قصة وفد عبد القيس « تدرون ما الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام » والحديث فى الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد « وأن تؤتوا خمساً من المغنم » (٣) حديث جبريل لما سأله عن الإيمان « فقال أن تؤمن بالله وملائكته . . الحديث » أخرجاه من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر «الحساب» ورواه البيهقى فى البعث وقد تقدم

(٤) حديث سعد « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم . الحديث » أخرجاه بنحوه

سئل « فقيل أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام ، فقال : أى الإسلام أفضل ، فقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان [1] » وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيمانا والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة . أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة ، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضا موافق للغة فإنّ التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم ، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإنّ من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وإن لم يستغرق جميع بدنه ، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ، ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين . وأما التداخل فموافق أيضا للغة فى خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا ، والإيمان عبارة عن بعض مادخل فى الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عنيناه بالتداخل وهو موافق للغة فى خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل ، وعلى هذا خرج قوله « الإيمان » فى جواب قول السائل « أى الإسلام أفضل » لأنه جعل الإيمان خصوصا من الإسلام فأدخله فيه ، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فإنّ كل ذلك تسليم وكذا الإيمان ويكون التصرف فى الإيمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر فى معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته ، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا لاسم الإسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص ؛ وعليه خرج قوله ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ البحث الثالث : عن الحكم الشرعى . والإسلام والإيمان حكمان أخروى ودنيوى . أما الأخروى فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان [2] » وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب ؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو ؟ فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان ، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة . الدرجة الثانية : أن يوجد اثنان وبعض الثالث ـ وهو القول والعقد وبعض الأعمال ـ ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر ؛ فعند هذا قالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد فى النار ؛ وهذا باطل كما سنذكره الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح ، وقد

---

(۱) حديث « سئل أى الأعمال أفضل فقال الإسلام فقال أى الاسلام افضل فقال الايمان » أخرجه احمد والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالشطر الأخير « فقال يارسول الله اى الاسلام افضل قال الإيمان » واسناده صحيح

(۲) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجاه من حديث أبى سعيد الخدرى فى الشفاعة ، وفيه « اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . . الحديث » ولهما من حديث أنس « فيقال انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة ـ أو خردلة ـ من إيمان » لفظ البخارى « منهما » وله تعليقا من حديث أنس « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان » وهو عندهما متصل بلفظ « خير » مكان « إيمان »

اختلفوا فى حكمه ، فقال أبو طالب المكى : العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لامن نفس الإيمان وإلا فيكون العمل فى حكم المعاد ؟ والعجب أنه ادعى الإجماع فى هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به [1] » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد فى النار بسبب الكبائر ؛ والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة ؛ إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات فى الحال فهل هو فى الجنة ؟ فلابد أن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فنزيد ونقول لو بقى حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات ، فهل يخلد فى النار ؟ فإن قال نعم فهو مراد المعتزله ، وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركناً من نفس الإيمان ولا شرطاً فى وجوده ولا فى استحقاق الجنة به ، وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلى ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التى بتركها يبطل الإيمان وماعدد الكبائر التى بارتكابها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمناً بينه وبين الله تعالى : وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد فى النار ؟ ولم يشترط فى حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتى الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ، ونقول هو مؤمن غير مخلد فى النار ، والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر ؛ إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من كان فى قلبه مثقال ذرة » ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب ، وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخباراً عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر ، وقد غلا فى هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك فى أن هذا فى حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد فى النار ، ولا نشك فى أنه فى حكم الدنيا الذى يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه ، وعلينا أن نظن به أنه ماقاله بلسانه إلا وهو منطو عليه فى قلبه وإنما نشك فى أمر ثالث وهو الحكم الدنيوى فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك بأن يموت له فى الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن فى يدى فهل يحل لى بينى وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح ؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر فى حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله تعالى ، والأظهر والعلم عند الله

(1) حديث « لاتكفروا أحداً إلا بجحود ما أقر به » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد « لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه » وإسناده ضعيف

تعالى أنه لايحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لايحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه ،والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كانت من العبادات . والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد فريضة » وليس هذا مناقضاً لقولنا إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن ، وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغى أن يظن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده فى فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم فى العلوم * فإن قلت : فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم ؟ فأقول شبهتهم عمومات القرآن ؛ أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) ولقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) الآية ولقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها - إلى قوله - فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء) فقوله (كلما ألقى فيها فوج) عام فينبغى أن يكون من ألقى فى النار مكذبا ولقوله تعالى (لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) وهذا حصر وإثبات ونفى ولقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى (والله يحب المحسنين) وقال تعالى (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولا حجة لهم فى ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان فى هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ، ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة فى معاقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فكيف يخرج إذا لم يدخل ؟ ومن القرآن قوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها) وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) وقال تعالى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) فهذه العمومات فى معارضة عموماتهم ولا بدّ من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون [1] بل قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) كالصريح فى أن ذلك لا بد منه للكل إذ لايخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى (لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) أى فوج من الكفار، وتخصيص العمومات قريب ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ثم قال (ثم ننجى الذين اتقوا) وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم) وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها) وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى

(١) حديث : تعذيب العصاة . أخرجه البخارى من حديث أنس « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها » الحديث ويأتى فى ذكر الموت عدة أحاديث

(ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فينبغى أن تبقى له مشيئة فى مغفرة ماسوى الشرك . وكذلك قوله عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وقوله تعالى (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) وقوله تعالى (إن الله لايضيع أجر المحسنين) فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة ؟ وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) أى لإيمانه وقد ورد على مثل هذا السبب * فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل . وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل ؛ فما معناه ؟ قلنا . لايبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لاتبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن[1] » والصحابة رضى الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة فى الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أى ليس له الكمال الذى هو وراء حقيقة الإنسانية

(مسألة) فان قلت : فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص - يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - فاذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصوّر فيه زيادة ولا نقصان ؟ فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن فى فهمه ، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشىء لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه ، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان * فان قلت : فالإشكال قائم فى أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟ فأقول : إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على الخيط مثلا . ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودى وصلابته فى عقيدته التى لايمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصرانى والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك فى عقده كالأول ولكنهما متفاوتان فى شدة التصميم . وهذا موجود فى الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر فى نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الأشجار ولذلك قال الله تعالى (فزادتهم إيمانا) وقال تعالى (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى فى بعض الأخبار « الإيمان يزيد وينقص[2] » وذلك بتأثير الطاعات فى القلب وهذا لايدركه إلا من راقب أحوال نفسه فى أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت فى السكون إلى عقائد الإيمان فى هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد فى اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك

(١) حديث « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٢) حديث « الايمان يزيد وينقص » أخرجه ابن عدى فى الكامل وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحى يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبى هريرة وابن عباس وأبى الدرداء

من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل : وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجدا لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها ، وسيأتي هذا في ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك . ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال :

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضا اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق ، ولهذا قال علي كرم الله وجهه : إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) الآية . الإطلاق الثاني : أن يراد به التصديق والعمل جميعا كما قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون بابا [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذى هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه . الإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكني أقول الأمر اليقيني الذى لاشك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لاشك في واحد منهما فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها ، وقد تعرضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة . وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق وكيف وفي الأخبار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفي بعض المواضع في خبر آخر « مثقال دينار [2] » فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت ؟

﴿ مسألة ﴾ فإن قلت : ماوجه قول السلف « أنا مؤمن إن شاء الله » والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه . فقال سفيان الثورى رحمه الله ، من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة ، فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمنا في نفسه كان مؤمنا عند الله ؟ كما أن من كان طويلا وسخيا في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من

---

(١) حديث « الايمان بضع وسبعون بابا » وذكر بعد هذا فزاد فيه « أدناها إماطة الأذى عن الطريق » أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبي هريرة « الايمان بضع وسبعون » زاد مسلم في رواية « وأوصلها قول لا إله إلا الله وأدناها » فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذى وصححه . (٢) حديث « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار » متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وسيأتي ذكر الموت وما بعده

كان مسرورا أو حزينا أو سميعا أو بصيرا ، ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان : لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله . ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا تقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إليناوبين أن يقول أنامؤمن ؟ وقيل للحسن : أمؤمن أنت ؟ فقال إن شاءالله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان ؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت ياحسن فتحق على الكلمة . وكان يقول : مايؤمننى أن يكون الله سبحانه قداطلع على فى بعض مايكره فمقتنى وقال اذهب لاقبلت لك عملا ؛ فأنا أعمل فى غير معمل . وقال إبراهيم بن أدهم : إذا قيل لك أمؤمن أنت ؟ فقل لا إله إلا الله وقال مرة : قل أنا لا أشك فى الإيمان وسؤالك إياى بدعة . وقيل لعلقمة : أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله . وقال الثورى : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى ما نحن عند الله تعالى ؟ فما معنى هذه الاستثناءات ؟ فالجواب : أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه ؛ وجهان مستندان إلى الشك لا فى أصل الإيمان ولكن فى خاتمته أو كماله ، ووجهان لا يستندان إلى الشك . الوجه الأول ـ الذى لايستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الجزم خيفة مافيه من تزكية النفس قال الله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) وقال (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) وقال تعالى (انظر كيف يفترون على الله الكذب) وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح : فقال : ثناء المرء على نفسه . والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية ، كما يقال للإنسان أنت طبيب أو فقيه أومفسر ؟ فيقول : نعم إن شاء الله ، لا فى معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية . وبهذا التأويل لوسئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثانى : التأدب بذكر الله تعالى فى كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) ثم لم يقتصر على ذلك فيما لايشك فيه بل قال تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين) وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ماكان يخبر عنه معلوما كان أومشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون [1] » واللحوق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به . وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمنى ، فإذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لاتشككك ، وإذا قيل لك فلان سيزول مرضه ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر : الوجه الثالث : مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله ، إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم (أولئك هم المؤمنون حقا) فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك فى كمال الإيمان لا فى أصله ، وكل إنسان شاك فى كمال إيمانه وذلك ليس بكفر . والشك فى كمال الإيمان حق من وجهين ؛ أحدهما : من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفى لاتتحقق البراءة منه . والثانى : أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدرى وجودها على الكمال : أما العمل فقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فيكون

(١) حديث « لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

الشك فى هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وقد قال تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) الآية وقد قال تعالى (هم درجات عند الله) وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان عريان ولباسه التقوى[1] » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق » فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفى فقوله صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر[2] » وفى بعض الروايات « وإذا عاهد غدر » وفى حديث أبى سعيد الخدرى « القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلب عليه حكم له بها[3] » وفى لفظ آخر « غلبت عليه ذهبت به » وقال عليه السلام « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها[4] » وفى حديث « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا[5] » وقال حذيفة رضى الله عنه « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات[6] » وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله وهو خفى وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه . فقد قيل للحسن البصرى : يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا « وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال : أرأيت لو كان حاضراً يسمع أكنت تتكلم فيه ؟ فقال : لا ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[7] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان ذا لسانين فى الدنيا جعله الله ذا لسانين فى الآخرة » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه » وقيل للحسن : إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلى من تلاع الأرض ذهبا . وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقاً ، فقال : لو كنت منافقاً ما خفت النفاق إن المنافق قد أمن النفاق . وقال ابن أبى مليكة : أدركت

---

(١) حديث « الإيمان عريان » تقدم فى العلم (٢) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق .. الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث « القلوب أربعة : قلب أجرد .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى سعيد وفيه ليث ابن أبى سليم مختلف فيه (٤) حديث « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر

(٥) حديث « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا » أخرجه أبو يعلى وابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر ولأحمد والطبرانى نحوه من حديث أبى موسى ، وسيأتى فى ذم الجاه والرياء (٦) حديث حذيفة « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا . الحديث » أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة ، وحديث حذيفة « المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث » أخرجه البخارى إلا أنه قال (شر) بدل أكثر

(٧) حديث « سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقاً على على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه أحمد والطبرانى بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج .

ثلاثين ومائة - وفى رواية خمسين ومائة - من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق . وروى « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا وأكثروا الثناء عليه فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا : يا رسول الله هو هذا الرجل الذى وصفناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرى على وجهه سفعة من الشيطان ، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نشدتك الله هل حدّثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم[1] » فقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم إنى أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم ، فقيل له : أتخاف يارسول الله ؟ فقال : وما يؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ! وقد قال سبحانه (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)[2] » ، قيل فى التفسير : عملوا أعمالا ظنوا أنها حسّنات فكانت فى كفة السيئات . وقال سرى السقطى : لو أنّ إنساناً دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة ؛ فقال : السلام عليك ياولى الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً فى يديها فهذه الأخبار والآثار تعرّفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفى وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر فى المنافقين ؟ وقال أبو سليمان الدارانى : سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلى ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزين للخلق عند خروج روحى فكففت . وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله . فالنفاق نفاقان ، أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك فى زمرة المخلدين فى النار . والثانى : يفضى بصاحبه إلى النار مدّة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه . وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور أخر لايخلو عنها إلا الصدّيقون . الوجه الرابع : وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدرى أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا ؟ فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال : أنا صائم قطعاً ، فلو أفطر فى أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار . وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التى لاتظهر إلا بظهور المقضى به ولامطلع عليه لأحد من البشر ، فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر فى الحال ماسبقت الكلمة بنقيضه ، فمن الذى يدرى أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟ وقيل فى معنى قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى بالسابقة يعنى أظهرتها . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله مامن أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلاسلبه . وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل هى عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عندباب الدار والموت على التوحيد

---

(١) حديث « كان جالسا فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه وبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء .. الحديث » أخرجه أحمد والبزار والدارقطنى من حديث أنس (٢) حديث « اللهم إنى أستغفرك لما علمت وما لم أعلم . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة « اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر مالم أعمل » ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل فى حديث مرسل «وشر ما أعلم وشر مالا أعلم»

عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لا أدرى مايعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار ؟ وقال بعضهم : لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد . وفى الحديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل [1] » وقيل فى قوله تعالى (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك وقد قال تعالى (ولله عاقبة الأمور) فمهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة وما فسد قبل الغروب لايبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لايشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس ؟ فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو المقبول والمقبول غائب عنه لايطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء فى جميع أعمال البر ويكون ذلك شكا فى القبول، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لايطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه . فهذه وجوه حسن الاستثناء فى الجواب عن الإيمان وهى آخر ما نختم به « كتاب قواعد العقائد » تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه ، وأعد لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة ، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الصلاة الطهور [3] » وقال الله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان [4] » وقال الله تعالى (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار هيهات

---

(١) حديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم ، والشطر الأول روى من قول يحيى بن أبى كثير رواه الطبرانى فى الأصغر بلفظ « من قال أنا فى الجنة فهو فى النار » وسنده ضعيف

كتاب الطهارة

(٢) حديث (بنى الدين على النظافة) لم أجده هكذا ، وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة (تنظفوا فان الاسلام نظيف) والطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود (النظافة تدعوا إلى الايمان) (٣) حديث (مفتاح الصلاة الطهور) أخرجه د ت ه من حديث على ، قال الترمذى : هذا أصح شىء فى هذا الباب وأحسن (٤) حديث (الطهور نصف الايمان) أخرجه ت من حديث رجل من بنى سليم وقال : حسن ، ورواه مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى بلفظ (شطر) كما فى الإحياء

هيهات ! والطهارة لها أربع مراتب (المرتبة الأولى) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (المرتبة الثانية)تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (المرتبة الثالثة) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة(المرتبة الرابعة) تطهير السر عما سوى الله تعالى وهى طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين ، والطهارة فى كل رتبة نصف العمل الذى فيها فإن الغاية القصوى فى عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة فى السر مالم يرتحل ماسوى الله تعالى عنه ولذلك قال الله عز وجل (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) لأنهما لايجتمعان فى قلب (وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها مالم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط فى الثانى فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى ، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهى أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط فى الثانى، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارتها بالطاعات الشطر الثانى فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة ،فلا يصل الى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة مالم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود ، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهى وعمارتها بالطاعات ، وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تظن أن هذا الأمر يدرك وينال بالهوينى، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التى هى كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب ،فصار يمعن فيها ويستقصى فى مجاريها ويستوعب جميع أوقاته فى الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هى هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر فى تطهير القلب وتساهلهم فى أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضى الله عنه مع علو منصبه توضأ من ماء فى جرة نصرانية ، وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخمص أقدامهم وعدوا الأشنان من البدع المحدثة ، ولقد كانوا يصلون على الأرض فى المساجد ويمشون حفاة فى الطرقات ، ومن كان لايجعل بينه وبين الأرض حاجزاً فى مضجعه كان من أكابرهم ، وكانوا يقتصرون على الحجارة فى الاستنجاء . وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : «كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا فى الحصى ثم نفركها بالتراب ونكبر[1] » وقال عمر رضى الله عنه : « ماكنا نعرف الأشنان فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا [2] كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها » ويقال أول ماظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المناخل والأشنان والموائد والشبع . فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم: الصلاة فى النعلين أفضل « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزع نعليه فى صلاته بإخبار جبريل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتم نعالكم [3] » ؟ وقال النخعى فى الذين يخلعون نعالهم « وددت لو أن محتاجا جاء اليها فأخذها » منكراً لخلع النعال . فهكذا كان تساهلهم فى هذه الأمور بل كانوا يمشون فى طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون

---

(١) حديث « كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا فى الحصباء .. الحديث) أخرجه ه من حديث عبدالله بن الحارث ابن جزء ولم أره من حديث أبى هريرة (٢) حديث عمر (ماكنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا باطن أرجلنا .. الحديث) لم أجده من حديث عمر ولابن ماجه نحوه مختصرا من حديث جابر

(٣) حديث (خلع نعليه فى الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة) أخرجه د ك وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى

فى المساجد على الأرض، ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحترزون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرغها فى النجاسات ، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال فى دقائق النجاسات فهكذا كان تساهلهم فيها . وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هى مبنى الدين فأكثر أوقاتهم فى تزيينهم الظواهر ، كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه ! ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافيا أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من أدم أو توضأ من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدّوا عليه النكير ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زمرتهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته . فسموا البذاذة التى هى من الإيمان قذارة والرعونة نظافة فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكراً ! وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه * فإن قلت: أفتقول إن هذه العادات التى أحدثها الصوفية فى هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات ؟ فأقول حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكنى أقول إنّ هذا التنظيف والتكلف وإعداد الأوانى والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقنع بهلدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهى من المباحات وقد يقترن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات ، فأما كونها مباحة فى نفسها فلا يخفى أنّ صاحبها متصرف بها فى ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف ، وأما مصيرها منكراً فبأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة » حتى ينكر به على من يتساهل فيه الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم ، فإن ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكراً بهذين الاعتبارين ، أما كونه معروفا فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا ينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره ، فاذا لم يقترن به شىء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قربة بالنية ولكن لا يتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعنى فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف . وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغى أن يصرفوا من أوقاتهم اليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر فى حقهم وتضييع العمر الذى هو أنفس الجواهر وأعزها فى حق من قدر على الإنتفاع به . ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ولا ينبغى للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة إذ التشبه بهم فى أن لا يتفرغ إلا لما هو أهم منه ، كما قيل لداود الطائى لم لا تسرح لحيتك ؟ قال : إنى إذن لفارغ . فلهذا لا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته فى غسل الثياب احترازا من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهما بالقصار تقصيراً فى الغسل ؛ فقد كانوا فى العصر الأول يصلون فى الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوغة فى الطهارة والنجاسة ، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرهم فى استنباط الاحتمالات الدقيقة ، بل كانوا يتأملون فى دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثورى لرفيق له كان يمشى معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور : لا تفعل ذلك فإنّ الناس لو لم ينظروا اليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف . فالناظر إليه معين له على الإسراف . فكانوا يعدّون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا فى احتمالات النجاسة . فلو وجد العالم عاميا

يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل فإنه بالإضافة إلى التساهل خير . وذلك العامى ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمارة بالسوء بعمل المباح فى نفسه فيمتنع عليه المعاصى فى تلك الحال . والنفس إن لم تشغل نشىء شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات . فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظا عليه ، وأشرف وقت العامى أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها . وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على بعض ، فتدقيق الحساب فى حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق فى أمور الدنيا بحذافيرها . وإذا عرفت هذه المقدمة واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا فى هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا فى المرتبة الرابعة وهى نظافة الظاهر لأنا فى الشطر الأول من الكتاب لانتعرض قصدا إلا للظواهر . فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن ، وهى التى تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال النورة والختان وغيره .

القسم الأول : فى طهارة الخبث ، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة

الطرف الأول فى المزال

وهى النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل منتبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما . فاذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : الآدمى والسمك والجراد ودود التفاح ـ وفى معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ـ وكل ماليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلاينجس الماء بوقوع شىء منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فقسمان ، أحدهما : مايقطع منه وحكمه حكم الميت . والشعر لاينجس بالجز ، والموت والعظم ينجس . الثانى : الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ماليس مستحيلا ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط ، وما له مقر وهو مستحيل فنجس ، إلا ماهو مادة الحيوان كالمنى والبيض . والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعفى عن شىء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة ، الأول : أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه مالم يعد المخرج والثانى : طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه ، وهو الذى لاينسب المتلطخ به إلى تفريط أو سقطة . الثالث : ما على أسفل الخف من نجاسة لايخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة . الرابع : دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته . الخامس : دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد . ودلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغتسل . وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالبا وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادرا من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ، ولايكون فى معنى البثرات التى لايخلو الإنسان عنها فى أحواله . ومسامحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها .

الطرف الثانى : فى المزال به

وهو إما جامد وإما مائع ؛ أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلبا طاهرا منشفا غير محترم ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشىء منها إلا الماء ؛ ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش

تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه . ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه . فإن لم يتغير وكان قريبا من مائتين وخمسين منا ـ وهو خمسمائة رطل برطل العراق ـ لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا [1] » وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعى رضى الله عنه . هذا فى الماء الراكد . وأما الماء الجارى إذا تغير بالنجاسة فالجرية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفاصلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وماعن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين . وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع فى حوض قدر قلتين . وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجسا بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعى رضى الله عنه . وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضى الله عنه فى أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك : وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله . ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطا لكان أولى المواضع بتعسر الطهارة : مكة والمدينة ؛ إذ لا يكثر فيهما المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة فى الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات . وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات . وقد توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية ، وهذا كالصريح فى أنه لم يعوّل إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبة تعلم بظن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب . وعدم وقوع السؤال فى تلك الأعصار ؛ دليل أول . وفعل عمر رضى الله عنه : دليل ثان . والدليل الثالث : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء للهرة [2] وعدم تغطية الأوانى منها : بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الآبار . والرابع : أن الشافعى رضى الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت ، وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إنّ قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة ؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضا ماسة إلى هذا فلا فرق بين طرح الماء فى إجانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس فى الإجانة وفيها ماء ؟ وكل ذلك معتاد فى غسل الثياب والأوانى ، والخامس : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولا خلاف فى مذهب الشافعى رضى الله عنه أنه إذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلا . وأى فرق بين الجارى والراكد ؟ وليت شعرى هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ما حدّ تلك القوة أتجرى فى المياه الجارية فى أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تجر فما الفرق وإن جرت فما الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع فى مجرى الماء من الأوانى على الأبدان وهى أيضا جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجارى من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ما يجرى عليها وإن لم يتغير نجس أن يجتمع فى مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة ؟ والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول فى قلتين ثم فرقتا فكل كوز يغترف منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شعرى هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع

(١) حديث (إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر

(٢) حديث (إصغاء الإناء للهرة ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط والدارقطنى من حديث عائشة ؛ وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبى قتادة

تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها ؟ والسابع : أن الحمامات لم تزل فى الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدى والأوانى فى تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدى النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها . فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى فى النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معولين على قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لاينجسه شىء إلا ماغير طعمه أو لونه أوريحه [١] وهذا فيه تحقيق ، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل مايقع فيه وكان مغلوبا منجهته ؛ فكما ترى الكلب يقع فى المملحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال صفة الكلبية عنه ، فكذلك الخل يقع فى الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلبته بغلبة طعمه أو لونه أو ريحه فهذا المعيار . وقد أشار الشرع إليه فى الماء القوى على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعول عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهورا إذ يغلب عليه فيطهره ، كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفى الغسالة وفى الماء الجارى وفى إصغاء الإناء للهرة ولا تظن ذلك عفوا إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجسا ولا ينجس بالغسالة ولا بولوغ السنور فى الماء القليل . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « لايحمل خبثا » فهو فى نفسه مبهم فإنه يحمل إذا تغير ، فإن قيل . أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه فى الغالب لايتغير بالنجاسات المعتادة ؟ ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين ، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التى ذكرناها ممكن وقوله « لايحمل خبثا » ظاهره نفى الحمل أى يقلبه إلى صفة نفسه ، كما يقال للمملحة لاتحمل كلبا ولاعيره أى ينقلب ، وذلك لأن الناس قد يستنجون فى المياه القليلة وفى الغدران ويغمسون الأوانى النجسة فيها ثم يترددون فى أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا ؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لايتغير بهذه النجاسة المعتادة . فإن قلت : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لايحمل خبثا » ، ومهما كثرت حملها فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حسا . فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعا . وعلى الجملة فميلى فى أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهما من سيرة الأولين وحسما لمادة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه فى مثل هذه المسائل .

الطرف الثالث : فى كيفية الإزالة

والنجاسة إن كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس فيكفى إجراء الماء على جميع مواردها ، وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين ، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص . أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يعفى عنها إلا إذا كان الشىء له رائحة فائحة يعسر إزالتها فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص فى اللون ، والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لايشاهد عليه نجاسة ولايعلمها يقينا يصلى معه ، ولاينبغى أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات القسم الثانى : طهارة الأحداث ، ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء ، فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى .

باب آداب قضاء الحاجة

ينبغى أن يبعد عن أعين الناظرين فى الصحراء وأن يستتر بشىء إن وجده وأن لايكشف عورته قبل الانتهاء

---

(١) حديث (خلق الله الماء طهورا لاينجسه شىء الا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه) أخرجه ابن ماجه من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف ، وقد رواه بدون الاستثناء أبو داود والنسائى والترمذى من حديث أبى سعيد وصححه أبو داود وغيره

إلى موضع الجلوس وأن لايستقبل الشمس والقمر وأن لايستقبل القبلة ولايستدبرها إلى إذا كان فى بناء ، والعدول أيضا عنها فى البناء أحب وإن استتر فى الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله ، وأن يتقى الجلوس فى متحدث الناس وأن لايبول فى الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولافى الجحر ، وأن يتقى الموضع الصلب ومهاب الرياح فى البول استنزاها من رشاشه وأن يتكئ فى جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان فى بنيان يقدم الرجل اليسرى فى الدخول واليمنى فى الخروج ولا يبول قائما . قالت عائشة رضى الله عنها « من حدثكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه [1] » وقال عمر رضى الله عنه « رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال : ياعمر لا تبل قائما [2] » قال عمر : فما بلت قائما بعد ، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضى الله عنه « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما فأتيته بوضوء فتوضأ ومسح على خفيه [3] » ولا يبول فى المغتسل قال صلى الله عليه وسلم « عامة الوسواس منه [4] » وقال ابن المبارك : قد وسع فى البول فى المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذى وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبولن أحدكم فى مستحمه ثم يتوضأ فيه فأن عامة الوسواس منه » وقال ابن المبارك : إن كان الماء جاريا فلا بأس به ولا يستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس . وأن يقول عند الدخول « بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » وعند الخروج « الحمد لله الذى أذهب عنى مايؤذينى وأبقى على ماينفعنى » ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء وأن يعد النبل قبل الجلوس وأن لا يستنجى بالماء فى موضع الحاجة وأن يستبرئ من البول بالتنحنح والنثر - ثلاثا - وإمرار اليد على أسفل القضيب ولا يكثر التفكر فى الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء . فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى فى نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس . وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعنى رش الماء [5] وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفى حديث سلمان رضى الله عنه « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة فأمرنا أن لا تستنجى بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول [6] » وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لاأحسبك تحسن الخراءة قال : بلى وأبيك إنى لأحسنها وإنى بها لحاذق أبعد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعى إقعاء الظبى وأجفل إجفال النعام - الشيح نبت طيب الرائحة بالبادية ، والإقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه ، والإجفال أن يرفع عجزه . ومن الرخصة أن يبول الانسان قريبا من صاحبه مستترا عنه [7] فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حيائه ليبين للناس ذلك .

---

(١) حديث عائشة (من حدثكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه قال الترمذى هو أحسن شىء فى هذا الباب وأصح (٢) حديث عمر (رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وانا أبول قائما فقال ياعمر لاتبل قائما » أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، رواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر (٣) حديث (انه عليه الصلاة والسلام بال قائما .. الحديث) متفق عليه (٤) حديث (قال فى البول فى المغتسل : عامة الوسواس منه) اخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذى غريب قلت وإسناده صحيح (٥) حديث « رش الماء بعد الوضوء » وهو الانتضاح أخرجه أبوداود والنسائى وابن ماجه من حديث سفيان بن الحكم الثقفى أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قاله الترمذى وابن عبد البر (٦) حديث سلمان « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة ... الحديث » أخرجه مسلم وقد تقدم فى قواعد العقائد (٧) حديث « البول قريبا من صاحبه » متفق عليه من حديث حذيفة

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجي لمقعدته بثلاثة أحجار ، فإن أنقى وإلا استعمل رابعاً ، فإن أنقى وإلا استعمل خامسا لأن الإنقاء واجب والايتار مستحب . قال عليه السلام « من استجمر فليوتر[١] » ويأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر ، ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزأه ، ثم يأخذ حجرا كبيراً بيمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثا فى ثلاثة مواضع أوفى ثلاثة أحجار أو فى ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة فى محل المسح ، فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ، ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر ، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار . ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللمس ، ويدرك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فإن ذلك منبع الوسواس ، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة مالم تظهر ، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحدّ ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء « اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجى من الفواحش » ويدلك يده بحائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقيت . والجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : ما هذه الطهارة التى أثنى الله بها عليكم ، قالوا . كنا نجمع بين الماء والحجر[٢] » .

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجا من الغائط إلا توضأ ويبتدئ بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك[٣] » فينبغى أن ينوى عند السواك تطهير فمه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى فى الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك[٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة[٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « مالى أراكم تدخلون على قلحا استاكوا[٦] » أى صفر الأسنان « وكان عليه الصلاة والسلام يستاك فى الليلة مرارا[٧] » وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شىء[٨] » ، وقال عليه السلام « عليكم بالسواك فإنه

---

(١) حديث « من استجمر فليوتر » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ الحديث فى أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء ؟ . » أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى أيوب وجابر وأنس فى الاستنجاء بالماء ، ليس فيه ذكر « الحجر » وقول النووى تبعا لابن الصلاح « ان الجمع بين الماء والحجر فى أهل قباء لا يعرف » مردود بما تقدم (٣) حديث « إن أفواهكم طرق القرآن » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث على ورواه ابن ماجه موقوفا على على وكلاهما ضعيف (٤) حديث « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك » رواه أبو نعيم فى كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقى وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة (٥) حديث « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٦) حديث « مالى أراكم تدخلون على قلحا استاكوا » اخرجه البزار والبيهقى من حديث العباس بن عبدالمطلب وابو داود والبغوى من حديث تمام ابن العباس والبيهقى من حديث عبدالله بن عباس وهو مضطرب (٧) حديث « كان يستاك من الليل مرارا » اخرجه مسلم من حديث ابن عباس (٨) حديث ابن عباس « لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شىء » رواه احمد

مطهرة للفم ومرضاة للرب[1] ، وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : السواك يزيد فى الحفظ ويذهب البلغم[2] وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم . وكيفيته : أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح ويستاك عرضا وطولا وإن اقتصر فعرضا . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبه وعند تغير النكهة بالنوم أو طول الأزم أو كل ما تكره رائحته ، ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول « بسم الله الرحمن الرحيم » قال صلى الله عليه وسلم « لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى[3] » أى لا وضوء كامل . ويقول عند ذلك « أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » ثم يغسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الإناء ، ويقول « اللهم إنى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة » ثم ينوى رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويغرغر بأن يرد الماء إلى الغلصمة إلا أن يكون صائما فيرفق ويقول « اللهم أعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك » ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول فى الاستنشاق « اللهم أوجد لى رائحة الجنة وأنت عنى راض » وفى الاستنثار « اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار » لأن الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة ، ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن فى الطول ، ومن الأذن إلى الأذن فى العرض ، ولا يدخل فى حد الوجه النزعتان اللتان على طرفى الجبينين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذى يقع فى جانب الوجه ، مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثانى على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب : لأنها خفيفة فى الغالب . والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدإ اللحية . ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة أعنى ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا ، وحكم العنفقة حكم اللحية فى الكثافة والخفة ، ثم يفعل ذلك ثلاثاً ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية ويدخل الأصابع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما . فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك[4] ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده « اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك » ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثا ويحرك الخاتم ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى العضد فإنهم يحشرون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، كذلك ورد الخبر . قال عليه السلام « من استطاع أن

---

(١) حديث « عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب » أخرجه البخارى تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائى وابن خزيمة موصولا ، قلت وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذى قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان (٢) حديث « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم » أخرجه الخطيب فى كتاب أسماء من روى عن مالك وعند أبى داود والترمذى وصححه « أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب (٣) حديث « لا وضوء لمن لم يسم الله » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ونقل الترمذى عن البخارى أنه أحسن شىء فى هذا الباب (٤) حديث « إدخاله الأصبع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة كان يتعاهد الماقين ورواه الدارقطنى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف « اشربوا الماء أعينكم »

يطيل غرته فليفعل[١] ، وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء[٢] ويبدأ باليمنى ويقول « اللهم أعطنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا » ويقول عند غسل الشمال « اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى » ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة ، وهذه مسحة واحدة ، يفعل ذلك ثلاثا ويقول « اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك » ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحتيه فى صماخى أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ، ويكرره ثلاثا ويقول « اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اللهم اسمعنى منادى الجنة مع الأبرار » ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة[٣] » ويقول « اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثا ويخلل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول « اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام فى النار » ويقول عند غسل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين » ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين . فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين واجعلنى عبدا صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا » يقال: إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة . ويكره فى الوضوء أمور : منها أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم ، وأن يسرف فى الماء « توضأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء[٤] » وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور[٥] » ويقال : من وهن علم الرجل ولوعه بالماء فى الطهور[٦] وقال إبراهيم بن أدهم : يقال إن أول ما يبتدئ الوسواس من قبل الطهور ، وقال الحسن : إن شيطانا يضحك بالناس فى الوضوء يقال له الولهان . ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم فى أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطما . وكره قوم التنشيف وقالوا : الوضوء يوزن ، قاله سعيد بن المسيب والزهرى ، لكن روى معاذ رضى الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه[٧] » ، وروت عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة[٨] » ولكن طعن فى هذه الرواية عن عائشة . ويكره أن يتوضأ من إناء صفر وأن يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب . وقد روى عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما كراهية إناء الصفر: وقال بعضهم : أخرجت لشعبة ماء فى إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه . ونقل كراهية

---

(١) حديث « من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » أخرجاه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء » أخرجاه من حديثه (٤) حديث « مسح الرقبة أمان من الغل » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف (٤) حديث « توضأ ثلاثا ثلاثا وقال من زاد فقد أساء وظلم » أخرجه أبو داود والنسائى واللفظ له وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله ابن مغفل (٦) حديث « من وهن علم الرجل ولوعه فى الماء فى التطهير » لم أجد له أصلا (٧) حديث معاذ « أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه » أخرجه الترمذى وقال غريب وإسناده ضعيف (٨) حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له منشفة » أخرجه الترمذى وقال ليس بالقائم ، قال ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب شىء

ذلك عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما . ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغى أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق أن يستحى من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه . وليحقق طهارة القلب بالتوبة . والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى . وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن يدعو ملكا إلى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البرانى من الدار . وما أحدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار ! والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدّث نفسه فيهما بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[1] » وفى لفظ آخر « ولم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط - ثلاث مرات -[2] » « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين وقال : من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين ، وتوضأ ثلاثا ثلاثا وقال : هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام[3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « الوضوء على الوضوء نور على نور[6] » وهذا كله حث على تجديد الوضوء وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له[7] » ويروى « إن الطاهر كالصائم[8] » وقال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء[9] » وقال عمر رضى الله عنه :

---

(١) حديث « من توضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وفى لفظ آخر « لم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن المبارك فى كتاب الزهد والرقائق باللفظين معا وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله « بشيء من الدنيا » ودون قوله « لم يسه فيهما » وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خالد « ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما الحديث » (٢) حديث « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات .. الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٣) حديث « توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٤) حديث « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله . الحديث » رواه الدارقطنى من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٥) حديث « من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٦) حديث « الوضوء على الوضوء نور على نور » لم أجد له أصلا (٧) حديث « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث الصنابحى إسناده صحيح ، ولكن اختلف فى صحبته وعند مسلم من حديث أبى هريرة وعمرو بن عبسة نحوه مختصراً (٨) حديث « الطاهر النائم كالصائم » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث عمرو بن حريث « الطاهر النائم كالصائم القائم » وسنده ضعيف (٩) حديث « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عقبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله « ثم رفع هكذا » عزاه المزى فى الأطراف وقد رواه النسائى « فى اليوم والليلة » من رواية عقبة بن عامر وكذا رواه الدارمى فى مسنده

إنّ الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لايبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإنّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

كيفية الغسل

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمى الله تعالى ويغسل يديه ثلاثا ، ثم يستنجى كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثا ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً ، ثم يدلك ما أقبل من بدنه ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أنّ الماء لايصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره فى أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل . فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها مالا بدّ لسالك طريق الآخرة من علمه وعمله ، وما عداه من المسائل التى يحتاج إليها فى عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه . والواجب من جملة ما ذكرناه فى الغسل أمران . النية واستيعاب البدن بالغسل . وفروض الوضوء . النية وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبة. والغسل الواجب بأربعة : بخروج المنى والتقاء الختانين والحيض والنفاس ، وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع ـ على قول ـ والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتا ، فكل ذلك مستحب

كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء ـ لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج اليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكا لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا ـ فينبغى أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيدا طيبا عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كفيه ضاما بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوى عند ذلك استباحة الصلاة ، ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت ، ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار ـ ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإنّ عرض الوجه لايزيد على عرض الكفين ـ ويكفى فى الاستيعاب غالب الظنّ ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه ثم يلصق ظهور يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى ـ بحيث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى ـ ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع ، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ، ثم يفعل باليسرى كذلك . ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه ، وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة . وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ، فإن جمع بين فريضتين فينبغى أن يعيد التيمم للثانية . وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم والله أعلم.

القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهى نوعان أوساخ وأجزاء

النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترشحة وهى ثمانية :

(الأول) ما يجتمع فى شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ويرجله غبا ويأمر به [1] ويقول عليه الصلاة والسلام : ادهنوا غبا [2] وقال عليه الصلاة والسلام من كان له شعرة فليكرمها [3] أى ليصنها عن الأوساخ ، ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال: يدخل أحدكم كأنه شيطان [4] ، (الثانى) ما يجتمع من الوسخ فى معاطف الأذن ، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع فى قعر الصماخ فينبغى أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام فان كثرة ذلك ربما تضر بالسمع . (الثالث) ما يجتمع فى داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار . (الرابع) ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما . (الخامس) ما يجتمع فى اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط . وفى الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم « كان لايفارقه المشط والمدرى والمرآة فى سفر ولا حضر [5]» وهى سنة العرب وفى خبر غريب « أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته فى اليوم مرتين [6] » وكان صلى الله عليه وسلم كث اللحية [7] ، وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان طويل اللحية رقيقها وكان على عريض اللحية قد ملأت مابين منكبيه . وفى حديث أغرب منه قالت عائشة رضى الله عنها « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيته يطلع فى الحب يسوى من رأسه ولحيته [8] فقلت أو تفعل ذلك يارسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم » والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياسا على اخلاق غيره وتشبيها للملائكة بالحدادين وهيهات ! فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورا بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المنافقون بذلك فى تنفيرهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن يراعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه . والاعتماد فى مثل هذه الأمور على النية فانها أعمال فى أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود ، فالتزين

---

(١) حديث « كان يدهن الشعر ويرجله » أخرجه الترمذى فى الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس « كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته » وفى الشمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث صحابى لم يسم « أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غبا » (٢) حديث « ادهنوا غبا » قال ابن الصلاح لم أجد له اصلا وقال النووى غير معروف وعند أبى داود والترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن مغفل « النهى عن الترجل إلا غبا » بإسناد صحيح (٣) حديث « من كانت له شعرة فليكرمها » من حديث أبى هريرة وقال « به شعر فليكرمه » وليس إسناده بالقوى (٤) حديث « دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد (٥) حديث « كان لايفارقه المشط والمدرى فى سفر ولا حضر » أخرجه ابن طاهر فى كتاب صفة التصوف من حديث أبى سعيد « كان لايفارق مصلاه سواكه ومشطه » ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة وإسنادها ضعيف . وسيأتى فى آداب السفر مطولا (٦) حديث « كان يسرح لحيته كل يوم مرتين » تقدم حديث أنس « كان يكثر تسريح لحيته » والخطيب فى الجامع من حديث الحكم مرسلا « كان يسرح لحيته بالمشط » (٧) حديث « كان كث اللحية » أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث هند ابن ابى هالة وابو نعيم فى دلائل النبوة من حديث على وأصله عند الترمذى (٨) حديث عائشة « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فرأيته يطلع فى الحب يسوى من رأسه ولحيته » اخرجه ابن عدى وقال حديث منكر

على هذا القصد محبوب وترك التشعث فى اللحية إظهارا للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عزوجل . والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال ، وكم من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتا إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير ، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرب إلى الله تعالى به وهذا أمر ينكشف يوم تبلى السرائر ، ويوم يبعثر ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور ؛ فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البهرجة فنعوذ بالله من الخزى يوم العرض الأكبر (السادس) وسخ البراجم وهى معاطف ظهور الأنامل ؛ كانت العرب لاتكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع فى تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم [1] (السابع) تنظيف الرواجب [2] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهى رءوس الأنامل وماتحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لايحضرها المقراض فى كل وقت فتجتمع فيها أوساخ ؛ فوقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوما [3] لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف ماتحت الأظفار [4] وجاء فى الأثر « أن النبى صلى الله عليه وسلم استبطأ الوحى فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لاتغسلون براجمكم ولاتنظفون رواجبكم [5] وقلحا لاتستاكون . مر أمتك بذلك ، والاف وسخ الظفر ، والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ تعبهما أى بما تحت الظفر من الوسخ ، وقيل لاتتأذ بهما كما تتأذى بما تحت الظفر (الثامن) الدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار : روى ذلك عن أبى الدرداء وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهما وقال بعضهم . بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لآفته وذاك تعرض لفائدته ولابأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته . ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فعليه واجبان فى عورته وواجبان فى عورة غيره . أما الواجبان فى عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلايتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلابيده ، ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة ، وفى إباحة مس ماليس بسوءة لإزالة الوسخ احتمال ، ولكن الأقيس التحريم إذ ألحق مس السوأتين فى التحريم بالنظر فكذلك ينبغى أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين . والواجبان فى عورة الغير أن يغض بصر نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النهى عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولايسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو مايجرى عليه مما هو حرام فى نفسه ، فليس عليه أن ينكر حراما يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله أعلم أن ذلك لايفيد ولا يعمل به فهذا

---

(١) حديث « الأمر بغسل البراجم » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث عبد الله بن بسر « قصوا براجمكم » ولابن عدى فى حديث لأنس « وأن يتعاهد البراجم إذا توضأ » ولمسلم من حديث عائشة « عشر من الفطرة — وفيه — وغسل البراجم » (٢) الأمر بتنظيف الرواجب » أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « أنه قيل له يارسول الله لقد أبطأ عنك جبريل فقيل ولم لا يبطئ وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظافركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون رواجبكم » وفيه إسماعيل بن عياش (٣) حديث « التوقيت فى قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوما » أخرجه مسلم من حديث أنس (٤) حديث « الأمر بتنظيف ما تحت الأظفار » أخرجه الطبرانى من حديث وابصة بن سعيد « سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن كل شىء حتى سألته عن الوسخ الذى يكون بين الأظافر فقال دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٥) حديث « استبطاء الوحى : فلما هبط عليه جبريل قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لاتغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم » تقدم قبل هذا بحديثين

لا يكون عذرا بل لابدّ من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعيير بالمعاصي وذلك يؤثر فى تقبيح الأمر فى عينه وتنفير نفسه فلا يجوز تركه ، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام فى هذه الأوقات إذ لاتخلو عن عورات مكشوفة لا سيما ماتحت السرة إلى مافوق العانة ؛ إذ الناس لايعدّونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحريم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام . وقال بشر بن الحرث : ماأعنف رجلا لايملك إلا درهما دفعه ليخلى له الحمام . ورؤى ابن عمر رضى الله عنهما فى الحمام ووجهه إلى الحائط وقدعصب عينيه بعصابة وقال بعضهم : لابأس بدخول الحمام ولكن بإزارين : إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه ، وأما السنن فعشرة ، فالأول : النية وهو أن لايدخل لعاجل دنيا ولا عابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزينا للصلاة ، ثم يعطى الحمامى الأجرة قبل الدخول فإن مايستوفيه مجهول وكذا ماينتظره الحمامى ، فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحد العوضين وتطييب لنفسه ، ثم يقدّم رجله اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم ، ثم يدخل وقت الخلوة أو يتكلف تخلية الحمام فإنه إن لم يكن فى الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر فى العورات ، ثم لايخلو الإنسان فى الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف فى أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لايدرى ، ولأجله عصب ابن عمر رضى الله عنهما عينيه ، ويغسل الجناحين عند الدخول ولايعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق فى الأول ، وأن لايكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامى لكرهه ، لاسيما الماء الحار فله مئونة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدّر نفسه محبوسا فى البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم ، فإنه أشبه بيت بجهنم : النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لايغفل عن ذكر الآخرة فى لحظة فإنها مصيره ومستقره فيكون له فى كل مايراه من ماء أونار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر بحسب همته . فإذا دخل براز ونجار وبناء وحائك دارا معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة لايرى من الأشياء شيئا إلاويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لاينظر إلى شيء إلاويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعى جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية ، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول فى سوق أودار تذكر ماينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لايصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ! فإذا نسب مدة المقام فى الدنيا إلى مدة المقام فى الآخرة استحقرها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن : أن لايسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال « عافاك الله » ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول « عافاك الله » لابتداء الكلام . ثم لايكثر الكلام فى الحمام ولا يقرأ القرآن إلا سرا ولابأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريبا من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين ، ولا بأس أن يدلكه غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال : إنه دلكنى فى الحمام مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه

يفرح بذلك . ويدل على جوازه ماروى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا فى بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره فقلت : ماهذا يارسول الله ؟ فقال : إن الناقة تقحمت بى [1] » ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة . فقد قيل الماء الحار فى الشتاء من النعيم الذى يسأل عنه . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : الحمام من النعيم الذى أحدثوه . هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بعد النورة أمان من الجذام . وقيل : النورة فى كل شهر مرة تطفىء المرة الصفراء وتنقى اللون وتزيد فى الجماع . وقيل : بولة فى الحمام قائما فى الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة فى الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه، هذا حكم الرجال : وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم « لايحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام [2] » وفى البيت مستحم ، والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر [3] » وحرام على المرأة دخول الحمام إلا نفساء أو مريضة . ودخلت عائشة رضى الله عنها حماما من سقم بها . فإن دخلت لضرورة فلاتدخل إلا بمئزر سابغ ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معينا لها على المكروه .

النوع الثانى : فيما يحدث فى البدن من الأجزاء وهى ثمانية

(الأول) شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعا ، أى قطعا وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم فإنه إذا لم يكن شريفا كان ذلك تلبيسا (الثانى) شعر الشارب وقد قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « قصوا الشارب » وفى لفظ آخر « جزوا الشوارب » وفى لفظ آخر « حفوا الشوارب وأعفوا اللحى [4] » أى اجعلوها حفاف الشفة أى حولها ، وحفاف الشىء : حوله . ومنه ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ وفى لفظ آخر « احفوا » وهذا يشعر بالاستئصال وقوله « حفوا » يدل على مادون ذلك . وقال الله عز وجل ﴿ إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أى يستقصى عليكم ، وأما الحلق فلم يرد . والإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة : نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال : ذكرتنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المغيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربى فقال : تعال فقصه لى على سواك [5] » ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب ، فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه : وقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » أى كثروها وفى الخبر « إن اليهود يعفون شواربهم

(١) حديث « نزل منزلا فى بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف (٢) حديث « لا يحل لرجل أن يدخل حليلته الحمام .. الحديث » يأتى فى الذى يليه مع اختلاف

(٣) حديث « حرام على الرجال دخول الحمام الا بمئزر .. الحديث » أخرجه النسائى والحاكم وصححه من حديث جابر « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام » وللحاكم من حديث عائشة « الحمام حرام على نساء أمتى » قال صحيح الإسناد ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر « فلا يدخلها الرجال الا بإزار وامنعوها النساء الا من مريضة أو نفساء » (٤) حديث « قصوا » وفى لفظ « جزوا » وفى لفظ « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ « احفوا » ولمسلم من حديث أبى هريرة « جزوا » ولأحمد من حديثه « قصوا » (٥) حديث المغيرة ابن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربى فقال : تعال فقصه لى على سواك » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى فى الشمائل

ويقصون لحاهم [١] فخالفوهم » وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة (الثالث) شعر الإبط ويستحب نتفه فى كل أربعين يوما مرة وذلك سهل على من تعود نتفه فى الابتداء ، فأما من تعود الحلق فيكفيه الحلق إذ فى النتف تعذيب وإيلام ، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ فى خللها ويحصل ذلك بالحلق (الرابع) شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغى أن تتأخر عن أربعين يوماً (الخامس) الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة أقلم أظفارك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها [٢] » ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه للحاجة لا سيما فى أظفار الرجل وفى الأوساخ التى تجتمع على البراجم وظهور الأرحل والأيدى من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك . ولم أر فى الكتب خبرا مرويا فى ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت « أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنى وختم بإبهامه اليمنى وابتدأ فى اليسرى بالخنصر إلى الإبهام [٣] » ولما تأملت فى هذا خطر لى من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة ، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه . فالذى لاح لى فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هى المشيرة فى كلمتى الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينبغى أن يبتدئ بما على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمين ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو اليمين ، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هى اليمنى، واليد إذا تركت بطبعها كان الكف مائلا إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عاليا فما يقتضيه الطبع أولى ، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع فى حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة ، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص فى حلقة ليظهر ترتيبها . وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندى - إن لم يثبت فيها نقل - أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما فى التخليل ، فإن المعانى التى ذكرها فى اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة فى الرجل . وهذه الأصابع فى حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فإن تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين . وهذه الدقائق فى الترتيب تنكشف بنور النبوة فى لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا . ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب فى ذلك ربما لم يخطر لنا . وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه

---

(١) حديث « إن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم فخالفوهم » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة « قلنا يارسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب » قلت والمشهور أن هذا فعل المجوس ففى صحيح ابن عمر فى المجوس « أنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم »

(٢) حديث « ياأبا هريرة قلم ظفرك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها » أخرجه الخطيب فى الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر « قصوا أظافيركم » فإن الشيطان يجرى ما بين اللحم والظفر (٣) حديث « البداءة فى قلم الأظافر بمسبحة اليمنى والختم بإبهامها وفى اليسرى بالخنصر إلى الإبهام » لم أجد له أصلا وقد أنكره أبو عبد الله المازرى فى الرد على الغزالى وشنع عليه به

وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا مما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى ، ولا تظن أن أفعاله صلى الله عليه وسلم فى جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التى ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لايقدم على واحد معين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الإقدام والتقديم ، فإن الاسترسال مهملا ـ كما يتفق ـ سجية البهائم ، وضبط الحركات بموازين المعانى سجية أولياء الله تعالى. وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد : كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر ؛ إذ القريب من النبى صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريبا فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا فى يد الشيطان بواسطة الهوى . واعتبر فى ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فإنه كان يكتحل فى عينه اليمنى ثلاثا وفى اليسرى اثنين[١] » فيبدأ باليمنى لشرفها . وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا ، فإن للوتر فضلا عن الزوج فإن الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغى أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى . ولذلك استحب الإيتار فى الاستجمار . وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا يخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل ، وإنما خصص اليمين بالثلاث لأن التفضيل لابد منه للإيتار واليمين أفضل فهى بالزيادة أحق * فإن قلت : فلم اقتصر على اثنين لليسرى وهى زوج ؟ فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وتر لكان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار فى مجموع الفعل وهو فى حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته فى الآحاد . ولذلك أيضا وجه وهو أن يكتحل فى كل واحدة ثلاثا على قياس الوضوء[٢] وقد نقل ذلك فى الصحيح وهو الأولى . ولو ذهبت أستقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم فى حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته ما لم تسمعه . واعلم أن العالم لايكون وارثا للنبى صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معانى الشريعة حتى لايكون بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهى درجة النبوة ، وهى الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث ، إذ الموروث هو الذى حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذى لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعانى مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء ولا يستقل باستنباطها تلقيا بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام (السادس والسابع) زيادة السرة وقلفة الحشفة ؛ أما السرة فتقطع فى أول الولادة وأما التطهير بالختان فعادة اليهود فى اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يثغر الولد أحب وأبعد عن الخطر قال صلى الله عليه وسلم « الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء[٣] » وينبغى أن لايبالغ فى خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم لأم عطية وكانت تخفض « ياأم عطية أشمى ولا تنهكى فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج[٤] » أى أكثر لماء الوجه ودمه وأحسن فى جماعها فانظر إلى جزالة لفظه صلى الله عليه وسلم فى الكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التى هى أهم مقاصد النبوة إلى

(١) حديث « كان يكتحل فى عينه اليمنى » ثلاثا « وفى اليسرى اثنين » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

(٢) حديث « الاكتحال فى كل عين ثلاثا » قال الغزالى ونقل ذلك فى الصحيح ، قلت هو عند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذى حديث حسن .

(٣) حديث « الختان سنة الرجال مكرمة النساء » أخرجه أحمد والبيهقى من رواية أبى المليح بن أسامة عن أبيه باسناد ضعيف

(٤) حديث « أم عطية أشمى ولا تنهكى .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقى من حديث الضحاك بن قيس ولأبى داود نحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف

مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أمى من هذا الأمر النازل قدره مالو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم بيمن بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم (الثامنة) ما طال من اللحية وإنما أخرناها لنلحق بها ما فى اللحية من السنن والبدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيما طال منها فقيل إن قبض الرجل على لحيته وأخذ مافضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة وقالا تركها عافية أحب لقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » والأمر فى هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ إليه فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية . وقال النخعى عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن التوسط فى كل شىء حسن ، ولذلك قيل كلما طالت اللحية تشمر العقل .

فصـــل

وفى اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ؛ خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها ونتف الشيب منها والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعا لأجل الرياء وتركها شعثة إظهارا للزهد والنظر إلى سوادها عجبا بالشباب وإلى بياضها تكبرا بعلو السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين . أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهو منهى عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشر شيوخكم من تشبه بشبابكم [1] » والمراد بالتشبه بالشيوخ فى الوقار لا فى تبييض الشعر و « نهى عن الخضاب بالسواد [2] » وقال هو خضاب أهل النار [3] » وفى لفظ آخر « الخضاب بالسواد خضاب الكفار » وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه وكان يخضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضى الله عنه فرد نكاحه وأوجعه ضربا وقال : غررت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك ويقال أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة [4] » الثانى : الخضاب بالصفرة والحمرة وهو جائز تلبيسا للشيب على الكفار فى الغزو والجهاد فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين [5] » وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة ، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة . الثالث : تبييضها بالكبريت استعجالا لإظهار علو السن توصلا إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترفعاً عن الشباب وإظهارا لكثرة العلم ظنا بأن كثرة الأيام تعطيه فضلا وهيهات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلا فالعلم ثمرة العقل وهى غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب

---

(١) حديث « خير شبابكم من تشبه بكهولكم الحديث » أخرجه الطبراني من حديث واثلة باسناد ضعيف

(٢) حديث « نهى عن الخضاب بالسواد » أخرجه ابن سعد فى الطبقات من حديث عمرو بن العاص باسناد منقطع ، ولمسلم من حديث جابر « وغيروا هذا بشىء واجتنبوا السواد » قاله حين رأى بياض شعر أبى قحافة

(٣) حديث « الخضاب بالسواد خضاب أهل النار » وفى لفظ « خضاب الكفار » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ « الكفار » قال ابن أبى حاتم منكر .

(٤) حديث « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث ابن عباس بإسناد جيد . (٥) حديث « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين » أخرجه الطبرانى والحاكم بلفظ الإفراد من حديث ابن عمر قال ابن أبى حاتم منكر .

بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما آتى الله عز وجل عبدا علما إلا شابا والخير كله فى الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ وكان أنس رضى الله عنه يقول « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة فقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب فقيل أهو شين فقال كلكم يكرهه [1] » ويقال إن يحي بن أكثم ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل فى مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه كم سن القاضى أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها فأفحمه [2] وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت فى بعض الكتب لا تغرنكم اللحى فإن التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحمق ولو كان أمية ابن عبد شمس وقال أيوب السختيانى أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال على بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سنا منك ، وقيل لأبى عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به وقال يحي بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بغلة الشافعى يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت تمشى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتنى بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتنى لم أدركه بعلو ولا نزول (الرابع) نتف بياضها استنكافا من الشيب « وقد نهى عليه السلام عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن [3] » وهو فى معنى الخضاب بالسواد وعلة الكراهية ماسبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور (الخامس) نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوه للخلقة ونتف الفنيكين بدعة وهما جانبا العنفقة . شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان ينتف فنيكيه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن أبى ليلى قاضى المدينة شهادة من كان ينتف لحيته وأما نتفها فى أول النبات تشبها بالمرد فمن المنكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال فإن لله سبحانه ملائكة يقسمون والذى زين بنى آدم باللحى وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل فى غريب التأويل اللحية هى المراد بقوله تعالى ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ قال أصحاب الأحنف بن قيس وددنا أن نشترى للأحنف لحية ولو بعشرين ألفا وقال شريح القاضى وددت أن لى لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع فى المجالس وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض ؟ فإن من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلا هرون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلا (السادس) تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة

---

(١) حديث « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فقيل ... الخ » ولمسلم من حديثه « وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماشانه الله ببيضاء » (٢) حديث يحيى بن أكثم « ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له كم سن القاضى فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ ابن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن » أخرجه الخطيب فى التاريخ بإسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين ، وإما بالنسبة إلى معاذ فما يتم له ذلك على قول يحيى ابن سعيد الأنصارى ومالك وابن أبى حاتم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة فى الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم (٣) حديث « نهى عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

للتزين للنساء والتصنع قال كعب : يكون فى آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالمناجل أولئك لا خلاق لهم (السابع) الزيادة فيها وهو أن يزيد فى شعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحى وينتهى إلى نصف الخد وذلك يباين هيئة أهل الصلاح . (الثامن) تسريحها لأجل الناس قال بشر : فى اللحية شركان : تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لإظهار الزهد . (التاسع والعاشر) النظر فى سوادها أو فى بياضها بعين العجب وذلك مذموم فى جميع أجزاء البدن بل فى جميع الأخلاق والأفعال على ماسيأتى بيانه فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها فى الرأس وهى فرق شعر الرأس (١) والمضمضة والاستنشاق (٢) وقص الشارب والسواك وثلاثة فى اليد والرجل وهى القلم وغسل البراجم وتنظيف الرواجب (٣) وأربعة فى الجسد وهى نتف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء بالماء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرّض للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا وليتحقق أنّ فضلات الباطن وأوساخه التى يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتى تفصيلها فى ربع المهلكات مع تعريف الطرق فى إزالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عز وجل .

تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه . ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى غمر العباد بلطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التى تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق فى السؤال والدعاء فقال : هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له ؟ وباين السلاطين بفتح الباب ، ورفع الحجاب فرخص للعباد فى المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات فى الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة وغيره من ضعفاء الملوك لايسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ماأعظم شأنه وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه ، وأعم إحسانه ؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبى وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليما أما بعد : فإنّ الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرّة الطاعات ؛ وقد استقصينا فى فن الفقه فى بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه ـ أصولها وفروعها ، صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة . ووقائعها الشاذة لتكون خزانة للمفتى منها يستمدّ ومعوّلا له إليها يفزع ويرجع . ونحن الآن

---

(١) حديث « فرق شعر الرأس .. الخ » من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره إلى أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه » (٢) حديث « عشر من الفطرة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة ولفظه « قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء ـ قال وكيع يعنى الاستنجاء ـ قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ضعفه النسائى ولأبى داود وابن ماجه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء قال أبو داود روى نحوه عن ابن عباس . قال « خمس كلها فى الرأس » وذكر منها « الفرق » ولم يذكر « إعفاء اللحية » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « الفطرة خمس : الختان .. الحديث » (٣) حديث « تنظيف الرواجب » تقدم

فى هذا الكتاب نقتصر على مالابدّ للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنه ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية فى معانى الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره فى فن الفقه ؛ ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب . الباب الأول : فى فضائل الصلاة . الباب الثانى : فى تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : فى تفضيل الأعمال الباطنة منها . الباب الرابع : فى الإمامة والقدوة . الباب الخامس : فى صلاة الجمعة وأدابها . الباب السادس : فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها . الباب السابع : فى التطوعات وغيرها .

الباب الأول : فى فضائل الصلاة السجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ مما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم بقوم وهم به راضون ؛ ورجل أذن فى مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ؛ ورجل ابتلى بالرزق فى الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه [3] » وقيل فى تفسير قوله عز وجل ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ﴾ نزلت فى المؤذنين ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول المؤذن [4] » وذلك مستحب إلا فى الحيعلتين فإنه يقول فيهما : لاحول ولاقوة إلا بالله ؛ وفى قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض وفى التثويب صدقت وبررت ونصحت ؛ وعند الفراغ يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة .

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لاشىء قال صلى الله عليه

باب أسرار الصلاة

(١) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك . . الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث ابن عمر مختصرا وهو فى الصغير للطبرانى بنحو مما ذكره المؤلف (٢) حديث « لايسمع صوت المؤذن » جن ولا انس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة أخرجه البخارى من حديث أبي سعيد

(٣) حديث « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحسن بن سعيد فى مسنده من حديث أنس باسناد ضعيف (٤) حديث « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » متفق عليه من حديث أبى سعيد

(٥) حديث « خمس صلوات كتبهن الله على العباد . . . الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبد البر

وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر[2] » وقال صلى الله عليه وسلم « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما[3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من لقى الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشىء من حسناته[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقدم هدم الدين[5] » وسئل صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها[6] » وقال صلى الله عليه وسلم « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان[7] » وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الجنة الصلاة[8] » وقال « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شىء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد[9] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر[10] » أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام[11] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى الصلاة فإنه فى صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وأنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغى له أن يتأخر فإن أعظمكم أجرا أبعدكم دارا ، قالوا لم يا أباهريرة؟ قال : من أجل كثرة الخطا . ويروى « إن أول ماينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة[12] فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب[13] » وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدى الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول: إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها .

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى[14] » وقال يزيد الرقاشى « كانت

---

(١) حديث « مثل خمس صلوات كمثل نهر .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر ولهما نحوه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح » أخرجه مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسلا (٤) حديث « من لقى الله مضيعا للصلاة لم يعبأ الله بشىء من حسناته » وفى معناه حديث « أول ما يحاسب به العبد الصلاة » وفيه « فإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس (٥) حديث « الصلاة عماد الدين » رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث عمر قال الحاكم : عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط إنه غير معروف (٦) حديث « سئل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٧) حديث « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا .. الحديث » أخرجه احمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمرو (٨) حديث « مفاتيح الجنة الصلاة » رواه أبو داود الطيالسى من حديث جابر وهو عند الترمذى ولكن ليس داخلا فى الرواية (٩) حديث « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئا أحب اليه من الصلاة .. الحديث » لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبرانى من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر (١٠) حديث « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر » أخرجه البزار من حديث ابى الدرداء بإسناد فيه مقال . (١١) حديث « من ترك صلاة متعمدا فقد برأ من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم » أخرجه احمد والبيهقى من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات (١٢) حديث « أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة .. الحديث » رويناه فى الطيوريات من حديث أبى سعيد باسناد ضعيف ولأصحاب السنن والحاكم وصحح إسناده نحوه من حديث أبى هريرة وسيأتى (١٣) حديث « يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك الرزق من حيث لا تحتسب » لم أقف له على اصل (١٤) حديث « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من اوفى استوفى » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث الحسن مرسلا وأسنده البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس باسناد فيه جهالة

صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة [١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإنّ مابين صلاتيهما مابين السماء والأرض [٢] ، وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم « لاينظر الله يوم القيامة إلى العبد لايقيم صلبه بين ركوعه وسجوده [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « أما يخاف الذى يحوّل وجهه فى الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتنى حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته [٦] » وقال ابن مسعود رضى الله عنه وسلمان رضى الله عنه : الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ، ومن طفف فقد علم ماقال الله فى المطففين .

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة [٧] » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم [٨] » وفى رواية أخرى « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الحطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين لشهدها » يعنى صلاة العشاء . وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا « من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة [١٠] » وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا فى المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتهى من الدنيا إلا ثلاثة : أخا إنه إن تعوجت قومنى وقوتا من الرزق عفوا من غير تبعة وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال : مازال الشيطان بى آنفا حتى أريت أنّ لى فضلا عن غيرى لا أؤم أبدا . وقال الحسن : لاتصلوا خلف رجل لايختلف إلى العلماء . وقال النخعى : مثل الذى يؤم الناس بغير علم مثل الذى يكيل الماء فى البحر لا يدرى

---

(١) حديث يزيد الرقاشى « كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة » رواه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف (٢) حديث « إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعها وسجودهما واحد . الحديث » أخرجه ابن المحبر فى العقل من حديث أبى أيوب الانصارى بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث ابن أبى أسامة فى مسنده عن ابن المحبر (٣) حديث « لاينظر الله الى عبد لايقيم صلبه بين ركوعه وسجوده » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح (٤) حديث « أما يخاف الذى يحول وجهه فى الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار » أخرجه ابن عدى فى عوالى مشايخ مصر من حديث جابر « مايؤمنه إذا التفت فى صلاته ان يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب او وجه خنزير » قال منكر بهذا الإسناد . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله وجهه وجه حمار »
(٥) حديث « من صلى الصلاة لوقتها فأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى . الحديث » اخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسى والبيهقى فى الشعب من حديث عبادة ابن الصامت بسند ضعيف نحوه (٧) حديث « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته » اخرجه احمد والحاكم وصحح إسناده من حديث ابى قتادة (٢) حديث « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه من حديث ابن عمر
(٨) حديث أبى هريرة « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون .. الحديث » متفق عليه
(٩) حديث عثمان « من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة ... الحديث » اخرجه مسلم من حديثه مرفوعا قال الترمذى وروى عن عثمان موقوفا (١٠) حديث « من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة » لم اجده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر فى كتاب الصلاة

زيادته من نقصانه ؟ وقال حاتم الأصم : فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشر آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا لم يرد به خير . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خير له من أن يسمع النداء ثم لايجيب . وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له : إن الناس قد انصرفوا فقال ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ لفضل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق . وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لاتفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله براءتين : براءة من النفاق وبراءة من النار [1] » ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة : ماكانت أعمالكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال : كنا نتوضأ قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون : كنا نسمع الأذان في المسجد . وروى أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما تقرّب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي [2] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحطعنه بها سيئة [3] » وروى « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم . أعني بكثرة السجود [4] » وقيل « إن أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا [5] » وهو معنى قوله عز وجل ﴿ واسجد واقترب ﴾ وقال عز وجل ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ فقيل هو مايلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ، وهو الأصح وقيل هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار [6] » ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب . وكان يوسف بن أسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عقبة بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل

---

(١) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لاتفوته تكبيرة الإحرام ... الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس باسناد رجاله ثقات (٢) حديث « . تقرب العبد الى الله بشيء أفضل من سجود خفي ، رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسلا (٣) حديث « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة » أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث ثوبان وأبي الدرداء (٤) حديث « ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أدع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مرافقتك في الجنة . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك (٥) حديث « ان أقرب ما يكون العبد الى الله أن يكون ساجدا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٦) حديث « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

منه حيث يخرّ ساجدا . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أقرب ما يكون للعبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك .

فضيلة الخشوع

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ قيل سكارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ وكم من مصل لم يشرب خمرا وهو لا يعلم ما يقول فى صلاته . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين لم يحدّث نفسه فيهما بشىء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهى خداج[2] » وروى عن الله سبحانه فى الكتب السالفة أنه قال « ليس كل مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر على عبادى وأطعم الفقير الجائع لوجهى » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك[3] » وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه « وإذا صليت فصل صلاة مودع[4] » أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا[5] » والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة ؟ وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه[6] » اشتغالا بعظمة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه[7] » وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته

---

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشىء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلا وهو فى الصحيحين من حديث عثمان بزيادة فى أوله دون قوله « بشىء من الدنيا » وزاد الطيالسى إلا بخير

(٢) حديث « إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع .. الحديث » أخرجه الترمذى والنسائى بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب (٣) حديث « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عائشة نحوه دون ذكر « الصلاة » قال الترمذى حسن صحيح (٤) حديث « إذا صليت فصل صلاة مودع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى أيوب والحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص » وقال صحيح الإسناد والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنس نحوه (٥) حديث « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » أخرجه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا بإسناد صحيح ورواه الطبرانى وأسنده ابن مردويه فى تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد لين والطبرانى من قول ابن مسعود « من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر . الحديث » وإسناده صحيح

(٦) حديث عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلا « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدا من الناس »

(٧) حديث « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر فى كتاب الصلاة من رواية عثمان بن دهرش مرسلا « لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى بن كعب وإسناده ضعيف

« ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لوخشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[1] ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول « اللهم زوجنى الحور العين » فقال : بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى . وقيل لخلف بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب فى صلاتك فتطردها قال : لا أعود نفسى شيئا يفسد على صلاتى ، قيل له : وكيف تصبر على ذلك ؟ قال . بلغنى أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدى ربى أفأتحرك لذبابة ؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله : تحدثوا أنتم فإنى لست أسمعكم . ويروى عنه أنه كان يصلى يوما فى جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة . وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له . مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . ويروى عن على بن الحسين أنه كان إذ توضأ اصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « قال داود صلى الله عليه وسلم فى مناجاته : إلهى من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمتى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات ، من أجلى يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذى يضىء نوره فى السموات كالشمس » إن دعانى لبيته وإن سألنى أعطيته ، أجعل له فى الجهل حلما وفى الغفلة ذكرا وفى الظلمة نورا ، وإنما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان لاييبس أنهارها ولا تتغير ثمارها » ويروى عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذى أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى ، ثم أقوم إلى صلاتى وأجعل الكعبة بين حاجبى والصراط تحت قدمى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت ورائى أظنها آخر صلاتى ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعا بتواضع وأسجد سجودا بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص ، ثم لا أدرى أقبلت منى أم لا ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا فى الجنة »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ألف المسجد ألفه الله تعالى »[3] ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس »[4] ، وقال صلى الله عليه وسلم « لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد »[5] ، وقال صلى الله عليه وسلم « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام

---

(١) حديث « رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف أنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم

(٢) حديث « من بنى لله مسجدا ولو مثل مفحص قطاة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبى ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله « ولو مثل مفحص القطاة »

(٣) حديث « من ألف المسجد ألفه الله تعالى » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد بسند ضعيف (٤) حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » متفق عليه من حديث أبى قتادة (٥) حديث « لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » أخرجه الدارقطنى من حديث جابر وأبى هريرة بأسنادين ضعيفين والحاكم من حديث أبى هريرة

فى مصلاه الذى يصلى فيه تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل فى بعض الكتب إن بيوتى فى أرضى المساجد وإنّ زوّارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان [٤] » وقال سعيد بن المسيب من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيرا . ويروى فى الأثر أو الخبر « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش [٥] » وقال النخعى : كانوا يرون أن المشى فى الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة : وقال أنس بن مالك : من أسرج فى المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام فى ذلك المسجد ضوءه . وقال على كرّم الله وجهه : إذا مات العبد يبكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحا . وقال عطاء الخراسانى : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال أنس بن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ماحولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين وما من عبد يقوم يصلى إلا تزخرفت له الأرض . ويقال : ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم .

الباب الثانى : فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغى للمصلى إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث فى البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ويراوج بين قدميه ولا يضمهما فإنّ ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد « نهى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد فى الصلاة [٦] » والصفد هو اقتران القدمين معا ومنه قوله تعالى ﴿ مقرنين فى الأصفاد ﴾ والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل ﴿ الصافنات الجياد ﴾ هذا ما يراعيه فى رجليه عند القيام ويراعى فى ركبتيه ومعقد نطاقه الانتصاب ، وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والإطراق أقرب للخشوع وأغض للبصر وليكن بصره محصورا على مصلاه الذى يصلى عليه ، فإن لم يكن له

---

(١) حديث « الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٢) حديث « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكرهم الدنيا .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الاسناد (٣) حديث « قال الله تعالى : إن بيوتى فى أرضى المساجد وإن زوارى فيها عمارها . الحديث » أخرجه أبونعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « يقول الله عزوجل يوم القيامة ابن جيرانى فتقول الملائكة من هذا الذى ينبغى له أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد » وهو فى الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسناد صحيح ، واسند ابن حبان فى الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه (٤) حديث إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث ابي سعيد
(٥) حديث « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش » لم اقف له على اصل

الباب الثانى

(٦) حديث « النهى عن الصفن والصفد فى الصلاة » عزاه رزين إلى الترمذى ولم اجده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره اصحاب الغريب كابن الأثير فى النهاية . وروى سعيد بن منصور ان ابن مسعود راى رجلا صافا أو صافنا قدميه فقال : اخطأ هذا السنة

مصلى وليفرب من جدار الحائط أو ليخط خطا ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط ؟ وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستقباله وإطراقه كذلك فليقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تحصنا به من الشيطان ، ثم ليأت بالإقامة وإن كان يرجو حضور من يقتدى به فليؤذن أولا ثم ليحضر النية وهو أن ينوى فى الظهر مثلا ويقول بقلبه : أؤدى فريضة الظهر لله ، ليميزها بقوله أؤدى عن القضاء وبالفريضة عن النفل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معانى هذه الألفاظ حاضرة فى قلبه فإنه هو النية ، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ، ويجتهد أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب فإذا حضر فى قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حدو منكبيه بعد إرسالهما بحيث يحاذى بكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمتى أذنيه وبرءوس أصابعه رءوس أذنيه [1] ليكون جامعا بين الأخبار الواردة فيه ، ويكون مقبلا بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ، ولا يتكلف فيها تفريجا ولا ضما بل يتركها على مقتضى طبعها ، إذ نقل فى الأثر النشر والضم [2] وهذا بينهما فهو أولى ، وإذا استقرت اليدان فى مقرهما ابتدأ التكبير مع إرسالها وإحضار النية ، ثم يضع اليدين على مافوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراما لليمنى بأن تكون محمولة ، وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى ، وقد روى أن التكبير مع رفع اليدين [3] ومع استقرارهما [4] ومع الإرسال [5] فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى فى صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع . ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء فيليق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد ، وأما رفع اليد فكالمقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغى أن يرفع يديه إلى قدام رفعا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضا اذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالا خفيفا رفيقا ويستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال ، وفى بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى [6] » فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه . وأما التكبير فينبغى أن يضم الهاء من قوله « الله » ضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ، وذلك ينساق إليه بالمبالغة : ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفا ، كأنه يقول « أكبار » ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه

القـــراءة

ثم يبتدى بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر « الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان

---

(١) حديث « رفع اليدين إلى حدو المنكبين » وورد « إلى شحمة أذنيه » وورد « إلى رءوس أذنيه » متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر إسناد ضعيف « إلى شحمة أذنيه » ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث « فروع أذنيه » (٢) حديث « نشر الأصابع عند الافتتاح » وقيل « ضمها » وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقى « ولم يفرج بين أصابعه ولم يضمها » ولم أجد التصريح بضم الأصابع (٣) حديث التكبير مع رفع اليدين أخرجه البخارى من حديث ابن عمر « كان يرفع يديه حين يكبر » ولأبي داود من حديث وائل « يرفع يديه مع التكبير » (٤) حديث التكبير مع استقرار اليدين أى مرفوعتين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر » زاد أبو داود « وهما كذلك » (٥) حديث « التكبير مع إرسال اليدين » أخرجه أبو داود من حديث أبي حميد « كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم فى موضعه معتدلا » قال ابن الصلاح فى المشكل فكلمة « حتى » التى هى للغاية تدل بالمعنى على ماذكره أى من ابتداء التكبير مع الإرسال (٦) « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى » أخرجه الطبرانى من حديث معاذ بإسناد ضعيف

الله بكرة وأصيلا [1] وجهت وجهى - إلى قوله - وأنا من المسلمين [2] ، ثم يقول « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك [3] » ليكون جامعا بين متفرقات ما ورد فى الأخبار . وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ثم يقرأ الفاتحة يبتدئ فيها بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » بتمام تشديداتها وحروفها ويجتهد فى الفرق بين الضاد والظاء ويقول « آمين » فى آخر الفاتحة ويمدها مدا ، ولا يصل « آمين » بقوله « ولا الضالين » وصلا . ويجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموما ، ويجهر بالتأمين . ثم يقرأ السورة أوقدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوله « سبحان الله » ويقرأ فى الصبح من السور الطوال من المفصل وفى المغرب من قصاره ، وفى الظهر والعصر والعشاء نحو ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ وما قاربها . وفى الصبح فى السفر ﴿ قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد ﴾ وكذلك فى ركعتى الفجر والطواف والتحية وهو فى جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا فى أول الصلاة .

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعى فيه أمورا وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبير مدا إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه فى الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما وأن يمد ظهره مستويا وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لايكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافى مرفقيه عن جنبيه وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها . وأن يقول « سبحان ربى العظيم » ثلاثا والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن ، إن لم يكن إماما ، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول « سمع الله لمن حمده » ويطمئن فى الاعتدال ويقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد » ، ولا يطول هذا القيام إلا فى صلاة التسبيح والكسوف والصبح . ويقنت فى الصبح فى الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود [4] .

السجود

ثم يهوى إلى السجود مكبرا فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه فى غير الركوع ، وينبغى أن يكون أول مايقع منه على الأرض ركبتاه وأن يضع بعدهما يديه ثم يضع بعدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يجافى مرفقيه عن جنبيه : ولاتفعل المرأة ذلك . وأن يفرج بين رجليه . ولاتفعل المرأة ذلك . وأن يكون فى سجوده مخويا على الأرض . ولا تكون المرأة مخوية .

---

(١) حديث « أنه يقول بعد قوله الله أكبر : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال « بينا نحن نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم « أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال : الله أكبر كبيراً ... الحديث » (٢) حديث « دعاء الاستفتاح وجهت وجهى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث على

(٣) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » فى الاستفتاح أيضا أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث عائشة وضعفه الترمذى والدارقطنى ورواه مسلم موقوفا على عمر وعند البيهقى من حديث جابر الجمع بين « وجهت » وبين « سبحانك اللهم »

(٤) حديث « القنوت فى الصبح بالكلمات المأثورة » أخرجه البيهقى من حديث ابن عباس « كان النبى صلى الله عليه وسلم يقنت فى صلاة الصبح وفى وتر الليل بهؤلاء الكلمات : اللهم اهدنى فيمن هديت . . . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث الحسن « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلمه هؤلاء الكلمات يقولهن فى الوتر » وإسناده صحيح

والتخوية : رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين . وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما ، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس ، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب [1] فإنه منهي عنه . وأن يقول « سبحان ربي الأعلى » ثلاثا فان زاد فحسن إلا أن يكون إماما . ثم يرفع من السجود فيطمئن جالسا معتدلا فيرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها . ويقول « رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني واجبرني وعافني واعف عني » ، ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح . ويأتي بالسجدة الثانية كذلك ويستوي منها جالسا جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة لا تشهد عقيبها . ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه في حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام . بحيث تكون الهاء من قوله « الله » عند استوائه جالسا ؛ وكاف « أكبر » عند اعتماده على اليد للقيام ، وراء « أكبر » في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدئ في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم . ويصلي الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوذ كالابتداء .

التشهـــد

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول . ثم يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة ، ولا بأس بارسال الإبهام أيضا ، ويشير بمسبحة يمناه وحدها عند قوله « إلا الله » لا عند قوله « لا إله » ، ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدتين . وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور [2] بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسننه كسنن التشهد الأول لكن يجلس في الأخير على وركه الأيسر ، لأنه ليس مستوفزا للقيام بل هو مستقر ، ويضجع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه . ثم يقول « السلام عليكم ورحمة الله » ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمين ويلتفت شمالا كذلك . ويسلم تسليمة ثانية وينوي الخروج من الصلاة بالسلام وينوي بالسلام من على يمينه الملائكة والمسلمين في الأولى ، وينوي مثل ذلك في الثانية . ويجزم التسليم [3] ولا يمده مدا فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد ، ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوي الإمام الإمامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ، ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب . وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله « آمين » في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم . ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معا لا تعقيبا . ويسكت الإمام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام . ولا يقرأ المأموم السور في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ويقول الإمام « سمع الله لمن حمده » عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم . ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسبيحات الركوع والسجود ، ولا يزيد

(١) حديث « النهي عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « الدعاء المأثور بعد التشهد » أخرجه مسلم من حديث علي في دعاء الاستفتاح قال « ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لي ما قدمت .. الحديث » وفي الصحيحين من حديث عائشة « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : من عذاب جهنم . . الحديث » وفي وفي الباب غير ذلك جمعتها في الأصل (٣) حديث « حذف السلام سنة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وضعفه ابن القطان .

فى التشهد الأول بعد قوله « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه فى التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وينوى عند السلام: السلام على القوم والملائكة. وينوى القوم بتسليمهم جوابه ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه. والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم. وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى. ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول « اللهم اهدنا » ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور، ويمسح لوجه عند ختم الدعاء. لحديث نقل فيه، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما فى آخر التشهد.

المنهيـــات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن فى الصلاة والصفد وقد ذكرناهما وعن الإقعاء[1] وعن السدل[2] والكفت[3] وعن الاختصار[4] وعن الصلب[5] وعن المواصلة[6] وعن صلاة الحاقن[7] والحاقب[8] والحازق[9] وعن صلاة الجائع والغضبان والمتلثم[10] وهو ستر الوجه. أما الإقعاء: فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب. وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين والركبتين. وأما السدل: فمذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك. وكان هذا فعل اليهود فى صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم. والقميص فى معناه فلا ينبغى أن يركع ويسجد ويداه فى بدن القميص. وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه. والأول أقرب. وأما الكف فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود. وقد يكون الكف فى شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهى للرجال. وفى الحديث « أمرت

---

(١) حديث « النهى عن الإقعاء » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث على بسند ضعيف « لا يقع بين السجدتين » ومسلم من حديث عائشة « كان ينهى عن عقبة الشيطان » والحاكم من حديث سمرة وصححه « نهى عن الإقعاء » (٢) حديث « نهى عن السدل فى الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « النهى عن الكفت فى الصلاة » متفق عليه من حديث ابن عباس « أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكفت شعرا ولا ثوبا » (٤) حديث « النهى عن الاختصار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ « نهى أن يصلى الرجل مختصرا »

(٥) حديث « النهى عن الصلب فى الصلاة » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث « النهى عن المواصلة » عزاه رزين إلى الترمذى ولم أجده عنده، وقد فسره الغزالى بوصل القراءة بالتكبير ووصل القراءة بالركوع وغير ذلك. وقد روى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة « سكتتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى صلاته: إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ من قراءة القرآن » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « كان يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة .. الحديث » (٧) حديث « النهى عن صلاة الحاقن » أخرجه ابن ماجه والدارقطنى من حديث أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى الرجل وهو حاقن » وأبو داود من حديث أبى هريرة « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلى وهو حاقن » وله وللترمذى وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة « لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان » (٨) حديث « النهى عن صلاة الحاقب » لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف تبعا للأزهرى بمدافعة الغائط وفيه حديث عائشة الذى قبل هذا (٩) حديث « النهى عن صلاة الحازق » عزاه رزين إلى الترمذى ولم أجده عنده والذى ذكره أصحاب الغريب حديث « لا رأى لحازق » وهو صاحب الخف الضيق » (١٠) حديث « النهى عن التلثم فى الصلاة » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة بسند حسن « نهى أن يغطى الرجل فاه فى الصلاة » رواه الحاكم وصححه قال الخطابى هو التلثم على الأفواه

أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا [1] » وكره أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن يأتزر فوق القميص فى الصلاة ورآه من الكفت ، وأما الاختصار : فأن يضع يديه على خاصرتيه . وأما الصلب فأن يضع يديه على خاصرتيه فى القيام ويجافى بين عضديه فى القيام . وأما المواصلة : فهى خمسة ؛ اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام ولا ركوعه بقراءته ، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ولا تسليمه بتسليمه ، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمة الفرض بالتسليمة الثانية وليفصل بينهما وأما الحاقن : فمن البول ، والحاقب : من الغائط . والحازق : صاحب الخف الضيق . فإن كل ذلك يمنع من الخشوع . وفى معناه الجائع والمهتم . وفهم نهى الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب [2] » وفى الخبر « لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان [3] » وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع . وفى الحديث « سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات والعبث بالشىء [4] » وزاد بعضهم « السهو والشك » وقال بعض السلف : أربعة فى الصلاة من الجفاء ـ الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك « ونهى أيضا عن أن يشبك أصابعه [5] أو يفرقع أصابعه [6] أو يستر وجهه [7] أو يضع إحدى كفيه على الأخرى يدخلهما بين فخذيه فى الركوع [8] » وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنا نفعل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضا أن ينفخ فى الأرض عند السجود للتنظيف وأن يسوى الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيضعها على فخذه ولا يستند فى قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

تمييز الفرائض والسنن

جملة ما ذكر يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات مما ينبغى لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة : النية والتكبير والقيام والفاتحة ، والانحناء فى الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما ، والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعدا ، والجلوس للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول . فأما نية الخروج فلا تجب وما عدا هذا فليس بواجب بل هى سنن وهيئات فيها وفى الفرائض : أما السنن فمن الأفعال أربعة : رفع اليدين فى تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الاول . فأما ماذكرناه من كيفية

---

(١) حديث « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا » متفق عليه من حديث ابن عباس

(٢) حديث « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء » متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة (٣) حديث « لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان » لم أجده (٤) حديث « سبعة أشياء من الشيطان فى الصلاة : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات » وزاد بعضهم « السهو والشك » أخرجه الترمذى من رواية عدى بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث غريب ولمسلم من حديث عثمان بن أبى العاص « يارسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى الحديث » وللبخارى من حديث عائشة فى الالتفات فى الصلاة هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم وللشيخين من حديث أبى هريرة التثاؤب من الشيطان ولهما من حديث أبى هريرة إن أحدكم إذا قام يصلى جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لا يدرى كم صلى (٥) حديث « النهى عن تشبيك الأصابع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب بن عجرة (٦) حديث « النهى تفقيع الأصابع فى الصلاة » أخرجه ابن ماجه من حديث على بإسناد ضعيف لا تفقع فى أصابعك الصلاة (٧) حديث « النهى عن ستر الوجه أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة (٨) حديث « النهى عن التطبيق فى الركوع » متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص : كنا نفعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدى على الركب

نشر الأصابع وحدّ رفعها فهى هيئات تابعة لهذه السنة ، والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته ، وجلسة الاستراحة لم نعدها من أصول السنة فى الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة فى نفسها ولذلك لم تفرد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله « آمين » فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقالات ، ثم الذكر فى الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم الدعاء فى آخر التشهد الأخير ، ثم التسليمة الثانية وإن جمعناها فى اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة : وهى الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة فى ترتيب نظم الصلاة فى أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا ؟ بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر فى تغيير النظم فعبر عن ذلك بالبعض . وقيل الأبعاض تجبر بالسجود : وأما الأذكار فكلها لا تقتضى سجود السهو إلا ثلاثة : القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيه ، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود فى صورتهما مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير . وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركهما لا يؤثر مع أن القيام صار معمورا بالفاتحة ومميزا عن العادة بها ، وكذلك الدعاء فى التشهد الأخير والقنوت أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مدّ الاعتدال فى الصبح لأجله فكان كمد جلسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد جلسة للتشهد الأول . فبقى هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب وفى الممدود احتراز عن غير الصبح وفى خلوه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام فى الصلاة * فإن قلت : تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تمييز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب فى ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه ؟ فاعلم أن اشتراكهما فى الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ، ولنكشف ذلك لك بمثال : وهو أن الإنسان لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر أجسام أعضائه . ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الإنسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته ، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كماله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض فى اللون فهذه درجات متفاوتة ؛ فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبدنا باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص ـ كما سيأتى ـ ونحن الآن فى أجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجرى منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها . والسنن التى ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجرى منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه ، فكذلك من اقتصر على أقل ما يجرى من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبدا حيا مقطوع الأطراف . وأما الهيئات وهى ما وراء السنن فتجرى مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب

وحسن اللون ، وأما وظائف الأذكار فى تلك السنن فهى مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرهما . فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل . ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة فى تحسين صورتها وتقبيحها . فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها . ولا ينبغى أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها فإن ذلك يضاهى قول الطبيب : إن فقء العين لا يبطل وجود الإنسان ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب فى قبول السلطان إذا أخرجه فى معرض الهدية ـ فهكذا ينبغى أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب ، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهى الخصم الأول على صاحبها تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى . فطالع الأخبار التى أوردناها فى كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

الباب الثالث : فى الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكر فى هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . ثم نذكر المعانى الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها . ثم لنذكر تفصيل ماينبغى أن يحضر فى كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) نهى وظاهره التحريم وقوله عز وجل (حتى تعلموا ما تقولون) تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » حصر بالألف واللام وكلمة « إنما » للتحقيق والتوكيد ، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام « إنما الشفعة فيما لم يقسم » الحصر والاثبات والنفى ، وقوله صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » وصلاة الغافل لاتمنع من الفحشاء والمنكر ، وقال صلى الله عليه وسلم « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب[1] » وماأراد به إلا الغافل وقال صلى الله عليه وسلم (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها[2]) والتحقيق فيه أن المصلى مناج ربه عز وجل[3] ، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة ، وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلا فهى فى نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذى هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة مايحصل به

الباب الثالث

(١) حديث « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة « رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ولأحمد « رب قائم حظه من صلاته السهر » وإسناده حسن .

(٢) حديث « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » لم أجده مرفوعا وروى محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة من رواية عثمان ابن أبى دهرش مرسلا « لايقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى ابن كعب ولابن المبارك فى الزهد موقوفا على عمار لايكتب للرجل من صلاته ماسها عنه

(٣) حديث « المصلى يناجى ربه » متفق عليه من حديث أنس

الإيلام كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطابا ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك فى الصوم ، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج ، ويمتحن بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق . ولا شك أن هذا القسم باطل فان تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقا إلا إذا أعرب عما فى الضمير ولا يكون معربا إلا بحضور القلب، فأى سؤال فى قوله (إهدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلا ؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة فى تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال : لأشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ؛ ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ، ولو جرت على لسانه فى ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لايعرف حضوره ولا يراه لايصير باراً فى يمينه إذ لايكون كلامه خطاباً ونطقا معه مالم يكن هو حاضرا فى قلبه ، فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه فى بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب اليه عند نطقه لم يصر باراً فى يمينه . ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به ! هذا حكم القراءة والذكر . وبالجملة فهذه الخاصية لاسبيل إلى إنكارها فى النطق وتمييزها عن الفعل . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعا ولو جاز أن يكون معظما لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظما لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه، أو يكون معظما للحائط الذى بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف اليها مقصود المناجاة فان ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التى هى مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى الصفة التى استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هى المطلوبة فكيف الأمر فى الصلاة ولا أرب فى أفعالها ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب * فان قلت : إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطا فى صحتها خالفت إجماع الفقهاء فانهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير ؟ فاعلم أنه قد تقدم فى كتاب العلم : أن الفقهاء لا يتصرفون فى الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا فى طريق الآخرة بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح ؛ وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان ؛ فأما أنه ينفع فى الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لايمكن أن يدعى الإجماع. فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكى عن سفيان الثورى أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته وروى عن الحسن أنه قال : كل صلاة لايحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو فى الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضا مسندا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل[1] منها » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسك به ؟ وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ، فجعله إجماعا ، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار ، والآثار ظاهرة فى هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى فى التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق . فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب فى جميع الصلاة فان ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو فى اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك . ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل فى جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية . فانه على الجملة أقدم على العمل ظاهرا وأحضر القلب لحظة . وكيف لا والذى صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذى يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالا من الذى يعرض عن الخدمة ؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطرا فى نفسه فاليك الخيرة بعده فى الاحتياط والتساهل. ومع هذا فلا مطمع فى مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة فان ذلك من ضرورة الفتوى ـ كما سبق التنبيه عليه ـ ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها . ولكن قد ذكرنا فى باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر فى كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع . فلنقتصر على هذا القدر من البحث فان فيه مقنعا للمريد الطالب لطريق الآخرة . وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير . فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح فى أجزاء الصلاة . وكم من حى لا حراك به قريب من ميت ؟ فصلاة الغافل فى جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لا حراك به نسأل الله حسن العون

بيان المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة

إعلم أن هذه المعانى تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست جمل وهى : حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء . فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج فى اكتسابها. أما التفاصيل: فالأول، حضور القلب ونعنى به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما ، ومهما انصرف فى الفكر عن غير ما هو فيه وكان فى قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شىء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ ؛ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذى أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس فى تفهم المعانى للقرآن والتسبيحات . وكم من معان لطيفة يفهمها المصلى فى أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أمورا ؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب

(١) حديث « إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه

فيه ومتفهم لمعناه ولايكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هى عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لايخاف لايسمى هائبا ، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد ومايجرى مجراه من الأسباب الخسيسة لاتسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال . وأما الرجا فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لايرجو مثوبته . والعبد ينبغى أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لايكون توهم تقصير وارتكاب ذنب . وأما أسباب هذه المعانى الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه . والقلب إذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لاتنصرف إليها مالم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها ، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب فى الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدى بعض الأكابر ممن لايقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لايحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذى بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنن أن له سببا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن فى تقوية الإيمان - وطريقه يستقصى فى غير هذا الموضع - وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر . وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التى تنجذب الخواطر إليها ، ومالم تنقطع تلك المواد لاتنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، لذلك ترى أن من أحب غير الله لاتصفو له صلاة عن الخواطر. وأما التعظيم فهى حالة للقلب تتولد من معرفتين ، إحداهما : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لايعتقد عظمته لاتذعن النفس لتعظيمه . الثانية ، معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لاتنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهى معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه ، وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف مايشاهد من ملوك الأرض . وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة - وسيأتى أسباب ذلك فى كتاب الخوف من ربع المنجيات - وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه فى وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لامحالة : وأما الحياء فباستشعاره التقصير فى العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل فى جميع أفعالها مع العلم بعظيم مايقتضيه جلال الله عز وجل والعلم

بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففى معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان . واليقين أعنى به هذه المعارف التى ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب ، كما سبق فى بيان اليقين من كتاب العلم . وبقدر اليقين يخشع القلب ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » وقد روى أنّ الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام « ياموسى إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدى فقم قيام العبد الذليل وناجنى بقلب وجل ولسان صادق » وروى أنّ الله تعالى أوحى إليه « قل لعصاة أمتك لايذكرونى فإنى آليت على نفسى أنّ من ذكرنى ذكرته فإذا ذكرونى ذكرتهم باللعنة » هذا فى عاص غير غافل فى ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟ وباختلاف المعانى التى ذكرناها فى القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه فى لحظة منها . وإلى من يتمم ولم يغب قلبه فى لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لايحس بما يجرى بين يديه . ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الاسطوانة فى المسجد اجتمع الناس عليها . وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . ووجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد فى همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات . ولذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه ويموت على ماعاش عليه : ويراعى فى ذلك حال قلبه لاحال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور فى الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان الدواء النافع فى حضور القلب

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه فانفكاكه عنها فى الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة . ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء فى إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشىء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه . وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا فى ذاته باطنا . أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإنّ ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ماجرى على حواسه ولكن الضعيف لا بدّ وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلى فى بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع

وفى المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون فى بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع للهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة فى أن لايعرفوا من على يمينهم وشمالهم . وكان ابن عمر رضى الله عنهما لا يدع فى موضع الصلاة مصحفا ولاسيفا إلانزعه ولاكتابا إلا محاه . وأما الأسباب الباطنة فهى أشد فإنّ من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لاينحصر فكره فى فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه ، فإن ما وقع فى القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعدّ له قبل التحريم بأن يجدّد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى شيبة « إنى نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذى فى البيت[1] » فإنه لاينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل الناس عن صلاتهم ؛ فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن كان لايسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل مايشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه فإمساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه بإخراجه كما روى أنه صلى الله عليه وسلم « لما لبس الخميصة التى أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبى جهم فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتى وائتونى بأنبجانية أبى جهم[2] » . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه فى صلاته إذ كان جديدا فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق[3] . « وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال : تواضعت لربى عز وجل كى لا يمقتنى » ثم خرج بها فدفعها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر عليا رضى الله عنه أن يشترى له نعلين سبتيتين جرداوين فلبسهما[4] . وكان صلى الله عليه وسلم فى يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال شغلنى هذا : نظرة إليه ونظرة إليكم[5] وروى « أن أبا طلحة صلى فى حائط وفيه شجر فأعجبه دبسى طار فى الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدركم صلى ؟ فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ثم قال : يارسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت[6] » . وعن رجل آخر أنه صلى فى حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ولم يدركم صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضى الله عنه وقال : هو صدقة فاجعله فى سبيل الله عز وجل

---

(١) حديث « إنى نسيت أن أقول لك تخمر القرنين اللتين فى البيت .. الحديث » اخرجه ابو داود من حديث عثمان الحجبى وهو عثمان بن طلحة كما فى مسند احمد ووقع للمصنف انه قال ذلك لعثمان بن أبى شيبة وهو وهم .

(٢) حديث « نزع الخميصة وقال ائتونى بأنبجانية أبى جهم » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث « أمره بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق اذ نظر اليه فى صلاته » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث أبى النضر مرسلا باسناد صحيح (٤) حديث « احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربى .. الحديث » أخرجه أبو عبدالله ابن حقيق فى شرف الفقراء من حديث عائشة باسناد ضعيف (٥) حديث « رميه بالخاتم الذهب من يده وقال شغلنى هذا نظرة اليه ونظرة اليكم » أخرجه النسائى من حديث ابن عباس باسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهبا ولا فضة إنما هو مطلق (٦) حديث « ان أبا طلحة صلى فى حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر فى الشجر .. الحديث » أخرجه فى سهوه فى الصلاة وتصدقه بالحائط مالك عن عبد الله بن أبى بكر أن أبا طلحة الأنصارى فذكره بنحوه

فباعه عثمان بخمسين ألفا . فكانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يغني غيره . فأما ماذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع فى الشهوات الضعيفة والهمم التى لا تشغل إلا حواشى القلب . فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضى جميع صلاتك فى شغل المجاذبة . ومثاله : رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة فى يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة ، فقيل له : إنّ هذا أسير السوانى ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار والشغل يطول فى دفعها فإنّ الذباب كلما ذب آب ولأجله سمى ذبابا . فكذلك الخواطر ، وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شىء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن فى أن تصفو له لذة المناجاة فى الصلاة . فإنّ من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته . وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغى أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا ، حتى إنّ الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً . وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة فى القلب مثل الماء الذى يصب فى قدح مملوء بخل فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لا محالة ولا يجتمعان

بيان تفصيل ما ينبغى أن يحضر فى القلب ـ عند كل ركن وشرط ـ من أعمال الصلاة

فنقول : حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أوّلا عن التنبيهات التى فى شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السوابق فهى الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائما والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر فى قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة ؛ فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءا بالفرح والاستبشار مشحونا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحنا يا بلال »[1] أى أرحنا بها وبالنداء إليها إذكان قرة عينه فيها صلى الله عليه وسلم . وأما الطهارة فإذا أتيت بها فى مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم فى ثيابك وهى غلافك الأقرب ، ثم فى بشرتك وهى قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذى هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على ما فرّطت وتصميم العزم على الترك فى المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك . وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإنّ ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك فى عورات باطنك وفضائح سرائرك التى لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه

---

(١) حديث « يا بلال أرحنا بها » أخرجه الدارقطني فى العلل من حديث بلال ولأبى داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم باسناد صحيح .

ساتر . وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها فى قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدى الله عز وجل قيام العبد المجرم المسىء الآبق الذى ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوبا منك ؟ هيهات فلا مطلوب سواه . وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات فى جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب فإنها إذا بغت وظلمت فى حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه[1] » . وأما الاعتدال قائما فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله عز وجل ، فليكن رأسك الذى هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطأ متنكسا ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرى عن الترؤس والتكبر ، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدى الله عز وجل فى هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر فى دوام قيامك فى صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب فى أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع . وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها : إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ؟ ولذلك لما قال أبو هريرة « كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك[2] » وروى « من أهلك » . وأما النية فاعزم على إجابة الله عز وجل فى امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفا من عقابه وطلبا للقربة منه متقلدا للمنة منه بإذنه إياك فى المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم فى نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجى وكيف تناجى وبماذا تناجى ؟ وعند هذا ينبغى أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف . وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغى أن لا يكذبه قلبك فإن كان فى قلبك شىء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقا كما شهد على المنافقين فى قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله . فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك « الله أكبر » كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ؛ وما أعظم الخطر فى ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس

---

(١) حديث « إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه » لم أجده

(٢) حديث « قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلا نحوه وأرسله البيهقى بزيادة ابن عمر فى السند وفى العلل الدارقطنى عن ابن عمر له وقال إنه أشبه شىء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة

عن أن تحده الحهات حتى تقبل بوحه بدنك عليه . وإنما وحه القلب هو الذى تتوجه به إلى فاطر السموات والأرص فانظر إليه أمتوحه هو إلى أمانيه وهمه فى البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات ؟ وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ولن ينصرف الوحه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد فى الحال فى صرفه اليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك فى الحال صادقا . وإذا قلت «حنيفا مسلما» فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذى سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد فى أن تعزم عليه فى الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت «وما أنا من المشركين» فأخطر ببالك الشرك الخفى فإن قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن حذرا مشفقا من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة فى قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت «ومحياى ومماتى لله» فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته فى الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائما للحال. وإذا قلت «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا ينفعه ، بل لا يعيده إلا تبديل المكان ؛ فكذلك من يتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان وحصنه «لا إله إلا الله» إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى[1]» والمتحصن به لا معبود له سوى الله سبحانه فأما من اتخذ إلهه هواه فهو فى ميدان الشيطان لا فى حصن الله عز وجل. واعلم أن من مكايده أن يشغلك فى صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ . فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معانى قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها : فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة ، رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهى درجات أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعانى أولا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعانى أنك إذا قلت «بسم الله الرحمن الرحيم» فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه . وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان «الحمد لله» ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل ففى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى . فإذا قلت «الرحمن الرحيم» فأحضر فى قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك . ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك «مالك يوم الدين» أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له

---

(١) حديث «قال الله تعالى لا إله إلا الله حصنى» أخرجه الحاكم فى التاريخ وأبو نعيم فى الحلية من طريق أهل البيت من حديث على بإسناد ضعيف جداً ، وقول أبى منصور الديلمى إنه حديث ثابت مردود عليه .

وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذى هو مالكه . ثم جدّد الإخلاص بقولك « إياك نعبد » وجدّد العجز والاحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك « وإياك نستعين » وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأنّ له المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلا لمناجاته . ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين . ثم إذا فرغت من التعوّذ ومن قولك « بسم الله الرحمن الرحيم » ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقا فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل « إهدنا الصراط المستقيم » الذى يسوقنا إلى جوارك ويفضى بنا إلى مرضاتك . وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا واستشهادا بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل « آمين » فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل[١] » يقول العبد « الحمد لله رب العالمين » فيقول الله عز وجل : حمدنى عبدى وأثنى على . وهو معنى قوله « سمع الله لمن حمده ... الحديث الخ » فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك فى جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟ وكذلك ينبغى أن تفهم ما تقرؤه من السور ـ كما سيأتى فى كتاب تلاوة القرآن ـ فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ؛ والخوف حق الوعيد ؛ والعزم حق الأمر والنهى ؛ والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق إخبار الأنبياء . وروى أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى (فاذا نقر فى الناقور) خرّ ميتا وكان إبراهيم النخعى إذا سمع قوله تعالى (إذا السماء انشقت) اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلى مغلوبا عليه ؛ وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فانه عبد مذنب ذليل بين يدى جبار قاهر . وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضا . ثم يراعى الهيبة فى القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل . ويفرق بين نغماته فى آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد . كان النخعى إذا مر بمثل قوله عز وجل (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) يخفض صوته كالمستحيى عن أن يذكره بكل شىء لا يليق به . وروى أنه يقال لقارئ القرآن « إقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا[٢] » وأما دوام القيام فانه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل مقبل على المصلى ما لم يلتفت[٣] » وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فاذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجى ليعود إليه . وألزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطنا وظاهرا ثمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا مصليا يعبث بلحيته « أما هذا

(١) حديث « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبى هريرة (٢) حديث « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن عمر وقال الترمذى حسن صحيح
(٣) « إن الله يقبل على المصلى ما لم يلتفت » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم وصحح اسناده أبى ذر

لوخشع قلبه لخشعت جوارحه ، فإنّ الرعية بحكم الراعى . ولهذا ورد فى الدعاء « اللهم أصلح الراعى والرعية [(١)] » وهو القلب والجوارح . وكان الصدّيق رضى الله عنه فى صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضى الله عنه كأنه عود . وبعضهم كان يسكن فى ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد ، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدى من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لايتقاضاه بين يدى ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ؟ وكل من يطمئن بين يدى غير الله عز وجل خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدى الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اطلاعه على سره وضميره . وقال عكرمة فى قوله عز وجل ﴿ الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ﴾ قال : قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه . وأما الركوع والسجود فينبغى أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرا بعفو الله عزوجل من عقابه بتجديد نية ومتبعا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك وتجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك . وتستعين على تقرير ذلك فى قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار . ثم ترتفع من ركوعك راجيا أنه راحم لك ومؤكدا للرجاء فى نفسك بقولك « سمع الله لمن حمده » أى أجاب لمن شكره . ثم يردف ذلك الشكر المتقاضى للمزيد فتقول « ربنا لك الحمد » وتكثر الحمد بقولك « ملء السموات وملء الأرض » ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب . وإن أمكنك أن لاتجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل . وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل « سبحان ربى الأعلى » وأكده بالتكرار فإنّ الكرة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك وقائلا « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم » أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانيا كذلك . وأما التشهد فإذا جلست له فاجلس متأدبا وصرح بأن جميع ماتدلى به من الصلوات والطيبات أى من الأخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى « التحيات » وأحضر فى قلبك النبى صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل « سلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » وليصدق أملك فى أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه . ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين . ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجددا عهد الله سبحانه بإعادة كلمتى الشهادة ومستأنفا للتحصن بها . ثم ادع فى آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك فى دعائك أبويك وسائر المؤمنين . واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانو ختم الصلاة به . واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة . وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لاتعيش لمثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه « صل صلاة مودع » ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير فى الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتا بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك فى وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة .

---

(١) حديث « اللهم أصلح الراعى والرعية » لم أقف له على أصل وفسره المصنف بالقلب والجوارح

وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض . فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون . . . والذين هم على صلواتهم يحافظون . . . والذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم فى العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذى يسر له منه ينبغى أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغى أن يتحسر وفى مداراة ذلك ينبغى أن يجتهد . وأما صلاة الغافلين فهى مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته . واعلم أنّ تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأداءها بالشروط الباطنة التى ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار فى القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة . فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون فى الصلاة لاسيما فى السجود إذ يتقرّب العبد من ربه عز وجل بالسجود . ولذلك قال تعالى ﴿ واسجد واقترب ﴾ وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشىء بعينه وينكشف لبعضهم الشىء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا فى صورة جيفة والشيطان فى صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها . ويختلف أيضا بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله وابعضهم من أفعاله وابعضهم من دقائق علوم المعاملة . ويكون لتعين تلك المعانى فى كل وقت أسباب خفية لاتحصى وأشدها مناسبة الهمة فإنها إذا كانت مصروفة إلى شىء معين كان ذلك أولى بالانكشاف ولما كانت هذه الأمور لاتتراءى إلا فى المرائى الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصدأ على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ، ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان فى متسع الهواء ، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض ، وهكذا الإنسان فى كل طور يكاد ينكر ما بعده ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوّة ، وقد خلق الخلق أطوارا فلا ينبغى أن ينكر كل واحد ما وراء درجته ، نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل فقدوه فأنكروه ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدّق به إلى أن يشاهد بالتجربة وفى الخبر « إنّ العبد إذا قام فى الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ـ وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادى مناد : لو علم هذا المناجى ماالتفت . وإنّ أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله عز وجل يباهى ملائكته بعبده المصلى [1] » ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذى ذكرناه . وفى التوراة مكتوب : ياابن آدم لاتعجز أن تقوم بين يدى مصليا باكيا فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى ، قال : فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب سبحانه من القلب . وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب . ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أنّ العبد قد جمع فى الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرّق الله ذلك على أربعين ألف ملك ، فالقائمون

---

(١) حديث « إن العبد إذا قام فى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده . الحديث » لم أجده

لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما رزق تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ وفارق الإنسان الملائكة فى الترقى من درجة إلى درجة فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التى هى وقف عليه . وعبادته التى هو مشغول بها لا ينتقل إلى غيرها ولا يفتر عنها ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلوات . قال الله عز وجل ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهى المقرونة بالخشوع . ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال تعالى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ ثم قال تعالى فى ثمرة تلك الصفات ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فوصفهم بالفلاح أولا وبوراثة الفردوس آخرا ، وما عندى أن هدرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل فى أضدادهم (ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين) فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم . نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى .

حكايات وأخبار فى صلاة الخاشعين رضى الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا فى الصلاة وفى غير الصلاة بل فى خلوته وفى بيت المال عند الحاجة ، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد . فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة ولذلك روى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعا له ، وكان الربيع بن خيثم من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى ، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رأته جاريته قالت لابن مسعود : صديقك الأعمى قدجاء ، فكان يضحك ابن مسعود من قولها ، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا غاضا بصره ، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول (وبشر المخبتين) أما والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك ـ وفى لفظ آخر : لأحبك وفى لفظ آخر : لضحك ـ ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب صعق وسقط مغشيا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل مغشيا عليه إلى مثل الساعة التى صعق فيها ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف . وكان الربيع يقول ، ما دخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لى ، وكان عامر بن عبد الله من خاشعى المصلين وكان إذ صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن فى البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله ، وقيل له ذات يوم هل تحدثك نفسك فى الصلاة بشىء ؟ قال : نعم بوقوفى بين يدى الله عز وجل ومنصرفى إحدى الدارين ، قيل : فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الأسنة فى أحب إلى من أن أجد فى صلاتى ماتجدون وكان يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . وقد كان مسلم بن يسار منهم ، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة فى المسجد وهو فى الصلاة . وتآكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل : إنه فى الصلاة لا يحس بما يجرى عليه ؛ فقطع وهو فى الصلاة . وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها

خرجت من الدنيا وقيل لآخر : هل تحدث نفسك بشيء من الدنيا فى الصلاة ؟ فقال : لافى الصلاة ولافى غيرها . وسئل بعضهم هل تذكر فى الصلاة شيئا ؟ فقال : وهل شيء أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها ؟ وكان أبوالدرداء رضى‌الله عنه يقول : من‌فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل‌دخوله فى الصلاة‌ليدخل فى الصلاة‌وقلبه فارغ . وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس ، وروى أنّ عمار بن ياسر صلى‌صلاة فأخفها فقيل له : خففت ياأبا اليقظان فقال : هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئا ؟ قالوا : لا : قال : إنى بادرت سهوالشيطان ، إن رسول‌الله صلى الله عليه وسلم‌قال « إن‌العبد ليصلى‌الصلاة لايكتب له نصفها . ولاثلثها ولاربعها ولا خمسها ولاسدسها ولاعشرها ، وكان يقول « إنما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها[١] » ويقال إن‌طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى‌الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة ، وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان . وروى أن عمربن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر : إنّ الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وماأكمل لله تعالى صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لايتم خشوعها وتواضعها وإقباله على‌الله عز وجل فيها : وسئل أبوالعالية عن‌قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال هو الذى يسهو فى صلاته فلا يدرى على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذى يسهو عن وقت‌الصلاة حتى تخرج وقال بعضهم : هو الذى إنّ صلاها فى أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيرا ولا تأخيرها إثما ، واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن‌كان الفقيه يقول : إن الصلاة فى الصحة لاتتجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل[٢] وفى الخبر « قال عيسى‌عليه السلام : يقول الله تعالى بالفرائض نجامنى عبدى وبالنوافل تقرّب إلى عبدى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى لاينجو منى عبدى إلا بأداء ماافترضته عليه[٣] » وروى أن النبي صلى الله عليه‌وسلم ، صلى صلاة فترك‌من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت فسكت القوم ؛ فسأل أبى بن كعب رضى الله عنه فقال : قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندرى أنسخت أم رفعت ؟ فقال : أنت لها يا أبى ، ثم أقبل على الآخرين فقال : مابال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم لا يدرون مايتلو عليهم من كتاب ربهم ؟ ألا إن بنى إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أنْ قل لقومك تحضرونى أبدانكم وتعطونى ألسنتكم وتغيبون عنى بقلوبكم باطل ماتذهبون إليه[٤] » وهذا يدل على أن استماع مايقرأ الإمام وفهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه : وقال بعضهم إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا : قيل وكيف يكون ذلك ؟ قال . يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه . فهذه صفة الخاشعين . فدلت هذه الحكايات والأخبار مع ماسبق على أن الأصل فى الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى فى المعاد والله أعلم . نسأل الله حسن التوفيق

---

(١) حديث « أن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقيل له خففت يا أبا اليقظان .. الحديث » وفيه « ان العبد ليصلى صلاة لايكتب له نصفها ولا ثلثها ، . الى آخره » أخرجه أحمد باسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند أبى داود والنسائى

(٢) حديث « جبر نقصان الفرائض بالنوافل رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة « إن أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته » وفيه فان انتقص من فريضته شيئا قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل منها ما نقص من الفريضة » (٣) حديث « قال الله تعالى لاينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضت عليه » لم أجده

(٤) حديث « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما التفت قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبى بن كعب . الحديث » رواه محمد بن نصر فى كتاب الصلاة مرسلا وأبو منصور الديلمى من حديث أبى بن كعب ورواه النسائى مختصراً من حديث عبدالرحمن بن أبزى باسناد صحيح

الباب الرابع فى الإمامة والقدوة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفى القراءة وفى أركان الصلاة وبعد السلام :

أما الوظائف التى هى قبل الصلاة فستة (أولها) أن لايتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفى الحديث « ثلاثة لاتجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق وامرأة زوجها ساخط عليها وإمام أم قوما وهم له كارهون [١] » ، وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدمة إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ، فإن لم يكن شىء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة . ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قوما تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم . وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسببه إيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك أوخوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم ، فإن الأئمة ضمناء وكأن من لم يتعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص فى صلاته حياء من المقتدين لاسيما فى جهره بالقراءة ، فكان لاحتراز من احترز أسباب من هذا الجنس . (الثانية) إذا خير المرء بين الأذان والإمامة فينبغى أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلا ولكن الجمع مكروه بل ينبغى أن يكون الإمام غير المؤذن ، وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى . وقال قائلون : الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ولقوله صلى الله عليه وسلم « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن [٢] » ، فقالوا ، فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا [٣] » ، وفى الحديث « فإن أتم فله ولهم وإن نقص فعليه لاعليهم [٤] » ، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين [٥] » ، والمغفرة أولى بالطلب فإن الرشد يراد للمغفرة وفى الخبر « من أم فى مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب [٦] » ، ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة : والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما والأئمة بعدهم . نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة [٧] » ، ولكن فيها خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل

الباب الرابع

(١) حديث « ثلاثة لاتجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامه وقال حسن غريب وضعفه البيهقى (٢) حديث « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » أخرجه ابو داود والترمذى من حديث أبي هريرة ، وحكى عن ابن المدينى انه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن (٣) حديث « الامام أمين فاذا ركع فاركعوا . الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة دون قوله « الإمام أمين » وهو بهذه الزيادة فى مسند الحميدى وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة (٤) حديث « فان أتم فله ولهم وان انتقص فعليه ولا عليهم » أخرجه ابوداود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخارى من حديث أبي هريرة « يصلون بكم فان أصابوا فلكم وإن أخطئوا فلكم وعليهم »

(٥) حديث « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » هو بقية حديث « الإمام ضامن » وتقدم قبل بحديثين (٦) حديث « من أذن فى مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال الترمذى حديث غريب (٧) حديث « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين

والأفقه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أئمتكم شفعاؤكم - أو قال وفدكم إلى الله - فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم[١] » وقال بعض السلف . ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدى الله عز وجل وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعماد الدين وهو الصلاة . وبهذه الحجة احتج الصحابة فى تقديم أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعنهم للخلافة ، إذ قالوا نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا[٢] وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضيه للأذان[٣] وما روى « أنه قال له رجل : يا رسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة قال : كن مؤذنا ، قال لاأستطيع ، قال : كن إماما ، قال : لا أستطيع ، فقال : صل بإزاء الإمام[٤] » فلعله ظن أنه لايرضى بإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له . ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها (الثالثة) أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصلى فى أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه ففضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا[٥] هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الحديث « إن العبد ليصلى الصلاة فى آخر وقتها ولم تفته ، ولما فاته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها[٦] » ولاينبغى أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهى أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد قيل كانوا إذا حضر اثنان فى الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة فى الجنازة لم ينتظروا الخامس « وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا فى سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها ، قال : فأشفقنا من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد أحسنتم هكذا فافعلوا[٧] » وقد تأخر فى صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الصلاة فقام إلى جانبه[٨] » وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره (الرابعة) أن يؤم مخلصا لله عز وجل ومؤديا أمانة الله تعالى فى طهارته وجميع شروط صلاته . أما الإخلاص

---

(١) حديث « أئمتكم وفدكم الى الله تعالى فان اردتم ان تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم » اخرجه الدارقطني والبيهقى وضعف إسناده من حديث ابن عمر والبغوى وابن قانع والطبرانى فى معاجمهم والحاكم من حديث مرثد بن أبى مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى بن يحيى الأسلمى وهو ضعيف (٢) حديث « تقديم الصحابة ابا بكر وقولهم اخترنا لدنيانا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا » اخرجه ابن شاهين فى شرح مذهب أهل السنة من حديث على قال « لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلى بالناس وانى شاهد - ما أنا بغائب ولا بى مرض - فرضينا لدنيانا مارضى به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا » والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبي موسى فى حديث « قال مروا أبا بكر فليصل بالناس » (٣) حديث « تقديم الصحابة بلالا » احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيه للاذان أما المرفوع منه فرواه ابو داود والترمذى وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد فى بدء الأذان وفيه « قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فيؤذن به .. الحديث » واما تقديمهم له بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فروى الطبرانى « أن بلالا جاء الى أبى بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط نفسى فى سبيل الله حتى اموت فقال ابو بكر انشدك بالله يابلال وحرمتى وحقى لقد كبرت سنى وضعفت قوتى واقترب اجلى وأقام بلال معه ، ولما توفى ابو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبى بكر فأبى عليه فقال عمر فمن يا بلال ؟ فقال الى سعد فانه قد اذن بقباء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمر الأذان الى سعد وعقبه » وفى إسناده جهالة (٤) حديث « قال له رجل يارسول الله دلنى على عمل ادخل به الجنة فقال كن مؤذنا ... الحديث » أخرجه البخارى فى التاريخ والعقيلى فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث « فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٦) حديث « إن العبد ليصلى الصلاة فى آخر وقتها ولم تفته .. الحديث » أخرجه الدارقطنى من حديث أبى هريرة نحوه بإسناد ضعيف (٧) حديث « تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان فى سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف .. الحديث » متفق عليه من حديث المغيرة (٨) حديث « تأخر فى صلاة الظهر فقدموا أبا بكر .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد

فبأن لا يأخذ عليها أجرة فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال «اتخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجرا[١]» فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر، فإن أخذ رزقا من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه. والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح، وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة. وأما الأمانة فهي الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر فالمترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك بجهده فإنه كالوفد والتشفيع للقوم فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فإنه لا يطلع عليه سواه، فإن تذكر في أثناء صلاته حدثا أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه «فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة[٢]»، وقال سفيان: صل خلف كل بر وفاجر إلا مدمن خمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة أو عبد آبق (الخامسة) أن لا يكبر حتى تستوي الصفوف وليلتفت يميناً وشمالا فإن رأى خللا أمر بالتسوية. قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب. ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة. ففي الخبر «ليتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره[٣]»، وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين[٤] وأمر بتقديم العشاء على العشاء[٥] طلباً لفراغ القلب (السادسة) أن يرفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه. وينوي الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نووا الاقتداء. ونالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة، وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبيرة الإمام فيبتدئ بعد فراغه والله أعلم. وأما وظائف القراءة فثلاثة (أولها) أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد. ويجهر بقوله «آمين» في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيبا[٦] ويجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» والأخبار فيه متعارضة[٧] واختيار الشافعي رضي الله عنه الجهر (الثانية) أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات[٨] هكذا رواه سمرة بن جندب وعمران بن الحصين عن

---

(١) حديث «اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرة» أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي

(٢) حديث «تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع» أخرجه أبو داود من حديث أبي بكرة بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال «ثم أومأ إليهم أن مكانكم . الحديث» وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلي وعند البخاري استخلاف عمر في قصة طعنه (٣) حديث «يمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره» أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر «يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته» قال الترمذي: إسناده مجهول وقال الحاكم ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن فايد. قلت: بل فيه عبد المنعم الرياحي منكر الحديث قاله البخاري وغيره (٤) حديث النهي عن مدافعة الأخبثين أخرجه مسلم من حديث عائشة بلفظ «لا صلاة» وللبيهقي «لا يصلين أحدكم .. الحديث» (٥) «الأمر بتقديم العشاء على العشاء» تقدم من حديث ابن عمر وعائشة «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء» متفق عليه. (٦) حديث الجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (٧) حديث «ترك الجهر بها» أخرجه مسلم من حديث أنس «صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم» وللنسائي فلم يجهر لنا «بسم الله الرحمن الرحيم»

(٨) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سكتات الإمام رواه الإمام أحمد من حديث سمرة قال «كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سكتات في صلاته. وقال عمران: أنا أحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوا في ذلك إلى أبي بن كعب؟ فكتب أن سمرة قد حفظ» هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان، وروى الترمذي «فأنكر ذلك عمران وقال حفظنا سكتة وقال حديث =

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أولاهن : إذا كبر وهى الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فإنه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم ، فإن لم يقرءوا الفاتحة فى سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليهم لا عليه . السكتة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة فى السكتة الأولى فاتحته وهى كنصف السكتة الأولى . السكتة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهى أخفها وذلك بقدر ماتنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه . ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصر هو الإمام . وإن لم يسمع المأموم فى الجهرية لبعده أوكان فى السرية فلا بأس بقراءة السورة (الوظيفة الثالثة) أن يقرأ فى الصبح سورتين من المثانى مادون المائة فإنّ الإطالة فى قراءة الفجر والتغليس بها سنة ، ولايضره الخروج منها مع الإسفار ، ولا بأس بأن يقرأ فى الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأنّ ذلك لايتكرر على الأسماع كثيراً فيكون أبلغ فى الوعظ وأدعى إلى التفكر ، وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السور وقطعها وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع [1] وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ فى الفجر آية من البقرة [2] وهى قوله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ وفى الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ وسمع بلالا يقرأ من ههنا وههنا ؛ فسأله عن ذلك فقال : أخلط الطيب بالطيب ، فقال : أحسنت [3] ويقرأ فى الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفى العصر بنصف ذلك وفى المغرب بأواخر المفصل . وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغرب ؛ قرأ فيها سورة المرسلات ماصلى بعدها حتى قبض [4] . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثر الجمع قال صلى الله عليه وسلم فى هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ماشاء [5] » وقد كان معاذ بن جبل يصلى بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه ، فقالوا : نافق الرجل ، فتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزجر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً فقال « أفتان أنت يامعاذ اقرأ سورة سبح والسماء والطارق والشمس وضحاها [6] » وأما وظائف الأركان فثلاثة ؛ أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد فى التسبيحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال « مارأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام [7] » نعم روى أيضاً أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال « ماصليت وراء أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه

= حتى انتهى وليس فى حديث سمرة إلا سكتتان : ولكن اختلف عنه فى محل الثانية . فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة وللدارقطنى من حديث أبى هريرة وضعفه « من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب فى سكتاته »

(١) حديث « قرأ بعض سورة يونس ، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع » أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن السائب وقال : سورة المؤمنين وقال موسى وهارون وعلقه البخارى (٢) حديث قرأ فى الفجر (قولوا آمنا بالله) الآية ، وفى الثانية (ربنا آمنا بما أنزلت) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس كان يقرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى منهما (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية التى فى البقرة وفى الآخرة منها (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) رواه أبو داود من حديث أبى هريرة (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) الآية وفى الركعة الآخرة (ربنا آمنا بما أنزلت) أو (إنا أرسلناك بالحق) (٣) حديث « سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا » فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب فقال أحسنت » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح نحوه

(٤) حديث « قراءته فى المغرب بالمرسلات وهى آخر صلاة صلاها » متفق عليه من حديث أم الفضل

(٥) حديث « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٦) حديث « صلى معاذ بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة .. الحديث » متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر (والسماء والطارق) وهى عند البيهقى

(٧) حديث أنس « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام » متفق عليه

وسلم من هذا الشاب قال : وكنا نسبح وراءه عشرا عشرا (١) ، وروى مجملا أنهم قالوا «كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركوع والسجود عشرا عشرا (٢) » وذلك حسن ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن . فاذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر ، هذا وجه الجمع بين الروايات . وينبغى أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده » الثانية : فى المأموم ؛ ينبغى أن لا يساوى الإمام فى الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلى إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد ، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راكعاً . وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام ؛ طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام : وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه ، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسابقون الإمام . وقد اختلف فى أن الإمام فى الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة ؟ ولعل الأولى أنّ ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فان حقهم مرعى فى ترك التطويل عليهم . الثالثة : لا يزيد فى دعاء التشهد على مقدار التشهد حذرا من التطويل ولا يخص نفسه فى الدعاء بل يأتى بصيغة الجمع فيقول « اللهم اغفر لنا » ولا يقول « اغفر لى » فقد كره للإمام أن يخص نفسه ولا بأس أن يستعيذ فى التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول « نعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا اليك غير مفتونين (٤) » وقيل سمى مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها وقيل لأنه ممسوح العين أى مطموسها ، وأما وظائف التحلل فثلاثة ، أولها : أن ينوى بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية : أن يثبت عقيب السلام كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما فيصلى النافلة فى موضع آخر . فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن (٥) وفى الخبر المشهور « أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد إلا قدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام (٦) » الثالثة : إذا وثب فينبغى أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الامام . فقد روى عن طلحة والزبير رضى الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قالا للإمام ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئا واحداً أنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك . ثم قالا للناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم . ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات ، وأما الصبح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام « اللهم اهدنا » ولا يقول اللهم اهدنى » ويؤمن المأموم فاذا انتهى إلى قوله « إنك تقضى ولا يقضى عليك » فلا يليق به التأمين وهو ثناء ، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أو « صدقت وبررت » وما أشبه ذلك . وقد روى حديث فى رفع اليدين فى القنوت (٧) فاذا صح

---

(١) حديث أنس « أنه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول لله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب .. الحديث أخرجه أبو داود والنسائى بإسناد جيد وضعفه ابن القطان (٢) حديث « كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركوع والسجود عشرا » لم أجد له أصلا فى الحديث الذى قبله وفيه « فحزرنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات »

(٣) حديث « كان الصحابة لا يهوون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض » متفق عليه من حديث البراء بن عازب (٤) حديث « التعوذ فى التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر .. الحديث » تقدم وزاد فيه الغزالى هنا « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا اليك غير مفتونين » ولم أجده مقيدا بآخر الصلاة وللترمذى من حديث ابن عباس « وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون » روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصححهما وسيأتى فى الدعاء

(٥) حديث « المكث بعد السلام » أخرجه البخارى من حديث أم سلمة (٦) حديث « أنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٧) حديث « رفع اليدين فى القنوت » أخرجه البيهقى من حديث أنس بسند جيد فى قصة قتل القراء « ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صلى الغداة رفع يديه » يدعو عليهم

الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات فى آخر التشهد إذ لايرفع بسببها اليد بل التعويل على التوقيف وبينهما أيضا فرق أن للأيدى وظيفة فى التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة فى القنوت ، فانه لائق بالدعاء والله أعلم . فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق .

الباب الخامس : فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

إعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) فحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعى إلى الجمعة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه [2] » وفى لفظ آخر « فقد نبذ الإسلام وراء ظهره [3] » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : فى النار ، فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول فى النار وفى الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم فهم أولى الناس به سبقا وأهل الكتابين لهم تبع [4] . وفى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتانى جبريل عليه السلام فى كفه مرآة بيضاء وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قلت : فمالنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخر له ما هو أعظم منه ؛ أو تعوذ من شر مكتوب عليه إلا أعاذه الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد ، قلت ولم؟ قال: إن ربك عز وجل اتخذ فى الجنة وادياً أفيح من المسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة فى السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى فى الجنة [6] » وفى الخبر « إن لله عز وجل فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار [7] » وفى حديث أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

الباب الخامس

(١) حديث « إن الله فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد ضعيف
(٢) حديث « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه » أخرجه أحمد واللفظ له وأصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه من حديث أبى الجعد الضمرى (٣) حديث « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس (٤) حديث « إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة بنحوه
(٥) حديث أنس « أتانى جبريل فى كفه مرآة بيضاء فقال هذه الجمعة .. الحديث » أخرجه الشافعى فى المسند والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه فى التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف (٦) حديث « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٧) حديث « إن لله فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء وفى الشعب من حديث أنس قال الدارقطنى فى العلل والحديث غير ثابت

قال « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الجحيم تسعر فى كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس فى كبد السماء فلا تصلوا فى هذه الساعة إلا يوم الجمعة فانه صلاة كله وإن جهنم لاتسعر فيه[2] » وقال كعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالى ليلة القدر ويقال إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضا فى يوم الجمعة فتقول : سلام سلام يوم صالح وقال صلى اللهعليهوسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر[3] »

بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات فى الشروط وتتميز عنها بستة شروط (الأول) الوقت : فان وقعت تسليمة الإمام فى وقت العصر فاتت الجمعة وعليه أن يتمها ظهرا أربعا ، والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجا من الوقت ففيه خلاف (الثانى) المكان : فلا تصح فى الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل يجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه (الثالث) العدد : فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفا ، فان انفضوا حتى نقص العدد إما فى الخطبة أو فى الصلاة لم تصح الجمعة بل لابد منهم من الأول إلى الآخر (الرابع) الجماعة : فلو صلى أربعون فى قرية أو فى بلد متفرقين لم تصح جمعتهم . ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية . وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر وإذا سلم الإمام تممها ظهرا (الخامس) أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى فى ذلك البلد . فان تعذر اجتماعهم فى جامع واحد جاز فى جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة . وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التى يقع بها التحريم أولا . وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين ، فان تساويا فالمسجد الأقدم ، فإن تساويا ففى الأقرب ، ولكثرة الناس أيضا فضل يراعى (السادس) الخطبتان : فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلسة بينهما فريضة . وفى الأولى أربع فرائض: التحميد وأقله الحمد لله . والثانية : الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . والثالثة : الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى والرابعة : قراءة آية من القرآن . وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة . واستماع الخطبتين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة . ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلا على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالا ويشغل يديه بقائم السيف أو العنزة والمنبر كى لا يعبث بهما أو يضع إحداهما على الأخرى . ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة . ولا يستعمل غريب اللغة ولا يمطط ولا يتغنى . وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية فى الثانية أيضاً . ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جواباً ، والإشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت العاطسين أيضا . هذه شروط الصحة . فأما شروط الوجوب : فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حرّ مقيم فى قرية تشتمل على أربعين جامعين

---

(١) حديث أنس « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس (٢) حديث « إن الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس — إلى أن قال — إلا يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبى قتادة وأعله بالانقطاع (٣) حديث « من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث جابر وروى الترمذى نحوه مختصراً من حديث عبد الله بن عمر وقال غريب ليس إسناده بمتصل . قلت . وصله الترمذى الحكيم فى النوادر

لهذه الصفات ، أو فى قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) ويرخص لهؤلاء فى ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره . ثم يستحب لهم ـ أعنى أصحاب الأعذار ـ تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فان حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبد أو امرأة صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهى عشر جمل

(الأول) أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة فى يوم الجمعة . قال بعض السلف : إنّ لله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة ، ويغسل فى هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرغ قلبه من الأشغال التى تمنعه من البكور إلى الجمعة ، وينوى فى هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا وليكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت ـ لا مفردا فإنه مكروه ـ ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة . ويجامع أهله فى هذه الليلة أو فى يوم الجمعة فقد استحب ذلك قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل [1] » ، وهو حمل الأهل على الغسل . وقيل معناه غسل ثيابه ـ فروى بالتخفيف ـ واغتسل لجسده . وبهذا تتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ما هذا اليوم؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس ، وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول : أيش اليوم ؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة فى الجامع لأجلها (الثانى) إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب ليكون أقرب عهدا بالنظافة ، فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا ، وذهب بعض العلماء إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم [2] » ، والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل [3] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل [4] » ، وكان أهل المدينة إذا تساب المتسابان يقول أحدهما للآخر : لأنت أشر ممن لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لعثمان رضى الله عنهما لما دخل وهو يخطب « أهذه الساعة ؟ ـ منكرا عليه ترك البكور ـ فقال : ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت فقال : والوضوء أيضا : وقد علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل [5] » ، وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضى الله تعالى عنه وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل [6] » ، ومن اغتسل للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى

---

(١) حديث « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل . . الحديث » رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس « من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر . . الحديث » وحسنه الترمذى

(٢) حديث « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » متفق عليه من حديث أبى سعيد (٣) حديث نافع عن ابن عمر « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل » متفق عليه وهذا لفظ ابن حبان (٤) حديث « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا » أخرجه ابن حبان والبيهقى من حديث ابن عمر (٥) حديث « قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب : أهذه الساعة . . : الحديث ـ إلى أن قال ـ والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل » متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يسم البخارى عثمان (٦) حديث « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت . . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه ورواه النسائى من حديث سمرة

على نية غسل الجمعة ، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة فى غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : ألجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال : أعد غسلا ثانيا ، وروى الحديث فى غسل الجمعة على كل محتلم . وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لا يبعد أن يقال المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا ينقدح فى الوضوء أيضا وقد جعل فى الشرع قربة فلا بدّ من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله والأحب أن يحترز عن ذلك (الثالثة) الزينة ، وهى مستحبة فى هذا اليوم وهى ثلاثة : الكسوة والنظافة وتطييب الرائحة . أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق فى كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عزوجل منه داء وأدخل فيه شفاء ، فإن كان قد دخل الحمام فى الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود . فليتطيب فى هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين فى جواره « وأحب طيب الرجال ماظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء ماظهر لونه وخفى ريحه[1] » وروى ذلك فى الأثر وقال الشافعى رضى الله عنه : من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله . وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب - إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض - ولا يلبس ما فيه شهرة . ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمامة مستحبة فى هذا اليوم . وروى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إنّ الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة[2] » فإن أكربه الحرّ فلا بأس بنزعها قبل الصلاة وبعدها ولكن لا ينزع فى وقت السعى من المنزل إلى الجمعة ولا فى وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفى خطبته (الرابع) البكور إلى الجامع : ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر . ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر وفضل البكور عظيم . وينبغى أن يكون فى سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناويا للاعتكاف فى المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للمبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه . والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه وقد قال صلى الله عليه وسلم « من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فمن جاء بعد ذلك فأنما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شىء[3] » والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ؛ والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضلها قليل ؛ ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل فى طلبهن ؛ الأذان والصف الأوّل والغدو إلى الجمعة[4] » وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفى الخبر

---

(١) حديث « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث أبى هريرة (٢) حديث واثلة بن الأسقع « إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة » أخرجه الطبرانى وعدى ، وقال منكر من حديث أبى الدرداء ولم أره من حديث واثلة (٣) حديث « من راح الى الجمعة فى الساعة الأولى وكأنما قرب بدنة .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وأنس وفيه « ورفعت الأقلام» وهذه اللفظة عند البيهقى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٤) حديث « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل فى طلبهن : الأذان والصف الأول والغدو الى الجمعة » أخرجه أبو الشيخ فى ثواب الأعمال من حديث أبى هريرة « ثلاث لو يعلم الناس مافيهن ما أخذتهن الا بالاستهام عليهن حرصا على ما فيهن من الخير والبركة .. الحديث » قال « والتهجير الى الجمعة » وفى الصحيحين من حديثه « لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا الا أن يستهموا لاستهموا ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا اليه

« إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم [١] » وجاء فى الخبر « إنّ الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه : ما فعل فلان وما الذى أخره عن وقته ؟ فيقولون : اللهم إن كان أخره فقر فأغنه وإن كان أخره مرض فاشفه وإن كان أخره شغل ففرّغه لعبادتك وإن كان أخره لهو فأقبل بقلبه إلى طاعتك [٢] » وكان يرى فى القرن الأول سحراً وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون فى السرج ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل : أوّل بدعة حدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد ؟ وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والربح فلم لا يسابقهم طلاب الآخرة ؟ ويقال : إنّ الناس يكونون فى قربهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودخل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول فى نفسه معاتبا لها : رابع أربعة : وما رابع أربعة من البكور ببعيد

(الخامس) فى هيئة الدخول : ينبغى أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والبكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد فى تخطى الرقاب وهو أنه يجعل جسرا يوم القيامة يتخطاه الناس [٣] » وروى ابن جريج مرسلا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال : يافلان مامنعك أن تجمع اليوم معنا ؟ قال : يانبي الله قد جمعت معكم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم نرك تتخطى رقاب الناس [٤] » أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفى حديث مسند أنه قال « ما منعك أن تصلى معنا ؟ قال : أو لم ترنى يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : رأيتك تأنيت وآذيت [٥] » أى تأخرت عن البكور وآذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكا خاليا فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم . وإذا لم يكن فى المسجد إلا من يصلى فينبغى أن لا يسلم لأنه تكليف جواب فى غير محله (السادس) أن لا يمرّ بين يدى الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمرون بين يديه أعنى بين يدى المصلى فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم « لأن يقف أربعين عاما خير له من أن يمر بين يدى المصلى [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « لأن يكون الرجل رمادا أو رميما

---

(١) حديث « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب .. الحديث » أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث على بإسناد ضعيف « إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فركز لواءه بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التى يجمع فيها يوم الجمعة فركزوا ألويتهم وراياتهم بباب المساجد ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاما من ذهب

(٢) حديث « إن الملائكة يتفقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا ما فعل فلان ، أخرجه البيهقى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص بإسناد حسن . واعلم أن المصنف ذكر هذا فإن لم يرد به حديثا مرفوعا فليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطا (٣) حديث « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم » أخرجه الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس (٤) حديث ابن جريج مرسلا أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس . الحديث وفيه مامنعك أن تجمع معنا اليوم » أخرجه ابن المبارك فى الرقائق (٥) حديث « مامنعك أن تصلى معنا فقال أو لم ترنى قال رأيتك آنيت وآذيت » أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر مختصرا

(٦) حديث « لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدى المصلى » أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد وفى الصحيحين من حديث أبى جهيم « أن يقف أربعين » قال أبو النضر : لا أدرى « أربعين يوما أو شهرا أو سنة » رواه أبو داود وابن حبان من حديث أبى هريرة « مائة عام »

تذروه الرياح خير من أن يمر بين يدى المصلى[1] ، وقد روى فى حديث آخر فى المار والمصلى حيث صلى على الطريق أو قصر فى الدفع فقال « لو يعلم المار بين يدى المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيراً له من أن يمر بين يديه[2] » والأسطوانة والحائط والمصلى المفروش حدّ للمصلى فمن اجتاز به فينبغى أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فإن أبى فليدفعه فإنّ أبى فليقاتله فإنه شيطان[3] » وكان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه ، فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . فإن لم يجد أسطوانة فلينصب بين يديه شيئا طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده (السابع) أن يطلب الصف الأول فإنّ فضله كثير كما رويناه وفى الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الامام واستمع كان ذلك له كفارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام[4] » وفى لفظ آخر « غفرالله له إلى الجمعة الأخرى - وقد اشترط فى بعضها - ولم يتخط رقاب الناس[5] » ولا يغفل فى طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور ، أولها : أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكرا يعجز عن تغييره - من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلى فى سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك - مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع للهم ، فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة . قيل لبشر بن الحرث : نراك تبكر وتصلى فى آخر الصفوف ، فقال : إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد . وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثورى إلى شعيب بن حرب عند المنبر يسمع إلى الخطبة من أبى جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره ولا تقوم به ؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال : ياأبا عبد الله أليس فى الخبر « أدن واستمع[6] » فقال : ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين ، فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر اليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبى الدرداء فجعل يتأخر فى الصفوف حتى كنا فى آخر صف؛ فلما صلينا قلت له : أليس يقال خير الصفوف أولها ؟ قال : نعم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور اليها من بين الأمم[7] فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس فإنما تأخرت رجاء أن يغفر لى بواحد منهم ينظر الله اليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، فمن تأخر على هذه النية إيثارا وإظهارا لحسن الخلق فلا بأس ، وعند هذا يقال « الأعمال بالنيات » ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلاطين فالصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة . كان الحسن وبكر المزنى لا يصليان فى المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلاطين وهى بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المساجد . والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافه. وصلى أنس بن مالك

---

(١) حديث « لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خيراً له من أن يمر بين يدى المصلى » أخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان وابن عبد البر فى التمهيد موقوفا على عبد الله بن عمرو وزاد « متعمدا » (٢) حديث « لو يعلم المار بين يدى المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك .. الحديث » رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج فى مسنده من حديث زيد بن خالد باسناد صحيح

(٣) حديث أبى سعيد « فليدفعه فان أبى فليقاتله فانما هو شيطان » متفق عليه (٤) حديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن

(٥) حديث « أنه اشترط فى بعضها ولم يتخط رقاب الناس » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي سعيد وأبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم (٦) حديث « ادن فاستمع » أخرجه أبو داود من حديث سمرة « احضروا الذكر وادنوا من الإمام » وتقدم بلفظ « من هجر ودنا واستمع » وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد

(٧) حديث أبي الدرداء « ان هذه الامة مرحومة منظور اليها من بين الأمم وان الله اذا نظر الى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس » لم أجده

وعمران بن حصين فى المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب . ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجد كراهة وثالثها: أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذى فى فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع . وكان الثورى يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدى المنبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه . ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى . وتكره الصلاة فى الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب (الثامن) أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضا بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة . وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل فى أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل : ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه ، وقد روى عن على وعثمان رضى الله عنهما أنهما قالا: من استمع وأنصت فله أجران ومن لم يستمع وأنصت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له [1] » وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون بإشارة أو رمى حصاة لا بالنطق وفى حديث أبى ذر « أنه لما سأل أبيا والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فأومأ اليه أن أسكت : فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبى : اذهب فلا جمعة لك ، فشكاه أبو ذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبى [2] » وإن كان بعيدا من الإمام فلا ينبغى أن يتكلم فى العلم وغيره بل يسكت لأن كل ذلك يتسلسل ويفضى إلى هينمة حتى ينتهى إلى المستمعين ولا يجلس فى حلقة من يتكلم فمن عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب . وإذا كان تكره الصلاة فى وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية . وقال على كرم الله وجهه : تكره الصلاة فى أربع ساعات : بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب (التاسع) أن يراعى فى قدوة الجمعة ما ذكرناه فى غيرها فاذا سمع قراءة الامام لم يقرأ سوى الفاتحة . فإذا فرغ من الجمعة قرأ « الحمد لله » سبع مرات قبل أن يتكلم « وقل هو الله أحد والمعوذتين » سبعا سبعا وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزا له من الشيطان ويستحب أن يقول بعد الجمعة « اللهم ياغنى ياحميد يامبدئ يامعيد يارحيم ياودود أغننى بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب ، ثم يصلى بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد الجمعة ركعتين [3] » وروى أبو هريرة أربعا [4] » وروى على وعبد الله ابن عباس رضى الله عنهم ستا [5] والكل صحيح فى أحوال مختلفة ، والأكمل أفضل

---

(١) حديث « من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا لا جمعة له » أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة روى الترمذى قوله « ومن لغا فلا جمعة له » قال الترمذى حديث حسن صحيح وهو فى الصحيحين بلفظ « إذا قلت لصاحبك » أخرجه أبو داود من حديث على « من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » (٢) حديث أبى ذر « لما سأل أبيا والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب وقال متى أنزلت هذه السورة .. الحديث » أخرجه البيهقى وقال فى المعرفة إسناده صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولأحمد من حديث أبى الدرداء أنه سأل أبيا ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبد الله بن مسعود ولأبى يعلى من حديث جابر قال « قال سعد بن أبى وقاص لرجل: لا جمعة لك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم ياسعد فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد »

(٣) حديث ابن عمر فى الركعتين بعد الجمعة متفق عليه (٤) حديث أبى هريرة فى الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا » (٥) حديث على وعبد الله فى صلاة ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقى مرفوعا عن على وله موقوفا على ابن مسعود أربعا وأبو داود من حديث ابن عمر : كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستا

(العاشر) أن يلازم المسجد حتى يصلي العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر فى الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة فإن لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعنى فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكرا الله عز وجل مفكرا فى آلائه شاكرا لله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة . ولا ينبغى أن يتكلم فى الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسوهم (١) » .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذى يعم جميع النهار وهى سبعة أمور

(الأول) أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير فى كلامهم . ولا ينبغى أن يخلو المريد فى جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو فى خير ولا ينبغى أن يحضر الحلق قبل الصلاة وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة (٢) » إلا أن يكون عالما بالله يذكر بأيام الله ويفقه فى دين الله يتكلم فى الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع . واستماع العلم النافع فى الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى أبو ذر « إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة (٣) » قال أنس بن مالك فى قوله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أما إنه ليس بطلب دنيا لكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أخ فى الله عز وجل . وقد سمى الله عز وجل العلم فضلا فى مواضع قال تعالى ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ يعنى العلم فتعلم العلم فى هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات . والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع : بكر ابن عمر رضى الله عنهما إلى مجلسه فى المسجد الجامع فإذا قاص فى موضعه فقال : قم عن مجلسى ! فقال : لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه ، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا (٤) » وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وروى أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضى الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر : إن هذا قد آذانى بقصصه وشغلنى عن سبحتى ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده (الثانى) أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة ففى الخبر المشهور « إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا أعطاه (٥) » وفى خبر آخر « لا يصادفها عبد يصلى (٦) » واختلف فيها فقيل إنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان وقيل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ فى الخطبة وقيل إذا قام

(١) حديث « يأتي على أمتى زمن يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وأسنده الحاكم من حديث أنس وصحح اسناده وأخرج ابن حبان نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(٢) حديث « عبد الله بن عمر فى النهى عن التحلق يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي ورواه ابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده من حديث ابن عمر (٣) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم فى العلم (٤) حديث « لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر (٥) حديث « إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزنى .

(٦) حديث « لا يصادفها عبد يصلى » متفق عليه من حديث أبى هريرة

الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر - أعنى وقت الاختيار - وقيل قبل غروب الشمس ، وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ فى الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبر بأن تلك الساعة هى المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها [1] ، وقال بعض العلماء : هى مبهمة فى جميع اليوم مثل ليلة القدر تتوفر الدواعى على مراقبتها . وقيل إنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغى أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها [2] » ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغى أن يكون العبد فى جميع نهاره متعرضا لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشىء من تلك النفحات . وقد قال كعب الأحبار : إنها فى آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب ، فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة ! فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قعد ينتظر الصلاة فهو فى الصلاة [3] قال : بلى ، قال : فذلك صلاة ؟ فسكت أبو هريرة وكان كعب مائلا إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما (الثالث) يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يارسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى ، وتعقد واحدة » وإن قلت اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء وأعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ماهو أهله واجزه أفضل ماجازيت نبيا عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين ياأرحم الراحمين [4] ، تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها فى سبع جمع فى كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم . وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال « اللهم اجعل فضائل صلواتك ونوامى بركاتك وشرائف زكواتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين قائد الخير وفاتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة اللهم ابعثه مقاما محمودا تزلف به قربه وتقر به عينه يغبطه به الأولون والآخرون اللهم اعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة اللهم أعط محمدا سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلج حجته وارفع فى أعلى المقربين درجته اللهم احشرنا فى زمرته واجعلنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته

---

(١) حديث فاطمة « فى ساعة الجمعة أخرجه الدارقطنى فى العلل والبيهقى فى الشعب وعلته الاختلاف (٢) حديث « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات . . الحديث » أخرجه الحكيم فى النوادر والطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولابن عبد البر فى التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا فى كتاب الفرج من حديث أبى هريرة واختلف فى اسناده

(٣) حديث « اختلاف كعب وأبى هريرة فى ساعة الجمعة وقول ابى هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة » قلت فى الإحياء أن كعبا هو القائل لها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فإنما قال إنها فى كل سنة مرة ثم رجع والحديث رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان من حديث أبى هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبد الله بن سلام

(٤) حديث « من صلى على فى يوم الجمعة ثمانين مرة ... الحديث » أخرجه الدارقطنى من رواية ابن المسيب قال أظنه عن أبى هريرة وقال حديث غريب ، وقال ابن النعمان حديث حسن

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يارب العالمين (١) » وعلى الجملة فكل ماأتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة فى التشهد كان مصليا . وينبغى أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضا مستحب فى هذا اليوم (الرابع) قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة . فقد روى عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما « أنّ من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفى من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال (٢) » ويستحب أن يختم القرآن فى يوم الجمعة وليلتها إن قدر ، وليكن ختمه للقرآن فى ركعتى الفجر إن قرأ بالليل أوفى ركعتى المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم . وكان العابدون يستحبون أن يقرءوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة . ويقال إنّ من قرأها فى عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة وكانوا يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ألف مرة وإن قرأ المسبحات الست فى يوم الجمعة أو ليلتها لحسن . وليس يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعيانها إلا فى يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة « قل ياأيها الكافرون . وقل هو الله أحد » وكان يقرأ فى صلاه العشاء الآخره ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقين (٣) وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرؤهما فى ركعتى الجمعة . وكان يقرأ فى الصبح يوم الجمعة . سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان (٤) (الخامس) الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لايجلس حتى يصلى أربع ركعات يقرأ فيهن « قل هو الله أحد » مائتى مرة فى كل ركعة خمسين مرة (٥) فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنّ من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له » ولا يدع ركعتى التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك (٦) وفى حديث غريب « أنه صلى الله عليه وسلم سكت للداخل حتى صلاهما (٧) » فقال الكوفيون : إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب فى هذا اليوم أوفى ليلته أن يصلى أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس . فإن لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك . ولايدع قراءة هذه الأربع سور فى ليلة الجمعة ففيها فضل كثير . ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الختمة . ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصلى صلاة التسبيح ـ كما سيأتى فى باب التطوعات كيفيتها ـ لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس « صلها فى كل جمعة (٨) وكان ابن عباس رضى الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال

---

(١) حديث « اللهم اجعل فضائل صلواتك .. الحديث » أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضعيف وقفه على ابن مسعود (٢) حديث ابن عباس وأبى هريرة « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة .. الحديث » لم أجده من حديثهما (٣) حديث « القراءة فى المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، وفى عشائها الجمعة والمنافقين » أخرجه ابن حبان والبيهقى من حديث سمرة وفى ثقات ابن حبان المحفوظ عن سماك مرسلا قلت لايصح مسنداً ولا مرسلا (٤) حديث « القراءة فى الجمعة بالجمعة والمنافقين » وفى صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبى هريرة (٥) حديث « من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائتى مرة .. الحديث » أخرجه الخطيب فى الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جدا

(٦) حديث « الأمر بالتخفيف فى التحية إذا دخل والإمام يخطب » أخرجه مسلم من حديث جابر والبخارى « الأمر بالركعتين » ولم يذكر التخفيف (٧) حديث « سكوته صلى الله عليه وسلم عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحية » أخرجه الدارقطنى من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلا (٨) حديث « صلاة التسبيح وقوله لعمه العباس صلها فى كل جمعة » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال العقيلى وغيره ليس فيها حديث صحيح

وكان يخبر عن جلالة فضلها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار . (السادس) الصدقة مستحبة فى هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم فى كلام الإمام فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب ـ وكان إلى جانب أبى ـ فأعطى رجل أبى قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبى . وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لايعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال فى الجامع الذين يتخطون رقاب الناس ؛ إلا أن يسأل قائما أوقاعدا فى مكانه من غير تخط . وقال كعب الأحبار : من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول : اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذى لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه . وقال بعض السلف . من أطعم مسكينا يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحدا ثم قال حين يسلم الإمام « بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أن تغفر لى وترحمنى وتعافينى من النار » ثم دعا بما بداله استجيب له (السابع) أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدئ فيه السفر فقد روى « أنه من سافر فى ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه [1] » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت . وكره بعض السلف شراء الماء فى المسجد من السقاء ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعا فى المسجد فإن البيع والشراء فى المسجد مكروه . وقالوا : لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل فى المسجد . وبالجملة ينبغى أن يزيد فى الجمعة فى أوراده وأنواع خيراته فإن الله سبحانه إذا أحب عبدا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال وإذا مقته استعمله فى الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال ليكون ذلك أوجع فى عقابه وأشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت . ويستحب فى الجمعة دعوات ، وسيأتى ذكرها فى كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب السادس : فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأما المسائل التى تقع نادرة فقد استقصيناها فى كتب الفقه

(مسألة) الفعل القليل وإن كان لايبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة وذلك فى دفع المار وقتل العقرب التى تخاف ويمكن قتلها بضربة اوضربتين فإذا صارت ثلاثا فقد كثرت وبطلت الصلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما ، وكذلك حاجته إلى الحك الذى يتشوش عليه الخشوع . كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث فى الصلاة . وابن عمر كان يقتل القملة فى الصلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النخعى : يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب : يأخذها ويخدرها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدرما لاتؤذى ثم يلقيها . وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل . ولذلك كان بعضهم لايطرد الذباب وقال : لا أعوّد نفسى ذلك فأفسد على صلاتى . وقد سمعت أن الفساق بين يدى

---

(١) حديث « من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة وقال غريب والخطيب فى الرواة عن مالك من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون . ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى . وإن عطس حمد الله عز وجل فى نفسه ولا يحرك لسانه . وإن تجشأ فينبغى أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا ينبغى أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة .

(مسألة) الصلاة فى النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلا ، وليست الرخصة فى الخف لعسر النزع بل هذه النجاسة معفو عنها . وفى معناها المداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نعليه ، ثم نزع فنزع الناس نعالهم فقال : لم خلعتم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبرائيل عليه السلام أتانى فأخبرنى أن بهما خبثا فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فإن رأى خبثا فليمسحه بالأرض وليصل فيهما [1] » وقال بعضهم : الصلاة فى النعلين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال « لم خلعتم نعالكم ؟ » وهذه مبالغة فإنه صلى الله عليه وسلم سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته . وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبى صلى الله عليه وسلم خلع نعليه [2] » فإذن قد فعل كليهما فمن خلع فلا ينبغى أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتا إليهما . ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب إليهما . روى أبو هريرة رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه [3] » وقال أبو هريرة لغيره : اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما . ووضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماما [4] فللإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره . والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فتشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم . وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة .

(مسألة) إذا بزق فى صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل . وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاما وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغى أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى القبلة نخامة فغضب غضباً شديداً ثم حكها بعرجون كان فى يده وقال : ائتونى بعبير ، فلطخ أثرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال : أيكم يحب أن يبزق فى وجهه ؟ فقلنا : لا أحد ، قال : فإن أحدكم إذا دخل فى الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة [5] » وفى لفظ آخر « واجهه الله تعالى فلا يبزقن أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فإن بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه وليقل به هكذا ودلك بعضه ببعض »

(مسألة) لوقوف المقتدى : سنة وفرض ؛ أما السنة : فأن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخرا عنه قليلا ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ؛ فإن وقفت بجنب الإمام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة . فإن كان معها رجل

---

(١) حديث « صلى فى نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم .. الحديث » أخرجه أحمد واللفظ لابن ماجه وأبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد (٢) حديث عبد الله بن السائب فى « خلع النبى صلى الله عليه وسلم نعليه » أخرجه مسلم

(٣) حديث أبى هريرة « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه » أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعفه المنذرى وليس بجيد

(٤) حديث « وضعه نعليه على يساره » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب

(٥) حديث « رأى فى القبلة نخامة فغضب . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر وادعاها عليه مختصراً من حديث أنس وعائشة وأبى سعيد وأبى هريرة وابن عمر .

وقف الرجل عن يمين الإمام وهى خلف الرجل . ولا يقف أحد خلف الصف منفردا بل يدخل فى الصف أو يجر إلى نفسه واحدا من الصف . فإن وقف منفردا صحت صلاته مع الكراهية . وأما الفرض . فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدى والإمام رابطة جامعة فإنهما فى جماعة فإن كانا فى مسجد كفى ذلك جامعا لأنه بنى له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام ، صلى أبو هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد فى طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفى القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر . وإنما يشترط إذا وقف فى صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطىء فى المسجد فالشرط أن يمد صف المسجد فى دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن . ثم تصح صلاة من فى ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الابنية المختلفة فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء .

(مسألة) المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته فليوافق الإمام وليبن عليه وليقنت فى الصبح فى آخر صلاة نفسه . وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها . فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه فى اعتداله من الركوع فليتم . فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق . وإن ركع الامام وهو فى السورة فليقطعها . وإن أدرك الإمام فى السجود أو التشهد كبر الإحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه فى الركوع فإنه يكبر ثانيا فى الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له . والتكبيرات للانتقالات الأصلية فى الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة . ولا يكون مدركا للركعة مالم يطمئن راكعا فى الركوع والإمام بعد فى حد الراكعين . فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام حد الراكعين فاتته تلك الركعة .

(مسألة) من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولا ثم العصر ، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف . فإن وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى . فإن صلى منفردا فى أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى فى الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء . فإن نوى فائتة أو تطوعا جاز . وإن كان قد صلى فى الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو الفائتة أو النافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة .

(مسألة) من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف . وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة .

(مسألة) من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأول أو فعل فعلا سهوا وكانت تبطل الصلاة بتعمده أوشك فلا يدرى أصلى ثلاثا أو أربعا : أخذ باليقين وسجد سجدتى السهو قبل السلام . فإن نسى فبعد السلام مهما تذكر على القرب . فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته . فإنه لما دخل فى السجود كأنه جعل سلامه نسيانا فى غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود . فإن تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات .

(مسألة) الوسوسة فى نية الصلاة سببها خبل فى العقل أو جهل بالشرع لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل

امتثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره فى حق القصد . ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال : نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه بوجهى ، كان سفها فى عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو فى غفلة . واشتراط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا فى كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه . وقصد التعظيم به ليكون تعظيما . فإنه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما . ثم هذه الصفات لابد وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لايطول حضورها فى النفس فى لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب . فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية . فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلى فى وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل . فإن هذه القصود وهذه العلوم تجتمع فى النفس فى حالة واحدة ولاتكون مفصلة الآحاد فى الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها . وفرق بين حضور الشىء فى النفس وبين تفصيله بالفكر . والحضور مضاد للعزوب والغفلة ، وإن لم يكن مفصلا . فإن من علم الحادث مثلا فيعلمه بعلم واحد فى حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هى حاضرة وإن لم تكن منفصلة فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان ، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود ، فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث ، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والمتأخر ؟ فقال ماعرفته قط كان كاذبا وكان قوله مناقضا لقوله : إنى أعلم الحادث . ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فإن الموسوس يكلف نفسه أن يحضر فى قلبه الظهرية والأدائية والفرضية فى حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال . ولو كلف نفسه ذلك فى القيام لأجل العالم لتعذر عليه . فبهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن امتثال أمر الله سبحانه فى النية كامتثال أمر غيره ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول . لولم يفهم الموسوس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل فى نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك فى أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لايفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك . ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط . ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة فى النية ، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل ، فكيفما تيسرت النية للموسوس ينبغى أن يقنع به حتى يتعود ذلك وتفارقه الوسوسة ، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد فى الوسوسة . وقد ذكرنا فى الفتاوى وجوها من التحقيق فى تحقيق العلوم . والقصود المتعلقة بالنية تفتقر العلماء إلى معرفتها أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج عليها الوسواس فلذلك تركناها .

(مسألة) ينبغى أن لايتقدم المأموم على الإمام فى الركوع والسجود والرفع منهما ولا فى سائر الأعمال ولاينبغى أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره فهذا معنى الاقتداء ، فإن ساواه عمدا لم تبطل صلاته كما لو وقف بجنبه غير متأخر عنه . فإن تقدم عليه ففى بطلان صلاته خلاف ، ولايبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لو تقدم فى الموقف على الإمام ؛ بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء فى الفعل لا فى الموقف فالتبعية فى الفعل أهم . وإنما شرط ترك التقدم فى الموقف تسهيلا للمتابعة فى الفعل وتحصيلا لصورة التبعية إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه فى الفعل لاوجه له إلا أن يكون سهوا . ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير فيه فقال « أمايخشى

الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار [١] » وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة ، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حدّ الراكعين بطلت صلاته . وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثانى وهو بعد لم يسجد السجود الأول .

(مسألة) حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة فى صلاته أنّ يغيره وينكر عليه . وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه . فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . فقد قال صلى الله عليه وسلم « ويل للعالم من الجاهل حيث لايعلمه [٢] »وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من رأى من يسىء صلاته فلم ينهه فهو شريكه فى وزرها . وعن بلال بن سعد أنه قال : الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامة . وجاء فى الحديث « أنّ بلالا كان يسوّى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة [٣] » وعن عمر رضى الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم فى الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولاينبغى أن يتساهل فيه وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذى يتأخر عن الجماعة دون الحى . ومن دخل المسجد ينبغى أن يقصد يمين الصف ؛ ولذلك تزاحم الناس عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له : تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم « من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر [٤] » ومهما وجد غلاما فى الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرجه إلى خلف ويدخل فيه ـ أعنى إذا لم يكن بالغا ـ وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التى تعم بها البلوى . وسيأتى أحكام الصلوات المتفرقة فى كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

الباب السابع : فى النوافل من الصلوات

اعلم أنّ ماعدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ومستحبات وتطوعات . ونعنى بالسنن مانقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها ؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعنى بالمستحبات ماورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه ـ كما سننقله فى صلوات الأيام والليالى فى الأسبوع ـ وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله . ونعنى بالتطوعات ماوراء ذلك مما لم يرد فى عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب فى مناجاة الله عزوجل بالصلاة التى ورد الشرع بفضلها مطلقا ؛ فكأنه متبرع به إذا لم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقا ، والتطوع عبارة عن التبرع . وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائد على الفرائض . فلفظ : النافلة والسنة والمستحب والتطوع ؛ أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد. ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة فى الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته فى

---

(١) حديث « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث « ويل للعالم من الجاهل .. الحديث » أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف .
(٣) حديث « أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة » لم أجده .
(٤) حديث « قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بسند ضعيف

الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المعرّفة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد . وأفضل سنن الجماعات : صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء . وأفضل سنن الانفراد : الوتر ثم ركعتا الفجر ثم مابعدهما من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى مايتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء وإلى مايتعلق بأوقات ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى مايتكرر بتكرر اليوم والليلة أو بتكرر الأسبوع أو بتكرر السنة فالجملة أربعة أقسام

القسم الأول : ما يتكرر بتكرر الأيام والليالى وهى ثمانية ، خمسة هى رواتب الصلوات الخمس ، وثلاثة وراءها وهى صلاة الضحى وإحياء مابين العشاءين والتهجد

(الأولى) راتبة الصبح وهى ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا ومافيها[(١)] » ويدخل وقتها بطلوع الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل . وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير فى أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة للبصر . فيستدل بالكواكب عليه ويعرف بالقمر فى ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثنى عشر من الشهر هذا هو الغالب ، ويتطرق إليه تفاوت فى بعض البروج وشرح ذلك يطول . وتعلم منازل القمر من المهمات للمريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ، ويفوت وقت ركعتى الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ، ولكن السنة أداؤهما قبل الفرض . فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة[(٢)] » ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلاهما . والصحيح أنهما أداء ما وقعتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للفرض فى وقته وإنما الترتيب بينهما سنة فى التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة . فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقيتا أداء . والمستحب أن يصليهما فى المنزل ويخففهما ، ثم يدخل المسجد ويصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصلى إلى أن يصلى المكتوبة . وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتى الفجر والفريضة (الثانية) راتبة الظهر وهى ست ركعات : ركعتان بعدها وهى أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهى أيضا سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين . روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل[(٣)] » ، وكان صلى الله عليه وسلم لايدع أربعا بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح فى هذه الساعة فأحب أن يرفع لى فيها عمل[(٤)] » رواه أبو أيوب الأنصارى وتفرد به ، ودل عليه أيضا مارون أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى فى كل يوم اثنتى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت فى الجنة

الباب السابع

(١) حديث « ركعتا الفجر خير من الدنيا .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .

(٢) حديث « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث أبى هريرة « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن . الحديث » ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث أبى مسعود ولم أره من حديث أبى هريرة (٤) حديث أبى أيوب « كان لايدع أربعا بعد الزوال . الحديث » أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبى داود وابن ماجه مختصرا وروى الترمذى نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن

ركعتين قبل الفجر وأربعا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب[١] ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل يوم عشر ركعات[٢] فذكر ماذكرته أم حبيبة رضى الله عنها إلا ركعتى الفجر فإنه قال : تلك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثتنى أختى حفصة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى ركعتين فى بيتها ثم يخرج . وقال فى حديثه : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء . فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة . ويدخل وقت ذلك بالزوال . والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق ، إذيقع للشخص ظل عند الطلوع فى جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل فى الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر . ويعلم قطعا أن الزوال فى علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكاليف لاترتبط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباقى من الظل الذى منه يأخذ فى الزيادة يطول فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدى ، ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين . ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالى بالليل ويضع على الأرض لوحا مربعا وضعاً مستويا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب ، بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطا من مسقط الحجر إلى الضلع الذى يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أى لايكون الخط مائلا إلى أحد الضلعين ، ثم تنصب عمودا على اللوح نصبا مستويا فى موضع علامة ه وهو بإزاء القطب فيقع ظله على اللوح فى أول النهار مائلا إلى جهة المغرب فى صوب خط ا ثم لايزال يميل إلى أن ينطبق على خط ب ، بحيث لو مدّ رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر، ويكون موازيا للضلع الشرقى والغربى غير مائل إلى أحدهما ، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربى فالشمس فى منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذى على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحقيقا فى وقت هو قريب من أول الزوال فى علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته فى علم الزوال وهذه صورته :

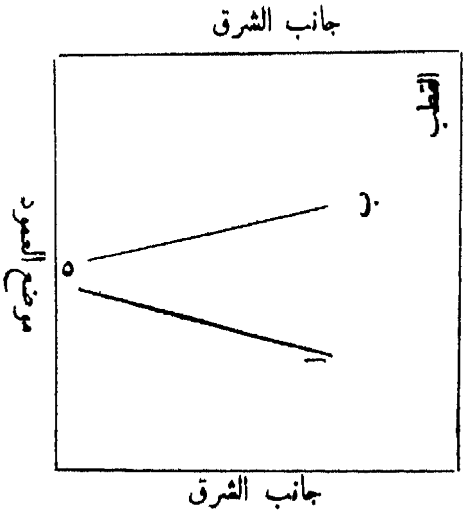

(الثالثة) راتبة العصر وهى أربع ركعات قبل العصر . روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « رحم الله عبداً صلى قبل العصر أربعاً[٣] » ففعل ذلك على رجاء الدخول فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحب استحبابا مؤكدا فإن دعوته تستجاب لامحالة له . ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر (الرابعة) راتبة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة لم

---

(١) حديث أم حبيبة « من صلى فى يوم اثنتى عشرة ركعة .. الحديث » أخرجه النسائى والحاكم وصحح اسناده على شرط مسلم ورواه مسلم مختصرا ليس فيه تعيين أوقات الركعات (٢) حديث ابن عمر « حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم فى كل يوم عشر ركعات .. الحديث » متفق عليه واللفظ للبخارى ولم يقل فى كل يوم (٣) حديث أبى هريرة « رحم الله عبدا صلى أربعا قبل العصر » =

تختلف الرواية فيهما ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كأبي بن كعب وعبادة بن الصامت وأبي ذر وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره : كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السوارى يصلون ركعتين (١) وقال بعضهم : كنا نصلى الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا فيسأل أصليتم المغرب ؟ وذلك يدخل فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم « بين كل أذانين صلاة لمن شاء (٣) » وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما فقيل له فى ذلك فقال : لم أر الناس يصلونهما ، فتركتهما وقال : لئن صلاهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن . ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأبصار فى الأراضى المستوية التى ليست محفوفة بالجبال فإن كانت محفوفة بها فى جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق قال صلى الله عليه وسلم « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم (٤) » والأحب المبادرة فى صلاة المغرب خاصة وإن أخرت وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه . وأخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين (الخامسة) راتبة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة . قالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام (٥) » واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة : ركعتان قبل الصبح وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد العشاء الآخرة وهى الوتر (٦) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصلاة خير موضوع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل (٧) » فإذاً اختيار كل مريد من هذه الصلاة بقدر رغبته فى الخير فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها آكد من بعض ، وترك الآكد أبعد لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر (السادسة) الوتر : قال أنس بن مالك « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات ، يقرأ فى الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفى الثانية قل يا أيها الكافرون وفى الثالثة قل هو الله أحد (٨) » وجاء فى الخبر « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا وفى بعضها متربعا (٩) » وفى بعض الأخبار « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما إذا زلزلت الأرض وسورة التكاثر (١٠) » وفى رواية أخرى « قل يا أيها الكافرون » ويجوز الوتر مفصولا وموصولا ، بتسليمة واحدة

= أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبى هريرة

(١) حديث عبادة أو غيره « فى ابتدار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السوارى إذا أذن لصلاة المغرب » متفق عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة ، وروى عبد الله بن أحمد فى زيادات المسند « أن أبى بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب »

(٢) حديث « كنا نصلى الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا » أخرجه مسلم من حديث أنس

(٣) حديث « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل

(٤) حديث « إذا أقبل الليل من ههنا .. الحديث » متفق عليه من حديث عمر

(٥) حديث عائشة « كان يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » أخرجه أبو داود

(٦) حديث « الوتر بثلاث بعد العشاء » أخرجه أحمد واللفظ له والنسائى من حديث عائشة « كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهن »

(٧) حديث « الصلاة خير موضوع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى ذر

(٨) حديث أنس « كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ فى الأولى سبح .. الحديث » أخرجه ابن عدى فى ترجمة محمد بن أبان ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند صحيح

(٩) حديث « كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا » أخرجه مسلم من حديث عائشة

(١٠) حديث « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين .. الحديث » أخرجه البيهقى من حديث أبى أمامة وأنس نحوه وضعفه وليس فيه « زحف إليه » ولا ذكر « ألهاكم التكاثر »

وتسليمتين : وقد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بركعة[١] وثلاث[٢] وخمس[٣] وهكذا بالأوتار[٤] إلى إحدى عشرة ركعة[٥] والرواية مترددة فى ثلاث عشرة[٦] وفى حديث شاذ ، سبع عشرة ركعة[٧] ، وكانت هذه الركعات - أعنى ما سميناه جملتها وترا - صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة - وسيأتى ذكر فضلها فى كتاب الأوراد وفى الأفضل خلاف فقيل إن الإيتار بركعة فردة أفضل إذ صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواظب على الإيتار بركعة فردة وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لاسيما الإمام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة ، فإن صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتى العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح . لأن شرط الوتر أن يكون فى نفسه وترا وأن يكون موترا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح أى لا ينال فضيلة الوتر الذى هو خير له من حمر النعم[٨] كما ورد به الخبر . وإلا فركعة فردة صحيحة فى أى وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق فى الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترا . وأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففى نيته فى الركعتين نظر . فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر . وإن نوى الوتر لم يكن هو فى نفسه وترا . وإنما الوتر ما بعده . ولكن الأظهر أن ينوى الوتر كما ينوى فى الثلاث الموصولة الوتر . ولكن للوتر معنيان ، أحدهما : أن يكون فى نفسه وترا ، والآخر أن ينشأ ليجعل وترا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترا ، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وتريته موقوفة على الركعة الثالثة . وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوى بهما الوتر . والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها . والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما . والوتر ينبغى أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد . وسيأتى فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما فى كتاب ترتيب الأوراد (السابعة) صلاة الضحى : فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات . روت أم هانئ أخت على بن أبى طالب رضى الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمانى ركعات أطالهن وحسنهن[٩] » ، ولم ينقل هذا القدر غيرها . فأما عائشة رضى الله عنها فإنها ذكرت « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله سبحانه[١٠] » فلم تحد الزيادة أى أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات . وروى فى حديث مفرد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى ست ركعات[١١] » وأما وقتها فقد روى على رضى الله عنه « أنه

---

(١) حديث « الوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة (٢) حديث « الوتر بثلاث » تقدم (٣) حديث « الوتر بخمس » من حديث عائشة « يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس فى شىء إلا فى آخرها »

(٤) حديث « الوتر بسبع » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى ، واللفظ له من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعات لا يقعد إلا فى السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلى السابعة » حديث « الوتر بتسع » أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو فى الذى قبله (٥) حديث الوتر بإحدى عشرة » أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة « كان يوتر بأربع وثلاث ، وست وثلاث ، وثمان وثلاث ، وعشر وثلاث . . الحديث » ولمسلم من حديثها « كان يصلى بالليل إحدى عشرة ركعة . الحديث » (٦) حديث « الوتر بثلاث عشرة » تقدم فى الذى قبله وللترمذى والنسائى من حديث أم سلمة « كان يوتر بثلاث عشرة » ، وقال الترمذى حسن . ولمسلم من حديث عائشة « كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة » زاد فى رواية « بركعتى الفجر » (٧) حديث « الوتر سبع عشرة » أخرجه ابن المبارك من حديث طاوس مرسلا « كان يصلى سبع عشرة ركعة من الليل » (٨) حديث « الوتر خير من حمر النعم » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث خارجة ابن حذافة « إن الله أمدكم بصلاة هى خير لكم من حمر النعم » وضعفه البخارى وغيره . (٩) حديث أم هانئ « صلى الضحى ثمانى ركعات أطالهن وأحسنهن » متفق عليه دون زيادة « أطالهن وأحسنهن » وهى منكرة (١٠) حديث عائشة « كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله » أخرجه مسلم (١١) حديث « كان يصلى الضحى ست ركعات » أخرجه الحاكم فى فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات

صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ستا في وقتين ، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين ـ وهو أوّل الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي ـ وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعا [١] ، فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثاني إذا مضى من النهار ربعه بإزاء صلاة العصر فإنّ وقته أن يبقى من النهار ربعه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف مابين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أنّ العصر على منتصف مابين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات . ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ماقبل الزوال وقت للضحى على الجملة . (الثامنة) إحياء مابين العشاءين وهي سنة مؤكدة ومما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ست ركعات [٢] ولهذه الصلاة فضل عظيم . وقيل إنها المراد بقوله عزوجل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراسا لوطافه أهل الأرض لوسعهم [٤] » وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني مايتكرر بتكرر الأسابيع

وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات وأعطاه الله ثواب نبي وكتب له حجة وعمرة وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر [٥] » وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقا على الله أن يقضي حاجته [٦] » .

يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد والمعوّذتين مرة مرة فإذا سلم

---

(١) حديث « كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعا » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث علي كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات » لفظ النسائي وقال الترمذي حسن . (٢) حديث « صلى بين العشاءين ست ركعات » أخرجه ابن منده في الضحى والطبراني في الأوسط والأصغر من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف والترمذي وضعفه من حديث أبي هريرة « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتي عشرة سنة » (٣) حديث « من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين » أخرجه ابن المبارك في الرقائق من رواية ابن المنذر مرسلا (٤) حديث « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة » أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا له من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « من صلى يوم الأحد أربع ركعات ... الحديث » أخرجه أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) حديث علي « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد .. الحديث » ذكره أبو موسى المديني فيه بغير إسناد

استغفر الله عشر مرات وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها [١] » وروى أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين ثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتى عشرة واستغفر اثنتى عشرة مرة ينادى به يوم القيامة : أين فلان بن فلان ليقم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل ؟ فأول مايعطى من الثواب ألف حلة ويتوج ويقال له ادخل الجنة ويستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ [٢] » .

يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال « قال صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار [٣] » وفى حديث آخر « عند ارتفاع النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوما فإن مات إلى سبعين يوما مات شهيدا وغفر له ذنوب سبعين سنة » .

يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولانى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الأربعاء ثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش : ياعبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ماتقدم من ذنبك ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وضيقه وظلمته ورفع عنك شدائد القيامة ، ورفع له من يومه عمل نبى [٤] » .

يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسى مائة مرة وفى الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصلى على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة [٥] » .

يوم الجمعة ، روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء فصلى سبحة الضحى ركعتين إيمانا واحتسابا إلا كتب الله له مائتى حسنة ومحا عنه مائتى سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له فى الجنة أربعمائة درجة ومن صلى ثمانى ركعات رفع الله تعالى له فى الجنة ثمانمائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتى عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتى حسنة ومحا عنه ألفين ومائتى سيئة ورفع له فى الجنة ألفين ومائتى درجة [٦] » وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من دخل الجامع

---

(١) حديث جابر « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المدينى من حديث جابر عن عمر مرفوعا وهو حديث منكر (٢) حديث أنس « من صلى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة ... الحديث » ذكره أبو موسى المدينى بغير سند وهو منكر . (٣) حديث يزيد الرقاشى عن أنس « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار .. الحديث » أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف ولم يقل « عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه »

(٤) حديث أبى ادريس الخولانى عن معاذ « من صلى يوم الأربعاء اثنتى عشرة ركعة ... الحديث » أخرجه أبو موسى المدينى وقال رواته ثقات والحديث مركب . قلت : بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازى أحد الكذابين

(٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين ... الحديث » أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدا (٦) حديث على « يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس .. الحديث » لم أجد له أصلا وهو باطل

يوم الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ فى كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (١) » .

يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسى كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عزوجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء (٢) » .

وأما الليالى . ليلة الأحد : روى أنس بن مالك فى ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة مرة واستغفر الله عزوجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مائة مرة وتبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمدا حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولدا ومن لم يدع لله ولدا وبعثه الله عزوجل يوم القيامة مع الآمنين وكان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين (٣) » .

ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ فى الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفى الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفى الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفى الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ثم سأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤله ماسأل (٤) » وهى صلاة الحاجة .

ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة ، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسى واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . وروى عن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه وقل هو الله أحد سبع مرات أعتق الله رقبته من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة (٥) » .

ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفى الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات

---

(١) حديث نافع عن ابن عمر « من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات . الحديث » أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك وقال لا يصح وعبد الله بن وصيف مجهول والخطيب فى الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أعرف له وجها غير هذا

(٢) حديث أبى هريرة « من صلى يوم السبت أربع ركعات .. الحديث » أخرجه أبو موسى المدينى فى كتاب وظائف الليالى والأيام بسند ضعيف جدا

(٣) حديث « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة .. الحديث » ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس « فى فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات » وكلاهما ضعيف جدا

(٤) حديث « الأعمش عن أنس « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات .. الحديث » ذكره أبو موسى المدينى هكذا عن الأعمش بغير إسناد من رواية يزيد الرقاشى عن أنس حديثا « فى صلاة ست ركعات فيها » وهو منكر .

(٥) حديث « الصلاة فى ليلة الثلاثاء ركعتين .. الحديث » ذكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثا « فى صلاة أربع ركعات فيها » وكلها منكرة

ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة (١) » وفي حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ماشاء الله ويقرأ في آخر الركعتين آية الكرسي ثلاثين مرة وفي الأوليين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يشفع في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار » وروت فاطمة رضي الله عنها أنها قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ في ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول جزى الله محمدا عنا ماهو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له براءة من النار (٢) » .

ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضي الله عنه « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الخميس مابين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشر مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حق والديه عليه وإن كان عاقا لهما وأعطاه الله تعالى ما يعطي الصديقين والشهداء (٣) » .

ليلة الجمعة : قال جابر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها (٤) » وقال أنس « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدهما عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة علي في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة (٦) » .

ليلة السبت : قال أنس « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بني له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقا على الله أن يغفر له (٧) » .

القسم الثالث مايتكرر بتكرر السنين

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان (الأولى) صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور ؛ الأول . التكبير ثلاثا نسقا فيقول « الله أكبر الله أكبر

---

(١) حديث « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين . الحديث » لم أجد فيه الا حديث جابر « في صلاة أربع ركعات فيهما » ورواه أبو موسى المديني وروى من حديث أنس « ثلاثين ركعة » (٢) حديث فاطمة « من صلى ست ركعات – أي ليلة الأربعاء ... الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جدا (٣) حديث أبي هريرة « من صلى ليلة الخميس مابين المغرب والعشاء ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جدا وهو منكر
(٤) حديث جابر « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » باطل لا أصل له
(٥) حديث أنس « من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات .. الحديث » باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للميت من حديث أنس « من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمس عشرة مرة » وقال إبراهيم بن المظفر « خمسين مرة أمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء والله أعلم (٦) حديث « أكثروا علي من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهر » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد المنعم بن بشير ضعفه ابن معين وابن حبان (٧) حديث أنس « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » لم أجد له أصلا

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع فى صلاة العيد ، وفى العيد الثانى يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر ، وهذا أكمل الأقاويل . ويكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب الفرائض آكد : الثانى : إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه فى الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال ، وليجتنب الصبيان الحرير والعجائز التزين عند الخروج . الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر[1] هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم « يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور[2] » . الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس ، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة فى المسجد ، ويجوز فى يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلا يصلى بالضعفة فى المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس : يراعى الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال . ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالث عشر ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] . السادس : فى كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين فى الطريق . وإذا بلغ الإمام المصلى لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل . ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصلى الإمام بهم ركعتين يكبر فى الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقول « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ « سورة ق » فى الأولى بعد الفاتحة « واقتربت » فى الثانية . والتكبيرات الزائدة فى الثانية خمس سوى تكبيرتى القيام والركوع . وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه . ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضاها . السابع : أن يضحى بكبش « ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين وذبح بيده وقال « بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى[4] » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى هلال ذى الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً[5] » ، قال أبو أيوب الأنصارى : كان الرجل يضحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته ويأكلون ويطعمون[6] . وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، وردت فيه الرخصة بعد النهى عنه وقال سفيان الثورى : يستحب أن يصلى بعد عيد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد عيد الأضحى ست ركعات[7] وقال هو من السنة (الثانية) التراويح : وهى عشرون ركعة

---

(١) حديث « الخروج فى طريق والرجوع فى أخرى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور » متفق عليه من حديث أم عطية

(٣) حديث « تعجيل صلاة الأضحى وتأخير صلاة الفطر » أخرجه الشافعى من رواية أبى الحويرث مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن عجل الأضحى وأخر الفطر

(٤) حديث « ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال . بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى » متفق عليه دون قوله « عنى » الخ من حديث أنس وهذه الزيادة عند أبى داود والترمذى من حديث جابر وقال الترمذى غريب ومنقطع .

(٥) حديث « من رأى هلال ذى الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره وأظفاره » أخرجه من حديث أم سلمة .

(٦) حديث أبى أيوب « كان الرجل يضحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون » أخرجه الترمذى وابن ماجه قال الترمذى حسن صحيح (٧) قال سفيان الثورى : من السنة أن يصلى بعد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد الأضحى ست ركعات . لم أجد له أصلا فى كونه سنة وفى الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا فى قول التابعى : من السنة كذا ، وأما قول تابعى التابع كذلك كالثورى فهو مقطوع .

وكيفيتها مشهورة وهى سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين واختلفوا فى أنّ الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟ وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلتين أو ثلاثا للجماعة ثم لم يخرج وقال « أخاف أن توجب عليكم[١] » ، وجمع عمر رضى الله عنه الناس عليها فى الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحى ؛ فقيل إنّ الجماعة أفضل لفعل عمر رضى الله عنه ولأنّ الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ولأنه ربما يكسل فى الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأنّ هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بصلاة الضحى وتحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معا ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ولقوله صلى الله عليه وسلم « فضل صلاة التطوع فى بيته على صلاته فى المسجد كفضل صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت[٢] » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة فى غيره من المساجد وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فى مسجدى ، وأفضل من ذلك كله رجل يصلى فى زاوية بيته ركعتين لايعلمها إلا الله عز وجل[٣] » وهذا لأنّ الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه فى الجمع ويأمن منه فى الوحدة فهذا ماقيل فيه . والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضى الله عنه . فإنّ بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير أن يكون من الشعائر التى تظهر. وأما الالتفات إلى الرياء فى الجمع والكسل فى الانفراد عدول عن مقصود النظر فى فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة ، وكأنّ قائله يقول : الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء . فلنفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لايكسل لو انفرد ولايرائى لو حضر الجمع فأيهما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب فى الوحدة ، فيجوز أن يكون فى تفضيل أحدهما على الآخر تردد ومما يستحب القنوت فى الوتر فى النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلى فيما بين العشاء والعتمة اثنتى عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرّة وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتى عشرة مرّة ، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرّة يقول : اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آله ثم يسجد ويقول فى سجوده سبعين مرّة : سبوح قدّوس رب الملائكة والروح ، ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرّة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال فى السجدة الأولى ثم يسأل حاجته فى سجوده فإنها تقضى[٤] » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلى أحد هذه الصلاة إلا غفر

---

(١) حديث « خرج لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثا ثم لم يخرج وقال أخاف أن يوجب عليكم » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « خشيت أن تفرض عليكم » (٢) حديث « فضل صلاة التطوع فى بيته على صلاته فى المسجد كفضل صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت » رواه آدم بن أبى إياس فى كتاب الثواب من حديث ضمرة بن حبيب مرسلا ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم موقوفا . وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرء فى بيته أفضل من صلاته فى مسجدى هذا إلا المكتوبة

(٣) حديث « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة فى غيره وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فى مسجدى وأفضل من هذا كله رجل يصلى ركعتين فى زاوية بيته لا يعلمها إلا الله » أخرجه أبو الشيخ فى الثواب من حديث أنس « صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل لايريد بهما إلا وجه الله عز وجل » وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوزاعى قال : دخلت على يحيى فأسند لى حديثا فذكره ، إلا أنه قال فى الأولى « ألف » وفى الثانية « مائة » (٤) حديث « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ... الحديث » فى صلاة الرغائب أورده رزين فى كتابه وهو حديث موضوع

الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة فى سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار » فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها فى هذا القسم لأنها تتكرر بتكرر السنين وإن كانت رتبتها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ، ولكنى رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها . وأما صلاة شعبان : فليلة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ، فهذا أيضا مروى فى جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوها جماعة . روى عن الحسن أنه قال: حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنّ من صلى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله اليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة (١)

القسم الرابع من النوافل : مايتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهى تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتى الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه . ونظائر ذلك فنذكر منها ما يحضرنا الآن ﴿ الأولى ﴾ صلاة الخسوف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة (٢) » قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس . إنما كسفت لموته . والنظر فى كيفيتها ووقتها ، أما الكيفية . فاذا كسفت الشمس فى وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى « الصلاة جامعة » وصلى الإمام بالناس فى المسجد ركعتين وركع فى كل ركعة ركوعين أوائلهما أطول من أواخرهما . ولا يجهر فيقرأ فى الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ؛ وفى الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفى الثالثة الفاتحة وسورة النساء ، وفى الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد ، ولو اقتصر على الفاتحة فى كل قيام أجزأه ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الإنجلاء . ويسبح فى الركوع الأول قدر مائة آية ، وفى الثانى قدر ثمانين ، وفى الثالث قدر سبعين ، وفى الرابع قدر خمسين . وليكن السجود على قدر الركوع فى كل ركعة . ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة . وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة . وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب القمر خاسفا لأن الليل كله سلطان القمر، فان انجلى فى أثناء الصلاة أتمها مخففة . ومن أدرك الركوع الثانى مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول ﴿الثانية﴾ صلاة الاستسقاء : فاذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو إنهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ، ثم يخرج بهم فى اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين فى ثياب بذلة واستكانة متواضعين ـ بخلاف العيد ـ وقيل يستحب

---

(١) حديث « صلاة ليلة نصف شعبان » حديث باطل رواه ابن ماجه من حديث على « اذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها » وأسناده ضعيف (٢) حديث « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله .. الحديث» أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة

إخراج الدواب لمشاركتها فى الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا [١] » ، ولو خرج أهل الذمة أيضا متميزين لم يمنعوا فإذا اجتمعوا فى المصلى الواصل من الصحراء نودى « الصلاة جامعة » فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد - بغير تكبير - ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغى فى وسط الخطبة الثانية ، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحوّل رداءه فى هذه الساعة تفاؤلا بتحويل الحال [٢] . هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين على الشمال وما على الشمال على اليمين . وكذلك يفعل الناس ويدعون فى هذه الساعة سراً ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محولة كما هى حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب. ويقول فى الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك فى سقيانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات فى الأيام الثلاثة قبل الخروج ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسيأتى ذلك فى كتاب الدعوات (الثالثة) صلاة الجنائز : وكيفيتها مشهورة وأجمع دعاء مأثور ماروى فى الصحيح عن عوف بن مالك قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة فحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار [٣] » حتى قال عوف : تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت . ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغى أن يراعى ترتيب الصلاة فى نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذى فات كفعل المسبوق ، وإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة فى هذه الصلاة معنى ، فالتكبيرات هى الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات فى سائر الصلوات ، هذا هو الأوجه عندى وإن كان غيره محتملا . والأخبار الواردة فى فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها ، وكيف لا يعظم فضلها وهى من فرائض الكفايات ؟ وإنما تصير نفلا فى حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن أحد ، ويستحب طلب كثرة الجمع تبركا بكثرة الهمم والأدعية واشتماله على ذى دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس: أنه مات له ابن فقال : يا كريب أنظر ما اجتمع له من الناس قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال : تقول هم أربعون قلت : نعم ، قال : أخرجوه فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله عز وجل فيه [٤] » وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال : السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك رد إليك فارأف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن اللهم

---

(١) حديث « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع .. الحديث » أخرجه البيهقى وضعفه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « استدار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء فى الاستسقاء » أخرجاه من حديث عبد الله بن زيد المازنى (٣) حديث عوف بن مالك فى الصلاة على الجنازة « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه .. الحديث » أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلى
(٤) حديث ابن عباس « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون ... الحديث » أخرجه مسلم

إن كان محسنا فضاعف له فى إحسانه وإن كان مسيئا فتجاوز عنه (الرابعة) تحية المسجد : ركعتان فصاعدا سنة مؤكدة حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تؤكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب . وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لايخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياما بحق المسجد . ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء فان دخل لعبور أو جلوس فليقل « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين فى الفضل . ومذهب الشافعى رحمه الله أنه لاتكره التحية فى أوقات الكراهية : وهى بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب ، لما روى « أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقيل له أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلنى عنهما الوفد [1] » فأفاد هذا الحديث فائدتين إحداهما : أنّ الكراهية مقصورة على صلاة لاسبب لها ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلف العلماء فى أنّ النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاء ؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفى بدخول المسجد وهو سبب قوى . ولذلك لاتكره صلاة الجنازة إذ حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء فى هده الأوقات لأن لها أسبابا . الفائدة الثانية : قضاء النوافل إذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة . وقالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتى عشرة ركعة [2] » وقد قال العلماء : من كان فى الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت ، ولا معنى الآن لقول من يقول : إنّ ذلك مثل الأول وليس يقضى ، إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الكراهة . نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغى أن لايرخص لنفسه فى تركه بل يتداركه فى وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية . وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل [3] » فيقصد به أن لايفتر فى دوام عمله وروت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقته الله عز وجل [4] » فليحذر أن يدخل تحت الوعيد . وتحقيق هذا الخبر . أنه مقته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه (الخامسة) ركعتان بعد الوضوء مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعى فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات . وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فرأيت بلالا فيها فقلت لبلال بم سبقتنى إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئا إلا أنى لا أحدث وضوءا إلا أصلى عقيبه ركعتين [5] » (السادسة) ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه : روى أبو هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين

---

(١) حديث « صلى ركعتين بعد العصر قيل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر ... الحديث » أخرجاه من حديث أم سلمة ولمسلم من حديث عائشة « كان يصلى ركعتين قبل العصر ثم انه شغل عنهما .. الحديث »

(٢) حديث عائشة « كان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة .. الحديث » أخرجه مسلم (٣) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » أخرجاه من حديث عائشة (٤) حديث عائشة « من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقته الله » ورواه ابن السنى فى رياضة المتعبدين موقوفا على عائشة (٤) حديث « دخلت الجنة ورأيت بلالا فيها فقلت يابلال بم سبقتنى إلى الجنة . الحديث » أخرجاه من حديث أبي هريرة

يمنعانك مدخل السوء[١] » وفى معنى هذا كل أمر يبتدأ به مما له وقع، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام[٢] وركعتان عند ابتداء السفر[٣] وركعتان عند الرجوع من السفر[٤] فى المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين ، وكذلك فى كل أمر يحدثه . وبداية الأمور ينبغى أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهى على ثلاث مراتب : بعضها يتكرر مراراً كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم «كل أمر ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر[٥] » الثانية : مالا يكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج « الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجتك ابنتى » ويقول القابل « الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح » وكانت عادة الصحابة رضى الله عنهم فى ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد . الثالثة : مالا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والاحرام وما يجرى مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه وأدناه الخروج من المنزل والدخول اليه فإنه نوع سفر قريب (السابعة) صلاة الاستخارة : فمن هم بأمر وكان لايدرى عاقبته ولا يعرف أن الخير فى تركه أو فى الإقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم « بأن يصلى ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون ، وفى الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد ، فإذا فرغ دعا وقال اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لى وبارك لى فيه ثم يسره لى وإن كنت تعلم ان هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفنى عنه واصرفه عنى واقدر لى الخير أينما كان إنك على كل شىء قدير[٦] » رواه جابر بن عبد الله قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا هم احدكم بأمر فليصل ركعتين ثم ليسم الامر ويدعو بما ذكرناه » وقال بعض الحكماء من اعطى اربعا لم يمنع اربعا ، من اعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن اعطى التوبة لم يمنع القبول ومن اعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن اعطى المشورة لم يمنع الصواب (الثامنة) صلاة الحاجة[٧] فمن ضاق عليه الامر ومسته حاجة فى صلاح دينه ودنياه إلى امر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد انه قال : إن من الدعاء الذى لايرد ان يصلى العبد ثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة

---

(١) حديث أبى هريرة « اذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء واذا دخلت منزلك .. الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم ، قال بكر حسبته عن أبى سلمة عن أبى هريرة فذكره : وروى الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة « اذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيرا » قال ابن عدى . وهو بهذا الإسناد منكر وقال البخارى لاأصل له (٢) حديث « ركعتى الإحرام » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر (٣) حديث « صلاة ركعتين عند ابتداء السفر » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أنس « ما استخلف فى أهله من خليفة أحب الى الله من أربع ركعات يصليهن العبد فى بيته إذا شد عليه ثياب سفره .. الحديث » وهو ضعيف (٤) حديث « الركعتين عند القدوم من السفر » اخرجاه من حديث كعب بن مالك (٥) حديث « كل أمر ذى بال لايبدأ فيه بسم الله فهو أبتر » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة

(٦) حديث « صلاة الاستخارة » أخرجه البخارى من حديث جابر قال أحمد حديث منكر (٦) حديث ابن مسعود « فى صلاة الحاجة اثنتى عشرة ركعة » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس باسنادين ضعيفين جدا فيهما عمرو بن هارون البلخى كذبه ابن معين وفيه علل أخرى وقد وردت « صلاة الحاجة ركعتين » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى وقال الترمذى حديث غريب وفى إسناده مقال

بأم الكتاب وآية الكرسى وقل هو الله أحد فإذا فرغ خرّ ساجدا ثم قال « سبحان الذى لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى المن والفضل سبحان ذى العز والكرم سبحان ذى الطول أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وجدّك الأعلى وكلماتك التامات العامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر أن تصلى على محمد وعلى آل محمد » ثم يسأل حاجته التى لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عز وجل . قال وهيب : بلغنا أنه كان يقال : لا تعلموها لسفهائكم فيتعاونون بها على معصية الله عز وجل (التاسعة) صلاة التسبيح : وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة . فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب : ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك بشىء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده سره وعلانيته تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات ، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها جالسا عشرا ، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا ، فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة تفعل ذلك فى أربع ركعات إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة فإن لم تفعل ففى كل شهر مرة فإن لم تفعل ففى السنة مرة (1) » وفى رواية أخرى « أنه يقول فى أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك ، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعد القراءة والباقى كما سبق عشرا عشرا ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعدا ، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك . والمجموع من الروايتين ثلثمائة تسبيحة فإن صلاها نهارا فبتسليمة واحدة وإن صلاها ليلا فبتسليمتين أحسن ؛ إذ ورد « أن صلاة الليل مثنى مثنى (2) » وإن زاد بعد التسبيح قوله « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » فهو حسن فقد ورد ذلك فى بعض الروايات فهذه الصلوات المأثورة . ولا يستحب شىء من هذه النوافل فى الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد ، وما أوردناه بعد التحية من ركعتى الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا لأن النهى مؤكد وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخسوف والاستسقاء والتحية . وقد رأيت بعض المتصوفة يصلى فى الأوقات المكروهة ركعتى الوضوء وهو فى غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سببا للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء . فينبغى أن يتوضأ ليصلى لا أنه يصلى لأنه توضأ . وكل محدث يريد أن يصلى فى وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصلى فلا يبقى للكراهية معنى . ولا ينبغى أن ينوى ركعتى الوضوء كما ينوى ركعتى التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعا كيلا يتعطل وضوءه كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء . وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوى ركعتى الوضوء فيستحيل أن ينوى بالصلاة الوضوء بل ينبغى أن ينوى بالوضوء الصلاة . وكيف ينتظم أن يقول فى وضوئه أتوضأ لصلاتى وفى صلاته يقول أصلى لوضوئى ، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل فى وقت الكراهية فلينو قضاء إن كان يجوز أن يكون فى ذمته صلاة تطرق إليها خلل لسبب من الأسباب فإن قضاء الصلوات فى أوقات الكراهية غير مكروه ، فأما نية التطوع فلا وجه لها . ففى النهى فى أوقات الكراهية مهمات ثلاثة

(1) حديث « صلاة التسبيح » تقدم (2) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى » أخرجاه من حديث ابن عمر

أحدها التوقى من مضاهاة عبدة الشمس ، والثانى : الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها وإذا ارتفعت فارقها فإن استوت قارنها فإذا زالت فارقها فإذا تضيفت للغروب قارنها فإذا غربت فارقها » ونهى عن الصلوات فى هذه الأوقات ونبه به على العلة ، والثالث : أن سالكى طريق الآخرة لايزالون يواظبون على الصلوات فى جميع الأوقات . والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل . ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعى ، والإنسان حريص على مامنع منه ففى تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، فخصصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر . ففى الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفى الاستمرار على شيء واحد استثقال وملال ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة ، فإن القلب يدرك من كل عمل منها لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل . فإذا كانت هذه أمورا مهمة فى النهى عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها . فهذه المهمات لاتترك إلا بأسباب مهمة فى الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد . فأما ما ضعف عنها فلا ينبغى أن يصادم به مقصود النهى . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .

كمل كتاب : أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتاب أسرار الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد وأشقى وأمات وأحيا وأضحك وأبكى وأوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأضر وأقنى الذى خلق الحيوان من نطفة تمنى ، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عباده بالحسنى فأفاض عليهم من نعمة ماأيسر به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق فى رزقه وأكدى إظهارا للامتحان والابتلا . ثم جعل الزكاة للدين أساسا ومبنى وبين أن بفضله تزكى من عباده من تزكى ومن غناه زكى ماله من زكى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبانى الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التى هى أعلى الأعلام فقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة [2] » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ومعنى الإنفاق فى سبيل الله إخراج حق الزكاة قال

---

(١) حديث « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا طلعت قارنها ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث عبد الله الصنابحى وهو مرسل ومالك هو الذى يقول عبد الله الصنابحى ووهم فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النبى صلى الله عليه وسلم

كتاب أسرار الزكاة

(٢) حديث « بنى الإسلام على خمس » أخرجاه من حديث ابن عمر

الأحنف بن قيس : كنت فى نفر من قريش فمرّ أبو ذرّ فقال بشر الكانزين بكى فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكى فى أقفائهم يخرج من جباههم . وفى رواية أنه يوضع على حلمة ثدى أحدهم فيخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمه ثدييه يتزلزل ـ وقال أبو ذر : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال « هم الأخسرون ورب الكعبة فقلت ومن هم : قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم ، مامن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لايؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ماكانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس[1] » وإذا كان هذا التشديد مخرجا فى الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة مع الاقتصار على مالا يستغنى عن معرفته مؤدى الزكاة وقابضها وينكشف ذلك فى أربعة فصول (الفصل الأول) فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها (الثانى) آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة (الثالث) فى القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه (الرابع) فى صدقة التطوع وفضلها

الفصل الأول : فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع :

زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر

النوع الأول : زكاة النعم

ولاتجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم . ولا يشترط البلوغ بل تجب فى مال الصبى والمجنون هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون نعما سائمة باقية حولا نصابا كاملا مملوكا على الكمال (الشرط الأول) كونه نعما فلا زكاة إلا فى الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم فلازكاة فيها (الثانى) السوم : فلا زكاة فى معلوفة وإذا أسيمت فى وقت وعلفت فى وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها (الثالث) الحول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول[2] » ويستثنى من هذا نتاج الحول (الرابع) كمال الملك والتصرف : فتجب الزكاة فى الماشية المرهونة لأنه الذى حجر على نفسه فيه ولاتجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فيجب زكاة مامضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به إذ الغنى مايفضل عن الحاجه . (الخامس) كمال النصاب .

أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهى التى تكون فى السنة الثالثة . وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه . وفى عشرين أربع شياه . وفى خمس وعشرين بنت مخاض وهى التى فى السنة الثانية ، فإن لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر وهو الذى فى السنة الثالثة يؤخذ إن كان قادرا على شرائها . وفى ست وثلاثين ابنة لبون . ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة وهى التى فى السنة الرابعة . فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهى التى فى السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وسبعين ففيها بنتا لبون . فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان . فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون . فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ؛ فى كل خمسين حقة ، وفى كل أربعين بنت لبون .

---

(١) حديث أبى ذر « انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الأخسرون ورب الكعبة . . الحديث » اخرجاه مسلم والبخارى (٢) حديث « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول » أخرجه أبو داود من حديث على بإسناد جيد وابن ماجه من حديث عائشة بإسناد ضعيف

وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذى فى السنة الثانية . ثم فى أربعين مسنة وهى التى فى السنة الثالثة . ثم فى ستين تبيعان . واستقر الحساب بعد ذلك . ففى كل أربعين مسنة . وفى كل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز . ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان . إلى مائتى شاة وواحدة فيها ثلاث شياه إلى أربعمائة ففيها أربع شياه . ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة . وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد فى النصاب فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة . وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة . على جميعهم . وخلطة الجوار كخلطة الشيوع ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة ولا حكم للخلطة مع الذمى والمكاتب . ومهما نزل فى واجب الإبل عن سن إلى سن فهو جائز مالم يجاوز بنت مخاض فى النزول . ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما . ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهما . وله أن يصعد فى السن مالم يجاوز الجذعة فى الصعود ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال . ولا تؤخذ فى الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحا ولو واحدة . ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللئام لئيمة . ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا الماخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال .

النوع الثانى : زكاة المعشرات

فيجب العشر فى كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائه منّ ولا شيء فيما دونها ولا فى الفواكه والقطن ، ولكن فى الحبوب التى تقتات وفى التمر والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة منّ تمراً أو زبيباً لارطبا وعنبا ، ويخرج ذلك بعد التجفيف . ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر فى خلطة الشيوع كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة منّ من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون منا من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه . ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير . ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه ، هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة فإن كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر ، فإن اجتمعا فالأغلب يعتبر . وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة فى قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولا يمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة بيع ، بل يرخص فى مثل هذا للحاجة . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح فى الثمار وأن يشتد الحب . ووقت الأداء بعد الجفاف .

النوع الثالث : زكاة النقدين

فإذا تم الحول على وزن مائتى درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم ، وهو ربع العشر ، وما زاد فحسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر ، وما زاد فحسابه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة فى التبر وفى الحلى المحظور كأوانى الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال . ولا تجب فى الحلى المباح . وتجب فى الدين الذى هو على ملىء ولكن تجب عند الاستيفاء وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهي كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا ؛ فإن كان ناقصا أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم . فإن كان ما به الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقويم به أولى من نقد البلد ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما فى النتاج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ؛ هذا هو الأقيس .

النوع الخامس : الركاز والمعدن

والركاز مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الإسلام ملك ، فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر . والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة . واعتباره أيضاً ليس ببعيد لأن مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين .

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ؛ ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب . وفى الحول قولان ، وفى قول : يجب الخمس ؛ فعلى هذا لا يعتبر . وفى النصاب قولان والأشبه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب . وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب كالمعشرات ، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ، ومن عين النقدين أيضا خروجا عن شبهة هذه الاختلافات فإنها ظنون قريبة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

النوع السادس : فى صدقة الفطر

وهى واجبة ـ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات[1] بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منوان وثلثا منّ ، يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير . وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو فى نفقته أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون[2] » وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته آكد . وقد

(١) حديث « وجوب صدقة الفطر على كل مسلم » أخرجاه من حديث ابن عمر قال « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان .. الحديث » (٢) حديث « أدوا زكاة الفطر عمن تمونون » أخرجه الدارقطنى والبيهقى من حديث ابن عمر « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون » قال البيهقى إسناده غير قوى

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم[1] فهذه أحكام فقهية لابد للغنى من معرفتها ، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار .

الفصل الثانى : فى الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة خمسة أمور (الأول) النية : وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ويسن عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز ؛ لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولى تقوم مقام نية المجنون والصبي . ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ولكن فى ظاهر حكم الدنيا - أعنى فى قطع المطالبة عنه - أما فى الآخرة فلا بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية (الثانى) البدار عقيب الحول وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق . وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه . وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول . ويجوز تعجيل زكاة حولين . ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات ، فالمدفوع ليس بزكاة ، واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العاقبة (الثالث) أن لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعده عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه . وذلك كرمى الجمرات مثلا إذ لا حظ للجمرة فى وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر . وأكثر أعمال الحج كذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى إحرامه «لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا[2]» ، تنبيها على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثانى : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته . ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعباد، فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق فهذا قسم فى نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغى أن

(١) حديث « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند صحيح وابن حبان والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبان بتقديم « الزوجة على الولد » وسيأتى

(٢) حديث « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » أخرجه البزار والدارقطنى فى العلل من حديث أنس

ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه لحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع . وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج فى كونها من مبانى الإسلام . ولاشك فى أن على المكلف تعبا فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته . ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى . والتساهل فيه غير قادح فى حظ الفقير لكنه قادح فى التعبد . ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها فى كتب الخلاف من الفقهيات . ومن أوضحها أن الشرع أوجب فى خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم وإن قدر أن ذلك لقلة النقود فى أيدى العرب بطل بذكره عشرين درهما فى الجبران مع الشاتين فلم يذكر فى الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولم قدر بعشرين درهما وشاتين ؟ وإن كانت الثياب والأمتعة كلها فى معناها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما فى الحج ولكن جمع بين المعنيين . والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه (الرابع) أن لاينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين فى كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفى النقل تخييب للظنون . فإن فعل ذلك أجزأه فى قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء فى تلك البلدة (الخامس) أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين فى بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية فإنه يشبه قول المريض إنما ثلث مالى للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك فى التمليك . والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثمانية صنفان فى أكثر البلاد : وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة . ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون ـ أعنى أبناء السبيل ـ وصنفان يوجدان فى بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة والمكاتبون . فإن وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم . ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متفاوتة وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد . وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغى أن ينقص فى كل صنف عن ثلاثة إن وجد . ثم لو لم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفرا . ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد. فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه فإن ذلك لابد منه .

بيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مبانى الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاث معان ؛ الأول : أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لايبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فإن المحبة لاتقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم . ولذلك قال

الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ﴾ وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عز وجل والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا دينارا ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله وعمر رضى الله عنه بشطر ماله فقال صلى الله عليه وسلم « ماأبقيت لأهلك » فقال : مثله ، وقال لأبى بكر رضى الله عنه « ماأبقيت لأهلك » قال الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم « بينكما مابين كلمتيكما »(١) ، فالصدّيق وفى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله . القسم الثانى : درجتهم دون درجة هذا وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم فى الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها ، وهؤلاء لايقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد . قال الشعبى بعد أن قيل له هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال: نعم أماسمعت قوله عزوجل ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ الآية واستدلوا بقوله عزوجل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ وزعموا أنّ ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة والذى يصح فى الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لايجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم مايزيل الحاجة قرضا ولايلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله فى الحال ولايجوز له الاقتراض أى لايجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه ، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولاينقصون عنه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة قال الله تعالى ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ يحفكم أى يستقص عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأنّ له الجنة وبين عبد لايستقصى عليه لبخله ؛ فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال المعنى الثانى : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »(٢) ، وقال تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وسيأتى فى ربع المهلكات وجه كونه مهلكا وكيفية التقصى منه ، وإنما تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال فحب الشىء لاينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث : شكر النعمة فإن لله عزوجل على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وماأخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لاتسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله .

---

(١) حديث « جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله « بينكما مابين كلمتيكما » . (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » تقدم

الوظيفة الثانية : فى وقت الأداء ؛ ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهارا للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلما بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم فإن ذلك لمة الملك « وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » فما أسرع تقلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر . وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاته إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته . وذلك كشهر المحرّم فإنه أوّل السنة وهو من الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وكان فى رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئاً [1] ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن . وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضاً من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهى العشر الأول والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر . وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ؛ فإنّ ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر [2] » وقال بعض العلماء . ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة [3] وقد روى أيضاً مسندا . وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر وكتب فى العلانية فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء [4] » وفى الحديث المشهور « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل تصدّق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه [5] » وفى الخبر « صدقة السر تطفئ غضب الرب [6] » وقال تعالى ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان » والمتحدث بصدقته يطلب السمعة والمعطى فى ملأ من الناس يبغى الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه [7] » وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره فى ثوب الفقير وهو نائم . وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه : كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة . ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ؛ إذ فى معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس فى معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له

---

(١) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود ما يكون فى رمضان .. الحديث » أخرجاه من حديث ابن عباس
(٢) حديث « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبى ذر ولأبى داود من حديث أبى هريرة « أى الصدقة أفضل ؟ قال جهد المقل » (٣) حديث « ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة » أخرجه أبو نعيم فى كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٤) حديث « إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر .. الحديث » أخرج الخطيب فى التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناد ضعيف
(٥) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله .. الحديث » أخرجاه من حديث أبى هريرة (٦) حديث « صدقة السر تطفئ غضب الرب » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب » ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٧) حديث « لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان » لم أظفر به هكذا

حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال . وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة ؛ ولكن صفة البخل تنقلب فى القبر فى حكم المثال عقربا لادغا ، وصفة الرياء تنقلب فى القبر أفعى من الأفاعى وهو مأمور بتضعيفهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فمهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقويا للحية فبقدر ماضعف من العقرب زاد فى قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه . وقوة هذه الصفات التى بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة فى أن يخالف دواعى البخل ويجيب دواعى الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأقوى ؟ وستأتى أسرار هذه المعانى فى ربع المهلكات .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره فى معالجة الرياء فى كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء فى الإظهار بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن فى الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى فى صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه . فلا يحذر هذا المعنى فى إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور ، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهى عنه : فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها . وبمثل هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له[1] » وقد قال الله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان فى بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) واختلفوا فى حقيقة المن والأذى فقيل المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها : وقال سفيان : من منّ فسدت صدقته فقيل له كيف المن ، فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صدقة منان[2] » وعندى أن المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته : ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه ، وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهنا به فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل[3] » فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه

---

(١) حديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث « لا يقبل الله صدقة منان » هو كالذى قبله بحديث لم أجده (٣) حديث « إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع فى يد السائل » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف

لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه . أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم يمن به على غيره . ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه ؛ إما ببذل ماله إظهارا لحب الله تعالى أو تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل أوشكرا على نعمة المال طلبا للمزيد . وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى : فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبعه أمران ؛ أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة . والثانى : رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حمق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحمق . ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الدار الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد . وكيفما فرض فالكراهة لاوجه لها . وأما الثانى : فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « هم الأخسرون ورب الكعبة فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا » الحديث ؟ ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ؟ إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه ؛ فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإن مهما انتفت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول المنة فهذا منشأ المن والأذى . فإن قلت : فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أومالأ عدوا له عليه مثلا هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك . فإن قلت ، فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا : أما الباطن : فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر : فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة فإن الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق ـ كما سيأتى أسراره فى الشطر الأخير من الكتاب ـ ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده . وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردان عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لايتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء

بمثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التى ذكرناها ؛ هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجرى مجرى الخشوع من الصلاه وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها [1] » . وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لايتقبل الله صدقة منان » وكقوله عز وجل ﴿ لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه فى كتاب الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قال تعالى ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ ويقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل . والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل لايتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتعجيله وستره . وليس الاستعظام هو المن والأذى ، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى بل العجب والاستعظام يجرى فى جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل ـ كما ذكرناه فى فهم الوجوب ـ فهو جدير بأن يستحيي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم فى حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ماينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ فيحفكم تبخلوا ﴾

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا . وإذا كان المخرج من شبهة فربما لايكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع . وفى حديث أبان عن أنس بن مالك « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية [2] » وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام فى بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه فى الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذى يأكله قضاء وطر فى الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ أى لاتأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلاتؤثروا به ربكم . وفى الخبر « سبق درهم مائة ألف درهم [3] » ،

(١) حديث « ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها » تقدم فى الصلاة

(٢) حديث أنس « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » أخرجه ابن عدى والبزار (٣) حديث « سبق درهم مائة الف » أخرجه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة

وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه . وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون فقال تعالى ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا ﴾ وقف بعض القراء على النفي تكذيباً لهم ، ثم ابتدأ وقال ﴿ جرم أن لهم النار ﴾ أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن فى عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهى ستة . الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى [1] » . وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا فى طاعته بإعانتك إياه ، وقال صلى الله عليه وسلم « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين [2] » ، وفى لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه فى الله تعالى » ، وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل . فقال : لا هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفا ممن همته الدنيا ، فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال . هذا ولى من أولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك ، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه . الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له : لو عممت ، فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل . الصفة الثالثة : أن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد . وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفى وصية لقمان لابنه : لا تجعل بينك وبين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما . ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ سلط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودنياه فى فعله . فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث . فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب : وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع . وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول ؛ فلما أخذ قال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره . ثم قال اللهم إنك لم تنس فلانا ـ يعنى نفسه ـ فاجعل فلانا لا ينساك ـ يعنى بفلان نفسه ـ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك

---

(١) حديث « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبى سعيد بلفظ « لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى » (٢) حديث « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » ، أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة من حديث أبى سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول (٣) حديث « أضف بطعامك من يحبه الله » أخرجه ابن المبارك أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلا

فسر وقال صلى الله عليه وسلم: علمت أنه يقول ذلك [١]، فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل: تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأهله [٢]، ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه: قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم: دعها يا أبا بكر [٣]، وفى لفظ آخر، أنها رضى الله عنها قالت لأبى بكر رضى الله عنه: بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفى سره. فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه.

الصفة الرابعة: أن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش فى جلباب التجمل قال الله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أى لا يلحون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم، وهذا ينبغى أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين فى كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال. الصفة الخامسة: أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ أى حبسوا فى طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ﴿ لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف. فبهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم ـ العشرة فما فوقها ـ وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء على مقدار العيلة [٤] وسأل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال. الصفة السادسة: أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفى صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى. قال على رضى الله عنه: لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلى من أن أتصدق بعشرين درهما ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلى من أتصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أعتق رقبة. والأصدقاء وإخوان الخير أيضا

---

(١) حديث « بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول فلما أخذه قال الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ... الحديث » لم أجد له أصلا إلا فى حديث ضعيف من حديث ابن عمر وروى ابن منده فى الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التى أوردها المصنف وسمى الرجل حديرا، فقد رويا من طريق البيهقى « أنه وصل لحدير من أبى الدرداء شىء فقال اللهم إنك لم تنس حديرا فاجعل حديرا لا ينساك » وقيل إن هذا آخر لا صحبة له يكنى أبا جبيرة وقد ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين.

(٢) حديث « قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث الأسود ابن سريع بسند ضعيف (٣) حديث « لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ « فقال أبواى قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أحمد الله لا إياكما » وللبخارى تعليقا « فقال أبواى قومى إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمدكما ولكن أحمد الله » وله ولمسلم « فقالت لى أمى قومى إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله » وللطبرانى « فقالت بحمد الله لا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عباس « فقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عمر « فقال أبو بكر قومى فاحتضنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لا أدنو منه . . الحديث » وفيه « أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك »

(٤) حديث « كان يعطى العطاء على مقدار العيلة » لم أر له أصلا ولأبى داود من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الفىء قسمه فى يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظا »

يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ؛ فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى . ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإن أحد أجريه في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني مايعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني فبهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

الفصل الثالث في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنه لايستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبي اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عز وجل . ولاتصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبي أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية (الصنف الأول) الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولاخف ولاسراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه في الحال قد عدم ماهو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لايكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولايخرجه عن الفقر كونه معتاداً للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف مالو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشترى له آلة . وإن قدر على كسب لايليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولاتعتبر قدرته ، وإن كان متعبدا يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة (١) » وأراد به السعي في الاكتساب . وقال عمر رضي الله عنه : كسب في شبهة خير من مسألة . وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو من تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير (الصنف الثاني) المساكين : والمسكين هو الذي لايفي دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأسا وحبلا وهو غني ، والدويرة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لايسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت - أعني مايحتاج إليه - وذلك مايليق به ، وكذا كتب الفقه لاتخرجه عن المسكنة وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر . وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض : التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة . أما حاجة التفرج فلاتعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لاينفع في الآخرة ولايجري في الدنيا إلا مجرى التفرج والاستئناس ، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة . وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجره فهذه آلته فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض

---

(١) حديث « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

الكفاية فلا تباع ولايسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة ، وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به فإن كان فى البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه ثم ربما لايحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغى أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال مالايحتاج إليه فى السنة فهو مستغنى عنه فإنّ من فضل مَن قوت يومه شىء لزمته الفطرة . فإذا قدرنا القوت باليوم لحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغى أن تقدر بالسنة ؛ فلا تباع ثياب الصيف فى الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما * فإن قال : إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما ؟ قلنا : اكتف بالأصح ودع الأحسن ودع التفرج والترفه . وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ فى كل واحدة فائدة ليست فى الأخرى . وأمثال هذه الصور لاتنحصر ولم يتعرض له فى فنّ الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره . فإنّ استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدى مثل هذا النظر فى أثاث البيت فى مقدارها وعددها ونوعها وفى ثياب البدن وفى الدار وسعتها وضيقها . وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكنّ الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب فى التحديدات بما يراه ويقتحم فيه خطر الشبهات . والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع مايريبه إلى مالايريبه . والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولاينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم . (الصنف الثالث) العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضى ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال ولايزاد واحد منهم على أجرة المثل ؛ فإن فضل شىء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كمل من مال المصالح (الصنف الرابع) المؤلفة قلوبهم على الإسلام : وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون فى قومهم ، وفى إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم (الصنف الخامس) المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولايدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعدّ عبدا له . (الصنف السادس) الغارمون : والغارم هوالذى استقرض فى طاعة أومباح وهو فقيرفإن استقرض فى معصية فلايعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة (الصنف السابع) الغزاة : الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو (الصنف الثامن) ابن السبيل : وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته * فإن قلت : فبم تعرف هذه الصفات ؟ قلنا : أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ولايطالب ببينة ولايحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز فإن لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلا بدّ فيها من البينة فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار مايصرف إلى كل واحد فسيأتى .

بيان وظائف القابض وهى خمسة

(الأولى) أن يعلم أنّ الله عزوجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همه ويجعل همومه هما واحدا . فقد تعبد الله عزوجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهى تفرق همه

اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفي الحاجات فأكثر الأموال وصبها في أيدي عباده لتكون آلة لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم ، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه في الخطر ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم ، وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة . فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه ـ كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى ـ وليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا له وعونا له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فإن استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه (الثانية) أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »[1] ، وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ إلى غير ذلك . وليقل القابض في دعائه طهر الله قلبك في قلوب الأبرار وزكى عملك في عمل الأخيار وصلى على روحك في أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه »[2] ، ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه فوظيفة المعطي الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام وعلى كل عند القيام بحقه ؛ وذلك لا تناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض . والنافع للمعطي ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه . وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا (الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال . فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ؛ فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به ـ على ما سيأتي بيانه في كتاب الحلال والحرام ـ وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام (الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين . وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل . وإن أعطي زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطي حتى يتبرع به . وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده . وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة . وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلا ما لا يريبه . وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولا إلى أثاث بيته وثيابه

---

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (٢) حديث « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه .. الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ « من صنع »

وكتبه هل فيها مايستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفى ويفضل بعض قيمته ؟ وكل ذلك إلى اجتهاده . وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق ، بينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد فى هذا على قول الآخذ ظاهرا . وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسيع ولاتحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو ممقوت فى الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل مايتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة . فهذا أقصى مايرخص فيه من حيث أنّ السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل . ومن حيث إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخر لعياله قوت سنة [1] فهذا أقرب مايحد به حد الفقير والمسكين ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى . ومذاهب العلماء فى قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ فى التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الغنى فسئل عن غناه فقال صلى الله عليه وسلم غداؤه وعشاؤه [2] » وقال آخرون : يأخذ إلى حدّ الغنى . حد الغنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش فسئل وماغناه ؟ قال خمسون درهما أوقيمتها من الذهب [3] » وقيل : راويه ليس بقوى وقال قوم : أربعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعا أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال [4] » وبالغ آخرون فى التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار مايشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الغنى وقد قال عمر رضى الله عنه : إذا أعطيتم فأغنوا ، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر مايعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله فى قرابتك فهو خير لك [5] » فأعطاه حسان وأبا قتادة . فحائط من نخل لرجلين كثير مغن وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر لها ، فهذا ماحكى فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد فى كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشترى ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الإسراف . والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيما دونه تضييق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال للورع « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك [6] » كما قاله صلى الله عليه وسلم إذ الإثم حزاز القلوب ، فإذا وجد القابض فى نفسه شيئا مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللا بالفتوى من

---

(١) حديث « ادخر لعياله قوت سنة » أخرجاه من حديث عمر « كان يعزل نفقة أهله سنة » والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق عا بقى » قال الذهبى حديث منكر

(٢) حديث سهل بن الحنظلية « فى النهى عن السؤال مع الغنى فيسأل ما يغنيه فقال غداؤه وعشاؤه » أخرجه أبو داود وابن حبان بلفظ « من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم .. الحديث » (٣) حديث ابن مسعود « من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذى وضعفه النسائى والخطابى (٤) حديث عطاء بن يسار منقطعا « من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال » أخرجه أبو داود والنسائى من رواية عطاء عن رجل من بنى أسد متصلا وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابى فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث أبى سعيد (٥) حديث « لما شغل أبا طلحة بستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم فى الصلاة

(٦) حديث « استفت قلبك وإن أفتوك » تقدم فى العلم .

علماء الظاهر فإن لفتواهم قيودا ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات . والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة (الخامسة) أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان مايعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لايستحق مع شريكه إلا الثمن فلينقص من الثمن مقدار مايصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فإنهم لايراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم . وسيأتى ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال فى كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع : فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولايقبل الله إلا طيبا إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد [(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف [(٤)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماأحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عزوجل الخلافة على تركته [(٥)] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس [(٦)] » وقال صلى الله عليه وسلم « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر [(٧)] » وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة السر تطفئ غضب الرب عزوجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماالذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة [(٨)] » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ولاتمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان [(٩)] » وقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى دينارا فقال أنفقه على نفسك فقال : إن عندى آخر قال أنفقه

---

(١) حديث « تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث عكرمة مرسلا ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن « استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان » ولأبى يعلى والبزار من حديث أبى بكر « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان » وإسناده ضعيف وللترمذى والنسائى فى الكبرى وابن ماجه فى حديث معاذ « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » (٢) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » أخرجاه من حديث عدى بن حاتم

(٣) حديث « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا . الحديث » أخرجه البخارى تعليقا ومسلم والترمذى والنسائى فى الكبرى واللفظ لابن ماجه من حديث أبى هريرة (٤) حديث « قال لأبى الدرداء إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها .. الحديث » أخرجه من حديث أبى ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبى الدرداء وهم

(٥) حديث « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث ابن شهاب مرسلا بإسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر (٧) حديث « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » أخرجه ابن المبارك فى البر من حديث أنس بسند ضعيف « إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء » (٨) حديث « ما المعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ورواه فى الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث « سئل أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح ... الحديث » أخرجاه من حديث أبى هريرة

على زوجتك قال إن عندى آخر قال أنفقه على ولدك قال إن عندى آخر قال أنفقه على خادمك قال إن عندى آخر قال صلى الله عليه وسلم أنت أبصر به [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتحل الصدقة لآل محمد إنما هي أوساخ الناس [٢] » وقال «ردوا مدمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « لو صدق السائل ما أفلح من رده [٤] » وقال عيسى عليه السلام . من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » وكان نبينا صلى الله عليه وسلم لايكل خصلتين إلى غيره كان يضع طهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين بيده [٥] »وقال صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم لايسألون الناس إلحافا [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل مادامت عليه منه رقعة [٧] » * الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها لمرقع وقال مجاهد فى قول الله عز وجل ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ فقال : وهم يشتهونه وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجة منا . وقال عمر عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبى الجعد: إن الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفا وإنها لتفك لحيي سبعين شيطاناً . وقال ابن مسعود : إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال لقمان لابنه : إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ ماأعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة . وقال عبد العزيز بن أبى رواد : كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتمان المرض وكتمان الصدقة وكتمان المصائب . وروى مسندا وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة أنا أفضلكن. وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ والله يعلم أنى أحب السكر . وقال النخعى : إذا كان الشىء لله عز وجل لايسرنى أن يكون فيه عيب . وقال عبيد بن عمير: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله ، وقال الحسن : لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبى : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وقال مالك : لانرى بأسا بشرب المؤمن من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص ويقال : إن الحسن مر به نخاس

---

(١) حديث « قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندى دينارا فقال أنفقه على نفسك .. الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى واللفظ له وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقد تقدم قبل يسير

(٢) « حديث لاتحل الصدقة لآل محمد .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة .

(٣) حديث « ردوا مدمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » أخرجه العقيلى فى الضعفاء من حديث عائشة

(٤) حديث «لوصدق السائل ما أفلح من رده » أخرجه العقيلى فى الضعفاء وابن عبد البر فى التمهيد من حديث عائشة ، قال العقيلى لايصح فى هذا الباب شىء وللطبرانى نحوه من حديث أبى أمامة بسند ضعيف (٥) حديث « كان لا يكل خصلتين إلى غيره .. الحديث » أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك فى البر مرسلا

(٦) حديث « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٧) حديث « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف

ومعه جارية فقال للنخاس أترضى فى ثمنها الدرهم والدرهمين ؟ قال : لا ، قال فاذهب فإن الله عز وجل رضى فى الحور العين بالفلس واللقمة .

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص فى ذلك فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ونحن نشير إلى ما فى كل واحد من المعانى والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان (الأول) أنه أبقى للستر على الآخذ فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف . (الثانى) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السختيانى : إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيرانى حسدا . وقال بعض الزهاد : ربما تركت استعمال الشىء لأجل إخوانى يقولون من أين له هذا ؟ وعن ابراهيم التيمى : أنه رؤى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا ؟ فقال كسانيه أخى خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته . (الثالث) إعانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده إليه ودفع إليه آخر شيئاً فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك فقال : إن هذا عمل الأدب فى إخفاء معروفه فقبلته وذاك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئاً فى الملأ فرده فقال له : لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك . وقبل بعض العارفين فى السر شيئاً كان رده فى العلانية فقيل له فى ذلك ؟ فقال عصيت الله بالجهر فلم أك عونا لك على المعصية وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك وقال الثورى : لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته . (الرابع) أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : إن فى إظهاره إذلالا للعلم وامتهانا لأهله فما كنت بالذى أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله (الخامس) الاحتراز عن شبهة الشركة قال صلى الله عليه وسلم « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها [1] » وبأن يكون ورقا أو ذهبا لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يطعمه خبزا [2] » فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى فى الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة (الأول) الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة (والثانى) إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذ فإنك لا تخلو عن أحد رجلين:

---

(١) حديث « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » أخرجه العقيلى وابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط والبيهقى من حديث ابن عباس قال العقيلى لا يصح فى هذا المتن حديث (٢) حديث « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يطعمه خبزاً » أخرجه ابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر « أفضل العمل عند الله أن يقضى عن مسلم دينه أو يدخل عليه سرورا أو يطعمه خبزا » ولأحمد والترمذى وصححه من حديث البراء « من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى زقاقا فهو كعتاق نسمة »

رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أورجل تزداد فى قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذى يريده أخوك لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجرأنت إذكنت سبب مزيد ثوابه . (الثالث) هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانيةفىحقه واحد فاختلاف الحال شرك فى التوحيد . قال بعضهم : كنا لانعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية . والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان فى الحال ، بل ينبغى أن يكون النظر مقصور على الواحد الفرد . حكىأنبعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد . فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة ، فسألهم فقالوا . فعلنا ما أمرنا به الشيخ ، فقال الشيخ للمريد : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال ذلك المريد . لم أقدر على مكان لايرانى فيه أحد فإن الله يرانى فى كل موضع ، فقال الشيخ : لهذا أميل إليه لأنه لايلتفت لغير الله عز وجل . (الرابع) أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والكتمان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ماآتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه [١] » ، وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً فى السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر فى أمور الآخرة أفضل . ولذلك قال بعضهم . إذا أعطيت فى الملأ فخذ ثم اردد فى السر والشكر فيه محثوث عليه . قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل [٢] » . والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فأثنوا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قدكافأتموه » ولما قال المهاجرون فى الشكر « يا رسول الله مارأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كل ما شكرتم لهم وأثنيتم عليهم به فهو مكافأة [٣] » .

فالآن إذا عرفت هذه المعانى فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا فى المسئلة بل هو اختلاف حال ، فكشف الغطاء فى هذا أنا لانحكم حكما بتا بأن الإخفاء أفضل فى كل حال أو الإظهارأفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص . فينبغى أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لايتدلى بحبل الغرور ولاينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان والمكروالخداع أغلب فىمعانى الإخفاء منه فىالإظهار مع أن له دخلا فى كل واحد منهما . فأما مدخل الخداع فى الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من فى خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن فهذا هو الداء الدفين ويستكن فى النفس . والشيطان بواسطته يظهر معانىالخير حتىيتعلل بالمعانى الخمسةالتى ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان يبغى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتقى

---

(١) حديث « إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه » أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم

(٣) حديث « قالت المهاجرون يارسول الله مارأينا خيرا من قوم نزلنا عليهم .. الحديث » أخرجه الترمذى وصححه من حديث أنس ورواه مختصرا أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وصححه ابن ماجه

انتهاك الستر أو إعانة المعطى على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعانى أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو . والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ . وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين فى الشكر حتى يرغبوا فى إكرامه وتفقده وهذا داء دفين فى الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث فى معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعانى التى ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهى الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب فى عطائه ؛ وبين يدى جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون فى إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة فى الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعثه السنة فى الشكر فلا ينبغى أن يغفل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغى أن يخفى ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذى مدح بين يديه « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح [1] » مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثنى على قوم فى وجوههم لثقته بيقينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد فى رغبتهم فى الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الوبر [2] » وقال صلى الله عليه وسلم فى آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه [3] » وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحراً [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة فى الخير [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه [6] » وقال الثورى : من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضاً ليوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر . ورقائق هذه المعانى ينبغى أن يلحظها من يراعى قلبه فإنّ أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع ، ومثل هذا العلم هو الذى يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل . وعلى الجملة فالأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغى أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة

---

(١) حديث « قال للرجل الذى مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » متفق عليه من حديث أبي بكرة بلفظ « ويحك قطعت عنق صاحبك » زاد الطبرانى فى رواية « والله لو سمعها ما أفلح أبدا » وفى سنده على بن زيد بن جدعان متكلم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبى موسى (٢) حديث « إنه سيد الوبر » أخرجه البغوى والطبرانى وابن قانع فى معاجمهم وابن حبان فى الثقات من حديث قيس بن عاصم المقرى « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك » .

(٣) حديث « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر ورواه أبو داود فى المراسيل من حديث الشعبي مرسلا بسند صحيح وقال روى متصلا وهو ضعيف والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصارى عن أبيه وصحح إسناده

(٤) حديث « إن من البيان لسحرا » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر

(٥) حديث « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة فى الخير » أخرجه الدارقطنى فى العلل من رواية ابن المسيب عن أبى هريرة . وقال لا يصح عن الزهرى وروى عن ابن المسيب مرسلا

(٦) حديث « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » أخرجه الطبرانى من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف

بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل فإن فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ولأنه ربما لا يكمل فى أخذه صفة الاستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون : يأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب . ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا : ولأن الزكاة لا منة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين . ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا . وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيرا ؛ ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنه ؛ وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته . والقول الحق فى هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فإن كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة . فإذا علم أنه مستحق قطعا إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه فى قضائه فهو مستحق قطعا . فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ؛ فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففى ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن فى أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والأمر فيهما يتفاوت وأخذ الزكاة أشد فى كسر النفس وإذلالها فى أغلب الأحوال والله أعلم .

كمل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ؛ ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقربين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ،

كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم على عباده المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أمله وخيب ظنه ؛ إذ جعل الصوم حصنا لأوليائه وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وإن بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة فى قصم خصمها قوية المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنة وعلى آله وأصحابه ذوى الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر [1] » وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف

كتاب أسرار الصيام

(١) حديث « الصوم نصف الصبر » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث رجل من بنى سليم وابن ماجه من حديث أبى هريرة

الإيمان (١) » ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به (٢) » وقد قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك فى معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عنده الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلى فالصوم لى وأنا أجزى به (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لايدخله إلا الصائمون وهو موعود بلقاء الله تعالى فى جزء صومه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة (٧) » وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد ياباغى الخير هلم ويا باغى الشر أقصر (٨) » وقال وكيع فى قوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) هى أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رتبة المباهاة بين الزهد فى الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأجلى المبذل شبابه لى أنت عندى كبعض ملائكتى (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم فى الصائم « يقول الله عز وجل : انظروا ياملائكتى إلى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى (١٠) » وقيل فى قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قيل كان عملهم الصيام لأنه قال (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ويجازف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير ، وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين ؛ أحدهما : أن الصوم كف وترك وهو فى نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد . وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لايراه إلا الله عز وجل فإنه عمل فى الباطن بالصبر المجرد . والثانى : أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لعنة الله الشهوات ؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان

---

(١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن

(٢) حديث « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم الحديث . . » أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث « والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم . . الحديث » أخرجاه من حديثه وهو بعض الذى قبله

(٤) حديث « للجنة باب يقال له الريان .. الحديث » أخرجاه من حديث سهل بن سعد (٥) حديث للصائم فرحتان . . الحديث » أخرجاه من حديث أبى هريرة (٦) حديث « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم » أخرجه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه أبو الشيخ فى الثواب من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف (٧) حديث « نوم الصائم عبادة » رويناه فى أمالى ابن منده من رواية ابن المغيرة القواس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف ولعله عبد الله بن عمرو فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عبدالله بن أبى أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعى أحد الكذابين

(٨) حديث « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبى هريرة وصحح البخارى وقفه على مجاهد وأصله متفق عليه دون قوله « ونادى مناد »

(٩) حديث « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته ... الحديث » أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (١٠) حديث « يقول الله تعالى لملائكته ياملائكتى انظروا الى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى »

ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع [1] » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « داومى قرع باب الجنة ؛ قالت : بماذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بالجوع [2] » - وسيأتى فضل الجوع فى كتاب : شره الطعام - وعلاجه، من ربع المهلكات - فلما كان الصوم على الخصوص قمعا للشيطان وسدا لمسالكه وتضييقا لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ففى قمع عدو الله نصرة لله سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال الله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقال تعالى (إنّ الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وإنما التغير تكثير الشهوات فهى مرتع الشياطين ومرعاهم فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقائه . وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات [3] » فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلابد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ، ونبين ذلك بثلاثة فصول .

الفصل الأول : فى الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان . ونعنى بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة . ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضى به. فليتبع كل عبد فى عبادته موجب ظنه ، وإذا رؤى الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل ، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولايتعدى الوجوب (الثانى) النية : ولا بد لكل ليلة من نية مبيتة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذى عنينا بقولنا « كل ليلة » ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ، وهو الذى عنينا بقولنا « مبيتة » ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يجزه حتى ينوى فريضة الله عزوجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يجزه فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل ، واحتمال غلط العدل أو كذبه لايبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال. كالشك فى الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لايمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس فى المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لايمنعه من النية . ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فإن النية محلها القلب . ولا يتصوّر فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال فى وسط رمضان : أصوم غدا إن كان من رمضان فإن ذلك لايضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لايتصوّر فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان : ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة فى الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها (الثالث) الإمساك عن إيصال شىء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة . ولا يفسد بالفصد والحجامة

---

(١) حديث « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .. الحديث » متفق عليه من حديث صفية دون قوله « فضيقوا مجاريه بالجوع » (٢) حديث « قال لعائشة داومى قرع باب الجنة . الحديث » لم أجد له أصلا

(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم . . الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه

الاكتحال وإدخال الميل فى الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه مايبلغ المثانة وما يصل بغير قصد من غبار الطريق ـ ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه فى المضمضة ، فلا يفطر إلا إذا بالغ فى المضمضة فيفطر نه مقصر وهو الذى أردنا بقولنا « عمدا » وأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسى فإنه لايفطر . ا من أكل عامدا فى طرفى النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء وإن بقى على حكم ظنه واجتهاده لاقضاء عليه ولاينبغى أن يأكل فى طرفى النهار إلا بنظر واجتهاد . (الرابع) الإمساك عن الجماع : وحده مغيب لحشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أواحتلم فأصبح جنبا لم يفطر وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع الحال صح صومه فإن صبر فسد ولزمته الكفارة . (الخامس) الإمساك عن الاستمناء : وهو إخراج المنى قصدا باع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر ولايفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها مالم ينزل « لكن يكره ذلك إلا أن يكون بخا أو مالكا لإربه ، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى . وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر نصيره . (السادس) الإمساك عن إخراج القىء فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القىء لم يفسد صومه ، وإذا لع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه طر عند ذلك .

وأما لوازم الإفطار فأربعة

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبها بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحائض تقضى الصوم وكذا المرتد . وأما الكافر والصبى والمجنون فلاقضاء عليهم لا يشترط التتابع فى قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .

وأما الكفارة : فلاتجب إلا بالجماع . وأما الاستمناء والأكل والشرب وماعدا الجماع لايجب به كفارة فالكفارة تق رقبة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فإطعام ستين مسكينا مدا مدا .

وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك ية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد م الشك . والصوم فى السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما فى أوله ولا يوم ندم إذا قدم صائما .

وأما الفدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع قضاء والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا .

وأما السنن فست : تأخير السحور ؛ وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، الجود فى شهر رمضان لما سبق من فضائله فى الزكاة ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف فى المسجد ، لاسيما فى العشر لأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المئزر ودأب أدأب أهله »[1] ، أى أداموا النصب فى العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها فى أوتارها وأشبه الأوتار ليلة إحدى ثلاث وخمس وسبع . والتتابع فى هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافا متتابعا أونواه انقطع تتابعه بالخروج من

(١) حديث « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحيا الليل وأيقظ هله وجد وشد المئزر » .

غير ضرورة ؛ كما لو خرج لعيادة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة ، وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع وله أن يتوضأ فى البيت . ولا ينبغى أن يعرج على شغل آخر « كان صلى الله عليه وسلم لايخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا مارا [١] » ويقطع التتابع بالجماع ولا يقطع بالتقبيل . ولا بأس فى المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد فى الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه فى التتابع . ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه « كان صلى الله عليه وسلم يدنى رأسه فترجله عائشة رضى الله عنها وهى فى الحجرة [٢] » ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغى أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولا عشرة أيام مثلا . والأفضل مع ذلك التجديد .

الفصل الثانى : فى أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله . وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر فى الدنيا إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة ، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقه الموعود ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يطول النظر فى تفصيلها قولا ولكن فى تحقيقها عملا ، فإنه إقبال بكنه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور : الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته فى قلبه [٣] » وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة [٤] » . الثانى : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان . وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . رواه بشر بن الحارث عنه . وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب . وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم إنى صائم [٥] » وجاء فى الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه فى الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال صلى الله عليه وسلم : قل لهما

---

(١) حديث « كان لايخرج إلا لحاجة ولا يسأل عن المريض إلا مارا » متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثانى » رواه أبو داود بنحوه بسند لين (٢) حديث « كان يدنى رأسه لعائشة » متفق عليه من حديثها (٣) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس .. الحديث » أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة (٤) حديث جابر عن أنس « خمس يفطرن الصائم ... الحديث » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازى هذا كذاب
(٥) حديث « الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما .. الحديث » أخرجاه من حديث أبى هريرة

قيئا فيه ما أكلتا فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما . قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم[(١)] ، الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ وقال عز وجل ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم[(٢)] » الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام . فمثال هذا الصائم مثال من يبنى قصرا ويهدم مصرا فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لابنوعه ، فالصوم لتقليله .وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها والحرام سم مهلك للدين . والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش[(٣)] » فقيل هو الذى يفطر على الحرام ، وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذى لا يحفظ جوارحه عن الآثام . الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره مافاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لايؤكل فى عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لولم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلافلم ينتفع بصومه . بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم فى كل ليلة قدرا من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لايحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة عن الليلة التى ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلايكفيه ذلك لرفع الحجاب مالم يخل همته عن غيرالله عزوجل وذلك هوالأمر كله . ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام . وسيأتى له مزيد بيان فى كتاب الأطعمة إن شاء الله عزوجل . السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا مضطربا بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ؟ وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ

---

(١) حديث « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » فى الغيبة للصائم أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول (٢) حديث « المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم » غريب والطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة

(٣) حديث « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة

منها فقد روى عن الحسن بن أبي الحسن البصرى أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون . أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك . وعن الاحنف بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال : إنى أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هى المعانى الباطنة فى الصوم * فإن قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعانى فقد قال الفقهاء . صومه صحيح فما معناه ؟ فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هى أضعف من هذه الأدلة التى أوردناها فى هذه الشروط الباطنة لاسيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته . فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول وبالقبول الوصول إلى المقصود. ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات . والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما انهمك فى الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة . والملائكة مقربون من الله عز وجل والذى يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فإن الشبيه من القريب قريب ، وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات . وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك فى الشهوات الأخر طول النهار ؟ ولو كان لمثله جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ولهذا قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف لا يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ! ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغتربين . ولذلك قال بعض العلماء كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه . ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه فى الوضوء ثلاث مرات فقد وافق فى الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله ، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته [١] » ولما تلا قوله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سمعه وبصره فقال : السمع أمانة والبصر أمانة [٢] ، ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إنى صائم » أى إنى أودعت لسانى لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك ؟ فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهرا وباطنا

(١) حديث « إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود فى حديث فى الأمانة والصوم وإسناده حسن (٢) حديث « لما تلا قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع أمانة والبصر أمانة » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة دون قوله « السمع أمانة »

وقشرا ولبا ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات . فإليك الخيرة الآن فى ان تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

الفصل الثالث : فى التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة وبعضها يوجد فى كل شهر وبعضها فى كل أسبوع . أما فى السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الأول من المحرم . وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهى أوقات فاضلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان حتى كان يظنّ أنه فى رمضان [١] ، وفى الخبر « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » [٢] . لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وقال صلى الله عليه وسلم « صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام » [٣] وفى الحديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعمائة عام » [٤] ، وفى الخبر : إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان [٥] ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فإن وصل شعبان برمضان فجائز [٦] فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وفصل مرارا كثيرة [٧] ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرّم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات . وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشوال من أشهر الحج وليس من الحرم ، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج . وفى الخبر « مامن أيام العمل فيهنّ أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذى الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر ، قيل : ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى ، قال : ولا الجهاد فى سبيل الله عزوجل إلا من عقر جواده وأهريق دمه » [٨] ، وأمامايتكرر فى الشهر : فأول الشهر وأوسطه وآخره ، ووسطه الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما فى الأسبوع : فالاثنين والخميس والجمعة فهذه هى الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات . وأما صوم الدهر فإنه

---

(١) حديث « كان يكثر صيام شعبان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث « صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين .. الحديث » لم أجده هكذا وفى المعجم الصغير للطبرانى من حديث ابن عباس « من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما »

(٤) حديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت .. الحديث » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث أنس

(٥) حديث « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » أخرجه الأربعة من حديث أبى هريرة وابن حبان فى صحيحه عنه « إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يجىء رمضان » وصححه الترمذى

(٦) حديث « وصل شعبان برمضان مرة » أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة « لم يكن يصوم من السنة شهرا تاما إلا شعبان يصل به رمضان وأخرج أبو داود والنسائى نحوه من حديث عائشة

(٧) حديث « فصل شعبان من رمضان مرارا » أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من هلال شعبان مالا يتحفظ من غيره فإن غم عليه عد ثلاثين يوما ثم صام » وأخرجه الدارقطنى وقال إسناده صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

(٨) حديث « ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذى الحجة .. الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة دون قوله « قيل ولا الجهاد الخ وعند البخارى من حديث ابن عباس « ما العمل فى أيام أفضل من العمل فى هذا العشر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء »

شامل للكل وزيادة وللسالكين فيه طرق فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته . والصحيح أنه إنما يكره لشيئين ؛ أحدهما : أن لا يفطر فى العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله[1] والآخر أن يرغب عن السنة فى الإفطار ويجعل الصوم حجرا على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه . فإذا لم يكن شىء من ذلك ورأى صلاح نفسه فى صوم الدهر فليفعل ذلك . فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو موسى الأشعرى « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين[2] » ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى فى قهرها ، وقد ورد فى فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أجوع يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت[3] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام صوم أخى داود كان يصوم يوما ويفطر يوما[4] » ومن ذلك « منازلته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فى الصوم وهو يقول ؛ إنى أطيق أكثر من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : صم يوما وأفطر يوما ، فقال : إنى أريد أفضل من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أفضل من ذلك[5] » وقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان[6] » بل كان يفطر منه ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم ويفطر يومين . وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع فى الأوقات الفاضلة . وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال فى أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حده فى سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيبا مستمرا . ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام[7] » ، وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات . وقد كره العلماء أن يوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديرا بيوم العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقسى القلب ويولد ردىء العادات ويفتح أبواب الشهوات ولعمرى هو كذلك فى حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل فى اليوم والليل مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوع به والله أعلم بالصواب .

تم كتاب : أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ما علمنا منها

---

(١) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر أخرجها البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو وفى حديث لابن ماجه « لا صام من صام الأبد » ولمسلم من حديث أبى قتادة « قيل يارسول الله كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر » وأخرج النسائى نحوه من حديث عبد الله بن عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الشخير

(٢) حديث أبى موسى الأشعرى « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أخرجه أحمد والنسائى فى الكبرى وابن حبان وحسنه أبو على الطوسى (٣) حديث « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة بلفظ « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا » وقال حسن (٤) حديث « أفضل الصيام صوم أخى داود .. الحديث » أخرجاه من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « منازلته لعبد الله بن عمر وقوله : صم يوما وأفطر يوما .. الحديث » أخرجاه من حديثه (٦) حديث « ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان » أخرجاه من حديث عائشة

(٧) حديث « كان يصوم حتى لا يقال لا يفطر .. الحديث » أخرجاه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر « القيام والنوم » والبخارى من حديث أنس « كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئا ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشاء تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولا نائما إلا رأيته »

وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : أسرار الحج ، والله المعين لارب غيره وما توفيق إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحصنا . وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا ، والصلاة على محمد نبى الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين . فيه أنزل الله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وفيه قال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا[1] » فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأحدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة . فلنبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشد الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج

قال الله عز وجل (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وقال قتادة لما أمر الله عز وجل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا فحجوه وقال تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل فى تفسير قوله عز وجل (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى طريق مكة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[2] » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « مارؤى

كتاب أسرار الحج

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » أخرجه ابن عدى من حديث أبي هريرة والترمذى نحوه من حديث على وقال غريب وفى إسناده مقال (٢) حديث « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجاه من حديث أبى هريرة

الشيطان فى يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة [١]، وما ذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة [٢] » وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض المكاشفين من المقربين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له فى صورة شخص بعرفة فاذا هو ناحل الجسم مصفرّ اللون باكى العين مقصوف الظهر فقال له : ما الذى أبكى عينك ؟ قال : خروج الحاج إليه بلا تجارة ، أقول قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزننى ذلك قال : فما الذى أنحل جسمك ؟ قال : صهيل الخيل فى سبيل الله عز وجل ولو كانت فى سبيلى كان أحب إلى ، قال : فما الذى غير لونك ؟ قال تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلى ، قال : فما الذى قصف ظهرك ؟ قال : قول العبد أسألك حسن الخاتمة ، أقول يا ويلتى متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات فى أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفعوا شفعوا [٥] » وفى حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظنّ أنّ الله تعالى لم يغفر له [٦] » وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ينزل على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين [٧] » وفى الخبر « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أجل شيء تجدونه فى صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه [٨] » ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة وفى الخبر « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فى المطر غفر له ما سلف من ذنبه [٩] » ويقال : إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبا فى الموقف غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف . وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل

---

(١) حديث « ما رؤى الشيطان فى يوم هو أصغر .. الحديث » أخرجه مالك عن إبراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبد الله بن كريز مرسلا (٢) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة » لم أجد له أصلا

(٢) حديث « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات فى أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له أدخل الجنة » أخرجه البيهقى فى الشعب بالشطر الأول من حديث أبى هريرة . وروى هو والدارقطنى من حديث عائشة الشطر الثانى نحوه وكلاهما ضعيف (٤) حديث « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة » أخرجاه من حديث أبي هريرة الشطر الثانى بلفظ « الحج المبرور » وقال « إن الحجة المبرورة » وعند ابن عدى « حجة مبرورة » (٥) حديث « الحجاج والعمار وفد الله وزواره . الحديث » أخرجه من حديث أبى هريرة دون قوله « وزواره » ودون قوله « إن سألوه أعطاهم وإن شفعوا شفعوا » وله من حديث ابن عمر « وسألوه فأعطاهم » ورواه ابن حبان (٦) حديث « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له » أخرجه الخطيب فى المتفق والمفترق وأبو منصور شهردار بن شيرويه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث « ينزل على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرون رحمة » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن وقال أبو حاتم حديث منكر (٨) حديث « استكثروا من الطواف بالبيت . الحديث » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة » وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

(٩) حديث « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فى المطر غفر له ما سلف من ذنوبه » لم أجده هكذا وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة » لفظ الترمذى وحسنه .

يوم فى الدنيا ، وفيه حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [(١)] ، قال أهل الكتاب . لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضى الله عنه : أشهد لقد نزلت هذه الآية فى يوم عيدين اثنين : يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة . وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج [(٢)] » ويروى أن على بن موفق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : ياابن موفق حججت عنى ؟ قلت : نعم ، قال : ولبيت عنى ؟ قلت : نعم . قال : فإنى أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب . وقال مجاهد وغيره من العلماء : إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا . وقال الحسن : من مات عقيب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيدا . وقال عمر رضى الله عنه : الحاج مغفور له ولمن يستغفر له فى شهر ذى الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول . وقد كان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام . ويروى عن على بن موفق قال : حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى فى مسجد الخيف فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه : يا عبد الله فقال الآخر : لبيك يا عبد الله ، قال : تدرى كم حج بيت ربنا عز وجل فى هذه السنة ؟ قال : لا أدرى قال : حج بيت ربنا ستمائة ألف أفتدرى كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ، قال : ثم ارتفعا فى الهواء فغابا عنى فانتبهت فزعا واغتممت غما شديدا وأهمنى أمرى فقلت : إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا فى ستة أنفس ؟ فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر فى كثرة الخلق وفى قلة من قبل منهم ؛ فحملنى النوم فإذا الشخصان قد نزلا على هيئتهما ؛ فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال : أتدرى ماذا حكم ربنا عزوجل فى هذه الليلة ؟ قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف ، قال : فانتبهت وبى من السرور ما يجل عن الوصف . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لايقبل حجه فقلت : اللهم إنى قد وهبت حجتى وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال : فرأيت رب العزة فى النوم جل جلالة فقال لى : يا على تتسخى على وأنا خلقت السخاء والأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته .

فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عزوجل قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا أكملهم الله عزوجل من الملائكة [(٣)] » وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وفى الخبر « إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق

---

(١) حديث « وقوفه فى حجة الوداع يوم الجمعة ونزول (اليوم أكملت لكم دينكم) الحديث » أخرجاه من حديث عمر

(٢) حديث « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج » أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث « إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه فى كل سنة ستمائة ألف .. الحديث » لم أجد له أصلا

به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق [١] ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبله كثيرا [٢] وروى أنه صلى الله عليه وسلم سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن [٣] وقبله عمر رضى الله عنه ثم قال: إنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع [٤] ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك ، ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه فقال : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات ، فقال على رضى الله عنه : ياأمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر ؛ فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود . قيل : فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام « اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك . وروى عن الحسن البصرى رضى الله عنه : ان صوم يوم فيها بمائة ألف يوم وصدقة درهم بمائة ألف درهم وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال : طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة . وفى الخبر الصحيح « عمرة فى رمضان كحجة معى [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « انا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين [٦] » وفى الخبر « إن آدم صلى الله عليه وسلم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا : بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام [٧] » وجاء فى الأثر : إن الله عزوجل ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفا غفر له ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبل الكعبة غفر له . وكوشف بعض الأولياء رضى الله عنهم قال: إنى رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجدة . ويقال : لاتغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ، ولايطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لايرى الناس لها اثرا ، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد . ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس وإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى واخبار الجاهلية . ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التى تتوقع ولادتها . وفى الخبر « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة [٨] » وروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

---

(١) حديث « ان الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له عينان . الحديث » أخرجه الترمذى وصححه النسائى من حديث ابن عباس « الحجر الأسود من الجنة » لفظ النسائى وباقى الحديث رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضا وللحاكم من حديث أنس « ان الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة » وصحح إسناده ورواه النسائى وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو .

(٢) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا » أخرجاه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائى « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا ان رآه خاليا » (٣) حديث « انه كان يسجد عليه » أخرجه البزار والحاكم من حديث عمر وصحح إسناده .

(٤) « قبله عمر وقال انى لاعلم أنك حجر » أخرجاه دون الزيادة التى رواها على ورواه بتلك الزيادة الحاكم وقال ليس من شرط الشيخين (٥) حديث « عمرة فى رمضان كحجة معى » أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله « معى » فهى عند مسلم على الشك « تقضى حجة أو حجة معى » ورواه الحاكم بزيادتها من غير شك (٦) حديث « أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ابن حبان من حديث ابن عمر

(٧) حديث « ان آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم .. الحديث » رواه المفضل الجندى ومن طريقه ابن الجوزى فى العلل من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرقى فى تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس

(٨) حديث « استكثروا من الطواف بهذا البيت .. الحديث » أخرجه البزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فانه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة »

الله تعالى « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره [١] » .

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة (الأول) خوف التبرم والأنس بالبيت ، فإن ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام ، وهكذا كان عمر رضي الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول : ياأهل اليمن يمنكم وياأهل الشام شامكم وياأهل العراق عراقكم . ولذلك هم عمر رضي الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت (الثاني) تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العودة فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمنا أي يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا . وقال بعضهم تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به ؟ ويقال : إن لله تعالى عبادا تطوف بهم الكعبة تقربا إلى الله عزوجل (الثالث) الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها ، فإن ذلك مخطر وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع . وروى عن وهيب بن الورد المكي قال : كنت ذات ليلة في الحجر أصلي فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول إلى الله أشكو ثم إليك ياجبرائيل ماألقى من الطائفين حولي من تفكرهم في الحديث ولغوهم ولهوهم لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : مامن بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ أي أنه على مجرد الإرادة . ويقال : إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم ، وقيل : الكذب أيضا وقال ابن عباس : لأن أذنب سبعين ذنبا بركية أحب إلي من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة . وركية منزل بين مكة والطائف . والخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة . وبعضهم أقام شهرا وما وضع جنبه على الأرض . وللمنع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة . ولا تظنن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع فمعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أي بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم ، أما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات ! وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال « إنك لخير أرض الله عزوجل وأحب بلاد الله تعالى إلي ولولا أني أخرجت منك لما خرجت [٢] » وكيف لا والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام [٣] » وكذلك كل عمل بالمدينة بألف

---

(١) حديث « قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره » ليس له أصل

(٢) حديث « إنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » أخرجه الترمذي وصححه النسائي في الكبرى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء (٣) حديث « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر

وبعد مدينته الأرض المقدسة فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام ، وكذلك سائر الأعمال . وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعا يوم القيامة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة (٣) » وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى (٤) » وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث فى المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء . وما تبين لى أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا (٥) » والحديث إنما ورد فى المساجد وليس فى معناها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان فى موضع لامسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء ثم ليت شعرى هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام ، فالمنع من ذلك فى غاية الإحالة ، فإذا جوز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء فى معناها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء فى الحياة من المقاصد ؛ هذا فى الرحلة . أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله فى وطنه ؛ فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ماهو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له ، قال صلى الله عليه وسلم « البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم واحمد الله تعالى (٦) » وفى الخبر « من بورك له فى شىء فليلزمه ومن جعلت معيشته فى شىء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه (٧) » وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثورى وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعليه بيده فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : إلى بلد أملأ فيه جرابى بدرهم . وفى حكاية أخرى بلغنى عن قرية فيها رخص أقيم فيها ، قال فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : نعم إذا سمعت برخص فى بلد فاقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك ، وكان يقول هذا زمان سوء لايؤمن فيه على الخاملين فكيف

---

(١) حديث ابن عباس « صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » غريب لم أجده بجملته هكذا وأخرجه ابن ماجه من حديث ميمونة بإسناد جيد فى بيت المقدس « ائتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة فى غيره » ولابن ماجه من حديث أنس « صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة فى مسجدى بخمسين ألف صلاة » وليس فى إسناده من ضعف وقال الذهبى إنه منكر

(٢) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » من حديث أبى هريرة وابن عمر وأبى سعيد

(٣) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها . . الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذى حسن صحيح (٤) حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد (٥) حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٦) حديث « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث الزبير بسند ضعيف (٧) حديث « من رزق فى شىء فليلزمه ومن جعلت معيشته فى شىء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ « إذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له »

بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل يتنقل الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن . ويحكى عنه أنه قال : والله ما أدرى أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة ، قيل : فالشام ، قال : يشار إليك بالأصابع ـ أراد الشهرة ـ قيل؟ فالعراق ، قال : بلد الجبابرة ، قيل: مكة ، قال : مكة تذيب الكيس والبدن . وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى ، قال : أوصيك بثلاث : لا تصلين فى الصف الأول ولا تصحبن قرشيا ولا تظهرن صدقة . وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع .

الفصل الثانى : فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام . فيصح حج الصبى ويحرم بنفسه إن كان مميزا ويحرم عنه وليه إن كان صغيرا ويفعل به ما يفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهى عمرة وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكوفا على النسك ايام منى فلا ينبغى أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال عقيبه لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة : الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت . فإن أحرم الصبى أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبى بعرفة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام ، لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم إلا شاة . وتشترط هذه الشرائط فى وقوع العمرة عن فرض الإسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج نفلا عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام فحج الإسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أفسده فى حالة الوقوف ؛ ثم النذر ، ثم النيابة ، ثم النفل ؛ وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج فخمسة : البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطابا لزمه الإحرام على قول ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فنوعان : أحدهما المباشرة وذلك له أسباب أما فى نفسه فبالصحة ، وأما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأما فى المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ـ كان له أهل أو لم يكن ـ لأن مفارقة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة وأن يملك ما يقضى به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة وأما النوع الثانى : فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه . ويكفى نفقة الذهاب بزاملة فى هذا النوع ، والابن إذا عرض طاعته على الأب الزمن صار به مستطيعا ولو عرض ماله لم يصر به مستطيعا ؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبذل المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه ؟ وإن مات قبل الحج لقى الله عز وجل عاصيا بترك الحج ، وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه . وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة ـ قبل حج الناس ـ ثم مات لقى الله عز وجل ولا حج عليه . ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا . وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس: لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه . وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ قال :

الحج وأما الأركان التي لايصح الحج بدونها فخمسة : الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف والواجبات المجبورة بالدم ست: الإحرام من الميقات فمن تركه وجاوز الميقات محلا فعليه شاة والرمى فيه الدم قولا واحدا ، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفى القول الثانى فيها دم على وجه الاستحباب . وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة (الأول) الإفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر . وأفضل الحل لإحرام العمرة الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية . وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع (الثانى) القران وهو أن يجمع فيقول « لبيك بحجة وعمرة معا » فيصير محرما بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ؛ إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب ، لأن شرط الطواف الفرض فى الحج أن يقع بعد الوقوف . وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيا فلا شىء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة (الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعا إلا بخمس شرائط . أحدها أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثانى . أن يقدم العمرة على الحج . الثالث . أن تكون عمرته فى أشهر الحج . الرابع : أن لايرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس : أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن ، وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعا أو متفرقا وبدل دم القران والتمتع سواء . والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران . وأما محظورات الحج والعمرة فستة ؛ الأول : اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة بل ينبغى أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين ، فإن لم يجد نعلين فكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستظلال فى المحمل ولكن لاينبغى أن يغطى رأسه فإن إحرامه فى الرأس وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لاتستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها فى وجهها . الثانى الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيبا فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث : الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع : الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أوسبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه . والخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا فى الاستمناء ، ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لاينعقد . السادس : قتل صيد البر أعنى مايؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فإن قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب فى الخلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

الباب الثانى فى ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهى عشر جمل

الجملة الأولى : فى السير من أول الخروج إلى الإحرام وهى ثمانية

(الأولى) فى المال : فينبغى أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ماعنده من الودائع . ويستصحب من المال الحلال الطيب مايكفيه لذهابه وإيابه من غير

تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء . ويتصدق بشىء قبل خروجه ويشترى لنفسه دابة قوية على الحمل لاتضعف أو يكتريها فإن اكترى فليظهر للمكارى كل مايريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه (الثانية) فى الرفيق : ينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معينا عليه إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قواه وإن ضاق صدره صبره . ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتمس أدعيتهم فإن الله تعالى جاعل فى أدعيتهم خيرا والسنة فى الوداع أن يقول أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك (١) وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر « فى حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت (٢) » (الثالثة) فى الخروج من الدار : ينبغى إذا هم بالخروج أن يصلى ركعتين أولا يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون وفى الثانية الإخلاص فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال : اللهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة . اللهم إنا نسألك فى مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى . اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتهون علينا السفر وأن ترزقنا فى سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد والأصحاب . اللهم اجعلنا وإياهم فى جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك (الرابعة) إذا حصل على باب الدار قال : بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أزل أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على . اللهم إنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولاسمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقا إلى لقائك . فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت . اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى فاكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك . اللهم زودنى التقوى واغفرلى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت . ويدعو بهذا الدعاء فى كل منزل يدخل عليه (الخامسة) فى الركوب . فإذا ركب الراحلة يقول : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . اللهم إنى وجهت وجهى إليك وفوضت أمرى كله إليك وتوكلت فى جميع أمورى عليك أنت حسبى ونعم الوكيل . فإذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - سبع مرات - وقال ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور (السادسة) فى النزول : والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار (٣) » وليقلل نومه بالليل حتى يكون

---

(١) حديث « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى من حديث ابن عمر « أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرا : أدن حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا »

(٢) حديث « كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد سفرا . فى حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر الله ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذى وحسنه دون قوله « فى حفظ الله وكنفه »

(٣) حديث « عليكم بالدلجة فان الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار » أخرجه أبو داود من حديث أنس دون قوله « مالا تطوى بالنهار » وهذه الزيادة فى الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلا

عونا على السير . ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه اصرف عنى شر شرارهم . فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر من شر ماخلق . فإذا جنّ عليه الليل يقول : يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر مافيك وشر مادب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وماولد ﴿وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ (السابعة) فى الحراسة : ينبغى أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفردا خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ، ويكون بالليل متحفظا عند النوم فإن نام فى ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه فى كفه ، هكذا كان ينام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفره [1] لأنه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لايدرى فيكون مايفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والأحب فى الليل أن يتناوب الرفيقان فى الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر [2] فهو السنة فإن قصده عدو أو سبع فى ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسى وشهد الله والإخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله حسبى الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتى بالخير إلا الله ما شاء الله لايصرف السوء إلا الله حسبى الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز﴾ تحصنت بالله العظيم واستغثت بالحى الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام . اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا . اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين (الثامنة) مهما علا نشزا من الأرض فى الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثا ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال . ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة فى سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الجملة الثانية : فى آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهى خمسة

(الأول) أن يغتسل وينوى به غسل الإحرام أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه . ويتمم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم اظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة (الثانى) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الإحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويتطيب فى ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام ؛ فقد رؤى بعض المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام مما كان استعمله قبل الإحرام [3] (الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكبا أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو بالعمرة

---

(١) حديث « كان إذا نام فى أول الليل افترش ذراعه وإذا نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل ذراعه فى كفه » أخرجه أحمد والترمذى فى الشمائل من حديث أبى قتادة باسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدمشقى والحميدى الى مسلم ولم أره فيه .

(٢) حديث « تناوب الرفيقين فى الحراسة فاذا نام أحدهما حرس الآخر » أخرجه البيهقى من طريق ابن إسحق من حديث جابر فى حديث فيه « فقال الأنصارى أى الليل أحب اليك أن أكفيكه أوله أو آخره ؟ وقال : بل اكفنى أوله فاضطجع المهاجرى .. الحديث » والحديث عند أبى داود ولكن ليس فيه قول الأنصارى للمهاجرين (٣) حديث رؤية وبيص المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام » متفق عليه من حديث عائشة قالت « كأنما أنظر الى وبيص المسك » الحديث .

قرانا أو إفرادا كما أراد . ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول « لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك، وإن زاد قال « لبيك وسعديك والخير كله بيديك والرغباء إليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » (الرابع) إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول : اللهم إنى أريد الحج فيسره لى وأعنى على أداء فرضه وتقبله منى . اللهم إنى نويت أداء فريضتك فى الحج فاجعلنى من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلنى من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم . اللهم فيسرلى أداء مانويت من الحج ، اللهم قد أحرم لك لحمى وشعرى ودمى وعصبى ومخى وعظامى وحرمت على نفسى النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة . ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التى ذكرناها من قبل فليجتنبها (الخامس) يستحب تجديد التلبية فى دوام الإحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعا بها صوته بحيث لايبح حلقه ولا ينبهر ، فإنه لاينادى أصم ولا غائبا [1] كما ورد فى الخبر . ولا بأس برفع الصوت بالتلبية فى المساجد الثلاثة فإنها مظنة المناسك - أعنى المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات - وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت : وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيء قال « لبيك إن العيش عيش الآخرة [2] »

الجملة الثالثة فى آداب دخول مكة إلى الطواف وهى ستة

(الأول) أن يغتسل بذى طوى لدخول مكة . والاغتسالات المستحبة المسنونة فى الحج تسعة . الأول : الإحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرمى الجمار الثلاث ؛ ولا غسل لرمى جمرة العقبة ، ثم لطواف الوداع . ولم ير الشافعى رضى الله عنه فى الجديد : الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سابعة ، الثانى : أن يقول عند الدخول فى أول الحرم وهو خارج مكة « اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمى ودمى وشعرى وبشرى على النار وآمنى من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلنى من أوليائك وأهل طاعتك . الثالث أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو ثنية كدا - بفتح الكاف - عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادة الطريق إليها [3] فالتأسى به أولى ، وإذا خرج خرج من ثنيه كدى - بضم الكاف - وهى الثنية السفلى والأولى هى العليا . الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل « لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته اللهم فرده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجه برا وكرامة اللهم افتح لى أبواب رحمتك وأدخلنى جنتك وأعذنى من الشيطان الرجيم » . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بنى شيبة وليقل « بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . اللهم

(١) حديث « إنكم لاتنادون أصم ولا غائبا » متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث « كان إذا أعجبه شيء قال : لبيك إن العيش عيش الآخرة » أخرجه الشافعى فى المسند من حديث مجاهد مرسلا بنحوه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال لبيك اللهم لبيك » قال « إنما الخير خير الآخرة »

(٣) حديث « دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء — بفتح الكاف — » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التى بالبطحاء .. الحديث »

صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك » وليرفع يديه وليقل « اللهم إنى أسألك فى مقامى هذا فى أول مناسكى أن تتقبل توبتى وأن تتجاوز عن خطيئتى وتضع عنى وزرى الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركا وهدى للعالمين . اللهم إنى عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك جئتك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراجى لرحمتك الطالب مرضاتك .

السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول « اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيته اشهد لى بالموافاة فإن لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك . ثم لا يعرج على شىء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

الجملة الرابعة : فى الطواف

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أمورا ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة . فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخى طرفا وراء ظهره وطرفا على صدره . ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية التى سنذكرها (الثانى) إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلا ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه . وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريبا من البيت فإنه أفضل ولكيلا يكون طائفا على الشاذروان فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به ، والطائف عليه لا يصح طوافه ؛ لأنه طائف فى البيت . والشاذروان هو الذى فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يبتدئ الطواف (الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف « بسم الله والله أكبر اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » ويطوف . فأول ما يجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول « اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار » وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام « اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحرم لحمى ودمى على النار وآمنى من أهوال يوم القيامة واكفنى مؤنة الدنيا والآخرة » ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد » فإذا بلغ الميزاب قال « اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم اسقنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا أظمأ بعدها أبداً » فإذا بلغ الركن الشامى قال « اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور يا عزيز يا غفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم » فإذا بلغ الركن اليمانى قال « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من الخزى فى الدنيا والآخرة » ويقول بين الركن اليمانى والحجر الأسود « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار » فإذا بلغ الحجر الأسود قال اللهم اغفر لى برحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر » وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط (الرابع) أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخر

على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا ، وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد . والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة ، هكذا كان القصد أولا قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة[1] والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل فيخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثا ثم ليقرب إلى البيت فى المزدحم وليمش أربعا . وإن أمكنه استلام الحجر فى كل شوط فهو الأحب ، وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبل يده ، وكذلك استلام الركن اليمانى يستحب من سائر الأركان . وروى ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الركن اليمانى[2] ويقبله[3] ويضع خده عليه[4] ، ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل واقتصر فى الركن اليمانى على الاستلام أغنى عن اللمس باليد فهو أولى (الخامس) إذا تم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة ، وليلتزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل « اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار وأعذنى من الشيطان الرجيم وأعذنى من كل سوء وقنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيما آتيتنى اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلنى من أكرم وفدك عليك » ثم ليحمد الله كثيرا فى هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيرا وليدع بحوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف فى هذا الموضع يقول لمواليه : تنحوا عنى حتى أقر لربى بذنوبى (السادس) إذا فرغ من ذلك ينبغى أن يصلى خلف المقام ركعتين يقرأ فى الأولى قل يا أيها الكافرون وفى الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهرى : مضت السنة أن يصلى لكل سبع ركعتين[5] وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز[6] فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف . وليدع بعد ركعتى الطواف وليقل « اللهم يسر لى اليسرى وجنبنى العسرى واغفر لى فى الآخرة والأولى واعصمنى بألطافك حتى لا أعصيك وأعنى على طاعتك بتوفيقك وجنبنى معاصيك واجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين . اللهم حببنى إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكما هديتنى إلى الإسلام فثبتنى عليه بألطافك وولايتك واستعملنى لطاعتك وطاعة رسولك وأجرنى من مضلات

---

(١) حديث « مشروعية الرمل والاضطباع قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة » أما الرمل فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ... الحديث» وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال « فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب وقد أطهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ومع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) حديث « استلامه صلى الله عليه وسلم للركن اليمانى » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود ... الحديث » ولهما من حديثه « لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الأركان إلا اليمانيين » ولمسلم من حديث ابن عباس « لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين » وله من حديث جابر الطويل « حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن» (٣) حديث « تقبيله صلى الله عليه وسلم له » متفق عليه من حديث عمر « أنه قبل الحجر وقال لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » وللبخارى من حديث ابن عمر « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله » وله فى التاريخ من حديث ابن عباس « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن اليمانى قبله » (٤) حديث « وضع الخد عليه » أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليمانى ..الحديث » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور (٥) حديث الزهرى « مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين » ذكره البخارى تعليقا السنة أفضل لم يطف النبى صلى الله عليه وسلم أسبوعا إلا صلى ركعتين وفى الصحيحين من حديث ابن عمر « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين (٦) حديث « قرانه صلى الله عليه وسلم بين أسابيع » ورواه ابن أبى حاتم من حديث ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينهما صلاة » ورواه العقيلى فى الضعفاء وابن شاهين فى أماليه من حديث أبى هريرة وزاد « ثم صلى لكل أسبوع ركعتين » وفى إسنادهما عبد السلام بن أبى الجنوب منكر الحديث

الفتن . ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف قال صلى الله عليه وسلم « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة [1] » وهذه كيفية الطواف . والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت ، وأن يبتدئ بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا فى الحجر ، وأن يوالى بين الأشواط ولا يفرقها تفريقا خارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيئات .

الجملة الخامسة : فى السعى

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو فى محاذاة الضلع الذى بين الركن اليمانى والحجر . فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات فى حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة [2] . وابتداء السعى من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة ، ولكن بعض تلك الدرج مستحدثة فينبغى أن لا يخلفها وراء ظهره فلا يكون متمما للسعى ، وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات . وعند رقية فى الصفا ينبغى أن يستقبل البيت ويقول « الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ اللهم إنى أسألك إيمانا دائما ويقينا صادقا وعلما نافعا وقلبا خاشعا ولسانا ذاكرا وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة ويصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء ثم ينزل ويبتدئ السعى وهو يقول « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ويمشى على هينة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا - وهو على زاوية المسجد الحرام - فإذا بقى بينه وبين محاذاة الميل ستة أذرع أخذ فى السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين . ثم يعود إلى الهينة فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء وقد حصل السعى مرة واحدة ؛ فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان . يفعل ذلك سبعا ويرمل فى موضع الرمل فى كل مرة ويسكن فى موضع السكون - كما سبق - وفى كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان . والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغى أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا ؛ فإنه ليس من شروط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط فى طواف الركن . نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان .

---

(١) حديث « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة » لفظ ابن ماجه وقال « الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة » والبيهقى فى الشعب « من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة »

(٢) حديث « أنه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة » أخرجه مسلم من حديث جابر « فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت » وله من حديث أبى هريرة « أتى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت » .

الجملة السادسة : فى الوقوف وما قبله

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرما إلى اليوم السابع من ذى الحجة . فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالغدو منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال ؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغى أن يخرج إلى منى ملبيا : ويستحب له المشى من مكة فى المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه . والمشى من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وآكد . فإذا انتهى إلى منى قال « اللهم هذه منى فامنن على بما مننت به على أولیائك وأهل طاعتك وليمكث هذه الليلة بمنى ـ وهو مبيت منزل لايتعلق به نسك ـ فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول « اللهم أجعلها خيرغدوة غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك اللهم إليك غدوت وإياك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خير منى وأفضل . فإذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد فثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبته (١) ونمرة هى بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة . وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد ، وأخذ المؤذن فى الأذان والإمام فى الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان ، وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن . ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين ، وقصر الصلاة ، وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولايقفن فى وادى عرنة . وأمامسجد إبراهيم عليه السلام فصدره فى الوادى وأخرياته من عرفة فمن وقف فى صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلا للقبلة راكبا . وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة ولا يصوم فى هذا اليوم لتقوى على المواظبة على الدعاء . ولايقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبى تارة ويكب على الدعاء أخرى وينبغى أن لاينفصل من طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع فى عرفة بين الليل والنهار : وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط فى الهلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات . ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج ، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دما لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتى ، وليكن أهم اشتغاله فى هذا اليوم الدعاء . ففى مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات . والدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وعن السلف

---

(١) حديث « ضربه صلى الله عليه وسلم قبته بنمرة » أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل « أمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة .. الحديث » (٢) حديث « الدعاء المأثور فى يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لاشريك له .. الحديث » أخرجه الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » وقال حسن غريب وله من حديث على قال « أكثر مادعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى الموقف اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيرا مما نقول لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى واليك مآبى ولك رب تراثى اللهم إنى أعوذ بك من شر ماتجىء به الريح » وقال ليس بالقوى إسناده وروى المستغفرى فى الدعوات من حديثه « ياعلى إن أكثر دعاء من قبلى يوم عرفة أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم اجعل فى صدرى نورا وفى سمعى نورا وفى قلبى نورا اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر وشر ما يلج فى الليل وشر ما يلج فى النهار وشر ماتهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر » وإسناده ضعيف وروى الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال « كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : اللهم إنك ترى مكانى وتسمع كلامى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس =

فى يوم عرفة أول مايدعو به فليقل « لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير . اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا وفى لسانى نورا . اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى وليقل : اللهم رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى وإليك ثوابى . اللهم إنى أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر . اللهم إنى أعوذ بك من شر مايلج فى الليل ومن شر مايلج فى النهار ومن شر ماتهب به الرياح . ومن شر بوائق الدهر . اللهم إنى أعوذ بك من تحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك . اللهم اهدنى بالهدى واغفر لى فى الآخرة والأولى ياخير مقصود وأسنى منزول به وأكرم مسئول مالديه أعطنى العشية أفضل ماأعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك ياأرحم الراحمين. اللهم يارفيع الدرجات ومنزل البركات ويافاطر الأرضين والسموات ضجت إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتى إليك أن لاتنسانى فى دار البلاء إذا نسينى أهل الدنيا . اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولايخفى عليك شيء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه أسألك مسئلة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه . اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما ياخير المسئولين وأكرم المعطين إلهى من مدح لك نفسه فإنى لائم نفسى . إلهى أخرست المعاصى لسانى فمالى وسيلة عن عمل ولاشفيع سوى الأمل . إلهى إنى أعلم أنّ ذنوبى لم تبق لى عندك جاهاولاللاعتذار وجهاً ولكنك أكرم الأكرمين. إلهى إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغنى ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء إلهى إنّ ذنوبى وإن كانت عظاما ولكنها صغار فى جنب عفوك فاغفرها لى ياكريم إلهى أنت أنت وأنا أنا ، أنا العوّاد إلى الذنوب وأنت العوّاد إلى المغفرة. إلهى إن كنت لاترحم إلا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون . إلهى تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك على وأكرم عفوك عنى فبوجوب حجتك على وانقطاع حجتى عنك وفقرى إليك وغناك عنى إلا غفرت لى ياخير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج بحرمة الإسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل إليك فاغفر لى جميع ذنوبى واصرفنى من موقفى هذا مقضى الحوائج وهب لى ماسألت وحقق رجائى فيما تمنيت . إلهى دعوتك بالدعاء الذى علمتنيه فلا تحرمنى الرجاء الذى عرفتنيه إلهى ماأنت صانع العشية بعبد مقر لك بذنبه خاشع لك بذلته مستكين بجرمه متضرع إليك من عمله تائب إليك من اقترافه مستغفر لك من ظلمه مبتهل إليك فى العفو عنه طالب إليك نجاح حوائجه راج إليك فى موقفه مع كثرة ذنوبه فياملجأ كل حى وولى كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك . اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا وإياك أملنا وماعندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا ولبيتك الحرام حججنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين يامن ليس معه رب يدعى ويامن ليس فوقه خالق يخشى ويامن ليس له وزير يؤتى ولاحاجب يرشى يامن لايزداد على كثرة السؤال إلا جوداً وكرما وعلى كثرة الحوائج إلاتفضلا وإحسانا . اللهم إنك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل راج ثواباً ولكل ملتمس لما عندك جزاء ولكل

= الفقير » فذكر الحديث الى قوله « ياخير المسئولين وياخير المعطين » وإسناده ضعيف وباقى الدعاء من دعاء بعض السلف فى بعضه ما هو مرفوع ، لكن ليس مقيدا بموقف عرفه .

مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلفى ولكل متوسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا . إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك وظاهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك وأظهرت الآيات حتى أفصحت السموات والأرضون بأدلتك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك إذا أساءت عبادك حلمت وأمهلت وإن أحسنوا تفضلت وقبلت وإن عصوا سترت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا ولينا عنك دعوت . إلهنا إنك قلت فى كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد مخبتين ولمحمد بالرسالة مخلصين فاغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الإجرام ولاتجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل فى الإسلام. إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا . وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا . ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا .ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار» وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول « يامن لايشغله شأن عن شأن ولاسمع عن سمع ولاتشتبه عليه الأصوات ، يامن لا تغلطه المسائل ولاتختلف عليه اللغات ، يامن لايبرمه إلحاح الملحين ولاتضجره مسئلة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك » وليدع بما بدا له وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليلح فى الدعاء وليعظم المسألة فإن الله لايتعاظمه شيء ، وقال مطرف بن عبدالله وهو بعرفة : اللهم لاترد الجميع من أجلى . وقال بكر المزنى : قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أنى كنت فيهم .

الجملة السابعة : فى بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغى أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجيف الخيل وإيضاع الإبل كما يعتاده بعض الناس . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال : اتقوا الله وسيروا سيراً جميلا لاتطأوا ضعيفاً ولاتؤذوا مسلما [1] » فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم فليدخله بغسل ، وإن قدر على دخوله ماشيا فهو أفضل وأقرب إلى توقير الحرم . ويكون فى الطريق رافعاً صوته بالتلبية فإذا بلغ المزدلفة قال « اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتنفة فاجعلنى ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيته » ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة فى وقت العشاء قاصراً له بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ، ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما فى الفريضتين . فإن ترك النوافل فى السفر خسران ظاهر . وتكليف إيقاعها فى الأوقات إضرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض فإذا جاز أن يؤدى النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يجوز أداؤهما على حكم الجمع بالتبعية أولى . ولايمنع من هذا مفارقة النفل للفرض فى جواز أدائه على الراحلة لما أومأنا إليه من التبعية والحاجة . ثم يمكث تلك الليلة

(١) حديث « نهى النبى عن وجيف الخيل وإيضاع الأبل » أخرجه النسائى والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد « عليكم بالسكينة والوقار فان البر ليس فى إيضاع الإبل » وقال الحاكم « ليس البر بإيجاف الخيل والإبل » وللبخارى من حديث ابن عباس « فان البر ليس بالإيضاع » .

بمزدلفة وهو مبيت نسك ، ومن خرج منها فى النصف الأول من الليل ولم يبت فعليه دم ، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم إذا انتصف الليل يأخذ فى التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها ـ ففيها أحجار رخوة ـ فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة ، ولابأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها ولتكن الحصى خفافا بحيث يحتوى عليه أطراف البراجم . ثم ليغلس بصلاة الصبح وليأخذ فى المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار ويقول « اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام ياذا الجلال والإكرام » ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهى إلى موضع يقال له وادى محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادى وإن كان راجلا أسرع فى المشى . ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبى تارة ويكبر أخرى . فينتهى إلى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر ، حتى ينتهى إلى جمرة العقبة وهى على يمين مستقبل القبلة فى الجادة ـ والمرمى مرتفع قليلا فى سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات ـ ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح . وكيفيته أن يقف مستقبلا القبلة وإن استقبل الجمرة فلابأس ويرمى سبع حصيات رافعاً يده ، ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة « الله أكبر على طاعة الرحمن ، ورغم الشيطان اللهم تصديقاً بكتابك واتباعا لسنة نبيك » فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولايقف فى هذا اليوم للدعاء بل يدعو فى منزله . وصفة التكبير أن يقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لاشريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر » ثم ليذبح الهدى إن كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل « بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل منى كما تقبلت من خليلك إبراهيم » والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة . والشاة أفضل من مشاركة ستة فى البدنة أو البقرة . والضأن أفضل من المعز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء [1] » وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل فى الأضحى من دم سوداوين وليأكل منه إن كانت من هدى التطوع ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء . والجدع فى الأنف والأذن للقطع منهما ، والعضب فى القرن وفى نقصان القوائم والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق ، والخرقاء من أسفل ، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام ، والمدابرة من خلف . والعجفاء المهزولة التى لاتنقى أى لامخ فيها من الهزال . ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقى ويقول « اللهم أثبت لى بكل شعرة حسنة وامح عنى بها سيئة وارفع لى بها عندك درجة » والمرأة تقصر الشعر . والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحذورات إلا النساء والصيد . ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن فى الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أى وقت شاء ، ولكن يبقى مقيداً بعلقة الإحرام فلا تحل له النساء إلى أن يطوف . فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق

(١) حديث « خير الأضحية الكبش » أخرجه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت والترمذى من حديث أبى أمامة قال الترمذى غريب وعفير يضعف فى الحديث .

إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحق وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق فى طواف القدوم . فإذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركنا فلا ينبغى أن يعيد السعى . وأسباب التحلل ثلاثة : الرمى والحلق والطواف الذى هو ركن . ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا حرج عليه فى التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف . والسنة للإمام فى هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر [1] وخطبة يوم النفر الأول ، وكلها عقيب الزوال وكلها إفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمى فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القرّ لأن الناس فى غد يقرّون بمنى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصد الجمرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجادة ويرمى إليها بسبع حصيات ، فإذا تعداها انحرف قليلا عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلا على الدعاء ، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمى سبعاً ، ولايعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق رمى فى هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله . ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة . فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شىء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحداً وعشرين حجراً كما سبق . وفى ترك المبيت والرمى إراقة دم وليتصدق باللحم . وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لايبيت إلا بمنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك [2] ولا يتركنّ حضور الفرائض مع الإمام فى مسجد الخيف فإنّ فضله عظيم فإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة [3] فهو السنة . رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . فإن لم يفعل ذلك فلا شىء عليه .

الجملة الثامنة : فى صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق فى الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية . وينوى العمرة ويلبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله

(١) حديث « الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه البخارى من حديث أبى بكرة « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر » وله من حديث ابن عباس « خطب الناس يوم النحر » وفى حديث علقه البخارى ووصله ابن ماجه من حديث ابن عمر « وقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال : أى يوم هذا ؟ الحديث » وفيه « ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع »

(٢) حديث « زيارة البيت فى ليالى منى والمبيت بمنى » أخرجه أبو داود فى المراسيل من حديث طاوس « قال أشهد أن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور البيت أيام منى » وفيه عمرو بن رباح ضعيف والمرسل صحيح الإسناد ولأبى داود من حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم مكث بمنى ليالى أيام التشريق »

(٣) حديث « نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقود به رقدة » أخرجه البخارى من حديث أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة . الحديث »

عنها ويصلى ركعتين ويدعو بما شاء . ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام . فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعاً كما وصفنا . فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته والمقيم بمكة ينبغى أن يكثر الاعتمار والطواف . وليكثر النظر إلى البيت . فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً . قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقال : والله ما أرى هاتين القدمين أهلا للطواف حول بيت ربى فكيف أراهما أهلا لأن أطأ بهما بيت ربى ! وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا . وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع وليقل : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقنى الإخلاص واليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له [1] » أى يشفى ما قصد به .

الجملة التاسعة : فى طواف الوداع

مهما عنّ له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولا أشغاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت . ووداعه بأن يطوف به سبعاً كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع . فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ثم يأتى الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول « اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ما سخرت لى من خلقك حتى سيرتنى فى بلادك وبلغتنى بنعمتك حتى أعنتنى على قضاء مناسكك ، فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا وإلا فمنّ الآن قبل تباعدى عن بيتك هذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم أصحبنى العافية فى بدنى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك أبداً ما أبقيتنى واجمع لى خير الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير . اللهم لاتجعل هذا آخر عهدى ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدى فعوضنى عنه الجنة » والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

الجملة العاشرة : فى زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم « من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من وجد سعة ولم يفد إلى فقد جفانى [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من جاءنى زائراً لا يهمه إلا زيارتى كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعاً [4] » فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه كثيراً . فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال « اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لى وقاية من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب » وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه . فإذا دخلها فليدخلها

---

(١) حديث « ماء زمزم لما شرب له » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند ضعيف ورواه الدارقطنى والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الإسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجارودى قال ابن القطان سلم منه فان الخطيب قال فيه كان صدوقا ، قال ابن القطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد بن هشام المروزى

(٢) حديث « من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى » أخرجه الطبرانى والدارقطنى من حديث ابن عمر

(٣) حديث « من وجد سعة ولم يفد الى فقد جفانى » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وابن حبان فى الضعفاء والخطيب فى الرواة عن مالك فى حديث ابن عمر « من حج ولم يزرنى فقد جفانى » وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وروى ابن النجار فى تاريخ المدينة من حديث أنس « ما من أحد من أمتى له سعة ثم لم يزرنى فليس له عذر »

(٤) حديث « من جاءنى زائراً لاتهمه إلا زيارتى كان حقا على الله أن أكون له شفيعا » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن .

متواضعاً معظما وليقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾ ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلى بجنب المنبر ركعتين . ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد . وليجتهد أن يصلى فى المسجد الأول قبل أن يزاد فيه . ثم يأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التى فى زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام ، فيقف ويقول « السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبى الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا صفوة الله السلام عليك ياخيرة الله السلام عليك ياأحمد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا ماحى السلام عليك ياعاقب السلام عليك ياحاشر السلام عليك يا بشير السلام عليك يا نذير السلام عليك يا طهر السلام عليك ياطاهر السلام عليك يا أكرم ولد آدم السلام عليك ياسيد المرسلين السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا قائد الخير السلام عليك يافاتح البر السلام عليك يانبى الرحمة السلام عليك يا هادى الأمة السلام عليك ياقائد الغر المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولا عن أمته وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون وصلى عليك فى الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول « السلام عليك من - فلان - السلام عليك من - فلان - ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضى الله عنه عند منكب أبى بكر رضى الله عنه . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضى الله عنه ويقول « السلام عليكما ياوزيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حياً والقائمين فى أمته بعده بأمور الدين تتبعان فى ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ماجزى وزيرى نبى عن دينه . ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين القبر والاسطوانة اليوم - ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول « اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك فى ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك . اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . اللهم لاتجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين . ثم يأتى الروضة فيصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله صلى الله

عليه وسلم « مابين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى »[1] ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة[2] ويستحب له أن يأتى أحدا يوم الخميس ويزور قبور الشهداء فيصلى الغداة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم . ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة فى الجماعة فى المسجد . ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضى الله عنه وقبر الحسن بن على رضى الله عنهما ، وفيه أيضا قبر على ابن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم ، ويصلى فى مسجد فاطمة رضى الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك كله بالبقيع . ويستحب له أن يأتى مسجد قباء فى كل سبت ويصلى فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان له عدل عمرة »[3] ، ويأتى بئر أريس يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها وهى عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها[4] ويأتى مسجد الفتح وهو على الخندق . وكذا يأتى سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها[1] وهى سبع آبار طلبا للشفاء

---

(١) حديث « مابين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى » متفق عليه من حديث أبى هريرة وعبد الله ابن زيد (٢) حديث « وضعه صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على رمانة المنبر » لم أقف له على أصل وذكر محمد بن الحسن ابن زبالة فى تاريخ المدينة أن طول رمانتى المنبر اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان .

(٣) حديث « من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان عدل عمرة » أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح (٤) حديث « أن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى بئر أريس » لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه تفل فى بئر البصة وبئر غرس — كما سيأتى عند ذكرها — (٥) حديث « الآبار التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ ويغتسل ويشرب منها » وهى سبعة آبار . قلت : وهى بئر أريس وبئر حا وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جمل . حديث « بئر أريس » رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى فى حديث فيه « حتى دخل بئر أريس قال فجلست عند بابها وبابها من جريد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ . . الحديث » وحديث « بئر حا » متفق عليه من حديث أنس قال « كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله إليه بئر حا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . . . الحديث » وحديث « بئر رومة » رواه الترمذى والنسائي من حديث عثمان « أنه قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى بئر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين ... الحديث» قال الترمذى حديث حسن . وفى رواية لهما « هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فابتعتها فجعلتها للغنى والفقير وابن السبيل ... الحديث » وقال حسن صحيح وروى البغوى والطبرانى من حديث بشير الأسلمى قال « لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمد » . الحديث » وحديث « بئر غرس » رواه ابن حبان فى الثقات من حديث أنس « أنه قال ائتونى بماء من بئر غرس فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ » ولابن ماجه بإسناد جيد مرفوعا « إذا أنا مت فاغسلونى بسبع قرب من بئرى بئر غرس » ورويناه فى تاريخ المدينة لابن النجار باسناد ضعيف مرسلا « أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفى » وحديث « بئر بضاعة » رواه أصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى « أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتوضأ من بئر بضاعة » وفى رواية « أنه يستقى لك من بئر بضاعة .. الحديث » قال يحيى بن معين إسناده جيد وقال الترمذى حسن وللطبرانى من حديث أبى أسيد « بصق النبى صلى الله عليه وسلم فى بئر بضاعة » ورويناه أيضا فى تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد . وحديث « بئر البصة » رواه ابن عدى من حديث أبى سعيد الخدرى « أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسى فإن اليوم الجمعة ؟ قال نعم فأخرج له سدرا وخرج معه إلى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره فى البصة » وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضعيف وحديث « بئر السقيا » رواه أبو داود من حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستعذب له من بيوت السقيا » زاد البزار فى مسنده « أو من بئر السقيا » ولأحمد من حديث على « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالسقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتونى بوضوء فلما توضأ

وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة [٢] » ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة - كما سبق - ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد . فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ثم اليمنى وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصحبني في سفري السلامة ويسر رجوعي إلى أهلي ووطني سالما يا أرحم الراحمين » وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه . وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلي فيها وهي عشرون موضعا .

فصل : في سنن الرجوع من السفر

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده [٣] » وفي بعض الروايات « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه . وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا » ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كي لا يقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة [٤] ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلا فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فهو السنة [٥] كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا دخل بيته قال « توبا توبا لربنا أوبا لا يغادر علينا حوبا » فإذا استقر في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض في المعاصي ، فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة متأهبا للقاء رب البيت بعد لقاء البيت .

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهي عشرة

(الأول) أن تكون النفقة حلالا وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم حتى يكون الهم مجردا

= قام .. الحديث » وأما بئر جمل ففي الصحيحين من حديث أبي الجهم « أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بئر جمل .. الحديث» وصله البخاري وعلقه مسلم والمشهور أن الآبار بالمدينة سبعة . وقد روى الدارمي من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه : صبوا على سبع قرب من آبار شتى .. الحديث » وهو عند البخاري دون قوله « من آبار شتى »

(١) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » تقدم في الباب قبله (٢) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها .. الحديث » تقدم في الباب قبله (٣) حديث « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض . . . الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر وما زاده في آخره في بعض الروايات من قوله « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » رواه المحاملي في الدعاء بإسناد جيد .

(٤) حديث « لإرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة » لم أجد فيه ذكر الإرسال وفي الصحيحين من حديث جابر « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال أمهلوا حتى ندخل ليلا أي عشاء كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » (٥) حديث « صلاة ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر » تقدم في الصلاة

لله تعالى والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره وقد روى فى خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للسمعة (١) » وفى الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التى يتصور أن تتصل بالحج ، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص ؛ لا سيما إذا كان متجرداً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة . وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد ، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين . فعند ذلك ينبغى أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه . وفى مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة : الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه (٢) » ولست أقول لا تحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه ، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فإن الله عز وجل يعطى الدنيا بالدين ولا يعطى الدين بالدنيا . وفى الخبر « مثل الذى يغزو فى سبيل الله عز وجل ويأخذ أجرا مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها (٣) » فمن كان مثاله فى أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه ، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتلبيس حالها عليهم (الثانى) أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين فى الطريق . فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس ؛ فليتلطف فى حيلة الخلاص فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء ـ ولا بأس بما قاله ـ إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة فإن هذه بدعة أحدثت وفى الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية . ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ منى وأنا مضطر فإنه لو قعد فى البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شىء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان فى زى الفقراء لم يطالب فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطرار (الثالث) التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد ، وأعنى بالإسراف التنعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين . فأما كثرة البذل فلا سرف فيه . إذ لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير ، كما قيل . وبذل الزاد فى طريق الحج نفقته فى سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعمائة درهم . قال ابن عمر رضى الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده فى سفره . وكان يقول أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقينا . وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يارسول الله ما بر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام (٤) » (الرابع) ترك الرفث والفسوق

---

(١) حديث « اذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة » أخرجه الخطيب من حديث أنس باسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ، ورواه أبو عثمان الصابونى فى كتاب المائتين فقال « تحج أغنياء أمتى للنزهة وأوساطهم للتجارة وقراؤهم للمسألة وقراؤهم للرياء والسمعة » (٢) حديث « يدخل بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه » أخرجه البيهقى من حديث جابر بسند ضعيف

(٣) حديث « مثل الذى يغزو ويأخذ أجرا مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد منكر المتن (٤) حديث « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، فقيل له ما بر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه أحمد من حديث جابر باسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد

والجدال كما نطق به القرآن . والرفث اسم جامع لكل لغو وخنى وفحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته ، فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى إلى المحظور محظور . والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق فى الحال الهمة ويناقض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رفث فسد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج . والمماراة تناقض طيب الكلام فلا ينبغى أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا : هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه (الخامس) أن يحج ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما بنيه عند موته فقال . يا بنى حجوا مشاة فإن للحاج الماشى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف والاستحباب فى المشى فى المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه فى الطريق . وإن أضاف إلى المشى الإحرام من دويرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم فى معنى قوله عز وجل ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغى أن يفصل . ويقال من سهل عليه المشى فهو أفضل فإن كان يضعف ويؤدى به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض مالم يفض إلى ضعف وسوء خلق . وسئل بعض العلماء عن العمرة : أيمشى فيها أو يكترى حمارا بدرهم؟ فقال : إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراء أفضل من المشى ، وإن كان المشى أشد عليه كالأغنياء فالمشى له أفضل ؛ فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه . ولكن الأفضل له أن يمشى ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكارى عوضا عن ابتذال الدابة . فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه (السادس) أن لا يركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف على الزاملة أن لا يستمسك عليها لعذر وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه . والثانى : اجتناب زى المترفين المتكبرين « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم[1] وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله[2] » وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « خذوا عنى مناسككم[3] » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء فى وقته ينكرونها . فروى سفيان الثورى عن أبيه أنه قال : برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل ومارأيت فى جميعهم إلا محملين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزى والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال : هذا نعم من الحجاج .

(١) حديث « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم » أخرجه الترمذى فى الشمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته » تقدم .
(٣) حديث « خذوا عنى مناسككم » أخرجه مسلم والنسائى واللفظ له من حديث جابر

(السابع) أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب فى ديوان المتكبرين المترفهين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشعث والاحتفاء [١] ونهى عن التنعم والرفاهية [٢] فى حديث فضالة بن عبيد وفى الحديث « إنما الحاج الشعث التفث [٣] ويقول الله تعالى : انظروا إلى زوار بيتى قد جاءونى شعثا غبرا من كل فج عميق [٤] » وقال تعالى ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ والتفث الشعث والاغبرار ، وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : اخلولقوا واخشوشنوا . أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة فى الأشياء . وقد قيل : زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف فينبغى أن يجتنب الحمرة فى زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم . فقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم [٥] قالوا فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل » (الثامن) أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى [٦] » ، ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة [٧] وفيه آثار عن السلف . وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيكون فى حسناته ويوضع فى ميزانه لا فى ميزان المكارى . وكل من آذى بهيمة وحملها ما لا تطيق طولب به يوم القيامة . قال أبو الدرداء لبعير له عند الموت : يا أيها البعير لاتخاصمنى إلى ربك فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك . وعلى الجملة فى كل كبد حراء أجر فليراع حق الدابة وحق المكارى جميعا وفى نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكارى . قال رجل لابن المبارك : احمل لى هذا الكتاب معك لتوصله فقال : حتى استأمر الجمال فإنى قد اكتريت . فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له ؟ وهو طريق الحزم فى الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا (التاسع) أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه ، وليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا . قيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ إنه تحسينه وتسمينه . وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده . وليترك المكاس فى شرائه فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون

---

(١) حديث « الأمر بالشعث والاحتفاء » أخرجه البغوى والطبرانى من حديث عبد الله بن أبي حدرد قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة » وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف (٢) حديث فضالة بن عبيد « فى النهى عن التنعم والرفاهية وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان ينهى عن كثير من الإرفاه » ولأحمد من حديث معاذ إياك والتنعم .. الحديث » (٣) حديث « إنما الحاج الشعث التفث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال غريب (٤) حديث « يقول الله تعالى أنظروا الى زوار بيتى قد جاءوا شعثا غبرا من كل فج عميق » أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبى هريرة دون قوله « من كل فج عميق » وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر (٤) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم .

(٦) حديث « لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى » أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه (٧) حديث « النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها بذلك » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الصبح فى السفر مشى » ورواه البيهقى فى الأدب وقال « مشى قليلا وناقته تقاد »

المكاس فيهنّ : الهدى والأضحية والرقبة ، فإنّ أفضل ذلك أغلاه ثمنا وأنفسه عند أهله ، وروى ابن عمر ، أنّ عمر رضى الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها [١] ، وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون . وفى ثلثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل فـ ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وذلك يحصل بمراعاة النفاسة فى القيمة كثر العدد أو قل ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم مابرّ الحج فقال العج والثج [٢] ، والعج هو رفع الصوت بالتلبية ، والثج هو نحر البدن . وروت عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهراقه دما وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإنّ الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفسا [٣] » وفى الخبر « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع فى الميزان فابشروا [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « استجدوا هدايا كم فإنها مطاياكم يوم القيامة » (العاشر) أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة فى مال أو بدن إن أصابه ذلك فإنّ ذلك من دلائل قبول حجه . فإن المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله عز وجل الدرهم بسبعمائة درهم بمثابة الشدائد فى طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شىء عند الله عز وجل . ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصى وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص فى النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره

اعلم أن أول الحج الفهم ـ أعنى فهم موقع الحج فى الدين ـ ثم التشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم اكتراء الراحلة ثم الخروج ثم المسير فى البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق . وفى كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفطن . فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه .

أما الفهم : اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات . ولأجل هذا انفرد الرهبانيون فى الملل السالفة

---

(١) حديث ابن عمر « أن عمر أهدى بختية فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها » أخرجه أبو داود وقال « انحرها » (٢) حديث « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر الحج ؟ فقال : العج والثج » أخرجه الترمذى واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبزار واللفظ له من حديث أبى بكر وقال الترمذى « أى الحج أفضل » (٣) حديث عائشة « ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دما .. الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال البخارى إنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) حديث « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع فى الميزان فأبشروا » أخرجه ابن ماجه وصححه البيهقى من حديث زيد بن أرقم فى حديث فيه « بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة » وفى رواية للبيهقى « بكل قطرة حسنة » قال البخارى لا يصح وروى أبو الشيخ فى كتاب الضحايا من حديث على « أما إنها يجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع فى ميزانك » يقولها لفاطمة .

عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل وتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا فى الآخرة وأثنى الله عزوجل عليهم فى كتابه فقال ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون ﴾ فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين فى سلوكها . فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه فقال صلى الله عليه وسلم : أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف [1] يعنى الحج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال : هم الصائمون [2] » فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى . ونصبه مقصدا لعباده وجعل ماحواليه حرما لبيته تفخيما لأمره . وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه : وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره . ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته . مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك ابلغ فى رقهم وعبوديتهم وأتم فى إذعانهم وانقيادهم . ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لاتأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية . فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التى هى آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود فى الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعى ورمى الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ماأدرك العقل معناه ؛ مال الطبع إليه ميلا ما . فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا [3] » ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون فى أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد . كان مالا يهتدى إلى معانية أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق . مقتضى الاسترقاق . وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأنّ البيت بيت الله عزوجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

---

(١) حديث » سئل عن الرهبانية والسياحة فقال : بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف » أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة « أن رجلا قال يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » رواه الطبرانى بلفظ « إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو » وللبيهقى فى الشعب من حديث أنس « رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله » وكلاهما ضعيف والترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبى هريرة « أن رجلا قال يارسول الله إنى أريد أن أسافر فأوصنى قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) حديث « سئل عن السائحين فقال هم الصائمون » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا

(٣) حديث « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » تقدم فى الزكاة .

فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له وأن من قصد البيت فى الدنيا جدير بأن لايضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة فى ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم فى دار القرار ، من حيث إن العين القاصرة الفانية فى دار الدنيا لاتتهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها إن أمدّت فى الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عزوجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لامحالة ، هذا مع أن المحب متشاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عزوجل فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لنيل ماوعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصدا إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها إلى زيارة بيت الله عزوجل . وليعظم فى نفسه قدر البيت وقدر رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيما خاطر بعظيم . وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة ، وليتحقق أنه لايقبل من قصده وعمله إلا الخالص وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره . فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتناب كل مافيه رياء وسمعة فليحذر أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وأما قطع العلائق : فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادى عليه ويقول : إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره فى منزلك هذا ومستهين به ومهمل له ؟ أولا تستحى أن تقدم عليه قدوم العبد العاصى فيردك ولايقبلك ؟ فإن كنت راغبا فى قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولا من جميع المعاصى واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ماوراءك لتكون متوجها إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك . فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء وآخرا إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه انقطاع من قطع عنه وقدّر أن لايعود إليه وليكتب وصيته لأولاد وأهله فإن المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه . وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فإنّ ذلك بين يديه على القرب ومايقدمه من هذا السفر طمع فى تيسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير . فلاينبغى أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب مايبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أنّ سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأنّ زاده التقوى وأن ماعداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لاحيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التى هى زاده إلى الآخرة لاتصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحلة : إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة . وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها . فإنّ أمر الحج من وجه يوازى أمر السفر إلى الآخرة ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه . وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل . وركوب

الجنازة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط فى أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر فى زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟

وأما شراء ثوبى الإحرام : فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سيرتدى ويتزر بثوبى الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا فى ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفا عادته فى الزى والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا فى زى مخالف لزى الدنيا . وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل فى سفر لا يضاهى أسفار الدنيا . فليحضر فى قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك فى زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوّقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسليا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالا بأعماله فى الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية فى الطريق لقى الله عز وجل وافداً إليه إذ قال جل جلاله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ .

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه ومافيه من الأفاعى والحيات ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته . وليكن فى هذه المخاوف فى أعماله وأقواله متزوّداً لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات . فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فارج أن تكون مقبولا واخش أن يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف مترددا وعن حولك وقوتك متبرئا وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلا . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهى محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على ابن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبى فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك . فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه وقال أحمد بن أبى الحوارى : كنت مع أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا فأخذته الغشية ثم أفاق وقال : يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة . ويحك يا أحمد بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما فى يديك فما نأمن أن يقال لنا ذلك . وليتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية فى الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال ﴿وأذن فى الناس بالحج﴾ ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم فى عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه ؛ ومنقسمين إلى مقربين وممقوتين . ومقبولين ومردودين . ومترددين فى أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج فى الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا ؟

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عزوجل وليخش أن لايكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقا للمقت . وليكن رجاؤه فى جميع الأوقات غالبا فالكرم عميم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام المستجير اللائذ غير مضيع .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ويقدّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدّة تعظيمه إياه . وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس فى القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة فى شىء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضر فى قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه فى كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله . ولاتظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لاتبتدئ الذكر إلا منه ولاتختم إلا به كما تبتدئ الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية . وأن البيت مثال ظاهر فى عالم الملك لتلك الحضرة التى لاتشاهد بالبصر وهى عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر فى عالم الشهادة للقلب الذى لايشاهد بالبصر وهو فى عالم الغيب . وأن عالم الملك والشهادة مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور فى السموات بإزاء الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الأنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم [1] والذى يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذى يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على مارآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر فى المبايعة استحق المقت . وقد روى ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الحجر الأسود يمين الله عزوجل فى الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه [2] » .

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم : فلتكن نيتك فى الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار فى كل جزء من بدنك لافى البيت . ولتكن نيتك فى التعلق بالستر الإلحاح فى طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه فى عفوه عنه المظهر له أنه لاملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه وأنه لايفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن فى المستقبل .

وأما السعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت : فإنه يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى

(١) حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » أخرجه أبو دواد من حديث ابن عمر بسند صحيح (٢) حديث ابن عباس « الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها خلقه .. الحديث» تقدم فى العلم من حديث عبدالله بن عمرو .

إظهارا للخلوص فى الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج وهو لايدرى ما الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم فى الثانية إن لم يرحم فى الأولى وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . وليتذكر تردده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان مترددا بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة . فاذكر ـ بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم فى الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم ـ عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم فى شفاعتهم وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عزوجل فتحشر فى زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض . ولاينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فإذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . ولذلك قيل: إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب فى وقت واحد .

وأما رمى الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهارا للرق والعبودية وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عزوجل أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأمله . فإن خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك فى الرمى ويخيل إليك أنه فعل لافائدة فيه وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير فى الرمى فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكمل الهدى وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءا منك من النار (١) فهكذا ورد الوعد . فكلما كان الهدى أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم

وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته وأنها داره التى شرع فيها فرائض ربه عزوجل وسنته وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن

---

(١) حديث « أنه يعتق بكل جزء من الأضحية جزءاً من المضحى من النار » لم أقف له على أصل وفى كتاب الضحايا لأبى الشيخ من حديث أبى سعيد « فان لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يغفر لك ما تقدم من ذنوبك » يقوله لفاطمة رضي الله عنها وإسناده ضعيف

توفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما ثم مثل فى نفسك مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل . وتذكر مشيه وتخطيه فى سككها وتصور خشوعه وسكينته فى المشى وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما من الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأسفك على مافاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم . ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته فى الدنيا وأنك من رؤيته فى الآخرة على خطر . وأنك ربما لاتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم « يرفع الله إلى أقواما فيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابى فيقول إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقاً [1] » فإن تركت حرمة شريعته ولو فى دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته . وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لايحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولاحظ فى دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره ؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة . فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التى اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وان فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت فى تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا فليعظم أملك فى الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظما . وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبى سليمان أنه قال : حج أويس القرنى رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم فغشى عليه . فلما أفاق قال : أخرجونى فليس يلذ لى بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون .

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغى أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتا كما تزوره حياً ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا . وكما كنت ترى الحرمة فى أن لاتمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلا بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك : فمثل صورته الكريمة فى خيالك موضوعا فى اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته فى قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته [2] » هذا فى حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادى شوقا إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشرا [3] » فهذا جزاؤه فى الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟ ثم ائت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبى صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل فى قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر

---

(١) حديث « يرفع إلى أقوام فيقولون يا محمد يا محمد فأقول يارب أصحابى فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله « يامحمد يامحمد » (٢) حديث « أن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته » أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام »

(٣) حديث « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وعبد الله بن عمرو

وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته وسل الله عز وجل أن لا يفرق فى القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب فى أعمال الحج . وإذا فرغ منها كلها فينبغى أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدرى أقبل منه حجه وأثبت فى زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين ؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ؛ ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوه عدوه إبليس لعنه الله . فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نعوذبالله سبحانه وتعالى من ذلك .

تم كتاب : أسرار الحج . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب . آداب تلاوة القرآن .

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار . واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام . وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما فى الصدور . ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير . لا تنقضى عجائبه ولا تتناهى غرائبه لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد هو الذى أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على مافيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لابد من بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده فى أربعة أبواب : (الباب الأول) فى فضل القرآن وأهله . (الباب الثانى) فى آداب التلاوة فى الظاهر . (الباب الثالث) فى الأعمال الباطنة عند التلاوة . (الباب الرابع) فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى وغيره .

الباب الأول : فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته

فضيلة القرآن

قال صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله

تعالى [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « لو كان القرآن فى إهاب ما مسته النار [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ مابين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عزوجل وأم به قوما وهم به راضون [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن أهل الله وخاصته [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يارسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت [١٠] » وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته [١١] » الآثار · قال أبو أمامة الباهلى : اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلبا هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضاً : اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إنى لا أقول : الحرف ألم ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف . وقال أيضاً : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقال عمرو بن العاص : كل آية فى القرآن درجة فى الجنة ومصباح فى بيوتكم وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه . وقال أبو هريرة :

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول فى فضل القرآن وأهله

(١) حديث « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٢) حديث « ما من شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا وللطبرانى من حديث ابن مسعود « القرآن شافع مشفع » ولمسلم من حديث أبى أمامة « اقرءوا القرآن فانه يجيء يوم القيامة شفيعا لصاحبه »

(٣) حديث « لو كان القرآن فى إهاب ما مسته النار » أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء من حديث سهل بن سعد ولأحمد والدارمى والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة ورواه ابن عدى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عصمة ابن مالك بإسناد ضعيف (٤) حديث « أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن » أخرجه أبو نعيم فى فضائل القرآن من حديث النعمان ابن بشير وأنس وإسنادهما ضعيف (٥) حديث « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام .. الحديث » أخرجه الدارمى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٦) حديث « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أخرجه البخارى من حديث عثمان بن عفان (٧) حديث « يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسئلتى أعطيته ثواب الشاكرين » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد « من شغله القرآن عن ذكرى أو مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وقال حسن غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف (٨) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك . . الحديث » تقدم فى الصلاة

(٩) حديث « أهل القرآن أهل الله وخاصته » أخرجه النسائى فى الكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس باسناد حسن .

(١٠) حديث « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤها قال تلاوة القرآن وذكر الموت » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١١) حديث « لله أشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد

إن البيت الذى يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذى لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل : ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين . وقال أحمد ابن حنبل : رأيت الله عز وجل فى المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامى يا أحمد ، قال قلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم . وقال محمد بن كعب القرظى : إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط . وقال الفضيل بن عياض : ينبغى لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه وقال أيضا حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن . وقال سفيان الثورى : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفا حين يصلى الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا . ويروى « أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ الآية فقال له أعد فأعاد فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر [1] » وقال الحسن والله مادون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسى ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض النساك ما ههنا أحد نستأنس به فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال : هذا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ثلاث يزدن فى الحفظ ويذهبن البلغم : السواك والصيام وقراءة القرآن .

فى ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه . وقال ميسرة : الغريب هو القرآن فى جوف الفاجر وقال أبو سليمان الدارانى : الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن . وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له : مالك ولكلامى . وقال ابن الرماح : ندمت على استظهارى القرآن لأنه بلغنى أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة . وقال ابن مسعود ، ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا ولا ينبغى له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « اقرإ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه [4] » وقال بعض السلف :

(1) حديث « أن خالد بن عقبة جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ فقال : أعد فأعاد فقال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر » ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال « الوليد بن المغيرة » بدل « خالد بن عقبة » وكذا ذكره ابن إسحق فى السيرة بنحوه

(2) حديث « أكثر منافقى أمتى قراؤها » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيهما ابن لهيعة

(3) حديث « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف

(4) حديث « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » أخرجه الترمذى من حديث صهيب وقال ليس إسناده بالقوى

إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرّم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لايعلم يقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو ظالم نفسه ﴿ ألا لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم . وقال الحسن : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله ، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار . وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به . وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها . ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ مابين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لايدرى ما آمره ولا زاجره ولا ماينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل[1] وقد ورد في التوراة : ياعبدى أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لايفوتك شيء منه ، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبدى يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغى إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك ؟

الباب الثاني : في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

(الأول) في حال القارئ : وهو أن يكون على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر . ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدى أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد وذلك من أفضل الأعمال . فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك . قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا . قال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة . ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب ، قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل (الثاني) في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة وأولى مايرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه[2] » وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل . وقد قالت عائشة

---

(١) حديث ابن عمر وحديث جندب « لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن .. الحديث » تقدما في العلم

الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة

(٢) حديث « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذي

رضى الله تعالى عنها ـ لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا ـ « إن هذا ماقرأ القرآن ولا سكت » وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن يختم القرآن فى كل سبع [1] وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يختمون القرآن فى كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهم . ففى الختم أربع درجات : الختم فى يوم وليلة وقد كرهه جماعة والختم فى كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا ـ وكأنه مبالغة فى الاقتصار كما أن الأول مبالغة فى الاستكثار ـ وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما فى الأسبوع مرة والثانية فى الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث . والأحب أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ، ويجعل ختمه بالنهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمته . فإن الملائكة عليهم السلام تصلى عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسى فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار . والتفصيل فى مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغى أن ينقص عن ختمتين فى الأسبوع . وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المستغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر فى الأسبوع على مرة . وإن كان نافذ الفكر فى معانى القرآن فقد يكتفى فى الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل (الثالث) فى وجه القسمة : أما من ختم فى الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزابا [2] فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطه إلى طسم، موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساما لاعلى هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثانى خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق إلى آخره . فهكذا حزبه الصحابة رضى الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك . وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فما سوى هذا محدث (الرابع) فى الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه . وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء . وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون جردوا القرآن . والظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدى إلى إحداث زيادات وحسما للباب وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغييرا . وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على مايحصل به مزيد معرفة فلا بأس به . ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محدث حسن كما قيل فى إقامة الجماعات فى التراويح إنها من محدثات عمر رضى الله عنه وأنها بدعة حسنة . إنما البدعة المذمومة مايصادم السنة القديمة أو يكاد يفضى إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول . أقرأ من المصحف فى المنقوط ولا أنقطه بنفسى وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجردا فى المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا

---

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يختم القرآن فى كل أسبوع » متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث « تحزيب القرآن على سبعة أجزاء » أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة فى حديث فيه « طرأ على حزبى من القرآن » قال أوس فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل . وفى رواية للطبرانى فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزئ القرآن ؟ فقالوا . كان يجزئه ثلاثا . فذكره مرفوعا وإسناده حسن

لابأس به فإنه نور له . ثم أحدثوا بعده نقطا كبارا عند منتهى الآى فقالوا : لابأس به يعرف به رأس الآية . ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح . قال أبو بكر الهذلى سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال: وما تنقيطها ؟ قلت : يعربون الكلمة بالعربية قال : أما إعراب القرآن فلا بأس به وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ فى مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل : إنّ الحجاج هو الذى أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدّوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءا وإلى أقسام أخر .(الخامس) الترتيل : هو المستحب فى هيئة القرآن لأنا سنبين أنّ المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه . ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا [(١)] وقال ابن عباس رضى الله عنه : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن هدرمة . وقال أيضا: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا . وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى الصلاة فكان قيامهما واحدا إلا أنّ أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال . هما فى الأجر سواء . واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرّد التدبر فإن العجمى الذى لا يفهم معنى القرآن يستحب له فى القراءة أيضا الترتيل والتؤدة لأنّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا فى القلب من الهذرمة والاستعجال (السادس) البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن [(٣)] » وقال صالح المرّى : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى ياصالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان ؛ فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم « إنّ القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا [(٤)] » ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى . فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب . (السابع) أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالى ، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفى القرآن أربع عشرة سجدة . وفى الحج سجدتان وليس فى ص سجدة وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو فى سجوده بما يليق بالآية التى قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ﴿ خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ فيقول « اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك » وإذا قرأ قوله تعالى ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ فيقول « اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك ، وكذلك كل سجدة ، ويشترط فى هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث . ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد ، وقد قيل فى كمالها أنه يكبر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم . وزاد زائدون

---

(١) حديث « نعتت أم سلمة قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح

(٢) حديث « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » أخرجه ابن ماجه من حديث سعد ابن أبى وقاص بإسناد جيد

(٣) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة

(٤) حديث « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

التشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر فى السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وماعدا ذلك ففيه بعد . ثم المأموم ينبغى أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموما (الثامن) أن يقول فى مبتدإ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وليقرأ : قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من القراءة : صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحى القيوم . وفى أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجو سأل وإن مر بمخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح [١] ، فإذا فرغ قال ما كان يقول صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن « اللهم ارحمنى بالقرآن واجعله لى إماما ونورا وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين [٢] » (التاسع) فى الجهر بالقراءة : ولا شك فى أنه لابدّ أن يجهر به إلى حدّ يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولابدّ من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته . فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر . ويدل على استحباب الإسرار ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفى لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة [٣] » وفى الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفا [٤] » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى [٥] » وفى الخبر « لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء [٦] » وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة فى صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلى فمره أن يخفض صوته ، فقال الغلام : إنّ المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : ياأيها المصلى إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون فى صلاة الليل فصوّب ذلك [٧] وقد قال صلى الله

---

(١) حديث حذيفة « كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ (٢) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمنى بالقرآن واجعله لى إماما وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين » رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجانى فى فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك فى الشمائل كلاهما من طريق أبى ذر الهروى من رواية داود بن قيس معضلا (٣) حديث « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » قال وفى لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثانى (٤) حديث « يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة (٥) حديث « خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبى وقاص (٦) حديث « لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء » رواه أبو داود من حديث البياضى دون قوله « بين المغرب والعشاء » والبيهقى فى الشعب من حديث على « قبل العشاء وبعدها » وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف (٧) حديث « أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك » فى الصحيحين من حديث عائشة « أن رجلا قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلانا ... الحديث » ومن حديث أبى موسى قال =

عليه وسلم « إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته [١] » ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم مختلفى الأحوال فمر على أبى بكر رضى الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال : إن الذى أناجيه هو يسمعنى . ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال : أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان . ومر على بلال وهو يقرأ آيا من هذه السورة وآيا من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب . فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب [٢] . فالوجه فى الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن فى الجهر مايشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولأنه يطرد النوم فى رفع الصوت ولأنه يزيد فى نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة « فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل . وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم فإن كان فى العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور . ولهذا نقول قراءة القرآن فى المصاحف أفضل إذ يزيد فى العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه . وقد قيل الختمة فى المصحف بسبع لأن النظر فى المصحف أيضاً عبادة . وخرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون فى المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف . ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه فى السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى : شغلكم الفكر عن القرآن إنى لأصلى العتمة وأضع المصحف بين يدى فما أطبقه حتى أصبح (العاشر) تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم [٣] » وقال عليه السلام « ماأذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم : ماحبسك قالت : يارسول الله كنت أستمع قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله [٥] » واستمع صلى الله عليه وسلم أيضاً ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فوقفوا طويلا ثم قال

= « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتنى وأنا أسمع قراءتك البارحة . الحديث » ومن حديث أيضاً « إنما أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن .. الحديث »

(١) حديث « إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته » رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسى فى المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع .

(٢) حديث « مروره صلى الله عليه وسلم بأبى بكر وهو يخافت وبعمر وهو يجهر وببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة .. الحديث » تقدم فى الصلاة (٣) حديث « زينوا القرآن بأصواتكم » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب (٤) حديث « ماأذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « ما أذن الله لشيء ماأذن لنبي يتغنى بالقرآن » زاد مسلم « لنبي حسن الصوت » وفى رواية له « كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن » .

(٥) حديث « كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ماحبسك قالت يارسول الله كنت أسمع قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله » أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات .

صلى الله عليه وسلم « من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد[١] » وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على فقال يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أحب أن أسمعه من غيرى فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان[٢] » واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبى موسى فقال « لقد أوتى هذا من مزامير آل داود » فبلغ ذلك أباموسى فقال : يارسول الله لوعلمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا[٣] ورأى هيثم القارئ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام قال : فقال لى أنت الهيثم الذى تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا . وفى الخبر . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن وقد كان عمر يقول لأبى موسى رضى الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال ياأمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا فى صلاة ؟ إشارة إلى قوله عزوجل ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع إلى آية من كتاب الله عزوجل كانت له نورا يوم القيامة[٤] » وفى الخبر : كتب له عشر حسنات . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالى هو السبب فيه كان شريكا فى الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع .

الباب الثالث : فى أعمال الباطن فى التلاوة وهى عشرة

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلى عن موانع الفهم . ثم التخصيص . ثم التأثر . ثم الترقى . ثم التبرى . (فالأول) فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه . فلينظر كيف لطف بخلقه فى إيصال معانى كلامه الذى هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه ؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة فى طى حروف وأصوات هى صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى مابينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره . ولولا تثبيت الله عزوجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكا . ولايمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق . ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ماأطاقوه حتى يأتى إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله بإذن الله عزوجل ورحمته لابقوته وطاقته ولكن الله عزوجل طوقه ذلك واستعمله به ، ولقد تأنق بعض الحكماء فى التعبير عن وجه اللطف فى إيصال معانى الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلا لم يقصر فيه ؛ وذلك أنه دعا

---

(١) حديث « استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » أخرجه أحمد والنسائى فى الكبرى من حديث عمر والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود « أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن .. الحديث » قال الترمذى حسن صحيح (٢) حديث « أنه قال لابن مسعود : اقرأ فقال يارسول الله أقرأ وعليك أنزل فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « استمع إلى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا من مزامير آل داود » متفق عليه من حديث أبى موسى . (٤) حديث « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة » وفى الخبر « كتب له عشر حسنات » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة « من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » وفيه ضعف وانقطاع .

بعض الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه ؛ فقال الملك : أرأيت ما تأتى به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطيق الناس حمله ؟ فقال الحكيم : إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع نظمه ، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكى يطيقوا حملها . وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته . فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذى سمعت به الدواب من الناس . ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الصفات من أن شرف الكلام أى الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها ، فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة للصوت نفسا وروحا . فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التى فيها . والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل . وهو القاضى العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهى . ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس العزيزة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الزهرة التى قد يهتدى بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الخزائن النفيسة وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذى من سقى منه لم يسقم . فهذا الذى ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغى أن يقتصر عليه . (الثانى) التعظيم للمتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن يحضر فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن فى تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال (لا يمسه إلا المطهرون) وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير . وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب . ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبى جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول : هو كلام ربى هو كلام ربى ؟ فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر فى صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بباله العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله ، وأنه الذى يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى وهذا غاية العظمة والتعالى . فبالتفكر فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام (الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل فى تفسير (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أى بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره ، وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشىء ؟ فقال أو شىء أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسى ! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم للكلام الذى يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه . ففى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر فى غيره وهو فى متنزه ومتفرج

والذى يتفرج فى المتنزهات لا يتفكر فى غيرها ؟ فقد قيل إن فى القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات فالميمات ميادين القرآن والراءات بساتين القرآن والحاءات مقاصيره والمسبحات عرائس القرآن والحاميمات ديابيج القرآن والمفصل رياضه والخانات ماسوى ذلك فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه فى الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره .

(الرابع) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر فى غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره . والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سن لأن الترتيل فيه الترتيل فى الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال على رضى الله عنه : لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام . فإنه لو بقى فى تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئا مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكذلك إن كان فى تسبيح الركوع وهو متفكر فى آية قرأها إمامه فهذا وسواس . فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يعترينى فى الصلاة ، فقيل : فى أمر الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف فى الأسنة أحب إلى من ذلك ، ولكن يشتغل قلبى بموقفى بين يدى ربى عز وجل . وأنى كيف انصرف ، فعدّ ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم دينى ولكن يمنعه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك للحسن قال إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا . ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة [1] » وإنما رددها صلى الله عليه وسلم لتدبره فى معانيها . وعن أبى ذر قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهى (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم [2]) الآية » وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الآية . وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقال بعضهم : إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لا أعدّ لها ثوابا ، وحكى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال : إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى فى كل جمعة ختمة وفى كل شهر ختمة وفى كل سنة ختمة ولى ختمه منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد . وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه . وكان هذا أيضا يقول : أقمت نفسى مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة .

(الخامس) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل . وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام . وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) وكقوله تعالى (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان

(١) حديث « أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة » رواه أبو ذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث أبى ذر « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة بآية يرددها وهى (إن تعذبهم فإنهم عبادك) » أخرجه النسائى وابن ماجه بسند صحيح

مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين : وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبدا فهما فى كتابه فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم [1] وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته . فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه فى كل شىء إذ كل شىء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق . ومن لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه . ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل وأن كل شىء هالك إلا وجهه ، لا أنه سيبطل فى ثانى الحال ؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض ، وهذا مبدأ من مبادى علم المكاشفة : ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عز وجل ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ـ أفرأيتم ما تمنون ـ أفرأيتم الماء الذى تشربون ـ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم . فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئا . وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين ؛ كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية : وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه ، فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ ولذلك قال على رضى الله عنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما فى القرآن ولو فى أدنى الدرجات دخل فى قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا

---

(١) حديث على « ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه » أخرجه النسائى من رواية أبى جحيفة قال « سألنا عليا فقلنا هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدا فهما فى كتابه .. الحديث » وهو عند البخارى بلفظ « هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس فى القرآن » وفى رواية « وقال مرة ما ليس عند الناس » ولأبى داود والنسائى « فقلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس ؟ قال : لا إلا ما فى كتابى هذا ... الحديث » ولم يذكر « الفهم فى القرآن »

خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ والطابع هى الموانع التى سنذكرها فى موانع الفهم . وقد قيل : لايكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل مايريد ويعرف منه النقصان من المزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد (السادس) التخلى عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت »(١) ، ومعانى القرآن من جملة الملكوت وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت . وحجب الفهم أربعة ؛ أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعانى ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس . ثانيها ؛ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ، ويرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم . فأما العلم الحقيقى الذى هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب ؟ وهذا التقليد قد يكون باطلا فيكون مانعاً كمن يعتقد فى الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلا فى القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك فى نفسه . . ولو استقر فى نفسه لانجر إلى كشف ثان وثالث ولتواصل . ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل . وقد يكون حقا ويكون أيضاً مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن ـ كما ذكرناه فى الفرق بين العلم الظاهر والباطن فى كتاب قواعد العقائد ـ ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه ، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون . وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه . فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدإ ومعانى القرآن مثل الصور التى تتراءى فى المرآة . والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرموا بركة الوحى »(٢) ، قال الفضيل : يعنى حرموا فهم القرآن . وقد شرط الله عز وجل الإنابة فى الفهم والتذكير فقال تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وقال عز وجل (وما يتذكر إلا من ينيب) وقال تعالى (إنما يتذكر أولو الألباب) فالذى آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة

---

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت » تقدم فى الصلاة

(٢) حديث « إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحى » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأمر بالمعروف معضلا من حديث الفضل بن عياض قال . ذكر عن نبى الله صلى الله عليه وسلم

فليس من ذوى الألباب ولذلك لاتنكشف له أسرار الكتاب . رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لامعنى لكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . وسنبين معنى التفسير بالرأى فى الباب الرابع وأن ذلك لايناقض قول على رضى الله عنه إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه (السابع) التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه مايحتاج إليه فما من قصة فى القرآن إلا وسياقها لفائدة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وأمته . ولذلك قال تعالى ﴿ مانثبت به فؤادك ﴾ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم فى الدين لانتظار نصر الله تعالى . وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ماأنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلاتعقلون وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارئ الواحد مقصود فماله ولسائر الناس فليقدّر أنه المقصود قال الله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) قال محمد بن كعب القرظى : من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله . وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هــــذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده نتدبرها فى الصلوات ونقف عليها فى الخلوات وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات . وكان مالك بن دينار يقول : مازرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ (الثامن) التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلهـــا كقوله عز وجل (وإنى لغفار) ثم أتبع ذلك بأربعة شروط (لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا فقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن . ولذلك قال الحسن: والله ماأصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد نظرنا فى هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب ولا أشدّ استجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من

الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته . وعند ذكر الكفار مايستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولدا وصاحبة يغض صوته وينكسر فى باطنه حياء قبح مقالتهم . وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها . وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على »[1] قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لى : حسبك الآن » وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية . ولقد كان فى الخائفين من خر مغشيا عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات فى سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيا فى كلامه . فإذا قال ﴿ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) ولم يكن خائفا كان حاكيا . وإذا قال (عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيا . وإذا قال (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه فى قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) وفى قوله تعالى (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وفى قوله عز وجل (وهم فى غفلة معرضون) وفى قوله (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) وفى قوله تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلا فى معنى قوله عز وجل (ومنهم أميون لايعلمونَ الكتاب إلا أمانى) يعنى التلاوة المجردة وقوله عز وجل (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات فى السموات والأرض ، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفا بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تتب إلى . ومثال العاصى إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك فى كل يوم مرات وقد كتب إليه فى عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت . ولذلك قال يوسف بن أسباط : إنى لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فاعدل إلى التسبيح والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل (فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس مايشترون) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرءونه - وفى بعضها - فإذا اختلفتم فقوموا عنه »[2] قال الله تعالى (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى »[3] ، وقال صلى الله عليه وسلم «لايسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل »[4] » يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ؛ وإلا فالمؤنة فى تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لى ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرنى وقال جعلت القرآن على عملا اذهب فاقرأ على الله عز وجل . فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . وبهذا كان شغل

(١) حديث « أنه قال لابن مسعود اقرأ على . - الحديث » تقدم فى الباب قبله (٢) حديث « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرءونه - وفى بعضها - فاذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه من حديث جندب ابن عبد الله البجلى فى اللفظ الثانى دون قوله « ولانت جلودكم » (٣) حديث « إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف (٤) حديث « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى » رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقى فى كتاب فضائل القرآن

الصحابة رضى الله عنهم فى الأحوال والأعمال . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف فى اثنين منهم . وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين . وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم [1] ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [2] » قال : يكفى هذا وانصرف . فقال صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزيز مثل تلك الحالة التى منّ الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى . بل التالى باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإنّ له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وبقوله عز وجل (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر فى الأمر يقال إنه نسى الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعانى وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ . (التاسع) الترقى : وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه « فدرجات القراءة ثلاث ، أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال . الثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم . الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم وفى الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره . وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكنهم لا يبصرون . وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلما سرى عنه قيل له فى ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم

---

(١) حديث « مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة ـ اختلف فى اثنين منهم ـ وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم » قلت : قوله « مات عن عشرين ألفا » لعله أراد بالمدينة، وإلا فقد روينا عن أبى زرعة الرازى أنه قال : قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى . وأما من حفظ القرآن فى عهده ففى الصحيحين من حديث أنس قال « جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة ـ كلهم من الأنصار ـ أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد وأبو زيد » قلت : ومن أبو زيد ؟ قال . أحد عمومتى » وزاد ابن أبى شيبة كالمصنف من رواية الشعبى مرسلا وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو « استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب » وروى ابن الأنبارى بسنده إلى عمر قال « كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها .. الحديث » وسنده ضعيف وللترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال ما معك يا فلان ؟ قال معى كذا وكذا ، وسورة البقرة فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأنت أميرهم ... الحديث » (٢) حديث « الرجل الذى جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فقال يكفى هذا وانصرف ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرئنى يا رسول الله ... الحديث » وفيه « فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها أبدا ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أفلح الرويجل أفلح الرويجل » ولأحمد والنسائى فى الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال « حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها » .

بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته ، ففى مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه . وقال عثمان وحذيفة رضى الله عنهما : لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم فى الكلام . ولذلك قال ثابت البنانى : كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون العبد ممتثلا لقوله عز وجل ﴿ ففروا إلى الله ﴾ ولقوله ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ فمن لم يره فى كل شىء فقد رأى غيره وكل ماالتفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفى ، بل التوحيد الخالص أن لا يرى فى كل شىء إلا الله عز وجل . (العاشر) التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية . فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا . ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : اللهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى ، فقيل له : هذا الظلم فما بال الكفر ؟ فتلا قوله عزوجل (إن الإنسان لظلوم كفار) وقيل ليوسف ابن أسباط : إذا قرأت القرآن بماذا تدعو ، فقال : بماذا أدعو أستغفر الله عزوجل من تقصيرى سبعين مرة. فإذا رأى نفسه بصورة التقصير فى القراءة كان رؤيته سبب قربه . فإن من شهد البعد فى القرب لطف به فى الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى فى القرب وراءها . ومن شهد القرب فى البعد مكر به بالأمن الذى يفضيه إلى درجة أخرى فى البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا صار محجوبا بنفسه ، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى فى قراءته كشف له سر الملكوت . قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له : وعدتنى أنك تفطر عندى فأخلفت فقال لولا ميعادى معك ما أخبرتك الذى حبسنى عنك ! إنى لما صليت العتمة قلت . أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن مايحدث من الموت فلما كنت فى الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فمازلت أنظر إليها حتى أصبحت . وهذه المكاشفات لاتكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها . وذلك لأن كلام الله عزوجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب فى اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها ؛ إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبالى وكلام حنان متعطف لا يهمل .

الباب الرابع : فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

لعلك تقول : عظمت الأمر فيما سبق فى فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه

فكيف يستحب ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار [١] » ؟ وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف فى تأويل كلمات فى القرآن على خلاف مانقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فإنّ صح ماقاله أهل التفسير فمامعنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرآن إلا ماترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب فى الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطئ فى الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التى هى حده ومحطه بل الأخبار والآثار تدل على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم [٢] قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا [٣] » ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير . فمامعنى الظهر والبطن والحد والمطلع ؟ وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فمامعناه وتفسير ظاهرها فى غاية الاقتصار ؟ وقال أبو الدرداء . لايفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها . وقدقال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ومابقى من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم إذ كل كلمة علم . ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع . وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة [٤] » لايكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لايحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن . وذلك لايحصل بمجرد تفسير الظاهر . وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته : وهذه العلوم لانهاية لها ، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها . والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرآن . ومجرد ظاهر التفسير لايشير إلى ذلك ، بل كل ماأشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها . فكيف يفى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث على كرم الله وجهه « والذى بعثنى بالحق نبيا ليفترقن أمتى عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتى بعدكم وحكم مابينكم ، من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله عز وجل وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لايعوج فيقوم ولايزيغ فيستقيم ولاتنقضى عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد [٦] »

الباب الرابع : فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

(١) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » تقدم فى الباب الثالث من العلم (٢) حديث « الأخبار والآثار الدالة على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم » تقدم قول على فى الباب « الا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه » .
(٣) حديث « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث « تكرير النبى صلى الله عليه وسلم البسملة عشرين مرة » تقدم فى الباب قبله .
(٥) حديث « اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف وأبو يعلى الموصلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بلفظ « أعربوا » وسنده ضعيف (٦) حديث على « والذى بعثنى بالحق لتفترقن أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعو إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من كان قبلكم ... الحديث » بطوله هو عند الترمذى دون ذكر افتراق الامة بلفظ « ألا إنها ستكون فتنة مضلة فقلت ما المخرج منها يارسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم » فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول

الحديث وفى حديث حذيفة « لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يارسول الله فماذا تأمرنى إن أدركت ذلك ؟ فقال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثا ، فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا . تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة [1] » وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا﴾ يعنى الفهم فى القرآن . وقال عز وجل ﴿ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾ سمى ما آتاهما علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدما على الحكم والعلم . فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه » ونهيه عنه [2] صلى الله عليه وسلم وقول أبى بكر رضى الله عنه أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن برأيى ؟ إلى غير ذلك مما ورد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم . أو المراد به أمراً آخر « وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدها) انه يشترط أن يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسندا إليه وذلك مما لا يصادف إلا فى بعض القرآن . فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم . (والثانى) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ، ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقى » فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه ، حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل : إن « الر » هى حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك . والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعا ؟ (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم « دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل [3] » فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك ؟ (والرابع) أنه قال عز وجل (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأثبت لأهل العلم استنباطا ، ومعلوم أنه وراء السماع . وجملة ما نقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع فى التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القران بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهى فإنه ينزل على أحد وجهين ، أحدهما : أن يكون له فى الشىء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم انه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه . وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى

(١) حديث حذيفه فى الاختلاف والفرقة بعده « فقلت ماتأمرنى إن أدركت ذلك ؟ قال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وفيه « تعلم كتاب الله واتبع ما فيه — ثلاث مرات — »

(٢) حديث « النهى عن تفسير القرآن بالرأى » غريب . (٣) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » تقدم فى الباب الثانى من العلم .

يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم «تسحروا فإن فى السحور بركة[1]» ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل ، وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ويشير إلى قلبه ويومى إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .. ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى . والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير . فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى . فالنقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا . ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر . ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب . أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك . فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لابد منها للفهم . وما لابد فيه من السماع فنون كثيرة : منها الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله تعالى ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم . وقوله تعالى ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾ أى حب العجل ، فحذف الحب وقوله عز وجل ﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى فحذف العذاب ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز فى فصيح اللغة . وقوله تعالى (واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) أى أهل العير فالأهل فيهما محذوف مضمر . وقوله عز وجل (ثقلت فى السموات والأرض) معناه خفيت على أهل السموات والأرض والشىء إذا خفى ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم (فى) مقام (على) وأضمر الأهل وحذف . وقوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى شكر رزقكم وقوله عز وجل (آتنا ما وعدتنا على رسلك) أى على ألسنة رسلك فحذف ألسنة وقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أراد القرآن وما سبق له ذكر . وقال عز وجل (حتى توارت بالحجاب) أراد الشمس وما سبق لها ذكر . وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى يقولون ما نعبدهم وقوله عز وجل (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) معناه لا يفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فإن لم يرد هذا كان مناقضا لقوله (قل كل من عند الله) وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية . ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى (وطور سينين) أى طور

---

(١) حديث « تسحروا فإن فى السحور بركة » تقدم فى الباب الثالث من العلم .

سيناء (سلام على آل ياسين) أى على الياس وقيل إدريس ، لأن فى حرف ابن مسعود ﴿ سلام على إدراسين ﴾ ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام فى الظاهر كقوله عز وجل ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ وقوله عز وجل ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مظنة الغلط كقوله عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولاه لكان نصبا كاللزام وقوله تعالى ﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾ أى يسألونك عنها كأنك حفى بها وقوله عز وجل (لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق (قل الانفال لله والرسول - كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) أى فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل (حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه) الآية . ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف . أما الكلمة فكالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال الله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء) أى الأمر بالعدل والاستقامة وقوله عز وجل (فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء) أراد به من صفات الربوبية ، وهو العلوم التى لا يحل السؤال عنها حتى يبتدئ بها العارف فى أوان الاستحقاق . وقوله عزوجل (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) أى من غير خالق فربما توهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء . وأما القرين فكقوله عز وجل ﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار ﴾ أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان) أراد به الشيطان . وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه ، الأمة : الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وأتباع الأنبياء كقولك عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى (إن ابراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ والأمة : الدين كقوله عزوجل (إنا وجدنا آباءنا على أمة) والأمة : الحين والزمان كقوله عز وجل ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وقوله عزوجل (وادّكر بعد أمة) والأمة : القامة يقال فلان حسن الأمة أى القامة ، وأمة : رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم « يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده [1] » والأمة يقال هذه أمة زيد أى أم زيد . والروح أيضا ورد فى القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها . وكذلك قد يقع الإبهام فى الحروف مثل قوله عز وجل (فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا) فالهاء الأولى : كناية عن الحوافر وهى الموريات أى أثرن بالحوافر نقعا والثانية : كناية عن الإغارة وهى المغيرات صبحا فوسطن به جمعا جمع المشركين فأغاروا بجمعهم وقوله تعالى (فأنزلنا به الماء) يعنى السحاب ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ يعنى الماء . وأمثال هذا فى القرآن لا ينحصر . ومنها التدريج فى البيان كقوله عز وجل ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار ، وبان بقوله عز وجل (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وربما يظن فى الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات ، فهذا وأمثاله مما لا يغنى فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير ، ليكون ذلك مفحما لهم ومعجزا فى حقهم . فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه . مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه اليه فاذا سمعه فى موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور

(١) حديث « يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » أخرجه النسائى فى الكبرى من حديث زيد بن حارثة وأسماء بنت أبى بكر بإسنادين جيدين

معناه وترك تتبع النقل فى كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منهيا عنه دون التفهم لأسرار المعانى ـ كما سبق ـ فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ . ولا يكفى ذلك فى فهم حقائق المعانى . ويدرك الفرق بين حقائق المعانى وظاهر التفسير بمثال : وهو أن الله عز وجل قال ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض . فإنه إثبات للرمى ونفى له . وهما متضادان فى الظاهر مالم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذى لم يرم رماه الله عز وجل . وكذلك قال تعالى ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب ؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال ؟ فحقيقة هذا يستمدّ من بحر عظيم من علوم المكاشفات لايغنى عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة . ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف ـ بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة ـ صدق قوله عز وجل ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ولعل العمر لو أنفق فى استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك . وإنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل واحد حدّ فى الترقى إلى درجة أعلى منه . فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لانهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل . فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق فى الفهم بعد الاشتراك فى معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لايغنى عنه . ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم فى سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [1] » أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب فى السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض ؛ فإنّ الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال « أعوذ بك منك » ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله « لاأحصى ثناء عليك » ثم علم أنّ ذلك قصور فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » فهذه خواطر تفتتح لأرباب القلوب . ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به . وأسرار ذلك كثيرة : ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعانى الباطنة لاما يناقض الظاهر والله أعلم . تم كتاب : آداب التلاوة . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأذكار والدعوات . والله المستعان لارب سواه .

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذى جازى عباده عن ذكرهم بذكرهم فقال تعالى (فاذكرونى أذكركم)

---

(١) حديث « قوله صلى الله عليه وسلم فى سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .

ورغبهم فى السؤال والدعاء بأمره فقال (ادعونى أستجب لكم) فأطمع المطيع والعاصى والدانى والقاصى فى الانبساط إلى حضرة جلاله برفع الحاجات والأمانى بقوله (فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) والصلاة على محمد سيد أنبيائه وعلى آله وأصحابه خيرة أصفيائه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى . فلابد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل فى أعيان الأذكار . وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها . ويتحرر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة (الباب الأول) فى فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا (الباب الثانى) فى فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الباب الثالث) فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها (الباب الرابع) فى أدعية منتخبة محذوفة الإسناد من الأدعية المأثورة (الباب الخامس) فى الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

الباب الأول : فى فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والاخبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات : قوله سبحانه وتعالى (فاذكرونى أذكركم) قال ثابت البنانى رحمه الله : إنى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ، ففزعوا منه وقالوا : كيف تعلم ذلك ؟ فقال: إذا ذكرته ذكرنى . وقال تعالى (اذكروا الله ذكرا كثيرا) وقال تعالى (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) وقال عز وجل (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقال تعالى (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى بالليل والنهار فى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية . وقال تعالى فى ذم المنافقين (ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال عز وجل (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى (ولذكر الله أكبر) قال ابن عباس رضى الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه . إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة فى وسط الهشيم [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم

كتاب الأذكار والدعوات

الباب الأول : فى فضيلة الذكر

(١) حديث « ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال « فى وسط الشجر » الحديث . (٢) حديث « يقول الله تعالى أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » أخرجه البيهقى وابن حبان من حديث أبى هريرة والحاكم من حديث أبى الدرداء وقال صحيح الإسناد

تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع [١] فقال صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل [٢] » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « لذكر الله عز وجل بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحا [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وإذا مشى إلى هرولت إليه [٦] » يعنى بالهرولة سرعة الإجابة . وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله عزوجل فى ظله يوم لاظل إلا ظله ـ من جملتهم ـ رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله [٧] » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا وماذاك يارسول الله ؟ قال ذكر الله عزوجل دائما [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عزوجل من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين [٩] » وأما الآثار : فقد قال الفضيل : بلغنا أن الله عزوجل قال عبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك مابينهما . وقال بعض العلماء : إن الله عزوجل يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال الحسن الذكر ذكران ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ماحرم الله عز وجل . ويروى « إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحسر أهل الجنة على شىء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

---

(١) حديث « ماعمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد فى سبيل الله الا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ـ ثلاث مرات » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بإسناد حسن (٢) حديث « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذى بلفظ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم (٣) حديث « سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » أخرجه ابن حبان والطبرانى فى الدعاء والبيهقى فى الشعب من حديث معاذ

(٤) حديث « أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة » أخرجه أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من حديث أنس « من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة » وفيه من لايعرف (٥) حديث « لذكر الله بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحا » رويناه من حديث أنس بسند ضعيف فى الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر فى التمهيد .

(٦) حديث « قال الله عزوجل إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٧) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله ـ من جملتهم ـ رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » متفق عليه من حديث أبى هريرة أيضاً (٨) حديث « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ... الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وابن ماجه وصحح إسناده من حديث أبي الدرداء (٩) حديث « قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أخرجه البخارى فى التاريخ والبزار فى المسند والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبى الصفا ذكره ابن حبان فى الضعفاء وفى الثقات أيضاً

فضيـــلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماجلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لايريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات [٢] » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « ماقعد قوم مقعداً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة [٣] » وقال داود صلى الله عليه وسلم: إلهى إذا رأيتنى أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلى دونهم فإنها نعمة تنعم بها على . وقال صلى الله عليه وسلم « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء [٤] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التى يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم . وقال سفيان بن عيينة رحمه الله إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا : ألا ترين مايصنعون ؟ فتقول الدنيا : دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه دخل السوق وقال : أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد ؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثا ، فقالوا : يا أبا هريرة مارأينا ميراثا يقسم فى المسجد ؟ قال : فماذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوما يذكرون الله عز وجل ويقرءون القرآن ، قال . فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء فيقول الله تبارك وتعالى . أى شىء تركتم عبادى يصنعونه فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأونى فيقولون لافيقول جل جلاله كيف لو رأونى فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميدا وتمجيدا . فيقول لهم من أى شىء يتعوذون فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفورا فيقول الله عز وجل وأى شىء يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول تعالى فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً . فيقول جل جلاله إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لايشقى جليسهم [٦] » .

---

(١) حديث « ماجلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لايريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى بسند ضعيف من حديث أنس

(٣) حديث « ماقعد قوم مقعدا لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء » ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد له إسنادا

(٥) حديث أبى هريرة « أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع

(٦) حديث الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو أبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم « أنه قال إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس ... الحديث » رواه الترمذى من هذا الوجه والحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وحده وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم

فضيـــلة التهليـــل

قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له [١] »وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم كأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً لأبى هريرة « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامه إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لاتوضع فى ميزان ، لأنها لو وضعت فى ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع ومافيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم (لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له ذلك [٦]) وقال صلى الله عليه وسلم (ياأبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدما ، قلت يارسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء قال صلى الله عليه وسلم : هى أهدم وأهدم [٧]) وقال صلى الله عليه وسلم (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة [٨]) وقال صلى الله عليه وسلم (لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله فقيل يا رسول الله من الذى يأبى ويشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله [٩]) فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن

---

(١) حديث « أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ... الحديث » تقدم فى الباب الثانى من الحج

(٢) حديث « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير مائة مرة . . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث « مامن عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله . . الحديث » أخرجه من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم فى الطهارة .

(٤) حديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى النشور .. الحديث » أخرجه أبو يعلى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٥) حديث « ياأبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لاتوضع فى ميزان ؛ لأنها لو وضعت فى ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع ومافيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك » قلت وصية أبى هريرة هذه موضوعة . وآخر الحديث رواه المستغفرى فى الدعوات « ولو جعلت لا إله إلا الله » وهو معروف من حديث أبى سعيد مرفوعا « لو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » رواه النسائى فى اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه .

(٦) حديث « لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له » غريب بهذا اللفظ . وللترمذى فى حديث لأنس « يقول الله يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث أنس « يارب ماجزاء من هلل مخلصا من قلبه قال جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب » وفيه انقطاع .

(٧) حديث « ياأبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق ابن المقرى من حديث أبى هريرة وفيه موسى ابن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى المحتضرين من حديث الحسن مرسلا

(٨) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » أخرجه الطبرانى من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف

(٩) حديث « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله شرود البعير على أهله » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » زاد الحاكم وصححها « وشرد على الله شرود البعير على أهله » قال البخارى « قالوا يارسول الله ومن يأبى قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » ولابن عدى وأبى يعلى والطبرانى فى الدعاء من حديثه « أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها » وفيه ابن وردان أيضاً ، ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث الحكم بن عمير الثمالى مرسلا « إذا قلت لا إله إلا الله وهى كلمة =

يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وهى كلمة الإخلاص وهى كلمة التقوى وهى كلمة طيبة وهى دعوة الحق وهى العروة الوثقى وهى ثمن الجنة ، وقال الله عز وجل ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فقيل الإحسان فى الدنيا قول لا إله إلا الله وفى الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وروى البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير - عشر مرات - كانت له عدل رقبة أو قال نسمة [١] » وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال فى يوم مائتى مرة لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد بعده إلا من عمل بأفضل من عمله [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال فى سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير كتب الله له الف الف حسنة ومحا عنه الف الف سيئة وبنى له بيتا فى الجنه » ويروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئه إلى محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها [٣] » وفى الصحيح عن أيوب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسمعيل صلى الله عليه وسلم [٤] » وفى الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال اللهم اغفرلى غفر له او دعا استجيب له فإن توضا وصلى قبلت صلاته [٥] » .

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال صلى الله عليه وسلم « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو كل شىء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر [٧] » وروى « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تولت عنى الدنيا وقلت ذات

= التوحيد ... الحديث » والحكم ضعيف ، ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل من حديث ابن مسعود فى اجابة المؤذن « اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص » ولابن عدى من حديث ابن عمر فى اجابة المؤذن « دعوة الحق » وللطبرانى فى الدعاء عن عبدالله بن عمرو « كلمة الإخلاص لا اله الا الله ... الحديث » وللطبرانى من حديث سلمة بن الاكوع « وألزمهم كلمة التقوى قال : لا اله الا الله » وللطبرانى فى الدعاء عن ابن عباس « كلمة طيبة قال شهادة أن لااله الا الله » وله عنه فى قوله « دعوة الحق » قال « شهادة أن لااله الا الله » وله عنه « فقد استمسك بالعروه الوثقى » قال « لااله الا الله » ولابن عدى والمستغفرى من حديث أنس « ثمن الجنة لااله الا الله » ولا يصح شىء منها (١) حديث البراء « من قال لااله الاالله وحده لاشريك له ... الحديث » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو فى مسند أحمد دون قوله « عشر مرات » .

(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال فى كل يوم مائة مرة لااله الا الله وحده لاشريك له ... الحديث » أخرجه أحمد بلفظ « مائة » وكذا رواه الحاكم فى المستدرك وإسناده جيد وهكذا هو فى بعض نسخ الإحياء .

(٣) حديث « ان العبد اذا قال لااله الا الله أتت الى صحيفته فلا تمر على خطيئة الا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس اليها » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث أبى أيوب « من قال لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد اسمعيل » متفق عليه (٥) حديث عبادة بن الصامت « من تعار من الليل فقال لااله الا الله ... الحديث » رواه البخارى (٦) حديث « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٧) حديث « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » متفق عليه من حديث أبى هريرة

يدى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون ؟ قال : فقلت وماذا يارسول الله ؟ قال : قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة مابين طلوع الفجر إلى أن تصلى الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه [١] «وقال صلى الله عليه وسلم » إذا قال العبد الحمد لله ملأت مابين السماء والأرض فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت مابين السماء السابعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعط [٢] » وقال رفاعة الزرقى « كنا يوما نصلى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم : ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال : من المتكلم آنفا ؟ قال : أنا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا [٣] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الباقيات الصالحات هنّ لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماعلى الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر [٥] » رواه ابن عمر وروى النعمان بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده ينعطفن حول العرش لهنّ دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهنّ أو لايحب أحدكم أن لا يزال عند الله مايذكر به [٦] » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس [٧] » وفى رواية أخرى زاد « لا حول ولا قوة إلا بالله وقال هى خير من الدنيا وما فيها » وقال صلى الله عليه وسلم « أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لايضرك بأيهن بدأت [٨] » رواه سمرة بن جندب .

---

(١) حديث « أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت عن صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون .. الحديث » أخرجه المستغفرى فى الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولاأعرف له أصلا فى حديث مالك ولأحمد من حديث عبدالله بن عمرو « أن نوحا قال لابنه آمرك بلا اله الا الله ... الحديث » ثم قال « وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شىء وبها يرزق الخلق » واسناده صحيح

(٢) حديث « اذا قال العبد الحمد لله ملأت مابين السماء والأرض واذا قال الحمد لله الثانية ملأت مابين السماء السابعة الى الأرض واذا قال الحمد لله الثالثة قال الله تعالى سل تعطه » غريب بهذا اللفظ لم أجده .

(٣) حديث رفاعة الزرقى « كنا يوما نصلى وراء النبى صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه .. الحديث » رواه البخارى (٤) حديث « الباقيات الصالحات هن لا اله الا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولاحول ولاقوة الا بالله » أخرجه النسائى فى اليوم الليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد والنسائى والحاكم من حديث أبى هريرة دون قوله « ولاحول ولاقوة الا بالله » .

(٥) حديث « ماعلى الأرض رجل يقول لااله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولاحول ولاقوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة مختصرا دون قوله « سبحان الله والحمد لله » (٦) حديث النعمان بن بشير « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتحميده وتهليله وتحميده ينعطفن حول العرش له دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهن .. الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم (٧) حديث أبى هريرة « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » وزاد فى رواية « ولاحول ولا قوة إلا بالله وقال خير من الدنيا ومافيها » أخرجه مسلم باللفظ الأول والمستغفرى فى الدعوات من رواية مالك بن دينار « أن أبا أمامة قال للنبى صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا ومافيها قال أنت أغنم القوم » وهو مرسل جيد الإسناد .

(٨) حديث سمرة بن جندب « أحب الكلام إلى الله أربع .. الحديث » رواه مسلم .

وروى أبومالك الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « الطهور شطر الإيمان والحمدلله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو مشتر نفسه فمعتقها [1] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم [2] » وقال أبو ذر رضى الله عنه « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الكلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم مااصطفى الله سبحانه لملائكته : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم [3] » وقال أبوهريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى اصطفى من الكلام : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر [4] » فإذا قال العبد « سبحان الله » كتبت له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة وإذا قال « الله أكبر » فمثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة [5] » وعن أبى ذرّ رضى الله عنه أنه قال : قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ماتصدّقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليلة صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة فى فى أهله فهى له صدقة . وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يارسول الله يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك ان وضعها فى الحلال كان له فيها أجر [6] » وقال أبو ذر رضى الله عنه : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمده ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعا وثلاثين [7] » وروت بسرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس فلا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات [8] » يعنى بالشهادة فى القيامة . وقال ابن عمر : رأيته صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح [9] وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدى لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لاشريك له قال تعالى صدق عبدى لا إله إلا أنا وحدى لاشريك لى ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

---

(١) حديث أبى مالك الأشعرى « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان .. الحديث » رواه مسلم وقد تقدم فى الطهارة
(٢) حديث أبى هريرة « كلمتان خفيفتان على اللسان ... الحديث » متفق عليه (٣) حديث أبى ذر « أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه مسلم وأبو داود والنسائى « قوله سبحان الله العظيم » .
(٤) حديث « إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله .. الحديث » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الا أنهما قالا فى ثواب الحمد لله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه (٦) حديث أبى ذر « قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى .. الحديث » رواه مسلم (٧) حديث أبى ذر « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق ... الحديث » رواه ابن ماجه الا أنه قال : قال سفيان لاأدرى أيتهن أربع . ولأحمد فى هذا الحديث « وتحمد أربعا وثلاثين » واسنادها جيد ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث أبى الدرداء « وتكبر أربعا وثلاثين » كما ذكر المصنف (٨) حديث بسرة « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولاتغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم بإسناد جيد (٩) حديث ابن عمر « رأيته صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح » قلت : انما هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه والحاكم .

إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدى لاحول ولاقوة إلابى ومن قالهن عند الموت لم تمسه النار (١) ، وروى مصعب ابن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل : كيف ذلك يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة (٢) » .
وقال صلى الله عليه وسلم « ياعبد الله بن قيس ـ أو يا أبا موسى ـ أولا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قال : بلى ، قال : قل لاحول ولاقوة إلابالله (٣) » وفى رواية أخرى « ألا أعلمك كلمة من كنز تحت العرش : لاحول ولاقوة إلابالله » وقال أبوهريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لاحول ولاقوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدى واستسلم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصبح رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا رسولا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة (٥) » وفى رواية « من قال ذلك رضى الله عنه » وقال مجاهد إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت : فإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت . وإذا قال : لاحول ولاقوة إلابالله ، قال الملك : وقيت فتتفرق عنه الشياطين فيقولون ماتريدون من رجل قد هدى وكفى ووقى ؟ لاسبيل لكم إليه .

« فإن قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ فاعلم أن تحقيق هذا لايليق إلا بعلم المكاشفة . والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة : أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى . وفى الأخبار مايدل عليه أيضا (٦) وحضور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى . بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أوفى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية . وللذكر أول وآخر ؛ فأوله يوجب الأنس والحب لله وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأنس والحب . فإن المريد فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل . فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور . ولاينبغى أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد فى العادات أن تذكر غائبا غير مشاهد بين يدى شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر . ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولا صار مضطرا إلى كثرة الذكر آخرا بحيث لايصبر عنه . فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره . ومن أكثر ذكر شيء ـ وإن كان تكلفا ـ أحبه . فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا

---

(١) حديث أبى هريرة وأبى سعيد « اذا قال العبد لااله الا الله والله أكبر قال الله صدق عبدى .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائي فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وصححه (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ... الحديث » أخرجه مسلم الا أنه قال « أويحط » كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح .

(٣) حديث « ياعبد الله بن قيس ــ أو ياأبا موسى ــ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لاحول ولاقوة الابالله » متفق عليه (٤) حديث أبى هريرة « عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولاقوة الا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم « من قال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة الا بالله قال أسلم عبدى واستسلم » وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث « من قال حين يصبح رضيت بالله ربا .. الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث خادم النبى صلى الله عليه وسلم ورواه الترمذى من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر ففيه سعد بن المرزبان ضعيف جدا (٦) حديث « الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى » أخرجه الترمذى وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الإسناد من حديث أبى هريرة « واعلموا أن الله لايقبل الدعاء من قلب لاه » .

والبر مثمرا . وهذا معنى قول بعضهم . كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب . ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا . فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أوّلا ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتى لا يصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف « هي النفس ماعوّدتها تتعوّد » أي ما كلفتها أوّلا يصير لها طبعا آخرا . ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله وماسوى الله عزوجل هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل . فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات فى الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ، ولا يبقى بعد الموت عائق ؛ فكأنه خلى بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذى كان ممنوعا فيه عما به أنسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه (١) » أراد به كل مايتعلق بالدنيا فإن ذلك يفنى فى حقه بالموت ـ (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وإنما تفنى الدنيا بالموت فى حقه إلى أن تفنى فى نفسها عندبلوغ الكتاب أجله . وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل فى جوار الله عزوجل ويترقى من الذكر إلى اللقاء . وذلك بعد أن يبعثر مافى القبور ويحصل مافى الصدور ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل ؟ فإنه لم يعدم عدما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت . وإلى ماذكرناه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أوروضة من رياض الجنة (٢) » وبقوله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر (٣) » وبقوله صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين « يافلان يافلان وقد سماهم النبى صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا (٤) فسمع عمر رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ماأنتم بأسمع لكلامى منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » والحديث فى الصحيح هذا قوله عليه السلام فى المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم « أرواحهم فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش (٥) » وهذه الحالة وما أشير بهذه الالفاظ إليه لاينافى ذكر الله عز وجل وقال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب الخاتمة ونعنى بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع العلائق

---

(١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه » تقدم فى الكتاب السابع من العلم .
(٢) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد بتقديم وتأخير وقال غريب قلت فيه عبيد الله بن الوليد الوصافى ضعيف (٣) حديث « أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود « أنه سئل عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الآية قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم فى جوف طير خضر فلم يسم فيه النبى صلى الله عليه وسلم » وفى رواية الترمذى « أما إنا سألنا عن ذلك وأخبرنا » وذكر صاحب مسند الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه فى مسنده . (٤) حديث « ندائه لقتلى بدر من المشركين يافلان يافلان وقد سماهم إنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا ؟ أخرجه مسلم من حديث أنس
(٥) حديث « أرواح المؤمنين فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش » أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك « إن أرواح المؤمنين فى طير خضر تعلق بشجر الجنة » وروى النسائى بلفظ « إنما نسمة المؤمن طائر » ورواه الترمذى بلفظ « أرواح الشهداء » وقال حسن صحيح .

عن غيره . فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا فى صف القتال . فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريدها لحياته وقد هوّن على قلبه حياته فى حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك ، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل مالا يحصى . فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصارى يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر (ألا أبشرك يا جابر ! قال : بلى بشرك الله بالخير قال: إن الله عز وجل أحيا أباك فأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى : تمنّ على ياعبدى ماشئت أعطيكه فقال يارب أن تردنى إلىَ الدنيا حتى أقتل فيك وفى نبيك مرة أخرى . فقال عز وجل . سبق القضاء منى بأنهم إليها لا يرجعون[1]) ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لو لم يقتل وبقى مدة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل . ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة . فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لايخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه . فإذا تمثل فى آخر الحال فى قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا . وذلك لقلة حظه فى الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على مامات عليه . فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذ لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك[2] كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هى التى عبر عنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة . وحالة الشهيد توافق معنى قولك (لا إله إلا الله) فإنه لامقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إله فهذا الشهيد قائل بلسان حاله (لا إله إلا الله) إذ لامقصود له سواه . ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره فى مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن فى حقه الخطر . ولذلك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار[3] وذكر ذلك مطلقاً فى مواضع الترغيب . ثم ذكر فى بعض المواضع الترغيب . ثم ذكر فى بعض المواضع الصدق والإخلاص فقال مرة (من قال لا إله إلا الله مخلصاً) ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا فى الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالا ومقالا ظاهراً وباطنا حتى نودع الدنيا غير ملتفتين إليها بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فهذه مرامز إلى معانى الذكر التى لا يمكن الزيادة عليها فى علم المعاملة .

الباب الثانى : فى آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى ﴾ وقال تعالى

---

(١) حديث « ألا أبشرك ياجابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن على ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث جابر . (٢) حديث « الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك » متفق عليه من حديث أبى موسى « قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . (٣) حديث « تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث جابر .

﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال عز وجل ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وروى النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ [١] » الآية ـ وقال صلى الله عليه وسلم (الدعاء مخ العبادة [٢]) وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال (ليس شىء أكرم على الله عز وجل من الدعاء [٣]) وقال صلى الله عليه وسلم (إن العبد لايخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له [٤]) وقال أبو ذر رضى الله عنه : يكفى من الدعاء مع البر مايكفى الطعام من الملح . وقال صلى الله عليه وسلم (سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج [٥]) .

آداب الدعاء وهى عشرة

(الأول) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة . ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له [٦]) وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال (سوف أستغفر لكم ربى) ليدعو فى وقت السحر . فقيل إنه قام فى وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل إنى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء (الثانى) أن يغتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات . وقال صلى الله عليه وسلم (الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد [٧]) وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً (الصائم لاترد دعوته [٨]) وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات . ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى مافيها من أسرار لايطلع البشر عليها . وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى

الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله

(١) حديث النعمان بن بشير « إن الدعاء هو العبادة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذى حسن صحيح . (٢) حديث « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . (٣) حديث أبى هريرة « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « إن العبد لايخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له » أخرجه الديلمى فى الفردوس من حديث أنس وفيه روح . أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد والبخارى فى الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبى سعيد « إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له فى الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها » . (٥) حديث « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضعفه ابن معين وغيره .

(٦) حديث « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٧) حديث « الدعاء بين الأذان والإقامة لايرد » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والترمذى وحسنه من حديث أنس وضعفه ابن عدى وابن القطان ورواه فى اليوم والليلة بإسناد آخر جيد وابن حبان والحاكم وصححه . (٨) حديث « الصائم لاترد دعوته » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أبى هريرة بزيادة فيه .

صلى الله عليه وسلم « أقرب مايكون العبد من ربه عزوجل وهوساجد فأكثروا فيه من الدعاء [1] » وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم [2] » (الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه . وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس [3] » وقال سلمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرا [4] » وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعيه [5] » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مر على إنسان يدعو ويشير بإصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد [6] ، أي اقتصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه . ارفعوا هذه الأيدى قبل أن تغل بالأغلال . ثم ينبغى أن يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء : قال عمر رضى الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه [7] » وقال ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه [8] » فهذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم [9] » (الرابع) خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعرى قال : قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يأيها الناس إن الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم [10] ، وقالت عائشة رضى الله عنها فى قوله عزوجل ﴿ ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها [11] ﴾ أى بدعائك وقد أثنى الله عزوجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال ﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ (الخامس) أن لايتكلف السجع فى الدعاء فإن حال الداعى ينبغى أن يكون حال متضرع والتكلف لايناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء [12] » وقد قال عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه

---

(١) حديث أبي هريرة « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » رواه مسلم (٢) حديث ابن عباس « انى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أوساجدا ... الحديث » أخرجه مسلم أيضاً (٣) حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ... الحديث » أخرجه مسلم دون قوله « يدعو » فقال مكانها « واقفا » والنسائي من حديث أسامة بن زيد « كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو » ورجاله ثقات .

(٤) حديث سلمان « ان ربكم حيى كريم يستحيى من عبده اذا رفع يديه أن يردهما صفراً » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال اسناده صحيح على شرطهما (٥) حديث أنس « كان يرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه فى الدعاء ولايشير بأصبعه » أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعه . والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء (٦) حديث أبي هريرة « مر على انسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد » أخرجه النسائى وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مديديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه) أخرجه الترمذى وقال غريب والحاكم فى المستدرك وسكت عليه وهو ضعيف (٨) حديث ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم اذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه » أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند ضعيف .

(٩) حديث « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال عند الدعاء فى الصلاة (١٠) حديث أبي موسى الأشعرى « يأيها الناس ان الذى تدعون ليس بأصم ولاغائب » متفق عليه مع اختلاف ، واللفظ الذى ذكره المصنف لأبى داود (١١) حديث عائشة فى قوله تعالى ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولاتخافت بها ﴾ أى بدعائك متفق عليه . (١٢) حديث « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » وفى رواية « والطهور » أخرجه أبوداود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل

لايحب المعتدين ﴾ قيل معناه التكلف للأسجاع والأولى أن لايجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدى فى دعائه فيسأل مالا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم فى الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلايدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والسجع فى الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب إليها من قول وعمل (١) » وفى الخبر : سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والطهور . ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له : أعلى الله تبالغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيبا العجمى يدعو ومايزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدين اللهم لاتفضحنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير ، والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه ، وقال بعضهم . ادع بلسان الذلة والافتقار لابلسان الفصاحة والانطلاق . ويقال إن العلماء والأبدال لايزيدون فى الدعاء على سبع كلمات فمادونها ويشهد له آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر فى موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك . واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففى الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ماتريد (٢) » وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أوليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل (السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا ﴾ وقال عزوجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه (٣) » .

(السابع) أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شىء (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لايستجيب دعاء من قلب غافل (٦) » وقال سفيان بن عيينة : لايمنعن أحدكم من الدعاء مايعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله ﴿ إذ قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين ﴾ (الثامن) أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود :

---

(١) حديث « اياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » غريب بهذا السياق وللبخارى عن ابن عباس « وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فانى عهدت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لايفعلون الا ذلك » وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة « عليك بالكوامل » وفيه « وأسألك الجنة ... الى آخره » (٢) حديث « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود انك رحيم ودود وانك تفعل ما تريد » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته ... فذكر حديثا طويلا من جملته هذا » وقال حديث غريب انتهى . وفيه محمد بن عبدالرحمن بن أبى ليلى سيئ الحفظ (٣) حديث « اذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس « اذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا ... الحديث » وفيه « دعه فإنى أحب أن أسمع صوته » وللطبرانى من حديث أبى أمامة « ان الله يقول للملائكة انطلقوا الى عبدى فصبوا عليه البلاء ... الحديث » وفيه « فانى أحب أن أسمع صوته » وسندهما ضعيف (٤) حديث « لايقل أحدكم اللهم اغفرلى ان شئت اللهم ارحمنى ان شئت ليعزم المسألة فانه لا مكره له » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٥) حديث « اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فان الله لايتعاظمه شىء » أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة .

(٦) حديث « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد تفرد به صالح المرى وهو أحد زهاد البصرة قلت لكنه ضعيف فى الحديث .

كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا [١] » ويبنغى أن لايستبطىء الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم « يستجاب لأحدكم مالم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى فإذا دعوت فاسأل الله كثيرا فإنك تدعو كريما [٢] » وقال بعضهم : انى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابنى وأنا أرجو الإجابة سألت الله تعالى أن يوفقنى لترك مالا يعنينى . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال [٣] » . (التاسع) أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزوجل فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول : سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب [٤] » قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع مابينهما ، وروى فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سألتم الله عزوجل حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى [٥] » رواه أبو طالب المكى (العاشر) وهو الأدب الباطن وهو الأصل فى الإجابة : التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة فذلك هو السبب القريب فى الإجابة . فيروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببنى إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : إنى لاأستجيب لك ولالمن معك وفيكم نمام ، فقال موسى : يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل إليه : ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ! فقال موسى : لبنى إسرائيل : توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث . وقال سعيد بن جبير قحط الناس فى زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبنى إسرائيل : ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو فى السماء ؟ فقال أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء . وقال سفيان الثورى : بلغنى أن بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لومشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإنى لاأجيب لكم داعيا ولاأرحم لكم باكيا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فمطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار . أصاب الناس فى بنى إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعدا ، وقال أبو الصديق الناجى : خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها

---

(١) حديث ابن مسعود « كان صلى الله عليه وسلم اذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا » رواه مسلم وأصله متفق عليه .

(٢) حديث « يستجاب لأحدكم مالم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث « إذا سأل أحدكم مسألة فعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شىء فليقل الحمد لله على كل حال » أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث أبى هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا باسناد ضعيف .

(٤) حديث سلمة بن الأكوع « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه وقال سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد اليمانى ضعفه الجمهور

(٥) حديث « إذا سألتم الله حاجة فابدءوا بالصلاة على فان الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطى إحداهما ويرد الأخرى » لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبى الدرداء .

إلى السماء وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وقال الأوزاعى : خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يامعشر من حضر ألستم مقرين بالإساءه ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا قد سمعناك تقول ﴿ ماعلى المحسنين من سبيل ﴾ وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؛ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقال إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجارة . وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقى فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام : من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه فى المفازة إلا واحد ، فقال له عيسى عليه السلام : أمالك من ذنب ؟ فقال : والله ماعلمت من شيء غير أنى كنت ذات يوم أصلى فمرت بى امرأة فنظرت إليها بعينى هذه فلما جاوزتنى أدخلت أصبعى فى عينى فانتزعتها وتبعت المرأة بها . فقال له عيسى عليه السلام : فادع الله حتى أؤمن على دعائك ، قال : فدعا فتجللت السماء سحابا ثم صبت فسقوا ، وقال يحيى الغسانى : أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم : اللهم إنك أنزلت فى توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا : وقال الثانى : اللهم إنك أنزلت فى توراتك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا . وقال الثالث : اللهم إنك أنزلت فى توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا ، وقال عطاء السلمى : منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فإذا نحن بسعدون المجنون فى المقابر فنظر إلى فقال ياعطاء أهذا يوم النشور أو بعثر مافى القبور ؟ فقلت : لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فقال ياعطاء : بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية فقال : هيهات ياعطاء قل للمتبهرجين لاتتبهرجوا فإن الناقد بصير . ثم رمق السماء بطرفه وقال إلهى وسيدى ومولاى لاتهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ماسقيتنا ماء غدقا فراتا تحيى به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدونا … إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا … فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى … حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة فى عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبى فسمعته يقول إلهى أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوى الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك ياحليما ذا أناة يامن لايعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك : فجئت إلى الفضيل فقال مالى أراك كئيبا ؟ فقلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخر مغشيا عليه . ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت

الراعى لاتهمل الضالة ولاتدع الكبير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم « جاء ذات يوم والبشرى ترى فى وجهه فقال صلى الله عليه وسلم إنه جاءنى جبريل عليه السلام فقال أماترضى يامحمد أن لايصلى عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشرا ولايسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلت عليه الملائكة ماصلى على فليقلل عند ذلك أو ليكثر [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس بى أكثرهم على صلاة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيآت [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامه حلت له شفاعتى [7] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له مادام اسمى فى ذلك الكتاب [8] وقال صلى الله عليه وسلم » إن فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام [9] وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى فى وجهه فقال إنه جاءنى جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما ترضى يامحمد أن لايصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا » أخرجه النسائى وابن حبان من حديث أبى طلحة باسناد جيد (٢) حديث « من صلى على صلت عليه الملائكة ماصلى فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر » أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة باسناد ضعيف والطبرانى فى الأوسط باسناد حسن .

(٣) حديث « إن أولى الناس بى أكثرهم على صلاة » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وابن حبان

(٤) حديث « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على » أخرجه قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن على هكذا والنسائى وابن حبان من حديث أخيه الحسين « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على » ورواه الترمذى من رواية الحسين بن على عن أبيه وقال حسن صحيح . (٥) حديث « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث أوس بن أوس وذكره ابن أبى حاتم فى العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر . (٦) حديث « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه « مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات » وله فى السير ولابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله « مخلصا من قلبه » ودون ذكر : محو السيئات . ولم يذكر ابن حبان أيضا : رفع الدرجات . (٧) حديث « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى » أخرجه البخارى من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقال النداء وللمستغفرى فى الدعوات « حين يسمع الدعاء للصلاة » وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة من حديث أبى الدرداء ذكر الصلاة فيه وله والمستغفرى فى الدعوات بسند ضعيف من حديث أبى رافع « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان » فذكر حديثاً فيه « وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ... الحديث » وزاد « وتقبل شفاعته فى أمته » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على ثم سلوا الله لى الوسيلة » وفيه « فمن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . (٨) حديث « من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمى فى ذلك الكتاب » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

(٩) حديث « إن فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » تقدم فى آخر الحج .

« ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام »(١) » و « قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد(٢) » وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال عزوجل ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم ﴾ الآية بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع : لاتأكلنى فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ماجالستنا ولو لم تنكح إلا كفؤا لك مانكحت إلينا ولو لم تؤاكل إلا كفؤا لك ماواكلتنا فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم(٣) . وقال بعضهم : كنت أكتب

---

(١) حديث « ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بسند جيد
(٢) حديث « قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته . الحديث » متفق عليه من حديث أبى حميد الساعدى . (٣) حديث عمر « فى حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح وكلام الشاة المسمومة وأنه دمى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولعق أصابعه » وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى . فحديث حنين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر ، وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح ، وحديث كلام الشاة المسمومة رواه أبو داود من حديث جابر وفيه انقطاع ، وحديث أنه دمى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد فى غزوة أحد ، وحديث اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون رواه البيهقى فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبى من الأنبياء ضربه قومه ، وحديث لبس الصوف رواه الطيالسى من حديث سهل بن سعد ، وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد ، وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد فى الزهد من حديث الحسن مرسلا والبخارى من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط ، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك

الحديث وأصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : اماتتم الصلاة على فى كتابك ؟ فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه . وروى عن أبى الحسن قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يارسول الله بم جوزى الشافعى عنك حيث يقول فى كتابه الرسالة « وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » ؟ فقال صلى الله عليه وسلم جوزى عنى أنه لايوقف للحساب .

فضيلة الاستغفار

قال الله عزوجل ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ وقال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : فى كتاب الله عزوجل آيتان ماأذنب عبدذنبا فقرأهما واستغفر الله عزوجل إلا غفر الله تعالى له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ﴾ الآية وقوله عزوجل (ومن يعمل سوءا أويظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) وقال عزوجل (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وقال تعالى (والمستغفرين بالأسحار) وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر من الاستغفار جعل الله عزوجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة [٣] » هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى حتى إنى لأستغفر الله تعالى فى كل يوم مائة مرة [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لاإله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ـ أو عدد رمل عالج أو عدد ورق الشجر أوعدد أيام الدنيا ـ [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فارا من الزحف [٦] » وقال حذيفة « كنت ذرب اللسان على أهلى فقلت « يارسول الله لقد خشيت أن يدخلنى لسانى النار » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من الاستغفار ؟ فإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة [٧] » وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإنّ التوبة من الذنب الندم والاستغفار [٨] » وكان صلى الله

---

(١) حديث « كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى انك أنت التواب الرحيم » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح ان كان أبو عبيدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة « أنه كان يكثر أن يقول ذلك فى ركوعه وسجوده » دون قوله « انك أنت التواب الرحيم » .

(٢) حديث « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان .

(٣) حديث « انى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم سبعين مرة » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة الا أنه قال « أكثر من سبعين » وهو فى الدعاء للطبرانى كما ذكره المصنف (٤) حديث « انه ليغان على قلبى حتى انى لاستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » أخرجه مسلم من حديث الأغر (٥) حديث « من قال حين يأوى الى فراشه استغفر الله العظيم الذى لااله الاهو الحى القيوم وأتوب اليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب لانعرفه الا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافى . قلت الوصافى وان كان ضعيفا فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة ورواه البخارى فى التاريخ دون قوله « حين يأوى الى فراشه » وقوله « ثلاث مرات » (٦) حديث « من قال ذلك غفرت ذنوبه وان كان فارا من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب « قلت ورجاله موثقون ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث حذيفة « كنت ذرب اللسان على أهلى .. الحديث » وفيه « أين أنت من الاستغفار » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) حديث عائشة « ان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار » =

عليه وسلم يقول فى الاستغفار « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى هزلى وجدّى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدّمت وماأخرت وماأسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدّم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير [1] » وقال على رضى الله عنه : كنت رجلا إذاسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله عز وجل بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدّثنى أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف صدّقته ، قال : وحدّثنى أبو بكر وصدق أبو بكر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله عزوجل إلا غفر له ثم تلا قوله عزوجل (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) [2] الآية » وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنّ المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها فإن زاد زادت حتى تغلف قلبه [3] فذلك الران الذى ذكره الله عزوجل فى كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ الله سبحانه ليرفع الدرجة للعبد فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه فيقول عزوجل باستغفار ولدك لك [4] » وروت عائشة رضى الله عنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجعلنى من الذين إذا احسنوا استبشروا وإذا اساءوا استغفروا [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أذنب العبد ذنبا فقال اللهم اغفر لى فيقول الله عزوجل أذنب عبدى ذنبا فعلم أنّ له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب عبدى اعمل ماشئت فقد غفرت لك [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة [7] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ رجلا لم يعمل خيرا قط نظر إلى السماء فقال إن لى ربا يارب فاغفر لى فقال الله عز وجل قد غفرت لك [8] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر [9] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالى [10] » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كدب النمل [11] » وروى

= متفق عليه دون قوله « فإن التوبة .. الخ » وزاد « أو توبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » وللطبرانى فى الدعاء « فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له » (١) حديث « كان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وماأنت أعلم به منى اللهم اغفر لى جدى وهزلى » متفق عليه من حديث أبى موسى واللفظ لمسلم (٢) حديث على عن أبى بكر « مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذى (٣) حديث أبى هريرة « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه .. الحديث » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم (٤) حديث أبى هريرة « إن الله ليرفع العبد الدرجة فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه فيقول باستغفار ولدك لك » رواه أحمد بإسناد حسن . (٥) حديث عائشة « اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » أخرجه ابن ماجه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه .

(٦) حديث « إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفر لى يقول الله أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٧) حديث « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبى بكر وقال غريب وليس إسناده بالقوى . (٨) حديث « إن رجلا لم يعمل خيرا قط نظر إلى السماء فقال إن لى ربا يارب اغفر لى فقال الله تعالى قد غفرت لك » لم أقف له على أصل . (٩) حديث « من أذنب فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (١٠) حديث « يقول الله ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالى » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر وقال الترمذى حسن وأصله عند مسلم بلفظ آخر . (١١) حديث « من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كدب النمل » أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث على « أن =

« إن أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء على نفسى بذنبى فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفرلى ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت فإنه لايغفر الذنوب جميعها إلا أنت [1] » والآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى المتحابون بحبى والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله : القرآن يدلكم عن دائكم ودوائكم. أما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار وقال على كرم الله وجهه : العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل وما هى ؟ قال الاستغفار . وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه . وقال الفضيل : قول العبد « أستغفر الله » تفسيرها : أقلنى . وقال بعض العلماء : العبد بين ذنب ونعمة لايصلحهما إلا الحمد والاستغفار . وقال الربيع بن خيثم رحمه الله : لايقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ؟ ولكن ليقل: اللهم اغفرلى وتب على . وقال الفضيل رحمه الله : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين : وقالت رابعة العدوية رحمها الله : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عز وجل وهو لايعلم . وسمع أعرابى وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استغفارى مع إصرارى للؤم وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز ، فكم تتحبب إلى بالنعم مع غناك عنى وكم أتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك ! يامن إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصا إن شاء الله تعالى « اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ماوعدتك به من نفسى ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته فى ضياء النهار وسواد الليل فى ملأ أوخلاء وسر وعلانية ياحليم . ويقال إنه استغفار آدم عليه السلام وقيل الخضر عليه الصلاة والسلام .

الباب الثالث : فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر قال ابن عباس رضى الله عنهما . بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء . اللهم أعطنى إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . اللهم إنى

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولهن لوكان عليك كعدد النمل ــ أو كعدد الذر ــ ذنوبا غفرها الله لك » فذكره بزيادة « لا إله إلا أنت » فى أوله وفيه ابن لهيعة . (1) حديث « أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث شداد بن أوس دون قوله « وقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى » ودون قوله « ذنوبى ماقدمت منها وما أخرت » ودون قوله « جميعا » .

أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا كافى الأمور ويا شافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فإنى أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نحب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادى بعداوتك خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركوع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد . سبحان الذى لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى لاينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه . اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى . اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا (١) »

دعاء عائشة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قولى اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت ومالم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك ياأرحم الراحمين (٢) »

دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يافاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به ؟ أن تقولى : يا حى ياقيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله

دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر الصديق رضى الله عنه أن يقول « اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ابن عباس « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ولم يذكر فى أوله : بعث العباس لابنه عبد الله ولا نومه فى بيت ميمونة ، وهو بهذه الزيادة فى الدعاء للطبرانى.
(٢) حديث قوله لعائشة « عليك بالجوامع الكوامل قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه وما لم أعلم ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها (٣) حديث « يافاطمة مايمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعليهم أجمعين وبكل وحي أوحيته أو قضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غني أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسألك باسمك الذي أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذي بثثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذي وضعته على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذي وضعته على الجبال فرست وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل في كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقني القرآن والعلم به وتخلطه بلحمي ودمي وسمعي وبصري وتستعمل به جسدي بحولك وقوتك فإنه لاحول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين [١] » .

دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه

وروي أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبدا قال : فقلت بلى يارسول الله قال قل : اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفي وخذ إلى الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى رضاي ، اللهم إني ضعيف فقوني وإني ذليل فأعزني وإني فقير فأغنني يا أرحم الراحمين [٢] »

دعاء قبيصة بن المخارق

إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « علمني كلمات ينفعني الله عز وجل بها فقد كبر سني وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام : أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم فإنك إذا قلتهن أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج . وأما لآخرتك فقل : اللهم أهدني من عندك وأفض علي من فضلك وانشر علي من رحمتك وأنزل علي من بركاتك . ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما إنه إذا وافى بهن عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء [٣]

دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه

قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه : قد احترقت دارك ـ وكانت النار قد وقعت في محلته ـ فقال ما كان الله ليفعل ذلك ، فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آت فقال : ياأبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت ، قال . قد علمت ذلك ، فقيل له : ماندري أي قوليك أعجب ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات في ليل أونهار لم يضره شيء وقد قلتهن وهي « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي

---

(١) حديث « علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك ... الحديث » في الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه « أن أبا بكر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني أتعلم القرآن ويتفلت مني » فذكره وعبد الملك وأبوه ضعيفان وهو منقطع بين هارون وأبي بكر . (٢) حديث « يابريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال صحيح الإسناد (٣) حديث « أن قبيصة بن المخارق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علمني كلمات ينفعني الله بها فقد كبرت سني وعجزت ... الحديث » أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديث ابن عباس وهو عند أحمد في المسند مختصرا من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم

ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم (١) » .

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح : اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها لى وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لى إنك غفور رحيم ودود كريم . قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

كان يقول . اللهم إنى أصبحت لاأستطيع دفع ماأكره ولاأملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى . اللهم لاتشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديق ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط على من لا يرحمنى ياحى يا قيوم .

دعاء الخضر عليه السلام

يقال : إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا فى كل موسم لم يفترقا إلاعن هذه الكلمات « بسم الله ماشاءالله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله » فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى .

دعاء معروف الكرخى رضى الله عنه

قال محمد بن حسان ؛ قال لى معروف الكرخى رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن : قلت . اكتبها لى قال لا . ولكن أرددها عليك كما رددها على بكر بن خنيس رحمه الله حسبى الله لدينى حسبى الله لدنياى حسبى الله الكريم لما أهمنى حسبى الله الحليم القوى لمن بغى على حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء حسبى الله الرحيم عند الموت حسبى الله الرءوف عند المسألة فى القبر حسبى الله الكريم عند الحساب حسبى الله اللطيف عند الميزان حسبى الله القدير عند الصراط حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » وقد روى عن أبى الدرداء أنه قال « من قال فى كل يوم سبع مرات (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا » .

دعاء عتبة الغلام

وقد رؤى فى المنام بعد موته فقال : دخلت الجنة بهذه الكلمات « اللهم ياهادى المضلين ويا راحم المذنبين ويامقيل عثرات العاثرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين .

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضى الله عنها : لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا

---

(١) حديث « قيل لأبى الدرداء : أحرقت دارك فقال ما كان الله ليفعل ذلك ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من حديث أبى الدرداء ضعيف .

وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال « اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم ماق نفسى فاغفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام » فأوحى الله عز وجل إليه إنى قد غفرت لك ولم يأتى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها .

دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى يمجد نفسه كل يوم ويقول : إنى أنا الله رب العالمين . إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور . إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كل شيء وإلى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا الفرد الوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الكبير المتعال المقتدر القهار الحليم الكريم أهل الثناء والمجد أعلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخليقة [1] » وذكر قبل كل كلمة « إنى أنا الله لا إله إلا أنا » كما أوردناه فى الأول فمن دعا بهذه الأسماء فليقل « إنك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا » فمن دعا بهن كتب من الساجدين المخبتين الذين يجاورون محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم فى دار الجلال . وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .

دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمى وتسبيحاته رضى الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام ممن قتل شهيدا ببلاد الروم فقال : ماأفضل مارأيت ثم من الأعمال ؟ قال : رأيت تسبيحات ابن المعتمر من الله عز وجل بمكان وهى هذه « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق وملء ما خلق وملء ما هو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع ما مضى وعدد ما هم ذاكروه فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينفد آخره » .

دعاء إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

روى إبراهيم بن بشار خادمه : أنه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى « مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب والشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا فيه مانقول بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه ما يريد أصبحت بالله مؤمنا وبلقائه مصدقا وبحجته معترفا ومن ذنبي مستغفرا ولربوبية الله خاضعاً

(١) حديث على « ان الله تعالى يمجد نفسه كل يوم فيقول انى أنا الله رب العالمين انى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم .. الحديث» بطوله لم أجده أصلا .

ولسوى الله فى الآلهة جاحداً وإلى الله فقيرا وعلى الله متكلا وإلى الله منيبا أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبيائه ورسله وحملة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذى لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكرا ونكيرا حق ووعدك حق ووعيدك حق ولقاءك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذى شر . اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله بيديك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك . آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يارب العالمين . اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشربا رويا سائغا هنيا لا نظمأ بعده أبدا واحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين . اللهم اعصمنى من فتن الدنيا ووفقنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولاتضلنى وإن كنت ظالما سبحانك ، سبحانك ياعلى ياعظيم يابارئ يارحيم ياعزيز ياجبار سبحان من سبحت له السموات بأكنافها وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحان من سبح له كل شىء من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانك ، سبحانك ياحى ياقيوم ياعليم ياحليم سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيي وتميت وأنت حى لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شىء قدير .

الباب الرابع

فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم

محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكى وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء ـ كما سيأتى ذكره فى كتاب الأوراد ـ فإن كنت من المريدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به فقل فى مفتتح دعواتك [1] أعقاب صلواتك [2] سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وقل : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا [3] ـ ثلاث مرات ـ وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه [4] وقل : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل

الباب الرابع : فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « افتتاح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » تقدم فى الباب الثانى فى الدعاء (٢) حديث « القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة .

(٣) حديث « رضيت بالله ربا .. الحديث » تقدم فى الباب الأول من الأذكار (٤) حديث « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه » =

عثراتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى [١] اللهم لا تؤمنى مكرك ولا تولنى غيرك ولا تنزع عنى سترك ولا تنسنى ذكرك ولا تجعلنى من الغافلين [٢] وقل : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت [٣] ـ ثلاث مرات ـ وقل : اللهم عافنى فى بدنى وعافنى فى سمعى وعافنى فى بصرى لا إله إلا أنت [٤] ـ ثلاث مرات ـ وقل : اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدى على أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره [٥] اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة فى الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا خاشعا سليما وخلقا مستقيما ولسانا صادقا وعملا متقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب [٦] اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير وعلى كل غيب شهيد [٧] اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فى أعلى جنة الخلد [٨] اللهم إنى أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب على وتغفر لى وترحمنى وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون [٩] اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وكلمة العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . واللهم زينا

= أخرجه أبو داود والترمذى وصححه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة « أن أبابكر الصديق قال: يارسول الله مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال قل اللهم » فذكره (١) حديث « اللهم إنى أسألك العافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عورتى وآمن روعتى وأقل عثرتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر « قال لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح » (٢) حديث « اللهم لاتؤمنى مكرك ولاتولنى غيرك ولاترفع عنى سترك ولاتنسنى ذكرك ولا تجعلنى من الغافلين » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله « ولا تولنى غيرك » وإسناده ضعيف (٣) حديث « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البخارى من حديث شداد بن أوس وقد تقدم (٤) حديث « اللهم عافنى فى بدنى وعافنى فى سمعى وعافنى فى بصرى لا إله إلا أنت ـ ثلاث مرات ـ » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة من حديث أبى بكرة وقال النسائى جعفر بن ميمون ليس بالقوى (٥) حديث « اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء .. الحديث » إلى قوله « أوذنبا لايغفر » أخرجه أحمد والحاكم من حديث زيد بن ثابت فى أثناء حديث وقال صحيح الإسناد (٦) حديث « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد ... الحديث » إلى قوله « وأنت علام الغيوب » أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس . قلت : بل هو منقطع وضعيف (٧) حديث « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ... الحديث » إلى قوله « وعلى كل غيب شهيد » متفق عليه من حديث أبى موسى دون قوله « وعلى كل غيب شهيد » وقد تقدم فى الباب الثانى من هذا الكتاب (٨) حديث « اللهم إنى أسألك إيمانا لايرتد ونعيما لاينفد وقرة عين الأبد ... الحديث » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم من حديث عبد الله بن مسعود دون قوله « وقرة عين الابد » وقال صحيح الإسناد والنسائى من حديث عمار بن ياسر بإسناد جيد « وأسألك نعيما لايبيد وقرة عين لاتنقطع » (٩) حديث « اللهم إنى أسألك الطيبات وفعل الخيرات . الحديث » إلى قوله غير مفتون » أخرجه الترمذى من حديث معاذ « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ... الحديث » وقال حسن صحيح ولم يذكر « الطيبات » وهى فى الدعاء للطبرانى من حديث عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحبة

بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (١) اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (٢) اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقا واسكن فى نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك (٣) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة واوسطه نعمة وآخره تكرمة ومغفرة (٤) الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لعزته وخضع كل شىء لملكه واستسلم كل شىء لقدرته والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته وأظهر كل شىء بحكمته وتصاغر كل شىء لكبريائه (٥) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد (٦) اللهم صلى على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذى وعدته يوم الدين (٧) اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضاتك عنا ووفقنا لمحابك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا (٨) نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه (٩) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك عنى اعف عنى إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بى ارفق بى إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على إنك أنت الملك الجبار (١٠) سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربى ولا يغفر الذنوب إلا أنت (١١) اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى (١٢) اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبنى عليه وقنعنى بما رزقتنى

---

(١) حديث « اللهم انى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ... الحديث » الى قوله « واجعلنا هداة مهتدين » أخرجه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر « قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به » (٢) حديث « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختم مجلسه بذلك » (٣) حديث « اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحا ... الحديث » الى قوله « واجعلنا أخشى لك من سواك » لم أقف له على أصل (٤) حديث « اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة » أخرجه عبد بن حميد فى المنتخب والطبرانى من حديث ابن أوفى بالشطر الأول فقط الى قوله « نجاحا » واسناده ضعيف .

(٥) حديث « الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لعزته ... الحديث » الى قوله « وتصاغر كل شىء لكبريائه » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله « والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته » الى آخره وكذلك رواه فى الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضاً (٦) حديث « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ... الحديث » الى قوله « حميد مجيد » تقدم فى الباب الثانى (٧) حديث « اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى رسول الامين وأعطه المقام المحمود يوم الدين » لم أجده بهذا اللفظ مجموعا والبخارى من حديث أبى سعيد « اللهم صل على محمد عبدك ورسولك » وابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود « اللهم صل على محمد النبى الامى » والنسائى من حديث جابر « وابعثه المقام المحمود الذى وعدته » وهو عند البخارى بلفظ « وابعثه مقاما محمودا » قال الدارقطنى إسناده حسن وقال الحاكم صحيح وقال البيهقى فى المعرفة إسناده صحيح (٨) حديث « اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين ... الحديث » إلى قوله « صرفنا بحسن اختيارك لنا » لم أقف له على أصل (٩) حديث « نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه » أخرجه الطبرانى من حديث أم سلمه « أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات » فذكر منها « اللهم إنى أسألك فواتح الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين » فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى ابن عقبة (١٠) حديث « اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك على اعف عنى ... الحديث » الى قوله « إنك الملك الجبار » لم أقف له على أصل (١١) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى أنت ربى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث على دون قوله « ذنبى إنك أنت ربى » وقد تقدم فى الباب الثانى (١٢) حديث « اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى » أخرجه الترمذى من حديث عمران بن حصين =

واستعملنى به صالحا تقبله منى [١] اللهم إنى أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة [٢] يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى مالا يضرك وأعطنى مالا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين . أنت ولـيى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان - إلى قوله عز وجل - إنك لا تخلف الميعاد . ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا - إلى آخر السورة [٣] - رب اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا . واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات [٤] رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا [٥] .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر [٦] اللهم إنى أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع ومن طمع فى غير مطمع ومن

= « أن النبى صلى الله عليه وسلم علمه لحصين » وقال حسن غريب ورواه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم من حديث حصين والد عمران وقال صحيح على شرط الشيخين (١) حديث « اللهم ارزقنى حلالا لاتعاقبنى فيه وقنعنى بما رزقتنى واستعملنى به صالحا تقبله منى » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس « كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه واخلف على كل غائبة لى بخير » وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) حديث « اللهم إنى أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين فى الدنيا والآخرة » أخرجه النسائى من حديث أبى بكر الصديق بلفظ « سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة » وفى رواية للبيهقى « سلوا الله العفو والعافية واليقين فى الأولى والآخرة فإنه ماأوتى العبد بعد اليقين خيرا من العافية » وفى رواية لأحمد « أسأل الله العفو والعافية » (٣) حديث « يامن لاتضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى مالايضرك وأعطنى مالاينقصك » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف (٤) حديث « رب اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبى أسيد الساعدى « قال رجل من بنى سلمة هل بقى على من بر أبوى شىء ؟ قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ... الحديث » ولأبى الشيخ ابن حبان فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أنس « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مضى من أول الدهر أوهو كائن إلى يوم القيامة » وسنده ضعيف وفى صحيح ابن حبان من حديث أبى سعيد « أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل فى دعائه اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة » (٥) حديث « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين » أخرجه أحمد من حديث أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول رب اغفر وارحم واهدنى السبيل الأقوم » وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه ، وللطبرانى فى الدعاء من حديث ابن مسعود « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا سعى فى بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (٦) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخارى من حديث سعيد بن أبى وقاص .

طمع حيث لا مطمع [١] اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ومن أن أرد إلى أرذل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات . اللهم إنا نسألك قلوباً أواهة مخبتة منيبة فى سبيلك . اللهم إنى أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار [٢] . اللهم إنى أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم والغرق والهدم وأعوذ بك من أن أموت فى سبيلك مدبرا وأعوذ بك من أن أموت فى تطلب الدنيا [٣] اللهم إنى أعوذ بك شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم [٤] . اللهم جنبنى منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء [٥] . اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء [٦] اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال [٧] اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وشر لسانى وقلبى وشر منيي [٨] . اللهم إنى أعوذ بك من جار السوء فى دار المقامة فإن جار البادية يتحول [٩] . اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام [١٠] اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك [١١] اللهم إنى أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة

---

(١) حديث « اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدى الى طبع وطمع فى غير مطمع ومن طمع حيث لامطمع » أخرجه أحمد والحاكم من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد .

(٢) حديث « اللهم انى أعوذ بك من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع ... الحديث » الى قوله « والنجاة من النار » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال الا أنه ورد مفرقا فى أحاديث جيدة الأسانيد

(٣) حديث « اللهم انى أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم ... الحديث » الى قوله وأعوذ بك أن أموت فى تطلب الدنيا » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم وصحح اسناده من حديث أبى اليسر واسمه كعب بن عمرو بزيادة فيه دون قوله « وأعوذ بك أن أموت فى تطلب دنيا » وتقدم من عند البخارى الاستعاذة من فتنة الدنيا . (٤) حديث « اللهم انى أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم » قلت : هكذا فى غير نسخة « علمت » وانما هو « عملت ، وأعمل » كذا رواه مسلم من حديث عائشة ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل فى حديث مرسل فى الاستعاذة وفيه « وشر مالم أعمل وشر ما لم أعلم » .

(٥) حديث « اللهم جنبنى منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك . (٦) حديث « اللهم انى أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٧) حديث « اللهم انى أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال » أخرجه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يقول من الكفر والدين » وفى رواية للنسائى « من الكفر والفقر » ولمسلم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال » وللشيخين من حديث عائشة فى حديث قال فيه « ومن شر فتنة المسيح الدجال » . (٨) حديث « اللهم انى أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وقلبى وشر منيى » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه الحاكم وصحح اسناده من حديث سهل بن حميد . (٩) حديث « اللهم انى أعوذ بك من جار السوء فى دار المقامة فان جار البادية يتحول » أخرجه النسائى والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

(١٠) حديث « اللهم انى أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيىء الاسقام » أخرجه أبو داود والنسائى مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بتمامه من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

(١٢) حديث « اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

المسيح الدجال وأعوذ بك من المغرم والمأثم [1] اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لاتنفع ودعوة لاتستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر [2] . اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء [3] وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين .

الباب الخامس : فى الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الوضوء فى كتاب الطهارة . فإذا خرجت إلى المسجد فقل « اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى لسانى نوراً واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا واجعل خلفى نورا وأمامى نورا واجعل من فوقى نورا اللهم أعطنى [4] نورا » ، وقل أيضا : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك [5] فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت » ، فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل « بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على [6] بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم بسم الله التكلان على الله [7] » فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لى جميع ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك [8] » ، وقدم رجلك اليمنى فى الدخول فإذا رأيت فى المسجد من يبيع أو يبتاع فقل « لا أربح الله تجارتك [9] » ، وإذا رأيت من ينشد ضالة فى المسجد فقل « لا ردها الله عليك » أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم [10] فإذا صليت ركعتى الصبح فقل « بسم الله اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى . . الدعاء إلى آخره [11]

---

(١) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من نفس لاتشبع وقلب لايخشع وصلاة لاتنفع ودعوة لاتستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر » أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم فى أثناء حديث « اللهم إنى أعوذ بك من قلب لايخشع ونفس لاتشبع وعمل لايرفع ودعوة لايستجاب لها وصلاة لاتنفع » وشك أبو المعتمر فى سماعه من أنس وللنسائى بإسناد جيد من حديث عمر فى أثناء حديث « وأعوذ بك » وأبو داود من حديث أنس « اللهم إنى أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر » . (٣) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء » أخرجه النسائى والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم .

الباب الخامس : فى الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

(٤) حديث « القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (٥) حديث « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك ... الحديث » من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد حسن . (٦) حديث « القول عند الخروج من المنزل لحاجته بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على » أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال الترمذى حسن صحيح . (٧) حديث « بسم الله الرحمن الرحيم ولاحول ولاقوة إلا بالله التكلان على الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال بسم الله » فذكره إلا أنه لم يقل « الرحمن الرحيم » وفيه ضعف . (٨) حديث « القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الترمذى حسن وليس إسناده بمتصل ولمسلم من حديث أبى حميد أو أبى أسيد « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لى أبواب رحمتك » وزاد أبو داود فى أوله « فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٩) حديث « القول إذا رأى من يبيع أو يبتاع فى المسجد لاأربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب والنسائى فى اليوم والليلة من حديث أبى هريرة (١٠) حديث « القول إذا رأى من ينشد ضالة فى المسجد لاردها الله عليك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (١١) حديث ابن عباس فى القول بعد ركعتى الصبح « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى » الخ تقدم فى الدعاء

كما أوردناه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ركعت فقل في ركوعك « اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربي خشع سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين [١] » وإن أحببت فقل « سبحان ربي العظيم - ثلاث مرات - [٢] أو سبوح قدوس رب الملائكة والروح [٣] » فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد [٤] » وإذا سجدت فقل اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت [٥] أو تقول « سبحان ربي الأعلى - ثلاث مرات - [٦] » فإذا فرغت من الصلاة فقل « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام [٧] » وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها . فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت [٨] » فإذا دخلت السوق فقل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير [٩] بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة [١٠] » فإن كان عليك دين فقل « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك [١١] » فإذا لبست ثوبا جديدا فقل « اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له [١٢] » وإذا

---

(١) حديث ابن عباس في القول في الركوع « اللهم لك ركعت ولك أسلمت ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي

(٢) حديث القول فيه « سبحان ربي العظيم » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع

(٣) حديث القول فيه « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » أخرجه مسلم من حديث عائشة

(٤) حديث القول عند الرفع من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس دون قوله « سمع الله لمن حمده » وهي في اليوم والليلة للحسن بن علي المعمري وهي عند مسلم من حديث ابن أبي أوفى وعند البخاري من حديث أبي هريرة (٥) حديث القول في السجود « اللهم لك سجدت ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي « اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو ضعيف (٦) حديث « سبحان ربي الأعلى » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وهو منقطع .

(٧) حديث القول إذا فرغ من الصلاة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث ثوبان (٨) حديث « كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت » أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن (٩) حديث القول عند دخول السوق « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » من حديث عمر وقال غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (١٠) حديث « بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة . قلت فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدي مختلف فيه

(١١) حديث دعاء الدين « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب (١٢) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديدا « اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري ورواه ابن السني بلفظ المصنف .

رأيت شيئا من الطيرة تكرهه فقل « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله [١] » ، وإذا رأيت الهلال فقل « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط ، ربي وربك الله [٢] » ويقول « هلال رشد وخير آمنت بخالقك [٣] اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر [٤] » ، وتكبر قبله أولا ثلاثا . وإذا هبت الريح فقل « اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به [٥] » وإذا بلغك وفاة أحد فقل « إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله [٦] » وتقول عند التصدق ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ وتقول عند الخسران ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ وتقول عند ابتداء الأمور ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ـ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ وتقول عند النظر إلى السماء ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ـ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾ وإذا سمعت صوت الرعد فقل ﴿ سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته [٧] ﴾ فإن رأيت الصواعق فقل « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك [٨] » قاله كعب . فإذا أمطرت السماء فقل « اللهم سقيا هنيئا وصيبا نافعا [٩] اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب [١٠] » ، فإذا غضبت فقل « اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي

---

(١) حديث القول إذا رأى شيئاً من الطيرة يكرهه « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلا ورجاله ثقات وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر فجعله مسندا (٢) حديث « التكبير عند رؤية الهلال ـ ثلاثا ـ ثم يقول : اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله » أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل « ثلاثا » ورواه الترمذي وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير والبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلا « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال كبر ثلاثا » (٣) حديث « هلال خير ورشد آمنت بخالقك » أخرجه أبو داود مرسلا من حديث قتادة « أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك ـ ثلاث مرات ـ » وأسنده الدارقطني في الأفراد والطبراني في الأوسط من حديث أنس وقال أبو داود وليس في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مسند صحيح (٤) حديث « اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر » أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه حدثني من لا أتهم (٥) حديث « القول إذا هبت الريح : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب (٦) حديث « القول إذا بلغه وفاة أحد إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه من المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله » أخرجه ابن السني في اليوم والليلة وابن حبان من حديث أم سلمة « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون » ولمسلم من حديثها « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه .

(٧) حديث « القول إذا سمع صوت الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفا ولم أجده مرفوعا . (٨) حديث « القول عند الصواعق : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن عمر وابن السني بإسناد حسن .

(٩) حديث « القول عند المطر : اللهم سقيا هنيئا وصيبا نافعا » أخرجه البخاري من حديث عائشة « كان إذا رأى المطر قال : اللهم اجعله صيبا نافعا » وابن ماجه « سيبا » بالسين أوله والنسائي في اليوم والليلة « اللهم اجعله صيبا هنيئا » وإسنادها صحيح (١٠) حديث « اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب » أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث سعيد بن المسيب مرسلا .

وأجرنى من الشيطان الرجيم [1] » فإذا خفت قوما فقل « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم [2] » فإذا غزوت فقل « اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل [3] » وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل « ذكر الله من ذكرنى بخير [4] » فإذا رأيت استجابة دعائك فقل الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات » وإذا أبطأت فقل « الحمد لله على كل حال [5] » وإذا سمعت أذان المغرب فقل « اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى [6] » وإذا أصابك هم فقل « اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء غمى وذهاب حزنى وهمى [7] » قال صلى الله عليه وسلم « ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحا فقيل له يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » وإذا وجدت وجعاً فى جسدك أو جسد غيرك فارقه برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحا وضع سبابته على الأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا [8] » وإذا وجدت وجعاً فى جسدك فضع يدك على الذى يتألم من جسدك وقل « بسم الله ـ ثلاثا ـ وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر [9] » فإذا أصابك كرب فقل « لا إله إلا الله العلى الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم [10] » فإن أردت النوم فتوضأ أولا ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعا وثلاثين وسبحه ثلاثا وثلاثين واحمده ثلاثا وثلاثين [11] ، ثم قل « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم إنى لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك [12] اللهم باسمك أحيا وأموت [13] اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شىء ومليكه فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل

---

(١) حديث « القول اذا غضب : اللهم اغفر ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من الشيطان الرجيم » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « القول اذا خاف قوما : اللهم انى أجعلك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة من حديث أبى موسى بسند صحيح . (٣) حديث « القول اذا غزا : اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أقاتل » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث أنس قال الترمذى حسن غريب .

(٤) حديث « القول عند طنين الأذن : اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرنى » أخرجه الطبرانى وابن عدى وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث أبى رافع بسند ضعيف . (٥) حديث « القول اذا رأى استجابة دعائه : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » تقدم فى الدعاء . (٦) حديث « القول اذا سمع أذان المغرب : اللهم هذا اقبال ليلك وادبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى » أخرجه الترمذى وأبو داود وقال غريب والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله « وحضور صلواتك » فإنها عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة . (٧) حديث « القول اذا أصابه هم : اللهم انى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك .. الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم ان سلم من ارسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف فى سماعه من أبيه .

(٨) حديث « رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا » متفق عليه من حديث عائشة . (٩) حديث « وضع يده على الذى يألم من جسده ويقول : بسم الله ـ ثلاثا ـ ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبى العاص . (١٠) حديث « دعاء الكرب لا اله الا الله العلى الحليم .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (١١) حديث « التكبير عند النوم أربعا وثلاثين والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد ثلاثا وثلاثين » متفق عليه من حديث على . (١٢) حديث « القول عند ارادة النوم : اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لاأستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث على وفيه انقطاع . (١٣) حديث « اللهم باسمك أحيا وأموت » أخرجه البخارى من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء .

والقرآن أعوذ بك من شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنى الدين وأغننى من الفقر [1] اللهم إنك خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها اللهم إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة [2] باسمك ربى وضعت جنبى فاغفر لى ذنبى [3] اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك [4] اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لاملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت [5] ، ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وليقل قبل ذلك « اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى بأحب الأعمال إليك تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعداً أسألك فتعطينى واستغفرك فتغفرلى وأدعوك فتستجيب لى [6] » فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور [7] أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله [8] أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين [9] اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير [10] اللهم إنى أسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجره إلى مسلم فإنك قلت ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾ [11] اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير مافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه [12] بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله

---

(١) حديث « اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى ... الحديث » الى قوله « وأغننا من الفقر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها . الحديث » الى قوله « اللهم انى أسألك العافية » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « باسمك ربى وضعت جنبى فاغفرلى ذنبى » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمرو بسند جيد وللشيخين من حديث أبى هريرة « باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ان أمسكت نفسى فاغفر لها » وقال البخارى « فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

(٤) حديث « اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك » أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث ابن مسعود وهو عند أبى داود من حديث حفصة بلفظ « تبعث » وكذا رواه الترمذى من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه .

(٥) حديث « اللهم انى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك .. الحديث » متفق عليه من حديث البراء . (٦) حديث « اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى فى أحب الأعمال إليك تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعدا أسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفرلى وأدعوك فتستجيب لى » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس « اللهم ابعثنى أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا » وإسناده ضعيف وهو معروف من قول حبيب الطائى كما رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء . (٧) حديث « القول : إذا استيقظ من منامه الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » أخرجه البخارى من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء . (٨) حديث « أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة أصبحنا وأصبح الملك والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين » وله فى الدعاء من حديث ابن أبى أوفى « أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيهما لله » وإسنادهما ضعيف ولمسلم من حديث ابن مسعود « أصبحنا وأصبح الملك لله » . (٩) حديث « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب مرفوعا . (١٠) حديث « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه الترمذى إلا أنهم قالوا « وإليك النشور » ولابن السنى « وإليك المصير » . (١١) حديث « اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجره الى مسلم . الحديث » لم أجد أوله والترمذى من حديث أبى بكر فى حديث له وأعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن نقترف على أنفسنا سوءا أو نجره الى مسلم » رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعرى بإسناد جيد . (١٢) حديث « اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس =

كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله (١) رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ـ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٢) ـ وإذا أمسى قالَ ذلك إلا أنه يقول « أمسينا » ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم (٣) وإذا نظر فى المرآة قال الحمد لله الذى سوّى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين (٤) وإذا اشتريت خادما أو غلاما أو دابة فخذ بناصيته وقل اللهم إنى أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ماجبل عليه (٥) وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير (٦) وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له بارك الله لك فى أهلك ومالك إذ قال صلى الله عليه سلم « وإنما جزاء السلف الحمد والأداء (٧) » .

فهذه أدعية لايستغنى المريد عن حفظها وماسوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها فى كتاب الحج والصلاة والطهارة ٭ فإن قلت : فما فائدة الدعاء والقضاء لامرد له ؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب

= والقمر حسبانا أسألك خير هـذا اليوم وخير مافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه » قلت هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا اقض عنى الدين وأغننى من الفقر وقونى على الجهاد فى سبيلك » وللدارقطنى فى الأفراد من حديث البراء « نسألك خير هـذا اليوم وخير ما بعده ونعوذ بك من شر هـذا اليوم وشر ما بعده » وأبو داود من حديث أبى مالك الأشعرى « اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته وأعوذ بك من شر مافيه وشر ما بعده » وسنده جيد وللحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة من حديث ابن مسعود « اللهم إنى أسألك خير مافى هذا اليوم وخير مابعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » والحديث عند مسلم فى المساء « خير مافى هذه الليلة .. الحديث » ثم قال : وإذا أصبح قال ذلك أيضاً .

(١) حديث « بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة فمن الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله » عد فى الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال يلتقى الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمنى فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات » فذكره ولم يقل « الخير كله بيد الله » قال موضعها « لايسوق الخير إلا الله » قال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى أمنه الله من الغرق والحرق وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب . أورده فى ترجمة الحسين بن رزين قال ليس بالمعروف وهو بهذا الإسناد منكر .

(٢) حديث « رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا » تقدم فى الباب الأول . (٣) حديث « القول عند المساء مثل الصباح إلا أنك تقول : أمسينا وتقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف « من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وبرأ وذرأ اعتصم من شر الثقلين ... الحديث » وفيه « وإن قالهن حين يمسى كن له كذلك حتى يصبح » وفيه ابن لهيعة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن فى حديث « إن جبريل قال يامحمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ ومن شر ماينزل من السماء ... الحديث » وإسناده جيد ولمسلم من حديث أبى هريرة فى الدعاء عند النوم « أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها » وللطبرانى فى الدعاء من حديث أبى الدرداء « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة ... إلخ الحديث » وقد تقدم فى الباب الثانى . (٤) حديث « القول إذا نظر فى المرآة : الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « القول إذا اشترى خادما أو دابة : اللهم إنى أسألك خيره وخير ماجبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ماجبل عليه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد . (٦) حديث « التهنئة بالنكاح : بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة قال الترمذى حسن صحيح .

(٧) حديث « الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه : بارك الله لك فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء » أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن أبى ربيعة قال « استقرض منى النبى صلى الله عليه وسلم أربعين ألفا فجاءه مال فدفعه إلى » قال فذكره وإسناده حسن .

لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وأن لا يسقى الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر والذى قدر الخير قدره بسبب . والذى قدّر الشر قدر لدفعه سببا فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته . ثم فى الدعاء من الفائدة ما ذكرناه فى الذكر فإنه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة [1] » والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض . فالحاجة تحوج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذى هو أشرف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلا بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما الغنى فسبب للبطر فى غالب الأمور فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . فهذا ما أردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات فى الأكل والسفر وعيادة المريض وغيرها فستأتى فى مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان . تم كتاب الأذكار والدعوات ، بكماله . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأوراد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين

وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمدا كثيرا ونذكره ذكرا لا يغادر فى القلب استكبارا ولا نفورا ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلى على نبيه الذى بعثه بالحق بشيرا ونذيرا وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا فى عبادة الله غدوة وعشيا وبكرة وأصيلا حتى أصبح كل واحد منهم نجما فى الدين هاديا وسراجا منيرا .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لا ليستقروا فى مناكبها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها زادا يحملهم فى سفرهم إلى أوطانهم ويكتنزون منها تحفا لنفوسهم عملا وفضلا محترزين من مصايدها ومعاطبها ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها . فالناس فى هذا العالم سفر وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار . والعمر مسافة السفر ؛ فسنوه مراحله ، وشهوره فراسخه ، وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته وطاعته بضاعته وأوقاته رءوس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى فى دار السلام مع الملك

(١) حديث « الدعاء مخ العبادة » تقدم فى الباب الأول

الكبير والنعيم المقيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم فى دركات الجحيم . فالغافل فى نفس من أنفاسه حتى يقضى فى غير طاعة تقربه إلى الله زلفى متعرض فى يوم التغابن لغبينة وحسرة مالها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجد وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر . ورتبوا بحسب تكرر الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار فى طلب القرب من الملك الجبار والسعى إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول فى كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التى سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا المهم بذكر بابين . (الباب الأول) فى فضيلة الأوراد وترتيبها فى الليل والنهار . (الباب الثانى) فى كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به .

الباب الأول : فى فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هى الطريق إلى الله تعالى

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا فى لقاء الله تعالى وأنه لاسبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه . وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة به لاتحصل إلا بدوام الفكر فيه وفى صفاته وأفعاله وليس فى الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة وكل ذلك لايتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار فى وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر بل إذا ردت إلى نمط واحد أظهرت الملال والاستثقال وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا . فمن ضرورة اللطف بها أن تروح بالتنقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها وتعظم باللذة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغى أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا ؛ فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو فى طلبها القلب ويتجرد . وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولايسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا فى بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته فى الطاعة . ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب فى الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره مخطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه ؛ فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة ؛ فإن لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الإيمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ وقال سبحانه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى ﴿ أمن هو قانت

آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وقال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) وقال عزوجل (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقال عزوجل (كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) وقال عزوجل (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى [1] » وقد قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وقال تعالى (والقمر قدرناه منازل) وقال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة يدلك عليه قوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى يخلف أحدهما الآخر ليتدارك فى أحدهما مافات فى الآخر وبين أن ذلك للذكر والتكر لاغير . وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلم أن أوراد النهار سبعة : فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان ، وما بين العصر إلى المغرب وردان . والليل يقسم إلى أربعة أوراد : وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس ، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر . فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

فالورد الأول : مابين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال (والصبح إذا تنفس) وتمدحه به إذ قال (فالق الإصباح) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التسبيح فيه بقوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وبقوله تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) وقوله عز وجل (ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) وقوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) .

فأما ترتيبه : فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فينبغى أن يبتدئ بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ماأماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التى ذكرناها فى دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات

(1) حديث « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله » أخرجه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبى أوفى بلفظ « خيار عباد الله »

وليلبس ثوبه وهو فى الدعاء وينوى به سترعورته امتثالا لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولا رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التى ذكرناها فيه فى كتاب الطهارة عند الدخول والخروج . ثم يستاك على السنة ـ كما سبق ـ ويتوضأ مراعياً لجميع السنن والأدعية التى ذكرناها فى الطهارة فإنا إنما قدمنا آحاد العبادات لكى نذكر فى هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط . فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتى الفجر أعنى السنة فى منزله [1] كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ بعد الركعتين سواء أداهما فى البيت أو المسجد الدعاء الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما ويقول « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى إلا آخر الدعاء ... [2] » ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعياً بل يمشى وعليه السكينة والوقار [3] كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه . ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد [4] ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متسعا ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم ـ كما سبق ذكره فى كتاب الجمعة ـ ثم يصلى ركعتى الفجر إن لم يكن صلاهما فى البيت ويشتغل بالدعاء المذكور بعدهما. وإن كان قد صلى ركعتى الفجر صلى ركعتى التحية وجلس منتظراً للجماعة . والأحب التغليس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم يغلس بالصبح [5] ولا ينبغى أن يدع الجماعة فى الصلاة عامة وفى الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل . فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه إلى المسجد ليصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصراف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بعمرة مبرورة [6] » وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر. قال رجل من التابعين « دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقنى فقال لى : يا ابن أخى لأى شىء خرجت من منزلك فى هذه الساعة ؟ فقلت : لصلاة الغداة فقال : أبشر فإنا كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المسجد فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله تعالى [7] ـ أو قال ـ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة رضى الله عنهما وهما نائمان فقال : ألا تصليان قال على : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثها بعثها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول : وكان الإنسان أكثر شىء جدلا [8] . ثم ينبغى أن يشتغل بعد ركعتى الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة

---

(١) حديث « صلاة ركعتى الصبح فى المنزل » متفق عليه من حديث حفصة . (٢) حديث « الدعاء بعد ركعتى الصبح : اللهم إنى أسألك رحمة من عندك . الحديث » تقدم . (٣) حديث « المشى إلى الصلاة وعليه السكينة » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٤) حديث « الدعاء المأثور لدخول المسجد » تقدم فى الباب الخامس من الأذكار . (٥) حديث « التغليس فى الصبح » متفق عليه من حديث عائشة . (٦) حديث « أنس فى صلاة الصبح : من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة » لم أجد له أصلا بهذا السياق وفى شعب الإيمان للبيهقى من حديث أنس بسند ضعيف « ومن صلى المغرب فى جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة » (٧) حديث أبى هريرة « كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المجلس فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله » لم أقف له على أصل . (٨) حديث على « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة وهما نائمان فقال ألا تصليان قال على : فقلت يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله ... الحديث » متفق عليه .

وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ، ثم يصلي الفريضة مراعيا جميع ماذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة فى الصلاة والقدوة . فإذا فرغ منها قعد فى المسجد إلى طلوع الشمس فى ذكر الله تعالى كما سنرتبه فقد قال صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد فى مجلسى أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب [(١)] » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس ـ وفى بعضها ـ ويصلى ركعتين [(٢)] » أى بعد الطلوع وقد ورد فى فضل ذلك مالا يحصى . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : ياابن آدم اذكرنى بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك مابينهما [(٣)] » وإذا ظهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغى أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها فى سبحة وقراءة قرآن وتفكر .

أما الأدعية : فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » ثم يفتتح الدعاء بما كان يفتتح به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله « سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون [(٤)] » ثم يبدأ بالأدعية التى أوردناها فى الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها مايراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه .

وأما الأذكار المكررة فهى كلمات ورد فى تكرارها فضائل لم نطول بإيرادها وأقل ما ينبغى أن يكرر كل واحد منها ثلاثا أو سبعاً وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر . فليكررها بقدر فراغة وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر . والأوسط الأقصد أن يكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أدومها وإن قل . وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيرا فى القلب مع كثيرها مع الفترة . ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالى فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر . ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة (الأولى) قوله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير [(٥)] (الثانية) قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله

---

(١) حديث « لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » أخرجه أبو داود من حديث أنس وتقدم فى الباب الثالث من العلم . (٢) حديث « كان إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس وفى بعضها ويصلى ركعتين أى بعد الطلوع » أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين والترمذى من حديث أنس وحسنه « من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » . (٣) حديث الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال : ياابن آدم اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك مابينهما » أخرجه ابن المبارك فى الزهد هكذا مرسلا . (٤) حديث « كان يفتتح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » تقدم . (٥) حديث « الفضل فى تكرار لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » تقدم من حديث أبى أيوب تكرارها عشرا دون قوله « يحيي ويميت وهو حى لايموت بيده الخير » فإنها فى اليوم والليلة للنسائى من حديث أبى ذر دون قوله « وهو حى لايموت » وهى كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين والطبرانى الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف .

العلى العظيم [١] (الثالثة) قوله : سبوح قدوس رب الملائكة والروح [٢] . (الرابعة) قوله : سبحان الله العظيم وبحمده [٣] (الخامسة) قوله : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة [٤] (السادسة) قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد [٥] (السابعة) قوله : لا إله إلا الله الملك الحق المبين [٦] (الثامنة) قوله : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم [٧] (التاسعة) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم [٨] (العاشرة) قوله : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون [٩] فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة « فهو أفضل من أن يكرر ذكرا واحدا مائة مرة » لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلا على حياله وللقلب بكل واحد نوع تنبه وتلذذ وللنفس فى الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل . وأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات

---

(١) حديث « الفضل فى تكرار : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة الا بالله » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى « استكثروا من الباقيات الصالحات » فذكرها

(٢) حديث « تكرار : سبوح قدوس رب الملائكة والروح » لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها فى ركوعه وسجوده » وقد تقدم ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث البراء « أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح » . (٣) حديث « تكرار : سبحان الله وبحمده » متفق عليه من حديث أبى هريرة « من قال ذلك فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » . (٤) حديث « تكرار أستغفر الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأسأله التوبة » أخرجه المستغفرى فى الدعوات من حديث معاذ « أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر » ولفظه « وأتوب اليه » وفيه ضعف وهكذا رواه الترمذى من حديث أبى سعيد فى قولها « ثلاثا » وللبخارى من حديث أبى هريرة « انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » ولم يقل الطبرانى « أكثر » ولمسلم من حديث الأعرابى « لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » تقدمت هذه الأحاديث فى الباب الثانى من الأذكار . (٥) حديث « تكرار . اللهم لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد » لم أجد تكرارها فى حديث وانما وردت مطلقة عقب الصلوات وفى الرفع من الركوع . (٦) حديث « تكرار : لااله الا الله الملك الحق المبين » أخرجه المستغفرى فى الدعوات والخطيب فى الرواة عن مالك من حديث على « من قالها فى يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع باب الجنة » وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبى نعيم فى الحلية « من قال ذلك فى كل يوم وليلة مائتى مرة لم يسأل الله فيهما حاجة الا قضاها » وفيه سليم الخواص ضعيف وقال فيه : أظنه عن على . (٧) حديث « تكرار : بسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان « من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسى لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسى » قال الترمذى حسن صحيح غريب .

(٨) حديث « تكرار : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آل محمد » ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى فى فضائل القرآن من حديث ابن أبى أوفى « من أراد أن يموت فى السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات » فذكره وهو منكر . قلت : ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعيين لهذه الصيغة رواه الطبرانى من حديث أبى الدرداء بلفظ « من صلى على حين يصبح عشرا وحين يمسى عشرا أدركته شفاعتى يوم القيامة » وفيه انقطاع .

(٩) حديث « تكرار : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » أخرجه الترمذى من حديث معقل بن يسار « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك .. الحديث » ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة وقال حسن غريب ولابن أبى الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله « من قالها حين يصبح عشر مرات أجير من الشيطان الى المسى ... الحديث » ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة « ألا أعلمك ياخالد كلمات تقولها ثلاث مرات قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » والحديث عند أبى داود والترمذى وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند الفزع دون تكرارها ثلاثا من حديث عبد الله بن عمرو .

وردت الأخبار بفضلها وهو أن يقرأ سورة الحمد [١] وآية الكرسي [٢] وخاتمة البقرة [٣] من قوله آمن الرسول وشهد الله [٤] وقل اللهم مالك الملك الآيتين [٥] وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها [٦] وقوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق إلى آخرها [٧] وقوله سبحانه الحمد لله لم يتخذ ولدا [٨] الآية وخمس آيات من أول الحديد [٩] وثلاثا من آخر سورة الحشر [١٠] وإن قرأ المسبعات العشر التي أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة. فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال «أتاني أخ لي من أهل الشام فأهدى لي هدية وقال: يا كرز اقبل مني هذه الهدية فإنها نعمت الهدية «فقلت: يا أخي ومن أهدى لك هذه الهدية؟ قال: أعطانيها إبراهيم التيمي، قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها؟ قال: كنت جالسا في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد فجاءني رجل فسلم علي وجلس عن يميني فلم أر في زماني أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا منه فقلت يا عبد الله من أنت ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر، فقلت: في أي شيء جئتني؟ فقال: جئتك للسلام عليك وحبا لك في الله وعندي هدية أريد أن أهديها لك فقلت: ماهي؟ قال: أن تقول

---

(١) حديث «فضل سورة الحمد» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنها أعظم السور في القرآن ومسلم من حديث ابن عباس «في الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للنبي صلى الله عليه وسلم أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته». (٢) حديث «فضل آية الكرسي» أخرجه مسلم من حديث أبي بن كعب «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... الحديث» والبخاري من حديث أبي هريرة في توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجيء الشيطان إليه وقوله «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ... الحديث» وفيه «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إنه قد صدقك وهو كذوب». (٣) حديث «فضل خاتمة البقرة» متفق عليه من حديث أبي مسعود «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث

(٤) حديث «فضل» شهد الله» أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود «من قرأ شهد الله — إلى قوله — الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عنده وديعة جيء به يوم القيامة فقيل له عبدي هذا عهد إلى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة» وفيه عمر بن المختار روى الأباطيل قاله ابن عدي وسيأتي حديث علي بعده

(٥) حديث «فضل: قل اللهم مالك الملك الآيتين» أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث علي «أن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله حجاب .. الحديث» وفيه «فقال الله لا يقرأ كن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه ... الحديث» وفيه الحارث ابن عمير وفي ترجمته ذكره ابن حبان في الضعفاء وقال موضوع لا أصل له والحارث يروى عن الأثبات الموضوعات. قلت: وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي وروى له البخاري تعليقا. (٦) حديث «فضل: لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف «علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد» فذكر حديثا وفي آخره «وقل حسبي الله إلى آخر السورة» وذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن في رغائب القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من لزم قراءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... إلى آخر السورة — لم يمت هدما ولا غرقا ولا حرقا ولا ضربا بحديدة» وهو ضعيف.

(٧) حديث «فضل: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق» لم أجد فيه حديثا يخصها، لكن في فضل سورة الفتح ما رواه أبو الشيخ في كتاب من حديث أبي بن كعب «من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم» وهو حديث موضوع. (٨) حديث «فضل: الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا .. الآية» أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس «آية العز: الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ... الآية كلها» وإسناده ضعيف. (٩) حديث «فضل: خمس آيات من أول الحديد» ذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن من حديث علي «إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرأ خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله — عليم بذات الصدور — ومن آخر سورة الحشر من قوله — لو أنزلنا هذا القرآن على جبل — إلى آخر السورة ثم تقول يا من هو كذا افعل بي كذا وتدعو بما تريد. (١٠) حديث «فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر» أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وللبيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف «من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الله له الجنة».

قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسى كل واحدة سبع مرات وتقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا وتصلى على النبي صلى الله عليه وسلم سبعا وتستغفر لنفسك ولوالديك والمؤمنين والمؤمنات سبعا وتقول : اللهم افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم سبع مرات وانظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية فقلت : أحب أن تخبرنى من أعطاك هذه العطية العظيمة ؟ فقال : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم[1] فقلت : أخبرنى بثواب ذلك ؟ فقال : إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك ، فذكر إبراهيم التيمى : أنه رأى ذات يوم فى منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أمورا عظيمة مما رآه فى الجنة قال . فسألت الملائكة فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : للذى يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال : فأتانى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم على وأخذ بيدى فقلت : يا رسول الله الخضر أخبرنى أنه سمع منك هذا الحديث فقال : صدق الخضر صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى فى الأرض فقلت يا رسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذى رأيت فى منامى هل يعطى شيئاً مما أعطيته ؟ فقال والذى بعثنى بالحق نبيا إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرنى ولم ير الجنة إنه ليغفر له جميع الكبائر التى عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذى بعثنى بالحق نبيا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيا ، وكان إبراهيم التيمى يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فلعله كان بعد هذه الرؤيا . فهذه وظيفة القراءة ؛ فإن أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فإن القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه فى باب التلاوة . وأما الأفكار : فليكن ذلك إحدى وظائفه ـ وسيأتى تفصيل مايتفكر فيه وكيفيته فى كتاب التفكر من ربع المنجيات ـ ولكن مجامعه ترجع إلى فنين ؛ أحدهما : أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره ويرتب وظائفه فى يومه الذى بين يديه ويدبر فى دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر فى قلبه النيات الصالحة من أعماله فى نفسه وفى معاملته المسلمين. والفن الثانى : فيما ينفعه فى علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة فى نعم الله تعالى وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو فى عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغنائه ويزيد خوفه منها . ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكر فيها على بعض الخلق دون البعض وإنما نستقصى ذلك فى كتاب التفكر . ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين ، أحدهما : زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف . والثانى : زيادة المحبة إذ لايحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله . فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة . والذكر أيضا يورث الأنس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التى سببها المعرفة

---

(١) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمى « أن الخضر علمه المسبعات العشرة » وقال فى آخرها « أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم » ليس له أصل ولم يصح فى حديث قط اجتماع الخضر بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته ،

أقوى وأثبت وأعظم ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاكر من غير تمام الاستبصار كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن في الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما فليس محبته له كمحبة المشاهد وليس الخبر كالمعاينة . فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جملة اعتقدوها بتصديق عن وصفها لهم . والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر لأن أحدا لم يحط بكنه جلاله وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها . وإنما عدد حجبها التي استحقت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا . قال صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره [(١)] » وتلك الحجب أيضا مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو في الأول أصغرها ثم ما يليه وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في ترقيه وقال ﴿فلما جن عليه الليل﴾ أي أظلم عليه الأمر ﴿رأى كوكبا﴾ أي وصل إلى حجاب من حجب النور فعبر عنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضيئة فان آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليل عليه السلام . والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ الآية ولنتجاوز هذه المعاني فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من ينفتح له بابه والمتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد في علم المعاملة وذلك أيضا مما تغزر فائدته ويعظم نفعه . فهذه الوظائف الأربعة أعني : الدعاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغي أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل في كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع » ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته والصوم هو الجنة التي تضيق مجاري الشيطان المعادي الصارف له عن سبيل الرشاد . وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار [(٢)] وهو الأولى إلى أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به .

الورد الثاني : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعني بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الربع . وفي هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان ؛ إحداهما : صلاة الضحى ـ وقد ذكرناها في كتاب الصلاة ـ وأن الأولى أن يصلي ركعتين عند الإشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح ويصلي أربعا أوستا أو ثمانيا إذا رمضت الفصال وضحيت الأقدام بحر الشمس . فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ فإنه وقت إشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازات البخارات والغبارات التي على وجه الأرض

---

(١) حديث « إن لله سبعين حجابا من نور ... الحديث » تقدم في قواعد العقائد .

(٢) حديث « اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس » تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم في جلوسه صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في مجلسه حتى تطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله مما تقدم من حديث أنس .

فإنها تمنع إشراقها التام ، ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ « وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عندالإشراق فنادى بأعلى صوته : ألا إنّ صلاةالأوابين إذارمضت الفصال [1] » فلذلك نقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة فى الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفى وقتى الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب إلى ماقبل الزوال فى ساعة الاستواء . واسم الضحى ينطلق على الكل وكأن ركعتى الإشراق تقع فى مبتدأ وقت الإذن فى الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها [2] » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب .

الوظيفة الثانية فى هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التى جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض وتشييع جنازة ومعاونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها . فإن لم يكن شىء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع ـ التى قدمناها من الأدعية والذكر والقراءه والفكر والصلوات ـ المتطوع بها إن شاء فإنها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن . فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أراده أما بعد فريضه الصبح فتكره كل صلاة لاسبب لها . وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتى الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر .

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ونعنى بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل ، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضيها صلاة الضحى . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر . فإذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب . ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب ، إلا أن الضحى لم تعرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخفف عنهم . الوظيفة الرابعة : فى هذا الوقت الأقسام الأربعة ، وزيد أمران : أحدهما ؟ الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق فإن كان تاجراً فينبغى أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فبنصح وشفقه ولاينسى ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب فى كل يوم لقوته . فإذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزود لآخرته فإن الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتمتع به أدوم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت . فقد قيل : لايوجد المؤمن إلا فى ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لابدّ له منها . وقل من يعرف القدر فيما لابدّ منه بل أكثر الناس يقدّرون فيما عنه بدّ أنه لابدّ لهم منه وذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يعدهم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثانى : القيلولة وهى سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التسحر سنة يستعان به على صيام النهار . فإن كان لايقوم بالليل لكن لو لم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالنوم أحب له إذا كان لا ينبعث نشاطه للرجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة إذ فى النوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : يأتى على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم . وكم من عابد أحسن أحواله النوم وذلك إذا كان يرائى بعبادته ولا يخلص فيها فكيف بالغافل

(١) حديث « خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : ألا ان صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله « فنادى بأعلى صوته » وهو عند مسلم دون ذكر الإشراق . (٢) حديث « لن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا ارتفعت فارقها » تقدم فى الصلاة .

الفاسق ؟ قال سفيان الثورى رحمه الله : كان يعجبهم إذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة . ولكن ينبغى أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فان ذلك من فضائل الأعمال وان لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا فالقلب المتفرغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته . وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة بالنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا وأحد معنى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ أى يخلف أحدهما الآخر فى الفضل والثانى : أنه يخلفه فيتدارك فيه مافات فى أحدهما .

الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر وراتبته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها : فاذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد فمهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقم إلى إحياء مابين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿وحين تظهرون﴾ وليصل فى هذا الوقت أربع ركعات لايفصل بينهن بتسليمة واحدة [1] وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصليها بتسليمة واحدة ولكن طعن فى تلك الرواية ، ومذهب الشافعى رضى الله عنه أنه يصلى مثنى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة [2] وهو الذى صحت به الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه فى باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المئين أو أربعا من المثانى فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء . وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرتفع له فيها عمل ، ثم يصلى الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة - كما سبق - أو قصيرة لا ينبغى أن يدعها . ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعا فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل ويستحب أن يقرأ فى هذه النافلة آية الكرسى وآخر سورة البقرة والآيات التى أوردناها فى الورد الأول ليكون ذلك جامعا له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت .

الورد الخامس : مابعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه العكوف فى المسجد مشتغلا بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون فى انتظار الصلاة معتكفا . فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويا كدوى النحل من التلاوة . فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل فى حقه فإحياء هذا الورد وهو أيضا وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث فى الفضل . وفى هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار قال بعض العلماء : ثلاث يمقت الله عليها ، الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سهر بالليل . والحد فى النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال فى نومه ثمان ساعات فى الليل والنهار جميعا فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقدارا استوفاه بالنهار فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة . ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان

---

(١) حديث « صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة » وفيه « أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء وأحب أن يرفع لى فيها عمل صالح » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى أيوب وقد تقدم فى الصلاة فى الباب السادس .

(٢) حديث « صلاة الليل والنهار مثنى مثنى » أخرجه أبو داود وابن حبان من حديث ابن عمر .

وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدر الاعتدال هذا والنقصان منه ربما يفضى إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجا فقد يمرن نفسه عليه من غير اضطراب . وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد وهو أحد الآصال التى ذكرها الله تعالى إذ قال ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ وإذا سجد لله عزوجل الجمادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات ؟

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذى أقسم الله تعالى به فقال تعالى ﴿ والعصر ﴾ هذا أحد معنيي الآية وهو المراد بالآصال فى أحد التفسيرين وهو العشى المذكور فى قوله ﴿ وعشيا ﴾ وفى قوله ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ وليس فى هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة ـ كما سبق فى الظهر ـ ثم يصلى الفرض ويشتغل بالأقسام الأربعة المذكورة فى الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفر . والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر فيندرج فى هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة .

الورد السابع : إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطى نورها الغبارات والبخارات التى على وجه الأرض ويرى صفرة فى ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ وهذا هو الطرف الثانى المراد بقوله تعالى ﴿ فسبح وأطراف النهار ﴾ قال الحسن . كانوا أشد تعظيما للعشى منهم لأول النهار . وقال بعض السلف : كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة : فيستحب فى هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ماذكرناه فى الورد الأول مثل أن يقول : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده ، مأخوذ من قوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ والاستغفار على الأسماء التى فى القرآن أحب كقوله ﴿ أستغفر الله إنه كان غفارا ـ أستغفر الله إنه كان توابا ـ رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ـ فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ـ فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها والليل إذا يغشى والمعوذتين . ولتغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار فإذا سمع الأذان قال ، اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك ـ كما سبق ـ ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب . وبالغروب قد انتهت أوراد النهار فينبغى أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة ، فان ساوى يومه أمسه فيكون مغبونا وإن كان شرا منه فيكون معلونا فقد قال صلى الله عليه وسلم ، لا بورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيرا (١) ، فإن رأى نفسه متوفرا على الخير جميع نهاره مترفها عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلفة النهار فليعزم على تلافى ماسبق من تفريطه فإن الحسنات يذهبن السيئات . وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره وليحضر فى قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع . وعند ذلك يغلق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياما معدودة تنقضى لا محالة جملتها بانقضاء آحادها .

---

(١) حديث « لا بورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيرا » تقدم فى العلم فى الباب الأول إلا أنه قال « علما » بدل « خيرا » .

بيـان أوراد الليل وهي خمسة

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أعني الحمرة التي بغيبوبتها يدخل وقت العتمة وقد أقسم الله تعالى به فقـال ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أوّل نشو ساعاته وهو آن من الآناء المذكورة في قوله تعالى ﴿ومن آناء الليل فسبح﴾ وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ روى ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبي زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة بين العشاءين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره [1] ، والملاغات جمع ملغاة من اللغو . وسئل أنس رحمه الله عمن ينام بين العشاءين فقال : لاتفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ وسيأتي فضل إحياء مابين العشاءين في الباب الثاني . وترتيب هذا الورد أن يصلي بعد المغرب ركعتين أوّلا يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ثم يصلي أربعا يطيلها ثم يصلي إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له . وإن كان المسجد قريبا من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمنا من التصنع والرياء .

والورد الثاني : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حدّ نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال ﴿ والليل وما وسق ﴾ أي وماجمع من ظلمته وقال ﴿ إلى غسق الليل ﴾ فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور (الأول) أن يصلي سوى فرض العشاء عشر ركعات : أربعا قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين وستا بعد الفرض ركعتين ثم أربعا ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . (والثاني) أن يصلي ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فإنه أكثر ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل [2] والأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره . والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يثقل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل . ثم ليقرأ في هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة [3] فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السور أو بعضها

---

(١) حديث « سئل عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره » قال المصنف أسنده ابن أبي الزناد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : إنما هو إسماعيل بن أبي زياد بالياء المثناة من تحت رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبي زياد الشامي عن الأعمش . حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره » وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطني . واسم أبي زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولابن مردويه من حديث أنس « أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عند الترمذي وحسنه بلفظ « نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

(٢) حديث « الوتر ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل وأنه أكثر ماصلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الليل » أخرجه أبو داود من حديث عائشة « لم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة » والبخاري من حديث ابن عباس « وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل » ومسلم « كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة » وفي رواية للشيخين « منها ركعتا الفجر » ولهما أيضاً ماكان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة » . (٣) حديث « إكثاره صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة » غريب لم أقف على ذكر الإكثار فيه ولابن حبان من حديث ＊

قبل النوم فقد روى فى ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ليلة أشهرها : السجدة وتبارك الملك [١] والزمر والواقعة وفى رواية : الزمر وبنى إسرائيل [٢] وفى أخرى : أنه كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية [٣] وكان العلماء يجعلونها ستا فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذ فى الخبر «أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب سبح اسم ربك الأعلى . وكان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبح اسم ربك الأعلى [٤] وقل يا أيها الكافرون والإخلاص [٥] فإذا فرغ قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات» (الثالث) الوتر : وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضى الله عنه : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر [٦] وإن كان معتادا صلاة الليل فالتأخير أفضل . قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة [٧] » وقالت عائشة رضى الله عنها « أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر [٨] » وقال على رضى الله عنه : الوتر على ثلاثة أنحاء إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعنى أنه يصير وترا بما مضى وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ما روى عنه والطريق الأول والثالث لابأس به وأما نقض الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغى أن ينقض [٩] وروى مطلقا أنه صلى الله عليه وسلم قال «لا وتران فى ليلة [١٠]» ، ولمن يتردد فى استيقاظه تلطف استحسنه بعض العلماء وهو أن يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا على فراشه عند النوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وألهاكم [١١] لما فيهما من التحذير والوعيد وفى رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قامتا مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة فى آخر صلاة الليل وكأنه صار ما مضى شفعا بهما . وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب المكى وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما

= جندب « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له والترمذى من حديث جابر « كان لاينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك » وله من حديث عائشة « كان لاينام حتى يقرأ بنى إسرائيل والزمر » وقال حسن غريب وله من حديث أبي هريرة « من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » قال غريب ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة « من قرأ فى ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذى بيده الملك واقتربت كن له نورا ... الحديث » ولأبى منصور المظفر بن الحسين الغزنوى فى فضائل القرآن من حديث على « ياعلى أكثر من قراءة يس ... الحديث » وهو منكر وللحارث بن أبى أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف « من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » والترمذى من حديث ابن عباس « شيبتنى هود والواقعة .. الحديث » وقال حسن غريب . (١) حديث « كان يقرأ فى كل ليلة السجدة وتبارك الملك » أخرجه الترمذى وتقدم فى الحديث قبله . (٢) حديث « كان يقرأ فى كل ليلة الزمر وبنى إسرائيل » أخرجه الترمذى وتقدم أيضاً .

(٣) حديث « كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول : فيهن آية أفضل من ألف آية » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن والنسائى فى الكبرى من حديث عرباض بن سارية .

(٤) حديث «كان يحب سبح اسم ربك الأعلى » أخرجه أحمد والبزار من حديث على بسند ضعيف . (٥) حديث « كان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح وتقدم فى الصلاة من حديث أنس . (٦) حديث أبى هريرة « أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر » متفق عليه بلفظ « أن أوتر قبل أن أنام » . (٧) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر . (٨) حديث عائشة « أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر » متفق عليه . (٩) حديث « النهى عن نقض الوتر » قال المصنف صح فيه نهى قلت : وإنما صح من قول عائذ بن عمرو وله صحبة كما رواه البخارى ومن قول ابن عباس كما رواه البيهقى ولم يصرح بأنه مرفوع فالظاهر أنه إنما أراد ماذكرناه عن الصحابة . (١٠) حديث «لاوتران فى ليلة » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث طلق بن على . (١١) حديث « الركعتين بعد الوتر جالسا » تقدم فى الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة .

ذكره لكن ربما يخطر أنهما لو شفعتا مامضى لكان كذلك ، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شافعا إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظر إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إيتاره قبلهما وإعادته الوتر فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتهما وتر بمعناهما فيحسب وترا إن لم يستيقظ وشفعا إن استيقظ . ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت ، وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة [1] وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد [2] » وذلك يدل على صحة النافلة دائما .

الورد الثالث : النوم ولابأس أن يعد ذلك في الأوراد فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة فقد قيل : إن العبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك فإن تحرك في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله [3] ، وفي الخبر « إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش [4] » هذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية ؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار في النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح [5] » وقال معاذ لأبي موسى : كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأتفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ : لكني أنا أنام ثم أقوم وأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي . فذكرا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك [6] وآداب النوم عشرة (الأول) الطهارة والسواك : قال صلى الله عليه وسلم « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق [7] » وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعا ، وطهارة الباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيب (الثاني) أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره وينوي القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك ؛ كذلك كان يفعله بعض السلف . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها [8] وإن لم يتيسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر في آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل . وقال صلى الله عليه وسلم « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى [9] » (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن

---

(١) حديث « مامات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة » متفق عليه من حديث عائشة « لما بدن النبي صلى الله عليه وسلم وثقل كان أكثر صلاته جالسا » . (٢) حديث « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد » أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين . (٣) حديث « قيل إنه إذا نام على طهارة ذاكرا لله تعالى يكتب مصليا ويدخل في شعاره ملك .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر « من بات طاهراً بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرا » (٤) حديث « إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش » أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي الدرداء والبيهقي في الشعب موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص . وروى الطبراني في الأوسط من حديث على « ما من عبد ولا أمة تنام فتثقل نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكذب » هو ضعيف . (٥) حديث « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح » قلت المعروف فيه الصائم دون العالم . وقد تقدم في الصوم

(٦) حديث « قال معاذ لأبي موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأتفوق القرآن تفوقا قال معاذ لكني أنام ثم أقوم وأحتسب في نومتي ما احتسب في قومتي فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك » متفق عليه بنحوه من حديث أبي سعيد وليس فيه « أنهما ذكرا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم » ولا قوله « معاذ أفقه منك » وإنما زاد فيه الطبراني « فكان معاذ أفضل منه » . (٧) حديث « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة » الحديث تقدم . (٨) حديث « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومه وعند التنبه منها » تقدم في الطهارة .

(٩) حديث « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح .

القبض فى النوم فإنّ من مات من غير وصية لم يؤذن له فى الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، يتزاوره الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت الفجأة وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم (الرابع) أن ينام تائبا من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ، ولا يعزم على معصية إن استيقظ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم [1] » (الخامس) أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه . كان بعض السلف يكره التمهد للنوم ويرى ذلك تكلفا . وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا ويقولون منها خلقنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد (السادس) أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام فى آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدرى مايقول فلينم حتى يعقل ما يقول . وكان ابن عباس رضى الله عنه يكره النوم قاعدا وفى الخبر « لا تكابدوا الليل [2] » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ فلانة تصلى بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال : ليصل أحدكم من الليل ما تيسر له فإذا غلبه النوم فليرقد [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملوا [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « خير هذا الدين أيسره [5] » وقيل له صلى الله عليه وسلم « إنّ فلانا يصلى فلا ينام ويصوم فلا يفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله [7] » (السابع) أن ينام مستقبل القبلة . والاستقبال على ضربين أحدهما . استقبال المحتضر ـ وهو المستلقى على قفاه ـ فاستقباله أن يكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة . والثانى : استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شقه الأيمن (الثامن) الدعاء عند النوم فيقول باسمك ربى وضعت جنبي وباسمك أرفعه إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى كتاب الدعوات [8] ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسى وآخر البقرة وغيرهما وقوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يقال إنّ من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية ﴿ إنّ ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ إلى قوله

---

(١) حديث « من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب النية من حديث أنس « من أصبح ولم يهم بظلم أحد غفر له ما اجترم » وسنده ضعيف . (٢) حديث « لا تكابدوا الليل » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفى جامع سفيان الثورى موقوفا على ابن مسعود « لا تغالبوا هذا الليل » . (٣) حديث « قيل له إن فلانة تصلى فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهاهن عن ذلك .. الحديث » متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « اكلفوا » . (٥) حديث « خير هذا الدين أيسره » أخرجه أحمد من حديث محجن بن الأدرع وتقدم فى العلم .

(٦) حديث « قيل له إن فلانا يصلى ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال : لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى » أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « هذه سنتى » الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة « من رغب عن سنتى فليس منى » وهى متفق عليها من حديث أنس . (٧) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة « لن يشاد هذا الدين أحدا إلا غلبه فسددوا وقاربوا » وللبيهقى من حديث جابر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله » ولا يصح إسناده . (٨) حديث « الدعاء المأثور عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي ... الحديث » إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات .

(قريب من المحسنين) وآخر بنى إسرائيل (قل ادعوا الله) الآيتين فإنه يدخل فى شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ المعوذتين وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ، كذلك روى من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] وليقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآى للاستيقاظ لقيام الليل . وكان على كرم الله وجهه يقول : ماأرى أن رجلا مستكملا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمسا وعشرين مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) وقال (وهو الذى يتوفاكم بالليل) فسماه توفيا وكما أن المستيقظ تنكشف له مشاهدات لاتناسب أحواله فى النوم فكذلك المبعوث يرى مالم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه . ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه : يابنى إن كنت تشك فى الموت فلا تنم فكما أنك تنام كذلك تموت ، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك . وقال كعب الأحبار : إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر مايقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت فى ليلته تلك « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء ومليكه [٢] » الدعاء إلى آخره كما ذكرناه فى كتاب الدعوات . فحق على العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه : أنه على ماذا ينام وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أوحب الدنيا ؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ماأحب (العاشر) الدعاء عند التنبه فليقل فى تيقظاته وتقلباته مهما تنبه ماكان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار [٣] » وليجتهد أن يكون آخر مايجرى على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب . ولا يلازم القلب فى هاتين الحالتين إلا ماهو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فإنها علامة تكشف من باطن القلب وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى ، فإذا استيقظ ليقوم قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ .

الورد الرابع . يدخل بمضى النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد . فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذى بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال (والليل إذا سجى) أى إذا سكن وسكونه هدوء فى هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وقيل إذا سجى إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أسمع ؟ فقال جوف الليل [٤] » . وقال داود صلى الله عليه وسلم : إلهى إنى أحب أن أتعبد لك فأى وقت أفضل ؟ فأوحى الله تعالى إليه ياداود لاتقم أول الليل ولا آخره ، فإن من قام

---

(١) حديث « قراءة المعوذتين عند النوم ينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده » متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) حديث عائشة « كان آخر مايقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم .. الحديث » تقدم فى الدعوات دون : وضع الخد على اليد وتقدم من حديث حفصة . (٣) حديث « كان يقول عند تيقظه : لاإله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » أخرجه ابن السنى وأبو نعيم فى كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة . (٤) حديث « سئل أى الليل أسمع ؟ قال : جوف الليل » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث عمرو بن عبسة .

أوله نام آخره ، ومن قام آخره لم يقم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بى وأخلو بك ، وارفع إلى حوائجك وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أفضل ؟ فقال : نصف الليل الغابر [١] » يعنى الباقى وفى آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا [٢] وغير ذلك من الأخبار . وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التى للاستيقاظ يتوضأ وضوءا - كما سبق - بسننه وآدابه وأدعيته . ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلا القبلة ، ويقول « الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا » ثم يسبح عشرا وليحمد الله عشرا ويهلل عشرا وليقل « الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة » وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيامه للتهجد « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفرلى ما قدمت وماأخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت [٣] اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها [٤] اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لايصرف عنى سيئها إلا أنت [٥] أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين وأكرم المعطين [٦] » وقالت عائشة رضى الله عنها « كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال . اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم [٧] » ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين . ثم يصلى مثنى مثنى ماتيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر . ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح فى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة

---

(١) حديث « سئل أى الليل أفضل ؟ قال : نصف الليل الغابر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبى ذر دون قوله « الغابر » وهى فى بعض طرق حديث عمرو بن عبسة . (٢) الأخبار الواردة فى اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن فى آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا ؛ أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقى فهى آثار رواها محمد بن نصر فى قيام الليل من رواية سعيد الجريرى قال « قال داود : ياجبريل أى الليل أفضل ؟ قال : ماأدرى غير أن العرش يهتز من السحر » وفى رواية له عن الجريرى عن سعيد بن أبى الحسن قال « إذا كان من السحر ألاترى كيف تفوح ريح كل شجر » وله من حديث أبى الدرداء مرفوعا « إن الله تبارك وتعالى لينزل فى ثلاث ساعات بقين من الليل يفتتح الذكر فى الساعة الأولى » وفيه « ثم ينزل فى الساعة الثانية إلى جنة عدن ... الحديث » وهو مثله . (٣) حديث « القول فى قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض » ودون قوله « ومن عليهن ومنك الحق » . (٤) حديث « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة « أنها فقدت النبى صلى الله عليه وسلم من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسى تقواها ... الحديث » . (٥) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لايصرف عنى سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم من حديث على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام إلى الصلاة » فذكره بلفظ « لأحسن الأخلاق » وفيه زيادة فى أوله . (٦) حديث « أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الذليل .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس « أنه كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم عشية عرفة » تقدم فى الحج (٧) حديث عائشة « كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ... الحديث » رواه مسلم .

ركعة [١] وسئلت عائشة رضى الله عنها « أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر فى قيام الليل أم يسر ؟ فقالت : ربما جهر وربما أسر [٢] وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة [٣] » وقال « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل [٤] » وأكثر ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل ثلاث عشرة ركعة [٥] ويقرأ فى هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ماخف عليه وهو فى حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل .

الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره [٦] فى حديث طويل قال فى آخره « فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : نم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له : نم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان : قم الآن ، فقاما فصليا فقال : إن لنفسك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لاينام الليل قال : فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال : صدق سلمان . وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السحور وذلك عند خوف طلوع الفجر والوظيفة فى هذين الوردين الصلاة . فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلى ركعتى الفجر وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ ثم يقرأ ﴿ شهد الله أنه لاإله إلاهو والملائكة ﴾ إلى آخرها . ثم يقول وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله تعالى وديعة وأسأله حفظها حتى يتوفانى عليها . اللهم احطط عنى بها وزرا واجعلها لى عندك ذخرا واحفظها على وتوفنى عليها حتى ألقاك بها غير مبدّل تبديلا . فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك فى كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعيادة مريض وشهود جنازة ففى الخبر « من جمع بين هذه الأربع فى يوم غفر له [٧] » وفى رواية « دخل الجنة » فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته وكانوا يكرهون أن ينقضى اليوم ولم يتصدّقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلة أو كسرة خبز لقوله صلى الله عليه وسلم « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس [٨] » ولقوله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة [٩] » ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأخذها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت : مالكم إن فيها لمثاقيل ذر كثير ؟ وكانوا لايستحبون رد السائل إذ كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك

---

(١) حديث « أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة » أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهنى . (٢) حديث « سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل أم يسر ؟ فقالت ربما جهر وربما أسر » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه وقد تقدم .

(٤) حديث « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح .

(٥) حديث « القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة وإنه أكثر ماصح عنه » تقدم . (٦) حديث « زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان نم فنام .. الحديث » وفى آخره فقال « صدق سلمان » أخرجه البخارى من حديث أبى جحيفة . (٧) حديث « من جمع بين صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة فى يوم غفر له » وفى رواية « دخل الجنة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة « مااجتمعن فى امرىء إلا دخل الجنة » . (٨) حديث « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » تقدم فى الزكاة . (٩) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » تقدم فى الزكاة .

ماسأله أحد شيئا فقال : لا ، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت [١] وفى الخبر « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعنى المفصل وفى جسده ثلثمائة وستون مفصلا فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإماطتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتهليل . ثم قال وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله [٢] » .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن المريد لحرث الآخرة السالك لطريقها لايخلو عن ستة أحوال فإنه : إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره (الأول) العابد : وهو المتجرد للعبادة الذى لا شغل له غيرها أصلا ولو ترك العبادة لجلس بطالا فترتيب أوراده ماذكرناه ، نعم لايبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما فى الصلاة أو القراءة أو فى التسبيحات فقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من ورده فى اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة . وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا . وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة . وأقل مانقل فى أورادهم من الصلاة مائة ركعة فى اليوم والليلة . وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يختم الواحد منهم فى اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم : وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليل فى التفكر فى آية واحدة يرددها . وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة فكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعا وفى كل ليلة سبعين أسبوعا وكان مع ذلك يختم القرآن فى اليوم والليلة مرتين . فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ * فإن قلت : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد فاعلم أن قراءة القرآن فى الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيرا فيه فليواظب عليه . فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات - كما سبق - والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن الملال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد فى ذلك أيضا تختلف . ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى فإن سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع فى قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا . وقد روى عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت : فما اسمك ؟ قال : مهلهيائيل قلت : فما ثواب من قاله ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . والتسبيح هو قوله « سبحان الله العلى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان » فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له فى قلبه وقعا فليلازمه . وأيا ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه (الثانى) العالم الذى ينفع الناس بعلمه فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد ؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ، ويحتاج إلى مدة لها لامحالة فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل مايشتغل

---

(١) حديث « ماسأله أحد شيئاً فقال لا إن لم يقدر عليه سكت » أخرجه مسلم من حديث جابر والبزار من حديث أنس « أو يسكت » . (٢) حديث « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر .

به بعد المكتوبات ورواتبها . ويدل على ذلك جميع ماذكرناه فى فضيلة التعليم والتعلم فى كتاب العلم . وكيف لايكون كذلك وفى العلم المواظبة على ذكر الله تعالى ؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعا . وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة العلم الذى يرغب الناس فى الآخرة ويزهدهم فى الدنيا أو العلم الذى يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك ، دون العلوم التى تزيد بها الرغبة فى المال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فإن استغراق الأوقات فى ترتيب العلم لايحتمله الطبع . فينبغى أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه فى الورد الأول . وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار فى الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة ، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات . ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لايتركها إلا فى وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار . ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع مايقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع . ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس فى عمل اللسان . ووورده الثانى فى عمل القلب بالفكر إلى الضحوة ووورده الثالث إلى العصر فى عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة . ووورده الرابع بعد العصر فى عمل السمع ليروح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين . وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب فى الجميع . وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعى رضى الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير . وهذا يتيسر فى ليالى الشتاء ، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا مانستحبه من ترتيب أوراد العالم (الثالث) المتعلم : والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم فى ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا . وكل ماذكرناه فى فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل . بل إن لم يكن متعلما على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالما . بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التى ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفى سائر الأوقات . ففى حديث أبى ذر رضى الله عنه « أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها فقيل يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر (٢) » وقال كعب الأحبار رضى الله عنه : لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذى إمارة إمارته وكل ذى سوق سوقه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله أشكو إليك قساوة قلبى فقال : أدنه من مجالس الذكر .

---

(١) حديث أبى ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » تقدم فى العلم .

(٢) حديث « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ... الحديث » تقدم فى العلم .

ورأى عمار الزاهدى مسكينة الطفاوية فى المنام وكانت من المواظبات على حلق الذكر فقال : مرحبا يامسكينة فقالت : هيهات هيهات ذهبت المسكنة وجاء الغنى ! فقال : هيه ! فقالت : ماتسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها ؟ قال : وبم ذلك ؟ قالت : بمجالسة أهل الذكر . وعلى الجملة فما ينحل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكى السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حب الدنيا (الرابع) المحترف الذى يحتاج إلى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات بل ورده فى وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغى أن لاينسى ذكر الله تعالى فى صناعته بل يواظب على التسبيحات الأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل . وإنما لايتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناطورا فإنه لايعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه . ثم مهما فرغ من كفايته ينبغى أن يعود إلى ترتيب الأوراد . وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التى ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له فى نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر (الخامس) الوالى : مثل الإمام والقاضى والمتولى فى أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهارا ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل ، كما كان عمر رضى الله عنه يفعله إذ قال : مالى وللنوم فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين ولو نمت بالليل ضيعت نفسى . وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران أحدهما : العلم ، والآخر : الرفق بالمسلمين ، لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل فى نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدمين عليه (السادس) الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذى أصبح وهمومه هم واحد فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر فى شىء إلا ويرى الله تعالى فيه . فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحد وهو حضور القلب مع الله تعالى فى كل حال ، فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد ، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لازديادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ لعلكم تذكرون ففروا إلى الله ﴾ وتحقق فيهم قوله تعالى ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ وإليه الإشارة بقوله ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ وهذه منتهى درجات الصديقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهرا طويلا فلاينبغى أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهجس فى قلبه وسواس ولا يخطر فى قلبه معصية ولا تزعجه هواجم الأهوال ولا تستفزه عظائم الأشغال . وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد . فيتعين على الكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ماذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض . وفى الخبر « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلثمائة طريقة من لقى الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة [1] » وقال بعض العلماء : الإيمان ثلثمائة وثلاثة عشر خلقا

---

(١) حديث « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلثمائة طريقة من لقى الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة » أخرجه ابن شاهين واللالكائى فى السنة والطبرانى والبيهقى فى الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبد عن أبيه عن جده « الإيمان ثلثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة » وقال الطبرانى والبيهقى « ثلثمائة وثلاثون » وفى إسناده جهالة .

بعدد الرسل فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله . فإذن الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وإنما يتفاوتون فى درجات القرب لافى أصله ، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لابد وأن يكون أعبدهم له ؛ فمن عرفه لم يعبد غيره . والأصل فى الأوراد فى حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة . وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لايحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثرا محسوسا ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحى الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لايصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ؛ فلو بالغ ليلة فى التكرار وترك شهرا أو أسبوعا ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه . ولو وزع ذلك القدر على الليالى المتواصلة لأثر فيه . ولهذا السر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل [(١)] » . وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبته [(٢)] » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقته الله [(٣)] » وهذا كان السبب فى صلاته بعد العصر تداركا لما فاته من ركعتين شغله عنهما الوفد ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن فى منزله لافى المسجد كيلا يقتدى به [(٤)] رونه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ● فإن قلت : فهل لغيره أن يقتدى به فى ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى الكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذرا من الملال لايتحقق فى حقه فلا يقاس عليه فى ذلك غيره . ويشهد لذلك فعله فى المنزل حتى لايقتدى به صلى الله عليه وسلم .

الباب الثانى : فى الأسباب الميسرة لقيام الليل وفى الليالى التى يستحب إحياؤها وفى فضيله إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء مابين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضى الله عنها « إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصرا فى الجنة [(٥)] » قال الراوى : لاأدرى من ذهب أوفضة ؟ « ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة » وروت أم سلمة وأبو هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر [(٦)] » وعن سعيد بن جبير عن ثوبان

---

(١) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبته » رواه مسلم . (٣) حديث « من عوده الله عبادة فتركها ملالا مقته الله » تقدم فى الصلاة وهو موقوف على عائشة . (٤) حديث « شغله الوفد عن ركعتين فصلاهما بعد العصر ثم لم يزل يصليهما بعد العصر فى منزله » متفق عليه من حديث أم سلمة « أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شغلنى ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر » ولهما من حديث عائشة « ماتركهما حتى لقى الله وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصليهما ولا يصليهما فى المسجد مخافة أن يثقل على أمته » والله الموفق للصواب .

الباب الثانى : فى الأسباب الميسرة لقيام الليل

(٥) حديث عائشة « إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم . . الحديث » رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصفار فى كتاب الصلاة ورواه الطبرانى فى الأوسط مختصرا وإسناده ضعيف . (٦) حديث أم سلمة عن أبى هريرة « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر » أخرجه الترمذى وابن ماجه بلفظ =

قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراساً لو طافه أهل الدنيا لوسعهم [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ركع عشر ركعات مابين المغرب والعشاء بنى الله له قصرانى الجنة فقال عمر رضى الله عنه : إذاً تكثر قصورنا يارسول الله فقال : الله أكثر وأفضل - أوقال - أطيب [2] » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى المغرب فى جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد لاإله إلا هو الرحمن الرحيم إنّ فى خلق السموات والأرض إلى آخر الآية وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام فى الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين بعدها إلى قوله (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله لله مافى السموات ومافى الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة [3] » وصف من ثوابه فى الحديث مايخرج عن الحصر وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال : قلت للخضر عليه السلام علمنى شيئاً أعمله فى كل ليلة فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليا من غير أن تكلم أحداوأقبل على صلاتك التى أنت فيهاوسلم من كل ركعتين واقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثاً فإن فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولاتكلم أحداوصل ركعتين واقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات فى كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالسا وارفع يديك وقل ياحى ياقيوم ياذا الجلال والإكرام ياإله الأولين والآخرين يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يارب يارب ياالله يا الله يا الله ، ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء ، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك وصل على النبى صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم . فقلت له : أحب أن تعلمنى ممن سمعت هذا ؟ فقال : إنى حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به فكنت عنده وكان ذلك بمحضر منى فتعلمته ممن علمه إياه [4] ويقال إنّ هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه قبل أن يخرج من الدنيا ؛ وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وعلمه . وعلى الجملة ماورد فى فضل إحياء مابين العشاءين كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال : مابين المغرب والعشاء [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى مابين المغرب والعشاء تلك

= اثنتى عشرة سنة وضعفه الترمذى وأما قوله « كأنه صلى ليلة القدر » فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصفار ، ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس « من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحداً وضعت له فى عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر فى المسجد الأقصى » وسنده ضعيف . (١) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان « من عكف نفسه مابين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة » لم أجد له أصلا من هذا الوجه وقد تقدم فى الصلاة من حديث ابن عمر . (٢) حديث « من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصراً فى الجنة فقال عمر إذاً تكثر قصورنا يارسول الله ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث عبد الكريم ابن الحارث مرسلا . (٣) حديث أنس « من صلى المغرب فى جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولايتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد .. الحديث » أخرجه أبو الشيخ فى الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف (٤) حديث كرز بن وبرة « أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء ، وفيه أن كرزاً سأل الخضر ممن سمعت هذا ؟ قال : إنى حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حين علم هذا الدعاء ... الحديث » وهذا باطل لاأصل له . (٥) حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال مابين المغرب والعشاء » رواه أحمد وفيه رجل لم يسم .

صلاة الأوابين [١] » وقال الأسود ماأتيت ابن مسعود رضى الله عنه فى هذا الوقت إلا ورأيته يصلى فسألته فقال : نعم هى ساعة الغفلة : وكان أنس رضى الله عنه يواظب عليهاويقول : هى ناشئةالليل ، ويقول : فيها نزل قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيي مابينهما ؟ فقال : اجمع بينهما ، فقلت : إن لم يتيسر ؟ قال أفطر وصل ما بينهما .

فضيلة قيام الليل

أما من الآيات : فقوله تعالى (إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل) الآية وقوله تعالى (إنّ ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) وقوله سبحانه وتعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل) الآية وقوله عزوجل (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) قيل هى قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس . ومن الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان [٢] » وفى الخبر « أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه [٣] » وفى الخبر « إنّ للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا فإذا أسعط العبد ساء خلقه وإذا ألعقه ذرب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى يصبح [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « ركعتان يركعهما العبد فى جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتى لفرضتهما عليهم [٥] » وفى الصحيح عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من الليل ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه » وفى رواية « يسأل الله تعالى خيرا من الدنيا والآخرة وذلك فى كل ليلة » وقال المغيرة بن شعبة : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه فقيل له : أما قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا [٦] ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن الشكر سبب المزيد قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقال صلى الله عليه وسلم « ياأبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا ومبعوثا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ياأبا هريرة صل فى زوايا بيتك يكن نور بيتك فى السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . فإن قيام الليل قربة إلى الله عزوجل وتكفير للذنوب

---

(١) حديث « من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين » تقدم فى الصلاة .
(٢) حديث « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٣) حديث « ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه » متفق عليه من حديث ابن مسعود .
(٤) حديث « إن للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أنس « إن للشيطان لعوقا وكحلا فإذا لعق الإنسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كحله من كحله نامت عيناه عن الذكر » ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف . (٥) حديث « ركعتان يركعهما العبد فى جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتى لفرضتهما عليهم » أخرجه آدم بن أبى إياس فى الثواب ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلا ووصله أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولايصح . (٦) حديث المغيرة بن شعبة « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه ... الحديث » متفق عليه . (٧) حديث « ياأبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ، ياأبا هريرة صل فى زوايا بيتك يكن نور بيتك فى السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا » باطل لاأصل له .

ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الإثم [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلاكتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر « لو أردت سفرا أعددت له عدة ؟ قال : نعم ، قال : فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أباذر بما ينفعك ذلك اليوم ؟ قال : بلى بأبى أنت وأمى ، قال : صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور وحج حجة لعظائم الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها [٣] » وروى « أنه كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلى ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرنى منها ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فآذنونى فأتاه فاستمع فلما أصبح قال : يا فلان هلا سألت الله الجنة ؟ قال : يارسول الله إنى لست هناك ولا يبلغ عملى ذاك فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال : أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة [٤] » ويروى « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلى بالليل ، فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل [٥] » قال نافع : كان يصلى بالليل ثم يقول : يانافع أسحرنا ؟ فأقول : لا ، فيقوم لصلاته ثم يقول يانافع أسحرنا ؟ فأقول : نعم ، فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر . وقال على بن أبى طالب شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه : يايحيى أوجدت دارا خيرا لك من دارى ؟ أم وجدت جوارا خيرا لك من جوارى ؟ فوعزتى وجلالى يايحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح » . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق فقال : سينهاه مايعمل [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح فى وجهها الماء [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » وقال صلى الله عليه وسلم « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل [٩] » وقال

---

(١) حديث « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث بلال وقال غريب ولا يصح ورواه الطبرانى والبيهقى من حديث أبى أمامة بسند حسن وقال الترمذى إنه أصح .

(٢) حديث « مامن امرئ يكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سماه النسائى فى رواية الاسود بن يزيد لكن فى طريقه ابن جعفر الرازى قال النسائى ليس بالقوى ورواه النسائى وابن ماجه من حديث أبى الدرداء نحوه بسند صحيح وتقدم فى الباب قبله .

(٣) حديث إنه قال لأبى ذر « لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف بسفر طريق القيامة ألا أنبئك ياأبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بأبى وأمى قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب التهجد من رواية السرى بن مخلد مرسلا والسرى ضعفه الأزدى .

(٤) حديث « أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلى ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فآذنونى ... الحديث » لم أقف له على أصل . (٥) حديث « أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلى بالليل ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك » وليس فيه ذكر لجبريل . (٦) حديث « قيل له إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه مايعمل » أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة . (٧) حديث « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة . (٨) حديث « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى سعيد بسند صحيح . (٩) حديث « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال صلى الله عليه وسلم « من نام عن حزبه أو عن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل (١) » الآثار : روى أن عمر رضى الله عنه كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح ويقال : إن سفيان الثورى رحمه الله شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد فى علفه زيد فى عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح . وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلى إلى الصباح ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين . وقال الحسن رحمه الله : مانعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له : مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره . وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبدا . وكان عبد العزيز بن رواد إذا جن عليه الليل يأتى فراشه فيمر يده عليه ويقول : إنك للين ووالله إن فى الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله . وقال الفضيل : إنى لأستقبل الليل من أوله فيهولنى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتى . وقال الحسن : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك . وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلى الليل كله فإذا كان فى السحر قال : إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ولكن أجرنى برحمتك من النار . وقال رجل لبعض الحكماء : إنى لأضعف عن قيام الليل ، فقال له « يا أخى لا تعص الله تعالى ولا تقم بالليل . وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان فى جوف الليل قامت الجارية فقالت : يأهل الدار الصلاة الصلاة! فقالوا : أصبحنا أطلع الفجر ؟ فقالت : وماتصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم ؛ فرجعت إلى الحسن فقالت : يامولاى بعتنى من قوم لايصلون إلا المكتوبة ؟ ردنى . فردها ، وقال الربيع : بت فى منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الجويرية . لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض . وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل فمر بقوم فقالوا : إنّ هذا يحيى الليل كله : فقال : إنى أستحى أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يحيى الليل كله . ويروى أنه ماكان له فراش بالليل . ويقال : إنّ مالك بن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية : وقال المغيرة بن حبيب : رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة فجعل يقول حرم شيبة مالك على النار إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك ؟ وأى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر . وقال مالك بن دينار : سهوت ليلة عن وردى ونمت فإذا أنا فى المنام بجارية كأحسن مايكون وفى يدها رقعة فقالت لى : أتحسن تقرأ ؟ فقلت : نعم ، فدفعت إلى الرقعة فإذا فيها :

أألهتك اللذائذ والأمانى ... عن البيض الأوانس فى الجنان
تعيش مخلدا لاموت فيها ... وتلهو فى الجنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيرا ... من النوم التهجد بالقرآن

وقيل حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجدا . ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال : رأيت فى

---

(١) حديث عمر « من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل » رواه مسلم

المنام امرأة لاتشبه نساء أهل الدنيا فقلت لها : من أنت ؟ قالت : حوراء ؛ فقلت : زوجينى نفسك ؛ فقالت اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى ؛ فقلت : وما مهرك ؟ قالت : طول التهجد وقال يوسف بن مهران : بلغنى أن تحت العرش ملكا فى صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصئصئه من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم المتهجدون ؛ فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم المصلون ؛ فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم . وقيل إنّ وهب بن منبه اليمانى ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول : لأن أرى فى بيتى شيطانا أحب إلى من أن أرى فى بيتى وسادة لأنها تدعو إلى النوم ، وكانت له مسورة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى الصلاة . وقال بعضهم : رأيت رب العزة فى النوم فسمعته يقول : وعزتى وجلالى لأكرمن مثوى سليمان التيمى فإنه صلى لى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة . ويقال كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء ، وروى فى بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال : إن عبدى الذى هو عبدى حقا الذى لاينتظر بقيامه صياح الديكة .

بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا

فأما الظاهرة فأربعة أمور (الأول) أن لايكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتتحسروا عند الموت كثيرا . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام (الثانى) أن لايتعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم (الثالث) أن لايترك القيلولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل[1] (الرابع) أن لايحتقب الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسن : يا أبا سعيد إنى أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدّ طهورى فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيلون . وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلا يبكى فقلت فى نفسى هذا مراء وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى فقلت أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد ؛ فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد ؛ قلت : فماذاك ؟ قال : بابى مغلق وسترى مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وماذاك إلا بذنب أحدثته . وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : لاتفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بعد . وقال بعض العلماء : إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أى شىء تفطر فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى . فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام . وتؤثر اللقمة الحلال فى تصفية القلب وتحريكه إلى الخير مالا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له . ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة ؟ وإن العبد ليأكل أكلة أويفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة . وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات . وقال بعض السجانين

(١) حديث « الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم .

كنت سجانا نيفا وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء فى جماعة فكانوا يقولون : لا ؟ وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطى الفحساء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور : (الأول) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لايتيسر له القيام ، وإن قام فلا يتفكر فى صلاته إلا فى مهماته ولا يجول إلا فى وساوسه وفى مثل ذلك يقال :

يخبرنى البـــواب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

(الثانى) : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر فى أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال طاوس : إنّ ذكر جهنم طير نوم العابدين . وكما حكى أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدته : إنّ قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار ، فقال : إنّ صهيبا إذا ذكر النار لايأتيه النوم وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتدّ خوفى وإذا ذكرت الجنة اشتدّ شوقى فلا أقدر أن أنام وقال ذو النون المصرى رحمه الله :

منع القران بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليـــه تخضعا

وأنشدوا أيضاً :

يا طويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
إن فى القبر إن نزلت إليه لرقادا يطول بعـــد الممات
ومهادا ممهـــدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك المو ت وكم نال آمنا ببيات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليـــل أظلم كابدوه فيسفر عنهـــم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

(الثالث) أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنان ؛ كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أتفكر فى حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتى شوقا إليها .

(الرابع) وهو أشرف البواعث ؛ الحب لله وقوة الإيمان بأنه فى قيامه لايتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة مايخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحب الله تعالى أحب لامحالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام . ولا ينبغى أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل . فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به فى الخلوة ومناجاته حتى لايأتيه النوم طول ليله ؟ فإن قلت : إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لايرى ؟ فاعلم

أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان فى بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمحاورته المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه . وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده * فإن قلت : إنه ينتظر جوابه فليتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى ؟ فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة فى عرض أحواله عليه ورفع سريرته إليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل مايرد على خاطره فى أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل يتلذذ به فى رجاء إنعامه . والرجاء فى حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات ؟ وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل فى تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ماراعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد . وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقنى إلى الفجر ومرة يقطعنى عن الفكر . وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ، ماتم فرحى به قط وقال على بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزننى شىء سوى طلوع الفجر . وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتى بربى وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على . وقال أبو سليمان : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا . وقال أيضا : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم مايجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم . وقال بعض العلماء : ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا مايجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة . وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هى من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لايجدها سواهم ، وقال ابن المنكدر : مابقى من لذات الدنيا إلا ثلاث قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة فى الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى أحبهم ويحبوننى ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكروننى وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وماعلامتهم؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا إلى بإنعامى فبين صارخ وباكى وبين متأوه وشاكى بعينى مايتحملون من أجلى وبسمعى ما يشتكون من حبى أول ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل . وكانوا يرون مايجدون من الرقة والحلاوة فى قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق ستأتى الإشارة إليه فى كتاب المحبة . وفى الأخبار عن الله عز وجل « أى عبدى أنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى » وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يابنى إن لله نفحات فى الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ؛ فقال : ياسيدى تركتنى لا أنام بالليل ولا بالنهار

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما فى قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل . وفى الخبر الصحيح عن جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من الليل ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه [1] » وفى رواية أخرى « يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه وذلك كل ليلة » ومطلوب القائمين تلك الساعة وهى مبهمة فى جملة الليل كليلة القدر فى شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهى ساعة النفحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب (الأولى) إحياء كل الليل وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الليل وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار وفى وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المكى أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واظب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم ـ المدنيان ـ وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد ـ المكيان ـ وطاوس ووهب بن منبه ـ اليمانيان ـ والربيع بن خيثم والحكم ـ الكوفيان ـ وأبو سليمان الدارانى وعلى بن بكار ـ الشاميان ـ وأبو عبدالله الخواص وأبو عاصم ـ العباديان ـ وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلمانى ـ الفارسيان ـ ومالك بن دينار سليمان التيمى ويزيد الرقاشى وحبيب بن أبى ثابت ويحيى البكاء ـ البصريون ـ وكهمس بن المنهال وكان يختم فى الشهر تسعين ختمة ومالم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى . وأيضا من أهل المدينة : أبو حازم ومحمد بن المنكدر فى جماعة يكثر عددهم (المرتبة الثانية) أن يقوم نصف الليل : وهذا لاينحصر عدد المواظبين عليه من السلف . وأحسن فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه فى جوف الليل ووسطه فهو الأفضل (المرتبة الثالثة) أن يقوم ثلث الليل : فينبغى أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقلل صفرة الوجه والشهرة به فلو قام أكثر الليل ونام سحرا قلت صفرة وجهه وقل نعاسه . وقالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة [2] » ، وقالت أيضا رضى الله عنها « ماألفيته بعد السحر إلا نائما [3] » ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضى الله عنه . وكان نوم هذا الوقت سببا للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة

---

(١) حديث جابر « إن من الليل ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » رواه مسلم .

(٢) حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاة » أخرجه مسلم من حديث عائشة « كان ينام أول الليل ويحيى آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام » وقال النسائى « فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة إلى أهله » ولأبى داود « كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثنى وإن كنت نائمة أيقظنى وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاة الصبح فيصلى ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة » وهو متفق عليه بلفظ « كان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثنى وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة » وقال مسلم « إذا صلى ركعتى الفجر » (٣) حديث عائشة « ماألفيته بعد السحر الأعلى إلا نائما » متفق عليه بلفظ « ماألفى رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر الأعلى فى بيتى أو عندى إلا نائما » لم يقل البخارى « الأعلى » وقال ابن ماجه « ماكنت ألقى أو ألفى النبى صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عندى »

تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير . ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم (المرتبة الرابعة) أن يقوم سدس الليل أو خمسه وأفضله أن يكون فى النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه (المرتبة الخامسة) أن لا يراعى التقدير فإن ذلك إنما يتيسر لنبى يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظه ثم ربما يضطرب فى ليالى الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم . فيكون له فى الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأسدّ الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، وهو طريقة ابن عمر وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضى الله عنهم . وكان بعض السلف يقول : هى أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لى عينا . فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه [2] يختلف ذلك فى الليالى ودل عليه قوله تعالى فى الموضعين من سورة المزمل (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) فأدنى من ثلثى الليل كأنه نصفه ونصف سدسه فإن كسر قوله (ونصفه وثلثه) كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضى الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ [3] » يعنى الديك وهذا يكون السدس فما دونه . وروى غير واحد أنه قال « راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال (ربنا ما خلقت هذا باطلا) حتى بلغ (إنك لا تخلف الميعاد) ثم استل من فراشه سواكا فاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت : صلى مثل الذى نام . ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ما صلى . ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة [4] » (المرتبة السادسة) وهى الأقل : أن يقوم مقدار اربع ركعات أو ركعتين أو تتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء فيكتب فى جملة قوام الليل برحمة الله وفضله وقد جاء فى الأثر : صل من الليل ولو قدر حلب شاة [5] فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه . وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذى بعد العشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح

---

(١) حديث « قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له فى الليل نومتان » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أم سلمة « كان يصلى وينام قدر ما صلى ثم يصلى قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح » وللبخارى من حديث ابن عباس « صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام » وفيه « فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه ... الحديث » .

(٢) حديث « ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه » أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ ... الحديث » وفى رواية للبخارى « فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء ... الحديث » ولأبى داود « قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ ... الحديث » لمسلم من حديث عائشة « فيبعثه الله عز وجل ما شاء أن يبعثه من الليل » . (٣) حديث عائشة « كان يقوم إذا سمع الصارخ » متفق عليه . (٤) حديث « غير واحد قال : راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك — حتى بلغ — انك لا تخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواكا فاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام .. الحديث » أخرجه النسائى من رواية حميد بن عبد الرحمن بن عوف « أن رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : قلت وأنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأرقبن رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن مغيث فى كتاب الصلاة من رواية اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة « أن رجلا قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر الحديث وفيه « أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل » وهذا يدل أنه أيضاً كان فى سفر .

(٥) حديث « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس فى صلاة الليل مرفوعا « نصفه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة » ولأبى الوليد بن مغيث من رواية اياس بن معاوية مرسلا « لابد من صلاة الليل ولو حلبة ناقة أو حلبة شاة » .

نائما ويقوم بطرفى الليل (وهذه هى المرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره : وأما فى الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر فليس يجرى أمرهما فى التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ماذكرناه فى السادسة ، ولا الخامسة دون الرابعة .

بيان الليالى والأيام الفاضلة

اعلم أن الليالى المخصوصة بمزيد الفضل التى يتأكد فيها استحباب الإحياء فى السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغى أن يغفل المريد عنها فإنها مواسم الخيرات ومظان التجارات . ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح . فستة من هذه الليالى فى شهر رمضان : خمس فى أوتار العشر الأخير إذ فيها يطلب ليلة القدر . وليلة سبع عشرة من رمضان ـ فهى ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله : هى ليلة القدر ـ وأما التسع الأخر : فأول ليلة من المحرم . وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه . وليلة سبع وعشرين منه وهى ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال صلى الله عليه وسلم « للعامل فى هذه الليلة حسنات مائة سنة (١) فمن صلى فى هذه الليلة اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد فى كل ركعتين ويسلم فى آخرهن ثم يقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائما فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو فى معصية ـ وليلة النصف من شعبان ـ ففيها مائة ركعة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها كما أوردناه فى صلاة التطوع ـ وليلة عرفة . وليلتا العيدين : قال صلى الله عليه وسلم « من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب (٢) » .

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة . ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب ـ له شرف عظيم روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا (٣) » وهو اليوم الذى أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ـ ويوم سبعة عشر من رمضان ـ وهو يوم وقعة بدر ـ ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة ، ويوما العيدين والأيام المعلومات وهى عشر من ذى الحجة . والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة (٤) » وقال بعض العلماء : من أخذه مهناة فى الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناة فى الآخرة وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء ومن فواضل الأيام فى الأسبوع يوم الخميس والاثنين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى : وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام فى كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين .

---

(١) حديث « الصلاة المأثورة فى ليلة السابع والعشرين من رجب » ذكر أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل والأيام الليالى : أن أبا محمد الجبارى رواه من طريق الحاكم أبى عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعا ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث منكر . (٢) حديث « من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » أخرجه باسناد ضعيف من حديث أبى أمامة . (٣) حديث أبى هريرة « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذى هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الليالى والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه . (٤) حديث أنس « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » تقدم فى الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه بجملته ابن حبان فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

تم الربع الأول من كتاب : إحياء علوم الدين ، وهو ربع العبادات ويتلوه : الربع الثانى ، وهو ربع العادات

فهرس

الجزء الأول

من إحياء علوم الدين

صحيفة	
ب	ترجمة الإمام الغزالى
د	ترجمة الإمام العراقى
١	خطبة الكتاب
٤	كتاب العلم وفيه سبعة أبواب
	الباب الأول فى فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل
	فضيلة العلم
٨	فضيلة التعلم
٩	فضيلة التعليم
١٢	فى الشواهد العقلية
١٣	الباب الثانى فى العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة
	بيان العلم الذى هو فرض عين
١٩	بيان العلم الذى هو فرض كفاية
٢٩	الباب الثالث فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذى قد يكون به بعض العلوم مذموما . بيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها . بيان علة ذم العلم المذموم
٣١	بيان ما بدل من ألفاظ العلوم
٣٨	بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة
٤١	الباب الرابع فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها
٤٢	بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رحمهم الله تعالى
٤٥	بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق
٤٨	الباب الخامس فى آداب المتعلم والمعلم أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنتظم تفاريقها فى عشر جمل
٥٥	بيان وظائف المرشد المعلم
٥٨	الباب السادس فى آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء
٨٣	الباب السابع فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه . بيان شرف العقل
٨٥	بيان حقيقة العقل وأقسامه
٨٧	بيان تفاوت النفوس فى العقل
٨٩	كتاب قواعد العقائد
	وفيه أربعة فصول
	الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة الخ
٩٤	الفصل الثانى فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد
١٠٤	الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس وفيها أركان أربعة
١٠٥	فأما الركن الأول من أركان الإيمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول
١٠٨	الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول
١١٠	الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى ومداره على عشرة أصول
١١٤	الركن الرابع فى السمعيات وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول
١١٦	الفصل الرابع فى الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل
	مسألة اختلفوا فى أن الإسلام هو الإيمان أو غيره الخ

صحيفة

١٢٠ مسألة فان قلت فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص الخ
١٢١ مسألة فان قلت ماوجه قول السلف أنا مؤمن إن شاء الله الخ
١٢٥ كتاب أسرار الطهارة
وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات
١٢٨ القسم الأول فى طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة. الطرف الأول فى المزال
الطرف الثانى فى المزال به
١٣٠ الطرف الثالث فى كيفية الإزالة
القسم الثانى طهارة الأحداث ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء
باب آداب قضاء الحاجة
١٣٢ كيفية الاستنجاء
كيفية الوضوء
١٣٥ فضيلة الوضوء
١٣٦ كيفية الغسل
كيفية التيمم
١٣٧ القسم الثالث فى النظافة والتنظيف عن الفضلات الظاهرة وهى نوعان أوساخ وأجزاء
النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترشحة وهى ثمانية
١٤٠ النوع الثانى فيما يحدث فى البدن من الأجزاء وهى ثمانية
١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهماتها
وفيه سبعة أبواب
١٤٦ الباب الأول فى فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها
فضيلة الأذان
فضيلة المكتوبة
١٤٧ فضيلة إتمام الأركان
١٤٨ فضيلة الجماعة

صحيفة

١٤٩ فضيلة السجود
١٥٠ فضيلة الخشوع
١٥١ فضيلة المسجد وموضع الصلاة
١٥٢ الباب الثانى فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وماقبله
١٥٣ القراءة
١٥٤ الركوع ولواحقه
السجود
١٥٥ التشهد
١٥٦ المنهيات
١٥٧ تمييز الفرائض والسنن
١٥٩ الباب الثالث فى الشروط الباطنة من أعمال القلب الخ
بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب
١٦١ بيان المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة
١٦٣ بيان الدواء النافع فى حضور القلب
١٦٥ بيان تفصيل ماينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة
١٧١ حكايات وأخبار فى صلاة الخاشعين
١٧٣ الباب الرابع فى الإمامة والقدوة الخ
١٧٨ الباب الخامس فى فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها
فضيلة الجمعة
١٧٩ بيان شروط الجمعة
وأما السنن الخ
١٨٠ بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهى عشر جمل
١٨٥ بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذى يعم جميع النهار وهى سبعة أمور
١٨٨ الباب السادس فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى، ويحتاج المريد إلى معرفتها
١٩٢ الباب الرابع فى النوافل من الصلوات وفيه أربعة أقسام

صحيفة

١٩٣ القسم الأول مايتكرر بتكرر الأيام والليالى وهى ثمانية

١٩٧ القسم الثانى مايتكرر بتكرر الأسابيع

٢٠٠ القسم الثالث مايتكرر بتكرر السنين

٢٠٣ القسم الرابع من النوافل مايتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهى تسعة

٢٠٨ كتاب أسرار الزكاة

وفيه أربعة فصول

٢٠٩ الفصل الأول فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها

النوع الأول زكاة النعم

٢١٠ النوع الثانى زكاة المعشرات

النوع الثالث زكاة النقدين

٢١١ النوع الرابع زكاة التجارة

النوع الخامس الركاز والمعدن

النوع السادس فى صدقة الفطر

٢١٢ الفصل الثانى فى الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

٢١٣ بيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة

الوظيفة الأولى أى من الوظائف التى على مريد طريق الآخرة فهم وجوب الزكاة الخ

٢١٥ الوظيفة الثانية فى وقت الأداء

الوظيفة الثالثة الإسرار

٢١٦ الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس الخ

الوظيفة الخامسة أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى

٢١٨ الوظيفة السادسة أن يستصغر العطية

الوظيفة السابعة أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه

٢١٩ الوظيفة الثامنة أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة الخ

٢٢١ الفصل الثالث فى القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

صحيفة

٢٢٢ بيان وظائف القابض

٢٢٥ الفصل الرابع فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

٢٢٧ بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

٢٣٠ بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كتاب أسرار الصوم

وفيه ثلاثة فصول

٢٣٢ الفصل الأول فى الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة

٢٣٣ لوازم الإفطار أربعة

٢٣٤ الفصل الثانى فى أسرار الصوم وشروطه الباطنة

٢٣٧ الفصل الثالث فى التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

٢٣٩ كتاب أسرار الحج

وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول وفيه فصلان

الفصل الأول فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشد الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج

٢٤١ فضيلة البيت ومكة المشرفة

فضيلة المقام بمكة حرسها الله وكراهيته

٢٤٣ فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

٢٤٥ الفصل الثانى فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

٢٤٦ الباب الثانى فى ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهى عشرة جمل

الجملة الأولى فى السير من أول الخروج إلى الإحرام وهى ثمانية

٢٤٨ الجملة الثانية فى آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهى خمسة

صحيفة
٢٤٩ الجملة الثالثة فى آداب دخول مكة إلى الطواف وهى ستة
٢٥٠ الجملة الرابعة فى الطواف الخ .
٢٥٢ الجملة الخامسة فى السعى
٢٥٣ الجملة السادسة فى الوقوف وماقبله
٢٥٥ الجملة السابعة فى بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف
٢٥٧ الجملة الثامنة فى صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع
٢٥٨ الجملة التاسعة فى طواف الوداع
الجملة العاشرة فى زيارة المدينة وآدابها
٢٦١ فصل فى سنن الرجوع من السفر
الباب الثالث فى الآداب الدقيقة والاعمال الباطنية
بيان دقائق الآداب وهى عشرة
٢٦٥ بيان الاعمال الباطنة ووجه الاخلاص فى النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لاسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره
٢٧٢ كتاب آداب تلاوة القرآن
وفيه أربعة ابواب
الباب الاول فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته
فضيلة القرآن
٢٧٤ فى ذم تلاوة الغافلين
٢٧٥ الباب الثانى فى ظاهر آداب التلاوة وهى عشرة
٢٨٠ الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة وهى عشرة
٢٨٨ الباب الرابع فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل
٢٩٣ كتاب الاذكار والدعوات
وفيه خمسة أبواب

صحيفة
٢٩٤ الباب الاول فى فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والاخبار والآثار
٢٩٦ فضيلة مجالس الذكر
٢٩٧ فضيلة التهليل
٢٩٨ فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الاذكار
٣٠٣ الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الادعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فضيلة الدعاء
٣٠٤ آداب الدعاء وهى عشرة
٣٠٩ فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله
٣٠٩ فضيلة الاستغفار
٣١٣ الباب الثالث فى أدعية مأثورة ومعزية إلى اسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة
٣١٤ دعاء عائشة رضى الله عنها
دعاء فاطمة رضى الله عنها
دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه
٣١٥ دعاء بريدة الاسلمى رضى الله عنه
دعاء قبيصة بن المخارق
دعاء أبى الدرداء رضى الله عنه
دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام
دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم
دعاء الخضر عليه السلام
دعاء معروف الكرخى رضى الله عنه
دعاء عتبة الغلام
دعاء آدم عليه الصلاة والسلام
٣١٧ دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه
دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمى وتسبيحاته رضى الله عنه
دعاء إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

صحيفة
٣١٨ الباب الرابع فى أدعية مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ماجمعه أبو طالب المكى وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله
٣٢١ أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم
٣٢٣ الباب الخامس فى الادعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث
٣٢٩ كتاب ترتيب الاوراد وتفصيل إحياء الليل وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات وفيه بابان
٣٣٠ الباب الاول فى فضيلة الاوراد وترتيبها وأحكامها

صحيفة
٣٣٠ فضيلة الاوراد وبيان أن المواظبة عليها هى الطريق إلى الله تعالى
٣٣١ بيان أعداد الاوراد وترتيبها
٣٣٢ بيان أوراد الليل والنهار
٣٤٨ بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال
٣٥١ الباب الثانى فى الأسباب الميسرة لقيام الليل وفى الليالى التى يستحب إحياؤها وفى فضيلة إحياء الليل ومابين العشاءين وكيفية قسمة الليل
٣٥١ فضيلة إحياء مابين العشاءين
٣٥٣ فضيلة إحياء الليل
٣٥٦ بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل
٣٥٩ بيان طرق القسمة لأجزاء الليل
٣٦١ بيان الليالى والأيام الفاضلة

تم الفهرس

إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماماً للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوى

الثاني: الإملاء عن إشكالات الإحياء، للإمام الغزالي، رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف، للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الثاني

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الباب الأول : فيما لابدّ للمنفرد منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ؛ وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول : فى الآداب التى تتقدم على الأكل وهى

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالا فى نفسه طيبا فى جهة مكسبه موافقا للسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة فى دين - على ماسيأتى فى معنى الطيب المطلق فى كتاب الحلال والحرام - وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال وقدم النهى عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ إلى قوله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ الآية ، فالأصل فى الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين .

الثانى : غسل اليد قال صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وبعده ينفى اللمم [1] » وفى رواية « ينفى الفقر قبل الطعام وبعده » ولأن اليد لاتخلو عن لوث فى تعاطى الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة . ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجرى منه مجرى الطهارة من الصلاة :

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بطعام وضعه على الأرض [2] » فهذا أقرب إلى التواضع فإن لم يكن فعلى السفرة فإنها تذكر السفر ويتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته إلى زاد التقوى . وقال أنس بن مالك رحمه الله « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجة [3] » قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون ؟ قال على السفرة . وقيل : أربع أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الموائد والمناخل والأشنان والشبع واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهى عنه نهى كراهة أو تحريم إذا لم يثبت فيه نهى . وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس كل ماأبدع منهيا ، بل المنهى بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يجب فى بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس فى المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لاكراهة فيه . والأربع التى جمعت فى أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم فى التنظيف ، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتيسر ، أو كانوا مشغولين بأمور أهم من المبالغة فى النظافة فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضا ، وكانت مناديلهم أخمص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل

الباب الأول

(١) حديث « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وبعده ينفى اللمم » وفى رواية « ينفى الفقر قبل الطعام وبعده » أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلا باللفظ الأول ، والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس « الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفى الفقر » ولأبى داود والترمذى من حديث سلمان « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » وكلها ضعيفة

(٢) حديث « كان إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » أخرجه أحمد فى كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلا ورواه البزار من حديث أبى هريرة نحوه وفيه جماعة وثقه أحمد وضعفه الدارقطنى . (٣) حديث أنس « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجة ... » الحديث رواه البخارى .

مستحبا . وأما المنخل فالمقصود منه تطييب الطعام وذلك مباح مالم ينته إلى التنعم المفرط . وأما المائدة فتيسير للأكل وهو أيضا مباح مالم ينته إلى الكبر والتعاظم . وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهييج الشهوات وتحريك الأدواء فى البدن فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات .

الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة فى أول جلوسه ويستديمها كذلك « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى [1] وكان يقول « لا آكل متكئا [2] إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد [3] » والشرب متكئا مكروه للمعدة أيضا ويكره الأكل نائما ومتكئا إلا مايتنقل به من الحبوب . روى عن على كرم الله وجهه أنه أكل كعكا على ترس وهو مضطجع ويقال منبطح على بطنه والعرب قد تفعله .

الخامس : أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل . قال إبراهيم بن شيبان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئا لشهوتى . ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل مادون الشبع فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوى عليها فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإيثار القناعة على الاتساع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس [4] » ومن ضرورة هذه النية أن لايمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد مالابد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغى أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب . وسيأتى فائدة قلة الأكل وكيفية التدريج فى التقليل منه فى كتاب كسر شهوة الطعام من ربع المهلكات .

السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد فى التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم بل من كرامة الخبز أن لاينتظر به الأدم وقد ورد الأمر بإكرام الخبز [5] فكل مايديم الرمق ويقوى على العبادة فهو خير كثير لاينبغى أن يستحقر بل لاينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان فى الوقت متسع . قال صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء والعشاء فابدءوا بالعشاء [6] » وكان ابن عمر رضى الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه . ومهما كانت النفس لاتتوق إلى الطعام ولم يكن فى تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة . فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان فى التأخير مايبرد الطعام أو يشوش أمره فتقديمه أحب عند اتساع الوقت ، تاقت النفس أو لم تتق ، لعموم الخبر ولأن القلب لايخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالبا

---

(١) حديث « ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن بشير فى أثناء حديث « أتوا تلك القصعة فالتفوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وله وللنسائى من حديث أنس « رأيته يأكل وهو مقنع من الجوع » وروى أبو الحسن بن المقرى فى الشمائل من حديثه « كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد » وإسناده ضعيف . (٢) حديث « كان يقول لا آكل متكئا » أخرجه البخارى من حديث أبى جحيفة .

(٣) حديث « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » تقدم قبله من حديث أنس بلفظ « وأفعل » بدل « وأجلس » ورواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله « وأجلس » . (٤) حديث « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث المقداد بن معد يكرب . (٥) حديث « أكرموا الخبز » أخرجه البزار والطبرانى وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام بإسناد ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٦) حديث « إذا حضر العشا والعشاء فابدءوا بالعشاء » تقدم فى الصلاة والمعروف « وأقيمت الصلاة » .

السابع : أن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده . قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه [١] » وقال أنس رضى الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « خير الطعام ما كثرت عليه الأيدى » .

القسم الثانى : فى آداب حالة الاكل

وهو أن يبدأ بـ « بسم الله » فى أوله وبـ « الحمد لله » فى آخره . ولو قال مع كل لقمة « بسم الله » فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى « بسم الله » ومع الثانية « بسم الله الرحمن » ومع الثالثة « بسم الله الرحمن الرحيم » ويجهر به ليذكر غيره . ويأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجوّد مضغها ومالم يبتلعها لم يمدّ اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة فى الأكل وأن لا يذم مأكولا « كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب مأكولا كان إذا أعجبه أكله وإلا تركه [٣] » وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يجيل يده فيها قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك [٤] » ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكهة ، فقيل له فى ذلك فقال : ليس هو نوعا واحدا [٥] » وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين [٦] ولا يقطع اللحم أيضاً فقد نهى عنه وقال : انهشوه نهشا [٧] ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به قال صلى الله عليه وسلم « أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء » ولا يمسح يده بالخبز . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدرى فى أى طعامه البركة [٨] » ولا ينفخ فى الطعام الحار [٩] فهو منهى عنه بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من التمر وترا سبعا أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق ولا يجمع فى كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها ، وكذا كل ماله عجم وثفل . وأن لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه فى القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله . وأن لا يكثر الشرب فى أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه فقد قيل إن ذلك مستحب فى الطب وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب : فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول « بسم الله » ويشربه مصا لا عبا قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث « اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشى بن حرب بإسناد حسن .

(٢) حديث أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده » رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

(٣) حديث أنس « كان لا يعيب مأكولا إن أعجبه أكله وإلا تركه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٤) حديث « كل مما يليك » متفق عليه من حديث عمر بن أبى سلمة . (٥) حديث « كان يدور على الفاكهة وقال ليس هو نوعا واحدا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عكراش بن دويب وفيه « وجالت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطبق فقال ياعكراش كل من حيث شئت فانه غير لون واحد » قال الترمذى غريب ورواه ابن حبان فى الضعفاء . (٦) حديث « النهى عن قطع الخبز بالسكين » رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هريرة وفيه نوح ابن أبى مريم وهو كذاب ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف . (٧) حديث « النهى عن قطع اللحم بالسكين » أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال إ« فانهشوه نهشا » قال النسائى منكر . وأخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث صفوان بن أمية « وانهشوا اللحم نهشا » وسنده ضعيف .

(٨) حديث « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فانه لا يدرى فى أى طعامه البركة » أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر . (٩) حديث « النهى عن النفخ فى الطعام والشراب » أخرجه أحمد فى مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبى داود والترمذى وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا « فى الإناء » وأخرجه الترمذى وصححه من حديث أبى سعيد « نهى عن النفخ فى الشراب » .

مصوا المـاء مصا ولا تعبوه عبا فإن الكباد من العب[١] ، ولا يشرب قائمـا ولا مضطجعا فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائمـا[٢] ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائمـا[٣] ، ولعله كان لعذر . ويراعى أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر فى الكوز قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس فى الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية . وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب « الحمد لله الذى جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا[٤] » ، والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمنة « وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله وأعرابى عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضى الله عنه : أعط أبا بكر فناول الأعرابى وقال الأيمن فالأيمن » ويشرب فى ثلاثة أنفاس يحمد الله فى أواخرها ويسمى الله فى أوائلها ويقول فى آخر النفس الأول « الحمد لله » وفى الثانى يزيد « رب العالمين » وفى الثالث يزيد « الرحمن الرحيم » فهذا قريب من عشرين أدبا فى حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار .

القسم الثالث : ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه ثم يمسح بالمنديل ثم يغسلها ويلتقط فتات الطعام قال صلى الله عليه وسلم « من أكل ما يسقط من المـائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده[٥] » ويتخلل ولا يبتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه أما المخرج بالخلال فيرميه وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام . وأن يلعق القصعة ويشرب ماءها . ويقال : من لعق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وأن التقاط الفتات مهور الحور العين وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ﴾ ومهما أكل حلالا قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا . وإن أكل شبهة فليقل : الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولإيلاف قريش . ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل : اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له أن يفعل فيه خيرا وقنعه بما أعطيته واجعلنا وإياه من الشاكرين . وإن أفطر عند قوم فليقل : أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ليطفئ بدموعه وحزنه حر النار التى تعرض لها لقوله صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به[٦] » ، وليس من يأكل ويبكى كمن يأكل ويلهو . وليقل إذا أكل لبنا : اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه[٧] فإن أكل غيره قال : اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وارزقنا خيراً

---

(١) حديث « مصوا المـاء مصا ولا تعبوه عبا » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بالشطر الأول ولأبى داود فى المراسيل من رواية عطاء بن أبى رباح « اذا شربتم فاشربوا مصا » . (٢) حديث « النهى عن الشراب قائما » أخرجه مسلم من حديث أنس وأبى سعيد وأبى هريرة . (٣) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائمـا » متفق عليه من حديث ابن عباس ، وذلك من زمزم » . (٤) حديث « كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذى جعل المـاء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » أخرجه الطبرانى فى الدعاء مرسلا من رواية أبى جعفر محمد بن على بن الحسين . (٥) حديث « من أكل ما سقط من المـائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر بلفظ « أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمق » وله من حديث الحجاج بن علاط « أعطى سعة من الرزق ووقى فى ولده » وكلاهما منكر جدا . (٦) حديث « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » هو فى شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ « سحت » وهو عند الترمذى وحسنه بلفظ « لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به » (٧) حديث « القول عند أكل اللبن اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس « اذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » .

منه ، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن لعموم نفعه . ويستحب عقيب الطعام أن يقول : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا ياكافى من كل شىء ولا يكفى منه شىء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركا فيه كما أنت أهله ومستحقه اللهم أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً واجعله عونا لنا عن طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك ، وأما غسل اليدين بالأشنان فكيفيته أن يجعل الأشنان فى كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أولا ، ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس فيمسح به شفتيه ، ثم ينعم غسل الفم بأصبعه ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والحنك واللسان ، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء ثم يدلك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهراً وبطنا ويستغنى بذلك عن إعادة الأشنان إلى الفم وإعادة غسله .

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل وهى سبعة

(الأول) أن لايبتدئ بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ ينبغى أن لايطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له (الثانى) أن لايسكتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها .

(الثالث) أن يرفق برفيقه فى القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقا لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركا . بل ينبغى أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين فى دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم . فإن قل رفيقه نشطه ورغبه فى الأكل وقال له : « كل » ولا يزيد فى قوله « كل » على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خوطب فى شىء ثلاثا لم يراجع بعد ثلاث [1] وكان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلام ثلاثا [2] فليس من الأدب الزيادة عليه . فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه (الرابع) أن لايحوج رفيقه إلى أن يقول له : كل . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلين أكلا من لايحوج صاحبه إلى أن يتفقده فى الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول . ولاينبغى أن يدع شيئا مما يشتهيه لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجرى على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئا فى الوحدة ، ولكن يعوّد نفسه حسن الأدب فى الوحدة حتى لايحتاج إلى التصنع عند الاجتماع . نعم لو قلل من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن ، وإن زاد فى الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم فى الأكل فلا بأس به بل هو حسن . وكان ابن المبارك يقدّم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول : من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهما . وكان يعد النوى ويعطى كل من له فضل نوى بعدده دراهم وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط فى الانبساط ، وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما . أحب إخوانى إلى أكثرهم أكلا وأعظمهم لقمة وأثقلهم على من يحوجنى إلى تعهده فى الأكل . وكل هذا إشارة إلى الجرى على المعتاد وترك التصنع . وقال جعفر رحمه الله أيضا : تتبين جودة محبة الرجل لأخيه بجودة أكله فى منزله (الخامس) أن غسل اليد فى الطست لابأس بهوله أن يتنخم فيه

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل

(١) حديث « كان إذا خوطب فى شىء ثلاثا لم يراجع بعد ثلاث » أخرجه أحمد من حديث جابر فى حديث طويل ومن حديث أبى حدرد أيضا وإسنادهما حسن . (٢) حديث « كان يكرر الكلمة ثلاثا » أخرجه البخارى من حديث أنس « كان يعيد الكلمة ثلاثا » .

إن أكل وحده وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يفعل ذلك . فإذا قدم الطست إليه غيره إكراما له فليقبله . اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس : إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها فإنما يكرم الله عز وجل . . وروى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : ياأبا معاوية تدرى من صب على يدك ؟ فقال لا ، قال : صبه أمير المؤمنين فقال . يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله . ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار . فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست قال صلى الله عليه وسلم « اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم (١) » قيل إن المراد هذا . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار : لا يرفع الطست من بين يدى قوم إلا مملوءة ولا تشبهوا بالعجم . وقال ابن مسعود : اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم . والخادم الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما وأحب أن يكون جالسا لأنه أقرب إلى التواضع ، وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب الماء على يد واحد خادم جالسا فقام المصبوب عليه فقيل له : لم قمت ؟ فقال : أحدنا لابد وأن يكون قائما . وهذا أولى لأنه أيسر للصب والغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك : ففي الطست إذاً سبعة آداب : أن لا يبزق فيه ، وأن يقدم به المتبوع ، وأن يقبل الإكرام بالتقديم ؛ وأن يدار يمنة ، وأن يجتمع فيه جماعة ، وأن يجمع الماء فيه وأن يكون الخادم قائما وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه ، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه ، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه وقال : لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض . (السادس) أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقلل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا ، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعا للخجلة عنهم . (السابع) أن لا يفعل ما يستقذره غيره فلا ينفض يده في القصعة ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه ، وإن أخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير . قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحي أن يسأل عن ذلك . هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم مادامت مائدته موضوعة

(١) حديث « اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة ابراهيم وقال إنه معضل وفيه نظر .

بين يديه حتى ترفع [١] ، وروى عن بعض علماء خراسان : أنه كان يقدّم إلى إخوانه طعاما كثيرا لايقدرون على أكل جميعه وكان يقول بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنّ الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك [٢] » فأنا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لنأكل فضل ذلك . وفى الخبر « لايحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه [٣] » وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقلل إذا أكل وحده . وفى الخبر « ثلاثة لايحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان [٤] » وقال على رضى الله عنه : لأن أجمع إخوانى على صاع من طعام أحب إلى من أن أعتق رقبة . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده فى سفره وبذله لأصحابه : وكان الصحابة رضى الله عنهم يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وكانوا رضى الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرّقون إلا عن ذواق . وقيل اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والألفة ليس هو من الدنيا . وفى الخبر « يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمنى فيقول كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتنى [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا جاءكم الزائر فأكرموه [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها هى لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من أطعم الطعام [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق مابين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام [٩] » .

وأما آدابه : فبعضها فى الدخول وبعضها فى تقديم الطعام . أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ يعنى منتظرين حينه ونضجه . وفى الخبر من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما [١٠] » ولكن حق الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على طعام أن لايأكل مالم يؤذن له ، فإذا قيل له : كل . نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد ، وإن

الباب الثالث : فى آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

(١) حديث « لاتزال الملائكة تصلى على أحدكم مادامت مائدته موضوعة بين يديه حتى يرفع » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لايحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام » لم أقف له على أصل . (٣) حديث « لايحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه » هو فى الحديث الذى بعده بمعناه

(٤) حديث « ثلاثة لايحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث جابر « ثلاثة لايسألون عن النعيم : الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه » أورده فى ترجمة سليمان بن داود الجزرى وقال فيه : منكر الحديث ، ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس نحوه من حديث أبى هريرة . (٥) حديث « يقول الله للعبد يوم القيامة يابن آدم جعت فلم تطعمنى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « استطعمتك فلم تطعمنى » .

(٦) حديث « إذا جاءكم الزائر فأكرموه » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر قاله ابن أبي حاتم فى العلل عن أبيه . (٧) حديث « إن فى الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هى لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذى من حديث على وقال غريب لانعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن إسحاق وقد تكلم فيه من قبل حفظه . (٨) حديث « خيركم من أطعم الطعام » أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال صحيح الإسناد . (٩) حديث « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر وقال ابن حبان ليس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الذهبي غريب منكر . (١٠) حديث « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما » أخرجه البيهقى من حديث عائشة نحوه وضعفه ولأبى داود من حديث ابن عمر « من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا » إسناده ضعيف .

كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغى أن يأكل ، بل ينبغى أن يتعلل ، أما إذا كان جائعا فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به . قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر وعمر رضى الله عنهما منزل أبى الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعا[1] والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهى عادة السلف . وكان عون بن عبدالله المسعودى له ثلاثمائة وستون صديقا يدور عليهم فى السنة . ولآخر ثلاثون يدور عليهم فى الشهر . ولآخر سبعة يدور عليهم فى الجمعة . فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقا بصداقته عالما بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه ، إذ المراد من الإذن الرضا لاسيما فى الأطعمة وأمرها على السعة . فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه . ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب . وقد قال تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهى غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال ؛ بلغت الصدقة محلها[2] وذلك لعلمه بسرورها بذلك . لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بعلمه بالإذن ، فإن لم يعلم فلابد من الاستئذان أولا ثم الدخول . وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون مايجدون بغير إذن . وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول : هكذا كنا . وروى عن الحسن رضى الله عنه أنه كان قائما يأكل من متاع بقال فى السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة فقال له هشام مابدا لك يا أبا سعيد فى الورع تأكل متاع الرجل بغير إذنه ؟ فقال . يالكع اتل على آية الأكل فتلا إلى قوله تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ فقال . فمن الصديق يا أبا سعيد ؟ قال : من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب . ومشى قوم إلى منزل سفيان الثورى فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثورى وجعل يقول : ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا . وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده مايقدمه إليهم فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه فى المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزه وغير ذلك فحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال . كلوا فجاء رب المنزل فلم ير شيئا فقيل له . قد أخذه فلان ، فقال : قد أحسن ، فلما لقيه قال : ياأخى إن عادوا فعد . فهذه آداب الدخول .

وأما آداب التقديم : فترك التكلف أولا وتقديم ماحضر فإن لم يحضره شىء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه . وإن حضره ماهو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغى أن يقدم . دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال : لولا أنى أخذته بدين لأطعمتك منه ، وقال بعض السلف فى تفسير التكلف . أن تطعم أخاك مالا تأكله أنت بل تقصد زيادة عليه فى الجودة والقيمة . وكان الفضيل يقول : إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه . وقال بعضهم . ما أبالى بمن أتانى من إخوانى فإنى لا أتكلف له إنما أقرب ماعندى ولو تكلفت له لكرهت مجيئه ومللته ؟ وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لى فيتكلف لى فقلت له إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع المجىء ، فقطع

---

(١) حديث « قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما منزل أبى الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى لأجل طعام يأكلونه » أما قصة أبى الهيثم فرواها الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عند مسلم لكن ليس فيها ذكر لأبى الهيثم وإنما قال « رجل من الأنصار » وأما حديث قصدهم منزل أبى أيوب فرواها الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٢) حديث « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهى غائبة وكان من الصدقة فقال : بلغت الصدقة مكانها » متفق عليه من حديث عائشة « أهدى لبريرة لحم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو لها صدقة ولنا هدية » وأما قوله « بلغت محلها » فقاله فى الشاة التى أعطيتها نسيبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضاً من حديث أم عطية .

التكلف ودام اجتماعنا بسببه ، ومن التكلف أن يقدم جميع ماعنده فيجحف بعياله ويؤذى قلوبهم . روى أن رجلا دعا عليا رضى الله عنه فقال على : أجيبك على ثلاث شرائط لاتدخل من السوق شيئا ولا تدخر مافى البيت ولا تجحف بعيالك . وكان بعضهم يقدم من كل مافى البيت فلايترك نوعا إلاويحضر شيئا منه . وقال بعضهم : دخلنا على جابر بن عبدالله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال : لولا أنانهينا عن التكلف لتكلفت لكم [١] وقال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ماحضر وإن استزرت فلا تبق ولا تذر . وقال سلمان أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لانتكلف للضيف ماليس عندنا وأن نقدم إليه ماحضرنا [٢] وفى حديث يونس النبى صلى الله عليه وسلم : أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسرا وجزلهم بقلا كان يزرعه ثم قال لهم : كلوا لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه وغيره من الصحابة : أنهم كانوا يقدمون ماحضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ويقولون : لاندرى أيهما أعظم وزرا الذى يحتقر مايقدم إليه أوالذى يحتقر ماعنده أن يقدمه ؟ (الأدب الثانى) وهو للزائر أن لايقترح ولايتحكم بشىء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فإن خيره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه ؛ كذلك السنة . فى الخبر أنه ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما [٣] وروى الأعمش عن أبى وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لى نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملحا جريشا ؛ فقال صاحبى : لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب ، فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعترا ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمدلله الذى قنعنا بما رزقنا : فقال سلمان : لوقنعت بما رزقت لم تكن مطهرتى مرهونة . هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح ، فعل الشافعى رضى الله عنه ذلك مع الزعفرانى إذ كان نازلا عنده ببغداد وكان الزعفرانى يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية وأخذ الشافعى الرقعة فى بعض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفرانى ذلك اللون أنكر وقال : ما أمرت بهذا ؟ فعرضت عليه الرقعة ملحقا فيها خط الشافعى فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعى عليه . وقال أبو بكر الكتانى : دخلت على السرى فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه فى القدح فقلت له : أى شىء تعمل وأنا أشربه كله فى مرة واحدة ؟ فضحك وقال : هذا أفضل لك من حجة . وقال بعضهم : الأكل على ثلاثة أنواع ، مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب (الأدب الثالث) أن يشتهى المزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهماكانت نفسه طيبة بفعل مايقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صادف من أخيه شهوة غفر له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله تعالى [٤] » ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر « من لذذ أخاه بما يشتهى كتب الله له ألف ألف حسنة ومحى عنه ألف ألف سيئة

---

(١) حديث « دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم » رواه أحمد دون قوله « لولا أنانهينا » وهو من حديث سلمان الفارسى وسيأتى بعده وكلاهما ضعيف وللبخارى عن عمر بن الخطاب « نهينا عن التكلف » . (٢) حديث سلمان « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لانتكلف للضيف ماليس عندنا وأن نقدم إليه ماحضرنا » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ، ولأحمد « لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا - أولولاأنانهينا - أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك » وللطبرانى « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف ماليس عندنا » .

(٣) حديث « ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما » متفق عليه من حديث عائشة وزاد « مالم يكن إثما » ولم يذكرها مسلم فى بعض طرقه . (٤) حديث « من صادف من أخيه شهوة غفر الله له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله عزوجل » أخرجه البزار والطبرانى من حديث أبى الدرداء « من وافق من أخيه شهوة غفرله » قال ابن الجوزى حديث موضوع وروى ابن حبان والعقيلى فى الضعفاء من حديث أبى بكر الصديق « من سر مؤمنا فإنما سر الله ... الحديث » قال العقيلى باطل لاأصل له .

ورفع له ألف ألف درجة وأطعمه الله من ثلاث جنات جنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد [١] » (الأدب الرابع) أن لايقول له : هل أقدم لك طعاما ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان . قال الثورى : إذا زارك أخوك فلا تقل له : أتأكل؟ أو أقدم إليك ؟ ولكن قدم فإن أكل وإلا فارفع . وإن كان يريد أن يطعمهم طعاما فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو يصفه لهم . قال الثورى : إذا أردت أن لاتطعم عيالك مما تأكله فلا تحدثهم به ولا يرونه معك . وقال بعض الصوفية : إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاما وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة فإذا دخل القراء فدلوهم على المحراب .

الباب الرابع فى آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة : الدعوة أولا ثم الإجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الأكل ثم الانصراف ولنقدم على شرحها إن شاء الله تعالى .

فضيلة الضيافة : قال صلى الله عليه وسلم « لاتتكلفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا خير فيمن لايضيف [٣] » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومر بامرأة لها شويهات فذبحت له . فقال صلى الله عليه وسلم : انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل [٤] . وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه نزل به صلى الله عليه وسلم ضيف فقال . قل لفلان اليهودى نزل بى ضيف فأسلفنى شيئا من الدقيق إلى رجب ، فقال اليهودى : والله ما أسلفه إلا برهن فأخبرته فقال ؛ والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى لأديته فاذهب بدرعى وارهنه عنده [٥] » وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغدى معه وكان يكنى أبا الضيفان ، ولصدق نيته فيه دامت ضيافته فى مشهده إلى يومنا هذا ، فلا تنقضى ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوام الموضع إنه لن يخل إلى الآن ليلة عن ضيف ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ فقال : إطعام الطعام وبذل السلام [٦] وقال صلى الله عليه وسلم « فى الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام [٧] »

---

(١) حديث جابر « من لقذ أخاه بما يشتهى كتب الله له ألف ألف حسنة ... الحديث » ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد بن حنبل هذا باطل كذب .

الباب الرابع : فى آداب الضيافة

(٢) حديث « لاتتكلفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الله الضيف فقد أبغض ومن الله أبغض الله أبغضه الله » أخرجه أبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لايتكلفن أحد لضيفه مالا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق متكلم فيه .

(٣) حديث « لاخير فيمن لايضيف » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضفه ومر بامرأة لها شويهات فذبحت له ... الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من رواية أبى المنهال مرسلا .

(٥) حديث أبى رافع « أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فقال قل لفلان اليهودى نزل بى ضيف فأسلفنى شيئاً من الدقيق إلى رجب ... الحديث » رواه إسحق بن راهويه فى مسنده والخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن مردويه فى التفسير بإسناد ضعيف . (٦) حديث « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان ؟ قال : إطعام الطعام وبذل السلام » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « أى الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقرى السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

(٧) حديث « قال صلى الله عليه وسلم فى الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذى وصححه والحاكم من حديث معاذ وقد تقدم بعضه فى الباب الرابع من الأذكار وهو حديث « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات » .

وسئل عن الحج المبرور فقال « إطعام الطعام وطيب الكلام [١] » وقال أنس رضى الله عنه : كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة . والأخبار الواردة فى فضل الضيافة والإطعام لاتحصى فلنذكر آدابها .

أما الدعوة : فينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه سلم « أكل طعامك الأبرار [٢] » فى دعائه لبعض من دعا له وقال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى [٣] » ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال صلى الله عليه وسلم « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء [٤] » وينبغى أن لايهمل أقاربه فى ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه فإن فى تخصيص البعض إيحاشا لقلوب الباقين . وينبغى أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان والتسنن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغى أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب . وينبغى أن لا يدعو إلا من يحب إجابته قال سفيان : من دعا أحدا إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان . لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولو علم ذلك لما كان يأكله . وإطعام التقى إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة نفسهم . وأما الإجابة فهى سنة مؤكدة وقد قيل بوجوبها فى بعض المواضع . قال صلى الله عليه وسلم « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت [٥] » .

والإجابة خمسة آداب (الأول) أن لايميز الغنى بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهى عنه ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال : انتظار المرقة ذل ، وقال آخر : إذا وضعت يدى فى قصعة غيرى فقد ذلت له رقبتى ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين [٦] » ومر الحسن بن على رضى الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق وقد نشروا كسرا على الأرض فى الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له : هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم إن الله لايحب المستكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال : قد أجبتكم فأجيبونى ، قالوا : نعم ، فوعدهم وقتا معلوما فحضروا فقدم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم . وأما قول القائل إن من وضعت يدى فى قصعته فقد ذلت له رقبتى ؛ فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعى لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد منة وكان يرى ذلك يداً له على المدعو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعلمه أن الداعى له يتقلد منة ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه فى الدنيا والآخرة فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة إجابته [٧] » بل الأولى التعلل ، ولذلك قال بعض الصوفية . لاتجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه

---

(١) حديث « سئل عن الحج المبرور فقال اطعام الطعام وطيب الكلام » تقدم فى الحج . (٢) حديث « أكل طعامكم الأبرار » أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح . (٣) حديث « لا تأكل الا طعام تقى ولا يأكل طعامك الا تقى » تقدم فى الزكاة . (٤) حديث « شر الطعام طعام الوليمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٥) حديث « لو دعيت الى كراع لأجبت ولو أهدى الى ذراع لقبلت » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

(٦) حديث « كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين وضعفه الترمذى وصححه الحاكم . (٧) حديث « ليس من السنة اجابة من يطعم مباهاة أو تكلفا » أخرجه أبوداود من حديث =

سلم إليك وديعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه فى قبول تلك الوديعة منه . وقال سرى السقطى رحمه الله : آه على لقمة ليس على لله فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منة . فإذا علم المدعو أنه لامنة فى ذلك فلا ينبغى أن يرد . وقال أبو تراب النخشبى رحمة الله عليه : عرض على طعام فامتنعت فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما فعلمت أنه عقوبته . وقيل لمعروف الكرخى رضى الله عنه كل من دعاك تمر إليه فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلونى . (الثانى) أنه لاينبغى أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لايمتنع لفقر الداعى وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتمالها فى العادة لاينبغى أن يمتنع لأجل ذلك . يقال فى التوراة أو بعض الكتب سر ميلا عد مريضا سر ميلين شيع جنازة سر ثلاثة أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخا فى الله . وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحى فهو أولى من الميت وقال صلى الله عليه وسلم لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت [1] ، وهو موضع على أميال من المدينة أفطر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان [2] لما بلغه وقصر عنده فى سفره [3] (الثالث) أن لايمتنع لكونه صائما بل يحضر فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر وليحتسب فى إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب فى الصوم وأفضل وذلك فى صوم التطوع وان لم يتحقق سرور قلبه فليصدقه بالظاهر وليفطر وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل . وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بعذر الصوم « تكلف لك أخوك وتقول إنى صائم [4] » وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق فثوابه فوق ثواب الصوم . ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب . وقد قيل الكحل والدهن أحد القراءين . (الرابع) أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال ، أو كان يقام فى الموضع منكر من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط أو سماع شىء من المزامير والملاهى أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب وشبه ذلك مما يمنع الإجابة واستحبابها ويوجب تحريمها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعى ظالما أو مبتدعا أو فاسقا أو شريرا أو متكلفا طلبا للمباهاة والفخر . (الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملا فى أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالاجابة عاملا للآخرة وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « لو دعيت إلى كراع لأجبت » ، وينوى الحذر من معصية الله تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم « من لم يجب الداعى فقد عصى الله ورسوله [5] » وينوى إكرام أخيه المؤمن اتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله [6] » وينوى إدخال السرور على قلبه امتثالا لقوله

= ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتباريين » قال أبو داود من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس وللعقيلى فى الضعفاء « نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طعام المتباهيين » والمتباريان المتعارضان بفعلهما للمباهاة والرياء قاله أبو موسى المدينى . (١) حديث « لو دعيت الى كراع بالغميم لأجبت » ذكر الغميم فيه ليعرف والمعروف « لو دعيت الى كراع » كما تقدم قبله بثلاثة أحاديث ويرد هذه الزيادة مارواه الترمذى من حديث أنس « لو أهدى الى كراع لقبلت » .

(٢) حديث « إفطاره صلى الله عليه وسلم فى رمضان لما بلغ كراع الغميم » رواه مسلم من حديث جابر فى عام الفتح .

(٣) حديث « قصره صلى الله عليه وسلم فى سفره عند كراع الغميم » لم أقف له على أصل وللطبرانى فى الصغير من حديث ابن عمر « كان يقصر الصلاة بالعقيق » يريد إذا بائه وهذا يرد الأول لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر وكراع الغميم بين مكة وعسفان والله أعلم . (٤) حديث « وقال لمن امتنع بعذر الصوم تكلف لك أخوك وتقول إنى صائم » أخرجه البيهقى من حديث أبى سعيد الخدرى « صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما وأتانى هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : انى صائم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاكم أخوكم وتكلف لكم . الحديث » وللدارقطنى نحوه من حديث جابر .

(٥) حديث « من لم يجب الداعى فقد عصى الله ورسوله » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٦) حديث « من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله تعالى » ذكره الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث جابر والعقيلى فى الضعفاء من حديث أبى بكر وإسنادهما ضعيف

صلى الله عليه وسلم « من سر مؤمنا فقد سر الله » (١) وينوى مع ذلك زيارته ليكون من المتحابين فى الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التزاور والتباذل لله (٢) وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً ، وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظنّ فى امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أوسوء خلق أواستحقار أخ مسلم أو مايجرى مجراه . فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها فكيف مجموعها ؟ وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه (٣) » والنية إنما تؤثر فى المباحات والطاعات أما المنهيات فلا . فإنه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يجز أن يقال الأعمال بالنيات . بل لو قصد بالغزو الذى هو طاعة المباهاة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنية فتؤثر النية فى هذين القسمين لا فى القسم الثالث .

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتة فإنه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوش عليه وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إنّ من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس (٤) » ولا ينبغى أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة التى للنساء وسترهم . ولا يكثر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره . ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس . وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما . وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال : الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى : لأنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يتقدم بالغسل وفى آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه . وإذا دخل فرأى منكرا غيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف . والمنكر فرش الديباج واستعمال أوانى الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاهى والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرمات حتى قال أحمد رحمه الله : إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغى أن يخرج ، ولم يأذن فى الجلوس إلا فى ضبة وقال : إذا رأى كلة فينبغى أن يخرج فإن ذلك تكلف لافائدة فيه ولا تدفع حرا ولا بردا ولا تستر شيئا ؛ وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة . وقال : إذا اكترى بيتا فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغى أن يحكها فإن لم يقدر خرج . وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر فى الكلة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينتهى إلى التحريم إذ الحرير يحرم على الرجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذان حرام على ذكور أمتى حل لإناثها (٥) » وما على

---

(١) حديث « من سر مؤمنا فقد سر الله » تقدم فى الباب قبله . (٢) حديث « وجبت محبتى للمتزاورين فى والمتباذلين فى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه . (٣) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب . (٤) حديث « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد . (٥) حديث « هذان حرامان على ذكور أمتى » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث على وفيه أبو أفلح الهمدانى جهله ابن القطان والنسائى والترمذى وصححه من حديث أبى موسى بنحوه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبى هند وأبى موسى فأدخل أحد بينهما رجلا لم يسم .

الحائط ليس منسوبا إلى الذكور ولو حرّم هذا لحرّم تزيين الكعبة بل الأولى إباحته لموجب قوله ﴿ قل من حرّم زينة الله ﴾ لاسيما فى وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر . وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان فى معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكورة .

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة (الأول) تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه [1] » ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضر فى التعجيل أولى من حق أولئك فى التأخير ؛ إلا أن يكون المتأخر فقيرا أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس فى التأخير وأحد المعنيين فى قوله تعالى ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ أنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم دل عليه قوله تعالى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ وقوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ والروغان : الذهاب بسرعة وقيل فى خفية وقيل جاء بفخذ من لحم وإنما سمى عجلا لأنه عجله ولم يلبث . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا فى خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الضيف وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب [2] ويستحب التعجيل فى الوليمة قيل الوليمة فى أول يوم سنة وفى الثانى معروف وفى الثالث رياء . (الثانى) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولا إن كانت فذلك أوفق فى الطب فإنها أسرع استحالة فينبغى أن تقع فى أسفل المعدة . وفى القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة فى قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ثم قال ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ ثم أفضل مايقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات . ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى فى ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ ـ أى المحنوذ وهو الذى أجيد نضجه ـ وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم . وقال تعالى فى وصف الطيبات ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ المن : العسل ، والسلوى ، اللحم ؛ سمى سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سيد الإدام اللحم » ثم قال بعد ذكر المن والسلوى ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فاللحم والحلاوة من الطيبات . قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : أكل الطيبات يورث الرضا عن الله . وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء بثلج يخلص الشكر . وقال بعض الأدباء : إذا دعوت إخوانك فأطعمتهم حصرمية وبورانية وسقيتهم ماء باردا فقد أكملت الضيافة . وأنفق بعضهم دراهم فى ضيافة فقال بعض الحكماء : لم نكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيدا وماؤك باردا وخلك حامضا فهو كفاية . وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان ، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين .

---

(١) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبى شريح .

(٢) حديث حاتم الأصم « العجلة من الشيطان الا فى خمسة فانها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب » أخرجه الترمذى من حديث سهل بن سعد « الأناة من الله والعجلة من الشيطان » وسنده ضعيف وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبى وقاص « التؤدة فى كل شىء إلا فى عمل الآخرة » قال الأعمش لاأعلم إلا أنه رفعه وروى المزى فى التهذيب فى ترجمة محمد بن موسى بن نفيع عن مشيخة من قومه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الاناة فى كل شىء إلا فى ثلاث إذا صيح فى خيل الله وإذا نودى بالصلاة وإذا كانت الجنازة ... الحديث » مرسل والترمذى من حديث على « ثلاثة لاتؤخرها : الصلاة إذا أتت والجنازة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤا » وسنده حسن .

ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل فذلك أيضا مستحب ولما فيه من التزين بالخضرة . وفى الخبر : إن المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكراث . وكان عليها سمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان ، فهذا إذا اجتمع حسن للموافقة (الثالث) أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده.وهو خلاف السنة فإنه حيلة فى استكثار الأكل . وكان من سنة المتقدمين أن يقوموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصففون القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد مما يشتهى . وإن لم يكن عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه . ويحكى عن بعض أصحاب المروءات أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان . وقال بعض الشيوخ : قدم إلى بعض المشايخ لونا بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخرا ، فقال : وكذا عندنا بالشام ، ولم يكن له لون غيره فخجلت منه . وقال آخر : كنا جماعة فى ضيافة فقدم إلينا ألوان من الرءوس المشوية طبيخا وقديدا فكنا لا نأكل ننتظر بعدها لونا أو حملا ، فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها ، فنظر بعضنا إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا : إن الله تعالى يقدر أن يخلق رءوسا بلا أبدان ، قال : وبتنا تلك الليلة جياعا نطلب فتيتا إلى السحور . فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يخبر بما عنده (الرابع) أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدى عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنغص عليه بالمبادرة ، وهى من التمكن على المائدة التى يقال إنها خير من لونين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان . حكى عن الستورى وكان صوفيا مزاحا لحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم إليهم حمل ـ وكان فى صاحب المائدة بخل ـ فلما رأى القوم مزقوا الحمل كل ممزق ضاق صدره وقال : ياغلام ارفع إلى الصبيان ، فرفع الحمل إلى داخل الدار فقام الستورى يعدو خلف الحمل.فقيل له : إلى أين؟ فقال : آكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل . ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون بل ينبغى أن يكون آخرهم أكلا . كان بعض الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل وقال . بسم الله ساعدونى بارك الله فيكم وعليكم ، وكان السلف يستحسنون ذلك منه (الخامس) أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص فى المروءة والزيادة عليه تصنع ومراءاة لاسيما إذا كانت نفسه لاتسمح بأن يأكلوا الكل ، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم ، إذ فى الحديث لايحاسب عليه . أحضر إبراهيم بن أدهم رحمه الله طعاما كثيرا على مائدته فقال له سفيان : ياأبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا سرفا ؟ فقال إبراهيم : ليس فى الطعام سرف . فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف . قال ابن مسعود رضى الله عنه : نهينا أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة.ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة ولا يأكلون تمام الشبع . وينبغى أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لاتكون أعينهم طامحة إلى رجوع شىء منه فلعله لايرجع فتضيق صدورهم وتنطلق فى الضيفان ألسنتهم ويكون قد أطعم الضيفان مايتبعه كراهية قوم وذلك خيانة فى حقهم . وما بقى من الأطعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذى تسميه الصوفية الزلة إلا إذا صرح

صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به ، فإن كان يظن كراهيته فلاينبغى أن يؤخذ وإذا علم رضاه فينبغى مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء ؛ فلاينبغى أن يأخذ الواحد إلا مايخصه أومايرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء .

فأما الانصراف : فله ثلاثة آداب (الأول) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر بإكرامه قال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال عليه السلام « إن من سنة الضيف أن يشيع إلى باب الدار » قال أبو قتادة « قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه : نحن نكفيك يارسول الله فقال : كلا إنهم كانوا لأصحابى مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم » وتمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة . قيل للأوزاعى رضى الله عنه ماكرامة الضيف ؟ قال طلاقة الوجه وطيب الحديث . وقال يزيد بن أبى زياد مادخلت على عبدالرحمن بن أبى ليلى إلا حدثنا حديثا حسنا وأطعمنا طعاما حسنا (الثانى) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى فى حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » ودعى بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل وقال : قد خرج القوم ، فقال : هل بقى بقية ؟ قال : لا ، قال فكسرة إن بقيت ؟ قال : لم تبق ، قال : فالقدر أمسحها ؟ قال : قد غسلتها ؟ فانصرف يحمد الله تعالى فقيل له فى ذلك فقال : قد أحسن الرجل دعانا بنية وردنا بنية ، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق . وحكى أن أستاذ أبى القاسم الجنيد دعاه صبى إلى دعوة أبيه أربع مرات فرده الأب فى المرات الأربع وهو يرجع فى كل مرة تطييبا لقلب الصبى بالحضور ولقلب الأب بالانصراف ، فهذه نفوس قد ذللت بالتواضع لله تعالى واطمأنت بالتوحيد وصارت تشاهد فى كل رد وقبول عبرة فيا بينها وبين ربها ، فلاتنكسر بما يجرى من العباد من الإذلال كالا تستبشر بما يجرى منهم من الإكرام بل يرون الكل من الواحد القهار . ولذلك قال بعضهم : أنا لاأجيب الدعوة إلا لأنى أتذكر بها طعام الجنة أى هو طعام طيب يحمل عنا كده ومؤنته وحسابه . (الثالث) أن لايخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه فى قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه قال صلى الله عليه وسلم « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة[1] » نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان[2] »

فصل يجمع آدابا ومناهى طبية وشرعية متفرقة

(الأول) حكى عن إبراهيم النخعى أنه قال ، الأكل فى السوق دناءة[3] وأسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده قريب . وقد نقل ضده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : كنا تأكل عهد رسول الله صلى الله

(١) حديث « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة » متفق عليه من حديث أبى شريح الخزاعى . (٢) حديث « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان » أخرجه مسلم من حديث جابر (٣) حديث « الأكل فى السوق دناءة » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدى فى الكامل من حديثه وحديث أبى هريرة

عليه وسلم ونحن نمشى ونشرب ونحن قيام[١] . ورؤى بعض المشايخ من المتصوفة المعروفين يأكل فى السوق فقيل له فى ذلك فقال : ويحك أجوع فى السوق وآكل فى البيت ؛ فقيل تدخل المسجد ؟ قال : أستحى أن أدخل بيته للأكل فيه . ووجه الجمع أن الأكل فى السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه ، وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لايليق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقدح ذلك فى الشهادة ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله فى ترك التكلف كان ذلك منه تواضعا (الثانى) قال على رضى الله عنه : من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء ، ومن أكل فى يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة فى بطنه ، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير فى جسده شيئا يكرهه واللحم ينبت اللحم والثريد طعام العرب والبسقارجات تعظم البطن وترخى الأليتين ، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء ، ولن تستشفى النفساء بشىء أفضل من الرطب ، والسمك يذيب الجسد ، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم ، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء وليبكر العشاء وليلبس الحذاء ، ولن يتداوى الناس بشىء مثل السمن وليقل غشيان النساء وليخفف الرداء وهو الدين (الثالث) قال الحجاج لبعض الأطباء : صف لى صفة آخذ بها ولا أعدوها قال . لاتنكح من النساء إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه ولا تشربن دواء إلا من علة ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها ، ولا تأكلن طعاما إلا أجدت مضغه ، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشربن عليه فإذا شربت فلا تأكلن عليه شيئا ، ولا تحبس الغائط والبول ، وإذا أكلت بالنهار فنم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة . وفى معناه قول العرب : تغد تمد تعش تمش يعنى تمدد كما قال الله تعالى ـ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ـ أى يتمطط . ويقال إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد النهر ماحوله إذا سد مجراه (الرابع) فى الخبر « قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة »[٢] ، والعرب تقول ترك الغداء يذهب بشحم الكاذة ـ يعنى الألية ـ وقال بعض الحكماء لابنه : يابنى لاتخرج من منزلك حتى تأخذ حلمك أى تتغذى ، إذبه يبقى الحلم ويزول الطيش وهو أيضا أقل لشهوته لما يرى فى السوق . وقال حكيم لسمين : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فما هى ؟ قال من أكل لباب البر وصغار المعز وأدهن بخام بنفسج وألبس الكتان . (الخامس) الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض ، هكذا قيل . وقال بعضهم : من احتمى فهو على يقين من المكروه وعلى شك من العوافى ، وهذا حسن فى حال الصحة . ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرا وإحدى عينيه رمداء فقال . أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : يارسول الله إنما آكل بالشق الآخر[٣] ، يعنى جانب السليمة فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . (السادس) أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت ، ولما جاء نعى جعفر بن أبى طالب قال عليه السلام ، إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون[٤] ، فذلك سنة . وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه مايهيأ للنوائح والمعينات عليه بالبكاء والجزع

---

(١) حديث ابن عمر « كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشى ونشرب ونحن قيام » أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه وابن حبان . (٢) حديث « قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة » أخرجه ابن عدى فى الكامل من حديث عبد الله بن جراد بالشطر الأول والترمذى من حديث أنس بالشطر الثانى وكلاهما ضعيف وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث جابر . (٣) حديث « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرا وإحدى عينيه رمدة فقال له أتأكل التمر وأنت رمد فقال إنما أمضغ بالشق الآخر فضحك صلى الله عليه وسلم » أخرجه ابن ماجه من حديث صهيب بإسناد جيد . (٤) حديث « لما جاء نعى جعفر بن أبى طالب قال صلى الله عليه وسلم إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن جعفر بسند حسن ولابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت عميس .

فلا ينبغى أن يؤكل معهم (السابع) لا ينبغى أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقلل الأكل ولا يقصد الطعام الأطيب رد بعض المزكين شهادة من حضر طعام سلطان فقال: كنت مكرها، فقال: رأيتك تقصد الأطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرها عليه؟ وأجبر السلطان هذا المزكى على الأكل فقال: إما أن آكل وأخلى التزكية أو أزكى ولا آكل فلم يجدوا بدا من تزكيته فتركوه. وحكى أن ذا النون المصرى حبس ولم يأكل أياما فى السجن فكانت له أخت فى الله فبعثت إليه طعاما من مغزلها على يد السجان فامتنع فلم يأكل، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال: كان حلالا ولكن جاءنى على طبق ظالم وأشار به إلى يد السجان وهذا غاية الورع. (الثامن) حكى عن فتح الموصلى رحمه الله أنه دخل على بشر الحافى زائرا فأخرج بشر درهما فدفعه لأحمد الجلاء خادمه وقال: اشتر به طعاما جيدا وأدما طيبا، قال: فاشتريت خبزا نظيفا وقلت: لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشىء اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه [1] سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمرا جيدا فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقى. فقال بشر: أتدرون لم قلت اشتر طعاما طيبا؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر، أتدرون لم لم يقل لى كل؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل، أتدرون لم حمل ما بقى؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضر الحمل. وحكى أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال له رجل: قد أسرفت، فقال له: ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطفئه فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع. واشترى أبو على الروذبارى أحمالا من السكر وأمر الحلاويين حتى بنوا جدارا من السكر عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقوشة كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها. (التاسع) قال الشافعى رضى الله عنه «الأكل على أربعة أنحاء: الأكل بأصبع من المقت، وبأصبعين من الكبر، وبثلاث أصابع من السنة [2] وبأربع وخمس من الشره وأربعة أشياء تقوى البدن: أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان. وأربعة توهن البدن: كثرة الجماع وكثرة الهم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة أكل الحموضة. وأربعة تقوى البصر: الجلوس تجاه القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الخضرة وتنظيف الملبس. وأربعة توهن البصر: النظر إلى القذر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المرأة والقعود فى استدبار القبلة. وأربعة تزيد فى الجماع: أكل العصافير وأكل الإطريفل الأكبر وأكل الفستق وأكل الجرجير. والنوم على أربعة أنحاء. فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون فى خلق السموات والأرض، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضمهم طعامهم، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين. وأربعة تزيد فى العقل: ترك الفضول من الكلام والسواك ومجالسة الصالحين والعلماء. وأربعة هن من العبادة: لا يخطو خطوة إلا على وضوء وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن» وقال أيضا: عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت؟ وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت؟ وقال: لم أر شيئا أنفع فى الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب. والله أعلم بالصواب.

---

(١) حديث «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» قاله عند شرب اللبن تقدم فى آخر الباب الأول من آداب الأكل.

(٢) حديث «الأكل بثلاث أصابع من السنة» أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك «كان النبى صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع» وروى ابن الجوزى فى العلل من حديث ابن عباس موقوفا «كل بثلاث أصابع فانه من السنة».

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثانى من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لاتصادف سهام الأوهام فى عجائب صنعه مجرى ولاترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى فهى تتوالى عليهم اختيارا وقهرا . ومن بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها الحراثة جبرا واستبقى بها نسلهم إقهارا وقسرا . ثم عظم أمر الأنساب وجعل لها قدرا فحرم بسببها السفاح وبالغ فى تقبيحه ردعا وزجرا وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمرا إمرا وندب إلى النكاح وحث عليه استحبابا وأمرا فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدما وكسرا ثم بث بذور النطف فى أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبرا تنبيها على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعا وضرا وخيرا وشرا وعسرا ويسرا وطيا ونشرا والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإنذار والبشرى وعلى آله وأصحابه صلاة لايستطيع لها الحساب عدا ولا حصرا وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحصن دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذى به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين فما أحراه بأن تتحرى أسبابه وتحفظ سننه وآدابه وتشرح مقاصده وآرابه وتفصل فصوله وأبوابه . والقدر المهم من أحكامه ينكشف فى ثلاثة أبواب (الباب الأول) فى الترغيب فيه وعنه . (الباب الثانى) فى الآداب المرعية فى العقد والعاقدين . (الباب الثالث) فى آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق .

الباب الأول : فى الترغيب فى النكاح والترغيب عنه

اعلم أن العلماء قد اختلفوا فى فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلى لعبادة الله واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلى لعبادة الله ، مهما لم تتق النفس إلى النكاح توقانا يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع . وقال آخرون : الأفضل تركه فى زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة . ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن نقدم أولا ما ورد من الأخبار والآثار فى الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه فى حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها .

الترغيب فى النكاح

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ وهذا أمر وقال تعالى ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ وهذا منع من العضل ونهى عنه . وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل . ومدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء فقال ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ الآية ويقال إن الله تعالى لم يذكر

فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين فقالوا إن يحي صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجامع قيل إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة ، وقيل لغض البصر ، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فقدرغب عنى » وقال صلى الله عليه وسلم « النكاح سنتى فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى (١) » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم (تناكحوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط (٢)) وقال أيضا عليه السلام (من رغب عن سنتى فليس منى وإن من سنتى النكاح فمن أحبنى فليستن بسنتى (٣)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا (٤)) وهذا ذم لعلة الامتناع لا لأصل الترك وقال صلى الله عليه وسلم (من كان ذا طول فليتزوج (٥)) وقال (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء (٦)) وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد فى العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته ؛ فهو مستعار للضعف عن الوقاع فى الصوم . وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير (٧)) وهذا أيضا تعليل الترغيب لخوف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم (من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله (٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (من تزوج فقدأحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الثانى (٩)) وهذا أيضا إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصنامن الفساد فكأن المفسد لدين المرء فى الأغلب فرجه وبطنه وقد كفى بالتزويج أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم (كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاث ولد صالح يدعو له ... (١٠)) الحديث . ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح .

كتاب آداب النكاح
الباب الأول فى الترغيب فى النكاح

(١) حديث « النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي » أخرجه أبو يعلى فى مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن . (٢) حديث « تناكحوا تكثروا فإني أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط » أخرجه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث ابن عمر دون قوله « حتى بالسقط » وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقى فى المعرفة عن الشافعى أنه بلغه

(٣) حديث « من رغب عن سنتى فليس منى وإن من سنتى النكاح فمن أحبنى فليستن بسنتى » متفق على أوله من حديث أنس « من رغب عن سنتى فليس منى » وباقيه تقدم قبله بحديث . (٤) حديث « من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف والدارمى فى مسنده والبغوى فى معجمه وأبى داود فى المراسيل من حديث أبى نجيح « من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا » وأبو نجيح اختلف فى صحبته

(٥) حديث « من كان ذا طول فليتزوج » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف . (٦) حديث « من استطاع منكم الباءة فليتزوج الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٧) حديث « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ونقل عن البخارى أنه لم يعده محفوظا وقال أبو داود إنه خطأ ورواه الترمذى أيضاً من حديث أبى حاتم المزنى وحسنه ورواه أبو داود فى المراسيل وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواته . (٨) حديث « من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عزوجل » أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس « من أعطى لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » . (٩) حديث « من تزوج فقدأحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الآخر » أخرجه ابن الجوزى فى العلل من حديث أنس بسند ضعيف وهو عند الطبرانى فى الأوسط بلفظ « فقد استكمل نصف الإيمان » وفى المستدرك وصحح إسناده بلفظ « من رزقه الله امرأة صالحة فقدأعانه على شطر دينه ... الحديث » . (١٠) حديث « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة » فذكر فيه « وولد صالح يدعو له » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بنحوه .

وأما الآثار : فقال عمر رضى الله عنه لايمنع من النكاح إلا عجز أو فجور . فبين أن الدين غير مانع منه وحصر المانع فى أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لايتم نسك الناسك حتى يتزوج . يحتمل أن جعله من النسك وتتمة له . ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لايسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب ، ولذلك كان يجمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما ويقول : إن أردتم النكاح أنكحتكم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا ومات امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فى الطاعون وكان هو أيضا مطعونا فقال : زوجونى فإنى أكره أن ألقى الله عزبا . وهذا منهما يدل على أنهما رأيا فى النكاح فضلا لامن حيث التحرز عن غائلة الشهوة . وكان عمر رضى الله عنه يكثر النكاح ويقول : ماأتزوج إلا لأجل الولد « وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تتزوج ؟ فقال يارسول الله إنى فقير لاشىء لى وأنقطع عن خدمتك فسكت . ثم عاد ثانيا فأعاد الجواب . ثم تفكر الصحابى وقال : والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحنى فى دنياى وآخرتى وما يقربنى إلى الله منى ولئن قال لى الثالثة لأفعلن . فقال له الثالثة : ألاتتزوج ؟ قال : فقلت يارسول الله زوجنى ، قال . اذهب إلى بنى فلان فقل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تزوجونى فتاتكم قال : فقلت يارسول الله لاشىء لى ، فقال لأصحابه : اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له : أولم وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة[1] » وهذا التكرير يدل على فضل فى نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح . وحكى أن بعض العباد فى الأمم السالفة فاق أهل زمانه فى العبادة فذكر لنبى زمانه حسن عبادته فقال : نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشىء من السنة فاغتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبى عن ذلك فقال : أنت تارك للتزويج ، فقال: لست أحرمه ولكنى فقير وأنا عيال على الناس ، قال : أنا أزوجك ابنتى فزوجه النبى عليه السلام ابنته . وقال بشر بن الحرث : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسى فقط ولاتساعه فى النكاح وضيقى عنه ولأنه نصب إماما للعامة . ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج فى اليوم الثانى لوفاة أم ولده عبد الله وقال : أكره أن أبيت عزبا . وأما بشر فإنه لما قيل له . إن الناس يتكلمون فيك لتركك النكاح ويقولون هو تارك للسنة ، فقال : قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة . وعوتب مرة أخرى فقال : مايمنعنى من التزويج إلا قوله تعالى ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ فذكر ذلك لأحمد فقال : وأين مثل بشر ؟ إنه قعد على مثل حد السنان . ومع ذلك فقد روى أنه رؤى فى المنام فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : رفعت منازلى فى الجنة وأشرف بى على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين . وفى رواية قال لى : ماكنت أحب أن تلقانى عزبا قال : فقلنا له ، مافعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رفع فوقى بسبعين درجة ، قلنا : بماذا فقد كنا نراك فوقه ؟ قال : بصبره على بنياته والعيال . وقال سفيان بن عيينة : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . فالنكاح سنة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة ! فقال : لروعة منك بسبب العيال : أفضل من جميع ما أنا فيه ، قال: فالذى

(١) حديث «كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبيت عنده لحاجة ان طرقته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تتزوج ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث ربيعة الأسلمى فى حديث طويل — وهو صاحب القصة — باسناد حسن .

يمنعك من النكاح ، فقال : مالى حاجة فى امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسى . وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد . وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب .

وأما ماجاء فى الترهيب عن النكاح : فقد قال صلى الله عليه وسلم « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لاأهل له ولا ولد [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر ويكلفونه مالا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك [2] » وفى الخبر « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين [3] » وسئل أبو سليمان الدارانى عن النكاح فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقال أيضا : الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل . وقال مرة : مارأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى . وقال أيضا : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال الحسن رحمه الله : إذا أراد الله بعبد خيرا لم يشغله بأهل ولا مال ، وقال ابن أبى الحوارى : تناظر جماعة فى هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لايكونا له بل أن يكونا له ولايشغلانه وهو إشارة إلى قول أبى سليمان الدارانى : ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا إلا مقرونا بشرط . وأما الترغيب فى النكاح فقد ورد مطلقاً ومقرونا بشرط فلنكشف الغطاء عنه بحصر آفات النكاح وفوائده .

آفات النكاح وفوائده ، وفيه فوائد خمسة : الولد وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل . وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الأولى : الولد ؛ وهو الأصل وله وضع النكاح . والمقصود إبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس . وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل فى إخراج البذر وبالأنثى فى التمكين من الحرث تلطفا بهما فى السياقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع ، كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهيه ليساق إلى الشبكة وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهارا للقدرة وإتماما لعجائب الصنعة وتحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم . وفى التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه هى الأصل فى الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزبا . (الأول) موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان (والثانى) طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكثير من مباهاته . (والثالث) طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده (والرابع) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

أما الوجه الأول : فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومجارى حكمه . وبيانه أن السيد إذاسلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيأ له أرضاً مهيأة للحراثة وكان العبد قادرا على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا

---

(١) حديث « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لاأهل له ولاولد » أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابى فى العزلة من حديثه وحديث أبى أمامة وكلاهما ضعيف . (٢) حديث يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر ويكلفونه مالا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » أخرجه الخطابى فى العزلة من حديث ابن مسعود نحوه والبيهقى فى الزهد نحوه فى حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف .

(٣) حديث « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين » أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث على وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال المزنى كلاهما بالشطر الأول بسندين ضعيفين .

حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا للمقت والعتاب من سيده . والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثيين وخلق النطفة فى الفقار وهيأ لها فى الأنثيين عروقا ومجارى وخلق الرحم قرارا ومستودعا للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى ، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق فى الإعراب عن مراد خالقها وتنادى أرباب الألباب بتعريف ماأعدت له . هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالمراد حيث قال « تناكحوا تناسلوا » فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر ؟ فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهى ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة فى إدراك دقائق الحكمة الأزلية ، ولذلك عظم الشرع الأمر فى القتل للأولاد وفى الوأد لأنه منع لتمام الوجود ، وإليه أشار من قال : العزل أحد الوأدين فالناكح ساع فى إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه ، ولأجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض فقال ﴿ من ذا الذى يقرض له قرضا حسنا ﴾ . فإن قلت : قولك : إن بقاء النسل والنفس محبوب يوهم أن فناءها مكروه عند الله ، وهو فرق بين الموت والحياة بالاضافة إلى إرادة الله تعالى ، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله وأن الله غنى عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم أوبقاؤهم عن فنائهم ؟ فاعلم أن هذه الكلمة حق أريد بها باطل فإن ماذكرناه لاينافى إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها ، ولكن المحبة والكراهية يتضادان وكلاهما لايضادان الإرادة ، فرب مراد مكروه ، ورب مراد محبوب ، فالمعاصى مكروهة وهى مع الكراهة مرادة ، والطاعات مرادة وهى مع كونها مرادة محبوبة ومرضية أما الكفر والشر فلا نقول إنه مرضى ومحبوب بل هو مراد . وقد قال الله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ فكيف يكون الفناء بالإضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء ، فإنه تعالى يقول « ماترددت فى شىء كترددى فى قبض روح عبدى المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له من الموت[1] » فقوله « لابد له من الموت » إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور فى قوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ ولا مناقضة بين قوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ وبين قوله « وأنا أكره مساءته » ، ولكن إيضاح الحق فى هذا يستدعى تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهة وبيان حقائقها ، فإن السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم ، وهيهات فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد مابين ذاته العزيز وذاتهم وكما أن ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدس عنه ، ولايناسب ماليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض ، فكذا صفاته لاتناسب صفات الخلق ، وهذه الحقائق داخلة فى علم المكاشفة ، ووراء سر القدر الذى منع من إفشائه ، فلنقصر عن ذكره ، ولنقتصر على مانبهنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه ، فإن أحدهما مضيع نسلا أدام الله وجوده من آدم صلى الله عليه وسلم عقبا بعد عقب إلى أن انتهى إليه ؛ فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فمات أبتر لا عقب له ، ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ فى الطاعون : زوجونى لا ألقى الله عزبا . فإن قلت : فما كان معاذ يتوقع ولدا فى ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه ؟ فأقول : الولد يحصل بالوقاع

(١) حديث أنه تعالى يقول « ماترددت فى شىء كترددى فى قبض روح عبدى المسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ، انفرد به مخلد القطوانى وهو متكلم فيه .

بباعث الشهوة ، وذلك أمر لايدخل فى الاختيار ؛ وإنما المعلق باختيار العبد إحضار المحرك للشهوة ، وذلك متوقع فى كل حال ؛ فمن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه ، والباقى خارج عن اختياره ، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضاً ، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها حتى إن الممسوح الذى لايتوقع له ولد لا ينقطع الاستحباب أيضا فى حقه على الوجه الذى يستحب للأصلع إمرار الموسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالحين ، وكما يستحب الرمل والاضطباع فى الحج الآن وقد كان المراد منه أولا إظهار الجلد للكفار . فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة فى حق من بعدهم ، ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب فى حق القادر على الحرث وربما يزداد ضعفا بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر ، فإنّ ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر ؛ فهذا المعنى هو الذى ينبه على شدة إنكارهم لترك النكاح مع فتور الشهوة .

الوجه الثانى : السعى فى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه بتكثير مابه مباهاته ، إذ قد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ماروى عن عمر رضى الله عنه أنه كان ينكح كثيرا ويقول : إنما أنكح للولد . وما روى من الأخبار فى مذمة المرأة العقيم ، إذ قال عليه السلام « لحصير فى ناحية البيت خير من امرأة لاتلد[1] » وقال خير نسائكم الولود الودود [2] » وقال « سوداء ولود ، خير من حسناء لاتلد [3] » وهذا يدل على أن طلب الولد أدخل فى اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة ، لأن الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطع الشهوة .

الوجه الثالث : أن يبقى بعده ولدا صالحا يدعو له ، كما ورد فى الخبر أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثا فذكر الولد الصالح . وفى الخبر « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور [4] » وقول القائل : إنّ الولد ربما لم يكن صالحا : لا يؤثر فإنه مؤمن ، والصلاح هو الغالب على أولاد ذوى الدين لاسيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح ، وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد برا كان أو فاجرا ، فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مؤاخذ بسيئاته ، فإنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، ولذلك قال تعالى ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ أى ما نقصناهم من أعمالهم ، وجعلنا أولادهم مزيدا فى إحسانهم .

الوجه الرابع : أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعا ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنّ الطفل يجرّ بأبويه إلى الجنة [5] » وفى بعض الأخبار « يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك [6] » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « إن المولود يقال ادخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبنطئا ، أى ممتلئا غيظا وغضبا ويقول لا أدخل الجنة إلا وأبواى معى ، فيقال : أدخلوا أبويه معه الجنة [7] » وفى خبر آخر « إن الأطفال

(١) حديث « لحصير فى ناحية البيت خير من امرأة لاتلد » أخرجه أبو عمر النوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين موقوفا على عمر بن الخطاب ، ولم أجده مرفوعا .

(٢) حديث « خير نسائكم الولود الودود » أخرجه البيهقى من حديث ابن أبى أدية الصدفى ، وقال البيهقى : وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا . (٣) حديث « سوداء ولود خير من حسناء لاتلد » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولايصح . (٤) حديث « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور » رويناه فى الأربعين المشهورة من رواية أبى هدبة عن أنس فى الصدقة عن الميت ، وأبو هدبة كذاب . (٥) حديث « إن الطفل يجر أبويه إلى الجنة » أخرجه ابن ماجه من حديث على وقال « السقط » بدل « الطفل » وله من حديث معاذ « إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هى احتسبته » وكلاهما ضعيف . (٦) حديث « إنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٧) حديث « إن المولود يقال له ادخل الجنة » فيقف على باب الجنة فيظل محبنطئا أى ممتلئا غيظا وغضبا ، ويقول لا أدخل إلا وأبواى معى ... الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولايصح ، والنسائى من حديث أبى هريرة « يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » وإسناده جيد .

يجتمعون فى موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم : مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم ، فيقولون : فأين آباؤنا وأمهاتنا ؟ فيقول الخزنة : إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم ، إنه كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون . قال : فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة ، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم : ماهذه الضجة ؟ فيقولون : ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا ؛ فيقول الله تعالى : تخللوا الجمع فخذوا بأيدى آبائهم فأدخلوهم الجنة [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات له اثنان من الولد فقد احتظر بحظار من النار [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » قيل : يارسول‌الله واثنان ؟ قال «واثنان [3] » وحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره ، قال فانتبه من نومه ذات يوم وقال : زوجونى زوجونى ، فزوجوه ، فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقنى ولدا ويقبضه فيكون لى مقدمة فى الآخرة ، ثم قال : رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأنى فى جملة الخلائق فى الموقف ، وبى من العطش ما كاد أن يقطع عنقى ، وكذا الخلائق فى شدة العطش والكرب ، فنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع ، عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من‌ذهب ، وهم يسقون الواحد بعد الواحد ، يتخللون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس ، فمددت يدى إلى أحدهم وقلت : اسقنى فقد أجهدنى العطش ، فقال : ليس لك فينا ولد ، إنما نسقى آباءنا ، فقلت : ومن‌أنتم ؟ فقالوا : نحن من مات من‌أطفال المسلمين . وأحد المعانى المذكورة فى قوله تعالى ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم ﴾ تقديم الأطفال إلى الآخرة ؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سبباً للولد .

الفائدة الثانية : التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « من‌نكح فقد حصن‌نصف دينه فليتق الله فى الشطر الآخر » وإليه الإشارة بقوله « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » وأكثر ما نقلناه من‌الآثار والأخبار إشارة إلى‌هذا المعنى ، وهذا المعنى‌دون الأول ؛ لأن الشهوة موكلة بتقاضى تحصيل الولد ؛ فالنكاح كاف لشغله دافع لجعله وصارف لشر سطوته ، وليس‌من يجيب مولاه رغبة فى تحصيل رضاه ، كمن يجيب‌لطلب‌الخلاص عن غائلة التوكيل ؛ فالشهوة والولد مقدّران وبينهما ارتباط ، وليس يجوز أن يقال : المقصود اللذة ، والولد لازم منها كما يلزم‌مثلا قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصودا فى ذاته ، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة ، والشهوة باعثة عليه ؛ ولعمرى فى الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاد ، وهو مافى قضائها من اللذة التى لاتوازيها لذة لودامت ، فهى منبهة على‌اللذات الموعودة فى‌الجنان ، إذ الترغيب فى‌لذة لم يجد لها ذواقا لاينفع ، فلو رغب‌العنين فى‌لذة الجماع أو‌الصبى فى‌لذة

---

(١) حديث « إن الأطفال يجتمعون فى موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا ... » الحديث بطوله لم أجده أصلا يعتمد عليه . (٢) حديث « من مات له اثنان من الولد احتظر بحظار من النار » أخرجه‌البزار والطبرانى‌من حديث زهير بن أبى علقمة « جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إنه مات لى ابنان سوى هذا فقال : لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد » ولمسلم من‌حديث‌أبى‌هريرة فى‌المرأة التى قالت : دفنت ثلاثة « لقد احتظرت بحظار شديد من النار » (٣) حديث « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل‌رحمته إياهم،قيل : يارسول‌الله واثنان ، قال : واثنان » أخرجه البخارى من حديث أنس دون ذكر الاثنين ، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث‌معاذ، وهو متفق عليه من حديث أبى سعيد بلفظ « أيما امرأة » بنحو منه .

الملك والسلطنة لم ينفع الترغيب ، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة فى دوامها فى الجنة ، ليكون باعثا على عبادة الله . فانظر إلى الحكمة ، ثم إلى الرحمة ، ثم إلى التعبية الإلهية كيف عبيت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة ، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هى الحياة الأخروية ، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة فى اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيستحث على العبادة الموصلة إليها ، فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسر المواظبة على مايوصله إلى نعيم الجنان ، ومامن ذرة من ذرات بدن الإنسان باطنا وظاهرا ، بل ذرات ملكوت السموات والأرض ، إلاوتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها ماتحار العقول فيها ، ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها ، فالنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم فى الدين لكل من لايؤتى عن عجز وعنة وهم غالب الخلق ، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش ، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ وإن كان ملجما بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة ، فيغض البصر ويحفظ الفرج ، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره ، بل لاتزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع ولا يفترعنه الشيطان الموسوس إليه فى أكثر الأوقات ، وقد يعرض له ذلك فى أثناء الصلاة حتى يجرى على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدى أخس الخلق لاستحيي منه ، والله مطلع على قلبه ، والقلب فى حق الله كاللسان فى حق الخلق ، ورأس الأمور للمريد فى سلوك طريق الآخرة قلبه ، والمواظبة على الصوم لاتقطع مادة الوسوسة فى حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه ضعف فى البدن وفساد فى المزاج ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : لايتم نسك الناسك إلا بالنكاح . وهذه محنة عامة قل من يتخلص منها . قال قتادة فى معنى قوله تعالى ﴿ ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ هو الغلمة . وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا فى معنى قوله تعالى ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ أنه لايصبر عن النساء وقال فياض بن نجيح . إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وبعضهم يقول : ذهب ثلث دينه . وفى نوادر التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال قيام الذكر ، وهذه بلية غالبة إذاهاجت لايقاومها عقل ولا دين ، وهى مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهى أقوى آلة الشيطان على بنى آدم ، وإليه أشار عليه السلام بقوله « مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكن »[1] ، وإنما ذلك لهيجان الشهوة . وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم إنى أعوذبك من شرسمعى وبصرى وقلبى وشرمنيي »[2] ، وقال « أسألك أن تطهر قلبى وتحفظ فرجى »[3] ، فما يستعيذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره ، وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لايكاد يخلو من اثنتين وثلاث ، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة أووقف بين يديه موقفا فى معاملة فخطر على قلبه خاطر شهوة ، فقالوا : يصيبنا من ذلك كثير ، فقال : لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد لما تزوجت ، لكنى ماخطر على قلبى خاطر يشغلنى عن حالى إلا نفذته فأستريح وأرجع إلى شغلى ، ومنذ أربعين سنة ماخطر على قلبى معصية . وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له

---

(١) حديث « مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر ، واتفقا عليه من حديث أبى سعيد ولم يسق مسلم لفظه . (٢) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وشر منيى » تقدم فى الدعوات . (٣) حديث « أسألك أن تطهر قلبى وتحفظ فرجى » أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لين .

بعض ذوى الدين : ماالذى تنكر منهم ؟ قال : يأكلون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون ، قال : ينكحون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون .

وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت ، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع نظره على امرأة فتاقت إليها نفسه أن يجامع أهله [1] ؛ لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس . وروى جابر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج . وقال صلى الله عليه وسلم « إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله معها مثل الذى معها [2] » وقال عليه السلام « لاتدخلوا على المغيبات - وهى التى غاب زوجها عنها - فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم » قلنا : ومنك ؟ قال « ومنى ، ولكن الله أعاننى عليه فأسلم [3] » قال سفيان بن عيينة : فأسلم معناه فأسلم أنا منه ، هذا معناه ، فإن الشيطان لايسلم ، وكذلك حكى عن ابن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل ، وربما أنه جامع ثلاثا من جواريه فى شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة . وقال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرها نساء [4]

ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ولأجل فراغ القلب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرقاق الولد وهو نوع إهلاك ، وهو محرم على كل من قدر على حرة ، ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين ، وليس فيه إلا تنغيص الحياة على الولد مدة ، وفى اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الأخروية التى تستحقر الأعمار الطويلة بالاضافة إلى يوم من أيامها . وروى أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقى شاب لم يبرح ، فقال له ابن عباس : هل لك من حاجة ؟ قال : نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس ، وأنا الآن أهابك وأجلك ، فقال ابن عباس : إن العالم بمنزلة الوالد ، فما كنت أفضيت به إلى أبيك فأفض إلى به ، فقال : إنى شاب لازوجة لى ، وربما خشيت العنت على نفسى ، فربما استمنيت بيدى ، فهل فى ذلك معصية ؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال : أف وتف نكاح الأمة خير منه ، وهو خير من الزنا ، فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة ، وفيه إرقاق الولد ، وأشد منه الاستمناء باليد ، وأفحشه الزنا ، ولم يطلق ابن عباس الإباحة فى شىء منه لأنهما محذوران يفزع إليهما حذرا من الوقوع فى محذور أشد منه ، كما يفزع إلى تناول الميتة حذرا من هلاك النفس ، فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الإباحة المطلقة ولا فى معنى الخير المطلق ، وليس قطع اليد المتآكلة من الخيرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك ، فإذا فى النكاح فضل من هذا الوجه , ولكن هذا لايعم الكل بل الأكثر ، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث فى حقه ، ويبقى ماسبق من أمر الولد . فإن ذلك عام إلا للممسوح

---

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع بصره على امرأة فتاقت نفسه إليها أن يجامع أهله » أخرجه أحمد من حديث أبى كبشة الأنمارى ، حين مرت به امرأة فوقع فى قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بعض أزواجه وقال : فكذلك فافعلوا ، فانه من أماثل أفعالكم إتيان الحلال ، وإسناده جيد . (٢) حديث جابر « رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته » الحديث رواه مسلم والترمذى واللفظ له وقال : حسن صحيح . (٣) حديث « لاتدخلوا على المغيبات فان الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث جابر وقال غريب ، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر « ولايدخل بعد يومى هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان » . (٤) حديث ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم رواه البخارى .

وهو نادر ، ومن الطباع ماتغلب عليها الشهوة بحيث لاتحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع ، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال ، فقد نكح على رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ، ويقال : إن الحسن بن على كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتى امرأة وكان ربما عقد على أربع فى وقت واحد ، وربما طلق أربعا فى وقت واحد واستبدل بهن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن « أشبهت خلقى وخلقى[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « حسن منى وحسين من على[2] » فقال إن كثرة نكاحه أحد ماأشبه به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة ، وكان فى الصحابة من له الثلاث والأربع ، ومن كان له اثنتان لايحصى ، ومهما كان الباعث معلوما فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة فالمراد تسكين النفس فلينظر إليه فى الكثرة والقلة .

الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العباده فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالإكراه على مايخالفها جمحت وثابت ، وإذا روّحت باللذات فى بعض الأوقات قويت ونشطت ، وفى الاستئناس بالنساء من الاستراحة مايزيل الكرب ويروح القلب ، وينبغى أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ ليسكن إليها ﴾ وقال على رضى الله عنه : روّحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت . وفى الخبر « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه . فإنّ فى هذه الساعة عونا على تلك الساعات[3] » ومثله بلفظ آخر « لايكون العاقل ظاعنا إلا فى ثلاث : تزوّد لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم[4] » وقال عليه الصلاة السلام « لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى[5] » والشرة الجد والمكابدة بحدة وقوة ، وذلك فى ابتداء الإرادة ، والفترة . الوقوف للاستراحة ، وكان أبو الدرداء يقول إنى لأستجم نفسى بشىء من اللهو لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق . وفى بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شكوت إلى جبريل عليه السلام ضعفى عن الوقاع فدلنى على الهريسة[6] » وهذا إن صح لامحمل له إلا الاستعداد للاستراحة ، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استثارة للشهوة ، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الأنس . وقال عليه الصلاة والسلام حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة[7] » فهذه أيضا فائدة لاينكرها من جرب إتعاب نفسه فى الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال ، وهى خارجة عن

---

(١) حديث أنه قال للحسن بن على « أشبهت خلقى وخلقى » قلت المعروف أنه قال هذا اللفظ لجعفر بن أبى طالب ، كما هو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن أيضا كان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو متفق عليه من حديث أبى جحيفة ، وللترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن » . (٢) حديث « حسن منى وحسين من على » رواه أحمد من حديث المقداد بن معديكرب بسند جيد . (٣) حديث « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه » رواه ابن حبان من حديث أبى ذر فى حديث طويل : أن ذلك فى صحف إبراهيم . (٤) حديث « لايكون العاقل ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم » رواه ابن حبان من حديث أبى ذر الطويل : أن ذلك فى صحف ابراهيم . (٥) حديث « لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى » رواه أحمد والطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو . وللترمذى نحو من هذا من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح . (٦) حديث « شكوت إلى جبريل ضعفى عن الوقاع فدلنى على الهريسة » أخرجه ابن عدى من حديث حذيفة ؛ وابن عباس ، والعقيلى من حديث معاذ وجابر بن سمرة ، وابن حبان فى الضعفاء من حديث حذيفة ، والأزدى فى الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضعيفة . قال ابن عدى : موضوع ، وقال العقيلى : باطل

(٧) حديث « حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة » رواه النسائى والحاكم من حديث أنس باسناد جيد ، وضعفه العقيلى .

الفائدتين السابقتين ، حتى إنها تطرد فى حق الممسوح ومن لا شهوة له ، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية ، وقل من يقصد بالنكاح ذلك . وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجارى والخضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن . فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتنبه له .

الفائدة الرابعة : تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب المعيشة ، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش فى منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ، ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظى فى معنى قوله تعالى ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ﴾ قال : المرأة الصالحة . وقال عليه الصلاة والسلام « ليتخذ أحدكم قلبا شاكراً ولسانا ذاكرا وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته[1] » ، فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر . وفى بعض التفاسير فى قوله تعالى ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال الزوجة الصالحة ؛ وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ماأعطى العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة ، وإن منهن غنما لايحذى منه ، ومنهن غلالا يفدى منه . وقوله : لايحذى أن يعتاض عنه بعطاء . وقال عليه الصلاة والسلام « فضلت على آدم بخصلتين : كانت زوجته عونا له على المعصية ، وأزواجى أعوان لى على الطاعة ، وكان شيطانه كافرا وشيطانى مسلم لا يأمر إلا بخير[2] » ، فعد معاونتها على الطاعة فضيلة : فهذه أيضاً من الفوائد التى يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر ، ولا تدعو إلى امرأتين بل الجمع ربما ينغص المعيشة ويضطرب به أمور المنزل ؛ ويدخل فى هذه الفائدة قصد الاستكثار بعشيرتها ومايحصل من القوة بسبب تداخل العشائر ، فإن ذلك مما يحتاج إليه فى دفع الشرور وطلب السلامة ولذلك قيل : ذل من لا ناصر له ، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة ، فإن الذل مشوش للقلب والعز بالكثرة دافع بالذل .

الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده ، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[3] » ، وليس من اشتغل

---

(١) حديث « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولسانا ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث ، وفيه انقطاع . (٢) حديث « فضلت على آدم صلى الله عليه وسلم بخصلتين : كانت زوجته عونا له على المعصية وأزواجى أعوان لى على الطاعة ، وكان شيطانه كافرا وشيطانى مسلم لايأمر إلا بخير » رواه الخطيب فى التاريخ من حديث ابن عمر ، وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلانسى قال ابن عدى كان يضع الحديث ، ولمسلم من حديث ابن مسعود « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال « وأنا ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم ولا يأمرنى إلا بخير » . (٣) حديث « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه الطبراني والبيهقى من حديث ابن عباس ، وقد تقدم بلفظ « ستين سنة » دون مابعده فانه متفق عليه من حديث ابن عمر .

بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها ، فقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ماأنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته [1] » وقال بعضهم لبعض العلماء : من كل عمل أعطانى الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما فقال له : أين أنت من عمل الأبدال ؟ قال : وما هو ! قال كسب الحلال ، والنفقة على العيال . وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه فى الغزو : تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : مانعلم ذلك. قال : أنا أعلم . قالوا: فما هو؟قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياما متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه . وقال صلى الله عليه وسلم من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغتب المسلمين كان معى فى الجنة كهاتين [2] ، وفى حديث آخر « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال [3] » وفى الحديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه [4] » وقال بعض السلف . من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الغم بالعيال ، وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة [5] ، وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة ألبتة ، إلا أن يعمل عملا لايغفر له [6] » وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال . والله هو من غرائب الحديث وغرره . وروى أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت . فعرض عليه التزويج فامتنع وقال : الوحدة أروح لقلبي وأجمع لهمى ، ثم قال : رأيت فى المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكأن رجالا ينزلون ويسيرون فى الهواء يتبع بعضهم بعضا ، فكلما نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم ، فيقول الآخر نعم ، ويقول الثالث كذلك ، ويقول الرابع نعم ، فخفت أن أسألهم هيبة من ذلك إلى أن مر بى آخرهم وكان غلاما ، فقلت له : ياهذا من هذا المشئوم الذى تومئون إليه؟ فقال : أنت . فقلت: ولم ذاك؟ قال : كنا نرفع عملك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله ، فمنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين ، فما ندرى ماأحدثت ؟ فقال لإخوانه : زوجونى زوجونى فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث . وفى أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوما دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم ، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فتعجبوا من ذلك فقال : لاتعجبوا فإنى سألت الله تعالى وقلت : ما أنت معاقب لى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال : إن عقوبتك بنت فلان ، تتزوج بها ، فتزوجت بها وأنا صابر على ماترون منها ، وفى الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب

---

(١) حديث « ماأنفق الرجل على أهله فهو صدقة وان الرجل ليؤجر فى رفع اللقمة الى فى امرأته » متفق عليه من حديث ابن مسعود « اذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة » ولهما من حديث سعد بن أبى وقاص « ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك » . (٢) حديث « من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغتب المسلمين كان معى فى الجنة كهاتين » أخرجه أبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بسند ضعيف . (٣) حديث « ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف . (٤) حديث « اذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها » رواه أحمد من حديث عائشة الا أنه قال « بالحزن » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه . (٥) حديث « من الذنوب ذنوب لايكفرها الا الهم بطلب المعيشة » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص المتشابه من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف . (٦) حديث « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة الا أن يعمل عملا لايغفر له » رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وهو عنده بلفظ آخر : ولأبى داود واللفظ له والترمذى من حديث أبى سعيد « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن اليهن فله الجنة » ورجاله ثقات ، وفى سنده اختلاف .

وتحسين الخلق ؛ فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لاتترشح منه خبائث النفس الباطنة ولا تنكشف بواطن عيوبه ، فحق على سالك طريق الآخرة أن يجرّب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحركات واعتياد الصبر عليها ، لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة فى نفسها ، فهذه أيضاً من الفوائد ، ولكنه لاينتفع بها إلا أحد رجلين : إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه فى بداية الطريق ، فلا يبعد أن يرى هذا طريقا فى المجاهدة وترتاض به نفسه ، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب ، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره ، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التى لايتعدى خيرها إلى غيره ، فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية فى أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير فى الباطن وحركة بفكر القلب فى العلوم والمكاشفات ، فلا ينبغى أن يتزوج لهذا الغرض ، فإنّ الرياضة هو مكفى فيها . وأما العبادة فى العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك ، لأنه أيضاً عمل ، وفائدته أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال ، فهذه فوائد النكاح فى الدين التى بها يحكم له بالفضيلة .

أما آفات النكاح فثلاث : (الأولى) وهى أقواها العجز عن طلب الحلال فإنّ ذلك لايتيسر لكل أحد ، لاسيما فى هذه الأوقات مع اضطراب المعايش فيكون النكاح سببا فى التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وفيه هلاكه وهلاك أهله والمتعزب فى أمن من ذلك ، وأما المتزوج ففى الأكثر يدخل فى مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه . وفى الخبر « إنّ العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله ، فلا تبقى له حسنة ، فتنادى الملائكة : هذا الذى أكل عياله حسناته فى الدنيا وارتهن اليوم بأعماله[1] » ويقال : إنّ أول مايتعلق بالرجل فى القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدى الله تعالى ويقولون : ياربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ماعلمنا مانجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتص لهم منه . وقال بعض السلف : إذا أراد الله بعبد شرا سلط عليه فى الدنيا أنيابا تنهشه يعنى العيال . وقال عليه الصلاة والسلام « لايلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله[2] » فهذه آفة عامة قل من يتخلص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلال يفى به وبأهله وكان له من القناعة ما يمنعه من الزيادة ، فإنّ ذاك يتخلص من هذه الآفة ، أو من هو محترف ومقتدر على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطياد ، أو كان فى صناعة لا تتعلق بالسلاطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير ، ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال وقال ابن سالم رحمه الله ـ وقد سئل عن التزويج ـ فقال : هو أفضل فى زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب ، مثل الحمار يرى الأتان فلا ينتهى عنها بالضرب ولا يملك نفسه ، فإن ملك نفسه فتركه أولى .

الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن وهذه دون الأولى فى العموم فإنّ القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى ، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بحظوظهن أهون من طلب الحلال وفى هذا أيضا خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته . وقال عليه الصلاة والسلام « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول[3] »

(١) حديث « ان العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهن ... الحديث » لم أقف له على أصل . (٢) حديث « لايلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى سعيد ، ولم يجده ولده أبو منصور فى مسنده . (٣) حديث « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » رواه أبو داود والنسائى بلفظ « من يقوت » وهو عند مسلم بلفظ آخر .

وروى أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم ، ومن يقصر عن القيام بحقهن وإن كان حاضرا فهو بمنزلة هارب ، فقد قال تعالى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا ، والإنسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه ، وإذا تزوج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أمارة بالسوء ، إن كثرت عليها الحقوق كثر الأمر بالسوء غالبا ، ولذلك اعتذر بعضهم من التزويج وقال : أنا مبتلى بنفسى وكيف أضيف إليها نفسا أخرى ؟ كما قيل :

لن يسع الفأرة جحرها علقت المكنس فى دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهم رحمه الله وقال : لا أغر امرأة بنفسى ولا حاجة لى فيهن : أى من القيام بحقهن وتحصينهن وإمتاعهن وأنا عاجز عنه ، وكذلك اعتذر بشر وقال : يمنعنى من النكاح قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن ﴾ وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أصير جلادا على الجسر . ورؤى سفيان ابن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له : ما هذا موقفك ! فقال : وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول :

ياحبذا العزبة والمفتاح * ومسكن تخرقه الرياح * لاصخب فيه ولا صياح

فهذه آفة عامة أيضا وإن كانت دون عموم الأولى ، لايسلم منها إلا حكيم عاقل ، حسن الأخلاق ، بصير بعادات النساء ، صبور على لسانهن ، وقاف عن اتباع شهواتهن ، حريص على الوفاء بحقهن يتغافل عن زللهن ، ويدارى بعقله أخلاقهن ، والأغلب على الناس السفه والفظاظة والحدّة والطيش وسوء الخلق وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف ومثل هذا يزداد بالنكاح فسادا من هذا الوجه لا محالة ، فالوحدة أسلم له .

الآفة الثالثة ـ وهى دون الأولى والثانية ـ : أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه ، ولست أعنى بهذا أن يدعو إلى محظور ، فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدعوه إلى التنعم بالمباح بل إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانستهن والإمعان فى التمتع بهن ، ويثور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب ، فينقضى الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكر فى الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : من تعود أفخاذ النساء لم يجئ منه شىء . وقال أبو سليمان رحمه الله . من تزوج فقد ركن إلى الدنيا : أى يدعوه ذلك إلى الركون إلى الدنيا ، فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقا قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرا ومحكا ويعرض المريد عليه نفسه ، فإن انتفت فى حقه الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجدّ فى الدين تام لايشغله النكاح عن الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يمارى فى أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعى فى تحصيل الولد ، فإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغى أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة فى الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات فى النقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول : من لم يكن فى أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه فى السعى لتحصيل

الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى ، فلا خير فيما يشغل عن الله ، ولا خير فى كسب الحرام ، ولا يفى بنقصان هذين الأمرين أمر الولد ، فإن النكاح للولد سعى فى طلب حياة للولد موهومة ، وهذا نقصان فى الدين ناجز ، فحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى فى الولد وذلك ربح والدين رأس مال . وفى فساد الدين بطلان الحياة الأخروية وذهاب رأس المال ، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين . وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح نظر : فإن لم يقو لجام التقوى فى رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى , لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام ، والكسب الحرام أهون الشرين ، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزنى ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام فترك النكاح أولى ، لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرام ، والكسب يقع دائما وفيه عصيانه وعصيان أهله ، والنظر يقع أحيانا وهو يخصه وينصرم على قرب ، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب من أكل الحرام ، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج فيرجع ذلك إلى خوف العنت ؛ وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة : وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب فذلك أولى بترك النكاح ، لأن عمل القلب إلى العفو أقرب , إنما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعامه ، فهكذا ينبغى أن توزن هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها ، ومن أحاط بهذا لم يشكل عليه شىء مما نقلنا عن السلف من ترغيب فى النكاح مرة ورغبة عنه أخرى ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح .

* فإن قلت : فمن أمن الآفات فما الأفضل له . التخلى لعبادة الله ، أو النكاح ؟ * فأقول : يجمع بينهما ، لأن النكاح ليس مانعا من التخلى لعبادة الله من حيث إنه عقد ، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب ، فإن قدر على الكسب الحلال فالنكاح أيضا أفضل ، لأن الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلى فيه للعبادة ، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن ، فإن فرض كونه مستغرقا بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة ، فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجرى مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل ، لأن فى كسب الحلال والقيام بالأهل والسعى فى تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعا من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن ، والكسب يشوش عليه ذلك ، فترك النكاح أفضل .

* فإن قلت : فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ؟ وإن كان الأفضل التخلى لعبادة الله فلم استكثر رسولنا صلى الله عليه وسلم من الأزواج ؟ فاعلم أن الأفضل الجمع بينهما فى حق من قدر ومن قويت منته وعلت همته فلا يشغله عن الله شاغل ، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ، ولقد كان مع تسع من النسوة (١) متخليا لعبادة الله ، وكان قضاء الوطر بالنكاح فى حقه غير مانع ، كما لا يكون قضاء الحاجة فى حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعا لهم عن التدبير ، حتى يشتغلون فى الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهممهم غير غافلة عن مهماتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلو درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى ، فكان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش امرأته (٢) ، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يبعد أن يغير السواقى

---

(١) حديث « جمعه صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة » أخرجه البخارى من حديث أنس ، وله من حديثه أيضاً « وهن احدى عشرة » . (٢) حديث « كان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش امرأته » أخرجه البخارى من حديث أنس « يا أم سلمة لا تؤذيني فى عائشة فانه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها » .

مالا يغير البحر الخضم ، فلاينبغى أن يقاس عليه غيره . وأماعيسى صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ بالحزم لابالقوة ، واحتاط لنفسه ، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أويتعذر معها طلب الحلال ، أو لايتيسرفيها الجمع بين النكاح والتخلى للعبادة فآثر التخلى للعبادة ، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم فى طيب المكاسب وأخلاق النساء ، وما على الناكح من غوائل النكاح وماله فيه ، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح فى بعضها أفضل وتركه فى بعضها أفضل ؛ فحقنا أن ننزل أفعال الأنبياء على الأفضل فى كل حال والله أعلم .

الباب الثانى : فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أماالعقد فأركانه وشروطه لينعقد ويفيد الحل أربعة : (الأول) إذن الولى ؛ فإن لم يكن فالسلطان (الثانى) رضا المرأة إن كانت ثيبا بالغا أو كانت بكرا بالغا ، ولكن يزوجها غير الأب والجد (الثالث) حضور شاهدين ظاهرى العدالة ، فإن كانامستورين حكمنا بالانعقاد للحاجة (الرابع) إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أوالتزويج أومعناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة ، سواء كان هو الزوج أو الولى أو وكيلهما .

وأما آدابه . فتقديم الخطبة مع الولى لافى حال عدة المرأة ، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ، ولافى حال سبق غيره بالخطبة ، إذنهى عن الخطبة على الخطبة (١) . ومن آدابه . الخطبة قبل النكاح ، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول فيقول المزوج : الحمدلله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتى فلانة . ويقول الزوج : الحمدلله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق . وليكن الصداق معلوما خفيفا ، والتحميد قبل الخطبة أيضا مستحب . ومن آدابه . أن يلقى أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكرا فذلك أحرى وأولى بالألفة ؛ ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح فإنه أحرى أن يؤدم بينهما . ومن الآداب : إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة ، ومنها : أن ينوى بالنكاح إقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التى ذكرناها ، ولايكون قصده مجرد الهوى والتمتع ، فيصير عمله من أعمال الدنيا ، ولا يمنع ذلك هذه النيات ، فرب حق يوافق الهوى . قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إذا وافق الحق الهوى فهو الزبد بالنرسيان ، ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثا معا ، ويستحب أن يعقد فى المسجد وفى شهر شوال . قالت عائشة رضى الله عنها : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال ، وبنى بى فى شوال (٢) .

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما للحل . والثانى لطيب المعيشة وحصول المقاصد :

النوع الأول مايعتبر فيها للحل : وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح والموانع تسعة عشر : (الأول) أن تكون منكوحة للغير (الثانى) أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدة وفاة أوطلاق أووطء شبهة أوكانت فى استبراء وطء عن ملك يمين (الثالث) أن تكون مرتدة عن الدين لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر (الرابع) أن تكون مجوسية (الخامس) أن تكون وثنية أو زنديقة لاتنسب إلى نبى وكتاب ومنهن المعتقدات لمذهب الإباحة فلا يحل نكاحهن وكذلك كل معتقدة مذهبا فاسدا يحكم بكفر معتقده (السادس) أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بنى إسرائيل ، فإذا عدمت كلتا الخصلتين

الباب الثانى : فيما يراعى حالة العقد

(١) حديث النهى عن الخطبة على الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر ، ولايخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله ويأذن له . (٢) حديث عائشة : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال وبنى بى فى شوال . رواه مسلم .

لم يحل نكاحها ، وإن عدمت النسب فقط ففيه خلاف (السابع) أن تكون رقيقة و الناكح حرّا قادرا على طول الحرّة أوغير خائف من العنت ، (الثامن) أن تكون كلها أو بعضها مملوكا للناكح ملك يمين (التاسع) أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أوفصوله ، أوفصول أوّل أصوله ، أومن أوّل فصل من كل أصل بعده أصل ، وأعنى بالأصول : الأمهات والجدات ، وبفصوله : الأولادوالأحفاد ، وبفصول أول أصوله : الإخوة وأولادهم ، وبأوّل فصل من كل أصل بعده أصل : العمات والخالات دون أولادهن (العاشر) أن تكون محرّمة بالرضاع ويحرم من الرضاع مايحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق ، ولكن المحرّم خمس رضعات وما دون ذلك لايحرم (الحادى عشر) المحرم بالمصاهرة : وهو أن يكون الناكح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبهة عقد من قبل ، أو وطئهن بالشبهة فى عقد أو وطىء أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد ؛ فمجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها ، ولا يحرم فروعها إلا بالوطء ، أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل (الثانى عشر) أن تكون المنكوحة خامسة أى يكون تحت الناكح أربع سواها إما فى نفس النكاح أو فى عدة الرجعة ، فإن كانت فى عدة بينونة لم تمنع الخامسة . (الثالث عشر) أن يكون تحت الناكح أختها أو عمتها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعا بينهما ، وكل شخصين بينهما قرابة لوكان أحدهما ذكرا والآخرة أنثى لم يجز بينهما النكاح ، فلايجوز أن يجمع بينهما (الرابع عشر) أن يكون هذا الناكح قد طلقها ثلاثا فهى لا تحل له مالم يطأها زوج غيره فى نكاح صحيح (الخامس عشر) أن يكون الناكح قد لاعنها فإنها تحرم عليه أبدا بعداللعان (السادس عشر) أن تكون محرمة بحج أو عمرة أوكان الزوج كذلك فلا ينعقد النكاح إلا بعد تمام التحلل (السابع عشر) أن تكون ثيبا صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ . (الثامن عشر) أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ (التاسع عشر) أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن توفى عنها أودخل بها فإنهن أمهات المؤمنين وذلك لايوجد فى زماننا ؛ فهذه هى الموانع المحرّمة .

أما الخصال المطيبة للعيش التى لابد من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد وتتوفرمقاصده ثمانية : الدين ، والخلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب ، وأن لاتكون قرابة قريبة (الأولى) أن تكون صالحة ذات دين ، فهذا هو الأصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناء ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسهاوفرجها أزرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوّشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه ، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل فى بلاء ومحنة ؛ وإن سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحمية والأنفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشدّ ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، ويكون كالذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله إنّ لى امرأة لاترد يد لامس . قال : طلقها ، فقال : إنى أحبها . قال : أمسكها(١) وإنما أمره بإمساكها خوفا عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضا معها ؛ فرأى مافى دوام نكاحه من دفع الفساد عنه من ضيق قلبه أولى ، وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أوبوجه آخر لم يزل العيش مشوّشا معه . فإن سكت ولم ينكره كان شريكا فى المعصية مخالفا لقوله تعالى ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ وإن أنكر وخاصم تنغص العمر ، ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التحريض على ذات الدين فقال « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها

(١) حديث « جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ان لى امرأة لاترد يد لامس ، قال : طلقها ... الحديث » رواه أبو داود والنسائى من حديث ابن عباس ؛ قال النسائى : ليس بثابت ، والمرسل أولى بالصواب . وقال أحمد : حديث منكر ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك [١] » وفى حديث آخر « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم جمالها ومالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها ، وانكح المرأة لدينها [٣] » وإنما بالغ فى الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عونا على الدين ؛ فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له . (الثانية) حسن الخلق ، وذلك أصل مهم فى طلب الفراغة والاستعانة على الدين : فإنها إذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء . قال بعض العرب . لاتنكحوا من النساء ستة : لا أنانة . ولا منانة ، ولا حنانة ؛ ولا تنكحوا حداقة : ولابراقة ، ولا شداقة . أما الأنانة فهى التى تكثر الأنين والتشكى وتعصب رأسها كل ساعة ؛ فنكاح الممراضة أو نكاح المتمارضة لاخير فيه ، والمنانة : التى تمن على زوجها فتقول : فعلت لأجلك كذا وكذا ، والحنانة : التى تحن إلى زوج آخر أوولدها من زوج آخر ، وهذا أيضا مما يجب اجتنابه ، والحداقة : التى ترمى إلى كل شىء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه ، والبراقة تحتمل معنيين : أحدهما أن تكون طول النهار فى تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع ، والثانى أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شىء ، وهذه لغة يمانية يقولون : برقت المرأة وبرق الصبى الطعام إذا غضب عنده ، والشداقة : المتشدقة الكثيرة الكلام ، ومنه قوله عليه السلام « إن الله تعالى يبغض الثرثارين المتشدقين [٤] » وحكى أن السائح الأزدى لقى إلياس عليه السلام فى سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل ، ثم قال لاتنكح أربعا : المختلعة ، والمبارية ، والعاهرة ، والناشز ، فأما المختلعة : فهى التى تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب ، والمبارية : المباهية بغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا ، والعاهرة : الفاسقة التى تعرف بخليل وخدن وهى التى قال الله تعالى ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ والناشز التى تعلو على زوجها بالفعال والمقال . والنشز : العالى من الأرض ، وكان على رضى الله عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء . البخل ، والزهو والجبن ؛ فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها ، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب وإذا كانت جبانة فرقت من كل شىء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها ؛ فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة فى النكاح . (الثالثة) حسن الوجه ؛ فذلك أيضا مطلوب ، إذ به يحصل التحصن والطبع لايكتفى بالدميمة غالبا ، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان . وما نقلناه من الحث على الدين وأن المرأة لاتنكح لجمالها ليس زاجر عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد فى الدين ؛ فإن الجمال وحده فى غالب الأمر يرغب فى النكاح ويهون أمر الدين ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الألفة والمودة تحصل به غالبا وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال « إذا أوقع الله فى نفس

---

(١) حديث « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها . . الحديث » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها الا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » ورواه ابن حبان فى الضعفاء . (٣) حديث « لاتنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (٤) حديث « ان الله يبغض الثرثارين المتشدقين » رواه الترمذى وحسنه من حديث جابر « وان أبغضكم الى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتفيهقون » ولأبى داود والترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو « ان الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » .

أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما[١] » أى يؤلف بينهما ، من وقوع الأدمة على الأدمة : وهى الجلدة الباطنة . والبشرة ، الجلدة الظاهرة. وإنما ذكر ذلك للمبالغة فى الائتلاف . وقال عليه الصلاة والسلام « إن فى أعين الأنصار شيئا فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن[٢] » قيل كان فى أعينهن عمش .وقيل :صغر ، وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازا من الغرور . قال الأعمش . كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم . ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال ، وإنما يعرف الجمال من القبح . وروى أن رجلا تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه ، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا : حسبناه شابا : فأوجعه عمر ضربا وقال : غررت القوم : وروى أن بلالا وصهيبا أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما ، من أنتما فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله ، فقالوا بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق . والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعا فيستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر ، وفى الخلق بالوصف والاستيصاف فينبغى أن يقدم ذلك على النكاح ، ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط فى الثناء ، ولا يحسدها فيقصر ، فالطباع مائلة فى مبادى النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط ، وقل من يصدق فيه ويقتصد ، بل الخداع والإغراء أغلب ، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته . فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو الولد أو تدبير المنزل ، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا وإن كان قد يعين على الدين فى حق بعض الأشخاص . قال أبو سليمان الدارانى : الزهد فى كل شىء حتى فى المرأة يتزوج الرجل العجوز إيثاراً للزهد فى الدنيا . وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول . يترك أحدكم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير ويتزوج بنت فلان وفلان يعنى أبناء الدنيا فتشتهى عليه الشهوات وتقول اكسنى كذا وكذا ! واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلهما ؟ فقيل : العوراء ، فقال : زوجونى إياها ، فهذا دأب من لم يقصد التمتع ، فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع فليطلب الجمال ، فالتلذذ بالمباح حصن للدين . وقد قيل : إذا كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق سوداء الحدقة والشعر كبيرة العين بيضاء اللون محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهى على صورة الحور العين ؛ فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة فى قوله ﴿ خيرات حسان ﴾ أراد بالخيرات حسنات الأخلاق ، وفى قوله ﴿قاصرات الطرف﴾ وفى قوله ﴿عرباً أتراباً﴾ العروب : هى العاشقة لزوجها المشتهية للوقاع وبه تتم اللذة والحور : البياض والحوراء : شديدة بياض العين شديدة سوادها فى سواد الشعر والعيناء الواسعة العين . وقال عليه الصلاة والسلام « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله[٣] » وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج (الرابعة) أن تكون خفيفة المهر .

---

(١) حديث « إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث أحمد بن مسلمة دون قوله « فانه أحرى » وللترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبة : أنه خطب امرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » (٢) حديث « إن فى أعين الأنصار شيئا فاذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن » رواه مسلم من حديث أبى هريرة نحوه . (٣) حديث « خير نسائكم التى إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » أخرج النسائى من حديث أبى هريرة نحوه بسند صحيح وقال « ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها » وعند أحمد « فى نفسها وماله » ولأبى داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا [١] » وقد نهى عن المغالاة فى المهر [٢] تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحى يد وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف [٣] وعلى ، وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير [٤] وعلى أخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق [٥] ، وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم [٦] ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم [٧] وزوّج سعيد بن المسيب ابنته من أبى هريرة رضى الله عنه على درهمين ، ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف ، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج من خلاف العلماء فلا بأس به . وفى الخبر « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها » أى الولادة « ويسر مهرها [٨] » وقال أيضا « أبركهن أقلهن مهرا [٩] » وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل . ولا ينبغى أن ينكح طمعا فى المال . قال الثورى : إذا تزوج وقال : أى شىء للمرأة ، فاعلم أنه لص ، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغى أن يهدى ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه ، وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة ؛ فأما التهادى فمستحب وهو سبب المودة . قال عليه السلام « تهادوا تحابوا [١٠] » وأما طلب الزيادة فداخل فى قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى تعطى لتطلب أكثر ، وتحت قوله تعالى (وما آتيتم من رباً ليربوا فى أموال الناس) فإن الربا هو الزيادة ، وهذا طلب زيادة على الجملة ، وإن لم يكن فى الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة فى النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد النكاح . (الخامسة) أن تكون المرأة ولودا ؛ فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها . قال عليه السلام « عليكم

---

(١) حديث « خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس « خيرهن أيسرهن صداقا » وله من حديث عائشة « من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها » وروى أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين « إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهرا » وصححه .

(٢) حديث « النهى عن المغالاة فى المهر » رواه أصحاب السنن الأربعة موقوفا على عمر وصححه الترمذى . (٣) حديث « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحى يد وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف » رواه أبو داود الطيالسى والبزار من حديث أنس : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم . قال البزار : ورأيته فى موضع آخر تزوجها على متاع بيت ورحى قيمته أربعون درهما . ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبي سعيد وكلاهما ضعيف . ولأحمد من حديث على لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين » ورواه الحاكم وصحح إسناده ، وابن حبان مختصرا . (٤) حديث « أولم على بعض نسائه بمدين من شعير » أخرجه البخارى من حديث عائشة . (٥) حديث « وأولم على أخرى بمدى تمر ومدى سويق » رواه الأربعة من حديث أنس: أولم على صفية بسويق وتمر . ولمسلم : فجعل الرجل يجىء بفضل التمر وفضل السويق . وفى الصحيحين : التمر والأقط والسمن ، وليس فى شىء من الأصول تقييد التمر والسويق بمدين . (٦) حديث : كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول : ماتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم . رواه الأربعة من حديث عمر . قال الترمذى : حسن صحيح .

(٧) حديث . تزوج بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم . متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقويمها بخمسة دراهم . رواه البيهقى . (٨) حديث « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها » أى الولادة وتيسير مهرها . رواه أحمد والبيهقى من حديث عائشة « من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحمها » قال عروة : يعنى الولادة ، وإسناده جيد . (٩) حديث « أبركهن أقلهن مهرا » رواه أبو عمر التوقانى فى معاشرة الأهلين من حديث عائشة « إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهرا » وقد تقدم ، ولأحمد والبيهقى « إن أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا » وإسناده جيد .

(١٠) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد ، والبيهقى من حديث أبى هريرة بسند جيد .

بالولود الودود[1] فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعى صحتها وشبابها ، فإنها تكون ولودا فى الغالب مع هذين الوصفين (السادسة) أن تكون بكراً قال عليه السلام لجابر : وقد نكح ثيبا « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك[2] » فى البكارة ثلاث فوائد ، إحداها : أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر فى معنى الود ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالودود » والطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف . وأما التى اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لاترضى بعض الأوصاف التى تخالف ماألفته فتقلى الزوج : الثانية : أن ذلك أكمل فى مودته لها فإن الطبع ينفر عن التى مسها غير الزوج نفرة ما ، وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر وبعض الطباع فى هذا أشد نفورا . الثالثة : أنها لاتحن إلى الزوج الأول وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالبا . (السابعة) أن تكون نسيبة أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها سترىبناتها وبنيها ، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية ، ولذلك قال عليه السلام « إياكم وخضراء الدمن » فقيل : ما خضراء الدمن : قال « المرأة الحسناء فى المنبت السوء[3] » وقال عليه السلام تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع[4] » الثامنة : أن لاتكون من القرابة القريبة ؛ فإن ذلك يقلل الشهوة : قال صلى الله عليه وسلم « لاتنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا[5] » أى نحيفا ، وذلك لتأثيره فى تضعيف الشهوة ، فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد ، فأما المعهود الذى دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولاتنبعث به الشهوة ، فهذه هى الخصال المرغبة فى النساء ، ويجب على الولى أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه ، أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقها أو كان لا يكافئها فى نسبها ، قال عليه السلام « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته[6] » والاحتياط فى حقها أهم لأنها رقيقة بالنكاح لامخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال ، ومهما زوج ابنته ظالما أو فاسقا أو مبتدعا أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . وقال رجل للحسن : قد خطب ابنتى جماعة فمن أزوجها ؟ قال ، ممن يتقى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وقال عليه السلام « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها[7] » .

---

(١) حديث « عليكم بالودود الولود » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث معقل بن يسار « تزوجوا الودود الولود » وإسناده صحيح . (٢) حديث قال لجابر وقد نكح ثيباً « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديث جابر .

(٣) حديث « إياكم وخضراء الدمن ؟ فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » رواه الدارقطنى فى الأفراد ، والرامهرمزى فى الأمثال من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال الدارقطنى : تفرد به الواقدى وهو ضعيف .

(٤) حديث « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصراً دون قوله « فإن العرق » وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس « تزوجوا فى الحجر الصالح فإن العرق دساس » وروى أبو موسى المدينى فى كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر « وانظر فى أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس » وكلاهما ضعيف .

(٥) حديث « لاتنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا » قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلا معتمدا . قلت : إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث ، وقال : معناه تزوجوا الغرائب قال : ويقال : اغربوا لاتضووا .

(٦) حديث « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » رواه أبو عمر التوقانى فى معاشرة الأهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتى أبى بكر . قال البيهقى . وروى ذلك مرفوعا والموقوف أصح (٧) حديث « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس ، ورواه فى الثقات من قول الشعبى بإسناد صحيح .

الباب الثالث : فى آداب المعاشرة وما يجرى فى دوام النكاح

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة . أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمرا : فى الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب فى النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق .

الأدب الأول : الوليمة ، وهى مستحبة ، قال أنس رضى الله عنه : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه أثر صفرة فقال « ماهذا » فقال . تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب . فقال « بارك الله لك » أولم ولو بشاة [1] » وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق [2] . وقال صلى الله عليه وسلم « طعام أول يوم حق ، وطعام الثانى سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به [3] » ولم يرفعه إلا زياد بن عبد الله وهو غريب . وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير [4] . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ، ويستحب إظهار النكاح . قال عليه السلام ، فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت [5] » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف [6] » وعن الربيع بنت معوذ قالت « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل غداة بنى بى فجلس على فراشى وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندبن من قتل من آبائى إلى أن قالت إحداهن » وفينا نبى يعلم مافى غد » فقال لها : اسكتى عن هذه وقولى الذى كنت تقولين قبلها [7] » .

الأدب الثانى . حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحما عليهن لقصور عقلهن . وقال الله تعالى ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ وقال فى تعظيم حقهن ﴿ وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ وقال ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قيل هى المرأة وآخر ماوصى به رسول صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهم حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه : جعل يقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون . الله الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم - يعنى أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله [8] » وقال عليه السلام « من صبر على سوء خلق امرأته

الباب الثالث : فى آداب المعاشرة

(١) حديث أنس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال : « مهذا ؟» قال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، فقال « بارك الله لك ، أولم ولو بشاة » متفق عليه (٢) حديث « أولم على صفية بسويق وتمر » رواه الأربعة من حديث أنس ، ولمسلم نحوه وقد تقدم (٣) حديث « طعام أول يوم حق ، وطعام الثانى سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » قال المصنف : لم يرفعه إلا زياد بن عبد الله . قلت . هكذا قال الترمذى بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه (٤) حديث أبي هريرة فى تهنئة الزوج « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير » رواه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه وتقدم فى الدعوات (٥) حديث « فصل مابين الحلال والحرام الدف والصوت » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب (٦) حديث « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدف » رواه الترمذى من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقى (٧) حديث الربيع بنت معوذ : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على غداة بنى بى فجلس على فراشى وجويريات لنا يضربن بدفوفهن ... الحديث ، رواه البخارى وقال . يوم بدر ووقع فى بعض نسخ الإحياء : يوم بعاث ، وهو وهم .

(٨) حديث « آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث : كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه ، جعل يقول « الصلاة وماملكت أيمانكم لاتكلفوهم مالا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عوان عندكم ... الحديث » أخرجه النسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الموت جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فما زال يقولها وما يفيض بها لسانه ، وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان فى حجة الوداع . رواه مسلم من حديث جابر الطويل ، وفيه . « فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ... » الحديث

أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون [(١)] » . واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل [(٢)] وراجعت امرأة عمر رضى الله عنه عمر فى الكلام فقال أتراجعينى بالكعاء ؛ فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك [(٣)] ؛ فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجعته ؛ ثم قال لحفصة . لا تغترى بابنة ابن أبى قحافة فإنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة . وروى أنه دفعت إحداهن فى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال عليه السلام : دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك [(٤)] . وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضى الله عنه حكما واستشهده ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا ، فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها وقال : يا عدية نفسها ، أويقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا [(٥)] . وقالت له مرة فى كلام غضبت عنده : أنت الذى تزعم أنك نبى الله ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما [(٦)] . وكان يقول لها « إنى لأعرف غضبك من رضاك » قالت : وكيف تعرفه ؟ قال « إذا رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم » قالت : صدقت إنما أهجر اسمك [(٧)] ، ويقال إنّ أوّل حب وقع فى الإسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها [(٨)] . وكان يقول لها : كنت لك كأبى زرع لأم زرع ، غير أنى لا أطلقك [(٩)] ، وكان يقول لنسائه « لاتؤذونى فى عائشة ، فإنه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها [(١٠)] » ، وقال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان [(١١)] .

---

(١) حديث « من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ... الحديث » لم أقف له على أصل (٢) حديث : كان أزواجه صلى الله عليه وسلم يراجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل . متفق عليه من حديث عمر فى الحديث الطويل فى قوله تعالى ﴿ فان تظاهرا عليه ﴾

(٣) حديث : وراجعت امرأة عمر عمر فى الكلام فقال : أتراجعينى بالكعاء ؟ قالت : ان أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك . الحديث ، هو الحديث الذى قبله وليس فيه قوله : بالكعاء ، ولاقولها : هو خير منك .

(٤) حديث : دفعت إحداهن فى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك » لم أقف له على أصل (٥) حديث : جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما ... الحديث . أخرجه الطبرانى فى الأوسط والخطيب فى التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف (٦) حديث : قالت له عائشة مرة غضبت عنده : وأنت الذى تزعم أنك نبى ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه أبو يعلى فى مسنده وأبو الشيخ فى كتاب الأمثال من حديث عائشة ، وفيه ابن اسحق وقد عنعنه .

(٧) حديث : كان يقول لعائشة « انى لأعرف غضبك من رضاك ... الحديث » متفق عليه من حديثها . (٨) حديث « أول حب وقع فى الإسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم عائشة » رواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يارسول الله ؟ قال « عائشة ... الحديث » وأما كونه أول فرواه ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة كما فى الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد فى الإسلام يريد بالمدينة ، وإلا فحبة النبى صلى الله عليه وسلم لخديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة (٩) حديث : كان يقول لعائشة « كنت لك كأبى زرع لأم زرع غير أنى لا أطلقك » متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء ، ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب . (١٠) حديث « لاتؤذونى فى عائشة فانه والله ما أنزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها » رواه البخارى من حديث عائشة . (١١) حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان . رواه مسلم بلفظ . مارأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد على بن عبد العزيز والبغوى : والصبيان .

الثالث : أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة ؛ فهى التى تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق ، حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة فى العدو فسبقته يوما ، وسبقها فى بعض الأيام ، فقال عليه السلام « هذه بتلك » [١] . وفى الخبر : أنه كان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه [٢] . وقالت عائشة رضى الله عنها « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ؛ فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتحبين أن ترى لعبهم قالت قلت نعم ، فأرسل إليهم فجاؤا ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حسبك » وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ، ثم قال « يا عائشة حسبك » فقلت نعم ، فأشار إليهم فانصرفوا [٣] » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله [٤] » وقال عليه السلام « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى [٥] » وقال عمر رضى الله عنه مع خشونته : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى ؛ فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلا . وقال لقمان رحمه الله : ينبغى للعاقل أن يكون فى أهله كالصبى ، وإذا كان فى القوم وجد رجلا . وفى تفسير الخبر المروى « إن الله يبغض الجعظرى الجوّاظ [٦] » قيل هو الشديد على أهله المتكبر فى نفسه ؛ وهو أحد ما قيل فى معنى قوله تعالى ﴿ عتل ﴾ قيل العتل : هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله . وقال عليه السلام لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك [٧] » ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله لقد كان ضحوكا إذا ولج سكيتا إذا خرج ، آكلا ما وجد ، غير مسائل عما فقد .

الرابع : أن لا يتبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبتة ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض . قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله فى النار . وقال عمر رضى الله عنه : خالفوا النساء فإن فى خلافهن البركة . وقد قيل : شاوروهن وخالفوهن . وقد قال عليه السلام « تعس عبد الزوجة [٨] » وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها فى هواها فهو عبدها

---

(١) حديث مسابقته صلى الله عليه وسلم لعائشة فسبقته ثم سبقها وقال « هذه بتلك » رواه أبو داود والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح .

(٢) حديث : كان من أفكه الناس مع نسائه . رواه الحسن بن سفيان فى مسنده من حديث أنس دون قوله : مع نسائه . ورواه البزار والطبرانى فى الصغير والأوسط فقالا : مع صبي . وفى إسناده ابن لهيعة . (٣) حديث عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتحبين أن ترى لعبهم » الحديث ، متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء ، وإنما قال : يوم عيد ، ودون قولها : اسكت . وفى رواية النسائى فى الكبرى : قلت : لاتعجل ، مرتين . وفيه فقال : ياحميراء ، وسنده صحيح . (٤) حديث « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » رواه الترمذى والنسائى واللفظ له ، والحاكم وقال : رواته ثقات على شرط الشيخين . (٥) حديث « خياركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى » أخرجه الترمذى وصححه من حديث أبى هريرة دون قوله « وأنا خيركم لنسائى » وله من حديث عائشة وصححه « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .

(٦) حديث « إن الله يبغض الجعظرى الجواظ » رواه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ، وهو فى الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعى بلفظ « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » ولأبى داود « لايدخل الجنة الجواظ ولا الجعظرى » (٧) حديث قال لجابر « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديثه، وقد تقدم

(٨) حديث « تعس عبد الزوجة » لم أقف له على أصل ، والمعروف « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم ... الحديث » رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

وقد تعس فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ إذ حق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا ، وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيدا ، فقال تعالى ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فإذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا ، ونفس المرأة على مثال نفسك : إن أرسلت عنانها قليلا جمحت بك طويلا ، وإن أرخيت عذارها فترآ جذبتك ذراعا ، وإن كبحتها وشددت يدك عليها فى محل الشدة ملكتها . قال الشافعى رضى الله عنه : ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك : المرأة ، والخادم . والنبطى: أراد به إن محضت الإكرام ولم تمزج غلظك بلينك وفظاظتك برفقك . وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج ، وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجراءة عليه انزعى زج رمحه ، فإن سكت فقطعى اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمارك . وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده ، فينبغى أن تسلك سبيل الاقتصاد فى المخالفة والموافقة وتتبع الحق فى جميع ذلك لتسلم من شرهن ، فإن كيدهن عظيم وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل ، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة . وقال عليه السلام « مثل المرأة الصالحة فى النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب [١] » والأعصم يعنى الأبيض البطن . وفى وصية لقمان لابنه : يابنى اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل الشيب ، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير ، وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام « استعيذوا من الفواقر الثلاث [٢] » وعد منهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب . وفى لفظ آخر « إن دخلت عليها سبتك ، وإن غبت عنها خانتك » وقد قال عليه السلام فى خيرات النساء « إنكن صواحبات يوسف [٣] » يعنى إن صرفكن أبا بكر عن التقدم فى الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ أى مالت وقال ذلك فى خير أزواجه [٤] ، وقال عليه السلام « لا يفلح قوم تملكهم امرأة [٥] » وقد زبر عمر رضى الله عنه امرأته لما راجعته وقال : ما أنت إلا لعبة فى جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت ، فإذن فيهن شر وفيهن ضعف ؛ فالسياسة والخشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطبيب الحاذق هو الذى يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولا إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الخامس : الاعتدال فى الغيرة : وهو أن لا يتغافل عن مبادى الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء [٦] وفى لفظ آخر :

---

(٦) حديث « مثل المرأة الصالحة فى النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب » رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف ولأحمد من حديث عمرو بن العاص : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار فقال « لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب فى هذه الغربان » وإسناده صحيح ، وهو فى السنن الكبرى للنسائى .

(٢) حديث « استعيذوا من الفواقر الثلاث وعد منهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب » وفى لفظ آخر « إن دخلت عليها لسنتك ، وإن غبت عنها خانتك » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . واللفظ الآخر رواه الطبرانى من حديث فضالة بن عبيد « ثلاث من الفواقر : وذكر منها وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك » وسنده حسن . (٣) حديث « إنكن صواحبات يوسف » متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث نزول قوله تعالى ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ فى خير أزواجه ، متفق عليه من حديث عمر ، والمرأتان عائشة وحفصة (٥) حديث « لا يفلح قوم تملكهم امرأة » رواه البخارى من حديث أبى بكرة نحوه (٦) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث جابر : نهى أن تتطلب عثرات النساء ، والحديث عند مسلم بلفظ : نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا =

أن تبغت النساء . ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة « لاتطرقوا النساء ليلا » فخالفه رجلان فسبقا ، فرأى كل واحد فى منزله مايكره [١] وفى الخبر المشهور « المرأة كالضلع إن قومته كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج [٢] » وهذا فى تهذيب أخلاقها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهى غيرة الرجل على أهله من غير ريبة [٣] » لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه ، فإنّ بعض الظن إثم . وقال على رضى الله عنه : لاتكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك . وأما الغيرة فى محلها فلابدّ منها وهى محمودة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغار والمؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتى الرجل المؤمن ماحرّم الله عليه [٤] » وقال عليه السلام « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير منى [٥] » ولأجل غيرة الله تعالى حرّم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ولذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولأجل ذلك وعد الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى فى الجنة قصرا وبفنائه جارية ؛ فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر ؛ فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك ياعمر : فبكى عمر وقال : أعليك أغار يارسول الله [٦] » وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج فى الأسواق قبح الله من لا يغار ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة ، والاختيال الذى يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة ، والاختيال الذى يبغضه الله الاختيال فى الباطل [٧] » وقال عليه الصلاة والسلام « إنى لغيور ، ومامن امرئ لايغار إلامنكوس القلب [٨] » والطريق المغنى عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهى لاتخرج إلى الأسواق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة عليها السلام « أى شىء خير للمرأة ؟ » قالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، فضمها إليه وقال « ذرّية بعضها من بعض [٩] » فاستحسن قولها . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسدّون الكوى والثقب فى الحيطان لئلا تطلع النسوان إلى الرجال . ورأى معاذ امرأته تطلع فى الكوة فضربها ، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضربها . وقال عمر رضى الله عنه : أعروا النساء يلزمن الحجال ، وإنما قال ذلك لأنهن لايرغبن فى

= يخونهم أو يطلب عثراتهم واقتصر البخارى منه على ذكر النهى عن الطروق ليلا (١) حديث أنه قال قبل دخول المدينة « لاتطرقوا أهلكم ليلا » فخالفه رجلان فسعيا إلى منازلهما فرأى كل واحد فى بيته مايكره . رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد .

(٢) حديث « المرأة كالضلع إن أردت تقيمه كسرته ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث « غيرة يبغضها الله وهى غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث جابر بن عتيك .

(٤) حديث « الله يغار والمؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى أن يأتى الرجل المؤمن ماحرم الله عليه » متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى : والمؤمن يغار (٥) حديث « أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه والله أغير منى .... الحديث » متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة .

(٦) حديث « رأيت ليلة أسرى بى فى الجنة قصرا وبفنائه جارية ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل لعمر ... الحديث » متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسرى بى ولم يذكر الجارية ، وذكر الجارية فى آخر متفق عليه من حديث أبى هريرة « بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة ... الحديث » (٧) حديث « إن من الغيرة مايحبه الله تعالى ومنها مايبغضه الله تعالى ... الحديث » رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث جابر بن عتيك ، وهو الذى تقدم قبله بأربعة أحاديث . (٨) حديث « إنى لغيور وما من امرئ لايغار إلا منكوس القلب » تقدم أوله . وأما آخره فرواه أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين من رواية عبد الله بن محمد مرسلا . والظاهر أنه عبد الله بن الحنفية (٩) حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة « أى شىء خير للمرأة ؟ » فقالت : أن لاترى رجلا ... الحديث . رواه البزار والدارقطنى فى الافراد من حديث على بسند ضعيف .

الخروج فى الهيئة الرثة . وقال عودوا نساءكم « لا » وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء فى حضور المسجد (١) والصواب الآن المنع إلا العجائز ، بل استصوب ذلك فى زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضى الله عنها ، لو علم النبى صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج (٢) . ولما قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله لنمنعهن ، فضربه وغضب عليه وقال تسمعنى أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا » فتقول : بلى (٣) ، وإنما استجرأ على المخالفة لعلمه بتغير الزمان ، وإنما غضب عليه لإطلاقه اللفظ بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لهن فى الأعياد خاصة أن يخرجن (٤) ولكن لايخرجن إلا برضا أزواجهن ، والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم وينبغى أن لاتخرج إلا لمهم ، فإن الخروج للنظارات والأمور التى ليست مهمة تقدح فى المروءة وربما تفضى إلى الفساد ، فإذا خرجت فينبغى أن تغض بصرها عن الرجال ، ولسنا نقول إن وجه الرجل فى حقها عورة كوجه المرأة فى حقه ، بل هو كوجه الصبى الأمرد فى حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط ، فإن لم تكن فتنة فلا : إذ لم يزل الرجال على ممر الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن منتقبات ولو كان وجوه الرجال عورة فى حق النساء لأمروا بالتنقب أو منعن من الخروج إلا لضرورة .

السادس : الاعتدال فى النفقة فلا ينبغى أن يقتر عليهن فى الإنفاق ، ولاينبغى أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك (٦) » وقيل : كان لعلى رضى الله عنه أربع نسوة ، فكان يشترى لكل واحدة فى كل أربعة أيام لحما بدرهم ، وقال الحسن رضى الله عنه : كانوا فى الرجال مخاصيب ، والإناث والثياب مجاديب . وقال ابن سيرين : يستحب للرجل أن يعمل لأهله فى كل جمعة فالوذجة ، وكأن الحلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالكلية تقتير فى العادة ، وينبغى أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك ! فهذا أقل درجات الخير ، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ، ولاينبغى أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلايطعمهم منه ، فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، فإن كان مزمعا على ذلك فليأكله بخفية بحيث لايعرف أهله ولا ينبغى أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه ، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته ، فقد قال سفيان رضى الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة ، وأهم مايجب عليه مراعاته فى الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لامراعاة لها وقد أوردنا الأخبار الواردة فى ذلك عند ذكر آفات النكاح .

---

(١) حديث الإذن للنساء فى حضور المساجد . متفق عليه من حديث ابن عمر « ائذنوا للنساء بالليل الى المساجد » .
(٢) حديث قالت عائشة : لوعلم النبى صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج . متفق عليه . قال البخارى : لمنعهن من المساجد (٣) حديث ابن عمر « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله ... الحديث متفق عليه.
(٤) حديث « الإذن لهن فى الخروج فى الأعياد » متفق عليه من حديث أم عطية . (٥) حديث « خيركم خيركم لأهله » أخرجه الترمذى من حديث عائشة وصححه ، وقد تقدم . (٦) حديث « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجرا الدينار الذى أنفقته على أهلك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه مايحترز به الاحتراز الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها فى الحيض وما لايقضى ، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ، ويخوفها فى الله إن تساهلت فى أمر الدين ، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ماتحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول ؛ فأما الذى لابد من إرشاد النساء إليه فى أمر الحيض بيان الصلوات التى تقضيها ، فإنها مهما انقطع دمها قبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر ، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا أقل مايراعيه النساء ، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها فى السؤال فأخبرها بجواب المفتى فليس لها خروج ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه ومهما أهملت المرأة حكما من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل حرج الرجل معها وشاركها فى الإثم .

الثامن : إذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل بينهن ولايميل إلى بعضهن ، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن (١) ، كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القسم وذلك يطول ذكره ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ـ وفى لفظ ـ ولم يعدل بينهما ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل (٢) » وإنما عليه العدل فى العطاء والمبيت ، وأما فى الحب والوقاع فذلك لايدخل تحت الاختيار . قال الله تعالى ﴿ وَلن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ أى أن تعدلوا فى شهوة القلب وميل النفس ، ويتبع ذلك التفاوت فى الوقاع . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهن فى العطاء والبيتوتة فى الليالى ويقول « اللهم هذا جهدى فيما أملك ولاطاقة لى فيما تملك ولا أملك (٣) » يعنى الحب . وقد كانت عائشة رضى الله عنها أحب نسائه إليه (٤) وسائر نسائه يعرفن ذلك . وكان يطاف به محمولا فى مرضه فى كل يوم وكل ليلة ، فيبيت عند كل واحدة منهن ويقول : أين أنا غدا ، ففطنت لذلك امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ؛ فقلن يا رسول الله قد أذنا لك أن تكون فى بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تحمل فى كل ليلة ؛ فقال « وقد رضيتن بذلك ؟ فقلن : نعم . قال : فحولونى إلى بيت عائشة (٥) » ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضى الزوج بذلك ثبت الحق لها . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ، فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت

---

(١) حديث القرعة بين أزواجه إذا أراد سفراً : متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الاخرى » وفى لفظ آخر « لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبى هريرة : قال أبو داود وابن حبان « فمال مع إحداهما » وقال الترمذى « فلم يعدل بينهما » . (٣) حديث : كان يعدل بينهن ويقول « اللهم هذا جهدى فيما أملك ولاطاقة لى فيما تملك ولا أملك » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه . (٤) حديث : كانت عائشة أحب نسائه إليه : متفق عليه من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يارسول الله ؟ قال « عائشة » وقد تقدم . (٥) حديث : كان يطاف به محمولا فى مرضه كل يوم وليلة فيبيت عند كل واحدة ويقول « أين أنا غدا ... الحديث » رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية محمد بن على بن الحسين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل فى ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن . وفى مرسل آخر له : لما ثقل قال « أين أنا غدا ؟ » قالوا : عند فلانة . قال « فأين أنا بعد غد ؟ » قالوا عند فلانة ، فعرف أزواجه أنه يريد عائشة .. الحديث . وللبخارى من حديث عائشة : كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه : « أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء وفى الصحيحين : لما ثقل استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى فأذن له .

فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرها على الزوجية حتى تحشر فى زمرة نسائه ، فتركها وكان لايقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ليلة [١] ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لحسن عدله وقوته كان إذا تاقت نفسه إلى واحدة من النساء فى غير نوبتها فجامعها طاف فى يومه أو ليلته على سائر نسائه ؛ فمن ذلك ماروى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نسائه فى ليلة واحدة [٢] . وعن أنس أنه عليه السلام طاف على تسع نسوة فى ضحوة نهار [٣] .

التاسع : فى النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما : فإن كان من جانبهما جميعا أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) وقد بعث عمر رضى الله عنه حكما إلى زوجين ، فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال : إن الله تعالى يقول (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما . وإما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهرا ، ولكن ينبغى أن يتدرج فى تأديبها : وهو أن يقدم أولا الوعظ والتحذير والتخويف ، فإن لم ينجح ولاها ظهره فى المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال . فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضربا غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظما ولايدمى لها جسما . ولا يضرب وجهها فذلك منهى عنه . وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ما حق المرأة على الرجل ؟ قال ، يطعمها إذا طعم . ويكسوها إذا اكتسى . ولا يقبح الوجه . ولا يضرب إلا ضربا غير مبرح . ولا يهجرها إلا فى المبيت [٤] » وله أن يغضب عليها ويهجرها فى أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه . فقالت له التى هو فى بيتها : لقد اقمأتك إذ ردت عليك هديتك [٥] . أى أذلتك واستصغرتك . فقال صلى الله عليه وسلم « أنتن أهون على الله أن تقمئنني » ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد إليهن .

العاشر : فى آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى ويقرأ قل هو الله أحد أولا ويكبر ويهلل ويقول : بسم الله العلى العظيم . اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبى . وقال عليه الصلاة والسلام « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا . فإن كان بينهما ولد لم يضره

---

(١) حديث : كان يقسم بين نسائه ، فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت ، فوهبت ليلتها لعائشة ... الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة : قالت سودة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله يومى لعائشة ...الحديث ، وللطبرانى : فأراد أن يفارقها . وهو عند البخارى بلفظ : لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها بيوم سودة ، وللبيهقى مرسلا : طلق سودة فقالت : أريد أن أحشر فى أزواجك ... الحديث . (٢) حديث عائشة : طاف على نسائه فى ليلة واحدة . متفق عليه بلفظ : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطوف على نسائه ثم يصبح محرما ينضح طيبا

(٣) حديث أنس : أنه طاف على تسع نسوة فى ضحوة نهار ، رواه ابن عدى فى الكامل ، وللبخارى : كان يطوف على نسائه فى ليلة واحدة وله تسع نسوة . (٤) حديث : قيل له : ماحق المرأة على الرجل ؟ فقال « يطعمها اذا طعم ، ويكسوها اذا اكتسى ، ولايقبح الوجه ، ولايضرب الا ضربا غير مبرح ، ولايهجرها الا فى البيت » رواه أبو داود والنسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد ، وقال : ولايضرب الوجه ولايقبح . وفى رواية لأبى داود : ولاتقبح الوجه ولاتضرب . (٥) حديث هجرة صلى الله عليه وسلم لنساءه شهرا لما أرسل بهدية الى زينب فردتها فقالت له التى فى بيتها : لقد أقمأتك ... الحديث ، ذكره ابن الجوزى فى الوفاء بغير اسناد . وفى الصحيحين من حديث عمر : كان أقسم أن لايدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن . وفى رواية من حديث جابر : ثم اعتزلهن شهرا

الشيطان (١) ، وإذا قربت من الإنزال فقل فى نفسك ولا تحرك شفتيك : الحمد لله الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا . وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاع إكراما للقبلة ، وليغط نفسه وأهله بثوب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغطى رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة (٢) » وفى الخبر « إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العيرين (٣) » أى الحمارين ، وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل قال صلى الله عليه وسلم « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يارسول الله ؟ قال « القبلة والكلام (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث من العجز فى الرجل : أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه ، والثانى : أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته ، والثالث : أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ، ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه (٥)) ويكره له الجماع فى ثلاث ليال من الشهر : الأول ، والآخر ، والنصف . يقال : إن الشيطان يحضر الجماع فى هذه الليالى ، ويقال : إن الشياطين يجامعون فيها ، وروى كراهة ذلك عن على ومعاوية وأبى هريرة رضى الله عنهم . ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله صلى الله عليه وسلم (رحم الله من غسل واغتسل (٦)) الحديث . ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هى أيضاً نهمتها ، فإن إنزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها ، ثم القعود عنها إيذاء لها ، والاختلاف فى طبع الإنزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقا إلى الإنزال ، والتوافق فى وقت الإنزال ألذ عندها ليشتغل الرجل بنفسه عنها ، فإنها ربما تستحى . وينبغى أن يأتيها فى كل أربع ليال مرة فهو أعدل ، إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغى أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها فى التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه ، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها ، ولا يأتيها فى المحيض . ولا بعد انقضائه وقبل الغسل ، فهو محرم بنص الكتاب ، وقيل : إن ذلك يورث الجذام فى الولد ، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها فى غير المأتى ، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى غير المأتى دائم فهو أشد تحريما من إتيان الحائض . وقوله تعالى ﴿ فأتوا حرثكم انى شئتم ﴾ أى أى وقت شئتم ، وله أن يستمنى بيديها ، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهى سوى الوقاع . وينبغى أن تتزر المرأة بإزار من حقوها إلى فوق الركبة فى حال الحيض ، فهذا من الأدب ، وله أن يؤاكل الحائض ، ويخالطها فى المضاجعة وغيرها ، وليس عليه اجتنابها ، وإن أراد أن يجامع ثانيا بعد أخرى فليغسل فرجه أولا ، وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ، ويكره الجماع فى أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة ، فإن أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولا وضوء الصلاة فذلك سنة . قال ابن عمر : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ (٧) » ولكن قد وردت فيه رخصة قالت عائشة رضى الله

---

(١) حديث « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث « كان يغطى رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة » رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

(٣) حديث « إذا جامع أحدكم امرأته فلا يتجردان تجرد العيرين » أخرجه ابن ماجه من حديث عتبة بن عبد بسند ضعيف .

(٤) حديث « لايقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ... الحديث . رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر . (٥) حديث « ثلاث من العجز فى الرجل . أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى من حديث أخصر منه وهو بعض الحديث الذى قبله . (٦) حديث « رحم الله من غسل واغتسل » تقدم فى الباب الخامس من الصلاة . (٧) حديث ابن عمر : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : أينام أحدنا وهو جنب؟ قال « نعم إذا توضأ ، متفق عليه من حديثه أن عمر سأل ، لأن عبد الله هو السائل .

عنها « كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام جنبا لم يمس ماء [١] » ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجه فراشه أو لينفضه ، فإنه لايدرى ما حدث عليه بعده ، ولا ينبغى أن يحلق أو يقلم أو يستحد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءا وهو جنب ؛ إذ ترد إليه سائر أجزائه فى الآخرة فيعود جنبا ، ويقال : إن كل شعرة تطالبه بجنابتها ومن الآداب أن لايعزل ، بل لايسرح إلا إلى محل الحرث وهوالرحم ، فامن نسمة قدر الله كونها إلا وهى كائنة [٢] هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن عزل فقد اختلف العلماء فى إباحته وكراهته على أربع مذاهب ، فمن مبيح مطلقا بكل حال ، ومن محرم بكل حال ، ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل ، ومن قائل يباح فى المملوكة دون الحرة . والصحيح عندنا أن ذلك مباح ، وأما الكراهية فإنها تطلق لنهى التحريم ولنهى التنزيه ولترك الفضيلة ، فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة ، كما يقال : يكره للقاعد فى المسجد أن يقعد فارغا لايشتغل بذكر أو صلاة ، ويكره للحاضر فى مكة مقيما بها أن لايحج كل سنة ، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة فى الولد ، ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له بجماعه أجر ولد ذكر قاتل فى سبيل الله فقتل [٣] » وإنما قال ذلك لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه ، مع أن الله تعالى خالقه ومحييه ومقويه على الجهاد ، والذى إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع ، وذلك عند الإمناء فى الرحم . وإنما قلنا لاكراهة بمعنى التحريم والتنزيه ، لأن إثبات النهى إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه ، بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلا أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإيلاج ، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهى ولافرق ، إذ الولد يتكون بوقوع النطفة فى الرحم ، ولها أربعة أسباب : النكاح ، ثم الوقاع ، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع ، ثم الوقوف لينصب المنى فى الرحم ، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض ، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث ، وكذا الثالث كالثانى ، والثانى كالأول ، وليس هذا كالإجهاض والوأد ، لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، وله أيضا مراتب وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة فى الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية ، فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أفحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشا ، ومنتهى التفاحش فى الجناية بعد الانفصال حيا . وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المنى فى الرحم لامن حيث الخروج من الإحليل ، لأن الولد لايخلق من منى الرجل وحده بل من الزوجين جميعا إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض ، قال بعض أهل التشريح : إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض ، وإن الدم منها كاللبن من الرائب ، وإن النطفة من الرجل شرط فى خثور دم الحيض وانعقاده كالأنفحة للبن ، إذ بها ينعقد الرائب ، وكيفما كان فماء المرأة ركن فى الانعقاد فيجرى الماءان مجرى الإيجاب والقبول فى الوجود الحكمى فى العقود ، فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لايكون جانيا على العقد بالنقض والفسخ ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجوع بعده رفعا وفسخا وقطعا ، وكما أن النطفة فى الفقار لا يتخلق منها الولد فكذا بعد الخروج من الإحليل مالم يمتزج بماء المرأة ودمها ، فهذا هو القياس الجلى .

---

(١) حديث عائشة : كان ينام جنبا لم يمس ماء رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه . وقال يزيد بن هارون : إنه وهم ، ونقل البيهقى عن الحافظ الطعن فيه ، قال : وهو صحيح من جهة الرواية .

(٢) حديث « مامن نسمة قدر الله كونها إلا وهى كائنة » متفق عليه من حديث أبى سعيد .

(٣) حديث « إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل فى سبيل الله » لم أجد له أصلا .

* فإن قلت : فإن لم يكن العزل مكروها من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه ، إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفي * فأقول : النيات الباعثة على العزل خمس : الأولى في السراري وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنهي عنه . الثانية : استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق ، وهذا أيضا ليس منهيا عنه . الثالثة : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء ، وهذا أيضا غير منهي عنه ، فإن قلة الحرج معين على الدين ، نعم الكمال والفضل في التوكل والثقة بضمان الله حيث قال ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل ، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضا للتوكل لا نقول إنه منهي عنه . الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهن من المعرة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث ، فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا بترك النكاح والوطء ، فكذا في العزل والفساد في اعتقاد المعرة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافا من أن يعلوها رجل فكانت تتشبه بالرجال ، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح . الخامسة : أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع ، وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمبالغتهن في استعمال المياه ، حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الخلاء إلا عراة ، فهذه بدعة تخالف السنة ، فهي نية فاسدة ؛ واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضي الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها ، فيكون القصد هو الفاسد دون منع الولادة .

* فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا ثلاثا [(١)] » . قلت : فالعزل كترك النكاح . وقوله « ليس منا » أي ليس موافقا لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل .

* فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الوأد الخفي » وقرأ : وإذا الموءودة سئلت [(٢)] ، وهذا في الصحيح . قلنا : وفي الصحيح أيضا أخبار صحيحة [(٣)] في الإباحة ، وقوله « الوأد الخفي » كقوله (الشرك الخفي) وذلك يوجب كراهة لا تحريما .

* فإن قلت : فقد قال ابن عباس : العزل هو الوأد الأصغر ، فإن الممنوع وجوده به هو الموءودة الصغرى .

قلنا : هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف ، ولذلك أنكره عليه علي رضي الله عنه ، لما سمعه قال : ولا تكون موءودة إلا بعد سبع ، أي بعد الأخرى سبعة أطوار ، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ أي نفخنا فيه الروح ، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ وإذا نظرت إلى ما قدمناه في طريق القياس والاعتبار ، ظهر لك تفاوت منصب علي وابن عباس رضي الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك

---

(١) حديث « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » تقدم في أوائل النكاح . (٢) حديث قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذلك الوأد الخفي » أخرجه مسلم من حديث جذامة بنت وهب . (٣) أحاديث إباحة العزل ، رواها مسلم من حديث أبي سعيد : أنهم سألوه عن العزل فقال « لا عليكم أن لا تفعلوه » ورواه النسائي من حديث أبي صرمة ، وللشيخين من حديث جابر : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد مسلم : فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . وللنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل فقيل : اليهود تزعم أنها الموءودة الصغرى ؟ فقال : كذبت يهود . قال البيهقي : رواة الإباحة أكثر وأحفظ .

العلوم ، كيف وفى المتفق عليه فى الصحيحين على جابر أنه قال (كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل) وفى لفظ آخر (كنا نعزل فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا [1]) وفيه أيضا عن جابر أنه قال (إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى جارية خادمتنا وساقيتنا فى النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ، فقال عليه الصلاة السلام (اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها) فلبث الرجل ماشاء الله ثم أتاه فقال : إن الجارية قدحملت ، فقال (قد قلت سيأتيها ماقدر لها [2]) كل ذلك فى الصحيحين .

الحادى عشر : فى آداب الولادة وهى خمسة : (الأول) أن لايكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لايدرى الخيرة له فى أيهما ، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لايكون له ، أو يتمنى أن يكون بنتا ، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل قال صلى الله عليه وسلم (من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة [3]) وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة [4]) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتاه كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين [5]) وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه [6]) وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فرح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشيته حرم الله بدنه على النار [7]) وقال أبو هريرة : قال صلى الله عليه وسلم (من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن ، فقال رجل : وثنتان يا رسول الله ؟ قال : وثنتان . فقال رجل : أو واحدة ؟ فقال وواحدة [8]) (الأدب الثانى) . أن يؤذن فى اذن الولد : روى رافع عن أبيه قال (رأيت النبى صلى الله عليه وسلم قد أذن فى أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضى الله عنها [9]) وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ولد له مولود فأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان [10]) ويستحب أن يلقنوه أول انطلاق لسانه

---

(١) حديث جابر المتفق عليه فى الصحيحين : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، هو كما ذكر متفق عليه ، إلا أن قوله « فلم ينهنا » انفرد بها مسلم . (٢) حديث جابر : أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى جارية وهى خادمتنا وساقيتنا فى النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ؟ فقال : اعزل عنها إن شئت .. الحديث ، ذكر المصنف أنه فى الصحيحين وليس كذلك ، وإنما انفرد به مسلم .

(٣) حديث « من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاءها .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس « مامن أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث أنس « من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ماصحبتاه كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف . ورواه الترمذى بلفظ « من عال جاريتين » وقال حسن غريب . (٦) حديث أنس « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه » أخرجه الخرائطى بسند ضعيف .

(٧) حديث أنس « من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة » أخرجه الخرائطى بسند ضعيف جدا ، وأخرجه ابن عدى فى الكامل . وقال ابن الجوزى : حديث موضوع . (٨) حديث أبى هريرة « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن .. الحديث » رواه الخرائطى واللفظ له والحاكم ولم يقل : أو أخوات وقال . صحيح الإسناد .

(٩) حديث أبى رافع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى أذن الحسين حين ولدته فاطمة . أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذى وصححه ، إلا أنهما قالا « الحسن » مكبرا ، وضعفه ابن القطان . (١٠) حديث « من ولد له مولود وأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان » أبو يعلى الموصلى وابن السنى فى اليوم والليلة ، والبيهقى فى شعب الإيمان =

لا إله إلا الله ، ليكون أول حديثه ، والختان فى اليوم السابع ورد به خبر [١] (الأدب الثالث): أن تسميه اسما حسنا ؛ فذلك من حق الولد . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سميتم فعبدوا [٢] » وقال عليه الصلاة والسلام « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن [٣] » وقال « سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى [٤] » قال العلماء : كان ذلك فى عصره صلى الله عليه وسلم إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآن فلا بأس ، نعم لايجمع بين اسمه وكنيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاتجمعوا بين اسمى وكنيتى [٥] » وقيل : إنّ هذا أيضا كان فى حياته ، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام « إنّ عيسى لاأب له [٦] » فيكره ذلك ، والسقط ينبغى أن يسمى . قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية : بلغنى أنّ السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول : أنت ضيعتنى وتركتنى لااسم لى ؛ فقال عمر بن عبدالعزيز : كيف وقد لايدرى أنه غلام أو جارية فقال عبد الرحمن : من الأسماء مايجمعهما كحمزة وعمارة وطلحة وعتبة ، وقال صلى الله عليه وسلم إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم [٧] ، ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله ، أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبدالله [٨] . وكان اسم زينب برة ، فقال عليه السلام « تزكى نفسها » فسماها زينب [٩] ، وكذلك ورد النهى فى تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة [١٠] لأنه يقال : أثم بركة ؟ فيقال : لا (الرابع) العقيقة عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة ذكرا كان أو أنثى . وروت عائشة رضى الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر فى الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين ، وفى الجارية بشاة [١١] . وروى : أنه عق عن الحسن بشاة [١٢] وهذا رخصة فى الاقتصار على واحدة وقال صلى الله عليه وسلم « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى [١٣] » ، ومن السنة أن يتصدّق بوزن شعره ذهبا أو فضة ؛ فقد ورد فيه خبر : « أنه عليه السلام أمر فاطمة رضى الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة [١٤] » .

= من حديث الحسين بن على بسند ضعيف . (١) حديث : الختان فى اليوم السابع ، رواه الطبرانى فى الصغير من حديث جابر بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام وإسناده ضعيف . واختلف فى إسناده فقيل : عبد الملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده . (٢) حديث « إذا سميتم فعبدوا » رواه الطبرانى من حديث عبدالملك ابن أبي زهير عن أبيه معاذ ، وصحح إسناده والبيهقى من حديث عائشة .

(٣) حديث « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٤) حديث « سموا باسمى ولاتكنوا بكنيتى » متفق عليه من حديث جابر . وفى لفظ « تسموا » . (٥) حديث « لاتجمعوا بين اسمى وكنيتى » رواه أحمد وابن حبان من حديث أبى هريرة ، ولأبى داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث جابر « من سمى باسمى فلا يتكنى بكنيتى ، ومن تكنى بكنيتى فلا يتسمى باسمى » . (٦) حديث « أن عيسى لا أب له » أخرجه أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، ولأبى داود أن عمر ضرب ابناله تكنى أبا عيسى ، وأنكر على المغيرة بن شعبة تكنيه بأبى عيسى ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانى ، وإسناده صحيح . (٧) حديث « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » أخرجه أبو داود من حديث أبى الدرداء . قال النووى : بإسناد جيد ، وقال البيهقى إنه مرسل . (٨) حديث : بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله ، رواه البيهقى من حديث عبدالله بن الحارث ابن جزء الزبيدى بسند صحيح . (٩) حديث قال صلى الله عليه وسلم لزينب وكان اسمها برة تزكى نفسها فسماها زينب ، متفق عليه من حديث أبى هريرة . (١٠) حديث النهى فى تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ، أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مكان بركة رباحا ، وله من حديث جابر : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينهى أن يسمى بيعلى وبركة .. الحديث

(١١) حديث عائشة : أمر فى الغلام بشاتين مكافئتين ، وفى الجارية بشاة ، أخرجه الترمذى وصححه (١٢) حديث : عق عن الحسن بشاة ، أخرجه الترمذى من حديث على وقال : ليس إسناده بمتصل ، ووصله الحاكم ، إلا أنه قال حسين . ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال « كبشا » . (١٣) حديث « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى » أخرجه البخارى من حديث سلمان بن عامر الضبى . (١٤) حديث : أمر فاطمة يوم سابع حسين أن يحلق شعره ويتصدق بزنة شعره فضة ، أخرجه الحاكم وصححه من حديث على ، وهو عند الترمذى منقطع بلفظ « حسن » وقال : ليس إسناده بمتصل ، ورواه أحمد من حديث أبى رافع .

قالت عائشة رضى الله عنهما : لايكسر للعقيقة عظم . (الخامس) أن يحنكه بتمرة أو حلاوة . وروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت « ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته فى حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فيه (١) » فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بتمرة ثم دعاله وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد فى الإسلام ، ففرحوا به فرحا شديدا لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم .

الثانى عشر : فى الطلاق ، وليعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحا إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه ، قال الله تعالى ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ أى لاتطلبوا حيلة للفراق وإن كرهها أبوه فليطلقها . قال ابن عمر رضى الله عنهما ، كان تحتى امرأة أحبها وكان أبى يكرهها ويأمرنى بطلاقها ، فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا ابن عمر طلق امرأتك (٢) » فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم ، ولكن والد يكرهها - لا لغرض فاسد - مثل عمر ، ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهى جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود فى قوله تعالى ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة ، وهذا أريد به فى العدة ولكنه تنبيه على المقصود . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى ببذل مال ، يكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) فرد ما أخذته فما دونه لائق بالفداء . فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهى آثمة ، قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة (٣) » وفى لفظ آخر « فالجنة عليها حرام » وفى لفظ آخر : أنه عليه السلام قال « المختلعات هن المنافقات (٤) » ثم ليراع الزوج فى الطلاق أربعة أمور (الأول) أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه ، فإن الطلاق فى الحيض أو الطهر الذى جامع فيه بدعى حرام وإن كان واقعا ، لما فيه من تطويل العدة عليها ؛ فإن فعل ذلك فليراجعها : طلق ابن عمر زوجته فى الحيض فقال صلى الله عليه وسلم لعمر : مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء (٥) ، وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط (الثانى) أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث ، لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم فى العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة ، وإذا طلق ثلاثا ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة ، وعقد المحلل منهى عنه ، ويكون هو الساعى فيه ثم يكون قلبه معلقا بزوجة الغير وتطليقه - أعنى زوجة المحلل بعد أن زوج منه - ثم يورث ذلك تنفيرا من الزوجة ، وكل ذلك ثمرة الجمع ، وفى الواحدة

---

(١) حديث أسماء : ولدت عبدالله بن الزبير بقباء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فيه ... الحديث : متفق عليه . (٢) حديث ابن عمر : كانت تحتى امرأة أحبها وكان أبى يكرهها ، فأمرنى بطلاقها ... الحديث . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذى : حسن صحيح . (٣) حديث « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة » وفى لفظ « فالجنة عليها حرام » رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث ثوبان . (٤) حديث « المختلعات هن المنافقات » رواه النسائى من حديث أبى هريرة وقال : لم يسمع الحسن من أبى هريرة . قال : ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبى هريرة . قلت : رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف .

(٥) حديث : طلق ابن عمر زوجته فى الحيض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر « مره فليراجعها ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر .

كفاية فى المقصود من غير محذور ، ولست أقول الجمع حرام ، لكنه مكروه بهذه المعانى ، وأعنى بالكراهة تركه النظر لنفسه . (الثالث) أن يتلطف فى التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق . قال تعالى (ومتعوهن) وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر فى أصل النكاح . كان الحسن بن على رضى الله عنهما مطلاقا ومنكاحا ، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال : قل لهما اعتدا ، وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم ، ففعل ، فلما رجع إليه قال : ماذا فعلتا ؟ قال أما إحداهما فنكست رأسها وتنكست ، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول : متاع قليل من حبيب مفارق فأطرق الحسن وترحم لها وقال : لو كنت مراجعا امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها ، ودخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير وبه ضربت المثل عائشة رضى الله عنها حيث قالت لولم أسر مسيرى ذلك لكان أحب إلى من أن يكون لى ستة عشرا ذكرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : فدخل عليه الحسن فى بيته ، فعظمه عبد الرحمن وأجلسه فى مجلسه وقال : ألا أرسلت إلى فكنت أجيئك ، فقال : الحاجة لنا . قال : وما هى ؟ قال جئتك خاطبا ابنتك ، فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال : والله ما على وجه الأرض أحد يمشى عليها أعز على منك ، ولكنك تعلم أن ابنتى بضعة منى يسوءنى ماساءها ويسرنى ما سرها ، وأنت مطلاق ، فأخاف أن تطلقها ، وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبى فى محبتك وأكره أن يتغير قلبى عليك ، فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن شرطت أن لا تطلقها زوجتك ، فسكت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته . سمعته وهو يمشى ويقول : ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقا فى عنق . وكان على رضى الله عنه يضجر من كثرة تطليقه ، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول فى خطبته ، إن حسنا مطلاقا فلا تنكحوه ، حتى قام رجل من همدان فقال : والله ياأمير المؤمنين لننكحنه ما شاء ، فإن أحب أمسك وإن شاء ترك ، فسر ذلك عليا وقال :

لو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلى بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن فى حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغى أن يوافق عليه ، فهذه الموافقة قبيحة ، بل الأدب المخالفة ما أمكن ، فإن ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن ذاته ، والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح ، وقد وعد الله الغنى فى الفراق والنكاح جميعا فقال (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال سبحانه وتعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) . (الرابع) أن لا يفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد فى إفشاء سر النساء فى الخبر الصحيح وعيد عظيم [1] . ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة ، فقيل له : ما الذى يريبك فيها ؟ فقال : العاقل : لا يهتك ستر امرأته ، فلما طلقها قيل له . لم طلقتها ؟ فقال : مالى ولا مرأة غيرى ، فهذا بيان ما على الزوج .

القسم الثانى من هذا الباب : النظر فى حقوق الزوج عليها

والقول الشافى فيه أن النكاح نوع رق ، فهى رقيقة له ، فعليها طاعة الزوج مطلقا فى كل ماطلب منها فى نفسها مما لا معصية فيه ، وقد ورد فى تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة

(١) حديث الوعيد فى إفشاء سر المرأة . رواه مسلم من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم يفشى سرها » .

ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة [١] » . « وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لاتنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها فى الأسفل ، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن فى النزول إلى أبيها ، فقال صلى الله عليه وسلم « أطيعى زوجك » فمات فاستأمرته فقال « أطيعى زوجك » فدفن أبوها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها [٣] » وأضاف طاعة الزوج إلى مبانى الإسلام ؟ وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فقال « حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا مايأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « اطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء ، فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال يكثرن اللعن ويكفرن العشير [٥] » يعنى الزوج المعاشر . وفى خبر آخر « اطلعت فى الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلهن الأحمران الذهب والزعفران [٦] » يعنى الحلى ومصبغات الثياب : وقالت عائشة رضى الله عنها : أتت فتاة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله إنى فتاة أخطب فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال « لو كان من فرقه إلى قدمه صديد فلحسته ماأدت شكره » قالت : أفلا أتزوج ؟ قال « بلى تزوجى فإنه خير [٧] » قال ابن عباس : « أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى امرأة أيم وأريد أن أتزوج ، فما حق الزوج ؟ قال : إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهى على ظهر بعير لا تمنعه ، ومن حقه أن لاتعطى شيئا من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له ، ومن حقه أن لاتصوم تطوعا إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « لوأمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها [٩] » . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب ماتكون المرأة من وجه ربها إذا كانت فى قعر بيتها ، وإن صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد ، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى صحن دارها ، وصلاتها

---

(١) حديث « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم سلمة .

(٢) حديث : كان رجل خرج الى سفر وعهد الى امرأته أن لاتنزل من العلو الى السفل وكان أبوها فى السفل فمرض ... الحديث ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف ، إلا أنه قال : غفر لأبيها . (٣) حديث « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة . (٤) حديث : ذكر النساء فقال « حاملات والدات مرضعات ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى أمامة دون قوله « مرضعات » وهى عند الطبرانى فى الصغير . (٥) حديث « اطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٦) حديث « اطلعت فى الجنة فاذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء؟ قال : شغلهن الأحمران الذهب والزعفران » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف ، وقال « الحرير » بدل « الزعفران » ولمسلم من حديث عزة الأشجعية « ويل للنساء من الأحمرين : الذهب والزعفران » وسنده ضعيف . (٧) حديث عائشة : أتت فتاة الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يانبى الله ، انى فتاة أخطب وانى أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة ؟ الحديث ، أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبى هريرة دون قوله « بلى فتزوجى فانه خير » ولم أره من حديث عائشة . (٨) حديث ابن عباس : أتت امرأة من خثعم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : انى امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج ؟ الحديث ، أخرجه البيهقى مقتصرا على شطر الحديث ، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف . (٩) حديث « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما » أخرجه الترمذى وابن حبان من حديث أبى هريرة دون قوله « والولد لأبيه » فلم أرها وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد ، وابن ماجه من حديث عائشة ، وابن حبان من حديث ابن أبى أوفى .

فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها [١] » والمخدع : بيت فى بيت ، وذلك للستر ، ولذلك قال عليه السلام « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان [٢] » وقال أيضا « للمرأة عشر عورات ، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة ؛ فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات [٣] » فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما : الصيانة والستر . والآخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما ، وهكذا كانت عادة النساء فى السلف : كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقه ؟ فقالت : زوجى منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقا ، ولى رب رزاق : يذهب الأكال ويبقى الرزاق . وخطبت رابعة بنت إسمعيل أحمد بن أبى الحوارى ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها : والله مالى همة فى النساء لشغلى بحالى ، فقالت : إنى لأشغل بحالى منك ومالى شهوة ، ولكن ورثت مالا جزيلا من زوجى فأردت أن تنفقه على إخوانك ، وأعرف بك الصالحين فيكون لى طريقا إلى الله عز وجل ، فقال : حتى استأذن أستاذى ، فرجع إلى ابى سليمان الدارانى ، قال : وكان ينهانى عن التزويج ويقول : ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير ؛ فلما سمع كلامها قال : تزوج بها فإنها ولية لله ، هذا كلام الصديقين ، قال : فتزوجتها فكان فى منزلنا كن من جص ففنى من غسل أيدى المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلا عمن غسل بالأشنان . قال : وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمنى الطيبات وتطيبنى وتقول : اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك ، وكانت رابعة هذه تشبه فى أهل الشام برابعة العدوية بالبصرة . ومن الواجبات عليها : أن لا تفرط فى ماله بل تحفظه عليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذى يخاف فساده ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر [٤] » ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لابنتها عند التزوج إنك خرجت من العش الذى فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أرضا يكن لك سماء وكونى له مهادا يكن لك عمادا وكونى له أمة يكن لك عبداً ، لا تلحفى به فيقلاك ولا تباعدى عنه فينساك إن دنا منك فاقربى منه ، وإن نأى فأبعدى عنه ، واحفظى أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيبا ، ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا . وقال رجل لزوجته :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

---

(١) حديث « أقرب ما تكون المرأة من ربها اذا كانت فى قعر بيتها فان صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره ، وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر صحن الدار . ورواه البيهقى من حديث عائشة بلفظ « ولأن تصلى فى الدار خيرلها من أن تصلى فى المسجد » وإسناده حسن ؛ ولابن حبان من حديث أم حميد نحوه . (٢) حديث « المرأة عورة فاذا خرجت استشرفها الشيطان » رواه الترمذى وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة ... الحديث » أخرجه الحافظ أبوبكر محمد بن عمر الجعابي فى تاريخ الطالبيين من حديث على بسند ضعيف والطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس « للمرأة ستران . قيل : وماهما ؟ قال : الزوج والقبر » . (٤) حديث « لايحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام ... الحديث » أخرجه أبو داود الطيالسى والبيهقى من حديث ابن عمر فى حديث فيه « ولاتعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه ؛ فإن فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر » ولأبى داود من حديث سعد : قالت امرأة يارسول الله ، إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا ، فما يحل لنا من أموالهم ؟ قال « الرطب تأكلنه وتهدينه » وصحح الدارقطنى فى العلل أن سعداً هذا رجل من الأنصار ليس ابن أبى وقاص ، واختاره ابن القطان ، ولمسلم من حديث عائشة « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب » .

ولا تقربيني نقرك الدف مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهوى ... ويأباك قلبي والقلوب تقلب
فإني رأيت الحب في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قعر بيتها لازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها ، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها ، متنظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج . وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين في الجنة : امرأة آمت من زوجها وحبست نفسها على بناتها حتى ثابوا أو ماتوا [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « حرم الله على كل آدمي الجنة يدخلها قبلي ، غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرني إلى باب الجنة فأقول : ما لهذه تبادرني ؟ فيقال لي : يا محمد ، هذه امرأة كانت حسناء جميلة وكان عندها يتامى لها ، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذي بلغ فشكر الله لها ذلك [2] » ومن آدابها : أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه ، فقد روى أن الأصمعي قال : دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجها تحت رجل من أقبح الناس وجها ، فقلت لها : يا هذه أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله ؟ فقالت : يا هذا اسكت فقد أسأت في قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه ، أو لعلي أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي ، أفلا أرضى بما رضى الله لي فأسكتتني . وقال الأصمعي : رأيت في البادية امرأة عليها قميص أحمر وهي مختضبة وبيدها سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟ فقالت :

ولله مني جانب لا أضيعه ... وللهو مني والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له . ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال . روى عن معاذ ابن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا [3] » ومما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة ، قالت زينب بنت أبي سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب ،

---

(١) حديث « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين .. الحديث » رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشجعي بسند ضعيف .
(٢) حديث « حرم الله على كل آدمي الجنة أن يدخل قبلي غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرني إلى باب الجنة » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٣) حديث معاذ « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه .. الحديث » رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وابن ماجه .

فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ، ثم مست بعارضيها ، ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً »(١) ، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة ، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة . ومن آدابها : أن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها ، فقد روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقى الماء وأخرز غربه وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى(٢). ولقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ومعه أصحابه والنوى على رأسى فقال صلى الله عليه وسلم « أخ أخ » لينيخ ناقته ويحملنى خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى قد استحييت ، فجئت الزبير فحكيت له ما جرى ، فقال : والله لحملك النوى على رأسك أشد على من ركوبك معه .

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد موحد انمحق فى توحيده ما سوى الواحد الحق وتلاشى . ونمجده تمجيد من يصرح بأن كل شىء ما سوى الله باطل ولا يتحاشى . وأن كل من فى السموات والأرض لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ولا فراشا . ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفا مبنيا ، ومهد الأرض بساطا لهم وفراشا . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباسا والنهار معاشا . لينتشروا فى ابتغاء فضله وينتعشوا به عن ضراعة الحاجات انتعاشا ، ونصلى على رسوله الذى يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشا . وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا فى نصرة دينه تشمرا وانكماشا . وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب . جعل الآخرة دار الثواب والعقاب ، والدنيا دار التمحل والاضطراب . والتشمر والاكتساب . وليس التشمر فى الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش ، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها . والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الفائزين ، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . ولن ينال رتبة

---

(١) حديث أم حبيبة « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام الا على زوج أربعة أشهر وعشرا » متفق عليه . (٢) حديث أسماء « تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولاشىء غير فرس وناضح ، فكنت أعلف فرسه ... الحديث » متفق عليه .

الاقتصاد من لم يلازم فى طلب المعيشة منهج السداد ، ولن ينتهض من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة ، مالم يتأدب فى طلبها بآداب الشريعة وها نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها فى خمسة أبواب (الباب الأول) فضل الكسب والحث عليه (الباب الثانى) فى علم صحيح البيع والشراء والمعاملات (الباب الثالث) فى بيان العدل فى المعاملة (الباب الرابع) فى بيان الإحسان فيها (الباب الخامس) فى شفقة التاجر على نفسه ودينه .

الباب الأول : فى فضل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشا ﴾ فذكره فى معرض الامتنان . وقال تعالى ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ﴾ فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها . وقال تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ وأما الأخبار ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة [1] » وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء [2] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر [3] » وكان صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ! وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو فى سبيل الشيطان [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس ، ويبغض العبد يتعلم العلم يتخذه مهنة [5] » وفى الخبر « إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف [6] » وقال صلى الله عليه وسلم (أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور [7])

كتاب آداب الكسب : الباب الأول فى فضل الكسب والحث عليه

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهم فى طلب المعيشة » تقدم فى النكاح . (٢) حديث « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أبى سعيد . قال الترمذى : حسن ، وقال الحاكم : إنه من مراسيل الحسن ، ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر . (٣) حديث « من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعياً على عياله ... الحديث » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية . والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٤) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظر الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ؛ لوكان جلده فى سبيل الله ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف . (٥) حديث « ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس ... الحديث » لم أجده هكذا ، وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على « ان الله يحب أن يرى عبده تعباً فى طلب الحلال » وفيه محمد بن سهل العطار قال الدارقطنى : يضع الحديث . (٦) حديث « ان الله يحب المؤمن المحترف » أخرجه الطبرانى وابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر . (٧) حديث « أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج ، قيل : يارسول الله أى الكسب أطيب ؟ قال : عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور . ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، قال : وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد : البراء بن عازب . ورواه البيهقى من رواية سعيد بن عمير مرسلا ، وقال : هذا هو المحفوظ ، وخطأ قول من قال عن عمه ، وحكاه عن البخاري ، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع ابن عمير عن خاله أبى بردة ، وجميع ضعيف والله أعلم .

وفى خبر آخر (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح [(١)]) وقال عليه الصلاة السلام (عليكم بالتجارة فإنّ فيها تسعة أعشار الرزق [(٢)]) وروى أنّ عيسى عليه السلام رأى رجلا فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : من يعولك ؟ قال أخى . قال : أخوك أعبد منك . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (إنى لا أعلم شيئا يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا أمرتكم به ، وإنى لا أعلم شيئا يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه ، وإن الروح الأمين نفث فى روعى : إنّ نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) أمر بالإجمال فى الطلب ولم يقل اتركوا الطلب ، ثم قال فى آخره (ولا يحملنكم استبطاء شىء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فإنّ الله لا ينال ماعنده بمعصيته [(٣)]) وقال صلى الله عليه وسلم (الأسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها [(٤)]) وقال عليه السلام (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه [(٥)]) وقال (من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر [(٦)]) . وأما الآثار ، فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يا بنى ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ماافتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به . وقال عمر رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أنّ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وكان زيد بن مسلمة يغرس فى أرضه فقال له عمر رضى الله عنه : أصبت ، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم ، كما قال صاحبكم أحيحة :

فلن أزال على الزوراء أعمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنى لأكره أن أرى الرجل فارغا لا فى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته . وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق ، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة ؟ قال التاجر الصدوق أحب إلى لأنه فى جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده ، وخالفه الحسن البصرى فى هذا . وقال عمر رضى الله عنه : مامن موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوّق فيه لأهلى أبيع وأشترى . وقال الهيثم : ربما يبلغنى عن الرجل يقع فى فأذكر استغنائى عنه فيهون ذلك على . وقال أيوب : كسب فيه شىء أحب إلى من سؤال الناس . وجاءت ريح عاصفة فى البحر ، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وكان معهم فيها : أما ترى هذه الشدّة ؟ فقال : ماهذه الشدّة ، وإنما الشدّة الحاجة إلى الناس . وقال أيوب قال لى أبو قلابة : الزم السوق فإنّ الغنى من العافيه ، يعنى الغنى عن الناس . وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس فى بيته

---

(١) حديث « أحل ما أكل العبد كسب الصانع اذا نصح » رواه أحمد من حديث أبى هريرة « خير الكسب كسب العامل اذا نصح » واسناده حسن . (٢) حديث « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق » رواه ابراهيم الحربى فى غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ورجاله ثقات ، ونعيم هذا قال فيه ابن منده : ذكر فى الصحابة ولا يصح . وقال أبو حاتم الرازى وابن حبان : انه تابعى فالحديث مرسل . (٣) حديث « انى لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ... الحديث » رواه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهداً لحديث أبى حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين ، وهما مختصران ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان وقال : انه منقطع . (٤) حديث « الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها » رويناه فى الطيوريات من قول الحسن البصرى ، ولم أجده مرفوعا . (٥) حديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٦) حديث « من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر » رواه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى « ولا فتح عبد باب مسئلة إلا فتح الله عليه باب فقر » أو كلمة نحوها ، وقال : حسن صحيح .

أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي [1] » وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال « تغدو خماصا وتروح بطانا [2] » فذكر أنها تغدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم والقدوة بهم . وقال أبو قلابة لرجل : لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد . وروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمهم الله وعلى عنقه حزمة حطب ؛ فقال له : يا أبا إسحق إلى متى هذا ؟ إخوانك يكفونك ؛ فقال : دعني عن هذا يا أبا عمرو ، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة . وقال أبو سليمان الداراني : ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ؟ ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه . ينادي مناد يوم القيامة : أين بغضاء الله في أرضه ؛ فيقوم سؤال المساجد ، فهذه مذمة الشرع للسؤال والاتكال على كفاية الأغيار . ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين ، ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين [3] » وقيل لسلمان الفارسي . أوصنا ؛ فقال: من استطاع منكم أن يموت حاجا أو غازيا أو عامراً لمسجد ربه فليفعل ، ولا يموتن تاجرا ولا خائنا » فالجواب : أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال ؛ فنقول : لسنا نقول التجارة أفضل مطلقا من كل شيء ، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية ؛ فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا ليصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة ، لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة ، فإن كان مع ذلك ظالما خائنا فهو ظلم وفسق ، وهذا ما أراده سلمان بقوله ؛ لا تمت تاجرا ولا خائنا ، وأراد بالتاجر: طالب الزيادة ، فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعففا عن السؤال أفضل ، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال فالكسب أفضل ، لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره ، فالتعفف والتستر أولى من البطالة ، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة : عابد بالعبادات البدنية ؛ أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات ، أو عالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وأمثالهم ، أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمورهم كالسلطان والقاضي والشاهد ، فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء . فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب ، ولهذا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التاجرين لأنه كان جامعا لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف ، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لما ولي الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح ، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح : ورأى ذلك أولى ثم لما توفي أوصى برده إلى بيت المال ، ولكنه رآه في الابتداء أولى ، ولهؤلاء الأربعة حالتان أخريان : (أحداهما)

(١) حديث « ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي » رواه أحمد من حديث ابن عمر « جعل رزقي تحت ظل رمحي » واسناده صحيح . (٢) حديث : ذكر الطير فقال « تغدو خماصا وتروح بطانا » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي : حسن صحيح . (٣) حديث « ما أوحى الى أن اجمع المال وكن من التاجرين ، ولكن أوحى الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين » رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين .

أن تكون كفايتهم عندترك المكسب من أيدى الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال ، فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى ، إذ فيه إعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم . (الحالة الثانية) الحاجة إلى السؤال ، وهذا فى محل النظر ، والتشديدات التى رويناها فى السؤال وذمه تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير ، بل هو موكول إلى اجتهاد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل مايلقى فى السؤال من المذلة وهتك المروءة والحاجة إلى التثقيل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره ، فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته فى اشتغاله بالعلم أوالعمل ، ويهون عليه بأدنى تعريض فى السؤال تحصيل الكفاية ، وربما يكون بالعكس ، وربما يتقابل المطلوب والمحذور ، فينبغى أن يستفتى المريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون ، فإن الفتاوى لاتحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال ولقد كان فى السلف من له ثلثمائة وستون صديقا ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون ، وكانوا يشتغلون بالعبادة لعلمهم بأن المتكلفين بهم يتقلدون منة من قبولهم لمبراتهم ، فكان قبولهم لمبراتهم خيرا مضافا لهم إلى عباداتهم ، فينبغى أن يدقق النظر فى هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطى مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب . ومن اطلع على هذه المعانى أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ماهو الأفضل له بالإضافة إلى حاله ووقته ، فهذه فضيلة الكسب ، وليكن العقد الذى به الاكتساب جامعا لأربعة أمور : الصحة ، والعدل ، والإحسان ، والشفقة على الدين . ونحن نعقد فى كل واحد بابا ، ونبتدئ بذكر أسباب الصحة فى الباب الثانى .

الباب الثانى فى علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة وبيان شروط الشرع فى صحة هذه التصرفات التى هى مدار المكاسب فى الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه ، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب ، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتقيها ، وما شذ عنه من الفروع المشكلة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل ، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملى فلا يدرى متى يجب عليه التوقف والسؤال ، ولوقال لاأقدم العلم ولكنى أصبر إلى أن تقع لى الواقعة فعندها أتعلم وأستفتى ، فيقال له : وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جمل مفسدات العقود ، فإنه يستمر فى التصرفات ويظنها صحيحة مباحة ، فلا بد له من هذا القدر من علم التجارة ليتميز له المباح عن المحظور ، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح : ولذلك روى عن عمر رضى الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول : لايبيع فى سوقنا إلا من يفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى ، وعلم العقود كثير ولكن هذه العقود الستة لاتنفك المكاسب عنها : وهى البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض ، فلنشرح شروطها :

العقد الأول : البيع

وقد أحله الله تعالى وله ثلاثة أركان : العاقد . والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الأول : العاقد ، ينبغى للتاجر أن لايعامل بالبيع أربعة : الصبى ، والمجنون ، والعبد ، والأعمى ، لأن الصبى غير مكلف ، وكذا المجنون ، وبيعهما باطل ، فلا يصح بيع الصبى وإن أذن له فيه الولى عند الشافعى ، وما أخذه منهما مضمون عليه لهما

وماسلمه فى المعاملة إليهما فضاع فى أيديهما فهو المضيع له . وأماالعبد العاقل فلا يصح بيعه وشراؤه إلا باذن سيده فعلى البقال والخباز والقصاب وغيرهم أن لايعاملوا العبيد مالم تأذن لهم السادة فى معاملتهم ، وذلك بأن يسمعه صريحا أوينتشر فى البلد أنه مأذون له فى الشراء لسيده وفى البيع له ، فيعول على الاستفاضة أوعلى قول عدل يخبره بذلك ، فإن عامله بغير إذن السيد فعقده باطل ، وما أخذه منه مضمون عليه لسيده ، وماتسلمه إن ضاع فى يد العبد لايتعلق برقبته ولايضمنه سيده ، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق . وأماالأعمى فإنه يبيع ويشترى مالايرى فلايصح ذلك ، فليأمره بأن يوكل وكيلا بصيرا ليشترى له أويبيع ، فيصح توكيله ويصح بيع وكيله ، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة ، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته . وما سلمه إليه أيضا مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصحف ولا العبد المسلم ، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب ، فإن فعل فهى معاملات مردودة وهو عاص بها ربه . وأما الجندية من الأتراك والتركمانية والعرب والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام ، فلا ينبغى أن يتملك مما فى أيديهم شيئا لأجل أنها حرام إلا إذا عرف شيئا بعينه أنه حلال ، وسيأتى تفصيل ذلك فى كتاب الحلال والحرام .

الركن الثانى فى المعقود عليه : وهو المال المقصود نقله من أحد العاقدين إلى الآخر ثمنا كان أومثمنا فيعتبر فيه ستة شروط . (الأول) أن لايكون نجسا فى عينه فلايصح بيع كلب وخنزير ، ولا بيع زبل وعذرة ، ولا بيع العاج والأوانى المتخذة منه ، فإن العظم ينجس بالموت ، ولايطهر الفيل بالذبح ، ولايطهر عظمه بالتذكية ، ولايجوز بيع الخمر ولابيع الودك النجس المستخرج من الحيوانات التى لاتؤكل ، وإن كان يصلح للاستصباح أوطلاء السفن ، ولابأس ببيع الدهن الطاهر فى عينه الذى نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه ، فإنه يجوز الانتفاع به فى غير الأكل ، وهو فى عينه ليس بنجس ، وكذلك لاأرى بأساً ببيع بزر القز ، فإنه أصل حيوان ينتفع به ، وتشبيهه بالبيض وهوأصل حيوان أولى من تشبيهه بالروث . ويجوز بيع فأرة المسك ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظبية فى حالة الحياة .

(الثانى) أن يكون منتفعا به فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية ، ولا التفات إلى انتفاع المشعبذ بالحية ، وكذا لاالتفات إلى انتفاع أصحاب الحلق بإخراجها من السلة وعرضها على الناس ، ويجوز بيع الهرة والنحل وبيع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجلده ، ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل ، ويجوز بيع الطوطى وهى الببغاء والطاوس والطيور المليحة الصور وإن كانت لاتؤكل ، فإن التفرج بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح ، وإنما الكلب هو الذى لايجوز أن يقتنى إعجابا بصورته لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه [1] . ولا يجوز بيع العود والصنج والمزامير والملاهى فإنه لامنفعة لها شرعا ، وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التى تباع فى الأعياد للعب الصبيان فان كسرها واجب شرعا ، وصور الأشجار متسامح بها ، وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا الستور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « اتخذى منها نمارق [2] » ، ولايجوز استعمالها منصوبة ، ويجوز موضوعة ، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه .

(الثالث) أن يكون المتصرف فيه مملوكا للعاقد أو مأذونا من جهة المالك ، ولا يجوز أن يشترى من غير المالك انتظارا للإذن من المالك ، بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد ، ولا ينبغى أن يشترى من الزوجة مال

الباب الثانى : فى علم الكسب

(١) حديث : النهى عن اقتناء الكلب : متفق عليه من حديث ابن عمر « من اقتنى كلبا إلا كلب ماشية أوضاريا نقص من عمله كل يوم قيراطان » . (٢) حديث « اتخذى منها نمارق » بقوله لعائشة : متفق عليه من حديثها .

الزوج ولا من الزوج مال الزوجة ، ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد . اعتمادا على أنه لو عرف لرضى ، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع ، وامثال ذلك مما يجرى فى الأسواق ؛ فواجب على العبد المتدين أن يحترز منه . (الرابع) أن يكون المعقود عليه مقدورا على تسليمه شرعا وحسا ؛ فما لا يقدر على تسليمه حسا لايصح بيعه كالآبق والسمك فى الماء والجنين فى البطن وعسب الفحل : وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان ، واللبن فى الضرع لايجوز ، فإنه يتعذر تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع ، والمعجوز عن تسليمه شرعا كالمرهون والموقوف ، والمستولدة فلايصح بيعها أيضا ، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيرا ، وكذا بيع الولد دون الأم ؛ لأن تسليمه تفريق بينهما وحرام ، فلايصح التفريق بينهما بالبيع . (الخامس) أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف ، أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه ، فلو قال : بعتك شاة من هذا القطيع أى شاة أردت ، أو ثوبا من هذه الثياب التى بين يديك ، أو ذراعا من هذا الكرباس ، وخذه من أى جانب شئت ، أو عشرة أذرع من هذه الأرض ، وخذه من أى طرف شئت ، فالبيع باطل ، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون فى الدين إلا أن يبيع شائعا ، مثل أن يبيع نصف الشيء أو عشره ، فإن ذلك جائز . وأما العلم بالقدر فإنما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه ، فلو قال بعتك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه وهما لايدريان ذلك فهو باطل ، ولو قال : بعتك بزنة هذه الصنجة فهو باطل ، إذا لم تكن الصنجة معلومة ، ولو قال : بعتك هذه الصبرة من الحنطة فهو باطل : أو قال : بعتك بهذه الصرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراها . صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافيا فى معرفة المقدار . وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية فى الأعيان ، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته منذ مدة لايغلب التغير فيها ، والوصف لايقوم مقام العيان . هذا أحد المذهبين ، ولايجوز بيع الثوب فى المنسج اعتمادا على الرقوم ، ولا بيع الحنطة فى سنبلها ، ويجوز بيع الأرز فى قشرته التى يدخرفيها ، وكذا بيع الجوز واللوز فى القشرة السفلى ، ولايجوز فى القشرتين ، ويجوز بيع الباقلاء الرطب فى قشرته للحاجة ، ويتسامح ببيع الفقاع لجريان عادة الأولين به ولكن نجعله إباحة بعوض ، فإن اشتراه ليبيعه فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا ستر خلقة ، ولايبعد أن يتسامح به ، إذفى إخراجه إفساده كالرمان وما يستر بستر خلق معه . (السادس) أن يكون المبيع مقبوضا إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة ، وهذا شرط خاص ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع مالم يقبض [١] ويستوى فيه العقار والمنقول ، فكل مااشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل ، وقبض المنقول بالنقل ، وقبض العقار بالتخلية ، وقبض ماابتاعه بشرط الكيل لايتم إلا بأن يكتاله ، وأما بيع الميراث والوصية والوديعة ومالم يكن الملك حاصلا فيه بمعاوضة ، فهو جائز قبل القبض .

الركن الثالث : لفظ العقد ، فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود ، مفهم إما صريح أو كناية ، فلو قال : أعطيتك هذا بذاك ، بدل قوله : بعتك ، فقال : قبلته ، جاز مهما قصدا به البيع ، لأنه قد يحتمل الإعارة إذا كان فى ثوبين أو دابتين ، والنية تدفع الاحتمال ، والصريح أقطع للخصومة ، ولكن الكناية تفيد الملك أيضا والحل فيما يختاره ، ولاينبغى أن يقرن بالبيع شرطا على خلاف مقتضى العقدة ، فلو شرط أن يزيد شيئا آخر ، وأن يحمل المبيع إلى داره ، أو اشترى الحطب بشرط النقل إلى داره : كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استئجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول ، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلفظ باللسان لم ينعقد البيع

(١) حديث النهى عن بيع مالم يقبض : متفق عليه من حديث ابن عباس .

عندالشافعى أصلا ، وانعقد عند أبى حنيفة إن كان فى المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير ؛ فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات فى المعاطاة ، إذيتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوبا ديباجا قيمته عشرة دنانير مثلا ويحمله إلى المشترى ويعود إليه بأنه ارتضاه ، فيقول له : خذ عشرة ، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحملها ويسلمها إلى البزاز ، فيأخذها ويتصرف فيها ، ومشترى الثوب يقطعه ولم يجر بينهما إيجاب وقبول أصلا ، وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البياع ، فيعرض متاعا قيمته مائة دينار مثلا فيمن يزيد ، فيقول أحدهم : هذا على بتسعين ، ويقول الآخر : هذا على بخمسة وتسعين ، ويقول الآخر : هذا بمائة ، فيقال له زن ، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول ؛ فقد استمرت به العادات ، وهذه من المعضلات التى ليست تقبل العلاج ، إذ الاحتمالات ثلاثة : إما فتح باب المعاطاة مطلقا فى الحقير والنفيس ـ وهو محال ، إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه ، وقد أحل الله البيع ، والبيع اسم للإيجاب والقبول ، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرد فعل بتسليم وتسلم ، فبماذا يحكم بانتقال الملك من الجانبين ، لاسيما فى الجوارى والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه ؛ إذ للمسلم أن يرجع ويقول : قد ندمت وما بعته ، إذ لم يصدر منى إلا مجرد تسليم ، وذلك ليس ببيع . (الاحتمال الثانى) أن نسد الباب بالكلية كما قال الشافعى رحمه الله من بطلان العقد ، وفيه إشكال من وجهين ، أحدهما : أنه يشبه أن يكون ذلك فى المحقرات معتادا فى زمن الصحابة : ولو كانوا يتكلفون الإيجاب والقبول من البقال والخباز والقصاب لثقل عليهم فعله ، ولنقل ذلك نقلا منتشرا ، ولكان يشتهر وقت الإعراض بالكلية عن تلك العادة ؛ فإن الأعصار فى مثل هذا تتفاوت . والثانى : أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشترى الإنسان شيئا من الأطعمة وغيرها إلى ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة ، فأى فائدة فى تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك ، (الاحتمال الثالث) أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قاله أبو حنيفة رحمه الله ، وعند ذلك يتعسر الضبط فى المحقرات ، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه ، وقد ذهب ابن سريج إلى تخريج قول للشافعى رحمه الله على وفقه وهو أقرب الاحتمالات إلا الاعتدال ، فلا بأس لو ملنا إليه لمسيس الحاجات ، ولعموم ذلك بين الخلق ، ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتادا فى الأعصار الأولى . فأما الجواب عن الإشكالين : فهو أن نقول : أما الضبط فى الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير ، فإن ذلك غير ممكن ، بل له طرفان واضحان إذ لايخفى أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخبز واللحم من المعدود من المحقرات التى لايعتاد فيها إلا المعاطاة ، وطالب الإيجاب والقبول فيه يعد مستقصيا ويستبرد تكليفه لذلك ويستثقل وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ولى وجه له هذا طرف الحقارة ، والطرف الثانى الدواب والعبيد والعقارات والثياب النفيسة فذلك مما لايستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها ؟ وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها هى فى محل الشبهة ؛ فحق ذى الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشكلة . وأما الثانى ـ وهو طلب سبب لنقل الملك ، فهو أن يجعل الفعل باليد أخذا وتسليما سببا لعينه بل لدلالته ، وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة فى العادة ، وانضم إليه مسيس الحاجة وعادة الأولين واطراد جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها ، وأى فرق بين أن يكون فيه عوض أو لايكون ، إذ الملك لابد من نقله فى الهبة أيضا ، إلا أن العادة السالفة لم تفرق فى الهدايا بين الحقير والنفيس ، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان ، وفى المبيع لم يستقبح فى غير المحقرات هذا ما نراه أعدل الاحتمالات وحق الورع المتدين أن لايدع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف ، فلا ينبغى أن يمتنع من ذلك لأجل

أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول ؛ فإنّ ذلك لا يعرف تحقيقا ؛ فربما اشتراه بقبول وإيجاب ، فإن كان حاضرا عند شرائه أو أقرّ البائع به فيمتنع منه وليشتر من غيره ، فإن كان الشيء محقرا وهو إليه محتاج فليتلفظ بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة فى المستقبل معه ، إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ، ومن الفعل ممكن .

فإن قلت : فإن أمكن هذا فيما يشتريه ، فكيف يفعل إذا حضر فى ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة فى البيع والشراء أوسمع منهم ذلك أوراه ؟ أيجب عليه الامتناع من الأكل ؟ فأقول : يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذى اشتروه مقدارا نفيسا ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل ، فلا يجب الامتناع منه ، فإنى أقول : إن ترددنا فى جعل الفعل دلالة على نقل الملك ، فلاينبغى أن لانجعله دلالة على الإباحة ، فإن أمر الإباحة أوسع ، وأمر نقل الملك أضيق ، فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة فتسليم البائع إذن فى الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال ، كإذن الحامى فى دخول الحمام ، والإذن فى الإطعام لمن يريده المشترى فينزل منزلة مالوقال : أبحت لك أن تأكل هذا الطعام ، أو تطعم من أردت ؛ فإنه يحل له ولو صرح وقال : كل هذا الطعام ثم اغرم لى عوضه ، لحل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل ، هذا قياس الفقه عندى ، ولكنه بعد المعاطاة آكل ملكه ومتلفا له فعليه الضمان وذلك فى ذمته ، والثمن الذى سلمه إن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه ، فله أن يتملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه ، وإن كان قادرا على مطالبته فإنه لايتملك ماظفر به من ملكه ، لإنه ربما لايرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة . وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم ، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضاء بأن يستوفى دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه ، لكن على كل الأحوال جانب البائع أغمض لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه ولا يمكنه التملك إلا إذا أتلف عين طعامه فى يد المشترى ، ثم ربما يفتقر إلى استئناف قصد التملك ، ثم يكون قدتملك بمجرد رضا استفاده من الفعل دون القول . وأماجانب المشترى للطعام وهولا يريد إلا الأكل فهين ، فإنّ ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال ، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ماأتلفه ، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ماأخذه من المشترى فيسقط ، فيكون كالقاضى دينه والمتحمل عنه ، فهذا مانراه فى قاعدة المعاطاة على غموضها ، والعلم عند الله وهذه احتمالات وظنون رددناها ، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون ، وأما الورع فإنه ينبغى أن يستفتى قلبه ويتقى مواضع الشبه .

العقد الثانى : عقد الربا

وقد حرمه الله تعالى وشدد الأمر فيه ، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة المتعاملين على النقدين ، وعلى المتعاملين على الأطعمة ، إذ لا ربا إلا فى نقد أوفى طعام . وعلى الصيرفى أن يحترز من النسيئة والفضل . أماالنسيئة فأن لايبيع شيئا من جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يدآ بيد : وهو أن يجرى التقابض فى المجلس ، وهذا احتراز من النسيئة ، وتسليم الصيارفة الذهب إلى دارالضرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء ، ومن حيث إن الغالب أن يجرى فيه تفاضل ، إذ لايرد المضروب بمثل وزنه . وأما الفضل ، فيحترز منه فى ثلاثة أمور : فى بيع المكسر بالصحيح ، فلاتجوز المعاملة فيهما إلا مع المماثلة . وفى بيع الجيد بالردىء ، فلا ينبغى أن يشترى رديئا بجيد دونه فى الوزن ، أو يبيع رديئا بجيد فوقه فى الوزن ، أعنى إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، فإن اختلف الجنسان فلاحرج فى الفضل . والثالث فى المركبات من الذهب والفضة كالدنانير المخلوطة من الذهب والفضة : إن كان

مقدرا الذهب مجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا إلا إذا كان ذلك نقدا جاريا فى البلد فإنا نرخص فى المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد ، وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة فى البلد لم تصح المعاملة عليها ، لأن المقصود منها النقرة وهى مجهولة ، وإن كان نقدا رائجا فى البلد رخصنا فى المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها ، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلا ، وكذلك كل حلى مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة ، بل ينبغى أن يشترى بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوما ، إلا إذا كان مموها بالذهب تمويها لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار ، فيجوز بيعها بمثلها من النقرة بما أريد من غير النقرة ، وكذلك لا يجوز للصيرفى أن يشترى قلادة فيها خرز وذهب بذهب ، ولا أن يبيعه ، بل بالفضة يدا بيد إن لم يكن فيها فضة ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب ، ويجوز بالفضة غيرها وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض فى المجلس ، اختلف جنس الطعام المبيع والمشترى أو لم يختلف ؛ فان اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المماثلة ، والمعتاد فى هذا معاملة القصاب بأن يسلم إليه الغنم ويشترى بها اللحم نقدا أو نسيئة فهو حرام ، ومعاملة الخباز بأن يسلم إليه الحنطة ويشترى بها الخبز نسيئة أو نقدا فهو حرام ، ومعاملة العصار بأن يسلم إليه البزر والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام ، وكذا اللبان يعطى اللبن ليؤخذ منه الجبن والسمن والزبد وسائر أجزاء اللبن ، فهو أيضا حرام ، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقدا ، وبجنسه إلا نقدا ومتماثلا ، وكل ما يتخذ من الشىء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متماثلا ولا متفاضلا ، فلا يباع بالحنطة دقيق وخبز وسويق ، ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير ، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن ، والمماثلة لا تفيد إذا لم يكن الطعام فى حال كمال الادخار ، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلا ومتماثلا ، فهذه جمل مقنعة فى تعريف البيع والتنبيه على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتى فيها إذا تشكك والتبس عليه شىء منها ، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال ، واقتحم الربا والحرام وهو لا يدرى .

العقد الثالث : السلم

وليراع التاجر فيه عشرة شروط : (الأول) أن يكون رأس المال معلوما على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال : فان أسلم كفا من الدراهم جزافا فى كر حنطة لم يصح فى أحد القولين . (الثانى) أن يسلم رأس المال فى مجلس العقد قبل التفرق فلو تفرقا قبل القبض انفسخ السلم . (الثالث) أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع العطارين وأشباهها ، ولا يجوز فى المعجونات والمركبات وما تختلف أجزاؤه كالقسى المنوعة والنبل المعمول والخفاف والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات . ويجوز السلم فى الخبز . وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعفى عنه ويتسامح فيه . (الرابع) أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف . حتى لا يبقى وصف تتفاوت به القيمة تفاوتا لا يتغابن بمثله الناس إلا ذكره . فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية فى البيع . (الخامس) أن يجعل الأجل معلوما إن كان مؤجلا فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار بل إلى الأشهر والأيام فإن الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر . (السادس) أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالبا . فلا ينبغى أن يسلم فى العنب إلى أجل لا يدرك فيه . وكذا سائر الفواكه ، فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة . فله أن يمهله إن شاء أو يفسخ ويرجع فى رأس المال

إن شاء . (السابع) أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به كى لايثير ذلك نزاعا (الثامن) أن لايعلقه بمعين فيقول : من حنطة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان ، فإن ذلك يبطل كونه دينا . نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة ، لم يضر ذلك . (التاسع) أن لايسلم فى شىء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يعز وجود مثلها ، أو جارية حسناء معها ولدها ، أو غير ذلك مما لايقدر عليه غالبا . (العاشر) أن لايسلم فى طعام مهما كان رأس المال طعاما سواء كان من جنسه أو لم يكن ، ولا يسلم فى نقد إذا كان رأس المال نقداً ، وقد ذكرنا هذا فى الربا .

العقد الرابع : الإجارة

وله ركنان : الأجرة ، والمنفعة . فأما العاقد واللفظ فيعتبر فيه ماذكرناه فى البيع والأجرة كالثمن ، فينبغى أن يكون معلوما وموصوفا بكل ماشرطناه فى المبيع إن كان عينا ، فإن كان دينا فينبغى أن يكون معلوم الصفة والقدر ، وليحترز فيه عن أمور جرت العادة بها ، وذلك مثل كراء الدار بعمارتها فذلك باطل ، إذ قدر العمارة مجهول . ولو قدر دراهم وشرط على المكترى أن يصرفها إلى العمارة لم يجز ، لأن عمله فى الصرف إلى العمارة مجهول . ومنها استئجار السلاخ على أن يأخذ الجلد بعد السلخ ، واستئجار حمال الجيف بجلد الجيفة ، واستئجار الطحان بالنخالة أو بعض الدقيق فهو باطل ، وكذلك كل مايتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير ، فلا يجوز أن يجعل أجرة . ومنها : أن يقدر فى إجارة الدور والحوانيت مبلغ الأجر ، فلو قال لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة كانت المدة مجهولة ولم تنعقد الإجارة .

الركن الثانى : المنفعة المقصودة بالإجارة وهى العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير ، فيجوز الاستئجار عليه ؛ وجملة فروع الباب تندرج تحت هذه الرابطة ، ولكنا لا نطول بشرحها فقد طولنا القول فيها فى الفقهيات ، وإنما نشير إلى ماتعم به البلوى ، فليراع فى العمل المستأجر عليه خمسة أمور : (الأول) أن يكون متقوماً ، بأن يكون فيه كلفة وتعب . فلو استأجر طعاما ليزين به الدكان . أو أشجارا ليجفف عليها الثياب ؛ أو دراهم ليزين بها الدكان . لم يجز ، فإن هذه المنافع تجرى مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لايجوز بيعه ، وهى كالنظر فى مرآة الغير ، والشرب من بئره ، والاستظلال بجداره ، والاقتباس من ناره ولهذا لو استأجر بياعا على أن يتكلم بكلمة يروج بها سلعته لم يجز . وما يأخذه البياعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم فى ترويج السلع فهو حرام ، إذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لاتعب فيها ولاقيمة لها ، وإنما يحل لهم ذلك إذ تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة الكلام فى تأليف أمر المعاملة . ثم لايستحقون إلا أجرة المثل ، فأما ماتواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذا بالحق . (الثانى) أن لاتتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاقه . ولا إجارة المواشى للبنها . ولا إجارة البساتين لثمارها . ويجوز استئجار المرضعة ويكون اللبن تابعا : لأن إفراده غير ممكن . وكذا يتسامح بحبر الورق وخيط الخياط . لأنهما لايقصدان على حيالهما . (الثالث) أن يكون العمل مقدورا على تسليمه حساً وشرعا . فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لايقدر عليه . ولا استئجار الأخرس على التعليم ونحوه وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه . كالاستئجار على قلع سن سليمة أو قطع عضو لايرخص الشرع فى قطعه ؛ أو استئجار الحائض على كنس المسجد . أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش . أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها . أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات . أو استئجار الصائغ على صيغة الأوانى من الذهب والفضة فكل ذلك باطل . (الرابع) أن لايكون العمل واجباً على الأجير . أو لايكون بحيث لاتجرى

النيابة فيه عن المستأجر . فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا سائر العبادات التى لا نيابة فيها . إذ لا يقع ذلك عن المستأجر . ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموتى وحمل الجنائز . وفى أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان وعلى التصدى للتدريس وإقراء القرآن خلاف . أما الاستئجار على تعليم مسئلة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح . (الخامس) أن يكون العمل والمنفعة معلوما . فالخياط يعرف عمله بالثوب . والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها . وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة . وكل مايثير خصومة فى العادة فلا يجوز إهماله . وتفصيل ذلك يطول . وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال . فيسأل . فإن الاستقصاء شأن المفتى لاشأن العوام .

العقد الخامس : القراض

وليراع فيه ثلاثة أركان :

الركن الأول : رأس المال ، وشرطه أن يكون نقدا معلوما مسلما إلى العامل ؛ فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض ؛ فإنّ التجارة تضيق فيه . ولايجوز على صرة من الدراهم ، لأن قدر الربح لايتبين فيه ، ولوشرط مالك اليد لنفسه لم يجز ، لأنّ فيه تضييق طريق التجارة .

الركن الثانى : الربح ، وليكن معلوما بالجزئية بأن يشترط له الثلث أو النصف أو ماشاء ، فلو قال : على أن لك من الربح مائة والباقى لى ، لم يجز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة فلايجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع .

الثالث : العمل الذى على العامل ، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقه عليه بتعيين وتأقيت ، فلو شرط أن يشترى بالمال ماشية ليطلب نسلها فيتقاسمان النسل ، أو حنطة فيخبزها ويتقاسمان الربح ، لم يصح ، لأنّ القراض مأذون فيه فى التجارة وهو البيع والشراء ومايقع من ضرورتهمافقط ، وهذا حرف ـ أعنى الخبز ورعاية المواشى ، ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشترى إلا من فلان أو لا يتجر إلا فى الخز الأحمر ، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد ، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالغبطه تصرف الوكلاء ، ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك ، فإذا فسخ فى حالة والمال كله فيها نقد لم يخف وجه القسمة وإن كان عروضا ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد ، لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئا ، وإن قال العامل : ابيعه ، وأبى المالك ، فالمتبوع رأى المالك ، إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال ، ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال لا بنقد آخر ، حتى يتميز الفاضل ربحا فيشتركان فيه ، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال ، ومهماكان رأس السنة فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة : فإذا كان قد ظهر من الربح شىء فالأقيس أن زكاة نصيب العامل على العامل وأنه يملك الربح بالظهور ، وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك ، فإن فعل صحت تصرفاته ، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان جميعا ، لأن عدوانه بالنقل يتعدى إلى ثمن المنقول ، وإن سافر بالإذن جاز ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض ، كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذى لايعتاد التاجر مثله على رأس المال ، فأما نشر الثوب وطيه والعمل اليسير المعتاد فليس له أن يبذل عليه أجرة . وعلى العامل نفقته وسكناه فى البلد ، وليس عليه أجرة الحانوت . ومهما تجرد فى السفر لمال القراض فنفقته فى السفر على مال القراض ، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرها .

العقد السادس : الشركة

وهى أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة : (الأول) شركة المفاوضة ؛ وهو أن يقولا : تفاوضنا لنشترك فى كل مالنا وعلينا ومالاهما ممتازان ، فهى باطلة ، (الثانى) شركة الأبدان : وهو أن يتشارطا الاشتراك فى أجرة العمل فهى باطلة . (الثالث) شركة الوجوه : وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التنفيل ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضا باطل . وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان : وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمه ، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه فى التصرف ، ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين ، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط ، ثم بالعزل يمتنع التصرف عن المعزول ، وبالقسمة ينفصل الملك عن الملك ، والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة ، ولا يشترط النقد ، بخلاف القراض .

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب ، وإلا اقتحم الحرام من حيث لا يدرى . وأما معاملة القصاب والخباز والبقال فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب ، والخلل فيها من ثلاثة وجوه : من إهمال شروط البيع ، أو إهمال شروط السلم ، أو الاقتصار على المعاطاة ، إذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم ، ثم المحاسبة فى كل مدة ، ثم التقويم بحسب مايقع عليه التراضى ، وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة ، ويحمل تسليمهم على إباحة التناول مع انتظار العوض فيحل أكله ، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإتلاف ، فتجتمع فى الذمة تلك القيم ، فإذا وقع التراضى على مقدار مافينبغى أن يلتمس منهم الإبراء المطلق لاتبقى عليه عهدة إن تطرق إليه تفاوت فى التقويم ، فهذا ما تجب القناعة به ، فإن تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج فى كل يوم وكل ساعة تكليف شطط ، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر ، وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه ، والله الموفق .

الباب الثالث : فى بيان العدل واجتناب الظلم فى المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يحكم المفتى بصحتها وانعقادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط الله تعالى ، إذ ليس كل نهى يقتضى فساد العقد ، وهذا الظلم يعنى به ما استضر به الغير ، وهو منقسم إلى مايعم ضرره وإلى مايخص المعامل .

القسم الأول : فيما يعم ضرره . وهو أنواع :

النوع الأول : الاحتكار فبائع الطعام يدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام ، وصاحبه مذموم فى الشرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره [1] » وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه [2] » وقيل : فكأنما قتل الناس جميعا ، وعن على رضى الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوما

الباب الثالث : فى بيان العدل

(١) حديث « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على ، والخطيب فى التاريخ من حديث أنس بسندين ضعيفين . (٢) حديث ابن عمر « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه » رواه أحمد والحاكم بسند جيد ، وقال ابن عدى : ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر .

قسا قلبه . وعنه أيضا أنه أحرق طعام محتكر بالنار . وروى فى فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » وفى لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة [1] » وقيل فى قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ إن الاحتكار من الظلم وداخل تحته فى الوعيد . وعن بعض السلف أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سعة فى السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ؛ فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شىء من الدين فقد جنيت علينا جناية ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفافا لا على ولا لى . واعلم أن النهى مطلق ويتعلق النظر به فى الوقت والجنس ، أما الجنس فيطرد النهى فى أجناس الأقوات ، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهى إليه وإن كان مطعوما . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسدا يغنى عن القوت فى بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه ، فهذا فى محل النظر ؛ فمن العلماء من طرد التحريم فى السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجرى مجراه ؛ وأما الوقت فيحتمل أيضا طرد النهى فى جميع الأوقات ، وعليه تدل الحكاية التى ذكرنا فى الطعام الذى صادف بالبصرة سعة فى السعر ، ويحتمل أن يخصص بوقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون فى تأخير بيعه ضرر ما ؛ فأما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطا ؛ فليس فى هذا إضرار . وإذا كان الزمان زمان قحط كان فى ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها إضرار ؛ فينبغى أن يقضى بتحريمه ويعول فى نفى التحريم وإثباته على الضرار فإنه مفهوم قطعا من تخصيص الطعام ، وإذا لم يكن ضرار فلا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادئ الضرار وهو ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرار محذور كانتظار عين الضرار ولكنه دونه ، وانتظار عين الضرار أيضا هو دون الإضرار ، فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم . وبالجملة التجارة فى الأقوات مما لا يستحب لأنه طلب ربح ، والأقوات أصول خلقت قواما ، والربح من المزايا ، فينبغى أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التى لا ضرورة للخلق إليها ولذلك أوصى بعض التابعين رجلا وقال : لا تسلم ولدك فى بيعتين ولا فى صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الأكفان فإنه يتمنى الغلاء وموت الناس . والصنعتان . أن يكون جزارا فإنها صنعة تقسى القلب ، أو صواغا فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة .

النوع الثانى : ترويج الزيف من الدراهم فى أثناء النقد فهو ظلم ، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره ، فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتردد فى الأيدى ويعم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعا عليه ، فإنه هو الذى فتح هذا الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا [2] » . وقال بعضهم : إنفاق درهم

(١) حديث « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » وفى لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة » أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف : « ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » وللحاكم من حديث اليسع بن المغيرة « إن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله » وهو مرسل

(٢) حديث « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شىء » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

زيف أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها فى الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة ، أو مائتى سنة .. إلى أن يفنى ذلك الدرهم ، ويكون عليه ما فسد من أموال الناس بسنته ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتى سنة أو أكثر يعذب بها فى قبره ويسئل عنها إلى آخر انقراضها ، وقال تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ماقدموه ، وفى مثله قوله تعالى ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وليعلم أن فى الزيف خمسة أمور : (الأول) أنه إذا رد عليه شىء منه فينبغى أن يطرحه فى بئر بحيث لاتمتد إليه اليد ، وإياه أن يروجه فى بيع آخر . وإن أفسده بحيث لايمكن التعامل به جاز . (الثانى) أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا ليستقصى لنفسه ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لايدرى فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم . فكل علم عمل به يتم نصح المسلمين . فيجب تحصيله ولمثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظراً لدينهم لا لدنياهم . (الثالث) أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم . لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولايخبره ، ولو لم يعزم على ذلك لكان لايرغب فى أخذه أصلا . فإنما يتخلص من إثم الضرر الذى يخص معامله فقط . (الرابع) أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء »[1] ، فهو داخل فى بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه فى بئر . وإن كان عازما على أن يروجه فى معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه فى معرض الخير فلا يدخل تحت من تساهل فى الاقتضاء . (الخامس) أن الزيف نعنى به مالانقرة فيه أصلا بل هو مموه . أو مالا ذهب فيه أعنى فى الدنانير . أما مافيه نقرة فإن كان مخلوطا بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء فى المعاملة عليه ، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد ، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم . وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة ، فإن كان فى ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله ، وأن لا يعامل به إلا من لايستحل الترويج فى جملة النقد بطريق التلبيس ، فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد ، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً ، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه ، وسلوك طريق الحق بمثال هذا فى التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلى لها ، ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد ، وقد كان السلف يحتاطون فى مثل ذلك حتى روى عن بعض الغزاة فى سبيل الله أنه قال : حملت على فرسى لأقتل علجا ، فقصر بى فرسى فرجعت ثم دنا منى العلج فحملت ثانية فقصر فرسى فرجعت ، ثم حملت الثالثة فنفر منى فرسى وكنت لا أعتاد ذلك منه ، فرجعت حزينا وجلست منكس الرأس منكسر القلب لما فاتنى من العلج وما ظهر لى من خلق الفرس ، فوضعت رأسى على عمود الفسطاط وفرسى قائم فرأيت فى النوم كأن الفرس يخاطبنى ويقول لى : بالله عليك أردت أن تأخذ على العلج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لى علفا ودفعت فى ثمنه درهما زائفا لايكون هذا أبدا . قال : فانتبهت فزعا فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم ، فهذا مثال ما يعم ضرره وليقس عليه أمثاله .

القسم الثانى : ما يخص ضرره المعامل

فكل مايستضر به المعامل فهو ظلم ، وإنما العدل لايضر بأخيه المسلم ، والضابط الكلى فيه : أن لا يحب

---

(١) حديث « رحم الله امرءا سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » أخرجه البخارى من حديث جابر .

لأخيه إلا ما يحب لنفسه ؛ فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به ؛ بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره . قال بعضهم : من باع أخاه شيئا بدرهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، هذه جملته .

فأما تفصيله ففي أربعة أمور . أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا أصلا ، وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا ، وأن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه :

أما الأول ، فهو ترك الثناء ؛ فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذي لا يروج قد لا يقدح في ظاهر المروءة ، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه . وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بها . قال الله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ إلا أن يثني على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري ما لم يذكره ، كما يصفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب ؛ فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب ، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتنقضي بسببه حاجته ، ولا ينبغي أن يحلف عليه البتة ؛ فإنه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع ، وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه ، وقد أساء فيه ، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة ، وفي الخبر « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد »[1] وفي الخبر « اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة »[2] وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . عتل مستكبر ، ومنان بعطيته ، ومنفق سلعته بيمينه »[3] فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروها من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا يخفى التغليظ في أمر اليمين ؛ وقد روي عن يونس بن عبيد وكان خزازا : أنه طلب منه خز للشراء ، فأخرج غلامه سقط الخز ونشره ونظر إليه وقال : اللهم ارزقنا الجنة ، فقال لغلامه : رده إلى موضعه ولم يبعه ، وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالثناء على السلعة ، فمثل هؤلاء الذين اتجروا في الدنيا ولم يضيعوا دينهم في تجاراتهم ، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا .

الثاني : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئا ، فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالما غاشا والغش حرام ، وكان تاركا للنصح في المعاملة والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني كان غاشا ، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردي الخف أو النعل وأمثاله ويدل على تحريم الغش ما روي : أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا، فقال : « ما هذا ؟ » قال : أصابته السماء ، فقال « فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا »[4] ، ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريرا على الإسلام ذهب

---

(١) حديث « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد » لم أقف له على أصل ، وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بغير إسناد نحوه . (٢) حديث « اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « الحلف » وهو عند البيهقي بلفظ المصنف . (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: عائل مستكبر ، ومنان بعطيته . ومنفق سلعته بيمينه » أخرجه مسلم من حديثه إلا أنه لم يذكر فيها إلا : عائل مستكبر » ولهما « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ... الحديث » ولمسلم من حديث أبي ذر : « المنان ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . (٤) حديث : مر برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فرأى بللا فقال « ما هذا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

لينصرف لجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم [١] ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال : إن شئت فخذ وإن شئت فاترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وكان واثلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقة له بثلثمائة درهم ، فغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة ، فسعى وراءه وجعل يصيح به : ياهذا ، اشتريتها للحم أو للظهر ؟ فقال : بل للظهر ، فقال : إن بخفها نقبا قد رأيته ، وإنها لاتتابع السير ، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لواثلة : رحمك الله أفسدت على بيعى ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لايحل لأحد يبيع بيعا إلا أن يبين آفته ، ولايحل لمن يعلم ذلك إلا تبيينه [٢] » فقد فهموا من النصح أن لايرضى لأخيه إلا مايرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم ، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق ، فلذلك يختارون التخلى للعبادة والاعتزال عن الناس ، لأن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لايقوم بها إلا الصديقون ، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين : (أحدهما) أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لايزيد فى رزقه ، بل يمحقه ويذهب ببركته ، ومايجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة ، فقد حكى أن واحدا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه ، فجاء سيل فغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة التى صببناها فى اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما فى بيعهما ، وإذا كتما وكذبا نزعت بركة بيعهما [٣] » وفى الحديث « يد الله على الشريكين مالم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما [٤] » فإذاً لايزيد مال من خيانة ، كما لاينقص من صدقة ، ومن لايعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث . ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان فى الدنيا والدين ، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصلح له فى بعض أحواله ، فيعرف معنى قولنا : إن الخيانة لاتزيد فى المال والصدقة لاتنقص منه (والمعنى الثانى) الذى لابد من اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه : أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا ، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضى بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، والخير كله فى سلامة الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتزال لاإله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم [٥] » وفى لفظ آخر « مالم يبالوا مانقص من دنياهم بسلامة دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لاإله إلا الله ، قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين » وفى حديث آخر « من قال لاإله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل . وما إخلاصه ؟ قال . أن يحرزه عما حرم الله [٦] » وقال أيضا « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ، ومن علم

---

(١) حديث جرير بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم. متفق عليه . (٢) حديث واثلة « لايحل لأحد يبيع بيعا إلا بين مافيه ، ولايحل لمن يعلم ذلك إلا بينه » أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقى .

(٣) حديث « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما فى بيعهما .. الحديث » متفق عليه من حديث حكيم بن حزام .

(٤) حديث « يد الله على الشريكين مالم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما » رواه أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة وقال : صحيح الإسناد . (٥) حديث « لاتزال لاإله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على أخراهم ... الحديث » رواه أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف . وفى رواية للترمذى الحكيم فى النوادر « حتى إذا نزلوا بالمنزل الذى لايبالون مانقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم . . الحديث » والطبرانى فى الأوسط نحوه من حديث عائشة ، وهو ضعيف أيضاً . (٦) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » قيل : وما اخلاصها ؟ قال « تحجزه عما حرم الله » أخرجه الطبرانى من حديث زيد بن أرقم فى معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن .

أن هذه الأمور قادحة فى إيمانه ، وأن إيمانه رأس ماله فى الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة . وعن بعض التابعين أنه قال : لودخلت الجامع وهوغاص بأهله وقيل لى : من خير هؤلاء ؟ لقلت : من أنصحهم لهم ؟ فإذا قالوا : هذا ، قلت : هو خيرهم . ولو قيل لى : من شرهم ؟ قلت : من أغشهم لهم ؟ فإذا قيل : هذا ، قلت : هو شرهم . والغش حرام فى البيوع والصنائع جميعا ، ولا ينبغى أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لوعامله به غيره لما ارتضاه لنفسه ، بل ينبغى أن يحسن الصنعة ويحكمها ، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب ، فبذلك يتخلص . وسأل رجل حداء بن سالم فقال : كيف لى أن أسلم فى بيع النعال ؟ فقال : اجعل الوجهين سواء ، ولا تفضل اليمنى على الأخرى ، وجود الحشو ، وليكن شيئا واحدا تاما ، وقارب بين الخرز ، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى . ومن هذا الفن ماسئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لايتبين ، قال : لايجوز لمن يبيعه أن يخفيه ، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لايريده للبيع .

* فإن قلت : فلاتتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع * فأقول : ليس كذلك ، إذ شرط التاجر أن لايشترى للبيع إلا الجيد الذى يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقنع فى بيعه بربح يسير ، فيبارك الله له فيه ، ولا يحتاج إلى تلبيس ، وإنما تعذر هذا لأنهم لايقنعون بالربح اليسير ، وليس يسلم الكثير إلا بتلبيس ، فمن تعود هذا لم يشتر المعيب ، فإن وقع فى يده معيب نادرا فليذكره وليقنع بقيمته . باع ابن سيرين شاة فقال للمشترى : أبرأ إليك من عيب فيها إنها تقلب العلف برجلها . وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشترى : إنها تنخمت مرة عندنا دما ، فهكذا كانت سيرة أهل الدين ، فمن لايقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة .

الثالث : ألا يكتم فى المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الكيل ، فينبغى أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى ، وينقص إذا أخذ ، إذ العدل الحقيقى قلما يتصور ، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه . وكان بعضهم يقول : لا أشترى الويل من الله بحبة ، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة ، وإذا أعطى زاد حبة ، وكان يقول : ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السموات والأرض ؛ وما أخسر من باع طوبى بويل . وإنما بالغوا فى الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها ، إذ لايعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدى حقوقهم ، ولذلك لما اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قال للوزان لما كان يزن ثمنه « زن وأرجح [1] » ، ونظر فضيل إلى ابنه وهو يغسل دينارا يريد أن يصرفه ويزيل تكحيله وينقيه حتى لايزيد وزنه بسبب ذلك فقال : يابنى فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة . وقال بعض السلف : عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو ، يزن ويحلف بالنهار ، وينام بالليل . وقال سليمان عليه السلام لابنه : يابنى كما تدخل الحبة بين الحجرين ، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين . وصلى بعض الصالحين على مخنث ؛ فقيل له : إنه كان فاسقا ، فسكت ، فأعيد عليه فقال : كأنك قلت لى : كان صاحب ميزانين يعطى بأحدهما ويأخذ بالآخر ، أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى ، وهذا من مظالم العباد ، والمسامحة والعفو فيه أبعد ، والتشديد فى أمر الميزان عظيم ، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة . وفى قراءة عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ﴿ لاتطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن باللسان ولا تخسروا الميزان ﴾ أى لسان الميزان ، فإن النقصان والرجحان

(١) حديث : قال للوزان « زن وأرجح » رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس . قال الترمذى : حسن صحيح وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يظهر بمثله ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو فى كلمة ولا ينصف بمثل ماينتصف ، فهو داخل تحت قوله تعالى ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ الآيات ، فإن تحريم ذلك فى المكيل ليس لكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصودا ترك العدل والنصفة فيه ، فهو جار فى جميع الأعمال . فصاحب الميزان فى خطر الويل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين فى أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة ، ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما ، فلذلك تتفاوت مدة مقامهم فى النار إلى أوان الخلاص ، حتى لايبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين ، فنسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل ، فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه ، غير مطموع فيه ، فإنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار الذى من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط ، وكل من خلط بالطعام ترابا أوغيره ثم كاله فهو من المطففين فى الكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظما لم تجر العادة بمثله ، فهو من المطففين فى الوزن ، وقس على هذا سائر التقديرات ، حتى فى الذرع الذى يتعاطاه البزاز ، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب فى وقت الذرع ولم يمده مدا ، وإذا باعه مده فى الذرع ليظهر تفاوتا فى القدر ، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل .

الرابع : أن يصدق فى سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان [1] ونهى عن النجش [2] ، أما تلقى الركبان ، فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب فى سعر البلد ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « لاتتلقوا الركبان ، ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق ، وهذا الشراء منعقد ، ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار ، وإن كان صادقا ففى الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس ، ونهى أيضا أن يبيع حاضر لباد [3] : وهو أن يقدم البدوى البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه ، فيقول له الحضرى اتركه عندى حتى أغالى فى ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره ، وهذا فى القوت محرم ، وفى سائر السلع خلاف ، والأظهر تحريمه لعموم النهى ، ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولى المضيق ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش . وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدى الراغب المشترى ويطلب السلعة بزيادة وهو لايريدها ، وإنما يريد تحريك رغبة المشترى فيها ، فهذا إن لم تجر مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد ، وإن جرى مواطأة ففى ثبوت الخيار خلاف ، والأولى إثبات الخيار لأنه تغرير بفعل يضاهى التغرير فى المصراة وتلقى الركبان ، فهذه المناهى تدل على أنه لايجوز أن يلبس على البائع والمشترى فى سعر الوقت ويكتم منه أمرا لو علمه لما أقدم على العقد ، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب ، فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة فى هذه السنة ، فاشتر السكر ، قال : فاشترى سكرا كثيرا ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفا ، فانصرف إلى منزله فأفكر

---

(١) حديث النهى عن تلقى الركبان : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبى هريرة : (٢) حديث النهى عن النجش : متفق عليه من حديث ابن عمر وأبى هريرة . (٣) حديث النهى عن بيع الحاضر للبادى : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبى هريرة وأنس .

ليلته وقال : ربحت ثلاثين ألفا وخسرت نصح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفا وقال : بارك الله لك فيها ، فقال : ومن أين صارت لى ؟ فقال : إنى كتمتك حقيقة الحال وكان السكر قد غلا فى ذلك الوقت ، فقال : رحمك الله قد أعلمتنى الآن وقد طيبتها لك ، قال : فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهرا وقال : مانصحته ، فلعله استحيا منى فتركها لى فبكر إليه من الغد وقال : عافاك الله ، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبى ، فأخذ منه ثلاثين ألفا . فهذه الأخبار فى المناهى والحكايات تدل على أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفى من البائع غلاء السعر أو من المشترى تراجع الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالما تاركا للعدل والنصح للمسلمين ، ومهما باع مرابحة بأن يقول : بعت بما قام على أو بما اشتريته ، فعليه أن يصدق ، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان ، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره ، ولو اشترى مسامحة من صديقه أو ولده يجب ذكره . لأن المعامل يعوّل على عادته فى الاستقصاء أنه لايترك النظر لنفسه ، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره ، إذ الاعتماد فيه على أمانته .

الباب الرابع : فى الاحسان فى المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً ، والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يجرى من التجارة مجرى رأس المال . والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يجرى من التجارة مجرى الربح ، ولا يعد من العقلاء من قنع فى معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذا فى معاملات الآخرة ، فلا ينبغى للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وقال سبحانه ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ونعنى بالإحسان : فعل ما ينتفع به المعامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ، فإن الواجب يدخل فى باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه ، وتنال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور .

الأول : فى المغابنة ، فينبغى أن لايغبن صاحبه بما لايتغابن به فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه : لأن البيع للربح ، ولايمكن ذلك إلا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته فى الحال إليه ، فينبغى أن يمتنع من قبوله ، فذلك من الإحسان . ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلما وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار ، ولسنا نرى ذلك ، ولكن من الإحسان أن يحط ذلك الغبن . يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان : ضرب قيمة كل حلة منها أربعمائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها فمضى بها وهى على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها ، فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها ، فقال له يونس : انصرف فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتى درهم ، وخاصم ابن أخيه فى ذلك وقاتله وقال : أما استحييت ، أما اتقيت الله ، تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ، فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبيس ، فهو من

باب الظلم وقد سبق ، وفى الحديث « غبن المسترسل حرام [١] » وكان الزبير بن عدى يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشترى لحما بدرهم ، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم : إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان ، وقلما يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت .

وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السرى السقطى أنه اشترى كر لوز بستين ديناراً وكتب فى روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار ، فصار اللوز بتسعين ، فأتاه الدلال وطلب اللوز فقال : خذه . قال : بكم ؟ فقال . بثلاثة وستين ، فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بتسعين ، فقال السرى: قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين ، فقال الدلال : وأنا عقدت بينى وبين الله أن لا أغش مسلما ، لست آخذ منك إلا بتسعين . قال : فلا الدلال اشترى منه ، ولا السرى باعه ، فهذا محض الإحسان من الجانبين ، فإنه مع العلم بحقيقة الحال .

وروى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة ، فباع غلامه فى غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابى المشترى طول النهار حتى وجده ، فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة ، فقال : يا هذا قد رضيت ، فقال : وإن رضيت فإنا لانرضى لك إلا مانرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك ، فقال : أعطنى خمسة ، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابى يسأل ويقول : من هذا الشيخ ؟ فقيل له : هذا محمد بن المنكدر ، فقال لاإله إلا الله ، هذا الذى نستسقى به فى البوادى إذا قحطنا . فهذا إحسان فى أن لا يربح على العشرة إلا نصفاً أو واحد على ما جرت به العادة فى مثل ذلك المتاع فى ذلك المكان ، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربحا كثيرا ، وبه تظهر البركة .

كان على رضى الله عنه يدور فى سوق الكوفة بالدرة ويقول : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، لاتردوا قليل الربح فتحرموا كثيره .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ماسبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، مارددت ربحا قط ، ولا طلب منى حيوان فأخرت بيعه ، ولابعت بنسيئة . ويقال : إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عقلها : باع كل عقال بدرهم فربح فيها ألفا وربح من نفقته عليها ليومه ألفا .

الثانى : فى احتمال الغبن ، والمشترى إن اشترى طعاما من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ، ويكون به محسنا وداخلا فى قوله عليه السلام « رحم الله امرأً سهل البيع سهل الشراء » فأما إذا اشترى من غنى تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته ، فاحتمال الغبن منه ليس محموداً ، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد ، فقد ورد فى حديث من طريق أهل البيت « المغبون فى الشراء لامحمود ولا مأجور [٢] » وكان إياس ابن معاوية بن قرة قاضى البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول : لست بخب والخب لايغبنى ولا يغبن ابن سيرين ولكن يغبن الحسن ويغبن أبى ـ يعنى معاوية بن قرة ، والكمال فى أن لا يغبن ولا يغبن ، كما وصف بعضهم عمر

الباب الرابع : الإحسان فى المعاملة

(١) حديث « غبن المسترسل حرام » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف ، والبيهقى من حديث جابر بسند جيد، وقال « ربا » بدل « حرام » . (٢) حديث « المغبون فى الشراء لامحمود ولامأجور » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن على يرفعه . قال الذهبي : هو منكر .

رضى الله عنه فقال : كان أكرم من أن يخدع ، وأعقل من أن يخدع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الشراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال ، فقيل لبعضهم : تستقصى فى شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالى ! فقال : إن الواهب يعطى فضله وإن المغبون يغبن عقله . وقال بعضهم : إنما أغبن عقلى وبصرى فلا أمكن الغابن منه ، وإذا وهبت أعطى لله ولا أستكثر منه شيئاً .

الثالث : فى استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمسامحة وحط البعض ، ومرة بالإمهال والتأخير، ومرة بالمساهلة فى طلب جودة النقد ، وكل ذلك مندوب إليه ومحثوث عليه : قال النبى صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء سهل الاقتضاء [1] » فليغتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « اسمح يسمح لك [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من انظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيرا » وفى لفظ آخر « أظله الله تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله [3] » . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا كان مسرفا على نفسه : حوسب فلم يوجد له حسنة ، فقيل له : هل عملت خيراً قط ؟ فقال : لا إلا أنى كنت رجلا أداين الناس فأقول لفتيانى · سامحوا الموسر وأنظروا المعسر [4] . وفى لفظ آخر « وتجاوزوا عن المعسر : فقال الله تعالى : نحن أحق بذلك منه ، فتجاوز الله عنه وغفر له » وقال صلى الله عليه وسلم « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله ، فإذا حل الأجل فانظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة [5] » وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر ، حتى يكون كالمتصدق بجميعه فى كل يوم . وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت على باب الجنة مكتوبا : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمان عشرة [6] » فقيل فى معناه: إن الصدقة تقع فى يد المحتاج وغير المحتاج ، ولا يحتمل ذل الاستقراض إلا محتاج . ونظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلا بدين ، فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن ضع الشطر ففعل ، فقال للمديون : قم فأعطه [7] » وكل من باع شيئاً وترك ثمنه فى الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو فى معنى المقرض .

وروى أن الحسن البصرى باع بغلة له بأربعمائة درهم ، فلما استوجب المال قال له المشترى : اسمح يا أبا سعيد . قال : قد أسقطت عنك مائة ، قال له : فأحسن ياأبا سعيد ، فقال : قد وهبت لك مائة أخرى ، فقبض من حقه مائتى درهم . فقيل له : يا أبا سعيد ، هذا نصف الثمن ، فقال : هكذا يكون الإحسان وإلا فلا .

وفى الخبر « خذ حقك فى كفاف وعفاف واف أو غير واف ، يحاسبك الله حسابا يسيراً [8] » .

---

(١) حديث « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء » تقدم فى الباب قبله . (٢) حديث « اسمح يسمح لك » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس ورجاله ثقات .

(٣) حديث « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حسابا يسيرا » وفى لفظ آخر « أظله الله تحت ظله يوم لاظل الاظله » رواه مسلم باللفظ الثانى من حديث أبى اليسر كعب بن عمرو . (٤) حديث : ذكر رجلا كان مسرفا على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة ، فقيل له : هل عملت خيراً قط ، فقال : لالا أنى كنت رجلا أداين الناس فأقول لفتيانى : سامحوا الموسر ... الحديث . رواه مسلم من حديث أبى مسعود الأنصارى ، وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة . (٥) حديث « من أقرض دينارا الى أجل فله بكل يوم صدقة الى أجله . فاذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة » أخرجه ابن ماجه من حديث بريدة « من أنظر معسراً كان له كل يوم صدقة ؛ ومن أنظره بعد أجله كان له مثله فى كل يوم صدقة » وسنده ضعيف ، ورواه أحمد والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٦) حديث « رأيت على باب الجنة مكتوبا : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمان عشرة » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس باسناد ضعيف . (٧) حديث « أومأ الى صاحب الدين بيده ضع الشطر ... الحديث » متفق عليه من حديث كعب بن مالك .

(٨) حديث « خذ حقك فى عفاف ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة باسناد حسن دون قوله « يحاسبك الله حسابا يسيرا » وله ولابن حبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة .

الرابع : فى توفية الدين . ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « خيركم أحسنكم قضاء [١] » ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن ، وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر . قال صلى الله عليه وسلم « من ادّان دينا وهو ينوى قضاءه وكل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه [٢] » وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر ، ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه ، فجعل الرجل يشدّد الكلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم به أصحابه فقال : دعوه فإنّ لصاحب الحق مقالا [٣] ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض ، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للتوسطين إلى من عليه الدين ، فإنّ المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغى أن تكون الإعانة للمشترى أكثر ؛ فإنّ البائع راغب عن السلعة يبغى ترويجها ، والمشترى محتاج إليها : هذا هو الأحسن ، إلا أن يتعدى من عليه الدين حده ، فعند ذلك نصرته فى منعه عن تعديه وإعانة صاحبه ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما . فقيل : كيف تنصره ظالما ؟ فقال : منعك إياه من الظلم نصرة له [٤] » .

الخامس : أن يقيل من يستقيله ، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع ، ولا ينبغى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه : قال صلى الله عليه وسلم « من أقال نادما صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة [٥] » أو كما قال .

السادس : أن يقصد فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو فى الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة ، فقد كان فى صالحى السلف من له دفتران للحساب : أحدهما ترجمته مجهولة ، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول : أحتاج إلى خمسة أرطال مثلا من هذا وليس معى ثمنه ، فكان يقول : خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعد هذا من الخيار ، بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه فى الدفتر أصلا ولا يجعله دينا ، لكن يقول : خذ ما تريد ، فإن يسر لك فاقض ، وإلا فأنت فى حل منه وسعة : فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست ، والقائم به محى لهذه السنة ، وبالجملة ؛ التجارة محك الرجال ، وبها يمتحن دين الرجل وورعه ، ولذلك قيل :

لا يغرنك من المر ء قميص رقعه أو إزار فوق كعـ ـب الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه ولدى الدرهم فانظر غيه أو ورعه

ولذلك قيل : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر وأصحابه فى السفر ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى صلاحه .

وشهد عند عمر رضى الله عنه شاهد فقال : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل فأثنى عليه خيرا ، فقال عمر : أنت

---

(١) حديث « خيركم أحسنكم قضاء » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « من ادان دينا وهو ينوى قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه » أخرجه أحمد من حديث عائشة « ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ » وفى رواية له « لم يزل معه من الله حارس » وفى رواية للطبرانى فى الأوسط « إلا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه » . (٣) حديث « دعوه فإن لصاحب الحق مقالا » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس . (٥) حديث « من أقال نادما صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ؛ فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ! قال : نعم ، فقال : اذهب فلست تعرفه . وقال للرجل . آذهب فائتنى بمن يعرفك .

الباب الخامس : فى شفقه التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة ، وما يفوته من الربح فى الآخرة لايفى به ماينال فى الدنيا ، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغى أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه . قال بعض السلف : أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه فى العاجل ، وأحوج شيء إليه فى العاجل أحمده عاقبة فى الآجل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته : إنه لابد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فخذه فإنك ستمر على نصيبك من الدنيا فتنتظمه . قال الله تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة ، فإنها مزرعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات .

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور :

الأول : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ، فلينوبها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم ، واستعانة بما يكسبه على الدين ، وقياما بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ، ولينو النصح للسلمين ، وأن يحب لسائر الخلق مايحب لنفسه ، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان فى معاملته كما ذكرناه ، ولينو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل مايراه فى السوق ، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا فى طريق الآخرة ، فإن استفاد مالا فهو مزيد ، وإن خسر فى الدنيا ربح فى الآخرة .

الثانى : أن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق . فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقى وهلكوا ، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة [1] » أى اختلاف هممهم فى الصناعات والحرف . ومن الصناعات ماهى مهمة ، ومنها مايستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين فى الدنيا ، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون فى قيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين ، وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وجميع ماتزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ، فأما عمل الملاهى والآلات التى يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم ، ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال ، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال فكل ذلك من المعاصى والأجرة المأخوذة عليه حرام ، ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لانوجب الزكاة فى الحلى ، لأنها إذا قصدت للرجال فهى محرمة ، وكونها مهيأة للنساء لا يلحقها بالحلى المباح ، مالم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد . وقد ذكرنا أن بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر ،

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه

(١) حديث « اختلاف أمتى رحمة » تقدم فى العلم .

ويكره أن يكون جزارا ، لما فيه من قساوة القلب ، وأن يكون حجاما أو كناسا لما فيه من مخامرة النجاسة ، وكذا الدباغ وما فى معناه ، وكره ابن سيرين الدلالة ، وكره قتادة أجرة الدلال ، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط فى الثناء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر ، ولا ينظر فى مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب ، هذا هو العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغى أن ينظر إلى قدر التعب ، وكرهوا شراء الحيوان للتجارة ، لأن المشترى يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذى بصدده لا محالة وحلوله . وقيل : بع الحيوان واشتر الموتان ، وكرهوا الصرف ، لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ، ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها ، وقلما يتم للصيرفى ربح إلا باعتماد جهالة معامله بدقائق النقد ؛ فقلما يسلم الصيرفى وإن احتاط ، ويكره للصيرفى وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك فى جودته أو عند ضرورة . قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ورد نهى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وعن أصحابه فى الصياغة من الصحاح ، وأنا أكره الكسر ، وقال : يشترى بالدنانير دراهم ثم يشترى بالدرهم ذهبا ويصوغه ، واستحبوا تجارة البز . قال سعيد بن المسيب: ما من تجارة أحب إلى من البز ، مالم يكن فيها أيمان . وقد روى « خير تجارتكم البز وخير صناعتكم الخرز [2] » وفى حديث آخر « لو اتجر أهل الجنة لا تجروا فى البز ، ولو اتجر أهل النار لاتجروا فى الصرف [3] » وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع : الخرز ، والتجارة ، والحمل ، والخياطة ، والحذو ، والقصارة ، وعمل الخفاف وعمل الحديد ، وعمل المغازل ، ومعالجة صيد البر والبحر ، والوراقة : قال عبد الوهاب الوراق . قال لى أحمد بن حنبل : ما صنعتك ؟ قلت : الوراقة . قال : كسب طيب ، ولو كنت صانعا بيدى لصنعت صنعتك ، ثم قال لى : لا تكتب إلا مواسطة ، واستبق الحواشى وظهور الأجزاء . وأربعة من الصناع موسومون عند الناس بضعف الرأى : الحاكة ، والقطانون ، والمغازليون ، والمعلمون . ولعل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان ، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل ، كما أن مخالطة العقلاء تزيد فى العقل . وعن مجاهد : أن مريم عليها السلام مرت فى طلبها لعيسى عليه السلام بحاكة ، فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق ، فقالت : اللهم انزع البركة من كسبهم ، وأمتهم فقراء ، وحقرهم فى أعين الناس ، فاستجيب دعاؤها . وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات كغسل الموتى ودفنهم ، وكذا الأذان وصلاة التراويح ، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه ، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع ، فإن هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للآخرة ، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك .

الثالث ، أن يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المساجد . قال الله تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وقال الله تعالى ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فينبغى أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد . كان عمر رضى الله عنه يقول للتجار : اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعده لدنياكم . وكان صالحو السلف يجعلون أول

---

(١) حديث النهى عن كسر الدينار والدرهم ، رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . زاد الحاكم : أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ، ويكسر الدينار فيجعل ذهبا . وضعفه ابن حبان . (٢) حديث « خير تجارتكم البز ، وخير صناعتكم الخرز » لم أقف له على إسناد ، وذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب . (٣) حديث « لو اتجر أهل الجنة لاتجروا فى البز ، ولو اتجر أهل النار لاتجروا فى الصرف » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف . وروى أبو يعلى والعقيلى فى الضعفاء الشطر الأول من حديث أبى بكر الصديق .

النهار وآخره للآخرة والوسط للتجارة ، ولم يكن يبيع الهريسة والرءوس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة ، لأنهم كانوا فى المساجد بعد . وفى الخبر « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفيها فى أول النهار وفى آخره ذكر الله وخير : كفر الله عنهما ما بينهما من سيئ الأعمال [(١)] » وفى الخبر « تلتقى ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وجئناهم وهم يصلون ؛ فيقول الله سبحانه وتعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لهم [(٢)] » ثم مهما سمع الأذان فى وسط النهار للأولى والعصر ، فينبغى أن لايعرج على شغل ، وينزعج عن مكانه ، ويدع كل ما كان فيه ، فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام فى أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها ، ومهما لم يحضر الجماعة عصى عند بعض العلماء . وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة ، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت فى أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم . وقد جاء فى تفسير قوله تعالى ﴿ لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ﴾ أنهم كانوا حدادين وخرازين ؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أوغرز الإشفى فسمع الأذان لم يخرج الإشفى من المغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة . الرابع . أن لايقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله سبحانه فى السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح ، فذكر الله فى السوق بين الغافلين أفضل . قال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل خلف الفارين ، وكالحى بين الأموات » وفى لفظ آخر « كالشجرة الخضراء بين الهشيم » وقال صلى الله عليه وسلم « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة [(٣)] » وكان ابن عمر وسالم بن عبد الله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر . وقال الحسن : ذاكر الله فى السوق يجىء يوم القيامة له ضوء كضوء القمر ، وبرهان كبرهان الشمس . ومن استغفر الله فى السوق غفر الله له بعدد أهلها . وكان عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق قال : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاطت به السوق ، اللهم إنى أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة . وقال أبو جعفر الفرغانى : كنا يوما عند الجنيد ، فجرى ذكر ناس يجلسون فى المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويعيبون من يدخل السوق ؛ فقال الجنيد : كم ممن هو فى السوق حكمه أن يدخل المسجد ؟ ويأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه ، وإنى لأعرف رجلا يدخل السوق ورده كل يوم ثلثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة . قال : فسبق إلى وهمى أنه يعنى نفسه ، فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم فى الدنيا ؛ فإن من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة ، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد ، وإنما النجاة بالتقوى . قال صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت [(٤)] » فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجردين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال ، وبه تكون حياتهم وعيشتهم ، إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم . وقد قيل : من أحب الآخرة عاش ، ومن أحب الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش .

---

(١) حديث « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفى أول النهار وآخره ذكر وخير كفر الله ما بينهما من سيئ الأعمال » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بمعناه . (٢) حديث « تلتقى ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله وهو أعلم : كيف تركتم عبادى ؟ .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الغداة وصلاة العصر ... الحديث » . (٣) حديث « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ... الحديث » تقدم فى الأذكار .

(٤) حديث « اتق الله حيثما كنت » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وصححه .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج ، وبأن يركب البحر فى التجارة ، فهما مكروهان ، يقال إنّ من ركب البحر فقد استقصى فى طلب الرزق . وفى الخبر « لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو [١] » وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما يقول : لاتكن أوّل داخل فى السوق ولا آخر خارج منها ، فإنّ بها باض الشيطان وفرّخ . روى عن معاذ بن جبل وعبدالله بن عمر : أنّ إبليس يقول لولده زلنبور : سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق ، زين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والخيانة ، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها . وفى الخبر « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أوّلهم دخولا وآخرهم خروجا [٢] » وتمام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته ، فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة هكذا كان صالحو السلف ، فقد كان منهم من إذا ربح دانقا انصرف قناعة به . وكان حماد بن سلمة يبيع الخز فى سفط بين يديه ، فكان إذا ربح حبتين رفع سفطه وانصرف . وقال إبراهيم بن بشار : قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : أمر اليوم أعمل فى الطين فقال : يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته ! أما رأيت حريصا محروما وضعيفا مرزوقا ؟ فقلت : إن لى دانقا عند البقال ؛ فقال عز على بك ، تملك دانقا وتطلب العمل ؟ ! وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر ، ومنهم بعد العصر ، ومنهم من لا يعمل فى الأسبوع إلا يوما أو يومين وكانوا يكتفون به .

السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتى قلبه ، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه ، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة « وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه سلم لبن ، فقال « من أين لكم هذا ؟ » فقالوا : من الشاة ، فقال « ومن أين لكم هذه الشاة ؟ » فقيل : من موضع كذا ، فشرب منه ثم قال « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحا [٣] » وقال « إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم [٤] ﴾ فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد ، لأن ما وراء ذلك يتعذر . وسنبين فى كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ، فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه [٥] ، وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله ، وكذا الأجناد والظلمة لايعاملهم ألبتة ولايعامل أصحابهم وأعوانهم ، لأنه معين بذلك على الظلم . وحكى عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور . قال : فوقع فى نفسى من ذلك شيء ـ وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الإسلام ، ولكن كان الأمير الذى تولى فى محلته من الظلمة . قال : فسألت سفيان رضى الله

---

(١) حديث « لاتركب البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو ، وقيل إنه منقطع .
(٢) حديث « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجا » تقدم صدر الحديث فى الباب السادس من العلم . وروى أبو نعيم فى كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس « أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجا » . (٣) حديث سؤاله عن اللبن والشاة ، وقوله « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيبا ولا نعمل إلا صالحا » رواه الطبرانى من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف .
(٤) حديث « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .
(٥) حديث : كان لايسأل عن كل مايحمل اليه . رواه أحمد من حديث جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاة ... الحديث ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقمة فلم يستطع أن يسيغها ، فقال : هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها ... الحديث ، وله من حديث أبي هريرة : كان إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه . الحديث ، وإسنادهما جيد . وفى هذا أنه كان لايسأل عما أتي به من عند أهله ، والله أعلم .

عنه فقال : لا تكن عونا لهم على قليل ولا كثير ؛ فقلت : هذا سور فى سبيل الله للمسلمين ! فقال نعم ، ولكن أقل مايدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفوك أجرك ؛ فتكون قد أحببت بقاء من يعصى الله . وقد جاء فى الخبر « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه [1] » وفى الحديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق [2] » وفى حديث آخر « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام [3] » ودخل سفيان على المهدى وبيده درج أبيض ، فقال : ياسفيان أعطنى الدواة حتى أكتب ، فقال : أخبرنى أى شىء تكتب ، فإن كان حقا أعطيتك . وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طينا ليختم به الكتاب ، فقال : ناولنى الكتاب أولا حتى أنظر مافيه ، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة ومعاملتهم أشد أنواع الإعانة : فينبغى أن يجتنبها ذوو الدين ماوجدوا إليه سبيلا . وبالجملة فينبغى أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامل ومن لايعامل ، وليكن من يعامله أقل ممن لايعامله فى هذا الزمان . قال بعضهم : أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول : من ترون لى أن أعامل من الناس فيقال له : عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون : عامل من شئت إلا فلانا وفلانا ثم أتى زمان آخر فكان يقال : لاتعامل أحدا إلا فلانا وفلانا ، وأخشى أن يأتى زمان يذهب هذا أيضا . وكأنه قد كان الذى كان يحذر أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

السابع : ينبغى أن يراقب جميع مجارى معاملته مع واحد من معامليه ، فإنه مراقب ومحاسب ، فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب فى كل فعلة وقولة إنه لم أقدم عليها ؟ ولأجل ماذا ؟ فإنه يقال : إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئا وقفة ، ويحاسب عن كل واحد فهو محاسب على عدد من عامله . قال بعضهم : رأيت بعض التجار فى النوم ، فقلت : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : نشر على خمسين ألف صحيفة ، فقلت : هذه كلها ذنوب ، فقال ، هذه معاملات الناس بعدد كل إنسان عاملته فى الدنيا : لكل إنسان صحيفة مفردة فيمابينى وبينه من أول معاملته إلى آخرها فهذا ما على المكتسب فى عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين ، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين ، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين ، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر فى الباب الخامس كان من الصديقين والله أعلم بالصواب .

تم كتاب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنه

---

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه » لم أجده مرفوعا ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب الصمت من قول الحسن ، وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب فى آفات اللسان . (٢) حديث « ان الله ليغضب اذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا فى الصمت ، وابن عدى فى الكامل ، وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « من وقر صاحب بدعة ... الحديث » رواه ابن عدى من حديث عائشة ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزى : كلها موضوعة .

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من طين لازب وصلصال ، ثم ركب صورته فى أحسن تقويم وأتم اعتدال ، ثم غذاه فى أول نشوه بلبن استصفاه من بين فرث ودم سائغا كالماء الزلال ، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعى الضعف والانحلال ، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال ، وهزم بكسرها جند الشيطان المتشمر للإضلال ، ولقد كان يجرى من ابن آدم مجرى الدم السيال ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال ، إذ كان لا يبذرقه إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال ؛ فبقى لما زمت بزمام الحلال خائبا خاسرا ماله من ناصر ولا وال . والصلاة على محمد الهادى من الضلال وعلى آله خير آل ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقد قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم [1] » رواه ابن مسعود رضى الله عنه ، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهما ، وأثقلها على الجوارح فعلا ، ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا ، وصار غموض علمه سببا لاندراس عمله ، إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود ، وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات ، والحشيش النابت فى الموات ، وما عداه فقد أخبثته الأيدى العادية ، وأفسدته المعاملات الفاسدة ، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع فى المحرمات ؛ فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا ، ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا ، وهيهات هيهات ، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ! ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات . ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها ، واستطار فى الخلق شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ، ولا يخرجه التضييق عن حيز الإمكان .

ونحن نوضح ذلك فى سبعة أبواب : (الباب الأول) فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . (الباب الثانى) فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام . (الباب الثالث) فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها فى الحلال والحرام . (الباب الرابع) فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية (الباب الخامس) فى إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم . (الباب السادس) فى الدخول على السلاطين ومخالطتهم . (الباب السابع) فى مسائل متفرقة .

كتاب الحلال والحرام

(١) حديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » تقدم فى الزكاة دون قوله « على كل مسلم » وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « واجب على كل مسلم » وإسناده ضعيف .

الباب الأول : فى فضيلة الحلال ومذمة الحرام

وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل . وقيل : إن المراد به الحلال . وقال تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ ثم قال ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ ثم قال ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ﴾ ثم قال ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله ، وفى آخره متعرضا للنار ، والآيات الواردة فى الحلال والحرام لاتحصى . وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم [1] » قال بعض العلماء : أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحدا .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء [2] » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه [3] » وفى رواية « زهده الله فى الدنيا » وروى : أن سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له : أطب طعمتك تستجب دعوتك [4] » ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال « رب أشعث أغبر مشرد فى الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، يرفع يديه فيقول : يارب يارب ، فأنى يستجاب لذلك [5] » وفى حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل [6] » فقيل : الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوبا

---

(١) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » تقدم فى العلم . (٢) حديث « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة « من سعى على عياله فنى سبيل الله » ولأبى منصور فى مسند الفردوس « من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مسئلة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين » وإسنادهما ضعيف . (٣) حديث « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى أيوب « من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ولابن عدى نحوه من حديث أبى موسى ، وقال : حديث منكر . (٤) حديث . أن سعدا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له « أطب طعمتك تستجب دعوتك » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه . (٥) حديث « رب أشعث أغبر مشرد فى الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ... الحديث . (٦) حديث ابن عباس « ان لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل » لم أقف له على أصل ؛ ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود « من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة ... الحديث » وهو منكر .

بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شىء [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها فى طلب الحلال [٤] » روى هذا مرفوعا وموقوفا على بعض الصحابة أيضا . وقال صلى الله عليه وسلم « من أمسى وانيا من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه فى النار [٦] » وقال عليه السلام « خير دينكم الورع [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « من لقى الله ورعا أعطاه الله ثواب الإسلام كله [٨] » ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه : وأما الورعون فأنا أستحى أن أحاسبهم . وقال صلى الله عليه وسلم « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية فى الإسلام [٩] » وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه «المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت صدرت بالسقم [١٠] » ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان ، فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع . وقال الله عز وجل ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ﴾ الآية . وفى الحديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار [١١] » وقد ذكرنا جملة من الأخبار فى كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال .

وأما الآثار : فقد ورد أن الصديق رضى الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال : تكهنت لقوم فأعطونى ، فأدخل أصابعه فى فيه وجعل يقىء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء [١٢] . وفى بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : أوعلمتم . أن الصديق

---

(١) حديث « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فى ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شىء » رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٢) حديث « كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به » أخرجه الترمذى من حديث كعب بن عجرة وحسنه ، وقد تقدم (٣) حديث « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر . قال ابن العربى فى عارضة الأحوذى شرح الترمذى : إنه باطل لم يصح ولا يصح .
(٤) حديث « العبادة عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى طلب الحلال » رواه أبو منصور الديلمى من حديث أنس ، إلا أنه قال « تسعة منها فى الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال » وهو منكر . (٥) حديث « من أمسى وانيا من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس « من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وفيه ضعف . (٦) حديث « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه فى النار » رواه أبو داود فى المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلا . (٧) حديث « خير دينكم الورع » تقدم فى العلم . (٨) حديث « من لقى الله ورعا أعطاه ثواب الإسلام كله » لم أقف له على أصل . (٩) حديث « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية فى الإسلام » رواه أحمد والدارقطنى من حديث عبد الله بن حنظلة وقال : « ستة وثلاثين » ورجاله ثقات ، وقيل : عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعا ، وللطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس « ثلاثة وثلاثين » وسنده ضعيف . (١٠) حديث أبى هريرة « المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، والعقيلى فى الضعفاء وقال : باطل لا أصل له . (١١) حديث « من اكتسب مالا من حرام فان تصدق به لم يقبل منه » وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار » رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ؛ ولابن حبان من حديث أبى هريرة « من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه » . (١٢) حديث : أن أبابكر شرب لبنا من كسب عبده ثم سأله فقال : تكهنت لقوم فأعطونى فأدخل أصبعه فى فيه وجعل يقىء ، وفى بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال : أو ماعلمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيبا . رواه البخارى من حديث عائشة : كان لأبى بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوما بشىء فأكل منه أبو بكر ؛ فقال له الغلام : أتدرى ماهذا؟ فقال : وماهو ؟ قال : كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية . فذكره ، دون المرفوع منه ، فلم أجده .

لايدخل جوفه إلا طيبا ؛ وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطا ، فأدخل أصبعه وتقيأ . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة ، هو الورع . وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنه : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ماأدرك من أدرك إلا من كان يعقل مايدخل جوفه . وقال الفضيل : من عرف مايدخل جوفه كتبه الله صديقا ، فانظر عند من تفطر يامسكين . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : لم لاتشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لوكان لى دلو شربت منه . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه : من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لايطهره إلا الماء ، والذنب لايكفره إلا الحلال . وقال يحيى بن معاذ الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانه لقم الحلال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لايقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام ، وقال سهل التسترى : لايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت . وقال : من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالا ولا يعمل إلا فى سنة أو ضرورة . ويقال : من أكل الشبهة أربعين يوما أظلم قلبه ، وهو تأويل قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال ابن المبارك : رد درهم من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف ، حتى بلغ إلى ستمائة ألف . وقال بعض السلف : إن العبد يأكل أكله فيتقلب قلبه ، فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبدا . وقال سهل رضى الله عنه : من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم . ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات وقال بعض السلف : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ماسلف من ذنوبه ، ومن أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر . وروى فى آثار السلف أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء : تفقدوا منه ثلاثا ، فإن كان معتقدا لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق ، وإن كان سيء الطعمة فعن الهوى ينطق ، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه . وفى الأخبار المشهورة عن على عليه السلام وغيره : إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب . وزاد آخرون : وشبهتها عتاب . وروى أن بعض الصالحين دفع طعاما إلى بعض الأبدال فلم يأكل ؛ فسأله عن ذلك فقال : نحن لانأكل إلا حلالا ، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكاشف الملكوت ونشاهد الآخرة ، ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا ؛ فقال له الرجل : فإنى أصوم الدهر وأختم القرآن فى كل شهر ثلاثين مرة ، فقال له البدل : هذه الشربة التى رأيتنى شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين ختمة فى ثلثمائة ركعة من أعمالك ، وكانت شربته من لبن ظبية وحشية . وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة ، فهجره أحمد إذ سمعه يقول : إنى لاأسأل أحدا شيئا ، ولو أعطانى الشيطان شيئا لأكلته ، حتى اعتذر يحيى وقال : كنت أمزح ، فقال : تمزح بالدين ؛ أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ وفى الخبر : أنه مكتوب فى التوراة « من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أى أبواب النيران أدخله » وعن على رضى الله عنه أنه لم يأكل بعد قد قتل عثمان ونهب الدار طعاما إلا مختوما حذرا من الشبهة . واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة ، فذكروا الرطب ، فقال وهيب ؛ هو من أحب الطعام إلى ، إلا أنى لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها ، فقال له

ابن المبارك : إن نظرت فى مثل هذا ضاق عليك الخبز . قال : وما سببه ؟ قال : إن أصول الضياع قد اختلط بالصوافى ، فغشى على وهيب ؛ فقال سفيان : قتلت الرجل ؛ فقال ابن المبارك : ما أردت إلا أن أهوّن عليه ؛ فلما أفاق قال : لله على أن لا آكل خبزا أبدا حتى ألقاه . قال : فكان يشرب اللبن ، قال فأتته أمه بلبن فسألها فقالت : هو من شاة بنى فلان ، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم فذكرت : فلما أدناه من فيه قال : بقى أنها من أين كانت ترعى ؟ فسكتت ، فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين ؛ فقالت أمه : اشرب فإن الله يغفر لك ؛ فقال ، ما أحب أن يغفر لى وقد شربته فأنال مغفرته بمعصيته . وكان بشر الحافى رحمه الله من الورعين ؛ فقيل له : من أين تأكل ، فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك . وقال : يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

أصناف الحلال ومداخله

اعلم أنّ تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه ، ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها ؛ فأما من يتوسع فى الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه فى كتب الفقه .

ونحن الآن نشير إلى مجامعه فى سياق تقسيم : وهو أنّ المال إنما يحرم إما لمعنى فى عينه أو لخلل فى جهة اكتسابه .

القسم الأول : الحرام لصفة فى عينه كالخمر والخنزير وغيرهما

وتفصيله أنّ الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما ، أو من النبات ، أو من الحيوانات .

أما المعادن : فهى أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها ، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل ، وفى بعضها ما يجرى مجرى السم ، والخبز لو كان مضرا لحرم أكله ، والطين الذى يعتاد أكله لايحرم إلا من حيث الضرر . وفائدة قولنا : إنه لايحرم مع أنه لا يؤكل ، أنه لو وقع شىء منها فى مرقة أو طعام مائع لم يصر به محرّما .

وأما النبات : فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة ؛ فمزيل العقل : البنج والخمر وسائر المسكرات ، ومزيل الحياة ؛ السموم ؛ ومزيل الصحة : الأدوية فى غير وقتها ، وكأنّ مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات ؛ فإن الذى لا يسكر منها أيضا حرام مع قلته لعينه ولصفته ، وهى الشدّة المطربة . وأما السم فإذا خرج عن كونه مضرا لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم

وأما الحيوانات : فتنقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل ، وتفصيله فى كتاب الأطعمة ، والنظر يطول فى تفصيله ، لاسيا فى الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر ، وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحا شرعيا روعى فيه شروط الذابح والآلة والذبح ، وذلك مذكور فى كتاب الصيد والذبائح ؛ وما لم يذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام ، ولا يحل إلا ميتتان : السمك والجراد ، وفى معناهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن ، فإنّ الاحتراز منهما غير ممكن ؛ فأما إذا أفردت وأكلت فحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة : لاسبب فى تحريمها إلا الاستقذار ، ولو لم يكن لكان لا يكره ، فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار ، فيكره أكله ، كما لو جمع المخاط وشربه كره

ذلك ، وليست الكراهة لنجاستها فإنّ الصحيح أنها لاتنجس بالموت ، إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمقل الذباب فى الطعام إذا وقع فيه (١) ، وربما يكون حارا ويكون ذلك سبب موته ، ولو تهرت نملة أو ذبابة فى قدر لم يجب إراقتها ، إذ المستقذر هو جرمه إذا بقى له جرم ، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة ، وهذا يدل على أنّ تحريمه للاستقذار ، ولذلك نقول : لو وقع جزء من آدمى ميت فى قدر ولو وزن دانق حرم الكل لالنجاسته ، فإنّ الصحيح أن الآدمى لاينجس بالموت ، ولكن لأنّ أكله محرّم احتراما لا استقذارا . وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها ، بل تناول النجاسه مطلقا محرّم ، ولكن ليس فى الأعيان شىء محرّم نجس إلا من الحيوانات . وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج ، فإنّ نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه لكونه فى مظنة التشوّف ، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أوجزء من نجاسة جامدة فى مرقة أوطعام أودهن حرم أكل جميعه ، ولايحرم الانتفاع به لغير الأكل ، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس ، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها ، فهذه مجامع ما يحرم لصفة فى ذاته .

القسم الثانى : مايحرم لخلل فى جهة إثبات اليد عليه

وفية يتسع النظر فنقول ؛ أخذالمال إما أن يكون باختيار المالك أوبغير اختياره فالذى يكون بغير اختياره كالإرث ، والذى يكون باختياره إما أن لايكون من مالك كنيل المعادن ، أو يكون من مالك ، والذى أخذ من مالك فإما أن يؤخذ قهرا أو يؤخذ تراضيا ، والمأخوذ قهرا إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم ، أولاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبةعليهم ، والمأخوذ تراضيا إماأن يؤخذبعوض كالبيع والصداق والأجرة ، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية ، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام :

الأوّل : ما يؤخذ من غير مالك : كنيل المعادن ، وإحياء الموات ، والاصطياد ، والاحتطاب ، والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش ، فهذا حلال بشرطأن لايكون المأخوذمختصا بذى حرمةمن الآدميين ، فإذا انفكمن الاختصاصات ملكها آخذها . وتفصيل ذلك فى كتاب إحياء الموات .

الثانى : المأخوذة قهرا ممن لاحرمة لهوهو الفىءوالغنيمة وسائرأموال الكفاروالمحاربين ، وذلك حلال للسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر لهحرمة وأمان وعهد . وتفصيل هذه الشروط فى كتاب السير من كتاب الفىء والغنيمة وكتاب الجزية .

الثالث : مايؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فيؤخذ دون رضاه ، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذىبه استحقاقهواقتصر على القدرالمستحق ، واستوفاه ممن يملك الاستيفاءمن قاض أو سلطان أو مستحق : وتفصيل ذلك فى كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات ، إذ فيها النظر فى صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق ، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذحلالا .

الرابع : مايؤخذ تراضيا بمعاوضة ، وذلك حلال إذا روعى شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين : أعنى الإيجاب والقبول ، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة . وبيان ذلك فى كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكتابة والصداق

(١) حديث الأمر بأن يمقل الذباب فى الطعام إذا وقع فيه . رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

وسائر المعاوضات .

الخامس : مايؤخذ عن رضا من غير عوض ، وهو حلال إذا روعى فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره وذلك مذكور فى كتاب الهبات والوصايا والصدقات .

السادس . ما يحصل بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجبا ، وذلك مذكور فى كتاب الوصايا والفرائض : فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أومأنا إلى جملتها ليعلم المريد أنه إن كانت طعمته متفرقة لا من جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور ؛ فكل ما يأكله من جهة من الجهات ينبغى أن يستفتى فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل ، فإنه كما يقال للعالم : لم خالفت علمك ؟ يقال للجاهل : لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم ؟

درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث ، لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفى من بعض ، وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول : بعضها حار فى الدرجة الأولى كالسكر ، وبعضها حار فى الثانية كالفانيذ ، وبعضها حار فى الثالثة كالدبس ، وبعضها حار فى الرابعة كالعسل . كذلك الحرام بعضه خبيث حار فى الدرجة الأولى ، وبعضه فى الثانية أو الثالثة أو الرابعة : وكذا الحلال تتفاوت درجات صفاته وطيبه ، فلنقتد بأهل الطب فى الاصطلاح على أربع درجات تقريبا . وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر ، إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر ، فإنّ من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر ، وكذا غيره ، فلذلك نقول : الورع عن الحرام على أربع درجات :

الأولى : ورع العدول ، وهو الذى يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه : وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتى يرخص فى التناول بناء على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة ، فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو فى الدرجة الثانية .

الثالثة : مالا تحرمه الفتوى ولا شبهة فى حله ، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم ، وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس ، وهذا ورع المتقين . قال صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس [1] » .

الرابعة : مالا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدى إلى ما به بأس ، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله ، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية ، والامتناع منه ورع الصدّيقين ، فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد .

وأما الحرام الذى ذكرناه فى الدرجة الأولى وهو الذى يشترط التورع عنه فى العدالة واطراح سمة الفسق ، فهو أيضا على درجات فى الخبث ، فالمأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلا فيما لا يجوز فيه المعاطاة حرام ، ولكن ليس فى درجة المغصوب على سبيل القهر ، بل المغصوب أغلظ ، إذ فيه ترك طريق الشرع فى الاكتساب وإيذاء الغير ،

---

(١) حديث « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » رواه ابن ماجه ، وقد تقدم .

وليس فى المعاطاة إيذاء ، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط ، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا ، وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده فى بعض المناهى ، على ما سيأتى فى كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة ، بل المأخوذ ظلما من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق ، لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذى ، فهذه دقائق فى تفاصيل الخبائث لاينبغى أن يذهل عنها ، فلولا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار وإذا عرفت مثارات التغليظ فلا حاجة إلى حصره فى ثلاث درجات أو أربعة ، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهى ، وهو طلب حصر فيما لاحاصر له ، ويدلك على اختلاف درجات الحرام فى الخبث ما سيأتى فى تعارض المحذورات وترجيح بعضها على بعض ، حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإنا نقدم بعض هذا على بعض .

أمثلة الدرجات الأربع فى الورع وشواهدها

أما الدرجة الأولى : وهى ورع العدول ، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه مما يدخل فى المداخل الستة التى ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط ، فهو الحرام المطلق الذى ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية ، وهو الذى نريده بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد .

وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها : كل شبهة لاتوجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها كما سيأتى فى باب الشبهات إذ من الشبهات مايجب اجتنابها فتلحق بالحرام ، ومنها مايكره اجتنابها فالورع عنها ورع الموسوسين ، كمن يمتنع من الاصطياد خوفا من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه ، وهذا وسواس . ومنها . مايستحب اجتنابها ولايجب وهو الذى ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى مالا يريبك »[1] ، ونحمله على نهى التنزيه ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كل ما أصميت ودع ماأنميت »[2] ، والإنماء : أن يجرى الصيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتا ، إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، والذى نختاره كما سيأتى : أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين . وقوله « دع مايريبك » أمر تنزيه ، إذ ورد فى بعض الروايات « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثرا غير سهمك » ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم فى الكلب المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » على سبيل التنزيه لأجل الخوف . إذ قال لأبى ثعلبة الخشنى « كل منه » فقال : وإن أكل منه ؟ فقال « وإن أكل »[3] ، وذلك لأن حالة أبى ثعلبة وهو فقير مكتسب لاتحتمل هذا الورع ، وحال عدى كان يحتمله . يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك فى قلبه شىء ، مع اتفاق العلماء على أنه لابأس به ، فأمثلة هذه الدرجة نذكرها فى التعرض لدرجات الشبهة فكل ماهو شبهة لايجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة

أما الدرجة الثالثة : وهى ورع المتقين ، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وسلم « لايبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس » وقال عمر رضى الله عنه . كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام .

---

(١) حديث « دع مايريبك إلى مالا يريبك » أخرجه النسائى والترمذى والحاكم وصححاه من حديث الحسن بن على .

(٢) حديث « كل ماأصميت ودع ما أنميت » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقى موقوفا عليه وقال : إن المرفوع ضعيف . (٣) حديث قال لأبى ثعلبة « كل منه » ؛ فقال : وإن أكل ؟ قال : « وإن أكل » رواه أبو داود من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ومن حديث أبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادهما جيد ، والبيهقى موقوفا عليه وقال : إن المرفوع ضعيف .

وقيل : إن هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال أبو الدرداء : إن من تمام التقوى أن يتقى العبد فى مثال ذرة حتى يترك بعض مايرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار ، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان ، فحملها إليه ، فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتحرز، فكل مايستوفيه يأخذه بنقصان حبة ومايعطيه يوفيه بزيادة حبة ، ليكون ذلك حاجزا من النار ، ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس ، فإن ذلك حلال فى الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وترك الورع : فمن ذلك ماروى عن على بن معبد أنه قال : كنت ساكنا فى بيت بكراء ، فكتبت كتابا وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه ، ثم قلت : الحائط ليس لى ، فقالت لى نفسى : وماقدر تراب من حائط ، فأخذت من التراب حاجتى ، فلما نمت فإذا أنا بشخص واقف يقول : ياعلى بن معبد ، سيعلم غدا الذى يقول : وما قدر تراب من حائط ، ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته ، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله . ومن ذلك ماروى أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين فقال : وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت امرأته عاتكة : أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أعاد القول فأعادت الجواب ، فقال : لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين . وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين . فأخذ بأنفه حتى لاتصيبه الرائحة وقال : وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه . وأخذ الحسن رضى الله عنه تمرة من تمر الصدقة وكان صغيرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كخ كخ [1] » أى ألقها . ومن ذلك ماروى بعضهم أنه كان عند محتضر ، فمات ليلا فقال : أطفئوا السراج قد حدث للورثة حق فى الدهن . وروى سليمان التيمى عن نعيمة العطارة قالت : كان عمر رضى الله عنه يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبيعه ، فباعتنى طيبا فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها ، فتعلق بأصبعها شىء منه فقالت به هكذا بأصبعها ، ثم مسحت به خمارها فدخل عمر رضى الله عنه فقال : ماهذه الرائحة ؟ فأخبرته فقال : طيب المسلمين تأخذينه ، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جرة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه فى التراب ثم يشمه ، ثم يصب الماء ثم يدلكه فى التراب ويشمه ، حتى لم يبق له ريح ، قالت : ثم اتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شىء بأصبعها ، فأدخلت أصبعها فى فيها ثم مسحت به التراب ، فهذا من عمر رضى الله عنه ورع التقوى ، لخوف أداء ذلك إلى غيره ، وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين ، ولكن أتلفه عليها زجرا وردعا واتقاء من أن يتعدى الأمر إلى غيره . ومن ذلك ماسئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون فى المسجد يحمل مجمرة لبعض السلاطين ويبخر المسجد بالعود فقال : ينبغى أن يخرج من المسجد ، فإنه لاينتفع من العود إلا برائحته ، وهذا قد يقارب الحرام ، فإن القدر الذى يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد وقد يبخل به ، فلا يدرى أنه يتسامح به أم لا . وسئل أحمد بن حنبل عمن سقطت منه ورقة فيها أحاديث، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردها ؟ فقال : لابل يستأذن ثم يكتب ، وهذا أيضا قد يشك فى أن صاحبها هل يرضى به أم لا ، فما هو فى محل الشك والأصل تحريمه فهو حرام ، وتركه من الدرجة الأولى . ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها ـ وإن كانت الزينة مباحة فى نفسها . وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبتية فقال : أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو ، وأما من أراد الزينة فلا ، ومن ذلك أن عمر

---

(١) حديث : أخذ الحسن بن على تمرة من الصدقة وكان صغيراً فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كخ كخ ، ألقها » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

رضى الله عنه لما ولى الخلافة كانت له زوجة يحبها ، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة فى باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وهذا من ترك مالا بأس به مخافة مما به البأس : أى مخافة من أن يفضى إليه ، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات ، حتى استكثار الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرك الشهوة ، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره ، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم ، مباح فى نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله ، ويلزم منه ارتكاب مالا يحل فى تحصيله ، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة فى وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولا ثم بالحذر ثانيا ، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر ، وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر ، حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال : أما تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لافائدة فيه ، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها ، واستدل بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه سئل أن يكحل المسجد ، فقال « لا ، عريش كعريش موسى [1] » وإنما هو شىء مثل الكحل يطلى به ، فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا : من رق ثوبه رق دينه ، وكل ذلك خوفا من سريان اتباع الشهوات فى المباحات إلى غيرها ، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعودت الشهوة المسامحة استرسلت ، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله ، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب فى الدرجة الثالثة ، وهو كل مالا يخاف أداؤه إلى معصية ألبتة .

أما الدرجة الرابعة : وهو ورع الصديقين ، فالحلال عندهم كل مالا تتقدم فى أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه فى الحال والمآل قضاء وطر ، بل يتناول لله تعالى فقط وللتقوى على عبادته واستبقاء الحياة لأجله ، وهؤلاء هم الذين يرون كل ماليس لله حراما ، امتثالا لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وهذه رتبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم ، المنفردين لله تعالى بالقصد ، ولاشك فى أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية ؛ فمن ذلك ماروى عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لو تمشيت فى الدار قليلا حتى يعمل الدواء ، فقال . هذه مشية لاأعرفها ، وأنا أحاسب نفسى منذ ثلاثين سنة ، فكأنه لم تحضره نية فى هذه المشية تتعلق بالدين ، فلم يجز الإقدام عليها . وعن سرى رحمه الله أنه قال : انتهيت إلى حشيش فى جبل وماء يخرج منه ، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء ، وقلت فى نفسى : إن كنت قد أكلت يوما حلالا طيبا فهو هذا اليوم ، فهتف بى هاتف : إن القوة التى أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هى ؟ فرجعت وندمت . ومن هذا ماروى عن ذى النون المصرى أنه كان جائعا محبوسا ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاما على يد السجان ، فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال : جاءنى على طبق ظالم ، يعنى أن القوة التى أوصلت الطعام إلى لم تكن طيبة ، وهذه الغاية القصوى فى الورع . ومن ذلك أن بشرا رحمه الله كان لايشرب الماء من الأنهار التى حفرها الأمراء ، فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه وإن كان الماء مباحا فى نفسه فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام ؛ ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال ، وقال لصاحبه . أفسدته إذ سقيته من الماء الذى يجرى فى النهر الذى حفرته الظلمة ، وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء ، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء. وكان بعضهم إذا مر فى طريق الحج لم يشرب من المصانع التى عملتها الظلمة ، مع أن الماء مباح ، ولكنه بقى محفوظا

(١) حديث : أنه سئل أن يكحل المسجد فقال « لا ، عريش كعريش موسى » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث أبى الدرداء وقال : غريب .

بالمصنع الذى عمل به بمال حرام ، فكأنه انتفاع به . وامتناع ذى النون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله ؛ لأن يد السجان لاتوصف بأنها حرام ، بخلاف الطبق المغصوب إذا حمل عليه ، ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام ، ولذلك تقيأ الصديق رضى الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شربه عن جهل ، وكان لايجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين ، ومن ذلك ؛ التورّع من كسب حلال اكتسبه خياط يخيط فى المسجد ؛ فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط فى المسجد . وسئل عن المغازلى يجلس فى قبة فى المقابر فى وقت يخاف من المطر ؛ فقال. إنما هى من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها . وأطفأ بعضهم سراجا أسرجه غلامه من قوم يكره مالهم . وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقى فيه جمر من حطب مكروه . وامتنع بعضهم من أن يحكم شسع نعله فى مشعل السلطان ، فهذه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة

والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ماليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه ، أواتصل بسببه مكروه وبينهما درجات فى الاحتياط ، فكلما كان العبد أشدّ تشديدا على نفسه كان أخف ظهرا يوم القيامة وأسرع جوازا على الصراط ، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وتتفاوت المنازل فى الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات فى الورع ، كما تتفاوت درجات النار فى حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام فى الخبث ، وإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص ، والسلام .

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لايعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه [1] » فهذا الحديث نص فى إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم المتوسط الذى لايعرفه كثير من الناس وهو الشبهة ، فلا بدّ من بيانها وكشف الغطاء عنها ، فإنّ مالا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل ، فنقول :

الحلال المطلق : هو الذى خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ماتطرّق إليه تحريم أو كراهية ، ومثاله الماء الذىيأخذه الإنسان من المطرقبل أنيقع على ملكأحد يكون هوواقفا عند جمعهوأخذهمن الهواء فى ملك نفسه أو فى أرض مباحة .

والحرام المحض : هو ما فيه صفة محرّمة لايشك فيها ، كالشدّة المطربة فى الخمر ، والنجاسة فى البول . أو حصل بسبب منهى عنه قطعا كالمحصل بالظلم والربا ونظائره ؛ فهذان طرفان ظاهران ، ويلتحق بالطرفين ماتحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ؛ فإنّ صيد البر والبحر حلال ؛ ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم افلتت منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه فى يده وخريطته ؛ فمثل هذا الاحتمال لايتطرّق إلى ماء المطر المختطف من الهواء ، ولكنه فى معنى ماء المطر ،

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات

(١) حديث « الحلال بين والحرام بين ... الحديث » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير .

والاحتراز منه وسواس ، ولنسم هذا الفن ورع الموسوسين ، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرد لا دلالة عليه ، نعم لو دل عليه دليل : فإن كان قاطعا كما لو وجد حلقة فى أذن السمكة ، أو كان محتملا كما لو وجد على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كيا لا يقدر عليه إلا بعد الضبط . ويحتمل أن يكون جرحا ، فهذا موضع الورع ، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم فى نفسه ، ومن هذا الجنس من يستعير دارا فيغيب عنه المعير فيخرج ويقول : لعله مات وصار الحق للوارث ؛ فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك إذ الشبهة المحذورة ما تنشأ من الشك ، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشآ عن سببين ، فما لا سبب له لا يثبت عقده فى النفس حتى يساوى العقد المقابل له فيصير شكا ، ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثا أو أربعا أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة . ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التى أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثا أو أربعا لم يتحقق قطعا أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جوز أن تكون ثلاثة ، وهذا التجويز لا يكون شكا ، إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثا ، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب فهذا يلتحق بالحلال المطلق . ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محلل ولكن لم يدل عليه سبب ، كمن فى يده طعام لمورثه الذى لا وارث له سواه ، فغاب عنه فقال : يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلى فآكله ، فإقدامه عليه إقدام على حرام محض ، لأنه احتمال لا مستند له ، فلا ينبغى أن يعد هذا النمط من أقسام الشبهات ، وإنما الشبهة نعنى بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين . ومثارات الشبهة خمسة :

المثار الأول : الشك فى السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلا ، أو غلب أحد الاحتمالين ، فإن تعادل الاحتمالان كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد ، فلنقسمه إلى أقسام أربعة :

القسم الأول : أن يكون التحريم معلوما من قبل ثم يقع الشك فى المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها . مثاله أن يرمى إلى صيد فيجرحه ويقع فى الماء فيصادفه ميتا ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرام لأن الأصل التحريم ، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك فى الطريق فلا يترك اليقين بالشك ، كما فى الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها ، وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم « لا تأكله فلعله قتله غير كلبك [1] » فلذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بشىء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو [2] . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أرق ليلة فقالت له بعض نسائه : أرقت يارسول الله ، فقال ؛ أجل ، وجدت تمرة فخشيت أن تكون من الصدقة [3] » وفى رواية « فأكلتها فخشيت أن تكون من الصدقة » ومن ذلك ما روى عن بعضهم أنه قال : « كنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع ، فنزلنا منزلا

(١) حديث « لا تأكله فلعله قتله غير كلبك » قاله لعدى بن حاتم متفق عليه من حديثه . (٢) حديث « كان إذا أتى بشىء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة . (٣) حديث : أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه . أرقت يارسول الله ! فقال : « أجل ، وجدت تمرة فأكلتها ، فخشيت أن تكون من الصدقة » أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن .

كثير الضباب فبينا القدور تغلى بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة مسخت من بنى إسرائيل أخشى أن تكون هذه » فأكفأنا القدور [1] ، ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه لم يمسخ الله خلقا فجعل له نسلا[2] . وكان امتناعه أولا لأن الأصل عدم الحل وشك فى كون الذبح محللا .

القسم الثانى أن يعرف الحل ويشك فى المحرم ، فالأصل الحل وله الحكم . كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر ، فقال أحدهما : إن كان هذا غرابا فامرأتى طالق ، وقال الآخر : إن لم يكن غرابا فامرأتى طالق . والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم فى واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما ، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما حتى يحلا لسائر الأزواج ، وقد أمر مكحول بالاجتناب فى هذه المسئلة ، وأفتى الشعبى بالاجتناب فى رجلين كانا قد تنازعا ، فقال أحدهما للآخر : أنت حسود ، فقال الآخر : أحسدنا زوجته طالق ثلاثا ، فقال الآخر : نعم ، وأشكل الأمر ، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح ، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له ، إذ ثبت فى المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك ، وهذا فى معناه .

* فإن قلت : وأى مناسبة بين هذا وبين ذلك ؟ فاعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة ، فإنه لازم من غير ذلك فى بعض الصور ، فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك فى نجاسته جاز له أن يتوضأ به ، فكيف لا يجوز أن يشربه ؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك ، إلا أن ههنا دقيقة : وهو أن وزان الماء أن يشك فى أنه طلق زوجته أم لا ؟ فيقال : الأصل أنه ما طلق ووزان مسئلة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين ويشتبه عينه ؛ فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد ، لأنه قابل يقين النجاسة بيقين الطهارة فيبطل الاستصحاب ، فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجين قطعا ، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة ، فنقول : اختلف أصحاب الشافعى فى الإناءين على ثلاثة أوجه ، فقال قوم : يستصحب بغير اجتهاد ، وقال قوم : بعد حصول يقين النجاسة فى مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يغنى الاجتهاد . وقال المقتصدون : يجتهد وهو الصحيح ، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول إن كان غرابا فزينب طالق ، وإن لم يكن فعمرة طالق ، فلا جرم لا يجوز له غشيانهما بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد ، إذ لا علامة ، ونحرمهما عليه لأنه لو وطئهما كان مقتحما للحرام قطعا ، وإن وطئ إحداهما وقال : أقتصر على هذه ، كان متحكما بتعيينها من غير ترجيح . فنى هذا افترق حكم شخص واحد أو شخصين ، لأن التحريم على شخص واحد متحقق ، بخلاف الشخصين . إذ كل واحد شك فى التحريم فى حق نفسه .

فإن قيل : فلو كان الإناءان لشخصين فينبغى أن يستغنى عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإنائه لأنه تيقن طهارته وقد شك الآن فيه ، فنقول . هذا محتمل فى الفقه والأرجح فى ظنى المنع ، وإن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده ، لأن صحة الوضوء لا تستدعى ملكا ، بل وضوء الإنسان بماء غيره فى رفع الحدث كوضوئه بماء نفسه ، فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر ، بخلاف الوطء لزوجة الغير فإنه لا يحل ، ولأن للعلامات مدخلا فى النجاسات ، والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق ، فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة ، وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه ، وقد استقصيناه فى كتب الفقه ، ولسنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها .

---

(١) حديث : كنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابنا الجوع ، فنزلنا منزلا كثير الضباب ، فبينا القدور تغلى بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة من بنى إسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه » فأكفأنا القدور . أخرجه ابن حبان والبيهقى من حديث عبد الرحمن وحسنه . وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف قال البخارى : وحديث ثابت أصح . (٢) حديث : أنه لم يمسخ الله خلقا فجعل له نسلا . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

القسم الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ماأوجب تحليله بظن غالب ، فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ؛ فهذا ينظر فيه ؛ فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذى نختار فيه أنه يحل ، واجتنابه من الورع . مثاله : أن يرمى إلى صيدفيغيب ثم يدركه ميتا وليس عليه أثرسوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، فإن ظهرعليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول . وقد اختلف قول الشافعى رحمه الله فى هذا القسم ، والمختار أنه حلال ، لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق ، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه ، فطريانه مشكوك فيه ، فلا يدع اليقين بالشك .

فإن قيل : فقد قال ابن عباس : كل ما أصميت ودع ماأنميت . وروت عائشة رضى الله عنها : أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتى عرفت فيها سهمى ، فقال « أصميت أو أنميت ؟ » فقال : بل أنميت ، قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذى خلقه ، فلعله أعان على قتله شىء [1] » وكذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم فى كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه [2] » والغالب أن الكلب المعلم لا يسىء خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه ، ومع ذلك نهى عنه ، وهذا التحقيق : وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب ، وتمام السبب بأن يفضى إلى الموت سليما من طريان غيره عليه ، وقد شك فيه فهو شك فى تمام السبب حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة ، فلا يكون هذا فى معنى ماتحقق موته على الحل فى ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه ؟ فالجواب : أن نهى ابن عباس ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمول على الورع والتنزيه ، بدليل ماروى فى بعض الروايات أنه قال « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثرا غير سهمك [3] » وهذا تنبيه على المعنى الذى ذكرناه : وهو أنه إن وجد أثرا آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن ، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب ، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس المظنون والعمومات المظنونة وغيرها . وأما قول القائل : إنه لم يتحقق موته على الحل فى ساعة فيكون شكا فى السبب فليس كذلك ، بل السبب قد تحقق ، إذ الجرح سبب الموت ، فطريان الغير شك فيه ، ويدل على صحة هذا : الإجماع ، على أن من جرح وغاب فوجد ميتا فيجب القصاص على جارحه ، بل إن لم يغب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط فى باطنه ، كما يموت الإنسان فجأة ، فينبغى أن لا يجب القصاص إلا بحز الرقبة والجرح المذفف ، لأن العلل القاتلة فى الباطن لا تؤمن ، ولأجلها يموت الصحيح فجأة ، ولا قائل بذلك ، مع أن القصاص مبناه على الشبهة ، وكذلك جنين المذكاة حلال ، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح ، وغرة الجنين تجب ، ولعل الروح لم ينفخ فيه ، أو كان قدمات قبل الجناية بسبب آخر ، ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة ، فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه ، فكذلك هذا . وأما قوله صلى الله عليه وسلم «أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه» فللشافعى رحمه الله

---

(١) حديث عائشة أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتى عرفت فيها سهمى ، فقال « أصميت أو أنميت ؟ » قال : بل أنميت . قال « إن الليل خلق من خلق الله لايقدر قدره إلا الذى خلقه لعله أعان على قتله شىء » ليس هذا من حديث عائشة ، وإنما رواه موسى بن أبى عائشة عن أبى رزين قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بصيد فقال : إنى رميته من الليل فأعيانى ، ووجدت سهمى فيه من الغد وعرفت سهمى ؟ فقال « الليل خلق من خلق الله عظيم ، لعله أعانك عليها شىء » رواه أبو داود فى المراسيل ، والبيهقى وقال : أبو رزين اسمه مسعود ، والحديث مرسل ، قاله البخارى . (٢) حديث : قال لعدى فى كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » متفق عليه من حديثه .

(٣) حديث « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثر سهم غيرك » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم .

فى هذه الصورة قولان ، والذى نختاره الحكم بالتحريم : لأن السبب قد تعارض ، إذ الكلب المعلم كالآلة والوكيل يمسك على صاحبه فيحل ، ولو استرسل المعلم بنفسه فأخذ ، لم يحل ؛ لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه ، ومهما انبعث بإشارته ثم أكل دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آلته وأنه يسعى فى وكالته ونيابته ، ودل أكله آخرا على أنه أمسك لنفسه لا لصاحبه ، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال ، والأصل التحريم فيستصحب ، ولا يزال بالشك ، وهو كما لو وكل رجلا بأن يشترى له جارية فاشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها ، لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعا ، ولا دليل مرجح والأصل التحريم ؛ فهذا يلتحق بالقسم الأول لا بالقسم الثالث .

القسم الرابع : أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعا ، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم ، إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن ، ومثاله أن يؤدى اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجبت منع الوضوء به ، وكذا إذا قال : إن قتل زيد عمراً أو قتل زيد صيدا منفردا بقتله فامرأتى طالق فجرحه وغاب عنه فوجد ميتا : حرمت زوجته ، لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق ، وقد نص الشافعى رحمه الله أن من وجد فى الغدران ماء متغيرا احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة فيستعمله ، ولو رأى ظبية بالت فيه ثم وجده متغيرا واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يجز استعماله ، إذ صار البول المشاهد دلالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ماذكرناه وهذا فى غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشىء ، فأما غلبة الظن لا من جهة علامة تتعلق بعين الشىء فقد اختلف قول الشافعى رضى الله عنه فى أن أصل الحل هل يزال به إذ اختلف قوله فى التوضؤ من أوانى المشركين ، ومدمن الخمر والصلاة فى المقابر المنبوشة والصلاة مع طين الشوارع ، أعنى المقدار الزائد على مايتعذر الاحتراز عنه ، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر ، وهذا جار فى حل الشرب من أوانى مدمن الخمر والمشركين ، لأن النجس لا يحل شربه ، فإذن مأخذ النجاسة والحل واحد ، فالتردد فى أحدهما يوجب التردد فى الآخر ، والذى أختاره أنّ الأصل هو المعتبر ، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل ، وسيأتى بيان ذلك وبرهانه فى المثار الثانى للشبهة وهى شبهة الخلط ، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك فى طريان محرّم عليه أو ظن ، وحكم حرام شك فى طريان محلل عليه أو ظن ، وبان الفرق بين ظن يستند إلى علامة فى عين الشىء وبين مالا يستند إليه ، وكل ما حكمنا فى هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال فى الدرجة الأولى والاحتياط تركه ، فالمقدم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى فى فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة ، إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس فإنّ الاحتراز عنه ليس من الورع أصلا .

المثار الثانى للشبهة : شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز ، والخلط لا يخلو : إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما ، أو بعدد محصور ، فإن اختلط بمحصور فلا يخلو : إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط المائعات . أو يكون اختلاط استبهام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعبد والدور والأفراس ، والذى يختلط بالاستبهام فلا يخلو : إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض ، أو لا يقصد كالنقود ،

فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن تستبهم العين بعدد محصور ، كما لو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات ، أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة ، أو يتزوج إحدى الأختين ثم تلتبس ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع ، لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات فى هذا ، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد ، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ، ولا فرق فى هذا بين أن يثبت حل فيطرأ اختلاط بمحرم ، كما لو أوقع الطلاق على إحدى زوجتين فى مسئلة الطائر ، أو يختلط قبل الاستحلال كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة ، وهذا قد يشكل فى طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب . وقد نبهنا على وجه الجواب : وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب وجانب الحظر أغلب فى نظر الشرع ؛ فلذلك ترجح ، وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور . فإن اختلط حلال محصور بحرام غير محصور ، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى .

القسم الثانى : حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن ، وهذا لا يجوز ان يعلل بكثرة الحلال ، إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا قائل به ، بل العلة الغلبة والحاجة جميعا ، إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح ، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعا لا يلزمه ترك الشراء والأكل ؛ فإن ذلك حرج ، وما فى الدين من حرج . ويعلم هذا بأنه لما سرق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مجن [1] وغل واحد فى الغنيمة عباءة [2] ، لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء فى الدنيا ، وكذلك كل ما سرق ، وكذلك كان يعرف أن فى الناس من يربى فى الدراهم والدنانير . وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية [3] . وبالجملة إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصى ، وهو محال . وإذا لم يشترط هذا فى الدنيا لم يشترط أيضا فى بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين ، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين ، إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ، ولا يتصور الوفاء به فى ملة من الملل ولا فى عصر من الأعصار .

* فإن قلت : فكل عدد محصور فى علم الله ، فما حد المحصور ؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضا إن تمكن منه * فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب . فنقول : كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدهم بمجرد النظر ، كالألف والألفين فهو غير محصور ، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور ، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن ، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب ، فإن الإثم حزاز القلوب . وفى مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك [4] » وكذا الأقسام الأربعة التى ذكرناها فى المثال الأول يقع فيها أطراف متقابلة واضحة فى النفى والإثبات وأوساط متشابهة ، فالمفتى يفتى بالظن ، وعلى المستفتى أن يستفتى

---

(١) حديث سرقه المجن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقا فى مجن قيمته ثلاثة دراهم . (٢) حديث « غل واحد من الغنائم عباءة » رواه البخارى من حديث عبد الله ابن عمرو ، واسم الغال : كركرة . (٣) حديث : ان فى الناس من كان يربى فى الدراهم والدنانير ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم بالكلية ، هذا معروف ، وسيأتى حديث جابر بعده بحديث . وهو يدل على ذلك .

(٤) حديث « استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك وأفتوك » قاله لوابصة تقدم .

قلبه ، فإن حاك فى صدره شىء فهو الإثم بينه وبين الله ، فلا ينجيه فى الآخرة فتوى المفتى ، فإنه يفتى بالظاهر والله يتولى السرائر .

القسم الثالث : أن يختلط حرام لايحصر بحلال لايحصر ، كحكم الأموال فى زماننا هذا ، فالذى يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور ، وقد حكمنا ثم بالتحريم ، فلنحكم هنا به : والذى نختاره خلاف ذلك : وهو أنه لايحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شىء بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، فإن لم يكن فى العين علامة تدل على أنه من الحرام فتركه ورع وأخذه حلال لايفسق به آكله : ومن العلامات : أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، إلى غير ذلك من العلامات التى سيأتى ذكرها ، ويدل عليه الأثر والقياس ، فأما الأثر . فما علم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده ، إذ كانت أثمان الخمور ودراهم الربا من أيدى أهل الذمة مختلطة بالأموال ، وكذا غلول الأموال ، وكذا غلول الغنيمة ، ومن الوقت الذى نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال « أول ربا أضعه ربا العباس [1] » ماترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمور وسائر المعاصى ، حتى روى أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم باع الخمر ، فقال عمر رضى الله عنه . لعن الله فلانا هو أول من سن بيع الخمر ، إذلم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يجر فى النار عباءة قد غلها [2] » ، وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزات من خرز اليهود لاتساوى درهمين قد غلها [3] ، وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع فى السوق بسبب نهب المدينة وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام ، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشارا إليه فى الورع ، والأكثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة فى أيام الظلمة . ومن أوجب مالم يوجبه السلف الصالح وزعم أنه تفطن من الشر مالم يتفطنوا له فهو موسوس مختل العقل ولو جاز أن يزاد عليهم فى أمثال هذا لجاز مخالفتهم فى مسائل لامستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم « إن الجدة كالأم فى التحريم وابن الابن كالابن وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه فى القرآن ، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة . وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم . واما القياس فهو أنه لوفتح هذا الباب لانسدّ باب جميع التصرفات وخرب العالم إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه فى شروط الشرع فى العقود ويؤدى ذلك لامحالة إلى الاختلاط .

« فإن قيل . فقد نقلتم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضب وقال « أخشى أن يكون مما مسخه الله » وهو فى اختلاط غير المحصور ؟ قلنا يحمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهى دلالة فى عين المتناول .

« فإن قيل هذا معلوم فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها ولكن كانت هى الأقل بالإضافة إلى الحلال فماذا تقول فى زماننا وقد صار الحرام أكثر مافى أيدى الناس لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فمن أخذ مالا لم يشهد

---

(١) حديث « أول ربا أضعه ربا العباس » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) حديث « إن فلانا فى النار يجر عباءة قد غلها » رواه البخارى من حديث عبدالله بن عمر ، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٣) حديث : قتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزا من خرز اليهود لايساوى درهمين قد غله . رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهنى .

عليه علامة معينة فى عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا ؟ فأقول ليس ذلك حراما وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلا .

ولكن الجواب عن هذا أن قول القائل أكثر الأموال حرام فى زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ماليس بنادر فهو الأكثر ويتوهمون أنهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة قليل وهو النادر وكثير وأكثر ومثاله أن الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجد كثيراً وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة ، ومعلوم أن المرض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضاً بل هو كثير . والفقيه إذا تساهل وقال المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غالط والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر . فإذا فهم هذا فنقول : قول القائل الحرام أكثر باطل لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلمة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدى التى تكررت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم . أما المستند الأول فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر فإنهم الجندية إذ لايظلم إلا ذو غلبة وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشيرهم ، فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلا فيملك إقليما يجمع ألف ألف وزيادة ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره ، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلا مع تنعمهم فى المعيشة ولايتصور ذلك بل كفاية الواحد كان منهم تجمع من ألف من الرعية وزيادة ، وكذا القول فى السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل . وأما المستند الثانى وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهى أيضاً كثيرة وليست بالأكثر إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذى يعامل بالربا أو غيره فلو عددت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان بوهمه فى البلد مخصوصا بالمجانة والخبث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر ، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيراً فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولايخلو هو أيضا عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها وهذا مقطوع به لمن تأمله وإنما غلب هذا على النفوس لاستكثار النفوس الفساد واستبعادها إياه واستعظامها له وإن كان نادراً حتى ربما يظن أن الربا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة . وأما المستند الثالث وهو أخيلها أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان ، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد ، فإذا نظرنا إلى شاة مثلا وهى تلد فى كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من خمسمائة ولايخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غصب أو معاملة فاسدة فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا ؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلا إلى أول زمان الشرع ولايكون هذا حلالا مالم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالا وأما المعادن فهى التى يمكن نيلها على سبيل الابتداء وهى أقل الأموال وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير ولا تخرج إلا من دار الضرب وهى فى أيدى الظلمة مثل المعادن فى أيديهم يمنعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال الشاقة ثم يأخذونها منهم غصبا فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لايتطرق إليه عقد فاسد

ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب فى دار الضرب ولابعده فى معاملات الصرف والربا بعيد نادر أو محال فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحشيش فى الصحارى الموات والمفاوز والحطب المباح ثم من يحصله لايقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشترى به الحبوب والحيوانات التى لاتحصل إلا بالاستنبات والتوالد فيكون قد بذل حلالا فى مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تخيلا . والجواب أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النمط الذى نحن فيه والتحق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب إذ الأصل فى هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضى عليها وقد عارضه سبب غالب يخرجه عن الصلاح له فيضاهى هذا محل القولين للشافعى رضى الله عنه فى حكم النجاسات ، والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة فى الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشوارع طاهر وأن الوضوء من أوانى المشركين جائز وأن الصلاة فى المقابر المنبوشة جائزة فنثبت هذا أولا ثم نقيس ما نحن فيه عليه ، ويدل على ذلك توضؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوضؤ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولايحترزون عما نجسه شرعنا ، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم ؟ بل نقول نعلم قطعا أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة ، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة ، وأن الطهارة فى تلك الثياب محال أو نادر، بل نقول نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يغسلونه مع أنه يداس بالبقر والحيوانات وهى تبول عليه وتروث وقلما يخلص منها وكانوا يركبون الدواب وهى تعرق وما كانوا يغسلون ظهورها مع كثرة تمرغها فى النجاسات بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لاتزيلها وما كان يحترز عنها ، وكانوا يمشون حفاة فى الطرق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون فى الطين من غير حاجة ، وكانوا لايمشون فى البول والعذرة ولايجلسون عليهما ويستنزهون منه ، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة الكلاب وأبوالها وكثرة الدواب وأرواثها ؟ ولا ينبغى أن تظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف فى مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل فى عصرهم أو كانت تحرس من الدواب هيهات فذلك معلوم استحالته بالعادة قطعا فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين . فأما الظن الغالب الذى يستثار من رد الدراهم إلى مجارى الأحوال فلم يعتبروه وهذا عند الشافعى رحمه الله وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضئون من الحياض وفيها المياه القليلة والأيدى المختلفة تغمس فيها على الدوام ، وهذا قاطع فى هذا الغرض ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحق حكم الحل بحكم النجاسة .

* فإن قيل : لا يجوز قياس الحل على النجاسة إذ كانوا يتوسعون فى أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرز فكيف يقاس عليها ؟ قلنا إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معصية وهى عماد الدين فبئس الظن بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها وإنما تسامحوا حيث لم يجب وكان فى محل تسامحهم هذه الصورة التى تعارض فيها الأصل والغالب فبان أن الغالب الذى لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح ، وأما تورعهم فى الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك مالا بأس به مخافة ما به بأس لأن أمر الأموال مخوف والنفس تميل إليها إن لم تضبط عنها ، وأمر الطهارة ليس كذلك فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر وهو الطهور المحض ، فالافتراق فى ذلك لايقدح فى الغرض الذى أجمعنا فيه ، على أنا نجرى فى هذا المستند

على الجواب الذى قدمنا فى المستندين السابقين ولا نسلم ماذكروه من أنّ الأكثر هو الحرام لأنّ المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون فى أصوله حرام بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض ، وكما أن الذى يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى مالا يغصب ولا يسرق فهكذا كل مال فى كل عصر وفى كل أصل فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول فى كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل ، ولسنا ندرى أنّ هذا الفرع بعينه من أى القسمين ؟ فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يزيد المغصوب بالتوالد يزيد غير المغصوب بالتوالد فيكون فرع الأكثر لامحالة فى كل عصر وزمان أكثر ، بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام ؟ وليتفهم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فإنه مزلة قدم وأكثر العلماء يغلطون فيه فكيف العوام ؟ هذا فى المتولدات من الحيوانات والحبوب فأما المعادن فإنها مخلاة مسبلة يأخذها فى بلاد الترك وغيرها من شاء ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر ، ومن حاز من السلاطين معدنا فظلمه يمنع الناس منه فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة والصحيح أنه يجوز الاستنابة فى إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها ، فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل فى ملك المستقى له واستحق الأجرة فكذلك النيل فإذا فرعنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة ثم لايوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظالما ببقاء الأجرة فى ذمته ، وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذى غصبه وظلم به الناس بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الردىء ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ماسلموه إليهم إلا شيئا قليلا يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز ، وإن فرض دنانير مضروبة من دنانير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة ، نعم السلطان يظلم أجراء دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان فما يأخذه السلطان عوض من حشمته وذلك من باب الظلم وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة مايخرج منه من المائة واحد وهو عشر العشير فكيف يكون هو الأكثر ؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم وتشمر لتزيينها جماعة ممن رق دينهم حتى قبحوا الورع وسدوا بابه واستقبحوا تمييز من يميز بين مال ومال وذلك عين البدعة والضلال .

* فإن قيل : فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فماذا تقولون فيه إذا لم يكن فى العين المتناولة علامة خاصة ؟ فنقول الذى نراه أن تركه ورع وأن أخذه ليس بحرام لأن الأصل الحل ولايرفع إلا بعلامة معينة كما فى طين الشوارع ونظائرها . بل ازيد وأقول : لوطبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق فى الدنيا حلال لكنت أقول نستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف ونقول ماجاوز حدّه انعكس إلى ضدّه فهما حرم الكل حل الكل : وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاحتمالات خمسة (أحدها) أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم . (الثانى) أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسدّ الرمق يزجون عليها أياما إلى الموت . (الثالث) أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة . (الرابع) أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة . (الخامس)

أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة . أما الأول فلا يخفى بطلانه . وأما الثانى فباطل قطعا لأنه إذا اقتصر الناس على سدّ الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيابالكلية ـ وفى خراب الدنياخراب الدين لأنها مزرعة الآخرة ـ وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا ليتم بها مصالح الدين . وأما الثالث وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والتراضى وكيفما اتفق فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد فتمتدّ الأيدى بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام عليه وعلينا وذواليد له قدر الحاجة فقط فإن كان هو محتاجا فإنا أيضا محتاجون وإن كان الذى أخذته فى حق زائدا على الحاجة فقد سرقته ممن هو زائد على حاجته يومه وإذا لم يراع حاجة اليوم والسنة فما الذى نراعى وكيف يضبط ؟ وهذا يؤدى إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد ، فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو أن يقال كل ذى يد على ما فى يده وهو أولى به لايجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصبا بل يؤخذ برضاه والتراضى هو طريق الشرع وإذا لم يجز إلا بالتراضى فللتراضى أيضا منهاج فى الشرع تتعلق به المصالح ، فإن لم يعتبر فلم يتعين أصل التراضى وتعطل تفصيله ؟ وأما الاحتمال الخامس وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدى فهو الذى نراه لائقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة ولكن لاوجه لإيجابه على الكافة ولا لإدخاله فى فتوى العامة لأن أيدى الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة فى أيدى الناس وكذا أيدى السراق ، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول لا حق له إلا فى قدر الحاجة وأنا محتاج ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدى الملاك ويستوعب بها أهل الحاجة ويدر على الكل الأموال ـ يوما فيوما أو سنة فسنة ـ وفيه تكليف شطط وتضييع أموال ، أما تكليف الشطط فهو أنّ السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق بل لايتصوّر ذلك أصلا وأما التضييع فهو أن مافضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغى أن يلقى فى البحر أويترك حتى يتعفن فإن الذى خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد عن قدر توسع الخلق وترفههم فكيف على قدر حاجتهم ؟ ثم يؤدى ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة نيطت بالغنى عن الناس إذا أصبح الناس لايملكون إلا قدر حاجتهم وهو فى غاية القبح ، بل أقول لو ورد نبى فى مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ويمهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراضى وسائر الطرق ويفعل مايفعله لو وجد جميع الأموال حلالا من غير فرق . وأعنى بقولى : يجب عليه ، إذا كان النبى ممن بعث لمصلحة الخلق فى دينهم ودنياهم إذ لا يتم الصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه فإن لم يبعث للصلاح لم يجب هذا . ونحن نجوز أن يقدر الله سببا يهلك به الخلق عن آخرهم فيفوت دنياهم ويضلون فى دينهم فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويميت من يشاء ويحيى من يشاء ولكنا نقدر الأمر جاريا على ماألف من سنة الله تعالى فى بعثة الأنبياء لصلاح الدين والدنيا . ومالى أقدر هذا وقد كان ماأقدره ، فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبدة الأوثان وإلى مصدقين له قد شاع الفسق فيهم كما شاع فى زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة . والأموال كانت فى أيدى المكذبين له والمصدقين ، أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام وأما المصدقون فكانوا يتساهلون مع أصل التصديق

كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما . وعفا صلى الله عليه وسلم عما سلف ولم يتعرض له وخصص أصحاب الأيدى بالأموال ومهد الشرع وما ثبت تحريمه فى شرع لا ينقلب حلالا لبعثة رسول ولا ينقلب حلالا بأن يسلم الذى فى يده الحرام ، فإنا لا نأخذ فى الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أومال ربا فقد كانت أموالهم فى ذلك الزمان كأموالنا الآن ، وأمر العرب كان أشد لعموم النهب والغارة فيهم . فبان أن الاحتمال الرابع متعين فى الفتوى ، والاحتمال الخامس هو طريق الورع ، بل تمام الورع الاقتصار فى المباح على قدر الحاجة وترك التوسع فى الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة . ونحن الآن نتكلم فى الفقه المنوط بمصالح الخلق وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذى لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم فإن ذلك طلب ملك كبير فى الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدنيئة والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يبطل ببطلانه الملك أيضا . فالمحترفون إنما سخروا لينتظم الملك للملوك وكذلك المقبلون على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لذوى الدين وهو ملك الآخرة ولولاه لما سلم لذوى الدين أيضا دينهم فشرط سلامة الدين لهم أن يعرض الأكثرون عن طريقهم ويشتغلوا بأمور الدنيا وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ .

* فإن قيل : لاحاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لايبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولاشك فى أن البعض حرام وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر ، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلى ولكن لا بد من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسلة وما ذكرتموه من التقسيمات كلها مصالح مرسلة فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولا بالاتفاق فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسلة ؟

* فأقول : إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفينا برهانا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب وإن قدر زمان يكون الأكثر الحرام هو فيحل التناول أيضا فبرهانه ثلاثة أمور : (الأول) التقسيم الذى حصرناه وأبطلنا منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجرى فيما إذا كان الكل حراما كان أحرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل ، وقول القائل ؛ هو مصلحة مرسلة : هوس ، فإن ذلك إنما تخيل من تخيله فى أمور مظنونة وهذا مقطوع به فإنا لانشك فى أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة ، وليس بمظنون ولا شك فى أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الحشيش والصيد مخرب للدنيا أولا وللدين بواسطة الدنيا ثانيا ، فما لايشك فيه لايحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بآحاد الأشخاص . (البرهان الثانى) أن يعلل بقياس محرر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأقيسة الجزئية عليه وإن كانت الجزئيات مستحقرة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلى الذى هو ضرورة النبى لو بعث فى زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لخرب العالم ، والقياس المحرر الجزئى هو أنه قد تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التى ليست محصورة فيحكم بالأصل لا بالغالب قياسا على طين الشوارع وجرة النصرانية وأوانى المشركين ، وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة ، وقولنا : انقطعت العلامات المعينة ، احتراز عن الأوانى التى يتطرق الاجتهاد إليها . وقولنا : ليست محصورة ، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة بالذكية والأجنبية .

* فإن قيل : كون الماء طهورا مستيقن وهو الأصل ومن يسلم أن الأصل فى الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم ؟
* فنقول : الأمور لا تحرم لصفة فى عينها حرمة الخمر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضى كما خلق الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك فى بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضى بدخول الظلم عليها كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول النجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين . والجواب الثانى : أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب . ومن ادعى عليه ملك فى يده فالقول أيضا قوله إقامة لليد مقام الاستصحاب فكل ما وجد فى يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة .

(البرهان الثالث) هو أن كل مادل على جنس لا يحصر ولايدل على معين لم يعتبر وإن كان قطعا فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى وبيانه أن ماعلم أنه ملك زيد لحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه ولو علم أن له مالكا فى العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصد لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة ولو دل على أن له مالكا محصورا فى عشرة مثلا أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة فالذى يشك فى أن له مالكا سوى صاحب اليد أم لا ؟ لا يزيد على الذى يتيقن قطعا أن له مالكا ولكن لا يعرف عينه فليجز التصرف فيه بالمصلحة والمصلحة ما ذكرناه فى الأقسام الخمسة ، فيكون هذا الأصل شاهدا له وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكه يصرفه السلطان إلى المصالح ومن المصالح الفقراء وغيرهم ، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه فلو سرقه منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه فى ملك الغير ليس ذلك إلا لحكمنا بأن المصلحة تقتضى أن ينتقل الملك إليه ويحل له فقضينا بموجب المصلحة .

* فإن قيل : ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان ؟ فنقول : والسلطان لم يجوز له التصرف فى ملك غيره بغير إذنه لاسبب له إلا المصلحة وهو أنه لو ترك لضاع فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم والصرف إلى مهم أصلح من التضييع فرجح عليه والمصلحة فيما يشك فيه ولا يعلم تحريمه أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدى إذ انتزاعها بالشك وتكليفهم الاقتصار على الحاجة يؤدى إلى الضرر الذى ذكرناه ، وجهات المصلحة تختلف فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبنى بذلك المال قنطرة وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفما دارت ، وكذلك الفتوى فى مثل هذا تدور على المصلحة وقد خرج من هذا أن الخلق غير مأخوذين فى أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة فى ملك الأعيان كما لم يؤاخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلمهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ، ولافرق بين عين المالك وبين عين الأملاك فى هذا المعنى فهذا بيان شبهة الاختلاط ولم يبق إلا النظر فى امتزاج المائعات والدراهم والعروض فى يد مالك واحد وسيأتى بيانه فى باب تفصيل طريق الخروج من المظالم .

المثار الثالث للشبهة : أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما فى قرائنه وإما فى لواحقه وإما فى سوابقه أو فى عوضه وكانت من المعاصى التى لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل .

مثال المعصية فى القرائن : البيع فى وقت النداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المغصوبة والاحتطاب بالقدوم المغصوب

والبيع على بيع الغير والسوم على سومه فكل نهى ورد فى العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع ، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوما بتحريمه . وتسمية هذا النمط شبهة فيه تسامح لأن الشبهة فى غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه ههنا بل العصيان بالذبح بسكين الغير معلوم وحل الذبيحة أيضاً معلوم ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة ، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم فإن أريد بالشبهة هذا فتسمية هذا شبهة له وجه وإلا فينبغى أن يسمى هذا كراهة لا شبهة ، وإذا عرف المعنى فلا مشاحة فى الأسامى فعادة الفقهاء التسامح فى الاطلاقات . ثم اعلم أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات : الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم والأخيرة تنتهى إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بورع الموسوسين وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين ، فالكراهة فى صيد كلب مغصوب أشد منها فى الذبيحة بسكين مغصوب أو المقتنص بسهم مغصوب إذ الكلب له اختيار وقد اختلف فى أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصياد ، ويليه شبهة البذر المزروع فى الأرض المغصوبة فإن الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض فى الزرع لكان كالثمن الحرام ، ولكن الأقيس أن لا يثبت حق حبس كما لو طحن بطاحونة مغصوبة واقتنص بشبكة مغصوبة إذ لا يتعلق حق صاحب الشبكة فى منفعتها بالصيد ، ويليه الاحتطاب بالقدوم المغصوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغصوب إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة ، ويليه البيع فى وقت النداء فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه ، ولو أفسد البيع بمثله لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور أو فى ذمته مظلمة دانق فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء ، وينجر ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة وكل من فى ذمته درهم لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه ؛ إلا من حيث ورد فى يوم الجمعة نهى على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة اشد ولا بأس بالحذر منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتحرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم . وقد حكى عن بعضهم أنه اشترى شيئا من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة ، فرده خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء وهذا غاية المبالغة أنه رد بالشك . ومثل هذا الوهم فى تقدير المناهى أو المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون[1] » فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس فى زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فاطرحوه ، فكما أن الموسوس فى الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها فكذا بعض الموسوسين فى الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال .

وأما مثال اللواحق : فهو كل تصرف يفضى فى سياقه إلى معصية وأعلاه بيع العنب من الخمار وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان وبيع السيف من قطاع الطريق . وقد اختلف العلماء فى صحة ذلك وفى حل الثمن المأخوذ منه . والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغصوب والذبيحة حلال ولكنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم وليس بحرام ، ويليه فى الرتبة بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خمارا وبيع السيف ممن

(١) حديث « هلك المتنطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود ، وتقدم فى قواعد العقائد .

يغزو ويظلم أيضاً لأن الاحتمال قد تعارض . وقد كره السلف بيع السيف فى وقت الفتنة خيفة أن يشتريه ظالم فهذا ورع فوق الأول والكراهية فيه أخف ، ويليه ماهو مبالغة ويكاد يلتحق بالوسواس وهو قول جماعة أنه لاتجوز معاملة الفلاحين بآلات الحارث لأنهم يستعينون بها على الحراثة ويبيعون الطعام من الظلمة ولايباع منهم البقر والفدان وآلات الحرث وهذا ورع الوسوسة إذ ينجر إلى أن لايباع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحراثة ولايسقى من الماء العام لذلك ، وينتهى هذا إلى حد التنطع المنهى عنه . وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لابد وأن يسرف إن لم يذمه العلم المحقق ، وربما يقدم على مايكون بدعة فى الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى [1] » والمتنطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم ﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وبالجملة لاينبغى للانسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذهنه من غير سماع كان مايفسده أكثر مما يصلحه . وقد روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه أحرق كرمه خوفا من أن يباع العنب ممن يتخذه خمرا . وهذا لاأعرف له وجها إن لم يعرف هوسببا خاصا يوجب الإحراق ؟ إذ ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصحابة . ولوجاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب إلى غير ذلك من الإتلافات .

وأما المقدمات : فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات : (الدرجة العليا) التى يشتد الكراهة فيها : مابقى أثره فى المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب أو رعت فى مرعى حرام فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقى من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف ، وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجبا ، ونقل ذلك عن جماعة من السلف . وكان لأبى عبد الله الطوسى التروغندى شاة يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء ويرعاها وهو يصلى وكان يأكل من لبنها فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها فى البستان ولم يستحل أخذها .

* فإن قيل : فقد روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله أنهما اشتريا إبلا فبعثاها إلى الحمى فرعته إبلهما حتى سمنت ؛ فقال عمر رضى الله عنه : أرعيتماها فى الحمى ؟ فقالا : نعم ؟ فشاطرهما . فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريما * قلنا : ليس كذلك فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعا ولكن عمر غرمهما قيمة الكلأ ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد ، كما شاطر سعد بن أبى وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة ، وكذلك شاطر أبا هريرة رضى الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لايستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافيا على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهادا .

(الرتبة الوسطى) مانقل عن بشر بن الحارث من امتناعه عن الماء المساق فى نهر احتفره الظلمة لأن النهر موصل إليه وقد عصى الله بحفره . وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجرى فى نهر حفر ظلما وهو أرفع منه وأبلغ فى الورع . وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين فى الطرق . وأعلى من ذلك امتناع ذى النون من طعام حلال أوصل إليه على يد سجان ، وقوله : إنه جاءنى على يد ظالم ، ودرجات هذه الرتب لاتنحصر . (الرتبة الثالثة) وهى قريب من الوسواس والمبالغة : أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا أو القذف وليس هو كالوعصى بأكل

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » تقدم فى العلم .

الحرام فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحل بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس ، بخلاف أكل الحرام إذ الكفر لايتعلق بحمل الطعام وينجر هذا إلى أن لايؤخذ من يد من عصى الله ولو بغيبة أو كذبة وهو غاية التنطع والإسراف فليضبط ماعرف من ورع ذى النون وبشر بالمعصية فى السبب الموصل كالنهر وقوة اليد المستفادة بالغذاء الحرام . ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذى عمل الكوز كان قد عصى الله يوما بضرب إنسان أو شتمه لكان هذا وسواسا . ولوامتنع من لحم شاة ساقها آكل حرام فهذا أبعد من يد السجان لأن الطعام يسوقه قوة السجان والشاة تمشى بنفسها والسائق يمنعها عن العدول فى الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس . فانظر كيف تدرجنا فى بيان ما تتداعى إليه هذه الأمور . واعلم أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التى يمكن تكليف عامة الخلق بها ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ماعداه من ورع المتقين والصالحين . والفتوى فى هذا ماقاله صلى الله عليه وسلم لوابصة إذ قال « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » وعرف ذلك إذ قال « الإثم حزاز القلوب [١] » وكل ماحاك فى صدر المريد من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حزازة القلب استضربه وأظلم قلبه بقدر الحزازة التى يجدها بل لو أقدم على حرام فى علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك فى قساوة قلبه ، ولو أقدم على ماهو حلال فى فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حزازة فى قلبه فذلك يضره . وإنما الذى ذكرناه فى النهى عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافى المعتدل هو الذى لايجد حزازة فى مثل تلك الأمور فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع مايجد فى قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ فى حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه . وكذلك يشدد على الموسوس فى الطهارة ونية الصلاة فإنه إذا غلب على قلبه أن الماء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكما فى حقه وإن كان مخطئا فى نفسه ، أولئك قوم شددوا فشدد الله عليهم ، ولذلك شدد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا فى السؤال عن البقرة ولو أخذوا أولا بعموم لفظ البقرة وكل ماينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك . فلا تغفل عن هذه الدقائق التى رددناها نفيا وإثباتا فإن من لايطلع على كنه الكلام ولايحيط بمجامعه يوشك أن يزل فى درك مقاصده .

وأما المعصية فى العوض فله أيضاً درجات (الدرجة العليا) التى تشتد الكراهة فيها أن يشترى شيئا فى الذمة ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع أعنى قبل قضاء الثمن ولاهو أيضا من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، ولو لم يقضه أصلا لكان متقلدا للمظلمة بترك ذمته مرتهنة بالدين ولاينقلب ذلك حراما . فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلمة تصرفه فى الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع وإن أبراه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة لأنه يبرئه مما أخذه إبراء استيفاء ولايصلح ذلك للإيفاء . هذا حكم المشترى والآكل منه وحكم الذمة وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده لأن الذى تومئ الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كما تعين ملك المشترى ، وإنما يبطل حق حبسه إما بالإبراء

(١) حديث « الإثم حزاز القلوب » تقدم فى العلم .

أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام إذا أكله بغير إذن المرتهن ، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل ، هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه . فأما إذا وفى الثمن الحرام أولا ثم قبض فإن كان البائع عالما بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه وبقى له الثمن فى ذمته إذ ما أخذه ليس بثمن ولا يصير أكل المبيع حراما بسبب بقاء الثمن فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكانت بحيث لو علم لما رضى به ولا أقبض المبيع فحق حبسه لايبطل بهذا التلبيس فأكله حرام تحريم أكله المرهون إلى أن يبرئه أو يوفى من حلال أو يرضى هو بالحرام ويبرئ فيصح إبراؤه ولايصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم فى الدرجة الأولى من الحل والحرمة فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشتد الكراهية فيه ـ كما سبق ـ وأقوى الأسباب الموصلة الثمن ولولا الثمن الحرام لما رضى الله البائع بتسليمه إليه فرضاه لايخرجه عن كونه مكروها كراهية شديدة ولكن العدالة لاتنخرم به وتزول به درجة التقوى والورع . ولو اشترى سلطان مثلا ثوبا أو أرضا فى الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسلمه إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك فى أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف إذ وقع الشك فى تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته فى مال ذلك السلطان وما يغلب على الظن فيه وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ماينقدح فى القلب (الرتبة الوسطى) أن لا يكون العوض غصبا ولا حراما ولكن يتهيأ لمعصية ، كما لو سلم عوضا عن الثمن عنبا والآخذ شارب الخمر أو سيفا وهو قاطع طريق فهذا لايوجب تحريماً فى مبيع اشتراه فى الذمة ولكن يقتضى فيه كراهية دون الكراهية التى فى الغصب . وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضا بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره ومهما كان العوض حراما فبذله حرام وإن احتمل تحريمه ولكن أبيح بظن فبذله مكروه وعليه ينزل عندى النهى عن كسب الحجام وكراهته (١) إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح (٢) وما سبق الى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد إذ يجب طرده فى الدباغ والكناس ولا قائل به وإن قيل به فلا يمكن طرده فى القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروها وهو بدل عن اللحم واللحم فى نفسه غير مكروه ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسحه بالقطنة ، ولكن السبب أن فى الحجامة والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجها لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحدس واجتهاد وربما يظن نافعا ويكون ضارا فيكون حراما عند الله تعالى ولكن يحكم بحله بالظن والحدس . ولذلك لايجوز للفصاد فصد صبى وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه وقول طبيب ولولا أنه حلال فى الظاهر لما أعطى عليه السلام أجرة الحجام (٣) ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى . وهذا كان ينبغى أن نذكره فى القرائن المقرونة بالسبب فإنه أقرب إليه . (الرتبة السفلى) وهى درجة الموسوسين وذلك أن يحلف إنسان على

---

(١) حديث النهى عن كسب الحجام وكراهته : رواه ابن ماجه من حديث أبى مسعود الأنصارى ، والنسائى من حديث أبى هريرة باسنادين صحيحين : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ، وللبخارى من حديث أبى جحيفة : نهى عن ثمن الدم ، ولمسلم من حديث رافع بن خديج «كسب الحجام خبيث» . (٢) حديث : نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ، رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث محيصة أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى إجارة الحجام ، فنهاه عنها ، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال : أعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك . وفى رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال : ألا أطعمه أيتاما لى ؟ قال . لا ؟ قال : أفلا أتصدق به ؟ قال : لا ، فرخص له أن يعلفه ناضحه . (٣) حديث : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرة الحجام . متفق عليه من حديث ابن عباس .

أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة . وروى عن المغيرة أنه قال فى هذه الواقعة : لا يجوز ، واستشهد بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود حرّمت عليهم الخمور فباعوها وأكلوا أثمانها »(١) ، وهذا غلط لأن بيع الخمور باطل إذ لم يبق للخمر منفعة فى الشرع وثمن البيع الباطل حرام ، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هى أخته من الرضاع فتباع بجارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف فى هذا الطرف . وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدريج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر فى ثلاث أو أربع ولا فى عدد ولكن المقصود من التعديد التقريب والتفهيم .

* فإن قيل : فقد قال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه »(٢) ، ثم أدخل ابن عمر أصبعيه فى أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعته منه . قلنا ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا فى الذمة وإذا اشترى فى الذمة فقد حكمنا بالتحريم فى أكثر الصور فليحمل عليها ، ثم كم من ملك يتوعد عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرقت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالمشترى فى وقت النداء وغيره .

المثار الرابع : الاختلاف فى الأدلة

فإن ذلك كالاختلاف فى السبب لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة . والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة فهو سبب فى حق المعرفة ولم يثبت فى معرفة الغير فلا فائدة لثبوته فى نفسه وإن جرى سببه فى علم الله ، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه .

القسم الأول : أن تتعارض أدلة الشرع مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسين أو تعارض قياس وعموم . وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح فى جانب الحظر وجب الأخذ به وإن ظهر فى جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه . واتقاء مواضع الخلاف مهم فى الورع فى حق المفتى والمقلد . وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده الذى يظن أنه أفضل علماء بلده ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرائن وإن كان لا يحسن الطب . وليس للمستفتى أن ينتقد من المذاهب أوسعها عليه ؛ بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلا ، نعم إن أفتى له إمامه بشىء ولإمامه فيه مخالف فالفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب . فلقد كان المفتون يفتون بحل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعا منها وحذرا من الشبهة فيها فلنقسم هذا أيضا على ثلاث مراتب (الرتبة الأولى) ما يتأكد الاستحباب فى التورع عنه وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه . فمن المهمات التورع عن فريسة الكلب المعلم إذا أكل منها وإن أفتى المفتى بأنه حلال لأن الترجيح فيه غامض ، وقد اخترنا أن ذلك حرام وهو أقيس قولى الشافعى رحمه الله . ومهما وجد للشافعى

---

(١) حديث المغيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمور فباعوها : لم أجده هكذا ، والمعروف أن ذلك فى الشحوم ؛ ففى الصحيحين من حديث جابر « قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .

(٢) حديث « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم :.. الحديث » تقدم فى الباب قبله .

قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهما وإن أفتى المفتى بالقول الآخر . ومن ذلك الورع عن متروك التسمية وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله لأن الآية ظاهرة فى إيجابها والأخبار متواترة فيه فإنه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن الصيد « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت عليه اسم الله فكل [١] » ونقل ذلك على التكرر وقد شهر الذبح بالبسملة [٢] وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يذبح على اسم الله تعالى سمى أو لم يسم [٣] » واحتمل أن يكون هذا عاما موجبا لصرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها ويحتمل أن يخصص هذا بالناسى ويترك الظواهر ولا تأويل ، وكان حمله على الناسى ممكنا تمهيدا لعذره فى ترك التسمية بالنسيان وكان تعميمه وتأويل الآية ممكنا إمكانا أقرب رجحنا ذلك ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع فى الدرجة الأولى .

(الرتبة الثانية) وهى مزاحمة لدرجة الوسواس أن يتورع الإنسان عن أكل الجنين الذى يصادف فى بطن الحيوان المذبوح وعن الضب . وقد صح فى الصحاح من الأخبار حديث الجنين : إن ذكاته ذكاة أمه [٤] صحة لايتطرق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده وكذلك صح أنه أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] وقد نقل ذلك فى الصحيحين . وأظن أن أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغته لقال بها وإن أنصف وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطا لايعتد به ولا يورث شبهة كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد .

(الرتبة الثالثة) أن لا يشتهر فى المسألة خلاف أصلا ولكن يكون الحل معلوما بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس فى خبر الواحد فنهم من لا يقبله فأنا أتورع . فإن النقلة وإن كانوا عدولا فالغلط جائز عليهم والكذب لغرض خفى جائز عليهم ، لأن العدل أيضاً قد يكذب والوهم جائز عليه فإنه قد يسبق إلى سمعهم خلاف مايقوله القائل وكذا إلى فهمهم فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعونه من عدل تسكن نفوسهم إليه . وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة فى حق الراوى فللتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلا . وخلاف من خالف فى أخبار الآحاد غير معتد به وهو كخلاف النظام فى أصل الإجماع . وقوله إنه ليس بحجة ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبى الأب ويقول ليس فى كتاب الله ذكر إلا للبنين وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز إذ خالف النظام فيه ، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرآن إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن

---

(١) حديث « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم ، ومن حديث أبى ثعلبة الخشنى

(٢) حديث التسمية على الذبح : متفق عليه من حديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ، ليس السن والظفر »

(٣) حديث « المؤمن يذبح على اسم الله سمى أو لم يسم » قال المصنف إنه صح . قلت : لايعرف بهذا اللفظ فضلا عن صحته ؛ ولأبى داود فى المراسيل من رواية الصلت مرفوعا « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر » وللطبرانى فى الأوسط ، والدارقطنى ، وابن عدى ، والبيهقى من حديث أبى هريرة . قال رجل : يارسول الله ، الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى الله ؛ فقال « اسم الله على كل مسلم » قال ابن عدى : منكر ، والدارقطنى والبيهقى من حديث ابن عباس « المسلم يكفيه اسمه ؛ فإن نسى أن يسمى حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل » فيه محمد بن سنان ، ضعفه الجمهور . (٤) حديث « ذكاة الجنين ذكاة أمه » قال المصنف : إنه صح صحة لا يتطرق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده ، وأخذ هذا من إمام الحرمين ؛ فإنه كذا قال فى الأساليب ، والحديث رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان من حديث أبى سعيد ، والحاكم من حديث أبى هريرة وقال : صحيح الإسناد ، وليس كذلك . والطبرانى فى الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد . وقال عبد الحق : لايحتج بأسانيده كلها

(٥) حديث أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال المصنف : هو فى الصحيحين ، وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد .

العمومات لاصيغة لها وإنما يحتج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس ؛ فإذن لأطرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف فليفهم ذلك . ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع مايريبه إلى مالا يريبه وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع ولكن ينبغى أن يحفظ قلبه عن دواعى الوسواس حتى لايحكم إلا بالحق فلا ينطوى على حزازة فى مظانّ الوسواس ولا يخلو عن الحزازة فى مظانّ الكراهة ؛ وما أعز مثل هذا القلب ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله (١) .

القسم الثانى : تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة فإنه قد ينهب نوع من المتاع فى وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلا فى يد رجل من أهل الصلاح ، فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الأمران . وكذلك يخبر عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تتعارض شهادة فاسقين أوقول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب ، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف وسيأتى تفصيله فى باب التعرّف والبحث والسؤال .

القسم الثالث : تعارض الأشباه فى الصفات التى تناط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أنّ الفاضل فى الفقه داخل فيه وأنّ الذى ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لايدخل فيه وبينهما درجات لاتحصى يقع الشك فيها ، فالمفتى يفتى بحسب الظن والورع الاجتناب ، وهذا أغمض مثارات الشبهة فإنّ فيها صورا يتحير المفتى فيها تحيرا لازما لاحيلة له فيه إذ يكون المتصف بصفة فى درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لايظهر له ميله إلى أحدهما . وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين فإنّ من لاشيء له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غنى ويتصدّى بينهما مسائل غامضة كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإنّ قدر الحاجة منه لايمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب ، ويتعدّى منه النظر فى مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها فى وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها ، وكذلك فى نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لامن الخزف وكذلك فى عددها وكذلك فى قيمتها وكذلك فيما لايحتاج إليه كل يوم ومايحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء ومالا يحتاج إليه إلا فى سنين ، وشيء من ذلك لاحدّ له . والوجه فى هذا ما قاله عليه السلام « دع مايريبك إلى مالا يريبك (٢) » كل ذلك فى محل الريب إن توقف المفتى فلا وجه إلا التوقف وهو أهم مواقع الورع . وكذلك مايجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال إذ فيه طرفان يعلم أنّ أحدهما قاصر وأنّ الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال . والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها ، فما دون الرطل المكى فى اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أرطال زائد على الكفاية وما بينهما لايتحقق له حدّ . فليدع الورع ما يريبه وهذا جار فى كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب ، إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الستة فإنه لايحتمل مادونها ومافوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقديرات ، فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ فى كتاب الله وسنة رسول الله

(١) حديث : لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه وإنما قال ذلك لوابصة ، وتقدم حديث وابصة ، وروى الطبرانى من حديث واثلة أنه قال ذلك لواثلة أيضاً ، وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول . (٢) حديث « دع مايريبك إلى مالا يريبك » تقدم فى الباب قبله

صلى الله عليه وسلم إلا ويتطرق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف على الصوفية مثلا مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض فكذلك سائر الألفاظ . وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفي على الخصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ وإلا فلا مطمع في استيفائها ، فهذه اشتباهات تثور من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين ، وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يترجح جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها . فهذه مثارات الشبهات وبعضها أشد من بعض ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ مثل أن يأخذ طعاما مختلفا فيه عوضا عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبها به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها ، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوة البشر حصرها فما اتضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليجتنب فإن الإثم حزاز القلب . وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي أما حيث حرمه فيجب الامتناع . ثم لا يعول على كل قلب فرب موسوس ينفر عن كل شيء ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء ولا اعتبار بهذين القلبين وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور ، وما أعز هذا القلب في القلوب فمن لم يثق بقلب نفسه فليلتمس النور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته ، وجاء في الزبور « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : قل لبني إسرائيل إني لا أنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجلي فذاك الذي أنظر إليه وأؤيده بنصري وأباهي به ملائكتي .

الباب الثالث : في البحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإهمال ومظانها

اعلم أن كل من قدم إليك طعاما أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول : هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه . وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل مالا تتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله ، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة . ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال .

المثار الأول : أحوال المالك

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال : إما أن يكون مجهولا أو مشكوكا فيه أو معلوما بنوع ظن يستند إلى دلالة .

الحالة الأولى : أن يكون مجهولا والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه كزي الأجناد ، ولا ما يدل على صلاحه كثياب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات . فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلا لا تعرف من حاله شيئا ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول ؛ وإذا دخلت بلدة غريبا ودخلت سوقا ووجدت رجلا خبازا أو قصابا أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريبا أو خائنا ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدرى حاله ، ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان ، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدرى وبين ما يشك فيه ؛ وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك ما لا يدرى . قال يوسف بن أسباط : منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته . وتكلم جماعة في أشق الأعمال

فقالوا : هو الورع ؛ فقال لهم حسان بن أبي سنان : ماشيء عندى أسهل من الورع ، إذا حاك فى صدرى شيء تركته . فهذا شرط الورع ، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر ، فنقول : حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم إليك طعاما أو حمل إليك هدية أو اردت أن تشترى من دكانه شيئا فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلما دلالتان كافيتان فى الهجوم على أخذه . وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه وإن بعض الظن إثم . وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لاتسيء الظن به فإن أسأت الظن به فى عينه لأنك رأيت فسادا من غيره فقد جنيت عليه وأثمت به فى الحال نقدا من غير شك ، ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه . ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم فى غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون فى القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولايحترزون من الأسواق ، وكان الحرام ايضا موجودا فى زمانهم ومانقل عنهم سؤال إلا عن ريبة إذ كان صلى الله عليه وسلم لايسأل عن كل مايحمل إليه بل سأل فى أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه : أصدقة أم هدية [1] ؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن مايحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم إسلام المعطى ويده لايدلان على أنه ليس بصدقة . وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولايسأل : أصدقة أم لا [2] ؟ إذ العادة ماجرت بالتصدق بالضيافة . ولذلك دعته أم سليم [3] ودعاه الخياط [4] كما فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه وقدم إليه طعاما فيه قرع ، ودعاه الرجل الفارسى فقال عليه الصلاة والسلام أنا وعائشة » ؟ فقال : لا ، فقال : « فلا » . ثم اجابه بعد فذهب هو وعائشة يتساوقان فقرب إليهما إهالة [5] ، ولم ينقل السؤال فى شيء من ذلك ، وسأل أبو بكر رضى الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره ، وسأل عمر رضى الله عنه الذى سقاه من لبن إبل الصدقة إذ رابه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة . وهذه أسباب الريبة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بإجابته من غير تفتيش ، بل لو رأى فى داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال ؟ بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ، وازيد على هذا واقول : ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا مايدرى من اين هو فهو حسن فليتلطف فى الترك ، وإن كان لا بد له من أكله فليأكل بغير سؤال إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإيحاش وهو حرام بلا شك .

* فإن قلت : لعله لا يتأذى ؟ فأقول . لعله يتأذى فإنت تسأل حذرا من « لعل » فإن قنعت فلعل ماله حلال وليس الإثم المحذور فى إيذاء مسلم بأقل من الإثم فى أكل الشبهة والحرام ، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له ان يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الإيذاء فى ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لايدرى هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تشبث بالغيبة وإن لم يكن ذلك صريحا . وكل ذلك منهى عنه فى آية

الباب الثالث : فى البحث والسؤال

(١) حديث سؤاله فى أول قدومه الى المدينة عما يحمل اليه أصدقة أم هدية : رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام ، فسأله عنه أصدقة أم هدية ... الحديث، تقدم فى الباب قبله من حديث أبى هريرة . (٢) حديث كان يدعى الى الضيافات فيجيب ولايسأل أصدقة أم لا : هذا معروف مشهور ، من ذلك فى الصحيحين من حديث أبى مسعود الأنصارى فى صنيع أبى شعيب طعاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاه خامس خمسة (٣) حديث دعته أم سليم : متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث أنس : أن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم اليه طعاما فيه قرع : متفق عليه . (٥) حديث دعاء الرجل الفارسى فقال « أنا وعائشة ... الحديث » رواه مسلم عن أنس .

واحدة قال الله تعالى ﴿ اجتنبوا اكثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ وكم زاهد جاهل يوحش القلوب فى التفتيش ويتكلم الكلام الخشن المؤذى وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده طلبا للشهرة بأكل الحلال ، ولو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله مالا يدرى وهو غير مؤاخذ بمالا يدرى إذ لم يكن ثم علامة توجب الاجتناب فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بدمن الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ؛ هذا هو المألوف من الصحابة رضى الله عنهم ومن زاد عليهم فى الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتبع فلن يبلغ أحدمد أحدهم ولانصيفه ولو انفق مافى الأرض جميعا كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة فقيل : إنه صدقة ؛ فقال : هو لها صدقة ولنا هدية (١) ، ولم يسأل على المتصدق عليها فكان مجهولا عنده ولم يمتنع .

الحالة الثانية : أن يكون مشكوكا فيه بسبب دلالة أورثت ريبة فلنذكر صورة ريبة ثم حكمها .

أما الخلقة : فبأن يكون على خلقة الأتراك والبوادى والمعروفين بالظلم وقطع الطريق ، وأن يكون طويل الشارب ، وأن يكون الشعر مفرقا على رأسه على دأب أهل الفساد . وأما الثياب : فالقباء والقلنسوة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم . وأما الفعل والقول : فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل ؛ فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضاً فى المال ويأخذ ما لا يحل ؛ فهذه مواضع الريبة . فإذا أراد أن يشترى من مثل هذا شيئا ويأخذ منه هدية أو يجيبه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات ؛ فيحتمل أن يقال إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع . ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قابلها مثل هذه الدلالة فأورثت ريبة فالهجوم غير جائز ، وهو الذى نختاره ونفتى به لقوله صلى الله عليه وسلم « دع مايريبك إلى مالا يريبك (٢) » فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب (٣) » وهذا له وقع فى القلب لاينكر ولأن النبى صلى الله عليه وسلم سأل : أصدقة هو أوهدية ؟ وسأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه . وسأل عمر رضى الله عنه . وكل ذلك كان فى موضع الريبة وحمله على الورع وإن كان ممكنا ولكن لايحمل عليه إلا بقياس حكمى والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أورثت ريبة فإذا تقابلا فالاستحلال لامستند له . وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيرا واحتمل أن يكون بطول المكث فإن رأينا ظبية بالت فيه ثم احتمل أن التغيير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه . ولكن بين هذه الدلالات تفاوت فإن طول الشوارب ولبس القباء وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال . أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضا دليل ظاهر كما لو سمعه يأمر بالغصب والظلم أو يعقد عقد الربا . فأما إذا رآه قد شتم غيره فى غضبه أو اتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيفة فكم من إنسان يتحرج فى طلب المال ولا يكتسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة ؟ فليتنبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بحد فليستفت العبد فى مثل ذلك قلبه . وأقول إن هذا إن رآه من مجهول فله حكم وإن رآه ممن عرفه بالورع فى الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر إذ تعارضت

---

(١) حديث أكله طعام بريرة فقيل انها صدقة فقال « هو لها صدقة ولنا هدية » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « دع مايريبك » تقدم فى الباين قبله . (٣) حديث « الإثم حزاز القلوب » تقدم فى العلم .

الدلالات بالإضافة إلى المال وتساقطنا وعاد الرجل كالمجهول إذ ليست إحدى الدلالتين تناسب المال على الخصوص فكم من متحرج فى المال لا يتحرج فى غيره وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد فالحكم فى هذه المواقع مايميل إليه القلب فإن هذا أمر بين العبد وبين الله فلا يبعد أن يناط بسبب خفى لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب وهو حكم حزازة القلب . ثم ليتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغى أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جنديا أو عامل سلطان أو نائحة أو مغنية فإن دل على أن فى ماله حراما قليلا لم يكن السؤال واجبا بل كان السؤال من الورع .

الحالة الثالثة : أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظنا فى حل المال أو تحريمه مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته فى الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما فى المجهول ؛ فالأولى الإقدام . والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراما . وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى [1] » فأما إذا علم بالخبرة أنه جندى أو مغن أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب ، فههنا السؤال واجب لامحالة كما فى موضع الريبة بل أولى .

المثار الثانى : مايستند الشك فيه إلى سبب المال لا فى حال المالك

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام كما إذا طرح فى سوق أحمال من طعام غصب واشتراها أهل السوق فليس يجب على من يشترى فى تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما فى أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب . والسوق الكبير حكمه حكم بلد . والدليل على أنه لايجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام أن الصحابة رضى الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها ، وكانوا لايسألون فى كل عقد ، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادرا فى بعض الأحوال وهى محال الريبة فى حق ذلك الشخص المعين ، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين ، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون فى تلك الغنائم شىء مما أخذوه من المسلمين وذلك لايحل أخذه مجانا بالاتفاق بل يرد على صاحبه عند الشافعى رحمه الله ، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبى حنيفة رحمه الله ، ولم ينقل قط التفتيش عن هذا . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أذربيجان : إنكم فى بلاد تذبح فيها الميتة فانظروا ذكيه من ميته . أذن فى السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التى هى أثمانها لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هى أيضا تباع وأكثر الجلود كان كذلك . وكذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : إنكم فى بلاد أكثر قصابيها المجوس فانظروا الذكى من الميتة فخص بالأكثر الأمر بالسؤال . ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها فى العادات فلنفرضها :

مسألة : شخص معين خالط ماله الحرام مثل أن يباع على دكان طعام مغصوب أومال منهوب ، ومثل أن يكون القاضى أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذى له إدرار على سلطان ظالم له أيضا مال موروث ودهقنة أوتجارة أورجل

---

(١) حديث : لاتأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى . تقدم فى الزكاة .

تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويربى أيضا . فإن كان الأكثر من ماله حراما لايجوز الأكل من ضيافته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش ، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك ، وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبه فهذا فى محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبتين ، إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر ميتات مثلا وجب اجتناب الكل وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لاسيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان ، ويخالفه من وجه إذ الميتة يعلم وجودها فى الحال يقينا والحرام الذى خالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا فى الحال وإن كان المال قليلا ، وعلم قطعا أن الحرام موجود فى الحال فهو ومسألة اختلاط الميتة واحد . وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود فى الحال فهذا أخف من ذلك ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما فى الأسواق والبلاد ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ، ولا يشك فى أن الهجوم عليه بعيد من الورع جدا ولكن النظر فى كونه فسقا مناقض للعدالة ، وهذا من حيث النقل أيضا غامض لتجاذب الأشباه ، ومن حيث النقل أيضا غامض لأن ماينقل فيه عن الصحابة من الامتناع فى مثل هذا وكذا عن التابعين يمكن حمله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم . وما ينقل من إقدام على الأكل كأكل أبى هريرة رضى الله عنه طعام معاوية مثلا إن قدر فى جملة مافى يده حرام فذلك أيضا يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانة أن عين مايأكله من وجه مباح . فالأفعال فى هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم : لو أعطانى السلطان شيئا لأخذته وطرد الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضا حراما مهما لم يعرف عين المأخوذ واحتمل أن يكون حلالا ، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين ـ كما سيأتى فى باب بيان أموال السلاطين فأما إذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لايكون موجودا فى الحال لم يكن الأكل حراما ، وإن تحقق وجوده فى الحال ـ كما فى مسألة اشتباه الذكية بالميتة ـ فهذا مما لا أدرى ما أقول فيه وهو من المتشابهات التى يتحير المفتى فيها لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور . والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كانت ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب . وبينهما أعداد ، ولو سئلت عنها لكنت لا أدرى ما أقول فيها ، ولقد توقف العلماء فى مسائل هى أوضح من هذه إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رمى صيدا فوقع فى ملك غيره أيكون الصيد للرامى أو لمالك الأرض ؟ فقال : لا أدرى ، فروجع فيه مرات فقال : لا أدرى . وكثيرا من ذلك حكيناه عن السلف فى كتاب العلم فليقطع المفتى طمعه عن درك الحكم فى جميع الصور . وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوما يعاملون السلاطين ، فقال : إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة فى الأقل ويحتمل المسامحة فى الأكثر أيضا . وبالجملة فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجرون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر لتعاطيه عقدا واحدا فاسدا أو لمعاملة السلطان مرة ؛ وتقدير ذلك فيه بعد والمسألة مشكلة فى نفسها .

* فإن قيل : فقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه رخص فيه وقال : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام . وسئل ابن مسعود رضى الله عنه ذلك فقال له السائل . إن لى جارا لاأعلمه إلا خبيثا يدعونا أو نحتاج فنستسلفه فقال : إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه فإن لك المهنأ وعليه المأثم . وأفتى سلمان بمثل ذلك . وقد علل علىٌّ بالكثرة وعلل ابن مسعود رضى الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المهنأ أى أنت لاتعرفه . وروى أنه قال رجل لابن مسعود

رضى الله عنه . إن لى جارا يأكل الربا فيدعونا إلى طعامه أفنأتيه ؟ فقال : نعم . وروى فى ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه روايات كثيرة مختلفة وأخذ الشافعى ومالك رضى الله عنهما جوائز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالط مالهم الحرام ؟ قلنا : أما ما روى عن على رضى الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قميص واحد فى وقت الغسل لا يجد غيره . ولست أنكر أن رخصته صريح فى الجواز وفعله محتمل للورع ولكنه لو صح فمال السلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لا يحصر ـ وسيأتى بيان ذلك ـ وكذا فعل الشافعى ومالك رضى الله عنهما متعلق بمال السلطان ـ وسيأتى حكمه ـ وإنما كلامنا فى آحاد الخلق وأموالهم قريبة من الحصر . وأما قول ابن مسعود رضى الله عنه فقيل إنه إنما نقله خوات التيمى وإنه ضعيف الحفظ والمشهور عنه ما يدل على توقى الشبهات إذ قال : لايقولن أحدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك . وقال : اجتنبوا الحكاكات فغيها الإثم .

• فإن قيل : فلم قلتم إذا كان الأكثر حراما لم يجز الأخذ مع أن المأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص ، واليد علامة على الملك حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده والكثرة توجب ظنا مرسلا لايتعلق بالعين فليكن كغالب الظن فى طين الشوارع وغالب الظن فى الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام ، ولايجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم « دع مايريبك إلى مالايريبك » لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريبه بعلامة فى عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور فإن ذلك يوجب ريبة ومع ذلك قطعتم بأنه لايحرم ؟ فالجواب أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوى . فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المخالط موجود فى الحال ، والمال غير خال عنه ، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك فى حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام « دع مايريبك إلى مالا يريبك » لايبقى له محمل إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجودا فى زمانه وكان لايدعه . وعلى أى موضع حمل هذا كان هذا فى معناه . وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب ، وللكثرة تأثير فى تحقيق الظن وكذا للحصر وقد اجتمعا حتى قال أبو حنيفه رضى الله عنه : لاتجتهد فى الأوانى إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر . فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة الكثرة : ومن قال يأخذ أى آنية أراد بلا اجتهاد بناه على مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضا فيلزمه التجويز ههنا بمجرد علامة اليد . ولا يجرى ذلك فى بول اشتبه بماء إذ لااستصحاب فيه ولانطرده أيضا فى ميتة اشتبهت بذكية إذ لااستصحاب فى الميتة ، واليد لاتدل على أنه غير ميتة وتدل فى الطعام المباح على أنه ملك . فههنا أربع متعلقات . استصحاب ، وقلة فى المخلوط أو كثرة ، وانحصار أو اتساع فى المخلوط ، وعلامة خاصة فى عين الشىء يتعلق بها الاجتهاد . فمن يغفل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لايشبهه . فحصل مما ذكرناه أن المختلط فى ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بظن عن علامة أو توهم . فالسؤال يجب فى موضعين : وهو أن يكون الحرام أكثر يقينا أو ظنا كما لو رأى تركيا مجهولا يحتمل أن يكون كل ماله من غنيمة وإن كان الأقل معلوما باليقين فهو محل التوقف وتكاد تسير سير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة . وأما الأقسام الثلاثة الباقية

فالسؤال واجب فيها أصلا .

مسألة : إذا حضر طعام إنسان علم أنه دخل فى يده حرام من إدرار كان قد أخذه أو وجه آخر ولا يدرى أنه بقى إلى الآن أم لا ، فله الأكل ولايلزمه التفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع ، ولو علم أنه قد بقى منه شىء ولكن لم يدر أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل . وقد سبق أن أمر الأقل مشكل وهذا يقرب منه .

مسألة : إذا كان بيد المتولى للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثانى لأنه غير موصوف بتلك الصفة فهل له أن يأخذ مايسلمه إليه صاحب الوقف ؟ نظر ، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يعرفها المتولى وكان المتولى ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث لأن الظن بالمتولى أنه لايصرف إليه مايصرفه إلا من المال الذى يستحقه ، وإن كانت الصفة خفية وإن كان المتولى ممن عرف حاله أنه يخلط ولايبالى كيف يفعل فعليه السؤال ، إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعوّل عليه ، وهو وزان سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة والهدية عند تردده فيهما لأن اليد لاتخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب فلاينجى منه إلا السؤال ، فإن السؤال حيث أسقطناه فى المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام ، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحما من ذبيحته واحتمل أن يكون مجوسيا لم يجز له مالم يعرف أنه مسلم إذ اليد لاتدل فى الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين ، فيجوز أن يظن بالذى ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم وإن كان الخطأ ممكنا فيه فلاينبغى أن تلتبس المواضع التى تشهد فيها اليد والحال بالتى لا تشهد .

مسألة : له أن يشترى فى البلد دارا وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة لأن ذلك الاختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع . وإن كان فى سكة عشر دور مثلا إحداها مغصوب أو وقف لم يجز الشراء مالم يتميز ويجب البحث عنه . ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز ، ولا يجوز الهجوم مع الإبهام لأن الرباطات والمدارس فى البلد لابد أن تكون محصورة .

مسألة : حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام وعند ذلك لايبالى بغضب مثله ، إذ يجب إيذاء الظالم بأكثر من ذلك . والغالب أن مثل هذا لايغضب من السؤال . نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله ممن هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب لأنهم لايغضبون من سؤاله ، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال ولذلك سأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه ، وسأل عمر من سقاه من إبل الصدقة ، وسأل أبا هريرة رضى الله عنه أيضا لما أن قدم عليه بمال كثير فقال : ويحك أكل هذا طيب ؟ من حيث إنه تعجب من كثرته وكان هو من رعيته لاسيما وقد رفق فى صيغة السؤال ، وكذلك قال على رضى الله عنه : ليس شىء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه ولاشىء أبغض إليه من جوره وخرقه .

مسألة . قال الحارث المحاسبى رحمه الله : لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغى أن يسأله لأجل الورع ، لأنه ربما يبدو له ماكان مستورا عنه فيكون قد حمله على هتك الستر ثم يؤدى ذلك إلى البغضاء ، وما ذكره حسن لأن السؤال إذا كان من الورع لامن الوجوب فالورع فى مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك الستر ، وإثارة البغضاء أهم . وزاد على هذا فقال : وإن رابه منه شىء أيضا لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب

ويجنبه الخبيث فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفا ولا يهتك ستره بالسؤال ، قال : لأنى لم أر أحدا من العلماء فعله ، فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق لأن لفظ الريبة يدل على التوهم بدلالة تدل عليه ولا يوجب اليقين فليراع هذه الدقائق بالسؤال .

مسألة : ربما يقول القائل : أى فائدة فى السؤال ممن بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب فإن وثق بأمانته فليثق بديانته فى الحلال ؟ فأقول : مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان وكان له غرض فى حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه ، فينبغى أن يسأل من غيره ، وكذا إن كان بياعا وهو يرغب فى البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة فى السؤال منه وإنما يسأل من غيره . وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهما كما يسأل المتولى على المال الذى يسلمه أنه من أى جهة وكما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤذى ولا يتهم القائل فيه ، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال ؛ فلا يتهم فى قوله إذا أخبر عن طريق صحيح ، وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه . فههنا يفيد السؤال فإذا كان صاحب المال متهما فليسأل من غيره فإذا أخبره عدل واحد قبله وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز قبوله لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة النفس ، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل فى بعض الأحوال ، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من ترى العدالة فى ظاهره يصدق . وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم فإن البواطن لا يطلع عليها وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق . وكم من شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصى ثم إذا أخبرك بشىء وثقت به . وكذلك إذا أخبر به صبى مميز ممن عرفته بالتثبت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه . فأما إذا أخبر به مجهول لا يدرى من حاله شىء أصلا فهذا ممن جوزنا الأكل من يده لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه .

وربما يقال إسلامه دلالة ظاهرة على صدقه ؛ وهذا فيه نظر ، ولا يخلو قوله عن أثر ما فى النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة تفيد ظنا قويا إلا أن أثر الواحد فيه فى غاية الضعف فلينظر إلى حد تأثيره فى القلب فإن المفتى هو القلب فى مثل هذا الموضع وللقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليتأمل فيه . ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روى عن عقبة بن الحارث ، أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهى كاذبة ، فقال : دعها ، فقال : إنها سوداء ـ يصغر من شأنها ـ فقال عليه السلام : فكيف وقد زعمت أنها قد أرضعتكما ؟ لا خير لك فيها دعها عنك [1] ـ وفى لفظ آخر ـ كيف وقد قيل ، ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر أمارة غرض له فيه كان له وقع فى القلب لا محالة ؛ فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز فإن اطمأن إليه القلب كان الاحتراز حتما واجبا .

مسألة : حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين ، ويجوز أن يترجح فى قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين ، ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة وذلك مما يتشعب تصويره .

مسألة : لو نهب متاع مخصوص فصادف من ذلك النوع متاعا فى يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون

(١) حديث عقبة : إنى تزوجت امرأة فجاءتنا أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهى كاذبة . رواه البخارى من حديث عقبة ابن الحارث .

من المغصوب فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح جاز الشراء وكان تركه من الورع . وإن كان الرجل مجهولا لايعرف منه شيئا فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المغصوب فله أن يشترى . وإن كان لايوجد ذلك المتاع فى تلك البقعة إلا نادرا وإنما كثر بسبب الغصب فليس يدل على الحل إلا اليد وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه ، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم ، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة . ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أرده إلى قلب المستفتى لينظر ما الأقوى فى نفسه فإن كان الأقوى أنه مغصوب لزمه تركه وإلا حل له شراؤه وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهى من المتشابهات التى لا يعرفها كثير من الناس فمن توقاها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن اقتحمها فقد حام حول الحمى وخاطر بنفسه .

مسألة : لو قال قائل : قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هى فذكر له فسكت عن السؤال [1] فيجب السؤال عن أصل المال أم لا ، وإن وجب فعن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه ؟ فأقول : لا ضبط فيه ولا تقدير بل ينظر إلى الريبة المقتضية للسؤال إما وجوبا أو ورعا . ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الريبة المقتضية له وذلك يختلف باختلاف الأحوال فإن كانت التهمة من حيث لايدرى صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال : اشتريت ، انقطع بسؤال واحد ، وإن قال : من شاتى ، وقع الشك فى الشاة . فإذا قال : اشتريت ، انقطع وإن كانت الريبة من الظلم وذلك مما فى أيدى العرب ويتوالد فى أيديهم المغصوب فلا تنقطع الريبة بقوله : إنه من شاتى ، ولا بقوله : إن الشاة ولدتها شاتى ، فإن أسنده إلى الوراثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال ، وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثرة التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لايغير حكمه فلينظر فى هذه المعانى .

مسألة : سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفى يد خادمهم الذى يقدم إليهم الطعام وقف على ذلك المسكن ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء ، وهو يخلط الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة ؟ فقلت : إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول : (الأصل الأول) أن الطعام الذى يقدم إليهم فى الغالب يشتريه بالمعاطاة والذى اخترناه صحة المعاطاة لاسيما فى الأطعمة والمستحقرات فليس فى هذا إلا شبهة الخلاف . (الأصل الثانى) أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو فى الذمة ؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام ، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشترى فى الذمة ويجوز الأخذ بالغالب ، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد وهو شراؤه بعين مال حرام . (الأصل الثالث) أنه من أين يشتريه فإن اشترى ممن أكثر ماله حرام لم يجز وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق ؛ وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشتريه ممن ماله حلال أو ممن لا يدرى المشترى حاله بيقين كالمجهول ، وقد سبق جواز الشراء من المجهول لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال . (الأصل الرابع) أن يشتريه لنفسه أو للقوم فإن المتولى والخادم كالنائب وله أن يشترى له ولنفسه ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجرى بالمعاطاة فلا يجرى اللفظ ، والغالب أنه لاينوى عند المعاطاة ، والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ويقصد البيع منه لا ممن لا يحضرون فيقع عن جهته ويدخل فى ملكه وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم .

---

(١) حديث : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن قدم إليه ... الحديث » تقدم فى الباب الخامس من آداب الكسب والمعاش .

(الأصل الخامس) أن الخادم يقدم الطعام إليهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك وإنما يقدم اعتماداً على عوضه من الوقف ، فهو معاوضة ولكن ليس ببيع ولا إقراض لأنه لو انتهض لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لاتدل عليه . فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب - أعنى هدية لالفظ فيها من شخص تقتضى قرينة حاله أنه يطمع فى ثواب - وذلك صحيح والثواب لازم وههنا ماطمع الخادم فى أن يأخذ ثوابا فيما قدمه إلا حقهم من الوقف ليقضى به دينه من الخباز والقصاب والبقال ، فهذا ليس فيه شبهة إذ لايشترط لفظ فى الهدية ولا فى تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب ، ولا مبالاة بقول من لايصحح هدية فى انتظار ثواب . (الأصل السادس) أن الثواب الذى يلزم فيه خلاف ، فقيل إنه أقل متمول وقيل قدر القيمة وقيل مايرضى به الواهب حتى له أن لايرضى بأضعاف القيمة ، والصحيح أنه يتبع رضاه فإذا لم يرض يرد عليه وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقف ، فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناقصا ورضى به الخادم صح أيضا ، وإن علم أن الخادم لايرضى لولا أن فى يده الوقف الآخر الذى يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى فى الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام ، والحرام لم يدخل فى أيدى السكان ، فهذا كالخلل المتطرق إلى الثمن - وقد ذكرنا حكمه من قبل - وأنه متى يقتضى التحريم ومتى يقتضى الشبهة؟ وهذا لايقتضى تحريما على مافصلناه فلا تنقلب الهدية حراما يتوصل المهدى بسبب الهدية إلى حرام . (الأصل السابع) أنه يقضى دين الخباز والقصاب والبقال من ريع الواقفين فإن وفى ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صح الأمر ، وإن قصر عنه فرضى القصاب والخباز بأى ثمن كان حراما أو حلالا ، فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضا فليلتفت إلى ماقدمنا من الشراء فى الذمة ثم قضاء الثمن من الحرام ، هذا إذا علم أنه قضاه من حرام ، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد ، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع ، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرته أقوى فى النفس كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده . فهذا حكم هذه الواقعة وهى من الفتاوى وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة وأنها كيف ترد إلى الأصول فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين .

الباب الرابع : فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفى يده مختلط فعليه وظيفة فى تمييز الحرام وإخراجه ووظيفة أخرى فى مصرف المخرج فلينظر فيهما .

النظر الأول : فى كيفية التمييز والإخراج

اعلم أن كل من تاب وفى يده ما هو حرام معلوم العين من غصب أو وديعة أو غيره فأمره سهل ؛ فعليه تمييز الحرام . وإن كان ملتبسا مختلطا فلا يخلو إما أن يكون فى مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان وإما أن يكون فى أعيان متمايزة كالعبيد والدور والثياب . فإن كان فى المتماثلات أو كان شائعا فى كله كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها فى المرابحة وصدق فى بعضها ، أو من غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، أو فعل ذلك فى الحبوب ، أو الدراهم والدنانير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولا . فإن كان معلوم القدر

مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقان أحدهما : الأخذ باليقين والآخر : الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قد قال به العلماء فى اشتباه ركعات الصلاة . ونحن لا نجوز فى الصلاة إلا الأخذ باليقين فإن الأصل اشتغال الذمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلامة قوية وليس فى أعداد الركعات علامات يوثق بها ، وأما ههنا فلا يمكن أن يقال : الأصل أن مافى يده حرام ، بل هو مشكل فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهادا ، ولكن الورع فى الأخذ باليقين . فإن أراد الورع فطريق التحرى والاجتهاد أن لا يستبقى إلا القدر الذى يتيقن أنه حلال . وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلا أن يكون فى يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال وأن الثلث مثلا حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن . وهكذا طريق التحرى فى كل مال وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانبين فى الحل والحرمة . والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جاز له الإمساك والورع إخراجه . وإن شك فيه جاز الإمساك والورع إخراجه ، وهذا الورع آكد لأنه صار مشكوكا فيه ، وجاز إمساكه اعتمادا على أنه فى يده فيكون الحل أغلب عليه وقد صار ضعيفا بعد يقين اختلاط الحرام . ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ولا يأخذ إلا مايغلب على ظنه أنه حلال وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر وليس يتبين لى فى الحال ترجيح وهو من المشكلات .

• فإن قيل : هب أنه أخذ باليقين لكن الذى يخرجه ليس يدرى أنه عين الحرام فلعل الحرام مابقى فى يده فكيف يقدم عليه ؟ ولو جاز هذا لجاز أن يقال : إذا اختلطت ميتة بتسع مذكاة فهى العشر فله أن يطرح واحدة أى واحدة كانت ــ ويأخذ الباقى ويستحله ولكن يقال : لعل الميتة فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام ؟ فنقول : هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال يحل بإخراج البدل لتطرق المعاوضة إليه ، وأما الميتة فلا تتطرق المعاوضة إليها فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالفرض فى درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه ، وقد سئل أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن مثل هذا فقال: يدع الكل حتى يتبين ، وكان قد رهن آنية فلما قضى الدين حمل إليه المرتهن آنيتين وقال : لاأدرى أيتهما آنيتك؟فتركهما فقال المرتهن : هذا الذى هو لك وإنما كنت اختبرك ؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع ولكنا نقول إنه غير واجب . فلنفرض المسألة فى درهم له مالك معين حاضر فنقول : إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضى به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر ، لأنه لايخلو إما أن يكون المردود فى علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم فى يد صاحبه ، فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ وإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة ، وإن كان المغصوب منه قد فات له درهم فى يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذه وقع عن الضمان بمجرد القبض وهــذا فى جانبه واضح ، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ والإشكال فى الجانب الآخر أنه لم يدخل فى ملكه . فنقــول : لأنه أيضا إن كان قد تسلم درهم نفسه فقد فات له أيضا درهم فى يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالغائب فيقع هذا بدلا عنه فى علم الله إن كان الأمر كذلك ، ويقع هذا التبادل فى علم الله كما يقع التقاص لو أتلف رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه ، بل فى عين مسألتنا لو ألقى كل واحد مافى يده فى البحر أو أحرقه كان قد أتلفه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص ، فكذا إذا لم يتلف فإن القــول بهــذا أولى من المصير إلى أن من يأخذ درهما حراما ويطرحه فى ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجورا عليه لا يجوز التصرف

فيه وهذا المذهب يؤدى إليه ، فانظر ما فى هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ . والمعاطاة بيع ومن لايجعلها بيعا فحيث يتطرق إليها احتمال إذ الفعل يضعف دلالته وحيث يمكن التلفظ ، وههنا هذا التسليم والتسلم للتبادله قطعا والبيع غير ممكن لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم فى عينه وقد يكون مما لايقبل البيع كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره وكذا الدبس والرطب وكل مالا يباع البعض منه بالبعض .

* فإن قيل : فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه فى مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعا ؟ قلنا : لانجعله بيعا بل نقول هو بدل عما فات فى يده فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله ؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال : لا آخذ درهما أصلا إلا عين ملكى فإن استبهم فأتركه ولا أهبه وأعطل عليك مالك . فأقول على القاضى أن ينوب عنه فى القبض حتى يطيب للرجل ماله فإن هذا محض التعنت والتضييق والشرع لم يرد به فإن عجز عن القاضى ولم يجده فليحكم رجلا متدينا ليقبض عنه فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويفرد على نيه الصرف إليه درهما ويتعين ذلك لهويطيب له الباقى ، وهذا فى خلط المائعات أظهر وألزم .

* فإن قيل فينبغى أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأى حاجة إلى الإخراج أولا ثم التصرف فى الباقى ؟ قلنا : قال قائلون يحل له أن يأخذ مادام يبقى قدر الحرام ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يجز له ذلك . وقال آخرون : ليس له أن يأخذ مالم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال ، وقال آخرون يجوز للآخذ فى التصرف أن يأخذ منه وأما هو فلا يعطى فإن أعطى عصى هو دون الآخذ منه ، وما جوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حقى . وبالتعيين وإخراج حق الغير وتمييزه يندفع هذا الاحتمال فهذا المال يترجح بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة والعين على المثل فكذلك مايحتمل فيه رجوع المثل مقدم على مايحتمل فيه رجوع القيمة ومايحتمل فيه رجوع العين يقدم على مايحتمل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول على قضاء حقك من موضع آخر ؛ إذ الاختلاط من الجانبين وليس ملك أحدهما بان يقدر فائتا بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه أو ينظر إلى الذى خلط فيجعل بفعله متلفا لحق غيره وكلاهما بعيدان جدا . وهذا واضح فى ذوات الأمثال فإنها تقع عوضا فى الإتلافات من غير عقد فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعبيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضى فإن أبى أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه ، فإن كانت متماثلة القيم فالطريق أن يبيع القاضى جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الإصلاح لأنه مشكل ، وإن لم يوجد القاضى فللذى يريد الخلاص وفى يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه ، هذه هى المصلحة وماعداها من الاحتمالات ضعيفة لانختارها وفيما سبق تنبيه على العلة ، وهذا فى الحنطة ظاهر ، وفى النقود دونه ، وفى العروض أغمض ، إذ لايقع البعض بدلا عن البعض ، فلذلك احتيج إلى البيع ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل :

مسألة : إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهى لجميع الورثة . ولو رد من الضيعة نصفا وهو قدر حقه ساهمه الورثة ، فإن النصف الذى له لايتميز حتى يقال : هو المردود ، والباقى هو المغصوب ، ولا يصير مميزا بنية السلطان ، وقصده حصر الغصب فى نصيب الآخرين .

مسألة . إذا وقع فى يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار وكان قد حصل منه انتفاع ؛ فينبغى أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة ، وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة ، فلا تصح توبته مالم يخرج أجرة المغصوب ، وكذلك كل زيادة حصلت منه وتقدير أجرة العبيد والثياب والأوانى وأمثال ذلك مما لا يعتاد إجارتها مما يعسر ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين ، وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد وطريق الورع الأخذ بالأقصى ، ومار بحه على المال المغصوب فى عقود عقدها على الذمة وقضى الثمن منه ، فهو ملك له ولكن فيه شبهة ، إذ كان ثمنه حراما كما سبق حكمه ، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة ، وقد قيل : تنفذ بإجازة المغصوب منه للمصلحة فيكون المغصوب منه أولى به ، والقياس أن تلك العقود تفسخ وتسترد الثمن وترد الأعواض فإن عجز عنه لكثرته فهى أموال حرام حصلت فى يده فللمغصوب منه قدر رأس ماله ، والفضل حرام يجب إخراجه لتتصدق به ، ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه ، بل حكمه حكم كل حرام يقع فى يده .

مسألة : من ورث مالا ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة ، فهو حلال باتفاق العلماء ، وإن علم أن فيه حراما وشك فى قدره أخرج مقدار الحرام بالتحرى ، فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالا للسلاطين واحتمل أنه لم يكن يأخذ فى عمله شيئا ، أو كان قد أخذ ولم يبق فى يده منه شيء لطول المدة ، فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب ، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد . وقال بعض العلماء : لا يلزمه والإثم على المورث ، واستدل بما روى أن رجلا ممن ولى عمل السلطان مات ، فقال صحابى : الآن طاب ماله : أى لوارثه ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يذكر اسم الصحابى ولعله صدر من متساهل ، فقد كان فى الصحابة من يتساهل ، ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة ، وكيف يكون موت الرجل مبيحا للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا ؟ نعم إذا لم يتيقن يجوز أن يقال : هو غير مأخوذ بما لا يدرى ، فيطيب لوارث لا يدرى أن فيه حراما يقينا .

النظر الثانى : فى المصرف

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال :

إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه ، وإن كان غائبا فينتظر حضوره أو الإيصال إليه ، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .

وإما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عينه ولا يدرى أنه مات عن وارث أم لا ، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه ، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة فإنها بعد تفرق الغزاة ، كيف يقدر على جمعهم ، وإن قدر فكيف يفرق دينارا واحدا مثلا على ألف أو ألفين ، فهذا ينبغى أن يتصدق به .

وإما من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة ، وأمثال هذه الأمور التى يشترك فى الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين ، ليكون عاما للمسلمين ، وحكم القسم الأول لا شبهة فيه . أما التصدق وبناء القناطر فينبغى أن يتولاه القاضى فيسلم إليه المال إن وجد قاضيا متدينا ، وإن كان القاضى مستحلا فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه ، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقر عليه ، بل يحكم من أهل البلد عالما متدينا ، فإن التحكيم أولى من الانفراد ، فإن عجز فليتول

ذلك بنفسه ، فإن المقصود الصرف . وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة فى المصالح ، فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه .

* فإن قيل : مادليل جواز التصدق بما هو حرام ؟ وكيف يتصدق بما لايملك ؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام . وحكى عن الفضيل أنه وقع فى يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة وقال : لاأتصدق إلا بالطيب ولاأرضى لغيرى مالا أرضاه لنفسى . * فنقول : نعم ، ذلك له وجه واحتمال . وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس : أما الخبر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التى قدمت إليه فكلمته بأنها حرام ، إذ قال صلى الله عليه وسلم أطعموها الأسارى [1] ولما نزل قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ كذبه المشركون وقالوا للصحابة : ألاترون ما يقول صاحبكم ، يزعم أن الروم ستغلب ، فخاطرهم أبو بكر رضى الله عنه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضى الله عنه بما قامرهم به قال عليه الصلاة والسلام : هذا سحت ، فتصدق به وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان قد نزل تحريم القمار بعد إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له فى المخاطرة مع الكفار [2] وأما الأثر فإن ابن مسعود رضى الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بمالكها لينقده الثمن ، فطلبه كثيرا فلم يجده ، فتصدق بالثمن وقال : اللهم هذا عنه إن رضى وإلا فالأجر لى . وسئل الحسن رضى الله عنه عن توبة الغال وما يؤخذ منه بعد تفرق الجيش ، فقال يتصدق به . وروى أن رجلا سولت له نفسه فغل مائة دينار من الغنيمة ، ثم أتى أميره ليردها عليه فأبى أن يقبضها وقال له : تفرق الناس ، فأتى معاوية فأبى أن يقبض ، فأتى بعض النساك فقال : ادفع خمسها إلى معاوية ، وتصدق بمابيق ، فبلغ معاوية قوله ، فتلهف إذلم يخطر له ذلك ، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارس المحاسبى وجماعة من الورعين إلى ذلك .

وأما القياس فهو أن يقال : إن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير ، إذ قد وقع اليأس من مالكه ، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه فى البحر ، فإنا إن رميناه فى البحر فقد فوتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة : وإذا رميناه فى يد فقير يدعو لمالكه حصل للمالك بركة دعائه وحصل للفقير سد حاجته ، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره فى التصدق لاينبغى أن ينكر . فإن فى الخبر الصحيح « إن للزارع والغارس أجرا فى كل مايصيبه الناس والطيور من ثماره وزرعه [3] » وذلك بغير اختياره ، وأما قول القائل : لا نتصدق إلا بالطيب ، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر

(١) حديث : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التى قدمت بين يديه وكلته بأنها حرام ، اذ قال « أطعموها الأسارى » رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فلما رجعنا لقينا راعى امرأة من قريش فقال : إن فلانة تدعوك ومن معك الى طعام ... الحديث ، وفيه : فقال « أحد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها » وفيه فقال « أطعموها الأسارى » واسناده جيد (٢) حديث : مخاطرة أبى بكر المشركين باذنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى (الم غلبت الروم) وفيه فقال صلى الله عليه وسلم « هذا سحت » فتصدق به . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث ابن عباس ، وليس فيه أن ذلك كان باذنه صلى الله عليه وسلم ، والحديث عند الترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه دون قوله أيضا « هذا سحت » فتصدق به .

(٣) حديث « أجر الزارع والغارس فى كل ما يصيب الناس والطيور » أخرجه البخارى من حديث أنس « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو طير أو بهيمة الا كان له صدقة » .

وترددنا بين التضييع وبين التصدّق ورجحنا جانب التصدّق على جانب التضييع . وقول القائل : لانرضى لغيرنا مالانرضاه لأنفسنا ، فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع ، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل وإذا حل فقد رضينا له الحلال ونقول إن له أن يتصدّق على نفسه وعياله إذا كان فقيرا . أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لاينتفى عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدّق عليهم ، وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضا فقير ولو تصدّق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير ، ولنرسم فى بيان هذا الأصل أيضا مسائل

مسألة : إذا وقع فى يده مال من يد سلطان قال قوم : يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده ما تقلده وهو خير من أن يتصدّق به ، واختار المحاسبي ذلك وقال : كيف يتصدّق به فلعل له مالكا معينا ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدق به ، وقال قوم : يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إعانة للظالم وتكثير لأسباب ظلمه فالرد إليه تضييع لحق المالك ، والمختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكه فيتصدق به عن مالكه فهو خير للمالك إن كان له مالك معين من أن يرد على السلطان لأنه ربما لايكون له مالك معين ويكون حق المسلمين فرده على السلطان تضييع فإن كان له مالك معين فالرد على السلطان تضييع وإعانة للسلطان الظالم وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر ، فإذا وقع فى يده من ميراث ولم يتعدّ هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التى أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يتملكها ثم . وإن كان غنيا من حيث أنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر فى منعه من التملك ولا يؤثر فى المنع من التصدّق .

مسألة : إذا حصل فى يده مال لامالك له وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره ففى قدر حاجته نظر ذكرناه فى كتاب أسرار الزكاة ، فقد قال قوم : يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل ، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال : الأولى أن يتصدّق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل وينتظر لطف الله تعالى فى الحلال ، فإن لم يقدر فله أن يشترى ضيعة أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أمسك ذلك اليوم عنه ، فإذا فنى عاد إليه ، فإذا وجد حلالا معينا تصدق بمثل ما أنفقه من قبل ويكون ذلك قرضا عنده ، ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع ، وما ذكره لامزيد عليه ولكن جعل ما أنفقه قرضا عنده فيه نظر ولا شك فى أن الورع أن يجعله قرضا ، فإذا وجد حلالا تصدّق بمثله . ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذى يتصدّق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره لاسيما إذا وقع فى يده من ميراث ولم يكن متعديا بغصبه وكسبه حتى يغلظ الأمر عليه فيه .

مسألة : إذا كان فى يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته فإذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال لأن الحجة عليه أوكد فى نفسه منه فى عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لايفضى بهم إلى ماهو أشد منه فإن أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة . وبالجملة كل ما يحذره فى غيره فهو محذور فى نفسه وزيادة وهو أنه يتناول مع العلم والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول ، وإذا تردد فى حق نفسه بين مايخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحمال والاطلاء بالنورة والدهن وعمارة المنزل وتعهد الدابة وتسجير التنور وثمن الحطب ودهن السراج فليخص

بالحلال قوته ولباسه ، فإن مايتعلق ببدنه ـ ولاغنى به عنه ـ هو أولى بأن يكون طيبا وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه ممتزج بلحمه ودمه ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وأما الكسوة ففائدتها ستر عورته ودفع الحر والبرد والأبصار عن بشرته وهذا هو الأظهر عندى . وقال الحارث المحاسبي يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدة والطعام لايبقى عليه لما روى أنه « لايقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرام [1] » وهذا محتمل ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن فى بطنه حرام ونبت لحمه من حرام [2] فمراعاة اللحم والعظم أن ينبته من الحلال أولى ، ولذلك تقيأ الصديق رضى الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لاينبت منه لحم يثبت ويبقى .

* فإن قيل : فإذا كان الكل منصرفا إلى أغراضه فأى فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة ومامدرك هذا الفرق ؟ قلنا : عرف ذلك بما روى أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحا وعبدا حجاما فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنهى عن كسب الحجام فروجع مرات فنع منه فقيل : إن له أيتاما فقال : أعلفوه الناضح [3] فهذا يدل على الفرق بين مايأكله هو أو دابته فإذا انفتح سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذى ذكرناه .

مسألة : الحرام الذى فى يده لو تصدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم وإذا أنفق على نفسه فليضيق ماقدر وما أنفق على عياله فليقتصد ،وليكن وسطا بين التوسيع والتضييق فيكون الأمر على ثلاث مراتب . فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه ، وإن كان غنيا فلا يطعمه إلا إذا كان فى برية أو قدم ليلا ولم يجد شيئا فإنه فى ذلك الوقت فقير ، وإن كان الفقير الذى حضر ضيفا تقيا لو علم ذلك لتورع عنه فليعرض الطعام وليخبره جمعا بين حق الضيافة وترك الخداع فلا ينبغى أن يكرم أخاه بما يكره ، ولاينبغى أن يعول على أنه لايدرى فلايضره فإن الحرام إذا حصل فى المعدة أثر فى قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه ، ولذلك تقيأ أبوبكر وعمر رضى الله عنهما وكانا قد شربا على جهل ، وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحللناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والخمر إذا أحللناهما بالضرورة فلايلتحق بالطيبات .

مسألة : إذا كان الحرام أو الشبهة فى يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما فإن كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهاهما فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ، فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاهما بل هو واجب فليتلطف فى الامتناع ، فإن لم يقدر فليوافق وليقلل الأكل بأن يصغر اللقمة ويطيل المضغ ولايتوسع فإن ذلك عدوان والأخ والأخت قريبان من ذلك لأن حقهما أيضا مؤكد ، وكذلك إذا ألبسته أمه ثوبا من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليلبس بين يديها ولينزع فى غيبتها وليجتهد أن لايصلى فيه إلا عند حضورها فيصلى فيه صلاة المضطر ، وعند تعارض أسباب الورع ينبغى أن يتفقد هذه الدقائق . وقد حكى عن بشر رحمه الله أنه سلمت إليه أمه رطبة وقالت : بحقى عليك أن تأكلها وكان يكرهه فأكل ثم صعد غرفة فصعدت

(١) حديث « لاتقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٢) حديث الجسد نبت من الحرام تقدم . (٣) حديث : أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحا وعبدا حجاما ... الحديث . وفيه « أعلفوه الناضح » أخرجه أحمد والطبرانى من رواية عباية بن رفاعة بن خديج : أن جده حين مات ترك جارية وناضحا وغلاما حجاما ... الحديث . وليس المراد بجده رافع بن خديج فإنه بقى إلى سنة أربع وسبعين فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج ولم أرله ذكرا فى الصحابة وفى رواية للطبرانى عن عباية بن رفاعه عن أبيه قال « مات أبى » وفى رواية له عن عباية قال « مات رفاعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وهو مضطرب .

أمه وراءه فرأته يتقيأ ، وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة . وقد قيل لأحمد بن حنبل : سئل بشر هل للوالدين طاعة فى الشبهة ؟ فقال : لا . فقال أحمد : هذا شديد . فقيل له : سئل محمد بن مقاتل العبادانى عنها فقال : برّ والديك ؛ فماذا تقول ؟ فقال للسائل : أحب أن تعفينى فقد سمعت ماقالا ثم قال : ماأحسن أن تداريهما .

مسألة : من فى يده مال حرام محض فلا حج عليه ولايلزمه كفارة مالية لأنه مفلس ولاتجب عليه الزكاة إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلا ، وهذا يجب عليه إخراج الكل إما ردا على المالك إن عرفه أو صرفا إلى الفقراء إن لم يعرف المالك ، وأما إذا كان مال شبهة يحتمل أنه حلال فإذا لم يخرجه من يده لزمه الحج لأن كونه حلالا ممكن ولايسقط الحج إلا بالفقر ولم يتحقق فقره وقد قال الله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ وإذا وجب عليه التصدق بما يزيد على حاجته حيث يغلب على ظنه تحريمه فالزكاة أولى بالوجوب ، وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص بيقين . وقد قال قوم : يلزمه الصوم دون الإطعام إذ ليس له يسار معلوم . وقال المحاسبى : يكفيه الإطعام . والذى نختاره : أن كل شبهة حكمنا بوجوب اجتنابها وألزمناه إخراجها من يده لكون احتمال الحرام أغلب على ماذكرناه فعليه الجمع بين الصوم والإطعام ، أما الصوم فلأنه مفلس حكما ، وأما الإطعام فلأنه قد وجب عليه التصدق بالجميع ويحتمل أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة .

مسألة : من فى يده مال حرام أمسكه للحاجة فأراد أن يتطوع بالحج فإن كان ماشيا فلا بأس به لأنه سيأكل هذا المال فى غير عبادة فأكله فى عبادة أولى . وإن كان لايقدر على أن يمشى ويحتاج إلى زيادة للمركوب فلا يجوز الأخذ لمثل هذه الحاجة فى الطريق كما لايجوز شراء المركوب فى البلد . وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغنى به عن بقية الحرام فالإقامة فى انتظاره أولى من الحج ماشيا بالمال الحرام .

مسألة : من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة فليجتهد أن يكون قوته من الطيب ، فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل ، فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة أن لايكون قيامه بين يدى الله ودعاؤه فى وقت مطعمه حرام وملبسه حرام ؛ فليجتهد أن لايكون فى بطنه حرام ولا على ظهره حرام فإنا وإن جوزنا هذا بالحاجة فهو نوع ضرورة ، وما ألحقناه بالطيبات ، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والغم لما هو مضطر إليه من تناول ماليس بطيب فعساه ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته .

مسألة : سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل : مات أبى وترك مالا وكان يعامل من تكره معاملته ، فقال : تدع من ماله بقدر ماربح ، فقال : له دين وعليه دين ، فقال : تقضى وتقتضى ، فقال : أفترى ذلك ؟ فقال : أفتدعه محتبسا بدينه ؟ وماذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحرى بإخراج مقدار الحرام إذ قال : يخرج قدر الربح ، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلا عما بذله فى المعاوضات الفاسدة بطريق التقاص والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد ، وعوّل فى قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة .

الباب الخامس : فى إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلابد له من النظر فى ثلاثة أمور : فى مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو ؟ وفى صفته التى بها يستحق الأخذ . وفى المقدار الذى يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه فى الاستحقاق ؟ .

النظر الأول : فى جهات الدخل للسلطان

وكل مايحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان :

مأخوذ من الكفار ـ وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر ـ والفىء ، وهو الذى حصل من مالهم فى يده من غير قتال ، والجزية وأموال المصالحة ، وهى التى تؤخذ بالشروط والمعاقدة .

والقسم الثانى : المأخوذ من المسلمين ـ فلا يحل منه إلا قسمان : المواريث وسائر الأمور الضائعة التى لا يتعين لها مالك ، والأوقاف التى لامتولى لها . أما الصدقات فليست توجد فى هذا الزمان . وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام .

فإذا كتب لفقيه أو غيره إدرار أو صلة أو خلعة على جهة فلا يخلو من أحوال ثمانية : فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية ، أو على المواريث ، أو على الأوقاف ، أو على ملك أحياه السلطان ، أو على ملك اشتراه ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على بياع من جملة التجار ، أو على الخزانة .

فالأول : هو الجزية وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة . فما يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأخماس الأربعة لما فيه مصلحة وروعى فيه الاحتياط فى القدر فهو حلال ، بشرط أن لا تكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعى ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير ، فإنه أيضا فى محل الاجتهاد وللسلطان أن يفعل ماهو فى محل الاجتهاد ، وبشرط أن يكون الذمى الذى تؤخذ الجزية منه مكتسبا من وجه لايعلم تحريمه فلا يكون عامل سلطان ظالما ولا بياع خمر ولا صبيا ولا امرأة ، إذ لا جزية عليهما . فهذه أمور تراعى فى كيفية ضرب الجزية ومقدارها وصفة من تصرف إليه ومقدار مايصرف فيجب النظر فى جميع ذلك .

الثانى : المواريث والأموال الضائعة فهى للمصالح والنظر أن الذى خلفه هل كان ماله كله حراما أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه ، فإن لم يكن حراما بقى النظر فى صفة من يصرف إليه بأن يكون فى الصرف إليه مصلحة ثم فى المقدار المصروف .

الثالث : الأوقاف ، وكذا يجرى النظر فيها كما يجرى فى الميراث مع زيادة أمر وهو شرط الواقف حتى يكون المأخوذ موافقا له فى جميع شرائطه .

الرابع : ماأحياه السلطان ، وهذا لايعتبر فيه شرط إذ له أن يعطى من ملكه ماشاء لمن شاء أى قدر شاء . وإنما النظر فى أن الغالب أنه أحياه بإكراه الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام . فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه . فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نبهنا عليها فى تعلق الكراهة بالأعواض .

الخامس : ما اشتراه السلطان فى الذمة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه ولكنه سيقضى ثمنه من حرام وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى . وقد سبق تفصيله .

السادس : أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أمواله القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذى لاشبهة فيه ، وهو أكثر الإدرارات فى هذا الزمان إلا ما على أراضى العراق فإنها وقف عند الشافعى رحمه الله على مصالح المسلمين .

السابع : ما يكتب على بياع يعامل السلطان فإن كان لا يعامل غيره فما له كمال خزانة السلطان . وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان وسيأخذ بدله من الخزانة فالخلل يتطرق إلى العوض . وقد سبق حكم الثمن الحرام .

الثامن : ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض . وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بعينه من الحلال احتمالا قريباً له وقع فى النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب لأن أغلب أموال السلاطين حرام فى هذه الأعصار والحلال فى أيديهم معدوم أو عزيز فقد اختلف الناس فى هذا فقال قوم : كل ما لا أتيقن أنه حرام فلى أن آخذه ، وقال آخرون : لا يحل أن يؤخذ مالم يتحقق أنه حلال فلا تحل شبهة أصلا . وكلاهما إسراف ، والاعتدال ماقدمنا ذكره وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراما حرم وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق .

ولقد احتج من جوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال ـ مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام ـ بما روى عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأخذوا الأموال : منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصارى وجرير بن عبد الله وجابر وأنس بن مالك والمسور بن مخرمة . فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبد الملك . وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج . وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبي وإبراهيم والحسن وابن أبى ليلى . وأخذ الشافعى من هرون الرشيد ألف دينار فى دفعة . وأخذ مالك من الخلفاء أموالا جمة وقال على رضى الله عنه : خذ مايعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال ومايأخذ من الحلال أكثر . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا مخافة على دينه أن يحمل على مالا يحل . ألا ترى قول أبى ذر للأحنف بن قيس : خذ العطاء ما كان نحلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه ؟ وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل . وعن سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة رضى الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه . وعن الشعبي عن مسروق : لايزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار ـ أى يحمله ذلك على الحرام لا أنه فى نفسه حرام ـ وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول : لا أسأل أحدا ولا أرد مارزقنى الله . وأهدى إليه ناقة فقبلها وكان يقال لها ناقة المختار ، ولكن هذا يعارضه ماروى أن ابن عمر رضى الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار ، والإسناد فى رده أثبت . وعن نافع أنه قال : بعث ابن معمر إلى ابن عمر بستين ألفا فقسمها على الناس ، ثم جاءه سائل فاستقرض له من بعض من أعطاه وأعطى السائل . ولما قدم الحسن بن على رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال : لأجيزنك بجائزة لم أجزها أحدا قبلك من العرب ولا أجيزها أحداً بعدك من العرب ، قال : فأعطاه أربعمائة ألف درهم فأخذها . وعن حبيب

ابن أبى ثابت قال : لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاها فقيل ماهى ؟ قال : مال وكسوة . وعن الزبير بن عدى أنه قال : قال سلمان إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعاك إلى طعام أونحوه أو أعطاك شيئا فاقبل فإن المهنأ لك وعليه الوزر . فإن ثبت هذا فى المربى فالظالم فى معناه . وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية . وقال حكيم بن جبير : مررنا على سعيد بن جبير وقد جعل عاملا على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين أطعمونا مما عندكم فارسلوا بطعام فأكل وأكلنا معه . وقال العلاء بن زهير الأزدى : أتى إبراهيم أبى ـ وهو عامل على حلوان ـ فأجازه فقبل وقال إبراهيم : لابأس بجائزة العمال إن للعمال مؤنة ورزقا . ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله . فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم فى معصية الله تعالى . وزعمت هذه الفرقة أن ماينقل من امتناع جماعة من السلف لايدل على التحريم بل على الورع كالخلفاء الراشدين وأبى ذر وغيرهم من الزهاد فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ومن الحلال الذى يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى . فإقدام هؤلاء يدل على الجواز وامتناع أولئك لايدل على التحريم . ومانقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه فى بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفا ومانقل عن الحسن من قوله لاأتوضأ من ماء صيرفى ولو ضاق وقت الصلاة لأنى لاأدرى أصل ماله : كل ذلك ورع لاينكر ، واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع ولكن لايحرم اتباعهم على الاتساع أيضا . فهذه هى شبهة من يجوز أخذ مال السلطان الظالم .

والجواب ، أن مانقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى مانقل من ردهم وإنكارهم ، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة فى الدرجة بتفاوتهم فى الورع فإن للورع فى حق السلاطين أربع درجات .

الدرجة الأولى : أن لا يأخذ من أموالهم شيئا أصلا كما فعله الورعون منهم ، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون حتى أن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ماكان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال ، وحتى إن عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوما فدخلت ابنة له وأخذت درهما من المال فنهض عمر فى طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكى وجعلت الدرهم فى فيها فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال : أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم . وكسح أبو موسى الأشعرى بيت المال فوجد درهما فمر بنى لعمر رضى الله عنه فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك فى يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال . ياأبا موسى ما كان فى أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمظلمة ، ورد الدرهم إلى بيت المال . هذا مع أن المال كان حلالا ولكن خاف أن لايستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « دع مايريبك إلى ما لا يريبك »[1] ، ولقوله « ومن تركها فقداستبرأ لعرضه ودينه »[2] ، ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات فى الأموال السلطانية حتى قال صلى الله عليه وسلم حين

الباب الخامس : فى إدرارات السلاطين

(١) حديث « دع مايريبك إلى مالايريبك » تقدم فى الباب الأول من الحلال والحرام . (٢) حديث « من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم أوله فى أول الباب الثانى من الحلال والحرام .

بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة « اتق الله ياأبا الوليد لاتجئ يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها تؤاج فقال يارسول الله أهكذا يكون ؟ قال نعم والذى نفسى بيده إلا من رحم الله . قال فوالذى بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبدا [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لاأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إنما أخاف عليكم أن تنافسوا [2] » وإنما خاف التنافس فى المال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه فى حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال : إنى لم أجد نفسى فيه إلا كالوالى مال اليتيم ؛ إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف . وروى أن ابنا لطاوس افتعل كتابا عن لسانه إلى عمر بن عبدالعزيز فأعطاه ثلثمائة دينار ؛ فباع طاوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثمائة دينار ، هذا مع أن السلطان ليس مثل عمر بن عبد العزيز . فهذه الدرجة العليا فى الورع .

الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لايضره ، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين فى الورع فكيف يتوسع فى مال السلطان ، وقد كان من أشدهم إنكارا عليهم وأشدهم ذما لأموالهم ؟ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر ـ وهو فى مرضه وأشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها ـ فقالوا له : إنا لنرجو لك الخير ، حفرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت ... وصنعت ... وابن عمر ساكت ، فقال : ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال : أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترد فترى . وفى حديث آخر أنه قال إن الخبيث لايكفر الخبيث وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شرا . فقال له ابن عامر : ألا تدعو لى ، فقال : ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبل الله صلاة بغير طهورا ولا صدقة من غلول [3] » وقد وليت البصرة فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال فى أيام الحجاج : ماشبعت من الطعام منذ انتهبت الدار إلى يومى هذا وروى عن على رضى الله عنه أنه كان له سويق فى إناء مختوم يشرب منه فقيل : أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال : أما إنى لاأختمه بخلابه ولكن أكره أن يجعل فيه ماليس منه وأكره أن يدخل بطنى غير طيب ، فهذا هو المألوف منهم وكان ابن عمر لايعجبه شيء إلا خرج عنه فطلب منه نافع بثلاثين ألفا فقال : إنى أخاف أن تفتننى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدرى : مامنا أحد إلا مالت به الدنيا إلا ابن عمر ؟ فبهذا يتضح أنه لايظن به وبمن كان فى منصبه أنه أخذ مالا يدرى أنه حلال .

الدرجة الثالثة : أن يأخذ ماأخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين ، فإن مالا يتعين مالكه هذا حكم الشرع فيه . فإذا كان الساطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم فقد نقول أخذه منه وتفرقته أولى من تركه فى يده ، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتى وجهه . وعلى هذا ينزل ماأخذه أكثرهم ولذلك قال ابن المبارك : إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة مايقتدون بهما ؟ لأن ابن عمر فرق ماأخذ حتى استقرض فى مجلسه بعد تفرقته ستين ألفا ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال : رأيت أن آخذه منهم وأتصدق أحب إلى من أن أدعها فى أيديهم ، وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله

---

(١) حديث « قال لعبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة اتق الله يا أبا الوليد لاتجئ يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك . . الحديث » أخرجه الشافعى فى المسند من حديث طاوس مرسلا ولأبي يعلى فى المعجم من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لسعد بن عبادة وإسناده صحيح . (٢) حديث « انى لاأخاف عليكم أن تشركوا بعدى انما أخاف عليكم أن تنافسوا » متفق عليه من حديث عقبة بن عامر . (٣) حديث « لايقبل الله صلاة بغير طهور ولاصدقة من غلول » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر

من هرون الرشيد فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة .

الدرجة الرابعة : أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق بل يستبقى ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال ، وهكذا كان الخلفاء فى زمان الصحابة رضى الله عنهم ، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراما . ويدل عليه تعليل على رضى الله عنه حيث قال : فإن ما يأخذه من الحلال أكثر . فهذا مما قد جوزه جماعة من العلماء تعويلا على الأكثر . ونحن إنما توقفنا فيه فى حق آحاد الناس ، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدى اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ مالم يعلم أنه حرام اعتمادا على الأغلب ، وإنما منعناه إذا كان الأكثر حراما فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدرارات الظلمة فى زماننا لا تجرى مجرى ذلك وأنها تفارقه من وجهين قاطعين

أحدهما : أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفىء والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شئ فى يد السلطان ؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره .

والوجه الثانى : أن الظلمة فى العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يطيعون السلاطين فى أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يكثرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن بأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا فى استخدامهم والتكثر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء فى حضورهم ومغيبهم . فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد فى الخدمة ثانيا ، وبالثناء والدعاء ثالثا ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا ، وبتكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسا ، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوى أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان فى فضل الشافعى رحمه الله مثلا ؛ فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعانى فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين . ففى أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك معصية ـ على ما سنبين فى الباب الذى يلى هذا ـ فإذاً قد تبين مما تقدم مداخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل . فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس فى بيته يساق إليه ذلك ـ لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم ـ فلا يحرم الأخذ ولكن يكره لمعان سننبه عليها فى الباب الذى يلى هذا .

النظر الثانى من هذا الباب : فى قدر المأخوذ وصفة الآخذ

ولنفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس الفىء والمواريث فإن ما عداه مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس فىء أو خمس غنيمة ، وما كان من ملك السلطان مما أحياه أو اشتراه فله أن يعطى

ما شاء لمن شاء . وإنما النظر فى الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب ، فأما الغنى الذى لا مصلحة فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه ، هذا هو الصحيح وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه . وفى كلام عمر رضى الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقا فى بيت المال لكونه مسلما مكثرا جمع الإسلام ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات . فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمرا يقوم به تتعدى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه ، فله فى بيت المال حق الكفاية . ويدخل فيه العلماء كلهم ؛ أعنى العلوم التى تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون . وطلبة هذه العلوم أيضا يدخلون فيه ، فإنهم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العمال ، وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الأجناد المرتزقة الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغى وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء وكل من يحتاج إليه فى ترتيب ديوان الخراج ، أعنى العمال على الأموال الحلال لا على الحرام ، فإن هذا المال للمصالح . والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين وبالأجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر دينى ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يتبعه ؛ فيجوز أن يكون له ولمن يجرى مجراه فى العلوم المحتاج إليها فى مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدرار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين ، أعنى من يعالج منهم بغير أجرة ، وليس يشترط فى هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع الغنى . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة . وليس يتقدر أيضا بمقدار بل هو إلى اجتهاد الامام وله أن يوسع ويغنى وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية فى دفعة واحدة أربعمائة ألف درهم . وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى لجماعة اثنى عشر ألف درهم نقرة فى السنة . وأثبتت عائشة رضى الله عنها فى هذه الجريدة ولجماعة عشرة آلاف ولجماعة ستة آلاف وهكذا . فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شىء . فإن خص واحدا منهم بمال كثير فلا بأس . وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوى الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك فى السلف ولكن ينبغى أن يلتفت فيه إلى المصلحة . ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتشبه به فهذه فائدة الخلع والصلات وضروب التخصيصات وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان . وإنما النظر فى السلاطين الظلمة فى شيئين (أحدهما) أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته ، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان ؟ (والثانى) أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للآحاد أن يأخذوا ؟ أفيجوز لهم الأخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلا ؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى ؟

أما الأول : فالذى نراه أنه لا يمنع أخذ الحق ، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان فى الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء ، إذ قد ورد فى الأمر بطاعة الأمراء[1] والمنع من سل اليد عن مساعدتهم[2] أوامر وزواجر . فالذى نراه : أن الخلافة منعقدة للتكفل

---

(١) حديث « الأمر بطاعة الأمراء » أخرجه البخارى من حديث أنس « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » ولمسلم من حديث أبى هريرة « عليك بالطاعة فى منشطك ومكرهك ... الحديث » وله من حديث أبى ذر « أوصانى النبى صلى الله عليه وسلم أن أسمع وأطيع ولو لعبد مجدع الأطراف » . (٢) حديث « المنع من سل اليد عن مساعدتهم » =

بها من بنى العباس رضى الله عنه ، وأن الولاية نافذة للسلاطين فى أقطار البلاد والمبايعين للخليفة ـ وقد ذكرنا فى كتاب المستظهرى المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار تأليف القاضى أبى الطيب فى الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه ـ والقول الوجيز أنا نراعى الصفات والشروط فى السلاطين تشوفا إلى مزايا المصالح . ولو قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأسا فكيف يفوت رأس المال فى طلب الربح ؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة . فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة . ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة فى أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء فى أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام . وتحقيق هذا قد ذكرناه فى أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد فلسنا نطول الآن به .

وأما الإشكال الآخر وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه ؟ فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب فغلا بعضهم وقال : كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء ولا يدرى أن حصته منه دانق أو حبة فليترك الكل وقال قوم : له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط ، فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين . وقال قوم : له قوت سنة ، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق فى هذا المال فكيف يتركه ؟ وقال قوم : إنه يأخذ ما يعطى والمظلوم هم الباقون . وهذا هو القياس لأن المال ليس مشتركا بين المسلمين كالغنيمة بين الغانمين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكا لهم . وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث . بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالقبض . بل هو كالصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكا لهم ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم ، هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجاز له أن يأخذه والتفضيل جائز فى العطاء . سوى أبو بكر رضى الله عنه فراجعه عمر رضى الله عنه فقال : إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ . وفضل عمر رضى الله عنه فى زمانه فأعطى عائشة اثنى عشر ألفا وزينب عشرة آلاف وجويرية ستة آلاف وكذا صفية . وأقطع عمر لعلى خاصة رضى الله عنهما . وأقطع عثمان أيضا من السواد خمس جنات ، وآثر عثمان عليا رضى الله عنهما بها فقبل ذلك منه ولم ينكر . وكل ذلك جائز فى محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التى أقول فيها : إن كل مجتهد مصيب ، وهى كل مسألة لا نص على عينها ولا على مسألة تقرب منها فتكون فى معناها بقياس جلى كهذه المسألة ومسألة حد الشرب فإنهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنة وحق وأن كل واحد من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضى الله عنهم ، إذ المفضول ما رد فى زمان عمر شيئا إلى الفاضل مما قد كان أخذه فى زمان أبى بكر ، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل فى زمان عمر ، واشترك فى ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرأيين حق . فليؤخذ هذا الجنس دستورا للخلافات التى يصوب فيها كل مجتهد . فأما كل مسألة شذ عن مجتهد فيها نص أو قياس جلى ـ بغفلة أو سوء رأى وكان فى القوة بحيث ينقض حكم المجتهد ـ فلا نقول فيها إن كل واحد مصيب بل المصيب من أصاب النص أو ما فى معنى النص . وقد تحصل من مجموع هذا أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا وأخذ من السلطان خلعة أو إدرارا على التركات أو الجزية لم يصر فاسقا بمجرد أخذه ، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاونته إياهم ودخوله

= أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية » ولمسلم من حديث أبى هريرة « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية » وله من حديث ابن عمر « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له » .

عليهم وثنائه وإطرائه لهم إلى غير ذلك من لوازم لا يسلم المال غالبا إلا بها كما سنبينه .

الباب السادس : فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والاكرام لهم

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال (الحالة الأولى) وهى شرها أن تدخل عليهم (والثانية) وهى دونها أن يدخلوا عليك (والثالثة) وهى الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك .

أما الحالة الأولى : وهى الدخول عليهم فهو مذموم جدا فى الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار ، فننقلها لتعرف ذم الشرع له ، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى فى ظاهر العلم .

أما الأخبار : فإنه لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال « فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم فى دنياهم فهو منهم[1] » وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة . وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولم يرد على الحوض[2] » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء[3] » وفى الخبر « خير الأمراء الذين يأتون العلماء وشر العلماء الذين يأتون الأمراء » وفى الخبر « العلماء أمناء الرسل على عباد الله مالم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم[4] » رواه أنس رضى الله عنه .

وأما الآثار : فقد قال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ! قيل : وماهى قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه . وقال أبو ذرّ لسلمة : ياسلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال سفيان : فى جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك . وقال الأوزاعى : ما من شىء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال سمنون : ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير . وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ مادخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفه لهواهم . وقال عبادة بن الصامت : حب القارئ الناسك الأمراء نفاق وحبه الأغنياء رياء . وقال أبو ذرّ : من كثّر سواد قوم فهو منهم أى من كثّر سواد الظلمة . وقال ابن مسعود رضى الله عنه إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له ، قيل له : ولم ؟ قال لأنه يرضيه بسخط الله . واستعمل عمر بن

الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين

(١) حديث « فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أوكاد يسلم ومن وقع معهم فى دنياهم فهو منهم » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال « ومن خالطهم هلك » . (٢) حديث « سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولم يرد على الحوض » أخرجه النسائى والترمذى وصححه والحاكم من حديث كعب ابن عجرة . (٣) حديث أبى هريرة « أبغض القراء إلى الله عزوجل الذين يأتون الأمراء » تقدم فى العلم .

(٤) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله مالم يخالطوا السلطان ... الحديث » أخرجه العقيلى فى الضعفاء فى ترجمة حفص الابرى وقال حديثه غير محفوظ تقدم فى العلم .

عبد العزيز رجلا فقيل : كان عاملا للحجاج ، فعزله ، فقال الرجل : إنما عملت له شيء يسير ، فقال له عمر : حسبك بصحبته يوما أوبعض يوم شؤما وشرا . وقال الفضيل : ماازداد رجل من ذى سلطان قربا إلاازداد من الله بعدا . وكان سعيد بن المسيب يتجر فى الزيت ويقول إن فى هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين . وقال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من المقامرين . وقال محمد بن سلمة : الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء . ولما خالط الزهرى السلطان كتب أخ له فى الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا قد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ واعلم أن أيسر ما ارتكبت واخف مااحتملت أنك آنست وحشةالظالم وسهلت سبيل البغى بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك قطبا تدور عليك رحى ظلمهم وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم وسلما يصعدون فيه إلى ضلالهم ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ماعمروا فى جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ماأخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ الآية وإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهيئ زادك فقد حضر سفر بعيد ﴿ وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ والسلام

فهذه الأخبار والآثار تدل على ما فى مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد ولكن نفصل ذلك تفصيلا فقهيا تميز فيه المحظور عن المكروه والمباح . فنقول : الداخل على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور .

أما الفعل : فالدخول عليهم فى غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام ؛ ولا يغرنك قول القائل : إنّ ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فتات خبز ذلك صحيح فى غير المغصوب ، أما المغصوب فلا . لأنه إن قيل : إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهى فى محل التسامح ؟ وكذلك الاجتياز فيجرى هذا فى كل واحد فيجرى أيضا فى المجموع والغصب إنما تم بفعل الجميع ، وإنما يتسامح به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه ، فأما إذا كان ذلك طريقا إلى الاستغراق بالاشتراك فحكم التحريم ينسحب على الكل ، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقا اعتمادا على أن كل واحد من المارين إنما يخطو خطوة لاتنقص الملك ، لأن المجموع مفتوت للملك وهو كضربة خفيفة فى التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد ، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصا . فإن فرض كون الظالم فى موضع غير مغصوب كالموات مثلا ،إن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام ، والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستظلال به . فإن فرض كل ذلك حلالا فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله : السلام عليكم ، ولكن إن سجد أوركع أومثل قائما فى سلامه وخدمته كان مكرما للظالم بسبب ولايته التى هى آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية . بل من تواضع لغنى ليس يظالم لأجل غناه - لالمعنى آخر اقتضى التواضع - نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم ؟ فلا يباح إلا مجرد السلام . فأما تقبيل اليد والانحناء فى الخدمة فهو معصية إلا عند الخوف ، أو الإمام عادل أو لعالم أو لمن يستحق ذلك بأمر دينى . قبل

أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يد على كرّم الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه . وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم فى السلام والإعراض عنهم استحقارا لهم وعدّ ذلك من محاسن القربات . فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ، لأن ذلك واجب فلا ينبغى أن يسقط بالظلم . فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم وإذا كان اغلب أموالهم حراما فلا يجوز الجلوس على فرشهم ؛ هذا من حيث الفعل .

فأما السكوت : فهو أنه سيرى فى مجلسهم من الفرش الحرير وأوانى الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ماهو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ماهو فحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام . بل يراهم لابسين الثياب الحرام واكلين الطعام الحرام وجميع مافى أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله .

* فإن قلت : إنه يخاف على نفسه فهو معذور فى السكوت ؟ فهذا حق ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب مالايباح إلا بعذر ، فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه بالعذر . وعند هذا أقول من علم فسادا فى موضع وعلم أنه لايقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجرى ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت ، بل ينبغى أن يحترز عن مشاهدته .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم أو يثنى عليه أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار فى وجهه ، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه ، فإنه فى الغالب لايقتصر على السلام بل يتكلم ولايعدو كلامه هذه الأقسام .

أما الدعاء له : فلا يحل إلا أن يقول : أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك فى طاعته أو مايجرى هذا المجرى . فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما فى معناه فغير جائز قال صلى الله عليه وسلم « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه »(1) ، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ماليس فيه فيكون به كاذبا ومنافقا ومكرما لظالم ، وهذه ثلاث معاص . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق »(2) ، وفى خبر آخر « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام »(3) ، فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والتزكية والثناء على ما يعمل : كان عاصيا بالتصديق وبالإعانة ؛ فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه كما أن التكذيب والمذمة والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة . ولقد سئل سفيان الثورى رضى الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له . وقال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه . فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه وطول بقائه : فإن كان كاذبا عصى معصية الكذب والنفاق ، وإن كان صادقا عصى بحبه بقاء الظالم وحقه أن يبغضه فى الله ويمقته . فالبغض فى الله واجب ، ومحب المعصية والراضى بها عاص . ومن أحب ظالما فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبته وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه . وإن اجتمع فى شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر . وسيأتى

(1) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه » تقدم . (2) حديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » تقدم . (3) حديث « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام » تقدم أيضا .

فى كتاب الإخوة والمتحابين فى الله وجه الجمع بين البغض والحب . فإن سلم من ذلك كله وهيهات ! فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه فى النعمة ويزدرى نعم الله عليه ويكون مقتحما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « يامعشر المهاجرين لاتدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق [1] » وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به فى الدخول ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه وتجميله إياهم إن كان ممن يتجمل به ، وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات . دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك بن مروان فقال : لاأبايع اثنين مااختلف الليل والنهار فإن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين [2] فقال : ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر ، فقال : لا والله لا يقتدى بى أحد من الناس ، فجلد مائة وألبس المسوح .

ولايجوز الدخول عليهم إلا بعذرين (أحدهما) أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام وعلم أنه لو امتنع أوذى أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لاتضطرب الولاية . (والثانى) أن يدخل عليهم فى دفع ظلم عن مسلم سواه أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم ، فذلك رخصة بشرط أن لايكذب ولايثنى ولايدع نصيحة يتوقع لها قبولا فهذا حكم الدخول .

الحالة الثانية : أن يدخل عليك السلطان الظالم زائرا فجواب السلام لابد منه . وأما القيام والإكرام له فلايحرم مقابلة له على إكرامه . فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للإحماد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد . فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام . ولكن الأولى أن لايقوم إن كان معه فى خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ، ويظهر غضبه للدين وإعراضه عمن أعرض عن الله فأعرض الله تعالى عنه . وإن كان الداخل عليه فى جمع فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية . وإن علم أن ذلك لا يورث فسادا فى الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى . ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه فإن كان يقارف ما لايعرف تحريمه وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب . وأما ذكر تحريم مايعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصى مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه . وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقا على وفق الشرع بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم . فإذاً يجب عليه التعريف فى محل جهله والتخويف فيما هو مستجرئ عليه والإرشاد إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم ، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثرا ، وذلك أيضا لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر . وعن محمد بن صالح قال : كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس فى البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها ؟ فبينا أنا عنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له : مالى إذا رأيتك امتلأت منك رعبا ؟ قال حماد : لأنه قال عليه السلام « إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء وإن أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شىء [3] » ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال : تأخذها وتستعين بها قال : ارددها على من ظلمته بها ،

---

(١) حديث « يامعشر المهاجرين لاتدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الشخير أقلوا الدخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لاتزدروا نعم الله عز وجل » وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « دعى ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك فقال : لاأبايع اثنين مااختلف الليل والنهار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين » أخرجه أبو نعيم فى الحلية بإسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد (٣) حديث حماد بن سلمة مرفوعا « إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء وإذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شىء » هذا معضل وروى أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع « من خاف الله خوف الله منه كل شىء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شىء » والعقيلى فى الضعفاء نحوه من حديث أبى هريرة وكلاهما منكر

قال : والله ما أعطيتك إلاماورثته ، قال : لاحاجةلى بها : فتأخذهافتقسمها ، قال : لعلى إنعدلت فى قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل فى قسمتها فيأثم فازوها عنى .

الحالة الثالثة : أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب إذ لاسلامة إلا فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولايحب بقاءهم ولا يثنى عليهم ولايستخبر عن أحوالهم ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ولايتأسف على مايفوت بسبب مفارقتهم ؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم ، وإن غفل عنهم فهوالأحسن . وإذا خطرباله تنعمهم فليذكر ماقاله حاتم الأصم : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد فأما أمس فلا يجدون لذته وإنى وإياهم فى غد لعلى وجل وإنما هو اليوم وماعسى أن يكون فى اليوم ، وماقاله أبوالدردا. إذ قال: أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منهابراء. وكل من أحاط علمه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغى أن يحط ذلك من درجته فى قلبه . فهذا واجب عليه لأن من صدر منه مايكره نقص ذلك من رتبته فى القلب لا محالة . والمعصية ينبغى أن تكره فإنه إماأن يغفل عنها أويرضى بها أويكره ولاغفلة مع العلم ولاوجه للرضا فلا بد من الكراهة ، فليكن جناية كل أحد على حق الله كجنايته على حقك .

* فإن قلت : الكراهة لاتدخل تحت الاختيار فكيف تجب ؟ قلنا : ليس كذلك فإن المحب يكره بضرورة الطبع ماهو مكروه عند محبوبه ومخالف له فإن من لايكره معصية الله لايحب الله وإنما لايحب الله من لايعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة . وإذا أحبه كره ماكرهه وأحب ماأحبه وسيأتى تحقيق ذلك فى كتاب المحبة والرضا .

* فإن قلت : فقدكان علماء السلف يدخلون على السلاطين ؟ فأقول : نعم تعلم الدخول منهم ثم ادخل ؛ كما حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى مكة فلما دخلها قال ائتونى برجل من الصحابة فقيل : ياأمير المؤمنين قد تفانوا فقال : من التابعين ، فأتى بطاوس اليمانى فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال : السلام عليك ياهشام ، ولم يكنه وجلس بإزائه وقال : كيف أنت ياهشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله ؛ فقيل له : أنت فى حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك ، فقال : يا طاوس ما الذى حملك على ماصنعت ؟ قال : وما الذى صنعت ؟ فازداد غضبا وغيظا ؛ قال : خلعت نعليك بحاشية بساطى ولم تقبل يدى ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ولم تكننى وجلست بإزائى بغير إذنى وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ قال : أما ما فعلت من خلع نعلى بحاشية بساطك فإنى أخلعهما بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبنى ولا يغضب على ، وأما قولك لم تقبل يدى فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لايحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب ، وأما قولك لم تكننى فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأولياءه فقال يايحيى ياعيسى ، وكنى أعداءه فقال ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ وأما قولك جلست بإزائى فإنى سمعت أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له هشام : عظنى ، فقال سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لايعدل فى رعيته . ثم قام وهرب . وعن سفيان الثورى رضى الله عنه قال : أدخلت على أبى جعفر المنصور بمنى فقال لى : ارفع الينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله فقدملأت الأرض ظلما وجورا . قال فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا

حاجتك ، فقلت : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهما ، وأرى ههنا أموالا لا تطيق الجمال حملها ، وخرج فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا ألزموا وكانوا يغررون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم . ودخل ابن أبى شميلة على عبد الملك بن مروان فقال له : تكلم ، فقال له : إن الناس لا ينجون فى القيامة من غصصها ومراراتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك وقال : لأجعلن هذه الكلمة مثالا نصب عينى ما عشت . ولما استعمل عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن عامر أتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عنه أبو ذر ـ وكان له صديقا ـ فعاتبه ؛ فقال أبو ذر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرجل إذا ولى ولاية تباعد الله عنه[١] » ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال : أيها الأمير قرأت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول ما أحمق من سلطان وما أجهل ممن عصانى ! ومن أعز ممن اعتز بى ؟ أيها الراعى السوء دفعت إليك غنما سمانا صحاحا فأكلت اللحم ولبست الصوف وتركتها عظاما تتقعقع ، فقال له والى البصرة : أتدرى ما الذى يجرئك علينا ويجنبنا عنك ؟ قال لا ، قال : قلة الطمع فينا وترك الإمساك لما فى أيدينا . وكان عمر بن عبد العزيز واقفا مع سليمان ابن عبد الملك ؛ فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرحل ، فقال له عمر : هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال : ما أكثر الناس ، فقال عمر : خصماؤك يا أمير المؤمنين فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم . وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبى حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب فقال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله ؟ قال يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأما المسىء فكالآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان وقال : ليت شعرى مالى عند الله ؟ قال أبو حازم اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال ﴿ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ قال : فأين رحمة الله قال : قريب من المحسنين ثم قال سليمان : يا أبا حازم أى عباد الله أكرم ؟ قال : أهل البر والتقوى قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال : فأى الكلام أسمع ؟ قال قول الحق عند من تخاف وترجوا قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها ، قال : فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره ، قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : أو تعفينى ؟ قال : لابد فإنها نصيحة تلقيها إلى ، قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا ، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال له رجل من جلسائه : بئسما قلت : قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . قال : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال : أن تأخذه من حله فتضعه فى حقه ، فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال : من يطلب الجنة ويخاف من النار . فقال سليمان : ادع لى . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرى الدنيا والآخرة وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى ، فقال سليمان : أوصنى ، فقال : أوصيك وأوجز ، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك . وقال عمر

---

(١) حديث أبى ذر « إن الرجل إذا ولى ولاية تباعد الله عزوجل منه » لم أقف له على أصل .

ابن عبد العزيز لأبي حازم : عظني ، فقال : اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم أنظر إلى ماتحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن ، فلعل تلك الساعة قريبة . ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم ياأعرابي ، فقال : ياأمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ماتحب إن قبلته ، فقال : ياأعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا تأمن غشه فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ؟ فقال الأعرابي : ياأمير المؤمنين إنه قد تكنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليه فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعا وفي الأمة خسفا وعسفا وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : ياأعرابي أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك . قال : أجل ياأمير المؤمنين ولكن لك لا عليك . وحكى أن أبا بكرة دخل على معاوية فقال : اتق الله يامعاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدا ومن الآخرة إلا قربا ، وعلى أثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علما لاتجوزه فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك مايلحق بك الطالب وإنا وما نحن فيه زائل وفي الذي نحن إليه صائرون باق إن خيرا فخير وإن شرا فشر . فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين أعني علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلونهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم . وإن تكلموا بمثل ماذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم . وفي هذا غروران يغتر بهما الحمق (أحدهما) أن يظهر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ . وربما يلبسون على أنفسهم بذلك وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم ، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه في العلم ووقع موقع القبول وظهر به أثر الصلاح فينبغي أن يفرح به ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم ، كمن وجب عليه أن يعالج مريضا ضائعا فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه . فإن كان يصادف في قلبه ترجيحا لكلامه على كلام غيره فهو مغرور (الثاني) أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة . وهذا أيضا مظنة الغرور . ومعياره ما تقدم ذكره .

وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل :

مسألة : إذا بعث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن بل كان حكمه أنه يجب التصدق به على المساكين ـ كما سبق ـ فلك أن تأخذه وتتولى التفرقة ولاتعصى بأخذه ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول :

الأولى أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل .

الغائلة الأولى : أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب ولولا أنه طيب لما كنت تمد يدك إليه ولاتدخله في ضمانك ؛ فإن كان كذلك فلا تأخذه ، فإن ذلك محذور ولايفي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام .

الغائلة الثانية : أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به

على جوازه ثم لايفرقون ، فهذا أعظم من الأول . فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضى الله عنه على جواز الأخذ ويغفلون عن تفرقته وأخذه على نية التفرقة ؛ فالمقتدى والمتشبه به ينبغي أن يحترز عن هذا غاية الاحتراز فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير . وقد حكى وهب بن منبه أن رجلا أتى به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرهه على أكل لحم الخنزير فلم يأكل ، فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل ، فقيل له فى ذلك فقال : إن الناس قد اعتقدوا أنى طولبت بأكل لحم الخنزير ؛ فإذا خرجت سالما وقد أكلت فلا يعلمون ماذا أكلت فيضلون . ودخل وهب ابن منبه وطاوس على محمد بن يوسف ـ أخي الحجاج ـ وكان عاملا وكان فى غداة باردة فى مجلس بارز فقال لغلامه : هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن ـ أى طاوس ـ وكان قد قعد على كرسى فألقى عليه فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه ، فغضب محمد بن يوسف فقال وهب : كنت غنيا عن أن تغضبه لو أخذت الطيلسان وتصدقت به قال : نعم لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه طاوس ـ ولايصنع به ما أصنع به ـ إذن لفعلت .

الغائلة الثانية : أن يتحرك قلبك إلى حبه لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أنفذه إليك ، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك هو السم القاتل والداء الدفين أعنى مايحبب الظلمة إليك ، فإن من أحببته لابد أن تحرص عليه وتداهن فيه . قالت عائشة رضى الله عنها : جبلت النفوس على حب من أحسن إليها . وقال عليه السلام « اللهم لاتجعل لفاجر عندى يدا فيحبه قلبى »[1] بين صلى الله عليه وسلم أن القلب لايكاد يمتنع من ذلك . وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع فقال : ماصنعت بما أعطاك هذا المخلوق ؟ قال : سل أصحابى ؟ فقالوا . أخرجه كله ، فقال . أنشدك الله أقلبك أشد حبا له الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ : لا بل الآن ، قال : إنما كنت أخاف هذا . وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره عزله ونكبته وموته وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله ، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم . قال سلمان وابن مسعود رضى الله عنهما : من رضى بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى ﴿ ولاتركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قيل لاترضوا بأعمالهم فإن كنت فى القوة بحيث لاتزداد حبالهم بذلك فلا بأس بالأخذ . وقد حكى عن بعض عباد البصرة أنه كان يأخذ أموالا ويفرقها فقيل له : ألا تخاف أن تحبهم ؟ فقال : لو أخذ رجل بيدى وأدخلنى الجنة ثم عصى ربه ماأحبه قلبى ، لأن الذى سخره للأخذ بيدى هو الذى أبغضه لأجله شكرا له على تصخيره إياه . وبهذا تبين أخذ المال الآن منهم وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لاينفك عن هذه الغوائل .

مسألة : إن قال قائل : إذا جاز أخذ ماله وتفرقته فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفى وديعته وتنكر وتفرق على الناس ؟ فنقول : ذلك غير جائز لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه ، وليس هذا كما لو بعثه إليك ؛ فإن العاقل لايظن به أنه يتصدق بمال يعلم مالكه فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكه فإن كان ممن يشكل عليه مثله فلا يجوز أن يقبل منه المال مالم يعرف ذلك ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء فى ذمته ؟ فإن اليد دلالة على الملك . فهذا لاسبيل إليه بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندى واحتمل أن تكون له بشراء فى الذمة أو غيره وجب الرد عليه . فإذاً لايجوز سرقة مالهم لامنهم ولاممن أودع عنده . ولايجوز إنكار وديعتهم ويجب الحد على سارق مالهم إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكا لهم فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى .

(١) حديث « اللهم لاتجعل لفاجر عندى يدا فيحبه قلبى » أخرجه ابن مردويه فى التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى المديني فى كتاب : تضييع العمر والأيام مرسلا وأسانيده كلها ضعيفة .

مسألة : المعاملة معهم حرام لأن أكثر مالهم حرام فما يؤخذ عوضا فهو حرام ، فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيا سلم إليهم ، فإن علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الخمار ، وإنما الخلاف فى الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نساءه فهو شبهة مكروهه، هذا فيا يعصى فى عينه من الأموال . وفى معناه بيع الفرس منهم ، لاسيا فى وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم فإن ذلك إعانة لهم بفرسه وهى محظورة . فأما بيع الدراهم والدنانير منهم ومايجرى مجراها مما لايعصى فى عينه بل يتوصل بها فهو مكروه لما فيه من إعانتهم على الظلم لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب ، وهذه الكراهة جارية فى الإهداء إليهم وفى العمل لهم من غير أجرة حتى فى تعليمهم وتعليم أولادهم الكتابة والترسل والحساب ، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله ، ولو انتصب وكيلا لهم يشترى لهم فى الأسواق من غير جعل أو أجرة فهومكروه من حيث الإعانة ، وإن اشترى لهم مايعلم أنهم يقصدون به المعصية كالغلام والديباج للعرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام . فمهما ظهر قصد المعصية بالمبتاع حصل التحريم ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلالتها عليه حصلت الكراهة .

مسألة : الأسواق التى بنوها بالمال الحرام تحرم التجارة فيها ولايجوز سكناها ، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعى لم يحرم كسبه وكان عاصيا بسكناه ، وللناس أن يشتروا منهم ، ولكن لو وجدوا سوقا أخرى فالأولى الشراء منها فإن ذلك إعانة لسكناهم وتكثير لكراء حوانيتهم ، وكذلك معاملة السوق التى لاخراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج ، وقد بالغ قوم حتى تحرزوا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضى التى لهم عليها الخراج فإنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإعانة ، وهذا غلو فى الدين وحرج على المسلمين فإن الخراج قد عم الأراضى ولاغنى بالناس عن ارتفاق الأرض ولامعنى للمنع منه ، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لايطلب خراجها . وذلك مما يطول ويتداعى إلى حسم باب المعاش .

مسألة : معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمهم حرام كمعاملتهم بل أشد . أما القضاة فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغرون الخلق بزيهم فإنهم على زى العلماء ويختلطون بهم ويأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بذوى الجاه والحشمة . فهم سبب انقياد الخلق إليهم . وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من الغصب الصريح ولايقع فى أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولاوجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال بمالهم . قال طاوس : لاأشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه . وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قراؤها أمراءها ⁽¹⁾ » وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء وإنما كان علمهم بالقرآن ومعانيه المفهومة بالسنة . وما وراء ذلك من العلوم فهى محدثة بعدهم . وقد قال سفيان : لاتخالط السلطان ولامن يخالطه . وقال : صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القرطاس وصاحب الليطة بعضهم شركاء بعض . وقد صدق فإن رسول الله

---

(١) حديث « لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه مالم يمالئ قراؤها أمراءها» أخرجه أبو عمرو الدانى فى كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلا ورواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على وابن عمر بلفظ « مالم يعظم أبرارها فجارها ويداهن خيارها شرارها » وإسنادهما ضعيف .

صلى الله عليه وسلم لعن فى الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر [1] وقال ابن مسعود رضى الله عنه « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم [2] » وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] وقال ابن سيرين : لاتحمل للسلطان كتابا حتى تعلم مافيه ، وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة فى زمانه دواة بين يديه وقال : حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حواليهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بغضهم فى الله جميعا . روى عن عثمان بن زائدة أنه سأله رجل من الجند وقال : أين الطريق ؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون متوجها إلى ظلم فيكون هو بإرشاده إلى الطريق معينا . وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحاكة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم ، بل مع الكفار من أهل الذمة ، وإنما هذا فى الظلمة خاصة الآكلين لأموال اليتامى والمساكين والمواظبين على إيذاء المسلمين الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشعائرها . وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدّية ، والفسق لازم لايتعدى ، وكذا الكفر وهو جناية على حق الله تعالى وحسابه على الله وأما معصية الولاة بالظلم وهو متعد فإنما يغلظ أمرهم لذلك وبقدر عموم الظلم وعموم التعدى يزدادون عند الله مقتا فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ومن معاملتهم احترازاً فقد قال صلى الله عليه وسلم ، يقال للشرطى دع سوطك وادخل النار [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أشراط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر [5] » فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة . فمن رؤى على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذى جنى على نفسه إذ تزيا بزيهم ، ومساواة الزى تدل على مساواة القلب ولا يتجانن إلا مجنون ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق ، نعم الفاسق قد يلتبس بأهل الصلاح فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد لأن ذلك تكثير لسوادهم وإنما نزل قوله تعالى ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ فى قوم من المسلمين كانوا يكثرون جماعة المشركين بالمخالطة ، وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع ابن نون إنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم ، فقال : مابال الأخيار ؟ قال : إنهم لايغضبون لغضبى فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم . وبهذا يتبين أن بعض الظلمة والغضب لله عليهم واجب ، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لعن علماء بنى إسرائيل إذ خالطوا الظالمين فى معاشهم [6] » .

---

(١) حديث « أن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لعن فى الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذى حديث غريب . (٢) حديث ابن مسعود « آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائى دون قوله « وشاهده » ولأبى داود لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه » قال الترمذى وصححه وابن ماجه وشاهديه . (٣) حديث جابر لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه قال هم سواء » أخرجه مسلم من حديثه ، وأما حديث عمر فأشار إليه الترمذى بقوله وفى الباب ولابن ماجه من حديثه « إن آخر ما أنزلت آية الربا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة » وهو من رواية ابن المسيب عنه والجمهور على أنه لم يسمع منه . (٤) حديث « يقال للشرطى دع سوطك وادخل النار » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « من أشراط الساعة رجال معهم أسياط كأذناب البقر » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبى أمامة « يكون فى آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر ... الحديث » ولمسلم من حديث أبى هريرة « يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذناب البقر » وفى رواية له صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث » .

(٦) حديث ابن مسعود « لعن الله علماء بنى إسرائيل إذ خالطوا الظالمين فى معايشهم » أخرجه أبوداود والترمذى وابن ماجه « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى : نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم » لفظ الترمذى وقال حسن غريب .

مسألة : المواضع التى بناها الظلمة كالقناطر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغى أن يحتاط فيها وينظر أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة ، والورع الاحتراز ما أمكن وإن وجدعنه معدلا تأكد الورع . وإنما جوزنا العبور وإن وجد معدلا لأنه إذا لم يعرف الأعيان مالكا كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير ، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لايحل العبور عليه أصلا إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير ، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذى يعرفه . وأما المسجد فإن بنى فى أرض مغصوبة أو بخشب مغصوب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلا ولا للجمعة بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة فى الأرض المغصوبة تسقط الفرض وتنعقد فى حق الاقتداء ، فلذلك جوزنا للمقتدى الاقتداء بمن صلى فى الأرض المغصوبة وإن عصى صاحبه بالوقوف فى الغصب . وإن كان من مال لا يعرف مالكه فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذى بناه ولو على بعد وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين . ومهما كان فى المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن يصلى فيه مع اتساع المسجد ، أعنى فى الورع ، قيل لأحمد بن حنبل : ماحجتك فى ترك الخروج إلى الصلاة فى جماعة ونحن بالعسكر ؟ فقال . حجتى أن الحسن وإبراهيم التيمى خافا أن يفتنهما الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضا . وأما الخلوق والتجصيص فلا يمنع من الدخول لأنه غير منتفع به فى الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه ـ وأما البوارى التى فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز افتراشها ، ولكن الورع العدول عنها فإنها محل شبهة . وأما السقاية فحكمها ما ذكرناه وليس عن الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة . وأما الرباطات والمدارس فإن كانت رقبة الأرض مغصوبة أو الآجر منقولا من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير ، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله . وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح ولأن الحرام أغلب على أموالهم إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر .

مسألة : الأرض المغصوبة إذا جعلت شارعا لم يجز أن يتخطى فيه ألبتة وإن لم يكن له مالك معين جاز ، والورع العدول إن أمكن ، فإن كان الشارع مباحا وفوقه ساباط جاز العبور وجاز الجلوس تحت الساباط على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف كما يقع فى الشارع لشغل ، فإذا انتفع بالسقف فى دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام لأن السقف لا يراد إلا لذلك ، وهكذا حكم من يدخل مسجدا أو أرضا مناحة سقف أو حوط بغصب فإنه بمجرد التخطى لا يكون منتفعا بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة فى الحيطان والسقف لحر أو برد تستر عن بصر أو غيره فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام إذ لم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من المماسة بل الانتفاع ، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستظلال به فلا فرق بينهما .

الباب السابع

فى مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها فى الفتاوى

مسألة : سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاما أو نقدا ويشترى به طعاما فمن الذى يحل له أن يأكل منه ؟ وهل يختص بالصوفية أم لا ؟ فقلت : أما الصوفية فلا شبهة فى حقهم إذا أكلوه وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لايخلو عن شبهة ، أما الحل فلأن مايعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية وله أن يطعم غير العيال إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك المعطى ولا يتسلط الخادم على الشراء به التصرف فيه ؟ لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لا تكفى وهو ضعيف ، ثم لا صائر اليه فى الصدقات والهدايا ، ويبعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله فى الخانقاه إذ لاخلاف أن له يطعم منه من يقدم بعدهم ولو ماتوا كلهم أوواحد منهم لايجب صرف نصيبه إلى وارثه ، ولايمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولايتعين له مستحق لأن إزالة الملك إلى الجهة لاتوجب تسليط الآحاد على التصرف فإن الداخلين فيه لاينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة ، وإنما يتصرف فيه الولاة ، والخادم لايجوز له أن ينتصب نائبا عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والمروءة فإن منعهم عنه منعوه عن أن يظهر نفسه فى معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقفه كما ينقطع عمن مات عياله .

مسألة : سئل عن مال أوصى به للصوفية فمن الذى يجوز أن يصرف إليه ؟ فقلت : التصوف أمر باطن لايطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف فى إطلاق اسم الصوفى ، والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل فى خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكرا عندهم فهو داخل فى غمارهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات الصلاح والفقر وزى الصوفية وأن لايكون مشتغلا بحرفة وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة فى الخانقاه . ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم وبعضها ينجبر بالبعض فالفسق يمنع الاستحقاق لأن الصوفى بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة ، فالذى يظهر فسقه وإن كان على زيهم لايستحق ماأوصى به للصوفية ولسنا نعتبر فيه الصغائر . وأما الحرفة والاشتغال بالكسب فانه يمنع هذا الاستحقاق فالدهقان والعامل والتاجر والصانع فى حانوته أو داره والأجير الذى يخدم بأجرة كل هؤلاء لايستحقون ماأوصى به للصوفية ولاينجبر هذا بالزى والمخالطة ، فأما الوراقة والخياطة ومايقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيها ، فإذا تعاطاها لافى حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لايمنع الاستحقاق وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات ، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة فلاتمنع ، وأما الوعظ والتدريس فلا ينافى اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزى والمساكنة والفقر إذ لايتناقض أن يقال صوفى مقرئ وصوفى واعظ وصوفى عالم أو مدرس ، ويتناقض أن يقال صوفى تاجر وصوفى عامل ، وأما الفقر فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية ، وإن كان له مال ولايفى دخله بخرجه لم يبطل حقه ، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خرج وهذه أمور لادليل لها إلا العادات . وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر ولكن من لايخالطهم وهو فى داره أوفى مسجد على زيهم ومتخلق بأخلاقهم فهو شريك فى سهمهم وكأن ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزى فإن لم يكن على زيهم ووجد فيه بقية الصفات

فلا يستحق إلا إذا كان مساكنا لهم فى الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية. فالمخالطة والزى ينوب كل واحد منهما عن الآخر . والفقيه الذى ليس على زيهم هذا حكمه فإن كان خارجا لم يعدّ صوفيا وإن كان ساكنا معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم . وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلايشترط ذلك فى الاستحقاق ، وعدمه لايضره مع وجود الشرائط المذكورة . وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلايخرج بذلك عن جملتهم .

مسألة : ماوقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم ؛ فلغير الصوفى أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أومرتين فإن أمر الأطعمة مبناه على التسامح حتى جاز الانفراد بها فى الغنائم المشتركة ، وللقوال أن يأكل معهم فى دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معايشهم ، وما أوصى به للصوفية لايجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف ، وكذلك من أحضروه من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ممن لهم غرض فى استمالة قلوبهم يحل لهم الأكل برضاهم ، فإن الواقف لايقف إلا معتقدا فيه ماجرت به عادات الصوفية فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام ، فلايجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركة غير جنسهم . وأما الفقيه إذا كان على زيهم وأخلاقهم فله النزول عليهم ، وكونه فقيها لاينافى كونه صوفيا ، والجهل ليس بشرط فى التصوف عند من يعرف التصوف ، ولايلتفت إلى خرافات بعض الحمقى بقولهم : إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب . وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة فى كتاب العلم ، وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود ، وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما . وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهم وأخلاقهم فلهم منعه من النزول عليهم فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية فكأن عدم الزى تجبره المساكنة ولكن برضا أهل الزى ، وهذه أمور تشهد لها العادات وفيها أمور متقابلة لايخفى أطرافها فى النفى والإثبات ومتشابه أوساطها فمن احترز فى مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كما نبهنا عليه فى أبواب الشبهات .

مسألة : سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولايخلو عن غرض وقد حرمت إحداهما دون الأخرى . فقلت : باذل المال لايبذله قط إلا لغرض ، ولكن الغرض إما آجل كالثواب وإما عاجل ، والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدى إليه بطلب محبته إما المحبة فى عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة .

الأول : ماغرضه الثواب فى الآخرة وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجا أوعالما أومنتسبا بنسب دينى أوصالحا فى نفسه متدينا . فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لايحل له أخذه إن لم يكن محتاجا ، وماعلم أنه يعطاه لشرف نسبه لايحل له إن علم أنه كاذب فى دعوى النسب ، وما يعطى لعلمه فلايحل له أن يأخذه إلا أن يكون فى العلم كما يعتقده المعطى ، فإن كان خيل إليه كمالا فى العلم حتى بعثه بذلك على التقرب ولم يكن كاملا لم يحل له ، ومايعطى لدينه وصلاحه لايحل له أن يأخذه إن كان فاسقا فى الباطن فسقا لو علمه المعطى ماأعطاه . وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجميل هو الذى يحبب الخلق إلى الخلق . وكان المتورعون يوكلون فى الشراء من لايعرف أنه وكيلهم حتى لايتسامحوا فى المبيع خيفة من أن يكون ذلك أكلا بالدين فإن ذلك مخطر والتقى خفى لا كالعلم والنسب والفقر فينبغى أن يجتنب الأخذ بالدين ماأمكن .

القسم الثانى : مايقصد به فى العاجل غرض معين كالفقير يهدى إلى الغنى طمعا فى خلعته فهذه هبة بشرط الثواب لايخفى حكمها وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند وجود شروط العقود .

الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين كالمحتاج إلى السلطان يهدى إلى وكيل السلطان وخاصته ومن له مكانة عنده فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال ؛ فلينظر فى ذلك العمل الذى هو الثواب فإن كان حراما كالسعى فى تنجيز إدرار حرام أوظلم إنسان أو غيره حرم الأخذ ، وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه مايأخذه وهى الرشوة التى لايشك فى تحريمها ، وإن كان مباحا لاواجبا ولا حراما وكان فيه تعب بحيث لوعرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفى بالغرض ، وهو جار مجرى الجعالة كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوم ، أو قال اقترح على فلان أن يعيننى فى غرض كذا أو ينعم على بكذا وافتقر فى تنجيز غرضه إلى كلام طويل ، فذلك جعل كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدى القاضى فليس بحرام إذا كان لايسعى فى حرام ، وإن كان مقصود يحصل بكلمة لاتعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذى الجاه أو تلك الفعلة من ذى الجاه تفيد كقوله للبواب لاتغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدى السلطان فقط ، فهذا حرام لأنه عوض من الجاه ، ولم يثبت فى الشرع جواز ذلك بل ثبت مايدل على النهى عنه - كما سيأتى فى هدايا الملوك - وإذا كان لايجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان فى هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه ؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينبه بها على دواء ينفرد بمعرفته كواحد ينفرد بالعلم بنبت يقلع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم كحبة من سمسم فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على علمه ، إذ ليس ينتقل علمه إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل علمه ويبقى هو عالما به ، ودون هذا : الحاذق فى الصناعة كالصيقل مثلا الذى يزيل اعوجاج السيف أو المرآة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل ، ولحذقه بإصابته فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير فى قيمة السيف والمرآة فهذا لا أرى بأسا بأخذ الأجرة عليه ، لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل فى تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل .

الرابع : مايقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدى إليه لالغرض معين ولكن طلبا للاستئناس وتأكيد للصحبة وتوددا إلى القلوب فذلك مقصود للعقلاء ومندوب إليه فى الشرع قال صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا »[1] ، وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان فى الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة فى محبته ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يتمثل فى نفسه غرض معين يبعثه فى الحال أو المآل سمى ذلك هدية وحل أخذها .

الخامس : أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لالمحبته ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمته لكان لايهدى إليه ، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية فى ظاهرها ، فإن كان جاهه بولاية تولاها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلا ، وكان لولا تلك الولاية لكان لايهدى إليه فهذه رشوة عرضت فى معرض الهدية إذ القصد

---

(١) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقى من حديث أبى هريرة ، وضعفه ابن عدى .

بها فى الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ولكن الأمر ينحصر فى جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لايخفى وآية أنه لايبغى المحبة أنه لو ولى فى الحال غيره لسلم المال إلى ذلك الغير ، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا فى كونه حراما ، والمعنى فيه متعارضا فإنه دائر بين الهدية المحضة وبين الرشوة المبذولة فى مقابلة جاه فى غرض معين ، وإذا تعارضت المشابهة القياسية وعضدت الأخبار والآثار أحدهما تعين الميل إليه ، وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البرىء لتوعظ به العامة [1] » ، وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن السحت فقال : يقضى الرجل الحاجة فتهدى له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لاتعب فيها أو تبرع بها لاعلى قصد أجرة ، فلايجوز أن يأخذ بعده شيئا في معرض العوض ، شفع مسروق شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها وقال : لوعلمت مافى قلبك لما تكلمت فى حاجتك ولا أتكلم فيما بقى منها . وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال : سحت . وأخذ عمر رضى الله عنه ربح مال القراض الذى أخذه ولداه من بيت المال وقال : إنما أعطيتما لمكانكما منى إذ علم أنهما أعطيا لأجل جاه الولاية . وأهدت امرأة أبى عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا فكافأتها بجوهر فأخذه عمر رضى الله عنه فباعه وأعطاها ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين . وقال جابر وأبو هريرة رضى الله عنهما : هدايا الملوك غلول . ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية فقال : كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة [2] » أى كان يتقرب إليه لنبوته لالولايته ونحن إنما نعطى للولاية. وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا على صدقات الأزد فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض مامعه وقال : هذا لكم وهذا لى هدية ، فقال عليه السلام : ألا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ، ثم قال : مالى أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لى هدية ألا جلس فى بيت أمه ليهدى له والذى نفسى بيده لايأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله يحمله فلا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قال : اللهم هل بلغت [3] » وإذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضى والولى ينبغى أن يقدر نفسه فى بيت أمه وأبيه فما كان يعطى بعد العزل وهو فى بيت أمه يجوز له أن يأخذه فى ولايته ، ومايعلم أنه ، إنما يعطاه لولايته فحرام أخذه ، وما أشكل عليه فى هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا ؟ فهو شبهة فليجتنبه .

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنه وحسن توفيقه والله أعلم

---

(١) حديث « يأتى على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة ، يقتل البرىء ليوعظ به العامة » لم أقف له على أصل . (٢) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية . أخرجه البخارى من حديث عائشة . (٣) حديث أبي حميد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا إلى صدقات الأزد فلما جاء قال : هذا مالكم وهذا هدية لى . الحديث متفق عليه .

كتاب آداب الالفة والاخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربع العادات الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتنانا . وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا . ونزع الغل من صدورهم فظلوا فى الدنيا أصدقاء وأخدانا . وفى الآخرة رفقاء وخلانا .

والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولا وفعلا وعدلا وإحسانا .

أما بعد : فإنّ التحاب فى الله تعالى والأخوة فى دينه من أفضل القربات ، وألطف مايستفاد من الطاعات فى مجارى العادات . ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين فى الله تعالى وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان ، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلفى وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى ، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب فى ثلاثة أبواب (الباب الأول) فى فضيلة الألفة والأخوة فى الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها . (الباب الثانى) فى حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها . (الباب الثالث) فى حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد بلى بهذه الأسباب .

الباب الأول : فى فضيلة الالفة والاخوة وفى شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

أعلم أنّ الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق . فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر ، ومهما كان المثمر محمودا كانت الثمرة محمودة . وحسن الخلق لاتخفى فى الدين فضيلته وهو الذى مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أكثر مايدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق (١) » وقال أسامة بن شريك : قلنا يارسول الله ماخير ماأعطى الإنسان ؟ فقال : خلق حسن (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم محاسن الإخلاق (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أثقل مايوضع فى الميزان خلق حسن (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحسن الله خلق امرئ وخلقه فيطعمه النار (٥) » وقال صلى الله علته وسلم « ياأباهريرة عليك بحسن الخلق »

كتاب آداب الصحبة

الباب الأول : فى فضيلة الألفة والأخوة

(١) حديث « أول مايدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق » أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة وقال : صحيح الإسناد وقد تقدم . (٢) حديث أسامة بن شريك : يارسول الله ، ماخير ماأعطى الإنسان ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقى ، والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث « أثقل مايوضع فى الميزان خلق حسن » رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء وقال : حسن صحيح

(٥) حديث « ماحسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار » أخرجه ابن عدى والطبراني فى مكارم الأخلاق وفى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبى هريرة . قال ابن عدى : فى إسناده بعض النكرة .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك [١] ، ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة ومهما طاب المثمر طابت الثمرة ، وكيف وقد ورد فى الثناء على نفس الألفة سيما إذا كانت الرابطة هى التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع ، قال الله تعالى مظهرا عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقال ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ أى بالألفة ، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ـ إلى ـ لعلكم تهتدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم فى الثناء على الأخوة فى الدين « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين إذ التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا [٥] » وقال عليه السلام فى الترغيب فى الأخوة فى الله « من آخى أخا فى الله رفعه الله درجة فى الجنة لا ينالها بشىء من عمله [٦] » وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ : إنى أحبك فى الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يارسول الله ؟ فقال : هم المتحابون فى الله تعالى [٧] » ورواه أبو هريرة رضى الله عنه وقال فيه « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء ، فقالوا ، يارسول الله صفهم لنا ؛ فقال : هم المتحابون فى الله والمتجالسون فى الله

---

(١) حديث « ياأبا هريرة عليك بحسن الخلق » قال : وما حسن الخلق ؟ قال « تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك » رواه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن أبى هريرة ولم يسمع منه . (٢) حديث « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف .

(٣) حديث « المؤمن الف مألوف ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف » رواه أحمد والطبرانى من حديث سهل بن سعد ، والحاكم من حديث أبى هريرة وصححه . (٤) حديث « من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف أن ذلك فى الأمير ورواه أبو داود من حديث عائشة « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه ... الحديث » ضعفه ابن عدى ، ولأبى عبد الرحمن السلمى فى آداب الصحبة من حديث على « من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين » . (٥) حديث « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى » الحديث رواه السلمى فى آداب الصحبة ، وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس ، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلى كذاب ، وهو من قول سلمان الفارسى فى الأول من الحزبيات . (٦) حديث « من آخى أخا فى الله عزوجل رفعه الله درجة فى الجنة لاينالها بشىء من عمله » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان من حديث أنس « ما أحدث عبد أخا فى الله الا أحدث الله له درجة فى الجنة » وإسناده ضعيف . (٧) حديث قال أبو ادريس الخولانى لمعاذ : انى أحبك فى الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تنصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة .. الحديث » أخرجه أحمد والحاكم فى حديث طويل : ان أبا ادريس قال : قلت والله انى لأحبك فى الله قال : فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان المتحابين بجلال الله فى ظل عرشه يوم لاظل الا ظله » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند الترمذى من رواية أبى مسلم الخولانى عن معاذ بلفظ « المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » قال حديث حسن صحيح ، ولأحمد من حديث أبى مالك الأشعرى « ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ... الحديث » وفيه « تحابوا فى الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً يفزع الناس يوم القيامة ولايفزعون وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه .

والمتزاورون فى الله (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ماتحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه (٢) » ويقال : إن الأخوين فى الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت فى الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى وحقت محبتى للذين يتحابون من أجلى وحقت محبتى للذين يتباذلون من أجلى وحقت محبتى للذين يتناصرون من أجلى (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن رجلا زار أخا له فى الله ، فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فبنعمة له عندك ؟ قال : لا ، قال : فبم ؟ قال أحبه فى الله قال . فإن الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله (٨) » فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم فى الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم فى الله . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى نبى من الأنبياء : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت الراحة وأما انقطاعك إلى فقد تعززت بى ولكن هل عاديت فى عدوا أو هل واليت فى وليا ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتجعل لفاجر على منة فترزقه منى محبة (٩) » ويروى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام « لو أنك عبدتنى بعبادة أهل السماوات والأرض وحب فى الله ليس وبغض فى الله ليس ماأغنى عنك ذلك شيئا » وقال عيسى عليه السلام : تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم ، قالوا : ياروح الله فمن نجالس ؟ قال : جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد فى عملكم كلامه ومن يرغبكم فى الآخرة عمله . وروى فى الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى

---

(١) حديث أبى هريرة « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ... الحديث » أخرجه النسائى فى سننه الكبرى ورجاله ثقات . (٢) حديث « ماتحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهم إلى الله أشدهما حبا لصاحبه » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح الإسناد .

(٣) حديث « إن الله يقول : حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتحابون من أجلى ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت ، ورواه الحاكم وصححه . (٤) حديث « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى » أخرجه مسلم . (٥) حديث أبى هريرة « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله إمام عادل : الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم . (٦) حديث « مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة » أخرجه ابن عدى من حديث أنس دون قوله « شوقا إليه ورغبة فى لقائه » وللترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة « من عاد مريضا أو زار أخا فى الله ناداه مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » قال الترمذى : غريب . (٧) حديث « إن رجلا زار أخا له فى الله فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٨) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » رواه أحمد من حديث البراء بن عازب ، وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه . والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٩) حديث « اللهم لاتجعل لفاجر على منة ... الحديث » تقدم فى الكتاب الذى قبله .

عليه السلام . ياابن عمران كن يقظانا وارتد لنفسك إخوانا وكل خدن وصاحب لايوازرك على مسرتي فهولك عدو وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : ياداود مالى أراك منتبذا وحيدا ؟ قال : إلهى قليت الخلق من أجلك ، فقال : ياداود كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا وكل خدن لايوافقك على مسرتي فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني . وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال : يارب كيف لي أن يحبنى الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك ؟ قال : خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك . وفي بعضها : خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين [2] » وقال أيضا « ما أحدث عبد أخا في الله إلا أحدث له درجة في الجنة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة يشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة : انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله فيضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس ، عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم : المتحابون في الله [4] » .

الآثار : قال علي رضي الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقا غلقا في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله مانفعني ذلك شيئا . وقال ابن السماك عند موته : اللهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك . وقال الحسن - على ضده - ياابن آدم لايغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع وقال الفضيل في بعض كلامه : هاه ! تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأي عمل عملته ؟ بأي شهوة تركتها ؟ بأي غيظ كظمته ؟ بأي رحم قاطع وصلتها ؟ بأي زلة لأخيك غفرتها ؟ بأي قريب باعدته في الله ؟ بأي بعيد قاربته في الله ؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : هل عملت لي عملا قط ؟ فقال : إلهى إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت ، فقال : إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور فأي عمل عملت لي قال موسى إلهى دلني على عمل هو لك ؟ قال : ياموسى هل واليت لي وليا قط ؟ وهل عاديت في عدوا قط ؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضي الله عنه : مصارمة الفاسق قربان إلى الله وقال رجل لمحمد بن واسع : اني لأحبك في الله ، فقال : أحبك الذي أحببتني له . ثم حول وجهه وقال : اللهم اني

---

(١) حديث « ان أحبكم الى الله الذين يألفون ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث « إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول . اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين » رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل والعرباض بن سارية بسند ضعيف

(٣) حديث « ما أحدث عبد أخا في الله تعالى إلا أحدث الله له درجة في الجنة » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم . (٤) حديث « المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة .. الحديث » رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لى مبغض . ودخل رجل على داود الطائى فقال له : ماحاجتك ؟ فقال : زيارتك ، فقال : أماأنت فقدعملت خيرا حين زرت ، ولكن انظر ماذا ينزل بى أنا إذا قيل لى : من أنت فتزار ؟ أمن الزهاد أنت ؟ لاوالله ، أمن العبادانت ؟ لاوالله أمن الصالحين أنت ؟ لاوالله . ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول : كنت فى الشبيبة فاسقا فلما شخت صرت مرائيا والله للمرائى شر من الفاسق وقال عمر رضى الله عنه : إذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك . وقال مجاهد : المتحابون فى الله إذا التقوا فكشر بعضهم إلى بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس . وقال الفضيل : نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

بيان معنى الأخوة فى الله وتمييزها من الأخوة فى الدنيا

اعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله غامض وينكشف الغطاء عنه بما نذكره : وهو أن الصحبة تنقسم إلى مايقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع فى المكتب أو فى المدرسة أو فى السوق أو على باب السلطان أوفى الأسفار ، وإلى ماينشأ اختيارا ويقصد ، وهو الذى نريد بيانه إذ الأخوة فى الدين واقعة فى هذا القسم لامحالة إذ لاثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها . والصحبة عبارة عن المجالسة والمجاورة . وهذه الأمور لايقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته ، والذى يحب فإما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود ، وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها وإما أن يكون متعلقا بالآخرة وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى فهذه أربعة أقسام :

أما القسم الأول وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن وهو أن يكون فى ذاته محبوبا عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فإن كل جميل لذيذ فى حق من أدرك جماله وكل لذيذ محبوب . واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع ، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعنى حسن الخلقة وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعنى كمال العقل وحسن الأخلاق ، ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لامحالة ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم ، وكل مستحسن فمستلذ به ومحبوب ، بل فى ائتلاف القلوب أمر أغمض من هذا فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة فى صورة ولا حسن فى خلق وخلق ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف (١) » ، فالتناكر نتيجة التباين والائتلاف نتيجة التناسب الذى عبر عنه بالتعارف . وفى بعض الألفاظ « الأرواح جنود مجندة تلتقى فتتشام فى الهواء (٢) » وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال : إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلقا وأطافها حول العرش فأى روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا تواصلا فى الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط (٣) » وروى « أن امرأة بمكة كانت تضحك

(١) حديث « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة والبخارى تعليقا من حديث عائشة . (٢) حديث « الأرواح تلتقى فتتشام فى الهواء » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث على « إن الأرواح فى الهواء جند مجندة تلتقى فتتشام ... الحديث » . (٣) حديث « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « تلتقى » وقال « أحدهم » وفيه ابن لهيعة عن دراج

النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة رضى الله عنها فأضحكتها ، فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبتها ، فقالت : صدق الله ورسوله [1] سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ... الحديث » والحق فى هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب والتناسب فى الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم . وأما الأسباب التى أوجبت تلك المناسبة فليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، وغاية هذيان المنجم أن يقول ، إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضى التناسب والتواد ، وإذا كان على مقابلته أو تربيعه اقتضى التباغض والعداوة . فهذا لو صدق بكونه كذلك فى مجارى سنة الله فى خلق السموات والأرض لكن الإشكال فيه أكثر من الإشكال فى أصل التناسب ، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلا ، ويكفينا فى التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به قال صلى الله عليه وسلم « لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقا دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاء حتى يجلس إليه [2] » وهذا يدل على أن شبه الشىء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان فى عشرة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر ، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير فى الطيران إلا وبينهما مناسبة ، قال فرأى يوما غرابا مع حمامة فعجب من ذلك فقال : اتفقا وليسا من شكل واحد ، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال : من ههنا اتفقا ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا فى الحال فلا بد أن يفترقا ، وهذا معنى خفى تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل كيف تفارقتما ... فقلت قولا فيه إنصاف

لم يك من شكلى ففارقته ... والناس أشكال وألاف

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه فى حال أو مآل بل لمجرد المجانسة والمناسبة فى الطباع الباطنة والأخلاق الخفية . ويدخل فى هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة فى عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة وإلى الماء الجارى والخضرة من غير غرض سوى عينها . وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموما كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها . وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم ، إذ الحب إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمد ولا يذم .

القسم الثانى : أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب ، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة . ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب

---

(١) حديث : ان امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة فذكرت حديث « الأرواح جنود مجندة » أخرجه الحسن بن سفيان فى مسنده بالقصة بسند حسن ، وحديث عائشة عند البخارى تعليقا مختصرا

(٢) حديث : لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه : الحديث أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان موقوفا على ابن مسعود ، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ، ولم يخرجه ولده فى المسند .

والفضة ولا غرض فيهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله أو جاهه ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده وتمهيدهم أمره فى قلبه ، فالمتوسل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب فى الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضا خارج عن الحب لله فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم ، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله بل لينال به الجاه والمال والقبول ، عند الخلق فمحبوبه الجاه والقبول ، والعلم وسيلة إليه والأستاذ وسيلة إلى العلم ، فليس فى شيء من ذلك حب لله إذ لا يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى أصلا . ثم ينقسم هذا أيضا إلى مذموم ومباح فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها .

القسم الثالث : أن يحبه لا لذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه فى الدنيا بل يرجع إلى حظوظه فى الآخرة فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه ، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة فهذا من جملة المحبين فى الله ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم فى ملكوت السماء , إذ قال عيسى صلى الله عليه وسلم من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السماء . ولا يتم التعليم إلا بمتعلم فهو إذن آلة فى تحصيل هذا الكمال ، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذى هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم فى ملكوت السماء فهو محب فى الله ، بل الذى يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقربا إلى الله فأحب طباخا لحسن صنعته فى الطبخ فهو من جملة المحبين فى الله ، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه فى الله ، بل نزيد على هذا ونقول : إذا أحب من يخدمه بنفسه فى غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه فى هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب فى الله ، بل نزيد عليه ونقول : إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التى يقصدها فى دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب فى الله . فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسى والمواسى جميعا من المتحابين فى الله ، بل نزيد عليه ونقول : من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان يصون بها دينه أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب فى الله . ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل فى فى امرأته [1] بل نقول : كل من استهتر بحب الله وحب رضاه وحب لقائه فى الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا فى الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئا إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عزوجل ، بل أزيد على هذا وأقول : إذا اجتمع فى قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعا حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين فى الله ، كمن يحب أستاذه الذى يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال فأحبه من حيث إن فى طبعه طلب الراحة فى الدنيا

---

(١) حديث « الأجر فى الانفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل فى فى امرأته » تقدم .

والسعادة فى الآخرة فهو وسيله إليهما فهو محب فى الله ، وليس من شرط حب الله أن لايحب فى العاجل حظا ألبتة إذ الدعاء الذى أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة﴾ وقال عيسى عليه السلام فى دعائه : اللهم لاتشمت بى عدوى ولاتسؤ بى صديقى ولاتجعل مصيبتى فى دينى ولاتجعل الدنيا أكبر همى فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا ، ولم يقل : ولاتجعل الدنيا أصلا من همى، بل قال : لاتجعلها أكبر همى . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم إنى أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة [1] » وقال « اللهم عافنى من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة [2] » وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة فى الآخرة مناقضا لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة فى الدنيا كيف يكون مناقضا لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ولايحبها اليوم؟ وإنما يحبها غدا لأن الغد سيصير حالا راهنة فالحالة الراهنة لابد أن تكون مطلوبة أيضا ، إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى مايضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهى التى احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى مالايضاد وهى التى لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك ، فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولايحبه أعنى أن يكرهه بعقله لابطبعه ، كما يكره التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أوحزت رقبته لابمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لايشتهيه بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإن ذلك محال ، ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به . والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعلمه أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدهما حظ عاجل والآخر آجل لكان فى زمرة المتحابين فى الله ، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لومنعه العلم مثلا أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذى ينقص بسبب فقده هو لله تعالى ، وله على ذلك القدر ثواب الحب فى الله وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب ، فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هى أكثر مما توصل إليه الفضة ، فإذن يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل فى جملة الحب لله . وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو حب فى الله ، وكذلك كل زيادة فى الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزياده فتلك الزيادة من الحب فى الله فذلك وإن دق فهو عزيز . قال الجريرى : تعامل الناس فى القرن الأول بالدين حتى رق الدين وتعاملوا فى القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء وفى الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة .

القسم الرابع : أن يحب لله وفى الله لالينال منه علما أو عملا أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغمضها ، وهذا القسم أيضا ممكن فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه ، حتى قال بقية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه ؛ وهو كما قال : ويشهد له التجربة فى أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ

---

(١) حديث « اللهم انى أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس فى الحديث الطويل فى دعائه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل وقد تقدم . (٢) حديث « اللهم عافنى من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة » أخرجه أحمد من حديث بسر بن أبى أرطاة نحوه بسند جيد .

ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بنى عامر :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

فإذن المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى مايحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد ؛ ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة فأصل المحبة لايكتفى فيه ويكون اتساع الحب فى تعديه من المحبوب إلى مايكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواه ، فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته ومن أحب إنسانا أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال : إنه قريب العهد بربنا [1] وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء فى مواعيده ومايتوقع فى الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدق ضرب المحبة وأعلاها ـ وسيأتى تحقيقها فى كتاب المحبة من ربع المنجيات إن شاء الله تعالى ـ وكيفما اتفق حب الله فإذا قوى تعدى إلى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يتعدى إلى ماهو فى نفسه مؤلم مكروه ولكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يغمر إدراك الألم ، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاتبة فإن قوة المحبة تثير فرحا يغمر إدراك الألم فيه وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا لانفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاه حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله . وقال سمنون :

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

وسيأتى تحقيق ذلك فى كتاب المحبة . والمقصود أن حب الله إذ قوى أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله فى علم أو عمل وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع . وما من محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخرة جاهل فاسق إلا وجد فى نفسه ميلا إلى العالم العابد ، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لايصيبه منهما خير ولا شر فى الدنيا ولافى الآخرة ، فذلك الميل هو حب فى الله ولله من غير حظ فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر ، فإذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم فى حب الله عز وجل ، ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب فى الحال أو المآل لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه ، وحب جميعهم مكنون فى قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم فى واحد منهم ويفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله

---

(١) حديث : كان اذا حمل اليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال انها قريب عهد بربها . أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس ، وأبو داود فى المراسيل ، والبيهقى فى الدعوات من حديث أبى هريرة دون قوله « وأكرمها... الخ » وقال : إنه غير محفوظ ، وحديث أبى هريرة فى الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون : مسح عينيه بها وما بعده ، وقال الترمذى حسن صحيح .

ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس وقد يغلب بحيث لايبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر قول من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال ٭ وما لجرح إذا أرضاكم ألم ٭ وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه فى نصف ماله أو فى ثلثه أو فى عشره فمقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك فى مقابلته ؛ فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئا مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلا ولا مالا فسلم ابنته التى هى قرة عينه وبذل جميع ماله . قال ابن عمر رضى الله عنهما « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فاقرأه عن الله السلام وقال له : يا رسول الله ما لى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال ؟ فقال : أنفق ماله على قبل الفتح ، قال : فأقره من الله السلام وقل له يقول لك ربك أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ قال : فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر وقال : يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله ويقول أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ قال : فبكى أبو بكر رضى الله عنه وقال : أعلى ربى أسخط أنا عن ربى راض [(١)] » . فحصل من هذا أن كل من أحب عالما أو عابدا أو أحب شخصا راغبا فى علم أو فى خير فإنما أحبه فى الله ولله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه ، فهذا شرح الحب فى الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض فى الله أيضا ولكن نزيده بيانا.

بيان البغض فى الله

اعلم أن كل من يحب فى الله لابد أن يبغض فى الله فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلابد أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده وهذان متلازمان لاينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد فى الحب والبغض فى العادات ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين فى القلب ، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين فى المقاربة والمباعدة وفى المخالفة والموافقة فإذا ظهر فى الفعل سمى موالاة ومعاداة ، ولذلك قال الله تعالى : هل واليت فى وليا وهل عاديت فى عدوا ؟ كما نقلناه ، وهذا واضح فى حق من لم يظهر لك إلا طاعاته تقدر على أن تحبه أو لم يظهر لك إلا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه ، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصى فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان ؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالاة والمعاداة وأقول ذلك غير متناقض فى حق الله تعالى كما لايتناقض فى الحظوظ البشرية ؛ فإنه مهما اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، فمن زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكى خدوم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين ، إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكى بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكى عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم ، فكذلك ينبغى أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت

---

(١) حديث ابن عمر : بينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فنزل جبريل فاقرأه من ربه السلام .. الحديث . أخرجه ابن حبان والعقيلى فى الضعفاء ، قال الذهبى فى الميزان : هو كذب .

عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب ، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحبة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة منه .

* فإن قلت : كل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام ؟ فأقول : تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصيته وتكون معه على حالة لو قستها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما وتلك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقك والطاعة لك . فمن وافقك على غرض وخالفك فى آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه ، ولا تبالغ فى إكرامه مبالغتك فى إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ، ولا تبالغ فى إهانته مبالغتك فى إهانة من خالفك فى جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة ؛ فهكذا ينبغى أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى .

* فإن قلت : فبماذا يمكن إظهار البغض؟ فأقول أما فى القول فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ فى القول أخرى . وأما فى الفعل فبقطع السعى فى إعانته مرة وبالسعى فى إساءته وإفساد مآربه أخرى . وبعض هذا أشد من بعض وهى بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما ما يجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها فالأولى فيه الستر والإغماض . أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة فله حكم آخر ـ وسيأتى وفيه خلاف بين العلماء ـ وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة فلا بد من إظهار أثر البغض إما فى الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما فى الاستخفاف وتغليظ القول عليه . وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها ، وكذلك فى الفعل أيضا رتبتان ؛ إحداهما : قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات ، والأخرى : السعى فى إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين ، وهذا لابد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية . أما مالا يؤثر فيه فلا ، مثاله رجل عصى الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطا بها بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لايؤثر فى منعه من شرب الخمر ولا فى بعث وتحريض عليه ، فإذا قدرت على إعانته ليتم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه فليس لك السعى فى تشويشه . أما الإعانة فلو تركتها إظهارا للغضب عليه فى فسقه فلا بأس ، وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية فى أن تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحك فهذا حسن ، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حقك أو حق من يتعلق بك . وفيه نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ إذ تكلم مسطح بن أثاثة فى واقعة الإفك [1] فحلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقه ـ وقد كان يواسيه بالمال ـ فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح ، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان فى مثل عائشة رضى الله عنها ، إلا أن الصديق رضى الله عنه كان كالمجنى عليه فى نفسه بتلك الواقعة والعفو عمن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين . وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك ، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن إحسانك إليه لأن فى الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم

---

(١) حديث : كلام مسطح فى الإفك وهجر أبى بكر له حتى نزلت : ولا يأتل أولوا الفضل منكم . الآية . متفق عليه من حديث عائشة .

وحق المظلوم أولى بالمراعاة وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن فى حقك العفو والصفح وطرق السلف قد اختلفت فى إظهار البغض مع أهل المعاصى وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره ، فأما من عصى الله فى نفسه فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم ، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة . فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر فى أدنى كلمة ، حتى هجر يحيى بن معين لقوله : إنى لا أسأل أحدا شيئا ولو حمل السلطان إلى شيئا لأخذته . وهجر الحارث المحاسبى فى تصنيفه فى الرد على المعتزلة وقال : إنك لابد تورد أولا شبهتهم وتحمل الناس على التفكر فيها ثم ترد عليهم ، وهجر أبا ثور فى تأويله قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته[1] » وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال ، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطرار الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلا فى المعاداة والبغض وله وجه ولكن قد تلتبس به المداهنة فأكثر البواعث على الإغضاء عن المعاصى المداهنة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها ، وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبى الأحمق بأنه ينظر بعين الرحمة ومحك ذلك أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول إنه قد سخر له والقدر لاينفع منه الحذر ، وكيف لايفعله وقد كتب عليه فمثل هذا قد تصح له نية فى الإغماض عن الجناية على حق الله وإن كان يغتاظ عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مداهن مغرور بمكيدة من مكايد الشيطان فليتنبه له .

* فإن قلت : فأقل الدرجات فى إظهار البغض الهجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه ؟ فأقول : لايدخل ذلك فى ظاهر العلم تحت التكليف والايجاب فإنا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ما كانوا يهجرون بالكلية بل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له ، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد . فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته ، ومقتضى الأحوال فى هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون فى رتبة الفضائل ولا تنتهى إلى التحريم والإيجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لايتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدى إفراط الحب واستيلاؤه ، وذلك لايدخل فى الفتوى وتحت ظاهر التكليف فى حق عوام الخلق أصلا .

بيان مراتب الذين يبغضون فى الله وكيفية معاملتهم

* فإن قلت : إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجبا فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفساق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجميعهم مسلكا واحدا أم لا ؟ فاعلم أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفا فى عقده أو فى عمله ، والمخالف فى العقد إما مبتدع أو كافر والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت والساكت إما بعجزه أو باختياره : فأقسام الفساد فى الاعتقاد ثلاثة :

الأول : الكفر ؛ فالكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والإرقاق وليس بعد هذين إهانة ، وأما الذمى فإنه لايجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى أضيق الطرق وبترك المفاتحة بالسلام ، فإذا قال :

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

السلام عليك ، قلت : وعليك . والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهى ما يقوى منها إلى حد التحريم قال الله تعالى ﴿ لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم « المسلم والمشرك لاتتراءى ناراهما [1] » ، وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ الآية .

الثانى : المبتدع الذى يدعو إلى بدعته . فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى لأنه لايقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة وإن كان ممن لايكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لامحالة ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعد ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله إذ لايدعى لنفسه الإسلام واعتقاد الحق . أما المبتدع الذى يدعو إلا البدعة ويزعم أن مايدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعد ، فالاستحباب فى إظهار بغضه ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد ، وإن سلم فى خلوة فلابأس برد جوابه ، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يقبح فى نفسه بدعته ويؤثر فى زجره فترك الجواب أولى لأن جواب الإسلام وإن كان واجبا فيسقط بأدنى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان فى الحمام أو فى قضاء حاجته وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض ، وإن كان فى ملأ فترك الجواب أول تنفيرا للناس عنه وتقبيحا لبدعته فى أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لاسيما فيما يظهر للخلق قال عليه السلام « من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ومن أهان صاحب بدعة أمنه الله يوم الفزع الأكبر ومن ألان له وأكرمه أو لقيه ببشر فقد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم [2] » .

الثالث : المبتدع العامى الذى لايقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون فالأولى أن لايقابح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به فى النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب ، فإن لم ينفع النصح وكان فى الإعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه تأكد الاستحباب فى الإعراض ، وإن علم أن ذلك لايؤثر فيه لجمود طبعه ورسوخ عقده فى قلبه فالإعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ فى تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها . وأما العاصى بفعله وعمله لا باعتقاده فلا يخلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والتضريب بين الناس والمشى بالنميمة وأمثالها . أو كان مما لايقتصر عليه ويؤذى غيره وذلك ينقسم إلى مايدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذى يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدعو غيره إلى فعله كالذى يشرب ويزنى ، وهذا الذى لايدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة ، وكل واحد فإما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر ، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولا نسلك بالكل مسلكا واحدا .

(القسم الأول) وهو أشدها : ما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق . ثم هؤلاء

---

(١) حديث « المؤمن والمشرك لاتراءى ناراهما » رواه أبو داود والترمذى من حديث جرير « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يارسول الله ولم ؟ قال « لاتراءى ناراهما » ورواه النسائى مرسلا وقال البخارى : الصحيح أنه مرسل

(٢) حديث « من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والهروى فى ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

ينقسمون إلى من يظلم فى الدماء وإلى من يظلم فى الأموال وإلى من يظلم فى الأعراض وبعضها أشد من بعض فالاستحباب فى إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جدا ومهما كان يتوقع من الإهانة زجرا لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه آكد وأشد. (الثانى) صاحب الماخور الذى يهيئ أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق فهذا لايؤذى الخلق فى دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم، وإن كان وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث إنه متعد على الجملة إلى غيره فهو شديد، وهذا أيضا يقتضى الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعا من الزجر له أو لغيره. (الثالث) الذى يفسق فى نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه فى وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهى عن المنكر واجب، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع، فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه، فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال «الأعمال بالنيات إذ فى الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفى العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتى فيه القلب فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح، وقد يكون رفقه عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته فى جاه أومال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة وكل راغب فى أعمال الدين مجتهد مع نفسه فى التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال، والقلب هو المفتى فيه وقد يصيب الحق فى اجتهاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة. وسيأتى بيان هذه الدقائق فى كتاب الغرور من ربع المهلكات. ويدل على تخفيف الأمر فى الفسق القاصر الذى هو بين العبد وبين الله ماروى أن شارب خمر ضرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعود، فقال واحد من الصحابة . لعنه الله ما أكثر مايشرب، فقال صلى الله عليه وسلم «لا تكن عونا للشيطان على أخيك (١)» أو لفظا هذا معناه وكان هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ.

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لايصلح للصحبة كل إنسان. قال صلى الله عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل (٢)» ولابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها فى صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة إذ معنى الشرط مالا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط. ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية: أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا. وأما الدينية فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات

(١) حديث «ان شارب خمر ضرب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ... الحديث» وفيه «لاتكن عونا للشيطان على أخيك» أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة (٢) حديث «المرء على دين خليله .. الحديث» أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح ان شاء الله.

فى طلب القوت ، ومنها الاستعانة فى المهمات فيكون عدة فى المصائب وقوة فى الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة فقد قال السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك . وروى فى غريب التفسير فى قوله تعالى ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ قال يشفعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم . ويقال إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه ؛ ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد ؛ فهذه فوائد تستدعى كل فائدة شروطا لاتحصل إلا بها ، ونحن نفصلها : أما على الجملة فينبغى أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولامبتدع ولاحريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير فى صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت . قال على رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه وللشىء من الشىء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لايدرى ولذلك قال الشاعر :

إنى لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه أدرى فأرصدوا الجنون فنون

ولذلك قيل : مقاطعة الأحمق قربان إلى الله . وقال الثورى : النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة ، ونعنى بالعاقل الذى يفهم الأمور على ماهى عليه إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ماهى عليه ولكن إذا غلبه غضب أوشهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ماهو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير فى صحبته . وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة فى صحبته لأن من يخاف الله لايصر على كبيرة ومن لايخاف الله لاتؤمن غائلته ولايوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض . وقال تعالى ﴿ ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وقال ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ وفى مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأما المبتدع ففى صحبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته ؟ وقد قال عمر رضى الله عنه فى الحث على طلب التدين فى الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب قال: عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء . ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك مايغلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشى الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولاتطعه على سرك واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى . وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردى فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يابنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها ، اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولتما أمرا أمرك وإن تنازعتما آثرك ؛ فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائما بجميعها . قال ابن أكثم : قال المأمون فأين هذا ؟ فقيل له : أتدرى لم أوصاه بذلك ؟ قال

لا . قال : لأنه أراد أن لايصحب أحدا . وقال بعض الأدباء : لاتصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك فيكون معك فى النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسنتك ويطوى سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك .

وقال على رضى الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدعك ... شتت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لاتصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلم منه شيئا فى أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئا فى أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلو كله فلايشبع منه . وآخر مر كله فلايؤكل منه ، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط . وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لاتصحب خمسة : الكذاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، والأحمق فإنك لست منه على شىء يريد أن ينفعك فيضرك . والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ماتكون إليه ، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة ، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها ، فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لاينالها . وقال الجنيد : لأن يصحبنى فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى قارىء سيء الخلق . وقال ابن أبى الحوارى : قال لى أستاذى أبو سليمان : ياأحمد لا تصحب إلا أحد رجلين : رجلا ترتفق به فى أمر دنياك ، أو رجلا تزيد معه وتنتفع به فى أمر آخرتك ، والاشتغال بغير هذين حمق كبير . وقال سهل بن عبدالله اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين . واعلم أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة ، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس مايشترط للصحبة فى مقاصد الدنيا مشروطا للصحبة فى الآخرة والأخوة كما قال بشر : الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به . وقلما تجتمع هذه المقاصد فى واحد بل تتفرق على جمع فتتفرق الشروط فيهم لا محالة . وقد قال المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لايستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لايحتاج إليه قط : ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذى لاأنس فيه ولانفع . وقد قيل : مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ، فمنها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل الذى ينتفع به فى الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال ، ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذى يصلح للآخرة دون الدنيا ، ومنها ماله ثمر وظل جميعا ، ومنها ماليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولاطعم فيهما ولاشراب ، ومثله من الحيوانات الفارة والعقرب ، كما قال تعالى ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ وقال الشاعر .

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم ... لايستوون كما لايستوى الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته ... وذاك ليس له طعم ولاثمر

فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضى الله عنه : الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة ، ويروى مرفوعا . وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى ﴿ واتبع سبيل من أناب الى ﴾ ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها . قال سعيد بن المسيب : لاتنظروا الى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لاسلامة فى مخالطتهم وانما

السلامة فى الانقطاع عنهم . قال الله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أى سلامة والألف بدل من الهاء ، ومعناه إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من معانى الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع فى ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقها . وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدرى صاحبه ، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة . قال على عليه السلام : أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : ماأوقعنى فى بلية إلا صحبة من لاأحتشمه . وقال لقمان : يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر .

الباب الثانى : فى حقوق الأخوة والصحبة

اعلم أن عقد الأخوه رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح ـ كما سبق ذكره فى كتاب آداب النكاح ـ فكذا عقد الأخوة ، فلأخيك عليك حق فى المال والنفس وفى اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : فى المال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى [١] » وإنما شبههما باليدين لاباليد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الأخوان إنما تتم أخوتهما إذا ترافقا فى مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء والمشاركة فى المآل والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار . والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب .

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال فان أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير فى حق الأخوة .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك فى مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته فى المال قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهى العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا ، كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النورى فبادر إلى السياف ليكون هو أول مقتول فقيل له فى ذلك فقال : أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم فى حكاية طويلة ، فإن لم تصادف نفسك فى رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد فى الباطن وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها فى العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين ، روى أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل

الباب الثانى : فى حقوق الأخوة والصحبة

(١) حديث « مثل الأخوين مثل اليدين ... الحديث » تقدم فى الباب قبله .

كان قد آخاه فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة فى الله وتقول هذا ، ومن كان فى الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغى أن لا تعامله فى الدنيا قال أبو حازم : إذا كان لك أخ فى الله فلا تعامله فى أمور دنياك وإنما أراد به من كان فى هذه الرتبة .

وأما الرتبة العليا : فهى التى وصف الله تعالى المؤمنين بها فى قوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى كانوا خلطاء فى الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نعلى ، لأنه أضافه إلى نفسه . وجاء فتح الموصلى إلى منزل لأخ له وكان غائبا ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاها فقال : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورا بما فعل . وجاء رجل إلى أبى هريرة رضى الله عنه وقال : إنى أريد أن أواخيك فى الله فقال : أتدرى ما حق الإخاء ؟ قال : عرفنى ، قال : أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ؟ قال : فاذهب عنى . وقال على بن الحسين رضى الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده فى كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال لا . قال فلستم بإخوان . ودخل قوم على الحسن رضى الله عنه فقالوا : يا أبا سعيد أصليت ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ، قال : ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلغنى أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال : إنى أريد أن أرافقك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أملك لشيئك منك : قال : لا ، قال : أعجبنى صدقك ، قال : فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه وكان لا يصحب إلا من يوافقه وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم فى بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها فى القصعة وردها إلى صاحب الهدية ، فلما جاء رفيقه قال : أين الشراك ؟ قال : ذلك الثريد الذى أكلته إيش كان ؟ قال : كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة . قال : إسمح يسمح لك . وأعطى مرة حمارا كان لرفيقه ـ بغير إذنه ـ رجلا رآه راجلا فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك . قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : أخى فلان أحوج منى إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن مسروقا ادان دينا ثقيلا وكان على أخيه خيثمة دين قال : فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم ولما آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فيهما [1] فآثره بما آثره به ، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة والبداية إيثار والإيثار أفضل من المساواة . وقال أبو سليمان الدارانى : لو أن الدنيا كلها لى لجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقللتها له . وقال أيضا : إنى لألقم اللقمة أخا من إخوانى فأجد طعمها فى حلقى . كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال على رضى الله تعالى عنه : لعشرون درهما أعطيها أخى فى الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضا : لأن أصنع صاعا من طعام وأجمع عليه إخوانى فى الله أحب إلى من أن أعتق رقبة . واقتداء الكل فى الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم منى فقال « ما من صاحب يصحب صاحبا ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه [2] » فأشار بهذا إلى أن الإيثار

---

(١) حديث « لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله فيهما » رواه البخارى من حديث أنس . (٢) حديث « أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين =

هو القيام بحق الله فى الصحبة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله لاتفعل فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل(١) وقال صلى الله عليه وسلم « ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه (٢) » وروى أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك : كف يدك حتى يجىء صاحب البيت : فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل ، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقا فدخل الحسن وقال : يامويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضا حتى ظهرت أنت وأصحابك . وأشار بهذا إلى أن الانبساط فى بيوت الإخوان من الصفاء فى الأخوة كيف وقد قال الله تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ وقال ﴿ أو ماملكتم مفاتحه ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد ، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وأذن لهم فى الانبساط فى طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثانى : فى الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات
والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضا لها درجات كما للمواساة بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة : قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية ، فقال : ماهذا ؟ قال : لما أسديته إلى ؛ فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى . قال جعفر بن محمد : إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائى مخافة أن أردهم فيستغنوا عنى : هذا فى الأعداء فكيف فى الأصدقاء ؟ وكان فى السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه مالم يروا من أبيهم فى حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لايعرفه أخوه . وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها . قال ميمون ابن مهران : من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا وإن لله أوانى فى أرضه وهى القلوب فأحب الأوانى إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها ، أصفاها من الذنوب وأصلبها فى الدين وأرقها على الإخوان(٣) » وبالجملة فينبغى أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لاتغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل

= أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ... الحديث » لم أقف له على أصل (١) حديث « ستر حذيفة للنبى صلى الله عليه وسلم بثوب حتى اغتسل ثم ستره سلى الله عليه وسلم لحذيفة حتى اغتسل » لم أجده أيضا (٢) حديث « مااصطحب اثنان قط الا كان أحبهما الى الله أرفقهما بصاحبه » تقدم فى الباب قبله بلفظ « أحدهما حبا لصاحبه » .

(٣) حديث « ان لله أواني فى أرضه وهى القلوب فأحب الأوانى الى الله أصفاها وأصلبها » أخرجه الطبرانى من حديث أبي عتبة الخولانى الا أنه قال « ألينها وأرقها » وإسناده جيد .

تقوم بحاجته كأنك لاتدرى أنك قمت بها ، ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها بل تتقلد منة بقبوله سعيك فى حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغى أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد فى البداية بالإكرام فى الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة . وقال الحسن : من شيع أخاه فى الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة . وفى الأثر « مازار رجل أخا فى الله شوقا إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة [1] » وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فأعينوهم أوكانوا نسوا فذكروهم . وروى « إن ابن عمر كان يلتفت يمينا وشمالا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال : أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال : إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعنته [2] » وفى رواية : وعن اسم جده وعشيرته . وقال الشعبى فى الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه : تلك معرفة النوكى . وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليسى ، وقال : ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثا من غير حاجة له إلى فعلمت ما مكافأته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : لجليسى على ثلاث : إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى ﴿ رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى الشفقة والإكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور فى مسرة دونه بل يتنغص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

الحق الثالث : فى اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه فى طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، وليسكت عن أسراره التى بثها إليه ولا يبثها إلى غيره ألبتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئا منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن القدح فى احبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذى سبك من بلغك . وقال أنس « كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا بشىء يكرهه [3] » والتأذى يحصل أولا من المبلغ ثم من القائل ، نعم لاينبغى أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه فإن السرور به أولا يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد . وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة فى السكوت فإذ ذاك لا يبالى بكراهته فإن ذلك إحسان إليه فى التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة فى الظاهر .

أما ذكر مساوية وعيوبه ومساوى أهله فهو من الغيبة وذلك حرام فى حق كل مسلم ويزجرك عنه أمران :

أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئا واحدا مذموما فهون على نفسك ما تراه من أخيك

---

(١) حديث « مازار رجل أخا فى ... الحديث » تقدم فى الباب قبله . (٢) حديث ابن عمر « إذا أحببت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته ... الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذى من حديث يزيد بن نعامة وقال غريب ، ولايعرف ليزيد بن نعامة سماع من النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) حديث أنس « كان لايواجه أحدا بشىء يكرهه » أخرجه أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى فى اليوم والليلة بسند ضعيف .

وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه فى تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب ؟ وكل مالاتصادفه من نفسك فى حق الله فلا تنتظره من أخيك فى حق نفسك فليس حقك عليه بأكثر من حق الله عليك .

والأمر الثانى : أنك تعلم أنك لو طلبت منزها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساو فإذا غلبت المحاسن المساوى فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبدا يحضر فى نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ المساوى والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام « استعيذوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره [1] » وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقبيحه أيضا . روى أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام : « أنت بالأمس تثنى عليه واليوم تذمه ؟ » فقال : والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أرضانى بالأمس فقلت أحسن ماعلمت فيه وأغضبنى اليوم فقلت أقبح ماعلمت فيه فقال عليه السلام : « إن من البيان لسحرا [2] » وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر ، ولذلك قال فى خبر آخر : « البذاء والبيان شعبتان من النفاق [3] » وفى الحديث الآخر « إن الله يكره لكم البيان كل البيان » وكذلك قال الشافعى رحمه الله : ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصى الله ولا يطيعه . فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل وإذا جعل مثل هذا عدلا فى حق الله فبأن تراه عدلا فى حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى . وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهى عنه أيضا ، وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لاتعلمه وعليك أن تحمل ماتشاهد على سهو ونسيان إن أمكن ، وهذا الظن ينقسم إلى مايسمى تفرسا وهو الذى يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكا ضروريا لايقدر على دفعه ، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان ، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأردإ من غير علامة تخصه به ، وذلك جناية عليه بالباطن وذلك حرام فى حق كل مؤمن . إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث [5] » وسوء الظن

---

(١) حديث « استعيذوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره » أخرجه البخارى فى التاريخ من حديث أبى هريرة بسند ضعيف والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى سعيد بسند صحيح « تعوذوا بالله من جار السوء فى دار المقام » . (٢) حديث أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه ... الحديث » وفيه « فقال صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحرا ... أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك من حديث أبى بكرة إلا أنه ذكر المدح والذم فى مجلس واحد لا يومين ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضا .

(٣) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٤) حديث « إن الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء » أخرجه الحاكم فى التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله « وعرضه » ورجاله ثقات إلا أن أبا على النيسابورى قال: ليس هذا عندى من كلام النبى صلى الله عليه وسلم إنما هو عندى من كلام ابن عباس . ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ، ولمسلم من حديث أبى هريرة « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . (٥) حديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

يدعو إلى التجسس والتحسس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاتحسسوا ولاتجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا (١) » والتجسس فى تطلع الأخبار والتحسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . ويكفيك تنبيها على كمال الرتبة فى ستر القبيح وإظهار الجميل أن الله تعالى وصف به فى الدعاء فقيل : يامن أظهر الجميل وستر القبيح . والمرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستار العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العبيد فكيف لاتتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك ؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ قالوا : نستره ونغطيه ، قال : بل تكشفون عورته ! قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ فقال : أحدكم يسمع بالكلمة فى أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها . واعلم أنه لايتم إيمان المرء مالم يحب لأخيه مايحب لنفسه . وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولاشك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوى والعيوب ، ولو ظهر له منه نقيض ماينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه فما أبعده إذا كان ينتظر منه مالا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله ، وويل له فى نص كتاب الله تعالى حيث قال (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية . ومنشأ التقصير فى ستر العورة أو السعى فى كشفها الداء الدفين فى الباطن وهو الحقد والحسد فإن الحقود الحسود يملأ باطنه بالخبث ولكن يحبسه فى باطنه ويخفيه ولا يبديه مهمالم يجد له مجالا وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء ويترشح الباطن بخبثه الدفين . ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى ، قال بعض الحكماء : ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد ، ولايزيد لطف الحقود إلا وحشة منه ، ومن فى قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره مخطر وقلبه خبيث لايصلح للقاء الله . وقد روى عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال : كنت باليمن ولى جار يهودى يخبرنى عن التوراة فقدم على اليهودى من سفر فقلت إن الله قد بعث فينا نبيا فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة ، فقال اليهودى صدقت ولكنكم لاتستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به ، إنا نجد نعته ونعت أمته فى التوراة : إنه لايحل لامرئ أن يخرج من عتبة بابه وفى قلبه سخيمة على أخيه المسلم . ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذى استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا فى كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لايختلفان إلا بالبدن . هذه حقيقة الأخوة وكذلك لايكون بالعمل بين يديه مرائيا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام « من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة (٢) » وفى خبر آخر « فكأنما أحيا موءودة (٣) » وقال عليه السلام « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة (٤) » وقال « المجالس بالأمانة

---

(١) حديث « لاتحسسوا ولاتجسسوا ولاتقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذى قبله . (٢) حديث « من ستر عورة أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال « يوم القيامة » ولم يقل « فى الدنيا » ولمسلم من حديث أبى هريرة « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » وللشيخين من حديث ابن عمر « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . (٣) حديث « فكأنما أحيا موءودة من قبرها » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم من حديث عقبة بن عامر « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة » زاد الحاكم « من قبرها » وقال صحيح الإسناد .

(٤) حديث « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث جابر وقال حسن .

إلا ثلاثة مجالس: مجلس يسفك فيه دم حرام ومجلس يستحل فيه فرج حرام ومجلس يستحل فيه مال من غير حله [١]»، وقال صلى الله عليه وسلم «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه مايكره [٢]»؛

قيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال. أنا قبره. وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقيل: إن قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه، أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري به. فمن هذا يجب مقاطعة الحمق والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم. وقد قيل لآخر. كيف تحفظ السر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر. وقال آخر: أستره واستر أني أستره وعبر عنه ابن المعتز فقال:

ومستودعي سرا تبوأت كتمه . فأودعته صدري فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه:

وما السر في صدري كثاو بقبره ... لأني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أنساه حتى كأنني ... بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بيني وبينه ... عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وأفشى بعضهم سرا له إلى أخيه ثم قال له. حفظت؟ فقال: بل نسيت. وكان أبو سعيد الثوري يقول: إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرا وكتم سرك فاصحبه. وقيل لأبي يزيد: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك مايعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله. وقال ذو النون: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوما ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها. وقد قال بعض الحكماء. لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه. بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل:

وترى الكريم إذا تصرم وصله ... يخفي القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله ... يخفي الجميل ويظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل ـ يعني عمر رضي الله عنه ـ يقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خمسا: لا تفشين له سرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا تجرين عليه كذبا، ولا تعصين له أمرا، ولا يطلعن منك على خيانة فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف. ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك قال ابن عباس: لا تمار سفيها فيؤذيك ولا حليما فيقليك. وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة [٣]» هذا مع أن تركه مبطلا واجب، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر النصب. وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع

---

(١) حديث «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس .. الحديث» أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه
(٢) حديث «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة لا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه مايكره» أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلا والحاكم وصححه من حديث ابن عباس «إنكم تجالسون بينكم بالأمانة».
(٣) حديث «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ... الحديث» تقدم في العلم.

يقع أولا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان . وقال عليه السلام « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم [1] » وأشد الاحتقار المماراة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسبه إلى الجهل والحمق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ماهو عليه وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش . وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب وقال : ذروا المراء لقلة خيره وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان [2] » وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته . وقال عبد الله ابن الحسن إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم . وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة وقد قال الحسن : لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل . وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحمق والجهل ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامنه الأخوة والمصافاة ؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه [3] » وقد قال عليه السلام « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق [4] » والمماراة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلا . وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه بل قالوا ينبغي أن يقوم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول : أعطني من مالك شيئا ، فكان يلقي إلي كيسه فآخذ منه ما أريد ، فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالا فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء . واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الحيري موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم ، وهو كما قال .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضا النطق بالمحاب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم ، والسكوت معناه كف الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يحب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها ، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها . فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء وقد

---

(١) حديث « لاتدابروا ولاتباغضوا ولاتحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بعضه قبل هذا بسبعة أحاديث (٢) حديث أبي أمامة « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب وقال ذروا المراء لقلة خيره فإن نفعه قليل فانه يهيج العداوة بين الإخوان » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي الدرداء وواثلة وأنس دون مابعد قوله « لقلة خيره » ومن هنا الى آخر الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة فقط واسنادهما ضعيف .

(٣) حديث ابن عباس « لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده موعدا فتخلفه » أخرجه الترمذي وقال غريب لانعرفه الا من هذا الوجه يعني من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور . (٤) حديث « انكم لاتسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه أبو يعلى الموصلي والطبراني في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وضعفه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة .

قال عليه السلام « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره »[١] ، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف . والتحاب بين المؤمنين مطلوب فى الشرع ومحبوب فى الدين ولذلك علم فيه الطريق فقال « تهادوا تحابوا »[٢] ، ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه فى غيبته وحضوره . قال عمر رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولا ، وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه . ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب فى جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع مايفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين مايقبل التحسين لابد منه وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك . قال على رضى الله عنه : من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة . وأعظم من ذلك تأثيرا فى جلب المحبة الذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير فى حق الأخوة . وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليدين تغسل إحداهما الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه[٣] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يخذله ولا يثلبه »[٤] ، وهذا من الانثلام والخذلان فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه . فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لاتحركه الشفقة والحمية للدفع عنك! وتمزيق الاعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ﴾ والملك الذى يمثله فى المنام ماتطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة ، حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يغتاب الناس لأن ذلك الملك فى تمثيله يراعى المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله فى المعنى الذى يجرى من المثال مجرى الروح ؛ لا فى ظاهر الصور . فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب فى عقد الأخوة . وقد قال مجاهد : لاتذكر أخاك فى غيبته إلا كما تحب أن يذكرك فى غيبتك . فإذن لك فيه معياران ؛ أحدهما : أن تقدر أن الذى قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضرا ما الذى كنت تحب أن يقوله أخوك فيك ؟ فينبغى أن تعامل المتعرض لعرضه به . والثانى : أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لاتعرف حضوره ؛ فما كان يتحرك فى قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى ؟ فينبغى أن يكون فى مغيبه كذلك فقد قال بعضهم : ماذكر أخ لى بغيب إلا تصورته جالسا فقلت فيه مايحب أن يسمعه لو حضر : وقال آخر : ماذكر أخ لى إلا تصورت نفسى فى صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فى . وهذا من صدق الإسلام وهو أن لايرى لأخيه إلا مايراه لنفسه . وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان فى فدان فوقف أحدهما يحك جسمه فوقف الآخر ؛ فبكى وقال : هكذا الإخوان فى الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر . وبالموافقة يتم الإخلاص ومن لم يكن مخلصا فى إخائه فهو منافق . والإخلاص استواء الغيب والشهادة

---

(١) حديث « اذا أحب أحدكم أخاه فليخبره » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح والحاكم من حديث المقدام بن معديكرب . (٢) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقى من حديث أبى هريرة وقد تقدم غير مرة .

(٣) حديث « تشبيه الأخوين باليدين » تقدم فى الباب قبله . (٤) حديث « المسلم أخو المسلم » تقدم فى أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث .

واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلوة والاختلاف ، والتفاوت فى شىء من ذلك مماذقة فى المودة وهو دخل فى الدين ووليجة فى طريق المؤمنين ، ومن لايقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة فإن حق الصحبة ثقيل لايطيقه إلا محقق فلاجرم أجره جزيل لايناله إلا موفق . ولذلك قال عليه السلام « أبا هر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما وأحسن مصاحبة صاحبك تكن مؤمنا [١] » فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجوار ؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة فى القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة . فإن الصحبة تقتضى حقوقا كثيرة فى أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لايقتضى إلا حقوقا قريبة فى أوقات متباعدة لاتدوم . ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال : فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ماينفعه فى الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوفه بما يكرهه فى الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه وتقبح القبيح فى عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لايطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن [٢] » أى يرى منه مالايرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة . وقال الشافعى رضى الله عنه : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسعر : أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم وإن قرعنى بين الملأ فلا . وقد صدق ، فإن النصح على الملأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه فى ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله مختوما إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوما ليقرأه ، وأما أهل المقت فينادون على رءوس الأشهاد وتستنطق جوارحهم بفضائحهم فيزدادون بذلك خزيا وافتضاحا ونعوذ بالله من الخزى يوم العرض الأكبر . فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء . فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن . وقال ذو النون : لاتصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

* فإن قلت : فإذا كان فى النصح ذكر العيوب ففيه إيحاش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب ، أعنى قلوب العقلاء ، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكى نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك ، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك ! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهى فى الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهى مخلوقة من نار الله الموقدة ، ولذلك كان عمر رضى الله عنه

---

(١) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا » أخرجه الترمذى وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالشطر الأول فقط وقال الترمذى « مؤمنا » قال « وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما » وقال ابن ماجه « مؤمنا » قال الدارقطنى والحديث ثابت ورواه القضاعى فى مسند الشهاب بلفظ المصنف .

(٢) حديث « المؤمن مرآة المؤمن » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد حسن .

يستهدى ذلك من إخوانه ويقول : رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه ، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه : ما الذى بلغك عنى مما تكره ؟ فاستعفى ، فألح عليه فقال : بلغنى أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل وبلغنى أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة ، فقال عمر رضى الله عنه : أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما ؟ فقال : لا . وكتب حذيفة المرعشى إلى يوسف بن أسباط : بلغنى أنك بعت دينك بحبتين : وقفت على صاحب لبن فقلت : بكم هذا ؟ فقال : بسدس ، فقلت له : لا ... بثمن ! فقال : هو لك ، وكان يعرفك . اكشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين ، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين إذ قال ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ وهذا فى عيب هو غافل عنه فأما ماعلمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغى أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه ، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف فى النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لايؤدى إلى الإيحاش ، فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه ، أما مايتعلق بتقصيره فى حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامى عنه ، والتعرض لذلك ليس من النصح فى شىء ، نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب فى السر خير من القطيعة والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، إذ ينبغى أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به والاسترفاق منه . قال أبو بكر الكتانى : صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلا فوهبت له يوما شيئا على أن يزول ما فى قلبى فلم يزل ، فأخذت بيده يوما إلى البيت وقلت له : ضع رجلك على خدى ، فأبى ، فقلت ، لابد ، ففعل ، فزال ذلك من قلبى . وقال أبو على الرباطى : صحبت عبدالله الرازى وكان يدخل البادية فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت بل أنت فقال وعليك الطاعة فقلت نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطنى قال ألست قلت أنت الأمير ؟ فعليك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسى إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عنى المطر فكنت أقول مع نفسى ليتنى مت ولم أقل أنت الأمير .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات

وهفوة الصديق لاتخلو إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية أو فى حقك بتقصيره فى الأخوة . أما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف فى نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله . فإن لم تقدر وبقى مصرا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى إدامة حق مودته أو مقاطعته . فذهب أبو ذر رضى الله عنه إلى الانقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته ، ورأى ذلك من مقتضى الحب فى الله والبغض فى الله . وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه ؛ فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى . وقال إبراهيم النخعى لاتقطع أخاك ولاتهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا . وقال أيضا : لاتحدثوا الناس بزلة العالم فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها . وفى الخبر « اتقوا زلة العالم ولاتقطعوه وانتظروا فيئته [1] » وفى حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال :

(١) حديث « اتقوا زلة العالم ولاتقطعوه وانتظروا فيئته » رواه البغوى فى المعجم وابن عدى فى الكامل من حديث عمرو بن عوف المزنى وضعفاه .

مافعل أخى ؟ قال : ذلك أخو الشيطان قال : مه ، قال : إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر . قال : إذا أردت الخروج فآذنى فكتب عند خروجه إليه « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ الآية » ثم عاتبه تحت ذلك وعذله . فلما قرأ الكتاب بكى وقال : صدق الله ونصح لى عمر فتاب ورجع . وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال : إنى قد اعتللت فإن شئت أن لاتنعقد على صحبتى لله فافعل ، فقال : ماكنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبدا ، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولايشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه ، فطوى أربعين يوما فى كلها يسأله عن هواه فكان يقول : القلب مقيم على حاله . وما زال هو ينحل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالا وضرا . وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ، فقال : أحوج ماكان إلى فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له فى المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ماكان عليه . وروى فى الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا فى جبل نزل أحدهما ليشترى من المصر لحما بدرهم فرأى بغيا عند اللحام فرمقها وعشقها واجتذبها إلى خلوة وواقعها ، ثم أقام عندها ثلاثا واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنايته . قال : فافتقده أخوه واهتم بشأنه فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه فقال : قم ياأخى فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إلى ولا أعز من ساعتك هذه ، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه . فهذه طريقة قوم وهى ألطف وأفقه من طريقة أبى ذر رضى الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم .

* فإن قلت : ولم قلت هذا ألطف وأفقه ومقارف هذه المعصية لاتجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون فى الدين ولايستمر ذلك مع مقارفة المعصية فأقول : أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر . وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لايهمل أيام حاجته وفقره وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه فينبغى أن يراقب ويراعى ولايهمل ، بل لايزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التى ألمت به . فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من اشد النوائب ، والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحيي من الإصرار بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان : مهما فترت فى العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاطى فى العبادة وفارقنى الكسل وعملت عليه أسبوعا وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كلحمة النسب والقريب لايجوز أن يهجر بالمعصية ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فى عشيرته ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ ولم يقل إنى برىء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب . وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة . ولذلك قيل لحكيم : أيما أحب إليك أخوك أوصديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقا لى . وكان الحسن يقول : كم من أخ لم تلده أمك ؟ ولذلك قيل :

القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم ماسّة من قطعها قطعه الله . فإذن الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب . وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لاينبغى أن يقاطع بل يجامل . والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحبة ابتداء ليس مذموما ولامكروها بل قال قائلون : الانفراد أولى ؛ فأما قطع الأخوة عن دوامها فنهى عنه ومذموم فى نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح ، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح قال صلى الله عليه وسلم « شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة [1] » وقال بعض السلف فى ستر زلات الإخوان : ود الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه ، فماذا اتقيتم من محبة عدوكم . وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارفة العصيان من محابه ؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلاينبغى أن يضاف إليه الثانى ، وإلى هذا أشار عليه السلام فى الذى شتم الرجل الذى أتى فاحشة إذ قال « مه » وزبره وقال « لاتكونوا عونا للشيطان على أخيكم [2] » فبهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفساق محذورة ، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضا محذورة ، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذى لم يسلم وفى الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفى الدوام تعارضا فكان الوفاء بحق الأخوة أولى ، هذا كله فى زلته فى دينه .

أما زلته فى حقه بما يوجب إيحاشه فلا خلاف فى أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرا ؛ فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ماأقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ، فأنت المعيب لاأخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغى أن لا تغضب إن قدرت ، ولكن ذلك لايمكن وقد قال الشافعى رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . فلا تكن حمارا ولا شيطانا ، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل . قال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وقال آخر : ماشتمت أحدا قط : لأنه إن شتمنى كريم فأنا احق من غفرها له أو لئيم فلا أجعل عرضى له غرضا ثم تمثل وقال :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقد قيل :

خذ من خليلك ما صفا ... ودع الذى فيه الكدر

فالعمر أقصر من معا ... تبة الخليل على الغير

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فاقبل عذره . قال عليه السلام « من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب المكس [3] » وقال عليه السلام « المؤمن سريع الغضب سريع الرضا [4] » فلم يصفه بأنه

(١) حديث « شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة » رواه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف

(٢) حديث « لاتكونوا أعوانا الشيطان على أخيكم » رواه البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى الباب قبله .

(٣) حديث « من اعتذر اليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لإثم صاحب مكس » أخرجه ابن ماجه وأبو داود فى المراسيل من حديث جودان واختلف فى صحبته وجهله أبو حاتم وباقى رجاله ثقات ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف .

(٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضا » لم أجده هكذا وللترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد الخدرى « ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى . . . الحديث » وفيه « ومنهم سريع الفئ فتلك بتلك »

لايغضب . وكذلك قال الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ ، وهذا لأن العادة لاتنتهى إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم ، بل تنتهى إلى أن يصبر عليه ويحتمل ، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ، ولا يمكن قلعه ولكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه ، فإنه يقتضى التشفى والانتقام والمكافأة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن ، وقد قال الشاعر :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب ؟

قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن ابى الحوارى : إذا واخيت احدا فى هذا الزمان فلا تعاتبه على ماتكرهه ، فإنك لاتأمن من أن ترى فى جوابك ماهو شر من الأول ، قال : فجربته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة . وينبغى أن لايبالغ فى البغضة عند الوقيعة . قال تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ وقال عليه السلام « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما : وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما [١] » وقال عمر رضى الله عنه : لايكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا : وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

الحق السادس

الدعاء للأخ فى حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولاتفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك [٢] » وفى لفظ آخر « يقول الله تعالى بك أبدا ياعبدى [٣] » وفى الحديث « يستجاب للرجل فى أخيه مالا يستجاب له فى نفسه [٤] » وفى الحديث « دعوة الرجل لأخيه فى ظهر الغيب لاترد [٥] » وكان أبو الدرداء يقول : إنى لأدعو لسبعين من إخوانى فى سجودى أسميهم بأسمائهم . وكان محمد بن يوسف الأصفهانى يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك مهتم بما قدمت وما صرت إليه ، يدعو لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، وكأن الأخ الصالح يقتدى بالملائكة ، إذ جاء فى الخبر « إذا مات العبد قال الناس : ماخلفت ؟ وقالت الملائكة : ماقدم ؟ [٦] » يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشفقون عليه ، ويقال : من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل الميت فى قبره مثل الغريق يتعلق بكل شىء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب [٧] » وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال . وقال بعض السلف الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول : هذه

---

(١) حديث « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوى تردد فى رفعه .

(٢) حديث « اذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك بمثل ذلك » أخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء

(٣) حديث « الدعاء للأخ بظهر الغيب » وفيه « يقول الله بك أبدأ ياعبدى » لم أجد هذا اللفظ (٤) حديث « يستجاب الرجل فى أخيه مالايستجاب له فى نفسه » لم أجده بهذا اللفظ ولأبى داود والترمذى وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو « لن أسرع الدعاء اجابة دعوة غائب لغائب » (٥) حديث « دعوة الأخ لأخيه فى الغيب لاترد » أخرجه الدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال « مستجابة » مكان « لاترد » (٦) حديث « إذا مات العبد قال الناس ماخلف وقالت الملائكة ماقدم » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٧) حديث « مثل الميت فى قبره مثل الغريق يتعلق بكل شىء ينتظر دعوة من ولد أو والد . . الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة قال الذهبى فى الميزان انه خبر منكر جدا .

هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان . قال : فيفرح بذلك كما يفرح الحى بالهدية .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء : الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام « فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله » ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه [١] » وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره فى حال الحياة ، ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزا دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين [٢] » فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى الكلب الذى على باب داره ينبغى أن يميز فى القلب عن سائر الكلاب ، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين على بركما يحسد متواخيين فى الله ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد مابينهما قال الله تعالى ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ وقال مخبرا عن يوسف ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ ويقال ماتواخى اثنان فى الله فتفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما . وكان بشر يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله من يؤنسه . وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : ألذ الأشياء مجالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية ، والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله ، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة فى الله أن لا تكون مع حسد فى دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته ؟ وبه وصف الله تعالى المحبين فى الله تعالى فقال ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ﴾ ووجود الحاجة هو الحسد . ومن الوفاء أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم . قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يابنى لاتصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولى أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير . وحكى الربيع : أن الشافعى رحمه الله آخى رجلا ببغداد ثم إن أخاه ولى السيبين فتغير له عما كان عليه ، فكتب إليه الشافعى بهذه الأبيات :

اذهب فودك من فؤادى طالق ... أبدا وليس طلاق ذات البين
فإن ارعويت فإنها تطليقة ... ويدوم ودك لى على ثنتين
وإن امتنعت شفعتها بمثالها ... فتكون تطليقين فى حيضين
وإذا الثلاث أتتك منى بتة ... لم تغن عنك ولاية السيبين

---

(١) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله ... الحديث » تقدم غير مرة .

(٢) حديث « إكرامه صلى الله عليه وسلم لعجوز دخلت عليه وقوله إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان » أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين بل الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعى رضى الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمنى بمصر غيره ؛ فاعتل محمد فعاده الشافعى رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعى فى علته التى مات فيها رضى الله تعالى عنه : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبدالله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه ؛ فقال الشافعى : سبحان الله أيشك فى هذا أبو يعقوب البويطى ؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطى مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطى أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . فنصح الشافعى لله وللمسلمين وترك المداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى . فلما توفى انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله ، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله . وآثر البويطى الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس فى الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف « كتاب الأم » الذى ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنفه البويطى ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره . والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله . قال الأحنف : الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير . ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبى . ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لاسيما من يظهر أولا أنه محب لصديقه ـ كيلا يتهم ـ ثم يلقى الكلام عرضا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الحيل فى التضريب ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلا . قال واحد لحكيم : قد جئت خاطبا لمودتك ، قال : إن جعلت مهرها ثلاثا فعلت ، قال : وما هى ؟ قال : لا تسمع على بلاغة ولا تخالفنى فى أمر ولا توطئنى عشوة . ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه . قال الشافعى رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا فى عداوتك .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفهه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا بلقائه واستعانة به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته . قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم ، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا وتمام التخفيف بطى بساط التكليف

حتى لا يستحى منه فيما لا يستحى من نفسه . وقال الجنيد : ماتواخى اثنان فى الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعلة فى أحدهما . وقال على عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه . وقالت عائشة رضى الله عنها : المؤمن أخو المؤمن لايغتنمه ولايحتشمه . وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة ـ كل طبقة ثلاثون رجلا ـ حارثا المحاسبى وطبقته ، وحسنا المسوحى وطبقته ، وسريا السقطى وطبقته ، وابن الكريبى وطبقته ، فما تواخى اثنان فى الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعلة فى أحدهما . وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما يقول : أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى . وقال بعض الصوفية : لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر ولا تنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء ، وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ . وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده . وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت ! وقال آخر : لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه . وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك بل ينبغى أن يواخى كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مواخيا فى الله وإلا كانت مواخاته لحظوظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد : قد عز الإخوان فى هذا الزمان أين أخ لى فى الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمرى قليل ، وإن أردت أخا فى الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندى جماعة أعرفهم لك . فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تنتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به ولكن لا تنتفع به . ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتتضرر به وهو الأحمق أو السيء الخلق فهذا الثالث ينبغى أن تتجنبه ، فأما الثانى فلا تجتنبه لأنك تنتفع فى الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به ، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إن أطعتنى فما أكثر إخوانك أى إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم . وقد قال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بينى وبينهم خلاف فإنى كنت معهم على نفسى ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض فى نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم ؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له : نم ، وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته دامت ألفته ومن خفت مؤنته دامت مودته . وقال بعض الصحابة : إن الله لعن المتكلفين وقال صلى الله عليه وسلم « أنا والأتقياء من أمتى برآء من التكلف [(١)] » ، وقال بعضهم : إذا عمل الرجل فى بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به [(٢)] إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، وصلى . ونام . فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال : بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل فى بيت أخيه ويجامعها ، لأن البيت يتخذ للاستخفاء فى الأمور الخمس ،

---

(١) حديث « أنا وأمتى برآء من التكلف » أخرجه الدارقطنى فى الافراد من حديث الزبير بن العوام « ألا انى برىء من التكلف وصالحو أمتى » وإسناده ضعيف (٢) حديث « إذا صنع الرجل فى بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به . الحديث » لم أجد له أصلا .

وإلا فالمساجد أروح لقلوب المتعبدين ، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط . وقول العرب فى تسليمهم يشير إلى ذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : مرحبا وأهلا وسهلا ، أى لك عندنا مرحب وهو السعة فى القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا ، ولك عندنا سهولة فى ذلك كله ، أى لايشتد علينا شيء مما تريد . ولايتم التخفيف وترك التكلف إلابأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسىء الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه فعند ذلك يكون هو خيرا منهم وقال أبو معاوية الأسود : إخوانى كلهم خير منى ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لى الفضل عليه ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى وقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ماترى له [١] » فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال فى رؤية الفضل للأخ . ولذلك قال سفيان : إذا قيل لك ياشر الناس فغضبت فأنت شر الناس أى ينبغى أن تكون معتقدا ذلك فى نفسك أبدا . وسيأتى وجه ذلك فى كتاب الكبر والعجب . وقد قيل فى معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان أبيات :

تذلل لمن إن تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يزا ... ل على الأصدقاء يرى الفضل له

وقال آخر :

كم صديق عرفته بصديق ... صار أحظى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته فى طريق ... صار عندى هو الصديق الحقيق

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا فى عموم المسلمين مذموم . قال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم [٢] » ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه فى كل مايقصده ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ وينبغى أن لا يخفى عنهم شيئا من أسراره كما روى أن يعقوب ابن أخى معروف قال : جاء أسود بن سالم إلى عمى معروف وكان مواخيا له فقال : إن بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحى أن يشافهك بذلك وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتد بها إلا أنه يشترط فيها شروطا : لايحب أن يشتهر بذلك ولايكون بينك وبينه مزاورة ولاملاقاة فإنه يكره كثرة الالتقاء ، فقال معروف : أما أنا لو آخيت أحدا لم أحب مفارقته ليلا ولانهارا ولزرته فى كل وقت وآثرته على نفسى فى كل حال ، ثم ذكر من فضل الأخوة والحب فى الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها . وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فشاركه فى العلم [٣] وقاسمه فى البدن [٤] وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه وخصه بذلك لمؤاخاته [٥] وأنا

---

(١) حديث « المرء على دين خليله ولاخير فى صحبة من لايرى لك مثل ماترى له » تقدم الشطر الأول منه فى الباب قبله وأما الشطر الثانى فرواه ابن عدى فى الكامل من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وتقدم فى أثناء حديث « لاتدابروا » فى هذا الباب

(٣) حديث « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وشاركه فى العلم » أخرجه النسائى فى الخصائص من سننه الكبرى من حديث على قال « جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب ... الحديث » وفيه « فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبي ووارثى فلم يقم إليه أحد فقمت إليه » وفيه « حتى إذا كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى » وله وللحاكم من حديث ابن عباس « أن عليا كان يقول فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله إني لأخوه ووليه ووارث علمه ... الحديث » وكل ماورد فى أخوته ضعيف لايصح منه شىء وللترمذى من حديث ابن عمر « وانت أخى فى الدنيا والآخرة » وللحاكم من حديث ابن عباس « أنا مدينة العلم وعلى بابها » وقال صحيح الإسناد وقال ابن حبان لاأصل له وقال ابن طاهر إنه موضوع وللترمذى من حديث على « أنا دار الحكمة وعلى بابها » وقال غريب (٤) حديث « مقاسمته عليا للبدن » أخرجه مسلم فى حديث جابر الطويل « ثم أعطى عليا فنحر ماغبر وأشركه فى هديه » (٥) حديث « أنه أنكح عليا أفضل بناته وأحبهم إليه » هذا معلوم مشهور فى الصحيحين من حديث على « لما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلا صواغا ... الحديث » وللحاكم من حديث =

أشهدك أنى قد عقدت له أخوة بينى وبينه وعقدت إخاءه فى الله لرسالتك ولمسألته على أن لايزورنى إن كره ذلك ولكنى أزوره متى أحببت ، ومره أن يلقانى فى مواضع نلتقى بها ، ومره أن لايخفى على شيئا من شأنه وأن يطلعنى على جميع أحواله ، فأخبر ابن سالم بشرا بذلك فرضى وسر به . فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرة وفصلناه أخرى ، ولايتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ولاتصرف بصرك عنهم فى وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطى كل من جلس إليه نصيبا من وجهه وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسألته وتوجهه للجالس إليه (١) وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجبا مما يحدثونه به ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيرا له عليه السلام .

وأما السمع فبأن تسمع كلامه متلذذا بسماعه ومصدقا به ومظهرا للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادّة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون .

وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فإنّ القول فيه يطول ومن ذلك أن لايرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما اليدان فأن لايقبضهما عن معاونتهم فى كل ما يتعاطى باليد .

وأما الرجلان فأن يمشى بهما وراءهم مشى الأتباع لا مشى المتبوعين ولا يتقدمهم إلا بقدر مايقدمونه ولايقرب منهم إلا بقدر مايقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعا حيث يقعد . ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة وفى ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار مافيها ، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا وزين باطنه بالحب لله وللخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة .

= أم أيمن « زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليا .. . الحديث » وقال صحيح الاسناد وفى الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة « يافاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين . الحديث » (١) حديث « كان يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ... الحديث » أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على فى أثناء حديث فيه « يعطى كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول » ثم قال « مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة » وفيه « يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه » وللترمذى من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء « مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال غريب .

خاتمة لهذا الباب

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق

ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم ، وتوقير من غير كبر ، وتواضع فى غير مذلة . وكن فى جميع أمورك فى أوسطها فكلا طرفى قصد الأمور ذميم . ولا تنظر فى عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب من وجهك وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته ، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر مايخصك ، ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تتبذل تبذل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف فى الدهن ، ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلا هنت عندهم وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم ، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر فى حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجث على ركبتيك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصبى وكلمه بما يشتهيه مالم يكن معصية ، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقا عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال ، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطى لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحيى بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على الطريق ، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والارتياد لموضع البصاق ، ولا تبصق فى جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب فى الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم - وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده ، وعلى الملك أن يحتمل كل شىء إلا إفشاء السر والقدح فى الملك والتعرض للحرم .

ولا تجالس العامة ، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض فى حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أن تمازح لبيبا أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترئ عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجرئ

السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون ، وهو يميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذلة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لايكون المزاح إلا من سخف أو بطر . ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك (١) » .

الباب الثالث : فى حق المسلم والرحم والجوار والملك
وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه الأسباب

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط ففى مخالطته أدب والأدب على قدر حقه وحقه على قدر رابطته التى بها وقعت المخالطة . والرابطة إما القرابة وهى أخصها أو أخوة الإسلام وهى أعمها ، وينطوى فى معنى الأخوة الصداقة والصحبة ، وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأخوة .

ولكل واحد من هذه الروابط درجات . فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد ، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين آكد . وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدى فى بلاد الغربة يجرى مجرى القريب فى الوطن لاختصاصه بحق الجوار فى البلد . وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة . وللمعارف درجات فليس حق الذى عرف بالمشاهدة كحق الذى عرف بالسماع بل آكد منه والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها فحق الصحبة فى الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة ، والخليل أقرب من الحبيب ؛ فالمحبة ماتتمكن من حبة القلب والخلة ماتتخلل سر القلب ؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلا ، وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هى أتم من الأخوة وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم « لوكنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله (٢) » إذ الخليل هو الذى يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله وقد منعته الخلة عن الاشتراك فيه مع أنه اتخذ عليا رضى الله عنه أخا فقال « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا النبوة (٣) » فعدل بعلى عن النبوة كما عدل بأبى بكر عن الخلة ، فشارك أبو بكر عليا رضى الله عنهما فى الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لوكان للشركة فى الخلة مجال ، فإنه نبه عليه بقوله « لاتخذت أبا بكر خليلا » ، وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليله ، وقد روى أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرحا فقال « إن الله قد اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى (٤) » فإذن ليس قبل

---

(١) حديث « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وصححه .

الباب الثالث : فى حقوق المسلم والرحم والجوار

(٢) حديث « لوكنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى

(٣) حديث « على منى بمنزلة هارون من موسى الا النبوة » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٤) حديث « ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ... » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، دون قوله « فأنا حبيب الله وأنا خليل الله »

المعرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة ، وماسواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الصحبة والأخوة ويدخل فيهما ماوراءهما من المحبة والخلة ، وإنما تتفاوت الرتب فى تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة ، حتى ينتهى أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال ، كما آثر أبو بكر رضى الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكما آثره طلحة ببدنه إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم ، فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين ، وحق الجوار ، وحق الملك ـ أعنى ملك اليمين ـ فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه فى كتاب آداب النكاح .

حقوق المسلم

هى : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ماتحب لنفسك وتكره له ماتكره لنفسك[1] ورد جميع ذلك فى أخبار وآثار . وقد روى أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم »[2] ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى قوله تعالى ﴿رحماء بينهم﴾ قال . يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم ، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال : اللهم أهده وتب عليه واغفر له عثرته . ومنها أن يحب للمؤمنين مايحب لنفسه ويكره لهم مايكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر »[3] ، وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[4] ، ومنها أن لا يؤذى أحدا من المسلمين بفعل ولا قول ؟ قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[5] ، وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل يأمر فيه بالفضائل « فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك »[6] ، وقال أيضا « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده »[7] ، وقال صلى الله عليه وسلم أتدرون من المسلم ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : من هجر السوء واجتنبه »[8] ، وقال رجل يارسول الله ما الإسلام

الأخبار الواردة فى حقوق المسلم على المسلم

(١) هو أن يسلم عليه إذا لقيه فذكر عشر خصال . أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض . واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » وفى رواية لمسلم « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته تسلم عليه » وزاد « وإذا استنصحك فانصح له » وللترمذى وابن ماجه من حديث على « للمسلم على المسلم ست » فذكر منها « ويحب له ما يحب لنفسه » وقال « وينصح له إذا غاب أوشهد » ولأحمد من حديث معاذ « وأن تحب للناس ماتحب لنفسك وتكره لهم ماتكره لنفسك » وفى الصحيحين من حديث البراء : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع فذكر منها « وإبرار القسم ونصر المظلوم » (٢) حديث أنس « أربع من حقوق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم » ذكره صاحب الفردوس ولم أجد له إسنادا (٣) حديث النعمان بن بشير « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث أبى موسى « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه

(٥) حديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

(٦) حديث « فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » متفق عليه من حديث أبى ذر

(٧) حديث « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث أبى موسى (٨) حديث « أتدرون من المسلم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه الطبرانى والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمجاهد من =

قال : أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ، وقال مجاهد : يسلط على أهل النار الجرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده، فينادى: يافلان : هل يؤذيك هذا ؟فيقول : نعم ، فيقول : هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم « لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين[1] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه ؟ « يارسول الله ، علمنى شيئا أنتفع به . قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين[2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة[3] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه » و قال « لا يحل لمسلم أن يروع مسلما[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكره أذى المؤمنين[5] » وقال الربيع ابن خثيم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله . ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد[6] » ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وعن ابن أبى أوفى « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولايتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته[7] » ومنها أن لايسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولايبلغ بعضهم مايسمع من بعض . قال صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة قتات[8] » وقال الخليل بن أحمد : من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك . ومنها أن لايزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصارى : قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام[9] » وقد قال صلى الله عليه وسلم من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة[10] » قال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب ، بعفوك عن إخوانك رفعت ذكرك فى الدارين . قالت عائشة رضى الله عنها « ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله[11] » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ماعفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزا . وقال

= جاهد نفسه فى طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » ورواه ابن ماجه مقتصرا على « المؤمن والمهاجر » وللحاكم من حديث أنس وقال : على شرط مسلم ، والمهاجر من هجر السوء ؛ ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمر بن عبسة : قال رجل يارسول الله ما الاسلام ؟ قال « أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك »

(١) حديث « لقد رأيت رجلا فى الجنة يتقلب فى شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أبى هريرة : يارسول الله ، علمنى شيئا أنتفع به ، قال « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبى برزة قال : قلت يانبى الله ... فذكره

(٣) حديث « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ، ومن كتب له بها حسنة أوجب له بها الجنة » رواه أحمد من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

(٤) حديث « لايحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسلا بسند ضعيف ، وفى البر والصلة له من زيادات الحسين المروزى حمزة بن عبد الله بن أبى سمى وهو الصواب

(٥) حديث « إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلا بإسناد جيد

(٦) حديث « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد » أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن حماز ورجاله رجال الصحيح

(٧) حديث ابن أبى أوفى : كان لايأنف ولايستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، أخرجه النسائى بإسناد صحيح ، والحاكم وقال : على شرط الشيخين .

(٨) حديث « لايدخل الجنة قتات » متفق عليه من حديث أبى أيوب

(٩) « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث .. الحديث » متفق عليه

(١٠) حديث « من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم ، وقد تقدم

(١١) حديث عائشة : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط ، إلا أن تصاب حرمة الله فينتقم لله . متفق عليه بلفظ : إلا أن تنتهك .

صلى الله عليه وسلم « مانقص مال من صدقة ومازاد الله رجلا بعفو إلا عزا ومامن أحد تواضع لله إلا رفعه الله [١] » ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لايميز بين الأهل وغير الأهل . روى على بن الحسين عن أبيه عن جدّه رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله [٢] » وعنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر [٣] » قال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ولم تكن ترى ركبته خارجة عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه [٤] » ومنها أن لايدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثا فإن لم يؤذن له انصرف . قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاستئذان ثلاث فالأولى يستنصتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون [٥] » ومنها أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقته فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمى بالفقه والعيى بالبيان آذى وتأذى . ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم [٧] » ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن ، وقال جابر « قدم وفد جهينة على النبى صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير [٨] ؟ » وفى الخبر « ماوقر شاب شيخا إلا قيض الله له فى سنه من يوقره [٩] » وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلايوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى يكون الولد غيظا والمطر قيظا وتفيض اللئام فيضا وتغيض الكرام غيضا ويجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم [١٠] » « والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١١] » . « كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه

---

(١) حديث « مانقص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث على بن الحسين عن أبيه عن جده « اصنع المعروف إلى أهله ، فإن لم تصب أهله فأنت أهله » ذكره الدارقطنى فى العلل وهو ضعيف ، ورواه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا بسند ضعيف (٣) حديث على بن الحسين عن أبيه عن جده « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، والخطابى فى تاريخ الطالبيين ، وعند أبو نعيم فى الحلية دون قوله « واصطناع ... إلى آخره » وقال الطبرانى « التحبب » (٤) حديث أبى هريرة : كان لايأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن . ولأبى داود والترمذى وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف

(٥) حديث أبى هريرة « الاستئذان ثلاث ؛ فالأولى يستنصتون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردون » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد بسند ضعيف . وفى الصحيحين من حديث أبى موسى « الاستئذان ثلاث ؛ فإن أذن لك وإلا فارجع .

(٦) حديث جابر « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف ، وهو عند أبى داود ، والبخارى فى الأدب من حديث عبدالله بن عمرو بسند حسن (٧) حديث « من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم » أخرجه أبو داود من حديث أبى موسى الأشعرى بإسناد حسن (٨) حديث جابر : قدم وفد جهينة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام غلام ليتكلم ، فقال صلى الله عليه وسلم « مه فأين الكبير؟ » أخرجه الحاكم وصححه (٩) حديث « ماوقر شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له فى سنه من يوقره » أخرجه الترمذى من حديث أنس بلفظ « ما أكرم ، ومن يكرمه » وقال حديث غريب . وفى بعض النسخ حسن ، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف (١٠) حديث « لاتقوم الساعة حتى يكون الولد غيظا والمطر قيظا ... الحديث » رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن مسعود . وإسنادهما ضعيف (١١) حديث التلطف بالصبيان أخرجه البزار من حديث أنس : كان من أفكه الناس مع صبى ، وقد تقدم فى النكاح . وفى الصحيحين « ياأباعمير مافعل النغير » وغير ذلك

ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم [١] ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض : حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت وراءه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم « وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : لاتزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده [٢] » ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا . قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال . على اللين الهين السهل القريب [٣] » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب السهل الطلق الوجه [٤] » وقال بعضهم « يارسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، فقال : إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام [٥] » وقال عبد الله بن عمر : إن البر شيء هين ؛ وجه طليق وكلام لين وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ؛ فقال أعرابي : لمن هي يارسول الله ؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام [٧] » وقال معاذ بن جبل : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح [٨] » وقال أنس رضي الله عنه « عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت : لي معك حاجة ؛ وكان معه ناس من أصحابه ، فقال : اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك ، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها [٩] » وقال وهب بن منبه : إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سبعة أيام ، فسأل الله تعالى أنه يريه كيف يغوي الشيطان الناس ؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال : لو اطلعت على خطيئتي وذنبي

---

(١) حديث : كان يقدم من السفر فتتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون اليه ... الحديث . رواه مسلم من حديث عبد الله بن جعفر : كان اذا قدم من سفر تلقي بنا . قال : فيلقى بي وبالحسن ، وقال : فحمل أحدنا بين يديه والآخر خلفه وفي رواية : تلقي بصبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبق بي اليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه . وفي الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير : أتذكر اذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس ؟ قال : نعم فحملنا وتركك ، لفظ مسلم . وقال البخاري : ان ابن الزبير قال لابن جعفر ، فالله أعلم (٢) حديث : كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه .. الحديث رواه مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم فأتي بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله . وأصله متفق عليه . وفي رواية لأحمد : فيدعو لهم ، وفيه « صبوا عليه الماء صبا وللدارقطني : بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذته أخذا عنيفا ... الحديث ، وفيه الحجاج بن أرطاة ضعيف ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلاعب صبيا اذ بال ، فقامت لتأخذه وتضربه فقال : « دعيه ، ائتوني بكوز من ماء ... الحديث » واسناده صحيح

(٣) حديث « أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال على الهين اللين السهل القريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل « اللين » وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معيقيب عن أمه قال الترمذي حسن غريب

(٤) حديث أبي هريرة « ان الله يحب السهل الطلق » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه من رواية مورق العجلي مرسلا (٥) حديث « ان من واجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في شعب الإيمان من حديث هانئ بن يزيد بإسناد جيد (٦) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث » متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقدم في الزكاة (٧) حديث « ان في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال حديث غريب . قلت وهو ضعيف

(٨) حديث « معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي « وخفض الجناح » واسناده ضعيف (٩) حديث أنس « عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لي معك حاجة فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس اليك ... الحديث » رواه مسلم

بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته ، فأرسل الله إليه ملكا فقال له : إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إلي مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك فانظر، فنظرفإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب فقال : أي رب من ينجو من هذا ؟قال : الورع اللين . ومنها أن لايعد مسلما بوعد إلا ويفي به قال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية [١] » وقال « العدة دين [٢] » وقال « ثلاث في المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان[٣] » وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى [٤] » وذكر ذلك ومنها أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه قال صلى الله عليه وسلم « لايستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام [٥] » وقال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليؤت إلى الناس مايحب أن يؤتى إليه [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « ياأبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما [٧] » قال الحسن : أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال وقال : فيهن جماع الأمر لك ولولدك ، واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين الخلق ، فأما التي لي : تعبدني ولاتشرك بي شيئا ، وأما التي لك : فعملك أجزيك به أفقر ماتكون إليه ، وأما التي بيني وبينك : فعليك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التي بينك وبين الناس فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال : أي رب أي عبادك أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه . ومنها أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم . روى أن عائشة رضي الله عنها كانت في سفر فنزلت منزلا فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقالت عائشة : ناولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة فقالت : ادعوه إلى الطعام . فقيل لها : تعطين المسكين وتدعين هذا الغني ؟ فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لابد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل ، هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصا . وروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ ؛ فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكانا فقعد على الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال له : اجلس على هذا فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، ثم لفه ورمى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ماكنت لأجلس على ثوبك ؛ أكرمك الله كما أكرمتني ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه [٨] » وكذلك كل من له عليه حق قديم

---

(١) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف (٢) حديث « العدة دين » رواه الطبراني في معجميه الأوسط والأصغر من حديث علي وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود في المراسيل

(٣) حديث « ثلاث في المنافق : اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان » متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه

(٤) حديث « ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى » رواه البخاري من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه ولفظ مسلم « وان صام وصلى وزعم أنه مسلم » وهذا ليس في البخاري

(٥) حديث « لايستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخاري عليه (٦) حديث « من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله وليأت الى الناس مايحب أن يؤتى اليه » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحوه والخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظه (٧) حديث « ياأبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف أنه قاله لأبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وفي أوله قصة في قدوم جرير بن عبد الله أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم في الزكاة مختصرا .

فليكرمه . روى أن ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها مرحبا بأمى ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها اشفعى تشفعى وسلى تعطى فقالت : قومى فقال : أما حقى وحق بنى هاشم فهو ذلك ؛ فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقنا يارسول الله . ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين [1] ، فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة ألف درهم ، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل [2] ، ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا . قال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى قال : إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هى الحالقة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين [4] » وعن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضى الله عنه قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله بأبى أنت وأمى ماالذى أضحكك ؟ قال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذلى مظلمتى من هذا ، فقال الله تعالى : رد على أخيك مظلمته . فقال : يارب لم يبق لى من حسناتى شىء ، فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شىء ؟ فقال : يارب فليحمل عنى من أوزارى . ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال : فيقول الله تعالى - أى للمتظلم - ارفع بصرك فانظر فى الجنان فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صديق أو لأى شهيد ؟ قال الله تعالى : هذا لمن أعطى الثمن قال : يارب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال . بماذا يارب ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : يارب قد عفوت عنه ، فيقول الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة [5] » وقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا [6] » وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه قال صلى الله عليه وسلم « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل فى الحرب [7] . فإن الحرب خدعة أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما أو يكذب لامرأته ليرضيها » ومنها أن يستر عورات المسلمين كلهم قال صلى الله عليه وسلم « من ستر على مسلم ستره الله

---

(١) حديث « إن ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه .. الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى الطفيل مختصرا فى بسط ردائه لها دون ما بعده

(٢) حديث « نزعه صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذى يجلس إليه » أخرجه أحمد من حديث ابن عمرو « أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى إليه وسادة من أدم حشوها ليف ... الحديث » وإسناده صحيح وللطبرانى من حديث سلمان « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ على وسادة فألقاه إلى .. الحديث » وسنده ضعيف قال صاحب الميزان هذا خبر ساقط

(٣) حديث « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هى الحالقة » رواه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء

(٤) حديث « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » أخرجه الطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مكام الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقى ضعفه الجمهور .

(٥) حديث أنس « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر يارسول الله بأبى وأمى ما الذى أضحكك ؟ قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى الله عزوجل فقال أحدهما يارب خذ لى مظلمتى من هذا ... الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الإسناد وكذا أبو يعلى الموصلى خرجه بطول وضعفه البخارى وابن حبان

(٦) حديث « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط

(٧) حديث « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل فى الحرب ... الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث النواس بن سمعان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة .

تعالى فى الدنيا والآخرة (١) » وقال « لايستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة (٢) » وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « لايرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلادخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم لماعز لما أخبره « لوسترته بثوبك كان خيرا لك (٤) » فإذن على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره . قال أبو بكر رضى الله عنه : لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله . وروى أن عمر رضى الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس : أرأيتم لوأن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال على رضى الله عنه : ليس ذلك لك ، إذاً يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مقالتهم الأولى ، فقال على رضى الله عنه : مثل مقالته الأولى . وهذا يشير إلى أن عمر رضى الله عنه كان مترددا فى أن الوالى هل له أن يقضى بعلمه فى حدود الله ؟ فلذلك راجعهم فى معرض التقدير لا فى معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا بإخباره ، ومال رأى على إلى أنه ليس له ذلك . وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أفحشها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول ـ يشاهدون ذلك منه فى ذلك منها كالمرود فى المكحلة ـ وهذا قط لا يتفق . وإن علمه القاضى تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه . فانظر إلى الحكمة فى حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذى هو أعظم العقوبات . ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق فى كشفه ؟ فنرجو أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر : ففى الحديث « إن الله إذا ستر على عبد عورته فى الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها فى الآخرة وإن كشفها فى الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى (٥) » وعن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه قال : خرجت مع عمر رضى الله عنه ليلة فى المدينة فبينما نحن نمشى إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدى وقال : أتدرى بيت من هذا ؟ قلت : لا ، فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا مانهانا الله عنه قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فرجع عمر رضى الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية « إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم (٦) » وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته (٧) » وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى

---

(١) حديث « من ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٢) حديث « لايستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم من حديث أبى هريرة أيضا

(٣) حديث أبى سعيد الخدرى « لايرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلادخل الجنة » رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف (٤) حديث « لوسترته بثوبك كان خيرا لك » رواه أبو داود والنسائى من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الإسناد ونعيم مختلف فى صحبته (٥) حديث « إن الله إذا ستر على عبده عورة فى الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه فى الآخرة .. الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث على « من أذنب ذنبا فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يرجع فى شىء قدعفا عنه ومن أذنب ذنبا فى الدنيا فعوقب عليه فالله أعدل من أن يثنى العقوبة على عبده » لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولمسلم من حديث أبى هريرة « لايستر الله على عبد فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة » (٦) حديث « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » قاله لمعاوية أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاوية (٧) حديث « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبى برزة بإسناد جيد وللترمذى من حديث ابن عمر وحسنه .

ماأخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معى غيرى . وقال بعضهم : كنت قاعدا مع عبدالله بن مسعود رضى الله عنه إذ جاءه رجل بآخر ، فقال : هذا نشوان ، فقال عبدالله بن مسعود : استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشوانا فحبسه حتى ذهب سكره ، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد : اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلده وعليه قباء أومرط : فلما فرغ قال للذى جاء به : ماأنت منه ؟ قال : عمه ، قال عبدالله : ماأدبت فأحسنت الأدب ولاسترت الحرمة ! إنه ينبغى للإمام إذا انتهى إليه حدّ أن يقيمه وإن الله عفوّ يحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ ثم قال : إنى لأذكر أوّل رجل قطعه النبى صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه ، فقالوا : يارسول الله كأنك كرهت قطعه ، فقال : ومايمنعنى ! لاتكونوا عونا للشياطين على أخيكم ؟ فقالوا : ألاعفوت عنه ؟ فقال : إنه ينبغى للسلطان إذا انتهى إليه حدّ أن يقيمه إن الله عفوّ يحب العفو وقرأ ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (١) ، وفى رواية فكأنما سفى فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدّة تغيره وروى أنّ عمر رضى الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى فتسوّر عليه فوجده عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدوّ الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله فى ثلاثا قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست وقال الله تعالى ﴿ وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقد تسورت على وقد قال الله تعالى ﴿ لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم ﴾ الآية وقد دخلت بيتى بغير إذن ولا سلام ، فقال عمر رضى الله عنه . هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم والله ياأمير المؤمنين لئن عفوت عنى لاأعود إلى مثلها أبدا فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبدالله بن عمر . يا أباعبد الرحمن كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول « إنّ الله ليدنى منه المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول : نعم يارب ، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى فى نفسه أنه قد هلك قال له : ياعبدى إنى لم أسترها عليك فى الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون ﴿ فتقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل أمتى معافى إلا المجاهرين (٣) » وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل السوء سرا ثم يخبر به وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع خبر قوم وهو له كارهون صب فى أذنه الآنك يوم القيامة (٤) » ومنها أن يتقى مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكا قال الله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كيف ترون من يسب أبويه فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم يسب أبوى غيره فيسبون أبويه (٥) » وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يافلان هذه زوجتى صفية « فقال :

---

(١) حديث ابن مسعود « انى لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد والخرائطى فى مكارم الأخلاق : فكأنما سفى فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد .. الحديث (٢) حديث ابن عمر « ان الله عز وجل ليدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا .. الحديث عليه (٣) حديث « كل أمتى معافى الا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث « من استمع من قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة » رواه البخارى من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبى هريرة أيضاً . (٥) حديث « كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو نحوه .

يارسول الله من كنت أظن فيه فإنى لم أكن أظن فيك ، فقال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم [١] ، وزاد فى رواية « إنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا وكانا رجلين فقال : على رسلكما إنها صفية [٢] ... الحديث» وكانت قد زارته فى العشر الأواخر من رمضان : وقال عمر رضى الله عنه : من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن . ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال : ياأمير المؤمنين ، إنها امرأتى فقال : هلا حيث لايراك أحد من الناس ؟ ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر عليه قال صلى الله عليه وسلم « إنى أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندى فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدى نبيه ما أحب [٣] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشفعوا إلى لتؤجروا إنى أريد الأمر وأؤخره كى تشفعوا إلى فتؤجروا » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان قيل وكيف ذلك؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم وتجر بها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر [٤] » وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأنى انظر إليه خلفها وهو يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال صلى الله عليه وسلم للعباس « ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم لو راجعته فإنه أبو ولدك ، فقالت : يارسول الله أتأمرنى فأفعل ؟ فقال . لا إنما أنا شافع [٥] » ومنها أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام قال صلى الله عليه وسلم « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام [٦] » وقال بعضهم : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ارجع فقل السلام عليكم أأدخل [٧] » وروى جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته [٨] » وقال أنس رضى الله عنه خدمت النبى صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لى « يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك وسلم على من لقيته من أمتى تكثر حسناتك وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك [٩] » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسع وستون لأحسنهما بشرا » وقال تعالى ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال عليه السلام « والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ قالوا . بلى يارسول الله ،

---

(١) حديث أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فقال يافلان هذه زوجتى فلانة ... الحديث » وفيه « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » رواه مسلم (٢) حديث « إنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا وقال على رسلكما إنها صفية » متفق عليه من حديث صفية (٣) حديث « إنى أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجه وأنتم عندى فاشفعوا لتؤجروا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى نحوه (٤) حديث « مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان .. الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له فى الكبير من حديث سمرة بن جندب ضعيف (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأنى أنظر إليه خلفها يبكى ... الحديث » رواه البخارى (٦) حديث « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين

(٧) حديث : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله عليه وسلم « ارجع فقل السلام عليكم أأدخل » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة (٨) حديث جابر « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه ضعف .

(٩) حديث أنس : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم ثمانى حجج فقال لى « ياأنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك وسلم على من لقيته من أمتى تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقى فى الشعب وإسناده ضعيف وللترمذى وصححه « إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك »

قال : أفشوا السلام بينكم [١] » وقال أيضا « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة [٢] وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولايسلم عليه [٣] » وقال عليه السلام « يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم [٤] » وقال قتادة : كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة . وكان أبو مسلم الخولانى يمرّ على قوم فلا يسلم عليهم ويقول : مايمنعنى إلا أنى أخشى أن لايردوا فتلعنهم الملائكة . والمصافحة أيضا سنة مع السلام وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فقال عليه السلام : عشر حسنات ، فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله فقال عشرون حسنة ، فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : ثلاثون [٥] » وكان أنس رضى الله عنه يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم [٦] ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد ابن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر فى المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية [٧] . فقال عليه السلام « لاتبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم فى الطريق فاضطروه إلى أضيقه [٨] » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتصافحوا أهل الذمة ولا تبدءوهم بالسلام فإذا لقيتموهم فى الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطرق » .

قالت عائشة رضى الله عنها : إنّ رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم » قالت عائشة رضى الله عنها : فقلت بل عليكم السام واللعنة فقال عليه السلام « ياعائشة إن الله يحب الرفق فى كل شىء » قالت عائشة : ألم تسمع ماقالوا ؟ قال « فقد قلت عليكم [٩] » وقال عليه السلام « يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير [١٠] » وقال عليه السلام « لاتشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف [١١] » قال أبو عيسى إسناده ضعيف .

وقال عليه السلام « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فليست

---

(١) حديث « والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة ولم يسنده ولده فى المسند (٣) حديث : الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه . لم أقف له على أصل

(٤) حديث « يسلم الراكب على الماشى وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم » رواه مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلا ولأبى داود من حديث على « يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « يسلم الراكب على الماشى ... الحديث » وسيأتى فى بقية الباب (٥) حديث : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم « عشر حسنات ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عمران ابن حصين قال الترمذى حسن غريب وقال البيهقى فى الشعب إسناده حسن (٦) حديث أنس : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعه متفق عليه (٧) حديث عبد الحميد بن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر فى المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فألوى بيده بالتسليم وأشار عبد الحميد بيده أخرجه الترمذى من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبى حسين عن شهر ورواه أبوداود وقال أحمد لابأس به (٨) حديث « لاتبدؤا اليهود والنصارى بالسلام ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبى هريرة

(٩) حديث عائشة : ان رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك ... الحديث » متفق عليه (١٠) حديث « يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير » متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يقل مسلم « والصغير على الكبير » (١١) حديث « لاتشبهوا باليهود والنصارى فان تسليم اليهود الإشارة بالأصابع وتسليم النصارى الإشارة بالأكف » أخرجه الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف

الأولى بأحق من الأخيرة (١)، وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشرا (٢)، وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادئ تسعون وللمصافح عشرة (٣)، وقال الحسن: المصافحة تزيد في الود. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تمام تحياتكم المصافحة (٤)، وقال عليه السلام «قبلة المسلم أخاه المصافحة (٥)، ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به وتوقيرا له. وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم (٦)، وعن كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده (٧)، وروى أن أعرابيا قال: يارسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال: فأذن له ففعل (٨) ولقى أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده وتنحيا يبكيان وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصافحه فقال: يارسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن المسلمين إذا التقيا فتصافحا تحاتت ذنوبهما (٩)، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب - أو قال وأفضل - (١٠)، والانحناء عند السلام منهى عنه قال أنس رضي الله عنه: قلنا يارسول الله أينحني بعضنا لبعض؟ قال «لا» قال: فيقبل بعضنا بعضا؟ قال «لا» قال: فيصافح بعضنا بعضا؟ قال «نعم (١١)، والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر (١٢) وقال أبو ذر رضي الله عنه: مالقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحني، وطلبني يوما فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود (١٣).

---

(١) حديث «إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أنس «اذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة .. الحديث» أخرجه الخرائطي بسند ضعيف والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة «مائة رحمة تسعة وتسعون لأبشهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسائلة لأخيه» وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول (٣) حديث عمر بن الخطاب «اذا التقى المسلمان فيسلم كل واحد على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة ... الحديث» أخرجه البزار في مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر (٤) حديث أبي هريرة «تمام تحياتكم بينكم المصافحة» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه (٥) حديث «قبلة المسلم أخاه المصافحة» أخرجه الخرائطي وابن عدي من حديث أنس وقال غير محفوظ (٦) حديث ابن عمر: قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه أبو داود بسند حسن (٧) حديث كعب بن مالك: «لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده» أخرجه أبو بكر بن المقرى في كتاب الرخصة في تقبيل اليد. بسند ضعيف (٨) حديث: أن أعرابيا قال يارسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل. أخرجه الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال «رجليك» موضع «يدك» وقال صحيح الإسناد.

(٩) حديث البراء بن عازب: أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصافحه ... الحديث. رواه الخرائطي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا «مامن مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا» قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي إسحق عن البراء (١٠) حديث «إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب» أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح

(١١) حديث أنس: قلنا يارسول الله أينحني بعضنا لبعض؟ قال «لا» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي (١٢) حديث: «الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر» أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة ... الحديث» وفيه «فاعتنقه وقبله» وقال حسن غريب (١٣) حديث أبي ذر: مالقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحني ... الحديث. أخرجه أبو داود وفيه رجل من عنزة لم يسم وسماه البيهقي في الشعب عبد الله

والأخذ بالركاب فى توقير العلماء ورد به الأثر فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت [١] وأخذ عمر يغرز زيد حتى رفعه وقال : هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام قال أنس : ماكان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك [٢] وروى أنه عليه السلام قال مرة « إذا رأيتمونى فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم [٣] » وقال عليه السلام « من سره أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار [٤] » وقال عليه السلام « لايقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا [٥] » وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهى . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته فإنما هى كرامة أكرمه بها أخوه فإن لم يوسع له فلينظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه [٦] » وروى أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبول فلم يجب [٧] فيكره السلام على من يقضى حاجته ، ويكره أن يقول ابتداء : عليك السلام ، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام « إن عليك السلام تحية الموتى » قالها ثلاثا ، ثم قال « إذا لقى أحدكم أخاه فليقل السلام عليكم ورحمة الله [٨] » ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلسا أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثانى فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا [١٠] » وسلمت أم هانئ على النبى صلى الله عليه وسلم فقال « من هذه ؟ » فقيل له : أم هانئ فقال عليه السلام « مرحبا بأم هانئ [١١] » .

ومنها أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويناضل دونه وينصره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء : أن رجلا نال من رجل عند رسول الله صلى عليه

---

(١) حديث : أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت . تقدم فى العلم

(٢) حديث أنس : ماكان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك . أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح . (٣) حديث « اذا رأيتمونى فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى أمامة وقال « كما يقوم الأعاجم » وفيه أبو العديس مجهول (٤) حديث: من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث معاوية وقال حسن

(٥) حديث « لايقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا » متفق عليه من حديث ابن عمر

(٦) حديث « اذا أخذ القوم مجالسهم فان دعا رجل أخاه فأوسع ـ يعنى له ـ فليجلس فانه كرامة من الله عز وجل ... الحديث » أخرجه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن شيبة ورجاله ثقات وابن شيبة هذا ذكره أبو موسى المدينى فى ذيله فى الصحابة وقد رواه الطبرانى فى الكبير من رواية مصعب بن شيبة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أخصر منه ، وشيبة بن جبير والد منصور ليست له صحبة (٧) حديث . أن رجلا سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبول فلم يجب . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ : فلم يرد عليه (٨) حديث : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال « ان عليك السلام تحية الميت ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث ابن جرى الهجيمى وهو صاحب القصة قال الترمذى حسن صحيح (٩) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالساً فى المسجد اذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها .. الحديث . متفق عليه من حديث أبى واقد الليثى

(١٠) حديث « مامن مسلمين يلتقيان فيتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث البراء بن عازب (١١) حديث : سلمت أم هانئ عليه فقال « مرحباً بأم هانئ » أخرجه مسلم من حديث أم هانئ

عليه وسلم فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار [١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة [٢] » وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أذله الله بها فى الدنيا والآخرة ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى فى الدنيا والآخرة[٣] » وقال عليه السلام « من حمى عن عرض أخيه المسلم فى الدنيا بعث الله تعالى له ملكا يحميه يوم القيامة من النار [٤] » وقال جابر وأبو طلحة : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من امرئ مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصره وما من امرئ خذل مسلما فى موطن ينتهك فيه حرمته إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته [٥] » .

ومنها تشميت العاطس . قال عليه الصلاة والسلام فى العاطس « يقول . الحمد لله على كل حال ، ويقول الذى يشمته : يرحمكم الله ، ويرد عليه العاطس فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم [٦] » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ، فإذا قال ذلك فليقل من عنده : يرحمك الله فإذا قالوا ذلك فليقل : يغفر الله لى ولكم [٧] » وشمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام [٩] » . وروى أنه شمت عاطسا ثلاثا فعطس أخرى فقال « إنك مزكوم [١٠] » وقال أبو هريرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غض صوته واستتر بثوبه أو يده [١١] . وروى : خمر وجهه . وقال أبو موسى الأشعرى : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول « يهديكم الله [١٢] » . وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه : أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فقال : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال ،

---

(١) حديث أبى الدرداء « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار » أخرجه الترمذى وحسنه (٢) حديث « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » أخرجه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق وهو عند الطبرانى بهذا اللفظ من حديث أبى الدرداء وفيهما شهر بن حوشب

(٣) حديث أنس « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها فى الدنيا والآخرة ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على ماذكر منه وإسناده ضعيف

(٤) حديث « من حمى عرض أخيه المسلم فى الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار » أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس بنحوه بسند ضعيف (٥) حديث جابر وأبى طلحة « ما من امرئ ينصر مسلما فى موضع ينتهك فيه من عرضه ويستحل حرمته ... الحديث » أخرجه أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف فى إسناده (٦) حديث « يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذى يشمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم » أخرجه البخارى وأبو داود من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى « على كل حال » (٧) حديث ابن مسعود « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين .. الحديث » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضاً أبو داود والترمذى من حديث سالم بن عبد الله واختلف فى إسناده

(٨) حديث : شمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت » متفق عليه من حديث أنس (٩) حديث « شمتوا المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة « شمت أخاك ثلاثا ... الحديث » وإسناده جيد (١٠) حديث : أنه شمت عاطسا فعطس أخرى فقال « إنك مزكوم » أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١١) حديث أبى هريرة : كان إذا عطس غض صوته وستر بثوبه أو يده . أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وفى رواية لأبى نعيم فى اليوم والليلة « خمر وجهه وفاه » (١٢) حديث أبى موسى : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول « يهديكم الله » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صاحب الكلمات ؟ » فقال : أنا يارسول الله ماأردت بهن إلا خيرا ، فقال لقد رأيت اثنى عشر ملكا كلهم يبتدرونها أيهم يكتبها [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته [٢] » وقال عليه السلام « العطاس من الله والتثاوب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه ، فإذا قال : ها ها ، فإن الشيطان يضحك من جوفه [٣] » وقال إبراهيم النخعى : إذا عطس فى قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمد الله فى نفسه . وقال كعب : قال موسى عليه السلام يارب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ فقال : أنا جليس من ذكرنى فقال : فإنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنابة والغائط ، فقال : اذكرنى على كل حال .

ومنها أنه إذا بلى بذى شر فينبغى أن يتحمله ويتقيه قال بعضهم : خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالفة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن فى الظاهر . وقال أبو الدرداء : إنا لنبش فى وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وهذا معنى المداراة وهى مع من يخاف شره قال الله تعالى ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ﴾ قال ابن عباس فى معنى قوله ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ أى الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقال فى قوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ قال بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة . وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » فلما دخل ألان له القول حتى أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له ، لما دخل قلت الذى قلت ، ثم ألنت له القول فقال « يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه [٤] » وفى الخبر « ماوقى الرجل به عرضه فهو له صدقة [٥] » .

وفى الأثر . خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لايجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين [٦] » وقال كعب الأحبار . كان سليمان عليه السلام فى ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس إليه وقال : مسكين جالس مسكينا . وقيل ماكان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يامسكين . وقال كعب الأحبار : مافى القرآن من ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ فهو فى التوراة « يا أيها المساكين » وقال عبادة بن الصامت . إن للنار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين وقال الفضيل : بلغنى أن نبيا من الأنبياء قال : يارب كيف لى أن أعلم رضاك عنى ؟ فقال . انظر كيف رضا المساكين عنك . وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم ومجالسة الموتى ، قيل ومن الموتى يارسول الله؟ قال: الأغنياء [٧] » وقال موسى : إلهى أين أبغيك ؟ قال عند المنكسرة قلوبهم . وقال صلى الله عليه وسلم « لاتغبطن فاجرا

(١) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة : ان رجلا عطس خلف النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعه عن أبيه وإسناده جيد

(٢) حديث « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفى الدعاء من حديث على بسند ضعيف (٣) حديث « العطاس من الله والتثاوب من الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله « العطاس من الله » فرواه الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وقال البخارى « إن الله يحب العطاس ويكره التثاوب ... الحديث »

(٤) حديث عائشه : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » متفق عليه (٥) حديث « ماوقى المرء به عرضه فهو له صدقة » أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه

(٦) حديث « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد والترمذى من حديث عائشة وقال غريب (٧) حديث « إياكم ومجالسة الموتى قيل وما الموتى ؟ قال الأغنياء » أخرجه الترمذى وضعفه والحاكم وصحح إسناده من حديث عائشة « إياك ومجالسة الأغنياء »

بنعمة فإنك لاتدرى إلى مايصير بعد الموت فإن من ورائه طالبا حثيثا(١) » وأما اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم « من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبتة (٢) » وقال عليه السلام « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين وهو يشير بأصبعيه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه (٥) » .

ومنها النصيحة لكل مسلم والجهد فى إدخال السرور على قلبه قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن يحب للمؤمن كما يحب لنفسه (٦) وقال صلى الله عليه وسلم « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئا فليمطه عنه (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم « من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أونهار قضاها أولم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين (٩) » وقال عليه السلام « من فرج عن مؤمن مغموم أوأعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة (١٠) » وقال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فقيل كيف ينصره ظالما ؟ قال « يمنعه من الظلم (١١) » وقال عليه السلام « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غما أو يقضى عنه دينا أو يطعمه من جوع (١٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حمى مؤمنا من منافق يعنته بعث الله إليه ملكا يوم القيامة يحمى لحمه من نار جهنم » وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان ليس فوقهما شىء من الشر الشرك بالله والضر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شىء من البر الإيمان بالله والنفع لعباد الله (١٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم (١٤) » وقال معروف الكرخى « من قال كل يوم ، اللهم أرحم أمة محمد كتبه الله من الأبدال - وفى رواية

---

(١) حديث « لاتغبطن فاجرا بنعمة ... الحديث » رواه البخارى فى التاريخ والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث « من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة البتة » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث مالك بن عمرو وفيه على بن زيد بن جدعان متكلم فيه (٣) حديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » أخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبى هريرة . (٤) حديث « من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة » أخرجه أحمد والطبرانى باسناد ضعيف من حديث أبى أمامة دون قوله « ترحما » ولابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن أبى أوفى « من مسح يده على رأس يتيم رحمة له ... الحديث » (٥) حديث « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه ضعف

(٦) حديث « المؤمن يحب للمؤمن مايحب لنفسه » تقدم بلفظ « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ولم أره بهذا اللفظ . (٧) حديث « ان أحدكم مرآة أخيه .. الحديث » رواه أبو داود والترمذى وقد تقدم . (٨) حديث « من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره » أخرجه البخارى فى التاريخ والطبرانى والخرائطى كلاهما فى مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسلا . (٩) حديث « من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل او نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين » أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس « لان يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته - وأشار بأصبعه - أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين » والطبرانى فى الأوسط « من مشى فى حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافه عشر سنين » وكلاهما ضعيف . (١٠) حديث « من فرج عن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة » أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من حديث أنس بلفظ « من أغاث ملهوفا » (١١) حديث « انصر اخاك ظالما أو مظلوما ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

(١٢) حديث « ان من أحب الأعمال الى الله ادخال السرور على المؤمن .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (١٣) حديث « خصلتان ليس فوقهما شىء من الشر الشرك بالله والضر بعباد الله ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يسنده ولده فى مسنده . (١٤) حديث « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » أخرجه الحاكم من حديث حذيفة والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر وكلاهما ضعيف .

أخرى ـ اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد ـ كل يوم ثلاث مرات ـ كتبه الله من الأبدال ، وبكى على بن الفضيل يوما فقيل له مايبكيك ؟ قال : أبكى على من ظلمنى إذا وقف غدا بين يدى الله تعالى وسئل عن ظلمه ولم تكن له حجة .

ومنها أن يعود مرضاهم فالمعرفة والإسلام كافيان فى إثبات هذا الحق ونيل فضله . وأدب العائد خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وغض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لايقابل الباب ويدق برفق ولا يقول : أنا ، إذا قيل له : من ؟ ولايقول ، ياغلام ، ولكن يحمد ويسبح وقال صلى الله عليه وسلم « تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أوعلى يده ويسأله كيف هو وتمام تحياتكم المصافحة » وقال صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضا قعد فى مخارف الجنة حتى إذا قام وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل »[١] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا عاد الرجل المريض خاض فى الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه »[٢] ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلا فى الجنة »[٣] ، وقال عليه السلام « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظرا ماذا يقول لعواده ؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدى على إن توفيته ان أدخله الجنة وإن انا شفيته أن أبدل له لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن أكفر عنه سيئاته »[٤] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه »[٥] ، وقال عثمان رضى الله عنه مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ماتجد » قالها مرارا[٦] ودخل صلى الله عليه وسلم على على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مريض فقال له « قل اللهم إنى إسألك تعجيل عافيتك أو صبرا على بليتك أو خروجا من الدنيا إلى رحمتك فإنك ستعطى إحداهن »[٧] ، ويستحب للعليل أيضا أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ماأجد وأحاذر . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إذا شكا أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئا من صداقها ويشترى به عسلا ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنىء والمرىء والشفاء

(١) حديث « من عاد مريضاً قعد فى مخارف الجنة .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث على « من أتى أخاه المسلم عائداً مشى فى خرافة الجنة حتى يجلس فاذا جلس غمرته الرحمة فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى وإن كان مساء ... الحديث » لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذى ولمسلم من حديث ثوبان « من عاد مريضاً لم يزل فى خرفة الجنة » .
(٢) حديث « إذا عاد الرجل المريض خاض فى الرحمة فاذا قعد عنده قرت فيه » أخرجه الحاكم والبيهقى من حديث جابر وقال « انغمس فيها » قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر ، وذكره مالك فى الموطأ بلاغا بلفظ « قرت فيه » ورواه الواقدى بلفظ « استقر فيها » وللطبرانى فى الصغير من حديث أنس « فاذا قعد عنده غمرته الرحمة » وله فى الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمرو بن حزم « استنقع فيها » . (٣) حديث « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلا فى الجنة » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة إلا أنه قال « ناداه مناد » قال الترمذى غريب قلت فيه عيسى بن سنان القسملى ضعفه الجمهور . (٤) حديث « إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا مايقوله لعواده الحديث » أخرجه مالك فى الموطأ مرسلا من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من روايته عن أبى سعيد الخدرى وفيه عباد بن كثير الثقفى ضعيف الحديث وللبيهقى من حديث أبى هريرة قال الله تعالى « إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عواده أطلقته من اسارى ثم أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم يستأنف العمل » وإسناده جيد : (٥) حديث « من يرد الله به خيراً يصب منه » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة . (٦) حديث عثمان : مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الاحد الصمد ... الحديث » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة والطبرانى والبيهقى فى الأدعية من حديث عثمان بن عفان باسناد حسن . (٧) حديث : دخل على على وهو مريض فقال « قل اللهم إنى أسألك تعجيل عافيتك ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكى ولم يسم عليا . وروى البيهقى فى الدعوات من حديث عائشة : أن جبريل علمها للنبى صلى الله عليه وسلم وقال إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات .

والمبارك . وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به فى أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » قلت : بلى يارسول الله قال « يقول لا إله إلا الله يحيي ويميت وهو حى لايموت سبحان الله رب العباد والبلاد والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال . الله أكبر كبيرا إنّ كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان . اللهم إن أنت أمرضتنى لتقبض روحى فى مرضى هذا فاجعل روحى فى أرواح من سبقت لهم منك الحسنى وباعدنى من النار كما باعدت أولياءك الذين سبقت لهم منك الحسنى (١) » وروى أنه قال عليه السلام « عيادة المريض بعد ثلاث فواق ناقة (٢) » وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : عيادة المريض مرة سنة فما ازدادت فنافلة ، وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث . وقال عليه السلام « أغبوا فى العيادة وأربعوا فيها (٣) » وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر والفزع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء ..

ومنها أن يشيع جنائزهم قال صلى الله عليه وسلم « من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان (٤) » وفى الخبر « القيراط مثل أحد (٥) » ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال : لقد فرطنا إلى الآن فى قراريط كثيرة . والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنا رائحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لاعقل له . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكى ويقول : والله لاتقرّ عينى حتى أعلم إلى ماصرت ولا والله لا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلاندرى لمن نعزى لحزن القوم كلهم ؟ ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ! إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق ، وخوف الخاتمة قد أمن . وقال صلى الله عليه وسلم « يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله (٦) » .

ومنها أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال صلى الله عليه وسلم « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه (٧) » وقال عمر رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكى وبكينا ، فقال « مايبكيكم ؟ » قلنا : بكينا لبكائك . قال « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى واستأذنته فى أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى مايدرك الولد من الرقة (٨) » وكان عمر رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنّ القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ (٩) » وقال مجاهد . أول

---

(١) حديث أبى هريرة « ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به فى أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الدعاء وفى المرض والكفارات . (٢) حديث « عيادة المريض فواق ناقة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من حديث أنس باسناد فيه جهالة . (٣) حديث « أغبوا فى العيادة وأربعوا » رواه ابن أبى الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد « إلا أن يكون مغلوبا » وإسناده ضعيف . (٤) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فان وقف حتى تدفن فله قيراطان أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة . (٥) حديث « القيراط مثل جبل أحد » أخرجه مسلم من حديث ثوبان وأبى هريرة وأصله متفق عليه

(٦) حديث « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٧) حديث « مارأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذى حسن غريب

(٨) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس الى قبر ... الحديث فى زيارته قبر أمه . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً وأحمد من حديث بريدة وفيه : فقام إليه عمر ففداه بالأب والأم يقول يارسول الله مالك .. الحديث

(٩) حديث عثمان بن عفان « إن القبر أول منازل الآخرة ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده

ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة . فهذا ما أعددت لك فما أعددت لى ؟ وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع فى قبرى . كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له فى ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكروننى معادى وإن قمت عنهم لم يغتابونى . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وقال صلى الله عليه وسلم « ما من ليلة إلا وينادى مناد : يا أهل القبور من تغبطون ؟ قالوا : نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلى ويذكرون الله ولانذكره »[1] ، وقال سفيان من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبرا فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال ﴿رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت﴾ ثم يقول : ياربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لاترجع . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال ياميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم أماتراهم صرعى قد خلت بهم المثلات وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ماأعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله ؟

وآداب المعزى خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكر فى الموت والاستعداد له وأن يمشى أمام الجنازة بقربها والإسراع بالجنازة سنة[2] فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق .

والجملة الجامعة فيه أن لاتستصغر منهم أحدا حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لاتدرى لعله خير منك ؟ فإنه وإن كان فاسقا فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح ؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير مافيها . ومهما عظم أهل الدنيا فى نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله . ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر فى أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك فى المعاداة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكرا فى الدين فتعادى أفعالهم القبيحة وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم فحسبهم جهنم يصلونها ، فمالك تحقد عليهم ولا تسكن إليهم فى مودتهم لك وثنائهم عليك فى وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة إلا واحدا وربما لا تجده . ولا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك فى الغيب والسر كما فى العلانية فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به ؟ ولا تطمع فيما فى أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض . ولا تعل عليهم تكبرا لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخا منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدوا تطول عليك مقاساته . ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك ، وليكن وعظك عرضا واسترسالا من غير تنصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذى سخرهم لك واستعذ بالله أن يكلك إليهم . وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شرا أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعذ بالله من شرهم . ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعى .

---

(١) حديث « ما من ليلة إلا ينادى مناد يا أهل القبور من تغبطون ؟ فيقولون : نغبط أهل المساجد ... الحديث لم أجد له أصلا .

(٢) حديث : الإسراع بالجنازة . متفق عليه من حديث أبى هريرة « أسرعوا بالجنازة ... الحديث » .

واعتقد أنك لو استحقيت ذلك لجعل الله لك موضعا فى قلوبهم فالله المحبب والمبغض إلى القلوب وكن فيهم سميعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بحقهم صموتا عن باطلهم . واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان ، فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحنق لا يؤمنون فى حنقهم ولا يرجون فى ملقهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، يقطعون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات فى صحبتهم ليواجهوك بها فى غضبهم ووحشتهم ، ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة فى دار أو موضع واحد فتجربه فى عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله فى الدينار والدرهم أو تقع فى شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته فى الأحوال فاتخذه أبالك إن كان كبيرا أو ابنا لك إن كان صغيرا أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق .

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ماتقتضيه أخوة الإسلام . فيستحق الجار المسلم مايستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبى صلى الله عليه وسلم « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك [1] » فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما [2] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « لايؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « أول خصمين يوم القيامة جاران [6] » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته [7] » ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على فقال اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم « هى فى النار [8] » . وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (اصبر) ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة (اطرح متاعك فى الطريق) قال : فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود [9]

---

(١) حديث « الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق ... الحديث » أخرجه الحسن بن سفيان والبزار فى مسنديهما وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث جابر وابن عدى من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » تقدم (٣) حديث « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر (٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديث أبى شريح (٥) حديث « لايؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » أخرجه البخارى من حديث أبى شريح أيضاً .

(٦) حديث « أول خصمين يوم القيامة جاران » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف .

(٧) حديث « اذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته » لم أجد له أصلا (٨) حديث : ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال هى فى النار » أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح الإسناد (٩) حديث : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له فى الثالثة ـ أو الرابعة ـ اطرح متاعك على الطريق ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

وروى الزهرى : أنّ رجلا أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادى على باب المسجد « ألا إن أربعين دارا جار [1] » قال الزهرى : أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأومأ إلى أربع جهات . وقال عليه السلام « اليمن والشؤم فى المرأة والمسكن والفرس ، فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها . ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله . وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله . ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمه صعوبته وسوء خلقه [2] » .

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى ، فإن الجار أيضا قد كف أذاه فليس فى ذلك قضاء حق ، ولا يكفى احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامه فيقول : يارب سل هذا لم منعنى معروفه وسدّ بابه دونى ؟

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داره فى دين ركبه وكان يجلس فى ظل داره ، فقال : ماقمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدما فدفع إليه ثمن الدار وقال : لاتبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر فى داره ، فقيل له : لو اقتنيت هرا ؟ فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهرّ فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم مالا أحب لنفسى .

وجملة حق الجار : أن يبدأه بالسلام ، ولايطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده فى المرض ويعزيه فى المصيبة ، ويقوم معه فى العزاء ، ويهنئه فى الفرح ، ويظهر الشركة فى السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولايضايقه فى وضع الجذع على جداره ، ولا فى مصب الماء فى ميزابه ، ولافى مطرح التراب فى فنائه ، ولا يضيق طرقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ماينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولايغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولايسمع عليه كلاما ، ويغض بصره عن حرمته ، ولايديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده فى كلمته ، ويرشده إلى مايجهله من أمر دينه ودنياه . هذا إلى جملة الحقوق التى ذكرناها لعامة المسلمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون ماحق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولاتؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، ثم قال : أتدرون ماحق الجار ؟ والذى نفسى بيده لايبلغ حق الجار إلا من

(١) حديث الزهرى « ألا ان أربعين دارا جار » أخرجه أبو داود فى المراسيل ووصله الطبرانى من رواية الزهرى عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة وقال « أربعون ذراعا » وكلاهما ضعيف (٢) حديث « اليمن والشؤم فى المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « الشؤم فى الدار والمرأة والفرس » وفى رواية له « ان يك من الشؤم شىء حقا » وله من حديث سهل بن سعد « ان كان ففى الفرس والمرأة والمسكن » وللترمذى من حديث حكيم ابن معاوية « لاشؤم وقد يكون اليمن فى الدار والمرأة والفرس » ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية وللطبرانى من حديث أسماء بنت عميس : قالت يارسول الله ماسوء الدار ؟ قال « ضيق ساحتها وخبث جيرانها » قيل فما سوء الدابة ؟ قال « منعها ظهرها وسوء خلقها » قيل فما سوء المرأة ؟ قال « عقم رحمها وسوء خلقها » وكلاهما ضعيف ورويناه فى كتاب الخيل للدمياطى من رواية سالم بن عبد الله مرسلا « اذا كان الفرس ضروبا فهو مشئوم واذا كانت المرأة قد عرفت زوجا قبل زوجها فحنت الى الزوج الأول فهى مشئومة واذا كانت الدار بعيدة من المسجد لايسمع فيها الأذان والإقامة فهى مشئومة » واسناده ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه .

رحمه الله (١) » هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال : ياغلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه (٢) وقال هشام : كان الحسن لايرى بأسا أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك ، وقال أبوذر رضى الله عنه . أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم وقال « إذا طبخت قدرا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت فى جيرانك فاغرف لهم منها (٣) » وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله إن لى جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر ناء ببابه عنى ، وربما كان الذى عندى لايسعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال : المقبل عليك ببابه (٤) ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصى جارا له ، فقال لا تناص جارك ، فإن هذا يبقى والناس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى النيسابورى : سألت عبد الله بن المبارك فقلت : الرجل المجاور يأتينى فيشكو غلامى أنه أتى إليه أمرا والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله برىء وأكره أن أدعه فيجد على جارى ، فكيف أصنع ؟ قال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه ، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث ، وهذا تلطف فى الجمع بين الحقين .

وقالت عائشة رضى الله عنها : خلال المكارم عشر تكون فى الرجل ولا تكون فى أبيه وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يامعشر المسلمات لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة (٥) » قال صلى الله عليه وسلم « إن من سعادة المرء المسلم : المسكن الواسع ، والجار الصالح والمركب الهنى (٦) » وقال عبد الله : قال رجل : يارسول الله ، كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت (٧) » وقال جابر رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم من كان له جار فى حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه (٨) وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى (٩) . وقال

---

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أتدرون ماحق الجار ؟ إن استعان بك أعنته وإن استقرضك أقرضته ... الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل وهو ضعيف . (٢) حديث مجاهد « كنت عند عبد الله ابن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال ياغلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن غريب (٣) حديث أبي ذر : أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم « إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها » رواه مسلم (٤) حديث عائشة : قلت يارسول الله إن لى جارين ... الحديث، رواه البخارى (٥) حديث أبى هريرة « يانساء المسلمين لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » رواه البخارى (٦) حديث « إن من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنىء » رواه أحمد من حديث نافع بن عبد الحارث وسعد بن أبى وقاص ، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عبد الله : قال رجل يارسول الله كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت » رواه أحمد والطبرانى وعبد الله هو ابن مسعود ، وإسناده جيد .

(٨) حديث جابر « من كان له جار فى حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه » أخرجه ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار ، وقال : صحيح الإسناد ، وهو عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظ المصنف ، ولابن ماجه من حديث ابن عباس « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » ورجاله رجال الصحيح (٩) حديث أبى هريرة : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى . رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا ، وهو متفق عليه بلفظ « لايمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبة فى حائطه » رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة .

ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبة فى جداره ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : مالى أراكم عنها معرضين ، والله لأرمينها بين أكتافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيرا عسله ، قيل : وما عسله ؟ قال « يحببه إلى جيرانه [1] » .

حقوق الأقارب الرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينسأ له فى أثره ويوسع عليه فى رزقه فليصل رحمه [3] » وفى رواية أخرى « من سره أن يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقة فليتق الله وليصل رحمه » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه . وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر [4] » وقال أبو ذر رضى الله عنه « أوصانى خليلى عليه السلام بصلة الرحم وإن ادبرت وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها [6] » وقال عليه السلام « إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجارا ، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم [7] » وقال زيد بن اسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج ، فقال عليه السلام « إن الله قد منعنى من بنى مدلج بصلتهم الرحم [8] » وقالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت علىّ أمى ، فقلت : يارسول الله ، إن أمى قدمت على وهى مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم [9] » . وفى رواية : أفأعطيها ؟ قال « نعم صليها » . وقال عليه السلام « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان [10] » ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملا بقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [11] قال :

---

(١) حديث « من أراد الله به خيراً عسله » رواه أحمد من حديث أبى عتبة الخولانى ، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى الزهد من حديث عمرو بن الحمق . زاد الخرائطى : قيل وماعسله ؟ قال « حببه الى جيرانه » وقال البيهقى « يفتح له عملا صالحا قبل موته حتى يرضى عنه من حوله » وإسناده جيد .

(٢) حديث « يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم ... الحديث » متفق عليه من حديث عائشة . (٣) حديث « من سره أن ينسأ له فى أثره ويوسع له فى رزقه فليتق الله وليصل رحمه » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فليتق الله » وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث على باسناد جيد . (٤) حديث : أى الناس أفضل فقال « أتقاهم لله وأوصلهم للرحم » رواه أحمد والطبرانى من حديث درة بنت أبى لهب باسناد حسن . (٥) حديث أبي ذر : أوصاني خليلى صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت ، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا ، رواه أحمد وابن حبان وصححه . (٦) حديث « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » أخرجه الطبراني والبيهقى من حديث عبد الله بن عمرو ، وهو عند البخارى دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » فرواها مسلم من حديث عائشة . (٧) حديث « أعجل الطاعات ثوابا صلة الرحم ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أبى بكرة ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف . (٨) حديث زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج ؟ فقال « إن الله منعنى من بنى مدلج بصلتهم الرحم » رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ، وزاد « وطعنهم فى لبات الإبل » وهو مرسل صحيح الإسناد (٩) حديث أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أمى فقلت : يارسول الله ، قدمت على أمى وهى مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم صليها » متفق عليه (١٠) حديث « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث سلمان ابن عامر الضبي (١١) حديث : لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط له كان يعجبه عملا بقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ... الحديث أخرجه البخارى وقد تقدم .

يارسول الله ، هو فى سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام « وجب اجرك على الله قسمه فى أقاربك » وقال عليه السلام «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح (١) » وهو فى معنى قوله «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتصفح عمن ظلمك (٢) » وروى أنّ عمر رضى الله عنه كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، وإنما قال ذلك لأنّ التجاور يورث التزاحم على الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم .

حقوق الوالدين والولد

لايخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه (٣) » وقد قال صلى الله عليه وسلم « برالوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله (٤) » وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فمثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما . ومن أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى مثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « بر أمك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك (٧) » .

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : ياموسى ، إنه من بر والديه وعقنى كتبته بارا ، ومن برنى وعق والديه كتبته عاقا .

وقيل : لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له : فأوحى الله إليه : أتتعاظم أن تقوم لأبيك ، وعزتى وجلالى لاأخرجت من صلبك نبيا .

وقال صلى الله عليه وسلم « ماعلى أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل اجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شىء (٨) » وقال مالك بن ربيعة : بينما نحن

---

(١) حديث « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث أبى أيوب ، رفيه الحجاج بن أرطاة ورواه البيهقى من حديث أم كلثوم بنت عقبة (٢) حديث « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند ضعيف وللطبرانى نحوه من حديث أبى أمامه وقد تقدم (٣) حديث « لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد » لم أجده هكذا . وروى أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث أنس : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : « هل بقى من والديك أحد ؟ » قال : أمى . قال « قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » وإسناده حسن (٥) حديث « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان الى الجنة ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح .

(٩) حديث « إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولايجد ريحها عاق ولاقاطع رحم » أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث أبى هريرة دون ذكر القاطع ، وهى فى الأوسط من حديث جابر ، إلا أنه قال « من مسيرة ألف عام » وإسنادهما ضعيف .

(٧) حديث « برأمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » أخرجه النسائى من حديث طارق المحاربى ، وأخرجه أحمد والحاكم من حديث أبى رمثة ، ولأبى داود نحوه من حديث كليب بن منفعه عن جده ، وله وللترمذى والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : من أبر ؟ قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : قال رجل : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال « أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك » لفظ مسلم .

(٨) حديث « ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقه أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف ، دون قوله « إذا كانا مسلمين » .

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدة على الولد ضعفان [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل : يارسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هى أرحم من الأب ودعوة الرحم لاتسقط [٤] » .

وسأله رجل فقال : يارسول الله من أبر ؟ فقال : « بر والديك » فقال : ليس لى والدان ، فقال : « بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقا ، كذلك لولدك عليك حق [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله والدا أعان ولده على بره [٦] » أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم « ساووا بين أولادكم فى العطية » وقد قيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعا وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبى صلى الله عليه وسلم « الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى ؛ فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ؛ ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلمتك وانكحتك ، أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن أسمه [٨] » .

وقال عليه الصلاة والسلام « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه [٩] » وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ الصبى حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده ، فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم . قال : أنت أفسدته .

ويستحب الرفق بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال : إن لى

---

(١) حديث مالك بن ربيعة . بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جاءه رجل من بنى سلمة فقال هل بقى على من بر أبوى شىء ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « بر الوالدة على الولد ضعفان » غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبى هريرة وهو معنى هذا الحديث . (٤) حديث دعوة الوالدة أسرع إجابة .. الحديث » لم أقف له على أصل . (٥) حديث : قال رجل يارسول الله من أبر ؟ قال « بر والديك » فقال ليس لى والدان فقال « ولدك فكما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق » أخرجه أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله « فكما أن لوالديك » الخ وهذه القطعة رواها الطبرانى من حديث ابن عمر قال الدارقطنى فى العلل ان الأصح وقفه على ابن عمر . (٦) حديث « رحم الله والداً أعان ولده على بره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث على بن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه النوقانى من رواية الشعبى مرسلا .

(٧) حديث أنس : الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فاذا بلغ ست سنين أدب فاذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فاذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فاذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة الا أنه قال « وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم » وفى اسناده من لم يسم . (٨) حديث « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفهما .

(٩) حديث « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه » أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة قال الترمذى حسن صحيح .

عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام « إن من لايرحم لايرحم [١] » وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسلى وجه أسامة » فجعلت اغسله وأنا أنفة ، فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية [٢] » وتعثر الحسن ـ والنبى صلى الله عليه وسلم على منبره ـ فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [٣] وقال عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يارسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال « إن ابنى قد ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته [٤] » وفى ذلك فوائد : إحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب مايكون من الله تعالى إذا كان ساجدا ، وفيه الرفق بالولد والبر ، وتعليم لأمته . وقال صلى الله عليه وسلم « ريح الولد من ريح الجنة [٥] » .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : ياأبا بحر ، ماتقول فى الولد ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ؛ فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ؛ فقال له معاوية : لله أنت ياأحنف ، لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا وغيظا على يزيد . فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن يزيد وبعث إليه بمائتى ألف درهم ومائتى ثوب ؛ فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقاسمه إياها على الشطر .

فهذه هى الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين وكيفية القيام بحقهما تعرف مما ذكرناه فى حق الأخوة ؛ فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران (أحدهما) أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات وإن لم تجب فى الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس لك أن تسافر فى مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذى هو فرض الإسلام نفل ، لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن فى بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء فى بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدرى : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام « هل باليمن أبواك » قال : نعم ، قال « هل أذنا لك ؟ » قال : لا ، فقال عليه السلام « فارجع إلى أبويك

---

(١) حديث : رأى الأقرع بن حابس النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال « من لايرحم لايرحم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة . (٢) حديث عائشة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسلى وجه أسامة » فجعلت أغسله وأنا أنفة ؛ فضرب بيدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » لم أجده هكذا ولأحمد من حديث عائشة : أن أسامة عثر بعتبة الباب فدمى فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمصه ويقول « لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها » وإسناده صحيح . (٣) حديث : عثر الحسن وهو على منبره صلى الله عليه وسلم فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة فى الحسن والحسين معا يمشيان ويعثران قال الترمذى حسن غريب . (٤) حديث عبد الله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه . رواه النسائى من رواية عبد الله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على الشك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « ريح الولد من ريح الجنة » أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه مندل بن على ضعيف .

فأستأذنهما ، فإن فعلا فجاهد ، وإلا فبرهما ما استطعت ، فإن ذلك خير ماتلقى الله به بعد التوحيد (١) » . وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم ليستشيره فى الغزو فقال « ألك والدة ؟ » قال : نعم . قال « فالزمها فإن الجنة عند رجليها (٢) » . وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال : ماجئتك حتى أبكيت والدى ، فقال « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما (٣) » .

وقال صلى الله عليه وسلم « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد عن ولده (٤) » .

وقال عليه السلام « إذا استصعبت على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن فى أذنه (٥) » .

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه فى آداب النكاح ، فأما ملك اليمين فهو أيضا يقتضى حقوقا فى المعاشرة لابد من مراعاتها ، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم (٦) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق (٧) » وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيىء الملكة (٨) » وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى : هاجر رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم « باليمن أبواك ؟ » قال : نعم ... الحديث . أخرجه أحمد وابن حبان دون قوله « مااستطعت » الخ . (٢) حديث :جاء آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستشيره فى الغزو فقال « ألك والدة ؟ » فقال : نعم » قال فالزمها فان الجنة تحت قدمها » أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة : أن جاهمة أتى النبي صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح الإسناد . (٣) حديث جاء آخر فقال : ماجئتك حتى أبكيت والدى فقال « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » أخرجه أبوداود والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ورواه أبو داود فى المراسيل من رواية سعيد بن عمرو ابن العاص مرسلا ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف (٥) حديث « إذا استصعب على أحدكم دابته أوساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن فى أذنه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث الحسين بن على بن أبى طالب بسند ضعيف نحوه (٦) حديث : كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون ...الحديث » الخ وهو مفرق فى عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث على : كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » وفى الصحيحين من حديث أنس : كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ولهما من حديث أبى ذر « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولاتكلفوهم مايغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » لفظ رواية مسلم وفى رواية لأبى داود « من يلايمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لايلايمكم منهم فبيعوه ولاتعذبوا خلق الله تعالى » وإسناده صحيح (٧) حديث « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولايكلف من العمل مالا يطيق » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٨) حديث « لايدخل الجنة خب ولا متكبر ولاخائن ولاسيىء الملكة » أخرجه أحمد مجموعا والترمذى مفرقا وابن ماجه مقتصرا على « سيىء الملكة » من حديث أبى بكر وليس عند أحد منهم متكبر وزاد أحمد والترمذى البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طريقيه .

ثم قال « اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة [١] » وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى فى كل يوم سبت ، فإذا وجد عبدا فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه . ويروى على أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له : ياعبدالله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك فحمله ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا مامشى خلفه . وقالت جارية لأبى الدرداء : إنى سممتك منذ سنة فما عمل فيك شيئا فقال : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : أردت الراحة منك ، فقال : اذهبى فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهرى : متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر . وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، قيل فما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جالس فى داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها : أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه قال : ماأشبهك بمولاك ؟ مولاك يعصى مولاه وأنت تعصى مولاك ، فأغضبه يوما فقال : إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون ؛ فقال : ياجارية أحرقتنى ، قالت : يامعلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ماقال الله تعالى قال : وما قال الله تعالى ؟ قالت : قال ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال : قد كظمت غيظى ، قالت ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوت عنك ، قالت : زد فإن الله تعالى يقول ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال : أنت حرة لوجه الله تعالى . وقال ابن المنكدر : إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ، فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياح العبد فانطلق إليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك يده فقال رسول الله « سألك بوجه الله فلم تعفه فلما رأيتنى أمسكت يدك » قال : فإنه حر لوجه الله يارسول الله ، فقال « لو لم تفعل لسفعت وجهك النار [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين [٣] » ولما اعتق أبو رافع بكى وقال : كان لى أجران فذهب أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشهيد ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ، وعفيف متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط وذو ثروة لا يعطى حق الله وفقير فخور [٤] » وعن أبى مسعود الأنصارى قال : بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى « اعلم يا أبا مسعود » مرتين فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقيت السوط من يدى فقال « والله لله أقدر عليك منك على هذا [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شىء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه [٦] » رواه معاذ

---

(١) حديث ابن عمر : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت ثم قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث ابن المنكدر : أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ؟ فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد... الحديث» أخرجه ابن المبارك فى الزهد مرسلا وفى رواية لمسلم فى حديث أبى مسعود الآتى ذكره : فجعل يقول : أعوذ بالله . قال فجعل يضربه فقال : أعوذ برسول الله فتركه ، وفى رواية له : فقلت هو حر لوجه الله ، فقال « أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار » أو « لمستك النار » (٣) حديث « إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين » متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار : فأول ثلاثة يدخلون الجنة : الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن حبان من حديث أبى هريرة (٥) حديث أبى مسعود الأنصارى : بينا أنا أضرب غلاما لى سمعت صوتا من خلفى « اعلم أبامسعود » مرتين ... الحديث . رواه مسلم . (٦) حديث معاذ : إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شىء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه أخرجه الطبرانى فى الأوسط والخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناوله لقمة [١] » وفى رواية « إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ؛ فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله أو ليأخذ أكلة فليروغها - وأشار بيده - وليضعها فى يده وليقل كل هذه ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال : يا أبا عبدالله ماهذا ؟ فقال : بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين . وقال صلى الله عليه وسلم « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران [٢] » وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته [٣] » .

فجملة حق المملوك أن يشركه فى طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولاينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنايته فى معاصيه وجنايته على حق الله تعالى وتقصيره فى طاعته مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته . وروى فضالة بن عبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لايسئل عنهم : رجل فارق الجماعة ، ورجل عصى إمامه فمات عاصيا فلا يسأل عنهما ، وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا يسأل عنها . وثلاثة لايسأل عنهم رجل ينازع الله رداءه ورداؤه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل فى شك من الله ، وقنوط من رحمة الله [٤] » .

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق .

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف هممهم إلى مؤانسته ، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته ، وحقر فى قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجارى فكرته فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى فى خلوته ، واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحابته سادة الحق وأئمته .

أما بعد : فإن للناس اختلافا كثيرا فى العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى ، ومع أن كل واحدة منهما لاتنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إلى إليها ، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه فى كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة ، فكشف الغطاء عن الحق فى ذلك مهم . ويحصل ذلك برسم بابين (الباب الأول) فى نقل المذاهب والحجج فيها (الباب الثانى) فى كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل .

---

(١) حديث أبى هريرة « وليأكل معه فان أبى فليناوله » وفى رواية « إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ... الحديث » متفق عليه مع اختلاف افظ وهو فى مكارم الأخلاق للخرائطى باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر « علاجه » وهذه اللفظة عند البخارى

(٢) حديث « من كانت عنده جارية فعالها وأحسن اليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران » متفق عليه من حديث أبى موسى.

(٣) حديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٤) حديث فضالة بن عبيد « ثلاثة لايسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى امامه ومات عاصيا ... الحديث » أخرجه الطبرانى وصححه .

الباب الأول فى نقل المذاهب والأقاويل

وذكر حجج الفريقين فى ذلك

أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة : سفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائى ، وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى ، وبشر الحافى

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعرف والإخوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم فى الدين تعاونا على البر والتقوى ومال إلى هذا : سعيد بن المسيب ، والشعبى ، وابن أبى ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة .

والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين ، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل . فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات لنبين المذاهب فيها ، وما هو مقرون بذكر العلة نورده عند التعرض للغوائل والفوائد ، فنقول ؛ قد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا . وقيل : اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا . وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائى : عظنى ؛ قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله : كلمات أحفظهن من التوراة ؛ قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حرا ، وترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتع طويلا . وقال وهيب ابن الورد . بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت والعاشر فى عزلة الناس . وقال يوسف بن مسلم لعلى بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ - وقد كان لزم البيت - فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم . وقال سفيان الثورى : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت . وقال بعضهم : كنت فى سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبعا لا نسمع له كلاما ؛ فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علما فغايته التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعى لرجل تفقه ثم اعتزل ، وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحدا واحدا حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتهيأ للمرء أن يخبر كل عذر له . وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا ؟ فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى . وقال الفضيل : إنى لأجد للرجل عندى يدا : إذا لقينى أن لا يسلم على ، وإذا مرضت أن لا يعودنى . وقال أبو سليمان الدارانى . بينما الربيع ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه ، فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت يا ربيع ، فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته . وكان سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثورى يقول ، والله الذى لا إله إلا هو لقد حلت العزلة وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فإنك لا تدرى ما يكون يوم القيامة ، فإن تكن

فضيحة كان من يعرفك قليلا . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له . ألك حاجة ؟ قال: نعم ، قال: وماهي؟ قال أن لاتراني ولا أراك ولا تعرفني . وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك ، فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر ؟ قال : الله قال : فليصحبه الآن . وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني ؛ فبكى الفضيل وقال : ياويح على أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني ؟ وقال الفضيل أيضا : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى . فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة .

ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ الآية وبقوله تعالى ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾ أمتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف ؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة . والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات ، والعزلة لاتنافي ذلك .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن إلف مألوف ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف (١) » ، وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤالفة ، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبا للسلامة من غيره .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الإسلام من عنقه » وقال « من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية (٢) » وبقوله صلى الله عليه وسلم « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه (٣) » ، وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغى ، وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم وذلك محظور لاضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر ، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة .

واحتجوا بنهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث إذ قال « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار (٤) » وقال عليه السلام « لايحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة (٥) » وقال « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه (٦) » قالوا والعزلة هجره بالكلية . وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة ، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب . مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين ؛ أحدهما : أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة . الثاني . أن يرى لنفسه سلامة فيه .

كتاب العزلة

الباب الأول : في نقل المذاهب والحجج فيها

(١) حديث « المؤمن الف مألوف ... الحديث » تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة . (٢) حديث « من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث « من شق عصا المسلمين والمسلمون في اسلام داج فقد خلع ربقة الإسلام » أخرجه الطبراني والخطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد .
(٤) حديث « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح .
(٥) حديث « لايحل لامرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « والسابق بالصلح » زاد فيه الطبراني « والذي يبدأ بالصلح يسبق الى الجنة » . (٦) حديث « من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه » أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدرد بن أبي حدرد واسناده صحيح .

والنهى وإن كان عاما فهو محمول على ماوراء الموضعين المخصوصين بدليل ماروى عن عائشة رضى الله عنها . أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر [1] . وروى عن عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعا وعشرين يوما ؛ فلما نزل قيل له : إنك كنت فيها تسعا وعشرين ، فقال « الشهر قد يكون تسعا وعشرين[2] » وروت عائشة رضى الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لاتؤمن بوائقه [3] » فهذا صريح فى التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحمق قربة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحماقة لاينتظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدى رجل هجر رجلا حتى مات ؛ فقال : هذا شيء قدم تقدم فيه قوم ؛ سعد بن أبى وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبدالرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة . وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم فى المهاجرة .

واحتجوا بما روى : أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لاتفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم فى بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاما [4] » والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه فى ابتداء الاسلام بدليل ما روى عن ابى هريرة رضى الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء ؛ فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « لاتفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله خير من صلاته فى أهله ستين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة اغزوا فى سبيل الله فإنه من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة [5] » .

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة وإياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد [6] » وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم ، وسيأتى بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة .

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكايه عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ﴾ الآية ثم قال تعالى ﴿ فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾ إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لافائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين . وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر . قلت : إنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح . (٢) حديث عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ... الحديث . متفق عليه . (٣) حديث عائشة . لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لايأمن بوائقه أخرجه ابن عدى وقال غريب المتن والإسناد وحديث عائشة عند أبى داود دون الاستثناء بإسناد صحيح . (٤) حديث : أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لاتفعل » الحديث . أخرجه البيهقى من حديث عسعس ابن سلامة قال ابن عبد البر يقولون ان حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين . (٥) حديث أبى هريرة : غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء غزيرة فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم الا أن الترمذى قال سبعين عاما .

(٦) حديث معاذ بن جبل : الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية » أخرجه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات الا أن فيه انقطاعا .

إلا هجرهم وإنما الكلام فى مخالطة المسلمين وما فيها من البركة لما روى أنه قيل : يارسول الله الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التى يتطهر منها الناس ؟ فقال « بل من هذه المطاهر التماسا لبركة أيدى المسلمين[١] » وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها ؛ فإذا التمر المنقع فى حياض الأدم وقد مغثه الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون ، فاستسقى منه وقال « اسقونى » فقال العباس : إن هذا النبيذ شراب قد مغث وخيض بالأيدى أفلا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر فى البيت ؟ فقال « اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس ألتمس بركة أيدى المسلمين » فشرب منه[٢] فإذن كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم ؟

واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام ﴿ وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ﴾ وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى فى أصحاب الكهف ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أمرهم بالعزلة . وقد اعتزل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة[٣] ، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته . وهذا أيضا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار . وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار ، وإنما النظر فى العزلة من المسلمين .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبدالله بن عامر الجهنى لما قال : يارسول الله ماالنجاة ؟ قال « ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك[٤] » ، وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله تعالى » قيل : ثم من ؟ قال « رجل معتزل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره[٥] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد التقى النقى الخفى[٦] » .

وفى الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر ، فأما قوله لعبدالله بن عامر فلا يمكن تنزيله إلا على ماعرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله ، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة ، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ، ورب شخص تكون سلامته فى العزلة لافى المخالطة كما قد تكون سلامته فى القعود فى البيت وأن لايخرج إلى الجهاد ،

---

(١) حديث : قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التى يتطهر منها الناس ؟ فقال « بل من هذه المطاهر ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف (٢) حديث : لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها فإذا التمر منقع فى حياض الأدم قد مغثه الناس بأيديهم ... الحديث . وفيه فقال « اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس » رواه الأزرقى فى تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاوس مرسلا نحوه .

(٣) حديث : اعتزله صلى الله عليه وسلم قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة ... الحديث . رواه موسى بن عقبة فى المغازى ومن طريقه البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب مرسلا ، ورواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن شهاب على بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسلا أيضا ، ووصله من رواية أبى سلمة الحضرمى عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بنى هاشم فى الشعب ، وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، ومغازى موسى بن عقبة أصح المغازى وذكر موسى بن عقبة أيضاً أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ، ولأبى داود من حديث أبى موسى : أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن ننطلق إلى أرض النجاشى . قال البيهقى وإسناده صحيح ولأحمد من حديث ابن مسعود : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى . وروى ابن إسحق بإسناد جيد ومن طريقه البيهقى فى الدلائل من حديث أم سلمة : إن بأرض الحبشة ملكا لايظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده ... الحديث (٤) حديث : سأله عقبة بن عامر : يارسول الله ما النجاة ؟ فقال : ليسعك بيتك ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عقبة وقال حسن (٥) حديث : أى الناس أفضل ؟ فقال « مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . قيل : ثم من ؟ قال : رجل معتزل ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى (٦) حديث « إن الله يحب العبد التقى النقى الخفى » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص .

وذلك لايدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفى مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم [1] » وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شره » فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته . وقوله « إن الله يحب التقى الخفى » إشارة إلى إيثار الخمول وتوقى الشهرة . وذلك لايتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس ؟ وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة ؟ فهذا تعرض لأمر لايتعلق بالعزلة .

واحتجوا بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا أنبئكم بخير الناس » قالوا : بلى يارسول الله ، فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ينتظر أن يغير أويغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده ؟ » وأشار بيده نحو الحجاز وقال « رجل فى غنمه يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعلم حق الله فى ماله اعتزل شرور الناس [2] » فإذا ظهر أن هذه الأدلة لاشفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقايسة بعضها بالبعض ليتبين الحق فيها .

الباب الثانى : فى فوائد العزلة وغوائلها
وكشف الحق فى فضلها

اعلم أن اختلاف الناس فى هذا يضاهى اختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده ، فكذلك القول فيما نحن فيه . فلنذكر اولا فوائد العزلة وهى تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية . والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات فى الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، وإلى تخلص من ارتكاب المناهى التى يتعرض الإنسان لها بالمخالطة ، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء . وأما الدنيوية فتنقسم إلى مايمكن من التحصيل بالخلوة ؛ كتمكن المحترف فى خلوته إلى مايخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه فى الناس وطمع الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذى بسوء خلق الجليس فى مرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذى بثقله وتشويه خلقته . وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها فى ست فوائد .

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعى فراغا ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء : لايتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى . والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذاكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله

---

(١) حديث : الذى يخالط الناس ولايصبر على أذاهم » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذى الصحابي قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد (٢) حديث : ألا أنبئكم بخير الناس ؟ قالوا : بلى ، قال : فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه » الحديث أخرجه الطبرانى من حديث أم مبشر إلا أنه قال : نحو المشرق ، بدل : المغرب ، وفيه ابن إسحق رواه بالعنعنة وللترمذى والنسائي نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمذى حديث حسن .

بذكر الله . ولاشك فى أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم فى ابتداء أمره يتبتل فى جبل حراء وينعزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة (١) فكان الخلق لا يحجبونه عن الله فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله . فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله (٢) » ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا والإقبال على الله سرا إلا قوة النبوة فلا ينبغى أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع فى ذلك ، ولا يبعد أن تنتهى درجة بعض الأولياء إليه . فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنى أكلمهم . وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقا لا يبقى لغيره فيه متسع وذلك غير منكر ، ففى المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببدنه وهو لا يدرى ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبوبه . بل الذى دهاه ملم يشوش عليه أمرا من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه . وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء ؟ ما الذى أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم فى قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة . وقيل لبعض الرهبان : ما أصبرك على الوحدة ! فقال : ما أنا وحدى أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت . وقيل لبعض الحكماء : إلى أى شىء أفضى بكم الزهد والخلوة ؟ فقال : إلى الأنس بالله . وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم ابن أدهم رحمه الله فى بلاد الشام فقلت له : يا إبراهيم تركت خراسان ؟ فقال : ما تهنأت بالعيش إلا ههنا أفر بدينى من شاهق إلى شاهق ، فمن يرانى يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقاشى : هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال : إنى أصيب راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى . وقيل للحسن يا أبا سعيد : ههنا رجل لم نره قط جالسا إلا وحده خلف سارية . فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبرونى به ؛ فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن : هذا الرجل الذى أخبرناك به ؟ وأشاروا إليه ؛ فمضى إليه الحسن وقال له . يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمر شغلنى عن الناس ، قال : فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس . وعن الحسن : فقال له الحسن وماذاك الشغل يرحمك الله ؟ فقال : إنى أصبح وأمسى بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب فقال له الحسن : أنت يا عبد الله أفقه عندى من الحسن فالزم ما أنت عليه . وقيل : بينما أويس القرنى جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال : جئت لآنس بك ، فقال أويس : ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره ؛ وقال الفضيل : إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بربى ، وإذا رأيت الصبح أدركنى استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربى . وقال عبدالله بن زيد : طوبى لمن عاش فى الدنيا وعاش فى الآخرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : يناجى الله فى الدنيا ويجاوره فى الآخرة . وقال ذو النون المصرى : سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة ربه . وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى

---

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم فى أول أمره يتبتل فى جبل حراء وينعزل إليه . متفق عليه من حديث عائشة نحوه : فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ... الحديث (٢) حديث « لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ماأحب حال من انقطع إلى الله تعالى ! ويروى عن بعض الصالحين أنه قال : بينما أناأسير فى بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت : سبحان الله تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال : هذا إنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا وأهلها فطال فى ذلك تعبى وفنى فيه عمرى فسألت الله تعالى أن لايجعل حظى من أيامى فى مجاهدة قلبى ، فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع فى الأمر الأول فإليك عنى فإنى أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين ، ثم صاح : واغماه من طول المكث فى الدنيا ، ثم حول وجهه عنى ، ثم نفض يديه وقال : إليك عنى يادنيا لغيرى فتزينى وأهلك فغرى ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ماألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان ، وجمع همهم فى ذكره فلاشىء ألذ عندهم من مناجاته . ثم مضى وهويقول : قدوس قدوس . فإذاً فى الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفى مثل ذلك قيل .

وإنى لأستغشى وما بى غشوة لعل خيالا منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلنى أحدث عنك النفس بالسر خاليا

ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الواحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة . وقد قيل الاستئناس من علامات الإفلاس فإذاً هذه فائدة جزيلة ولكن فى حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق فى معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل مايتعلق بالمخالطة . فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط فى كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة .

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها فى الخلوة وهى أربعة : الغيبة والنميمة ، والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التى يوجبها الحرص على الدنيا .

أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لاينجو منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها وهى طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم فى الخلوة . فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكت كنت شريكا ، والمستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم .

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب ـ كما سيأتى بيانه فى آخر هذا الربع ـ ومن خالط الناس فلايخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصى الله به ، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاص هى أكبر مما نهى عنه ابتداء . وفى العزلة خلاص من هذا فإن الأمر فى إهماله شديد والقيام به شاق . وقدم قام أبو بكر رضى الله عنه خطيبا وقال « أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها فى غير موضعها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب[1] » وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليسأل العبد حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله لعبد حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس[2] » وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لايطاق . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر . وفى العزلة خلاص وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ؛ فإذا سقط عليه يقول ياليتنى تركته مائلا . نعم لو وجد أعوانا أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك .

وأما الرياء فهو الداء العضال الذى يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه . وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا . وأقل مايلزم فيه النفاق فإنك إن خالطت متعاديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعا ، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس . وقال صلى الله عليه وسلم « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه[3] » وقال عليه السلام « إن من شر الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه[4] » وأقل مايجب فى مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ولايخلو ذلك عن كذب إما فى الأصل وإما فى الزيادة ، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك : كيف أنت؟ وكيف أهلك ؟ وأنت فى الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض . قال سرى : لو دخل أخ لى فسويت لحيتى بيدى لدخوله لخشيت أن أكتب فى جريدة المنافقين . وكان الفضيل جالسا وحده فى المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له : ماجاء بك ؟ قال : المؤانسة ياأبا على فقال : هى والله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تتزين لى وأتزين لك وتكذب لى وأكذب لك ؟ إما أن تقوم عنى أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لايشعر به . ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت ياهشام ؟ فغضب عليه وقال : لم لم تخاطبنى بأمير المؤمنين ؟ فقال : لأن جميع المسلمين مااتفقوا على خلافتك فخشيت أن أكون كاذبا . فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه فى جريدة المنافقين . فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون فى قولهم كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت ؟ وكيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ وفى الجواب عنه . فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا . قال حاتم الأصم لحامد اللفاف : كيف أنت فى نفسك ؟ قال : سالم معافى : فكره حاتم جوابه وقال : ياحامد السلامة من وراء الصراط والعافية فى الجنة . وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال أصبحت لاأملك تقديم ماأرجو ولاأستطيع دفع ماأحاذر وأصبحت مرتهنا بعملى والخير كله فى يد غيرى ولا فقير أفقر منى

---

(١) حديث أبى بكر انكم تقرءون هذه الآية ﴿ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم ﴾ وانكم لتضعونها فى غير موضعها ... الحديث . أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذى : حسن صحيح . (٢) حديث . إن الله يسأل العبد حتى يقول مامنعك اذا رأيت المنكر فى الدنيا أن تنكره ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد .

(٣) حديث « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٤) حديث « إن من شر الناس ذا الوجهين » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وهو الذى قبله .

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفى أرزاقنا وننتظر آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بخير إن نجوت من النار . وكان سفيان الثورى إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا ، وقيل لأويس القرنى : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح رجل إذا أمسى لايدرى أنه يصبح وإذا أصبح لايدرى أنه يمسى ؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت فى عمر ينقص وذنوب تزيد . وقيل لبعض الحكماء : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لأرضى حياتى لمماتى ولا نفسى لربى . وقيل لحكيم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت آكل رزق ربى وأطيع عدوه إبليس . وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ماظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة . وقيل لحامد اللفاف : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أشتهى عافية يوم إلى الليل ، فقيل له : ألست فى عافية فى كل الأيام ؟ فقال . العافية يوم لا أعصى الله تعالى فيه . وقيل لرجل وهو يجود بنفسه : ماحالك ؟ فقال : وماحال من يريد سفرا بعيدا بلازاد ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلاحجة . وقيل لحسان ابن أبى سنان : ما حالك : قال : ماحال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب . وقال ابن سيرين لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل ؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال : خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك ـ ولم يكن عنده غيرها ـ ثم قال : والله لا أسأل أحدا عن حاله أبدا . وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرائيا منافقا . فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب فى معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة . وقال بعضهم : إنى لأعرف أقواما كانوا لايتلاقون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة فى البيت . ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت ؟ ويقول الآخر كيف أنت ؟ فالسائل لاينتظر الجواب والمسئول يشتغل بالسؤال ولايجيب ، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لاتخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال . قال الحسن : إنما كانوا يقولون السلام عليكم ، إذا سلمت والله القلوب ، وأما الآن : فكيف أصبحت عافاك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة فإن شاءوا غضبوا علينا ، وإن شاءوا لا . وإنما قال ذلك لأن البداية بقولكَ : كيف أصبحت بدعة . وقال رجل لأبى بكر بن عياش : كيف أصبحت ؟ فما أجابه . وقال دعونا من هذه البدعة . وقال : إنما حدث هذا فى زمان الطاعون الذى كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع ، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ؟ ويلقاه عشية فيقول : كيف أمسيت ؟ والمقصود أن الالتقاء فى غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق ، وكل ذلك مذموم ، بعضه محظور وبعضه مكروه . وفى العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقى الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه فى الانتقام منهم .

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه فى باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ماقبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة فى النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له ،

وإنما الوازع عنه شدّة وقعه فى القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع للميل إليه أولما دونه . ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه : ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم فى أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ما أتيح له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره فى الطبع من يقصر نظره على ملاحظه أحوال الصحابة والتابعين فى العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار : وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة فى الاستكمال واستتماما للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصى استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة فى الخير يصادفها فى قلبه وذلك هو الهلاك . ويكفى فى تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة [1] » وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة . والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهوّن على الطبع أمر المعاصى ، واللعنة هى البعد . ومبدأ البعد من الله هو المعاصى ، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لا على الوجه المشروع . ومبدأ المعاصى سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب . ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع . إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه [2] » فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به . وقال « مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه » ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين ، إحداهما : أنها غيبة ، والثانية وهى أعظمهما . أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام ، فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها ويزعم أن الصحابة رضى الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ؟ وربما يستشهد عليه بقتال على ومعاوية ويخمن فى نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصى . والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكايد الشيطان ، ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا وقال مثل الذى يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له يا راعى اجزر لى شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب

---

(١) حديث «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» ليس له أصل فى الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزى فى مقدمة صفوة الصفوة .

(٢) حديث « مثل الجليس السوء كمثل الكير .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى .

فأخذ بأذن كلب الغنم (١) » وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا . ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر فى نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضى إلى اعتقادهم كفره ، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم ، مع أن صلاة واحدة يقتضى تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . ولذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها ، وقد يشاهد فى مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك . والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها ، فتفطن لهذه الدقائق وفر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد فى حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك فى الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن . وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء . ومهما فهمت هذه المعانى ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة . وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بأن إحداهما أولى إذ كل مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق فى المفصل إلا التفصيل .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم فى سلامة منها . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال « إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا ـ وشبك بين أصابعه ـ » قلت: فما تأمرنى ؟ فقال « الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة (٢) » وروى أبو سعيد الخدرى أنه صلى الله عليه وسلم قال « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق (٣) » وروى عبدالله ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ » قيل له : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال « إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » قالوا : وكيف يارسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال « إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده فإن لم يكن فعلى يدى قرابته » قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يعيرونه بضيق اليد فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة (٤) » وهذا الحديث وإن كان فى العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغنى المتأهل عن

---

(١) حديث « مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر ما يسمع كمثل رجل أتى راعيا فقال ياراعى اجزر لى شاة من غنمك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف . (٢) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص « إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد حسن. (٣) حديث أبى سعيد الخدرى « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » رواه البخارى (٤) حديث ابن مسعود « سيأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق » تقدم فى النكاح

المعيشة والمخالطة ثم لاينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى ، ولست أقول : هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ، ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج قلت : وما الهرج ؟ قال « حين لايأمن الرجل جليسه » قلت : فبم تأمرنى إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال « كف نفسك ويدك وادخل دارك » قال : قلت يارسول الله أرأيت إن دخل على دارى ؟ قال « فادخل بيتك » قلت : فإن دخل على بيتى ؟ قال « فادخل مسجدك واصنع هكذا » وقبض على الكوع « وقل ربى الله حتى تموت »(١) » وقال سعد ـ لما دعى إلى الخروج أيام معاوية ـ لا ... إلا أن تعطونى سيفاً له عينان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه ، وقال : مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسيرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم ؛ فقال بعضهم الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا ، وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا ، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهبت الريح وتبينت الطريق فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن . وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه لما بلغه أن الحسين رضى الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له : أين تريد ؟ فقال : العراق . فإذا معه طوامير وكتب ؛ فقال : هذه كتبهم وبيعتهم فقال : لاتنظر إلى كتبهم ولاتأتهم ؛ فأبى ، فقال : إنى أحدثك حديثا ؛ جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لايليها أحد منكم أبدا وماصرفها عنكم إلا للذى هو خير لكم ، فأبى أن يرجع ، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال : أستودعك الله من قتيل أو أسير(٢) . وكان فى الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا . وجلس طاوس فى بيته فقيل له فى ذلك فقال : فساد الزمان وحيف الأئمة . ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لزمت القصر وتركت مسجد رسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة فى فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية . فإذن الحذر من الخصومات ، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس

فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة أو الكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال مالاتبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم ؟ : ماهما ؟ قال :

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال
ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم فى أعمالهم لاينفك من حاسد وعدو يسىء الظن به ويتوهم أنه يستعد

---

(١) حديث ابن مسعود : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتنة وأيام الهرج قلت : وما الهرج ؟ قال « حين لايأمن الرجل جليسه ... الحديث » أخرجه أبو داود مختصراً والخطابي فى العزلة بتمامه وفى إسناده عند الخطابى انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته . (٢) حديث ابن عمر : أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ... الحديث . وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة . رواه الطبرانى مقتصرا على المرفوع رواه فى الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل : على مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه البزار بنحوه وإسنادهما حسن .

لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم﴾ وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته فأصبح فى ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار . وأنواع الشر الذى يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة : ولسنا نطول بتفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها ، وفى العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة . فقال أبو الدرداء : أخبر تقله ، يروى مرفوعا . وقال الشاعر :

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضى الله عنه : فى العزلة راحة من القرين السوء . وقيل لعبدالله بن الزبير : ألا تأتى المدينة ؟ فقال : مابقى فيها إلا حاسد نعمة أوفرح بنقمة . وقال ابن السماك : كتب صاحب لنا ، أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لادواء له ففر منهم فرارك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلازم شجرا ويقول : هو نديم فيه ثلاث خصال ، إن سمع منى لم ينم على ، وإن تفلت فى وجهه احتمل منى ، وإن عربدت عليه لم يغضب ، فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدنى فى الندماء ، وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر ، وقال الحسن رضى الله عنه : أردت الحج فسمع ثابت البنانى بذلك ـ وكان أيضا من أولياء الله ـ فقال : بلغنى أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك ، فقال له الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إنى أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ماتماقت عليه . وهذه إشارة إلى فائدة أخرى فى العزلة وهو بقاء الستر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات . وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ وقال الشاعر :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

ولا يخلو الإنسان فى دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى فى الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لاشوك فيه فالناس اليوم شوك لا ورق فيه . إذا كان هذا حكم زمانه وهو فى أواخر القرن الأول فلا ينبغى أن يشك فى أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لى سفيان الثورى ـ فى اليقظة فى حياته وفى المنام بعد وفاته ـ أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أنى رأيت ما أكره إلا ممن عرفت : وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته . فذهب أطرده فقال : دعه ياهذا هذا لايضر ولا يؤذى وهو خير من جليس السوء . وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس ؟ قال : خشيت أن أسلب دينى ولا أشعر . وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء . وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ماركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولاقلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لاتعرف .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لاتدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم والإملاكات ، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات ، ثم قدتعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت فى حقنا ، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل : من لم يعد مريضا فى وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره . ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ، ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لايقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله فى دين أو دنيا ؟ قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء . وقال ابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعى رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام . وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم[1] » وقال عون بن عبدالله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموما ، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبى ودابة أفره من دابتى فجالست الفقراء فاسترحت . وحكى أن المزنى رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم فى موكبه فبهره مارأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ ثم قال بلى أصبر وأرضى ، وكان فقيرا مقلا . فالذى هو فى بيته لايبتلى بمثل هذه الفتن . فإن من شاهد زينة الدنيا فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر ـ وهو أمر من الصبر ـ أو تنبعث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلك هلاكا مؤبدا ، أما فى الدنيا فبالطمع الذى يخيب فى أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له ، وأما فى الآخرة فبإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه . ولذلك قال ابن الأعرابى :

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب فى الحال ذلا .

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمق ومقاساة حمقهم وأخلاقهم ، فإن رؤية الثقيل هى العمى الأصغر . قيل للأعمش : مم عمشت عيناك ؟ قال : من النظر إلى الثقلاء . ويحكى أنه دخل عليه أبوحنيفة فقال : فى الخبر « إن من

---

(١) حديث « انظروا الى من هو دونكم ولاتنظروا الى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

سلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ماهو خير منهما [1] ، فما الذى عوضك ؟ فقال ـ فى معرض المطايبة ـ عوضنى الله منهما أنه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول نظرت إلى ثقيل مرة فغشى على . وقال جالينوس : لكل شىء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعى رحمه الله : ماجالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل على من الجانب الآخر .

وهذه الفوائد ماسوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ماهو صنع الله ، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية مايستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل مايستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفواته من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعى إليها ماهى ، وهى التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستيناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع :

الفائدة الأولى : التعليم والتعلم

وقد ذكرنا فضلهما فى كتاب العلم وهما أعظم العبادات فى الدنيا . ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا . فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة . وإن تعلم الفرض وكان لايتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران . ولهذا قال النخعى وغيره : تفقه ثم اعتزل فمن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولاينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لايدرى ، ولاينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد . فالعلم هو أصل الدين فلاخير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لايحسن العبادة فى الخلوة ولايعرف جميع مايلزم فيها . فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه ، فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لامحالة مرضه . فلا تليق العزلة إلا بالعالم واما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك فى كتاب العلم .

وحكم فى العالم فى هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه . فإنه لايرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لاطالب إلا لكلام مزخرف . يستميل به العوام فى معرض الوعظ أو الجدل ـ معقد يتوصل به إلى إفحام الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة ، وأقرب علم مرغوب فيه : المذهب ، ولايطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتولى الولايات واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم ،

(1) حديث « من سلب الله كريمتيه عوضه عنهما ماهو خير منهما » أخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف من حديث جرير « من سلبت كريمتيه عوضته عنهما الجنة » وله ولأحمد نحوه من حديث أبى أمامة بسند حسن ، وللبخارى من حديث أنس « يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة » يريد عينيه .

فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبائر الاعتزال عنه وكتمان العلم منه ، وهذا لا يصادف فى بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف .

ولا ينبغى أن يغتر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله . وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا ، وهم هلكى على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أوراغبون عنها وزاهدون فيها ، وليس الخبر كالمعاينة . واعلم أن العلم الذى أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، فإن فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر فى الحال أثر فى المآل .

وأما الكلام والفقه المجرد ـ الذى يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات ـ المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله ، بل لا يزال متماديا فى حرصه إلى آخر عمره . ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة فى الدنيا فيجوز أن يرخص فيه ، إذ يرجى أن ينزجر به فى آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب فى الآخرة والتحذير من الدنيا ، وذلك مما يصادف فى الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف فى كلام ولا فى خلاف ولا فى مذهب . فلا ينبغى أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس فى الحال باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم ، فآفة العلم الخيلاء [1] كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قمطرا من كتب الأحاديث التى سمعها ، وكان لا يحدث ، ويقول : إنى أشتهى أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت ، ولذلك قال « حدثنا » باب من أبواب الدنيا ، وإذا قال الرجل « حدثنا » فإنما يقول أوسعوا لى . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثورى : نعم الرجل أنت لولا رغبتك فى الدنيا ، قال : وفيماذا رغبت ؟ قالت : فى الحديث . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا . فهذه آفات قد نبهنا عليها فى كتاب العلم ، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن ، بل الذى يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان عاقلا فى مثل هذا الزمان أن يتركه . فلقد صدق أبو سليمان الخطابى حيث قال : دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر ، إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقيبا وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم وحمارا فى حاجاتهم ، إن قصرت فى غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادى عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم ، وتنتهض لهم سفيها وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خسيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا . ولذلك قيل : اعتزال العامة مروءة تامة . فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه ، وهو حق وصدق . فإنك ترى المدرسين فى رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدى تحفه إليهم ويرى حقه واجبا عليهم . وربما لا يختلف إليه مالم يتكفل برزق له على الإدرار . ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال مترددا إلى أبواب السلاطين ويقاسى الذل والشدائد مقاساة الذليل

---

(١) حديث « آفة العلم الخيلاء » المعروف ما رواه مطين فى مسنده من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » .

المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ، ثم لايزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتهنه ويستذله إلى أن يسلم إليه مايقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى فى مقاساة القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التميز والقصور عن درك مصارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل ، وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بألسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد ، فلايزال فى مقاساتهم فى الدنيا وفى مطالبة مايأخذه ويفرقه عليهم فى العقبى . والعجب أنه مع هذا البلاء كله يمنى نفسه بالأباطيل ويدليها بحبل الغرور ويقول لها ، لاتفترى عن صنيعك فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ومذيعة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لامالك لها وهى مرصدة للمصالح وأى مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله . ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لاسبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون مايجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرئون على المعاصى باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لآثارهم . ولذلك قيل : مافسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذى ليس له دواء ،

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة . وذلك لايتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع فى جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه ـ كما ذكرناه فى كتاب الكسب ـ فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعا لأقنعه فالعزلة أفضل له إذا أنسدت طرق المكاسب فى الأكثر إلى من المعاصى ، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة . فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاستغال بالنافلة ، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق فى معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله ؛ أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لاعن أوهام وخيالات فاسدة .

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة . ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لاينال إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهى أفضل له من العزلة إن كان لايشتغل فى عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لايعدل به غيره ألبتة .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب

ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات . وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة ، وهى أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه ولم تذعن لحدود الشرع شهواته ، ولهذا انتدب خدام الصوفية فى الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهممهم إلى الله سبحانه . وكان هذا هو المبدأ فى الأعصار الخالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الأتباع ، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر ، وإن كانت النية رياضة النفس فهى خير من العزلة فى حق المحتاج إلى الرياضة : وذلك مما يحتاج إليه فى بداية الإرادة : فبعد حصول الارتياض ينبغى أن يفهم أن الدابة لايطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ

مركبا يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به فى الطريق ، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها ، فلا يستفيد منها إلا الخلاص فى الحال فى عضها ورفسها ورمحها ، وهى لعمرى فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل فى البهيمة الميتة ، وإنما تراد الدابة لفائدة تحصل من حياتها ، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات فى الحال يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغى أن يقنع به كالراهب الذى قيل له : ياراهب ، فقال : ما أنا راهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسى حتى لا أعقر الناس : وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغى أن يقتصر عليه ، فإنّ من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس ، بل ينبغى أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة . فأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة آخرا .

وأما التأديب فإنما نعنى به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم ، وحاله حال المعلم وحكمه ، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ، ولذلك يرى فيهم قلة وفى طلبة العلم كثرة . فينبغى أن يقيس ماتيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل ، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفى ولا إثبات .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس

وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس ، وهذا يرجع إلى حظ النفس فى الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح . وقد يستحب ذلك لأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى . وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعى النشاط فى العبادة ، فإنّ القلوب إذا أكرهت عميت ومهما كان فى الوحدة وحشة وفى المجالسة أنس يروّح القلب فهى أولى ، إذ الرفق فى العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنّ الله لا يمل حتى تملوا [1] » وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام مالم تروح ؛ وفى تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة : لدخلت بلادا لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته فى اليوم والليلة ساعة فليجتهد فى طلب من لا يفسد عليه فى ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل [2] » ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشد ، ففى ذلك متنفس ومتروح للنفس ، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة ، والراضى عن نفسه مغرور قطعا . فهذا النوع من الاستئناس فى بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة فى حق بعض الأشخاص

(١) حديث « ان الله لا يمل حتى تملوا » تقدم . (٢) حديث « المرء على دين خليله » تقدم فى آداب الصحبة .

فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس اولا ثم ليجالس .

الفائدة الخامس : فى نيل الثواب وإنالته

اما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين ، وأما حضور الجمعة فلا بدّ منه . وحضور الجماعة فى سائر الصلوات أيضا لا رخصة فى تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم مايفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادرا . وكذلك فى حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه فى المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثوابا ، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم فى الزيارة نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالتمكين سببا فيه فينبغى أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها التى ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة . فقد حكى عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعيادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس بيوتهم لايخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور ، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال تفرغا للعبادة وفرارا من الشواغل .

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع ، فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه فى الوحدة ، وقد يكون الكبر سببا فى اختيار العزلة . فقد روى فى الإسرائيليات أن حكيما من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا فى الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله إلى نبيه : قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا ، قال : فتخلى وانفرد فى سرب تحت الأرض وقال : الآن قد بلغت رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك لن تبلغ رضاى حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم ، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى فى الأسواق معهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه : الآن قد بلغ رضاى . فكم من معتزل فى بيته وباعثه الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس فى زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر ، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولايحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك ، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له ، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتنى إلا لأتزين لك وتتزين لى . وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولا ترانى . فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام . والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه ، أحدها : أن التواضع والمخالطة لاتنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان على رضى الله عنه يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ماجر من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبى وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول - وهو والى المدينة والحطب على رأسه - طرقوا لأميركم . وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشترى الشىء فيحمله إلى بيته بنفسه ؛ فيقول له صاحبه : أعطنى أحمله فيقول « صاحب الشىء أحق بحمله (١) » وكان الحسن بن على رضى الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون : هلم إلى الغداء ياابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول ﴿إن الله لايحب المستكبرين﴾ الوجه الثانى : أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئا ؛ وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، بل رضا الناس غاية لاتنال ، فرضا الله أولى بالطلب . ولذلك قال الشافعى ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله ؟ ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وفاز باللـذة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا - لشىء أمره به - فقال : ياأستاذ لاأقدر عليه لأجل الناس ، فالتفت إلى أصحابه وقال : لاينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين ؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا إلا خالقه ، وأن أحدا لايقدر على أن يضره ولاينفعه . وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه . وقال الشافعى رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال ؛ فتبسم وقال للقائل : هوّن على نفسك فإنى حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم يارب احبس عنى ألسنة الناس فقال : ياموسى هذا شىء لم أصطفه لنفسى فكيف أفعله بك ؟ وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك علكا فى أفواه الماضغين لم أكتبك عندى من المتواضعين . فإذن من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو فى عناء حاضر فى الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فإذن لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا وعبادة وعلما بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته . فهذه غوائل خفية فى اختيار العزلة ينبغى أن تتقى فإنها مهلكات فى صور منجيات .

الفائدة السابعة : التجارب

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة ، ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب ؛ فالصبى إذا اعتزل بقى غمراً جاهلا بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له فى مدة التعلم مايحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة . ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه فى الخلوة ، فإن كل مجرب فى الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها يجب إماطتها وقهرها ولا يكفى تسكينها بالتباعد عما يحركها . فمثال القلب المشحون

(١) حديث : كان يشترى الشىء ويحمله الى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطنى أحمله فيقول « صاحب المتاع أحق بحمله » أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حمله السراويل الذى اشتراه .

بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصديد والمدة وقد لايحس صاحبه بألمه مالم يتحرك أو يمسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل فى نفسه وأعتقد فقده ، ولكن لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لا نفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك . وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكيه القلوب يجربون أنفسهم . فمن كان يستشعر فى نفسه كبرا سعى فى إماطته حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس أوحزمة حطب على رأسه ويتردد فى الأسواق ليجرب نفسه بذلك ؛ فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال : أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أنى كنت أصليها فى الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعذر فما وجدت موضعا فى الصف الأول فوقفت فى الصف الثانى فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتى التى كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء ممزوجة بلذة نظر الناس إلى ورؤيتهم إياى فى زمرة السابقين إلى الخير . فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة فى استخراج الخبائث وإظهارها . ولذلك قيل : السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتى غوائل هذه المعانى ودقائقها فى ربع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل ، ولولا ذلك مافضل العلم على العمل ، إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة ، فإنا نعلم أن مايراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه ، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى »[1] ، فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه (أحدها) ماذكرناه (والثانى) عموم النفع لتعدى فائدته والعمل لا تتعدى فائدته (والثالث) أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل ، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته ، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع . وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام . فلنرجع إلى المقصود فنقول : إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغى أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ، ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، وكلام الشافعى رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال يايونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال . وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هذا هو الحق الصراح وكل ماذكر سوى هذا فهو قاصر . وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحال . والفرق بين العالم والصوفى فى ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفى لايتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم فى المسائل ، والعالم هو الذى يدرك الحق على ماهو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه ، وذلك مما لايختلف فيه فإن الحق واحد أبدا ، والقاصر عن الحق كثير لايحصى . ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر ، وكل ذلك حق

---

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى تقدم فى العلم .

بالإضافة إلى حاله وليس بحق فى نفسه إذ الحق لايكون إلا واحدا . ولذلك قال أبو عبدالله الجلاء ـ وقد سئل عن الفقر ـ فقال : اضرب بكميك الحائط وقل ربى الله فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذى لا يسأل أحدا ولا يعارض وإن عورض سكت . وقال سهل بن عبدالله : الفقير الذى لايسأل ولا يدخر . وقال آخر : هو أن لايكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك . وقال إبراهيم الخواص : هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى . والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان ، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه . ولذلك لا ترى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما فى التصوف أو يثنى عليه ، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه ؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التى تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم . ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف . ومثال نظر هؤلاء مارأيت من نظر قوم فى أدلة الزوال ـ بالنظر فى الظل ـ فقال بعضهم هو فى الصيف قدمان ، وحكى عن آخر أنه نصف قدم ، وآخر يرد عليه وأنه فى الشتاء سبعة أقدام ، وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام ، وآخر يرد عليه ؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم ، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذى رآه ببلد نفسه ، فصدق فى قوله وأخطأ فى تخطئته صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده ، كما أن الصوفى لايحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه : والعالم بالزوال هو الذى يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة فى بلاد مختلفة ويقول فى بعضها لايبقى ظل ، وفى بعضها يطول ، وفى بعضها يقصر

فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة .

• فإن قلت : فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابه فى العزلة ؟ فنقول : إنما يطول النظر فى آداب المخالطة وقد ذكرناها فى كتاب آداب الصحبة . وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغى للمعتزل أن ينوى بعزلته كف شر نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعا ؛ فهذه آداب نيته . ثم ليكن فى خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتنى ثمرة العزلة وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته . وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينغرس فى القلب حتى ينبعث فى أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لايحتسب ، فوقوع الأخبار فى السمع كوقوع البذر فى الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض . وأحد مهمات المعتزل قطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار ينابيع الوساوس وأصولها . وليقنع باليسير من المعيشه وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم . وليكن صبورا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر فى القلب ولو مدة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لابد أن يكون واقفا عن سيره إلى طريق الآخرة ، فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل فى دقائق الأعمال ومفسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعى الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب فى الحال . وقد يتجدد ذكره فى دوام الذكر من حيث لاينتظر . وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه فى اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات . ولا يتم له الصبر فى العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا

وما الناس منهمكون فيه ، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدّر لنفسه عمرا طويلا ، بل يصبح على أنه لايمسى ويمسى على أنه لايصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخى الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة . وليتحقق أن من لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلايطيق وحشه الوحدة بعد الموت . وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلايزيل الموت أنسه إذ لايهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه ورحمته ، كما قال الله تعالى فى الشهداء ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكل متجرّد لله فى جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر « فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه [1] » كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يعنون جهاد النفس .

تم كتاب العزلة ، ويتلوه : كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص هممهم لمشاهدة عجائب صنعه فى الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجارى القدر منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح فى مسارح النظر ومجارى الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر . والصلاة على محمد سيد البشر وعلى وصحبه المقتفين لآثاره فى الأخلاق والسير وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه . والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات ، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف السفرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد ، لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص ومستبدل بمتسع فضاء ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ ظلمة السجن وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير ، فاقتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل ، اندرس مسالكه . فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين متنزهات الأنفس والملكوت والآفاق . وإليه دعا الله سبحانه بقوله ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وكأين

---

(١) حديث « المجاهد من جاهد نفسه وهواه » أخرجه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله « وهواه » وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ فمن يسر له هذا السفر لم يزل فى سيره متنزها فى جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر فى الوطن . وهو السفر الذى لاتضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتتضاعف ثمراته وفوائده ؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للمسافر فترة فى سفره ووقفة فى حركته فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ، ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان فى هذا الميدان والتطواف فى متنزهات هذا البستان ربما سافر بظاهر بدنه فى مدة مديدة فراسخ معدودة مغتنما بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة ، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكى سبيل الآخرة ، وكان له فى سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة ، ونحن نذكر آدابه وشروطه فى بابين إن شاء الله تعالى . (الباب الأول) فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته وفيه فصلان . (الباب الثانى) فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات .

الباب الأول

فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد وله آفات ـ كما ذكرناه فى كتاب الصحبة والعزلة .

والفوائد الباعثة على السفر لاتخلو من هرب أو طلب . فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب .

والمهروب عنه إما أمر له نكاية فى الأمور الدنيوية . كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد أو خوف سببه فتنة أو خصومة أو غلاء سعر . وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية فى بلدة فيهرب منها . وإما أمر له نكاية فى الدين كمن ابتلى فى بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة قهرا أو إلى ولاية عمل لاتحل مباشرته فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب فهو إما دنيوى كالمال والجاه أو دينى ، والدينى إما علم وإما عمل .

والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة ؛ وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذى القرنين وطوافه فى نواحى الأرض .

والعمل إما عبادة وإما زيارة . والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد . والزيارة أيضا من القربات وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس . والثغور فإن الرباط بها قربة . وقد يقصد بها الأولياء والعلماء وهم إما موتى فتزار قبورهم وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة فى الاقتداء بهم .

فهذه هى أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمه أقسام :

القسم الأول : السفر فى طلب العلم ، وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا . وذلك

العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه فى نفسه أو بآيات الله فى أرضه . وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع [١] » وفى خبر آخر « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة [٢] » وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد . وقال الشعبى : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا فى حديث بلغهم عن عبد الله أنيس الأنصارى يحدّث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه [٣] وكل مذكور فى العلم محصل له ـ من زمان الصحابة إلى زماننا هذا ـ لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله ، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا مهم فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه : ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها . وإنما السفر هو الذى يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الخبء فى السموات والأرض وإنما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق : ولذلك قال عمر رضى الله عنه للذى زكى عنده بعض الشهود : هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم أخلاقه ؟ فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه . وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه فى موضع تغير . وبالجملة فإن النفس فى الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتحنت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها . وقد ذكرنا فى كتاب العزلة فوائد المخالطة والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق .

وأما آيات الله فى أرضه ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبرارى والبحار وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شىء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد . وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وما أريد بالسمع السمع الظاهر ـ فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه ـ وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات . ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات . فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذى هو نطق وراء نطق المقال يشبه قول القائل ـ حكاية لكلام الوتد والحائط ـ قال الجدار للوتد : لم تشقنى ؟ فقال : سل من يدقنى ، ولم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى . وما من ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها ، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس هى تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها ـ لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ومن ركاكة لسان المقال

كتاب آداب السفر
الباب الأول . فى الآداب من أوّل النهوض إلى آخر الرجوع

(١) حديث « من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب (٢) حديث « من سلك طريقا يلتمس فيه علما ... الحديث » رواه مسلم وتقدم فى العلم (٣) حديث : رحل جابر ابن عبد الله من المدينة الى مسيرة شهر فى حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس . أخرجه الخطيب فى كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابى وقال البخارى فى صحيحه : رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر الى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد ورواه أحمد الا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ، ولأحمد أن أبا أيوب ركب الى عقبة بن عامر الى مصر فى حديث ، وله أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر فى حديث آخر وكلاهما منقطع .

إلى فصاحة لسان الحال ـ ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله تعالى الذى يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات . ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقرّ فى موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرّات ، فماله وللتردد فى الفلوات وله غنية فى ملكوت السموات ؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات . وهى إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات فى الشهر والسنة مرات ، بل هى دائبة فى الحركة على توالى الأوقات . فمن الغرائب أن يدأب فى الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف فى أكناف الأرض من يطوف به أقطار السماء . ثم مادام المسافر مفتقرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد فى المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام فى هذا المنزل إلا الجبن والقصور . ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إنّ الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق إلا أنّ الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثانى خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التى لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه ؛ والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل ، والهالكون فى التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد . ثم الذى يهلك أكثر من الذى يملك . ولا يتصدّى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك فى الدين والدنيا إلا فى حيز الخطر . وقد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل :

ترى الجبناء أنّ الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله فى الأرض .

فلنرجع إلى الغرض الذى كنا نقصده ولنبين القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة فى كتاب أسرار الحج ، ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى »[1] ، لأن ذلك فى المساجد ، فإنها متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء فى أصل الفضل وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتا عظيما بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات . والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم

(١) حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... الحديث » تقدم فى الحج .

فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة . وفيه أيضا حركة للرغبة فى الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم؛ هذا سوى ماينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف ومجرد زيارة الإخوان فى الله فيه فضل ؟ كما ذكرناه فى كتاب الصحبة . وفى التوراة : سر أربعة أميال زر أخا فى الله .

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها . فالحديث ظاهر فى أنه لاتشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة . وقد ذكرنا فضائل الحرمين فى كتاب الحج .

وبيت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعا من الغد إلى المدينة . وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل : أن من قصد هذا المسجد لايعنيه إلا الصلاة فيه ؛ أن لا تصرف نظرك عنه مادام مقيما فيه حتى يخرج منه ؛ وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك .

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين . وذلك أيضاً حسن فالفرار مما لايطاق من سنن الأنبياء والمرسلين .

ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب ، والدين لايتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فلا يتصور أن يشتغل بالدين . ولا يتصور فراغ القلب فى الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها وقد نجا المخفون وهلك المثقلون . والحمد لله الذى لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل المخف بفضله وشمله بسعة رحمته . والمخف هو الذى ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لايتيسر فى الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه ، فلايتم مقصوده إلا بالغربة والخمول وقطع العلائق التى لابد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة . ثم ربما يمده الله بمعونته فينعم عليه بما يقوى به يقينه ويطمئن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها فلا يصده شىء منها عما هو بصدده من ذكر الله ، وذلك مما يعز وجوده جدا بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء ، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا . ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كتفاوت القوة الظاهرة فى الأعضاء ، فرب رجل قوى ذى مرة سوى شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ماوزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلا قليلا لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد فى قوته زيادة ما وإن كان ذلك لايبلغه درجته فلا ينبغى أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال . وقد كان من عادة السلف رضى الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن . وقال سفيان الثورى : هذا زمان سوء لايؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتهرين ؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف فى موضع تحول إلى غيره . وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثورى وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت : إلى أين ياأبا عبد الله ؟ قال : بلغنى عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له : وتفعل هذا ؟ قال : نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك وهذا هرب من غلاء السعر . وكان سرى السقطى يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا . وقد كان الخواص لايقيم ببلد أكثر من أربعين يوما . وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتماداً على الأسباب قادحا فى التوكل . وسيأتى أسرار

الاعتماد على الأسباب فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

القسم الرابع : السفر هرباً مما يقدح فى البدن كالطاعون ، أو فى المال كغلاء السعر أو مايجرى مجراه . ولا حرج فى ذلك بل ربما يجب الفرار فى بعض المواضع ، وربما يستحب فى بعض بحسب وجوب مايترتب عليه من الفوائد واستحبابه ، ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغى أن يفر منه لورود النهى فيه . قال أسامة بن زيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقى بعد فى الأرض منه [1] » وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فناء أمتى بالطعن والطاعون فقلت : هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : غدة كغدة البعير تأخذهم فى مراقهم ، المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب كالمرابط فى سبيل الله ، والفار منه كالفار من الزحف [2] » وعن مكحول عن أم أيمن قالت . أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، لاتشرك بالله شيئاً وإن عذبت أو حرقت وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شىء هو لك فاخرج منه . ولاتترك الصلاة عمداً فإن من ترك الصلاة عمداً فقد برئت ذمة الله منه ، وإياك والخمر فإنها مفتاح كل شر : وإياك والمعصية فإنها تسخط الله ، ولاتفر من الزحف ، وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت فيهم ، أنفق من طولك على أهل بيتك ولاترفع عصاك عنهم أخفهم بالله [3] » فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهى عنه وكذلك القدوم عليه . وسيأتى شرح ذلك فى كتاب التوكل .

فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى محمود وإلى مباح . والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم . ومن هذه الأسباب تتبين النية فى السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية . ولتكن نيته الآخرة فى جميع أسفاره ، وذلك ظاهر فى الواجب والمندوب ؛ ومحال فى المكروه والمحظور .

وأما المباح فرجعه إلى النية . فمهما كان قصده بطلب المال مثلا التعفف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة . ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات [4] » فقوله صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات عام فى الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لاتؤثر فى إخراجها عن كونها من المحظورات : وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته . فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه ؛ وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله . ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له .

وأما النظر فى أن السفر هو الأفضل أو الإقامه ، فذلك يضاهى النظر فى أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ؟

---

(١) حديث أسامة بن زيد « ان هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ... الحديث » متفق عليه واللفظ لمسلم.
(٢) حديث عائشة « ان فناء أمتى بالطعن والطاعون ... الحديث » رواه أحمد وابن عبد البر فى التمهيد بإسناد جيد .
(٣) حديث أم أيمن : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله « لاتشرك بالله شيئاً وان حرقت بالنار » أخرجه البيهقى وقال فيه إرسال . (٤) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .

وقد ذكر منهاجه فى كتاب العزلة فليفهم هذا منه فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب فى حق الأكثرين . والأفضل فى هذا ماهو الأعون على الدين : ونهاية ثمرة الدين فى الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى ، والأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر . ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما . والسفر هو المعين على التعلم فى الابتداء . والإقامة هى المعينة على العمل بالعلم فى الانتهاء . وأما السياحة فى الأرض على الدوام فمن المشوشات للقلب إلا فى حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ماألفه واعتاده فى إقامته . وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع . ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال ، فلا ينبغى أن يسافر المريد إلا فى طلب علم أومشاهدة شيخ يقتدى به فى سيرته وتستفاد الرغبة فى الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصروانفتح له طريق الفكر أوالعمل فالسكون أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار ـ لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره فى الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ـ قد ألفوا البطالة واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم فى البلاد ، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم واستخفوا عقولهم وأديانهم : من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تعللا بكثرة الأتباع ، فلم يكن لهم فى الخانقاهات حكم نافذ ، ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فلبسوا المرقعات واتخذوا فى الخانقاهات متنزهات ، وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقتهم وفى سياحتهم وفى لفظهم وعبارتهم وفى آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ، ويتوهمون أنّ المشاركة فى الظاهر توجب المساهمة فى الحقائق وهيهات ! فما أغزر حماقة من لايميز بين الشحم والورم ؟ فهؤلاء بغضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ . ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ ، إلا من سافر لحج أو عمرة فى غير رياء ولاسمعة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به فى علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن . والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل ، لأنّ العلوم لم تندرس بعد ، والعالم وإن كان عالم سوء فإنما فساده فى سيرته لافى علمه ، فيبقى عالما غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم . وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ماسوى الله . وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح . ومهما فسد العمل فات الأصل . وفى أسفار هؤلاء نظر للفقهاء من حيث إنه إتعاب للنفس بلافائدة ، وقد يقال إنّ ذلك ممنوع . ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإنّ حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفوس المتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسيسة ، ولابأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو المتأذى والمتلذذ . والفتوى تقتضى تشتيت العوام فى المباحات التى لا نفع فيها ولاضرر : فالسائحون فى غير مهم فى الدين والدنيا بل لمحض التفرج فى البلاد كالبهائم المترددة فى الصحارى فلا بأس بسياحتهم ماكفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الخلق حالهم ، وإنما عصيانهم فى التلبيس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التى وقفت على الصوفية ، لأنّ الصوفى عبارة عن رجل صالح عدل فى دينه مع صفات أخر

وراء الصلاح ، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبائر فلاتبق معه العدالة والصلاح ، ولو تصور صوفى فاسق لتصور صوفى كافر وفقيه يهودى . وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفى عبارة عن عدل مخصوص لايقتصر فى دينه على القدر الذى يحصل به العدالة . وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان ماأكلوه سحتا ، وأعنى به إذا كان المعطى بحيث لوعرف بواطن أحوالهم ماأعطاهم : فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ، ومن زعم أنه علوى وهو كاذب وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئا فأخذه على ذلك حرام ، وكذلك الصوفى . ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ فى الاحتياط لدينه لاينفك فى باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب فى مواساته لفترت رغبته عن المواساة . فلاجرم كانوا لايشترون شيئا بأنفسهم مخافة أن يسامحوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين . وكانوا يوكلون من يشترى لهم ويشترطون على الوكيل أن لايظهر أنه لمن يشترى . نعم إنما يحل أخذ مايعطى لأجل الدين إذا كان الأخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه مايعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتورا فى رأيه فيه ، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز ؛ والمغرور الجاهل بنفسه أحرى بأن يكون جاهلا بأمر دينه : فإن أقرب الأشياء إلى قالبه قلبه فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ، أو لايأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته . فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له ، وليقل إنك إن كنت تعطينى لما تعتقده فى من الدين فلست مستحقا لذلك ، ولو كشف الله تعالى سترى لم ترنى بعين التوقير ، بل اعتقدت أنى شر الخلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ ، فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه . ولكن ههنا مكيدة للنفس بينة ومخادعة فليتفطن لها ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متشبه بالصالحين فى ذمهم نفوسهم واستحقارهم لها ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء ، فكم من ذام نفسه وهو لها مادح بعين ذمه ، فذم النفس فى الخلوة مع النفس هو المحمود . وأما الذم فى الملأ فهو عين الرياء إلا إذا أورده إيرادا يحصل للمستمع يقينا بأنه مقترف للذنوب ومعترف بها . وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تلبيسه بقرائن الأحوال . والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عز وجل أو مخادعته لنفسه محال ، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك . فهذا هو القول فى أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته .

الفصل الثانى

فى آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهى أحد عشر أدبا

الأول : أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته . وبرد الودائع إن كانت عنده ولايأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه . قال ابن عمر رضى الله عنهما من كرم الرجل طيب زاده فى سفره . ولا بد فى السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق فى السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن . ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر : وقد يصلح فى الحضر من لايصلح فى السفر . ولذلك

قيل : إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكوا فى صلاحه . والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق ، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق .

وقد قيل ثلاثة لا يلامون على الضجر : الصائم والمريض والمسافر ، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ومعاونة الرفقة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله . وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة فى بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه .

الثانى : أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق . وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسى ويعينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده (١) وقال « الثلاثة نفر » (٢) وقال أيضا « إذا كنتم ثلاثة فى السفر فأمروا أحدكم (٣) » وكانوا يفعلون ذلك ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة . وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف فى تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ، ولا نظام إلا فى الوحدة ولا فساد إلا فى الكثرة . وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ومهما كان المدبر واحدا انتظم أمر التدبير . وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور فى الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد . وأمير خاص كرب الدار . وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأمير . فلهذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء . ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم ، كما نقل عن عبد الله المروزى أنه صحبه أبو على الرباطى فقال : على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، فقال : بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبى على على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه وفى يده كساء يمنع عنه المطر فكلما قال له عبد الله : لا تفعل ، يقول ، ألم تقل إن الإمارة مسلمة لى ؟ فلا تتحكم على ولا ترجع عن قولك : حتى قال أبو على : وددت أنى مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغى أن يكون الأمير . وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير الأصحاب أربعة (٥) » وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لابد أن يكون له فائدة ، والذى ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها « ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد فى الحاجة واحدا فيبقى فى السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق ، ولو تردد فى الحاجة اثنان لكان الحافظ للرحل واحدا ، فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر . فإذن مادون الأربعة لا يفى بالمقصود ، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم الترافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، ومن يستغنى عنه لا تنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه . نعم فى كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف

---

(١) حديث : النهى عن أن يسافر الرجل وحده . أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخارى بلفظ « لو يعلم الناس ما فى الوحدة ما سار راكب بليل وحده » . (٢) حديث « الثلاثة نفر » رويناه من حديث على فى وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف « الثلاثة ركب » رواه أبو داود والترمذى وحسنه النسائى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٣) حديث « إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم » أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

(٤) حديث : كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه البزار والحاكم عن عمر أنه قال : إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمروا عليكم أحدكم ذا أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « خير الأصحاب أربعة » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذى حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة . وكم من رفيق فى الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه .

الثالث : أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء : وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعنى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال لقمان إن الله تعالى إذا استودع شيئا حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك [١] » وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة [٢] » وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ودع رجلا قال « زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت [٣] » فهذا دعاء المقيم للمودع . وقال موسى بن وردان : أتيت أبا هريرة رضى الله عنه أودعه لسفر أردته . فقال ألا أعلمك يا ابن أخى شيئاً علمنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع ، فقلت بلى قال قل « أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه [٤] » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أريد سفراً فأوصنى فقال له « فى حفظ الله وفى كنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث كنت أو أينما كنت [٥] » شك فيه الراوى .

وينبغى إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجمع ولا يخصص . فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال له الرجل : أحدثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر ، إنى أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعنى على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله ما فى بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هى قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت لصوامة قوامة ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل لى إن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها ، فقال عمر رضى الله عنه : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب .

الرابع : أن يصلى قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها فى كتاب الصلاة . ووقت الخروج يصلى لأجل السفر ، فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى نذرت سفرا وقد كتبت وصيتى فإلى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى ابنى أم أخى أم أبى : فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ما استخلف عبد فى أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصليهن فى بيته إذا شد عليه ثياب سفره ، يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول : اللهم إنى أتقرب بهن إليك فاخلفنى بهن فى أهلى ومالى فهى خليفته فى أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله [٦] » .

---

(١) حديث ابن عمر : قال لقمان إن الله إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك . أخرجه النسائى فى اليوم والليلة ورواه أبو داود مختصراً وإسناده جيد . (٢) حديث زيد بن أرقم « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله جاعل له فى دعائهم البركة » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف . (٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : كان إذا ودع رجلا قال زودك الله التقوى . رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والمحاملى فى الدعاء وفيه ابن لهيعة .

(٤) حديث أبى هريرة : أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه . أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد حسن .

(٥) حديث أنس « فى حفظ الله وفى كنفه زودك الله التقوى ... الحديث » تقدم فى الحج فى الباب الثانى . (٦) حديث أنس : أن رجلا قال إنى نذرت سفراً وقد كتبت وصيتى فإلى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى أبى أم أخى أم امرأتى فقال « ما استخلف عبد فى أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات ... الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف .

الخامس : إذا حصل على باب الدار فليقل : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على ، فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى فاكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت . وليدع بهذا الدعاء فى كل منزل يرحل عنه . فإذا ركب الدابة فليقل : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . فإذا استوت الدابة تحته فليقل ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور .

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة . روى جابر : أن النبى صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمتى فى بكورها [١] » : ويستحب أن يبتدئ بالخروج يوم الخميس ، فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس [٢] . وروى أنس : أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم بارك لأمتى فى بكورها يوم السبت » وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية بعثها أول النهار [٣] . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم بارك لأمتى فى بكورها يوم خميسها [٤] » وقال عبد الله بن عباس : إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهارا ولا تطلبها ليلا واطلبها بكرة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم بارك لأمتى فى بكورها [٥] » .

ولا ينبغى أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصيا بترك الجمعة ، واليوم منسوب إليها ـ فكان أوله من أسباب وجوبها . والتشييع للوداع مستحب وهو سنة قال صلى الله عليه وسلم « لأن أشيع مجاهدا فى سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب إلى الدنيا وما فيها [٦] » .

السابع : أن لا ينزل حتى يحمى النهار فهى السنة ويكون أكثر سيره بالليل . قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار [٧] » ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه اصرف عنى شر شرارهم . فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم ليقل : اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل فليقل : ياأرض ! ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله

(١) حديث جابر : أنه صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » رواه الخرائطى وفى السنن الأربعة من حديث صخر العامرى « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » قال الترمذى حديث حسن . (٢) حديث كعب ابن مالك : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج الى سفر الا يوم الخميس والسبت » أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميسها والخرائطى مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف . (٣) حديث : كان اذا بعث سرية بعثها أول النهار . أخرجه الأربعة من حديث صخر العامرى وحسنه الترمذى . (٤) حديث أبى هريرة « اللهم بارك لأمتى فى بكورها يوم خميسها » أخرجه ابن ماجه والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه « يوم الخميس » وكلا الإسنادين ضعيف . (٥) حديث ابن عباس: إذا كانت لك الى رجل حاجة فاطلبها اليه نهارا ... الحديث أخرجه البزار والطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له واسناده ضعيف . (٦) حديث « لأن أشيع مجاهداً فى سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب الى من الدنيا وما فيها » رواه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس . (٧) حديث « عليكم بالدلجة .. الحديث . تقدم » فى الباب الثانى من الحج .

من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكنى البلد ووالد وما ولد ﴿ وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ ومهما علا شرفا من الأرض فى وقت السير فينبغى ان يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ، ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة فى سفره قال : سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الثامن : أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفردا خارج القافلة ـ لأنه ربما يغتال أو ينقطع ـ ويكون بالليل متحفظا عند النوم . كان صلى الله عليه وسلم إذا نام فى ابتداء الليل فى السفر افترش ذراعيه وإن نام فى آخر الليل نصب ذراعيه نصبا وجعل رأسه فى كفه [١] . والغرض من ذلك أن لا يستثقل فى النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدرى فيكون مايفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره .

والمستحب بالليل أن يتناوب الرفقاء فى الحراسة فإذا نام واحد حرس آخر [٢] فهذه السنة . ومهما قصده عدو أو سبع فى ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسى وشهد الله وسور الإخلاص والمعوذتين . وليقل : بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله حسبى الله توكلت على الله ما شاء الله لا يأتى بالخيرات إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبى الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولادون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحى القيوم الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلانهلك وانت ثقتنا ورجاؤنا اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين .

التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق . ولا يضربها فى وجهها فإنه منهى عنه ، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة كان أهل الورع لاينامون على الدواب إلا غفوة : وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى [٣] ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك [٤] فهو سنة وفيه آثار عن السلف .

وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لاينزل ويوفى الأجرة . ثم كان ينزل ليكون بذلك محسنا إلى الدابة فيوضع فى ميزان حسناته لافى ميزان حسنات المكارى . ومن آذى بهيمة بضرب أوحمل مالا تطيق طولب به يوم القيامة إذ فى كل كبد حراء أجر . قال أبو الدرداء رضى الله عنه لبعير له عند الموت : أيها البعير لاتخاصمنى إلى ربك فإنى لم أك أحملك فوق طاقتك . وفى النزول ساعة صدقتان ، إحداهما : ترويح الدابة : والثانية : إدخال السرور على قلب المكارى . وفيه فائدة أخرى وهى رياضة البدن وتحريك الرجلين . والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب .

وينبغى أن يقرر مع المكارى مايحمله عليها شيئا شيئا ويعرضه عليه ، ويستأجر الدابة بعقد صحيح لئلا يثور بينهما نزاع يؤذى القلب ويحمل على الزيادة فى الكلام ، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد . فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المكارى ، فلاينبغى أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف . فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة : احمل لى هذه الرقعة إلى فلان ، فقال : حتى استأذن المكارى فإنى لم أشارطه على هذه الرقعة . فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن

---

(١) حديث : كان اذا نام فى ابتداء الليل فى السفر افترش ذراعيه ... الحديث » تقدم فى الحج . (٢) حديث تناوب الرفقاء فى الحراسة . تقدم فى الحج فى الباب الثانى . (٣) حديث « لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى » تقدم فى الباب الثالث من الحج . (٤) حديث : النزول عن الدابة غدوة وعشية : تقدم فيه .

سلك طريق الورع ؟

العاشر : ينبغى أن يستصحب ستة أشياء . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل معه خمسة أشياء . المرآة والمكحلة والمقراض والسواك والمشط [١] ، وفى رواية أخرى عنها ، ستة أشياء : المرآة والقارورة والمقراض والسواك والمكحلة والمشط . وقالت أم سعد الأنصارية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايفارقه فى السفر المرآة والمكحلة [٢] وقال صهيب قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « عليكم بالإثمد عند مضجعكم فإنه مما يزيد فى البصر وينبت الشعر [٣] » وروى أنه كان يكتحل ثلاثا ثلاثا ، وفى رواية : انه اكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى ثنتين [٤] وقد زاد الصوفية الركوة والحبل . وقال بعض الصوفية : إذالم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه . وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط فى طهارة الماء وغسل الثياب ، فالركوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ولنزع الماء من الآبار . وكان الأولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء . ولايبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها مالم يتيقنوا نجاستها حتى توضأ عمر رضى الله عنه من ماء فى جرة نصرانية . وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل فيفرشون الثياب المغسولة عليها . فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة ، وأما ما يعين على الاحتياط فى الدين فستحسن .

وقد ذكرنا احكام المبالغة فى الطهارات فى كتاب الطهارة . وأن المتجرد لأمر الدين لاينبغى أن يؤثر طريق الرخصة بل يحتاط فى الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه .

وقيل كان الخواص من المتوكلين وكان لايفارقه أربعة أشياء فى السفر والحضر : الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض ، وكان يقول : هذه ليست من الدنيا .

الحادى عشر : فى آداب الرجوع من السفر : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول « لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده [٥] » وإذا أشرف على مدينته فليقل : اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا . ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه ، ولا ينبغى له أن يطرقهم ليلا [٦] فقد ورد النهى عنه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد اولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت [٧] وإذا دخل قال « توبا توبا لربنا أوبا أوبا لا يغادر علينا حوبا [٨] » .

---

(١) حديث عائشة : كان اذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرآة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط . وفى رواية : ستة أشياء . أخرجه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى سننه والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث أم سعد الأنصارية : كان لايفارقه فى السفر المرآة والمكحلة . رواه الخرائطى واسناده ضعيف .

(٣) حديث صهيب : عليكم بالإثمد عند مضجعكم فانه يزيد فى البصر وينبت الشعر . أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذى وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبدالبر وقال الخطابى صحيح الإسناد .

(٤) حديث : كان يكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى ثنتين . أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين .

(٥) حديث : كان اذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ... الحديث تقدم فى الحج . (٦) حديث : النهى عن طروق الأهل ليلا . تقدم . (٧) حديث : كان اذا قدم من سفر دخل المسجد أولا وصلى ركعتين . تقدم . (٨) حديث : كان اذا دخل قال « توبا توبا لربنا أوبا أوبا لايغادر علينا حوبا » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وينبغى أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة . فقد روى : أنه إن لم يجد شيئا فليضع فى مخلاته حجرا [١] وكأن هذا مبالغة فى الاستحثاث على هذه المكرمة لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به ، فيتأكد الاستحباب فى تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب فى السفر إلى ذكرهم بما يستصحبه فى الطريق لهم فهذه جملة من الآداب الظاهرة

وأما الآداب الباطنة : ففى الفصل الأول بيان جملة منها . وجملته أن لايسافر إلا إذا كان زيادة دينه فى السفر . ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فيقف ولينصرف ولا ينبغى أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه وينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ويجتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدبا أو كلمة لينتفع بها ، لا ليحكى ذلك ويظهر أنه لقى المشايخ . ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك . ولا يجالس فى مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين . وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقته . وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة . ولا يشغل نفسه بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره . وكلما دخل بلداً لايشتغل بشىء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله ، وإن كان فى بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله ، فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولا . وإذا كان فى السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخيائها ولا ذكر أصدقائه فيها ، وليذكر مشايخها وفقراءها . ولا يهمل فى سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدها فى كل قرية وبلدة . ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها . ويلازم فى الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لايسمع غيره . وإذا كلمه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدثه ثم ليرجع إلى ما كان عليه . فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها فالبركة فى مخالفة النفس . وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغى له أن يسافر تبرما بالخدمة فذلك كفران نعمة . ومهما وجد نفسه فى نقصان عما كان عليه فى الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لوكان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبى عثمان المغربى : خرج فلان مسافرا ، فقال : السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له فى السفر زيادة دين فقد أذل نفسه وإلا فعز الدين لاينال إلا بذلة الغربة . فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه حتى يعز فى هذه الغربة ولايذل فإن من اتبع هواه فى سفره ذل لامحالة إما عاجلا وإما آجلا .

الباب الثانى : فيما لابد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

أعلم أن المسافر يحتاج فى أول سفره إلى أن يتزود لدنياه ولآخرته .

أما زاد الدنيا : فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة . فإن خرج متوكلا من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره فى قافلة أو بين قرى متصلة . وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لاطعام معهم ولاشراب فإن كان ممن يصبر على الجوع ـ أسبوعا أو عشرا مثلا ـ أو يقدر على أن يكتفى بالحشيش فله ذلك . وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ولهذا سر سيأتى فى كتاب التوكل .

(١) حديث إطراق أهله عند القدوم ولو بحجر . أخرجه الدارقطنى من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر ، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فى فيه . فإن كان حفظ الدلو والحبل لايقدح فى التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه . وستأتى حقيقة التوكل فى موضعها فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين .

وأما زاد الآخرة : فهو العلم الذى يحتاج إليه فى طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه ، إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها فى الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات ، فإنه فى البلد يكتفى بغيره من محاريب المساجد وأذان المؤذنين وفى السفر قد يحتاج إلى أن يتعرف بنفسه . فإذن مايفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : العلم برخص السفر

والسفر يفيد فى الطهارة رخصتين : مسح الخفين والتيمم ، وفى صلاة الفرض رخصتين : القصر والجمع ، وفى النفل رخصتين : أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشيا ، وفى الصوم رخصة واحدة وهى الفطر . فهذه سبع رخص .

الرخصة الأولى : المسح على الخفين ، قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفر أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن [1] فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقيما ولكن بخمسة شروط :

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها فى الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها فى الخف لم يجز له المسح عند الشافعى رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه .

الثانى : أن يكون الخف قويا يمكن المشى فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلا إذا العادة جارية بالتردد فيه فى المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفيه فإنه لايجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف .

الثالث : أن لايكون فى موضع فرض الغسل خرق ، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه . وللشافعى قول قديم إنه يجوز مادام يستمسك على الرجل ، وهو مذهب مالك رضى الله عنه . ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز فى السفر فى كل وقت . والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساترا لاتبدو بشرة القدم من خلاله ، وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساترا إلى مافوق الكعبين كيفما كان . فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقى باللفافة لم يجز المسح عليه .

الرابع : أن لاينزع الخف بعد المسح عليه ، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء ، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز .

الخامس : أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لا على الساق ، وأقله مايسمى مسحا على ظهر القدم

(١) حديث صفوان بن عسال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرا أن لاننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن . أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والنسائى فى الكبرى وابن خزيمة وابن حبان .

من الخف . وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبهة الخلاف وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (١) كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووصفه : أن يبل اليدين ويضع رءوس أصابع اليمنى من يده على رءوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه ، ويضع رءوس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرها إلى رأس القدم . ومهما مسح مقيما ثم سافر أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة . وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف فى الحضر ومسح فى الحضر ثم خرج وأحدث فى السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلى إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ويعيد لبس الخف ، ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث . ولو أحدث بعد لبس الخف فى الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث . فأما إذا مسح فى الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين .

ويستحب لكل من يريد لبس الخف فى حضر أو سفر أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذرا من حية أو عقرب أو شوكة . فقد روى عن أبى أمامة أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفيه فلبس أحدهما ، فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما (٢) » .

الرخصة الثانية : التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر ؛ إنما يتعذر الماء بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذى لا يعتاده أهل المنزل – فى ترددهم لقضاء الحاجة – التردد إليه . وكذا إن نزل على الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم وإن كان الماء قريبا . وكذا إن احتاج إليه لعطشه فى يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم . وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز له الوضوء ، ويلزمه بذله إما بثمن أو بغير ثمن ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقة أو لحم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم بل عليه أن يجتزى بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة . ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنة . وإن بيع بثمن المثل لزمه الشراء وإن بيع بغبن لم يلزمه . فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جوز الوصول إليه بالطلب ، وذلك بالتردد حوالى المنزل وتفتيش الرحل وطلب البقايا من الأوانى والمطاهر . فإن نسى الماء فى رحله أو نسى بئرا بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره فى الطلب . وإن علم أنه سيجد الماء فى آخر الوقت فالأولى أن يصلى بالتيمم فى أول الوقت فإن العمر لا يوثق به . وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضى الله عنهما فقيل له : أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك ؟ فقال : أو أبقى إلى أن أدخلها ؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع فى الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء . وإذا وجده قبل الشروع فى الصلاة لزمه الوضوء .

ومهما طلب فلم يجد فليقصد صعيدا طيبا عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما

---

(١) حديث : مسحه صلى الله عليه وسلم على الخف وأسفله . أخرجه أبو داود والترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث المغيرة وهكذا ضعفه البخارى وأبو زرعة . (٢) حديث أبى أمامة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » رواه الطبرانى ، وفيه من لا يعرف .

ضربة فيمسح بها وجهه ، ويضرب ضربة أخرى ـ بعد نزع الخاتم ـ ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى ، وكيفية التلطف فيه ماذكرناه فى كتاب الطهارة فلا نعيده .

ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ماشاء بذلك التيمم . وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية ، فلا يصلى فريضتين إلا بتيممين . ولاينبغى أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ؛ فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم . ولينو عند مسح الوجه : استباحة الصلاة . ولو وجد من الماء مايكفيه لبعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً .

الرخصة الثالثة : فى الصلاة المفروضة ، القصر : وله أن يقتصر فى كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة : (الأول) أن يؤديها فى أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام (الثانى) أى ينوى القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك فى أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام . (الثالث) أى لايقتدى بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزمه الإتمام بل إن شك فى أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام ، وإن تيقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لاتخفى فليكن متحققا عند النية ، وإن شك فى أن إمامه هل نوى القصر أم لابعد أن عرف أنه مسافر ـ لم يضره ذلك ، لأن النيات لايطلع عليها . وهذا كله إذا كان فى سفر طويل مباح .

وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بد من معرفته . والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذى لايقصد موضعا معينا ، ولا يصير مسافرا مالم يفارق عمران البلد ولايشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التى يخرج أهل البلدة إليها للتنزه . وأما القرية فالمسافر منها ينبغى أن يجاوز البساتين المحوطة دون التى ليست بمحوطة . ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه مالم يجاوز العمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافرا بالانزعاج والخروج منه .

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة : (الأول) الوصول إلى العمران من البلد الذى عزم على الإقامة به . (الثانى) العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعدا إما فى بلد أو فى صحراء . (الثالث) صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده ، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ولكنه يتعوق عليه ويتأخر فله أن يترخص وإن طالت المدة ـ على أقيس القولين ـ لأنه منزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ولامبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولافرق بين أن يكون هذا الشغل قتالا أوغيره ، ولابين أن تطول المدة أو تقصر ، ولابين أن يتأخر الخروج لمطر لايعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره ؛ إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصر فى بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد [1] . وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه ؛ إذ لامعنى للتقدير بثمانية عشر يوما . والظاهر أن قصره كان لكونه مسافرا لالكونه غازيا مقاتلا هذا معنى القصر .

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين : كل مرحلة ثمانية فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل

---

(١) حديث : قصره صلى الله عليه وسلم فى بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد . أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين فى قصة الفتح : فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لايصلى إلا ركعتين . وللبخارى من حديث ابن عباس : أقام بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة . ولأبي داود : سبعة عشر . بتقديم السين وفى رواية له : خمسة عشر .

أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام .

ومعنى المباح أن لايكون عاقا لوالديه هاربا منهما ، ولاهاربا من مالكه ، ولاتكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ، ولايكون متوجها فى قطع طريق ، أو قتل إنسان ، أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم ، أوسعى بالفساد بين المسلمين .

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا فى غرض ، والغرض هو المحرك . فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ولولا ذلك الغرض لكان لاينبعث لسفره فسفره معصية ولايجوز فيه الترخص . وأماالفسق فى السفر بشرب الخمروغيره فلا يمنع الرخصة . بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة ولو كان له باعثان أحدهما مباح والآخر محظور ، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلا بتحريكه ولكان لامحالة يسافر لأجله فله الترخص . والمتصوفة الطوافون فى البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة فى ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخص .

الرخصة الرابعة ، الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما وبين المغرب والعشاء فى وقتيهما ؛ فذلك أيضا جائز فى كل سفر طويل مباح ، وفى جوازه فى السفر القصير قولان . ثم إن قدم العصر إلى الظهر فلينو الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقم ، وعند الفراغ يقيم للعصر ، ويجدد التيمم أولا إن كان فرضه التيمم ، ولايفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحرم بصلاة العصر جاز عند المزنى ، وله وجه فى القياس إذلا مستند لايجاب تقديم النية بل الشرع جوز الجمع وهذا جمع ، وإنما الرخصة فى العصر فتكفى النية فيها ، وأما الظهر فجار على القانون . ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغى أن يجمع بين سنن الصلاتين؛ أما العصر فلا سنة بعدها ولكن السنة التى بعد الظهر يصليها بعد الفراغ من العصر إما راكبا أومقيما ، لأنه لوصلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهى واجبة - على وجه - ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهن قبل الفريضتين فيصلى سنة الظهر أولا ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض : ولاينبغى أن يهمل النوافل فى السفر فما يفوته من ثوابها أكثر مما يناله من الربح ؛ لاسيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الراحلة كى لايتعوق عن الرفقة بسببها . وإن أخر الظهر إلى العصر فيجرى على هذا الترتيب ولايبالى بوقوع راتبة الظهر بعد العصر فى الوقت المكروه لأن ماله سبب لايكره فى هذا الوقت ، وكذلك يفعل فى المغرب والعشاء والوتر . وإذا قدم أوأخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختم الجميع بالوتر . وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جميعا فهو نية الجمع ؛ لأنه إنما يخلو عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر ، وذلك حرام والعزم عليه حرام . وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدى الظهر مع العصر ولايكون عاصيا ، لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها . ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركا فى السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب . ولذلك ينقدح أن لاتشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز لأن مابعد الفراغ من الظهر هو الذى جعل وقتا للعصر ، إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره . وعذر المطر مجوز للجمع كعذر السفر . وترك الجمعة أيضاً من رخص السفر وهى متعلقة أيضاً بفرائض الصلوات . ولو نوى

الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر فى الحضر فعليه أداء العصر ، وما مضى إنما كان مجزئا بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكبا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته [1] وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . وليس على المتنفل الراكب فى الركوع والسجود إلا الإيماء . وينبغى أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلى حدّ يتعرض به لخطر بسبب الدابة . فإن كان فى مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة . فليكن فى جميع صلاته إما مستقبلا للقبلة أو متوجها فى صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة . ولو حرفها ناسيا وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن طال ففيه خلاف وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته ـ لأن ذلك مما يكثر وقوعه ـ وليس عليه سجود سهو إذ الجماح غير منسوب إليه ، بخلاف مالو حرف ناسيا فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشى جائز فى السفر ويومئ بالركوع والسجود ، ولايقعد للتشهد لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الراكب ؛ لكن ينبغى أن يتحرم بالصلاة مستقبلا للقبلة ؛ لأن الانحراف فى لحظة لاعسر عليه فيه بخلاف الراكب فإن فى تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ؛ وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك . ولاينبغى أن يمشى فى نجاسة رطبة عمدا ؛ فإن فعل بطلت صلاته بخلاف مالو وطئت دابة الراكب نجاسة . وليس عليه أن يشوش المشى على نفسه بالاحتراز من النجاسات التى لاتخلو الطريق عنها غالبا . وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلى الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه فى التنفل .

الرخصة السابعة : الفطر ، وهو فى الصوم . فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيما ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم . وإن أصبح مسافرا صائما ثم أقام فعليه الإتمام . وإن أقام مفطر فليس عليه الإمساك بقية النهار . وإن أصبح مسافرا على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر . والقصر أفضل من الإتمام للخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس فى عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه فى عهدة القضاء وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى فى ذمته ، إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل .

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهى القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام . وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلا كان أو قصيرا وهما سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم . وأما صلاة النافلة ماشيا وراكبا ففيه خلاف والأصح جوازه فى القصير . والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل . وأما صلاة الفرض راكبا وماشيا للخوف فلاتتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة فى الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها .

* فإن قلت . فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك فاعلم أنه إن كان عازما على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكبا وماشيا لم يلزمه علم شروط الترخص فى ذلك ، لأنّ الترخص ليس بواجب عليه . وأما علم رخصة التيمم فيلزمه لأنّ فقد الماء ليس إليه ، إلا أن يسافر على شاطئ نهر

---

(1) حديث : كان يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة . متفق عليه من حديث ابن عمر .

يوثق ببقاء مائه ، أو يكون معه فى الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة ، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة . إما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه فيلزمه التعلم لامحالة .

• فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم تجب وربما لاتجب ؟ فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا فى سنة ؛ فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر . ويلزمه تعلم المناسك لامحالة إذا كان يظن أنه لايجد فى الطريق من يتعلم منه ؛ لأن الأصل الحياة واستمرارها . ومالايتوصل إلى الواجب إلابه فهو واجب . وكل مايتوقع وجوبه توقعا ظاهرا على الظن وله شرط لايتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته . فلايحل إذن للمسافر أن ينشئ السفر مالم يتعلم هذا القدر من علم التيمم . وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذى ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ؛ فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه .

• فإن قلت : إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة ؟ وهى غير واجبة فكيف يكون علمها واجبا ؟ فأقول : من الواجب أن لايصلى النفل على نعت الفساد ، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم مايحترز به عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع فى المحظورات . فهذا بيان علم ماخفف عن المسافر فى سفره .

القسم الثانى : مايتجدّد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات : وذلك أيضا واجب فى الحضر ، ولكن فى الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يغنيه عن طلب القبلة ومؤذن يراعى الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت .

والمسافر قد تشتبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بدّ له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت . أما أدلة القبلة فهى ثلاثة أقسام : أرضية ، كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار . وهوائية ، كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها . وسماوية ، وهى النجوم .

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أوشماله أوورائه أوقدامه ، فليعلم ذلك وليفهمه . وكذلك الرياح قد تدل فى بعض البلاد فليفهم ذلك . ولسنانقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر .

وأما السماوية فأدلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية .

أما النهارية : فالشمس ، فلا بدّ أن يراعى قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أهى بين الحاجبين ؟ أوعلى العين اليمنى ؟ أو اليسرى ؟ أوتميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ؟ فإن الشمس لاتعدو فى البلاد الشمالية هذه المواقع . فإذا حفظ ذلك فمهما عرف الزوال بدليله الذى سنذكره عرف القبلة به . وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر . فإنه فى هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة . وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاوه

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب . وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن يمين المستقبل ، أوهى مائلة إلى وجهه ، أوقفاه . وبالشفق أيضا تعرف القبلة للعشاء الأخيرة .

وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح . فكأن الشمس تدل على القبلة فى الصلوات الخمس ، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف . فإن المشارق والمغارب كثيرة وإن كانت محصورة فى جهتين ، فلابد من تعلم ذلك أيضا . ولكن قد يصلى المغرب والعشاء بعد غيبوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به . فعليه أن يراعى موضع القطب . وهو الكوكب الذى يقال له : الجدى : فإنه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه ، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل ، أو على منكبه الأيمن من ظهره ، أو منكبه الأيسر فى البلاد الشمالية من مكة . وفى البلاد الجنوبية كاليمن وماوالاها فيقع فى مقابلة المستقبل ؛ فيتعلم ذلك ، وماعرفه فى بلده فليعوّل عليه فى الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشارق والمغارب ، إلا أن ينتهى فى أثناء سفره إلى بلاد فينبغى أن يسأل أهل البصيرة . أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك . فمهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعوّل عليها . فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغى أن يقضى . وإن انحرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء .

وقد أورد الفقهاء خلافا فى أنّ المطلوب جهة الكعبة أو عينها ، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا : إن قلنا إن المطلوب العين فتى يتصوّر هذا مع بعد الديار ؟ وإن قلنا : إن المطلوب الجهة فالواقف فى المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج ببدنه عن موازاة الكعبة لا خلاف فى أنه لاتصح صلاته . وقد طوّلوا فى تأويل معنى الخلاف فى الجهة والعين . ولا بد أوّلا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة .

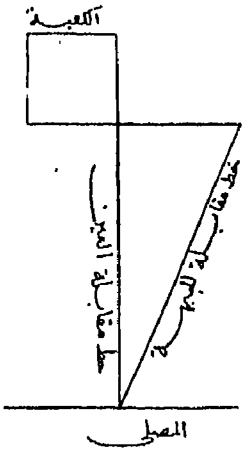

فعنى مقابلة العين : أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان (وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلى يقدر أنه خارج من بين عينيه) وهذه صورة مقابلة العين :

وأما مقابلة الجهة . فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتى الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هى واحدة . فلو مدّ هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ، فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة ـ كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة ـ فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعينها .

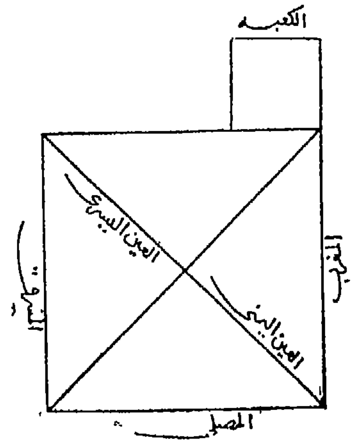

وحدّ تلك الجهة مايقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين ، فيلتقى طرفاهما فى داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة ، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل فى الجهة . وسعة ما بين الخطين تتزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة (وهذه صورته) :

فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول . الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها ، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة .

فأما طلب العين عند المشاهدة فمجمع عليه . وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضى الله عنهم والقياس .

أما الكتاب : فقوله تعالى ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أى نحوه . ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ولى وجهه شطرها .

وأما السنة : فما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل المدينة « ما بين المغرب والمشرق قبلة[1] » . والمغرب يقع على يمين أهل المدينة والمشرق على يسارهم . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لا تفى بما بين المشرق والمغرب وإنما يفى بذلك جهتها . وروى هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضى الله عنهما .

وأما فعل الصحابة رضى الله عنهم : فما روى أن مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس مستدبرين الكعبة ـ لأن المدينة بينهما ـ فقيل لهم : الآن قد حولت القبلة إلى الكعبة . فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة[2] ولم ينكر عليهم . وسمى مسجدهم « ذا القبلتين » ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ؛ فكيف أدركوا ذلك على البديهة فى أثناء الصلاة وفى ظلمة الليل ؟ ويدل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالى مكة وفى سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحاريب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسى .

وأما القياس : فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها ، بل ربما يزجر عن التعمق فى علمها فكيف ينبنى أمر الشرع عليها ؟ فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة .

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها : وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة « لا تستقبلوا بها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا[3] » وقال . هذا بالمدينة ـ والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه ـ فنهى عن جهتين ورخص فى جهتين . ومجموع ذلك أربع جهات . ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست أو سبع أو عشر . وكيفما كان فما حكم الباقى ؟ بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان ، وليس له إلا أربع جهات : قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا . والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أداة القبلة . فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق . ثم يعرف ذلك أيضا فى موقف المصلى ، ثم يقابل أحدهما بالآخر . ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبنى عليها قطعا . فإذن القدر الذى

(١) حديث : ما بين المشرق والمغرب قبلة . أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى وقال منكر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة
(٢) حديث : إن أهل قباء كانوا فى صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة فاستداروا ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف .
(٣) حديث : لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا . متفق عليه من حديث أبى أيوب .

لابد من تعلمه من أدلة القبلة : موقع المشرق والمغرب فى الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر . فبهذا يسقط الوجوب .

* فإن قلت : فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى ؟ فأقول : إن كان طريقه على قرى متصله فيها محاريب ، أوكان معه فى الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعدالته وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصى . وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى . لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل علمه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره . فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بغيم مظلم . أو ترك التعلم ولم يجد فى الطريق من يقلده ، فعليه أن يصلى فى الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ . والأعمى ليس له إلا التقليد فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا فى القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك فى حضر أو سفر وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر فى قافلة ليس فيها من يعرف أدله القبلة ـ حيث يحتاج إلى الاستدلال ـ كما ليس للعامى أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع ، بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلمه دينه ، وكذا إن لم يكن فى البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى ـ كما فى الرواية ـ وإن كان معروفا بالفقه مستور الحال فى العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة لأن المسافر فى البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين . فإن رآه لابسا للحرير أوما يغلب عليه الإبريسم أو راكبا لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ، فليطلب غيره . وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام أو يأخذ منه إدرارا أو صلة من غير أن يعلم أن الذى يأخذه من وجه حلال ، فكل ذلك فسق يقدح فى العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلابد منها . فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لابد أن يقع له فى ابتداء النهار ظل مستطيل فى جانب المغرب ، ثم لايزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ فى الزيادة فى جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب . فليقم المسافر فى موضع أو لينصب عودا مستقيما ، وليعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه فى النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر .

وطريقه فى معرفة ذلك أن ينظر فى البلد ـ وقت أذان المؤذن المعتمد ـ ظل قامته ، فإن كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه فمهما صار كذلك فى السفر وأخذ فى الزيادة صلى . فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر ، إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب . ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف . وإن كان من أول الشتاء فينقص كل يوم . وأحسن مايعرف به ظل الزول الميزان فليستصحبه المسافر . وليتعلم اختلاف الظل به فى كل وقت . وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان فى السفر فى موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصير بين عينيه مثلا إن كانت كذلك فى البلد .

وأما وقت المغرب فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه ، فينبغى أن ينظر إلى جانب المشرق فمهما ظهر سواد فى الأفق مرتفع من الأرض قدر رمح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء فيعرف بغيبوبة الشفق ـ وهو الحمرة ـ فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحمرة .

وأما الصبح فيبدو فى الأول مستطيلا كذنب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضى زمان . ثم يظهر بياض

معترض لايعسر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أوّل الوقت . قال صلى الله عليه وسلم « ليس الصبح هكذا ـ وجمع بين كفيه ـ وإنما الصبح هكذا ـ ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما ـ [1] » وأشار به إلى أنه معترض . وقد يستدل عليه بالمنازل وذلك تقريب لاتحقيق فيه ، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضا لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب . والذى ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين وهذا تقريب ، ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ، وبعضها منتصبة فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك فى البلد اختلافا يطول ذكره . نعم تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلا . وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقى قريب من منزلتين يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثى منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب ، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه . فمن وقت الشك ينبغى أن يترك الصائم السحور ، ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلى صلاة الصبح حتى تنقضى مدة الشك ، فإذا تحقق صلى . ولو أراد مريد أن يقدر على التحقيق وقتا معينا يشرب فيه متسحرا ويقوم عقيبه ويصلى الصبح متصلا به لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك فى قوة البشر أصلا ، بل لابد من مهلة للتوقف والشك . ولا اعتماد إلا على العيان ، ولا اعتماد فى العيان إلا على أن يصير الضوء منتشرا فى العرض حتى تبدو مبادى الصفرة . وقد غلط فى هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت . ويدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه بإسناده عن طلق بن على : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلوا واشربوا ولا يهيبنكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر [2] » وهذا صريح فى رعاية الحمرة . قال أبو عيسى ـ وفى الباب عن عدى بن حاتم وأبى ذر وسمرة بن جندب ـ وهو حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعا . قال صاحب الغريبين : أى مستطيلا . فإذاً لاينبغى أن يعول إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادى الحمرة . وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول ، أو قبل النوم حتى يستريح . فإن وطن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم الأوقات . فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها .

---

(١) حديث : ليس الصبح هكذا ـ وجمع كفه ـ إنما الصبح هكذا ـ ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما وأشار الى أنه معترض ـ أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبابتين ، ولأحمد من حديث طلق بن على « ليس الفجر المستطيل فى الأفق لكنه المعترض الأحمر » وإسناده حسن . (٢) حديث طلق بن على : كلوا واشربوا ولايهيبنكم الساطع المصعد وكلوا وشربوا حتى يعترض لكم الأحمر » قال المصنف : رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه وقال : حسن غريب وهو كما ذكر ، ورواه أبو داود أيضا .

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته ، حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى ـ وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى ، فلم يروا فى الكونين شيئا سواه ، ولم يذكروا فى الدارين إلا إياه ، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمه سبقت إلى المحبوب سرائرهم ، وإن ورد عليهم صوت مزعج أومقلق أومطرب أومحزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه . فنه سماعهم ، وإليه استماعهم ، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته ، واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته . والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر ، كما أخفى الماء تحت التراب والمدر ، ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولامنفذ إلى القلوب إلى من دهليز الأسماع ، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج مافيها ، وتظهر محاسنها أو مساويها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا مايحويه . كما لايرشح الإناء إلا بما فيه ، فالسماع للقلب محك صادق ، ومعيار ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه ، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكامنها ، وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها ، وجب شرح القول فى السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء فى أنهما من المحظورات أو المباحات . ونحن نوضح ذلك فى بابين . (الباب الأول) فى إباحة السماع . (الباب الثانى) فى آداب السماع وآثاره فى القلب بالوجد وفى الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب .

الباب الأول : فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيـان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويثمر السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونه فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص ، فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول : وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه . ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه .

فأما نقل المذاهب : فقد حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وسفيان وجماعة من

العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه .

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

وقال القاضي أبو الطيب : استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال : قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته ، وقال : وحكى عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن . وقال الشافعي رحمه الله : ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ، ولا أحب اللعب بالشطرنج وأكره كل مايلعب به الناس ؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة .

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة: سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري .

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان، وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال : وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما . قال : وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون ؟ فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة ، حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت في بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبي وفيه مايدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره . قال : وكان ابن مجاهد لايجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع . وحكى غير واحد أنه قال : اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر ابن داود وابن مجاهد في نظرائهم ، فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود : حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي ، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع : أما جدي أحمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة ، فقال ابن مجاهد لابن داود : دعني أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع : دعني أنت من جدك أي شيء تقول ياأبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام ؟ فقال : ابن داود لا ، قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده ؟ قال : لا، قال : فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه ؟ قال : أنا لم أقو لشيطان واحد فكيف

أقوى لشيطانين ؟ قال : وكان أبو الحسن العسقلانى الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع ، وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكريه ، وكذلك جماعة منهم صنفوا فى الرد على منكريه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له : ماتقول فى هذا السماع الذى اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفو الزلال الذى لايثبت عليه إلا أقدام العلماء . وحكى عن ممشاد الدينورى أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً ؟ فقال : ما أنكر منه شيئاً ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن . وحكى عن طاهر بن بلال الهمدانى الوراق ـ وكان من أهل العلم ـ أنه قال : كنت معتكفا فى جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون فى جانب منه قولا ويستمعون ، فأنكرت ذلك بقلبي وقلت : فى بيت من بيوت الله يقولون الشعر ؟ قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت فى نفسى : ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول؟ فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا حق بحق ـ أوقال حق من حق ـ أنا أشك فيه .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع ، عند الأكل لأنهم لايأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم لايتحاورون إلا فى مقامات الصديقين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا . وعن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع فقيل له : أيؤتى يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لافى الحسنات ولافى السيئات ، لأنه شبيه باللغو وقال الله تعالى ﴿ لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾

هذا مانقل من الأقاويل . ومن طلب الحق فى التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهى ، وكل ذلك قصور بل ينبغى أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره .

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام ، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لايعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة فى النص أو القياس على المنصوص . وأعنى بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله . فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ، وبقى فعلا لاحرج فيه كسائر المباحات . ولايدل على تحريم السماع نص ولاقياس ، ويتضح ذلك فى جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم . ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا فى إثبات هذا الغرض ، لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعا على إباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب . ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغى أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ماهو مخصوص به ، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك ،

وفى مدركات تلك الحاسة مايستلذ ، فلذة النظر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشم الروائح الطيبة ، وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة . وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة ، وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة . وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة ، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة . وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهى فى مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها . فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها ؟

أما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال ﴿ يزيد فى الخلق مايشاء ﴾ فقيل هو الصوت الحسن وفى الحديث « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشدّ أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته (٢) » وفى الحديث فى معرض المدح لداود عليه السلام « أنه كان حسن الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته ، وكان يحمل فى مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب منها فى الأوقات (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم فى مدح أبى موسى الأشعرى « لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود (٤) » وقول الله تعالى ﴿ إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن . وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعانى الصحيحة ؟ وإنّ من الشعر لحكمة . فهذا نظر فى الصوت من حيث أنه طيب حسن .

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيب الموزون ؛ فإنّ الوزن وراء الحسن فكم من صوت حسن خارج عن الوزن وكم من صوت موزون غير مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة : فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان ؛ وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور ؛ فهى مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها . والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة . وما من شىء توصل أهل الصناعات بصناعاتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى استأثر الله تعالى باختراعها ؛ فمنه تعلم الصناع وبه قصدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور .

(١) حديث : مابعث الله نبيا إلا حسن الصوت » أخرجه الترمذى فى الشمائل عن قتادة وزاد قوله « وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت » ورويناه متصلا فى الغيلانيات من رواية قتادة عن أنس ، والصواب الأول قاله الدارقطنى ورواه ابن مردويه فى التفسير من حديث على بن أبى طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » تقدم فى كتاب تلاوة القرآن .

(٣) حديث : كان داود حسن الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزبور ... الحديث . لم أجد له أصلا .

(٤) حديث « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود » قاله فى مدح أبى موسى ؛ تقدم فى تلاوة القرآن .

ولافرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان . فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى كالذى يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره .

ولا يستثنى من هذه إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها [1] لا للذتها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان . ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة فى الفطام عنها حتى انتهى الأمر فى الابتداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهى الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الاتباع كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لايسكر لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمىللحرام ووقاية له وحظارا مانعا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه [2] » فهى محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل (إحداها) أنها تدعو إلىشربالخمر فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . (الثانية) أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب فهى سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . ولهذه العلة « نهى عن الانتباذ فى المزفت والحنتم والنقير [3] » ، وهى الأوانى التى كانت مخصوصة بها . فمعنى هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى إذ ليس فيها اعتبار لذة فى الذكر إذ لا لذة فى رؤية القنينة وأوانى الشرب لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهى عن السماع لخصوص هذه العلة فيه . (الثالثة) الاجتماع عليها : لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم ؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم . وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم . وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة - وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو ، وبهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا وأحضروا آلات الشرب وأقداحه ، وصبوا فيها السكنجبين ، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساقى ويشربون ويحيى بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم ، وإن كان المشروب مباحا فى نفسه ، لأن فى هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعا فى بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم . فبهذه المعانى حرم المزمار العراقى والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها . وما عدا ذلك فليس فى معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها

---

(١) حديث : المنع من الملاهى والأوتار والمزامير . أخرجه البخارى من حديث أبى عامر أو أبي مالك الأشعرى « ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخز والحرير والمعازف » صورته عند البخارى صورة التعليق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلى . والمعازف : الملاهى ؛ قاله الجوهرى ، ولأحمد من حديث أبى أمامة « إن الله أمرنى أن أمحق المزامير والكيارات - يعنى البرابط - والمعازف » وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة « إن ربى حرم على الخمر والكوبة والقنين » وله فى حديث لأبى أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف . وكلها ضعيفة ، ولأبى الشيخ من حديث مرسلا « الاستماع إلى الملاهى معصية ... الحديث » ولأبى داود من حديث ابن عمر : سمع مزماراً فوضع أصبعيه على أذنيه . قال أبو داود : وهو منكر .

(٢) حديث « إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه » تقدم فى كتاب الحلال والحرام

(٣) حديث : النهى عن الحنتم والمزفت والنقير . متفق عليه من حديث ابن عباس .

فلم يكن فى معناها . فبقى على أصل الإباحة قياسا على أصوات الطيور وغيرها ، بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضا . وبهذا يتبين أنه ليست العلة فى تحريمها مجرد اللذة الطيبة ، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما فى تحليله فساد . قال الله تعالى ﴿ قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ فهذه الأصوات لاتحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر . كما سيأتى فى العوارض المحرّمة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم ، وهو الشعر وذلك لايخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه مازاد إلا كونه مفهوما ، والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع ؟ نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به سواء كان بألحان أو لم يكن ، والحق فيه ماقاله الشافعى رحمه الله إذ قال : الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان . فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا . ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظورا لاتتضمنه الآحاد . ولامحظور ههنا وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ؟ وقال عليه السلام « إنّ من الشعر لحكمة (٢) » وأنشدت عائشة رضى الله عنها :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وروى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضى الله عنهما ، وكان بها وباء فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؛ فكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة رضى الله عنها : فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد (٣) » وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد وهو يقول :

---

(١) حديث : إنشاد الشعر بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ متفق عليه من حديث أبى هريرة : أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ إليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ... الحديث ، ولمسلم من حديث عائشة إنشاد حسان : هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء ... القصيدة
وإنشاد حسان أيضاً : وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وللبخارى إنشاد ابن رواحة :
وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع .. الأبيات

(٢) حديث « إن من الشعر لحكمة » رواه البخارى من حديث أبى بن كعب وتقدم فى العلم . (٣) حديث عائشة فى الصحيحين : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال ... الحديث . وفيه إنشاد أبي بكر :
كل امرئ مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله
وإنشاد بلال : ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل
قلت : هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخارى فقط ليس عند مسلم .

هـذا الحـمـال لا حمال خيبر هـذا - أبر - ربنـا وأطهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إنّ العيش عيش الآخره فارحم الأنصار والمهـاجره (١)

وهذه فى الصحيحين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) » ، ولما أنشده النابغة شعره قال له صلى الله عليه وسلم « لا يفضض الله فاك (٣) » ، وقالت عائشة رضى الله عنها « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم (٤) » ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبى الصلت كل ذلك يقول « هيه هيه » ، ثم قال « إن كاد فى شعره ليسلم (٥) » ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له فى السفر . وإن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياأنجشة رويدك سوقك بالقوارير (٦) » ، ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضى الله عنهم وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون

---

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد وهو يقول :

هذا الحمـال لا حمـال خيبر هذا أبر - ربنا - وأطهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

اللهم إن العيش عيش الآخره فارحم الأنصـار والمهاجره

قال المصنف : والبيتان فى الصحيحين . قلت : البيت الأول انفرد به البخارى فى قصة الهجرة من رواية عروة مرسلا وفيه البيت الثانى أيضاً إلا أنه قال « الأجر » بدل « العيش » تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى؛ قال ابن شهاب : ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هـذا البيت والبيت الثانى فى الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون :

اللهم لا خير إلا خير الآخره فانصر الأنصـار والمهاجره

وليس البيت الثانى موزونا ، وفى الصحيحين أيضاً أنه قال فى حفر الخندق بلفظ « فبارك فى الأنصار والمهاجره » وفى رواية «فاغفر» وفى رواية لمسلم « فأكرم » ولهما من حديث سهل بن سعد « فاغفر للمهاجرين والأنصار » .

(٢) حديث : كان يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ... الحديث. أخرجه البخارى تعليقا ، وأبو داود والترمذى والحاكم متصلا من حديث عائشة ، قال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وفى الصحيحين أنها قالت « إنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنه قال للنابغة لما أنشده شعرا « لا يفضض الله فاك » رواه البغوى فى معجم الصحابة ، وابن عبد البر فى الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبد الله قال : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا ... الأبيات

ورواه البزار بلفظ « علونا العباد عفة وتكرما ... الأبيات » وفيه : فقال « أحسنت ياأبا ليلى لا يفضض الله فاك » وللحاكم من حديث خريم بن أوس : سمعت العباس يقول : يارسول الله إنى أريد أن أمتدحك ، فقال « قل لا يفضض الله فاك » فقال العباس :

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق ... الأبيات

(٤) حديث عائشة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم . أخرجه الترمذى من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة . (٥) حديث الشريد : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبى الصلت كل ذلك يقول « هيه هيه ... الحديث » رواه مسلم . (٦) حديث أنس : كان يحدى له فى السفر وأن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ... الحديث . رواه أبو داود الطيالسى واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك .

ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ . فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه . فأقول : لله تعالى سر فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيبا . فمن الأصوات مايفرح ، ومنها مايحزن ، ومنها مانيوم ، ومنها مايضحك ويطرب ، ومنها مايستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغى أن يظن أن ذلك لفهم معانى الشعر ، بل جار فى الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد فى الصبى فى مهده ؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه . والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة . ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط مايسكره ويولهه ، فتراها إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى إلى الحادى ناصية آذانها وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهى لاتشعر به لنشاطها . فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى ـ رضى الله عنه قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه ، فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت جمالا قدماتت بين يدى البيت وقدبقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لى الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع فى إلى مولاى فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر ، فعساه يحل القيد عنى ، قال . فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل مالم أشفع فى هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرنى وأهلك جميع مالى ، فقلت . ماذا فعل ؟ فقال . إن له صوتاً طيباً وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك ، قال : فأحببت أن أسمع صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى ، فما أظن أنى سمعت قط صوتاً أطيب منه . فإذن تأثير السماع فى القلب محسوس . ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة . ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته . ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم مافى القلب .

قال أبو سليمان : السماع لايجعل فى القلب ماليس فيه ولكن يحرك ماهو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب وهى سبعة مواضع :

الأول : غناء الحجيج ، فإنهم أولا يدورون فى البلاد بالطبل والشاهين والغناء ، وذلك مباح لأنها أشعار نظمت فى وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلا . وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محمودا كان التشويق إليه بكل مايشوق محمودا . وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه

فى الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع فى القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه ، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير . وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التى هى من شعار الأشرار ، نعم إن قصد به تشويق من لايجوز له الخروج إلى الحج كالذى أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه فى الخروج ، فهذا يحرم عليه الخروج . فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام . وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالبا لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق .

الثانى : ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو . وذلك أيضا مباح كما للحاج ، ولكن ينبغى أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو - بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه - بالأشعار المشجعة . مثل قول المتنبى :

فإن لا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكرم

وقوله أيضا :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

وأمثال ذلك . وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة . وهذا أيضا مباح فى وقت يباح فيه الغزو . ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو ، ولكن فى حق من يجوز له الخروج إلى الغزو .

الثالث : الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء ، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع فى النفس ، وذلك مباح فى كل قتال مباح ، ومندوب فى قتال مندوب ، ومحظور فى قتال المسلمين وأهل الذمة . وكل قتال محظور ، لأن تحريك الدواعى إلى المحظور محظور . وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضى الله عنهم كعلى وخالد رضى الله عنهما وغيرهما . ولذلك نقول : ينبغى أن يمنع من الضرب بالشاهين فى معسكر الغزاة فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور فى القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب ، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع .

الرابع : أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن قسمان : محمود ومذموم .

فأما المذموم فكالحزن على مافات قال الله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على مالاتدارك له . فهذا الحزن لما كان مذموما كان تحريكه بالنياحة مذموما فلذلك ورد النهى الصريح عن النياحة (١) .

وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياه . والبكاء والتباكى

---

(١) حديث : النهى عن النياحة . متفق عليه من حديث أم عطية : أخذ علينا النبى صلى الله عليه وسلم فى البيعة أن لانتوح .

والحزن والتحازن على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام . وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكى ويبكى ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته . وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه : وذلك محمود لأن المفضى إلى المحمود محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكى ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه .

الخامس : السماع فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له ، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا كالغناء فى أيام العيد وفى العرس وفى وقت قدوم الغائب وفى وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز . وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به . ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ماجاز السرور به جاز إثارة السرور فيه . ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا * مادعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود . فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حجلوا فى سرور أصابهم [2] - كما سيأتى فى أحكام الرقص - وهو جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به وفى كل سبب مباح من أسباب السرور . ويدل على هذا ماروى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأمه [3] » فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها . وروى البخارى ومسلم أيضا فى صحيحيهما حديث عقيل عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أبابكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان والنبى صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرهما أبوبكر رضى الله عنه فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال « دعهما ياأبابكر فإنها أيام عيد » وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر رضى الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أمنا يا بنى أرفدة [4] » يعنى من الأمن ومن حديث عمرو بن الحرث عن ابن شهاب نحوه وفيه : تغنيان وتضربان [5] . وفى حديث أبى طاهر

---

(1) حديث . إنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث عائشة معضلا وليس فيه ذكر للدف والألحان . (2) حديث : حجل جماعة من الصحابة فى سرور أصابهم . أخرجه أبو داود من حديث على وسيأتى فى الباب الثانى . (3) حديث عائشة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترنى بردائه وأنا أنظر الى الحبشة يلعبون فى المسجد ... الحديث . هو كما ذكره المصنف أيضاً فى الصحيحين لكن قوله إنه فيهما من رواية عقيل عن الزهرى ليس كما ذكر بل هو عند البخارى كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه .

(4) حديث عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بثوبه وأنا أنظر الى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أمنا يابنى أرفدة» تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم ... إلى آخره . فرواه مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله « أمنا يابنى أرفدة » بل قال « دعهم ياعمر » زاد النسائى « فإنما هم بنو أرفدة » ولهما من حديث عائشة « دونكم بنى أرفدة » وقد ذكره المصنف بعد هذا . (5) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه « يغنيان ويضربان » رواه مسلم وهو عند البخارى من رواية الأوزاعى عن ابن شهاب .

عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتى والحبشة يلعبون بحرابهم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسترنى بثوبه - أو بردائه - لكى أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلى حتى أكون أنا الذى أنصرف [1] ، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وكان يأتينى صواحب لى فكن يتقنعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر لمجيئهن إلى فيلعبن معى [2] وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها يوما « ماهذا ؟ » ، قالت : بناتى قال « فما هذا الذى أرى فى وسطهن ؟ » ، قالت : فرس قال « ماهذا الذى عليه ؟ » ، قالت : جناحان قال « فرس له جناحان » ، قالت : أو ماسمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة ؟ قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نوا جذه . والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته بدليل ماروى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقاع . وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « دعهما » ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا [3] . وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال « تشتهين تنظرين » فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه وخدى على خده ويقول « دونكم يابنى أرفدة » ، حتى إذا مللت قال « حسبك » قلت : نعم ، قال « فاذهبى » وفى صحيح مسلم : فوضعت رأسى على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذى انصرفت .

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين وهو نص صريح فى أن الغناء واللعب ليس بحرام . وفيها دلالة على أنواع من الرخص (الأول) اللعب : ولايخفى عادة الحبشة فى الرقص واللعب . (والثانى) فعل ذلك فى المسجد (والثالث) قوله صلى الله عليه وسلم « دونكم يابنى أرفدة » ، وهذا أمر باللعب والتماس له فكيف يقدر كونه حراما ؟ (والرابع) منعه لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أى هو وقت سرور ؟ وهذا من أسباب السرور (والخامس) وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضى الله عنها . وفيه دليل على أن حسن الخلق فى تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف فى الامتناع والمنع منه (والسادس) قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة « أتشتهين أن تنظرى » ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة ، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور . فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه (والسابع) الرخصة فى الغناء والضرب بالدف من الجاريتين ، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك (والثامن) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ، ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة .

---

(١) حديث أبي طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتى والحبشة يلعبون بحرابهم ... الحديث . رواه مسلم أيضاً .

(٢) حديث عائشة : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وهو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصر الى قولها « فيلعبن معى » . وأما الرواية المطولة التى ذكرها المصنف بقوله : وفى رواية - فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح . (٣) حديث عائشة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ... الحديث . هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف ، والرواية التى عزاها لمسلم انفرد بها مسلم كما ذكر .

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج فى أوقات السرور كلها ـ قياسا على يوم العيد ـ فإنه وقت سرور ، وفى معناه يوم العرس والوليمة والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح وهو كل مايجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضا مظنه السماع .

السادس : سماع العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق وتسلية للنفس . فإن كان فى مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق . والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشىء المرجو . فى هذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر فى الوصال مع الإطناب فى وصف حسن المحبوب . وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته فى لقائها . فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، ويفهم لطائف معانى الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة . فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ﴿وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ وهذا منه . وكذلك إن غضبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده . إذ لايجوز تحريك الشوق حيث لايجوز تحقيقه بالوصال واللقاء . وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبي أو امرأة لايحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ماتمثل فى نفسه فهذا حرام لأنه محرك للفكر فى الأفعال المحظورة ، ومهيج للداعية إلى مالايباح الوصول إليه . وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب فى وقت هيجان الشهوة لاينفكون عن إضمار شىء من ذلك : وذلك ممنوع فى حقهم لما فيه من الداء الدفين لالأمر يرجع إلى نفس السماع . ولذلك سئل حكيم عن العشق فقال . دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيجه السماع .

السابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شىء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه ، فالسماع فى حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قلبه ، ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لايحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها . وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود والمصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع . ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهى غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها فالمفضى إليها من جملة القربات لامن جملة المعاصى والمباحات . وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقا وفرحا وحزنا وانبساطا وانقباضا . ومعرفة السبب فى تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات . والبليد الجامد القاسى القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج ، وتعجب العنين من لذة المباشرة ، وتعجب الصبى من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه . ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك والإدراك يستدعى مدركا ويستدعى قوة مدركة . فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ؟ وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ؟ ولذة المعقولات من فقد العقل ؟ وكذلك ذوق السماع

بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة فى القلب ، فمن فقدها عدم لامحالة لذته

ولعلك تقول : كيف يتصور العشق فى حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له ؟ فاعلم أن من عرف الله أحبه لامحالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته . والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق إلامحبة مؤكدة مفرطة . ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه . لما رأوه يتخلى للعبادة فى جبل حراء . واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال . ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر . وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب . ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال : إنّ فلاناً حسن وجميل ولا ترادصورته . وإنما يعنى به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة ، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحب الصورة الظاهرة . وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا . وكم من الغلاة فى حب أرباب المذاهب كالشافعى ومالك وأبى حنيفة رضى الله عنهم ؟ حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق فى الغلو والمبالغة . ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال . ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه . بل على التحقيق من لاخير ولا جمال ولامحبوب فى العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال فى العالم ادرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرّة من خزائن قدرته ولمعة من أنوار حضرته ، فليت شعرى كيف لايعقل حب من هذا وصفه ؟ وكيف لايتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حدّا يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلماً فى حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته ؟ فسبحان من احتجب عن الظهور بشدّة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته ، ولولا أنّ ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء ، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش . وسيأتى تحقيق هذه الإشارة فى كتاب المحبة . ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المتحقق بالمعرفة لايعرف غير الله تعالى ، إذ ليس فى الوجود تحقيقاً إلاالله وأفعاله . ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره . فمن عرف الشافعى مثلا رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه ـ لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية ـ فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعى إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هى صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه . ومن حدّ هذا العشق أنه لا يقبل الشركة وكل ماسوى هذا العشق فهو قابل للشركة ؛ إذ كل محبوب سواه يتصوّر له نظير إما فى الوجود وإما فى الإمكان . فأما هذا الجمال فلا يتصوّر له ثان لافى الإمكان ولا فى الوجود . فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضالا حقيقة . نعم الناقص القريب فى نقصانه من البهيمة قد لايدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذى هو عبارة عن تماس

ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع . فمثل هذا الحمار ينبغى أن لايستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والأنس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعانى كما تجنب البهيمة النرجس والريحان وتخصص بالفت والحشيش وأوراق القضبان . فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها فى حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه . والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة فى أمثال هذه الألفاظ ، بل لايبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب يقطع بسببه نياط القلب . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر غلاما كان فى بنى إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله عزوجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت . الله عز وجل ، قال : فمن خلق الغيم ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : إنى لأسمع لله شأنا . ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع [1] . وهذا كأنه سمع مادل على جلال الله تعالى وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد فرمى بنفسه من الوجد . وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم : رأيت مكتوبا فى الإنجيل : غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا . أى شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا . فهذا ماأردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع إباحته فى بعض المواضع والندب إليه فى بعض المواضع .

* فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها ؟ فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض فى المسمع ، وعارض فى آلة الإسماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هى المسمع والمستمع وآلة الإسماع .

العارض الأول ، أن يكون المسمع امرأة لايحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفى معناها الصبى الأمرد الذى تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لوكانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها فى القرآن أيضا ، وكذلك الصبى الذى تخاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسما للباب أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت . فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان ؛ أحدهما ؟ أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة . فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور ؟ والثانى : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الحسم بل يتبع فيه الحال : وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر فى أول هيجانها ولاتدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع بل هو أشد . وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء فى زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال فى السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك . ولكن الغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة . فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات . فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه . هذا هو الأقيس عندى ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها ؛ إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن

(١) حديث أبى هريرة : أن غلاما كان فى بنى إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ فقالت : الله . . . الحديث . وفيه « ثم رمى نفسه من الجبل فتقطع » رواه ابن حبان .

الفتنة مخوفة عليه فلذلك لم يحترز . فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هذا بالأحوال . فإنا نقول : للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك ؛ لأن القبلة تدعو إلى الوقاع فى الصوم وهو محظور ، والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثانى : فى الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرف أو المخنثين وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة . فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة . وماعدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف ـ وإن كان فيه الجلاجل ـ وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : فى نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه شىء من الخنا والفحش والهجو أو ماهو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضى الله عنهم ، كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل . وكذلك مافيه وصف امرأة بعينها فإنه لايجوز وصف المرأة بين الرجال . وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز . فقد كان حسان بن ثابت رضى الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك [1] فأما النسيب وهو التشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيح أنه لايحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن . وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته : فإن نزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل وإجالة الفكر فيه . ومن هذا وصفه فينبغى أن يجتنب السماع رأسا فإن من غلب عليه عشق نزل كل مايسمعه عليه ؛ سوء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن ، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذى يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر ، وبنضارة الخد نور الإيمان ، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى فى زمرة المردودين ، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة لدوام الأنس بالله تعالى ، ولا يحتاج فى تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة ، بل تسبق المعانى الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ .

كما روى عن بعض الشيوخ ، أنه مر فى السوق فسمع واحدا يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوجد ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار ؟ واجتاز بعضهم فى السوق فسمع قائلا يقول : ياسعتر برى ، فغلبه الوجد فقيل له : على ماذا كان وجدك ؟ فقال ؟ سمعته كأنه يقول اسع تر برى ، حتى إن العجمى قد يغلب عليه الوجد على الأبيات المنظومة بلغة العرب فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان أخر . أنشد بعضهم :

﴿ وما زارنى فى الليل إلا خياله ﴾

فتواجد عليه رجل أعجمى . فسئل عن سبب وجده فقال ، إنه يقول : ما زاريم . وهو كما يقول فإن لفظ « زار » يدل فى العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول : كانا مشرفون على الهلاك ، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة .

والمحترق فى حب الله تعالى وجده بحسب فهمه ، وفهمه بحسب تخيله وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد

(١) حديث : أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين . متفق عليه من حديث البراء : أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم وجبريل معك »

الشاعر ولغته . فهذا الوجد حق وصدق . ومن استشعر خطر هلاك الآخرة فجدير بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه . فإذن ليس فى تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة ، بل الذى غلب عشق مخلوق ينبغى أن يحترز من السماع بأى لفظ كان ، والذى غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلقة بمجارى همته الشريفة .

العارض الرابع : فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه وكان فى غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر . وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذى هو حزب الله تعالى ، والقتال فى القلب دائم جنود الشيطان وهى الشهوات ، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل ، إلا فى قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية . وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنتها : والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص . فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ، ولو غلبت عليه شهوة فيكون فى حقه محظورا . ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية . وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة . ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة له فى بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل فى سائر الأوقات بالجد فى الدنيا كالكسب والتجارة ، أو فى الدين كالصلاة والقراءة . واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته فما أقبح ذلك ! فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام . فهذا المباح كسائر المباحات .

* فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح فى بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولا بالإباحة إذ إطلاق القول فى المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ ؟ فاعلم أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين ما فيه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا ؟ قلنا : إنه حلال ، على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذى يستضر به وإذا سئلنا عن الخمر قلنا . إنها حرام . مع إنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما لم يجد غيرها ، ولكن هى من حيث إنها خمر حرام وإنما أبيحت لعارض الحاجة . والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع فى وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض ، والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وإنما تحريمه لعارض خارج

عن حقيقة ذاته . فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالى بمن يخالف بعد ظهور الدليل .

وأما الشافعى رضى الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلا . وقد نص الشافعى وقال فى الرجل يتخذه صناعة : لاتجوز شهادته . وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرما بين التحريم . فإن كان لاينسب نفسه إلى الغناء ولايؤتى لذلك ولايأتى لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرب فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته . واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة رضى الله عنها ، وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعى رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعى . لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع إلا ماكان منه فى الأوصاف ، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح .

وحيث قال : إنه لهو مكروه يشبه الباطل فقوله « لهو » صحيح . ولكن اللهو من حيث إنه لهو ليس بحرام فلعب الحبشة ورقصهم لهو وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه . بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه . فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه فى اليوم مائة مرة فهذا عبث لافائدة له ولا يحرم . قال الله تعالى ﴿ لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لافائدة فيه لايؤاخذ فكيف يؤاخذ به بالشعر والرقص ؟

وأما قوله « يشبه الباطل » فهذا لايدل على اعتقاد تحريمه ، بل لو قال : هو باطل صريحا . لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل مالا فائدة فيه . فقول الرجل لامرأته مثلا : بعت نفسى منك ، وقولها : اشتريت ، عقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة وليس بحرام الا إذا قصد به التمليك المحقق منع الشرع منه .

وأما قوله « مكروه » فينزل بعض المواضع التى ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أنى أكره لعب وتعليله يدل عليه فإنه قال : ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة . فهذا يدل على التنزيه . ورده الشهادة بالمواظبة عليه لايدل على تحريمه أيضا بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق وما يخرم المروءة ، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوى المروءة ، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه . وهذا هو الظن أيضا بغيره من كبار الأئمة . وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم .

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ قال ابن مسعود والحسن البصرى والنخعى رضى الله عنهم : إنّ لهو الحديث هو الغناء . وروت عائشة رضى الله عنها أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى حرّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها (١) » فنقول : أما القينة فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب . وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لايقصدون بالفتنة إلا ماهو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة . بدليل ماروى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضى الله عنها . وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله

(١) حديث عائشة : إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها . أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف ، قال البيهقى ليس بمحفوظ .

فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد في الآية . ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم .

واحتجوا بقوله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الغناء بلغة حمير ـ يعني السمد ـ فنقول : ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه .

* فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ؟ فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ وأراد به شعراء الكفار . ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه .

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى [1] » فقد جمع بين النياحة والغناء ؟ قلنا : لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البـــدر علينـا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مارفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك [2] » قلنا : هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ماهو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين ، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان . بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة ، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل . أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود .

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته [3] » قلنا : فقوله « باطل » لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد يسلم ذلك . على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام ، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث [4] » فإنه يلحق به رابع وخامس فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ . وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل .

---

(١) حديث جابر : كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى . لم أجد له أصلا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده . (٢) حديث أبي أمامة : ما رفع أحد عقيرته بغناء الا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك . أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني في الكبير وهو ضعيف .

(٣) حديث عقبة بن عامر « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته » أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب . (٤) حديث « لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

واحتجوا بقول عثمان رضى الله عنه : ماتغنيت ولاتمنيت ولامسست ذكرى بيمينى مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلنا : فليكن التمنى ومس الذكر باليمنى حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين يثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لايترك إلا الحرام ؟

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت فى القلب النفاق ـ وزاد بعضهم ـ كما ينبت الماء البقل [1] ورفعه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح . قالوا : ومر على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا أسمع الله لكم ألا لا أسمع الله لكم . وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما فى طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه فى أذنيه ثم عدل عن الطريق ؛ فلم يزل يقول : يانافع أتسمع ذلك ؟ حتى قلت : لافأخرج أصبعيه وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع [2] وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا . وقال بعضهم : الغناء رائد من رواد الفجور. وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل مايفعله السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا . فنقول : قول ابن مسعود رضى الله عنه « ينبت النفاق » أراد به فى حق المغنى ، فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ، ولايزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضاً لايوجب تحريما . فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت فى القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط ، بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا . ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملجته وقطع ذنبه لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مطيته . فهذا النفاق من المباحات . وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما : ألا لا أسمع الله لكم . فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو ، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام . وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال . وأما وضعه أصبعيه فى أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعا بذلك ولاأنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه فى الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه . وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه لم يمنع ابن عمر ـ لايدل أيضا على التحريم ، بل يدل على أن الأولى تركه . ونحن نرى أن الأولى تركه فى أكثر الأحوال ، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر فى القلب . فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه [3] أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ فلعله صلى الله عليه وسلم كان فى حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله عن تلك الحالة كما شغله العلم عن الصلاة . بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كمالا بالإضافة إلى غيره . ولذلك قال الحصرى : ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من

---

(١) حديث ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » قال المصنف والمرفوع غير صحيح لأن فى اسناده من لم يسم ، رواه أبو داود وهو فى رواية ابن العبد ليس فى رواية اللؤلؤى ورواه البيهقى مرفوعا وموقوفا . (٢) حديث نافع : كنت وابن عمر فى طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه فى أذنيه ... الحديث . ورفعه أبو داود وقال هذا حديث منكر (٣) حديث : خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم لذ كان عليه أعلام شغلت قلبه . تقدم فى الصلاة .

يسمع منه ؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم . فالأنبياء عليهم السلام على الدوام فى لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة . وأما قول الفضيل : هو رقية الزنا . وكذلك ماعداه من الأقاويل القريبة منه . فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان . ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القياس : فغاية مايذكرفيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق ، أويقال هولهوولعب ، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لهو ولعب . قال عمر رضى الله عنه لزوجته : إنما أنت لعبة فى زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التى هى سبب وجود الولد . وكذلك المزح الذى لافحش فيه حلال . نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ، كما سيأتى تفصيله فى كتاب « آفات اللسان » إن شاء الله[1] وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج فى لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته ؟ على أنى أقول : اللهو مروح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجد ، فالمواظب على التفقه مثلا ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط فى سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات فى سائر الأوقات ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ، ولأجله كرهت الصلاة فى بعض الأوقات . فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض والحق المر إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام . فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغى أن يكون مباحا ولكن لاينبغى أن يستكثر منه كما لايستكثر من الدواء فإذاً اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا فى حق من لايحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغى أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذى ذكرناه . نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذى لايحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لاغنى عنه .

الباب الثانى : آثار السماع وآدابه

اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع ، ثم يثمر الفهم الوجد ، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح . فلينظر فى هذه المقامات الثلاثة .

المقام الأول : فى الفهم ، وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع .

وللمستمع أربعة أحوال ، إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع أى لاحظ له فى السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات ، وهذا مباح وهو أخس رتب السماع ، إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم بل لايستدعى هذا الذوق إلا الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة .

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا وإما غير معين ، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهى عنها .

الحالة الثالثة : أن ينزل مايسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله تعالى وتقلب أحواله فى التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدين لاسيما المبتدئين ، فإن للمريد لامحالة مرادا هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه

---

(١) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم . يأتى فى آفات اللسان كما قال المصنف .

ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسر وكشف الغطاء ، وله فى مقصده طريق هو سالكه ، ومعاملات هو مثابر عليها ، وحالات تستقبله فى معاملاته . فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصال أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العبرات أو ترادف الحسرات أو طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلابد أن يوافق بعضها حال المريد فى طلبه فيجرى ذلك مجرى القدح الذى يورى زناد قلبه ، فتشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته ويكون له مجال رحب فى تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه ، بل لكل كلام وجوه ، ولكل ذى فهم فى اقتباس المعنى منه حظوظ . ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كى لايظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والخد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها . ولاحاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعانى من الأبيات ففى حكايات أهل السماع مايكشف عن ذلك . فقد حكى أن بعضهم سمع قائلا يقول :

قال الرسول غدا تزو ر فقلت تعقل ماتقول

فاستفزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء : نونا . فيقول : قال الرسول غدا نزور ، حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور . فلما أفاق سئل عن وجده مم كان ؟ فقال : ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل يوم جمعة مرة [1] » ، وحكى الرقى عن ابن الدراج أنه قال: كنت أنا وابن القوطى مارين على دجلة بين البصرة والأبلة فإذا بقصر حسن له منظرة وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

كل يوم تتلون ؟ غير هذا بك أحسن

فإذا شاب حسن تحت المنظرة وبيده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال : ياجارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت على هذا البيت . فأعادت فكان الشاب يقول : هذا والله تلونى مع الحق فى حالى ، فشهق شهقة ومات . قال : فقلنا قد استقبلنا فرض .فوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه . فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر : اشهدكم أن كل شىء لى فى سبيل الله ، وكل جوارى احرار ، وهذا القصر للسبيل . قال : ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتدى بآخر ومر على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم ، وهم يبكون . فلم يسمع له بعد خبر . والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق ، فلما قرع سمعه مايوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تتلون ؟ غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه . فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته . وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى مايستحيل عليه ويكفر به . ففى سماع المريد المبتدى خطر إلا إذا

(١) حديث « إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العشرين مختلف فيه وقال الترمذى . لانعرفه الا من هذا الوجه قال : وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئا من هذا .

لم ينزل مايسمع إلا على حاله من حيث لايتعلق بوصف الله تعالى . ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه فلو سمعه فى نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلون إلى الله تعالى فيكفر ، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق ، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق ، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق ، فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه وتارة ينوره وتارة يظلمه وتارة يقسيه وتارة يلينه وتارة يثبته على طاعته ويقويه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق ، وهذا كله من الله تعالى . ومن يصدر منه أحوال مختلفة فى أوقات متقاربة فقد يقال له فى العادة : إنه ذو بداوات وإنه متلون . ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلون فى قبوله ورده وتقريبه وإبعاده وهذا هو المعنى . فسماع هذا كذلك فى حق الله تعالى كفر محض بل ينبغى أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ويغير ولا يتغير بخلاف عباده . وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدى إيمانى . ويحصل للعارف البصير بيقين كشفى حقيقى . وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغير من غير تغير ، ولا يتصور ذلك إلا فى حق الله تعالى ، بل كل مغير سواه فلا يغير مالم يتغير . ومن أرباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش ، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ، ويستنكر اقتهاره للقلوب ، وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت . فإنه المستصفى لقلوب الصديقين ، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين ، فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة ، ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوفيقه ونور هدايته لوسيلة سابقة ، ولكنه قال ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ فإن خطر ببالك أنه لم اختلفت السابقة وهم فى ربقه العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لاتجاوز حد الأدب ﴿ فإنه لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ ولعمرى تأدب اللسان والظاهر مما يقدر عليه الأكثرون . فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر فى التقريب والإبعاد والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم . ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع فى المنام : إنه الصفو الزلال الذى لايثبت عليه إلا أقدام العلماء لأنه محرك لأسرار القلوب ومكامنها ، ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذى يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا من عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته . ولذلك قال بعضهم : ليتنا نجونا من هذا السماع رأسا برأس . فى هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة ، فإنّ غاية ذلك معصية وغاية الخطأ ههنا كفر .

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب فى الفهم والآخر مخطئ ، أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين ، ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لايتناقض . كما حكى عن عتبة الغلام أنه سمع رجلا يقول :

سبحان جبار السما   إن المحب لفى عنا

فقال : صدقت . وسمعه رجل آخر فقال : كذبت . فقال بعض ذوى البصائر : أصابا جميعا وهو الحق فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصد والهجر . والتكذيب كلام مستأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به ، أو كلام محب غير مصدود عن مراده فى الحال ولا مستشعر بخطر

الصدق فى المآل . وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه . فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم .

وحكى عن أبى القاسم بن مروان ـ وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة ـ لحضر دعوة وفيها إنسان يقول :

واقف فى الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا ، فلما سكتوا سألهم عن معنى ماوقع لهم من معنى البيت ، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها ، فلم يقنعه ذلك فقالوا له : فماذا عندك فيه ؟ فقال : أن يكون فى وسط الأحوال ويكرم بالكرامات ولايعطى منها ذرة . وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال ، والكرامات والأحوال سوابقها ، والكرامات تسنح فى مباديها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها . ولافرق بين المعنى الذى نهمه وبين ماذكروه إلا فى تفاوت رتبة المتعطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها ، فإن مكن منها تعطش إلى ماوراءها ، فليس بين المعنيين اختلاف فى الفهم بل الاختلاف بين الرتبتين . وكان الشبلى رحمه الله كثيرا مايتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجــــر وحبكم قِلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها : أن يفهم هـذا فى الخلق بل فى الدنيا بأسرها بل فى كل ماسوى الله تعالى . فإن الدنيا مكارة خداعة قتالة لأربابها معادية لهم فى الباطن ومظهرة صورة الود « فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة »[1] ، كما ورد فى الخبر وكما قال الثعلبى فى وصف الدنيا :

تنح عن الدنيـــا فلا تخطبنها ولاتخطبن قتالة من تناكح
فليس يفى مرجـــوها بمخوفها ومكروهها أما تأملت راجح
لقدقال فيها الواصفون فأكثروا وعندى لهـا وصف لعمرى صالح
سلاف قصاراها زعاف ومركب شهى إذا استذللته فهو جامح
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

والمعنى الثانى . أن ينزله على نفسه فى حق الله تعالى فإنه إذا تفكر فمعرفته جهل إذ ماقدروا الله حق قدره . وطاعته رياء إذ لا يتقى الله حق تقاته ، وحبه معلول إذ لا يدع شهوة من شهواته فى حبه . ومن أراد الله به خيرا بصره بعيوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت فى نفسه ، وإن كان علىّ المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[2] ، وقال عليه الصلاة والسلام « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة »[3] ، وإنما كان استغفاره عن أحوال هى درجات بعد بالإضافة إلى مابعدها ، وإن كانت قربا بالإضافة إلى ماقبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال . والمعنى الثالث أن ينظر فى مبادئ أحواله فيرتضيها ثم ينظر فى عواقبها فيزدريها لاطلاعه على خفايا الغرور فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمع البيت فى حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر وهذا كفر ـ كما سبق بيانه ـ ومامن بيت إلا ويمكن تنزيله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم

---

(١) حديث « ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة » أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبى كثير مرسلا . (٢) حديث « لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » رواه مسلم وقد تقدم . (٣) حديث « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » تقدم فى الباب الثانى من الأذكار .

المستمع وصفاء قلبه .

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى بحر عين الشهود الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن . وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه . ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شىء إلا عن الواحد المشهود . وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود . فالمستهتر بالمرئى لاالتفات له فى حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التى بها رؤيته ولا إلى قلبه الذى به لذته ، فالسكران لاخبر له من سكره ، والمتلذذ لا خبر له من التذاذه ، وإنما خبره من المتلذذ به فقط . ومثاله العلم بالشىء : فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشىء فالعالم بالشىء مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشىء كان معرضا عن الشىء . ومثل هذه الحالة قد تطرأ فى حق المخلوق وتطرأ أيضا فى حق الخالق ، ولكنها فى الغالب تكون كالبرق الخاطف الذى لايثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطقه القوة البشرية ، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه .

كما روى عن أبى الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت :

مازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألبـاب عنـد نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه . فوقع فى أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف ، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه ، حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله . فهذه درجة الصديقين فى الفهم والوجد فهى أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهى ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله ؛ أعنى أنه ينساها فلايبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدى والسكاكين . فيسمع لله وبالله وفى الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق فيه منه شىء أصلا ، بل خمدت بالكلية بشريته وفنى التفاته إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعنى بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذى هو من أمر الله عزوجل ـ عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ـ ولذلك السر وجود . وصورة ذلك الوجود مايحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لاوجود إلا للحاضر . ومثاله المرآة المجلوة إذ ليس لها لون فى نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها . وليس لها فى نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ، ويعرب عن هذه الحقيقة ـ أعنى سر القلب بالإضافة إلى مايحضر فيه ـ قول الشاعر :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى فى دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهى غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذ ظهر فيها لون الحمرة مقابلها وإذا كان هذا لاغير لائق

بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض ؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات فى فهم المسموعات .

المقام الثانى : بعدالفهم والتنزيل ؛ الوجد : وللناس كلام طويل فى حقيقة الوجد - أعنى الصوفية والحكماء الناظرين فى وجه مناسبة السماع للأرواح - فلننقل من أقوالهم ألفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفية فقد قال ذو النون المصرى رحمه الله فى السماع : إنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق . فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذى يجده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق . وقال أبو الحسين الدراج مخبرا عما وجده فى السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال : جال بى السماع فى ميادين البهاء فأوجدنى وجود الحق عند العطاء فسقانى بكأس الصفاء فأدركت به منازل الرضاء وأخرجنى إلى رياض التنزه والفضاء . وقال الشبلى رحمه الله : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ؛ فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ويدرك برقة الطبع لرقته وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله . وقال عمرو بن عثمان المكى : لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنه سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق . وقال أبو سعيد بن الأعرابى : الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود ، وهو فناؤك من حيث أنت ، وقال أيضا : الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلما ذاقوه وسطع فى قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب . وقال أيضا : الذى يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفا ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجاة فى محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا ؛ فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده . وقال أيضا : الوجد ما يكون عند ذكر مزعج أو خوف مقلق أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجاة بسر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعى فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدئ بالنعم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس فى الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : فى القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر . وقال بعضهم : نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأى واستجلاب العازب من الأفكار وحدة الكال من الأفهام والآراء حتى يثوب ما عزب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح فى كل رأى ونية ، فيصيب ولا يخطئ ويأتى ولا يبطئ . وقال آخر : كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحانى . وقال بعضهم وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات فقال : ذلك عشق عقلى والعاشق العقلى لا يحتاج إلى أن يناغى معشوقه بالمنطق الجرمى بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة ، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية ، وأما العاشق البهيمى فإنه يستعمل المنطق الجرمى ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه

الرائف . وقال آخر : من حزن فليسمع الألحان . فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفائه ونقائه من الغش والدنس .

والأقاويل المقررة فى السماع والوجد كثيرة ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشتغل بتفهيم المعنى الذى الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لاتخلو عن قسمين : فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هى من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم بل هى كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض ، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها ؛ فإن ضعف بحيث لم يؤثر فى تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا ، وإن ظهر على الظاهر سمى وجدا إما ضعيفا وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه ؛ فقد يقوى الوجد فى الباطن ولايتغير الظاهر لقوة صاحبه ؛ وقد لايظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك . وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابى حيث قال فى الوجد : إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ، ولايبعد أن يكون السماع سببا لكشف مالم يكن مكشوفا قبله ، فإن الكشف يحصل بأسباب : منها التنبيه والسماع منبه ، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود ، ومنها صفاء القلب والسماع يؤثر فى تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف ، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته ، كما يقوى البعير على حمل ما كان لايقوى عليه قبله . وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت ، كما أن عمل البعير حمل الأثقال فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف ، بل القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق فى صورة مشاهدة أو فى لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان فى اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان فى المنام ، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادى أنه قال : خرجت ليلة فى أيام جهالتى وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم مامررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفى جهنم ماء ماتجرعه خلق فأبقى له فى الجوف أمعاء

قال : فكان ذلك سبب توبتى واشتغالى بالعلم والعبادة . فانظر كيف أثر الغناء فى تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق فى صفة جهنم فى لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر ؟ .

وروى عن مسلم العباداني أنه قال ؟ قدم علينا صالح المرى وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسوارى فنزلوا على الساحل ، قال : فهيأت لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاءوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبكى القوم ، فرفعت الطعام وماذاقوا والله منه لقمة .

وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة . وفى مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكى صورتها بعض المحاكاة . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين فى صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق [١] وهو المراد بقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ إلى آخر هذه الآيات . وفى مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب ، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفرس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله [٢] » ، وقد حكى أن رجلا من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول مامعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن » فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية . فسأله ، فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك . فقال : صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال : الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق . وكما حكى عن إبراهيم الخواص قال : كنت ببغداد فى جماعة من الفقراء فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابى : يقع لى أنه يهودى ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال : أى شىء قال الشيخ فى ؟ فاحتشموه فألح عليهم فقالوا له : قال إنك يهودى ، قال : فجاءنى وأكب على يدى وقبل رأسى وأسلم ، وقال : نجد فى كتبنا أن الصديق لا تخطئ فراسته فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت : إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة ؛ لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقرءون كلامه ؛ فلبست عليكم فلما اطلع على الشيخ وتفرس فى علمت أنه صديق قال ، وصار الشاب من كبار الصوفية .

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء [٣] » ، وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فإنها مرعى الشيطان وجنده . ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاه لم يطف الشيطان حول قلبه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء .

وعلى هذا يدل ماروى أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال ؛ فاستأذنوه فى أن يقول لهم شيئا . فأذن لهم فى ذلك فأنشأ يقول :

صغير هواك عذبنى ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت فى قلبى ... هوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب ... إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون : الذى يراك حين تقوم . فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذى النون على قلبه . أنه متكلف متواجد ، فعرفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم فى قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقا لما جلس . فإذاً قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى مايمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى مالا يمكن العبارة عنه أصلا، ولعلك تستبعد حالة أو علما لاتعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد فى أحوالك القريبة لذلك شواهد.

---

(١) حديث : رأى جبريل عليه السلام مرتين فى صورته فأخبر أنه سد الأفق . متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) حديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حديث غريب .
(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم فى الصوم .

أما العلم فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان فى الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا فى الحكم ؟ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس ، فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه ، وإدراكه الفرق علم يصادفه فى قلبه بالذوق ولا يشك فى أن لوقوعه فى قلبه سببا وله عند الله تعالى حقيقة ؛ ولا يمكنه الإخبار عنه لا لقصور فى لسانه بل لدقة المعنى فى نفسه عن أن تناله العبارة . وهذا مما قد تفطن له المواظبون على النظر فى المشكلات .

وأما الحال فكم من إنسان يدرك فى قلبه فى الوقت الذى يصبح فيه قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر إنسان فى شىء فيؤثر فى نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر فى نفسه وهو يحس به ، وقد تكون الحالة التى يحسها سرورا ثبت فى نفسه بتفكره فى سبب موجب للسرور ، أو حزنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه . وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود ، بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض ، وهى حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها ـ أعنى التفرقة بين الموزون والمزحف ـ فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له . وفى النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعانى المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل فى السماع عن غناء مفهوم ، وأما الأوتار وسائر النغمات التى ليست مفهومة فإنها تؤثر فى النفس تأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار ، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب ، والذى اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ليس يدرى إلى ماذا يشتاق ؟ ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدرى ما هو ؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لا حب آدمى ولا حب الله تعالى . وهذا له سر وهو أن كل شوق فله ركنان :

أحدهما : صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه .

والثانى : معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه ، فإن وجدت الصفة التى بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهرا ، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة

ولو نشأ آدمى وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه بنار الشهوة ولكن لا يدرى أنه يشتاق إلى الوقاع لأنه ليس يدرى صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء : فكذلك فى نفسه الآدمى مناسبة مع العالم الأعلى واللذات التى وعد بها فى سدرة المنتهى والفراديس العلا ؛ إلا أنه لم يتخيل من هذا الأمور إلا الصفات والأسماء ، كالذى سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه فى المرآة ليعرف بالمقايسة ، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذى إليه حنينه واشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرا ليس يدرى ما هو ؟ فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالمختنق الذى لا يعرف طريق الخلاص فهذا ، وأمثاله من الأحوال التى لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعبر عنها . فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره .

واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد ، وهذا التواجد المتكلف فنه مذموم

وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ماهو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن [١] فإن هذه الأحوال قد تتكلف مباديها ثم تتحقق أواخرها . وكيف لا يكون التكلف سببا فى أن يصير المتكلف فى الآخرة طبعا ، وكل من يتعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفا ، ويقرؤه تكلفا مع تمام التأمل وإحضار الذهن ؛ ثم يصير ذلك ديدنا للسان مطردا حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل ؛ فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته ؟ وكذلك الكاتب يكتب فى الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يده فيصير الكتب له طبعا فيكتب أوراقا كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر ؟ فجميع ماتحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولا ثم يصير بالعادة طبعا ، وهو المراد بقول بعضهم : العادة طبيعة خامسة . فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغى أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره ،

فلقد شوهد فى العادات من اشتهى أن يعشق شخصا ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا خرج عن حد اختياره ، فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص . فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة ؛ إذا فقدها الانسان فينبغى أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم فى النفس وبالجلوس معهم فى السماع وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحلة بأن ييسر له أسبابها .

ومن اسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشتاقين والخاشعين . فمن جالس شخصا سرت إليه صفاته من حيث لا يدرى . ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب من يقربنى إلى حبك [٢] » فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء فى طلب الحب . فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى مالا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع .

• فإن قلت : فما بال هؤلاء لايظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء ؟ فلو كان ذلك حقا من لطف الله تعالى ولم يكن باطلا من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء ؟ فنقول : الوجد الحق هو ماينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضا . وإنما الذى لايهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق . ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وكل مايوجد عقيب السماع فى النفس فهو وجد . فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد . وقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات . ولكن قد يصير سببا للمكاشفات والتنبيهات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم [٣] »

---

(١) حديث : البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فتباكوا . تقدم فى تلاوة القرآن فى الباب الثانى . (٢) حديث « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك ... الحديث » تقدم فى الدعوات . (٣) حديث « زينوا القرآن بأصواتكم » تقدم فى تلاوة القرآن

وقال لأبى موسى الأشعرى « لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود عليه السلام [1] » .

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم « شيبتنى هود وأخواتها [2] » خبر عن الوجد ، فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد . وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال «حسبك» وكانت عيناه تذرفان بالدموع [3] . وفى رواية أنه عليه السلام قرأ هذه الآية أو قرئ عنده ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق [4] وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى [5] وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر [6] والاستبشار وجد . وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل [7] .

وأما مانقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين فكثير : فمنهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات فى غشيته . وروى أن زرارة بن أوفى - وكان من التابعين - كان يؤم الناس بالرقة فقرأ ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ فصعق ومات فى محرابه رحمه الله . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ فصاح صيحة وخر مغشيا عليه فحمل إلى بيته ، فلم يزل مريضا فى بيته شهرا . وأبو جرير - من التابعين - قرأ عليه صالح المرى فشهق ومات . وسمع الشافعى رحمه الله قارئا يقرأ ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فغشى عليه . وسمع على بن الفضيل قارئا يقرأ ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ فسقط مغشيا عليه ، فقال الفضيل : شكر الله لك ماقد علمه منك . وكذلك نقل عن جماعة منهم .

وكذلك الصوفية : فقد كان الشبلى فى مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائصه ، وكان يقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد : دخلت على سرى السقطى فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لى : هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه ، فقلت : اقرءوا عليه تلك الآية بعينها فقرئت فأفاق ، فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق فبمخلوق أبصر ، ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق ، فاستحسن ذلك . ويشير إلى ماقاله الجنيد قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فجعلت أرددها فإذا هاتف يهتف بى :

---

(١) حديث « لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود » قاله لأبى موسى تقدم فيه . (٢) حديث « شيبتنى هود وأخواتها » أخرجه الترمذى من حديث أبى جحيفة وله والحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذى حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى (٣) حديث : إن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى الى قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال « حسبك » الحديث . متفق عليه من حديثه . (٤) حديث : أنه قرئ عنده (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) فصعق رواه ابن عدى . فى الكامل والبيهقى فى الشعب من طريقه من حديث أبى حرب بن أبى الأسود مرسلا .
(٥) حديث : أنه قرأ (إن تعذبهم فإنهم عبادك) فبكى . أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو . (٦) حديث : كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر . تقدم فى تلاوة القرآن دون قوله : واستبشر . (٧) حديث : أنه كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل . أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى فى الشمائل من حديث عبد الله بن الشخير وقد تقدم .

كم تردد هذه الآية ؟ فقد قتلت أربعة من الجن مارفعوا رءوسهم إلى السماء منذ خلقوا . وقال أبو على المغازلى للشبلى : ربما تطرق سمعى آية من كتاب الله تعالى فتجذبنى إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالى وإلى الناس فلا أبقى على ذلك ، فقال : ماطرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه فذلك عطف منه عليك ولطف منه بك ، وإذا ردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك فإنه لايصلح لك إلا التبرى من الحول والقوة فى التوجه إليه . وسمع رجل من أهل التصوف قارئا يقرأ ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ فاستعادها من القارئ وقال : كم أقول لها ارجعى وليست ترجع ؟ وتواجد وزعق زعقة فخرجت روحه . وسمع بكر بن معاذ قارئا يقرأ ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية فاضطرب ثم صاح : ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ، ثم غشى عليه . وكان إبراهيم ابن أدهم رحمه الله إذا سمع أحدا يقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد . وعن محمد بن صبيح قال : كان رجل يغتسل فى الفرات فمر به رجل على الشاطئ يقرأ ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات . وذكر أن سلمان الفارسى أبصر شابا يقرأ فأتى على آية فاقشعر جلده فأحبه سلمان وفقده ، فسأل عنه فقيل له : إنه مريض ، فأتاه يعوده فإذا هو فى الموت ، فقال : ياعبدالله ! أرأيت تلك القشعريرة التى كانت بى ؟ فإنها أتتنى فى أحسن صورة فأخبرتنى أن الله قد غفر لى بها كل ذنب .

وبالجملة لايخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلا ف ﴿ مثله كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها . قال جعفر الخلدى : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال للجنيد : متى يستوى عند العبد حامده وذامه ؟ فقال بعض الشيوخ : إذا دخل البيمارستان وقيد بقيدين ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ؟ ثم أقبل على الرجل وقال : إذا تحقق أنه مخلوق فشهق الرجل شهقة ومات ،

* فإن قلت : فإن كان سماع القرآن مفيدا للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين ؟ فكان ينبغى أن يكون اجتماعهم وتواجدهم فى حلق القراء لاحلق المغنين ؟ وكان ينبغى أن يطلب عند كل اجتماع فى كل دعوة قارئ لاقوال ؟ فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لامحالة فاعلم أن الغناء أشد تهييجا للوجد من القرآن من سبعة أوجه :

الوجه الأول : أن جميع آيات القرآن لاتناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له ، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) ؟ وكذلك جميع الآيات التى فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها ؟ وإنما المحرك لما فى القلب ما يناسبه . والأبيات إنما يضعها الشعراء إعرابا بها عن أحوال القلب فلا يحتاج فى فهم الحال منها إلى تكلف . نعم من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعا لغيرها ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعانى البعيدة من الألفاظ ، فقد يخرج وجده على كل مسموع كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم) حالة الموت المحوج إلى الوصية وأن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا ، فيترك أحد المحبوبين للثانى ويهجرهما جميعا فيغلب عليه الخوف والجزع أو يسمع ذكر الله فى قوله (يوصيكم الله فى أولادكم) فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده ، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه نظرا لهم فى حياتهم وموتهم فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظرلنا فيهيج

منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشارا وسرورا ، أو يخطر له من قوله تعالى ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ تفضيل الذكر بكونه رجلا على الأنثى وأن الفضل فى الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقا ، فيخشى أن يحجب أو يؤخر فى نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى فى أموال الدنيا . فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان (أحدهما) حالة غالبة مستغرقة قاهرة (والآخر) تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعانى البعيدة وذلك مما يعز ، فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذى هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها . وروى أن أبا الحسين النورى كان مع جماعة فى دعوى فجرى بينهم مسألة فى العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم :

رب ورقاء هتوف فى الضحى ... ذات شجو صدحت فى فنن

ذكرت إلفا ودهرا صالحا ... وبكت حزنا فهاجت حزنى

فبكائى ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقنى

ولقد أشكو فما أفهمها ... ولقد تشكو فما تفهمنى

غير أنى بالجوى أعرفها ... وهى أيضا بالجوى تعرفنى

قال فما بقى أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذى خاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا .

الوجه الثانى : أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الأسماع والقلوب ، وكلما سمع أولا عظم أثره فى القلوب ، وفى الكرة الثانية يضعف أثره ، وفى الثالثة يكاد يسقط أثره . ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام فى مرات متقاربة فى الزمان ، فى يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك . ولو أبدل ببيت آخر لتجدد له أثر فى قلبه وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى . ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأولى يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا . وليس يقدر القارئ على أن يقرأ قرآنا غريبا فى كل وقت ودعوة فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضى الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون فقال : كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا . ولا تظنن أن قلب الصديق رضى الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه ، إذ محال فى العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكى ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ، ثم يرددها ويبكى ، ولا يفارق الأول الآخر إلا فى كونه غريبا جديدا ؟ ولكل جديد لذة ولكل طارئ صدمة ، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة . ولذا هم عمر رضى الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال : قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أى يأنسوا به . ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا بكى وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره ، وقد يقيم بمكة شهرا ولا يحس من ذلك فى نفسه بأثر ، فإذاً المغنى يقدر على الأبيات الغريبة فى كل وقت ولا يقدر فى كل وقت على آية غريبة .

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا فى النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن فى الشعر دون الآيات ، ولو زحف المغنى البيت الذى ينشده أو لحن فيه

أو مال عن حد تلك الطريقة فى اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل جده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة . وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش ، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر .

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره فى النفس بالألحان التى تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر المدود والوقف فى أثناء الكلمات والقطع والوصل فى بعضها . وهذا التصرف جائز فى الشعر ولا يجوز فى القرآن الا التلاوة كما أنزل ، فقصره ومده والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ماتقضيه التلاوة حرام أو مكروه . وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذى سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوما ، كما فى الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التى لاتفهم .

الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لايستثار إلا بسبب قوى ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ فى التأثير ، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب ، والقرآن جد كله عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو ، بل ينبغى أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل فى مجلس ساكن ، ولافى حال الجنابة . ولا على غير طهارة ولايقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن فى كل حال إلا المراقبون لأحوالهم ، فيعدل إلى الغناء الذى لايستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لايجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الدف فى العرس فقال « أظهروا النكاح ولو بضرب الغربال [١] » أو بلفظ هذا معناه ، وذلك جائز مع الشعر دون القرآن . ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار فسمع إحداهن تقول : وفينا نبى يعلم مافى غد . على وجه الغناء ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعى هذا وقولى ما كنت تقولين [٢] » وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها وردها إلى الغناء الذى هو لهو ، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو . فإذاً يتعذر بسببه تقوية الأسباب التى بها يصير السماع محركا للقلب فواجب فى الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء .

الوجه السادس . أن المغنى قد يغنى ببيت لايوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعى غيره فليس كل كلام موافقا لكل حال . فلو اجتمعوا فى الدعوات على القارئ فربما يقرأ آية لاتوافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ، فآيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن . وتفصيل ذلك مما يطول . فإذاً لايؤمن أن لايوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لايجد سبيلا إلى دفعه . فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لايجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ولايجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ماأراد الله تعالى . وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، وهذا ماينقدح فى علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن .

وههنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسى فى الاعتذار عن ذلك فقال : القرآن كلام الله وصفة من

---

(١) حديث : الأمر بضرب الدف فى العرس . تقدم فى النكاح . (٢) حديث : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين .. الحديث . أخرجه البخارى من حديثها وقد تقدم فى النكاح .

صفاته وهو حق لاتطيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة . ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت . والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبته نسبة الحظوظ . فإذا علقت الألحان والأصوات بما فى الأبيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضا كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق . فما دامت البشرية باقية ونحن بصفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذى هو صفته وكلامه الذى منه بدأ وإليه يعود . وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره . وقد حكى عن أبى الحسن الدرّاج أنه قال قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت الرى كنت أسأل عنه فكل من سألته عنه قال . أيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف . ثم قلت فى نفسى : قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه . فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه فى مسجد وهو قاعد فى المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ ، فإذا هو شيخ بهى حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه فأقبل على وقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من بغداد ، فقال : وما الذى جاء بك ؟ فقلت : قصدتك للسلام عليك ، فقال : لو أن فى بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشترى لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجىء ؟ فقلت : ما امتحننى الله بشىء من ذلك ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون ؟ ثم قال لى : أتحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت : نعم ، فقال : هات ! فأنشأت أقول :

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ماتبنى
كأنى بكم والليت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغنى

قال : فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه ، حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال : يابنى تلوم أهل الرى يقولون يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ فى المصحف لم تقطر من عينى قطرة ، وقد قامت القيامة على لهذين البيتين . فإذاً القلوب وإن كانت محترقة فى حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها مالا تهيج تلاوة القرآن ، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ، ولكونه مشاكلا للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه وهو لذلك معجز لايدخل فى قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعه . وروى أن إسرافيل - أستاذ ذى النون المصرى - دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت فى الأرض بأصبعه ويترنم ببيت فقال : هل تحسن أن تترنم بشىء ؟ فقال : لا ، قال : فأنت بلاقلب - إشارة إلى أن من له قلب وعرف طباعه علم أنه تحركه الأبيات والنغمات تحريكا لايصادف فى غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره - وقد ذكرنا حكم المقام الأول فى فهم المسموع وتنزيله ، وحكم المقام الثانى فى الوجد الذى يصادف فى القلب ، فلنذكر الآن أثر الوجد أعنى مايترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا وما يحمد من آثار الوجد وما يذم . فأما الآداب فهى خمس جمل :

الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان . قال الجنيد : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لافائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب له . وأما المكان : فقد يكون

شارعا مطروقا أوموضعا كريه الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك . وأما الإخوان : فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهد الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلا فى المجلس واشتغل القلب به . وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته ، أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات . فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى ففى هذه الشروط نظر للمستمع .

الأدب الثانى : هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر والمريد الذى يستضر بالسماع أحد ثلاثة :

أقلهم درجة . هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه .

الثانى : هو الذى له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكسارا تؤمن غوائله ، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال .

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته ومايجوز عليه ومايستحيل ؛ فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع فى حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر التى هى كفر أعظم من نفع السماع .

قال سهل رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه . فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه . قال الجنيد : رأيت إبليس فى النوم فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشىء ؟ قال : نعم فى وقتين ، وقت السماع ووقت النظر فإنى أدخل عليهم به. فقال بعض الشيوخ : لو رأيته أنا لقلت له ما أحمقك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به ؟ فقال الجنيد : صدقت .

الأدب الثالث : أن يكون مصغيا إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين ومايظهر عليهم من أحوال الوجد . مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة مايفتح الله تعالى له من رحمته فى سره ، متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الأطراف متحفظا عن التنحنح والتثاؤب ، ويجلس مطرقا رأسه ، كجلوسه فى فكر مستغرق لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة ، ساكتا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بد فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم . ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه . ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسى القلب عديم الصفاء والرقة .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعق فقال له الجنيد يوما : إن فعلت ذلك مرة

أخرى لم تصحبنى فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزعق ، فحكى أنه اختنق يوما لشدة ضبطه لنفسه فشهق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه . وروى أن موسى عليه السلام قص فى بنى إسرائيل فزق واحد منهم ثوبه أو قميصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له : مزق لى قلبك ولا تمزق ثوبك . قال أبو القاسم النصراباذى لأبى عمرو بن عبيد أنا أقول : إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خيرا لهم من أن يغتابوا ؛ فقال أبو عمرو : الرياء فى السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك .

• فإن قلت : الأفضل هو الذى لا يحركه السماع ولا يؤثر فى ظاهره أو الذى يظهر عليه ؟ فاعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، وتارة يكون مع قوة الوجد فى الباطن لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال ، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا فى الأحوال كلها فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال . فإن صاحب الوجد فى غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو فى وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود ؛ فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضى الله عنه : كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا ، معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد فى كل الأحوال فنحن فى سماع معانى القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا فى حقنا طارئا علينا حتى نتأثر به . فإذاً قوة الوجد تحرك وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر - وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدة قوته وإما لضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظنن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجدا من الساكن باضطرابه ، بل رب ساكن أتم وجدا من المضطرب . فقد كان الجنيد يتحرك فى السماع فى بدايته ثم صار لا يتحرك فقيل له فى ذلك فقال ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾ إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل فى الملكوت والجوارح متأدبة فى الظاهر ساكنة . وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة : صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة فما رأيته تغير عند شىء كان يسمعه من الذكر أو القرآن ، فلما كان فى آخر عمره قرأ رجل بين يديه ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ الآية فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال : نعم ياحبيبى قد ضعفنا . وكذلك سمع مرة قوله تعالى ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ فاضطرب فسأله ابن سالم - وكان من أصحابه - فقال : قد ضعفت . فقيل له : فإن كان هذا من ضعف فما قوة الحال فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية . وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود . كما حكى عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حالتى قبل الصلاة وبعدها واحدة ، لأنه كان مراعيا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى فى كل حال . فكذلك يكون قبل السماع وبعده ، إذ يكون وجده دائما ، وعطشه متصلا ، وشربه مستمرا ، بحيث لا يؤثر السماع فى زيادته . كما روى أن ممشاد الدينورى أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض ما بى . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم . وفضل العلم أتم من فضل الوجد .

فإن قلت : فمثل هذا لم يحضر السماع ؟ فاعلم أن من هؤلاء من ترك السماع فى كبره وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان وإدخالا للسرور على قلبه ؛ وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ؛ فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدروا على الاقتداء به فى صيرورته طبعا

لهم . وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم . كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم . وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه . وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحانى فى السماع ولا كان من أهل اللهو ، فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه . وبعضهم تركه لفقد الإخوان . قيل لبعضهم لم لا تسمع ؟ فقال : ممن ومع من ؟

الأدب الرابع : أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أوتباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة ؛ لأن التباكى استجلاب للحزن ، والرقص سبب فى تحريك السرور والنشاط . فكل سرور مباح فيجوز تحريكه . ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضى الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون (١) هذا لفظ عائشة رضى الله عنها فى بعض الروايات . وقد روى عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ؛ وذلك فى قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على بن أبى طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضى الله عنهم فتشاحوا فى تربيتها فقال صلى الله عليه وسلم لعلى « أنت منى وأنا منك » فحجل على وقال لجعفر « أشبهت خلقى وخلقى » فحجل وراء حجل على وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام « هى لجعفر لأن خالتها تحته والخالة والدة (٢) » وفى رواية أنه قال لعائشة رضى الله عنها « أتحبين أن تنظرى إلى زفن الحبشة » والزفن والحجل هو الرقص . وذلك يكون لفرح أو شوق فحكمه حكم مهيجه ، إن كان فرحه محمودا والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم . نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة لأنه فى الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو فى أعين الناس فينبغى أن يجتنبه المقتدى به لئلا يصغر فى أعين الناس فيترك الاقتداء به .

وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدرى لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدرى ولكن يكون كالمضطر الذى لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكره إذ يكون له فى الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختيارى ، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لاضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس . فكذلك الزعقة وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم . فقد ذكر عند السرى حديث الوجد الحاد الغالب فقال: نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدرى . فروجع فيه واستبعد أن ينتهى إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع . ومعناه: أنه فى بعض الأحوال قد ينتهى إلى هذا الحد فى بعض الأشخاص .

* فإن قلت : فما تقول فى تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فإنهم يمزقونها قطعا صغارا ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقة ؟ فاعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات . فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعا لأنه تمزيق لغرض . وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود ، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح . ولكل

---

(١) حديث : نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون . تقدم فى الباب قبله .

(٢) حديث : اختصم على وجعفر وزيد بن حارثة فى ابنة حمزة فقال لعلى « أنت منى وأنا منك » فحجل وقال لجعفر « أشبهت خلقى وخلقى » فحجل وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل ... الحديث أخرجه أبو داود من حديث على باسناد حسن وهو عند البخارى دون « فحجل » .

مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع . وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار .

الأدب الخامس : موافقه القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة فلابد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته . أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق ؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحبة والعشرة ، إذا المخالفة موحشة ولكل قوم رسم ، ولابد من مخالقة الناس بأخلاقهم [1] كما ورد في الخبر ، لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إنّ ذلك بدعة لم يكن في الصحابة ؟ فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم ، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا .

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال [2] كما رواه أنس رضي الله عنه . ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نرى به بأسا في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطييب القلب به . وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطييب القلب واصطلح عليها جماعة فلابأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهي لا يقبل التأويل ، ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه ، ولا يشوش عليهم أحوالهم إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح ، والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه أثر التكلف . ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محك للصدق والتكلف .

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال : صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد .

فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين فلا يراه ذوجد في الدين إلا وينكره ؟

فاعلم أنّ الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأى الحبشة يزفنون في المسجد وما أنكره لما كان في وقت لائق به وهو العيد ، ومن شخص لائق به وهم الحبشة . نعم نفرة الطباع عنه ، لأنه يرى غالبا مقرونا باللهو واللعب ، واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزنوج والحبشة ومن أشبههم . وهو مكروه لذوي المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم ، فمن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة ، ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ، ومكتوبا في تواريخ الأخبار من جملة مساويه ويعير به أعقابه وأشياعه ، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خبزا للفقير حسن ، ومن حيث أنه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح ، فكذلك الراقص وما يجرى مجراه من المباحات ، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار

---

(١) حديث : مخالقة الناس بأخلاقهم . أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر « خالقوا الناس بأخلاقهم ... الحديث » قال صحيح على شرط الشيخين . (٢) حديث : كانوا لايقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال . كما رواه أنس تقدم في آداب الصحبة .

سيئات المقربين ، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب . وأما إذا نظر إليه فى نفسه وجب الحكم بأنه هو فى نفسه لاتحريم فيه والله أعلم ، فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها ، وقد يكون مستحبا .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله .

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وهو الكتاب التاسع : من ربع العادات الثانى من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لاتستفتح الكتب إلا بحمده ، ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفده ، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده ، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده .

أما بعد : فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذى خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الداثرة ناهضا بأعبائها ومتشمرا فى إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ، وها نحن نشرح علمه فى أربعة أبواب . (الباب الأول) فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفضيلته ، (الباب الثانى) فى أركانه وشروطه ، (الباب الثالث) فى مجاريه وبيان المنكرات المألوفة فى العادات (الباب الرابع) فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

الباب الأول : فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وفضيلته والمذمة فى إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه : الآيات والأخبار والآثار

أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم

المفلحون ﴾ ففى الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ ولتكن ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لافرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ فإذاً مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لامحالة وقال تعالى ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقال تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ﴾ فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذى هجر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية ، وقال تعالى ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهذا غاية التشديد إذ علق استحقاقهم للعنة بتركهم النهى عن المنكر ، وقال عز وجل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى ﴿ فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهى عن السوء ويدل ذلك على الوجوب أيضا ، وقال تعالى ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقرن ذلك بالصلاة والزكاة فى نعت الصالحين والمؤمنين وقال تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان وقال تعالى ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ فبين أنهم أثموا بترك النهى وقال تعالى ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ﴾ الآية فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين وقال تعالى ﴿ لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ الآية والإصلاح نهى عن البغى وإعادة إلى الطاعة فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ وذلك هو النهى عن المنكر

وأما الأخبار : فمنها ماروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال فى خطبة خطبها : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم [1] لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنى

كتاب الأمر بالمعروف

الباب الأول : فى وجوب الأمر بالمعروف

(١) حديث أبى بكر : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ .. الحديث . أخرجه أصحاب السنن وتقدم فى العزلة .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » وروى عن أبى ثعلبة الخشنى : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لايضركم من ضل إذا اهتديتم [١] ﴾ فقال « ياأبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام إن من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذى أنتم عليه أجر خمسين منكم » قيل : بل منهم يارسول الله . قال : « لابل منكم لأنكم تجدون على الخير أعوانا ولايجدون عليه أعوانا » وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال : إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة ، ولكن قد أوشك أن يأتى زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم [٢] » معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم . وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم « ياأيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله إلا كنفثة فى بحر لجى ، وما جميع أعمال البر والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة فى بحر لجى [٤] » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال رب وثقت بك وفرقت من الناس [٥] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا مالنا بد إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال « فاذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقها » قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمرا بمعروف أونهيا عن منكر أو ذكراً لله تعالى [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لايعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلاينكرونه [٨] » وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ » قالوا : وإن ذلك لكائن يارسول الله قال « نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون » قالوا : وما أشد

---

(١) حديث أبى ثعلبة : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (لايضركم من ضل اذا اهتديتم) ... الحديث . أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه .

(٢) حديث « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلايستجاب لهم » أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف وللترمذى من حديث حذيفة نحوه الا أنه قال « أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » قال هذا حديث حسن . (٣) حديث « ياأيها الناس ان الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » أخرجه أحمد والبيهقى من حديث عائشة بلفظ « مروا وانهوا » وهو عند ابن ماجه دون عزوه الى كلام الله تعالى وفى اسناده لين . (٤) حديث : « ماأعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله الا كنفثة فى بحر لجى » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر باسناد ضعيف ، وأما الشطر الأخير فرواه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلا أو معضلا ، ولا أدرى من يحيى بن عطاء ؟ (٥) حديث « ان الله تعالى ليسأل العبد مامنعك اذ رأيت المنكر أن تنكره .. الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم . (٦) حديث « اياكم والجلوس على الطرقات ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد

(٧) حديث « كل كلام ابن آدم عليه لا له الا أمراً بمعروف ... الحديث » تقدم فى العلم .

(٨) حديث « ان الله لايعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عدى بن عميرة وفيه من يسم والطبرانى من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه .

منه يارسول الله ؟ « كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ » قالوا : وكائن ذلك يارسول الله ؟ قال « نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون » قالوا : وماأشد منه ؟ كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ؟ » قالوا : وكائن ذلك يارسول الله ؟ قال « نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون » قالوا : وما أشد منه ؟ قال « كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكائن ذلك يارسول الله ؟ قال « نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ؟ يقول الله تعالى بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران[1] » وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه[2] » قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاينبغى لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له[3] » وهذا الحديث يدل على أنه لايجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور المواضع التى يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال « اللعنة تنزل على من حضر » ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بأنه عاجز . ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات فى الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير ، وهذا يقتضى لزوم الهجر للخلق . ولهذا قال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله : ما ساح السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس ، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم ، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعتريهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلمون منه ؛ فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاوره هؤلاء فى نعيمهم ثم قرأ ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾ قال : ففر قوم فلولا ماجعل الله جل ثناؤه فى النبوة من السر لقلنا ماهم بأفضل من هؤلاء « فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصافحهم ، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ، ويسألها أين أمرت فتخبره ؟ وليس بنبي . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها[4] » ومعنى الحديث أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك بين يديه . فأما الحضور قصدا فممنوع بدليل الحديث الأول . وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم فإذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون رءوس المنابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك إسلام[5] » .

---

(١) حديث أبى أمامة : كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك كائن يارسول الله قال « نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون » قالوا وما أشد منه ؟ قال « كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله « كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف » ورواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة مقتصرا على الأسئلة الثلاثة الأول وأجوبتها دون الأخيرين وإسناده ضعيف

(٢) حديث عكرمة عن ابن عباس « لاتقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » أخرجه الطبرانى بسند ضعيف والبيهقى فى شعب الإيمان بسند حسن . (٣) حديث « لاينبغى لامرئ شهد مقاما فيه حق الا تكلم به فانه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذى قبله وروى الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد « لايمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .

(٤) حديث أبى هريرة « من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها ومن غاب عنهافأحبها فكأنه حضرها » رواه ابن عدى وفيه يحيى بن أبى سلمان قال البخارى منكر الحديث . (٥) حديث ابن مسعود « مابعث الله عزوجل نبيا الاوله حوارى ... الحديث » روى مسلم نحوه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كان أهل قرية يعملون بالمعاصى وكان فيهم أربعة نفر ينكرون مايعملون ، فقام أحدهم فقال : إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح مايصنعون فجعلوا يردون عليه ولا يرعوون عن أعمالهم فسبهم فسبوه وقاتلهم فغلبوه فاعتزل ثم قال اللهم إنى قد نهيتهم فلم يطيعونى وسببتهم فسبونى وقاتلتهم فغلبونى ثم ذهب ثم قام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه فسبهم فسبوه فاعتزل ثم قال اللهم إنى قد نهيتهم فلم يطيعونى وسببتهم فسبونى ولو قاتلتهم لغلبونى . ثم ذهب ثم قام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال اللهم إنى قد نهيتهم فلم يطيعونى ولو سببتهم لسبونى ولو قاتلتهم لغلبونى . ثم ذهب ثم قام الرابع فقال اللهم إنى لو نهيتهم لعصونى ولو سببتهم لسبونى ولو قاتلتهم لغلبونى ثم ذهب قال ابن مسعود رضى الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قيل يارسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل بم يارسول الله قال « بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله تعالى (١) » وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمعر فىَّ ساعة قط (٢) » وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء قالوا يارسول الله كيف قال لم يكونوا يغضبون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر (٣) » وعن عروة عن أبيه قال قال موسى صلى الله عليه وسلم يارب أى عبادك أحب إليك قال الذى يتسرع إلى هواى كما يتسرع النسر إلى هواه والذى يكلف بعبادى الصالحين كما يكلف الصبى بالثدى والذى يغضب إذا أتيت محارمى كما يغضب النمر لنفسه فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف وقال أبو ذر الغفارى : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يارسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم ياأبا بكر إن لله تعالى مجاهدين فى الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهى الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال أبو بكر رضى الله عنه : يارسول الله ومن هم ؟ قال « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون فى الله والمبغضون فى الله » ثم قال « والذى نفسى بيده إن العبد منهم ليكون فى الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء للغرفة منها ثلثمائة ألف باب منها الياقوت والزمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليزوج بثلثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له : أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ كلما نظر إلى واحدة منهن ذكرت له مقاما أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر (٤) » وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قلت : يارسول الله أى الشهداء أكرم على الله عز وجل ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لايجرى

---

(١) حديث ابن عباس : قيل يارسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل : بم يارسول الله ؟ قال « بتهاونهم وسكوتهم عن معاصى الله » أخرجه البزار والطبرانى بسند ضعيف . (٢) حديث جابر « أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول مالك بن دينار . (٣) حديث عائشة « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء » لم أقف عليه مرفوعا وروى ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعانى « أوحى الله إلى يوشع بن نون إنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال إنهم لم يغضبوا لغضبى فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم » . (٤) حديث أبى ذر : قال أبو بكر يارسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ قال « نعم ياأبا بكر إن لله تعالى مجاهدين فى الأرض أفضل من الشهداء » فذكر الحديث وفيه فقال « هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .. الحديث » بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر .

عليه بعد ذلك وإن عاش ماعاش [1] » وقال الحسن البصرى رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل شهداء أمتى رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته فى الجنة بين حمزة وجعفر [2] » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لايأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر [3] » .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لايجل كبيركم ولايرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلايغفر لكم . وسئل حذيفة رضى الله عنه عن ميت الأحياء فقال : الذى لاينكر المنكر بيده ولابلسانه ولابقلبه . وقال مالك بن دينار : كان حبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله يعظهم ويذكرهم بأيام الله عزوجل فرأى بعض بنيه يوما وقد غمز بعض النساء فقال : مهلا يابنى مهلا ، وسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه فى الجيش ، فأوحى الله تعالى إلى نبى زمانه : أن أخبر فلانا الحبر أنى لا أخرج من صلبك صديقا أبدا أما كان من غضبك لى إلا أن قلت : مهلا يابنى مهلا . وقال حذيفة : يأتى على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم . وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام إنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال : يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ، قال : إنهم لم يغضبوا لغضبى وواكلوهم وشاربوهم . وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة ، وقال كعب الأحبار لأبى مسلم الخولانى : كيف منزلتك من قومك ؟ قال : حسنة . قال كعب : إن التوراة لتقول غير ذلك ؟ قال : وماتقول ؟ قال : تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه ، فقال : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم . وكان عبدالله بن عمر رضى الله عنهما يأتى العمال ثم قعد عنهم فقيل له : لو أتيتهم فلعلهم يجدون فى أنفسهم ، فقال : أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذى بى غير الذى بى ، وإن سكت رهبت أن آثم . وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لايجرى بمشهد منه . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أول ماتغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بألسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ؛ فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أيما عبد عمل فى شىء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان فهو ممن قد قام لله فى زمانه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية فى حقه وقيل للفضيل : ألا تأمر وتنهى ؟ فقال : إن قوما أمروا ونهوا فكفروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا وقيل للثورى . ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقال إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكره . فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) حديث أبي عبيدة : قلت يارسول الله أى الشهداء أكرم على الله ؟ قال « رجل قام الى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ... الحديث » أخرجه البزار مقتصرا على هذا دون قوله « فان لم يقتله ... الى آخره » وهذه الزيادة منكره وفيه أبو الحسن غير مشهور لايعرف . (٢) حديث الحسن البصرى مرسلا « أفضل شهداء أمتى رجل قام الى امام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته فى الجنة بين حمزة وجعفر » لم أره من حديث الحسن والحاكم فى المستدرك وصحح اسناده من حديث جابر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب « ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله » . (٣) حديث عمر « بئس القوم قوم لايأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لايأمرون بالمعروف ولاينهون عن المنكر » رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار اليه أبو منصور الديلمى بقوله وفى الباب ورواه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا .

المنكر واجب وأن فرضه لايسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به . فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه :

الباب الثانى : فى أركان الأمر بالمعروف وشروطه

أعلم أن الأركان فى الحسبة التى هى عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب . فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه .

الركن الأول : المحتسب

وله شروط ؛ وهو أن يكون مكلفا مسلما قادرا فيخرج منه المجنون والصبى والكافر والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين ، ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة . فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه اطراح ما أطرحناه .

أما الشرط الأول ؛ وهو التكليف : فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر ، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب ، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعى إلا العقل ، حتى إن الصبى المراهق للبلوغ المميز ـ وإن لم يكن مكلفا ـ فله إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهى ؛ وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف . فإن هذه قربة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف ؛ ولذلك اثبتناه للعبد وآحاد الرعية . نعم فى المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته . فإن للصبى أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر .

وأما الشرط الثانى ؛ وهو الإيمان : فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدو له ؟

وأما الشرط الثالث ؛ وهو العدالة : فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب ، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مررت ليلة أسرى بى بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه [1] » وبما روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم : عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى . وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتداء ، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة ، والإصلاح ، زكاة عن نصاب الصلاح ، فمن ليس بصالح فى نفسه فكيف يصلح غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وكل ماذكروه خيالات وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن نقول : هل يشترط فى الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصى كلها ؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع ثم حسم لباب الاحتساب إذ لاعصمة للصحابة فضلا عمن دونهم ، والأنبياء عليهم السلام قد اختلف فى عصمتهم عن الخطايا . والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء . ولهذا قال سعيد بن

الباب الثانى . فى أركان الأمر بالمعروف وشروطه

(١) حديث « مررت ليلة أسرى بى بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار . . الحديث » تقدم فى العلم .

جبير: إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء ؛ لم يأمر أحد بشيء ، فأعجب مالكا ذلك من سعيد بن جبير . وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغائر حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فنقول :

وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر ؟ فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو لا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده . فإن قالوا : نعم ، فنقول : شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، قلنا . فما الفرق بينه وبين لابس الحرير ؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لبس الحرير ؛ فلا فرق . وإن قالوا : نعم ، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عما دونه وإنما يمنع عما فوقه فهذا تحكم فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزانى من الشرب ؟ بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشرب ؟ ويقول يجب على الانتهاء والنهى فمن أين يلزمنى من العصيان بأحدهما أن أعصى الله تعالى بالثانى ؟ وإذا كان النهى واجبا على فمن أين يسقط وجوبه بإقدامى ؟ إذ يستحيل أن يقال يجب النهى عن شرب الخمر عليه مالم يشرب فإذا شرب سقط النهى .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقول القائل الواجب على الوضوء والصلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل وأتسحر وإن لم أصم لأن المستحب لى السحور والصوم جميعا ولكن يقال : أحدهما مرتب على الآخر ، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول . والجواب أن التسحر يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستحبا ، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير ، وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس ، ولا إصلاح النفس لإصلاح الغير فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم .

وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤديا أمر الوضوء وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهى والانتهاء أكثر عقابا ممن نهى ولم ينته ، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه ؟ بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة .

وأما الحسبة فليست شرطا فى الانتهاء والائتمار فلا مشابهة بينهما .

* فإن قيل . فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهى مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها فأخذ الرجل يحتسب فى أثناء الزنا ويقول : أنت مكرهة فى الزنا ومختارة فى كشف الوجه لغير محرم ، وها أنا غير محرم لك فاسترى وجهك ، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشنعه كل طبع سليم ؟ فالجواب أن الحق قد يكون شنيعا وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطباع والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات فإنا نقول : قوله لها فى تلك الحالة ، لا تكشفى وجهك ، واجب أو مباح أو حرام ؟ فإن قلتم : إنه واجب فهو الغرض لأن الكشف معصية والنهى عن المعصية حق . وإن قلتم : إنه مباح ، فإذن له أن يقول ماهو مباح ؟ فما معنى قولكم ليس للفاسق الحسبة ؟ وإن قلتم : إنه حرام ، فنقول ، وكان هذا واجبا فمن أين حرم بإقدامه على الزنا ؟ ومن الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر .

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين :

أحدهما : أنه ترك الأهم واشتغل بما هو مهم . وكما أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى مالا يعنى فتنفر عن ترك الأهم

والاشتغال بالمهم كما تنفر عمن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا ، وكما تنفر عمن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور لأن الشهادة بالزور أفحش وأشد من الغيبة التى هى إخبار عن كائن يصدق فيه المخبر ، وهذا الاستبعاد فى النفوس لايدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب ، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته ، فكذلك ضرره فى الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره ، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر فى الطبع ، من حيث إنه ترك الأكثر لا من حيث إنه أتى بالأقل ، فمن غصب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس نفرت عنه الطباع ويرى مسيئا ، إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكر ، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه ، فكذلك حسبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه وهذا لايدل على أن حسبته من حيث إنها حسبة مستنكرة .

الثانى : أن الحسبة تارة تكون بالنهى بالوعظ وتارة بالقهر ، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أولا ونحن نقول : من علم أن قوله لايقبل فى الحسبة لعلم الناس بفسقه فليس عليه الحسبة بالوعظ ؛ إذ لا فائدة فى وعظه فالفسق يؤثر فى إسقاط فائدة كلامه ، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام ، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر وتمام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا ، وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة إذ يتوجه عليه أن يقال له : فأنت لم تقدم عليه ؟ فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة وذلك لايخرج الفعل عن كونه حقا كما أن يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا . فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لايتعظ ؛ وإذا لم يكن عليه ذلك ، وعلم أنه يفضى إلى تطويل اللسان فى عرضه بالإنكار فنقول : ليس له ذلك أيضا . فرجع الكلام إلى أن أحد نوعى الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه : وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك فلا حرج على الفاسق فى إراقة الخمور وكسر الملاهى وغيرها إذا قدر ، وهذا غاية الإنصاف والكشف فى المسألة وأما الآيات التى استدلوا بها فهو إنكار عليهم من حيث تركهم المعروف لا من حيث أمرهم . ولكن أمرهم دل على قوة علمهم وعقاب العالم أشد لأنه لا عذر له مع قوة علمه وقوله تعالى ﴿ لم تقولون مالا تفعلون ﴾ المراد به الوعد الكاذب وقوله عز وجل ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لا من حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر الغير استدلالا به على علمهم وتأكيدا للحجة عليهم . وقوله « يا ابن مريم عظ نفسك ... الحديث » هو فى الحسبة بالوعظ . وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه . ثم قوله « فاستحى منى » لايدل على تحريم وعظ الغير بل معناه استحى منى فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلا فاستحى .

فإن قيل . فليجز للكافر الذمى أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزنى لأن قوله لا تزن حق فى نفسه فمحال أن يكون حراما عليه ، بل ينبغى أن يكون مباحا أو واجبا . قلنا : الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه فيمنع من حيث إنه تسلط وماجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وأما مجرد قوله « لاتزن » فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهى عن الزنا ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم ، وفيه إذلال للمحتكم عليه ، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لا من الكافر الذى هو أولى بالذل منه . فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله : لاتزن ، من حيث إنه نهى بل نقول إنه إذا لم يقل لاتزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر

بفروع الدين وفيه نظر استوفيناه فى الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن .

الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى ، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ؛ فإن الآيات والأخبار التى أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له . والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لايجوز الأمر بالمعروف مالم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم . وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم ـ إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم فى دمائهم وأموالهم ـ إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدى من ظلمكم نهى عن المنكر وطلبكم لحقكم من جملة المعروف وما هذا زمان النهى عن الظلم وطلب الحقوق لأن الإمام الحق بعد لم يخرج .

* فإن قيل : فى الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقا فينبغى أن لايثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالى وصاحب الأمر ؟ فنقول : أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام ، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ، ومافيه من عز السلطنة والاحتكام لايحوج إلى تفويض كعز التعليم والتعريف ، إذ لاخلاف فى أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله لايحتاج إلى إذن الوالى ، وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذل التجهيل ، وذلك يكفى فيه مجرد الدين وكذلك النهى .

وشرح القول فى هذا أن الحسبة لها خمس مراتب ـ كما سيأتى ـ (أولها) التعريف . (والثانى) الوعظ بالكلام اللطيف (والثالث) السب والتعنيف ، ولست أعنى بالسب الفحش بل أن يقول : ياجاهل ، ياأحمق ألاتخاف الله ، وما يجرى هذا المجرى (والرابع) المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، واختطاف الثوب الحرير من لابسه ، واستلاب الثوب المغصوب منه ، ورده على صاحبه . (والخامس) التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف فإن سلب لسانه غير ممكن ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب . وهذا قد يحوج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويجر ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظرا ـ سيأتى ـ أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام ؟ وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله ومايجرى مجراه فهو كلام صدق ، والصدق مستحق بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر [(1)] كما ورد فى الحديث فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه ؟ وكذلك كسر الملاهى وإراقة الخمور فإنه تعاطى مايعرف كونه حقا من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام . وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر ـ سيأتى ـ واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالى راضيا به فذاك ، وإن كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه فى الإنكار عليه . ويدل على ذلك عادة السلف فى الإنكار على الأئمة .

كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل : إنما الخطبة بعد الصلاة ، فقال له مروان : اترك ذلك يافلان ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ماعليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى

---

(١) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى .

منكم منكراً فلينكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان (١) ، فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنهم ؟ وروى أن المهدى لما قدم مكة لبث بها ماشاء الله فلما أخذ فى الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلببه بردائه ثم هزه وقال له : انظر ماتصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد ، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ من جعل لك هذا ؟ فنظر فى وجهه ـ وكان يعرفه لأنه من مواليهم ـ فقال : أعبدالله ابن مرزوق ؟ قال : نعم ، فأخذ فجىء به إلى بغداد فكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه فى العامة ، فجعله فى اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموا إليه فرسا عضوضا سيئ الخلق ليعقره الفرس فلين الله تعالى له الفرس ، قال : ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه ، وأخذ المهدى المفتاح عنده فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأوذن به المهدى فقال له : من أخرجك ؟ فقال : الذى حبسنى ، فضج المهدى وصاح وقال : ماتخاف أن أقتلك ؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أو موتا ؟ ! فما زال محبوسا حتى مات المهدى ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذراً إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة فكان يعمل فى ذلك حتى نحرها .

وروى عن حبان بن عبد الله قال : تنزه هرون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بنى هاشم وهو سليمان بن أبى جعفر فقال له هرون : قد كانت لك جارية تغنى فتحسن فجئنا بها ، قال : فجاءت فغنت فلم يحمد غناءها ، فقال لها : ماشأنك ؟ فقالت : ليس هذا عودى ، فقال للخادم ، جئنا بعودها ، قال : فجاء بالعود فوافق شيخا يلقط النوى فقال : الطريق ياشيخ ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض ؛ فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع فقال : احتفظ بهذا فإنه طلبة أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الربع : ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين ؟ فقال له : اسمع ما أقول لك ، ثم دخل على هرون فقال : إنى مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره ؛ فاستشاط هرون وغضب واحمرت عيناه فقال له سليمان بن أبى جعفر : ماهذا الغضب ياأمير المؤمنين ؟ ابعث إلى صاحب الربع يضرب عنقه ويرم به فى الدجلة ، فقال : لا ، ولكن نبعث إليه ونناظره أولا ؛ فجاء الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال : اركب ، قال : لا ، فجاء يمشى حتى وقف على باب القصر ، فقيل لهرون : قد جاء الشيخ ، فقال للندماء أى شىء ترون ؟ نرفع ما قدامنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر؟ فقالوا له: نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح ، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل ـ وفى كمه الكيس الذى فيه النوى ـ فقال له الخادم : أخرج هذا من كمك وادخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائى الليلة ، قال : نحن نعشيك . قال : لاحاجة لى فى عشائكم ، فقال هرون للخادم : أى شىء تريد منه ؟ قال فى كمه نوى قلت له اطرحه وادخل على أمير المؤمنين فقال : دعه لايطرحه ، قال : فدخل وسلم وجلس ، فقال له هرون: ياشيخ ماحملك على ماصنعت ؟ قال : وأى شىء صنعت ؟ وجعل هرون يستحيى أن يقول كسرت عودى ، فلما أكثر عليه قال . إنى سمعت أباك وأجدادك يقرءون هذه الآية على المنبر ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وأنا رأيت منكراً فغيرته ، فقال . فغيره . فوالله ماقال إلا هذا ، فلما خرج

---

(١) حديث : أن مروان خطب قبل الصلاة فى العيد ... الحديث . وفيه حديث أبى سعيد مرفوعا « من رأى منكراً ... الحديث » رواه مسلم .

أعطى الخليفة رجلا بدرة وقال . اتبع الشيخ فإن رأيته يقول : قلت لأمير المؤمنين وقال لى؛ فلا تعطه شيئا ؛ وإن رأيته لا يكلم أحداً فأعطه البدرة . فلما خرج من القصر إذا هو بنواة فى الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً فقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذه هذه البدرة ، فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها . ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التى يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... هموما كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شىء فدعه ... وخذ ماأنت محتاج إليه

وعن سفيان الثورى رحمه الله قال : حج المهدى سنة ست وستين ومائة فرأيته يرمى جمرة العقبة والناس يخبطون يمينا وشمالا بالسياط ، فوقفت فقلت : ياحسن الوجه حدثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبد الله الكلابى قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على جمل لاضرب ولاطرد ولاجلد ولا إليك إليك [1] وها أنت يخبط الناس بين يديك يمينا وشمالا . فقال لرجل : من هذا ؟ قال : سفيان الثورى . فقال : ياسفيان لوكان المنصور ما احتملك على هذا ؟ فقال : لوأخبرك المنصور لقى لقصرت عما أنت فيه . قال : فقيل له إنه قال لك ياحسن الوجه ولم يقل لك ياأمير المؤمنين فقال : اطلبوه فطلب سفيان فاختفى وقد روى عن المأمون أنه بلغه أن رجلا محتسبا يمشى فى الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولم يكن مأمورا من عنده بذلك فأمر بأن يدل عليه . فلما صار بين يديه قال له : إنى بلغنى أنك رأيت نفسك أهلا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير أن نأمرك وكان المأمون جالسا على كرسى ينظر فى كتاب أوقصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به ـ فقال له المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ماشئت ؛ فلم يفهم المأمون مراده فقال ماذا تقول ؟ ـ حتى أعاده ثلاثا فلم يفهم ـ فقال : إما رفعت أو أذنت لى حتى أرفع . فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل . ثم عاد وقال : لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا ـ أهل البيت ـ ونحن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقال : صدقت ياأمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه . ولاينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ﴾ الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا [2] » وقد مكنت فى الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله فإن انقدت لهما شكرت لمن أعانك لحرمتهما . وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما لزمك منهما فإن الذى إليه أمرك وبيده عزك وذلك قد شرط أنه لايضيع أجر من أحسن عملا فقل الآن ماشئت ؛ فأعجب المأمون بكلامه وسر به وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف . فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا . فاستمر الرجل على ذلك . ففى سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن

* فإن قيل : أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد والعبد على المولى والزوجة على الزوج والتلميذ على الأستاذ

---

(١) حديث قدامة بن عبد الله : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على جمل لاضرب ولاطرد ولاجلد ولا إليك إليك » رواه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه ، وأما قوله فى أوله : ان الثورى قال حج المهدى سنة ست وستين . فليس بصحيح فإن الثورى توفى سنة إحدى وستين . (٢) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه من حديث أبى موسى وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

والرعية على الوالى مطلقا ، كما يثبت للوالد على الولد والسيد على العبد والزوج على الزوجة والأستاذ على التلميذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق ؟ فاعلم أن الذى نراه : أنه يثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق فى التفصيل. ولنفرض ذلك فى الولد مع الوالد فنقول : قد رتبنا للحسبة خمس مراتب ، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما : التعريف ثم الوعظ والنصح باللطف . وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدى إلى أذى الوالد وسخطه ؟ هذا فيه نظر ، وهو بأن يكسر مثلا عوده ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ويرد إلى الملاك ما يجده فى بيته من المال الحرام الذى غصبه أو سرقه أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين ـ إذا كان صاحبه معينا ـ ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه والمنقورة فى خشب بيته ويكسر أوانى الذهب والفضة ؛ فإن فعله فى هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب ، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام والأظهر فى القياس أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط . فإن كان المنكر فاحشا وسخطه عليه قريبا كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر ، وإن كان المنكر قريبا والسخط شديدا كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صور حيوان وفى كسرها خسران مال كثير ، فهذا مما يشتد فيه الغضب وليس تجرى هذه المعصية مجرى الخمر وغيره فهذا كله مجال النظر .

* فإن قيل : ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل ، والأمر بالمعروف فى الكتاب والسنة ورد عاما من غير تخصيص ؟ وأما النهى عن التأفيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات ؟ فنقول : قد ورد فى حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم إذ لا خلاف فى أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه فى الزنا حدا ، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص ولم يكن له أن يؤذيه فى مقابلته .

وقد ورد فى ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع [١] فإذا لم يجز له إيذاؤه بعقوبة هى حق على جناية سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هى منع عن جناية مستقبلة متوقعة بل أولى . وهذا الترتيب أيضاً ينبغى أن يجرى فى العبد والزوجة مع السيد والزوج فهما قريبان من الولد فى لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكد من ملك النكاح . ولكن فى الخبر أنه « لو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها [٢] » وهذا يدل على تأكيد الحق أيضا . وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والنصح : فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أخذ الأموال من خزانته وردها إلى الملاك وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير وكسر آنية الخمور فى بيته يكاد يفضى إلى خرق هيبته وإسقاط حشمته ، وذلك محظور ورد النهى عنه كما ورد النهى عن السكوت على المنكر [٣] فقد تعارض فيه أيضاً محذوران والأمر فيه موكول إلى اجتهاد منشؤه النظر فى تفاحش المنكر ومقدار

---

(١) الأخبار الواردة : فى أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه فى الزنا ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لو قطع يده لم يلزم القصاص ، ثم قال وثبت بعضها بالإجماع . قلت : لم أجد فيه إلا حديث « لا يقاد الوالد بالولد » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذى فيه اضطراب . (٢) حديث « لو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » تقدم فى النكاح . (٣) حديث : النهى عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدى إلى خرق هيبته . أخرجه الحاكم فى المستدرك من حديث عياض بن غنم الأشعرى : من كانت عنده نصيحة لذى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ بيده فليخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذى عليه والذى له . قال : صحيح الأسناد وللترمذى وحسنه من حديث أبى بكرة « من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله فى الأرض » .

مايسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك مما لايمكن ضبطه . وأما التلميذ والأستاذ فالأمر فيما بينهما أخف لأن المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين ولاحرمة لعالم لايعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذى تعلمه منه . وروى أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده فقال : يعظه مالم يغضب فإن غضب سكت عنه.

الشرط الخامس : كونه قادرا ؛ ولايخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها . وقال ابن مسعود رضى الله عنه جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا فى وجوههم فافعلوا .

* واعلم أنه لايقف سقوط الوجوب على العجز الحسى بل يلتحق به مايخاف عليه مكروها يناله فذلك فى معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكروها ولكن علم أن إنكاره لاينفع فليلتفت إلى معنيين ؛ أحدهما : عدم إفادة الإنكار امتناعا ، والآخر : خوف مكروه . ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال (أحدها) أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لاينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة ، بل ربما تحرم فى بعض المواضع . نعم يلزمه أن لايحضر مواضع المنكر ويعتزل فى بيته حتى لايشاهد ولايخرج إلا لحاجة مهمة أو واجب ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد أو يحمل على مساعدة السلاطين فى الظلم والمنكرات ؛ فيلزمه الهجرة إن قدر عليها فإن الإكراه لايكون عذرا فى حق من يقدر على الهرب من الإكراه .(الحالة الثانية) أن ينتفى المعنيان جميعا بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه فيجب عليه الإنكار وهذه هى القدرة المطلقة . (الحالة الثالثة) أن يعلم أنه لايفيد إنكاره لكنه لايخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين . (الحالة الرابعة) عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمى زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ، ويريق الخمر ، أو يضرب العود الذى فى يده ضربة مختطفة فيكسره فى الحال ، ويتعطل عليه هذا المنكر ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه ، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب . ويدل عليه الخبر الذى أوردناه فى فضل « كلمة حق عند إمام جائر » ولاشك فى أن ذلك مظنة الخوف . ويدل عليه أيضاً ماروى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت من بعض الخلفاء كلاما فأردت أن أنكر عليه وعلمت أنى أقتل ، ولم يمنعنى القتل ولكن كان فى ملأ من الناس فخشيت أن يعترينى التزين للخلق فأقتل من غير إخلاص فى الفعل .

« فإن قيل : فما معنى قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ؟ قلنا : لاخلاف فى أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل ، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك ، فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس التهلكة ذلك ، بل ترك النفقة فى طاعة الله تعالى ؛ أى من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه . وقال البراء بن عازب : التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لايتاب على . وقال أبو عبيدة : هو أن يذنب ثم لايعمل بعده خيراً حتى يهلك . وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك فى الحسبة، ولكن لو علم أنه لانكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاجز فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة . وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراءته واعتقادهم فى سائر المسلمين قلة المبالاة وحبهم للشهادة فى سبيل الله فتنكسر بذلك شوكتهم ؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب وللقتل إذا كان لحسبته تأثير فى رفع المنكر أو فى كسر جاه الفاسق أو فى

تقوية قلوب أهل الدين ، وأما إن رأى فاسقاً متغلباً وعنده سيف وبيده قدح ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبته فهذا مما لاأرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك . فإن المطلوب أن يؤثر فى الدين أثراً ويفديه بنفسه ، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغى أن يكون حراما . وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة ، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه . فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو اقاربه أو رفقائه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضى ذلك إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة فى شيء . بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان ذلك سببا لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الافكار الاظهر ، لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقا لامين زيد أو عمرو ، وذلك بأن يكون مثلا مع الإنسان شراب حلال ـ نجس بسبب وقوع نجاسة فيه ـ وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده الخمر لإعوازهم الشراب الحلال فلا معنى لإراقة ذلك . ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلا لمنكر . وأما شرب الخمر فهو الملوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر ، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون . وليس ببعيد ، فإن هذه مسائل فقهية لايمكن فيها الحكم إلا بظن ، ولايبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذى تفضى اليه الحسبة والتغيير ، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لومنعه من ذلك لذبح إنساناً وأكله فلا معنى لهذه الحسبة . نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرقه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه . فهذه دقائق واقعة فى محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده فى ذلك كله ولهذه الدقائق تقول : العامى ينبغى له أن لايحتسب إلا فى الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة فأما مايعلم كونه معصية بالإضافة إلى مايطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد فالعامى إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وعن هذا يتأكد ظن من لايثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالى ؛ إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلا لها لقصور معرفته أوقصور ديانته فيؤدى ذلك إلى وجوه من الخلل وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله

* فإن قيل : وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لاتفيد حسبته ؛ فلو كان بدل العلم ظن فما حكمه ؟ قلنا: الظن الغالب فى هذه الأبواب فى معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم إذ يرجح العلم اليقينى على الظن ويفرق بين العلم والظن فى مواضع آخر ، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعا أنه لايفيد فإن كان غالب ظنه أنه لايفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لايتوقع مكروها فقد اختلفوا فى وجوبه ، والأظهر وجوبه إذ لاضرر فيه وجدواه متوقعة ، وعموم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضى الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما اذا علم أنه لا فائدة فيه اما بالإجماع أو بقياس ظاهر وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور ، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه ، فأما اذا لم يكن يأس فينبغى أن لايسقط الوجوب

* فإن قيل : فالمكروه الذى تتوقع إصابته إن لم يكن متيقنا ولامعلوما بغالب الظن ولكن كان مشكوكا فيه ، أوكان غالب ظنه أنه لايصاب بمكروه ولكن احتمل أن يصاب بمكروه ، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لايجب إلا عند اليقين بأنه لايصيبه مكروه أم يجب فى كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه ؟ قلنا : ان غلب على الظن أنه يصاب لم يجب ، وان غلب أنه لايصاب وجب . ومجرد التجويز لايسقط الوجوب فإن ذلك

تمكن فى كل حسبة ، وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر ، فيحتمل أن يقال الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه ، والمكروه هو الذى يظن أو يعلم حتى يكون متوقعا ، وهذا هو الأظهر . ويحتمل أن يقال: إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه والأول أصح نظرا إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف .

* فإن قيل : فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه ، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ماجبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه ، فعلى ماذا التعويل ؟ قلنا : التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج ، فإن الجبن مرض وهو ضعف فى القلب سببه قصور فى القوة وتفريط ، والتهور إفراط فى القوة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان ، وإنما الكمال فى الاعتدال الذى يعبر عنه بالشجاعة . وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل . وتارة عن خلل فى المزاج بتفريط أو إفراط ، فإن من اعتدل مزاجه فى صفة الجبن والجراءة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جراءته جهله ، وقد لا يتفطن لمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله ، وقد يكون عالما بحكم التجربة والممارسة بمداخل الشر ودوافعه ، ولكن يعمل الشر البعيد فى تخذيله وتحليل قوته فى الإقدام بسبب ضعف قلبه مايفعله الشر القريب فى حق الشجاع المعتدل الطبع . فلا التفات إلى الطرفين . وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن بإزالة علته وعلته جهل أو ضعف ، ويزول الجهل بالتجربة ، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخوف منه تكلفا حتى يصير معتادا ، إذ المبتدئ فى المناظرة والوعظ مثلا قد يجبن عنه طبعه لضعفه فإذا مارس واعتاد فارقه الضعف ، فإن صار ذلك ضروريا غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب فحكم ذلك الضعيف يتبع حاله فيعذر كما يعذر المريض فى التقاعد عن بعض الواجبات ، ولذلك قد نقول على رأى : لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسـلام على من يغلب عليه الجبن فى ركوب البحر ويجب على من لا يعظم خوفه منه فكذلك الأمر فى وجوب الحسبة .

* فإن قيل : فالمكروه المتوقع ماحده ؟ فإن الإنسان قد يكره كلمة وقد يكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه فى حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان أو يقدح فيه فى مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذى يسقط الوجوب به ؟ قلنا : هذا أيضا فيه نظر غامض وصورته منتشرة ومجاريه كثيرة ، ولكنا نجتهد فى ضم نشره وحصر أقسامه .

فنقول : المكروه نقيض المطلوب ومطالب الخلق فى الدنيا ترجع إلى أربعة أمور : أما فى النفس فالعلم . وأما فى البدن فالصحة والسلامة . وأما فى المال فالثروة . وأما فى قلوب الناس فقيام الجاه ؛ فإذاً المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه . ومعنى الجاه ملك قلوب الناس ، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض ، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض ـ وسيأتى تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه فى ربع المهلكات ـ وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به . ويكره فى هذه الأربعة أمران ؛ أحدهما : زوال ما هو حاصل موجود . والآخر . امتناع ما هو منتظر مفقود ؛ أعنى اندفاع ما يتوقع وجوده . فلا ضرر إلا فى فوات حاصل وزواله ، أو تعويق منتظر ، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله والممكن حصوله كأنه حاصل وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله : فرجع المكروه إلى قسمين ؛ أحدهما : خوف امتناع المنتظر وهذا

لاينبغى أن يكون مرخصاً فى ترك الأمر بالمعروف أصلا .

ولنذكر مثاله فى المطالب الأربعة ؛ أما العلم : فمثاله ترك الحسبة على من يختص بأستاذه خوفا من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه . وأما الصحة : فترك الإنكار على الطبيب الذى يدخل عليه مثلا وهو لابس حريراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة . وأما المال : فترك الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله خيفة من أن يقطع إدراره فى المستقبل ويترك مواساته . وأما الجاه : فترك الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاها فى المستقبل خيفة من أن لايحصل له الجاه أو خيفة من أن يقبح حاله عند السلطان الذى يتوقع منه ولاية .

وهذا كله لايسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت ، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضررا مجاز . وإنما الضرر الحقيقى فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شىء إلا ماتدعو إليه الحاجة ويكون فى فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر ، كما إذا كان محتاجا إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن فى تأخره شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضى إلى الموت . وأعنى بالعلم الظن الذى يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص فى ترك الحسبة . وأما فى العلم فمثل أن يكون جاهلا بمهمات دينه ولم يجد إلا معلما واحدا ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعا له أو مستمعا لقوله ، فإذاً الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور ، ولايبعد أن يرجح أحدهما ويختلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين . وأما فى المال فكمن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوى النفس فى التوكل ولا منفق عليه سوى شخص واحد ولو احتسب عليه قطع رزقه وافتقر فى تحصيله إلى طلب إدرار حرام أو مات جوعا فهذا أيضاً إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له فى السكوت . وأما الجاه فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلا إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان ، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر ، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير . فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استثناؤها ولكن الأمر فيها منوط باجتهاد المحتسب حتى يستفتى فيها قلبه ، ويزن أحد المحذورين بالآخر ، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع ، فإن رجح بموجب الدين سمى سكوته مداراة ، وإن رجح بموجب الهوى سمى سكوته مداهنة . وهذا أمر باطن لايطلع عليه إلا بنظر دقيق ولكن الناقد بصير ، فحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعثه وصارفه أنه الدين أو الهوى ، وستجد كل نفس ماعملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو فى فلتة خاطر أو فلتة ناظر من غير ظلم وجور فما الله بظلام للعبيد .

وأما القسم الثانى ، وهو فوات الحاصل : فهو مكروه ومعتبر فى جواز السكوت فى الأمور الأربعة إلا العلم ، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال ، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم فى الدنيا ويدوم ثوابه فى الآخرة فلا انقطاع له أبد الآباد . وأما الصحة والسلامة ففواتهما بالضرب فكل من علم أنه يضرب ضربا مؤلما يتأذى به فى الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك - كما سبق - وإذا فهم هذا فى الإيلام بالضرب فهو فى الجرح والقطع والقتل أظهر . وأما الثروة فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه ، فهذا أيضا يسقط عنه الوجوب ويبقى

الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدى دينه بدنياه ولكل واحد من الضرب والنهب حد فى القلة لايكترث به كالحبة فى المال واللطمة الخفيف ألمها فى الضرب وحد فى الكثرة يتعين اعتباره ووسط يقع فى محل الاشتباه والاجتهاد ، وعلى المتدين أن يجتهد فى ذلك ويرجح جانب الدين ما أمكن . وأما الجاه ففواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم أو بسبب على ملأ من الناس أو يطرح منديله فى رقبته ويدار به فى البلد أو يسود وجهه ويطاف به ، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن وهو قادح فى الجاه ومؤلم للقلب . وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى مايعبر عنه بسقوط المروءة ، كالطواف به فى البلد حاسرا حافيا فهذا يرخص له فى السكوت لأن المروءة مأمور بحفظها فى الشرع ، وهذا مؤلم للقلب ألما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة فهذه درجة . الثانية : مايعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة ، فإن الخروج فى ثياب فاخرة تجمل ، وكذلك الركوب للخيول . فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشى فى السوق فى ثياب لايعتاد هو مثلها . أو كلف المشى راجلا وعادته الركوب . فهذا من جملة المزايا . وليست المواظبة على حفظها محمودة . وحفظ المروءة محمود فلا ينبغى أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر . وفى معنى هذا ما لو خاف أن يتعرض له باللسان إما فى حضرته بالتجهيل والتحميق والنسبة إلى الرياء والبهتان . وأما فى غيبته بأنواع الغيبة فهذا لايسقط الوجوب إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التى ليس إليها كبير حاجة . ولو تركت الحسبة بلوم لائم أو باغتياب فاسق أو شتمه وتعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة ، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المغتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه فى الغيبة فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية ، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضا معصية فى حق المغتاب ، ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار . وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة وعظم الخطر فى السكوت عنها فلا يقابله إلا ماعظم فى الدين خطره ، والمال والنفس والمروءة قد ظهر فى الشرع خطرها فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لاخطر له . وأما امتناعه لخوف شىء من هذه المكاره فى حق أولاده وأقاربه فهو فى حقه دونه لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره ، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يسامح فى حقوق نفسه وليس له المسامحة فى حق غيره . فإذاً ينبغى أن يمتنع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب فليس له هذه الحسبة لأنه دفع منكر يفضى إلى منكر ، وإن كان يفوت لابطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضا وليس له ذلك إلا برضاهم . فإذا كان يؤدى ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذى له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان ولكنه يقصد أقاربه انتقاما منه بواسطته ، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور . نعم إن كان لاينالهم أذى فى مال أو نفس ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر ، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات فى تفاحشها ودرجات الكلام المحذور فى نكايته فى القلب وقدحه فى العرض .

* فإن قيل : فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يمتنع عنه إلا بقتال ربما يؤدى إلى قتله فهل يقاتل عليه ؟ فإن قلتم : يقاتل ، فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفا من إهلاك طرف وفى إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضا ؟ قلنا : يمنعه عنه ويقاتله إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية ، وقتله فى الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية . وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتى على قتله فإنه جائز لا على معنى

أنا نفدى درهما من مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله فى الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصى .

* فإن قيل : فلو علمنا أنه لوخلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغى أن نقتله فى الحال حسما لباب المعصية ؟ قلنا : ذلك لايعلم يقينا ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية ولكنا إذا رأيناه فى حال مباشرة القطع دفعناه ، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتى على روحه .

فإذا المعصية لها ثلاثة أحوال : (إحداها) أن تكون متصرمة فالعقوبة على ماتصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد (الثانية) أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلابسه الحرير وإمساكه العود والخمر ، فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن مالم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها ، وذلك يثبت للآحاد والرعية (الثالثة) أن يكون المنكر متوقعا كالذى يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر ؛ فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح ، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ماليس له فيه إلا الانتظار ، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج ، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب ، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف فى نفسه معصية وإن كان مقصد العاصى وراءه كما أن الخلوة بالأجنبية فى نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية ، وتحصيل مظنة المعصية معصية ونعنى بالمظنة مايتعرض الإنسان به لوقوع المعصية غالبا بحيث لايقدر على الانكفاف عنها ، فإذاً هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لاعلى معصية منتظرة .

الركن الثانى : للحسبة مافيه الحسبة

وهو كل منكر موجود فى الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها :

الأول : كونه منكرا ، ونعنى به أن يكون محذور الوقوع فى الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبيا أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنوناً يزنى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه . وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس بل لو صادف هذا المنكر فى خلوة لوجب المنع منه ، وهذا لايسمى معصية فى حق المجنون إذ معصية لاعاصى بها محال ، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية وقد أدرجنا فى عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة فى الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنها وفى الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتى فى كتاب التوبة :

الشرط الثانى : أن يكون موجودا فى الحال وهو احتراز أيضاً عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد فى ثانى الحال ، كمن يعلم بقرينة حال أنه عازم على الشرب فى ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجز وعظه أيضاً فإن فيه إساءة ظن بالمسلم وربما صدق فى قوله . وربما لايقدم على ماعزم عليه لعائق . وليتنبه للدقيقة التى ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية

معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء ومايجرى مجراه .

الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس . فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لايجوز أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه . وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة ـ وقد أوردناها فى كتاب آداب الصحبة ـ وكذلك ماروى أن عمر رضى الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال : ياأمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه . فقال وماهى؟ فقال قد قال تعالى ﴿ ولاتجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال تعالى ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورت من السطح وقال ﴿ لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وماسلمت . فتركه عمر وشرط عليه التوبة . ولذلك شاور عمر الصحابة رضى الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ؟ فأشار على رضى الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفى فيه واحد . وقد أوردنا هذه الأخبار فى بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها .

* فإن قلت : فما حد الظهور والاستتار ؟ فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية إلا أن يظهر فى الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار . فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهى وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة . فإذن إنما يدرك مع تخلل الحيطان صوت أو رائحة . فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمور المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة . وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل . والظاهر جواز الحسبة . وقد تستر قارورة الخمر فى الكم وتحت الذيل وكذلك الملاهى فإذا رؤى فاسق وتحت ذيله شىء لم يجز أن يكشف عنه مالم يظهر بعلامة خاصة . فإن فسقه لايدل على أن الذى معه خمر . إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره . فلا يجوز أن يستدل بإخفائه وأنه لو كان حلالا لما أخفاه لأن الأغراض فى الإخفاء مما تكثر . وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر . والظاهر أن له الاحتساب لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم فى أمثال هذه الأمور . وكذلك العود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب الساتر له رقيقا . فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالته فهو غير مستور بل هو مكشوف وقد أمرنا بأن نستر ماستر الله وننكر على من أبدى لنا صفحته . والإبداء له درجات فتارة يبدو لنا بحاسة السمع . وتارة بحاسة الشم . وتارة بحاسة البصر . وتارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن يخصص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم . وهذه الحواس أيضاً تفيد العلم . فإذن إنما يجوز أن يكسر ماتحت الثوب إذا علم أنه خمر . وليس له أن يقول : أرنى لأعلم مافيه . هذا تجسس . ومعنى التجسس طلب الأمارات المعرفة فالأمارة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الأمارة المعرفة فلا رخصة فيه أصلا .

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد فكل ماهو فى محل الاجتهاد فلا حسبة . فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكله الضب والضبع ومتروك التسمية . ولا للشافعى أن ينكر على الحنفى شربه النبيذ الذى ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوى الأرحام وجلوسه فى دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجارى الاجتهاد نعم لو رأى الشافعى شافعيا يشرب النبيذ وينكح بلا ولى ويطأ زوجته فهذا فى محل النظر والأظهر أن له الحسبة والإنكار إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاد غيره . ولا أن

الذى أدى اجتهاده فى التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من المذاهب أطيبها عنده ، بل على كل مقلد اتباع مقلده فى كل تفصيل ، فإذن مخالفته للمقلد متفق على كونه منكرا بين المحصلين وهو عاص بالمخالفة ، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغمض منه ، وهو أنه يجوز للحنفى أن يعترض على الشافعى إذا نكح بغير ولى بأن يقول له : الفعل فى نفسه حق ولكن لافى حقك فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعى ، ومخالفة ماهو صواب عندك معصية فى حقك وإن كانت صوابا عند الله . وكذلك الشافعى يحتسب على الحنفى إذا شاركه فى أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له : إما أن تعتقد أن الشافعى أولى بالاتباع ثم تقدم عليه ، أو لاتعتقد ذلك فلا تقدم عليه ، لأنه على خلاف معتقدك . ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجامع الأصم مثلا امرأة على قصد الزنا وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوجه أبوه إياها فى صغره ، ولكنه ليس يدرى وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لكونه غير عارف بلغته ، فهو فى الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه فى الدار الآخرة . فينبغى أن يمنعها عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال فى علم الله قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلطه وجهله . ولاشك فى أنه لو علق طلاق زوجته على صفة فى قلب المحتسب مثلا من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة فى قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك، ولكن علم وقوع الطلاق فى الباطن فإذا رآه يجامعها فعليه المنع - أعنى باللسان - لأن ذلك زنا إلا أن الزانى غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طلقت منه ثلاثا ، وكونهما غير عاصيين لجهلهما بوجود الصفة لايخرج الفعل عن كونه منكرا ولايتقاعد ذلك عن زنا المجنون وقد بينا أنه يمنع منه ، فإذا كان يمنع مما هو منكر عند الله وإن لم يكن منكرا عند الفاعل ولاهو عاص به لعذر الجهل ، فيلزم من عكس هذا أن يقال : ماليس بمنكر عند الله إنما هو منكر عند الفاعل لجهله لايمنع منه ، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله . فتحصل من هذا أن الحنفى لايعترض على الشافعى فى النكاح بلا ولى ، وأن الشافعى يعترض على الشافعى فيه لكون المعترض عليه منكرا باتفاق المحتسب والمحتسب عليه . وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة ، وإنما أفتينا فيها بحسب ماترجح عندنا فى الحال . ولسنا نقطع بخطأ ترجيح المخالف فيها إن رأى أنه لايجرى الاحتساب إلا فى معلوم على القطع ، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا : لاحسبة إلا فى مثل الخمر والخنزير ومايقطع بكونه حراما ، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر فى حق المجتهد ؛ إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد فى القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده فى جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها ، ولايمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب . ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ماأراد غير معتد به ولعله لايصح ذهاب ذاهب إليه أصلا ؛ فهذا مذهب لايثبت وإن ثبت فلا يعتد به .

* فإن قلت : إذا كان لايعترض على الحنفى فى النكاح بلا ولى لأنه يرى أنه حق فينبغى أن لايعترض على المعتزلى فى قوله : إن الله لايرى ؟ وقوله : وإن الخير من الله والشر ليس من الله ؟ وقوله : كلام الله مخلوق ؟ ولا على الحشوى فى قوله : إن الله تعالى جسم وله صورة وإنه مستقر على العرش ؟ بل لاينبغى أن يعترض على الفلسفى فى قوله : الأجساد لاتبعث وإنما تبعث النفوس ؛ لأن هؤلاء أيضا أدى اجتهادهم إلى ماقالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق . فإن قلت : بطلان مذهب هؤلاء ظاهر فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضا ظاهر ، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يرى والمعتزلى ينكرها بالتأويل فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى كمسألة النكاح بلا ولى ومسألة شفعة الجوار ونظائرهما ؟ فاعلم أن المسائل تنقسم

إلى ما يتصوّر أن يقال فيه : كل مجتهد مصيب . وهى أحكام الأفعال فى الحل والحرمة وذلك هو الذى لا يعترض على المجتهدين فيه إذ لم يعلم خطؤهم قطعا بل ظنا ، وإلى ما لا يتصوّر أن يكون المصيب فيه إلا واحد كمسألة الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفى الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى ، فهذا مما يعلم خطأ المخطئ فيه قطعا ولا يبقى لخطئه الذى هو جهل محض وجه . فإذن البدع كلها ينبغى أن تحسم أبوابها وتنكر على المبتدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق ، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظان الاجتهاد .

• فإن قلت : فمهما اعترضت على القدرى فى قوله : الشر ليس من الله ، اعترض عليك القدرى أيضا فى قولك: الشر من الله ، وكذلك فى قولك : إنّ الله يرى ، وفى سائر المسائل . إذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعى أنه محق وينكر كونه مبتدعا . فكيف يتم الاحتساب ؟ فاعلم أنا لأجل هذا التعارض نقول : ينظر إلى البلدة التى فيها أظهرت تلك البدعة ؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان ، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان فى الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للآحاد الحسبة فى المذاهب الا بنصب السلطان . فإذا رأى السلطان الرأى الحق ونصره وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن اظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره . فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل ، وما يكون من جهة الآحاد فيتقابل الأمر فيه . وعلى الجملة فالحسبة فى البدعة أهم من الحسبة فى كل المنكرات ، ولكن ينبغى أن يراعى فيها هذا التفصيل الذى ذكرناه كيلا يتقابل الأمر ولا ينجر الى تحريك الفتنة . بل لو أذن السلطان مطلقا فى منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق ، أو أن الله لا يرى ، أو أنه مستقر على العرش مماس له ، أو غير ذلك من البدع لتسلط الآحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه وإنما يتقابل عند عدم اذن السلطان فقط .

الركن الثالث : المحتسب عليه

وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكرا ، وأقل ما يكفى فى ذلك أن يكون إنسانا ، ولا يشترط كونه مكلفا ، إذ بينا أن الصبى لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ ، ولا يشترط كونه مميزا إذ بينا انّ المجنون لو كان يزنى بمجنونة أو يأتى بهيمة منعه منه . نعم من الأفعال ما لا يكون منكرا فى حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره . ولكنا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل فإن ذلك أيضا مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح . وغرضنا الإشارة إلى الصفة التى بها يتهيأ توجه أصل الإنكار عليه لا ما بها يتهيأ للتفاصيل .

• فإن قلت : فاكتف بكونه حيوانا ولا تشترط كونه إنسانا ، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعا لإنسان لكنا نمنعها منه كما نمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة ؟ فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لا وجه لها ، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله ، صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله ، وكذا منع الصبى عن شرب الخمر . والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين ، أحدهما : حق الله تعالى فإن فعله معصية ، والثانى : حق المتلف عليه ، فهما علتان تنفصل إحداهما عن الأخرى . فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجنى عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين . والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية ولكن يثبت المنع بإحدى العلتين . ولكن فيه دقيقة وهو أنا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة بل حفظ مال

المسلم ؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من إناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم نمنعها منه ، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقدرنا على حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظا للمال ، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة ، لا لمنع الجرة من السقوط . فإنا لا نقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة ، ونمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي ، لا صيانة للبهيمة المأتية أو الخمر المشروب : بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيهاله من حيث إنه إنسان محترم . فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر ، إذ قد يتردد فى معنهما من لبس الحرير وغير ذلك . وسنتعرض لما نشير إليه فى الباب الثالث .

* فإن قلت : فكل من رأى بهائم قد استرسلت فى زرع إنسان فهل يجب عليه إخراجها ؟ وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه ؟ فإن قلتم : إن ذلك واجب فهذا تكليف شطط يؤدى إلى أن يصير الإنسان مسخرا لغيره طول عمره ؟ وإن قلتم ، لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير ؟ فنقول : هذا بحث دقيق غامض . والقول الوجيز فيه أن نقول : مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب فى بدنه أو خسران فى ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك ، فذلك القدر واجب فى حقوق المسلم بل هو أقل درجات الحقوق ، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام ، فإن الأذى فى هذا أكثر من الأذى فى ترك رد السلام ، بل لا خلاف فى أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عنده الشهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة ففى معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لا ضرر على الدافع فيه ، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر فى مال أو جاه لم يلزمه السعى فى ذلك ولكن إذا كان لا يتعب بتنبيه صاحب الزرع من نوم أو بإعلامه يلزمه ، فإهمال تعريفه وتنبيهه كإهماله تعريف القاضى بالشهادة ، وذلك لا رخصة فيه ، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال إن كان لا يضيع من منفعته فى مدة اشتغاله بإخراج البهائم إلا قدر درهم مثلا وصاحب الزرع يفوته مال كثير فيترجح جانبه لأن الدرهم الذى له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف ولا سبيل المصير إلا ذلك ، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب أو قتل عبد مملوك للغير ، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما ، لأن المقصود حق الشرع ، والغرض دفع المعصية ، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه فى دفع المعاصى كما عليه أن يتعب نفسه فى ترك المعاصى . والمعاصى كلها فى تركها تعب وإنما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهى غاية التعب . ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التى يخافها المحتسب .

وقد اختلف الفقهاء فى مسألتين تقربان من غرضنا ، إحداهما : أن الالتقاط هل هو واجب واللقطة ضائعة ؟ والملتقط مانع من الضياع وساع فى الحفظ ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال : إن كانت اللقطة فى موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يعرفها ، أو تترك كما لو كان فى مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناء فلا يلزمه الالتقاط ، وإن كانت فى مضيعة ، نظر ، فإن كان عليه تعب فى حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك ؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك . وحقه بسبب كونه إنسانا محترما ، والملتقط أيضا إنسان وله حق فى أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب غيره لأجله . فإن كانت ذهبا أو ثوبا أو شيئا لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب

التعريف فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين . فقائل يقول : التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتبرع فيلتزم طبقا للثواب . وقائل يقول : إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين ؛ فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به ، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور وكان التعب بهذه الخطوات لا يعدّ تعبا في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة ، وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأحوج إلى الحضور في الهاجرة وشدة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر ، فإن الضرر الذي ينال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبالي به ، وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزم احتماله ، ووسط يتجاذبه الطرفان ويكون أبدا في محل الشبهة والنظر ، وهي من الشبهات المزمنة التي ليس في مقدور البشر إزالتها ؛ إذ لا علة تفرق بين أجزائها المتقاربة ، ولكن المتقي ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريبه إلى مالا يريبه ، فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

وله درجات وآداب : أما الدرجات ، فأولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم النهي ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

أما الدرجة الأولى : وهي التعرف ؛ ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر وذلك منهي عنه ـ وهو التجسس الذي ذكرناه ـ فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره . نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمرا أعده للشرب ، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزم الاستئذان ، ويكون تخطى ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ككسر رأسه بالضرب للمنع مهما احتاج إليه . وإن أخبره عدلان أو عدل واحد ـ وبالجملة كل من تقبل روايته لا شهادته ـ ففي جواز الهجوم على داره بقولهم ، فيه نظر واحتمال ، والأولى أن يمتنع لأن له حقا في أن لا يتخطى داره بغير إذنه ، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين ؛ فهذا أولى ما يجعل مردا فيه . وقد قيل إنه كان نقش خاتم لقمان : الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ماظننت .

الدرجة الثانية : التعريف ؛ فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه ، كالسوادي يصلي ولا يحسن الركوع والسجود ؛ فيعلم أن ذلك لجهله بأن هذه ليست بصلاة ولو رضي بأن لا يكون مصليا لترك أصل الصلاة ، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف : وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق ، والتجهيل إيذاء وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لاسيما بالشرع . ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نبه على الخطأ والجهل ؟ وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تنكشف عورة جهله ؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية ؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه ، وصاحبه ملوم عليه ، وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن ، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن . ثم هو غير ملوم عليه لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله ، ولا في اختياره إزالته وتحسينه . والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم ، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله ، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه

ثم لذته عند ظهور جماله عليه لغيره . وإذا كان التعريف كشفا للعورة مؤذيا للقلب فلابد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فنقول له : إن الإنسان لا يولد عالما ولقد كنا أيضا جاهلين بأمور الصلاة فعلمنا العلماء ، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر فى شرح الصلاة وإيضاحها ، إنما شرط الصلاة الطمأنينة فى الركوع والسجود . وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء ؛ فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور ، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول ، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على بالتحقيق . وأما إذا وقفت على خطأ فى غير أمر الدين فلا ينبغى أن ترده عليه فإنه يستفيد منك علما ويصير لك عدوا ، إلا إذا علمت أنه يغتنم العلم وذلك عزيز جدا .

الدرجة الثالثة : النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا ، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا ، كالذى يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجرى مجراه ، فينبغى أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين ؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب ، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفس واحدة ، وههنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها فإنها مهلكة ، وهى أن العالم يرى ـ عند التعريف ـ عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل ؛ فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل . فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح فى نفسه من المنكر الذى يعترض عليه ؟ ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاية فى الجهل . وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل إنسان إلا من عرفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته ، فإن فى الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين ، أحدهما : من جهة دالة العلم ، والآخر : من جهة دالة الاحتكام والسلطنة . وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه ، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفى ، وله محك ومعيار ينبغى أن يمتحن المحتسب به نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه . فإن كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود أن يكفى بغيره فليحتسب فإن باعثه هو الدين ، وإن كان اتعاظ ذلك العاصى بوعظه وانزجاره بزجره أحب إليه من اتعاظه بوعظ غيره فما هو إلا متبع هوى نفسه ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته فليتق الله تعالى فيه وليحتسب أولا على نفسه . وعند هذا يقال له ما قيل لعيسى عليه السلام : يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى . وقيل لداود الطائى رحمه الله : أرأيت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ ولسنا نعنى بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعد من جملة الفحش ، كقوله : يافاسق ياأحمق ياجاهل ألا تخاف الله ، وكقوله : ياسوادى ياغبى وما يجرى هذا المجرى . فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل ، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى بل كل من ليس

بكيس فهو أحمق . والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [1] » .

ولهذه الرتبة أدبان ؛ أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثانى : أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ؛ بل يقتصر على قدر الحاجة . فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغى أن يطلقه . بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته ، وإن علم أنه لو تكلم ضرب ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له .

الدرجة الخامسة : التغيير باليد ؛ وذلك ككسر الملاهى وإراقة الخمر وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجرى مجراه ، ويتصور ذلك فى بعض المعاصى دون بعض .

فأما معاصى اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصى وجوارحه الباطنة .

وفى هذه الدرجة أدبان ، أحدهما : أن لايباشر بيده التغيير مالم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكلفه المشى فى الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغى أن يدفعه أو يجره ، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهى وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه ، فإن فى الوقوف على حد الكسر نوع عسر ، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه من لاحجر عليه فى فعله .

الثانى : أن يقتصر فى طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لايأخذ بلحيته فى الإخراج ، ولا برجله إذا قدر على جره بيده ؛ فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لايمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ، ولايحرق الملاهى والصليب الذى أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج فى استئناف إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناف من الخشب ابتداء . وفى إراقة الخمور يتوقى كسر الأوانى إن وجد إليه سبيلا ، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك ، وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الخمر إذ صار حائلا بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر ببدنه لكنا نقصد بدنه بالجرح والضرب لنتوصل إلى إراقة الخمر فإذن لاتزيد حرمة ملكه فى الظروف على حرمة نفسه . ولو كان الخمر فى قوارير ضيقة الرءوس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها ، فهذا عذر . وإن كان لايحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع فى زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر ، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان .

* فإن قلت : فهلا جاز الكسر لأجل الزجر ؟ وهلا جاز الجر بالرجل فى الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ فى الزجر ؟ فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل ، والعقوبة تكون على الماضى ، والدفع على الحاضر الراهن . وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المنكر ، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على

---

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

جريمة سابقة أو زجر عن لاحق . وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية . نعم الوالى له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه وأقول : له أن يأمر بكسر الظروف التى فيها الخمور زجرا . وقد فعل ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيدا للزجر [1] ولم يثبت نسخه ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفطام شديدة . فإذا رأى الوالى باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك . وإذا كان هذا منوطا بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لآحاد الرعية .

* فإن قلت : فليجز للسلطان زجر الناس عن المعاصى بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التى فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التى بها يتوصلون إلى المعاصى ؟ فاعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجا عن سنن المصالح ولكنا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها . وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة . وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخا بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها . وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه لخفاء وجه الاجتهاد فيه . بل نقول لو أريقت الخمور أولا فلا يجوز كسر الأوانى بعدها وإنما جاز كسرها تبعا للخمر . فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضارية بالخمر لا تصلح إلا لها .

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقرونا بمعنيين ؛ أحدهما : شدة الحاجة إلى الزجر ، والآخر : تبعية الظروف للخمر التى هى مشغولة بها . وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما . ومعنى ثالث : وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعلمه بشدة الحاجة إلى الزجر وهو أيضا مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه . فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب لا محالة إلى معرفتها .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف ؛ كقوله دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك أو لأضربن رقبتك أو لآمرن بك وما أشبهه ، وهذا ينبغى أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه . والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام ، وإن قاله من غير عزم فهو كذب . نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد فى الوعيد على ما هو فى عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه . وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة فى مثل ذلك معتادة وهو معنى مبالغة الرجل فى إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين ، وذلك مما قد رخص فيه للحاجة وهذا فى معناه ، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص . وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف فى الوعيد كرم ، وإنما يقبح أن يعد بما لا يفعل ، وهذا غير مرضى عندنا فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعدا كان أو وعيدا ، وإنما يتصور هذا فى حق العباد ، وهو كذلك إذ الخلف فى الوعيد ليس بحرام .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة فى الدفع ، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف . والقاضى قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس ، فإن أصر المحبوس وعلم القاضى قدرته على أداء الحق وكونه معاندا فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسب يراعى التدريج فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة . كما لو قبض فاسق مثلا على امرأة أو كان يضرب بمزمار

(١) حديث : تكسير الظروف التى فيها الخمور فى زمنه صلى الله عليه وسلم . أخرجه الترمذى من حديث أبى طلحة أنه قال : يا نبى الله انى اشتريت خمرا لأيتام فى حجرى قال « اهرق الخمر واكسر الدنان » وفيه ليث بن أبى سليم والأصح رواية السدى عن يحيى بن عباد عن أنس أن أبا طلحة كان عندى قاله الترمذى .

معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لأرمينك . إن لم تخل عنها فله أن يرمى وينبغى أن لايقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج . وكذلك يسل سيفه ويقول اترك هذا المنكر أو لأضربنك . فكل ذلك دفع للمنكر ودفعه واجب بكل ممكن . ولا فرق فى ذلك بين مايتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالآدميين .

وقالت المعتزلة : ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإمام لا للآحاد .

الدرجة الثامنة : أن لايقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح . وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ويؤدى ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . . فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لايستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدى إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد .

وقال آخرون : لايحتاج إلى الإذن ـ وهو الأقيس ـ لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان والثوانى إلى ثوالث . وقد ينتهى لا محالة إلى التضارب . والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف . ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه . ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعا لأهل الكفر . فكذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لابأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد . فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لابأس بقتله . والمحتسب المحق إن قتل مظلوما فهو شهيد . وعلى الجملة فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر فى الحسبة . فلا يغير به قانون القياس . بل يقال : كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه . فالمسألة إذن محتملة ـ كما ذكرناه ـ فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق .

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب فى آحاد الدرجات . ونذكر الآن جملها ومصادرها فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات فى المحتسب : العلم . والورع . وحسن الخلق .

أما العلم : فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه .

والورع : ليردعه عن مخالفة معلومة فما كل من علم عمل بعلمه . بل ربما يعلم أنه مسرف فى الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض . وليكن كلامه ووعظه مقبولا فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جراءة عليه .

وأما حسن الخلق : فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه . والعلم والورع لايكفيان فيه . فإن الغضب إذا هاج لم يكف بجرد العلم والورع فى قمعه مالم يكن فى الطبع قبوله بحسن الخلق . وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب . وبه يصبر المحتسب على ما أصابه فى دين الله . وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسى الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه . بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم .

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات . وإن فقدت لم يندفع المنكر . بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه فقيه

فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه [١] » وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم . قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت وقد قيل :

لاتلم المرء على فعـله ... وأنت منسوب إلى مثله

من ذم شيئا وأتى مثله ... فإنما يزرى على عقله

ولسنا نعنى بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس . فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال : قلنا يارسول الله لانأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله . فقال صلى الله عليه وسلم « بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله [٢] » وأوصى بعض السلف بنيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذن من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر . ولذلك قرن الله تعالى الصبر : بالأمر بالمعروف . فقال حاكيا عن لقمان ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ .

ومن الآداب تقليل العلائق حتى لايكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة فقد روى عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب فى جواره كل يوم شيئا من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكرا ، فدخل الدار أولا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب : لا أعطينك بعد هذا شيئا لسنورك ، فقال : ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك . وهو كما قال فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ومن طمع فى أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة لم تتيسر له الحسبة . قال كعب الأحبار لأبى مسلم الخولانى : كيف منزلتك بين قومك ؟ قال : حسنة ، قال : إن التوراة تقول ، إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه . فقال أبو مسلم : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم .

ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له فى القول فقال : يارجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى وأمره بالرفق فقال تعالى ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أويخشى﴾ فليكن اقتداء المحتسب فى الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم . فقد روى أبو أمامة : أن غلاما شابا أتى النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يانبى الله تأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قربوه ادن ، فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبى عليه الصلاة والسلام « أتحبه لأمك ؟ » فقال : لاجعلنى الله فداك ، قال « كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم أتحبه لابنتك ؟ » قال : لاجعلنى الله فداك ، قال « كذلك الناس لايحبونه لبناتهم أتحبه لأختك ؟ [٣] » وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحد : لا ،

---

(١) حديث « لايأمر بالمعروف ولاينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه ... الحديث » لم أجده هكذا وللبيهقى فى الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .

(٢) حديث أنس : قلنا يارسول الله لانأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله ، فقال صلى الله عليه وسلم « بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله » أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه .

(٣) حديث أبي أمامة : أن شابا قال : يارسول الله ائذن لى فى الزنا فصاح الناس به ... الحديث . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

جعلنى الله فداك . وهو صلى الله عليه وسلم يقول «كذلك الناس لايحبونه» وقالا جميعا فى حديثهما أعنى ابن عوف والراوى الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال «اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه» فلم يكن شىء أبغض إليه منه يعنى من الزنا .

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل : ماأخذ منهم إلا دون حقه ، ثم خلا به وعذله ووبخه فقال سفيان : يا أبا على إن لم نكن من الصالحين فإنا لنحب الصالحين . وقال حماد ابن سلمة : إنّ صلة بن أشيم مر عليه رجل قد أسبل إزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال : دعونى أنا أكفيكم ، فقال : ياابن أخى إنّ لى إليك حاجة قال : وماحاجتك ياعم ؟ قال : أحب أن ترفع من إزارك . فقال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة وشتمكم . وقال محمد بن زكريا الغلابى : شهدت عبدالله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا فى طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس : تنحوا عن ابن أخى ، ثم قال : إلى ياابن أخى ؛ فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معى ، فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه : بيته عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتينى به فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف ؛ فقال الغلام : قد أمر أن تأتيه ؛ فأدخله عليه فقال له . أما استحييت لنفسك؟ أما أستحييت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه فبكى الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله تعالى عهداً يسألنى عنه يوم القيامة أنى لأأعود لشرب النبيذ ولا لشىء مما كنت فيه وأنا تائب ، فقال : ادن منى ، فقبل رأسه وقال أحسنت يابنى فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث : وكان ذلك ببركة رفقه ثم قال : إنّ الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فعليكم بالرفق فى جميع أموركم تنالون به ما تطلبون . وعن الفتح بن شخرف قال : تعلق رجل بامرأة وتعرض لها وبيده سكين لايدنو منه أحد إلا عقره ، وكان الرجل شديد البدن ؛ فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح فى يده إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل على الأرض ؛ ومشى بشر فدنوا من الرجل وهو يترشح عرقا كثيرا ومضت المرأة لحالها فسألوه ماحالك ؟ فقال : ماأدرى ! ولكن حاكنى شيخ وقال لى : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ماتعمل ؛ فضعفت لقوله قدماى وهبته هيبة شديدة ولا أدرى من ذلك الرجل ؟ فقالوا له : هو بشر بن الحارث ، فقال : واسوأتاه كيف ينظر إلى بعد اليوم ؟ وحم الرجل من يومه ومات يوم السابع ، فكذا كانت عادة أهل الدين فى الحسبة . وقد نقلنا فيها آثاراً وأخبارا فى باب البغض فى الله والحب فى الله من كتاب آداب الصحبة فلا نطول بالإعادة . فهذا تمام النظر فى درجات الحسبة وآدابها والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه .

الباب الثالث : فى المنكرات المألوفة فى العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لامطمع فى حصرها واستقصائها

فمن ذلك منكرات المساجد

أعلم أنّ المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة ، فإذا قلنا : هذا منكر مكروه . فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بحرام ، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له لأن الكراهة حكم فى الشرع

يجب تبليغه إلى من لايعرفه . وإذا قلنا منكر محظور ، أوقلنا منكر مطلقا ، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا .

فمما يشاهد كثيرا فى المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة فى الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب النهى عنه إلا عند الحنفى الذى يعتقد أن ذلك لايمنع صحة الصلاة ، إذ لا ينفع النهى معه . ومن رأى مسيئا فى صلاته فسكت عليه فهو شريكه . هكذا ورد به الأثر . وفى الخبر مايدل عليه ، إذ ورد فى الغيبة أن المستمع شريك القائل (١) وكذلك كل ما يقدح فى صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لايراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو عمى فكل ذلك تجب الحسبة فيه .

ومنها قراءة القرآن باللحن يجب النهى عنه ويجب تلقين الصحيح . فإن كان المعتكف فى المسجد يضيع أكثر أوقاته فى أمثال ذلك ويشتغل به عن التطوع والذكر فليشتغل به ، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه ، لأن هذا فرض وهى قربة تتعدى فائدتها ، فهى أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها . وإن كان ذلك يمنعه عن الوراقة مثلا أو عن الكسب الذى هو طعمته ، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يجز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا ، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له فيسقط الوجوب عنه لعجزه والذى يكثر اللحن فى القرآن إن كان قادرا على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به ، وإن كان لا يطاوعه اللسان فإن كان أكثر مايقرؤه لحنا فليتركه وليجتهد فى تعلم الفاتحة وتصحيحها ، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ ، ولكن ينبغى أن يخفض به الصوت حتى لايسمع غيره . ولمنعه سرامنه أيضاً وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأسا والله أعلم .

ومنها تراسل المؤذنين فى الأذان وتطويلهم بمد كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر فى الحيعلتين ، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات . فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها . فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها . وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغى أن يمنع من الأذان بعد الصبح ، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يعول على أذانه فى صلاة وترك سحور ، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح .

ومن المكروهات أيضا تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر فى مسجد واحد فى أوقات متعاقبة متقاربة ، إما من واحد أو جماعة ، فإنه لافائدة فيه ، إذا لم يبق فى المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى ينبه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف .

ومنها أن يكون الخطيب لابسا لثوب أسود يغلب عليه الإبريسم ، أو ممسكا لسيف مذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وأما مجرد السواد فليس بمكروه لكنه ليس بمحبوب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض . ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهودا فى العصر الأول ، ولكن إذا لم يرد فيه نهى فلا ينبغى أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك للأحب .

(١) حديث « المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم » تقدم فى الصوم .

ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة . فالقاص إن كان يكذب فى أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه ؛ إما للكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواليه فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع . قال الله تعالى لنبيه ﴿ فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ ومهما كان كلامه مائلا إلى الإرجاء وتجرئة الناس على المعاصى ، وكان الناس يزدادون بكلامه جراءة وبعفو الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجاؤهم على خوفهم فهو منكر ، ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم ، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء كما قال عمر رضى الله عنه : لو نادى مناد يوم القيامة ؛ ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نادى مناد ؛ ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل . ومهما كان الواعظ شابا متزينا للنساء فى ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح ، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله ، بل لاينبغى أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزيه زى الصالحين ، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تماديا فى الضلال . ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر فإن ذلك أيضاً مظنة الفساد ، والعادات تشهد لهذه المنكرات ، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن فقد منعتهن عائشة رضى الله عنها فقيل لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنعهن من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أحدثن بعده لمنعهن [1] وأما اجتياز المرأة فى المسجد مستترة فلا تمنع منه إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازاً أصلا . وقراءة القراء بين يدى الوعاظ مع التمديد والألحان على وجه يغير نظم القرآن ، ويجاوز حد التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف .

ومنها الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات ، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجرى مجراه ، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تلبيسا وكذبا ، كالكذابين من طرقية الأطباء وكأهل الشعبذة والتلبيسات وكذا أرباب التعويذات فى الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتلبيسات على الصبيان والسوادية فهذا حرام فى المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه . بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب على المشترى فهو حرام .

ومنها ماهو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة ، فهذا فى المسجد أيضا لا يحرم إلا بعارض وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليس بحرام والأولى تركه ولكن شرط إباحته أن يجرى فى أوقات نادرة وأيام معدودة ، فإن اتخاذ المسجد دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه . فمن المباحات مايباح بشرط القلة فإن كثر صار صغيرة . كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لخيف منه أن ينجر إلى الكثير فليمنع منه ، وليكن هذا المنع إلى الوالى أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالى لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد ، وليس للآحاد المنع مما هو مباح فى نفسه لخوفه أن ذلك يكثر .

---

(١) حديث عائشة : لوعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن ـ أى النساء ـ من بعده لمنعهن المساجد . متفق عليه .

ومنها دخول المجانين والصبيان والسكارى فى المسجد ، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب ، ولا يحرم عليه اللعب فى المسجد ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتخذ المسجد ملعبا وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه ، فهذا مما يحل قليله دون كثيره ، ودليل حل قليله ماروى فى الصحيحين « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقف لأجل عائشة رضى الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفنون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد فى المسجد ، ولا شك فى أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعباً لمنعوا منه ، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكراً حتى نظر إليه ، بل أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبصرهم عائشة تطييبا لقلبها إذ قال دونكم « يابنى أرفدة » كما نقلناه فى كتاب السماع .
وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له ، أو شتمهم أو نطقهم بما هو فحش ، أو تعاطيهم لما هو منكر فى صورته كـكشف العورة وغيره . وأما المجنون الهادئ الساكن الذى قد علم بالعادة سكونه وسكوته فلا يجب إخراجه من المسجد . والسكران فى معنى المجنون فإن خيف منه القذف ـ أعنى القيء ـ أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه . وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه ، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكر مكروه شديد الكراهة . وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل (*) فقد نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد ؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر فى الخمر أشد .

ه فإن قال قائل : ينبغى أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجرا قلنا : لا ، بل ينبغى القعود فى المسجد ويدعى إليه ويؤمر بترك الشرب مهما كان فى الحال عاقلا ، فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الآحاد بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين ، فاما لمجرد الرائحة فلا . نعم إذا كان يمشى بين الناس متمايلا بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه فى المسجد وغير المسجد منعا له عن إظهار أثر السكر ، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصى يجب تركها ، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها ، فإن كان مستترا مخفيا لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه . والرائحة قد تفوح من غير شرب ، بالجلوس فى موضع الخمر وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع ، فلا ينبغى أن يعول عليه .

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة فى الأسواق الكذب فى المرابحة ، وإخفاء العيب . فمن قال : اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذبا فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه ، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكا له فى الخيانة وعصى بسكوته . وكذا إذا علم به عيبا فيلزمه أن ينبه المشترى عليه وإلا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام وكذا التفاوت فى الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالى حتى يغيره .

ومنها ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة ، ولكن ذلك فى محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه . وكذا فى الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فإنها مفسدة للعقود . وكذا فى الربويات كلها وهى غالبة . وكذا سائر التصرفات الفاسدة .

ومنها بيع الملاهى وبيع أشكال الحيوانات المصورة فى أيام العيد لأجل الصبيان ، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهى وكذلك بيع الأوانى المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير ، وقلانس

(*) هذا الحديث لم يخرجه العراقى وقد خرجه الشارح عن البخارى ومسلم وغيرهما

الذهب والحرير أعنى التى لاتصلح إلا للرجال ، أو يعلم بعادة البلد أنه لايلبسه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التى يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب . وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفو وما يؤدى إلى الالتباس . وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبيسات وذلك يطول إحصاؤه . فليقس بما ذكرناه مالم نذكره .

منكرات الشوارع

فمن المنكرات المعتادة فيها : وضع الاسطوانات ، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة . وغرس الأشجار ، وإخراج الرواشن والأجنحة ، ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق ، فكل ذلك منكر إن كان يؤدى إلى تضييق الطرق واستضرار المارة وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة فى الطريق فى القدر الذى ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك فى الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه . وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة والمرعى هو الحاجة التى ترد الشوارع لأجلها فى العادة دون سائر الحاجات .

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدها وضمها بحيث لاتمزق ، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لاتترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل . وكذلك تحميل الدواب من الأحمال مالاتطيقه منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح فى الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يتخذ فى دكانه مذبحا فإن فى ذلك تضييقا بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استقذار الطباع للقاذورات : وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق ، وتبديد قشور البطيخ . أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط فى الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب . أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه فى الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج فى الطرق من غير كسح فذلك منكر ، ولكن ليس يختص به شخص معين ، إلا الثلج الذى يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذى يجتمع على الطريق من ميزاب معين ، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، إن كان من المطر فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها ، وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه ، وإن كان لا يؤذى إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه ، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق ، فكلبه أولى بالمنع .

منكرات الحمامات

منها الصورة التى تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لاتصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر . فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان .

ومنها كشف العورات والنظر إليها . ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وماتحت السرة لتنحية الوسخ بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها .

ومنها الانبطاح على الوجه بين يدى الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز ، فهذا مكروه إن كان مع حائل ولكن لايكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة . وكذلك كشف العورة للحجام الذمى من الفواحش . فإن المرأة لايجوز لها أن تكشف بدنها للذمية فى الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال ؟

ومنها غمس اليد والأوانى النجسة فى المياه القليلة ، وغسل الإزار والطاس النجس فى الحوض وماؤه قليل ؛ فإنه منجس للماء ، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ويجوز على الحنفية والشافعية وإن اجتمع مالكى وشافعى فى الحمام فليس للشافعى منع المالكى من ذلك إلا بطريق الالتماس واللطف ؛ وهو أن يقول له : إنا نحتاج أن نغسل اليد أولا ثم نغمسها فى الماء ، وأما أنت فمستغن عن إيذائى وتفويت الطهارة على ، وما يجرى مجرى هذا ، فإن مظان الاجتهاد لايمكن الحسبة فيها بالقهر .

ومنها أن يكون فى مداخل بيوت الحمام ومجارى مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر ، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحمامى إهماله فإنه يفضى إلى السقطة ؛ وقد تؤدى السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه وكذلك ترك السدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر ؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به إنسان وانكسر عضو من أعضائه ، وكان ذلك فى موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذى تركه وبين الحمامى ، إذ حقه تنظيف الحمام ، والوجه إيجاب الضمان على تاركه فى اليوم الأول ، وعلى الحمامى فى اليوم الثانى إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة ، والرجوع فى مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات ، فليعتبر بها . وفى الحمام أمور أخر مكروهة ذكرناها فى كتاب الطهارة فلتنظر هناك .

منكرات الضيافة

فمنها فرش الحرير للرجال فهو حرام . وكذلك تبخير البخور فى مجمرة فضة أو ذهب ، أو الشراب أو استعمال ماء الورد فى أوانى الفضة أو ما رءوسها من فضة .

ومنها إسدال الستور وعليها الصور .

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات .

ومنها اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان فى الرجال شباب يخاف الفتنة منهم ، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره . ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج ، ومن لم يجز له الجلوس فلا رخصة له فى الجلوس فى مشاهدة المنكرات . وأما الصور التى على النمارق والزرابى المفروشة فليس منكرا . وكذلك على الأطباق والقصاع ، لا الأوانى المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه . وفى المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها . ومهما كان الطعام حراما ، أو كان الموضع مغصوبا أو كانت الثياب المفروشة حراما فهو من أشد المنكرات ، فإن كان من فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلايجوز الحضور ، إذ لايحل حضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب ، ولايجوز مجالسة الفاسق فى حالة مباشرته للفسق ، وإنما النظر فى مجالسته بعد ذلك ، وأنه هل يجب بغضه فى الله ومقاطعته كما ذكرناه فى باب الحب والبغض فى الله ؟ وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لايجوز

الجلوس معه من غير ضرورة . فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر . والصحيح أن ذلك منكر ويجب نزعه عنه إن كان مميزا لعموم قوله عليه السلام « هذان حرام على ذكور أمتي »[1] وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر ـ لا لكونه مكلفاً ، لكن لأنه يأنس به ، فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه ـ فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده ، فيكون ذلك بذرا للفساد يبذر في صدره ، فتنبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلعها بعد البلوغ . أما الصبي الذي لا يميز فيضعف معنى التحريم في حقه ولا يخلو عن احتمال والعلم عند الله فيه والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز ، نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف . ولا أرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها ، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز الا لحاجة مهمة كالفصد والحجامة والختان : والتزين بالحلق غير مهم بل في التقريط بتعليقه على الأذن وفي المخانق والأسورة كفاية عنه . فهذا وإن كان معتادا فهو حرام والمنع منه واجب ، والاستئجار عليه غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام ؛ إلا أن يثبت من جهة النقل فيه رخصة ، ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة .

ومنها أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته ، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد ؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يجز فان كان المبتدع لا يتكلم ببدعته فيجوز الحضور مع اظهار الكراهة عليه والاعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله . وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه ، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح ـ أعني ما يقل منه ـ فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح . وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات ، كقول الإنسان مثلا : طلبتك اليوم مائة مرة ، وأعدت عليك الكلام ألف مرة ؛ وما يجرى مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد الشهادة به . وسيأتي حد المزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات .

ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر ، بل في المال منكران ؛ أحدهما . الإضاعة . والآخر : الإسراف .

فالإضاعة : تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه ، وهدم البناء من غير غرض . وإلقاء المال في البحر ، وفي معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب ، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعا فصارت كالمعدومة .

وأما الإسراف : فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات ، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة .

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال فنقول : من لم يملك إلا مائة دينار مثلا ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواه فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه قال تعالى ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئا لعياله فطولب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى ﴿ ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ وكذلك قال عز وجل ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ فمن يسرف هذا الإسراف ينكر عليه ويجب على القاضي أن يحجر عليه ؛ إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة ؛ فله أن ينفق جميع ماله في أبواب البر . ومن له عيال أو كان عاجزا عن التوكل فليس له أن يتصدق

(١) حديث « هذا حرامان على ذكور أمتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل .

بجميع ماله . وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضا إسراف محرم ، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ، ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة ، فكذا الدور ، وكذلك القول فى التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح فى جنسه ، ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته : وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها . فقس بهذه المنكرات المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية وخانات الأسواق فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعى استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها فلنقتصر على هذا القدر منها .

المنكرات العامة

اعلم أن كل قاعد فى بيته - أينما كان - فليس خاليا فى هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع فى شروط الصلاة فى البلاد فكيف فى القرى والبوادى ؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون فى مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا فى كل قرية وواجب على كل فقيه - فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية - أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها مغصوب ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج الكافة أجمعين .

أما العالم فلتقصيره فى الخروج . وأما الجاهل فلتقصيره فى ترك التعلم .

وكل عامى عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك فى الإثم . ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها . ولعمرى الإثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق : لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش فهم قد تقلدوا أمرا لابد منه فى صلاح الخلق . وشأن الفقيه وحرفته تبليغ مابلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العلماء هم ورثة الأنبياء . وللإنسان أن يقعد فى بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهى . وكذا كل من تيقن أن فى السوق منكرا يجرى على الدوام أو فى وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود فى البيت ، بل يلزمه الخروج ، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج ، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة مالا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السوادى المكتنف ببلده ، ثم إلى أهل البوادى من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم ، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج مادام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات فى التفريعات النادرة والتعمق فى دقائق العلوم التى هى من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه .

الباب الرابع : فى أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف ، وثانيه والوعظ ، وثالثه التخشين فى القول ، ورابعه المنع بالقهر فى الحمل على الحق بالضرب والعقوبة . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما : التعريف والوعظ . وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ، ويكون مايتولد منه من المحذور أكثر ، وأما التخشين فى القول كقوله : ياظالم يامن لايخاف الله وما يجرى مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه . فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه فى ذات الله تعالى فقتله على ذلك [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر [2] » ووصف النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال « قرن من حديد لا تأخذه فى الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق [3] » ولما علم المتصلبون فى الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار ، قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه فى ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله . وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مانقل علماء السلف ، وقد أوردنا جملة من ذلك فى باب الدخول على السلاطين فى كتاب الحلال والحرام ، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم .

فمنها ماروى من إنكار أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء . وذلك ماروى عن عروة رضى الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عدواته : فقال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : مارأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل سفه أحلامنا وشتم اباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم - أوكما قالوا - فبينما هم فى ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول قال فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى ، فلما مر الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجهه عليه السلام ثم مضى ، فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال « أتسمعون يامعشر قريش : أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » قال : فأطرق القوم حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن مايجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف

---

(١) حديث « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام الى رجل فأمره ونهاه فى ذات الله فقتله على ذلك » أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم فى الباب قبله (٢) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » تقدم

(٣) حديث : وصفه صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بأنه قرن من حديد لاتأخذه فى الله لومة لائم تركه قوله الحق ماله من صديق . أخرجه الترمذى بسند ضعيف مقتصرا على آخر الحديث من حديث على : رحم الله عمر يقول الحق وان كان مرا تركه الحق ماله من صديق . وأما أول الحديث فرواه الطبرانى ان عمر قال لكعب الأحبار كيف تجد نعتى ؟ قال : أجد نعتك قرنا من حديد قال . وما قرن من حديد ؟ قال : أمير شديد لاتأخذه فى الله لومة لائم .

يا أبا القاسم راشدا فوالله ما كنت جهولا قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم مابلغ منكم ومابلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه ؛ فبيناهم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا ؟ أنت الذى تقول كذا ؟ لما كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم أنا الذى أقول ذلك » قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه قال : وقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه دونه يقول ـ وهو يبكى ـ ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ : ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشد مارأيت قريشا بلغت منه (١) وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٢) ؟ وروى أن معاوية رضى الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولانى فقال له : يامعاوية إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك . قال : فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم : مكانكم ! وغاب عن أعينهم ساعة ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال : إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل (٣) » وإنى دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم أنه ليس من كدى ولا من كد أبى فهلموا إلى عطائكم . وروى عن ضبة بن محصن العنزى قال كان علينا أبو موسى الأشعرى أميرا بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه قال : فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول : إن ضبة بن محصن العنزى يتعرض لى فى خطبتى . فكتب إليه عمر : أن أشخصه إلى . قال : فأشخصنى إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال : من أنت ؟ فقلت . أنا ضبة فقال لى : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت . أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولا مال ، فبماذا استحللت ياعمر إشخاصى من مصرى بلا ذنب أذنبته ولا شىء أتيته ؟ فقال : ماالذى شجر بينك وبين عاملى ؟ قال : قلت الآن أخبرك به ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاظنى ذلك منه فقمت إليه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إليك يشكونى . قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبى يغفر الله لك ؟ قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين . قال : ثم اندفع باكيا وهو يقول : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال :

أما الليلة : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماهذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من أفعالك » فقال يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب

---

(١) حديث : عروة قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر مارأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ... الحديث . أخرجه بطوله البخارى مختصرا وابن حبان بتمامه (٢) حديث عبد الله بن عمرو : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث رواه البخارى . (٣) حديث معاوية « الغضب من الشيطان ... الحديث » وفى أوله قصة رواه أبو نعيم فى الحلية وفيه من لا أعرفه .

فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . قال : فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ، ثم قال : والذى بعثك بالحق لاتدخله حتى أدخله فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك، قال :فدخل فلم ير فيه شيئا فحمله فأدخله وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبوبكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم مايجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له « ياأبا بكر لاتحزن إن الله معنا » فأنزل الله سكينته عليه والطمأنينة لأبى بكر فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولانزكى فأتيته لا آلوه نصحا فقلت : ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم . فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحى فوالله لو منعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه، قال : فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر . فهذا يومه . ثم كتب إلى أبى موسى يلومه [1] .

وعن الأصمعى قال : دخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان - وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن وذلك بمكة فى وقت حجه فى خلافته - فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: ياأبا محمد ماحاجتك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولاتغلق بابك دونهم . فقال له : أجل أفعل ، ثم نهض وقام . فقبض عليه عبد الملك فقال : ياأبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال : مالى إلى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ! وقد روى أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما : قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله على ليحدثنى . فوقف الحاجب على الباب مدة فمر به عطاء بن أبى رباح وهو لايعرفه فقال له : ياشيخ ادخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك ؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال: السلام عليك ياوليد اقال : فغضب الوليد على حاجبه وقال له. ويلك أمرتك أن تدخل إلى رجلا يحدثنى ويسامرنى فأدخلت إلى رجلا لم يرض أن يسمينى بالاسم الذى اختاره الله لى. فقال له حاجبه: مامر بى أحد غيره ، ثم قال لعطاء : اجلس ، ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له : بلغنا أن فى جهنم واديا يقال له هبهب أعده الله لكل إمام جائر فى حكمه . فصعق الوليد من قوله ، وكان جالسا بين يدى عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشيا عليه ؛ فقال عمر لعطاء : قتلت أمير المؤمنين . فقبض عطاء على ذراع عمر ابن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال له : ياعمر إن الأمر جد فجد ، ثم قام عطاء وانصرف . فبلغنا عن عمر بن

(١) حديث ضبة بن محصن : كان علينا أبو موسى الأشعرى أميرا بالبصرة وفيه من عمر أنه قال والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وليلته ؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه البيهقى فى دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها البخارى من حديث عائشة بغير هذا السياق واتفق عليها الشيخان من حديث أبى بكر بلفظ آخر ولهما من حديثه قال : قلت يارسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال : ياأبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما . وأما قتاله لأهل الردة ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر كيف تقاتل الناس . . الحديث .

عبد العزيز رحمه الله أنه قال : مكثت سنة أجد ألم غمزته فى ذراعى . وكان ابن أبى شميلة يوصف بالعقل والأدب؛ فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : تكلم ، قال : بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله ؟ فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون ،فقال الرجل : ياأمير المؤمنين إن الناس فى القيامة لاينجون من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبدالملك ثم قال : لاجرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا نصب عينى ماعشت . ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفةفدخلنا عليه ، ودخل الحسن البصرى رحمه الله آخر من دخل ، فقال الحجاج مرحبا بأبى سعيد إلى إلى ، ثم دعا بكرسى فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه ؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه فنال منه ونلنا منه مقاربة له وفرقامن شره ، والحسن ساكت عاض على إبهامه ؛ فقال : يا أبا سعيد مالى أراك ساكتا ؟ قال : ماعسيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى برأيك فى أبى تراب ، قال : سمعت الله جل ذكره يقول ﴿ وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبى عليه السلام وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها . وأقول : إن كانت لعلى هناة فالله حسبه والله ماأجد فيه قولا أعدل من هذا . فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا . قال عامر الشعبى : فأخذت بيد الحسن فقلت : ياأبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره ، فقال : إليك عنى ياعامر ، يقول الناس عامر الشعبى عالم أهل الكوفة . أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه فى رأيه ويحك ياعامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت ، أوسكت فسلمت ؟ قال عامر : ياأبا سعيد قدقلتها وأنا أعلم مافيها ، قال الحسن : فذاك أعظم فى الحجة عليك وأشد فى التبعة . قال : وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذى تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم ، قال ماحملك على هذا ؟ قال : ماأخذ الله على العلماء من المواثيق ﴿ ليبيننه للناس ولايكتمونه ﴾ قال ياحسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك . وحكى أن حطيطا الزيات جىء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فإنى عاهدت الله ـ عند المقام ـ على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول فى ؟ قال : أقول إنك من أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة . قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال: أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه . قال : فقال الحجاج ، ضعوا عليه العذاب . قال : فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا . قال : فقيل للحجاج إنه فى آخر رمق فقال : أخرجوه فارموا به فى السوق . قال جعفر : فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له : حطيط ألك حاجة ؟ قال : شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه . وروى أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرائها فجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبى فجعل لايسأله عن شىء إلا وجد عنده منه علما ، ثم أقبل على الحسن البصرى فسأله ، ثم قال : هما هذان ، هذا رجل أهل الكوفة ـ يعنى الشعبى ـ وهذا رجل

أهل البصرة - يعنى الحسن - فأمر الحاجب فاخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن . فأقبل على الشعبي فقال : ياأباعمرو إنى أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمنى حقهم فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغنى عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه فى بيت المال ومن نيتى أن أرده عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إلى أن لاترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة . فهل على فى هذا تبعة وفى أشباهه من الأمور والنية فيها على ما ذكرت ؟ قال الشعبي . فقلت أصلح الله الأمير إنما السلطان والد يخطىء ويصيب ، قال . فسر بقولى وأعجب به ورأيت البشر فى وجهه وقال فلله الحمد ، ثم أقبل على الحسن فقال : ماتقول ياأبا سعيد قال : قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمنى حقهم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم ، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة وإنى سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة [1] » ويقول : إنى ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن يرجعوا إلى طاعتهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلى أن لاترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه ، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه ؛ ياابن هبيرة اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك ؛ ياابن هبيرة إن الله ليمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وإن أمر الله فوق كل أمر وإنه لاطاعة فى معصية الله وإنى أحذرك بأسه الذى لايرد عن القوم المجرمين . فقال ابن هبيرة : أربع على ظلعك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ؛ فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به وما يعلمه من فضله ونيته . فقال الحسن : ياابن هبيرة ، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد ، ياابن هبيرة : إنك إن تلق من ينصح لك فى دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلق رجلا يغرك ويمنيك . فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه . قال الشعبي : فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصلته فقال : إليك عنى ياعامر ، قال : فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلا لما أدى إليه وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا . فمارأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلامثل الفرس العربى بين المقارف وماشهدنا مشهدا إلا برز علينا . وقال لله عز وجل وقلنا مقاربة لهم . قال عامر الشعبي : وأنا أعاهد الله أن لاأشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحابيه . ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبى بردة فقال له : ما تقول فى القدر ؟ فقال : جيرانك أهل القبور فتفكر فيهم فإن فيهم شغلا عن القدر .

وعن الشافعي رضى الله عنه قال : حدثنى عمى محمد بن على قال : إنى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور

---

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة . رواه البغوى فى معجم الصحابة باسناد لين وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار .

وفيه ابن أبي ذؤيب ، وكان والى المدينة الحسن بن زيد قال : فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن ابن زيد ، فقال الحسن : ياأمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال : فسأله ،فقال : ماتقول فيهم ياابن أبي ذؤيب ؟ فقال : أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس كثيرو الأذى لهم . فقال أبو جعفر : قد سمعتم ، فقال الغفاريون : ياأمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد . فقال : ياابن أبي ذؤيب ما تقول فى الحسن بن زيد ؟ فقال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال : قد سمعت ياحسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ فقال : ياأمير المؤمنين اسأله عن نفسك . فقال : ماتقول فى ؟ قال : تعفينى ياأمير المؤمنين ، قال : اسألك بالله إلا أخبرتنى . قال : تسألنى بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرنى ، قال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش . قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أنى جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك ! قال : فقال ابن أبي ذؤيب ياأمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم ، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال ابن أبي ذؤيب : والله ياأمير المؤمنين إنى لأنصح لك من ابنك المهدى ، قال . فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثورى فقال له : ياأبا الحرث لقد سرنى ماخاطبت به هذا الجبار ولكن ساءنى قولك له ابنك المهدى ، فقال : يغفر الله لك ياأبا عبدالله كلنا مهدى كلنا كان فى المهد .

وعن الأوزاعى عبد الرحمن بن عمرو قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد على واستجلسنى ثم قال لى : ما الذى أبطأ بك عنا يا أوزاعى ؟ قال : قلت وما الذى تريد ياأمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم ، قال : فقلت فانظر ياأمير المؤمنين أن لاتجهل شيئاً مما أقول لك ، قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له ؟ قال : قلت أخاف أن تسمعه ثم لاتعمل به ، قال : فصاح بى الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لامجلس عقوبة [1] فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام . فقلت : ياأمير المؤمنين حدثنى مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثما ويزداد الله بها سخطا عليه [2] » يا أمير المؤمنين حدثنى مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة [3] » ياأمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله . إن الله هو الحق المبين . إن الذى لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رءوفا رحيما مواسيا لهم بنفسه فى ذات يده محمودا عند الله وعند الناس لحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق . وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم ساترا . لاتغلق عليك دونهم الأبواب ولاتقيم دونهم الحجاب . تبتهج بالنعمة عندهم . وتبتئس بما أصابهم من سوء . ياأمير

(١) حديث : الأوزاعى مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة . والقصة بجملتها رواها ابن أبي الدنيا فى كتاب مواعظ الخلفاء ورويناها فى مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد ، وفى إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدى يحدث عنا كير وهو عندى من أهل الصدق وقد رأيت سرد الأحاديث المذكورة فى الموعظة لنذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق وليعرف صحابى كل حديث أو كونه مرسلا فأولها (٢) حديث عطية بن بشر « أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فانها نعمة من الله ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فى مواعظ الخلفاء (٣) حديث عطية بن ياسر « أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وابن عدى فى الكامل فى ترجمة أحمد بن عبيد .

المؤمنين قد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم - أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم - وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه ؟ ياأمير المؤمنين حدثنى مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له : يامحمد ماهذه الجريدة التى كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا [(١)] ؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه ؟ ياأمير المؤمنين حدثنى مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يامحمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا . فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الأعرابى فقال « اقتص منى » فقال الأعرابى : قد أحللتك ؛ بأبى أنت وأمى وما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسى . فدعا له بخير [(٢)] ياأمير المؤمنين رض نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب فى جنة عرضها السموات والأرض التى يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها [(٣)] » ياأمير المؤمنين إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك . ياأمير المؤمنين أتدرى ماجاء فى تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ قال الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فكيف بما عملته الأيدى وحصدته الألسن ؟ ياأمير المؤمنين بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟ ياأمير المؤمنين أتدرى ماجاء فى تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ قال الله تعالى فى الزبور : ياداود إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك فى أحدهما هوى فلا تتمنين فى نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتى ثم لاتكون خليفتى ولا كرامة ، ياداود إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء . يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، ياأمير المؤمنين حدثنى يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيما فقال له : مامنعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد فى سبيل الله قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسنا نجا

---

(١) حديث عروة بن رويم : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين (٢) حديث حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فيه ، وروى أبو داود والنسائى من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتص من نفسه . وللحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه : طعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خاصرة أسيد بن حضير ، فقال أوجعتنى قال اقتص .. الحديث . قال صحيح الإسناد (٣) حديث « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومافيها » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية الأوزاعى معضلا لم يذكر إسناده ورواه البخارى من حديث أنس بلفظ « لقاب » .

بإحسانه وإن كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر فهوى به فى النار سبعين خريفا [١] » فقال له عمر رضى الله عنه ممن سمعت هذا ؟ قال : من أبى ذرّ وسلمان فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : واعمراه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذرّ رضى الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خدّه بالأرض . قال : فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكانى . ثم قلت : ياأمير المؤمنين قدسأل جدك العباس النبى صلى الله عليه وسلم إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبى عليه السلام « ياعباس ياعم النبى نفس تحييها خير من إمارة لاتحصيها [٢] » نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لايغنى عنه من الله شيئا إذ أوحى الله إليه ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ فقال « ياعباس وياصفية عمى النبى ويافاطمة بنت محمد إنى لست أغنى عنكم من الله شيئا إن لى عملى ولكم عملكم [٣] » وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لايقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد لايطلع منه على عورة ولايخاف منه على حرّة ولاتأخذه فى الله لومة لائم . وقال : الأمراء أربعة : فأمير قوى ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد فى سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده [٤] » وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا . وقد بلغنى ياأمير المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة ، فقال له : ياجبريل صف لى النار فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لايضىء جمرها ولايطفأ لهبها ، والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب فى مياه الأرض جميعا لقتل من ذاقه ولو أن ذراعا من السلسلة التى ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعا لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه ؛ فبكى النبى صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال : أتبكى يامحمد وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال « أفلا أكون عبدا شكورا ولم بكيت ياجبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه ، قال : أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهو الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء : ياجبريل ويامحمد إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة [٥] » وقدبلغنى ياأميرالمؤمنين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم إن كنت تعلم أنى أبالى إذا قعد

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر : أن عمر استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة ... الحديث . وفيه مرفوعا « مامن وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى الله يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من هذا الوجه ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار بن أبى الحكم عن أبى وائل : أن عمر استعمل بشربن عاصم فذكر أخصر منه ، وأن بشرا سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم يذكر فيه : سلمان (٢) حديث « ياعباس ياعم النبى نفس تنجيها خير من إمارة لاتحصيها » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا معضلا بغير إسناد ورواه البيهقى من حديث جابر متصلا ومن رواية ابن المنكدر مرسلا وقال هذا هو المحفوظ مرسلا (٣) حديث « ياعباس وياصفية ويافاطمة لاأغنى عنكم من الله شيئا لى عملى ولكم عملكم » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا معضلا دون إسناد ورواه البخارى من حديث أبى هريرة متصلا دون قوله « لى عملى ولكم عملكم » (٤) حديث « شر الرعاة الحطمة » رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزنى متصلا وهو عند ابن أبى الدنيا من الأوزاعى معضلا كما ذكره المصنف . (٥) حديث : بلغنى أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافيخ النار وضعت على النار تسعر ليوم القيامة ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا معضلا بغير إسناد .

الخصمان بين يدى على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلنى طرفة عين . ياأمير المؤمنين إنّ أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وأنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه . فهذه نصيحتى إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لى : إلى أين ؟ فقلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله ، فقال : قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه .وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال : أنا فى غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى ذلك .

وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى ولا يعلم به ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينا هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ومايحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور فى مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور : ماهذا الذى سمعتك تقوله من ظهور البغى والفساد فى الأرض ومايحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ؛ فوالله لقد حشوت مسامعى ماأمرضنى وأقلقنى ؟ فقال : ياأمير المؤمنين إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن على نفسك فقال : الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ماظهر من البغى والفساد فى الأرض أنت . فقال : ويحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدى والحلو والحامض فى قبضتى؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع مادخلك ياأمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح وأمرت بأن لايدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لايحجبوا عنك تجبى الأموال ولاتقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لانخونه وقد سخر لنا ؟ فائتمروا على أن لايصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ماأرادوا وأن لايخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ؛ فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لايرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو

ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ؛ فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولاتنكر ولاتغير ؛ فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ؛ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لاينتهى إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ؛ ولقد كان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى : ياأهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف ؛ ولقد كنت ياأمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال له وزراؤه : مالك تبكى لابكت عيناك ؟ فقال : أما إنى لست أبكى على المصيبة التى نزلت بى ولكن أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب نادوا فى الناس : ألا لايلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفى النهار هل يرى مظلوما فينصفه ؟ هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبى الله لاتغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك ؛ فإنك لاتجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ؛ إن قلت اجمعها لولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، ومامن مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فمايزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست الذى تعطى بل الله يعطى من يشاء ، وإن قلت : أجمع المال لأشيد سلطانى . فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك ماأغنى عنهم ماجمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وماضرك وولد أبيك ماكنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ماأراد . وإن قلت أجمع المال . لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فوالله مافوق ماأنت فيه إلا منزلة لاتدرك إلا بالعمل الصالح ياأمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال: لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لايعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم وهو الذى يرى منك ماعقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك ؟ فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هل يغنى عنك عنده شىء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟ فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته ثم قال . ياليتنى لم أخلق ولم أك شيئا ، ثم قال : كيف احتيالى فيما خولت فيه ولم أرمن الناس إلا خائنا ؟ قال : ياأمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلماء ، قال : قد فروا منى ، قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشىء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور : اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل . وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسى : عليك بالرجل إن لم تأتنى به لأضربن عنقك ، واغتاظ عليه غيظا شديدا فخرج الحرسى يطلب الرجل فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلى فى بعض الشعاب فقعد حتى صلى ثم قال : ياذا الرجل أماتتق الله ؟ قال : بلى ، قال . أما تعرفه ؟ قال : بلى ، قال : فانطلق معى إلى الأمير فقد آلى أن يقتلنى إن لم آته بك ، قال : ليس لى إلى ذلك من سبيل ، قال : يقتلنى ، قال : لا ، قال : كيف ؟ قال : تحسن تقرأ ، قال : لا ، فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوبا فيه شىء فقال : خذه فاجعله فى جيبك فإن فيه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لايرزقه إلا الشهداء ، قلت : رحمك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرنى ماهذا الدعاء ومافضله ؟ قال : من

دعابه مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له رزقه وأعطى أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولايموت إلاشهيدا ، تقول . اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ماتحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا . اللهم إنّ عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك مالا أستوجبه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسى فيما بينى وبينك تتودد إلى بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فعد بفضلك وإحسانك على إنك أنت التواب الرحيم . قال . فأخذته فصيرته فى جيبي ثم لم يكن لى هم غير أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتبسم ثم قال . ويلك وتحسن السحر ؟ فقلت : لاوالله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال . هات الرق الذى أعطاك ، ثم جعل يبكى وقال . وقد نجوت ، وأمر بنسخه وأعطانى عشرة آلاف ، ثم قال . أتعرفه ؟ قلت . لا ، قال ذلك الخضر عليه السلام .

وعن أبى عمران الجونى قال : لما ولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثورى قديما فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هرون إلى زيارته ليخلوا به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هرون فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ، يا أخى قد علمت أنّ الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أنى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وإنى منطو لك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك فى قلبي من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه مابقى من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنانى بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى وإنى استبطأتك فلم تأتنى ، وقد كتبت لك كتابا شوقا منى إليك شديدا ، وقد علمت يا أباعبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليه كتابى فالعجل العجل . فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثورى وخشونته فقال : على برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقانى . فقال : ياعباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثورى فإذا رأيته فالق كتابى هذا إليه وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرنى به . فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو فى المسجد . قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائما وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير . قال عباد : فوقعت الكلمة فى قلبي فخرجت ، فلما رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رءوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد إلى رأسه وردوا السلام على رءوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علانى من هيبتهم الرعدة

ومددت عينى إليهم فقلت إن المصلى هو سفيان فرميت بالكتاب إليه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له فى محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده فى كمه ولفها بعباءته وأخذه ، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فإنى أستغفر الله أن أمس شيئا مسه ظالم بيده . قال عباد : فأخذه بعضهم كأنه خائف من فم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال : اقلبوه واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه فى قرطاس نقى . فقال : اكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب ؟ فقال اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الإيمان . أما بعد : فإنى قد كتبت إليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك فإنك قد جعلتنى شاهدا عليك بإقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفذته فى غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت إلى تشهدنى على نفسك . أما إنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد يا هرون مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما ، ياهرون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ؟ يشربون الخمور ويضربون من يشربها ! ويزنون ويحدون الزانى ؟ ويسرقون ويقطعون السارق ! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أى الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدى الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية ، فاتق الله ياهرون فى رعيتك واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحد بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإنى أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام . قال عباد : فألقى إلى الكتاب منشورا غير مطوى ولا مختوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبى فناديت : ياأهل الكوفة ، فأجابونى فقلت لهم : ياقوم من يشترى رجلا هرب من الله إلى الله ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لى فى المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذى كنت ألبسه مع أمير المؤمنين،

وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذى كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا راجلا، فهزأ بى من كان على باب الخليفة. ثم استؤذن لى فلما دخلت عليه وبصر بى على تلك الحالة قام وقعد، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل مالى وللدنيا مالى وللملك يزول عنى سريعا؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع إلى. فأقبل هرون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه: ياأمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره. فقال هرون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه والشقى من أهلكتموه، وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه. ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفى رحمه الله. فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولى التوفيق.

وعن عبد الله بن مهران قال: حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل، فخرج الناس، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به؛ إذ أقبلت هوادج هرون فكف الصبيان عن الولوع به فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين فكشف هرون السجاف بيده عن وجهه فقال: لبيك يابهلول فقال: يا أمير المؤمنين؛ حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامرى قال: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقة له صهباء؛ لاضرب ولاطرد ولا إليك إليك [1] وتواضعك فى سفرك هذا ياأمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك. قال: فبكى هرون حتى سقطت دموعه على الأرض، ثم قال: يابهلول زدنا رحمك الله قال: نعم ياأمير المؤمنين، رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف فى جماله كتب فى خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار. قال: أحسنت يابهلول، ودفع له جائزة؛ فقال: اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلاحاجة لى فيها، قال: يا بهلول فإن كان عليك دين قضيناه، قال: يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لايجوز. قال: يابهلول فنجرى عليك مايقوتك أو يقيمك، قال: فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال: يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فمحال ان يذكرك وينسانى. قال: فأسبل هرون السجاف ومضى.

وعن أبى العباس الهاشمى عن صالح بن المأمون قال: دخلت على الحرث المحاسبى رحمه الله فقلت له: ياأباعبدالله هل حاسبت نفسك؟ فقال: كان هذا مرة، قلت له: فاليوم؟ قال. أكاتم حالى؟ إنى لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسى ولولا أن يغلبنى فيها فرح ما أعلنت بها. ولقد كنت ليلة قاعدا فى محرابى فإذا أنا بفتى حسن الوجه طيب الرائحة فسلم على ثم قعد بين يدى فقلت له من أنت؟ فقال: أناواحد من السياحين أقصد المتعبدين فى محاريبهم ولا أرى لك اجتهادا فأى شىء عملك؟ قال: قلت له؛ كتمان المصائب واستجلاب الفوائد، قال: فصاح وقال: ماعلمت أن أحدا بين جنبى المشرق والمغرب هذه صفته؟ قال الحرث: فأردت أن أزيد عليه فقلت له: أماعلمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم ويسألون الله كتمان ذلك عليهم فمن أين تعرفهم؟ قال: فصاح صيحة غشى عليه منها فمكث عندى يومين لايعقل، ثم أفاق وقد أحدث فى ثيابه، فعلمت إزالة عقله فأخرجت له

(1) حديث قدامة بن عبد الله العامرى: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقة له صهباء لاضرب ولا طرد ولا إليك إليك. أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه دون قوله منصرفا من عرفة وإنما قالوا: يرمى الجمرة، وهو الصواب وقد تقدم فى الباب الثانى.

ثوبا جديدا وقلت له : هذا كفني قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك فقال : هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج فقلت له : أين تريد ؟ فقال لى ؟ قم معى ، فلم يزل يمشى حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال : ياظالم أنا ظالم إن لم أقل لك ياظالم ، أستغفر الله من تقصيرى فيك ، أما تتقى الله تعالى فيما قد ملكك ؟ وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبلى فلم أجد لنفسى فيه حظا فتعلقت بموعظتك لعلى ألحقهم ، قال : فأمر بضرب عنقه ، فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفا فى ذلك الثوب ومناد ينادى : من ولى هذا فليأخذ ، قال الحرث : فاختبأت عنه فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنت معهم لاأعلمهم بحاله . فأقمت فى مسجد بالمقابر محزونا على الفتى فغلبتنى عيناى فإذا هو بين وصائف لم أر أحسن منهن وهو يقول : يا حارث أنت والله من الكاتمين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون ربهم ، قلت : ومافعلوا ؟ قال الساعة يلقونك ، فنظرت إلى جماعة ركبان فقلت : من أنتم ؟ قالوا : الكاتمون أحوالهم حرك هذا الفتى كلامك له فلم يكن فى قلبه بما وصفت شىء نخرج للأمر والنهى وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لعبده .

وعن أحمد بن إبراهيم المقرى قال ؛ كان أبو الحسين النورى رجلا قليل الفضول لايسأل عما لايعنيه ولايفتش عما لايحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكرا غيره ولوكان فيه تلفه ، فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحامين يتطهر للصلاة إذ رأى زورقا فيه ثلاثون دنا مكتوب عليها بالقار « لطف » ، فقرأه وأنكره لأنه لم يعلم فى التجارات ولافى البيوع شيئا يعبر عنه بلطف . فقال للملاح : إيش فى هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك امض فى شغلك ؟ فلما سمع النورى من الملاح هذا القول ازداد تعطشا إلى معرفته فقال : أحب أن تخبرنى إيش فى هذه الدنان ؛ قال : وإيش عليك أنت والله صوفى فضولى ، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتمم به مجلسه ؟ فقال النورى : وهذا خمر ؟ قال : نعم ، فقال : أحب أن تعطينى ذلك المدرى ، فاغتاظ الملاح عليه وقال لغلامه : أعطه حتى أنظر مايصنع ، فلما صارت المدرى فى يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرها دنا دنا حتى أتى على آخرها إلا دنا واحدا ، والملاح يستغيث ، إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النورى وأشخصه إلى حضرة المعتضد ـ وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس فى أنه سيقتله ـ قال أبو الحسين : فأدخلت عليه وهو جالس على كرسى حديد وبيده عمود يقلبه فلما رآنى قال : من أنت ؟ قلت : محتسب ، قال : ومن ولاك الحسبة ؟ قلت : الذى ولاك الإمامة ولانى الحسبة ياأمير المؤمنين ، قال : فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : ماالذى حملك على ماصنعت ؟ فقلت: شفقة منى عليك إذ بسطت يدى إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه . قال فأطرق مفكرا فى كلامى ثم رفع رأسه إلى وقال : كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان ؟ فقلت : فى تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن ، فقال : هات خبرنى ، فقلت : ياأمير المؤمنين إنى أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لى بذلك وغمر قلبى شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عنى فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدن ، فاستشعرت نفسى كبرا على أنى أقدمت على مثلك فمنعت ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال ، فقال المعتضد : اذهب فقد أطلقنا يدك غير ماأحببت أن تغيره من المنكر . قال أبو الحسين فقلت : يا أمير المؤمنين بغض إلى التغيير لأنى كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطى فقال المعتضد : ما حاجتك ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين تأمر بإخراجى سالما فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة ، فكان أكثر أيامه بها خوفا من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد ، فأقام بالبصرة إلى توفى المعتضد ثم رجع إلى بغداد .

فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم فى القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها . وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال .

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر : من ربع العادات الثانى من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأدب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه ؛ وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها ، وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها ، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها . ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه . ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية ، ولقد كنت عزمت على أن أختم ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيت كل كتاب من ربع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستثقلت تكريرها وإعادتها ، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات ، فرأيت أن أقتصر فى هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد فأسردها مجموعة فصلا فصلا محذوفة الأسانيد ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التى شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلاهم رتبة وأجلهم قدرا فكيف بمجموعها ؟ ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ثم ذكر معجزاته التى صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنتزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم . والله تعالى ولى التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين فى الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطرين . ولنذكر فيه أولا بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن ، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه ، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه ، ثم بيان كلامه وضحكه ، ثم بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام ، ثم بيان أخلاقه وآدابه فى اللباس ، ثم بيان عفوه مع القدرة ثم بيان إغضائه عما كان يكره ، ثم بيان سخاوته وجوده ، ثم بيان شجاعته وبأسه ، ثم بيان تواضعه ، ثم بيان صورته وخلقته ، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم .

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول فى دعائه «اللهم حسن خلقى وخلقى [١] » ويقول « اللهم جنبنى منكرات الأخلاق [٢] » فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن .

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن [٣] .

وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقوله ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ وقوله ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ وقوله ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم [٤] » فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ تأديبا له على ذلك .

وأمثال هذه التأديبات فى القرآن لاتحصر وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق [٥] » ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق بما أوردناه فى كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق فلا نعيده ، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه ثم انظر إلى عميم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى ؟ فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ثم بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها [٦] قال على رضى الله عنه يا عجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها مما تدل على سبيل النجاة . فقال له رجل : أسمعته من رسول الله

---

(١) حديث : كان يقول فى دعائه « اللهم حسن خلقى وخلقى » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولفظهما « اللهم أحسنت خلقى فأحسن خلقى » وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان (٢) حديث « اللهم جنبنى منكرات الأخلاق » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك وقال الترمذى « اللهم إنى أعوذ بك » (٣) حديث سعد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن . رواه مسلم ووهم الحاكم فى قوله إنهما لم يخرجاه . (٤) حديث : كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد ... الحديث ، فى نزول « ليس لك من الأمر شىء » أخرجه مسلم من حديث أنس وذكره البخارى تعليقا (٥) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وقد تقدم فى آداب الصحبة .
(٦) حديث « إن الله يحب معالى الأخلاق ويبغض سفسافها » أخرجه البيهقى من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلا ورجالهما ثقات .

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية فى السبى فقالت : يامحمد إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائى . فقال صلى الله عليه وسلم « ياجارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق » فقام أبو بردة بن نيار فقال : يارسول الله ؛ الله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال « والذى نفسى بيده لايدخل الجنة إلا حسن الأخلاق [1] » وعن معاذ بن جبل عن النبى -صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال [2] » ومن ذلك حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعيادة المريض المسلم براكان أو فاجرا وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت ـ مسلما كان أو كافرا ـ وتوقير ذى الشيبة المسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعفو والإصلاح بين الناس والجود والكرم والسماحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس واجتناب ماحرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها وكل ذى وتر وكل ذى دخل والغيبة والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغى والعدوان والظلم . قال أنس رضى الله عنه . فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشا ـ أو قال عيبا ، أو قال شينا ـ إلا حذرناه ونهانا عنه [3] ويكفى من ذلك كله هذه الآية ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية وقال معاذ : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يامعاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أوتطيع آثما أوتعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية [4] » فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

بيان جملة من محاسن أخلاقه التى جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس [5] وأشجع الناس [6] وأعدل الناس [7] وأعف الناس لم تمس يده قط

---

(١) حديث على قوله : واعجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ... الحديث . وفيه مرفوعا « لما أتى بسبايا طيىء وقفت جارية فى السبى فقالت : يامحمد إن رأيت أن تخلى عنى ... الحديث أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف (٢) حديث معاذ « حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .. الحديث » بطوله لم أقف له على أصل ويغنى عنه حديث معاذ الآتى بعده بحديث (٣) حديث أنس : لم يدع صلى الله عليه وسلم نصيحة جميلة إلاوقد دعانا إليها وأمرنا بها . لم أقف له على اسناد وهو صحيح من حيث الواقع (٤) حديث « يامعاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد وقد تقدم فى آداب الصحبة (٥) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس . أخرجه أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الرحمن بن أبزى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس ... الحديث . وهو مرسل . وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام فى قصة اسلام زيد بن شعنة من أحبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب : ياعمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولاتزيده شدة الجهل عليه الا حلما فقد اختبرتهما .. الحديث »
(٦) الحديث : أنه كان أشجع الناس . متفق عليه من حديث أنس (٧) حديث : كان أعدل الناس . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على بن أبى طالب فى الحديث الطويل فى صفته صلى الله عليه وسلم : لايقصر عن الحق ولايجاوزه . وفيه :

يد امرأة لايملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه (١) وكان أسخى الناس (٢) لايبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه (٣) لايأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر مايجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله (٤) لايسأل شيئا إلا أعطاه (٥) ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء (٦) وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله (٧) ويقطع اللحم معهن (٨) وكان أشد الناس حياء لايثبت بصره فى وجه أحد (٩) ويجيب دعوة العبد والحر (١٠) ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها (١١)

= قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء .. الحديث . وفيه من لم يسم (١) حديث : كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لايملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : مامست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها (٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أسخى الناس . أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « فضلت على الناس بأربع . بالسخاء والشجاعة ... الحديث . ورجاله ثقات. وقال صاحب الميزان إنه منكر وفى الصحيحين من حديثه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس واتفقا عليه من حديث ابن عباس . وتقدم فى الزكاة (٣) حديث : كان لايبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه . أخرجه أبو داود من حديث بلال فى حديث طويل فيه : أهدى صاحب فدك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركائب عليهن كسوة وطعام وبيع بلال لذلك ووفاء دينه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى المسجد وحده . وفيه : قال « فضل شيء » قلت : نعم ، ديناران قال « انظر أن تريحنى منهما فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما » فلم يأتنا أحد فبات فى المسجد حتى أصبح وظل فى المسجد اليوم الثانى حتى إذا كان فى آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى العتمة دعانى فقال « مافعل الذى قبلك ؟ » قلت : قد أراحك الله منه ؛ فكبر وحمد الله شفقا من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه ... الحديث . وللبخارى من حديث عقبة بن الحارث : ذكرت وأنا فى الصلاة فكرهت أن يمسى ويبيت عندنا فأمرت بقسمته . ولأبى عبيد فى غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسلا : كان لايقبل مالا عنده ولايبيته (٤) حديث : كان لايأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر مايجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله . متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم فى الزكاة .

(٥) حديث : كان لايسئل شيئاً إلا أعطاه . أخرجه الطيالسى والدارمى من حديث سهل بن سعد وللبخارى من حديثه : فى الرجل الذى سأله الشملة فقيل له سألته إياها وقد علمت أنه لايرد سائلا ... الحديث . ولمسلم من حديث أنس : ماسئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وفى الصحيحين من حديث جابر : ماسئل شيئاً قط فقال : لا (٦) حديث : أنه كان يؤثر مما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام . هذا معلوم ويدل عليه مارواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم توفى ودرعه مرهونة بعشرين صاعا من طعام أخذه لأهله . وقال ابن ماجه بثلاثين صاعا من شعير . وإسناده جيد والبخارى من حديث عائشة : توفى ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين وفى رواية البيهقى : بثلاثين صاعا من شعير .

(٧) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله . أخرجه أحمد من حديث عائشة : كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته . ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ : ويرقع الثوب . وللبخارى من حديث عائشة : كان يكون فى مهنة أهله .

(٨) حديث : أنه كان يقطع اللحم . أخرجه أحمد من حديث عائشة : أرسل إلينا آل أبى بكر بقائمة شاة ليلا فأمسكت وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أوقالت ـ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت . وفى الصحيحين من حديث عبد الرحمن ابن أبى بكر فى أثناء حديث : وايم الله مامن الثلاثين ومائة إلا حز له رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها .

(٩) حديث : كان من أشد الناس حياء لايثبت بصره فى وجه أحد . أخرجه الشيخان من حديث أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها (١٠) حديث : كان يجيب دعوة العبد والحر . أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس : كان يجيب دعوة المملوك . قال الحاكم صحيح الإسناد . قلت : بل ضعيف وللدارقطنى فى غرائب مالك وضعفه والخطيب فى أسماء من روى عن مالك من حديث أبى هريرة : كان يجيب دعوة العبد إلى أى طعام دعى ويقول « لودعيت إلى كراع لأجبت » . وهذا بعمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة : كان لايدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا اجابه ... الحديث . وهو مرسل (١١) حديث : كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها أخرجه البخارى من حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها . وأما ذكر : جرعة اللبن ، وفخذ الأرنب . ففى الصحيحين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة فشربه . ولأحمد من =

ويأكلها ولا يأكل الصدقة (١) ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين (٢) يغضب لربه ولا يغضب لنفسه (٣) وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك (٤) وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به (٥) وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع (٦) ومرة يأكل ماحضر ولا يرد ماوجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد تمرا دون خبز أكله (٧) وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله ، لا يأكل متكئا (٨) ولا على خوان (٩) منديله باطن قدميه (١٠) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية (١١) حتى لقى الله تعالى إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا يجيب الوليمة (١٢)

= حديث عائشة : أهدت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا ... الحديث . وفى الصحيحين من حديث أنس : أن أبا طلحة بعث بورك أرنب أو فخذها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله (١) حديث : كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٢) حديث : كان لا يستكبر أن يمشى مع المسكين . أخرجه النسائى والحاكم من حديث عبد الله بن أبي أوفى بسند صحيح وقد تقدم فى الباب الثانى من آداب الصحبة ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبى سعيد الخدرى وقال صحيح على شرط الشيخين (٣) حديث : كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث هند ابن أبي هالة وفيه : وكان لا تغضبه الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وفيه من لم يسم (٤) حديث : وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد فى عدد من معه فأبى وقال « أنا لا أستنصر بمشرك » أخرجه مسلم من حديث عائشة : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال جئت لأتبعك وأصيب معك فقال له « أتؤمن بالله ورسوله » قال : لا . قال « فارجع فلن أستعين بمشرك ... الحديث » (٥) حديث : وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة . . الحديث . متفق عليه من حديث سهل بن أبى حثمة ورافع بن خديج والرجل الذى وجد مقتولا هو عبد الله ابن سهل الأنصارى .

(٦) حديث : كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . متفق عليه من حديث جابر فى قصة حفر الخندق وفيه : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم شد على بطنه حجرا ؛ وأغرب ابن حبان فقال فى صحيحه إنما هو الحجز — بضم الحاء وآخره زاى — جمع حجزة وليس بمتابع على ذلك . ويرد على ذلك مارواه الترمذى من حديث أبى طلحة : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . ورجاله كلهم ثقات

(٧) حديث : كان يأكل ماحضر ولا يرد ماوجد ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله . انتهى . هذا كله معروف من أخلاقه ففى الترمذى من حديث أم هانئ دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أعندك شىء ؟ » قلت : لا ، إلا خبز يابس وخل فقال « هات » الحديث ، وقال حسن غريب وفى كتاب الشمائل لأبى الحسن بن الضحاك بن المقرى من رواية الأوزاعى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أبالى مارددت به الجوع » وهذا معضل ، ولمسلم من حديث جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا : ماعندنا إلا خل ، فدعا به ... الحديث . وله من حديث أنس : رأيته مقعيا يأكل تمرات والترمذى وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جنبا مشويا فأكل منه ... الحديث . وللشيخين من حديث عائشة : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا خبز بر حتى مضى لسبيله . لفظ مسلم وفى رواية له : ماشبع من خبز شعير يومين متتابعين . والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس : كان أكثر خبزهم الشعير . وللشيخين من حديث عائشة : كان يحب الحلواء والعسل . ولهما من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبنا فدعا بماء فمضمض . والنسائى من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ وإسناده صحيح (٨) حديث : أنه كان لا يأكل متكئا . تقدم فى آداب الأكل من الباب الأول (٩) حديث : أنه كان لا يأكل على خوان . تقدم فى الباب المذكور (١٠) حديث : كان منديله باطن قدمه . لا أعرفه من فعله وإنما المعروف فيه مارواه ابن ماجه من حديث جابر : كنا زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا . وقد تقدم فى الطهارة (١١) حديث : لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله . تقدم فى جملة الأحاديث التى قبله بثلاثة أحاديث (١٢) حديث : كان يجيب الوليمة . هذا معروف وتقدم قوله « لو دعيت إلى كراع لأجبت » وفى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس : أنه كان الرجل من أهل العوالى ليدعو رسول الله =

ويعود المرضى [1] ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس [2] أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر [3] وأبلغهم في غير تطويل [4] وأحسنهم بشرا [5] لايهوله شيء من أمور الدنيا [6] ويلبس ماوجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ماوجد من المباح لبس [7] وخاتمه فضة [8] يلبسه في خنصره الأيمن [9] والأيسر [10] يردف خلفه عبده أو غيره [11] يركب ماأمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولاقلنسوة يعود المرضى في أقصى المدينة [12] يحب الطيب ويكره الرائحة

صلى الله عليه وسلم بنصف الليل على خبز الشعير فيجيب : وإسناده ضعيف (١) حديث : كان يعود المريض ويشهد الجنازة أخرجه الترمذي وضعفه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف ، وقال صحيح الإسناد وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده الجنائز (٢) حديث : كان يمشي وحده بين أعدائه بلا حارس . أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال « انصرفوا فقد عصمني الله » قال الترمذي غريب وقال الحاكم صحيح الإسناد .

(٣) حديث : كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبر . رواه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته صلى الله عليه وسلم : هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه ــ الى أن قال ــ متواضع في غير ذلة ــ وفيه ــ ذائب الإطراق . وإسناده ضعيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند النسائي من حديث ابن أبي أوفى : كان لايأنف ولايستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين ... الحديث . وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء : فجلس وجلسنا كأن على رءوسنا الطير .. الحديث . ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير (٤) حديث : كان أبلغ الناس من غير تطويل . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان يحدث حديثا لوعده العاد لأحصاه . ولهما من حديثها : لم يكن يسرد الحديث كسردكم علقه البخاري ووصله مسلم زاد الترمذي : ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة : يتكلم بجوامع الكلم فصل لافضول ولاتقصير (٥) حديث : كان أحسنهم بشرا . أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق ... الحديث وله في الجامع من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : مارأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت : وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث : كان لايهوله شيء من أمور الدنيا . أخرجه أحمد من حديث عائشة : ماأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا وماأعجبه أحد قط إلا ذو تقى وفي لفظ له : ما أعجب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذو تقى . وفيه ابن لهيعة (٧) حديث : كان يلبس ماوجد فمرة شملة ومرة حبرة ومرة جبة صوف ماوجد من المباح لبس . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : جاءت امرأة ببردة . قال سهل : هل تدرون ما البردة ؟ هي الشملة منسوج في حاشيتها وفيه : فخرج إلينا وأنها لإزاره . . الحديث ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في شملة قد عقد عليها . فيه الأحوص بن حكيم مختلف فيه وللشيخين من حديث أنس : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة . ولهما من حديث المغيرة بن شعبة وعليه جبة من صوف (٨) حديث : خاتمه فضة . متفق عليه من حديث أنس : اتخذ خاتما من فضة (٩) حديث : لبسه الخاتم في خنصره الأيمن أخرجه مسلم من حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة في يمينه ، وللبخاري من حديثه : فإني لأرى بريقه في خنصره (١٠) حديث : تختمه في الأيسر أخرجه مسلم من حديث أنس : كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه ــ وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى ــ

(١١) حديث : لإردافه خلفه عبده أو غيره : أردف صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد من عرفة . كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة ، وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة وهو مولاه وابن مولاه ، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة .

(١٢) حديث : كان يركب ماأمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة راجلا ومرة حافيا بلا رداء ولاعمامة ولاقلنسوة ، يعود المرضى في أقصى المدينة . ففي الصحيحين من حديث أنس : ركوبه صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة . ولمسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه الفرس عريا حين انصرف من جنازة ابن الدحداح ولمسلم من حديث سهل بن سعد : كان للنبي صلى الله عليه وسلم فرس يقال له : اللحيف . ولهما من حديث ابن عباس : طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير . ولهما من حديث البراء : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء يوم حنين . ولهما من حديث أسامة : أنه صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على إكاف .. الحديث . ولهما من حديث ابن عمر : كان يأتي قبا راكبا وماشيا . ولمسلم من حديثه في عيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة : فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشي في السباخ ... الحديث .

الرديئة [١] ويجالس الفقراء [٢] ويؤاكل المساكين [٣] ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم [٤] يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم [٥] لايجفو على أحد [٦] يقبل معذرة المعتذر إليه [٧] يمزح ولا يقول إلا حقا [٨] يضحك من غير قهقهة [٩] يرى اللعب المباح فلاينكره [١٠] يسابق أهله [١١] وترفع الأصوات عليه فيصبر [١٢] وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها [١٣] وكان له عبيد وإماء لايرتفع عليهم فى

---

(١) حديث : كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الرديئة . أخرجه النسائي من حديث أنس . حبب الى النساء والطيب وأبو داود والحاكم من حديث عائشة : أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فخلعها وكان يعجبه الريح الطيبة . لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولابن عدى من حديث عائشة كان يكره أن يوجد منه الا ريح طيبة . (٢) حديث : كان يجالس الفقراء . أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد : جلست فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضا من العرى . . . الحديث . وفيه : فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا . . الحديث . وابن ماجه من حديث خباب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا . . . الحديث فى نزول قوله تعالى ﴿ ولاتطرد الذين يدعون ربهم ﴾ إسنادهما حسن (٣) حديث : مؤاكلته للمساكين أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لايأوون الى أهل ولا مال ولاعلى أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل اليهم وأصاب منها وأشركهم فيها . (٤) حديث : كان يكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على الطويل فى صفته صلى الله عليه وسلم : وكان من سيرته إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين . وفيه . ويؤلفهم ولاينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . . . الحديث . وللطبراني من حديث جرير فى قصة إسلامه . فألقى الى كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه . وإسناده جيد ورواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الأنصارى عن أبيه نحوه وقال صحيح الإسناد (٥) حديث . كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس . كان يجل العباس إجلال الوالد والوالدة . وله من حديث سعد بن وقاص . أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن عليا فقال « ماأنا أخرجكم وأسكنه ولكن الله أخرجكم وأسكنه » قال فى الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني وفيه مسلم الملائى ضعيف . فآثر عليا لفضله بتقدم إسلامه وشهوده بدرا والله أعلم وفى الصحيحين من حديث أبي سعيد لايبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر . (٦) حديث . كان لايجفو على أحد . رواه أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى فى اليوم والليلة من حديث أنس كان قلما يواجه رجلا بشىء يكرهه . وفيه ضعف وللشيخين من حديث أبي هريرة : أن رجلا استأذن عليه صلى الله عليه وسلم فقال « بئس أخو العشيرة فلما دخل ألان له القول . . . الحديث »

(٧) حديث . يقبل معذرة المعتذر إليه . متفق عليه من حديث كعب بن مالك فى قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه : طفق المخلفون يعتذرون اليه فقبل منهم علانيتهم . . . الحديث . (٨) حديث : يمزح ولايقول إلا حقا . أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذى بلفظ : قالوا انك تداعبنا : قال « إنى ولا أقول إلا حقا » وقال حسن . (٩) حديث : ضحكه من غير قهقهة أخرجه الشيخان من حديث عائشة : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم . والترمذى من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم الا تبسما . قال صحيح غريب وله فى الشمائل فى حديث هند بن أبي هالة : جل ضحكه التبسم . (١٠) حديث : يرى اللعب المباح ولايكرهه . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : فى لعب الحبشة بين يديه فى المسجد وقال لهم « دونكم يابنى أرفدة » وقد تقدم فى كتاب السماع . (١١) حديث: مسابقته صلى الله عليه وسلم أهله . أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة : فى مسابقته لها : وتقدم فى الباب الثالث من النكاح . (١٢) حديث : ترفع الأصوات عنده فيصبر . أخرجه البخارى من حديث عبد الله بن الزبير : قدم ركب من بنى تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبوبكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ماأردت الا خلافى ؟ وقال عمر : ماأردت خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ . (١٣) حديث : وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . أخرجه محمد بن سعد فى الطبقات من حديث أم سلمة : كان عيشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن ـ أوقالت أكثر عيشنا ـ كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح بالغابة . . . الحديث . وفى رواية له : كانت لنا أعنز سبع فكان الراعى يبلغ بهن مرة الحمى ومرة أحدا ويروح بهن علينا وكانت لقاح بذى الجبل فيؤوب الينا ألبانهم بالليل . . . الحديث . وفى إسنادهما محمد بن عمر الواقدى ضعيف فى الحديث ، وفى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع : كانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترعى بذى قرد . . . الحديث. ولأبى داود من حديث لقيط بن صبرة . إنا غنم مائة لانريد أن تزيد فإذا ولد الراعى بهمة ذبحنا مكانها شاة . . . الحديث

مأكل ولا ملبس [(١)] ولا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أوفيما لابد له منه من صلاح نفسه [(٢)] يخرج إلى بساتين أصحابه [(٣)] لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولايهاب ملكا لملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا [(٤)] قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لايقرأ ولا يكتب ، نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقره وفى رعاية الغنم يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول [(٥)] . وفقنا الله لطاعته فى أمره والتأسى به فى فعله آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

مما رواه أبو البحترى قال : ماشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة [(٦)] وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة [(٧)] وقيل له وهو فى القتال : لو لعنتهم يارسول الله فقال « إنما بعثت

---

(١) حديث : كان له عبيد وإماء فلا يرتفع عليهم فى مأكل ولاملبس . أخرجه محمد بن سعد فى الطبقات من حديث سلمى قالت : كان خدم النبي صلى الله عليه وسلم أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن كلهن . وإسناده ضعيف ، وروى أيضا أن أبابكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأسماء خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر : بركة — أم أيمن — وزيد ابن حارثة وأبا كبشة وأنسة وشقران وسفينة وثوبان ورباحا ويسارا وأبا رافع وأبا مويهبة ورافعا ، أعتقهم كلهم ، وفضالة ومدعما وكركرة وروى أبوبكر بن الضحاك فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد ضعيف : كان صلى الله عليه وسلم يأكل مع خادمه . ومسلم من حديث أبى اليسر « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ... الحديث » (٢) حديث : لايمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لابد منه من صلاح نفسه . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على بن أبى طالب : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة ... الحديث . (٣) حديث : يخرج إلى بساتين أصحابه . تقدم فى الباب الثالث من آداب الأكل (خروجه صلى الله عليه وسلم إلى بستان أبى الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى وغيرهما) .

(٤) حديث : لايحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولايهاب ملكا لملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا . أخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ماتقولون فى هذا ؟ » قالوا : حرى إن خطب أن ينكح ... الحديث . وفيه : فمر رجل من فقراء المسلمين فقال « ماتقولون فى هذا ؟ » قالوا : حرى إن خطب أن لاينكح ... الحديث . وفيه « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » ومسلم من حديث أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عزوجل . (٥) حديث : قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لايقرأ ولايكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى وفى فقر وفى رعاية الغنم لاأب له ولاأم فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين ومافيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول . هذا كله معروف معلوم فروى الترمذى فى الشمائل من حديث على بن أبى طالب فى حديثه الطويل فى صفته : وكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه ... الحديث . وفيه : فسألته عن سيرته فى جلسائه فقال كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ... الحديث . وفيه : كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه . وفيه : قد ترك نفسه من ثلاث : من المراء والإكثار وما لايعنيه ... الحديث . وقد تقدم بعضه ، وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس فى قوله ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك ﴾ قال : كان نبى الله صلى الله عليه وسلم أميا لايقرأ ولايكتب . وقد تقدم فى العلم والبخارى من حديث ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ﴾ وأحمد وابن حبان من حديث أم سلمة فى قصة هجرة الحبشة : أن جعفرا قال للنجاشى أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ... الحديث . ولأحمد من حديث أبى بن كعب : إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر فإذا كلام فوق رأسى .. الحديث والبخارى من حديث أبى هريرة : كنت أرعاها — أى الغنم — على قراريط لأهل مكة ولأبى يعلى وابن حبان من حديث حليمة : إنما نرجو كرامة الرضاعة من والد المولود وكان يتيما ... الحديث . وتقدم حديث « بعثت بمكارم الأخلاق » (٦) حديث « ماشتم أحدا من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة » متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه « فأى المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة » وفى رواية « فاجعلها زكاة ورحمة » وفى رواية « فاجعلها له كفارة وقربة » وفى رواية « فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة » (٧) حديث : مالعن امرأة ولا خادما قط . المعروف : ماضرب . مكان مالعن . كما هو متفق عليه من حديث عائشة وللبخارى من حديث أنس : لم يكن فحاشا ولا لعانا . وسيأتى الحديث الذى بعده فيه هذا المعنى » =

رحمة ولم أبعث لعانا [١] » وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له [٢] وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شىء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك [٣] وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته [٤] وقال أنس رضى الله عنه : والذى بعثه بالحق ماقال لى فى شىء قط كرهه « لم فعلته ؟ » ولا لامنى نساؤه إلا قال « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر [٥] » قالوا : وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعا ، إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض [٦] وقد وصفه الله تعالى فى التوراة قبل أن يبعثه فى السطر الأول فقال : محمد رسول الله عبدى المختار لافظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه . وكذلك نعته فى الإنجيل . وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام [٧] ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف [٨] وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر [٩] وكان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها [١٠] وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله [١١] وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة؟ »

---

(١) حديث « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث : كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له . أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة : قالوا يارسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع عليهم فقيل : هلكت دوس ، فقال « اللهم اهد دوسا وائت بهم » (٣) حديث : ماضرب بيده أحدا قط الا أن يضرب فى سبيل الله وماانتقم فى شىء صنع اليه الا أن تنتهك حرمة الله ... الحديث. متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة (٤) حديث : ماكان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته أخرجه البخارى تعليقا من حديث أنس : ان كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت ووصله ابن ماجه وقال : فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة فى حاجتها . وقد تقدم ، وتقدم أيضاً من حديث ابن أبى أوفى : ولا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين حتى يقضى لها حاجتها

(٥) حديث أنس : والذى بعثه بالحق ماقال فى شىء قط كرهه « لم فعلته ؟ » ولا لامنى أحد من أهله إلا قال « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر » أخرجه الشيخان من حديث أنس : ماقال لشىء صنعته؟ « لم صنعته » ولا لشىء تركته « لم تركته : » وروى أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث له قال فيه : ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فإن عاتبنى أحد من أهله قال « دعوه فلو قدر شىء كان » وفى رواية له « كذا قضى » (٦) حديث . ماعاب مضجعا ان فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض . لم أجده بهذا اللفظ والمعروف . ماعاب طعاما . ويؤخذ من عموم حديث على بن أبى طالب . ليس بفظ ، الى أن قال . ولا عياب رواه الترمذى فى الشمائل والطبرانى وأبو نعيم فى دلائل النبوة ، وروى ابن أبى عاصم فى كتاب السنة من حديث أنس . ماأعلمه عاب شيئا قط . وفى الصحيحين من حديث عمر. اضطجاعه على حصير والترمذى وصححه من حديث ابن مسعود نام على حصير فقام وقد أثر فى جنبه . . الحديث (٧) حديث : كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة (٨) حديث : ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف أخرجه الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث على بن أبى طالب وهو من حديث أنس كان إذا لقى الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف . ورواه الترمذى نحوه وقال غريب (٩) حديث : وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس الذى قبله : كان إذا استقبل الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع . لفظ الترمذى وقال غريب .

(١٠) حديث : كان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته . أخرجه أبو داود من حديث أبى ذر : وسأله رجل من عنزة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصافحكم إذا لقيتموه ؟ قال : مالقيته قط إلا صافحنى ... الحديث ، وفيه الرجل الذى من عنزة ولم يسم وسماه البيهقى فى الأدب عبد الله ورويناه فى علوم الحديث للحاكم من حديث أبى هريرة قال : شبك بيدى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وهو عند مسلم بلفظ : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده

(١١) حديث : كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على فى حديثه الطويل فى صفته قال : على ذكر — بالتنوين —

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته [١] وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة [٢] ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه [٣] لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس [٤] وما رؤى قط مادّا رجليه بين أصحابه حتى لايضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعا لاضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة [٥] وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه [٦] وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل [٧] وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه [٨] حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال الله تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم [٩] ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به [١٠] ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدئ لهن الكنى [١١]

---

(١) حديث : كان لايجلس اليه أحد وهو يصلى الا خفف صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة ؟ » فإذا فرغ من حاجته عاد الى صلاته لم أجدله أصلا (٢) حديث : كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة . أخرجه أبو داود والترمذى فى الشمائل من حديث أبي سعيد الخدرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس فى المجلس احتبى بيديه وإسناده ضعيف والبخاري من حديث ابن عمر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة محتبيا بيديه .

(٣) حديث : انه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه . أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى ذر: قالا كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهرانى أصحابه فيجىء الغريب فلا يدرى أيهم هو ؟ حتى يسأل ... الحديث

(٤) حديث : انه حيثما انتهى به المجلس جلس . رواه الترمذى فى الشمائل فى حديث على الطويل .

(٥) حديث : مارؤى قط مادا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد الا أن يكون المكان واسعا لاضيق فيه أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك من حديث أنس وقال باطل والترمذى وابن ماجه لم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له ، زاد ابن ماجه قط ، وسنده ضعيف (٦) حديث . كان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولارضاع يجلسه عليه . أخرجه الحاكم وصحح اسناده من حديث أنس . دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه . فأخذ بردته فألقاها عليه فقال « اجلس عليها ياجرير » الحديث وفيه « فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة . وللطبرانى فى الكبير من حديث جرير . فألقى الى كساء ولأبى نعيم فى الحلية . فبسط الى رداءه .

(٧) حديث كان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحته ... الحديث تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

(٨) حديث . مااستصفاه أحد الا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس اليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على الطويل وفيه . ويعطى كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة .

(٩) حديث . كان يدعو أصحابه بكناهم اكراما لهم واستمالة لقلوبهم . فى الصحيحين فى قصة الغار من حديث أبى بكر. يا أبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما . وللحاكم من حديث ابن عباس . أنه قال لعمر ياأبا حفص أبصرت وجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر . انه لأول يوم كنانى فيه بأبى حفص . وقال صحيح على شرط مسلم وفى الصحيحين أنه قال لعلى . قم ياأبا تراب وللحاكم من حديث رفاعة بن مالك : أن أبا حسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفت عليه ــ يريد عليا ــ ولأبى يعلى الموصلى من حديث سعد ابن أبى وقاص فقال من هذا ؟ أبو اسحق ؟ فقلت . نعم ، وللحاكم من حديث ابن مسعود . أن النبي صلى الله عليه وسلم كناه أبا عبد الرحمن ولم يولد له . (١٠) حديث . كان يكنى من لم يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به أخرجه الترمذى من حديث أنس . قال كنانى صلى الله عليه وسلم ببقلة كنت أختليها ــ يعنى أبا حمزة ــ قال حديث غريب وابن ماجه . أن عمر قال لصهيب ابن مالك تكتنى وليس لك ولد ؟ قال كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى يحيى . وللطبرانى من حديث أبى بكرة . تدليت ببكرة من الطائف فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم فأنت أبو بكرة . (١١) حديث. كان يكنى النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدئ لهن الكنى . أخرجه الحاكم من حديث أم أيمن فى قصة شربها بول النبي صلى الله عليه وسلم . فقال « يا أم أيمن قومى الى تلك الفخارة .. الحديث » وابن ماجه من حديث عائشة . أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم كل أزواجك كنيته غيرى قال « فأنت أم عبد الله » والبخارى من حديث أم خالد . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « ياأم خالد هذا سناه » وكانت صغيرة وفيه مولى الزبير لم يسم ولأبى داود بإسناد صحيح أنها قالت . يارسول الله كل صواحبي لهن كنى قال « فاكتنى بابنك عبدالله ابن الزبير » .

ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم (١) وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا (٢) وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس (٣) ولم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات (٤) وكان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ثم يقول « علمنيهن جبريل عليه السلام (٥) » .

بيان كلامه وضحكه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما ويقول (٦) : أنا أفصح العرب (٧) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم (٨) وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كخرزات نظمن (٩) قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا كان كلامه نزرا وأنتم تنثرون الكلام نثرا (١٠) قالوا : وكان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ماأراد (١١) وكان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه (١٢) وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة (١٣) وكان طويل السكوت لا يتكلم فى غير

---

(١) حديث . كان يكنى الصبيان . فنى الصحيحين من حديث أنس . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخ له صغير « ياأباعمير ماذفعل النغير » . (٢) حديث . كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا . هذا من المعلوم ويدل عليه اخباره صلى الله عليه وسلم أن بنى آدم خيرهم بطىء الغضب سريع الفىء رواه الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى وقال حديث حسن وهو صلى الله عليه وسلم خير بنى آدم وسيدهم وكان صلى الله عليه وسلم لاينضب لنفسه ولاينتصر لها . رواه الترمذى فى الشمائل من حديث هند ابن أبى هالة . (٣) حديث . كان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس . هــذا من المعلوم ورويناه فى الجزء الأول من فوائد أبى الدحداح من حديث على فى صفة النبي صلى الله عليه وسلم : كان أرحم الناس بالناس .. الحديث بطوله .

(٤) حديث : لم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على الطويل . (٥) حديث : كان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم فى المستدرك من حديث رافع ابن خديج وتقدم فى الأذكار والدعوات . (٦) حديث : كان أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك فى كتاب الشمائل وابن الجوزى فى الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لايدرون ماهو حتى يخبرهم ؟

(٧) حديث « أنا أفصح العرب » أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث أبى سعيد الخدرى : أنا أعرب العرب . وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر قال : قلت يارسول الله مابالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ الحديث : وفى كتاب الرعد والمطر لابن أبى الدنيا فى حديث مرسل : أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : مارأيت أفصح منك ؟

(٨) حديث : إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه : كلام أهل الجنة عربى

(٩) حديث : كان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكأن كلامه خرزات النظم أخرجه الطبرانى من حديث أم معبد وكان منطقه خرزات نظم ينحدرن حلو المنطق لانزر ولاهذر . وقد تقدم وسيأتى فى حديث عائشة بعده : كان إذا تكلم تكلم نزرا وفى الصحيحين من حديث عائشة : كان يحدثنا حديثا لوعده العاد لأحصاه . (١٠) حديث عائشة : كان لايسرد كسردكم هذا كان كلامه نزرا وأنتم تنثرونه نثرا . اتفق الشيخان على أول الحديث وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الخلعى فى فوائده بإسناد منقطع .

(١١) حديث : كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد أخرجه عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع والدارقطنى من حديث ابن عباس بإسناد جيد : أعطيت جوامع الكلم واختصر لى الحديث اختصارا . وشطره الأول متفق عليه — كما سيأتى — قال البخارى بلغنى فى جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة فى الأمر الواحد والامرين ونحو ذلك . وللحاكم من حديث عمر المتقدم : كانت لغة اسمعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظنيها . (١١) حديث : كان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه . رواه الترمذى فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : بعثت بجوامع الكلم . ولأبى داود من حديث جابر : كان فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل . وفيه شيخ لم يسم وله وللترمذى من حديث عائشة : كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه . وقال الترمذى : يحفظه من جلس إليه وقال الترمذى فى اليوم والليلة : يحفظه من سمعه وإسناده حسن .

(١٣) حديث : كان جهير الصوت أحسن الناس نغمة . أخرجه الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث صفوان بن عسال قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر بينا نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى : يامحمد فأجابه رسول الله صلى الله عليه =

حاجة (١) ولا يقول المنكر ولا يقول فى الرضا والغضب إلا الحق (٢) ويعرض عمن تكلم بغير جميل (٣) ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره (٤) وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده (٥) فى الحديث ويعظ بالجد والنصيحة (٦) ويقول « لاتضربوا القرآن بعضه ببعض فإنه أنزل على وجوه (٧) » وكان أكثر الناس تبسما وضحكافى وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم (٨) ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (٩) وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له (١٠) قالوا : ولقد جاءه أعرابى يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لاتفعل ياأعرابى فإنا ننكر لونه فقال : دعونى فوالذى بعثه بالحق نبيا لاأدعه حتى يتبسم ، فقال : يارسول الله بلغنا أن المسيح يعنى الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا أفترى لى بأبى أنت وأمى أنْ أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هزالا أم أضرب فى ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به ؟ قالوا : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال « لابل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين (١١) » قالوا : وكان

= وسلم على نحو من صوته « هاؤم » الحديث . وقال أحمد فى مسنده : وأجابه نحوا مما تكلم به ... الحديث . وقد يؤخذ من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان جهورى الصوت ولم يكن يرفعه دائما ، وقد يقال لم يكن جهورى الصوت وإنما رفع صوته رفقا بالأعرابى حتى لايكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر وللشيخين من حديث البراء : ماسمعت أحدا أحسن صوتا منه .

(١) حديث : كان طويل السكوت لايتكلم فى غير حاجة . أخرجه فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة .

(٢) حديث : لايقول المنكر ولا يقول فى الرضى والغضب إلا الحق . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا تكتب كل شىء ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم فى الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال « اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق » رواه الحاكم وصححه . (٣) حديث : يعرض عمن تكلم بغير جميل . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على الطويل : يتغافل عما لايشتهى الحديث . (٤) حديث : يكنى عما اضطره الكلام بما يكره فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعة « حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » رواه البخارى من حديث عائشة : ومن ذلك ما اتفقا عليه من حديثها فى المرأة التى سألته عن الاغتسال من الحيض « خذى فرصة ممسكة فتطهرى بها ... الحديث » . (٥) حديث : كان إذا سكت تكلم جلساؤه ولايتنازع عنده فى الحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل فى حديث على الطويل . (٦) حديث يعظ بالجد والنصيحة . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ... الحديث . (٧) حديث « لاتضربوا القرآن بعضه ببعض وأنه أنزل على وجوه » أخرجه الطبرانى من حديث عبدالله بن عمرو بإسناد حسن « إن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض » وفى رواية الهروى فى ذم الكلام « إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض » وفى رواية له « أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » وفى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . (٨) حديث : كان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى الصحيحين من حديث جرير : ولا رآنى إلا تبسم . والترمذى فى الشمائل من حديث على : يضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه . ومسلم من حديث جابر بن سمرة : كانوا يتحدثون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم .

(٩) حديث : ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه : متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود فى قصة آخر من يخرج من النار وفى قصة الحبر الذى قال . إن الله يضع السموات على أصبع . ومن حديث أبى هريرة فى قصة المجامع فى رمضان وغير ذلك

(١٠) حديث : كان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة فى أثناء حديثه الطويل : جل ضحكه التبسم (١١) حديث : جاءه أعرابى يوما وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا: لاتفعل ياأعرابى ، فإنا ننكر لونه فقال : دعونى والذى بعثه بالحق نبيا لاأدعه حتى يتبسم . فقال : يارسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ... الحديث . وهو حديث منكر لم أقف له على أصل ويرده قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله : أنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال « هو أهون على الله من ذلك » وفى رواية لمسلم . أنهم يقولون معه جبالا من خبز ولحم . الحديث . نعم فى حديث حذيفة وأبى مسعود المتفق عليهما . إن معه ماء ونارا الحديث ...

من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا مالم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة [1] وكان إذا سر ورضى فهو أحسن الناس رضا فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب - وليس يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان فى أموره كلها [2] وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول « اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه وأرنى المنكر منكرا وارزقنى اجتنابه وأعذنى من أن يشتبه على فأتبع هواى بغير هدى منك واجعل هواى تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم [3] » .

بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد [4] وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف [5] والضفف ما كثرت عليه الأيدى ، وكان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة [6] » وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلى إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد [7] » ، وكان لا يأكل الحار ويقول « إنه غير ذى

---

(١) حديث : كان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا مالم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة . تقدم حديث عبد الله بن الحارث : مارأيت أحدا أكثر تبسما منه . وللطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر : كان إذا نزل عليه الوحى قلت : نذير قوم ، فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا ... الحديث . ولأحمد من حديث على أو الزبير : كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك فى وجهه وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة ، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك وللحاكم من حديث جابر : كان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه واشتد غضبه . وهو عند مسلم بلفظ : كان إذا خطب (٢) حديث : كان إذا سر ورضى فهو أحسن الناس رضا وإن وعظ وعظ بجد وإن غضب - ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء ، وكذلك كان فى أموره كلها ، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما ملاحك الجدر وجهه ، وإسناده ضعيف والمراد به المرآة توضع فى الشمس فيرى ضوءها على الجدار ، وللشيخين من حديث كعب بن مالك قال : وهو يبرق وجهه من السرور . وفيه : وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه ... الحديث ، ومسلم : كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ... الحديث ، وقد تقدم والترمذى فى الشمائل فى حديث هند بن أبى هالة : لا تغضبه الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وقد تقدم (٣) حديث : كان يقول « اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه وأرنى المنكر منكرا وارزقنى اجتنابه وأعذنى من أن يشتبه على فأتبع هواى بغير هدى منك واجعل هواى تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » لم أقف لأوله على أصل ، وروى المستغفرى فى الدعوات من حديث أبى هريرة . كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم إنك سألتنا من أنفسنا مالا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك عنا » ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل « اهدنى لما اختلف فيه » إلى آخر الحديث

بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام

(٤) حديث : كان يأكل ما وجد تقدم (٥) حديث : كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرت عليه الأيدى أخرجه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل من حديث جابر بسند حسن : أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدى . ولأبى يعلى من حديث أنس : لم يجتمع له غداء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف . وإسناده ضعيف (٦) حديث : كان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » أما التسمية فرواها النسائى من رواية : من خدم النبى صلى الله عليه وسلم ثمان سنين : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاما يقول « بسم الله ... الحديث » وإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده (٧) حديث : كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصلى إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » أخرجه عبد الرزاق فى المصنف من رواية أيوب معضلا : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل أحفز وقال « آكل كما يأكل العبد ... الحديث » وروى ابن الضحاك فى الشمائل من حديث أنس بسند ضعيف : كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته =

بركة وإن الله لم يطعمنا نارا فأبردوه [١] » وكان يأكل بما يليه [٢] ويأكل بأصابعه الثلاث [٣] وربما استعان بالرابعة [٤] ولم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان [٥] » وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالوذج فأكل منه وقال « ماهذا ياعبد الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى نجعل السمن والعسل فى البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنقليه على السمن والعسل فى البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتى كما ترى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الطعام طيب [٦] » وكان يأكل خبز الشعير غير منخول [٧] وكان يأكل القثاء بالرطب [٨] وبالملح [٩] وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب [١٠] وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر [١١] وربما أكله

= اليسرى وأقام اليمنى ثم قال « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد » وروى أبو الشيخ فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم بسند حسن من حديث أبى بن كعب : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه وكان لايتكىء . أورده فى صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبزار من حديث ابن عمر « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ولأبى يعلى من حديث عائشة « آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وسندهما ضعيف (١) حديث : كان لايأكل الحار ويقول « إنه غير ذى بركة وإن الله لم يطعمنا نارا » أخرجه البيهقى من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح : أتى النبى صلى الله عليه وسلم يوما بطعام سخن فقال « مادخل بطنى طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم » ولأحمد بإسناد جيد والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث خولة بنت قيس : وقدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقبضها . لفظ الطبرانى والبيهقى وقال أحمد : فأحرقت أصابعه فقال : حس . وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة « أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذى بركة » وله فيه وفى الصغير من حديثه أتى بصحفة تفور فرفع يده منها وقال « إن الله لم يطعمنا نارا » وكلاهما ضعيف (٢) حديث : كان يأكل مما يليه . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفى إسناده رجل لم يسم وسماه فى رواية له وكذلك البيهقى فى روايته فى الشعب عبيد بن القاسم نسيب سفيان الثورى ، وقال البيهقى تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ، ولأبى الشيخ من حديث عبد الله بن جعفر نحوه (٣) حديث : أكله بأصابعه الثلاث . أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك (٤) حديث : استعانته بالرابعة . رويناه فى الغيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله العمرى هالك وفى مصنف ابن أبى شيبة من رواية الزهرى مرسلا : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأكل بالخمس (٥) حديث : لم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف « لاتأكل بأصبع فإنه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين ...الحديث » .

(٦) حديث : جاءه عثمان بن عفان بفالوذج ... الحديث ، قلت : المعروف أن الذى صنعه عثمان : الخبيص رواه البيهقى فى الشعب من حديث ليث بن أبى سليم قال : إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان ، قدمت عليه عير تحمل النقى والعسل ... الحديث . وقال هذا منقطع وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن سلام : أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان . وفيه : فإذا دقيق وسمن وعسل . وفيه : ثم قال لأصحابه كلوا هذا الذى تسميه فارس الخبيص . وأما خبر الفالوذج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال : أول ماسمعنا بالفالوذج أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمتك تفتح عليهم الأرض ويفاض عليهم من الدنيا حتى إنهم ليأكلون الفالوذج ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : وما الفالوذج ؟ قال : يخلطون السمن والعسل جميعا . قال ابن الجوزى فى الموضوعات هذا حديث باطل لاأصل له (٧) حديث : كان يأكل خبز الشعير غير منخول : أخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد (٨) حديث : كان يأكل القثاء بالرطب . متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر

(٩) حديث : كان يأكل القثاء بالملح . أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك (١٠) حديث : كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب . أخرجه أبو نعيم فى الطب النبوى من رواية أمية بن زيد العبسى : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ . وروى أبو الشيخ وابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث أنس : كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ ؛ وكان أحب الفاكهة إليه . فيه يوسف ابن عطية الصفار مجمع على ضعفه وروى ابن عدى من حديث عائشة : كان أحب الفاكهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرطب والبطيخ . وله من حديث آخر لها . فإن خير الفاكهة العنب . وكلاهما ضعيف (١١) حديث : كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر . أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز فيما رواه ابن عدى من حديث عائشة مرفوعا « عليكم بالمرازمة » قيل يارسول الله وما المرازمة ؟ قال « أكل الخبز مع العنب . فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز » وإسناده ضعيف . وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من التمر والرطب مشهور فهو الحديث الآتى بعده وإن أريد به السكر الذى هو الطبرزد فلم أر له أصلا إلا فى حديث منكر معضل رواه أبو عمر النوقانى فى كتاب البطيخ من رواية محمد بن على بن الحسين . أن النبى صلى الله عليه وسلم أكل بطيخا بسكر . وفيه موسى =

بالرطب (١) ويستعين باليدين جميعا ، وأكل يوما الرطب فى يمينه وكان يحفظ النوى فى يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة (٢) وكان ربما أكل العنب خرطا يرى زؤانه على لحيته كخرز اللؤلؤ (٣) وكان أكثر طعامه الماء والتمر (٤) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين (٥) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هو يزيد فى السمع وهو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل (٦) » وكان يأكل الثريد باللحم والقرع (٧) وكان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس عليه السلام (٨) » قالت عائشة رضى الله عنها وكان يقول « ياعائشة إذ طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين (٩) » وكان يأكل لحم الطير الذى يصاد (١٠) وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله (١١) وكان إذا أكل اللحم لم يطأطئ رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه انتهاشا (١٢) وكان يأكل الخبز والسمن (١٣) وكان يحب من الشاة الذراع والكتف ، ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخل ومن التمر

= ابن ابراهيم المروزى كذبه يحيى بن معين (١) حديث . أكل البطيخ بالرطب أخرجه الترمذى والنسائى من حديث عائشة وحسنه الترمذى وابن ماجه من حديث سهل بن سعد . كان يأكل الرطب بالبطيخ . وهو عند الدارمى بلفظ . البطيخ بالرطب

(٢) حديث . استعانته باليدين جميعاً فأكل يوما الرطب فى يمينه وكان يحفظ النوى فى يساره فمرت شاة فأشار اليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة . أما استعانته بيديه جميعا فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال . آخر مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احدى يديه رطبات وفى الآخرى قثاء يأكل من هذه ويعض من هذه . وتقدم حديث أنس فى أكله بيديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها فى فوائد أبى بكر الشافعى من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٣) حديث . ربما أكل العنب خرطا ... الحديث . أخرجه ابن عدى فى الكامل من حديث العباس والعقيلى فى الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصرا وكلاهما ضعيف . (٤) حديث . كان أكثر طعامه الماء والتمر . أخرجه البخارى من حديث عائشة . توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء . (٥) حديث . كان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين » أخرجه أحمد من رواية اسماعيل بن أبى خالد عن أبيه قال . دخلت على رجل وهو يجمع لبنا بتمر وقال ، ادن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماهما الأطيبين ورجاله ثقات وإبهامه لايضر . (٦) حديث : كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هو يزيد فى السمع وهو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل » أخرجه أبو الشيخ من رواية ابن سمعان قال : سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم ... الحديث . والترمذى فى الشمائل من حديث جابر : أتانا النبى صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فذبحنا له شاة فقال « كأنهم علموا أنا نحب اللحم » وإسناده صحيح وابن ماجه من حديث أبى الدرداء بإسناد ضعيف : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم . (٧) حديث : كان يأكل الثريد باللحم والقرع أخرجه مسلم من حديث أنس . (٨) حديث : كان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس » أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أنس : كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب القرع . وقال النسائى : الدباء ، وهو عند مسلم بلفظ : تعجبه وروى ابن مردويه فى تفسيره من حديث أبى هريرة فى قصة يونس : فلفظته فى أصل شجرة ، وهى الدباء . (٩) حديث « ياعائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد قلب الحزين . رويناه فى فوائد أبى بكر الشافعى . (١٠) حديث : كان يأكل لحم الطير الذى يصاد . أخرجه الترمذى من حديث أنس قال : كان عند النبى صلى الله عليه وسلم طير فقال « اللهم ائتنى بأحب الخلق إليك يأكل معى هذا الطير » فجاء على فأكل معه ، قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعيفة . وروى أبو داود والترمذى واستغربه من حديث سفينة قال : أكلت مع النبى صلى الله عليه وسلم لحم حبارى . (١١) حديث : كان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيؤتى به فيأكله . قلت هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال من تبع الصيد غفل رواه أبو داود والنسائى والترمذى من حديث ابن عباس وقال : حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبرانى « قد كانت قبلى لله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد » فهو ضعيف جدا . (١٢) حديث : كان إذا أكل اللحم لم يطأطئ رأسه إليه ورفعه إلى فيه رفعا ثم نهشه . أخرجه أبو داود من حديث صفوان بن أمية قال : كنت آكل مع النبى صلى الله عليه وسلم فآخذ اللحم من العظم فقال « أدن اللحم من فيك فإنه أهنأ وأمرأ » والترمذى من حديثه « انهش اللحم نهشا فإنه أهنى وأمرأ » وهو منقطع والذى قبله منقطع أيضاً وللشيخين من حديث أبى هريرة : فتناول الذراع فنهش منها نهشة ... الحديث . (١٣) حديث : كان يأكل الخبز والسمن . متفق عليه من حديث أنس فى قصة طويلة فيها : فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت وعصرت أم سليم عكة فأدمته .. الحديث . وفيه : ثم أكل النبى صلى الله عليه وسلم . وفى رواية ابن ماجه : فصنعت فيها شيئاً من سمن ولا يصح وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر : وددت أن عندى خبزة بيضاء من بر سمراء ملبقة بسمن ... الحديث . قال أبو داود منكر .

العجوة [1] ودعا فى العجوة بالبركة وقال «هى من الجنة وشفاء من السم والسحر [2]» وكان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء التى يقال لها الرجلة [3] : وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول [4] وكان لا يأكل من الشاة سبعا : الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدد والحيا والدم ، ويكره ذلك [5] وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث [6] وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره [7] وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما [8] وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول : آخر الطعام أكثر بركة [9] : وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر [10] وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول : إنه لا يدرى فى أى الطعام البركة [11] :

---

(١) حديث : كان يحب من الشاة الذراع والكتف ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخل ومن التمر العجوة . وروى الشيخان من حديث أبى هريرة قال : وضعت بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكانت أحب الشاة إليه ... الحديث . وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس : كان أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتف . وإسناده ضعيف ومن حديث أبى هريرة : لم يكن يعجبه من الشاة إلا الكتف . وتقدم حديث أنس : كان يحب الدباء . قبل هذا بستة أحاديث ولأبى الشيخ من حديث أنس : كان أحب الطعام إليه الدباء . وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخل . وله بالإسناد المذكور : كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة .

(٢) حديث : دعا فى العجوة بالبركة وقال « هى من الجنة وشفاء من السم والسحر » أخرجه البزار والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن الأسود قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد سدوس فأهدينا له تمرا . وفيه : حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامى فقال « بارك الله فى الجذامى وفى حديقة خرج هذا منها ... الحديث » قال أبو موسى المدينى : قيل هو تمر أحمر والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة « العجوة من الجنة وهى شفاء من السم » وفى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص « من تصبح بسبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » . (٣) حديث : كان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء ــ التى يقال لها الرجلة ــ أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس « عليكم بالهندباء فإنه ما يوم إلا ويقطر عليه قطرة من قطر الجنة » وله من حديث الحسن بن على وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة وأما الباذروج فلم أجد فيه حديثا وأما الرجلة فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بالرجلة وفى رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بارك الله فيك أنبتى حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداع » وهذا مرسل ضعيف

(٤) حديث : كان يكره الكليتين لمكانهما من البول . رويناه فى جزء من حديث أبى بكر محمد بن عبيد الله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن على العدوى أحد الكذابين . (٥) حديث : كان لا يأكل من الشاة الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدة والحيا والدم . أخرجه ابن عدى ومن طريقه البيهقى من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقى من رواية مجاهد مرسلا . (٦) حديث : كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث . أخرجه مالك فى الموطأ عن الزهرى عن سليمان بن يسار مرسلا ووصله الدارقطنى فى غرائب مالك عن الزهرى عن أنس وفى الصحيحين من حديث جابر : أتى بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحا ... الحديث . وفيه : قال فانى أناجى من لا تناجى . ولمسلم من حديث أبى أيوب فى قصة بعثه إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال « إنى أكرهه من أجل ريحه » . (٧) حديث : ماذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره . تقدم أول الحديث وفى الصحيحين من حديث ابن عمر فى قصة الضب فقال « كلوا فإنه ليس بحرام ولا بأس به ولكنه ليس من طعام قومى » (٨) حديث : كان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما أما الضب ففى الصحيحين عن ابن عباس « لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه » ولهما من حديث ابن عمر « أحلت لنا ميتتان ودمان » وفيه « أما الدمان : فالكبد والطحال » وللبيهقى موقوفا على زيد بن ثابت « إنى لآكل الطحال ومابى إليه حاجة إلا ليعلم أهلى أنه لا بأس به »

(٩) حديث : كان يلعق الصحفة ويقول « آخر الطعام أكثر بركة » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث جابر فى حديث قال فيه : ولا ترفع القصعة حتى تلعقها ــ أو تلعقها ــ فإن آخر الطعام فيه البركة ومسلم من حديث أنس : أمرنا أن نسلت الصحفة وقال « إن أحدكم لا يدرى أى طعامه يبارك له فيه ؟ » . (١٠) حديث . كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر . أخرجه من حديث كعب بن مالك دون قوله حتى تحمر فلم أقف له على أصل . (١١) حديث كان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول « إنه لا يدرى فى أى أصابعه البركة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك . أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يمسح يده حتى يلعقها وله من حديث جابر . فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدرى فى أى طعامه تكون البركة ؟ وللبيهقى فى الشعب من حديثه « لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده فإن الرجل لا يدرى فى أى طعامه يبارك له فيه » .

وإذا فرغ قال « الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه[1] » وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه[2] وكان يشرب فى ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفى أواخرها ثلاث تحميدات[3] وكان يمص الماء مصا ولا يعب عبا[4] وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه[5] فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذى على يمينه « السنة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم[6] » وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ[7] وكان لا يتنفس فى الإناء بل ينحرف عنه[8] وأتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان فى شربة وإدامان فى إناء واحد ؟[9] » ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا أحرمه ولكنى أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله » وكان فى بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب[10] وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب[11] .

---

(١) حديث : وإذا فرغ قال « اللهم لك الحمد أطعمت وأشبعت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » أخرجه الطبرانى من حديث الحارث بن الحارث بسند ضعيف والبخارى من حديث أبى أمامة : كان إذا فرغ من طعامه قال « الحمد لله الذى كفانا وآوانا غير مكفى ولا مكفور » وقال مرة « الحمد لله ربنا غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » (٢) حديث : كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف من أكل من هذه اللحوم شيئا فليغسل يده من ريح وضره لا يؤذى من حذاءه » . (٣) حديث : كان يشرب فى ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفى آخرها ثلاث تحميدات » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس : كان إذا شرب تنفس ثلاثا . (٤) حديث : كان يمص الماء مصا ولا يعبه عبا . أخرجه البغوى والطبرانى وابن عدى وابن قانع وابن منده وأبو نعيم فى الصحابة من حديث بهز : كان يستاك عرضا ويشرب مصا . والطبرانى من حديث أم سلمة : كان لا يعب . ولأبى الشيخ من حديث ميمونة : لا يعب ولا يلهث . وكلها ضعيفة . (٥) حديث : كان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : استئذانه من على يمينه إذا كان من على يساره أجل رتبة . متفق عليه من حديث سهل بن سعد . (٧) حديث : شربه بنفس واحد . أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف وللحاكم من حديث أبى قتادة وصححه « إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد » ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس فى الإناء والله أعلم . (٨) حديث : كان لا يتنفس فى الإناء حتى ينحرف عنه . أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة « ولا يتنفس أحدكم فى الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس » وقال حديث صحيح الإسناد .

(٩) حديث : أتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان فى شربة وإدامان فى إناء واحد ... الحديث » رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « شربتان فى شربة » إلى آخره وسنده ضعيف . (١٠) حديث : كان فى بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب » رواه الشيخان من حديث أبى سعيد : كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ... الحديث . وقد تقدم ، وأما كونه كان لا يسألهم طعاما فإنه أراد أى طعام بعينه من حديث عائشة : أنه قال ذات يوم « ياعائشة هل عندكم شىء ؟ » قالت : فقلت ما عندنا شىء ؟ الحديث وفيه : فلما رجع قالت : أهديت لنا هدية ، قال « ماهو » ؟ قلت : حيس ، قال « هاتيه » وفى رواية « قربيه » وفى رواية النسائى « أصبح عندكم شىء تطعمينيه ؟ » ولأبى داود « هل عندكم طعام ؟ » والترمذى « أعندك غداء ؟ » وفى الصحيحين من حديث عائشة : فدعا بطعام فأتى بخبز وأدم من أدم البيت فقال « ألم أر برمة على النار فيها لحم ؟ .. الحديث » وفى رواية لمسلم « لو صنعتم لنا من هذا اللحم ... الحديث » فليس فى قصة بريرة إلا الاستفهام والرضا . والحكمة فيه بيان الحكم لا التشهى والله أعلم . وللشيخين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه . ولأبى داود من حديث أم هانئ : فجاءت الوليدة بإناء فيه شراب فتناوله فشرب منه . وإسناده حسن . (١١) حديث : وكان ربما قام فأخذ ما يأكل أو يشرب بنفسه . أخرجه أبو داود من حديث أم المنذر بنت قيس . دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب ومعه على — وعلى ناقه — ولنا دوال معلقة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منها ... الحديث . وإسناده حسن وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث كبشة : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب من فى قربة معلقة قائما ... الحديث .

بيان آدابه وأخلاقه فى اللباس

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك (١) وكان يعجبه الثياب الخضر (٢) وكان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب (٣) وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه (٤) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الأزار فوق ذلك إلى نصف الساق (٥) وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار فى الصلاة وغيرها (٦) وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها (٧) وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره (٨) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد (٩) » وكان له ثوبان

بيان آدابه وأخلاقه فى اللباس

(١) حديث : كان يلبس من الثياب ماوجد من إزار أو رداء أو قميص أوجبة أو غير ذلك . أخرجه الشيخان من حديث عائشة . أنها أخرجت إزارا مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت فى هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية : إزارا غليظا . ولهما من حديث أنس : كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجرانى غليظ الحاشية ... الحديث . لفظ مسلم وقال البخارى برد نجرانى . وابن ماجه بسند ضعيف من حديث ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قميصا قصير اليدين والطول . وأبو داود والترمذى وحسنه . والنسائى من حديث أم سلمة : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص . ولأبى داود من حديث أسماء بنت يزيد : كانت يد قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ . وفيه شهر ابن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا الحديث حديث : الجبة والشملة والحبرة . (٢) حديث : كان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس « خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » قال الحاكم : صحيح الإسناد وله ولأصحاب السنن من حديث سمرة « عليكم بهذه الثياب البياض فليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها موتاكم » لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وقال الترمذى حسن صحيح .

(٣) حديث « كان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب » أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قدمت عليه أقبية من ديباج مزرر بالذهب ... الحديث . وليس فى طرق الحديث لبسها إلا فى طريق علقها البخارى قال : فخرج وعليه قباء من ديباج مزررة بالذهب ... الحديث ومسلم من حديث جابر : لبس النبى صلى الله عليه وسلم يوما قباء من ديباج أهدى له ثم نزعه ... الحديث . (٤) حديث كان له قباء سندس فيلبسه ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أنس : أن أكيدر دومة أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم جبة سندس أو ديباج قبل أن ينهى عن الحرير فلبسها . والحديث فى الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه : وكان ينهى عن الحرير وعند الترمذى وصححه النسائى أنه لبسها ولكنه قال : بجبة ديباج منسوجة فيها الذهب

(٥) حديث : كان ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق رواه أبو الفضل محمد بن طاهر فى كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن يسر : كانت ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره فوق الكعبين وقميصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك وإسناده ضعيف والحاكم وصححه من حديث ابن عباس : كان يلبس قميصا فوق الكعبين ... الحديث وهو عنده بلفظ : قميصا قصير اليدين والطول وعندهما والترمذى فى الشمائل من رواية الأشعث قال : سمعت عمتى تحدث عن عمها فذكر النبى صلى الله عليه وسلم وفيه : فإذا إزاره إلى نصف ساقه ورواه النسائى وسمى الصحابى عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف (٦) حديث : كان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار فى الصلاة وغيرها أبو داود والبيهقى والترمذى فى الشمائل من رواية معاوية بن قرة بن اياس عن أبيه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى رهط من مزينة وبايعناه وإن قميصه لمطلق الأزرار . وللبيهقى من رواية زيد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلى محلولة أزراره فسألته عن ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . وفى العلل للترمذى أنه سأل البخارى عن هذا الحديث فقال : أنا أتقى هذا الشيخ كأن حديثه موضوع يعنى زهير بن محمد راويه عن زيد بن أسلم قلت تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، وللطبرانى من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى محتبيا محلل الأزرار (٧) حديث : كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها أخرجه أبو داود والترمذى من حديث قيلة بنت مخرمة قالت : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه أسمال ملاءتين كانتا بزعفران قال الترمذى لا نعرفه إلا من عبد الله بن حسان . قلت ورواته موثقون وأبو داود من حديث قيس بن سعد فاغتسل ثم ناوله أبى سعد ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها الحديث ورجاله ثقات .

(٨) حديث : ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى بنى عبد الأشهل وعليه كساء متلفف به ... الحديث . وفى رواية البزار فى كساء (٩) حديث : كان له كساء ملبد يلبسه ويقول « أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » أخرجه الشيخان من رواية أبى بردة قال : أخرجت إلينا عائشة كساء ملبدا

لجمعته خاصة سوى ثيابه فى غير الجمعة (١) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه (٢) وربما أم به الناس على الجنائز (٣) وربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذى جامع فيه يومئذ (٤) وكان ربما صلى بالليل فى الإزار ويرتدى ببعض الثوب مما يلى هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلى كذلك (٥) ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبى أنت وأمى مافعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال «كسوته» فقالت مارأيت شيئا قط كان أحسن من بياضك على سواده (٦) وقال أنس : وربما رأيته يصلى بنا الظهر فى شملة عاقدا بين طرفيه (٧) وكان يتختم (٨) وربما خرج وفى خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشىء (٩) وكان يختم به على الكتب ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة (١٠) وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها (١١) وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة

= وازارا غليظا فقالت : فى هذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبخارى من حديث عمر « انما أنا عبد » ولعبد الرزاق فى المصنف من رواية أيوب السختيانى مرفوعا معضلا « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة . متصلا .

(١) حديث : كان له ثوبان لجمعته خاصة ... الحديث . أخرجه الطبراني فى الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد : فاذا انصرف طويناهما الى مثله . ويرده حديث عائشه عند ابن ماجه : مارأيته يسب أحدا ولا يطوى له ثوب .

(٢) حديث : ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فعقد طرفيه بين كتفيه . أخرجه الشيخان من حديث عمر فى حديث اعتزاله أهله : فإذا عليه ازاره وليس عليه غيره . وللبخارى من رواية محمد بن المنكدر صلى بنا جابر فى ازار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعه على المشجب وفى رواية له وهو يصلى فى ثوب ملتحفا به ورداؤه موضوع وفيه : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى هكذا (٣) حديث : ربما أم به الناس على الجنائز . لم أقف عليه (٤) حديث : ربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذى جامع فيه يومئذ أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال : دخلت على أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى ثوب واحد فقلت : ياأم حبيبة أيصلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الثوب الواحد ؟ قالت : نعم ، وهو الذى كان فيه ما كان ــ تعنى الجماع ــ ورواه الطبراني فى الاوسط .

(٥) حديث : ربما كان يصلى بالليل ويرتدى ببعض الثوب مما يلى هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه . أخرجه أبو داود من حديث عائشة : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى ثوب بعضه على . ولمسلم : كان يصلى من الليل وأنا الى جنبه وأنا حائض وعلى مرط بعضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى عبد الرحمن حاضن عائشة : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعائشة يصليان فى ثوب واحد نصفه على النبى صلى الله عليه وسلم ونصفه على عائشة . وسنده ضعيف .

(٦) حديث : كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمه : بأبى أنت وأمى مافعل ذلك الكساء ؟ ... الحديث . لم أقف عليه من حديث أم سلمة . ولمسلم من حديث عائشة : خرج النبى صلى الله عليه وسلم وعليه مرط مرجل أسود . ولأبى داود والنسائى : صنعت للنبى صلى الله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها ... الحديث . وزاد فيه ابن سعد فى الطبقات : فذكرت بياض النبى صلى الله عليه وسلم وسوادها ورواه الحاكم بلفظ : جبة . وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث أنس . ربما رأيته يصلى بنا الظهر فى شملة عاقدا بين طرفيها . أخرجه البزار وأبو يعلى بلفظ : صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه . وللبزار : خرج فى مرضه الذى مات فيه مرتديا بثوب قطن فصلى بالناس وإسناده صحيح . وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت : صلى فى شملة قد عقد عليها . وفى كامل ابن عدى : قد عقد عليها هكذا ــ وأشار سفيان الى قفاه ــ وفى جزء النطريف : فعقدها فى عنقه ماعليه غيرها . وإسناده ضعيف (٨) حديث : كان يتختم . أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس (٩) حديث : ربما خرج وفى خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشىء . أخرجه ابن عدى من حديث واثلة بسند ضعيف : كان إذا أراد الحاجة أوثق فى خاتمه خيطا . وزاد الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث ابن عمر : ليذكره به . وسنده ضعيف .

(١٠) حديث : كان يختم به على الكتب ويقول « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » أخرجه الشيخان من حديث أنس : لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتب الى الروم قالوا . انهم لايقرءون إلا كتابا مختوما فاتخذ خاتما من فضة ... الحديث . والنسائى والترمذى فى الشمائل من حديث ابن عمر : اتخذ خاتما من فضة كان يختم به ولايلبسه . وسنده صحيح وأما قوله « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » فلم أقف له على أصل . (١١) حديث : كان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى اليها » أخرجه الطبرانى وأبو الشيخ والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة بيضاء . ولأبى الشيخ من حديث ابن عباس : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قلانس . قلنسوة بيضاء مضربة وقلنسوة برد حبرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها فى السفر فربما وضعها بين يديه إذا صلى =

على رأسه وعلى جبهته [١] وكانت له عمامة تسمى : السحاب ، فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم « أتاكم على فى السحاب [٢] » وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه [٣] ويقول « الحمد لله الذى كسانى ماأوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس [٤] » وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره [٥] وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « مامن مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله إلا كان فى ضمان الله وحرزه وخيره ماواراه حيا وميتا [٦] » وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه [٧] وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته [٨] وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره [٩] وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته : العقاب . واسم سيفه الذى يشهد به الحروب : ذوالفقار . وكان له سيف يقال له : المخذم . وآخر يقال له : الرسوب : وآخر يقال له : القضيب . وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة [١٠]

= وإسنادها ضعيف ولأبى داود والترمذى من حديث ركانة « فرق مابيننا وبين المشركين العمائم على القلانس » قال الترمذى : غريب وليس إسناده بالقائم . (١) حديث : ربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته . أخرجه من حديث ابن عباس صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وقد عصب رأسه بعصابة دسماء ... الحديث . (٢) حديث : كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم « أتاكم على فى السحاب » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جدا ولأبى نعيم فى دلائل النبوة من حديث عمر فى أثناء حديث : عمامته السحاب ... الحديث . (٣) حديث : كان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه . أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف فى رفعه . (٤) حديث « الحمد لله الذى كسانى ماأوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب . (٥) حديث : كان إذا نزع ثوبه خرج من مياسره . أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان إذا لبس شيئا من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ بالأيسر . وله من حديث أنس : كان إذا ارتدى أو ترجل أو انتعل بدأ بيمينه وإذا خلع بدأ بيساره . وسندهما ضعيف وهو فى الانتعال فى الصحيحين من حديث أبى هريرة من قوله لا من فعله . (٦) حديث : كان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « مامن مسلم يكسو مسلما .. الحديث » أخرجه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال « الحمد لله الذى كسانى ما أتجمل به فى حياتى وأوارى به عورتى » ثم قال « مامن مسلم يلبس ثوبا جديدا ... الحديث » دون ذكر : تصدقه صلى الله عليه وسلم بثيابه وهو عند الترمذى وابن ماجه دون ذكر لبس النبى صلى الله عليه وسلم لثيابه وهو أصح وقد تقدم قال البيهقى وهو غير قوى .

(٧) حديث : كان له فراش من أدم حشوه ليف ... الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مقتصرا على هذا دون ذكر : عرضه وطوله . ولأبى الشيخ من حديث أم سلمة . كان فراش النبى صلى الله عليه وسلم نحو مايوضع الإنسان فى قبره . وفيه : من لم يسم . (٨) حديث : كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقين تحته . أخرجه ابن سعد فى الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية ... الحديث . ولأبى سعيد عنها : أنها كانت تفرش للنبى صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين ... الحديث وكلاهما لايصح والترمذى فى الشمائل من حديث حفصة : وسئلت ما كان فراشه ؟ قالت : مسح نثنيه ثنتين فينام عليه ... الحديث . وهو منقطع (٩) حديث : كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره . متفق عليه من حديث عمر : فى قصة اعتزال النبى صلى الله عليه وسلم نساءه . (١٠) حديث : كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذى يشهد به الحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له المخذم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيب وكان قبضة سيفه محلاة بالفضة . أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سيف قائمته من فضة وقبيعته من فضة وكان يسمى ذا الفقار وكانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول وكانت له حربة تسمى النبعة وكانت له مجن تسمى الدفن وكان له ترس أبيض يسمى موجزا وكان له فرس أدهم يسمى السكب وكان له سرج يسمى الداج المؤخر وكان له بغلة شهباء يقال له الدلدل وكانت له ناقة تسمى القصواء وكان له حمار يسمى يعفور وكان له بساط يسمى الكر وكانت له عنزة تسمى النمر وكانت لها ركوة تسمى الصادر وكانت له مرآة تسمى المرآة وكان له مقراض يسمى الجامع وكان له قضيب شوحط يسمى المشوق . وفيه على بن غررة الدمشقى نسب إلى وضع الحديث ورواه ابن عدى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف : كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء تسمى العقاب . ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسلا وله من حديث على بن أبى طالب : كان اسم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذا الفقار . أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر =

وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة [١] وكان اسم قوسه : الكتوم . وجعبته الكافور [٢] وكان اسم ناقته : القصواء ، وهى التى يقال لها : العضبا ـ واسم بغلته : الدلدل : وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة [٣] وكان له مطهرة من فخار يتوضأ فيها ويشرب منها [٤] فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدفعون عنه فإذا وجدوا فى المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويبتغون بذلك البركة .

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع قدرته

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس [٥] وأرغبهم فى العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال : يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل : فقال ؛ ويحك فمن يعدل عليه بعدى ، فلما ولى قال ، ردوه على رويدا [٦] ، روى جابر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة فى ثوب بلال فقال له رجل : يارسول الله أعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا اعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى [٧] : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرب فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : « الله » فقال : فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : من يمنعك منى ؟ : فقال : كن خير آخذ قال : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله : فقال : لا ، غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك

= والحاكم من حديث على فى أثناء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف ولابن سعد فى الطبقات من رواية مروان بن أبى سعيد ابن المعلى مرسلا قال : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف : سيف قلعى وسيف يدعى بتارا وسيف يدعى الحتف ، وكان عنده بعد ذلك المخذم ورسوب أصابهما من الفلس وفى سنده الواقدى وذكر ابن أبى خيثمة فى تاريخه: أنه يقال انه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما العضب شهد به بدرا ولأبى داود والترمذى وقال حسن والنسائى وقال منكر من حديث أنس : كانت قبيعة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة . (١) حديث : كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة لم أقف له على أصل : ولابن سعد فى الطبقات وأبى الشيخ من رواية محمد بن على بن الحسين مرسلا : كان فى درع النبى صلى الله عليه وسلم حلقتان من فضة . (٢) حديث : كان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور . لم أجد له أصلا وقد تقدم فى حديث ابن عباس : أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وقال ابن أبى خيثمة فى تاريخه : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من سلاح بنى قينقاع ثلاثة قسى ؛ قوس اسمها الروحاء ، وقوس شوحط تدعى البيضاء ، وقوس صفراء تدعى الصفراء ؛ من سبع .

(٣) حديث : كان اسم ناقته القصواء وهى التى يقال لها العضباء واسم بغلته الدلدل واسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة . تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبرانى ، وللبخارى من حديث أنس : كان للنبى صلى الله عليه وسلم ناقة يقال لها العضباء . ولمسلم من حديث جابر فى حجة الوداع : ثم ركب القصواء والحاكم من حديث على : ناقته القصواء وبغلته دلدل وحماره عفير ... الحديث . ورويناه فى فوائد ابن الدحداح فقال : حماره يعفور وفيه شاته بركة والبخارى من حديث معاذ : كنت ردف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له : عفير ، ولابن سعد فى الطبقات من رواية إبراهيم بن عبد الله من ولد عتبة بن غزوان : كانت منايح رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم سبعا : عجوة وزمزم وسقيا وبركة ورشة واطلال وأطراف . وفى سنده الواقدى وله من رواية مكحول مرسلا : كانت له شاة تسمى قمر (٤) حديث : كانت له مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب فيها : الحديث . لم أقف له على أصل .

بيان عفوه مع القدرة

(٥) حديث : كان أحلم الناس . تقدم (٦) حديث : أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه .. الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد (٧) حديث جابر : أنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة فى ثوب بلال فقال له رجل : يانبى الله اعدل ... الحديث . رواه مسلم

ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس (١) وروى أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ليأكل منها فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت . أردت قتلك ؛ فقال : ما كان الله ليسلطك على ذلك : قالوا : أفلا تقتلها ؟ فقال . لا (٢) : وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودى ولا أظهره عليه قط (٣) وقال على رضى الله عنه : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا الزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظاعينة معها كتاب فخذوه منها : فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا أخرجى الكتاب فقالت : ما معى من كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يارسول الله لا تعجل على أنى كنت امرأ ملصقا فى قومى وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتدادا عن دينى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم : فقال عمر رضى الله عنه : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (٤) : وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ؟ فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه وقال : رحم الله أخى موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر (٥) : وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر (٦) .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

كان رسول الله رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف فى وجهه غضبه ورضاه (٧) وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة (٨) وكان لا يشافه أحد بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم : لو قلتم لهذا أن يدع هذه (٩) : يعنى الصفرة . وبال أعرابى فى المسجد بحضرته فهم به

---

(١) حديث : كان فى حرب فرؤى فى المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ... الحديث متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو فى مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث .

(٢) حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ... الحديث رواه مسلم وهو عند البخارى من حديث أبى هريرة (٣) حديث : سحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه ... الحديث . أخرجه النسائى بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره فى الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر (٤) حديث على : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد وقال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ... الحديث » متفق عليه (٥) حديث : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود (٦) حديث « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما يكرهه

(٧) حديث : كان رقيق البشرة لطيف الظاهر يعرف فى وجهه غضبه أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف رضاه وغضبه بوجهه ... الحديث . وقد تقدم . (٨) حديث : كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ... الحديث . وقد تقدم أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن (٩) حديث : كان لا يشافه أحدا بما يكرهه ، دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهه فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم « لو قلتم لهذا أن يدع هذه » يعنى الصفرة أخرجه أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى فى اليوم والليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف .

الصحابة فقال صلى الله عليه وسلم « لاتزرموه » أي لاتقطعوا عليه البول ثم قال له « إنّ هـذه المساجد لاتصلح لشيء من القذر والبول والخلاء [1] » وفي رواية « قرّبوا ولاتنفروا » . وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولاأجملت ، قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال « أحسنت إليك ؟ » قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنك قلت ماقلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنّ هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك ؟ » فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار [2] » .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخاهم وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لايمسك شيئا [3] وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولابعده مثله [4] وماسئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه [5] وأنّ رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدّت مابين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإنّ محمدا يعطي عطاء من لايخشى الفاقة . وماسئل شيئاً قط فقال لا [6] وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها [7] وجاء رجل فسأله فقال « ماعندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناه » فقال عمر : يارسول الله ماكلفك الله مالاتقدر عليه فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل : أنفق ولاتخش من ذي العرش إقلالا ، فتبسم النبي صلى الله

---

(١) حديث : بال أعرابي في المسجد بحضرته فقال صلى الله عليه وسلم « لاتزرموه ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس.
(٢) حديث : جاء أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « أحسنت اليك » فقال الأعرابي: لا ، ولاأجملت .. الحديث . بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

بيان سخائه وجوده صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أجود الناس وأسخاهم وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة . أخرجه الشيخان من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس . ولهما من حديث ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وكان أجود مايكون في شهر رمضان . وفيه : فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة . (٤) حديث : كان علي إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا .. الحديث . رواه الترمذي وقال ليس إسناده بمتصل .
(٥) حديث : ماسئل شيئا قط على الإسلام إلا أعطاه ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : ماسئل شيئا قط فقال : لا ، متفق عليه من حديث جابر . (٧) حديث : حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث الحسن مرسلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه ، لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يعط ساكتا فقال له العباس ... الحديث . وللبخاري تعليقا من حديث أنس : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه : فما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس ... الحديث ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه .

عليه وسلم وعرف السرور فى وجهه (١) ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أعطونى ردائى لو كان لى عدد هذه العضاه نعما لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا (٢) » .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أنجد الناس وأشجعهم (٣) قال على رضى الله عنه : لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً (٤) وقال أيضاً : كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه (٥) قيل : وكان صلى الله عليه وسلم قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأسا (٦) وكان الشجاع هو الذى يقرب منه فى الحرب لقربه من العدو (٧) وقال عمران بن حصين : ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب (٨) وقالوا : كان قوى البطش (٩) ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول :

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » فما رؤى يومئذ أحد كان أشد منه (١٠)

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعا فى علو منصبه (١١) قال ابن عامر : رأيته يرمى الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك (١٢) وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف (١٣) وكان يعود

---

(١) حديث : جاءه رجل فسأله فقال « ما عندى شىء ولكن ابتع على فإذا جاءنا شىء قضيناه فقال عمر : يا رسول الله ما كلفك الله ... الحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة الفروى لم يروه غير ابنه هرون .

(٢) حديث : لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه .. الحديث . أخرجه البخارى من حديث جبير بن مطعم .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أنجد الناس وأشجعهم . أخرجه الدارمى من حديث ابن عمر بسند صحيح : ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللشيخين من حديث أنس : كان أشجع الناس وأحسن الناس ... الحديث

(٤) حديث على : لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم ... الحديث . أخرجه أبو الشيخ فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم بإسناد جيد (٥) حديث على أيضاً : كنا إذا حمى البأس واتقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . أخرجه النسائى بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء . (٦) حديث : كان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر ... الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض الثمالى مرسلا (٧) حديث : كان الشجاع هو الذى يقرب منه فى الحرب ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث البراء : والله إذا حمى الوطيس نتقى به وإن الشجاع منا الذى يحاذى به (٨) حديث عمران بن حصين . ما لقى كتيبة إلا كان أول من يضرب . أخرجه أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرفه .

(٩) حديث . كان قوى البطش . أخرجه أبو الشيخ أيضا من رواية أبى جعفر معضلا وللطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الله ابن عمرو « أعطيت قوة أربعين فى البطش والجماع » وسنده ضعيف . (١٠) حديث . لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول « أنا النبى لا كذب ... الحديث » متفق عليه من حديث البراء دون قوله . فما رؤى أحد يومئذ أشد منه . وهذه الزيادة لأبى الشيخ وله من حديث على فى قصة بدر . وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

(١١) حديث : كان أشد الناس تواضعا فى علو منصبه أخرجه أبو الحسن بن الضحاك فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى فى حديث طويل فى صفته قال فيه : متواضع فى غير مذلة . وإسناده ضعيف (١٢) حديث : قال ابن عامر رأيته يرمى الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث قدامة بن عبد الله بن عمار قال الترمذى حسن صحيح وفى كتاب أبى الشيخ قدامة بن عبد الله بن عامر كما ذكره المصنف . (١٣) حديث : كان يركب الحمار =

المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك [1] ويخصف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع فى بيته مع أهله فى حاجتهم [2] وكان أصحابه لايقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك [3] وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم [4] وأتى صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيبته فقال له : هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد [5] وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو ؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه [6] وقالت له عائشة رضى الله عنها كل ـ جعلنى الله فداك ـ متكئا فإنه أهون عليك قال : فأصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال : بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد [7] : وكان لا يأكل على خوان ولا فى سكرجة حتى لحق بالله تعالى [8] وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لبيك [9] : وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم وإن تكلموا فى الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم [10] وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام [11] .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

وكان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولها فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربعة ويقول صلى الله عليه وسلم : جعل الخير كله فى الربعة [12] .

= موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف . متفق عليه من حديث أسامة بن زيد . (١) حديث : كان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك . أخرجه الترمذى وضعفه والحاكم وصحح اسناده من حديث أنس وتقدم منقطعا . (٢) حديث : كان يخصف النعل ويرقع الثوب ويصنع فى بيته مع أهله فى حاجته . هو فى المسند من حديث عائشة وقد تقدم فى أوائل آداب المعيشة .

(٣) حديث : كان أصحابه لايقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك : هو عند الترمذى من حديث أنس وصححه وتقدم فى آداب الصحبة . (٤) حديث : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم . متفق عليه من حديث أنس وتقدم فى آداب الصحبة .

(٥) حديث : أتى برجل فأرعد من هيبته فقال « هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » أخرجه الحاكم من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين . (٦) حديث : كان يجلس مع أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو ؟ ... الحديث . أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى ذر وقد تقدم .

(٧) حديث : قالت عائشة كل ـ جعلنى الله فداك ـ متكئا فإنه أهون عليك ... الحديث . أخرجه أبو الشيخ من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف . (٨) حديث : كان صلى الله عليه وسلم لايأكل على خوان ولا فى سكرجة حتى لقى الله أخرجه البخارى من حديث أنس وتقدم فى آداب الأكل . (٩) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم لايدعوه أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال « لبيك » أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان متهم بالكذب وللطبرانى فى الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب فى أثناء حديث : أن أمة قالت يارسول الله فقال « لبيك وسعديك » الحديث (١٠) حديث : كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس مع الناس إن تكلموا فى معنى أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم ... الحديث . أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر : الشراب ، وفيه سليمان بن خارجة تفرد عنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان فى الثقات .

(١١) حديث : كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله : ولا يزجرهم إلا عن حرام .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

(١٢) حديث : كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ... الحديث بطوله . أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث عائشة بزيادة ونقصان دون شعر أبى طالب الآتى ودون قوله : وربما جعل شعره =

وأما لونه فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض. والأزهر هو الأبيض الناصع الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شىء من الألوان ، ونعته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالحمرة ماظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والأزهر الصافى عن الحمرة ما تحت الثياب منه . وكان عرقه صلى الله عليه وسلم فى وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر .

وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القطط وكان إذا مشطه بالمشط يأتى كأنه حبك الرمل . وقيل : كان شعره يضرب منكبيه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . وربما جعله غدائر أربعا تخرج كل أذن من بين غديرتين . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ . وكان شيبه فى الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ، مازاد على ذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأنورهم لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته ، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما وكان أبلج مابين الحاجبين كأن مابينهما الفضة المخلصة ، وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما وكان فى عينيه تمزج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، وكان أقنى العرنين ـ أى مستوى الأنف ـ وكان مفلج الأسنان ـ أى متفرقها ـ وكان إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدين صلبهما ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم ، كث اللحية ، وكان يعفى لحيته ويأخذ من شاربه ، وكان أحسن عباد الله عنقا لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، ماظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهبا يتلألأ فى بياض الفضة وفى حمرة الذهب ، وكان صلى الله عليه وسلم عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضا كالمرآة فى استوائها وكالقمر فى بياضه موصول مابين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن فى صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن ثلاث يغطى الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس ـ أى رءوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين ـ وكان واسع الظهر مابين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلى منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس ، وكان عبل العضدين والذراعين طويل

= على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ . ودون قوله : وربما كان واسع الجبهة ـ الى قوله ـ وكان سهل الخدين وفيه صبيح بن عبد الله الفرغانى منكر الحديث قاله الخطيب . وفى الصحيحين من حديث البراء : له شعر يبلغ شحمة أذنيه وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أم هانىء : قدم الى مكة وله أربع غدائر والترمذى من حديث على فى صفته صلى الله عليه وسلم : أدعج العينين أهدب الأشفار ... الحديث . وقال ليس إسناده بمتصل وله فى الشمائل من حديث ابن أبى هالة : أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب . أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم مفلج الأسنان ... الحديث

(١) حديث : نعته عمه أبو طالب فقال : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل . ذكره ابن إسحاق فى السيرة وفى المسند عن عائشة : أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى فقال أبو بكر: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه . وأخرجه البخارى تعليقا من حديث ابن عمر: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فأنشده . وقد وصله بإسناد صحيح .

الزندين رحب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار طيبا ـ مسها بطيب أو لم يمسها ـ يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه ، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان معتدل الخلق فى السمن بدن فى آخر زمانه وكان لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن .

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم فكان يمشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب يخطو تكفيا ويمشى الهوينى بغير تبختر ـ والهوينى تقارب الخطا ـ وكان عليه الصلاة والسلام يقول « أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم وكان أبى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بى خلقا وخلقا » وكان يقول « إن لى عند ربى عشرة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد ، وأنا الحاشر يحشر الله العباد على قدمى ، وأنا رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقفى قفيت الناس جميعا وأنا قثم [1] » قال أبو البخترى والقثم الكامل الجامع ، والله أعلم .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده إياهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب اجوبته فى مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته فى مصالح الخلق ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العربى القح كان يراه فيقول : والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده ؟ وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله ؛ إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط فى طلب علم ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيما ضعيفا مستضعفا ، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى ؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك ؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية . وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل ، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل .

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ؛ إذ شق له القمر بمكة لما سألته قريش آية [2] وأطعم النفر الكثير فى

---

(١) حديث : ان لى عند ربى عشرة أسماء ... الحديث . أخرجه ابن عدى من حديث على وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف ، وله ولأبى نعيم فى الدلائل من حديث أبى الطفيل : لى عند ربى عشرة أسماء . قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية . فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب : أن أبا جعفر قال : ان الاسمين طه ويس . وإسناده ضعيف وفى الصحيحين من حديث جبير بن مطعم : لى أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشر وأنا الماحى وأنا العاقب . ولمسلم من حديث أبى موسى : والمقفى ونبى التوبة ونبى الرحمة . ولأحمد من حديث حذيفة : ونبى الملاحم . وسنده صحيح .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

(٢) حديث : انشقاق القمر : متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس .

منزل جابر [١] وفى منزل أبى طلحة ويوم الخندق [٢] ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق [٣] وهو من أولاد المعز فوق العتود ، ومرة أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس فى يده [٤] ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير فى يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم [٥] ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش ، وتوضئوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه [٦] وأهراق عليه السلام وضوءه فى عين تبوك ولا ماء فيها ، ومرة أخرى فى بئر الحديبية فجاشتا بالماء ؛ فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء [٧] وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان فى اجتماعه كربضة البعير ـ وهو موضع بروكه ـ فزودهم كلهم منه وبقى منه فحبسه [٨] ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن فى قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [٩] وأبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه صلى الله عليه وسلم فعدمت وكان ظاهرة موجودة [١٠] وحن الجذع الذى كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن [١١] ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه [١٢] وهذا مذكور فى سورة يقرأ بها فى جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة

---

(١) حديث : إطعام النفر الكثير فى منزل جابر . متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث : إطعامه النفر الكثير فى منزل أبى طلحة . متفق عليه من حديث أنس .

(٣) حديث : إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق . أخرجه الإسماعيلى فى صحيحه ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة وهو عند البخارى دون ذكر العدد وفى رواية أبى نعيم فى دلائل النبوة وهم ألف . (٤) حديث : إطعامه أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس فى يده . أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه : حتى فعل ذلك بثمانين رجلا ثم أكل النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤرا . وفى رواية لأبى نعيم فى الدلائل : حتى أكل منه بضع وثمانون رجلا . وهو متفق عليه بلفظ : والقوم سبعون أو ثمانون رجلا .

(٥) حديث : إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير فى يدها ... الحديث . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من طريق ابن إسحق حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنة بشير بن سعد وإسناده جيد . (٦) حديث : نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضئوا .. الحديث . متفق عليه من حديث أنس فى ذكر الوضوء فقط ولأبى نعيم من حديثه : خرج إلى قباء فأتى من بعض بيوتهم بقدح صغير . وفيه : ثم قال « هلم إلى الشراب » قال أنس : بصر عينى نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رووا منه . وإسناده جيد وللبزار واللفظ له والطبرانى فى الكبير من حديث ابن عباس . كان فى سفر فشكا أصحابه العطش فقال « ائتونى بماء » فأتوه بإناء فيه ماء فوضع يده فى الماء ينبع من بين أصابعه ... الحديث .

(٧) حديث : إهراقه وضوءه فى عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى فى بئر الحديبية فجاشتا بالماء ... الحديث وأخرجه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه : فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت ... الحديث . وللبخارى من حديث البراء : أنه توضأ وصبه فيها . وفى الحديثين معا : أنهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند البخارى من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر ، وقال البيهقى إنه الأصح ولهما من حديثه أيضاً : ألف وخمسمائة . ولمسلم من حديث ابن أبى أوفى : ألف وثلثمائة (٨) حديث : أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان كربضة البعير .. الحديث . أخرجه أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين بن سعيد بإسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبى داود مختصرا من غير بيان لعددهم (٩) حديث : رميه الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ... الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع دون ذكر نزول الآية فرواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث جابر وابن عباس (١٠) حديث : إبطال الكهانة بمبعثه أخرجه الخرائطى من حديث مرداس بن قيس الدوسى قال : حضرت النبى صلى الله عليه وسلم وذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه .. الحديث . ولأبى نعيم فى الدلائل من حديث ابن عباس فى استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم دحروا بالنجوم وأصله عند البخارى بغير هذا السياق (١١) حديث : حنين الجذع أخرجه البخارى من حديث جابر وسهل بن سعد (١٢) حديث : دعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه ... الحديث أخرجه البخارى من حديث ابن عباس : لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ... الحديث . وللبيهقى فى الدلائل من حديث ابن عباس لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه فأبوا أن يفعلوا ... الحديث . وإسناده ضعيف .

ـ جهرا ـ تعظيما للآية التي فيها .

وأخبر عليه السلام بالغيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة (١) وبأن عمارا تقتله الفئة الباغية (٢) وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين (٣) وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار (٤) فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه . واتبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض وأتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى (٥) فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله (٦) وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم ولم يروه (٧) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له (٨) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين « أحدكم في النار ضرسه مثل أحد فماتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتدا (٩) » وقال لآخرين منهم : آخركم موتا في النار ؛ فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فمات (١٠) ودعا شجرتين فأتتاه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالهم (١١) ودعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة فامتنعوا فعرفهم صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعلموا صحة قوله فامتنعوا (١٢) وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام لخيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة وهلك أربد بصاعقة أحرقته (١٣) وأخبر عليه السلام أنه يقتل

---

(١) حديث : إخباره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٢) حديث : إخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية . أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث : إخباره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . أخرجه البخاري من حديث أبو بكرة .

(٤) حديث : إخباره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار . متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد .

(٥) حديث : اتباع سراقة بن مالك له في قصة الهجرة فساخت قدما فرسه في الأرض .". الحديث . متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق (٦) حديث : إخباره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله . وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى إلى في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فتأولتهما كذابين يخرجان بعدي » فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء ... الحديث (٧) حديث : خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم ولم يروه . أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه : أنهم كانوا مائة . وكذلك رواه ابن إسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسلا .

(٧) حديث : شكا إليه البعير وتذلل له . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن جعفر في أثناء حديث وفيه : فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه . وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير (٩) حديث : قال لنفر من أصحابه « أحدكم ضرسه في النار مثل أحد ... الحديث » ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بغير إسناد في ترجمة الرجال بن عنفرة وهو الذي ارتد ـ وهو بالجيم ـ وذكره عبد الغني ـ بالمهملة ـ وسبقه إلى ذلك الواقدي والمدائني والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ : أحد هؤلاء النفر في النار . وفيه الواقدي عن عبد الله ابن نوح متروك (١٠) حديث : قال لآخرين منهم « آخركم موتا في النار » فسقط آخرهم موتا في نار فاحترق فيها فمات أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن محذورة وفي رواية البيهقي : أن آخرهم موتا سمرة بن جندب ، لم يذكر أنه احترق ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواته ثقات وقال ابن عبد البر : إنه سقط في قدر مملوءة ماء حارا فمات . روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن المحبر وقد ضعفه الجمهور (١١) حديث : دعا شجرتين فأتتاه فاجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . أخرجه أحمد من حديث علي بن مرة بسند صحيح (١٢) حديث : دعا النصارى إلى المباهلة وأخبران فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في أثناء حديث : ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا (١٣) حديث : أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله لخيل بينهما وبين ذلك .. الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند لين .

أبي بن خلف الجمحى فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه (١) .

وأطعم عليه الصلاة والسلام السم فمات الذى أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين ، وكلمه الذراع المسموم (٢) .

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع (٣) وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون فى البحر فكان كذلك (٤) وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق : من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر ولم يتسعوا فى الجنوب ولا فى الشمال ـ كما أخبر صلى الله عليه وسلم سواء بسواء (٥) . وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقا به (٦) فكان كذلك . وأخبر نساءه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يدا بالصدقة أولهن لحوقا به رضى الله عنها (٧) .

ومسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت (٨) وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه . وفعل ذلك مرة أخرى فى خيمة أم معبد الخزاعية . وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنهما (٩) وتفل فى عين على رضى الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية (١٠) وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم (١١) وأصيبت رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فمسحها بيده فبرأت من حينها (١٢) وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع مابقى فاجتمع شىء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء فى العسكر إلا ملئ من ذلك (١٣) وحكى الحكم بن العاص بن وائل (*) مشيته

(١) حديث . إخباره أنه يقتل أبى بن خلف الجمحى فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسلا (٢) حديث : أنه أطعم السم فمات الذى أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين ، وكلمه الذراع المسموم . أخرجه أبو داود من حديث جابر فى رواية له مرسلة : أن الذى مات بشر بن البراء ، وفى الصحيحين من حديث أنس : أن يهودية أتت النبى صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها .. الحديث . وفيه : فمازلت أعرفها فى لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حديث : إخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد قريش .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٤) حديث : إخباره بأن طوائف من أمته يغزون فى البحر فكان كذلك متفق عليه من حديث أم حرام (٥) حديث : زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٦) حديث : إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقا به . متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٧) حديث : أخبر نساءه أن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفى الصحيحين : أن سودة كانت أولهن لحوقا به قال ابن الجوزى وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك .

(٨) حديث : مسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود . أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود بإسناد جيد (٩) حديث : ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما . أخرجه أبو نعيم والبيهقى كلاهما فى دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذى سقطت عينه ففى رواية للبيهقى : أنه كان ببدر . وفى رواية أبى نعيم : أنه كان بأحد : وفى إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقى فيه من حديث أبى سعيد الخدرى .

(١٠) حديث : تفل فى عين على وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية . متفق عليه من حديث على ومن حديث سهل بن سعد أيضاً . (١١) حديث : كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه . أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود .

(١٢) حديث : أصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فبرأت من حينها . أخرجه البخارى فى قصة قتل أبى رافع

(١٣) حديث : قل زاد جيش معه فدعا بما بقى فاجتمع شىء يسير فدعا فيه بالبركة ... الحديث . متفق عليه من حديث سلمة ابن الأكوع .

(*) قوله : الحكم بن العاص بن وائل هكذا فى النسخ وصوابه كما فى الشارح الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس اهـ مصححه .

عليه السلام مستهزئا فقال صلى الله عليه وسلم : كذلك فكن : فلم يزل يرتعش حتى مات [١] وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها : إن بها برصا ـ امتناعا من خطبته واعتذارا ـ ولم يكن بها برص فقال عليه السلام : فلتكن كذلك : [٢] فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر . إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإنما اقتصرنا على المستفيض . ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب في شجاعة علي رضي الله عنه وسخاوة حاتم الطائي ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا ثم لا يتمارى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق : وليس لنبي معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم . وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وقال ذلك تعجيزا لهم فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي ، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقدر أحد على معارضته .

فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ، ثم في أفعاله ، ثم في أخلاقه ، ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم ، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه .

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنه وسعة جوده .

---

(١) حديث : حكى الحكم بن العاص مشيته مستهزئا به فقال « كذلك فكن .. الحديث » أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد وللحاكم في المستدرك من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد (٢) حديث : خطب امرأة فقال أبوها لن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال « فلتكن كذلك » فبرصت المرأة . ذكرها ابن الجوزي في التلقيح وسماها جمرة بنت الحرث بن عوف المزني وتبعه على ذلك الدمياطي

تم الجزء الثاني من كتاب إحياء علوم الدين

ويليه الجزء الثالث ويشتمل على ربع المهلكات

فهرس

الجزء الثاني

من كتاب إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام الغزالي

صحيفة

٢ كتاب آداب الأكل

وهو الأول من ربع العادات

٣ الباب الأول فيما لابد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة

٥ القسم الثاني في آداب حالة الأكل

٦ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام

٧ الباب الثاني فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة

٨ الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

١٢ الباب الرابع في آداب الضيافة

١٨ فصل يجمع آدابا ومناهي طبية وشرعية متفرقة

٢١ كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثاني من ربع العادات

٢١ الباب الأول في الترغيب في النكاح والترغيب عنه

الترغيب في النكاح

٢٤ ماجاء في الترهيب عن النكاح

٢٥ آفات النكاح وفوائده

٢٦ الباب الثاني فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

صحيفة

٤٢ الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

٥٦ القسم الثاني من هذا الباب النظر في حقوق الزوج عليها

٦٠ كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربع العادات

٦١ الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه

٦٤ الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع الخ وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

العقد الأول البيع

٦٨ العقد الثاني عقد الربا

٦٩ العقد الثالث السلم

٧٠ العقد الرابع الإجارة

٧١ العقد الخامس القراض

٧٢ العقد السادس الشركة

٧٢ الباب الثالث في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

القسم الأول فيما يعم ضرره وهو أنواع

٧٤ القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل

٧٩ الباب الرابع في الإحسان في المعاملة

٨٣ الباب الخامس في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

صحيفة

٨٨ كتاب الحلال والحرام
وهو الكتاب الرابع من ربع العادات
٨٩ الباب الأول فى فضيلة الحلال ومذمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه
فضيلة الحلال ومذمة الحرام
٩٢ أصناف الحلال ومداخله
القسم الأول الحرام لصفة فى عينه الخ
٩٣ القسم الثانى مايحرم لخلل فى جهة إثبات اليد عليه
٩٤ درجات الحلال والحرام
٩٥ أمثلة الدرجات الأربع فى الورع وشواهدها
٩٨ الباب الثانى فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام
٩٩ المثار الأول الشك فى السبب المحلل والمحرم
١٠٢ المثار الثانى للشبهة شك منشؤه الاختلاط
١١٠ المثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلل معصية
١١٥ المثار الرابع الاختلاف فى الأدلة
١١٨ الباب الثالث فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها
المثار الأول أحوال المالك
١٢١ المثار الثانى مايستند الشك فيه إلى سبب المال لا فى حال المالك
١٢٧ الباب الرابع فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية وفيه نظران
النظر الأول فى كيفية التمييز والإخراج
١٣٠ النظر الثانى فى المصرف
١٣٥ الباب الخامس فى إدرارت السلاطين وما يحل منها ومايحرم وفيه نظران
١٣٥ النظر الأول فى جهات الدخل للسلطان
١٣٩ النظر الثانى من هذا الباب فى قدر المأخوذ وصفة الآخذ

صحيفة

١٤٢ الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ويحرم وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم
١٥٣ الباب السابع فى مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها قد سئل عنها فى الفتاوى
١٥٧ كتاب آداب الألفة والأخوة
والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق وهو الكتاب الخامس من ربع العادات الثانى وفيه ثلاثة أبواب
١٥٧ الباب الأول فى فضيلة الألفة والأخوة وفى شروطها ودرجاتها وفوائدها
فضيلة الألفة والأخوة
١٦١ بيان معنى الأخوة فى الله وتمييزها من الأخوة فى الدنيا
١٦٦ بيان البغض فى الله
١٦٨ بيان مراتب الذين يبغضون فى الله وكيفية معاملتهم
١٥٧ بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته
١٧٣ الباب الثانى فى حقوق الأخوة والصحبة
الحق الأول فى المال
١٧٥ الحق الثانى فى الإعانة بالنفس الخ
١٧٦ الحق الثالث فى اللسان بالسكوت الخ
١٨٠ الحق الرابع على اللسان بالنطق
١٨٣ الحق الخامس العفو عن الزلات والهفوات
١٨٦ الحق السادس الدعاء للأخ فى حياته الخ
١٨٧ الحق السابع الوفاء والإخلاص
١٨٨ الحق الثامن التخفيف وترك التكلف الخ
١٩٢ خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة الخ
١٩٣ الباب الثالث فى حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه الأسباب
١٩٤ حقوق المسلم
٢١٢ حقوق الجوار

صحيفة

٢١٥ حقوق الأقارب والرحم
٢١٦ حقوق الوالدين والولد
٢١٩ حقوق المملوك
٢٢١ كتاب آداب العزلة
وهو الكتاب السادس من ربع العادات
وفيه بابان
٢٢٢ الباب الأول فى نقل المذاهب والأويل
وذكر حجج الفريقين فى ذلك
٢٢٣ ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها
٢٢٤ ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة
٢٢٦ الباب الثانى فى فوائد العزلة وغوائلها
وكشف الحق فى فضلها
الفائدة الأولى التفرغ للعبادة والفكر الخ
٢٢٨ الفائدة الثانية التخلص بالعزلة عن
المعاصى التى يتعرض الإنسان لها الخ
٢٣٢ الفائدة الثالثة الخلاص من الفتن
والخصومات وصيانة الدين والنفس الخ
٢٣٣ الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس
٢٣٥ الفائدة الخامسة أن ينقطع طمع الناس
عنك وينقطع طمعك عن الناس
٢٣٥ الفائدة السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء
والحمق ومقاساة حمقهم وأخلاقهم الخ
٢٣٦ آفات العزلة المبنية على فوات فوائد المخالطة
السبعة الآتية .
الفائدة الأولى التعليم والتعلم
٢٣٨ الفائدة الثانية النفع والانتفاع
الفائدة الثالثة التأديب والتأدب
٢٣٩ الفائدة الرابعة والاستئناس والإيناس
٢٤٠ الفائدة الخامسة فى نيل الثواب وإنالته
الفائدة السادسة من فوائد المخالطة التواضع
٢٤١ الفائدة السابعة التجارب
٢٤٤ كتاب آداب السفر
وهو الكتاب السابع من ربع العادات
وفيه بابان

صحيفة

٢٤٥ الباب الأول فى الآداب من أول النهوض إلى
آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته وفيه
فصلان الفصل الأول فى فوائد السفر وفضله ونيته
٢٥١ الفصل الثانى فى آداب المسافر من أول نهوضه
إلى آخر رجوعه وهى أحد عشر أدبا
٢٥٧ الباب الثانى فيما لا بد للمسافر من تعلمه من
رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات الخ
القسم الأول العلم برخص السفر
٢٦٣ القسم الثانى ما يتجدد من الوظيفة الخ
٢٦٨ كتاب آداب السماع والوجد
وهو الكتاب الثامن من ربع العادات وفيه
بابان : الأول فى ذكر اختلاف العلماء
فى إباحة السماع وكشف الحق فيه بيان أقاويل
العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه
٢٧٠ بيان الدليل على إباحة السماع
٢٨٤ بيان حجج القائلين بتحريم السماع
والجواب عنها
٢٨٧ الباب الثانى فى آثار السماع وآدابه وفيه
مقامات ثلاث
٢٨٧ المقام الأول فى الفهم
٢٩١ المقام الثانى بعد الفهم والتنزيل الوجد
٣٠١ المقام الثالث من السماع نذكر فيه آداب السماع
ظاهراً وباطنا الخ
٣٠٦ كتاب الأمر بالمعروف
والنهى عن المنكر وهو الكتاب التاسع من
ربع العادات الثانى وفيه أربعة أبواب
٣٠٦ الباب الأول فى وجوب الأمر بالمعروف
والنهى عن المنكر وفضيلته والمذمة فى
إهماله وإضاعته
٣١٢ الباب الثانى فى أركان الأمر بالمعروف
وشروطه ، وأركانه أربعة
الركن الأول المحتسب
٣٢٤ الركن الثانى للحسبة ما فيه الحسبة
٣٢٧ الركن الثالث المحتسب عليه
٣٢٩ الركن الرابع نفس الاحتساب

صحيفة
٢٣٣ باب آداب المحتسب
٢٣٥ الباب الثالث فى المنكرات المألوفة فى العادات منكرات المساجد
٢٣٨ منكرات الأسواق
منكرات الشوارع
٢٣٩ منكرات الحمامات
٢٤٠ منكرات الضيافة
٢٤٢ المنكرات العامة
٢٤٣ الباب الرابع فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر
٣٥٧ كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة وهو الكتاب العاشر من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين
٣٥٨ بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن

صحيفة
٣٦٤ بيان جملة من محاسن أخلاقه التى جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار
٣٦٤ بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه
٢٧٧ بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام
٢٧٤ بيان أخلاقه فى اللباس
٢٧٧ بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع القدرة
٣٧٨ بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه
٢٧٩ بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم
٣٨٠ بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم
بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم
١٨١ بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم
٣٨٣ بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي: رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الثالث

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش فى مبادى إشراق أنواره الأحداق والنواظر ، المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر ، مقلب القلوب وغفار الذنوب ، وستار العيوب ، ومفرج الكروب .

والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين . وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .

أما بعد : فشرف الإنسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره ، وفى الآخرة عدّته وذخره ، وإنما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ؛ فالقلب هو العالم بالله . وهو المتقرب إلى الله ؛ وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات ، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه ، وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه ؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ؛ وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه ، وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذى إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه . وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين ، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين . ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ، فهو ممن قال الله تعالى فيه ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه

أصل الدين وأساس طريق السالكين .

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات - وهو العلم الظاهر ، ووعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات - وهو العلم الباطن ؛ فلابد أن نقدم عليه كتابين : كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات .

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام ، فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسامى

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب . ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بغرضنا :

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين (أحدهما) اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للميت . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين . (والمعنى الثانى) هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ؛ فإن تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة . أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين : (أحدهما) أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة (والثانى) أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ [1] فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثانى : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : (أحدهما) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت ؛ فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فى الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح . وفيه . فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم ، فعلمت أنه يوحى إليه . . الحديث ، وقد تقدم .

الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا . (المعنى الثانى) هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان : (أحدهما) أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »[1] . (المعنى الثانى) هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ والنفس بالمعنى الأول لايتصور رجوعها إلى الله تعالى ؛ فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة ؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء : هى النفس بالمعنى الأول ، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : (أحدهما) أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب . (والثانى) أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : أول ماخلق الله العقل[2] : فإن العلم عرض لايتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لايمكن الخطاب معه . وفى الخبر : أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ... الحديث .

فإذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسمانى ، والروح الجسمانى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة ، والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين ،

---

(١) حديث « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » أخرجه البيهقى فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين . (٢) حديث « أول ماخلق الله العقل » وفى الخبر أنه قال له : أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر ... الحديث » تقدم فى العلم .

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ؛ فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون: هذاخاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس ، وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامى ، وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرسى ، ولايظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسى بالنسبة إلى الله تعالى ، ولايستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضا لايليق بغرضنا فلنجاوزه .

بيان جنود القلب

قال الله تعالى ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ فلله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لايعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بغرضنا . وله جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند لايرى إلا بالبصائر ، وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان ، فهذا معنى الجند : فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها والمردد لها ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاتستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة لايستطيعون له خلافا ، بل لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وإنما يفترقان فى شىء : وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب ، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه ، فلأجله خلقت القلوب . قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وإنما مركبه البدن وزاده العلم . وإنما الأسباب التى توصله الى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح ، وليس يمكن العبد أن يصل الى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا : لأنها أدنى المنزلتين ، فاضطر الى أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به الى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه ، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ماينافيه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين : باطن ، وهو الشهوة . وظاهر ، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء ، فخلق فى القلب من الشهوات مااحتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن ، وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء . وظاهر ،

وهو اليد والرجل للذين بهما يعمل بمقتضى الغضب ، وكل ذلك بأمور خارجة ؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها ، ثم المحتاج إلى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه ، فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن ، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق : وظاهر ، وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولاتحويه مجلدات كثيرة . وقد أشرنا إلى طرف يسير منها فى كتاب الشكر فليقتنع به .

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث : إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافى كالغضب ، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة . والثانى : هو المحرك للاعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة : وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار . والثالث : هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس : وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود ، فإن قوة البطش إنما هى بالأصابع ، وقوة البصر إنما هى بالعين ، وكذا سائر القوى ، ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة أعنى الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة ، وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ماقد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس : أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة : وهى تجاويف الدماغ ، وهى أيضا خمسة ، فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ماقد نسيه ويعود إليه ، ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ؛ ففى الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه ؛ فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنة ، فهذه هى أقسام جنود القلب ، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ، ولكنا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما ، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده ، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه ، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله إلى سعادة الأبد ، وللقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكر ، كما سيأتى شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان . فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا ، وذلك حالة أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه ، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أن نقول : مثل نفس الإنسان فى بدنه أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته

فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها ، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل . والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل ، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة ، كما أن الوالى فى مملكته إذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه ، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ، ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا ، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه ؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمية الغضب ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض فى كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى .

المثال الثانى : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل ـ أعنى المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها ، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه ، وأعضاؤه كرعيته ، والنفس الأمارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى إهلاك رعيته ، فصار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كمقيم فيه مرابط ، فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى ﴿ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة : ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك [1] كما ورد فى الخبر . وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر [2] » .

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه ، فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ، ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب ، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته ، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج ، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه .

بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى ؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس

---

(١) حديث . يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ... الخبر ، لم أجد له أصلا

(٢) حديث « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال : هذا إسناد فيه ضعف .

الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن .

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى علم وإرادة :

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة ، وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس . وإذا فهمت هذا فى العلم الظاهر الضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر .

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطى أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة . فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة ، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها . والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة فى حين المرض والعاقل يجد فى نفسه زاجرا عنها ، وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .

فإذن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبى فى أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة فى حق الصبى .

ثم الصبى فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان ؛ إحداهما : أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذى لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية : أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها . وهذه هى غاية درجة الإنسانية . ولكن فى هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها ؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضهم بتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطىء الحصول . وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها . وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بكشف إلهى فى أسرع وقت ، وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقى هذه الدرجات هى منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنزل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى ، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من

العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لايعرف العاقل ماافتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها (١) » والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ـ كما سيأتى بيانه ـ وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له » ؟ وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشد شوقا (٢) » وبقوله تعالى « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا (٣) » كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم ـ تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ـ ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالأوانى فما دامت ممتلئة بالماء لايدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لاتدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء (٤) » ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فبه كمال الإنسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التى لأجله خلق . وكما أن الفرس يشارك الحمار فى قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية ، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس فى أمور ويفارقها فى أمور هى خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين . والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط ، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء .

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة ؛ فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ﴿ ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمرا كثور ، وإما شرها كخنزير . وإما ضريا ككلب أو سنور ، أو حقودا كجمل . أو متكبرا كنمر ، أو ذاروغان كثعلب ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد .

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى ـ كما سيأتى بيان طرف منه فى كتاب الشكر ـ فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب . وجملة السعادة فى ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده ، والدار الآخرة مستقره ، والدنيا منزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء

---

(١) حديث « إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وقد تقدم .
(٢) حديث « يقول الله عزوجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى . الحديث » لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبى الدرداء ولم يذكر له ولده فى مسند الفردوس إسنادا . (٣) حديث « يقول الله من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٤) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه وقد تقدم فى الصيام .

خدمه . فيستقر هو ـ أعنى المدرك من الإنسان ـ فى القلب الذى هو وسط مملكته كالملك ، ويجرى القوة الخيالية المودعة فى مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ، ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ، ويجرى الأعضاء المتحركة مجرى كتابه ، ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع ؛ فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، والشم بعالم الروائح . وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التى هى كصاحب البريد ، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهى الحافظة ؛ ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها مايحتاج إليه فى تدبير مملكته وإتمام سفره الذى هو بصدده ، وقمع عدوه الذى هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن فى مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة ، أو فى عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة ؛ كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصرا لأعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد فى المنقلب والمعاد . نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الذى ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك [1] فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب : إن لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها : ثم فسره فقال : أصلبها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الإخوان ، وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ قال أبى بن كعب رضى الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى﴾ مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿فى لوح محفوظ﴾ وهو قلب المؤمن . وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى فهذه أمثلة القلب .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى : الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية . فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره . ومن حيث إنه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويحب الاستيلاء ، والاستعلاء ، والتخصص ، والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعرفة ، والإحاطة بحقائق الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية ، وفى الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز فى

---

(١) حديث عائشة : الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الطب النبوى والطبرانى فى مسند الشاميين والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبى ذر : وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شىء .

استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع فى القلب . فكأن المجموع فى إهاب الإنسان : خنزير وكلب وشيطان وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه .

والكلب هو الغضب فإن السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر ، وفى باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه . فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لايزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه .

والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته ، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم ، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه ، فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما فى عبادة كلب وخنزير .

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء ، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما فى النوم أو فى اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يدى خنزير ساجدا له مرة وراكعا أخرى ومنتظرا لإشارته وأمره . فمهما هاج الخنزير لطلب شىء من شهواته انبعث على الفور فى خدمته وإحضار شهوته ، أو رأى نفسه ماثلا بين يدى كلب عقور عابدا له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا بالفكر فى حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع فى مسرة شيطانه فإنه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيا طول النهار فى عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبداً والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له ، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها . وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها . وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها . ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية : لاستقر فى القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هى عليه ، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولانتشر إليه

من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها :

فالقلب فى حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب . أما الآثار المحمودة التى ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب فى الدين ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه (١) » وبقوله صلى الله عليه وسلم « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ (٢) » وهذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولايزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال عز وجل ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ﴾ فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى ﴿ واتقوا الله واسمعوا ـ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها . فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر فى القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿ يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة ،

قال ميمون بن مهران : إذا أذنب العبد ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل ، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس (٣) » فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصى اسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره كالمرآة التى يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح ، فإنها لاتخلو عن كدورة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق (٤) » فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ؟ وفى رواية : ذهبت به . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لايتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بلقاء الله تعالى .

---

(١) حديث : إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه . أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد . (٢) حديث : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ . لم أجد له أصلا .

(٣) حديث « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد وهو بعض الحديث الذى يليه . (٤) حديث « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد الخدرى . وقد تقدم .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ؛ أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهى المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات ؛ فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها ، وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها فى المرآة غير فهى ثلاثة أمور . فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق فى القلب وحضورها فيه .

فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة .

وكما أن القبض مثلا يستدعى (قابضا) كاليد (ومقبوضا) كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد ـ بحصول السيف فى اليد ـ ويسمى (قبضا) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما ، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب ، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا لعدم وقوع السيف فى اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه فى اليد والمعلوم بعينه لا يحصل فى القلب ، فمن علم النار لم تحصل عين النار فى قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل فى المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له . وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم فى القلب يسمى علما .

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور (أحدها) نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل . (والثانى) لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل . (والثالث) لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . (والرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة . (والخامس) للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان فى ذاته كقلب الصبى فإنه لا ينجلى له المعلومات لنقصانه . (والثانى) لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا [1] » أى حصل فى قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها ، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا . فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق ؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم [2] » .

---

(١) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا » لم أر له أصلا . (٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وقد تقدم فى العلم .

الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب : بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية ، فلاينكشف له إلا ماهو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها ، أومصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جليه الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لايمنع عن الكشف الحقيق ؟ .

الرابع : الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قدلاينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ماتلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين فى ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت فى نفوسهم ورسخت فى قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق .

الخامس : الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التى ليست فطرية لاتقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لايحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال مايحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق فى الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ماذكرناه من الجهل بالجهة التى الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا ، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه فى مقابلتها بحيث يبصرها ويراعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا فى المرآة المحاذية للقفا ، ثم تنطبع صورة هذه المرآة فى المرآة الأخرى التى فى مقابلة العين ، ثم تدرك العين صورة القفا ، فكذلك فى اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه فى المرآة يعز على بسيط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحيلة فى تلك الازورارات . فهذه هى الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر ربانى شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف . وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمى مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها فى الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التى ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه [1] » وقول رسول الله

---

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء [1] » إشارة إلى بعض هذه الأسباب التى هى الحجاب بين القلوب وبين الملكوت .

وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل لرسول الله ، يارسول الله أين الله فى الأرض أو فى السماء ؟ قال فى قلوب عباده المؤمنين [2] » وفى الخبر « قال الله تعالى : لم يسعنى أرضى ولاسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع [3] » وفى الخبر « أنه قيل يارسول الله من خير الناس فقال « كل مؤمن مخموم القلب، فقيل: وما مخموم القلب ؟ فقال « هو التقى النقى الذى لاغش فيه ولا بغى ولا غدر ولاغل ولا حسد [4] » ولذلك قال عمر رضى الله عنه : رأى قلبى ربى . إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت وهى الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له ، نعم الذى يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه فى نفسه وبالإضافة إلى علم الله لانهاية له . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله . وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعنى إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ .

نعم هذا التجلى وهذا الإيمان له ثلاث مراتب (المرتبة الأولى) إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض . (والثانية) إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام (والثالثة) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

ونبين لك هذه المراتب بمثال : وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا فى الدار له ثلاث درجات .

الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولااتهمته فى القول ، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا الإيمان بمجرد التقليد ، وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ماقالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم ، وهذا الإيمان سبب النجاة فى الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق

---

(١) حديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ... الحديث . تقدم . (٢) حديث ابن عمر : أين الله ؟ قال : فى قلوب عباده المؤمنين . لم أجده بهذا اللفظ ، وللطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ... الحديث » فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث . (٣) حديث « قال الله ماوسعنى أرضى ولاسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع » لم أر له أصلا وفى حديث أبى عتبة قبله عند الطبرانى بعد قوله « وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها » . (٤) حديث : قيل من خير الناس ؟ قال « كل مؤمن مخموم القلب ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح .

بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا مااعتقدوا خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه فى الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه فى الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإنك إذا قيل لك إنه فى الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت فى حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص ؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لايخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر فى هذا التلبيس والمحاكاة غرضا .

الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده ؛ وهذه هى المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهى تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوى فى إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف .

أما درجات الكشف فمثاله أن يبصر زيدا فى الدار عن قرب وفى صحن الدار فى وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه فى بيت أو من بعد أو فى وقت عشية فيتمثل له فى صورته مايستيقن معه أنه هو ؛ ولكن لايتمثل فى نفسه الدقائق والخفايا من صورته . ومثل هذا متصور فى تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية .

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى فى الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لايرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لامحالة . فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التى تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية . والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة . والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية .

أما العقلية : فنعنى بها ماتقضى بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع ؛ وهى تنقسم إلى ضرورية : لايدرى من أين حصلت وكيف حصلت ؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لايكون فى مكانين والشىء الواحد لايكون حادثا قديما موجودا معدوما معا ؛ فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدرى متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له ؟ أعنى أنه لايدرى له سببا قريبا ، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذى خلقه وهداه . وإلى علوم مكتسبة : وهى المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا .

قال على رضى الله عنه :

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى « ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل [1] » والثانى هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه « إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك [2] »

---

(١) حديث « ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم فى العلم . (٢) حديث « إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم من حديث على بإسناد ضعيف

إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة . ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين ، فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين ، وقوة الابصار لطيفة تفقد فى العمى وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل ، والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ورؤيته لأعيان الأشياء . وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات . والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس . وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبى قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر قال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ﴾ وقلم الله تعالى لايشبه قلم خلقه كما لايشبه وصفه وصف خلقه ، فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض ؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لامناسبة بينهما فى الشرف ؛ فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى اللطيفة المدركة ، وهى كالفارس والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر . ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ سمى إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ، ولذلك سمى ضد إدراكه عمى فقال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ فهذا بيان العلم العقلى .

أما العلوم الدينية : فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع ، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الادواء والامراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها ، كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الادوية والعقاقير بطريق التعلم من الاطباء ، إذ مجرد العقل لايهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، وإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لايداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء . وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما . فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين . وإنما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقصا فى الدين وهيهات . وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأوانى الدار فقال لهم : ما بال هذه الأوانى

تركت على الطريق لم لاترد إلى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأوانى فى مواضعها ! وإنما أنت لست تهتدى للطريق لعماك فالعجب منك أنك لاتحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك ؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية .

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية . فالدنيوية : كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات . والأخروية : كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ـ كما فصلناه فى كتاب العلم ـ وهما علمان متنافيان ـ أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ـ ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتى الميزان ، وكالمشرق والمغرب ، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الاخرى .

ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا فى أمور الآخرة . والأكياس فى دقائق علوم الآخرة جهالا فى أكثر علوم الدنيا ، لأن قوة العقل لاتفى بالأمرين جميعا فى الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البله [1] » أى البله فى أمور الدنيا .

وقال الحسن فى بعض مواعظه : لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين . فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم ، فلا يغرنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب ، فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لايكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية ـ وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال ـ تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لايدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذى يحصل لابطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما ، والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا . ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى مالايدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟ وإلى مايطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب . والأول : يسمى إلهاما ونفثا فى الروع والثانى : يسمى وحيا وتختص به الأنبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء . والذى قبله ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء . وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها ،

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبى فى التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدى انه منكر .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة - التي سبق ذكرها - فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ماقضى الله به إلى يوم القيامة . وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ماهو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل . وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالي إلى حدما . ودوامه في غاية الندور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء ﴾

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له . وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لايخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه : الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لايفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلايبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه

كالبرق الخاطف لايثبت ؛ ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا ؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لايطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لاتحصر كما لايحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهـــير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها [1] » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [2] » وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه . وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لابد أولا من تحصيل ماحصله العلماء وفهم ماقالوه ثم لابأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس ومالبس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين :

أحدهما : أنه لوفرضنا حوضا محفورا فى الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله .

* فإن قلت : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولايسمح بذكره فى علم المعاملة بل القدر الذى يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ بل فى قلوب الملائكة المقربين . فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر

(١) حديث « قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها » أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود .
(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو .

السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره فى اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض فى خياله حتى كأنه ينظر إليها ، ولو انعدمت السماء والأرض وبقى هو فى نفسه لوجد صورة السماء والأرض فى نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التى دخلت فى الحس والخيال . والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجا من خيال الإنسان وقلبه . والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ .

فكأن للعالم أربع درجات فى الوجود : وجود فى اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسمانى ، ويتبعه وجوده الحقيقى ، ويتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى ـ أعنى وجود صورته فى الخيال ـ ويتبع وجوده الخيالى وجوده العقلى ـ أعنى وجود صورته فى القلب ـ

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية . والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض ؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها ، ثم يسرى من وجودها فى الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود فى القلب فإنك أبدا لا تدرك إلا ماهو واصل إليك ، فلو لم يجعل للعالم كله مثالا فى ذاتك لما كان لك خبر بما يباين ذاتك ، فسبحان من دبر هذه العجائب فى القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها .

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ؛ فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينيا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ماسيكون فى المستقبل أو كان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون » قيل ومن هم المفردون يارسول الله ؟ قال « المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا » ثم قال فى وصفهم إخبارا عن الله تعالى فقال « ثم أقبل بوجهى عليهم أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شىء أريد أن أعطيه ؟ ثم قال تعالى : أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم [1] » ومدخل

---

(١) حديث « سبق المفردون » قيل ومن هم ؟ قال « المستهترون بذكر الله ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة مقتصرا على أول الحديث وقال فيه : وما المفردون ؟ قال « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » ورواه الحاكم بلفظ « قال الذين =

هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمى الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى فى علم المعاملة . فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين

المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين ، أعنى عمل العلماء وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط ، فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه و فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؟ فقيل : وكيف فرغتم من غير صبغ ! فقالوا : ما عليكم ارفعوا الحجاب ، فرفعوا وإذا جانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل ؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين ، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها فى القلب كفعل أهل الروم ، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله : التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى .

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال . فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزائن المترعة غنى ، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته ، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقد روى فى الخبر « إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على إبهام قدميه فيضىء مرة وينطفىء أخرى فإذا أضاء قدم قدميه فمشى وإذا طفىء قام ، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد فى ميدانه ، والذى أعطى نورا على إبهام قدمه يحبو حبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص [1] » الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الإيمان ولو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضا يضاهى قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح ؛ فإنما آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع

= يستهترون بذكر الله » وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقى فى الشعب « يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا » ورواه هكذا الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث أبى الدرداء دون الزيادة التى ذكرها المصنف فى آخره وكلاهما ضعيف .

(١) حديث « إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على إبهام قدمه ... الحديث » أخرجه الطبرانى والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

اتساع اقطارها ولاينكشف فى نور السراج إلا زواية ضيقه من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين . ولذلك جاء فى الخبر « أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة [١] » كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لاتمنع دخول النار ، وفى مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لايدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من فى قلبه مثقال ذرة لايستحق الخلود فى النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ليس شىء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن [٢] » إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام . وقد قال تعالى ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد . وقال عز وجل ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف .

وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى [٤] » وفى رواية « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران ، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم إلى الغنى الذى يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شىء ولو الشىء اليسير بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لايدرى فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار [٥] » وقال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ من الإشكالات والشبه ﴿ ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ يعلمه

---

(١) حديث « يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من فى قلبه ربع مثقال من إيمان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد وليس فيه قوله « ربع مثقال » . (٢) حديث « ليس شىء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن » أخرجه الطبرانى من حديث سلمان بلفظ « الإنسان » ولأحمد من حديث ابن عمر « لا نعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن » وإسنادهما حسن (٣) حديث « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب » تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا (٤) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وصححه وقد تقدم فى العلم وكذلك الرواية الثانية . (٥) حديث « من عمل بما علم ... الحديث » تقدم فى العلم دون قوله « ووفقه فيما يعمل » فلم أرها .

علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة السلام « اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى فى قلبى نورا وفى قبرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا حتى قال فى شعرى وفى بشرى وفى لحمى ودمى وعظامى [1] » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ ماهذا الشرح ؟ فقال « هو التوسعة إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح [2] » وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل [3] » وقال على رضى الله عنه : ماعندنا شىء أسره النبى صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه وليس هذا بالتعلم [4] ؟ وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ إنه الفهم فى كتاب الله وقال تعالى ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى [5] » وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علمان فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع [6] » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم [7] » وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث ﴾ يعنى الصديقين والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى ﴿ وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ خصصها بهم وقال تعالى ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فإذا نسى ماحفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ؟ بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعلمناه من من لدنا علما ﴾ مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته

---

(١) حديث « اللهم اعطنى نورا وزدنى نورا ... الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام ... الحديث . وفى المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم .

(٣) حديث « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم فى العلم .

(٤) حديث على : ماعندنا شىء أسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه . تقدم فى آداب تلاوة القرآن .

(٥) حديث « اتقوا فراسة المؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم .

(٦) حديث « العلم علمان ... الحديث » تقدم فى العلم .

(٧) حديث « ان من أمتى محدثين ومكلمين وان عمر منهم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر » ورواه مسلم من حديث عائشة .

حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : ياسارية الجبل الجبل ؛ إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة فى طريق فنظرت إليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت : أوحى بعد النبي ؟ فقال . لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل على الناس ، فنادانى وقال ﴿ والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله فى سرى فنادانى وقال ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ ثم غاب عنى ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى ـ وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به ـ قال : فلما قمت قلت فى نفسى من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بى يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى ألطافا خفية . وقال أحمد النقيب . دخلت على الشبلى فقال مفتونا : يا أحمد فقلت : ما الخبر؟ قال : كنت جالسا فجرى بخاطرى أنك بخيل ، فقلت : ما أنا بخيل ، فعاد منى خاطرى وقال : بل أنت بخيل ، فقلت : ما فتح اليوم على بشىء إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى ، قال : فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال : اجعلها فى مصالحك ، قال : وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، قال : أوليس قد قلنا لك إنك بخيل ؟ قال : فناولتها المزين فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا ، قال : فرميت بها فى دجلة وقلت : ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل . وقال حمزة بن عبد الله العلوى : دخلت على أبى الخير التيناتى واعتقدت فى نفسى أن أسلم عليه ولا آكل فى داره طعاما ، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقنى وقد حمل طبقا فيه طعام وقال : يافتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير التيناتى هذا مشهورا بالكرامات وقال إبراهيم الرقى : قصدته مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى ! فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدنى سبع فعدت إلى أبى الخير وقلت : قصدنى سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لاتتعرض لضيفانى ؟ فتنحى الأسد فتطهرت فلما رجعت قال لى : اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد .

وما حكى من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ، ومن سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لاتنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده أمران أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لايسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه ! والثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا

لايسمى نبيا بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لامحالة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى ، فإذا أقربهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه فهذا ماينبه على حقيقة ماذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ماذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها . فقد قال بعض المكاشفين ظهرلى الملك فسألنى أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد وقال : مانكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عزوجل فقلت :ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لايطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين : سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال : ماتقول رحمك الله ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال : ماتقول رحمك الله ؟ ثم أطرق إلى صدره وقال : ماتقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال : لم يكن عندى فى المسألة جواب عتيد ، فسألت صاحب الشمال فقال لا أدرى ! فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى ، فنظرت إلى قلبى وسألته فحدثنى بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما . وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام « إن فى أمتى محدثين وإن عمر منهم ».

وفى الأثر : إن الله تعالى يقول : أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه : القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأى باب فتح له عمل فيه ؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى ، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : احفظوا ماتسمعون من المطيعين فإنهم ينجلى لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكماء لاينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق . وقال آخر : لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولاتخلو عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال ؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر فى القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة فى المزاج حصل منها فى القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شىء إلى شىء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب . وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر ؛ وأعنى بالخواطر مايحصل فيه من الأفكار ، والأذكار ، وأعنى به إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والخواطر هى المحركات للإرادات

فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لامحالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى مايدعو إلى الشر أعنى إلى مايضر فى العاقبة ، وإلى مايدعو إلى الخير أعنى إلى ماينفع فى الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما ، والخاطر المذموم أعنى الداعى إلى الشر يسمى وسواسا ، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة .

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانا ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا ، فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسامى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء ؛ والتخويف عند الهم بالخير بالفقر . فالوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾ فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لامقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ـ ثم تلا قوله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ (١) الآية » . وقال الحسن إنما هما همان يجولان فى القلب هم من الله تعالى وهم من العدو ، فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وماكان من عدوه جاهده .

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) » فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لاتريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك . والله تعالى يفعل مايفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب ، كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الأجسام مثلا . والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لاجرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مامنكم

---

(١) حديث « فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديث ابن مسعود (٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين ... الحديث » تقدم

من أحد إلا وله شيطان ، قالوا وأنت يارسول الله ؟ قال « وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير [١] » وإنما كان هذا لأن الشيطان لايتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لاتنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لاتدعو إلى الشر فالشيطان المتدرع بها لايأمر إلا بالخير . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس . ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم . والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا . وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى . ولايمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة . وقال جابر بن عبيدة العدوي : شكوت إلى العلاء بن زياد ماأجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه . يعني أن القلب الخالي عن الهوى لايدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لاعبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان . وقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لاعبد الله . ولذلك قال عمرو ابن العاص للنبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال « ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عني [٢] .

وفي الخبر « إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه [٣] » ولايمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ماكان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى مايتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالا للشيطان ، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لايقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ قال : هو منبسط على القلب ؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ، ولتضادهما قال الله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه [٤] » وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده

---

(١) حديث « مامنكم من أحد الا وله شيطان ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث ابن أبي العاص : ان الشيطان حال بيني وبين صلاتي ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص .

(٣) حديث : ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس اسناده بالقوي عند أهل الحديث .

(٤) حديث أنس « ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلي الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه .

وقال : بأبى وجه من لا يفلح [1] .

وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع [2] . وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات . ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك ، فعصاه وجاهد [3] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهى هذه الخواطر التى تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة . فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصور أن ينفك عنه آدمى وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ، ولذلك قال عليه السلام « مامن أحد إلا وله شيطان [4] » .

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر فى ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ماهو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه فى علم المعاملة . بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت فى ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لامحالة ، وعلم أن الداعى إلى الشر المحذور فى المستقبل عدو فقد عرف العدو لامحالة فينبغى أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته فى مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه . نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ـ نعوذ بالله منه ـ وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات فلا يحتاج فى علم المعاملة إلى معرفته . نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى مايعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة ، وإلى مايعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك فى كونه إلهاما ، وإلى مايتردد فيه فلا يدرى أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان ؟ فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير ، والتمييز فى ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لايقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوعظ : أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار؟

---

(١) حديث ابن وضاح « اذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال : بأبى وجه من لايفلح » لم أجد له أصلا . (٢) حديث « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » تقدم .

(٣) حديث « ان الشيطان قعد لابن آدم بطرق ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث سبرة بن أبى فاكه بإسناد صحيح

(٤) حديث « مامن أحد الا له شيطان ... الحديث » تقدم .

أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم ؟ وهو لايزال يقرر ذلك فى نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق . ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ، فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول ، فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ الله ليؤيد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم [1] » . و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر [2] » ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له : قل لا إله إلا الله . فقال : كلمة حق ولا أقولها بقولك . لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لاتتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة .

وسنذكر جملة من مكايد الشيطان فى كتاب الغرور فى آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لاسيما فى المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها . كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده .

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ أى رجعوا إلى نور العلم ﴿فإذا هم مبصرون ﴾ أى ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفى مثلهم قال سبحانه وتعالى ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ قيل هى أعمال ظنوها حسنات فإذا هى سيئات . وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه . ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سدّ أبواب الخواطر . وأبوابها الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا . والخلوة فى بيت مظلم تسد باب الحواس . والتجرد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة فى التخيلات الجارية فى القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بدّ من مجاهدته ، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لايتخلص أحد من الشيطان مادام حيا . نعم قد يقوى بحيث لاينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجرى فى بدنه . فإذا مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها ـ كما سيأتى شرحها ـ ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة .

---

(١) حديث « ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » أخرجه النسائى من حديث أنس بإسناد جيد . (٢) حديث « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم .

قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال : لو نام لاسترحنا . فإذن لاخلاص للمؤمن منه . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته . قال صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره (١) » وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول . وقال قيس بن الحجاج . قال لى شيطانى، دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : تذيبنى بذكر الله تعالى . فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة ، أعنى الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التى تفضى إلى المعاصى الظاهرة ، وإنما يتعثرون فى طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه فى غرور العلماء والوعاظ والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد ، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذى يبقى فى بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك فى ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة . والعين البصيرة ههنا هى القلب المصفى بالتقوى . والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بما يهدى إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم تلا ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ لتلك الخطوط (٢) فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه .

وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذى يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصى الظاهرة ، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الآدمى إلى سلوكه . وذلك كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان راهب فى بنى إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب ، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها ، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه ، فوسوس إليه وقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن سألوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها ، وأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى فى قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها ، فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال : ماتت ، فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى خنقتها وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها فأطعنى تنج وأخلصك منهم قال : بماذا ؟ قال : اسجد لى سجدتين ؛ فسجد له سجدتين فقال له الشيطان : إنى برىء منك . فهو الذى قال الله تعالى فيه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك ﴾ (٣) فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر ، وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك فى قلبه بخفى الهوى فيقدم عليه كالراغب فى الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا : فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه (٤) » .

---

(١) حديث « ان المؤمن ينضى شيطانه ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة .

(٢) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال « هذا سبيل الله ... الحديث . أخرجه النسائى فى الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٣) حديث « كان راهب فى بنى إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب .. الحديث » بطوله فى قوله تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ﴾ رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن مردويه فى تفسيره فى حديث عبيد بن أبى رفاعة مرسلا وللحاكم نحوه موقوفا على على بن أبى طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطاين فى مسنده من حديث على . (٤) حديث « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير « من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » لفظ البخارى .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أنّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه ، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهى كثيرة ، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة ؛ فإنّ الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة ؛ فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له : ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربى أن يتوب على ، فقال موسى : نعم ؛ فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه : أد الأمانة ، فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : ياموسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك امرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ؟ ثم قال له : ياموسى إن لك على حقا بما شفعت لى إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن : اذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم ؛ اذكرنى إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه فما يدرى ما يصنع ، واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى ، وإياك أن تجالس إلى امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك . فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال : آخذه عند الغضب وعند الهوى ، وقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال : الحدّة فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة : وقيل : إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ؟

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصا على كل شىء أعماه حرصه وأصمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشىء يعمى ويصم [1] » ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا . فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى ، فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك، فقال له نوح : أخرج منها ياعدو الله فإنك لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح : أنه لاحاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين ، فقال له نوح :

(١) حديث « حبك الشىء يعمى ويصم » أخرجه أبو داود من حديث أبى الدرداء بإسناد ضعيف .

ماالاثنتان ؟ فقال : هما اللتان لاتكذبانى هما اللتان لاتخلفانى بهما أهلك الناس ؛ الحرص والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما ، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتى منه بالحرص .

ومن أبوابه العظيمة : الشبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا ؛ فإن الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شىء فقال له : يا إبليس ماهذه المعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم فقال : فهل فيها من شىء ؟ قال . ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال . لا ، قال لله على أن لا أملأ بطنى من الطعام أبدا ، فقال له إبليس : ولله على أن لا أنصح مسلما أبدا . ويقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة ؛ أولها : أن يذهب خوف الله من قلبه . الثانى : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث : أنه يثقل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لايجد له رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لايقع فى قلوب الناس . والسادس : أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شىء إلى شىء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع فى الناس : لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر فى حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ عنى شيئا أعلمك به فقال : لا حاجة لى به . قال : انظر فإن كان خيرا أخذت وإن كان شرا رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة ؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت ؟ فإنى أملكك إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت فى الأمور ، وقال صلى الله عليه وسلم « العجلة من الشيطان والتأنى من الله تعالى [(١)] » وقال عز وجل ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ وقال تعالى ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ وهذا لأن الأعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة ، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لايدرى . فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا ؛ أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها فقال هذا حادث ، مكانكم ! فطار حتى أتى خافقى الأرض فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبيا قد ولد البارحة ماحملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا ، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة .

ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار ؛ فإن كل ما يزيد

---

(١) حديث « العجلة من الشيطان والتأنى من الله » أخرجه الترمذى من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقال حسن .

على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً ، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ليشترى داراً يعمرها وليشترى جارية وليشترى أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعى شيئاً آخر يليق به . وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه . قال ثابت البنانى لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فانظروا ماهو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ماندرى ؟ قال : أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال : قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قال : فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون : ماصحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك ، فقال لهم إبليس : رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا [1] . وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوما حجرا فمر به إبليس فقال : ياعيسى رغبت فى الدنيا ؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال : هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر ، يمكن أن يتوسده ؟ فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده ، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته إلى النوم . هذا فى حجر فكيف بمن يملك المخاد الميثرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى ؟ .

ومن أبوابه العظيمة . البخل وخوف الفقر ؛ فإن ذلك هو الذى يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز . قال خيثمة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول : ما غلبنى ابن غلبة فلن يغلبنى على ثلاث ؛ أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، ومنعه من حقه . وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هى معشش الشياطين . وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام ، قال : اجعل لى مجلسا قال الأسواق ومجامع الطرق ، قال : اجعل لى طعاما قال طعامك مالم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لى شرابا قال كل مسكر ، قال : اجعل لى مؤذنا قال المزامير ، قال : اجعل لى قرآنا قال الشعر ، قال : اجعل لى كتابا قال الوشم ، قال : اجعل لى حديثا قال الكذب ، قال : اجعل لى مصايد قال النساء [2] » .

ومن أبوابه العظيمة التوصل : التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار ، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فإن الطعن فى الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة فى

---

(١) حديث ثابت : لما بعث صلى الله عليه وسلم قال لإبليس لشياطينه . لقد حدث أمر ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا . (٢) حديث أبى أمامة « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً .

الطبع من الصفات السبعية ، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى فى الدين وهو ساع فى اتباع الشياطين. فترى الواحد منهم يتعصب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له إذ موالى أبى بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه ، وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصاة فى فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأنى لهذا الفضولى أن يدعى ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته ؟ وترى فضوليا آخر يتعصب لعلى رضى الله عنه وكان من زهد على وسيرته أنه لبس فى خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ، وترى الفاسق لابسا الثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضى الله عنه ويدعيه وهو اول خصمائه يوم القيامة ، وليت شعرى من أخذ ولدا عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصى الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى ؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ماتحبه الصحابة فى أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبا لأبى بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لعلى لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضى الله عنها وهى بضعة منه [1] « اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا [2] » وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء . وهكذا حكم المتعصبين للشافعى وأبى حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له : كان مذهبى العمل دون الحديث باللسان ، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان ؛ فمابالك خالفتنى فى العمل والسيرة التى هى مذهبى ومسلكى الذى سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبى كاذبا ؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم ، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت فى الدين بصيرتهم وقويت فى الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فحبسوا ذلك فى صدورهم ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان فى تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم ، وقال الحسن . بلغنا أن إبليس قال : سولت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصى فقصموا ظهرى بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهى الأهواء . وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التى تجر إلى المعاصى فكيف يستغفرون منها ؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات قال عبدالله بن مسعود . جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون ـ وليس إياهم يريد ـ فقام الذين يذكرون الله تعالى

---

(١) حديث « فاطمة بضعة منى » متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة . (٢) حديث « انى لا أغنى عنك من الله شيئا » قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبى هريرة .

فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم

ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته وفى أمور لايبلغها حد عقولهم حتى يشككهم فى أصل الدين ، أويخيل إليهم فى الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع فى صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه [1] » والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعامى لو يزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم وقع فى الكفر من حيث لايدرى ، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لاتحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر فى القيام بحقوقه أو يتوانى فى إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا مواضع التهم [2] » حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك . روى عن على بن حسين أن صفية بنت حيى بن أخطب أخبرته أن النبى صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فى المسجد قالت : فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال « إنها صفية بنت حيى » فقالا يارسول الله ما نظن بك إلا خيرا ، فقال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإنى خشيت أن يدخل عليكما [3] » فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله ؟ فيقول : مثلى لا يظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه . فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لاينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لايظنون بالناس كلهم إلا الشر . فمهما رأيت إنسانا يسىء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب ، والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق . فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفى هذا القدر ما ينبه على غيره فليس فى الآدمى صفة

---

(١) حديث عائشة « ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله ... الحديث » أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى فى مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اتقوا مواضع التهم » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث « صفية بنت حيى : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده ... الحديث . وفيه « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » متفق عليه .

مذمومة إلا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

* فإن قلت : فما العلاج فى دفع الشيطان وهل يكفى فى ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب فى ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره . وغرضنا فى هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سيأتى شرحه — نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب ولا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ خصص بذلك المتقى فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، فمجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام ، فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فاذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وسائر الأخبار والآيات الواردة فى الذكر .

قال أبو هريرة : التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : مالك مهزول ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعا وإذا شرب سمى الله فأظل عطشانا ، وإذا لبس سمى الله فأظل عريانا ، وإذا ادهن سمى الله فأظل شعثا ، فقال : لكنى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه . وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شىء قدير . قال : فتمثل له إبليس يوما فى طريق المسجد فقال له : يا ابن واسع هل تعرفنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال : وما تريد ؟ قال : أريد أن لا تعلم أحد هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك ، قال : والله لا أمنعها عمن أراد فاصنع ما شئت . وعن عبد الرحمن ابن أبى ليلى قال : كان شيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له : قل أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن . فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه [1] وقال الحسن . نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتا من الجن يكيدك فاذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى [2] وقال صلى الله عليه وسلم أتانى الشيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت

---

(١) حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى : كان الشيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك فى الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من رواية يحيى ابن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامى عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين ؟ فذكر نحوه (٢) حديث الحسن : نبئت أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ان عفريتا من الجن يكيدك ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا

بحلقه فوالذى بعثنى بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدى ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريحا فى المسجد [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير الذى سلكه عمر [٢] » وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات فمهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة ، والذكر الدواء والتقوى احتماء وهى تخلى القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ وقال تعالى ﴿ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان [٣] ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ؛ فراقب قلبك إذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ماقد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت ؟ فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها ؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر ، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر ؛ أى أنت مطيع له . وقال بعضهم : يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه . وكما أن الله تعالى قال ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء .

قيل لابراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذى أماتها ؟ قال : ثمان خصال ؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده ، وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا ﴾ فواطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم ، فكيف يستجيب لكم ؟

* فإن قلت فالداعى إلى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك فى المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته . كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة ، ولكن الذى

(١) حديث « أتانى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية الشعبى مرسلا هكذا وللبخارى من حديث أبى هريرة « أن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه ... الحديث » والنسائى فى الكبرى من حديث عائشة : كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدى ... الحديث » وإسناده جيد (٢) حديث « ماسلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه » متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ « يا ابن الخطاب مالقيك الشيطان سالكا فجا ... الحديث » (٣) الحديث الوارد بأن الذكر يا عمر يطرد الشيطان . تقدم

يتضح بنور الاستبصار فى شواهد الأخبار : أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصى شيطانا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذى ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه فى نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره: ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور . فأما ثبر : فهو صاحب المصائب الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية . وأما الأعور : فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه . وأما مبسوط : فهو صاحب الكذب . وأما داسم : فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور : فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين . وشيطان الصلاة يسمى خنزب (٢) وشيطان الوضوء يسمى الولهان (٣) وقد ورد فى ذلك أخبار كثيرة .

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك فى الملائكة . وقد ذكرنا فى كتاب الشكر السر فى كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك ؛ للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل فى اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغر فاه، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين (١) » .

وقال أيوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر ابن عبد الله : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يارب هذا الذى جعلت بينى وبينه عداوة إن لم تعنى عليه لا أقوى عليه ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك ، قال : يارب زدنى ، قال: أجزى بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرا إلى ما أريد ، قال : رب زدنى ، قال : باب التوبة مفتوح مادام فى الجسد الروح ، قال إبليس: يارب هذا العبد الذى كرمته على إن لا تعنى عليه لا أقوى عليه ؟ قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد ، قال : يارب زدنى ، قال : تجرى منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا ، قال : رب زدنى ، قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح فى الهواء ، وصنف عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وصنف أجسامهم أجسام بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف فى ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله (٢) » . وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال : إنى أريد أن أنصحك ، قال : لا حاجة لى فى نصحك ولكن أخبرنى عن بنى آدم قال : هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه

---

(١) حديث « إن شيطان الصلاة يسمى خنزب » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبى العاص وقد تقدم أول الحديث

(٢) حديث « إن شيطان الوضوء يسمى الولهان » تقدم وهو عند الترمذى من حديث أبي .

(٣) حديث أبى أمامه « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان والطبرانى فى المعجم الكبير باسناد ضعيف (٤) حديث أبى الدرداء « خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن حبان فى الضعفاء فى ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصرا : فى الجن فقط ثلاثة أصناف . من حديث أبى ثعلبة الخشنى وقال صحيح الاسناد .

فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء . وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم . وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لانقدر منهم على شيء .

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض ، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة ، فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين [(١)] وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالبا [(٢)] فكان يراه في صورة دحية الكلبي [(٣)] وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة ، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة مايراه غيره في المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس . ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة ، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا . وهذا يجرى مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لابد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر . وقد بينا أن القلب له وجهان : وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي ، ووجه إلى عالم الشهادة . فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس . أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها ، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها ، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة ، فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث ، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير . وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة . وإنما المقصود أن تصدق

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم مارأى جبريل في صورته إلا مرتين أخرجه الشيخان من حديث عائشة : وسئلت هل رأى محمد ربه ؟ وفيه : ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين . (٢) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالبا أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت : فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث ... »

(٣) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد : أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة « من هذا؟» قالت : دحية . الحديث

بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك ، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك فى النوم ، وتارة بطريق الحقيقة . والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى ـ هو مثال المعنى لاعين المعنى ـ إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم .

بيان مايؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « عفى عن أمتى ماحدثت به نفوسها مالم تتكلم به أو تعمل به [1] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « إن الله تعالى يقول للحفظة : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا [2] » وقد خرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة . وفى لفظ آخر « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت » وفى لفظ آخر ، « وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مالم يعملها » وكل ذلك يدل على العفو فأما مايدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ﴿إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ وقوله تعالى ﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ وقوله تعالى ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ والحق عندنا فى هذه المسألة لا يوقف عليه مالم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح .

فنقول . أول مايرد على القلب الخاطر ، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره فى الطريق لو التفت إليها لرآها . (والثانى) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة فى الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . (والثالث) حكم القلب بأن هذا ينبغى أن يفعل أى ينبغى أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية مالم تندفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء أوخوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل . (الرابع) تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا ، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل .

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة : الخاطر وهو حديث النفس ، ثم الميل ، ثم الاعتقاد ، ثم الهم .

فنقول : أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لايدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان

---

(١) حديث « عفى لأمتى عما حدثت به نفوسها » متفق عليه من حديث أبى هريرة « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ... الحديث »

(٢) حديث أبى هريرة « يقول الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ... الحديث » قال المصنف أخرجه مسلم والبخارى فى الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه فى الذكر .

أيضا تحت الاختيار ، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم « عفى عن أمتى ماحدثت به نفوسها » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس ، بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة ، قال « مهلا إن من سنتى النكاح » قال : نفسى تحدثنى أن أجب نفسى ، قال « مهلا خصاء أمتى دءوب الصيام » قال : نفسى تحدثنى أن أترهب ، قال « مهلا رهبانية أمتى الجهادوالحج » قال : نفسى تحدثنى أن أترك اللحم ، قال مهلا فإنى أحبه ولو أصبته لأكلته ولوسألت الله لأطعمنيه [1] » فهذه الخواطر التى ليس معها عزم على الفعل هى حديث النفس ، ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل .

وأما الثالث : وهوالاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا ، والأحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لا يؤاخذ به .

وأما الرابع وهو الهم بالفعل ؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة ، والهم على وفق الطبع بما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى ، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة فجده فى مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده فى موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل ، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة ، فإن همه فعل من القلب اختيارى .

والدليل على هذا التفصيل ماروى فى الصحيح مفصلا فى لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه ، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائى [2] » وحيث قال : فإن لم يعملها : أراد به تركها لله ، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما يحشر الناس على نياتهم [3] » ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزنى بامرأة فمات تلك

---

(١) حديث : ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة قال « مهلا ان من سنتى النكاح .. الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية على بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمرى كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدارمى من حديث سعد بن أبى وقاص : لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذى كان من ترك النساء بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياعثمان انى لم أومر بالرهبانية .. الحديث » وفيه « من رغب عن سنتى فليس منى » وهو عندكم بلفظ : رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا . وللبغوى والطبرانى فى معجمى الصحابة باسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون : أنه قال يارسول الله انى رجل تشق على هذه العزوبة فى المغازى فتأذن لى يارسول الله فى الخصاء فأختصى قال « لا ، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة » ولأحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو « خصاء أمتى الصيام والقيام » وله من حديث سعيد بن العاص باسناد فيه ضعف : ان عثمان بن مظعون قال : يارسول الله ائذن لى فى الاختصاء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف .. الحديث » وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة « النكاح من سنتى » ولأحمد وأبى يعلى من حديث أنس « لكل نبى » وقال أبو يعلى « لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبى داود من حديث أبى أمامة « ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » واسناده جيد .

(٢) حديث : قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر .. الحديث . قال المصنف انه فى الصحيح وهو كما قال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث « انما يحشر الناس على نياتهم » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله « انما » وله من حديث أبى هريرة « انما يبعث الناس على نياتهم » واسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة « يبعثهم الله على نياتهم » وله من حديث أم سلمة « يبعثون على نياتهم »

الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقدهم بسيئة ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « لأنه أراد قتل صاحبه [١] » وهذا نص فى أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لايؤاخذ بالنية والهم ؟ بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ، ونقض العزم بالندم حسنةفلذلك كتبت له حسنة ، فأمافوت المراد بعائق فليس بحسنة . وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لايدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : كلفنا مالا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لايحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا [٢] » فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله ﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر بهأن كل مالايدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذى لايؤاخذ به . فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس . وكل من يظن أن كل مايجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لايؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب ؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؟ أى مايدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم لم يؤاخذبه فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب [٣] » وقال الله تعالى ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حواز القلوب [٤] » وقال « البر ماطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك [٥] » حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتى بإيجاب شيء وكان مخطئا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلى . فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ؟

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين فى صفاتها وعجائبها اختلفوا فى هذه المسألة على خمس فرق :

فقالت فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فإذا ذكر الله خنس [٦] » والخنس هو السكوت فكأنه يسكت .

---

(١) حديث « إذا التقى بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » الحديث متفق عليه من حديث أبى بكرة .

(٢) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالانطيق.. الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرةوابن عباس نحوه (٣) حديث « التقوى ههنا — وأشار إلى القلب » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال — إلى صدره — (٤) حديث « الإثم حواز القلوب » تقدم فى العلم (٥) حديث « البر ماطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك » أخرجه الطبرانى من حديث أبى ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه « وإن أفتاك الناس وأفتوك » وقد تقدما (٦) حديث « وإذا ذكر الله خنس » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن عدى من حديث أنس فى أثناء حديث « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم » . الحديث » وقد تقدم قريبا .

وقالت فرقة : لاينعدم أصله ولكن يجرى فى القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه .

وقالت فرقة : لاتسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

وقالت فرقة : ينعدم عند الذكر فى لحظة وينعدم الذكر فى لحظه ، ويتعاقبان فى أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهى كالكرة التى عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة ، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا .

وقالت فرقة : الوسوسة والذكر يتساوقان فى الدوام على القلب تساوقا لاينقطع ، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين فى حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد إلا وله أربعة أعين : عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه [1] » وإلى هذا ذهب المحاسبى . والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه .

والوسواس أصناف ؛ الأول : أن يكون من جهة التلبيس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التنعم باللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم ، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه : الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ،ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب ، إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصى ولا يمكنه أن يقول المعصية لاتفضى إلى النار ، فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه . وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول : أى عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده ؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى ! فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التى بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به ؟ فيخنس الشيطان إذ لايمكنه أن يقول ليس هذا من الله. فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثانى . أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها ، وهذا ينقسم إلى مايعلم العبد يقيناً أنه معصية وإلى مايظنه بغالب الظن . فإن علمه يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثر فى تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنونا ، فربما يبقى مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة فى دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة .

الصنف الثالث : أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر فى غير الصلاة مثلا، فإذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويعود ، ويندفع ويعود ، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما فى موضعين من القلب . وبعيد جدا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لايخطر ، ولكنه ليس محالا إذ قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما

(١) حديث « مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ « الآخرة » مكان « دينه » وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروى السماخى الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه .

نفسه بشيء من أمر الدنيا غفرله ماتقدم من ذنبه [١] » فلولا أنه متصور لما ذكره ، إلا أنه لايتصور ذلك إلا فى قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر ، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات فى مجادلة عدوه بحيث لايخطر بباله غير حديث عدوه ، وكذلك المستغرق فى الحب قد يتفكر فى محادثة محبوبه بقلبه ويغوص فى فكره بحيث لايخطر بباله غير حديث محبوبه ، ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لايراه . وإذا تصور هذا فى خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه فكيف لايتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها فى محل مخصوص .

وبالجملة فالخلاص من الشيطان فى لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلا بعيد جدا ، ومحال فى الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى : أنه نظر إلى علم ثوبه فى الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال « شغلنى عن الصلاة » وقال « اذهبوا به إلى أبى جهم وائتونى بأنبجانيته [٢] » وكان فى يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به قال « نظرة إليه ونظرة إليكم [٣] » وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب ـ وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به ـ فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمى والمفارقة ، فما دام يملك شيئا وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لايدعه الشيطان فى صلاته من الوسوسة فى الفكر فى ديناره ، وأنه كيف يحفظه ؟ وفيماذا ينفقه ؟ وكيف يخفيه حتى لايعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به ؟ إلى غير ذلك من الوساوس . فمن أنشب مخالبه فى الدنيا وطمع فى أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس فى العسل وظن أن الذباب لايقع عليه فهو محال . فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة . قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه فى بدعة ، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ماليس بحرام ، وإن أبى شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم ، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفاً فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه ، وعند ذلك يشتد إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب فى التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التى ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التى وصفناها ، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر مايضاده فتتغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه ، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره ، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعا بين ملكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان ـ لايكون قط مهملا ـ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى فى عجائب القلب وتقلبه كان يحلف

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا .. » تقدم فى الصلاة .
(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم نظر الى علم فى ثوبه فى الصلاة .. الحديث . تقدم (٣) حديث : كان فى يده خاتم من ذهب فنظر اليه على المنبر فرماه فقال « نظرة اليكم » أخرجه النسائى من حديث ابن عباس وتقدم فى الصلاة

به فيقول « لا ومقلب القلوب [١] » وكان كثيراً مايقول « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا أو تخاف يارسول الله ؟ قال « وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء [٢] » وفى لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه »

وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة : فقال « مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة [٣] » وقال عليه السلام « مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا [٤] » وقال « مثل القلب كمثل ريشة فى أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن [٥] » وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى فى تقلبها من حيث لاتهتدى إليه المعرفة لايعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى .

والقلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ، ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت ، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لابد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا فى جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا ، فعند ذلك يمده بجنود لاترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ، ولايتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ وفى مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لايخفى فيه الشرك الخفي الذى هو أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء ، فلا يخفى على هذا النور خافية ولايروج عليه شىء من مكايد الشيطان ، بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات - التى سنذكرها - من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك . وهو القلب الذى أقبل الله عزوجل بوجهه عليه ، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبقوله عزوجل ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ﴾ .

القلب الثانى : القلب المخذول المشحون بالهوى ، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى ، فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه

---

(١) حديث « لاومقلب القلوب » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر (٢) حديث « يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك . . الحديث أخرجه الترمذى من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبى الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » والنسائى فى الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخارى ومسلم من حديث النواس بن سمعان « مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » والنسائى فى الكبرى باسناد جيد نحوه من حديث عائشه (٣) حديث « مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة » أخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقى فى الشعب من حديث أبى عبيدة بن الجراح . قلت رواه البغوى فى معجمه من حديث أبى عبيد غير منسوب وقال لا أدرى له صحبة أم لا .

(٤) حديث « مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث المقداد بن الأسود (٥) حديث « مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة . . . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من حديث أبى موسى الأشعرى باسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس باسناد ضعيف .

ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته . فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأمانى ، ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره ، فيصير العقل كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر ، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لايبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ماهو الحق فيه عمى عن الفهم ، وصم عن السمع ، وهاجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان ، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ وبقوله عزوجل ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون ﴾ وبقوله ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذى يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالذى لايملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولايبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه ، أو كالذى لايملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه ، أو كالذى لايملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى ، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان .

القلب الثالث : قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة أكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعى الهوى ويقول ماهذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك ؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه ؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان ؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا ؟ أماترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه ؛ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة ؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار ؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لايخففه عنك معصية غيرك ؟ أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولاتخالفهم خوفا من حر النار ؟ فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلايزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ماهو أولى به فإن كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ، ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهو سبب بعده عن الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان

وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ـ أى بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب ـ أعنى التقليب والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصى تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت ، وهى أيضا إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء . فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصى وسلط عليه أقران السوء وألقى فى قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله : إنّ الله رحيم فلا تبال ، وإنّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم ، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجرى مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ـ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ فهو الهادى والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه . خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصى . وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ﴿ إنّ الأبرار لفى نعيم وإنّ الفجار لفى جحيم ﴾ ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى [1] » فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة ، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر ولا يجتزئ بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب . وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولى التوفيق .

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة . ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثانى من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره ، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرسه من الزيادة والنقصان فى شكله ومقاديره ، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، وامتن عليهم

(١) حديث « قال الله عزوجل هؤلاء الى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمى وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب انه مضطرب الاسناد .

بتسهيل صعبه وعسيرة ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره ،الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره ؛

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين . والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازى الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوت إلا حياة الجسد ؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفى مرضها فوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأنق فى معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير فى علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وإهمالها هو المراد بقوله ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ ونحن نشير فى هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتى فى بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلى فى تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها . ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ، ثم بيان علامات حسن الخلق ، ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشو ، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن [1] وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك [2] » وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق [3] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق [4] » وجاء رجل إلى رسول الله

كتاب رياضة النفس

(١) حديث عائشة : كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم (٢) حديث « تأول قوله تعالى ﴿ خذ العفو ﴾ الآية هو أن تصل من قطعك .. الحديث » أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان

(٣) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة وتقدم فى آداب الصحبة

(٤) حديث « أثقل ما يوضع فى الميزان خلق حسن » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء .

صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يارسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه فقال : يارسول الله ماالدين ؟ قال « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله فقال : ماالدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أتاه من ورائه فقال يارسول الله ماالدين ؟ فالتفت إليه وقال « أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب [1] » وقيل يارسول الله ماالشؤم ؟ قال « سوء الخلق [2] » وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أوصنى فقال « اتق الله حيثما كنت » قال زدنى قال « أتبع السيئة الحسنة تمحها » قال زدنى قال « خالق الناس بخلق حسن [3] » وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال « خلق حسن » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ماحسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار [4] » وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال « لاخير فيها هى من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قونى فقواه بحسن الخلق والسخاء ، ولما خلق الله الكفر قال اللهم قونى فقواه بالبخل وسوء الخلق [5] » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما [6] » وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم [7] » وقيل : يارسول الله أى المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال « أحسنهم خلقا [8] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق [9] » وقال أيضا صلى الله تعالى عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل [10] »

وعن جرير بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك [11] »

وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا [12] وعن أبى مسعود البدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى [13] »

وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللهم إنى أسألك

---

(١) حديث : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : ما الدين ؟ قال « حسن الخلق .. الحديث » أخرجه محمد بن نصر المروزى فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبى العلاء بن الشخير مرسلا (٢) حديث : ماالشؤم ؟ قال « سوء الخلق » أخرجه أحمد من حديث عائشة « الشؤم سوء الخلق » ولأبى داود من حديث رافع بن مكيث « سوء الخلق شؤم » وكلاهما لايصح (٣) حديث : قال رجل أوصنى قال « اتق الله حيثما كنت .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وقال حسن صحيح (٤) حديث « ماحسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار » تقدم فى آداب الصحبة .

(٥) حديث أبى الدرداء « أول مايوضع فى الميزان حسن الخلق .. الحديث » لم أقف له على أصل هكذا ولأبى داود والترمذى من حديث أبى الدرداء « مامن شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال غريب وقال فى بعض طرقه حسن صحيح (٦) حديث « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه .. الحديث » أخرجه الدارقطنى فى كتاب المستجاد ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد فيه لين (٧) حديث « حسن الخلق خلق الله الأعظم » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف (٨) حديث : قيل يارسول الله أى المؤمنين أفضلهم إيمانا ؟ قال « أحسنهم خلقا » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم من حديث أبى هريرة وتقدم فى النكاح بلفظ « أكمل المؤمنين » والطبرانى من حديث أبى أمامة « أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا » (٩) حديث « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات (١٠) حديث « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هريرة والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وأبى هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير (١١) حديث « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآداب وفيه ضعف (١٢) حديث البراء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند حسن (١٣) حديث أبى مسعود البدرى « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبى الهذيل عن أبى مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أى عبد الله ، هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة .

الصحة والعافية وحسن الخلق [١] » وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه ، وحسبه حسن خلقه ، ومروءته عقله [٢] » وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ماخير ماأعطى العبد ؟ قال « خلق حسن [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا [٤] » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين الناس [٥] » وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم فى افتتاح الصلاة « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لايصرف عنى سيئها إلا أنت [٦] » وقال أنس : بينما نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد [٧] » وقال عليه السلام « من سعادة المرء حسن الخلق [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « اليمن حسن الخلق [٩] » وقال عليه السلام لأبى ذر « ياأبا ذر لاعقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق [١٠] » وعن أنس قال : قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت المرأة يكون لها زوجان فى الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هى تكون ؟ قال « لأحسنهما خلقا كان عندها فى الدنيا ، ياأم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة [١١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته [١٢] » وفى رواية « درجة الظمآن فى الهواجر » وقال عبد الرحمن بن سمرة : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى [١٣] » وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف فى العبادة [١٤] » وروى : أن عمر رضى الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو « اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد فيه لين (٢) حديث أبى هريرة « كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقى . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجى وقد تكلم فيه . قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال إسناد صحيح (٣) حديث أسامة بن شريك : شهدت الأعاريب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه وتقدم فى آداب الصحبة .

(٤) حديث « إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » أخرجه الطبراني فى الصغير والأوسط من حديث أبى هريرة « إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا » وللطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا » وقد تقدم الحديثان فى آداب الصحبة (٥) حديث ابن عباس « ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله ... الحديث » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير وفى مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة

(٦) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق... الحديث » أخرجه مسلم من حديث على (٧) حديث أنس : إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف ورواه الطبرانى والطيالسى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبى هريرة وضعفه أيضاً (٨) حديث « من سعادة المرء حسن الخلق » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف (٩) حديث « اليمن حسن الخلق » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق من حديث على باسناد ضعيف (١٠) حديث « ياأباذر لاعقل كالتدبير ولاحسب كحسن الخلق » أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبى ذر (١١) حديث أنس : قالت أم حبيبة يارسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبرانى فى الكبير والخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (١٢) حديث « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبى هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة (١٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة « إنى رأيت البارحة عجبا ... الحديث » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف (١٤) حديث « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة .. الحديث » أخرجه الطبرانى والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس باسناد جيد ،

نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضى الله عنه : مم تضحك بأبى أنت وأمى يارسول الله؟ فقال « عجبت لهؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب » فقال عمر : أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « إيهاً يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك [١] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « سوء الخلق ذنب لايغفر وسوء الظن خطيئة تفوح [٢] » وقال عليه السلام « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم [٣] ».

الآثار : قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أى الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدين ، قال : فإذا كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمال والحياء ، قال : فإذا كانت أربعا؟قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمساً ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستاً ؟ قال : يابنى إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقى تقى ولله ولى ومن الشيطان برى ، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة فى الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك فى جهنم وهو عابد . وقال يحيى بن معاذ : فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب ابن منبه : مثل السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لاترقع ولاتعاد طينا . وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق فى سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له فى ذلك فقال : بكيته رحمة له ، فارقته وخلقه معه لم يفارقه ، وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه ، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكنانى التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف . وقال عمر رضى الله عنه : خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال . وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيئة لاتنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لاتضر معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس : ماالكرم ؟ فقال : هو مابين الله فى كتابه العزيز ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قيل فما الحسب ؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً . وقال : لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء ماارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا فى حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو ، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا فى ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول الحسن : حسن الخلق بسط الوجه

---

(١) حديث : ان عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه . الحديث . متفق عليه (٢) حديث « سوء الخلق ذنب لايغفر .. الحديث . أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث عائشة : مامن شىء إلاله توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لايتوب من ذنب إلا عاد فى شر منه . وإسناده ضعيف (٣) حديث : ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » أخرجه الطبرانى والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذى قبله بحديثين .

وبذل الندى وكف الأذى . وقال الواسطى : هو أن لايخاصم ولايخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقال شاه الكرمانى : هو كف الأذى واحتمال المؤن . وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريبا . وقال الواسطى مرة : هو إرضاء الخلق فى السراء والضراء . وقال أبو عثمان : هوالرضا عن الله تعالى . وسئل سهل التسترى عن حسن الخلق فقال . أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة : أن لايتهم الحق فى الرزق ويثق به ويسكن الى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه فى جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال على رضى الله عنه . حسن الخلق فى ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال . وقال الحسين بن منصور : هو أن لايؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز : هو أن لايكون لك هم غير الله تعالى . فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ، ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضاً . وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة .

فنقول : الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق ـ أى حسن الباطن والظاهر ـ فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى ﴿ إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقاً حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا . وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لايقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لايقال خلقه السخاء والحلم .

فههنا أربعة أمور ؛ أحدها : فعل الجميل والقبيح . والثانى : القدرة عليهما . والثالث : المعرفة بهما . والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين ؛ إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولايبذل إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك ، وذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل . فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لايتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ؛ فكذلك فى الباطن أربعة أركان لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة - وهى التى قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ .

وأما قوة الغضب : فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمة ؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعنى إشارة العقل والشرع

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضى لإشارة العقل . والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا . فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض . وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا ، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا .

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا وجربزة ، ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة .

فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية . ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ونعنى بالعفة تأدّب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها .

إذ من اعتدال قوة العقل : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء . ومن تفريطها : يصدر البله والغمارة والحمق والجنون - وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرا فى شىء دون شىء . والفرق بين الحمق والجنون : أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل إلى الغرض ، وأما المجنون فإنه يختار مالا ينبغى أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدا - .

وأما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهى أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهور : فيصدر منه الصلف والبذخ

والاستشاطة والتكبر والعجب . وأما تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب .

وأما خلق العفة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهى الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقى فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأربع إلا رسول صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه . فكل من قرب منه فى هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغى أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغى أن يقتدى به ويتقرب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال [1] .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق فى أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل . ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا ، فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير .

واستدل فيه بأمرين ؛ أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى . والثانى : أنهم قالوا حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب . وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمى فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة . فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده .

فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله

---

(١) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » تقدم فى آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم «حسنوا أخلاقكم [1]»، وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى مالا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا، وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة كل ماهو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ماوجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لايبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان.

أحدهما: قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة فى الإنسان، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجودا، إذ الصبى فى مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما تخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

والسبب الثانى: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب ﴿الأولى﴾ وهو الإنسان الغفل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقى كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه فى أقرب زمان ﴿والثانية﴾ أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره فى عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع مارسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم. ﴿والثالثة﴾ أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولايرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال. ﴿والرابعة﴾ أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفى مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب. والأول: من هؤلاء جاهل فقط. والثانى: جاهل وضال والثالث: جاهل وضال وفاسق. والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذى استدلوا به: وهو قولهم إن الآدمى مادام حيا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت

---

(١) حديث «حسنوا أخلاقكم» أخرجه أبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق من حديث معاذ «يامعاذ حسن خلقك للناس» منقطع ورجاله ثقات.

شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه ولهلك . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً . وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر [1] » . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق [2] وقال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لايقهر واحد منهما العقل ولايغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن ، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولى الشهوة على الإنسان بحيث لايقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش . وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لاشك فيها والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير . وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وقال فى الغضب ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوساطها [3] » وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ماهو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين ، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور . والعفة بين الشره والجمود . وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفى الأمور ذميم ؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد المريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ، ويذم إمساك المال رأسا ، ولايرخص له فى شىء منه لأنه لو رخص له فى أدنى شىء اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه . فإذا قصد الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر

(١) حديث « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر » أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبى هريرة « إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » (٢) حديث : أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان الغضب لايخرجه عن الحق » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير فى قصة شراج الحرة فقال : لأن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبى سعيد الخدرى : وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه . ولهما من حديث عائشة : وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم : مانيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه ... الحديث .

(٣) حديث « خير الأمور أوساطها » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا .

سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود . فلا يكشف هذا السر البريد فإنه موضع غرور الحمق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة . وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : بجود إلهى وكمال فطرى بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولايبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ماقد ينال بالاكتساب فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم .

والوجه الثانى : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال الذى يبذله دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس ، مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ومالم تترك جميع الأفعال السيئة ، ومالم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرة عينى فى الصلاة [١] » ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها لابالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله فى الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير [٢] » ، ثم لايكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان ، بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر . كلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال « طول العمر فى طاعة الله تعالى [٣] » ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها فى القلب ، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون

---

(١) حديث « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » أخرجه النسائى من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « اعبدالله فى الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير » أخرجه الطبرانى (٣) حديث : سئل عن السعادة فقال « طول العمر فى عبادة الله » رواه القضاعى فى مسند الشهاب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وللترمذى من حديث أبي بكرة وصححه : أى الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » .

شىء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذى يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلى على الوجه الذى يوصله إلى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ، ثم يكون بعد ذلك فرحا به مستلذاً له ، ولا ينبغى أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هى قرة العين. ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك ؛ فإنا قد نرى الملوك والمنعمين فى أحزان دائمة ، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار ، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائما على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها فى جو السماء ، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته فى الصبر على ذلك ، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه ، ويقطع الواحد منهم إربا إربا على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالى بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالا وشجاعة ورجولية ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره ، بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث فى تشبهه بالإناث فى نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث فى فرح بحاله وافتخار بكماله فى تخنثه يتباهى به مع المخنثين ، حتى يجرى بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء . فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك فى المخالطين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر ربانى ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها ، فكل قلب مال إلى حب شىء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشىء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض

فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ـ أعنى النفس والبدن ـ فإن كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة ، وكل فعل يجرى على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية ـ حتى يصير كاتباً بالطبع ـ فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكى الخط الحسن ، فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه فى الابتداء تكلفا ، فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا ، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفه الفقه فيصير فقيه النفس . وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس حليما متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له ، فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لاييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة ، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم . وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لاتوجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة فى يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صغائر المعاصى يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصـــل السعادة بهدم أصل الإيمــان عند الخاتمة . وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره فى فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئا على التدريج - مثل نمو البدن وارتفاع القامة - فكذلك الطاعة الواحدة لايحس تأثيرها فى تزكية النفس وتطهيرها فى الحال ، ولكن لاينبغى أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد ، فلكل واحد منها تأثير ، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفى ، فله ثواب لامحالة . فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية . وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالى يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذا من يستهين صغائر المعاصى ويسوف نفسه بالتوبة على التوالى إلى أن يختطفه الموت بغتة أوتتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لايمكن تخليصه من مخالبهـا . وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً ﴾ الآية ولذلك قال رضى الله تعالى عنه : إن الإيمان ليبدو فى القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله . وإن النفاق ليبدو فى القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله .

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا . فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتيادا وتعلما فهو فى غاية الفضيلة ، ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو فى غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة فى القرب والبعد بحسب ماتقتضيه صورته وحالته ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقـــال ذرة شرا يره - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا . فنقول :

مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ،

وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه - أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل - وكما أن البدن فى الابتداء لايخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لاتعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخى، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا. وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد. وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد - فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لايعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها.

فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لايهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته. فإن كان المريد مبتدئاً جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية فيأمره أولا بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصى الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه: فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال، فإن عزة النفس والرياسة لاتنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة، وإن رأى الغالب عليه النظافة فى البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتاً إليه استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة. فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لافرق بينهم وبين العروس التى تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى فى ثوبه شيئاً سوى كونه حلالا وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لايسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ؛ فينبغى أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ، كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لايزيل الدم . كما يرغب الصبي فى المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة ، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه ، وكذلك سائر الصفات . وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لايأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه . وكذلك إذا رآه شابا متشوقا إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم ، وربما لاتسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء . ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته ... فلا علاج فى مبدأ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه .

كما حكى عن بعضهم أنه كان يعوّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر فى نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة . وبعض الشيوخ فى ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به فى البحر ؛ إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل .

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ـ فإن ذلك سيأتى فى بقية الكتب ـ وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضاد لكل ماتهواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة فقال تعالى ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾ والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا . فينبغى أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه ـ كما ذكرناه فى معاقبة النفس فى كتاب المحاسبة والمراقبة ـ وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية .

بيان علامات امراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به ، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذى خلق له حتى لايصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب . فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق لأجله ؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى ﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ففى كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة . وخاصية

النفس التى للآدمى ، مايتميز بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها ؛ بل بمعرفة الأشياء على ماهى عليه . وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عزوجل الذى جعلها أشياء . فلوعرف كل شيء ولم يعرف الله عزوجل فكأنه لم يعرف شيئا . وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لايؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ إلى قوله ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره﴾ فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهى مريضة . فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض مالا يعرفها صاحبها ، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفل عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات . فهذه علامات أصول الأمراض .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها ، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ، ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء ، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية من البعد عن الطرفين ، وإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور ، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد فى المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة . ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة فى زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم ـ أعنى الوسط ـ حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذى مال إليه .

ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ أى الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى فى كل يوم سبع عشرة مرة فى قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة فى كل ركعة .

فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : قد قلت يارسول الله شيبتنى هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ فالاستقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض، ولكن ينبغى أن يجتهد الإنسان فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب . فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

بيان الطريق الذى يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فى مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز فى الزمان وجوده .

الثانى : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه . فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذى بلغك عنى مما تكرهه ؟ فاستعفى فألح عليه فقال : بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال : وهل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال : أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه !

فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه ، إلا أن هذا أيضا قد عز فقل فى الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب . فلا تخلو فى أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا ، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك .

ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس فقيل له : لم لا تخالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى ؟ فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم ، وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا . ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة ، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها ، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم

بعد الموت أبداً وآلافا من السنين . ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له : وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريق الرابع : أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى . فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب .

قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال ما أدبنى أحد ، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته . وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده .

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق فى معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هى اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغى أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد ، فان للإيمان درجة كما أن للعلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هى الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى .

والذى يقتضى الإيمان بهذا الأمر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر . قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قيل نزع منها محبة الشهوات . وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه [1] » فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام ياداود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب

(١) حديث « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يبغضه ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف .

المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قيل يا رسول وما الجهاد الأكبر ؟ قال « جهاد النفس [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « كف أذاك عن نفسك ولاتتابع هواها فى معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا إلا أن يغفر الله تعالى ويستر [٣] » وقال سفيان الثورى : ما عالجت شيئا أشد على من نفسى مرة لى ومرة على وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه : يانفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يانفس ألا تستحين ! وقال الحسن : ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : جاهد نفسك بأسياف الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى ، البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شىء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدى الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام ، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها ؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول فى ميدان الخيرات وتسير فى مسالك الطاعات كالفرس الفاره فى الميدان وكالملك المتنزه فى البستان . وقال أيضا : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات .

قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حب شهواتها ؛ محصورا فى سجن هواها ، مقهورا مغلولا زمامه فى يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد . وقال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لايدرك إلا بترك النعيم . وقال أبو يحيى الوراق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد : مازاد على الخبز فهو شهوة . وقال أيضا : من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل .

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام ـ بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق فى يوم موكبه وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته ـ سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا . فقال يوسف ـ كما أخبر الله تعالى عنه ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردى فلم أجد الحلاوة التى كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر ، فجلست فلم أطق الجلوس ، فخرجت فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى قال : ياأبا القاسم إلى الساعة ، فقلت : ياسيدى من غير موعد ؟ قال : بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك ، فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ قال : فمتى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها ؛ فأقبل على نفسه فقال : اسمعى فقد

---

(١) حديث « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقى فى الزهد وقد تقدم فى شرح عجائب القلب حديث « المجاهد من جاهد نفسه » أخرجه الترمذى فى أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد (٣) حديث « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله .. الحديث » لم أجده بهذا السياق .

أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيدها قد سمعتيه ، ثم انصرف وما عرفته وقال يزيدالرقاشى : إليكم عنى الماء البارد فى الدنيا لعلى لاأحرمه فى الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيت الصمت ، قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتهيت الكلام . وقال على رضى الله عنه : من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق فإذا رأى الشىء يشتهيه قال لنفسه : اصبرى فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك على .

فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لاطريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهى النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل مايترك من الشهوات ومالا يترك فلايدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة وسرها أن لاتتمتع النفس بشىء مما لايوجد فى القبر إلا بقدر الضرورة ، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ماهو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة ، فإنه لو تمتع بشىء منه أنس به وألفه ، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له فى الآخرة بحال ، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله ، ويقتصر من الدنيا على مايدفع عوائق الذكر والفكر فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة :

رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا فى ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولاينتهى إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة .

الثانى : رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر فى قلبه إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره باللسان لابالقلب فهذا من الهالكين .

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لابد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه .

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه فى النار لكن يخرج منها لامحالة لقوة ذكر الله تعالى فى قلبه وتمكنه من صميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ .

وربما يقول القائل إن التنعم بالمباح مباح فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة . والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو سبب البعد ـ وسيأتى ذلك فى كتاب ذم الدنيا ـ وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة فى جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها ، فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتنى ؟ فقال : من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شىء ، فقلت : أرى لك حالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير ؟ فقال : وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا ، فتركته ومضيت . وقال السرى : أنا منذ أربعين سنة تطالبنى نفسى أن أغمس خبزة فى دبس فما أطعتها .

فإذن لايمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة مالم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح ، فإن النفس إذا لم تمنع

بعض المباحات طمعت فى المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت ؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات فى الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة . ومهما اعتادت العين رمى البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى مالا يحل ، وكذلك سائر الشهوات ، لأن الذى يشتهى به الحلال هو بعينه الذى يشتهى الحرام ، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعوّدها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتنعم فى الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذى لا يفيق من سكره . وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى فى العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب . قال الله تعالى ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم فى حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها فى حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر . فعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففطموها عن ملاذها وعوّدوها الصبر عن شهواتها ـ حلالها وحرامها ـ وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب ، فمن نوقش الحساب فى عرصات القيامة فقد عذب . فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم فى الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته . وفعلوا بها ما يفعل بالبازى إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب ؛ فإنه يحبس أولا فى بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران فى جو الهواء ، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ، ثم يرفق . باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً إذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه . فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أوّلا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عوّدت الثناء والذكر والدعاء ثانياً فى الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يثقل على المريد فى البداية ثم يتنعم به فى النهاية ، كالصبى يفطم عن الثدى وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ، ويشتد نفوره عن الطعام الذى يقدم إليه بدلا عن اللبن ، ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه فى الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ، ثم يصير له طبعاً . فلو رد بعد ذلك إلى الثدى لم يرجع إليه ، فيهجر الثدى ويعاف اللبن ويألف الطعام . وكذلك الدابة فى الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً ، وتمنع عن السرح الذى ألفته بالسلاسل والقيود أوّلا ، ثم تأنس به بحيث تترك فى موضعها فتقف فيه من غير قيد . فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب ، وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت ، إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه . فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه فى القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة فى سفر وتعلم صناعة وغيرها شهراً ليتنعم به سنة أو دهراً . وكل

العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة . فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله على رضى الله عنه .

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد مابه فرحه من أسباب الدنيا فالذى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول فى الوعظ أو بالعز فى القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع فى التدريس والإفادة فينبغى أن يترك أولا مابه فرحه ، فإنه إن منع عن شىء من ذلك وقيل له ثوابك فى الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها ، وذلك مهلك فى حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه . وليترصد لما يبدو فى نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سببا ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة . وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت .

بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وقال عزوجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ إلى آخر السورة . من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ما وجده . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال « المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه (١) » وقال عليه السلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره (٣) » وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت (٤) » وذكر أن صفات المؤمنين هى حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة (٦) » وقال « من سرته حسنته

---

(١) حديث « المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه » أخرجه الشيخان من حديث أنس « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه »

(٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبى شريح الخزاعى ومن حديث أبى هريرة

(٣) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قبله

(٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الذى قبله

(٥) حديث « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » تقدم غير مرة (٦) حديث « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى خلاد بلفظ « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً فى الدنيا وقلة منطق

وساءته سيئته فهو مؤمن [١] » وقال « لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه [٢] » وقال عليه السلام « لا يحل لمسلم أن يروع مسلما [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عزوجل فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه [٤] » .

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شفيقا ، لا لعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا ، بشاشا هشاشا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة ، والمنافق همته في الطعام والشراب كالبهيمة [٥] » وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راج كل أحد إلا الله ، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يسيء ويضحك ، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملأ ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد .

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ، قال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه [٦] ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه قال « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون [٧] » قيل إن هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ويحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوما إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندي : إنما أردت العمران ؟ فقال : هو المقبرة ، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا ، هذا إبراهيم بن أدهم ! فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له أنا عبد ؟ فقال . إنه لم يسألني : عبد من أنت بل قال : أنت عبد ؟ فقلت : نعم ، لأني عبد الله ، فلما ضرب رأسي سألت

---

(١) حديث « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة (٢) حديث « لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا وقد تقدم (٣) حديث « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر وإسناده ضعيف .

(٤) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله . . الحديث » تقدم في آداب الصحبة .

(٥) حديث : سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همه في الصلاة والصيام ... الحديث » لم أجد له أصلا

(٦) حديث : كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس (٧) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه .

الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك ؟ فقال : علمت أننى أوجر على ما نالنى منه فلم أرد يكون نصيبى منه الخير ونصيبه منى الشر . ودعى أبو عثمان الحيرى إلى دعوة - وكان الداعى قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له : ليس لى وجه ، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له : يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ، ثم دعاه الثالثة وقال : ارجع على ما يوجب الوقت فرجع ، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان ، ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لايتغير من ذلك ، فأكب على رجليه وقال : ياأستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك ! فقال : إن الذى رأيت منى هو خلق الكلب ، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا زجر انزجر . وروى عنه أيضا أنه اجتاز يوما فى سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئا فقيل ألا زبرتهم فقال إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب وروى أن على بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد - إذ كانت أمه سوداء - وكان بنيسابور حمام على باب داره ، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامى ، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامى الباب ومضى فى بعض حوائجه ، فتقدم رجل رستاقى إلى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام ، فقال له : قم واحمل إلى الماء فقام على بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به ، فرجع الحمامى فرأى ثياب الرستاقى وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما ، فلما خرج على بن موسى سأل عن الحمامى فقيل له : إنه خاف مما جرى فهرب قال : لاينبغى له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء . وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه ، وكان له حريف مجوسى يستعمله فى الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة ، فكان أبو عبدالله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولايردها عليه ، فاتفق يوما أن أباعبدالله قام لبعض حاجته ، فأتى المجوسى فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ماقد خاطه فكان درهما زائفا ، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه ، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال : بئس ما عملت هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها فى البئر لئلا يغر بها مسلما . وقال يوسف بن أسباط : علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العثرات ، وتحسين مايبدو من السيئات ، والتماس المعذرة ، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه . وسئل سهل عن حسن الخلق فقال : أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه . وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ! فقال : من قيس بن عاصم ، قيل وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جالس فى داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات ، فدهشت الجارية فقال لها : لاروع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى . وقيل إن أويسا القرنى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم : يا إخوتاه إن كان ولابد فارمونى بالصغار حتى لاتدموا ساقى فتمنعونى عن الصلاة . وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحى وقف وقال : إن كان قد بقى فى نفسك شىء فقله كى لايسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال : أما تسمع ياغلام ؟ قال ، بلى ، قال : فما حملك على ترك إجابتى ؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت ، فقال : امض فأنت حر لوجه الله تعالى . وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله :

يامرائى ، فقال : ياهذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة . وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له : لم تمسكه ؟ فقال : لأتعلم الحلم عليه .

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغى أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لاينالها إلا المقربون والصديقون .

بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبيان أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له . وقد قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشو الصبى انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث . ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفاً للبعض فصار يستحى من شىء دون شىء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبى المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه ، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه وأن لايبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لايسرع فى الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لايوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لايصير بحيث يرى الأدم حتما ، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الأكل ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان ، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبى ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغى أن يستنكره ويذمه ، ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فإن الصبى مهما أهمل فى ابتداء نشوه خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسوداً سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ،

ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن تكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسروا أحد على مثله ، ولاسيا إذا ستره الصبي واجتهد فى إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح ، وينبغى أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم ؛ بل يعوّد الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم ، وينبغى أن يمنع من كل مايفعله فى خفية فإنه لايخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فاذا ترك تعود فعل القبيح . ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويعود أن لايكشف أطرافه ولا يسرع المشى ، ولا يرخى يديه بل يضمها إلى صدره ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه أو بشىء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين ، بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة : وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضه والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضا ، وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأساً ـ صادقا كان أو كاذبا ـ حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر ، ويمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شىء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغى إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان . وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأساً . وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغى

أن لايسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل مايحتاج إليه من حدود الشرع .

ويخوّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، وكل مايغلب على الصبيان ، فإذا وقع نشوه كذلك فى الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذلا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وأنها دار ممرّ لادار مقرّ ، وأن الآخرة دار مقرّ لادار ممرّ ، وأن الموت منتظر فى كل ساعة ، وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه فى الجنان ، فإذا كان النشو صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت فى قلبه كما يثبت النقش فى الحجر . وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبى اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس . فأوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى ، فإن الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (١) » قال سهل بن عبد الله التسترى : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار فقال لى يوما : ألا تذكر الله الذى خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك ، الله معى الله ناظر إلى الله شاهدى ، فقلت ذلك ليالى ثم أعلمته فقال : قل فى كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع فى قلبى حلاوته ، فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ماعلمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فانه ينفعك فى الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة فى سرى ، ثم قال لى خالى يوما : ياسهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، فكنت أخلو بنفسى فبعثوا بى إلى المكتب فقلت : إنى لأخشى أن يتفرق على همى ولكن شارطوا المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع ، فمضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوتى من خبز الشعير اثنتى عشرة سنة ، فوقعت لى مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلى أن يبعثونى إلى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عنى شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله العبادانى فسألته عنها فأجابنى ، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتى اقتصادا على أن يشترى لى بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لى ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتا من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة . ثم خمسا ، ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، ثم خرجت أسيح فى الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى قال أحمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى :

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبيلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها ، فإن من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة فى الخرزة وقويت إرادته

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

فى بيعها بالجوهرة ، ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر - ولست أعنى بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتى الشهادة من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك يضاهى قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لايدرى من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدق إذا ألف الخرزة قد لايتركها ولايعظم اشتياقه إلى الجوهرة ، فإذن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها - فالخلق غافلون قد انهمكوا فى شهواتهم وغاصوا فى رقدتهم وليس فى علماء الدين من ينبههم ، فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله ، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق ، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لامحالة ، فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة فى حرث الآخرة وتجارتها فينبغى أن يعلم أن له شروطا لابدّ من تقديمها فى بداية الإرادة وله معتصم لابدّ من التمسك به ، وله حصن لابدّ من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لابد من ملازمتها فى وقت سلوك الطريق .

أما الشروط التى لابدّ من تقديمها فى الإرادة فهى رفع السدّ والحجاب الذى بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لايبصرون ﴾ .

والسد بين المريد وبين الحق أربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية . وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل . وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطى أعمال تنفر قلوب الخلق عنه . وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تصديق إيمان ويحرص فى تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى - وأعظم معبود له الهوى - حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليدا فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لامن المجادلة ، فإن غلب عليه التعصب لمعتقدة ولم يبق فى نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجابا إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا . وأما المعصية فهى حجاب ولايرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على مامضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم ، فإنّ من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصى الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب ، فإنّ ترجمة عربية القرآن لابد من تقديمها أولا ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابد من تصحيح الشريعة أولا وآخرا ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها .

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرّد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به ، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لامحالة ليهديه إلى سواء السبيل فإنّ سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة ، فمن

سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر . فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيئا ولا يذر ، وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر . وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه .

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفى بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم ! وقال سهل بن عبد الله التسترى : ما صار الأبدال أبدالا إلا بأربع خصال ، بإخماص البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس . ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة . وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين

وأما السهر فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها ، فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة . والسهر أيضا نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن ، والنوم يقسى القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل فى صفة الأبدال : إن أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة . وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : أجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وأما الصمت فإنه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره ، فينبغى أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه . فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى .

وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب . والقلب فى حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر ، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص ؟ فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة فى بيت مظلم ، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له « يا أيها المزمل - يا أيها المدثر [1] » .

---

(١) حديث : بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له ﴿ يا أيها المزمل - يا أيها المدثر ﴾ متفق عليه من حديث جابر « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمنى ... الحديث » وفيه « فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على الماء باردا فدثرونى وصبوا على ماء باردا » قال فنزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ وفى رواية فقلت « زملونى زملونى » ولهما من حديث عائشة فقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فهذه الأربعة جنة وحصن بهما تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق . فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق . وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التى سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض . والترتيب فى قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل. وهى تلك الصفات ؛ أعنى أسرار العلائق التى قطعها فى أول الإرادة ، وآثارها ؛ أعنى المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصى ، فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة ، وفيه تطول المجاهدة . ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ؛ فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة ، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى فى كل صفة غالبة على نفس المريد - كما سبق ذكره - فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق فى قلبه علاقة ؛ شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة ، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحداً . وهو لباب الأوراد وثمرتها ؛ أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره ، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علائقه. قال الشبلى للحصرى: إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التى تأتينى فيها إلى الجمعة الأخرى شىء غير الله تعالى لحرام عليك أن تأتينى . وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون فى صورة العاشق المستهتر الذى ليس له إلا هم واحد . فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال ، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال ، وعند ذلك يلقنه ذكرا من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا : الله الله . أو : سبحان الله سبحان الله . أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ فى القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه ، لأن القلب إذا شغل بشىء خلا عن غيره - أى شىء كان - فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التى تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره ، فإنه مهما اشتغل بشىء منه ولو فى لحظة خلا قلبه عن الذكر فى تلك اللحظة وكان أيضا نقصانا ، فليجتهد فى دفع ذلك . ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها: ما هى ؟ وما معنى قولنا : الله ؟ ولأى معنى كان إلها وكان معبودا ؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة . ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك . وهى منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقى ذلك فى قلبه ويجريه على خاطره ، فشرطه أن يبالى به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغى أن يعرض ذلك على شيخه ، بل كل ما يجد فى قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقة أو صدق فى إرادة فينبغى أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً ، ثم إن شيخه ينظر فى حاله ويتأمل فى ذكائه وكياسته ، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغى أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف فى قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم

أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، وينبغى أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها ، فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم . ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بدين العجائز »[1] وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير ، فإن الخطر فى العدول عن ذلك كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس فى المريد فإن لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر ، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فإن العاجز عن الجهاد فى صف القتال ينبغى أن يسق القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة فى زمرتهم وتعمه بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم ، ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما التفت إلى شىء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا فى طريقه ووقوفا ، بل ينبغى أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذى لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة .

قال بعض السياحين : قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون فى الدنيا كأنك عابر طريق . وقال مرة : قلت له دلنى على عمل أجد قلبى فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لى : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لابد لى من ذلك ، قال : فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لابد لى من ذلك ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لابد لى من معاملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعلة ، قال : ياهذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا مالا يكون أبدا .

فإذاً منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة ، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى مالا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا ، وإذا انكشف للمريد شىء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة ، فتدعوه تلك اللذة إلى أن يتفكر فى كيفية إيراد تلك المعانى وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع ، فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر فى أقرانه من يكون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على استجلاب قلوب العوام ، فإنه يتحرك فى باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محركه كيد القبول وإن

---

(١) حديث « عليكم بدين العجائز » قال ابن طاهر فى كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثا لمحمد بن عبد الرحمن بن السلمانى عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كان فى آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية » والنسائي وابن السلمانى له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان فى الضعفاء فى ترجمة ابن السلمانى والله أعلم .

كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول : الحمد لله الذى عضدنى وأيدنى بمن وازرنى على إصلاح عباده . كالذى وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجده ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه ، والغافلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففى كثرتهم استرواح وتناصر فينبغى أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزيز على الوجود جدا فينبغى أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم حبائل الشيطان فى قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ثم بين أن الشر قديم فى الطباع وأن ذلك مذكور فى الكتب السالفة فقال ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته فى التدريج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة فسيأتى فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه - أعنى به الشهوات المتعلقة بها - ثم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب فى آفات اللسان ، وكتاب فى كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب فى ذم الكبر والعجب ، وكتاب فى مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ماذكرناه فى الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنجيات ، وما ذكرناه فى الكتاب الثانى هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب . أما تفصيلها فإنه يأتى فى هذه الكتب إن شاء الله تعالى . تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه ، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه ، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومجاريه ، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفى بأمانيه ، فهو الذى يرشده ويهديه ، وهو الذى يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذى يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ، ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه ، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه ، هذا

بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه ، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه ويتنحيه ، وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه ، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه . والصلاة على محمد عبده النبيه ، ورسوله الوجيه ، صلاة تزلفه وتحظيه ، وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتابعيه .

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ؛ ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة فى الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ؛ ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ؛ ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك فى الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها ، ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها ، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها . ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى فى فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ، ثم طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة فى ترك الشهوة ، ثم القول فى شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله ؛ ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش [1] » وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه [2] » وقيل يارسول الله أى الناس أفضل ؟ قال « من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته [3] » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف [4] » وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البسوا وكلوا واشربوا فى أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة [5] » وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة [6] » وقال الحسن أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا فى الله سبحانه ، وأبغضكم

(١) حديث « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش » لم أجد له أصلا (٢) حديث ابن عباس « لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه » لم أجده أيضاً (٣) حديث : أى الناس أفضل ؟ قال « من قل طعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته » يأتى الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث (٤) حديث « سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف » (٥) حديث أبى سعيد الخدرى « البسوا وكلوا واشربوا فى أنصاف البطون » (٦) حديث « الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة »

عند الله عز وجل يوم القيامة كل نئوم أكول شروب [١] ، وفى الخبر : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يجوع من غير عوز [٢] ، أى مختارا لذلك وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يباهى الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه فى الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب فى الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا ياملائكتى ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات فى الجنة [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء [٤] » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه [٥] » وفى حديث أسامة بن زيد وحديث أبى هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه « إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا ، الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا ، تعرفهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطـــاعة الله عز وجل ، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب ، ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم ، تبكى الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثا غبرا يراهم النـاس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء ، ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الذى أذهب عنهم الدنيا ، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس ، لهم الشرف فى الآخرة ، ياأسـامة إذا رأيتهم فى بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوما هم فيهم . الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض . اتخذهم لنفسك إخوانا عسى أن تنجو بهم . وإن استطعت إن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل . فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين . وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلى عليك الجبار [٦] » .

روى الحسن عن أبى هريرة : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء [٧] » وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل [٨] » . وروى ذلك أيضاً عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس . وقيل مكتوب فى التوراة : إن الله ليبغض الحبر السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعـالى يبغض القـارئ السمين وفى خبر مرسل « إن

---

(١) حديث الحسن « أفضلكم عند الله أطولكم جوعا وتفكرا ... الحديث » لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلا

(٢) حديث كان يجوع من غير عوز — اى مختارا لذلك — أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث عائشة : قالت لوشئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه . وإسناده معضل

(٣) حديث « ان الله يباهى الملائكة بمن قل مطعمه فى الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الصيام

(٤) حديث « لاتميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ... الحديث » لم أقف له على أصل

(٥) حديث « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث المقدام وقد تقدم .

(٦) حديث أسامة بن زيد وأبى هريرة « أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه .. الحديث » بطوله أخرجه الخطيب فى الزهد من حديث سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ، ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لايعرف وهو منقطع أيضاً ورواه الحارث بن أبى أسامة من هذا الوجه

(٧) حديث الحسن عن أبى هريرة « البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف .

(٨) حديث طاوس مرسلاً « أجيعوا أكبادكم ... الحديث » لم أجده أيضاً .

الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش [١] » وفى الخبر « إن الأكل على الشبع يورث البرص [٢] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء [٣] » أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعى كناية عن الشهوة لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعى . وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت ؛ سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم ، فقلت : كيف نديم قرع باب الجنة ؟ قال « بالجوع والظمأ [٤] » وروى « أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له « أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا [٥] » وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تمتلئ قط شبعا وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدى وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول « ياعائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا مضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم فالصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة وما من شىء أحب إلى من اللحوق بأصحابى وإخوانى » قالت عائشة : فوالله مااستكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه [٦] » وعن أنس قال : جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذه الكسرة » قالت : قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك منه بهذه الكسرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام [٧] » وقال أبو هريرة : ماأشبع النبى صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا [٨] وقال صلى الله عليه وآله وسلم « إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة فى الجنة [٩] » .

وأما الآثار : فقد قال عمر رضى الله عنه : إياكم والبطنة فإنها ثقل فى الحياة نتن فى الممات . وقال شقيق البلخى العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة . وقال لقمان لابنه : يابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه : أى شىء تخافين ؟ أتخافين أن تجوعى ؟ لاتخافى ذلك ؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكان كهمس يقول إلهى

---

(١) حديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ... الحديث » تقدم فى الصيام دون الزيادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان من حديث على بن الحسين دون الزيادة أيضاً .

(٢) حديث « إن الأكل على الشبع يورث البرص » لم أجد له أصلا (٣) حديث المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » متفق عليه من حديث عمر وحديث أبى هريرة . (٤) حديث الحسن عن عائشة « أديموا قرع باب الجنة ... الحديث » لم أجده أيضاً (٥) حديث : إن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى جحيفة وأصله عند الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر : تجشأ رجل . الحديث . لم يذكر أبا جحيفة .

(٦) حديث عائشة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ شبعا قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع الحديث . أخرجه أبو موسى المدينى مطولا فى كتاب استحلاء الموت وأورد منه عياض فى الشفاء (٧) حديث أنس : جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث أخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بسند ضعيف (٨) حديث أبى هريرة : ماشبع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا . أخرجه مسلم وقد تقدم (٩) حديث « إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف .

اجعتنى وأعريتنى وفى ظلم الليالى بلا مصباح أجلستنى فبأى وسيلة بلغتنى مابلغتنى ؟ وكان فتح الموصلى إذا اشتد مرضه وجوعه يقول : إلهى ابتليتنى بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به على ؟ وقال مالك بن دينار : قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لى يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض . وكان الفضيل بن عياض يقول : إلهى أجعتنى وأجعت عيالى وتركتنى فى ظلم الليالى بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأى منزله نلت هذا منك ؟ وقال يحيى بن معاذ : جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة . وفى التوراة اتق الله وإذا شبعت فاذكر الجياع : وقال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشائى أحب الى من قيام ليلة إلى الصبح ، وقال أيضاً : الجوع عند الله فى خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه . وكان سهل بن عبد الله التسترى يطوى نيفا وعشرين يوماً لا يأكل ، وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم ، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أكله . وقال : لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا . وقال : لاأعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال : وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ووضعت المعصية والجهل فى الشبع . وقال : ماعبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال . وقد جاء فى الحديث « ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته [1] » وسئل عن الزيادة فقال : لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين ، فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال صار الأبدال أبدالا إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والخلوة . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال : من جوّع نفسه انقطعت عنه الوساوس . وقال : إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلموا أن هذا زمان لاينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد . وقال : مامر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية ـ وإن شكر الله تعالى ـ فكيف الشبع من الطعام ؟ وسئل حكيم بأى قيد أقيد نفسى ؟ قال : قيدها بالجوع والعطش ، وذللها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها ، واصحبها بخلاف هواها . وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إنّ الله تعالى ماصافى أحدا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع ، وقال أبو طالب المكى : مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار ـ إنما حسن صوته لخفته ورقته لأنه اجوف غير ممتلئ ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام . وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى : ثلاثة يحبهم الله تعالى ؛ رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة . وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فإذا رغيف موضوع بين يديه ، فجلس يبكى على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى : بارك الله فيك ياولى الله ادع الله تعالى فإنى كنت فى حالة فخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ، فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفرلى ؛ بل كان

---

(١) حديث « ثلث الطعام » تقدم .

إذا حضر لى شىء أكلته من غير فكر وخاطر . وروى أن موسى عليه السلام لما قربه الله عز وجل نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما - ثلاثين ثم عشرا - على ما ورد به القرآن ؛ لأنه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لأجل ذلك .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر فى ذلك » ولعلك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى ! فإن كان كذلك فينبغى أن يعظم الأجر فى كل مايتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى مجراه ؟ فاعلم أن هذا يضاهى قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل مايكرهه من المذاق وهو غلط ، بل نفعه فى خاصية فى الدواء وليس لكونه مرا ، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء ومن جوع نفسه مصدقا لما جاء فى الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً .

ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقى من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فنقول : فى الجوع عشر فوائد .

الفائدة الأولى : صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار وعن سرعة الإدراك ، بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الدارانى : عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوى . وقال صلى الله عليه وسلم « احيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق [١] » ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة كالمطر . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه [٢] » وقال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « لكل شىء زكاة وزكاة البدن الجوع [٣] » وقال الشبلى : ما جعت لله يوما إلا رأيت فى قلبى بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه : يابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامى : الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم . لاتشبعوا

---

(١) حديث « أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق » لم أجد له أصلا (٢) حديث « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه » كذلك لم أجد له أصلا (٣) حديث « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « ان لكل شىء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة « لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم » وإسناده ضعيف

فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح [١] » .

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لايلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب ، وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه ، وقال أبو سليمان الدارانى : أحلى ماتكون إلى العبادة إذا التصق ظهرى ببطنى . وقال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وعطش صفا ورق ، وإذا شبع عمى وغلظ ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهى فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة . الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لايرى عزة مولاه ولا قهره ، وإنما سعادته فى أن يكون دائما مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهداً للاضطرار بالذوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى صلى الله عليه وسلم قال « لابل أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت [٢] » أو كما قال . فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع . ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر .

الفائدة الرابعة : أن لاينسى بلاء الله وعذابه ؛ ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع ، والعبد الفطن لايشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل ، فلا ينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذى يهيج الخوف ، فمن لم يكن فى ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسى عذاب الآخرة ولم يتمثل فى نفسه ولم يغلب على قلبه ، فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى مايقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل . ولذلك قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفى يديك خزائن الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل . والشبعان فى غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة ـ وهى من أكبر الفوائد ـ : كسر شهوات المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لامحالة الأطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة فى أن تملكه نفسه ، وكما أنك لاتملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم : مابالك مع كبرك لاتتعهد بدنك

---

(١) حديث « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ... الحديث » ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وكتب عليه أنه مسند وهى علامة ماورواه باسناده (٢) حديث « أجوع يوما وأشبع يوما ... الحديث » تقدم وهو عند الترمذى .

وقد انهدّ ؟ فقال : لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمح بى فيورطنى ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش . وقال ذو النون : ماشبعت قط إلا عصيت أوهممت بمعصية : وقالت عائشة رضى الله عنها : أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشبع .

إنّ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هى خزائن الفوائد . ولذلك قيل : الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل مايندفع بالجوع : شهوة الفرج وشهوة الكلام ، فإن الجائع لايتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها ، فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لامحالة بأعراض الناس ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

وأما شهوة الفرج : فلا تخفى غائلتها ، والجوع يكفى شرها . وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه ، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه ، فالعين تزنى كما أن الفرج يزنى ، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره ، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته ، وربما عرض له ذلك فى أثناء الصلاة .

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا ، وإلا فجميع معاصى الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع . قال حكيم : كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لايخلط به شيئا من الشهوات ويأكل فى نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء .

الفائدة السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فإن من شبع شرب كثيرا ، ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا . وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب . وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر ، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ، ثم فضيلة التهجد لاتخفى وفى النوم فواتها . ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة ، ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ، ويحوج إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لايقدر عليه بالليل ، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد ، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة فى دخول الحمام ، فإن فيه أخطارا ذكرناها فى كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل فى كل حال . فالنوم منبع الآفات ، والشبع مجلبة له ؛ والجوع مقطعة له .

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه . والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه . قال السرى رأيت مع على الجرجانى سويقا يستف منه فقلت : ماحملك على هذا ؟ قال : إنى حسبت مابين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ . وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لاقيمة لها فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته

ومن جملة مايتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد ، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء

وإراقته . ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات ، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكي أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندي ، ورومي ، وعراقي ، وسوادي . وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه . فقال الهندي : الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود . وقال العراقي : هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومي : هو عندي الماء الحار . وقال السوادي وكان اعلمهم — الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء ، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء . قالوا . فما عندك ؟ فقال الدواء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه ؛ وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه . فقالوا : صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم « ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس »(١) فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد »(٢) ، وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك . وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب لم يعتل إلا علة الموت . قيل . وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار : إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ؛ ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان . وفي الحديث صوموا تصحوا(٣) » ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما .

الفائدة التاسعة : خفة المؤونة فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له آخذا بمخنقه في كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء : إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي . وقال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي . وكان إبراهيم ابن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول إنها غالية فيقول : أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله : الأكول مذموم في ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل ، وإن كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات

---

(١) حديث « ثلث للطعام » تقدم أيضاً (٢) حديث « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن ما اعتاد » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث « صوموا تصحوا » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا ، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج ، وسبب شهوة الفرج ، شهوة البطن . وفى تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهى أبواب النار وفى حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « أديموا قرع باب الجنة بالجوع » فمن قنع برغيف فى كل يوم قنع فى سائر الشهوات أيضاً وصار حرّا واستغنى عن الناس واستراح من التعب ، وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة ، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة ، وأما المحتاج فتلهيه لامحالة .

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته[١] كما ورد به الخبر : فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى ، فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع .وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت ، فقالت : لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها . هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟فذكر الجزاء والعقوبة فقالت : لا ، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه . فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فماذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم ، وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية ، يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا ، يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال : يا غلام ائتنى بشيء أهضم به طعامى ، يالكع أطعامك تهضم ؟ إنما تهضم دينك ، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم ؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه .ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك[٢] » أى لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة . بل ذلك صريح فى الأخبار التى رويناها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين فى الإيمان

(١) حديث « كل امرئ فى ظل صدقته » أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم .

(٢) حديث : نظر إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك » أخرجه أحمد والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث جعدة الجشمى وإسناده جيد .

والله أعلم بالصواب .

بيان طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد فى بطنه ومأكوله أربع وظائف : الأول أن لا يأكل إلا حلالا فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ماتجب مراعاته من درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام ، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة وتقدير وقته فى الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول فى تناول المشتهيات وتركها .

أما الوظيفة الأولى : فى تقليل الطعام ، فسبيل الرياضة فيه التدريج ، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته ، فينبغى أن يتدرج إليه قليلا قليلا وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلا وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءا من ثمانية وعشرين جزءا ، أوجزءا من ثلاثين جزءا ، فيرجع إلى رغيف فى شهر ، ولايستضر به ولايظهر أثره ، فإن شاء فعل فى ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة ، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس . ثم هذا فيه أربع درجات .

أقصاها : أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذى لايبقى دونه وهو عادة الصديقين . وهو اختيار سهل التسترى رحمة الله عليه إذ قال : إن الله استعبد الخلق بثلاث ، بالحياة ، والعقل ، والقوة . فإن خاف العبد على اثنين منها وهى الحياة والعقل ، أكل وأفطر إن كان صائما . وتكلف الطلب إن كان فقيراً . وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال ، فينبغى أن لايبالى . ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائما مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال . كان قوتى فى كل سنة ثلاثة دراهم ، كنت آخذ بدرهم دبسا ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمنا ، وأخلط الجميع وأسوى منه ثلثمائة وستين أكرة ، آخذ فى كل ليلة أكرة أفطر عليها ، فقيل له : فالساعة كيف تأكل ؟ قال : بغير حد ولاتوقيت : ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام :

الدرجة الثانية : أن يرد نفسه بالرياضة فى اليوم والليلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشىء مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن فى حق الأكثرين - كما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم - وهو فوق اللقيمات لأن هذه الصيغة فى الجمع للقلة فهو لما دون العشرة ، وقد كان ذلك عادة عمر رضى الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم .

الدرجة الثالثة : أن يردها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف ، وهذا يزيد على ثلث البطن فى حق الأكثرين ، ويكاد ينتهى إلى ثلثى البطن ، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شىء للذكر . وفى بعض الألفاظ « ثلث للذكر » بدل قوله « للنفس »

الدرجة الرابعة : أن يزيد على المد إلى المن ، ويشبه أن يكون ماوراء المن إسرافا مخالفا لقوله تعالى ﴿ ولاتسرفوا ﴾ أعنى فى حق الأكثرين ، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن ، والشخص ، والعمل الذى يشتغل به . وههنا طريق خامس لاتقدير فيه ولكنه موضع غلط ، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ، ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة .

وقد ذكر للجوع الصادق علامات ؛ إحداها : أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة — أى خبز كان — فمهما طلبت نفسه خبزا بعينه أو طلبت أدما فليس ذلك بالجوع الصادق . وقد قيل : من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه ؛ أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ، ومعرفة ذلك غامض . فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لا يضعفه عن العبادة التى هو بصددها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته .

وعلى الجملة : فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة فى كل جمعة ، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا ، وصاع الحنطة أربعة أمداد ، فيكون كل يوم قريبا من نصف مد ـ وهو ماذكرناه أنه قدر ثلث البطن ـ واحتيج فى التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول : طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئا حتى ألقاه فإنى سمعته يقول « أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ماهو عليه اليوم[1] » ، وكان يقول ـ فى إنكاره على بعض الصحابة : قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم [2] والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء ، والمنافق مثل السبع الضارى بلعا بلعا وسرطا سرطا لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله ، وجهوا هذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المؤمن منها حلالا لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأكل ومقدار تأخيره وفيه أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها ، وفى المريدين من رد الرياضة إلى الطى لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوما وأربعين يوما ، وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم : محمد بن عمرو القرنى ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، ورحيم ، وإبراهيم التيمى ، وحجاج بن فرافصة ، وحفص العابد المصيصى ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبدالله التسترى ، وإبراهيم بن أحمد الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان عبدالله بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا ، كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة

قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله وطمع فى إسلامه وترك ماهو عليه من الغرور ، فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا إلى أن قال له الراهب : إن المسيح كان يطوى أربعين يوما وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبى أو صديق ، فقال له الصوفى : فإن طويت خمسين يوما تترك ما أنت عليه وتدخل فى دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنك على باطل ؟ قال ؛ نعم ، فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما ، ثم قال ؛ وأزيدك أيضا فطوى إلى تمام الستين ، فتعجب الراهب منه وقال ؛ ما كنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح ؟ فكان ذلك سبب إسلامه .

(١) حديث أبى ذر « أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ماهو عليه اليوم » أخرجه أحمد فى كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية دون قوله « وأحبكم إلى » وهو منقطع (٢) حديث : كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم » أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث طلحة البصرى .

وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ماقطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه فى لذته وأنساه جوعته وحاجته .

الدرجة الثانية : أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة .

الدرجة الثالثة : وهى أدناها أن يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وماجاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لايكون له حالة جوع ، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة ، فقدروى أبوسعيدالخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد [1] وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة « إياك والسرف ، فإن أكلتين فى يوم من السرف ، وأكلةواحدة فى كل يومين إقتار ، وأكلة فى كل يوم قوام بين ذلك [2] » وهو المحمود فى كتاب الله عز وجل .

ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام ، وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر ، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . وفى حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه ، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر [3] وفى حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر [4] فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب فى التهجد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين ، فإن كان رغيفين مثلا أكل رغيفاً عند الفطر ورغيفاً عند السحر ، لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد وبالثانى على الصوم . ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر . فهذه الطرق فى مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه .

الوظيفة الثالثة : فى نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه ، وأوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل . وأعلى الأدم اللحم والحلاوة ، وأدناه الملح والخل ، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم . وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات ، فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطرا فى نفسه وقسوة فى قلبه وأنساً له بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى ، وتصير الدنيا جنة فى حقه ويكون الموت سجناً له . وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجناً عليه ومضيقاً له فاشتهت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقها . وإليه الإشارة بقول يحي ابن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس ، فكل ماذكرناه من آفات الشبع فإنه يجرى فى كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول بإعادته ، فلذلك يعظم الثواب

---

(1) حديث أبى سعيد الخدرى : كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد » لم أجد له أصلا (2) حديث : قال لعائشة « إياك والإسراف فإن أكلتين فى يوم من السرف » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وقال فى إسناده ضعف

(3) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة : ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وان كان ليقوم حتى تزلع قدماه . رواه النسائى مختصرا : كان يصلى حتى تزلع قدماه . واسناده جيد . (4) حديث : كان يواصل الى السحر . لم أجده من فعله وانما هو من قوله « فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » رواه البخارى من حديث أبى سعيد : وأماهو فكان يواصل وهو من خصائصه .

فى ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر فى تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة [١] » وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص ، ومن دام عليه أيضاً فلا يعصى بتناوله ، ولكن تتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى فى طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصى فهم شرار الأمة ، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاص . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم [٢] » وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون فى الكلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات . وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روى أن وهب بن منبه قال : التقى ملكان فى السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودى لعنه الله ، وقال الآخر : أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضى الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال : اعزلوا عنى حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس فى الشهوات وترك اللذات ـ كما أوردناه فى كتاب رياضة النفس ـ وقد روى نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان مريضاً فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد ، ثم وجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام : لفها برغيفها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف ، فنحن نعطيه ثمنها ، فقال : لفها وادفعها إليه، ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهما وتتركها ؟ قال : نعم فأعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال: قد أعطيته درهما وأخذتها منه ، فقال : لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار [٤] » أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا ، وبلغ عمر رضى الله عنه أن يزيد بن أبى سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له : إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمنى ، فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فأتوه بثريد لحم فأكل معه عمر ، ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال : الله الله يا يزيد بن أبى سفيان أطعام بعد طعام ؟ والذى نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال : ما نخلت لعمر دقيقا قط إلا وأنا له عاص . وروى أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من جب كان فى الشمس نهاره

---

(١) حديث « شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة » لم أجد له أصلا (٢) حديث « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم .. الحديث » أخرجه ابن عدى فى الكامل ومن طريقه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلا ، قال الدارقطنى فى العلل : أنه أشبه بالصواب ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة باسناد لا بأس به (٣) حديث نافع : أن ابن عمر كان مريضاً فاشتهى سمكة ... الحديث . وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٤) حديث « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف .

فتقول مولاة له : ياعتبة لو أعطيتنى دقيقك لخبزته لك وبردت لك الماء ؟ فيقول لها : يأأم فلان قد شردت عنى كلب الجوع .

قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة فى سوق الليل - عند مولد النبى صلى الله عليه وسلم - يبكى وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت : إيش هذا البكاء ياأبا إسحق ؟ فقال : خير ، فعاودته مرة واثنتين وثلاثا ، فقال : ياشقيق استر على فقلت ياأخى قل ماشئت، فقال لى : اشتهت نفسى منذ ثلاثين سنة سكباجا فمنعتها جهدى ، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبنى النعاس إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج ، قال : فاجتمعت بهمتى عنه فقربه وقال : يا إبراهيم كل ، فقلت : ما آكل قد تركته لله عزوجل ، فقال لى : قد أطعمك الله كل ، فما كان لى جواب إلا أنى بكيت ، فقال لى : كل رحمك الله ، فقلت : قد أمرنا أن لانطرح فى وعائنا إلا من حيث نعلم ، فقال : كل عافاك الله فإنما أعطيته ، فقيل لى ياخضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على مايحملها من منعها . اعلم يا إبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون : من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط ، فقلت : إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى ، ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال : ياخضر لقمه أنت ، فلم يزل يلقمنى حتى نعست فانتبهت وحلاوته فى فمى ، قال شقيق : فقلت أرنى كفك ، فأخذت بكفه فقبلتها وقلت : يامن يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع ، يامن يقدح فى الضمير اليقين ، يامن يشفى قلوبهم من محبته ، أترى لشقيق عندك حالا ؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت : بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك ، قال : فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت .

وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا فلم يأكله . وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه : كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبى الحوارى . اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حارا بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكى وقال : عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى واشقوتى قد عزمت على التوبة فأقلنى ! قال أحمد . فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى . وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة فى السوق فنظرت إلى البقل فقالت لى نفسى : لو أطعمتنى الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال . ياأهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم مانقص منى ولا نقص منى مازاد فيكم . وقال . طلقت الدنيا ، منذ خمسين سنة ، اشتهت نفسى لبنا منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى . وقال حماد بن أبى حنيفة . أتيت داود الطائى والباب مغلق عليه فسمعته يقول . نفسى اشتهيت جزراً فأطعمتك جزراً ، ثم اشتهيت تمراً فآليت أن لا تأكليه أبدا ، فسلمت ودخلت فإذا هو وحده . ومر أبو حازم يوما فى السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها ، فقال لابنه . اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التى لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه : قد خدعتينى حتى نظرت واشتهيت وغلبتينى حتى اشتريت والله لا ذقتيه فبعث بها إلى يتامى من الفقراء وعن موسى الأشج أنه قال . نفسى تشتهى ملحا جريشا منذ عشرين سنة . وعن أحمد بن خليفة قال : نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ماطلبت منى إلا الماء حتى تروى فما أرويتها . وروى أن عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين - سنة بعد سنة - فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها

وتركتها على رغيف فلقيت صبيا فقلت ، ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك ؟ قال . بلى ، فناولته إياها قالوا . وأقبل يبكى ويقرأ ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾ ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهى تمرا سنين ، فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال . فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس ، فأقبل عتبة على نفسه يقول : هذا لجراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط ، ثم قال لنفسه : ماأظن أخذ الناس إلا بذنبك ؟ على أن لاتذوقيه . واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا وبفلس خلا ، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه . ويلك ياداود ما أطول حسابك يوم القيامة ، ثم لم يأكل بعده إلا قفارا ، وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد . إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال : لأنك تأكل مع خبزك تمراوهو لايزيد على الخبز شيئا قال : فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال . نعم ؛ وغيرها فأخذ يبكى فقال له بعض أصحابه لاأبكى الله عينك أعلى التمر تبكى ؟ فقال عبد الواحد دعه ؛ فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك، وهو إذا ترك شيئا لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر . أمرنى الجنيد أن أشترى له التين الوزيرى ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها فى فمه ثم ألقاها وجعل يبكى ، ثم قال . احمله فقلت له فى ذلك فقال . هتف بى هاتف أما تستحى ؟ تركته من أجلى ثم تعود إليه ! وقال صالح المرى . قلت لعطاء السلمى إنى متكلف لك شيئا فلا ترد على كرامتى ، فقال . افعل ماتريد ، قال . فبعثت إليه مع ابنى شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل ، فقلت : لاتبرح حتى يشربها ، فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها ، فعاتبته ولمته على ذلك وقلت . سبحان الله رددت على كرامتى ! فلما رأى وجدى لذلك قال . لايسوءك هذا ، إنى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى ﴿ يتجرعه ولايكاد يسيغه ﴾ الآية قال صالح . فبكيت وقلت فى نفسى . أنا فى واد وأنت فى واد آخر . وقال السرى السقطى . نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة فى دبس فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء . أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها ، فيقول لها : لاأريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد . مه أى شىء تصنع ! أماعلمت أن فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانعا ، حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والأرض والبهائم وبنى آدم حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولاترضى به .

وفى الخبر « لايستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الخباز ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ »[1] ، وقال بعضهم : أتيت قاسما الجرعى فسألته عن الزهد أى شىء هو ؟ فقال : أى شىء سمعت فيه ؟ فعددت أقوالا فسكت فقلت : وأى شىء تقول أنت ؟ فقال : اعلم أن البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ، وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شىء يوافقه من المأكولات ، فقال : تسألنى فإذا وصفت لك لم تقبل منى ، قال : صف لى حتى أسمع ، قال : تشرب سكنجبينا وتمص سفرجلا وتأكل

(١) حديث « لايستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل .. الحديث » لم أجده أصلا

بعد ذلك اسفيذباجا ، فقال له بشر : هل تعلم شيئاً أقل من السكنجبين يقوم مقامه ، قال : لا ، قال : أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الهندبا بالخل ، ثم قال : أتعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال أنا أعرف قال : ماهو ؟ قال : الخرنوب الشامى ، قال : فتعرف شيئا أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف ؛ ماء الحمص بسمن البقر فى معناه ، فقال له عبد الرحمن : أنت أعلم منى بالطب ؛ فلم تسألنى ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات ، وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها ، وفى بعض الأوقات لأنهم كانوا لايصفولهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا فى قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان : الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وماوراء الخبز شهوة . وهذا هو النهاية . فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لايغفل عن نفسه ولا ينهمك فى الشهوات ، فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهيه ، ويفعل كل مايهواه فينبغى أن لايواظب على أكل اللحم . وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه . وقيل إن للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر . ومهما كان جائعا وتاقت نفسه إلى الجماع فلاينبغى أن يأكل ويجامع ، فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط فى الجماع . ويستحب أن لاينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعاد الفتور ويقسو قلبه لذلك ، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر . وفى الحديث « أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم [1] » وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن عقيب أكله . فقد كان سفيان الثورى إذا شبع ليلة أحياها ، وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر ، وكان يقول . أشبع الزنجى وكده ومرة يقول : أشبع الحمار وكده . ومهما اشتهى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه فينبغى أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتا ، ولا تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة . نظر سهل إلى ابن سالم وفى يده خبز وتمر فقال له : ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك . ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فإنه لايشتهى الغليظ بعده ، ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا للطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه : لاتأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلاتحبوها ، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبدالله ابن عمر رحمة الله عليهما : ماتأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فاكهة .

وعلى الجملة لاسبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ وبقدر مايجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته . قال بعض أهل البصرة : نازعتنى نفسى خبز أرز وسمكا فمنعتها ، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة ، فلما مات قال بعضهم : رأيته فى المنام فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال : لاأحسن أن أصف مالقانى به ربى من النعم والكرامات ، وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكا . وقال : كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب . وقد قال تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان : ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . وفقنا الله لما يرضيه .

---

(١) حديث « أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولاتناموا عليه فتقسو قلوبكم » أخرجه الطبرانى وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف .

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أنّ المطلوب الأقصى فى جميع الأمور والأخلاق : الوسط ، إذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفى قصد الأمور ذميم . وما أوردناه فى فضائل الجوع ربما يومئ إلى أنّ الإفراط فيه مطلوب وهيهات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل مايطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة فى المنع منه ، على وجه يومئ عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان . والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط ، لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغى أن يمدح غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعا فيتقاومان ويحصل الاعتدال ، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لاينتهى إلى الغاية ؛ فإنه إن أسرف مسرف فى مضادة الطبع كان فى الشرع أيضاً ما يدل على إساءته ، كما أنّ الشرع بالغ فى الثناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه [1] فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لايحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها . فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقى المأكول فيه أثر ليكون متشبها بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع ، وغاية الإنسان الاقتداء بهم . وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال

ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض ، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهى محيطة بها لاتقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط ، فلو ماتت ماتت على الوسط لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة : فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان فى الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة فى الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط ، فصار الوسط مطلوبا فى جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوساطها [2] » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف فى نفسه وقوى على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع .

أما فى بداية الأمر إذا كانت النفس جموحا متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة فى إيلامها بالجوع ، كما يبالغ فى إيلام الدابة التى ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لايتعاطاه هو فى نفسه فيأمره بالجوع وهو لايجوع ، ويمنعه الفواكه والشهوات ، وقد لايمتنع هو منها ، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع الذى تحس بألمه فى أكثر الأحوال لتنكسر نفسه . والمقصود أن تنكسر حتى

---

(١) حديث : النهى عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله . تقدم (٢) حديث « خير الأمور أوساطها » أخرجه البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم .

تعتدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضا إلى الاعتدال . وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة : إما صدّيق وإما مغرور أحمق.

أما الصدّيق المستقيم : فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق . وأما المغرور : فلظنه بنفسه أنه الصدّيق المستغنى عن تأديب نفسه الظان بها خيرا . وهذا غرور عظيم وهو الأغلب. فإن النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا ، وكثيرا ما تغتر فتنظر إلى الصدّيق ومسامحته نفسه فى ذلك فيسامح نفسه، كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك . والذى يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير ـ فى وقت مخصوص ونوع مخصوص ـ ليس مقصوداً فى نفسه ـ وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم [1] وكان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إنى إذن صائم [2] » وكان يقدّم إليه الشيء فيقول « أما إنى قد أردت الصوم » ثم يأكل [3] وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال « إنى صائم » فقالت له عائشة رضى الله عنها : قد أهدى إلينا حيس فقال « كنت أردت الصوم ولكن قربيه [4] ».

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له : كيف كنت فى بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات ، منها: أنه كان يقتات ورق النبق مدة . ومنها : أنه أكل دقاق التبن مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم فى ثلاث سنين فقيل له : فكيف أنت فى وقتك هذا ؟ فقال : آكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت : أنى آكل كثيرا ، بل أنى لا أقدر بمقدار واحد ما آكله . وقد كان معروف الكرخى يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل، فقيل له : إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتنى المعرفة ، ثم قال: إنما أنا ضيف فى دار مولاى فإذا أطعمنى أكلت وإذا جوعنى صبرت ، مالى والاعتراض والتمييز ؟ ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا فقيل : يا أبا إسحق بهذا كله ؟ قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه نفرا يسيرا فيهم الأوزاعى والثورى فقال له الثورى : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس فى الطعام إسراف إنما الاسراف فى اللباس والأثاث .

فالذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتى الملح منذ عشرين سنة . وعن سرى السقطى أنه منذ أربعين سنة يشتهى أن يغمس جزرة فى دبس فما فعل. فيراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطئ . والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى

(١) حديث عائشة : كان يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم . متفق عليه (٢) حديث : كان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شيء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إنى صائم » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتى (٣) حديث : كان يقدم إليه الشيء فيقول « أما إنى كنت أريد الصوم » أخرجه البيهقى من حديث عائشة بلفظ « وإن كنت قد فرضت الصوم » وقال إسناده صحيح وعند مسلم « قد كنت أصبحت صائما »
(٤) حديث : خرج وقال « إنى صائم » فقالت عائشة يارسول الله قد أهدى إلينا حيس فقال « كنت أردت الصوم ولكن قربيه » أخرجه مسلم بلفظ « قد كنت أصبحت صائما » وفى رواية له « أدنيه فقد أصبحت صائما » فأكل وفى لفظ للبيهقى « إنى كنت أريد الصوم ولكن قربيه » .

اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبي مغرور . فيقول المحتاط : ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسى فليس نفسى أطوع من نفس سرى السقطى ومالك بن دينار ، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم . والمغرور يقول : ما نفسى بأعصى على من نفس معروف الكرخى وإبراهيم بن أدهم فاقتدى بهم وأرفع التقدير فى مأكولى ، فأنا أيضا ضيف فى دار مولاى فمالى والاعتراض ؟ ثم إنه لو قصر أحد فى حقه وتوقيره أو فى ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض ، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمق ، بل رفع التقدير فى الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة ، فيكون بينه وبين الله علامة فى استرساله وانقباضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا لله فى أكله وإفطاره ، فينبغى أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله [1] ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الإناء فى يده ويقول : أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها . اعزلوا عنى حسابها ، وتركها .

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ إن يكاشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعوه إلى الاعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه . فينبغى أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال . ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة ، فإن الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيلقى إليه كل ساعة : إنك عارف كامل ، وما الذى فاتك من المعرفة والكمال . بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريد فى كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته . والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتلطفاً فى سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان الاعتدال خفيا فى حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لايترك فى كل حال . ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبدالله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن ، فعلاه بالدرة وقال : لاأم لك كل يوما خبزا ولحما ، ويوما خبزا ولبنا ، ويوما خبزا وسمنا ، ويوما خبزا وزيتا ، ويوما خبزا وملحا ، ويوما خبزا قفارا . وهذا هو الاعتدال ، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف ، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم .

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات ؛ إحداهما : أن لاتقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ، ولكن لايريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفى الشهوة ويأكل فى الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفى ، سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له : هل تعلم به بأسا ؟ قال يأكل فى الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة ، بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال ، وهو بدل عن فوات المجاهدات بالأعمال ، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين .

(١) حديث : كان يحب العسل ويأكله . متفق عليه من حديث عائشة : كان يحب الحلواء والعسل ... الحديث . وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه .

ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصى ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشترى الشهوات ويعلقها فى البيت وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لايشوشون عليه حاله .

فنهاية الزهد : الزهد فى الزهد بإظهار ضدّه وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين . وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه ؛ فلاجرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . وهذا يضاهى طريق من يعطى جهراً فيأخذ ويرد سرا ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغى أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه . ولا ينبغى أن يغره قول الشيطان : إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحا لغيرك ، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره ، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه فى معرض إصلاح غيره ، فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه واعلم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به فى الفعل أو لاينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات ، فقد خالف شهوة ضعيفة وهى شهوة الأكل وأطاع شهوة هى شر منها وهى شهوة الجاه ، وتلك هى الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له . قال أبو سليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركا لها فأصب منها شيئا يسيرا ولا تعط نفسك مناها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها . وقال محمد بن جعفر الصادق : إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسى فإن هى أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها ، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئا ، وهذا طريق فى عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع فى شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية ؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام والله ولى التوفيق .

القول فى شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين ؛ إحداهما : أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة . فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد . والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة ، فإن مالا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق .

الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات مايهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى ﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ معناه شدة الغلمة ، وعن ابن عباس : فى قوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال فى تفسيره : الذكر إذا دخل . وقد قيل : إذا

قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله (١) . وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبى وهنى ومنى (٢) » وقال عليه السلام « النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال (٣) » .

روى أن موسى عليه السلام كان جالساً فى بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا ؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه فقال : السلام عليك ياموسى ، فقال له موسى من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، فقال : لاحياك الله ماجاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه ، قال : فما الذى رأيت عليك ؟ قال : برنس أختطف به قلوب بنى آدم قال : فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، وأحذرك ثلاثا : لاتخل بامرأة لاتحل لك فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها وأفتنها به ، ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به ، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول : علم موسى مايحذر به بنى آدم . وعن سعيد بن المسيب قال : مابعث الله نبيا فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شىء أخوف عندى منهن ، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح . وقال بعضهم : إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلاأخطىء ، وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى . فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب .

وأعظم الشهوات شهوة النساء . وهذه الشهوة أيضا لها إفراط وتفريط واعتدال ، فالإفراط : مايقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين :

أحدهما: أن يتناولوا مايقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع ـ كما قد يتناول بعض الناس أودية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام ـ وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها ، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص .

* فإن قلت . فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة (٤) » ؟ فاعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتاع ، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن ، فكان طلبه القوة لهذا لاللتمتع .

والأمر الثانى . أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع ، وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحى منه حتى اعتقد أن الشهوة لاتنقضى إلا من محل واحد ، والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به ؟ وهذا لايكتفى

---

(١) حديث ابن عباس موقوفا مسندا فى قوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق اذا وقب ﴾ قال هو قيام الذكر وقال الذى أسنده : الذكر اذا دخل . هذا حديث لاأصل له (٢) حديث « اللهم انى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبى وهنى ومنيى » تقدم فى الدعوات (٣) حديث « النساء حبائل الشيطان » أخرجه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهنى باسناد فيه جهالة . (٤) حديث « شكوت الى جبريل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة » أخرجه العقيلى فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا إلى ذل وعبودية إلى عبودية ، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعا لاليكون خادما للشهوة ومحتالا لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لاهم له . وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر ، وإلافإذا استحكم عسر دفعه . فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج ، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولايصبرون عنها ألبتة .

ومثال من يكثر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله ، وما أهون منعها بصرف عنانها . ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها . وما أعظم التفاوت بين الأمرين فى اليسر والعسر ، فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور فأما فى أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدى إلى نزع الروح .

فإذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جدا . وتفريطها : بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة ، وهو أيضا مذموم . وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم « معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء [1] » .

بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله

اعلم أنّ المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لايشغل نفسه بالتزويج فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان لايشغل قلبه جميع مافى الدنيا عن الله تعالى [2] فلا تقاس الملائكة بالحدادين . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ؟ وقال : مارأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول : وقيل له مرة : ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها ؟ فقال : لا آنسنى الله بها ، أى أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى ،وقال أيضا: كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به؟ وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حدّ كان يخشى منه فى بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قالبه فيهدمه . فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول « كلمينى ياعائشة » لتشغله بكلامها عن عظيم ماهو فيه لقصور طاقة قالبه عنه [3] فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل ، وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا ببدنه ، ثم إنه كان لايطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال « أرحنا بها يابلال [4] » حتى يعود إلى ماهو قرة عينه [5] فالضعيف إذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم . فشرط المريد العزبة فى الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة ، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لايقدر على حفظ العين مثلا وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره

---

(١) حديث « معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ... الحديث » تقدم فى النكاح (٢) حديث : كان لايشغل قلبه عن الله تعالى جميع مافى الدنيا . تقدم (٣) حديث : كان يضرب يده على فخذ عائشة أحيانا ويقول « كلمينى ياعائشة » لم أجد له أصلا (٤) حديث « أرحنا بها يابلال » تقدم فى الصلاة (٥) حديث : ان الصلاة كانت قرة عينه . تقدم أيضاً

ويتفرق عليه همه ، وربما وقع فى بلية لايطيقها . وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدى إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج . ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة . وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة . ولذلك قال لابنه عليه السلام : يابنى امش خلف الأسد والأسود ولاتمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام : مابدء الزنا ؟ قال : النظر والتمنى . وقال الفضيل : يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لاأخطئ به يعنى النظر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيمانا يجد حلاوته فى قلبه[(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء[(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء[(٣)] » وقال تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية وقال عليه السلام « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفم يزنى وزناه القبلة ، والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه[(٤)] » وقالت أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام « احتجبا » فقلنا : أوليس بأعمى لايبصر ؟ فقال « وأنتما لاتبصرانه ؟[(٥)] » وهذا يدل على أنه لايجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة ، وإنما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به ، فإن الشر فى الصبيان أكثر ، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح . والنظر إلى وجه الصبى بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر إليه .

فإن قلت : كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لامحالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة ؟ فأقول لست أعنى تفرقة العين فقط ، بل ينبغى أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة ، وبين ماء صاف وماء كدر ، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها ، فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ، ولأجل ذلك لايشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ، ولاتقبيل الماء الصافى ، وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها . ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة . فمهما وجد ذلك الميل فى قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام ، وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك إلى المعاطب وهم لايشعرون .

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال

---

(١) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام ابليس . الحديث » تقدم أيضاً (٢) حديث « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء » أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى

(٤) حديث « لكل ابن آدم حظه من الزنا فالعينان تزنيان... الحديث » أخرجه مسلم والبيهقى واللفظ له من حديث أبى هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه (٥) حديث أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال « احتجبا » الحديث أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح .

سفيان : لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطا . وعن بعض السلف قال: سيكون فى هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون .

فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة . فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح ؛ فرب نفس لايسكن توقانها بالجوع .

وقال بعضهم : غلبت على شهوتى فى بدء إرادتى بما لم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصا فى المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدم إلى ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها فى فؤادى وجميع جسدى ، فأصبحت وقد زال مابى فبقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك فأكثرت الاستغاثة فأتانى شخص فى المنام فقال لى : أتحب أن يذهب ماتجده وأضرب عنقك ؟ قلت : نعم ، فقال : مد رقبتك ، فمددتها فجرد سيفاً من نور فضرب به عنقى فأصبحت وقد زال مابى فبقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصاً فيما بين جنبى وصدرى يخاطبنى ويقول : ويحك كم تسأل الله تعالى رفع مالايحب رفعه ؟ قال : فتزوجت فانقطع ذلك عنى وولد لى .

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغى أن يترك شرط الإرادة فى ابتداء النكاح ودوامه ، أما فى ابتدائه فبالنية الحسنة ، وفى دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة ـ كما فصلنا جميع ذلك فى كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته ـ وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية . قال بعضهم : من تزوج غنية كان له منها خمس خصال ، مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة . وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها . والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم : ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته : بالسن ، والطول ، والمال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع : بالجمال ، والأدب ، والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة فى دوام النكاح الخلق .

تزوج بعض المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيرت فى هذا الرجل أنا فى منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلى إليه ؟ وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدرى فاشتد حزن أهلها لذلك خوفا من أن يستقبحها ، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك ، فقيل له فى ذلك فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لايحزنوا ، فقيل له : قد سبقت إخوانك بهذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له : لم لاتطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لايصبر عليها فيتأذى بها ، فإن تزوج المريد فهكذا ينبغى أن يكون ، وإن قدر على الترك فهو أولى له ، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله ، كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالى حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبينى . فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا

تراثك ؛ فصم الدهر وليكن فطرك الموت . وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين.

وهذه إشارة إلى أن كل مايشغل عن الله تعالى فهو نقصان ، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده فى العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به . ودواء هذه العلة ثلاثة أمور : الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بشغل يستولى على القلب . فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذى يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات ، قال سعيد بن المسيب ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء ، وقال سعيد أيضا ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى ـ ماشىء أخوف عندى من النساء ، وعن عبد الله بن أبى وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياماً فلما أتيته قال أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، فحمد الله تعالى وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين ـ أو قال ثلاثة ـ قال : فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح ؟ فصرت إلى منزلى وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلى فأسرجت ، وكنت صائماً فقدمت عشائى لأفطر ـ وكان خبزا وزيتا ـ وإذا بابى يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال : فأفكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ـ وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد ـ قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلى لأتيتك ؟ فقال : لا ، أنت أحق أن تؤتى ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزباً فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، وإذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعها فى الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجك ؟ قلت : نعم ؛ قالوا وهى فى الدار ؟ قلت : نعم ، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ؛ فاذا هى من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ؟ قال : فمكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتيه ؛ فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ماحال ذلك الإنسان ؟ فقلت : بخير يا أبا محمد على مايحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت إلى منزلى فوجه إلى بعشرين ألف درهم . قال عبد الله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف . فاستعجال سعيد فى الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة فى الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هى أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح

يستحيا منه ويخشى من اقتحامه ، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه ، وليس فى شىء من ذلك ثواب فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصمة أن لا يقدر فنى هذه العوائق فائدة وهى دفع الإثم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأى سبب كان تركه ؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل فى تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد [1] » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ـ وعد منهم : رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إنى أخاف الله رب العالمين [2] » وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة ، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك فى كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان فى هـــذه الشهوة العظيمة .

وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه . قال سليمان: فرأيت تلك الليلة فى المنام يوسف عليه السلام وكأنى أقول له أنت يوسف ؟ قال : نعم أنا يوسف الذى هممت وأنت سليمان الذى لم تهم أشار إلى قوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وعنه أيضا ماهو أعجب من هذا . وذلك أنه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً ، وجلس سليمان فى الخيمة وكان من أجمل الناس وجها وأورعهم ، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه ـ وعليها البرقع والقفازان ـ فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت أهنئنى ؛ فظن أنها تريد طعاما فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت : لست أريد هذا إنما أريد مايكون من الرجل إلى أهله ؟ فقال : جهزك إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب فلم يزل يبكى فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال : خير ذكرت صبيتى . قال : لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها ، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية ، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكى بكاء شديدا فقال سليمان : وأنت مايبكيك ؟ قال : أنا أحق بالبكاء منك لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر ، فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام وإذا رجل وسيم طوال له شـــارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان : رحمك الله من أنت ؟ قال له : أنا يوسف ، قال : يوسف الصديق ؟ قال : نعم ، قال : إن فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ! فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب .

وروى عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر ممـا كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما

---

(١) حديث « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد » أخرجه الحاكم فى التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد ، ثم قال : يقال ان يحيى لمـا ذكر له هذا الحديث قال لو كان لى فرس ورمح غزوت سويدا ورواه الخرائطى من غير طريق سويد إسناد فيه نظر (٢) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا ، فلبثت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لايستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى من أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذى له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أعطنى أجرى ، فقلت كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ؛ فقال ياعبدالله أتهزأ بى ؟ فقلت : لا أستهزئ بك فخذه ، فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئا ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون (١) ،

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين ، فإن العين مبدأ الزنا فحفظها مهم ، وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لايؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم « لك الأولى وعليك الثانية (١) » أى النظرة . وقال العلاء بن زياد . لاتتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع فى القلب شهوة ، وقلما يخلو الإنسان فى تردداه عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل ، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر ، وإن استقبح لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه ، فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق . فقد روى عن أبى بكر بن عبدالله المزنى : أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له : لاتفعل لأنا أشد حبا لك منك لى ولكنى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ! فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، قال : تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : مالى من عمل صالح فأدعوا ، فادع أنت ، قال : أنا أدعو وأمن أنت على دعائى فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك ، لتخبرنى بأمرك ، فأخبره فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لايكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت ،

---

(١) حديث ابن عمر « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار ... فذكر الحديث بطوله رواه البخارى

(٢) حديث « لك الأولى وليست لك الثانية » أى النظرة أخرجه أبو داود والترمذى من حديث بريدة قاله لعلى قال الترمذى حديث غريب

فمضى ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ، فأطرق مليا وقال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعا ، فقالت له : والله ماوقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى ، والذى حملنى على أن لقيتك فى مثل هذا الأمر بنفسى لمعرفتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شىء يعيبها ، وجملة ماأقول لك إن جوارحى كلها مشغولة بك فالله الله فى أمرى وأمرك ، قال : فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى ! فأخذ قرطاساً وكتب كتابا ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه : بسم الله الرحمن الرحيم اعلمى أيتها المرأة أن الله عزوجل إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه ، فإن كان ماذكرت باطلا فإنى أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم ، وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى ؟ وإن كان ماذكرت حقا فإنى أدلك على طبيب هدى يداوى الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإنى مشغول عنك بقوله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ فأين المهرب من هذه الآية ؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت : يافتى لاترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا إلا غدا بين يدى الله تعالى ، ثم بكت بكاء شديدا وقالت : أسأل لك الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ، ثم إنها تبعته وقالت : امنن على بموعظة أحملها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ﴾ قال : فأطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الأول ، ثم إنها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى ، فيقال له : مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك ؟ فيقول : إنى قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فأنا أستحى منه أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

تم كتاب كسر الشهوتين بحمدالله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليما كثيرا .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله ،

من علم حصله ونطق سهله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ، ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله ، وأسمى فضله وبين سبله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله.

أما بعد : فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبه ، فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه مامن موجود أومعدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فإن كل مايتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شىء إلا والعلم متناول له . وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والآذان لاتصل إلى غير الأصوات ، واليد لاتصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجالة منتهى وحدّ ، له فى الخير مجال رحب وله فى الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل مايخشى غائلته فى عاجله وآجله وعلم مايحمد فيه إطلاق اللسان أويذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لاتعب فى إطلاقه ولا مؤنة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار فى ذمها . فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لايعنى ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض فى الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ؛ ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، ثم آفة الغناء بالشعر - وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده - ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة إفشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب فى القول واليمين ، ثم بيان التعاريض فى الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النميمة ، ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ،ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عزوجل وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة ؟ وهى آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا [(١)] » وقال عليه السلام « الصمت حكم وقليل فاعله [(٢)] » أى حكمة وحزم . وروى

كتاب آفات اللسان

(١) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد (٢) حديث « الصمت حكمة وقليل فاعله » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ « حكم » بدل « حكمة » وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال

عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يارسول الله أخبرنى عن الإسلام بأمر لاأسأل عنه أحداً بعدك قال « قل آمنت بالله ثم استقم » قال : قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه [١] وقال عقبة بن عامر قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك [٢] » وقال سهل بن سعد الساعدى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله [٤] » القبقب : هو البطن والذبذب : الفرج ، واللقلق : اللسان . فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس الجنة فقال « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر مايدخل النار فقال « الأجوفان : الفم والفرج [٥] » فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ؛ فقد قال معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال « ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ [٦] » وقال عبد الله الثقفى : قلت يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به فقال « قل ربى الله ثم استقم » قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال « هذا [٧] » وروى أن معاذا قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه [٨] وقال أنس بن مالك : قال صلى الله عليه وسلم « لايستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسلم فليلزم الصمت [١٠] » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا [١١] » وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له : ما تصنع ياخليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردنى الموارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شىء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته [١٢] » وعن ابن مسعود

= والصحيح عن أنس أن الهمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب روضة العقلاء بسند صحيح الى أنس

(١) حديث سفيان الثقفى : أخبرنى عن الإسلام بأمر لاأسأل عنه أحدا بعدك ... الحديث » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان

(٢) حديث عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أملك عليك لسانك ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن

(٣) حديث سهل بن سعد « من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة » رواه البخارى

(٤) حديث « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ « فقد وجبت له الجنة »

(٥) حديث : سئل عن أكثر مايدخل الجنة . الحديث : أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث معاذ : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال « ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

(٧) حديث عبد الله الثقفى : قلت يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ... الحديث . رواه النسائي قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفى كما رواه الترمذى وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .

(٨) حديث : إن معاذا قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه . أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا فى الصمت قال « أصبعه » مكان « يده »

(٩) حديث أنس « لايستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولايستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف

(١٠) حديث « من سره أن يسلم فليلزم الصمت » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف

(١١) حديث « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد الخدرى رفعه ووقع فى الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبى سعيد رفعه ورواه الترمذى موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح

(١٢) حديث : أن عمر اطلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال : ماتصنع ياخليفة رسول الله =

أنه كان على الصفا يلبي ويقول : يالسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم ، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه [١] » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره [٢] » وروى أن معاذ بن جبل قال . يارسول الله أوصني قال « اعبدالله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله » وأشار بيده إلى لسانه [٣] وعن صفوان بن سليم قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق [٤] » .

وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت [٥] » وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم [٦] » وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، فقال : فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال « أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم مايقول » وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة [٩] » وقال ابن مسعود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب . فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يخوض في الباطل [١٠] » وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه [١١] » وقال عيسى عليه السلام : العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت

= قال : ان هذا أوردني الموارد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد الا يشكو الى الله عز وجل اللسان على حدته » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر، وقال الدارقطني ان المرفوع وهم على الدراوردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له .

(١) حديث ابن مسعود : أنه كان على الصفا يلبي ويقول : يالسان قل خيرا تغنم . وفيه مرفوعا « ان أكثر خطايا بني آدم في لسانه » أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن (٢) حديث ابن عمر « من كف لسانه ستر الله عورته الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن (٣) حديث : ان معاذا قال أوصني قال « اعبد الله كأنك تراه .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات وفيه انقطاع (٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعا « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضاً مرفوعا .

(٥) حديث أبي هريرة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » متفق عليه . (٦) حديث الحسن : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين (٧) حديث البراء : جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال « أطعم الجائع .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا باسناد جيد (٨) حديث « اخزن لسانك إلا من خير ... الحديث » أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر (٩) حديث « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ « إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة » وقد تقدم. (١٠) حديث ابن مسعود « الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب .. الحديث » أخرجه الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ « المجالس » وضعفه ابن عدي ولم أجده « ثلاثة » من حديث ابن مسعود (١١) حديث « ان لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم =

وجزء فى الفرار من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به [١] » .

الآثار : كان أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله إلا هو ماشىء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : لسانى سبع إن أرسلته أكلنى . وقال وهب بن منبه : فى حكمة آل داود ؛ حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظاً للسانه مقبلا على شأنه . وقال الحسن : ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وقال بعضهم : الصمت يجمع للرجل فضيلتين ؛ السلامة فى دينه والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : ياأبا يحيى حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد : مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله . وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له : مالك يا أبابحر لاتتكلم ؟ فقال له : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت . وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك ؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر ، فقال أحدهم : أنا أندم على ماقلت ولا أندم على مالم أقل ، وقال الآخر : إنى إذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى ، وقال الثالث : عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ماقلت . وقيل : أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل : ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ماتكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء .

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهى سياقة إلى اللسان لاتثقل عليه ولها حلاوة فى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم ـ كما سيأتى تفصيله ـ ففى الخوض خطر وفى الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع مافيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة . فقد قال الله تعالى : ﴿ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر

وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرا . ومن عرف دقائق

= بنوء تدبره بقلبه ... الحديث » لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصرى قال « كانوا يقولون » (١) حديث « من كثر كلامه كثر سقطه . . الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب .

آفات اللسان ـ على ماسنذكره ـ علم قطعا أن ماذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال « من صمت نجا [١] » فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم [٢] ولا يعرف ماتحت آحاد كلماته من بحار المعانى إلا خواص العلماء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها مايعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى إلى الأغلظ قليلا ، ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهى عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى . الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها ، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصرا فى الجنة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى ، فإن المؤمن لايكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا [٣] هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم . بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه [٤] » بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس : استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بنى ، فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره ؟ [٥] » وفى حديث آخر : أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كعب » فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألية على الله » ؟ قال : هى أمى يارسول الله قال « وما يدريك ياأم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه [٦] » ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه غير مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب فإنه نوع من العذاب .

---

(١) حديث « من صمت نجا » تقدم (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

الآفة الأولى الكلام فيما لايعنيك

(٣) حديث « المؤمن لايكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا » لم أجد له أصلا وروى محمد بن زكريا العلائى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله أمرنى أن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة » (٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة (٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع .. الحديث وفيه « لعله كان يتكلم بما لايعنيه ويمنع مالايضره » أخرجه الترمذى من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٦) حديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض ... الحديث وفيه « لعل كعبا قال مالايعنيه أو منع مالا يغنيه » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابى وبين الراوى عنه .

وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به فقال : إنى لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنينى[1] » وقال أبو ذرّ : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان » قلت : بلى يا رسول الله قال « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك[2] » وقال مجاهد . سمعت ابن عباس يقول خمس لهنّ أحب إلى من الدهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت ، ولا تمار حليما ولا سفيها فإنّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ،وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام . وقيل للقمان الحكيم : ما حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنينى . وقال مورق العجلى : أمر أنا فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا : وما هو ؟ قال : السكوت عما لا يعنينى . وقال عمر رضى الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال ولا مال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر وإذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشىء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك — وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها - ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشىء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصى وعن كل ما يخفيه ويستحى منه . وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى إنسانا فى الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، وإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه .. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدرى ، فيجيب عن غير بصيرة .

---

(١) حديث محمد بن كعب « ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام الحديث . وفيه : ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنينى . أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبى ذر « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ... الحديث » وفيه « هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك » أخرجه ابن أبى الدنيا بسند منقطع .

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس ، فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال ما لا يعنى ما روى أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . وقيل إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال . فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب هو مما لا يعنى وتركه من حسن الإسلام فهذا حدّه .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله . وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة فى فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدّا .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة ، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ـ أى فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم ـ لما سبق ـ وإن لم يكن فيه إثم ولاضرر . قال عطاء بن أبى رباح : إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها ، أتنكرون أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال : إنّ الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا . وقال مطرف : ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلاتذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار : اللهم اخزه وما أشبه ذلك

واعلم أنّ فضول الكلام لاينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عزوجل ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله[1] » فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر

الآفة الثانيـــة فضول الكلام

(١) حديث « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » أخرجه البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى وقال ابن عبد البر إنه حديث حسن وقال البغوى : لا أدرى سمع من النبى صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لانعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

فقالوا : أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغرّاء وأنت وأنت فقال « قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان »⁽¹⁾ إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ؛ حسب امرئ من الكلام مابلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول ، أبتاع لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذابا . وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل . وروى أنّ سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مر فى السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رءوس الناس ماأسرع مايكتبون ! ومن الذين أسفل منهم ماأسرع مايملون ! وقال إبراهيم التيمى : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ، وقال عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب » ؟ فقال : شفتاى وأسنانى ، قال « أفما كان لك مايرد كلامك؟ »⁽²⁾ ، وفى رواية : أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ثم قال : ماأوتى رجل شرا من فضل فى لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : إنه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبى حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن فى الاستماع سلامة ، وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ماطهر الرجل لسانه . ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول المال وفضول الكلام . فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه . وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لايعنى .

الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لايحل الخوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لايعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يؤمن عليه الخوض فى الباطل . وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض فى الباطل . وأنواع الباطل لايمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لامخلص منها إلا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا . وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ به مابلغت فيكتب

---

(١) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ... الحديث أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف .

(٢) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال « كم دون لسانك من حجاب .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات .

الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة [١] » وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا [٢] » وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل [٣] » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله . وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ماتقولون شر من الحدث . فهذا هو الخوض فى الباطل وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم . وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض فى الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه .

الآفة الرابعة . المراء والجدال

وذلك منهى عنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه [٤] » وقال عليه السلام « ذروا المراء فإنه لاتفهم حكمته ولا تؤمن فتنته [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة [٦] » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول ماعهد إلى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال [٧] » وقال أيضا « ماضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل [٨] » وقال أيضا « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقا [٩] » وقال أيضا « ست من كن فيه بلغ حقيقة

الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل

(١) حديث بلال بن الحارث « ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح (٢) حديث « ان الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذى « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار » لفظ الترمذى » وقال حسن غريب (٣) حديث « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح .

الآفة الرابعة : المراء والمجادلة

(٤) حديث « لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده موعدا فتخلفه » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم .

(٥) حديث « ذروا المراء فإنه لاتفهم حكمته ولاتؤمن فتنته » أخرجه الطبرانى من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله « لاتفهم حكمته » ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود .

(٦) حديث « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ... الحديث » تقدم فى العلم (٧) حديث أم سلمة « ان أول ماعهد الى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى والبيهقى بسند ضعيف وقد رواه ابن أبى الدنيا فى المراسيل من حديث عروة بن رويم (٨) حديث « ماضل قوم الا أوتوا الجدل » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وصححه وزاد « بعد هدى كانوا عليه » وتقدم فى العلم وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف (٩) حديث « لايستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وان كان محقا » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ « لايؤمن العبد حتى يترك الكذب فى المزاحة والمراء وان كان صادقا » .

الإيمان : الصيام فى الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتعجيل الصلاة فى اليوم الدجن ، والصبر على المصيبات ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو صادق (١) » وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته وقيل : ماضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين فى شىء . وقال أيضا : المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن وقال لقمان لابنه : يابنى لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجا ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى فى رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بى إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبى ليلى : لا أمارى صاحبى فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء : كفى بك إثما أن لا تزال ممارياً . وقال صلى الله عليه وسلم « تكفير كل لحاء ركعتان (٢) » وقال عمر رضى الله عنه : لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث . لا تتعلمه لتمارى به ، ولا لتباهى به ، ولا لترائى به . ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقيل لميمون بن مهران : مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال : لأنى لا أشاريه ولا أماريه . وماورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى .

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ؛ إما فى اللفظ وإما فى المعنى وإما فى قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه .

والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله .

وأما فى المعنى : فبأن يقول ليس كما تقول ؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا .

وأما فى قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ، وما يجرى مجراه ، وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة ، أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن .

وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل ، يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه .

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه . وهما شهوتان باطنتان

---

(١) حديث « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان ... الحديث » وفيه « وترك المراء وهو صادق » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث أبى مالك الأشعرى بسند ضعيف بلفظ « خصال من الخير ... الحديث »

(٢) حديث « تكفير كل لحاء ركعتان » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

للنفس قويتان لها . أما إظهار الفضل ؛ فهو من قبل تزكية النفس وهى من مقتضى ما فى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهى من صفات الربوبية . وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمواظب على المراء والجدال مقو لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير . ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل مايتصور له ؛ فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى فى إفحامه وإلجامه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره - كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب - فإن علاج كل علة بإماطة سببها . وسبب المراء والجدال ماذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه .

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى : لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسى بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع مايقال ولا تتكلم ، قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها . وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً فى أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر مايغلب ذلك فى المذاهب والعقائد . فإن المراء طبع ؛ فإذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغى للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة لا بطريق الجدال فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد فإذا عرف أن النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه [1] » وقال هشام بن عروة : كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات : وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟

الآفة الخامسة : الخصومة

وهى أيضاً مذمومة وهى وراء الجدال والمراء ؛ فالمراء طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير . وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أبغض

(١) حديث « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه » أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ « رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين » وهو منقطع وضعيف جدا .

الرجال إلى الله الألد الخصم [١] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع [٢] » وقال بعضهم : إياك والخصومة فإنها تمحق الدين . ويقال : ما خاصم ورع قط فى الدين . وقال ابن قتيبة : مر بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة فقال : ما يجلسك ههنا ؟ قلت : خصومة بينى وبين ابن عم لى ، فقال : إن لأبيك عندى يدا وإنى أريد أن أجزيك بها ، وإنى والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة ؟ قال : فقمت لأنصرف فقال لى خصمى : مالك ؟ قلت : لا أخاصمك ، قال : إنك عرفت أن الحق لى ، قلت : لا ولكن أكرم نفسى عن هذا قال : فإنى لا أطلب منك شيئا هو لك .

فإن قلت . فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم ؛ مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق فى أى جانب هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان ؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذى يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد فى الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها فى نصرة الحجة وإظهار الحق ، ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفى الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدى عناده وكسر عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولا أبالى ، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا . فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فإن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغى أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ؛ إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله إما تجهيل وإما تكذيب ، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام [٣] »

الآفة الخامسة الخصومة

(١) حديث عائشة « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » أخرجه البخارى وقد تقدم . (٢) حديث أبى هريرة « من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع » أخرجه ابن أبى الدنيا والأصفهانى فى الترغيب الترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

(٣) حديث « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه الطبرانى من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانىء أبى شريح باسناد جيد « يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام » .

وقد قال الله تعالى ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيا إن الله تعالى يقول ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام [1] » وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال : مر بسلام ، فقيل . ياروح الله اتقول هذا لخنزير ؟ فقال . أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نبينا عليه السلام « الكلمة الطيبة صدقة [2] » وقال « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة [3] » وقال عمر رضى الله عنه البر شىء هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا ، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين . وهذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج ،فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

الآفة السادسة

التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وأتقياء أمتى برءاء من التكلف » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون فى الكلام [4] » وقالت فاطمة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا هلك المتنطعون - ثلاث مرات - [6] » والتنطع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدى حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ! إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها [7] » وكأنه أنكر عليه ماقدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة . وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات « إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين فقال بعض قوم الجانى : كيف ندى من لاشرب ولا أكل ولاصاح ولا استهل

---

(١) حديث أنس « إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها ... الحديث » أخرجه الترمذى وقد تقدم (٢) حديث « الكلمة الطيبة صدقة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

الآفة السادسة : التقعر فى الكلام والتشدق

(٤) حديث « إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » أخرجه أحمد من حديث أبى ثعلبة وهو عند الترمذى من حديث جابر وحسنه بلفظ « إن أبغضكم إلى » (٥) حديث فاطمة : شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم . الحديث وفيه « ويتشدقون » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب (٦) حديث « ألا هلك المتنطعون » من حديث ابن مسعود (٧) حديث سعد « يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها » رواه أحمد .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال « أسجعاً كسجع الأعراب[١] » وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغى أن يقتصر فى كل شيء على مقصوده : ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم . ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به . فاما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والفحش فإن الله تعالى لايحب الفحش ولا التفحش[٢] » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال « لاتسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم[٣] » وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى[٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها[٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « أربعة يؤذون أهل النار فى النار على مابهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث[٦] » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة ياعائشة « لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء[٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق[٨] » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة فى الإيضاح حتى ينتهى إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضاً البيان فى أمور الدين وفى صفات الله تعالى ، فإن إلقاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة فى بيانه ؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ، ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الإنسان من بيانه ، فإن الأولى فى مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يحب الفاحش

---

(١) حديث : كيف ندى من لاشرب ولا أكل .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبى هريرة وأصلها عند البخارى أيضا .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

(٢) حديث « إياكم والفحش ... الحديث » أخرجه النسائى فى الكبرى فى التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبى هريرة (٣) حديث : النهى عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث محمد بن على الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائى من حديث ابن عباس باسناد صحيح : أن رجلا وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية فلطمه .. الحديث » وفيه « لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا » (٤) حديث « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى » أخرجه الترمذى باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى موقوفا قال الدارقطنى فى العلل والموقوف أصح (٥) حديث « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » أخرجه ابن أبى الدنيا وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى .. الحديث » وفيه « ان الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث شفى بن ماتع واختلف فى صحبته فذكره أبو نعيم فى الصحابة وذكره البخارى وابن حبان فى التابعين (٧) حديث « ياعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبى النضر عن أبى سلمة عنها . (٨) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبى أمامة وقد تقدم .

المتفحش الصياح فى الأسواق [١] ، وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبى أمامى فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام فى شىء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا [٢] » وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة فى صورة كلب أو فى جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوإ الداء : اللسان البذى والخلق الدنى ،

فهذه مذمة الفحش فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون مايقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حيي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير ، وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش وبعضها أفحش من بعض . وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما ، فإن هذا أيضا مما يخفى وكل مايخفى يستحيا منه فلا ينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش ، وكذلك يستحسن فى العادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجتك كذا بل يقال قيل فى الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد . فالتلطف فى هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير . بل يقال العارض الذى يشكوه وما يجرى مجراه ، فالتصريح بذلك داخل فى الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان .

قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ فى منطقه : فخرج تحت إبطه خراج فأتيناه نسأله لنرى مايقول ؟ فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد . والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشىء يعلمه فيك فلا تعيره بشىء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئا » قال : فما سببت شيئا بعده [٣] وقال عياض بن حمار : قلت يارسول الله إن الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « المتسابان شيطانان يتعاويان ويتهارجان [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « المستبان ماقالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه [٧] » وفى رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل

---

(١) حديث « إن الله لايحب الفاحش ولا المتفحش الصياح فى الأسواق » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله والطبرانى من حديث أسامة بن زيد « إن الله لايحب الفاحش المتفحش » وإسناده جيد (٢) حديث جابر بن سمرة « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شىء ... الحديث » أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا بإسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابى أوصنى فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشىء يعلمه فيك فلا تعيره بشىء تعلمه فيه . الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى بإسناد جيد من حديث أبى جرى الهجيمى قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر (٤) حديث عياض ابن حمار : قلت يارسول الله الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران » أخرجه أبو داود والطيالسى وأصله عند أحمد (٥) حديث « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٦) حديث « المستبان ماقالا فعلى البادىء حتى يعتدى المظلوم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال « مالم يعتد » (٧) حديث « ملعون من سب والديه » وفى رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

والديه ، قالوا يارسول الله كيف يسب الرجل والديه ؟ قال « يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه » .

الآفة الثامنة : اللعن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بلعان »[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم »[٢] ، وقال حذيفة : ماتلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول . وقال عمران بن حصين : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال صلى الله عليه وسلم « خذوا ماعليها وأعروها فإنها ملعونة »[٣] ، قال : فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس لايتعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : مالعن أحد الأرض إلا قالت : لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضى الله عنها : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال « يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب الكعبة - مرتين أو ثلاثا - »[٤] ، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : لاأعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة »[٥] ، وقال أنس : كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم « ياعبدالله لاتسر معنا على بعير ملعون »[٦] ، وقال ذلك إنكارا عليه . واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم ، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغى أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن فى اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عزوجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لايطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه .

والصفات المقتضية للعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفسق . وللعن فى كل واحدة ثلاث مراتب :

الأولى : اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والفسقة .

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أوعلى الزناة والظلمة وآكلى الربا ، وكل ذلك جائز . ولكن فى لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغى أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعى المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا .

الثالثة : اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنه الله ، وهو كافر أوفاسق أومبتدع ، والتفصيل

الآفة الثامنة : اللعن

(١) حديث « المؤمن ليس بلعان » تقدم حديث ابن مسعود « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ... الحديث » قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذى وحسنه من حديث ابن عمر « لايكون المؤمن لعانا » (٢) حديث « لاتلاعنوا بلعنة الله .. الحديث » أخرجه الترمذى وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذى : حسن صحيح (٣) حديث عمران بن حصين : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها ... الحديث » رواه مسلم .

(٤) حديث عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه وهو يلعن رقيقه فالتفت إليه فقال « ياأبا بكر لعانين وصديقين ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأى فيه . (٥) حديث « إن اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء

(٦) حديث أنس : كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون » أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد جيد

فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك . فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . وأما شخص بعينه فى زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ .

فإن قلت : يلعن لكونه كافرا فى الحال كما يقال للمسلم : رحمه الله ، لكونه مسلما فى الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد ؟ فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله : أى ثبته الله على الإسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو فى نفسه كفر ، بل الجائز أن يقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولا لعنه الله إن مات على الاسلام . وذلك غيب لا يدرى ، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر ، وليس فى ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا فى الكافر فهو فى زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب فى الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول فى دعائه على قريش « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة [1] » وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روى : أنه كان يلعن الذى قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهراً فنزل قوله تعالى « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون [2] » يعنى أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، فإن كان لم يجز كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبابكر رضى الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال . هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يارسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبى قحافة فقال أبوبكر . يكلمنى هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « اكفف عن أبى بكر ، فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال « يا أبابكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء ، فكف الناس عن ذلك [3] » وشرب نعيمان الخمر فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة . لعنه الله ما أكثر مايؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم « لا تكن عونا للشيطان على أخيك [4] » وفى رواية « لاتقل هذا فإنه يحب الله ورسوله » فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن

---

(١) حديث « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة » وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) أخرجه الشيخان من حديث أنس : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ... الحديث . وفى رواية لهما : قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان . . الحديث . ولهما من حديث أبى هريرة : وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ... الحديث « اللهم العن لحيان ورعلا ... الحديث » وفيه « ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شىء » لفظ مسلم .

(٣) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه ... الحديث » أخرجه أبو داود فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر : لمن هذا القبر ؟ قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبوبكر : لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يحاد الله ورسوله ... الحديث . وفيه « فإذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا » (٤) حديث : شرب نعيمان الخمر فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنه الله ما أكثر مايؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكن عونا للشيطان على أخيك » وفى رواية : « لاتقل هذا فإنه يحب الله ورسوله » أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ومحمد هذا ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك وللبخارى من حديث عمر : أن رجلا على عهد =

لعن فاسق بعينه غير جائز . وعلى الجملة فى لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولاخطر فى السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره .

فإن قيل . هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمر به ؟ قلنا . هذا لم يثبت أصلا فلايجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به مالم يثبت ، فضلا عن اللعنة ، لأنه لاتجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أوكفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم « لايرمى رجل رجلا بالكفر ولايرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ، إن كان كافرا فهو كما قال . وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه [٢] » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا . وقال معاذ : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماما عادلا ، والتعرض للأموات أشد [٣] » قال مسروق دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت . مافعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفى قالت : رحمه الله ، قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ماقدموا [٤] » وقال عليه السلام « لاتسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء [٥] » وقال عليه السلام « أيها الناس احفظونى فى أصحابى وإخوانى وأصهارى ولاتسبوهم ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا [٦] » .

فإن قيل ؛ فهل يجوز أن يقال . قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الآمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا . الصواب أن يقال . قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولايجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولاتنتهى إلى رتبة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس فى السكوت خطر فهو أولى .

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فالاشتغال

= رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده فى الشراب ، فأتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر مايؤتى به ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتلعنوه فوالله ماعلمت إلا أنه يحب الله ورسوله » من حديث أبى هريرة فى رجل شرب ولم يسم وفيه « لاتعينوا عليه الشيطان » وفى رواية « لاتكونوا عون الشيطان على أخيكم » (١) حديث « لايرمى رجل رجلا بالكفر ولايرميه بالفسق إلاارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » متفق عليه والسياق للبخارى من حديث أبى ذر مع تقديم ذكر الفسق (٢) حديث « ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا باء أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال ، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف .

(٣) حديث معاذ « أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا » أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى أثناء حديث له طويل (٤) حديث عائشة « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ماقدموا » أخرجه البخارى وذكر المصنف فى أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك فى الزهد والرقائق مع القصة (٥) حديث « لاتسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » أخرجه الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم (٦) حديث « أيها الناس احفظونى فى أصحابى وإخوانى وأصهارى ولاتسبوهم ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى « احفظونى فى أصحابى وأصهارى » وإسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة « لاتسبوا أصحابى » ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » وللنسائى من حديث عائشة « لاتذكروا موتاكم إلا بخير » وإسناده جيد .

بذكر الله أولى وإن لم يكن ففى السكوت سلامة .

قال مكى بن إبراهيم . كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا . ياابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة : لاإله إلا الله ولعن الله فلانا ، فلأن يخرج من صحيفتى لاإله إلا الله ، أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى فقال « أوصيك أن لاتكون لعانا [١] » وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لو قلت إنه مرفوع لم أبال ؟ وعن أبى قتادة قال : كان يقال « من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله [٢] » وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لاصحح الله جسمه ولاسلمه الله ومايجرى مجراه ، فإن ذلك مذموم . وفى الخبر « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة [٣] » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلا نعيده ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا [٤] » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له فى ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد فى صحيفتى شعر . وسئل بعضهم عن شىء من الشعر فقال : أجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة [٥] » نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب ، وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصارى بهجاء الكفار والتوسع فى المدح [٦] فإنه وإن كان كذبا فإنه لايلتحق فى التحريم بالكذب كقول الشاعر : ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة

---

(١) حديث قال رجل : أوصنى قال « أوصيك أن لاتكون لعانا » أخرجه أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الآحاد والثانى من حديث جرموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم (٢) حديث « لعن المؤمن كقتله » متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك (٣) حديث « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » لم أقف له على أصل وللترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

(٤) حديث « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة نحوه والبخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد (٥) حديث « إن من الشعر لحكمة » تقدم فى العلم وفى آداب السماع (٦) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين . متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم وجبريل معك » .

أغزل ، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت : فبهت فنظر إلى فقال « مالك بهت ؟ » فقلت : يارسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره قال « وما يقول ياعائشة أبو كبير الهذلى » قلت : يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبل مابين عينى وقال « جزاك الله خيرا ياعائشة ماسررت منى كسرورى منك [1] » ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعر له وفى آخره :

وماكان بدر ولا حابس يسودان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لايرفع

فقال صلى الله عليه وسلم « اقطعوا عنى لسانه » فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم « أتقول فى الشعر ؟ » فجعل يعتذر إليه ويقول : بأبى أنت وأمى إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بداً من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال « لاتدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين [2] » .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدراً يسيرا يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم « لاتمار أخاك ولاتمازحه [3] » فإن قلت : المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيباً للأخ والصديق أو تجهيلا له وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب

---

(١) حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت : فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا .. الحديث . وفيه إنشاد عائشة لشعر أبى كبير الهذلى :

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

(٢) حديث : لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره :

وماكان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم « اقطعوا عنى لسانه الحديث » أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لايرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد فى رواية أعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة «اقطعوا عنى لسانه» فليست فى شىء من الكتب المشهورة .

الآفة العاشرة : المزاح

(٣) حديث « لاتمار أخاك ولاتمازحه » أخرجه الترمذى وقد تقدم

قلب فلم ينهى عنه؟ فاعلم أنّ المنهى عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه. أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو عن هذه الأسور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا [(١)]» إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى فى النار أبعد من الثريا [(٢)]»، وقال عمر رضى الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه. ولأنّ الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا [(٣)]» وقال رجل لأخيه: ياأخى هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قيل فما رؤى ضاحكا حتى مات. وقال يوسف بن أسباط: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك. وقيل أقام عطاء السلمى أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون فى عيد فطر فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين؟ وإن كان لم يغفر لهم فما هـــذا فعل الخائفين؟ وكان عبد الله بن أبى يعلى يقول: اتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار؟ وقال ابن عباس: من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكى. وقال محمد بن واسع: إذا رأيت فى الجنة رجلا يبكى ألست تعجب من بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذى يضحك فى الدنيا ولا يدرى إلى ماذا يصير هو أعجب منه؟ فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا، والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السنّ ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] قال القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه، ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله فقيل: يارسول الله إن الأعرابى قد صرعه قلوصه وقد هلك، فقال «نعم، وأفواهكم ملأى من دمه [(٥)]» وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضى الله عنه: من مزح استخف به. وقال محمد بن المنكدر: قالت لى أمى يا بنى لا تمازح الصبيان فتهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه: يابنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنىء فيجترئ عليك. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رضى الله عنه: أتدرون لم سمى المزاح مزاحا؟ قالوا لا، قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء.

* فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه؟ فأقول: إن قدرت

---

(١) حديث «إنى أمزح ولا أقول إلا حقا» تقدم (٢) حديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا» تقدم (٣) حديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» متفق عليه من حديث أنس وعائشة (٤) حديث: كان ضحكه التبسم. تقدم (٥) حديث القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص صعب له فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله، فقيل يارسول الله إن الأعرابى قد صرعه قلوصه فهلك قال «نعم وأفواهكم ملأى من دمه» أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق وهو مرسل.

على ماقدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولاتقول إلا حقا ولاتؤذى قلبا ولاتفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد ، وهو خطأ إذ من الصغائر مايصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات مايصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغى أن يغفل عن هذا (١) نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يارسول الله إنك تداعبنا فقال « إنى وإن داعبتكم لاأقول إلاحقا (٢) » وقال عطاء : إن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال : نعم ، قال : فما كان مزاحه ؟ قال: كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها « البسيه واحمدى وجرّى منه ذيلا كذيل العروس (٣) » وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه (٤) وروى أنه كان كثير التبسم (٥) وعن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة عجوز » فبكت فقال « إنك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا﴾ (٦) » وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجى يدعوك ، قال « ومن هو أهو الذى بعينه بياض ؟ » قالت : والله ما بعينه بياض ! فقال « بلى إن بعينه بياضا » فقالت : لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا وبعينه بياض » وأراد به البياض المحيط بالحدقة (٧) وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله احملنى على بعير فقال « بل نحملك على ابن البعير » فقالت ما أصنع به إنه لايحملنى فقال صلى الله عليه وسلم « ما من بعير إلا وهو ابن بعير (٨) » فكان يمزح به وقال أنس : كان لأبى طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول « يا أبا عمير مافعل النغير (٩) » النغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضى الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال « تعالى حتى أسابقك » فشددت درعى على بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال « هذه مكان ذى المجاز (١٠) » وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشىء فقال « اعطينيه » فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى وقالت أيضا : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال « هذه بتلك (١١) » وقالت أيضا رضى الله عنها . كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة : كلى ، فقالت لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقته ، فأخذت

---

(١) حديث : إذنه لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد تقدم . (٢) حديث أبي هريرة : قالوا إنك تداعبنا قال « إنى وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقا » أخرجه الترمذى وحسنه . (٣) حديث عطاء : إن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس : نعم ... الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه « البسيه واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس » لم أقف عليه (٤) حديث أنس : كان من أفكه الناس . تقدم (٥) حديث « أنه كان كثير التبسم » تقدم (٦) حديث الحسن « لايدخل الجنة عجوز » أخرجه الترمذى فى الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزى فى الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف . (٧) حديث زيد بن أسلم : فى قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجى يدعوك « أهو الذى بعينه بياض... الحديث » أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهرى مع اختلاف

(٨) حديث : قوله لامرأة استحملته « نحملك على ابن البعير ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ « أنا حاملك على ولد الناقة » (٩) حديث أنس « أبا عمير مافعل النغير ؟ » متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوة

(١٠) حديث عائشة : فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال « هذه مكان ذى المجاز » لم أجده أصلا ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر (١١) حديث عائشة : سابقنى فسبقته . أخرجه النسائى وابن ماجه وقد تقدم فى النكاح

بيدى من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك [1] وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى كان رجلا دميما قبيحا ، فلما بايعه النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء - وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب - أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع ، فقالت : أهى أحسن أم أنت ؟ فقال : بل أنا أحسن منها وأكرم ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما [2] . وروى علقمة عن أبى سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن ابن على عليهما السلام فيرى الصبى لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزارى : والله ليكونن لى الابن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط ! فقال صلى الله عليه وسلم « إن من لا يرحم لا يرحم » [3] فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم » [4] ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى أن خوات ابن جبير الأنصارى كان جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة ؟ » فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ، قال : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ »، قال : فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه ، حتى قدمت المدينة وبعد ماقدمت المدينة قال : فرآنى فى المسجد يوما أصلى فجلس إلى فطولت فقال « لا تطول فإنى أنتظرك » ، فلما سلمت قال يا أبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟» ، قال : فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقنى يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه فى شق واحد. فقال « أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ » فقلت والذى بعثك بالحق ماشرد منذ أسلمت فقال « الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله » ، قال : فحسن إسلامه وهداه الله [5] وكان نعيمان الأنصارى رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر فى المدينة فيؤتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فلما كثر ذلك منه

---

(١) حديث عائشه : فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك . أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد (٢) حديث : ان الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة - قبل أن يضرب الحجاب - فقالت أهى أحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما . أخرجه الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلا أو معضلا وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث أبى سلمة عن أبى هريرة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن على فيرى الصبى فيهش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزارى : والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه وما قبلته قط ! فقال « إن من لا يرحم لا يرحم » أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون مافى آخره من قول عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده . وحكى الخطيب فى المبهمات قولين فى قائل ذلك أحدهما : أنه عيينة بن حصن ، والثانى : أنه الاقرع بن حابس . وعند مسلم من رواية الزهرى عن أبى سلمه عن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » (٤) حديث : قال لصهيب وبه رمد « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ » فقال : انما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم . أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٥) حديث : ان خوات بن جبير كان جالسا الى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ » فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ... الحديث ، أخرجه الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات : ربيعة بن عمرو

قال له رجل من الصحابة : لعنك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله » وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : يارسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يارسول الله أعطه ثمن متاعه ، فيقول له صلى الله عليه وسلم « أو لم تهده لنا » فيقول : يارسول الله إنه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه ، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه [1] فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب .

الآفة الحادية عشر : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾ ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه : وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما أحب أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا [2] » وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبدالله بن زمعة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال « علام يضحك أحدكم مما يفعل [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه [4] » وقال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله [5] » وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له . وعليه نبه قوله تعالى ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك .

وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح - وقد سبق مايذم منه وما يمدح - وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما

---

(١) حديث : كان نعيمان رجلا مزاحا وكان يشرب الخمر فيؤتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فيضربه ... الحديث . وفيه : أنه كان يشترى الشيء ويهديه الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجئ بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه .. الحديث . أخرجه الزبير بن بكار فى الفكاهة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

(٢) حديث عائشة : حكيت انسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم « مايسرنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه (٣) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال « علام يضحك أحدكم مما يفعل » متفق . (٤) حديث « ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه فى تماليات النجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس (٥) حديث معاذ بن جبل « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » أخرجه الترمذى دون قوله « قد تاب منه » وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال أحمد بن منيع قالوا « من ذنب قد تاب منه » ،

فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أوعلى أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها

الآفة الثانية عشر : إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة (١) » وقال مطلقا « الحديث بينكم أمانة (٢) » وقال الحسن : إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك . ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه : ياأبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا وما أراه يطوى عنك مابسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثنى به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه قال : فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لاوالله يابنى ولكن أحب أن لاتذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأتيت معاوية فأخبرته فقال : ياوليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فإفشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار . ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا مايتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة .

الآفة الثالثة عشر : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لاتسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم العدة عطية (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم الوأى مثل الدين أو أفضل (٤) » والوأى : الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ قيل إنه وعد إنسانا فى موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسى ، فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره . ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابنتى رجل من قريش وقد كان إليه منى شبه الوعد ، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق ! أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى . وعن عبد الله بن أبى الخنساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال « يافتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك (٥) » وقيل

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

(١) حديث « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر .
(٢) حديث « الحديث بينكم أمانة » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

(٣) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا (٤) حديث « الوأى مثل الدين أو أفضل » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبى الخنساء : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال « يابنى قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » رواه أبو داود واختلف فى اسناده وقال ابن مهدى ما أظن ابراهيم بن طهمان الا أخطأ فيه .

لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجىء، قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدا قال «عسى»[١] وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق. وقال أبو هريرة: قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»[٢]، وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[٣]، وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما؛ فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحدا، فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول: ألا ترى أثر الرحى بيدى؟ فذكر موعده لأبى الهيثم فجعل يقول «كيف بموعدى لأبى الهيثم؟»[٤]، فآثره به على فاطمة ـ لما كان قد سبق من موعده له ـ مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة. ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لى عندك موعدا يارسول الله قال «صدقت، فاحتكم ماشئت» فقال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها، قال «هى لك» وقال «احتكمت يسيرا»[٥] ولصاحبة موسى عليه السلام التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمى أن تردنى شابة وأدخل معك الجنة، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعلا مثلا فقيل: أشح من صاحب الثمانين والراعى. وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى»[٦]، وفى لفظ آخر «إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه».

الآفة الرابعة عشرة: الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. قال اسمعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ـ ثم بكى ـ

---

(١) حديث: كان إذا وعد وعدا قال «عسى» لم أجد له أصلا (٢) حديث أبى هريرة «ثلاث من كن فيه فهو منافق ... الحديث وفيه «إذا وعد أخلف» متفق عليه وقد تقدم.

(٣) حديث عبد الله بن عمرو «أربع من كن فيه كان منافقا... الحديث» متفق عليه (٤) حديث: كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما؛ فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحدا، فجاءت فاطمة تطلب منه .. الحديث. وفيه فجعل يقول «كيف بموعدى لأبى الهيثم» فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة (٥) حديث: أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال: إن لى عندك موعدا، قال: «صدقت فاحتكم ماشئت ... الحديث» وفيه «لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك... الحديث» أخرجه ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر. (٦) حديث «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى» وفى لفظ آخر «إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه» أخرجه أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى إلا أنهما قالا «فلم يف»

وقال « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار [١] » وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق [٢] » وقال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب [٣] » وقال ابن مسعود : قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عندالله كذابا [٤] » ومر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما : والله لاأنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر : والله لأزيدك على كذا وكذا ، بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال « أوجب أحدهما بالإثم والكفارة [٥] » وقال عليه السلام « الكذب ينقص الرزق [٦] » وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن التجار هم الفجار » فقيل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع ؟ قال « نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون [٧] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم : المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره [٨] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة [٩] » وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يحبهم الله : رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا . فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل . وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البياع الحلاف ، والفقير المختال والبخيل المنان [١٠] » وقال صلى الله عليه وسلم « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له [١١]

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

(١) حديث أبى بكر الصديق : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول — ثم بكى — وقال « اياكم والكذب الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبى بكر وانما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط واسناده حسن (٢) حديث أبى أمامة « ان الكذب باب من أبواب النفاق » أخرجه ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أربع من كن فيه كان منافقا » قال فى كل منهما « واذا حدث كذب » وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها .

(٣) حديث « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان باسناد جيد .

(٤) حديث ابن مسعود « لايزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا » متفق عليه (٥) حديث . مر برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ... الحديث ، وفيه فقال « أوجب أحدهما بالإثم والكفارة » أخرجه أبو الفتح الأزدى فى كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى وهكذا رويناها فى أمالى ابن سمعون وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله ابن ناسخ (٦) حديث « الكذب ينقص الرزق » أخرجه أبو الشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أبى هريرة ورويناه كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر وإسناده ضعيف (٧) حديث « إن التجار هم الفجار ... الحديث » وفيه « ويحدثون فيكذبون » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن شبل (٨) حديث « ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر اليهم : المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل ازاره » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر (٩) حديث « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس (١٠) حديث أبى ذر « ثلاثة يحبهم الله ... الحديث » وفيه « وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف » أخرجه أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولايعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر بإسناد جيد وللنسائى من حديث أبى هريرة « أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف .. الحديث » وإسناده جيد (١١) حديث « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان ، فقلت للذى أقامنى ماهذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة [١] » وعن عبدالله بن جراد قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت يارسول الله هل يزنى المؤمن ؟ قال « قد يكون ذلك » قال : يانبى الله هل يكذب المؤمن ؟ قال « لا » ثم اتبعها صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقول الله تعالى ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ [٢] وقال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعو فيقول فى دعائه « اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب [٣] » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ثلاثة لايكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر [٤] » وقال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فقالت أمى . ياعبدالله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وما أردت أن تعطيه » قالت تمراً ، فقال « أما إنك لولم تفعلى لكتبت عليك كذبة [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « لوأفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا « ألاأنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال « إلاوقول الزور [٧] » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به [٨] » وقال أنس . قال النبى صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بست اتقبل لكم بالجنة » فقالوا وما هى ؟ قال « إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم [٩] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب . وأما كحله فالنوم [١٠] » وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامى هذا فيكم فقال « احسنوا إلى أصحابى

---

(١) حديث « رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث طويل (٢) حديث عبدالله ابن جراد : أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن ؟ قال « قد يكون من ذلك » قال : هل يكذب ؟ قال « لا » ... الحديث أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء .

(٣) حديث أبى سعيد « اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب » هكذا وقع فى نسخ الإحياء عن أبى سعيد وإنما هو عن أم معبد وكذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله « وفرجى من الزنا » وزاد « وعملى من الرياء وعينى من الخيانة وإسناده ضعيف (٤) حديث « ثلاثة لايكلمهم الله ولاينظر إليهم ... الحديث » وفيه « والإمام الكذاب » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٥) حديث عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فقالت أمى : ياعبد الله تعال أعطك فقال « وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا فقال « إن لم تفعلى كتبت عليك كذبة » رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه . قلت : وله شاهد من حديث أبى هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهرى لم يسمع من أبى هريرة (٦) حديث « لوأفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولاجبانا » رواه مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة (٧) حديث « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ... الحديث » وفيه ألا « وقول الزور » متفق عليه من حديث أبى بكرة (٨) حديث ابن عمر « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب .

(٩) حديث أنس « تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ... الحديث » أخرجه الحاكم فى المستدرك والخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائى ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد .

(١٠) حديث « إن للشيطان كحلا ولعوقا ... الحديث » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد [١] » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان [٣] » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب [٥] » وقالت عائشة رضى الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها [٦] . وقال موسى عليه السلام : يارب أى عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه : يابنى إياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام فى مدح الصدق « أربع إذا كن فيك لا يضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة [٧] » وقال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول - ثم بكى - وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما فى الجنة [٨] » وقال معاذ : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح [٩] » .

وأما الآثار : فقد قال على رضى الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى . وقال عمر رضى الله عنه : أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبى شبيب قال جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ وقال الشعبي : ماأدرى أيهما ابعد غور فى النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السماك : ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى إنما أدعه أنفه . وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كذابا بكذبة واحدة ؟ قال : نعم وقال مالك بن دينار : قرأت فى بعض الكتب مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقا صدق وإن

---

(١) حديث : خطب عمر بالجابية ... الحديث . وفيه « ثم يفشو الكذب » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٢) حديث « من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين » أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٣) حديث « من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث : أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها . أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل (٥) حديث على « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث أبى أمامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبى وقاص وابن عمر أيضاً وأبى أمامه أيضاً ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطنى فى العلل (٦) حديث : ما كان من خلق الله شىء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة . أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبى مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهو صحيح (٧) حديث « أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث ... الحديث » أخرجه الحاكم والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة (٨) حديث أبى بكر « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما فى الجنة » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وقد تقدم بعضه فى أول هذا النوع (٩) حديث معاذ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية وقد تقدم .

كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبدالملك فى شىء فقال له : كذبت ، فقال عمر: والله ماكذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان مارخص فيه من الكذب

أعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا .

قال ميمون بن مهران : الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال : أرأيت فلانا ؟ ماكنت قائلا ؟ ألست تقول : لم أره ؟ وما تصدق به . وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فمهما كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لايتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغى أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى مايستغنى عنه وإلى مالا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون الكذب حراما فى الأصل إلا لضرورة .

والذى يدل على الاستثناء ماروى عن أم كلثوم قالت : ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها [1] وقالت أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً [2] » وقالت أسماء بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما [3] » وروى عن أبى كاهل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ! فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ياأباكاهل أصلح بين الناس [4] » اى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال « لاخير فى الكذب » قال : أعدها وأقول لها ، قال « لاجناح عليك [5] » .

---

(١) حديث أم كلثوم : ماسمعته يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث . أخرجه مسلم وقد تقدم (٢) حديث أم كلثوم أيضاً « ليس بكذاب من أصلح بين الناس ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم ، والذى قبله عند مسلم بعض هذا (٣) حديث أسماء بنت يزيد « كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما » أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه . (٤) حديث أبى كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام ... الحديث . وفيه « ياأبا كاهل أصلح بين الناس » رواه الطبرانى ولم يصح (٥) حديث عطاء بن يسار : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال « لاخير فى الكذب » قال : أعدها وأقول لها ، قال « لاجناح عليك » أخرجه ابن عبدالبر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضيني ؟ قالت : لاتنشدني ، قال : فإني أنشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال : إنكم لتحدثون إني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال : أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب ، أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم فاكذبي فإن كانت إحداكن لاتحب أحدنا فلا تحدثه بذلك ، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب .

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم لامحالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها[(٣)] » وقال ثوبان الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا . وقال علي رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ماعداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك ، فيقول : مازنيت وماسرقت . وقال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله[(٤)] » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا .

وأما عرض غيره : فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لاتطاوعه إلا بوعد لايقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لايطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ماأمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به ؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها

---

(١) حديث النواس بن سمعان « مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب مكتوب ... الحديث» أخرجه أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ « تتايعون » الى قوله « في النار » دون مابعده فرواه الطبراني وفيهما شهر بن حوشب . (٢) حديث « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » الحاكم من حديث عمر بلفظ « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله » وإسناده حسن .

محذورا ، حتى إن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرة وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارها بذلك فهل على شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطعم بما لايطعم أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة[2] » ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لايتحققه ، وروايته الحديث الذى لايتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدرى ، وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبى إذا كان لايرغب فى المكتب إلا بوعد أو وعيد أوتخويف كاذب كان ذلك مباحا . نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه وإنما يتعلل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لايجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض . إذ قال صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[3] » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذ شره أصلى . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض ما يكفى الرجل عن الكذب ؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ما روى أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال : مارفعت جنبى مذ فارقت الأمير إلا مارفعنى الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إن الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء . فيكون قوله « ما » حرف نفى عند المستمع ، وعنده الإبهام . وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتى به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء . فقال : كان عندى ضاغط ، قالت : كنت أميناً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر رضى الله عنه . فبعث عمر

---

(١) حديث أسماء : قالت امرأة : ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل.. الحديث . متفق عليه وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق (٢) حديث « من تطعم بما لايطعم وقال لى وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة » لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم .

معك ضاغطا ؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر ، فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال : بعثت معك ضاغطا ؟ قال : لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا فقال . أرضها به ـ ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقيبا وأراد به الله تعالى ـ وكان النخعى لا يقول لابنته : أشترى لك سكراً بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكرا ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار قال للجارية : قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى له ليس ههنا كيلا يكون كذبا . وكان الشعبى إذا طلب فى المنزل هو يكرهه خط دائرة وقال للجارية : ضعى الأصبع فيها وقولى ليس ههنا . وهذا كله فى موضع الحاجة فأما فى غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبدالله بن عتبة قال : دخلت مع أبى على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب ، فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا ، فقال لى أبى يا بنى اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأنّ فيه تقريرا لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه .

نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة عجوز [1] » وقوله للأخرى « الذى فى عين زوجك بياض » وللأخرى « نحملك على ولد البعير » وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الأنصارى مع عثمان فى قصة الضرير إذ قال له إنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجك ؛ فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه [2] » وأما قوله عليه السلام « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها فى النار أبعد من الثريا [3] » أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ما جرت به العادة فى المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا ، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها فى الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب . ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول : لا أشتهيه ؛ وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد : قالت أسماء بنت عميس ، كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى نسوة قالت : فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن ، فشرب ثم ناوله عائشة ، قالت : فاستحييت الجارية فقلت : لا تردّى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال « ناولى صواحبك » فقلن : لا نشتهيه ، فقال « لا تجمعن جوعا وكذبا » قالت : فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا ؟ قال

(١) حديث « لايدخل الجنة عجوز » وحديث « فى عين زوجك بياض » وحديث « نحملك على ولد البعير » تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة (٢) حديث « لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه » ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة الذمارى وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس « لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وللدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث أبى هريرة « لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه » قال أحمد بن حنبل منكر (٣) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا » تقدم فى الآفة الثالثة .

« إن الكذب ليكتب كذبا ، حتى تكتب الكذيبة كذيبة (١) » وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك فأقول : لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه فى الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمى قال : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يابنى ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعتيه ؟ قالت : لا ، قال : ماعليك لو قلت ، ياابن أخى فصدقت ؟ ومن العادة أن يقول : يعلم الله ، فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام: إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم ، لما لا يعلم . وربما يكذب فى حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام « إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام ما لم ير أو يقول على مالم أقل (٢) » وقال عليه السلام « من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبدا (٣) »

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

والنظر فيها طويل فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ وقال عليه السلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (٤) » والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزة : قال عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا (٥) » وعن جابر وأبى سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشدّ من الزنا ، فإن الرجل يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه (٦) » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة سرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم (٧) » وقال سليم بن جابر : أتيت النبى عليه الصلاة والسلام فقلت علمنى خيراً أنتفع به ، فقال « لا تحقرن

---

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس : كنت صاحبة عائشة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث وفيه « قال لاتجمعن جوعا وكذبا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب ، فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن فى طبقات الأصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء بن أبى رباح عن أسماء بنت عميس : زففنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه .. الحديث . فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك (٢) حديث « ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم تريا أو يقول على ما لم أقل » أخرجه البخارى من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر « من أفرى الفرى أن يرى عينيه ما لم تريا » (٣) حديث « من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرة » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

(٤) حديث « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٥) « لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله « ولا يغتب بعضكم بعضاً » وقد تقدم فى آداب الصحبة (٦) حديث جابر وأبى سعيد « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير . (٧) حديث أنس « مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ... الحديث » أخرجه أبو داود مسندا ومرسلا والمسند أصح .

من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي ، وأن تلقى أخاك ببشر حسن وإن أدبر فلا تغتابنه[١] » وقال البراء : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته[٢] » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام : من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار . وقال أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له » فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول : يا رسول الله ظللت صائما فائذن لي لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا ! فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فقال « إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس ؟ اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار[٣] » وفي رواية : أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يارسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم « ائتوني بهما » فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لإحداهما « قيئي » فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى « قيئي » فقاءت كذلك ، فقال « إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس[٤] » وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربى الربا عرض المسلم[٥] » وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال « إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله » فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال « أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين - أو ما لم ييبسا -[٦] » . ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب ، فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال « انهشا منها » فقالا : يارسول الله ننهش

---

(١) حديث سليم بن جابر : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمني خيرا ينفعني الله به . . . الحديث . أخرجه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد « وإذا أدبر فلا يغتابه » وفي إسنادها ضعف (٢) حديث البراء « يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد (٣) حديث أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس ... الحديث » في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ويزيد ضعيف (٤) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه « إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . . الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المتهم (٥) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه ... الحديث . وفيه « وأربى الربا عرض الرجل المسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف .

(٦) حديث جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال « أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة . وللطيالسي فيه « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه بإسناد جيد .

جيفة ؟ فقال « ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه »[1] وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة : من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله فينضج ويكلح[2] وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك . فقالا : لقد بقى فيه منه شىء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس ، فحاك فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال فى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ الهمزة : الطعان فى الناس ، واللمزة : الذى يأكل لحوم الناس . وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لايرون العبادة فى الصوم ولافى الصلاة ولكن فى الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه . وكان الحسن يقول : ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

بيان معنى الغيبة وحدودها

أعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أوفى خلقه أوفى فعله أوفى قوله أو فى دينه أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته .

أما البدن : فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب : فبأن تقول أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أوخسيس أوإسكاف أو زبال ، أوشىء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق : فبأن تقول هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين : فكقولك هوسارق أوكذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لايحسن الركوع أو السجود أو لايحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لايضع الزكاة موضعها أو لايحسن قسمها أو لايحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا : فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس ، أو لايرى لأحد

(١) حديث : قوله للرجل الذى قال لصاحبه فى حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال « انهشا منها... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة نحوه باسناد جيد (٢) حديث أبى هريرة « من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ... الحديث » أخرجه ابن مردويه فى التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة .

على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لاغيبة فى الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز ، بدليل ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال « هى فى النار [1] » وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فما خيرها إذن [2] » فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه ، بدليل ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « ذكرك أخاك بما يكرهه » قيل : أرأيت إن كان فى أخى ماأقوله ؟ قال « إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته [3] » وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما أعجزه ! فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم » قالوا يارسول الله قلنا ما فيه ، قال « إن قلتم ماليس فيه فقد بهتموه [4] » وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها [5] » وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك ، وكل فى كتاب الله عزوجل ؛ فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول ماليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلا فقال : ذاك الرجل الأسود ، ثم قال أستغفر الله إنى أرانى قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور . وقالت عائشة لايغتابن أحدكم أحدا فإنى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فقال لى « الفظى الفظى » فلفظت مضغة لحم [6] » .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه ، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول ، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل مايفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدى أنها قصيرة فقال عليه

---

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال « هى فى النار » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة (٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال « فما خيرها إذن » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه فى أمالى ابن شمعون هكذا (٣) حديث « هل تدرون ماالغيبة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « ذكرك أخاك بما يكره ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث معاذ : ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ... الحديث . أخرجه الطبرانى بسند ضعيف (٥) حديث عائشة : أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال « اغتبتيها » رواه أحمد وأصله عند أبى داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى واسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب (٦) حديث عائشة : قلت لامرأة وإن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم « الفظى » فلفظت بضعة من لحم . أخرجه ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لاأعرفها .

السلام « اغتبتيها [١] » ومن ذلك المحاكاة يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم فى التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال « مايسرنى أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا [٢] » . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شىء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ـ كما سيأتى بيانه ـ وأما قوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا [٣] » فكان لايعين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ماأحسن أحوال فلان : ماكان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون مغتابا ومرائياً ومزكياً نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ماأعجب هذا ! حتى يصغى إليه ويعلم مايقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة فى تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا . وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروّح نفسه ، فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يغتم به لاغتم أيضا بإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفى قصده ، وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ماعلمت أنه كذلك ! ماعرفته إلى الآن إلا بالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه ، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك

---

(١) حديث عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قد اغتبتيها » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات (٢) حديث « مايسرنى أنى حكيت ولى كذا وكذا » تقدم فى الآفة الحادية عشرة (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئا قال « مابال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله « وكان لا يعينه » ورجاله رجال الصحيح .

المغتاب . قال صلى الله عليه وسلم « المستمع أحد المغتابين [١] » وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانا لنئوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز فقال صلى الله عليه وسلم « قد ائتدمتما ! » فقالا : مانعلمه ؟ قال « بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما [٢] » فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما . أقعص الرجل كما يقعص الكلب « انهشا من هذه الجيفة [٣] » فجمع بينهما فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أوبقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أوقطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ، ولايخرجه من الإثم مالم يكرهه بقلبه ، ولايكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أويشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقار للمذكور بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق [٤] » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة [٥] » وقال أيضاً « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار [٦] » وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا : ثمانية منها تطرد فى حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية ؛ فالأول أن يشفى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثانى : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارا للمساهمة فى السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى .

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم ، أويشهد عليه بشهادة

---

(١) حديث « المستمع أحد المغتابين » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة . وهو ضعيف (٢) حديث : أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لنئوم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قد ائتدمتما ؟ » فقالا : ما نعلم ؟ فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما » أخرجه أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه (٣) حديث « انهشا من هذه الميتة » قاله للرجلين اللذين قال أحدهما: اقعص كما يقعص الكلب . تقدم قبل هذا باثنى عشر حديثا (٤) حديث « من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (٥) حديث أبى الدرداء « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ « رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » وفى رواية له « كان له حجابا من النار » وكلاهما ضعيف (٦) حديث « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » أخرجه والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتى الكذب ، فإنى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله ، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف : وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق .

السابع : اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ! فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدرى . ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة ؟ وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل ؟ .

الثانى : الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول : مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدرى ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى . كان عذرا فى ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم – كما سيأتى ذكره – روى عن عامر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله لننبئنه ، ثم قالوا : يافلان لرجل منهم ـ قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ماقال وسأله أن يدعوه له ، فدعاه وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « لم تبغضه ؟ » فقال : أنا جاره وأنا به خابر ، والله مارأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال ؟لا، فقال : والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً ؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله مارأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « قم فلعله خير منك (١) » .

بيان العلاج الذى يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل :

أما على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم « ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد (٢) » وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ، فقال : مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى . فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضاً أن يتدبر فى نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس (٣) » ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : ياقبيح الوجه ، قال : ماكان خلق وجهى إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فإذا كان لايرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لايرضى لغيره مالايرضاه لنفسه. فهذه معالجات جملية.

---

(١) حديث عامر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله ... الحديث بطوله . وفيه فقال « قم فلعله خير منك » أخرجه أحمد بإسناد صحيح

(٢) حديث « ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد » لم أجد له أصلا . (٣) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب .

أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إنى إذا أمضيت غضبى عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنّ لجهنم بابا لايدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء (٣) » وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق .

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى ؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة .

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك . ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهى أيضاً تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت : العنز أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل ، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك .

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً .

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد ، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضاً خاسرا فى الآخرة

---

(١) حديث « إن لجهنم بابا لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله » أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه فى الأربعين البلدانية للسلفى (٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك . فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لاتضره غيبتك وتضرك ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ! ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فإنك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك إبليس فأضلك ، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ماهو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما ، وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لايوجد الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت ؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ! وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التى هى من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسىء الظن بأخيك ، ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لايقبل التأويل ، فعند ذلك لايمكنك إلا أن تعتقد ماعلمته وشاهدته ، ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع فى قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذبه فإنه أفسق الفساق ، وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق فى خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به ، حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وماشربها ، أوحمل عليه قهرا ، فكل ذلك لامحالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب

وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء [١] » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مارأيته منه يحتمل الخير والشر .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه ؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه [٢] » أى لا يحققه فى نفسه بعقد ولا فعل لا فى القلب ولا فى الجوارح . أما فى القلب : فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما فى الجوارح : فبالعمل بموجبه . والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته .

وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا ، لأنك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسىء بالآخر . نعم ينبغى أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه ؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو [٣] فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول فى نفسك : المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى ، وكان أمره محجوبا عنى وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شىء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم ، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل ، فإن المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق .

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة . ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار وترتفع عليه ، بإيذاء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك : وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الإعانة له على دينه .

---

(١) حديث « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر . (٢) حديث « ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج » أخرجه الطبرانى من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو » أخرجه الترمذى من حديث عائشة وضعفه « لاتجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غمر لأخيه » وفيه « ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة » ولأبى داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغمر على أخيه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهى عنه ، قال الله تعالى ﴿ولا تجسسوا﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه . وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهى ستة أمور :

الأول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم « إن لصاحب الحق مقالا [1] » وقال عليه السلام « مطل الغنى ظلم [2] » وقال عليه السلام « لى الواجد يحل عقوبته وعرضه [3] » .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان ـ وقيل على طلحة ـ رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ الآية فتاب ، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما .

الثالث : الاستفتاء كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص ؟ والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه فقال « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف [4] » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن سكوتك ضرر المشترى وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا ، وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد

---

(١) حديث « لصاحب الحق مقال » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « مطل الغنى ظلم » متفق عليه من حديثه
(٣) حديث « لى الواجد يحل عرضه وعقوبته » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح
(٤) حديث : أن هندا قالت أن أبا سفيان رجل شحيح . متفق عليه من حديث عائشة .

الوقيعة . فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لاينزجر إلابالتصريح بعيبه فله أن يصرح به ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس (١) » وكانوا يقولون ثلاثة لاغيبة لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول روى أبوالزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، ومايجرى مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قدصار بحيث لايكرهه صاحبه لوعلمه بعد أن قد صار مشهورا به . نعم إن وجدعنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولا عن اسم النقص .

السادس : أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لايستنكف . من أن يذكر له ولايكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه مايتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلاغيبة له (٢) » وقال عمر رضى الله عنه . ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذا المستتر لابد من مراعاة حرمته . وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لاغيبه لهم ؛ صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر فهؤلاء الثلاثة يجمعهم انهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لوذكره بغيرما يتظاهر به اثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال : إن الله حكم عدل ، ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على مافعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ! وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله ؟ إذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفى الباطن لايكون نادما ، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن . يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدل فى ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كفارة من اغتبته أن تستغفر له (٣) »وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك : أن تثنى عليه وتدعوله بخير . وسئل عطاء بن أبى رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشى إلى صاحبك فتقول له ؛ كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح : وقول القائل : العرض لاعوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب فى العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به . بل فى الحديث الصحيح ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أومال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار

---

(١) حديث « أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس » أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله « حتى يعرفه الناس » ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت . (٢) حديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم (٣) حديث « كفارة من اغتبته أن تستغفر له » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بسند ضعيف

ولا درهم ، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته [١] » وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل : قد اغتبتيها فاستحليها . فإذن لابد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ . فأقول : لا ، لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه ، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة .

وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب . لا أحلل من ظلمنى . وقال ابن سيرين : إنى لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدا .

فإن قلت : فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن ؟ فنقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة .

فإن قلت : فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس [٢] » فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه ؟ فنقول : معناه إنى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه ، وإلا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك . بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل .

قال الحسن إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا . وقد قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ياجبريل ماهذا العفو ؟ » فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك [٣] . وروى عن الحسن أن رجلا قال له : إن فلانا قد اغتابك فبعث إليه رطبا على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ ثم قال ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال عبدالله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ والزنيم هو الدعى وقال تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قيل الهمزة : النمام ،

---

(١) حديث « من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى تصدقت بعرضى على الناس » أخرجه البزار وابن السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة قلت وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

(٣) حديث . نزول (خذ العفو) الآية فقال ياجبريل « ما هذا » فقال ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك : تقدم فى رياضة النفس .

وقال تعالى ﴿ حمالة الحطب ﴾ قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى ﴿ فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ﴾ قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام (١) » وفى حديث آخر « لايدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الإخوان ، الملتمسون للبرءاء العثرات (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراركم » قالوا : بلى ، قال « المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرءاء العيب (٣) » وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة (٤) » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار (٥) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار (٦) » ويقال : إن ثلث عذاب القبر من النميمة . وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى فقالت سعد من دخلنى فقال الجبار جل جلاله وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية نفر من الناس ، لايسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطى ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذى يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به (٧) » وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه : إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة . فقال موسى : يارب من هو ؟ دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا . قال : ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ، فتابوا جميعا فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة

الآفة السادسة عشرة : النميمة

(١) حديث « لايدخل الجنة نمام » وفى حديث آخر « قتات » متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٢) حديث أبى هريرة « وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والصغير وتقدم فى آداب الصحبة (٣) حديث « ألا أخبركم بشراركم » قالوا بلى ، قال « المشاءون بالنميمة ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم

(٤) حديث أبى ذر « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الأخلاق وفيه عبدالله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث (٥) حديث أبى الدرداء « أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار .. أخرجه ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء . ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم

(٦) حديث أبى هريرة « من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا وفى رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبى الدنيا فى الاسناد . (٧) حديث ابن عمر « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت : سعد من دخلنى قال الجبار : وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية » فذكر منها « ولا قتات » وهو النمام ، لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد « لايدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث » وللنسائى من حديث عبد الله بن عمرو « لايدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » وللشيخين من حديث حذيفة « لايدخل الجنة قتات » ولهما من حديث جبير بن مطعم « لايدخل الجنة قاطع » وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمى تزينى فتزينت . فقالت : طوبى لمن دخلنى ورضى عنه الملك ، فقال الله عز وجل : لاسكنك مخنث ولا نائحة »

إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

بيان حد النميمة وما يجب فى ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به . بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر ، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً فى المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له ، أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا أو فعل فى حقك كذا أو هو يدبر فى إفساد أمرك أو فى ممالاة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور ، الأول : أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ الثانى : أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ الثالث : أن يبغضه فى الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى . الرابع : أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ الخامس : أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقق ، اتباعا لقول الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ السادس : أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكى نميمته فتقول فلان قد حكى لى كذا وكذا ، فتكون به نماما ومغتابا وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا . وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم : قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات ، بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبي الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فى وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت ؟ فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق ، فقال له الزهرى : لا يكون النمام صادقا ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال للرجل : اذهب بسلام.

وقال الحسن من نم إليك نم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغى أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعون فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ؟ وقال تعالى ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس

من اتقاه الناس لشره [1] » والنمام منهم . وقال « لا يدخل الجنة قاطع » قيل وما القاطع ؟ قال « قاطع بين الناس [2] » وهو النمام وقيل قاطع الرحم .

وروى عن على رضى الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقا مقتناك وإن كنت كاذبا عاقبناك وإن شئت أن نقيلك أقلناك ، فقال : أقلني يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظى أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبدالله ابن عامر — وكان أميرا — بلغني أن فلانا أعلم الأمير أني ذكرته بسوء ، قال : قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك ؟ قال : ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى وحسبي أنى لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال .

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة . والسعاية هى النميمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم « الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة [3] » يعنى ليس بولد حلال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام وقال : إنى مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ماتحب إن قبلته ، فقال : قل ، فقال : ياأمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا فى الأمة خسفا وفى الأمانة تضييعا والأعراض قطعاً وانتهاكا ، أعلى قربهم البغى والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره . وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبدالملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليا فخنت وإما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد : إن الأسوارى مايزال يذكرك فى قصصه بشر ، فقال له عمرو : ياهذا مارعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقى حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين . ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته ، فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك ، فتوق ياملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه : يابنى أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل

---

(١) حديث « إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره » متفق عليه من حديث عائشة نحوه (٢) حديث « لايدخل الجنة قاطع » متفق عليه من حديث جبير بن مطعم (٣) حديث « الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة » أخرجه الحاكم من حديث أبى موسى « من سعى بالناس فهو لغير رشدة » أو فيه شيء منها وقال : له أسانيد هذا أمثلها ،قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر فى التذكرة منكر الرواية ، قال والحديث لاأصل له وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ « لايسعى على الناس إلا ولد بغى وإلا من فيه عرق منه » وزاد بين سهل وبين بلال بن أبى بردة : أبا الوليد القرشي .

سيدا ابسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك . وقال بعضهم : النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهى أثافى الذل . وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك .

وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة : باع رجل عبدا وقال للمشترى : ما فيه عيب إلا النميمة ، قال : رضيت ، فاشتراه ، فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدى لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك ، فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة (١) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث (٢) » وفى لفظ آخر « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة : لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا (٣) » وقال ابن مسعود : لا يكونن أحدكم إمعة ، قالوا : وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح . واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم ، فقال : نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء - كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة - نعم لو نقل

الآفة السابعة عشرة . كلام ذى اللسانين

(١) حديث عمار بن ياسر « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن . (٢) حديث أبى هريرة « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين... الحديث » متفق عليه بلفظ « تجد من شر الناس » لفظ البخارى وهو عند ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث « أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم ، فإذا لقوهم تملقوا لهم ... الحديث » لم أقف له على أصل

كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام ، وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على واحد منهما فى معاداته وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين . ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوّه .

قيل لابن عمر رضى الله عنهما : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال : كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه ، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق ، لأنه الذى أحوج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل [٢] » لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكشر فى وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنت له القول ، فقال « ياعائشة إن شر الناس الذى يكرم اتقاء شره [٣] » ولكن هذا ورد فى الإقبال وفى الكشر والتبسم : فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله - كما ذكرناه فى آفة الكذب - بل لايجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهو منهى عنه فى بعض المواضع . أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها . والمدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح

فأما المادح ، فالأولى : أنه قد يفرط فينتهى به إلى الكذب . قال خالد بن معدان : من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رءوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه .

والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا .

الثالثة : أنه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وروى أن رجلا مدح رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال « إن كان أحدكم لابدّ مادحا

---

(١) حديث . قيل لابن عمر إنا ندخل على امرائنا . فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال : كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الطبرانى من طرق (٢) حديث « حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال « حب الغناء » وقال « العشب » مكان « البقل » (٣) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » وفيه « ان شر الناس الذى يكرم اتقاء لشره » متفق عليه وقد تقدم فى الآفة التى قبلها .

أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك (١) ، وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه ، فأما إذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفى فلا ينبغى أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال : أسافرت معه ؟ قال : لا ، قال : أخالطته فى المبايعه والمعاملة ؟ قال : لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : والله الذى لا إله إلا هو لاأراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق (٢) » وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه ، والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره من وجهين ؛ أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال : مالى ولك ياأمير المؤمنين ؟ قال : مالى ولك أما سمعتها ؟ قال : سمعتها فمه ، قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك .

الثانى : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام « قطعت عنق صاحبك لو سمعها ماأفلح » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا (٣) » ، وقال أيضا لمن مدح رجلا « عقرت الرجل عقرك الله (٤) » ، وقال مطرف : ماسمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسى . وقال زياد بن أبى مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما أما ماذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ماذكره مطرف فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه (٥) » ، وقال عمر رضى الله عنه : المدح هو الذبح . وذلك لأن المذبوح هو الذى يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ؛ لذلك شبهه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه . ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح (٦) » ، وقال فى عمر « لو لم أبعث لبعثت

الآفة الثامنة عشرة : المدح

(١) حديث : أن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ويحك قطعت عنق صاحبك » متفق عليه من حديث أبى بكرة بنحوه وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف (٢) حديث « إن الله يغضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى بلفظ « إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش » قال الذهبى فى الميزان : منكر ، وقد تقدم فى آداب الكسب .

(٣) حديث « إذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا (٤) حديث « عقرت الرجل عقرك الله » قاله لمن مدح رجلا ، لم أجد له أصلا (٥) حديث « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » لم أجده أيضا (٦) حديث « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح » تقدم فى العلم .

ياعمر (١) » وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة . وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر (٢) » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه . وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت (٣) » لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبنى آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك بمثله ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة : ياابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل مافى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم « احثوا التراب فى وجوه المادحين (٤) » وقال سفيان بن عيينة : لايضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما اثنى عليه : اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقته . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه : اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال : أتهلكنى وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على على كرم الله وجهه فى وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه — فقال : أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك .

الآفة التاسعة عشر

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت (٥) » وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت ، فقال

---

(١) حديث « لولم أبعث لبعثت ياعمر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو منكر والمعروف من حديث عقبة بن عامر « لوكان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » رواه الترمذى وحسنه .

(٢) حديث « أنا سيد ولد آدم ولافخر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عبادة بن الصامت « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر » ولمسلم من حديث أبى هريرة « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » (٣) حديث «وجبت» قاله لما أثنوا على بعض الموتى متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث « أحثوا فى وجوه المداحين التراب » أخرجه مسلم من حديث المقداد .

الآفة التاسعة عشرة : فى الغفلة عن دقائق الخطأ

(٥) حديث حذيفة « لايقل أحدكم ماشاء الله وشئت ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح .

صلى الله عليه وسلم « أجعلتنى لله عديلا بل ما شاء الله وحده [١] » . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال « قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى [٢] » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . وأن يقول : لولا الله ثم فلان ؟ ولا يقول: لولا الله وفلان ؟ وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورود . وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال إبراهيم : إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير ! قيل له يوم القيامة ، حماراً رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه ، فيقول : لولاه لسرقنا الليلة . وقال عمر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت [٣] » قال عمر رضى الله عنه : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها : وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم [٤] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله وليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى وليقل سيدى وسيدتى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال أنا برىء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الإسلام سالما [٦] » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره .

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا [٧] » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل ، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فإن كنت لاتقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب . والعامى يفرح بالخوض فى العلم، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو

---

(١) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فى بعض الأمر فقال : ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله عدلا قل ماشاء الله وحده » أخرجه النسائى فى الكبرى باسناد حسن وابن ماجه (٢) حديث : خطب رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم

(٣) حديث عمر : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . متفق عليه (٤) حديث « لاتسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٥) حديث « لاتقولوا للمنافق سيدنا .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح (٦) حديث « من قال أنا برىء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال ... الحديث » أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٧) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

لا يدرى . وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته. وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عامى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم [١] » وقال أنس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سلونى لا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به » فقام إليه رجل فقال : يارسول الله من أبى ؟ فقال « أبوك حذافة » فقام إليه شابان أخوان فقالا : يارسول الله من أبونا ؟ فقال : أبوكما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يارسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لا بل فى النار » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، فقال « اجلس ياعمر رحمك الله إنك ماعلمت لموفق [٢] »

وفى الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال [٣] وقال صلى الله عليه وسلم « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم [٤] » .

وقال جابر : مانزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال [٥] . وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ﴿ لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ فلم يصبر حتى سأل ثلاثا قال ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ وفارقه .

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن ، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشىء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة . فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم .

الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى

(١) حديث « ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ... الحديث » متفق عليه مقتصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبى موسى : فقام آخر فقال من أبى ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة . (٣) حديث : النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال : متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة .

(٤) حديث « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٥) حديث جابر : مانزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال . رواه البزار باسناد جيد .

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذى استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون ، ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، وامتحن بهم حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لايخفى عليه شىء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لايشعرون فقال ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ والصلاة والسلام على محمد رسوله الذى يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازى عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة فى طى الفؤاد . استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد ، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال ﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ! ليحذر ذلك ويتقيه ، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه ، ويعالجه إن رسخ فى قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه ، مالم يعرف الطريق الذى به يدفع الشر ويقصيه .

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد فى هذا الكتاب ، ويجمعها بيان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ؟ ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام ، ثم القول فى معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته ، ثم بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب وبالله التوفيق .

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى

المؤمنين ﴾ الآية . ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلا قال : يارسول الله مرنى بعمل وأقلل ، قال . «لاتغضب » ثم أعاد عليه فقال « لاتغضب [١] » وقال ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لى قولا وأقلله لعلى أعقله ، فقال « لاتغضب » فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى « لا تغضب [٢] » وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذنى من غضب الله ؟ قال « لاتغضب [٣] » وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم « ماتعدون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذى لاتصرعه الرجال ، قال « ليس ذلك ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب [٤] » وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب [٥] » وقال ابن عمر : قال النبى صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله عورته [٦] » وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : يا بنى إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة فى قوله تعالى ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ قال : السيد الذى لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال : « لاتغضب [٧] » وقال يحيى لعيسى عليهما السلام : لاتغضب ، قال : لا أستطيع أن لاأغضب إنما أنا بشر ، قال : لا تقتن مالا ، قال : هذا عسى . وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماغضب أحد إلا أشفى على جهنم [٩] » وقال له رجل : أى شىء أشد على قال « غضب الله » قال : فما يبعدنى عن غضب الله ؟ قال « لا تغضب [١٠] » .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع فى النار . وعن ذى القرنين أنه لقى ملكا من الملائكة فقال : علمنى علما ازداد به إيمانا ويقينا ، قال : لاتغضب فإن الشيطان أقدر مايكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة ، وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً . وعن وهب بن منبه : أن راهباً كان فى صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع ، فجاءه حتى ناداه فقال له : افتح ، فلم يجبه فقال : افتح فإنى إن ذهبت ندمت ، فلم يلتفت إليه فقال إنى أنا المسيح ، قال الراهب : وإن كنت المسيح فما أصنع بك ! أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك ؟ فقال : إنى الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ؟ فجئتك لتسألنى

كتاب الغضب والحقد والحسد

(١) حديث أبى هريرة : ان رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل قال « لاتغضب » ثم أعاد عليه فقال « لاتغضب » رواه البخارى (٢) حديث ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لى قولا وأقلل... الحديث . أخرج نحوه أبو يعلى باسناد حسن (٣) حديث عبد الله بن عمرو : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدنى من غضب الله ؟ قال « لاتغضب » أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن عبد البر فى التمهيد باسناد حسن ، وهو عند أحمد : وأن عبد الله بن عمرو هو السائل .

(٤) حديث ابن مسعود « ماتعدون الصرعة ... الحديث » رواه مسلم (٥) حديث أبى هريرة « ليس الشديد بالصرعة ... الحديث » متفق عليه (٦) حديث ابن عمر « من كف غضبه ستر الله عورته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو وذم الغضب وفى الصمت ، وتقدم فى آفات اللسان (٧) حديث أبى الدرداء : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ؟ قال « لاتغضب » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط باسناد حسن (٨) حديث « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف (٩) حديث « ماغضب أحد إلا أشفى على جهنم » أخرجه البزار وابن عدى من حديث ابن عباس « للنار باب لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله » وإسناده ضعيف وتقدم فى آفات اللسان (١٠) حديث : قال رجل أى شىء أشد على ؟ قال « غضب الله » قال : فما يبعدنى من غضب الله ؟ قال « لاتغضب » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث .

عما شئت فأخبرك ، فقال : ما أريد أن أسألك عن شيء ، قال : فولى مدبرا ، فقال الراهب : ألا تسمع ، قال : بلى ، قال : أخبرنى أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم ؟ فقال : الحدة إن الرجل إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقال خيثمة : الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ؟ وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ؟ وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ، ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقال مجاهد : قال إبليس ما أعجزنى بنو آدم فلن يعجزونى فى ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، ونبخله بما فى يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه . وقيل لحكيم . ما أملك فلانا لنفسه ! قال : إذاً لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب . وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل : اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبدالله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع ؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لاتعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ، ولاتجاوز به خمسة عشر سوطا . وقال على بن زيد : أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبدالعزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال : أردت أن يستفزنى الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا ؟ وقال بعضهم لابنه : يابنى لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحى فى التنانير المسجورة ، فأقل الناس غضبا أعقلهم ، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حلما وعلما ، فقد قيل : الغضب عدو العقل والغضب غول العقل . وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال فى خطبته : أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب . وقال بعضهم : من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين وحزم فى لين وإيمان فى يقين وعلم فى حلم وكيس فى رفق وإعطاء فى حق وقصد فى غنى وتجمل فى فاقة وإحسان فى قدرة وتحمل فى رفاقة وصبر فى شدة ، لايغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولايبخل ولايبذر ولايسرف ولايقتر ، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل . نفسه منه فى عناء والناس منه فى رخاء . وقيل لعبدالله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق فى كلمة . فقال اترك الغضب . وقال نبى من الأنبياء لمن تبعه : من يتكفل لى أن لا يغضب فيكون معى فى درجتى ويكون بعدى خليفتى ؟ فقال شاب من القوم : أنا ، ثم أعاد عليه فقال الشاب : أنا أوفى به ، فلما مات كان فى منزلته بعده وهو ذو الكفل ، سمى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به . وقال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان : الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع .

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان ، بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجة عنه ؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه فى كتابه .

أما السبب الداخلى : فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخارا يتصاعد منها ، فلو لم يصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق فى

الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء ؛ كالموكل به فى جبرما انكسر وسدما انثلم ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان : فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التى يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها فى الإنسان وعجنها بطينته . فمهما صدّ عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثورانا يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن ، كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكى لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون مافيها . وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنا ، ولذلك يصفرّ اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفرّ ويضطرب .

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ، ولاتسكن إلا به . ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال .

أما التفريط : فبفقد هذه القوة أوضعفها وذلك مذموم ، وهو الذى يقال فيه إنه لاحمية له . ولذلك قال الشافعى رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار . فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جدا ، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ الآية وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب .

وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولااختيار ، بل يصير فى صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته فى الفطرة صورة غضبان ، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار (١) كما قال صلى الله عليه وسلم . وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته . وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أنا الذى لاأصبر على المكر والمحال ولاأحتمل من أحد أمرا ! ومعناه لاعقل فى ولاحلم . ثم يذكره فى معرض الفخر بجهله . فمن سمعه رسخ فى نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا ، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفئ نور العقل وينمحى فى الحال بدخان الغضب ، فإن معدن الفكر الدماغ ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر ، وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لايرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار . فاسودّ جوّه وحمى مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أوانطفأ نوره فلاتثبت فيه قدم ولايسمع فيه كلام ولاترى فيه صورة ، ولايقدر على إطفائه لامن داخل ولامن خارج ، بل ينبغى

(١) حديث « الغضب من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد بسند ضعيف « الغضب جمرة فى قلب ابن آدم » ولأبى داود من حديث عطية السعدى « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار »

أن يصير إلى أن يحترق جميع مايقبل الاحتراق : فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار فى الكهف فينشق وتنهد أعاليه على أسفله ، وذلك لإبطال النار مافى جوانبه من القوة المسكة الجامعة لأجزائه ، فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة فالسفينة فى ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح فى لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا؛ إذ فى السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه . ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة فى الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره فى الجسد :

وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذى يستحيي منه ذو العقل ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه أوفاته بسبب وعجز عن التشفى رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا لايطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها . ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول : إلى متى منك هذا ياكيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك .

وأما أثره فى القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوثة قال صلى الله عليه وسلم « إن سعدا لغيور وأنا أغير من سعد وإن الله أغير منى [1] » ، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الانساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها . ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير أمتى أحداؤها [2] » ، يعنى فى الدين وقال تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾ بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لاتتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة . ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث « ان سعدا لغيور ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم فى النكاح . (٢) حديث « خير أمتى أحداؤها » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث على بسند ضعيف وزاد « الذين اذا غضبوا رجعوا »

وسلم حيث قال « خير الأمور أوساطها »[1] ، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغى أن يأتى بالشر كله ؛ ولكن بعض الشر اهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض . فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأله الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على مايشاء قدير .

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة : أم لا ؟

أعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد ، وظن اخرون أنه أصل لايقبل العلاج . وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لايقبل التغيير ، وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه مانذكره وهو أنه مابقى الإنسان يحب شيئا ويكره شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب ، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب مايوافقه ويكره مايخالفه ، والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لامحالة ، وإذا قصد بمكروه غضب لامحالة

إلا أن مايحبه الإنسان ينقسم إلى ثــلاثة أقسام ، الأول : ماهو ضرورة فى حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب ، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق ماؤه الذى لعطشه ، فهذه ضرورات لايخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها .

القسم الثانى : ماليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان ، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما فى القوت ، فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه ، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لايغضب ، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد فى الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها ، فإنه لايحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ماهو غير ضرورى كالجاه والصيت والتصدر فى المجالس والمباهاة فى العلم ، فمن غلب هذا الحب عليه فلامحالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل ، ومن لايحب ذلك فلا يبالى ولو جلس فى صف النعال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الإنسان ومكارهه فأكثرت غضبه ، وكلما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص ، لأن الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص ، والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته ، وهو لايدرى أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن ، حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له: إنك لاتحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير ، ومايجرى مجراه من الرذائل ، فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لأن حبه ليس بضرورى .

---

(١) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم .

القسم الثالث : مايكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض ، كالكتاب مثلا فى حق العالم لأنه مضطر إليه فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه ، وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب الذى لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها ، فإنما هو وسيلة إلى الضرورى ، والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا ، وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضرورى ماأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [١] » ومن كان بصيراً بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لايغضب فى غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها .

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكى يقدر على أن لايطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لايشتد هيجان الغيظ فى الباطن ، وينتهى ضعفه إلى أن لايظهر أثره فى الوجه ، ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ماصار ضروريا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لايشتد التألم بالصبر عليه .

وأما القسم الثانى : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القلب ، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا ويمحو حبها عن قلبه ، ولو كان للإنسان كلب لايحبه لايغضب إذا ضربه غيره ، فالغضب تبع للحب . فالرياضة فى هذا تنتهى إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدًا ، وقد تنتهى إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون .

فإن قلت : الضرورى من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب ، فمن له شاة مثلا وهى قوته فماتت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة ، وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه ؛ إذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته كالقلم فى يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم ، فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد . ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى وأن الله لايقدّر له إلا مافيه الخيرة ، وربما تكون الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه ، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب فى أحوال مختلفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعياً لايندفع عنه ، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه [٢] حتى قال « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته

---

(١) حديث « من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله « بحذافيرها » قال الترمذى حسن غريب .

(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . وللحاكم : كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه . وقد تقدم فى أخلاق النبوة .

أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة [١] » وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبيا ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه [٢] فلم يقل إنى لا أغضب ، ولكن قال إن الغضب لايخرجنى عن الحق ، أى لاأعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضى الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مالك ؟ جاءك شيطانك » فقالت : ومالك شيطان ؟ قال « بلى ولكنى دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بالخير [٣] » ولم يقل : لا شيطان لى ، واراد شيطان الغضب لكن قال : لا يحملنى على الشر . وقال على رضى الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له [٤] فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة ، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التى لابد له فى دينه منها فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى إذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه ، فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهات يمنع الإحساس بما عداه .

وهذا كما أن سلمان لما شتم قال : إن خفت موازينى فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول . فقد كان همه مصروفا إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : ياهذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرنى ماتقول ، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول وسب رجل أبابكر رضى الله عنه فقال : ماستر الله عنك أكثر ؛ فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته ، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان ، وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائى ، فقال : ماعرفنى غيرك ! فكأنه كان مشغولا بأن ينفى عن نفسه آفة الرياء ، ومنكراً على نفسه مايلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبى فقال : إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك .

فهذه الأقاويل دالة فى الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم ، فإذاً اشتغال القلب ببعض المهات لايبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب ؛ فإذاً يتصور فقد الغيظ إما باشتغال القلب بمهم ، أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث : وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لايغتاظ فيطفئ شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال فى أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ـ كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا ـ ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر

---

(١) حديث « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله « أغضب كما يغضب البشر » وقال « جلدته » بدل « ضربته » وفى رواية « اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » وأصله متفق عليه وتقدم ولمسلم من حديث أنس « إنما أنا بشرا أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر » ولأبى يعلى من حديث أبى سعيد أو ضربته (٢) حديث عبد الله بن عمرو : يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا ؟ قال « اكتب فوالذى بعثنى بالحق مايخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . أخرجه أبو داود بنحوه (٣) حديث : غضبت عائشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « مالك جاءك شيطانك ؟ ...الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث على : كان لايغضب للدنيا ... الحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل وقد تقدم .

أسباب الغضب ، وما لايمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

بيان الاسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام : أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله ، قال فما يقرّب من غضب الله ، قال أن تغضب ، قال : فما يبدى الغضب ومايذبته ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والتعزز والحمية .

والأسباب المهيجة للغضب هى : الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهى بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها .

فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك - كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب - وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد ؛ وإنما اختلفوا فى الفضل أشتاتا فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها ، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك ، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة ؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجوليه وعزة نفس وكبر همة ، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر فى معرض المدح بالشجاعة ، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه ، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها ، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، ولبخله إذا فاتته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب [1] » بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه

---

(١) حديث « ليس الشديد بالصرعة » تقدم قبله .

حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لاعقول لهم ولا فضل فيهم .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ماذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لايهيج ، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لايضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستة أمور ؛ الأول: أن يتفكر فى الأخبار التى سنوردها فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه ، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفئ عنه غيظه ، قال مالك بن أوس ابن الحدثان : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت ياأمير المؤمنين ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فكان عمر يقول ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فكان يتأمل فى الآية وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلى الرجل . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ فقال لغلامه خل عنه .

الثانى : أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبى عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ماأكون إلى العفو . فقد قال تعالى فى بعض الكتب القديمة : ياابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال « لولا القصاص لأوجعتك [1] » أى القصاص فى القيامة . وقيل ماكان فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لايخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا إن كان لايخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه فى الدنيا فراغته للعلم والعمل ومايعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه .

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ، ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقى معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً فى أعين الناس ! فيقول لنفسه : ماأعجبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم

---

(١) حديث « لولا القصاص لأوجعتك » أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

منك ؟ وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين ؟ فهما كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله ، فما له وللناس ؟ وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن ، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغى أن يكرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشىء على وفق مراد الله لا على وفق مراده ، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه .

وأما العمل فان تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ [١] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « ياعويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرنى من مضلات الفتن [٢] » فيستحب أن تقول ذلك ، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائما واضجع إن كنت جالسا واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك ، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب جمرة توقد فى القلب [٣] » ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائما فليجلس وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء : فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار [٤] » وفى رواية « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وإذا غضبت فاسكت [٥] » وقال أبو هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه [٦] وقال أبو سعيد الخدرى : قال النبي صلى الله عليه وسلم «ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم [٧] ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض » وكأن هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب .

وروى أن عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب . وقال عروة

---

(١) حديث : الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ . متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه . . الحديث . وفيه « لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه مايجد » فقالوا له : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... الحديث »

(٢) حديث : كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « ياعويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي وأذهب غيظ قلبي . . . الحديث » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة من حديثها وتقدم فى الأذكار والدعوات (٣) حديث « إن الغضب جمرة توقد فى القلب ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله « توقد » وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البيهقى فى الشعب .

(٤) حديث « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عطية السعدى دون قوله « بالماء البارد » وهو بلفظ الرواية الثانية التى ذكرها المصنف وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس : إذا غضبت فاسكت . أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب الإيمان وفيه ليث بن أبى سليم (٦) حديث أبى هريرة: كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه . أخرجه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد باسناد جيد فى أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له : لم جلست ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » والمرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود (٧) حديث أبى سعيد « ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن .

ابن محمد : لما استعملت على اليمن قال لى أبى : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما . وروى أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحمراء ـ فى خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا ذر بلغنى أنك اليوم عيرت أخاك بأمه » فقال : نعم ، فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل » ثم قال ، إذا غضبت فإن كنت قائما فاقعد وإن كنت قاعدا فاتكئ وإن كنت متكئاً فاضطجع [1] » وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا غضبت فأعطنى هذه ، وقال للثانى : إذا سكن بعض غضبى فأعطنى هذه ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبى فأعطنى هذه ، فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا ، فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك . أى لا تعطل الحدود . وغضب المهدى على رجل فقال شبيب : لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ وذكر ذلك فى معرض المدح . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا [4] » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى [5] » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم « إن لجهنم بابا

---

(١) حديث أبى ذر : أنه قال لرجل : ياابن الحمراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ... الحديث. وفيه فقال : ياأبا ذر ارفع رأسك فانظر ... الحديث : وفيه ثم قال « إذا غضبت » إلى آخره. أخرجه ابن أبى الدنيا فى الغضب وذم الغضب باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال : كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكانى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ياأبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية » ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » ورجاله ثقات .

فضيلة كظم الغيظ

(٢) حديث « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس باسناد ضعيف ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر « من ملك غضبه وقاه الله عذابه ... الحديث » وقد تقدم فى آفات اللسان (٣) حديث « أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث على بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلا باسناد جيد ، وللبزار والطبرانى فى مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث « أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب » وفيه عمران القطان مختلف فيه . (٤) حديث « من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « أمنا وإيمانا » أخرجه ابن أبى الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبى سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن أبيه ، ورواها ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة وفيه من لم يسم (٥) حديث ابن عمر « ماجرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » أخرجه ابن ماجه .

لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيمانا [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء [٣] » .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه : يابنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك . وقال ايوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا . واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة اليربوعى والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل ، فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه . فقال له رجل . يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنما كانت نارا فأطفئت . وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان فقال : ياعبد الله أوصنى ، قال : لاتغضب ، قال لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم، ولايحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعى ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه [٤] » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ، ولاتكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم [٥] » وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذى يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية [٦] » وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « ابتغوا

---

(١) حديث ابن عباس « لن لجهنم بابا لايدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله » تقدم فى آفات اللسان (٢) حديث « مامن جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابى الذى لم يسم وقد تقدما (٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » تقدم فى آفات اللسان .

فضيلة الحلم

(٤) حديث « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ... الحديث » أخرجه الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث أبى هريرة « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ... الحديث » أخرجه ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف (٦) حديث : كان من دعائه « اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية » لم أجد له أصلا

الرفعة عندالله . قالوا : وماهى يارسول‌الله ؟ قال « تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر [٢] » وقال على كرم الله وجهه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارا عنيدا ولا يملك إلا أهل بيته [٣] » وقال أبو هريرة : إن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلى ويجهلون على وأحلم عنهم ، قال « إن كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك [٤] » الملّ : يعنى به الرمل . وقال رجل من المسلمين : اللهم ليس عندى صدقة أتصدّق بها فأيما رجل أصاب من عرضى شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنى قد غفرت له [٥] وقال صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم » قالوا : وما أبو ضمضم ؟ قال « رجل ممن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم إنى تصدّقت اليوم بعرضى على من ظلمنى [٦] » .

وقيل فى قوله تعالى ﴿ ربانيين ﴾ أى حلماء علماء . وعن الحسن فى قوله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبى رباح ﴿ يمشون على الأرض هونا ﴾ أى حلماء . وقال ابن أبى حبيب فى قوله عز وجل ﴿ وكهلا ﴾ قاله : الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى إذا أوذوا صفحوا .

وروى ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصبح ابن مسعود وأمسى كريما [٧] » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لايدركنى ولا أدركه زمان لايتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم ، قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليلينى منكم ذوو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق [٩] » وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله

(١) حديث « ابتغوا الرفعة عند الله » قالوا : وماهى ؟ قال « تصل من قطعك . . الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقى وقد تقدم

(٢) حديث « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر » أخرجه أبو بكر بن أبى عاصم فى المثانى والآحاد والترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمى عن أبيه عن جده ، وللترمذى وحسنه من حديث أبى أيوب « أربع » فأسقط « الحلم والحجامة » وزاد « النكاح »

(٣) حديث على « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف

(٤) حديث أبى هريرة : أن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلى ويجهلون على وأحلم عنهم ... الحديث . رواه مسلم

(٥) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضى شيئا فهو صدقة عليه ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من رواية عبد المجيد بن أبى عبس بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين ، زاد البيهقى عن علية بن زيد وعلية هو الذى قال ذلك كما فى أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة : أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بأبى ضمضم إنما هو علية بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم

(٦) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان

(٧) حديث أن ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أصبح ابن مسعود وأمسى كريما » أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة

(٨) حديث « اللهم لايدركنى ولا أدركه زمان لايتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف

(٩) حديث « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » فهى عند أبى داود والترمذى وحسنه وهى عند مسلم فى حديث آخر لابن مسعود .

صلى الله عليه وسلم يرى مايصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام « إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله » قال : ماهما بأبى أنت وأمى يارسول الله ؟ قال « الحلم والأناة » فقال : خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال « بل خلقان جبلك الله عليهما » فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله (١) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحليم الحيي الغنى المتعفف أبا العيال التقى ويبغض الفاحش البذى السائل الملحف الغبي (٢) » وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله عز وجل . وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به فى الناس (٣) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فتقولون لهم إنا نراكم سراعا إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل ، فيقولون لهم ماكان فضلكم ؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسىء إلينا عفونا وإذ جهل علينا حلمنا . فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (٤) » .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال على رضى الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لا تباهى الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم . وقال أكثم بن صيفى : دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه فأصبحوا شوكا لاورق فيه ، إن عرفتهم نقدوك وإن تركتهم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك . وقال على رضى الله عنه : إن أول ماعوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى : لايبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم ، وقال معاوية لعمرو بن الأهتم : أى الرجال أشجع ؟ قال : من رد جهله بحلمه قال : أى الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنياه لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك فى قوله تعالى ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ إلى قوله ﴿ عظيم ﴾ هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذبا فغفر الله لك وإن كنت صادقا فغفر الله لى . وقال بعضهم : شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم على فاستعبدنى بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس : بم سدت قومك ياعرابة ؟ قال : ياأمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم . فمن فعل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال : ياعكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال : ليس تقبل شهادتك . وعن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشىء من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد

---

(١) حديث « يا أشج ان فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة ... الحديث » متفق عليه (٢) حديث : ان الله يحب الحيى الحليم الغنى المتعفف ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث سعد « ان الله يحب العبد التقى الغنى الخفى (٣) حديث ابن عباس « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله » أخرجه أبو نعيم فى كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبرانى من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم فى آداب الصحبة (٤) حديث « اذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس ... الحديث » وفيه « اذا جهل علينا حلمنا » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقى فى إسناده ضعف .

إنه قد وقع بينى وبين قوم منازعة فى أمر وإنى أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لى : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد : كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته وقال الأحنف بن قيس : لست بحليم ولكننى أتحلم . وقال وهب بن منبه : من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يغلب ، ومن يعجل يخطئ ، ومن يحرص على الشر لايسلم ، ومن لايدع المراء يشتم ، ومن لايكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يعصم ، ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ومن لايسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله يخذل ، ومن يستعن بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار : بلغنى أنك ذكرتنى بسوء ، قال ، أنت إذن أكرم على من نفسى إنى إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتى . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبنك سبا يدخل معك فى قبرك ، فقال : معك يدخل لامعى . ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيراً فقيل له : إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيراً ؟ فقال : كل ينفق مما عنده . وقال لقمان : ثلاثة لايعرفون إلا عند ثلاثة ؛ لايعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم - وكانت سيئة الخلق - فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم ، فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا فى منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا ؟ قال : نعم ، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة ؛ فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال : صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له فى ذلك فقال : أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب . وقال محمود الوراق :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذى فوقى فاعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أوهفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلايجوز مقابلته بمثله ، فلاتجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولامقابلة التجسس بالتجسس ولاالسب بالسب ، وكذلك سائر المعاصى . وإنما القصاص والغرامة على قدرماورد الشرع به وقد فصلناه فى الفقه . وأما السب فلايقابل بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن امرؤ عيرك بما فيك فلاتعيره بما فيه [1] » وقال « المستبان ماقالا فهو على البادئ مالم يعتد المظلوم » وقال « المستبان شيطانان يتهاتران [2] » وشتم رجل أبابكر الصديق رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : إنك كنت ساكتا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال ، لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس فى مجلس فيه الشيطان [3] ، وقال قوم : تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم . وقد تقدم (٢) حديث المستبان شيطانان يتهاتران » تقدم (٣) حديث : شتم رجل أبابكر رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم . الحديث . أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة متصلا ومرسلا قال البخارى المرسل أصح .

عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه ، والأفضل تركه ولكنه لايعصى به . والذى يرخص فيه أن تقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود : وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله : ياأحمق ، قال مطرف : كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض . وقال ابن عمر فى حديث طويل : حتى ترى الناس كلهم حمقى فى ذات الله تعالى [١] وكذلك قوله ياجاهل ، إذ مامن أحد إلا وفيه جهل ؛ فقد آذاه بما ليس بكذب . وكذلك قوله ياسيئ الخلق ، ياصفيق الوجه ياثلابا للإعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لوكان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك فى عينى بما فعلت، وأخزاك الله وانتقم منك .

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق ، لما روى أنه كان بين خالدبن الوليد وسعدكلام ، فذكر رجل خالدا عند سعد ، فقال سعد : مه إن مابيننا لم يبلغ ديننا . يعنى أن يأثم بعضنا فى بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟

والدليل على جواز ماليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب : ماروت عائشة رضى الله عنها أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت : يارسول الله أرسلنى إليك أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، والنبى صلى الله عليه وسلم نائم ، فقال « يابنية أتحبين ماأحب ؟ قالت : نعم ، قال « فأحبى هذه » فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ماأغنيت عنا شيئا : فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت : وهى التى كانت تسامينى فى الحب فجاءت فقالت : بنت أبى بكر وبنت أبى بكر ، فما زالت تذكرنى وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجواب فأذن لى ، فسببتها حتى جف لسانى فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كلا إنها ابنة أبى بكر [٢] » يعنى أنك لاتقاومينها فى الكلام قط وقولها : سببتها ، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « المستبان ماقالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم [٣] » فأثبت للمظلوم انتصار إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذى أباحه هؤلاء وهو رخصة فى الإيذاء جزاء على إيذائه السابق . ولا تبعد الرخصة فى هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ماوراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ، ولكن من الناس من لايقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه فى الابتداء ولكن يحقد على الدوام . والناس فى الغضب أربعة : فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضا بطىء الوقود بطىء الخمود وبعضهم بطىء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطىء الخمود وهذا هو شرهم . وفى الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك [٤] » وقال الشافعى رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . وقد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطىء الغضب سريع الفىء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفىء ؛ فتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ألا وإن خيرهم البطىء الغضب السريع الفىء وشرهم السريع الغضب البطىء الفىء [٥] » ولما كان الغضب يهيج ويؤثر فى كل إنسان وجب على السلطان أن لايعاقب

---

(١) حديث ابن عمر فى حديث طويل « حتى ترى الناس كأنهم حمقى فى ذات الله عزوجل » تقدم فى العلم (٢) حديث عائشة إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت : يارسول الله أرسلنى أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة . . الحديث . رواه مسلم (٣) حديث « المستبان ماقالا فعلى البادى ... الحديث » رواه مسلم وقد تقدم (٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى » تقدم (٥) حديث أبى سعيد الخدرى « ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات ... الحديث » تقدم

أحدا فى حال غضبه ، لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ نفسه ، فينبغى أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه . ورأى عمر رضى الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر ، فقيل له : ياأمير المؤمنين لما شتمك تركته ؟ قال : لأنه أغضبنى ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسى ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسى . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه : لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك .

القول فى معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود [1] » فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد يثمر ثمانية أمور (الأول) الحسد : وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين . وسيأتى ذمه إن شاء الله تعالى . (الثانى) أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء . (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له . (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه . (السابع) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه . (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستثقله فى الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له ، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يعرّضك لعقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم فى واقعة الإفك نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم ﴾ إلى قوله ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه [2] .

والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد فى الإحسان مجاهدة للنفس وإرغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين . فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة (أحدها) أن يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل . (الثانى) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثانى : هو اختيار الصديقين ، والأول : هو منتهى درجات الصالحين ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان .

فضيلة العفو

(١) حديث « المؤمن ليس بحقود » تقدم فى العلم (٢) حديث : لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم ﴾ الآية متفق عليه من حديث عائشة .

فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ؛ فلذلك أفردناه . قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلافا لحلفت عليهن : مانقص مال من صدقة فتصدّقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لايزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله ، والعفو لايزيد العبد إلا عزا فاعفوا يعزكم الله ، والصدقة لاتزيد المال إلا كثرة فتصدّقوا يرحمكم الله (٢) » وقالت عائشة رضى الله عنها : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم فى ذلك غضبا ، وماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما (٣) » وقال عقبة « لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده أو بدرنى فأخذ بيدى فقال « ياعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال الذى إذا قدر عفا (٥) » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو إذا قدر فاعفوا يعزكم الله وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمته ، فقال له صلى الله عليه وسلم « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة (٦) » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث : وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يامعشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض (٧) » وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال « ماتقولون وما تظنون ؟ » فقالوا : نقول أخ وابن عم حليم رحيم ـ قالوا ذلك ثلاثا ـ فقال صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال يوسف ﴿ لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

---

(١) حديث « ثلاث والذى نفسى بيده ان كنت حالفا لحلفت عليهن : مانقصت صدقة من مال ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى ولمسلم وأبى داود نحوه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « التواضع لايزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله » أخرجه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث عائشة : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ... الحديث » أخرجه الترمذى فى الشمائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عقبة بن عامر « ياعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث : قال موسى يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال الذى إذا قدر عفا : أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة (٦) حديث « ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة » وفى أوله قصة رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو من رواية أبى صالح الحنفى مرسلا (٧) حديث أنس : اذا بعث الله عزوجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يامعشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض : أخرجه أبو سعيد أحمد بن ابراهيم المقرى فى كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ « ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة : ياأمة محمد ان الله تعالى يقول ماكان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى » واسناده ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ « نادى مناد ياأهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم علي » وله من حديث أم هانئ « ينادى مناد : ياأهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلي الثواب »

الراحمين ﴾ (١) ، قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم قال « يامعشر قريش ماتقولون وما تظنون ؟ » قال : قلت يارسول الله نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ (٢) » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل ومن ذا الذى له على الله أجر ؟ قال « العافون عن الناس ، فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب (٣) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لاينبغى لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ الآية (٤) » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء : من ادى دينا خفيا وقرأ فى دبر كل صلاة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات وعفا عن قاتله ، قال أبو بكر : أو إحداهن يارسول الله قال « أو إحداهن (٥) » .

الآثار : قال إبراهيم التيمى : إن الرجل ليظلمنى فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم : إذا أراد الله أن يتحف عبدا قيض له من يظلمه . ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر : إنك إن تلق الله ومظلمتك كما هى ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك واجبنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن أن لايفعل . وعن ابن عمر عن أبى بكر أنه قال : بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شىء فليقم فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فعاقبه وقال :

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبدالله فى وفد من أهل البصرة إلى أبى جعفر ، قال : فكنت عنده إذا أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر ، فقلت ياأمير المؤمنين ألا أحدثك حديثا سمعته

(١) حديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال « ماتقولون ... الحديث » رواه ابن الجوزى فى الوفاء من طريق ابن أبى الدنيا وفيه ضعف (٢) حديث سهيل بن عمرو: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحوه : لم أجده (٣) حديث أنس « اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة » قيل من ذا الذى أجره على الله ؟ قال « العافون عن الناس... الحديث » أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولايتابع على حديثه (٤) حديث ابن مسعود « لاينبغى لوالى أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وتقدم فى آداب الصحبة (٥) حديث جابر: ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط فى الدعاء بسند ضعيف .

من الحسن ؟ قال : وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس فى صعيد واحد حيث يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادى من له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا ، فقال : والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه ، فقال : خلينا عنه . وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة ، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال . وروى أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب : أرأيت ذا القرنين أكان نبياً ؟ فقال . لا ، ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد . وقال بعضهم : ليس الحليم من ظلم فحلم . حتى إذا قدر انتقم ،ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا .وقال زياد : القدرة تذهب الحفيظة يعنى الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام : وتتكلم أيضا ؟فقال الرجل : يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام : بلى ويحك تكلم . وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له اقطعه فإنه من أعدائنا ، فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت فى عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وإنها لمعى ، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها اللهم افعل به كذا ، فقال عبد الله : اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إلى فى المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكى فقلت أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا ، ولكن مثلتنى وإياه بين يدى الله عز وجل فأشرف عقلى على إدحاض حجته فبكائى رحمة له ؟ وقال مالك بن دينار : أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير . وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج ، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له فى الجب فقال : باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم ، وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال : أيها الأمير ماذا صنع الله به ؟ أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض ، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله ؟ ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين ﴾ يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه . قال الحكم فأنا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبى هذا لواريتكم تحته . وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه : فلان هارب من زلته إلى عفوك لائذ منك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة . ماترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأفلت منه فأخذ أخا له فقال له . إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك ، فقال . أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى ؟ قال نعم قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فقال زياد خلوا سبيله ،هذا رجل قد لقن حجته ، وقيل مكتوب فى الإنجيل . من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان .

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة . والرفق واللين نتيجة حسن

الخلق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق ، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال « ياعائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة [١] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى [٣] وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « ياعائشة ارفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « من يحرم الرفق يحرم الخير كله [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « أيما وال ولى فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « الرفق يمن والخرق شؤم [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « التأنى من الله والعجلة من الشيطان [١٠] » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يارسول الله ، إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصني منك بخير فقال « الحمد لله » مرتين أو ثلاثا ثم أقبل عليه فقال « هل أنت مستوص » مرتين أو ثلاثا قال . نعم . قال « إن أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فانته [١١] » وعن عائشة رضي الله عنها . أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عائشة عليك بالرفق فانه لايدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه [١٢] »

الآثار . بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه

فضيلة الرفق

(١) حديث « ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ... الحديث » رواه أحمد والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه عن القاسم عن عائشة . وفي الصحيحين من حديثها « ياعائشة ان الله يحب الرفق في الأمر كله » (٢) حديث « اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة (٣) حديث « ان الله ليعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف (٤) حديث « ان الله رفيق يحب الرفق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٥) حديث « ياعائشة ارفقي ان الله اذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق » أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي داود « ياعائشة ارفقي » (٦) حديث « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله « كله » فهي عند أبي داود (٧) حديث « أيما وال ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه « ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » (٨) حديث « تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصحبة (٩) حديث « الرفق يمن والخرق شؤم » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف (١٠) حديث « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ « الأناة من الله » وقد تقدم (١١) حديث : أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ... الحديث » وفيه « فإذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه . الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جدا ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية اسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده « اذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته » وإسناده ضعيف .

(١٢) حديث عائشة « عليك بالرفق فإنه لايدخل في شيء الا زانه ... الحديث » رواه مسلم

قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لاشيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه ، ليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرجه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه .

وقال وهب بن منبه : الرفق ثنى الحلم .

وفى الخبر موقوفا ومرفوعا « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده »(١) . وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله . ما الرفق ؟ قال : تكون ذا أناة فتلاين الولاة . قال فما الخرق ؟ قال : معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه : تدرون ما الرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور فى مواضعها : الشدة فى موضعها واللين فى موضعه والسيف فى موضعه والسوط فى موضعه ؛ وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل .

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما فى سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر ، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف فى محله حسنا كما أن الرفق فى محله حسن ، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه فى التأنى فكتب إليه معاوية . أما بعد ، فإن الفهم فى الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا ، وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا ، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى . وعن أبى عون الانصارى قال : ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفى : لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه فإن مع كل إنسان شيطانا . واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن : المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل . فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد فى أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور ، وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه فى الأكثر :

القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى . وقد ورد فى ذم الحسد خاصة اخبار كثيرة : قال رسول الله صلى الله

---

(١) حديث « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث أبى الدرداء وأبى هريرة وكلاهما ضعيف .

عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [١] » وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا [٢] » وقال أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم ، فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله فى اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له . إنى لاحيت أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت ، فقال « نعم » فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم لصلاة الفجر ، قال : غير أنى ماسمعته يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فما الذى بلغ بك ذلك ؟ فقال : ماهو إلا مارأيت ، فلما وليت دعانى فقال : ماهو إلا مارأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هى التى بلغت بك وهى التى لانطيق [٣] . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لاينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ [٤] » وفى رواية « ثلاثة لاينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن » فأثبت فى هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هى الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ، والذى نفس محمد بيده لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه سيصيب أمتى داء الأمم » قالوا . وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر والتكاثر والتنافس فى الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغى ثم الهرج [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك [٨] » وروى أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه تعالى

القول فى ذم الحسد

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « لاتقاطعوا ولاتدابروا ولاتباغضوا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث أنس: كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة .. الحديث بطوله » وفيه : أن ذلك الرجل قال لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولاحسدا على خير أعطاه الله رواه أحمد باسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمى الرجل فى رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة (٤) حديث « ثلاث لاينجو منهن أحد : الظن والطعن والحسد الحديث » وفى رواية « وقل من ينجو منهن أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهرى وموسى بن يعقوب الزمعى ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبى الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبرانى من حديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم فى آفات اللسان (٥) حديث « دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ... الحديث أخرجه الترمذى من حديث مولى الزبير عن الزبير (٦) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر » أخرجه أبو مسلم الكشى والبيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط من وجه آخر بلفظ « كادت الحاجة أن تكون كفرا » وفيه ضعف أيضاً (٧) حديث « إنه سيصيب أمتى داء الأمم قبلكم » قالوا وماداء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الحسد والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد جيد (٨) حديث « لاتظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك » أخرجه الترمذى من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفى رواية ابن أبى الدنيا فيرحمه الله .

رأى فى ظل العرش رجلا فغبطه بمكانه فقال : إن هـذا لكريم على ربه ، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ، ولا يمشى بالنميمة. وقال زكريا عليه السلام : قال الله تعالى : الحاسد عدو لنعمتى متسخط لقضائى غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى . وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لنعم الله أعداء ، فقيل ومن هم ؟ فقال ، الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة ، قيل يارسول الله من هم ؟ قال « الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالتكبر والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد [4] ».

الآثار ، قال بعض السلف : أول خطيئة هى الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية . وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال : إنى أريد أن أعظك بشىء فقال : وما هو ؟ قال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به ، ثم قرأ ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ ﴿ اهبطوا منها ﴾ إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ﴾ ، الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكر القدر فاسكت ، وإذا ذكرت النجوم فاسكت . وقال بكر بن عبد الله : كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيكه إساءته ، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال : إن هذا الذى يقوم بحذائك ويقول مايقول زعم أن الملك أبخر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندى؟ قال : تدعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر ، فقال له : انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيكه إساءته ، فقال له الملك : أدن منى فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك فى نفسه : ما أرى فلانا إلا قد صدق ؟ قال : وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابى هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به إلى فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذى سعى به فقال : ماهذا الكتاب قال خط الملك لى بصلة ، فقال : هبه لى !

---

(١) حديث « أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى عامر الأشعرى وفيه ثابت بن أبى ثابت جهله أبو حاتم وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولهما من حديث عمرو بن عوف البدرى « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا . الحديث » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا فتحت عليكم فارس والروم . الحديث » وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث . ولأحمد والبزار من حديث عمر « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة »
(٢) حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (٣) حديث « إن لنعم الله أعداء « قيل ومن أولئك ؟ قال « الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس « إن لأهل النعم حساد فاحذروهم » (٤) حديث « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قيل يارسول الله ومن هم؟ قال « الأمراء بالجور ...الحديث » وفيه « والعلماء بالحسد » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين .

فقال : هو لك ، فأخذه ومضى به إلى العامل : فقال العامل : فى كتابك أن أذبحك وأسلخك ، قال: إن الكتاب ليس هو لى فالله الله فى أمرى حتى تراجع الملك ؛ فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة ، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله ؛ فعجب الملك وقال : مافعل الكتاب ؟ فقال : لقينى فلان فاستوهبه منى فوهبته له ، قال له الملك : إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر ، قال : ماقلت ذلك ؟ قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمنى طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفى المسىء إساءته . وقال ابن سيرين رحمه الله : ما حسدت أحدا على شىء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟ وقال رجل للحسن : هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ؟ نعم ، ولكن غمه فى صدرك فإنه لا يضرك مالم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده . وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لايرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود مايلقى . وقال أعرابى : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه . وقال الحسن : يا ابن آدم لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذى أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم : الحاسد لاينال من المجالس إلا مذمه وذلا ، ولاينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا ، ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما ، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لاحسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهى لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولاحجر فى الأسامى بعد فهم المعانى . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنّ المؤمن يغبط والمنافق يحسد [1] » .

فأما الأول فهو حرام بكل حال ، إلانعمة أصابها فاجر أوكافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها ، فإنك لاتحب زوالها من حيث هى نعمة بل من حيث هى آلة الفساد ، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التى نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله فى تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لاعذر فيه ولارخصة ، وأى معصية تزيد على كراهتك

بيان حقيقه الحسد وحكمه

(١) حديث « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » لم أجد له أصلا مرفوعا ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا فى ذم الحسد .

لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى ﴿ ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه وقال تعالى ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد . وقال تعالى في معرض الإنكار ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ قيل في التفسير : حسدا . وقال تعالى ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا [١] . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ إلى قوله ﴿ أن يكفروا بما أنزل الله بغيا ﴾ أي حسدا . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : جاء أبي وعمي من عندك يوما ، فقال أبي لعمي : ماتقول فيه ؟ قال : أقول إنه النبي الذي بشر به موسى . قال : فما ترى ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة [٢] فهذا حكم الحسد في التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ـ قالا لعلي حين قال لهما : لاتذهبا إليه فإنه لايؤمركما عليها ـ فقالا له : ماهذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك [٣] أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة .

والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لايحظى هو بها ،

---

(١) حديث ابن عباس : قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا : نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله .. الحديث : في نزول قوله تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أخرجه ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره نحوه وهو منقطع (٢) حديث : قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي : ماتقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى .. الحديث . أخرجه ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً .

(٣) حديث قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي ... الحديث » هكذا وقع للمصنف أنه قثم والفضل وإنما هو الفضل والمطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس ائتيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه ؟ فذكر الحديث .

فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما فهو يعمل به ويعلمه الناس [1] » ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الأنمارى فقال « مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء - وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مايعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال - ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ماأنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء [2] » فذمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة تمنية للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله . فإذاً لا حرج على من يغبط غيره فى نعمة ويشتهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة ، وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال فى المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المنعم عليه ، والآخر . ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى المباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان . وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان ، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا انسد أحد الطريقين فيكاد القلب لاينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره ، وهذا يكاد لاينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى فى إزالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما ، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعفى عما يجده فى طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ، ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لاينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة [3] » ثم قال وله منهن مخرج : « إذا حسدت فلا تبغ » أى إن وجدت فى قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعيد أن يكون الانسان مريدا للحاق بأخيه فى النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة ؛ إذ يجد لامحالة ترجيحا له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغى أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر ، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الايمان رزين التقوى . ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان فى مقاصد الدين أو مقاصد

---

(١) حديث « لاحسد إلا فى اثنتين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمرو وقد تقدم فى العلم (٢) حديث أبى كبشة : مثل هذه الأمة مثل اربعة : رجل آتاه الله مالا ... الحديث » رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح .

(٣) حديث « ثلاث لاينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ... الحديث » تقدم غير مرة .

الدنيا ، ولكن يعفى عنه فى ذلك مالم يعمل به إن شاء الله تعالى ، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه هى حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الخبث . (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فى تلك النعمة ، مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها (الثالثة) أن لا يشتهى عينها لنفسه بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . (الرابعة) أن يشتهى لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة حسدا فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة ، فإن كان ذلك أمرا دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته ، وإن كان دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإنما نظرنا الآن فى الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً ، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب : العداوة ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه إنما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه ، أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتعزز . وإما أن يكون فى طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيم فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته فى أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التى تنبنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . ولابد من شرح هذه الأسباب .

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنسانا ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ﴾ الآية . وكذلك قال ﴿ ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر ﴾ والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وماجرى مجراه .

السبب الثانى : التعزز ؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لايرضى بالترفع عليه .

السبب الثالث : الكبر ؛ وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة فى أغراضه ، فإذا نال نعمة خاف أن لايحتمل تكبره ويترفع عن متابعته ، أوربما يتشوف إلى مساواته أوإلى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبراً عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا : كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ رءوسنا ؟ فقالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (١) أى كان لايثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيما وقال تعالى يصف قول قريش ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ كالاستحقار لهم والأنفة منهم .

السبب الرابع : التعجب ، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا ﴿ ماأنتم إلابشر مثلنا ﴾ ﴿ وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ ﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحى والقرب من الله تعالى بشرمثلهم فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة ، لاعن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أوسبب آخر من سائر الأسباب ، وقالوا متعجبين ﴿ أبعث الله بشرا رسولا ﴾ وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ وقال تعالى ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ الآية .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد ، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد ، فإن كان واحد يحسد صاحبه فى كل نعمة تكون عونا له فى الانفراد بمقصوده ، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال ، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه ، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم ، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهه محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود . وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر

بيان أسباب الحسد والمنافسة

(١) حديث : سبب نزول قوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ذكره ابن اسحاق فى السيرة ، وأن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين ، فأنزل الله فيما بلغنى هذه الآية . ورواه أبو محمد بن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالا مسعود بن عمرو ، وفى رواية لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفى وهو ضعيف .

وفريد العصر فى فنه وأنه لانظير له ، فإنه لوسمع بنظيرله فى أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أوزوال النعمة عنه التى بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده ، وليس السبب فى هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء مابين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولايؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم .

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، فإنك تجد من لايشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى إزالتها ، وهذا خبث فى الجبلة لاعن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل فى العادة إزالته . فهذه هى أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أوجميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لايقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة . وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ، وقلما يتجرد سبب واحد منها .

بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه

إعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدو ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض ، فإذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبرعليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب ، إذ لارابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة ، وكذلك فى محلتين ، نعم إذا تجاوروا فى مسكن أو سوق أومدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما ، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد ، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته . لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلايتزاحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر ؛ إذ حريف البزاز لايطلبه

الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق ، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر . وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب ، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص . فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت فى جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو فى العالم وإن بعد ممن يساهمه فى الخصلة التى يتفاخر بها ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين ؛ أما الآخرة فلا ضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين . بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والإفادة . فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضا ، فيما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم . نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت فى يد واحد خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة : فيكون ذلك سببا للمحاسدة ، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل فى يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم فى قلب العالم مستقر ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه ، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما فى الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه ، فمن عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحما فيه ، فلا يكون فى قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء فى مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة ، فإن نعيم العارف وجنته معرفته التى هى صفة ذاته ، يأمن زوالها وهو أبدا يجنى ثمارها : فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهى فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية ، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع فى جنة عالية ورياض زاهرة ، فإن فرض كثرة فى العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ فهذا حالهم وهم بعد فى الدنيا ، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب فى العقبى ؟ فإذن لا يتصور أن يكون فى الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا فى الجنة محاسدة ، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التى لا مزاحمة فيها فى الدنيا أيضاً ، فأهل الجنة بالضرورة برءاء من الحسد فى الدنيا والآخرة جميعا ، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين ، ولذلك وسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى . فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود

يضيق عن الوفاء بالكل . ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التى هى جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا . فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقا أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ؟ ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك فى الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً . فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت فى ذلك معذور ؛ إذ العنين لا يشتاق إلى لذة الوقاع ، والصبى لا يشتاق إلى لذة الملك ، فإن هذه لذات يختص بادراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين. فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها الرجال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ .

بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة. أما كونه ضررا عليك فى الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده ، وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى فى عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه فى حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . وهذه خبائث فى القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يمحو الليل النهار . وأما كونه ضررا عليك فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال فى كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك . ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العذاب الشديد فى الآخرة ؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه فلا حيلة فى دفعه ، بل كل شىء عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكا نبى من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه : فر من قدامها حتى تنقضى أيامها أى ما قدرناه فى الأزل لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتى تنقضى المدة التى سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما

لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا ولا يكون عليه إثم فى الآخرة ، ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهـذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضا، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمـان . قال الله تعالى ﴿ ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ إذ ما يريد الحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن أراد الكفر كفر . فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم . وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة، فإن كل واحد من حمق الحساد أيضا يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح . أما منفعته فى الدين : فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها إليه؛ أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة ، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته فى الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ، ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسدا . ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده ، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فى الدنيا والآخرة . وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا فى الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه فى الثواب بسبب المحبة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير ، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر فى الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك ، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك .

وقد قال أعرابى للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبى صلى الله

عليه وسلم « المرء مع من أحب (١) » وقام أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ فقال « ماأعددت لها ؟ » قال : ماأعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا إنى أحب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم « أنت مع من أحببت (٢) » قال أنس : فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس . فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم . وقال أبو موسى : قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلى ويحب الصوام ولا يصوم ، حتى عدّ أشياء . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « هو مع من أحب (٣) » وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز : إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما ، فإن لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم ، فقال : سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت ، وكيف لاوعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطىء فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم وأى إثم يزيد على ذلك ؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء فى الحديث « أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحب له والكاف عنه (٤) » أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لاتكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس ومانفذ حسدك فى عدوك بل على نفسك ، بل لو كوشفت بحالك فى يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد فى صورة من يرمى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظة فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم فى كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه ، بل حالك فى الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لامحالة . والحسد يعود بالإثم والإثم لايفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار ، فلأن تذهب عينه فى الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار . فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد ؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ وربما يبتلى بعين مايشتهيه لعدوه ، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : ماتمنيت لعثمان شيئا إلا نزل بى ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت . فهذا إثم الحسد نفسه فكيف مايجر إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش فى التشفى من الأعداء ؟ وهو الداء الذى فيه هلك الأمم السالفة .

فهذه هى الأدوية العلمية فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه ، وعلم

---

(١) حديث : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : سؤال الأعرابى متى الساعة ؟ فقال « ماأعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث أبى موسى : قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولايصلى ... الحديث » وفيه « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصرا : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال « المرء مع من أحب » (٤) حديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والكاف عنه » لم أجد له أصلا

أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه ، فإن حمله الحسد على القدح فى محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا : طبعا آخرا ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة ـ تكلفاً كانت أو طبعاً ـ تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

فهذه هى أدوية الحسد وهى نافعة جدا إلا أنها مرة على القلوب جدا ولكن النفع فى الدواء المر . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ؛ وإنما تهون مرارة هذا الدواء ، أعنى التواضع للأعداء والتقرب إليهم ، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التى ذكرناها وقوة الرغبة فى ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه . وعزة النفس وترفعها عن أن يكون فى العالم شىء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد مالا يكون ، إذ لا مطمع فى أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين : إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثانى: فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلى .

فأما الدواء المفصل : فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على مالا يغنى ـ وسيأتى تفصيل مداواة هذه الأسباب فى مواضعها إن شاء الله تعالى ـ فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة ، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد فى تسكينه مع بقاء مواده ، فإنه مادام محباً للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة فى قلوب الناس دونه ، ويغمه ذلك لا محالة ، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق .

بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذى ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً ، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لا تزال تدرك فى النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوى ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك ، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس فى نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال الله تعالى ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ وقال عز وجل ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ وقال ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ﴾ أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن

الحسد وليس هو عين الحسد ، بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصيه بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على مافى طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل فى مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أديت الواجب عليك ،ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرحه أوغمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتاإلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهى عين الرحمة ، ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالاالله ،ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته - أعنى الشيطان - فإنه ينازع بالوسوسة . فمهما قابل ذلك بكراهته والزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ماكلفه. وقدذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : غمه فإنه لا يضرك مالم تبده . وروى عنه موقوفا ومرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثه لايخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج » فمخرجه من الحسد أن لا يبغى ، والأولى أن يحمل هذا على ماذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل فى مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ما ورد من الأخبار فى ذم الحسد يدل ظاهره على ان كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال . فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذن كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو فى محل الاجتهاد ، والأظهر ماذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ، إذ يبعد أن يعفى عن العبد فى إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا ان لك فى أعدائك ثلاثة أحوال ، أحدها : أن تحب مساءتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة فى إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه قطعا لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثانى : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحظور قطعا .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد فى مقتضاه ، وهذا فى محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه . والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها . وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا فى شواهدها وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفى مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ، ولكنها فى صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين فى وصالها ، ثم هى فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها ، إن أحسنت ساعة أساءت سنة . وإن أساءت مرة جعلتها سنة ، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بنيها خاسرة بائرة ، وآفاتها على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجارى أحوالها بذل طالبيها ناطقة . فكل مغرور بها إلى الذل مصيره . وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها ، ومن خدمها فاتته ، ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم فهى خداعة مكارة ، طيارة فرارة ، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها ، وشوشت عليهم مناظم أسبابها ؛ وكشفت لهم عن مكنون عجائبها ، فأذاقتهم قواتل سمامها ؛ ورشقتهم بصوائب سهامها . بينما أصحابها منها فى سرور وإنعام إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام . ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم فى أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا وتعدهم غرورا حتى يأملون كثيراً ويبنون قصورا . فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا . وسعيهم هباء منثورا ودعاؤهم ثبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدوراً . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا . وعلى من كان من أهله وأصحابه له فى الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيراً وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد : فان الدنيا عدوة لله وعدوة لأولياء الله وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها . وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل : فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها . وأما عداوتها لأعداء الله : فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها . وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها . فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد . ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد . فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون . بل يقال لهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ .

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلابد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هى ؟ وما الحكمة فى خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم

الدنيا وأمثلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى . وهو المعين على ما يرتضيه .

بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة فى ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القران مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . فقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على شاة ميتة فقال « أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها ألقوها . قال « والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عندالله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر [٢] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ما كان لله منها [٣] » وقال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا مايبقى على مايفنى [٤] » وقال صلى الله عليه تعالى وآله وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة [٥] » وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت : ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال : ثم مسح عينيه فقالوا : ياخليفة رسول الله ماأبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا ؛ فقلت يارسول الله ماالذى تدفع عن نفسك ؟ قال « هذه الدنيا مثلت لى فقلت لها : إليك عنى ثم رجعت فقالت : إنك إن أفلت منى لم يفلت منى من بعدك [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « ياعجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور [٧] » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال « هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال : هذه الدنيا [٨] » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق وأن الأجسام التى ترى بها ستصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بنى إسرائيل لما

كتاب ذم الدنيا

(١) حديث : مر على شاة ميتة فقال « أترون هذه الشاة هينة على صاحبها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذى وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ، ولمسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث « الدنيا ملعونة ملعون مافيها » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وزاد « إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم » (٤) حديث أبى موسى الأشعرى « من أحب دنياه أضر بآخرته .. الحديث » أخرجه أحمد والبزار والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه (٥) حديث « حب الدنيا رأس كل خطيئة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا .

(٦) حديث زيد بن أرقم : كنا مع أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى ... الحديث . وفيه : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ... الحديث . أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح إسناده وابن أبى الدنيا والبيهقى من طريقه بلفظه (٧) حديث « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أبى جرير مرسلا (٨) حديث : أنه وقف على مزبلة فقال « هلموا الى الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمى مرسلا ، وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس .

بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب [١] » وقال عيسى عليه السلام : لاتتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لايضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لايخاف عليه الآفة . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامعشر الحواريين إنى قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدى فإن من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لاتدرك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا . وقال أيضاً : بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يعرضوا لكم ماتركتموهم ودنياهم ، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا : الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه . وقال موسى ابن يسار : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها [٢] » وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر فى موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال : فمر بعابد من بنى إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، فإن ماأعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ؟ [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له ، وعليها يعادى من لاعلم له ، وعليها يحسد من لافقه له ، ولها يسعى من لايقين له [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبه أربع خصال : هما لاينقطع عنه أبدا ، وشغلا لايتفرغ منه أبداً ، وفقرا لايبلغ غناه أبداً ، وأملا لايبلغ منتهاه أبدا [٥] » وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياأباهريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ، فقلت : بل يارسول الله ، فأخذ بيده وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال « ياأبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمادا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ؛ فمن كان باكيا على الدنيا فليبك » قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا [٦] ويروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفناء.

---

(١) حديث « ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله « ان بنى اسرائيل ... الخ » والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التى فى آخره (٢) حديث موسى بن يسار « ان الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر اليها » أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا وللبيهقى فى الشعب من طريقه وهو مرسل (٣) حديث « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير .

(٤) حديث « الدنيا دار من لادار له .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله « ولها يجمع من لاعقل له » دون بقيته وزاد ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه « ومال من لامال له » وإسناده جيد (٥) حديث « من أصبح والدنيا أكبرهمه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبه أربع خصال ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله « وألزم الله قلبه ... الخ » وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف (٦) حديث أبى هريرة « ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها » قلت : بلى يارسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة ... الحديث لم أجد له أصلا

وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدودعنك وماخلقت خلقا أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لاتدومى لأحدولا يدوملك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم مالهم عندى من الجزاء إذاوفدوا إلى من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم مايرجون من رحمتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنياموقوفة بين السماء والأرض ، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكتى يالاشىء إنى لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم (١) » ، وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولا فى شىء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة فلذلك نهياعن أكلها ، قال فجعل يدورفى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له: قل له أى شىء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى ، فقيل للملك : قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار » قالوا يارسول الله مصلين ؟ قال « نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فإذاعرض لهم شىء من الدنيا وثبوا عليه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه « المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لايدرى ماالله قاض فيه ؟ فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة ، والذى نفسى بيده مابعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٣) » وقال عيسى عليه السلام : لايستقيم حب الدنيا والآخرة فى مؤمن كما لايستقيم الماء والنار فى إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : ياأطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . قيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتا يكنك : قال : يكفينا خلقان من كان قبلنا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت (٤) » وعن الحسن : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ؟ ألا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية : ألا أنه سيكون بعدكم قوم لايستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ؛ إلا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز لايريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا (٥) » وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد

---

(١) حديث « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لاينظر إليها . . الحديث » تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلا ولم أجد باقيه . (٢) حديث « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً

(٣) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع (٤) حديث « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية أبى الدرداء الرهاوى مرسلا ، وقال البيهقى ان بعضهم قال عن أبى الدرداء عن رجل من الصحابة قال الذهبى لايدرى من أبو الدرداء قال وهكذا منكر لاأصل له (٥) حديث الحسن « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه هكذا مرسلا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم .

والبرق يوما فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمه من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهى جعلت لكل شىء مأوى ولم تجعل لى مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه : مأواك فى مستقر رحمتى لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادى أين الزهاد فى الدنيا زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتغره ويأمنها ، ويثق بها وتخذله ، وويل المغترين كيف أرتهم مايكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون ؟ وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى مالك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هى ، ياموسى إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أباعبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين ؛ فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء » قالوا : أجل يارسول الله ، قال « فأبشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم [1] » وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن أكثر ما أخاف عليكم مايخرج الله لكم من بركات الأرض ، فقيل مابركات الأرض ؟ قال « زهرة الدنيا [2] » . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا [3] » فنهى عن ذكرها فضلا عن إصابة عينها . وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرق ، فقال : يامعشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ولوماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : ياروح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم . فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك ، فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى : ياأهل القرية فأجابه مجيب لبيك ياروح الله ! فقال : ماحالكم وما قصتكم ؟ قال : بتنافى عافية وأصبحنا فى الهاوية ، قال : وكيف ذاك ؟ قال . بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى ، قال : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبى لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزناً وبكينا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم يجيبونى ؟ قال لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدى ملائكة غلاظ شداد ، قال : فكيف أجبتنى أنت من بينهم ؟ قال : لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم لاأدرى أأنجوا منها أم أكبكب فيها ؟ فقال المسيح للحواريين : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة . وقال أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم العضباء لاتسبق فجاء أعرابى بناقة له فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنه حق على الله أن لايرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه [4] » وقال عيسى عليه السلام : من الذى يبنى على موج البحر دارا ؟ تلكم الدنيا فلا

(١) حديث : بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة . متفق عليه من حديث عمرو ابن عوف البدرى (٢) حديث أبى سعيد « إن أكثر ما أخاف عليكم مايخرج الله لكم من بركات الأرض .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث « لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » أخرجه البيهقى فى الشعب من طريق ابن أبى الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثى مرسلا (٤) حديث أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لاتسبق .. الحديث . وفيه « حق على الله أن لايرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » أخرجه البخارى .

تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام : علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه ، قال : ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى . وقال أبو الدرداء ؛ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة [١] » ثم قال أبو الدرداء - من قبل نفسه - لو تعلمون ماأعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لاحارس لها ولاراجع إليها إلا مالابد لكم منه ؛ ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التى لاتدع هواها مخافة مما فى عاقبته ، مالكم لاتحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله مافرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولواجتمعتم على البر لتحاببتم ، مالكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ، ما هذا إلا من قلة الإيمان فى قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم . فإن قلتم : حب العاجلة غالب ؟ فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف فى طلب أمر لعلكم لاتدركونه ، فبئس القوم أنتم ماحققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم ! فإن كنتم فى شك مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ماتطمئن إليه قلوبكم ! والله ماأنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم إنكم تستبينون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم ، مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لايتبين ذلك فى وجوهكم ولا يتغير حالكم ، إنى لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضاً بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعالى أراحنى منكم وألحقنى بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم ، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسى وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا . وفى معناه قيل :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : ياطالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب [٢] » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ورجع وهو يبكى ، فقال موسى : يارب عبدك يبكى من مخافتك فقال : ياابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفرله وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال على رضى الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا : أولها : من

(١) حديث أبى الدرداء « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة » أخرجه الطبرانى دون قوله « ولهانت ... الخ » وزاد « ولخرجتم إلى الصعدات ... الحديث . وزاد الترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر « وما تلذذتم بالنساء على الفرش » وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفى أفراد البخارى من حديث عائشة

(٢) حديث « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب » لم أجد له أصلا .

عرف الله وأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله : من نافسك فى دينك فنافسه ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يابنى إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل : طالت فكرتى فى هذه الآية ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزاً ﴾ وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح فى شيء من الدنيا إلاوقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك فى أكله ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الأمنية . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ومن فاته نصب . وفى ذلك قيل :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولاأكون فيها ، فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية . وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لاتعطى أحدا مايستحق ، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت فى غير أهلها . وقال أبو سليمان الدارانى : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبى حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليست لى بدار ، فقال : انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا فى حقه . ولايضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلاتسرق من حانوته شيئاً فيجيء فى طلبه فيأخذك . وقال الفضيل : لوكانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى ؛ لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى ؟ وقال أبوحازم : إياكم والدنيا فإنه بلغنى أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً الدنيا فيقال : هذا عظم ماحقره الله . وقال ابن مسعود : ماأصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة . وفى ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم بن ادهم : كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا مانرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضاً فى ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيـــانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهدّما

وقيل أيضاً فى ذلك :

هب الدنيا تساق إليـــك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقـال
وما دنيــاك إلا مثــل فىء أظــلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولاتبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا . وقال مطرف ابن الشخير : لاتنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم . وقال ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالمؤمن يتزوّد ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب . وفى ذلك قيل :

يا خاطب الدنيـــا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غـــدارة قريبة العرس من المـــأتم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لايعصى إلا فيها ولاينال ماعنده إلا بتركها . وفى ذلك قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوّ فى ثياب صديق

وقيل أيضاً :

ياراقد الليل مسروراً بأوّله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة كر الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا
يامن يعانق دنيا لابقاء لها يمسى ويصبح فى دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه : لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث نبى وأخرجت أمة ، قال : يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم ، قال : لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لايعبدوا الأوثان ، وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلى كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ، قال : وماأصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها الحساب ، وفى حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقيل : قصر فقال : حلالها حساب ، وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا . وقال أبو سليمان الدارانى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، فإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة . وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ماذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعا له . وقال مالك بن دينار : بقدر ماتحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ماتحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مماقاله على كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا

والآخرة ضرتان ، فبقدر ماترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ، مايبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا ؟ وقال رجل للحسن : ماتقول فى رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه ؟ - يعنى يتنعم - فقال : لا ، لوكانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره وقال الفضيل : لوأن الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه وقيل : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على الناقة مخطومة بحبل، فسلم وسأله ، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه : لو اتخذت متاعا ؟ فقال : ياأمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل . وقال سفيان : خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك . وقال الحسن : والله لقد عبدت بنو إسرائل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا . وقال وهب : قرأت فى بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه : يابنى إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لايشعر . وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله مارأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ، والله مامر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذى له [1] وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ من قال ذا ؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها ، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لايفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولايستقل عمله ، يفرح بمصيبته فى دينه ويجزع من مصيبته فى دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : سلام عليك ، أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات .فأجابه عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض الدخول فى الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم . عجبا لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح ؟ وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ؟ وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب ! ؟ وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء وسنيات رخاء ، يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك ، فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له : سل ماشئت ، قال : عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه، قال : لاأملك ذلك ، قال : لاحاجة لى إليك . وقال داود الطائى رحمه الله : ياابن آدم فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كان منفعته لغيرك . وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم : مافى الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ؛ ولم يدرك ماأمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد ؛ قد نلت الغنى ، فقال : إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا . وقال أبو سليمان . لايصبر

---

(١) حديث عمرو بن العاص : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ... الحديث » أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال مالك بن دينار : اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضا ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا ؟ وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة ، وقال الحسن . أهينوا الدنيا فو الله ماهى لأحد بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا: إذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك ، فإذا نفد أعاد عليه ، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول فى دعائه : ياممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عنى . وقال محمد بن المنكدر : أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد فى سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم فى عينه ما صغره الله ، وصغر فى عينه ماعظمه الله كيف ترى يكون حاله ؟ فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا ؟ وقال أبو حازم : اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانا ، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شىء منها إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالى تنادى ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها . يارب يارب لم تبغضنى ؟ فيقول لها : اسكتى يالاشىء . وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوشته ، فمتى يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشىء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب . وقيل لبشر : مات فلان فقال : جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، ضيع نفسه قيل له : إنه كان يفعل ويفعل ـ وذكروا أبوابا من البر ـ فقال : وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟ وقال بعضهم : الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا ؟ وقيل لحكيم : الدنيا لمن هى قال : لمن تركها ؟ فقيل الآخرة لمن هى ؟ قال : لمن طلبها وقال حكيم : الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنه دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها . وقال الجنيد : كان الشافعى رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا ، وعظ أخاله فى الله وخوفه بالله فقال : ياأخى إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارض برزق الله لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك ، فإن عيشتك فىء زائل وجدار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم فى المنام أحب إليك أم دينار فى اليقظة . فقال دينار فى اليقظة فقال : كذبت ، لأن الذى تحبه فى الدنيا كأنك تحبه فى المنام ، والذى لاتحبه فى الآخرة كأنك لا تحبه فى اليقظة . وعن إسمعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنا يا خنزيرة ، فلو وجدوا لها اسماء أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب : لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله: العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضاً : الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن . وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد فاعلم أنهم فى سخرة الشيطان . وقال أيضاً : من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها ـ يعنى الحرص ـ حتى يصير رمادا ، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لا حد لقيمته . وقال على كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب

ومنكوح ومشموم ، فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال فى مبال ، وإن المرأة لتزين أحسن شىء منها ويراد أقبح شىء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم

بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرف لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، وهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق ، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجعه بشىء هو ضنين به بين أحبابه ، فالدنيا أحق بالذم ، هى الآخذة ماتعطى ، الراجعة فيما تهب ، بينا هى تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره ، وبينا تبكى له إذ أبكت عليه ، وبينا هى تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غدا ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى ، تجد فى الباقى من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها . والغنى منها فقرها . لها فى كل حين قتيل . تذل من أعزها . وتفقر من جمعها . هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه . فكن فيها كالمداوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوفت بخطابها . فأصبحت كالعروس المجلية . العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهى لأزواجها كلهم قالية . فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر . ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر . فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه ، فعظمت ندامته وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد وقدم

على غير مهاد ، فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ماتكون لها ؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، السارّ فى أهلها غار ، والنافع فيها غدّار ضار ، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء ، فسروها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ماولى وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينتظر . أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على الحذر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها [1] ، إذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؛ ونسى ماصنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه [2] ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحباً بشعار الصالحين ، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلائى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض ، أبيت وليس لى شىء ، وأصبح وليس لى شىء ، وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه : لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى ، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة ، وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا ، إنما يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذى يظهرون ، وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون ، وسيماهم التى بها يعرفون ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها : اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها فى رخاء

---

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز : عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه « إنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة ... الحديث » وسنده صحيح وللترمذى من حديث أبى أمامة « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ... الحديث » (٢) حديث الحسن مرسلا فى شده الحجر على بطنه . أخرجه ابن أبى الدنيا أيضاً هكذا وللبخارى من حديث أنس : رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرين ، وقال حديث غريب .

وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور . أحوال مختلفة وتارات منصرفة . العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها . وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا . فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة . الصخور والأحجار المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة . فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين . لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار . وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى ؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً وبعد نضارة العيش رفاتا فجع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب ظعنوا فليس لهم إياب . هيهات هيهات ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع . فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبعثرت القبور وحصل ما فى الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والأستار وظهرت منكم العيوب والأسرار ؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عز وجل يقول ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالى فى بدنك ؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك واستثقلت ممر الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم ، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال . الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به ، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان ، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول ، والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمق ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى ، إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون ، عباد الله إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

قال على كرم الله وجهه فى خطبته : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه ، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم فى

الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها ؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ،

وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها ، أكلوا منها قصداً وقدموا فضلا ، وأخذوا منها مايكفي وتركوا مايلهي ، لبسوا من الثياب ماستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه ماسد الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ؛ وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، تعبوا قليلا وتنعموا طويلا ، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحب ماأحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء ، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عنيفا ومرتحلة ارتحالا سريعا ، ولكن الناظر إليها قد لايحس بحركتها فيطمئن إليها ، وإنما يحس عند انقضائها ، ومثالها الظل فإنه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر ، لاتدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيرا ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغتراراً بظل زائل حمق

وقيل إن هذا من قوله . ويقال : إن أعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاما فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوماً أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها . تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون [1] » وقال يونس بن عبيد . ماشبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه مايكره وما يحب فبيناهو كذلك إذ انتبه ، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به . وقيل لبعض الحكماء . أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال أحلام النائم .

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها . اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولا والتوصل إلى الإهلاك آخرا ، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة ، فقال لها . كم تزوجت ؟ قالت . لا أحصيهم ، قال

---

(١) حديث « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون » لم أجد له أصلا .

فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ! ؟ .

مثال آخر الدنيا فى مخالفة ظاهرها لباطنها : اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهى شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها ، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها . وقال العلاء بن زياد : رأيت فى المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها ، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها : ويلك من أنت ؟ قالت : أو ما تعرفنى ؟ قلت : لا أدرى ! من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا ، قلت : أعوذ بالله من شرك ! قالت : إن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم . قال أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائى أقبلت على فقالت : لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال الفضيل بن عياض : قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ومشوه خلقها ، فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ! فيقال : هذه الدنيا التى تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى : أى رب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول الله عز وجل ؟ ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل : بلغنى أن رجلا عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته ، فإذا هى أدبرت كانت أحسن شىء رآه الناس ، وإذا هى أقبلت كانت أقبح شىء رآه الناس ، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال : فقلت : أعوذ بالله منك ! قالت : لا والله . لا يعيذك الله منى حتى تبغض الدرهم ! قال : فقلت من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا .

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها : اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئا وهى ماقبل وجودك إلى الأزل ، وحالة لاتكون فيها مشاهدا للدنيا وهى مابعد موتك إلى الأبد ، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهى أيام حياتك فى الدنيا ؛ فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفى الأزل والأبد حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير فى سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مالى وللدنيا ! وإنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب سار فى يوم صائف فرفعت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها [١] » ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه فى ضر وضيق أو فى سعة ورفاهية ، بل لايبنى لبنة على لبنة . توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة [٢] ورأى بعض الصحابة يبنى بيتاً من جص فقال « أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك [٣] » وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة ، واللحد هو الميل الآخر ،

---

(١) حديث « مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : ماوضع لبنة على لبنة ... الحديث . أخرجه ابن حبان فى الثقات والطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف « من سأل عنى أو سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث » (٣) حديث: رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال « أرى الأمر أعجل من هذا » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح .

وبينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها . وكيفما كان فلابد له من العبور ، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدنيا فى لين موردها وخشونة مصدرها : اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات ! فإن الخوض فى الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب على رضى الله عنه إلى سلمان الفارسى بمثالها فقال : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فأعرض عما يعجبك منها لقلة مايصحبك منها ، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها ، وكن أسر ماتكون فيها أحذر ماتكون لها ، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام .

مثال آخر للدنيا فى تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما مثل صاحب الدنيا كالماشى فى الماء هل يستطيع الذى يمشى فى الماء أن لاتبتل قدماه [1] » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون فى نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة ، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها ، فكما أن المشى على الماء يقتضى بللا لامحالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظلمة فى القلب ، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة.
قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لايلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع مايجد من حب الدنيا ، وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ ، وبحق أقول لكم ، إن الزق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله [2] » .

مثال آخر لما بقى من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع [3] »

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها ، اعلم أن شهوات الدنيا فى القلب لذيذة كشهوات الأطعمة فى المعدة ، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح مايجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت فى المعدة غايتها ، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا ، فكذلك كل شهوة فى القلب هى أشهى وألذ وأقوى ، فنتنها وكراهتها والتأذى بها عند الموت أشد

---

(١) حديث « إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى فى الماء ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقى فى الشعب من رواية الحسن قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره . ووصله البيهقى فى الشعب وفى الزهد من رواية الحسن عن أنس
(٢) حديث « إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرقه فى موضعين ورجاله ثقات
(٣) حديث « مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف :

بل هى فى الدنيا مشاهدة ، فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه فى كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ، ولا معنى للموت إلا فقد ما فى الدنيا . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للضحاك بن سفيان الكلابى « ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء ؟ » ، قال : بلى ؛ قال « فإلام يصير » قال : إلى ما قد علمت يارسول الله ، قال : « فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم [١] » وقال أبى بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قزحه وملحه إلام يصير [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا وإن قزحه وملحه [٣] » وقال الحسن : قد رأيتهم يطيبونه بالأفاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ قال ابن عباس إلى رجيعه وقال رجل لابن عمر إنى أريد أن أسألك وأستحيى قال فلا تستحى واسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما بخلت به انظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر فى نسبة الدنيا إلى الآخرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر أحدكم بم يرجع إليه [٤] » .

مثال آخر للدنيا وأهلها فى اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها : اعلم أن أهل الدنيا مثلهم فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها ، فتفرقوا فى نواحى الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ، وبعضهم توقف فى الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها ، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيقاً حرجا فاستقر فيه ؛ وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة ، فلم يجد فى السفينة إلا مكانا ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه ووبالا ، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكانا لوضعه ، فحمله فى السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولج الغياض ونسى المركب وبعد فى متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات

---

(١) حديث : أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابى ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ... الحديث . وفيه « فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » أخرجه أحمد والطبرانى من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه (٢) حديث أبى بن كعب : إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم ... الحديث . أخرجه الطبرانى وابن حبان بلفظ : إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد فى زياداته بلفظ « جعل » (٣) حديث « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا ... الحديث » الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذى تقدم من حديث الضحاك بن سفيان « إن الله ضرب مايخرج من بنى آدم مثلا للدنيا » (٤) حديث « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع إليه » أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد .

والنكبات ، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوكة تدخل فى رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراده ، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلا بما معه ولم يجد فى المركب موضعا فبقى فى الشط حتى مات جوعا . وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع ، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات فى الأوحال ، ومنهم من نهشته الحيات، فتفرقوا كالجيف المنتنة .

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكمدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها . فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها فى البحر هربا منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا مافاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما . فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهى الذهب والفضه وهشيم النبت وهى زينة الدنيا ، وشىء من ذلك لايصحبه عند الموت بل يصير كلا ووبالا عليه وهو فى الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عزوجل .

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم : قال الحسن رحمه الله بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ، ماسلكوا منها أكثر أو ما بقى ؟ أنفدوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهرانى المفازة ولا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل فى حلة تقطر رأسه ، فقالوا : هذا قريب عهد بريف وماجاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : ياهؤلاء : فقالوا : ياهذا ! فقال علام أنتم ؟ فقالوا : على ماترى ، فقال : أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ماتعملون ؟ قالوا : لانعصيك شيئا ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئا قال : فأوردهم ماء رواء ورياضا خضرا فمكث فيهم ماشاء الله ثم قال : يا هؤلاء ! قالوا : ياهذا ! قال : الرحيل ! قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ماوجدنا هذا حتى ظننا أنا لن نجده ومانصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة ـ وهم أقلهم ـ ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لاتعصوه شيئا وقد صدقكم فى أول حديثه فوالله ليصدقنكم فى آخره ؟ فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل [1] » .

ومثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها : اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما ، واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليتملكه ويأخذه ، فجهل رسمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له ، فلما استرجع منه ضجر وتفجع ، ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب

(١) حديث الحسن : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبزار والطبرانى من حديث ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث وفيه « فقال أى أحد الملكين إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة » فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن .

وانشراح صدر ، وكذلك من عرف سنة الله فى الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعوارى ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها . فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه .

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لاتكفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة ماهى ؟ وماالذى ينبغى أن يجتنب منها وماالذى لا يجتنب ؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهى ؟ فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الدانى منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخى المتأخر يسمى آخرة وهومابعد الموت ، فكل مالكفيه حظ ونصيبوغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهى الدنيا فى حقك إلا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام . القسم الأول : مايصحبك فى الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان : العلم والعمل فقط ؛ وأعنى بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعنى بالعمل . العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح فى لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلا فى الدنيا . ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا إنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقنى قوة الصلاة والركوع والسجود فى القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكنا لسنا نعنى بالدنيا المذمومة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « حبب إلى من دنياكم ثلاث :النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة[1] » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل مايدخل فى الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون فى الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أنا لسنا فى هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثانى : وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصى كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة فى جمله الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والغلمان والجوارى والخيول والمواشى والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة ، فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة وفيما يعد فضولا أوفى محل الحاجة نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضى الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر : من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك فى بناء فارس والروم ماتكتفى به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابى هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه .

---

(١) حديث « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة » أخرجه النسائى والحاكم من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وتقدم فى النكاح .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حظ فى العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التى بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الاول ، لانه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا ؛ وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثانى وصار من جملة الدنيا . ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب ؛ أعنى طهارته عن الأدناس ، وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات بعد الموت .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهى من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد فى الأخبار « إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه [1] » الحديث .

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية فى الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله ، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق ؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة فى الرجوع إليه ؟ ولذلك قيل :

ما حال من كان له واحـــد غيب عنه ذلك الواحـــد

وليس الموت عدما إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهى الذكر والفكر والعمل الذى يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها ، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن ، وصحة البدن لا تنال إلا بقوت وملبس ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذى لابد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة ، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين فى حظوظها ، إلا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم إلى مايعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما ، وإلى مايحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب [2] إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عذاب [3] » وقد قال أيضا « حلالها عذاب » إلا إنه عذاب أخف من عذاب الحرام،

(١) حديث : مناضلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومى ضعفه البخارى وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبى بكر « إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنا أحزبه عمله الصلاة والصيام ... الحديث » وإسناده صحيح (٢) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه موقوفا على على بن أبى طالب بإسناد منقطع بلفظ « وحرامها النار » ولم أجده مرفوعا .

بل لو لم يكن الحساب لكان مايفوت من الدرجات العلا فى الجنة ومايرد على القلب من التحسر على تفوتها لحظوظ حقيرة خسيسة لابقاء لها هو أيضاً عذاب ، وقس به حالك فى الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لابقاء لها ؟ منغصة بكدورات لاصفاء لها فما حالك فى فوات سعادة لايحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها ؟ فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه « هذا من النعيم الذى تسئل عنه [١] » أشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : اعزلوا عنى حسابها ، حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره فى كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ماأعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد ، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال : رغبت فى الدنيا ! وحتى إن سليمان عليه السلام فى ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما [٢] وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع [٣] ، ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظراً لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباله لابخلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ماليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذى هو لله ؟ فأقول : الأشياء ثلاثة أقسام : منها مالا يتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ماصورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة : الفكر والذكر والكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليست من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ماصورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله ، وذلك كالأكل والنكاح وكل مايرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر [٤] » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد ، فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لاحاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونهى النفس عن

---

(١) حديث هذا من النعيم الذى تسئل عنه تقدم فى الأطعمة (٢) حديث : زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما أخرجه محمد بن خفيف فى شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال : قلت يارسول الله عجبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك … الحديث . وهو من طريق إسحاق معلعنا وللترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله … الحديث . قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث : كان يشد الحجر على بطنه من الجوع . تقدم . (٤) حديث « من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان … الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ ومجامع الهوى خمسة أمور : وهى ماجمعه الله تعالى فى قوله ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة : يجمعها قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فقد عرفت أن كل ماهو لله فليس من الدنيا ، وقدر ضرورة القوت ومالابد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله . وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة . ولها طرفان وواسطة : طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغى أن يحذر منه ، وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

والحزم فى الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ماأمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أويسا القرنى كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه ، فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتى عليهم السنة والسنتان والثلاث لايرون له وجها ، وكان يخرج أول الأذان ويأتى إلى منزله بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه مايقوته ، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم ياإخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترمونى فارمونى بأحجار صغار فإنى أخاف أن تدموا عقبى ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء ، فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن إشارة إليه رحمه الله (١) » ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم ؛ قال : فقاموا . فقال : اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلا من كان من مراد ، فجلسوا فقال : اجلسوا إلا من كان من قرن ، فجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر : أقرنى أنت ؟ فقال : نعم فقال : أتعرف أويس بن عامر القرنى ؟ فوصفه له ، فقال : نعم وما ذاك تسأل عنه ياأمير المؤمنين ! والله مافينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه ، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه ثم قال : ماقلت ماقلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر (٢) » فقال هرم بن حيان : لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم إلا أن أطلب أويسا القرنى وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه ، قال : فعرفته بالنعت الذى نعت لى ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كريه الوجه متهيب المنظر قال : فسلمت عليه فرد على السلام ونظر إلى ، فقلت : حياك الله من رجل ومددت يدى لأصافحه فأبى أن يصافحنى ، فقلت : رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ؟ ثم خنقتنى العبرة من حبى إياه ورقتى عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى ، فقال : وأنت فحياك الله ياهرم بن حيان كيف أنت ياأخى ومن دلك على ؟ قال : قلت الله فقال :

---

(١) حديث « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » أشار به إلى أويس القرنى تقدم فى قواعد العقائد لم أجد له أصلا .

(٢) حديث عمر « يدخل الجنة فى شفاعته مثل ربيعة ومضر » يريد أويسا ورويناه فى جزء ابن السماك من حديث أبى أمامة « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر » وإسناده حسن ، وليس فيه ذكر لأويس بل فى آخره : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان .

لاإله إلا الله سبحان الله ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ قال : فعجبت حين عرفنى ولا والله مارأيته قبل ذلك ولا رآنى ! فقلت : من أين عرفت اسمى واسم أبى وما رأيتك قبل اليوم ؟ ﴿ قال نبأنى العليم الخبير ﴾ وعرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل ، قال : قلت حدثنى رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال إنى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لى معه صحبة بأبى وأمى رسول الله ، ولكن رأيت رجالا قد صحبوه ويلغنى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى شغل عن الناس ياهرم بن حيان ! فقلت : يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فإنى أحبك فى الله حبا شديدا ، قال : فقام وأخذ بيدى على شاطىء الفرات ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى . ثم قال : قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ ﴿ وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ فشهق شهقة ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال : يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ومات أبوك آدم وماتت أمك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجى الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفيى ، ثم قال : ياعمراه ياعمراه ، قال : فقلت رحمك الله إن عمر لم يمت ، قال : فقد نعاه إلى ربى ونعى إلى نفسى ! ثم قال : أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال . هذه وصيتى إياك ياهرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إلى نفسى ونفسك ، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت ، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعا ، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لاتعلم فتدخل النار يوم القيامة ، ادع لى ولنفسك ، ثم قال : اللهم إن هذا يزعم أنه يحبنى فيك وزارنى من أجلك فعرفنى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه مادام فى الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وماأعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين وأجزه عنى خير الجزاء ثم قال : أستودعك الله ياهرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لاأراك بعد اليوم رحمك الله تطلبنى فإنى أكره الشهرة والوحدة أحب إلى إنى كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلاتسأل عنى ولاتطلبنى ، واعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترنى فاذكرنى وادع لى فإنى سأذكرك وأدعولك إن شاء الله ، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا . فحرصت أن أمشى معه ساعة فأبى على وفارقته فبكى وأبكانى وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرنى عنه بشىء رحمه الله وغفر له .

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا .

وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج إذ حلف أنه فى طريق الحج

لايشتغل بغير الحج بل يتجرد له ، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل مالا بد للحج منه لم يحنث فى يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا . نعم إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنافسى : كنت على باب بنى شيبة فى المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت فى الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه . فهذا بيان حقيقة الدنيا فى حقك . فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله فى إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الأرض وما عليها قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات: فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى وأما المعادن : فيطلبها للآلات والأوانى ، كالنحاس والرصاص ، وللنقد ، كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الآدمى : أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان ؛ أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ؛ ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذى يعبر عنه بالجاه ؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هى الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى فى قوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ وهذا من الإنس ﴿ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها ﴿ والخيل المسومة والأنعام ﴾ وهى البهائم والحيوانات ﴿ والحرث ﴾ وهو النبات والزرع .

فهذه هى أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هى الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهى الأعيان التى ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن ؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهى جملة الصناعات والحرف التى الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التى سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التى يسير بها إلى الله تعالى ، وأعنى بالدابة البدن ، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل فى طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال .

ومثال العبد فى الدنيافى نسيانه نفسه ومقصده : مثال الحاج الذى يقف فى منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج ، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه فى البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذى يقوى به على المشى ، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير فى السفر إلى الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام فى البطن وبين إخراجه من البطن فى أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها . وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضرورى وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا فى كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس فى مقاصدها حتى تتضح لك اشغال الدنيا ، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم ؟ فنقول : الأشغال الدنيوية هى الحرف والصناعات والأعمال التى ترى الخلق منكبين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس . فالقوت : للغذاء والبقاء . والملبس : لدفع الحر والبرد . والمسكن : لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه .

نعم خلق ذلك للبهائم ، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبخ . والحر والبرد لا يؤثر فى بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فتستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هى أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية، وهى الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناص ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس . والفلاحة للمطعم . والرعاية للمواشى والخيل أيضا للمطعم والمركب . والاقتناص نعنى به تحصيل ماخلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب ، فالفلاح يحصل النباتات والراعى يحفظ الحيوانات ويستنتجها . والمقتنص يحصل مانبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمى ، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ماخلق فيها من غير صنعة آدمى ، ونعنى بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة . ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص ، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما ، أو من جلود الحيوانات . فحدثت الحاجة إلى ثلاث أنواع أخر من الصناعات : النجارة ، والحدادة ، والخرز . وهؤلاء هم عمال الآلات ، ونعنى بالنجارة ؛ كل عامل فى الخشب كيفما كان . وبالحداد ؛ كل عامل فى الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والإبرى وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الخراز ؛ فنعنى به كل عامل فى جلود الحيوانات وأجزائها . فهذه أمهات الصناعات .

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين ؛ أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما . والثانى :

التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد ، فإن الاجتماع يفضى إلى الولد لامحالة ، والواحد لايشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد فى المنزل بل لايمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة . فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها ، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ؟ وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة ؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا فى صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها ، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة .

ثم مهما اجتمع الناس فى المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به . ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة المخاصمة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخاصم الزوج ، والولد يخاصم الأبوين . هذا فى المنزل .

وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون فى الحاجات ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعى والأراضى والمياه وهى لاتفى بأغراضهم فيتنازعون لامحالة . ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له ،

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى . فمنها صناعة المساحة التى بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذى ينبغى أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لايكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى فى المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لابد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية ، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا تعطلت الصناعات ، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس ، فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التى لامالك لها إن كانت ، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار ، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لامحالة إلى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر ؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال . وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمستخرجون ، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان ، وإلى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر . وهذه الأعمال لو تولاها عدد لاتجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ، ويختار لكل واحد مايليق به ويراعى النصفة فى أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند فى الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل

طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذى يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس فى الصناعات ثلاث طوائف ؛ الفلاحون والرعاة والمحترفون : والثانية : الجندية الحماة بالسيوف . والثالثة : المترددون بين الطائفتين فى الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وينفتح بسببه أبواب أخر . وهكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور كأنها هاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع فى مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالى . فهذه هى الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات . والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلاها الاغذية ، ثم الأمكنة التى يأوى الإنسان إليها وهى الدور ، ثم الأمكنه التى يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع ، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون فى الآلات ماهو حيوان كالكلب آلة الصيد ، والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب فى الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة . فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة ، إلا أن النجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح فى ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام فى ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتعوق الأغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات ؛ وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات ، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها فى انتظار أرباب الحاجات طمعاً فى الربح ، وكذلك فى جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات ، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس فى البلاد بسببهم ؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام ، فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل ، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول الليل والنهار فى الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذى يأكله لا محالة غيرهم ؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ، ولكن جعل الله تعالى فى غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا فى الدنيا ، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش ، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضا .

ثم هذه الأموال التى تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها ، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة ، ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضاً ، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين فإن من يريد أن يشترى طعاما بثوب فمن أين يدرى المقدار الذى يساويه من الطعام كم هو ؟ والمعاملة تجرى فى أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب ، فلابدّ من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى

مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ، ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة . وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ماتراه . فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم . وشىء من هذه الحرف لايمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء .

وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان : اللصوصية والكداية ؛ إذ يجمعها أنهما يأكلان من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير .

أما اللصوص : فنهم من يطلب أعوانا ويكون فى يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طرارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها .

وأما المكدى فإنه إذا طلب ماسعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئاً ، فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون ، وإما بالتعامى والتفالج والتجانن والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة ، وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة ، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت ، أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين فى الأسواق ، وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات ، والحشيش الذى يخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رءوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمى وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين . وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة . فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها ، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه :

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل ، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا ، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم فى الدنيا ولا قدم فى الدين ؛ فإنه يتعب نهارا

ليأكل ليلا ويأكل ليلا ليتعب نهارا ، وذلك كسير السوانى فهو سفر لاينقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا ؛ بل السعادة فى أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهى شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة ظنوا أنّ السعادة فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم فى الجمع ، فهم يتعبون فى الأسفار طول الليل والنهار ويترددون فى الأعمال الشاقة ويكتسبون ، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحا وبخلا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم وفى ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت ؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات ؛ فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة ؛ فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ، ويزخرفون أبواب الدور ومايقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة ، فهمتهم فى نهارهم وليلهم فى تعهد موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة ، وأن ذلك غاية المطالب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم .

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ماتراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذى يكفى منها . وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم الرقى منها ، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض فى شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لايهلك ، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له ، وإن تعدّى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية ، فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا فلا يبالى الله فى أى واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين فى أشغال الدنيا . وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم ، وأضلهم فى الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف :

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد فى الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب فى أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا .

وظنت طائفة أخرى أن القتل لايخلص بل لابد أولا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة فى قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق فى العبادة . وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع فى الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لاينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد ، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطووا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعى والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم فى معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة ، وإنما الناجى منها فرقة واحدة ؛ وهى السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل . ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ولا يترك كل شىء من الدنيا ، ولا يطلب كل شىء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقى ملازما لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لايجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال « الناجى منها واحدة » قالوا : يارسول الله ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة » فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابى [1] » وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذى فصلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواما ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى - كما سبق ذكره فى مواضع - والله أعلم .

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) حديث : افتراق الأمة وفيه « الناجى منهم واحدة » قالوا : ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه « تفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة » فقالوا : من هى يارسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابى » ولأبى داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهى الجماعة وأسانيدها جياد .

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ، ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، وردده فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير ، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا ، والصلاة على محمد الذى نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف ، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم محنها ، وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلاسلامة منها ، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا ، وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لاتكون عاقبة أمره إلا خسرا . وبالجملة فهى لاتخلو من الفوائد والآفات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التى لايقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة ؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشفى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها . ولها أبعاض كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل . ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل . وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان .

ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحريص حالتان : طمع فيما فى أيدى الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شر الحالتين .

وللواجد حالتان : إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد .

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم . ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو : بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع . ثم فضيلة السخاء . ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء . ثم الإيثار وفضله . ثم حد السخاء والبخل . ثم علاج البخل . ثم مجموع الوظائف فى المال . ثم ذم الغنى ومدح الفقر ؛ إن شاء الله تعالى .

بيان ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانا عظيما وقال عزوجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقال تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الشرف والمال والجاه فى دين الرجل المسلم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « هلك المكثرون إلا من قال به فى عباد الله هكذا وهكذا وقليل ماهم (٣) » وقيل : يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال « الأغنياء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها ، لهم بطون من القليل لاتشبع وأنفس بالكثير لاتقنع ، عاكفون على الدنيا يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهة من دون إلههم وربا دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لايسلم عليهم ولايعود مرضاهم ولايتبع جنائزهم ولايوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفه وهو لايشعر (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟ (٧) » وقال رجل : يارسول الله مالى لاأحب الموت ! فقال « هل معك من مال ؟ » قال : نعم يارسول الله ؛ قال « قدم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدمه

كتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث « حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ « الجاه » بدل « الشرف » (٢) حديث « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفسادا لها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم » أخرجه الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا « جائعان » مكان « ضاريان » ولم يقولا « فى زريبة » وقالا « الشرف » بدل « الجاه » قال الترمذى حسن صحيح وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد « ماذئبان ضاريان فى زريبة غنم ... الحديث » وللبزار من حديث أبى هريرة « ضاريان جائعان » وإسناد الطبرانى فيهما ضعيف

(٣) حديث « هلك الأكثرون إلا من قال به فى عباد الله هكذا وهكذا ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الرحمن ابن أبزى بلفظ « المكثرون » ولم يقل « فى عباد الله » ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بلفظ « المكثرون » وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بلفظ « هم الأخسرون » قال أبو ذر : من هم ؟ فقال « هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا ... الحديث » (٤) حديث قيل يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال « الأغنياء » غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن جعفر « شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا » وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى فى الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا وللبزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف « إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم » (٥) حديث « سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ... الحديث » بطوله أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث أبى أمامة « سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون فى الكلام أولئك شرار أمتى » وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا (٦) حديث « دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفه وهو لايشعر » أخرجه البزار من حديث أنس وفيه هانئ بن المتوكل ضعفه ابن حبان (٧) حديث « يقول العبد مالى مالى .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبى هريرة وقد تقدم

أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « أخلاء ابن آدم ثلاثة . واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثانى إلى قبره ، والثالث إلى محشره . فالذى يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله ، والذى يتبعه إلى محشره فهو عمله[2] » .

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : مالك تمشى على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكنهما والمدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسى إلى أبى الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أديت حق الله فى ، ثم يجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويلك ألا أديت حق الله فى فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور[3] » .

وكل ما أوردناه فى كتاب الزهد والفقر فى ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره ، وكذا كل ما ذكرناه فى ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد فى المال خاصة .

قال صلى الله عليه وسلم « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف[4] » وقال صلى الله عليه وسلم لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا[1] » .

الآثار : روى أن رجلا نال من أبى الدرداء وأراه سوءا فقال : اللهم من فعل بى سوءا فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر ؟ لأنه لابد وأن يفضى إلى الطغيان ووضع على كرم الله وجهه درهماً على كفه ثم قال : أما إنك مالم تخرج عنى لاتنفعنى . وروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت : ماهذا ؟ قالوا : أرسل إليك عمر بن الخطاب ، قالت : غفر الله له ، ثم سلت ستراً كان لها فقطعته وجعلته صرراً وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها ، ثم رفعت يديها وقالت اللهم لايدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به . وقال الحسن : والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وقيل : إن أول ماضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال . من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط بن عجلان : إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه ، قيل : وما رقيته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه فى حقه . وقال العلاء بن زياد : تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت : أعوذ

---

(١) حديث : قال رجل يارسول الله مالى لا أحب الموت ... الحديث . لم أقف عليه (٢) حديث « أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثانى إلى قبره ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه ، ورواه أبو داود الطيالسى وأبو الشيخ فى كتاب الثواب والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضاً وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد ... الحديث »

(٣) حديث : كتب سلمان إلى أبى الدرداء وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ... الحديث » قلت : ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبى الدرداء انه كتب إلى سلمان ؟ كذا رواه البيهقى فى الشعب وقال بدل « الدنيا » « المال » وهو منقطع (٤) حديث « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة يبلغ به وقد تقدم فى آداب الصحبة .

(٥) حديث « لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » أخرجه الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ « فترغبوا

بالله من شرك فقالت : إن سرك أن يعيذك الله منى فابغض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها ، فمن صبر عنهما صبرعن الدنيا وفى ذلك قيل :

إنى وجدت فلا تظنوا غيره ... أن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضاً :

لا يغرنك من المر ٭ قميص رقعه ٭ أو إزار فوق عظم السـ ٭ ـاق منه رفعه
أو جبين لاح فيه ٭ أثر قد خلعه ٭ أره الدرهم تعرف ٭ حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال : يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ـ وكان له ثلاثة عشر من الولد ـ فقال عمر : أقعدونى ! فأقعدوه فقال : أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهما فإنى لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطهم حقا لغيرهم ! وإنما ولدى أحد رجلين : إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإما عاص لله فلا أبالى على ماوقع . وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا فقيل له : لو ادخرته لولدك من بعدك ؟ قال : لا ولكنى ادخره لنفسى عند ربى وأدخر ربى لولدى . ويروى أن رجلا قال لأبى عبد ربه : ياأخى لاتذهب بشر وتترك أولادك بخير ! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحي بن معاذ : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته ، قيل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله .

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ﴿ إن ترك خيرا ﴾ الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح (١) » وكل ماجاء فى ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذلا يمكن الوصول إليهما إلا به وقال تعالى ﴿ ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ وقال تعالى ممتنا على عباده ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا (٢) » ، وهو ثناء على المال . ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله ؛ حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر ، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعا وما هذا وصفه فيمدح لامحالة تارة ويذم أخرى ، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم ، وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التى هى النعيم الدائم والملك والمقيم . والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال « أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا (٣) »

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ « نعما » وقالا « المرء » . (٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا » أخرجه أبو مسلم الكجى فى سننه والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس وتقدم فى كتاب ذم الغضب (٣) حديث : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ قال « أكثرهم للموت ذكرا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ : أى المؤمنين أكيس ؟ ورواه ابن أبى الدنيا فى الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد .

وهذه السعادة لاتنال إلا بثلاث وسائل فى الدنيا وهى الفضائل النفسية ، كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنية : كالصحة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن : كالمال وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة .

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات ، وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما . ولا يرادان لذاتهما ؛ إذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها ، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن . وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن . ومن المناكح إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التى هى ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس الذى هو خير ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محموداً فى حقه ، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهى المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذاً محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر[1] كما ورد به الخبر .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلا لها وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا[2] » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين[3] » واستعاذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية فى شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفى قبل النبوة مع الصغر ، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش وإذا شيك فلا انتقش[4] ، فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجرا فهو عابد صنم . بل كل من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم ، أى قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلا أن الشرك شركان : شرك خفى لا يوجب الخلود فى النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من دبيب النمل ، وشرك جلى يوجب الخلود فى النار نعوذ بالله من الجميع .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره .

---

(١) حديث « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر » تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية «احذروا الدنيا» (٢) حديث « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث « اللهم أحيى مسكينا وأمتنى مسكينا » أخرجه الترمذى من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبى سعيد وقد تقدم

(٤) حديث : تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ... الحديث . أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ولم يقل «وانتقش» وإنما علق آخره بلفظ « تعس وانتكس » ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها . وأما الدينية فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع .

(النوع الأول) أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة أو فى الاستعانة على عبادة . أما فى العبادة : فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما . وأما فيما يقويه على العبادة : فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

(النوع الثانى) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم .

وأما المروءة فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة مايسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء . فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة ، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها .

وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضا مع تنجز فائدته فى العاجلة من الحظوظ الدينية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة »(١) ، وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذى هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لامال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه ، وكل مايتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت فى غيره خسران .

(النوع الثالث) مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب فى الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهى من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية ، وناهيك بها خيرا . فهذه جملة فوائد المال فى الدين سوى مايتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة فى القلوب ، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

(١) حديث « ماوقى المرء عرضه به فهو صدقة » رواه أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم .

وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث .

(الأولى) أن تجر إلى المعاصى فإن الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصمة أن لايجد . ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته ، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور ، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك وإن صبر وقع فى شدة ؛ إذ الصبر مع القدرة أشد ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

(الثانية) أنه يجر إلى التنعم فى المباحات ، وهذا أول الدرجات ، فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى ملكه فأحسن أحواله أن لايتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه ، فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لايصبر عنه ، ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ربما لايقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة ، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلابد وأن ينافقهم ويعصى الله فى طلب رضاهم ، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهى مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هـــذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ، ولايخلو عن التعدى أيضاً إلى سائر الجوارح . وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

(الثالثة) وهى التى لاينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : فى المال ثلاث آفات ، أن يأخذه من غير حله ، فقيل : إن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه فى غير حقه ، فقيل : إن وضعه فى حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر فى جلاله ، وذلك يستدعى قلبا فارغا وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفى خصومة الشركاء ومنازعتهم فى الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان فى الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير فى العمارة ، وخصومة الفلاحين فى خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكرا فى خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره فى العمل وتضييعه للمال . وكذلك صاحب المواشى . وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعدها عن كثرة الشغل: النقد المكنوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه وفى كيفية حفظه وفى الخوف مما يعثر عليه وفى دفع أطماع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها ، والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب فى دفع الحساد وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه ، فإذن ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقى إلى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات . نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس

اعلم أن الفقر محمود ـ كما أوردناه فى كتاب الفقر ـ ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما فى أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة

من المطعم والملبس والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص ، وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات ، وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب [1] » وعن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه ، فجئته ذات يوم فقال « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لا بن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان ولو كان له الثانى لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب [2] » وقال أبو موسى الأشعرى : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب [3] . وقال صلى الله عليه وسلم « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « يهرم ابن ادم ويشب معه اثنتان : الأمل وحب المال » أو كما قال [5] .

ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة وغريزة مهلكة اثنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا [7] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس [8] » ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال « أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة [9] » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : أى عبادك أغنى ؟ قال : أقنعهم بما أعطيته ، قال : فأيهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « إن روح القدس نفث فى روعى إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب [10] » وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار » وقال أبو هريرة رضى الله عنه .قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن ورعا ، تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا [11] » .

---

(١) حديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس
(٢) حديث أبى واقد الليثى « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة: ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقى فى الشعب بسند صحيح (٣) حديث أبى موسى : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ... الحديث » أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله « إن الله يؤيد هذا الدين » ورواه بهذه الزيادة الطبرانى وفيه على بن زيد متكلم فيه (٤) حديث « منهومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس
(٦) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من حديث فضالة ابن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر « وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » (٧) حديث « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي فى الدنيا قوتا » أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف
(٨) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٩) حديث « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له » أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده ، وقد تقدم فى آداب الكسب والمعاش . (١٠) حديث ابن مسعود « إن روح القدس نفث فى روعى إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه (١١) حديث أبى هريرة « كن ورعا تكن أعبد الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصارى : أنّ اعرابيا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله عظنى وأوجز فقال « إذا صليت فصل صلاة مودع ولاتحدثن بحديث تعتذر منه غدا ، وأجمع اليأس مما فى أيدى الناس »[1] ، وقال عوف بن مالك الأشجعى : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ تسعة أو ثمانية أو سبعة ـ فقال « ألا تبايعون رسول الله » قلنا : أوليس قد بايعناك يارسول الله ؟ ثم قال « ألا تبايعون رسول الله » فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا : قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك ؟ قال « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الخمس ، وأن تسمعوا وتطيعوا » وأسر كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئا »[2] ، قال : فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : إنّ الطمع فقر وإنّ اليأس غنى وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، وفى ذلك قيل :

العيش ساعات تمر ... وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه ... واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه ... ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول : من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال سفيان : خير دنياكم مالم تبتلوا به وخير ماابتليتم به ماخرج من أيديكم وقال ابن مسعود : مامن يوم إلا وملك ينادى : ياابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال سميط بن عجلان : إنما بطنك ياابن آدم شبر فى شبر فلم يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس . ويروى أن الله عزوجل قال : ياابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهره ، فإنما يأتيه ماقسم له من الرزق أو مارزق . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم ـ يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه ـ فكتب إليه : قد رفعت حوائجى إلى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت . وقيل لبعض الحكماء : أى شىء أسر للعاقل وإيما شىء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ماقدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وفى ذلك قيل :

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ... أنّ الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق فى دهره شيئا يؤرقه

---

(١) حديث أبي أيوب « إذا صليت فصل صلاة مودع ولاتحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما فى أيدى الناس » أخرجه ابن ماجه وتقدم فى الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح الإسناد (٢) حديث عوف بن مالك : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سبعة أو ثمانية أو تسعة ـ فقال « ألا تبايعون ... الحديث » وفيه « ولا تسألوا الناس » أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل : فقال قائل ولا قال : تسمعوا . وقال : سوط أحدهم . وهى عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

وقد قيل أيضا :

حتى متى أنا فى حل وترحال وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لاأنفك مغتربا عن الأحبة لايدرون ماحالى
بمشرق الأرض طورا ثم مغربها لايخطر الموت من حرصى على بالى
ولو قنعت أتانى الرزق فى دعه إنّ القنوع الغنى لاكثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى : حلتان لشتائى وقيظى ، وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى ، وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ، فوالله ما أدرى أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك فى أنّ هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها ؟ وعاتب أعرابى أخاه على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لاتفوته وتطلب أنت ماقد كفيته ، وكأنّ ماغاب عنك قد كشف لك ، وماأنت فيه قد نقلت عنه ، كأنك ياأخى لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا . وفى ذلك قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصا على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوما إليها قلت حسبى قد رضيت

وقال الشعبى : حكى أنّ رجلا صاد قنبرة فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ، قالت : والله ما أشفى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى : أما واحدة : فأعلمك وأنا فى يدك ، وأما الثانية : فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الأولى ، قالت : لاتلهفن على ما فاتك ، فخلاها فلما صارت على الشجرة قال : هات الثانية : لاتصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : ياشقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا ، قال : فعض على شفته وتلهف وقال : هات الثالثة ، قالت : أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لاتلهفن على مافاتك ولا تصدقن بما لايكون أن يكون ، أنا لحمى ودمى وريشى لايكون عشرين مثقالا فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت . وهذا مثال لفرط طمع الآدمى فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر مالا يكون أنه يكون . وقال ابن السماك : إن الرجاء حبل فى قلبك وقيد فى رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدى : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب ، فلما رآنى تبسم ، فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدنى :

إذا سدّ باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولاتك مبذالا لعرضك واجتنب ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء إذ وعوها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل : فسر لى قول كعب ، قال : يطمع الرجل فى الشىء يطلبه فيذهب عليه دينه ، وأما الشره فشره النفس فى هذا حتى لا تحب أن يفوتها شىء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له . فمن حبك للدنيا سلمت عليه

إذا مررت به وعدته إذا مرض ؛ لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك . ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الإنسان انه لو نودى بدوام البقاء فى أيام الدنيا لم يكن فى قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من بيدر اللطيف الخبير ، الذى خلق الرحا يأتيها بالطحين - وأومأ بيده إلى رحا أضراسه - فسبحان القدير الخبير .

بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر والعلم والعمل ، ومجموع ذلك خمسة أمور :

الأول : وهو العمل ؛ الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق ، فمن أراد عز القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلا مالا بد له منه ، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة ، بل إن كان وحده فينبغى أن يقنع بثوب واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ؛ ويقلل من الإدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر ؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد . ويمكن معه الإجمال فى الطلب والاقتصاد فى المعيشة وهو الأصل فى القناعة ؛ ونعنى به الرفق فى الإنفاق وترك الخرق فيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الرفق فى الأمر كله» [1] وقال صلى الله عليه وسلم « ماعال من اقتصد [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات ؛ خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب [3] » وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من فقهك رفقك فى معيشتك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة [4] » .

وفى الخبر « التدبير نصف المعيشة [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا [7] » والتؤدة فى الإنفاق من أهم الأمور .

الثانى : أنه إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ، فإن شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الأرزاق ، بل ينبغى أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى إذ قال عز وجل ﴿ ومامن دابة فى الأرض

---

(١) حديث « ان الله يحب الرفق فى الأمر كله » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « ماعال من اقتصد » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ « مقتصد » (٣) حديث « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب » أخرجه البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال « السمت الصالح » وقال « من خمسة وعشرين » ورواه الترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال « التؤدة » بدل « الهدى الصالح » وقال « من أربعة » (٥) حديث « التدبير نصف المعيشة » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلى ووثقه ابن معين . (٦) حديث « من اقتصد أغناه الله ... الحديث » أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « ومن ذكر الله أحبه الله » وشيخه فيه عمران بن هارون البصرى قال الذهبى : شيخ لايعرف حاله أتى بخبر منكر أى هذا الحديث ، ولأحمد وأبى يعلى فى حديث لأبى سعيد « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » (٧) حديث « إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا » رواه ابن المبارك فى البر والصلة وقد تقدم

إلا على الله رزقها ﴾ وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول : إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل فى السؤال ، فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب خوفا من الفقر ، ويضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب فى ثانى الحال وربما لا يكون . وفى مثله قيل :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله　　مخافه فقر فالذى فعل : الفقر

وقد دخلا ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما « لاتيأسا من الرزق ماتهزهزت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى [(١)] » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له « لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة [(٣)] » ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لامحالة مع الإجمال فى الطلب ، بل ينبغى أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لايحتسب أكثر قال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لايحتسب [(٤)] » وقال سفيان : اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا . أى لايترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبى : قلت لأعرابى من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت : فإذا صدروا ، فبكى وقال : لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش ، وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين : شيئا منهما هو لى ، فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض . وشيئا منهما هو لغيرى فلذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى ، يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ، ففى أى هذين أفنى عمرى ؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لابد منه لدفع تخويف الشيطان . وإنذاره بالفقر .

الثالث : أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل ، فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه فى الحرص لايخلو من تعب ، وفى الطمع لايخلو من ذل . وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لايطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداهنة ، وذلك يهلك دينه ومن لايؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان ، قال صلى الله عليه وسلم « عز المؤمن استغناؤه عن الناس [(٥)] » ففى القناعة الحرية

---

(١) حديث « لاتيأسا من الرزق ماتهزهزت رءوسكما ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث : حبة وسواء ابنى خالد ، وقد تقدم . (٢) حديث « لاتكثر همك ماقدر يكن وما ترزق يأتك » قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحبته ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المعافرى مرسلا

(٣) حديث « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب ... الحديث » تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا .

(٤) حديث « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لايحتسب » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بإسناد رواه ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات . (٥) حديث « عز المؤمن استغناؤه عن الناس » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصحح إسناده ، وأبو الشيخ فى كتاب الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد : أن جبريل قاله للنبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث ، وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى مسند الشهاب من قول النبى صلى الله عليه وسلم

والعز . ولذلك قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمق من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم . ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم فى البطن فالحمار أكثر أكلا منه وإن تنعم فى الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه ، وإن تزين فى الملبس والخيل ففى اليهود من هو أعلى زينة منه ، وإن قنع بالقليل ورضى به لم يساهمه فى رتبته إلا الأنبياء والأولياء .

الخامس : أن يفهم مافى جمع المال من الخطر - كما ذكرنا فى آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع ؛ ومافى خلو اليد من الأمن والفراغ ، ويتأمل ماذكرناه فى آفات المال مع مايفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبدا يصرف نظره فى الدنيا إلى من فوقه فيقول : لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون فى المطاعم والملابس ؟ ويصرف نظره فى الدين إلى من دونه فيقول : ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لايخاف الله ؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم ؟ قال أبو ذر : أوصانى خليلى صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوقى (١) أى فى الدنيا . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه (٢) » فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرا طويلا ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه فى انتظار الشفاء .

بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجودا فينبغى أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة . وعنه عبر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة (٣) » وقال جابر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال جبريل عليه السلام . قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتما (٤) » وفى رواية « فأكرموه بهما ما صحبتموه » وعن عائشة الصديقة رضى

---

(١) حديث أبى ذر : أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق » أخرجه أحمد وابن حبان فى أثناء حديث وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة « إذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث « السخاء شجرة فى الجنة .. الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطنى فى المستجاد من حديث أبى هريرة وسيأتى بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبى سعيد (٤) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى « إن هذا دين رضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وقد تقدم

الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جبل الله تعالى وليا له إلا على حسن الخلق والسخاء[١] » وعن جابر قال . قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال « الصبر والسماحة[٢] » وقال عبد الله بن عمرو . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فى قضاء حوائج الناس[٣] » وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال « إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام[٤] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة فى الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة[٥] » وقال أبو سعيد الخدرى . قال النبى صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى[٦] » وعن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجافوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر[٧] » وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام[٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها[٩] » وقال أنس . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا

---

(١) حديث عائشة « ماجبل الله وليا له الا على السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد دون قوله « وحسن الخلق » بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبى السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، ويوسف ضعيف جدا (٢) حديث جابر : أى الإيمان أفضل ؟ قال « الصبر والسماحة » أخرجه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء بلفظ : سئل عن الإيمان . وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ : ما الإيمان؟ قال « الصبر والسماحة » وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى فى الزهد بلفظ: أى الأعمال أفضل قال « الصبر والسماحة وحسن الخلق » وإسناده صحيح (٣) حديث عبد الله بن عمرو « خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله ، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى دون قوله فى آخره « وإذا أراد الله بعبد خيرا » وقال فيه « الشجاعة » بدل « حسن الخلق » وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى بن هرون وغيرهما ووثقه الخطيب ، وروى الأصفهانى جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو ، وروى الديلمى أيضاً من حديث أنس « إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس إليه » وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان (٤) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده « إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام » أخرجه الطبرانى بلفظ « بذل السلام وحسن الكلام » وفى رواية له « يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام » وفى رواية له « عليك بحسن الكلام وبذل الطعام » (٥) حديث أبى هريرة « السخاء شجرة فى الجنة ... الحديث » وفيه « والشح شجرة فى النار ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وفيه عبد العزيز ابن عمران الزهرى ضعيف جدا (٦) حديث أبى سعيد « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم ... الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والخرائطى فى مكارم الأخلاق والطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ، ورواه العقيلى فى الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدى وقال إنه مجهول ، وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غمزه ابن القطان ، وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجانى والأزدى ، ورواه الحاكم من حديث على وقال إنه صحيح الإسناد وليس كما قال .

(٧) حديث ابن عباس « تجافوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والخرائطى فى مكارم الأخلاق . وقال الخرائطى « أقيلوا السخى زلته » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه الطبرانى فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطنى (٨) حديث ابن مسعود « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير .. الحديث » لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ « الخير أسرع إلى البيت الذى يغشى » وفى حديث ابن عباس « يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير » ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر « الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء ... الحديث » وكلها ضعيفة (٩) حديث « إن الله جواد يحب الجود ويحب معالى الأمور ويكره سفسافها » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله ابن كريز وهذا مرسل وللطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد « إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور » وفى الكبير والبيهقى « معالى الأخلاق ... الحديث » وإسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

أعطاه ، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : ياقوم أسلموا ؛ فإن محمدا يعطى عطاء من لايخاف الفاقة (١) ، وقال ابن عمر : قال صلى الله عليه وآله وسلم « إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ، فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها إلى غيره (٢) ، وعن الهلالى قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا ، فقال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : يارسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « نزل على جبريل فقال ، اقتل هؤلاء واترك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاء فيه (٣) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « إن لكل شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح (٤) ، وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه (٦) ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكثروا من شىء لاتأكله النار ، وقيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقالت عائشة رضى الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجنة دار الأسخياء (٧) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإن البخيل بعيد من الله من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل ، وأدوأ الداء البخل (٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله (٩) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين (١٠) ، وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن

---

(١) حديث أنس : لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين ... الحديث . أخرجه مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

(٢) حديث ابن عمر « إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه ابن ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبد الله بن زيد الحمصى ضعفه الأزدى (٣) حديث الهلالى : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا ... الحديث » وفيه « فإن الله شكر له سخاء فيه » لم أجد له أصلا (٤) حديث « إن لكل شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح » لم أقف له على أصل (٥) حديث نافع عن ابن عمر « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدفى فى عواليه رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وانهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه .

(٥) حديث « من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه » رواه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ « ماعظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره » وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع ، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ، ورواه العقيلى من حديث ابن عباس قال ابن عدى يروى من وجوه كلها غير محفوظة (٧) حديث عائشة « الجنة دار الأسخياء » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لايصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات . وقال الذهبى حديث منكر ما آفته سوى جحدر قلت رواه الدارقطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا (٨) حديث أبى هريرة « إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه « وأدوأ الداء البخل » ورواه بهذه الزيادة الدارقطنى فيه (٩) حديث « اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم فى آداب المعيشة (١٠) حديث « إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينوى أورد ابن عدى له مناكير ، وفى الميزان انه ضعيف منكر الحديث ، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد نحوه وفيه صالح المرى متكلم فيه .

الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي به أهلها [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها [٢] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة [٤] » وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لاتقتل السامرى فإنه سخى وقال جابر: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت [٥] » . الآثار : قال على كرم الله وجهه : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لاتفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لاتبقى وأنشد :

لاتبخلن بدنيا وهى مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن على رضى الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال : أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والإقدام فى الكراهية . وأما النجدة فالذب عن الجار والصبر فى المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام فى المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل . ورفع رجل إلى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له ياابن رسول الله لو نظرت فى رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألنى الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدى حتى أقرأ رقعته . وقال ابن السماك عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال على بن الحسين رضى الله عنهما من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيا وإنما السخى من يبتدئ بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاما . وقيل للحسن البصرى ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك فى الله عز وجل . قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة ألا وإن الله عز وجل يقول : إنى جواد كريم لايجاورنى لئيم واللؤم من الكفر وأهل الكفر فى النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان فى الجنة . وقال حذيفة

---

(١) حديث أبى سعيد « ان الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد من رواية أبى هرون العبدى عنه وأبى هرون ضعيف ورواه الحاكم من حديث على وصححه (٢) حديث « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ... الحديث » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالى وثقه ابن معين وضعفه الجمهور ، والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة (٣) حديث « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت فى العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميرى ضعيف . (٤) حديث « كل معروف فعلته الى غنى أو فقير صدقة » أخرجه الدارقطنى فيه من حديث أبى سعيد وجابر والطبرانى والخرائطى كلاهما فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين (٥) حديث جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم ... الحديث . وفيه » فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » أخرجه الدارقطنى فيه من رواية أبى حمزة الحميرى عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

رضى الله عنه رب فاجر فى دينه أخرق فى معيشته يدخل الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلا فى يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لى فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفى معناه قيل :

أنت للمال إذا امسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وسمى واصل بن عطاء : الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ؛ فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعى كتب الحسن بن على إلى الحسين بن على رضوان الله عليهم يعتب عليه فى إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ماوقى به العرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمال . قال وورث أبى خمسين ألف درهم فبعث بها صررا إلى إخوانه . وقال قد كنت أسأل الله تعالى لأخوانى الجنة فى صلاتى أفأبخل عليهم بالمال ؟ وقال الحسن بذل المجهود فى بذل الموجود منتهى الجود . وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثرت أياديه عندى ، قيل : فإن لم يكن ، قال من كثرت أيادى عنده . وقال عبد العزيز بن مروان إذا الرجل أمكننى من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندى مثل يدى عنده . وقال المهدى لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس فى دارى ؟ فقال ياأمير المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبدالله بن جعفر فقال :

إن الصنيعة لاتكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوى القرابة أو دع

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين البيتين ليبخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا وإن أصاب اللئام كنت له أهلا .

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر عن أم درة - وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها - قالت إن معاوية بعث إليها بمال فى غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم ، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت ياجارية هلم فطورى فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة . ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتينى لفعلت .

وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تغدوا عندى اليوم ، فأتوه حتى ملؤا عليه الدار ، فقال ماهذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا وخبزوا ، وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا ، فقال عبيد الله لوكلائه أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم ، قال فليتغد عندنا هؤلاء فى كل يوم .

وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة ، فقال الحسين بن على لأخيه الحسن لاتلقه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية ، قال الحسن إن علينا دينا فلا بد لنا من إتيانه فركب فى أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه ، فمروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية ماهذا ؟ فذكر له ، فقال اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد .

وعن واقد بن محمد الواقدى قال حدثنى أبى أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه ، فوقع المأمون على ظهر رقعته إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذى أطلق

مافى يديك ، وأما الحياء فهو الذى يمنعك عن تبليغنا ماأنت عليه ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فازدد فى بسط يدك ، وإن لم أكن قد أصبت لجنايتك على نفسك . وأنت حدثتنى وكنت على قضاء الرشيد ؛ عن محمد بن إسحق عن الزهرى عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام « يازبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله عز وجل إلى كل عبد بقدر نفقته ، فمن كثر كثر له ، ومن قلل قلل له وأنت أعلم (١) » قال الواقدى : فوالله لمذاكرة المأمون إياى بالحديث أحب إلى من الجائزة وهى مائة ألف درهم .

وسأل رجل الحسن بن على رضى الله عنهما حاجة فقال له : ياهذا حق سؤالك إياى يعظم لدى ومعرفتى بما يجب لك تكبر على ، ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله تعالى قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك ، فإن قبلت الميسور ورفعت عنى مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت ، فقال : ياابن رسول الله أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع ، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال : هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم ، فأحضر خمسين ألفا قال : فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال : هى عندى ، قال أحضرها ، فأحضرها فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال : هات من يحملها لك ، فأتاه بحمالين فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين ، فقال له مواليه : والله ماعندنا درهم ! فقال : أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم .

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا : لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده مايجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلها داره وفتح صندوقا فأخرج منه ست بدر فقال : احملوا ، فحملوا فقال : ابن عباس ماأنصفناه أعطيناه مايشغله عن قيامه وصيامه ، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر مايشغل مؤمناً عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر ما لانخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

وحكى أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال : والله لأعلمن الشيطان أنى عدوه ؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف ، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل . بحق على بن أبى طالب لما وهبت لى نخلتك بموضع كذا وكذا ، فقال : قد فعلت ، وحقه لأعطينك مايليها ، وكان ذلك أضعاف ماطلب الرجل .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر : والله ماعندى ماأعطيك ولكن قدمنى إلى القاضى وادع على بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسنى ، فإن أهلى لايتركونى محبوسا ، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوما لبعض خدام معن : إذا دخل الأمير البستان فعرفنى ، فلما دخل الأمير البستان أعلمه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها .

---

(١) حديث أنس « يازبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ... الحديث » وفى أوله قصة مع المأمون أخرجه الدارقطنى فيه وفى اسناده الواقدى عن محمد بن اسحاق عن الزهرى بالعنعنة ولايصح .

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فما لى إلى معن سواك شفيع

فقال : من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال له ، فأمر له بعشر بدر ، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم ، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج ، فلما كان فى اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن : حق على أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى ولا دينار .

وقال أبو الحسن المدائنى : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا ، فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت نعم ، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة فى كسر الخيمة فقالت : احلبوها وامتذقوا لبنها . ففعلوا ذلك ثم قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا ، إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعنا سالمين فألمى بنا فإنا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال : ويلك تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ، ثم تقولين نفر من قريش ؟ قال : ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه ، فمرت العجوز ببعض سكك المدينة ، فإذا الحسن بن على جالس على باب داره فعرف العجوز وهى له منكرة ، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها : يا أمة الله أتعرفينى ؟ قالت : لا قال : أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا ، فقالت العجوز : بأبى أنت وأمى أنت هو؟ قال: نعم. ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين : بكم وصلك أخى ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألفى شاة وألفى دينار ، فأمر لها عبد الله بألفى شاة وألفى دينار ، وقال لها : لو بدأت بى لأتعبتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار .

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك فقلت أقيك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه ؛ فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال : استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد ؛ فرأى رجل منهم فى النوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين ، فقال له فى النوم : نعم ، فباعه فى النوم بعيره بنجيبه ، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره فى النوم ، فانتبه الرجل من نومه فإذا الدم يثج من نحر بعيره ، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق استقبلهم ركب ، فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منكم ؟ ـ باسم ذلك الرجل ـ فقال : أنا ، فقال له هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر ، قال : نعم بعت بعيرى بنجيبه فى

النوم ، فقال : خذ هذا نجيبه ، ثم قال : هو أبي وقد رأيته فى النوم وهو يقول : إن كنت ابنى فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان وسماه .

وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض ، فقال : ياهذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه : مابقى معك من النفقة فادفعه إليه ، فصب الغلام فى حجر الأعرابى أربعة آلاف درهم ، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف ، فبكى فقال له الرجل مايبكيك لعلك استقللت ماأعطيناك ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ماتأكل الأرض من كرمك فأبكانى .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله : ماهؤلاء ؟ قالوا يبكون لدارهم ، فقال ياغلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا .

وقيل بعث هرون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار ؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار ، فغضب هرون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيتى ؟ فقال ياأمير المؤمنين إن لى من غلتى كل يوم ألف دينار ؛ فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئا من عسل ، فأمر لها بزق من عسل ، فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا ؟ فقال . إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث ابن سعد لايتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا .

وقال الأعمش : اشتكت شاة عندى فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ماتحت اللبد ، حتى وصل إلى فى علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ .

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة : بلغنى عنك خصال فحدثنى بها ، فقال : هى من غيرى أحسن منها منى ، فقال : عزمت عليك إلا حدثتنى بها ؟ فقال : ياأمير المؤمنين مامددت رجلى بين يدى جليس لى قط ، ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على منى عليهم ، ولانصب لى رجل وجهه قط يسألنى شيئا فاستكثرت شيئا أعطيته إياه .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

إنى سمعت مع الصباح مناديا   يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : دينى ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دينك ومثله .

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء ، قال : فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده .

وعن أبى إسحق قال : صليت العصر فى مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريما لى ، فلما صليت وضع بين يدى حلة ونعلان ، فقلت : لست من أهل هذا المسجد ، فقالوا : إن الأشعث بن قيس الكندى قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونعلين .

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي النيسابوري رحمه الله : سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً ، فولد لبعضهم مولود قال : فجئت إليه وقلت له : ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء ، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحمك الله كنت تفعل وتصنع وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء ، قال : ثم قام وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وناولني نصفه ، وقال : هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء ، قال : فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال : فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال : سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ، ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له : اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم وليس لرؤياي حكم ، فقالوا : هو يتسخى ميتاً ولا نتسخى نحن أحياء ؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها ديناراً فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر ، وقال : يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أي هؤلاء أسخى ؟

وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مروا فلاناً يغسلني ، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال : ائتوني بتذكرته ، فأتي بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين ، فكتبها على نفسه وقضاها عنه ، وقال هذا غسلي إياه ؛ أي أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكباً حماره فحركه فانقطع زره ، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوي زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قلتها ، وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه :

يا لهف قلبي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال ، وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته ، فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك ، قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها ، ولكني بنيت بمنى مضرباً يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول .

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ... ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي . دخل أبى على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه عاتبه المأمون فى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، فوصله بمائة ألف أخرى .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال . ابكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلا فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال . عسى أن أقوم من مرضى فأكافئه ، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرتجى من الصفد
كما الدراهم والدنانير فى البيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه . كم أقام بالباب ؟ قال . شهرين ، قال . أعطه ثلاثين ألفا وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوما إلى المسجد فقال له طلحة . قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال . هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك . وقالت سعدى بنت عوف . دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غمنى ، فقلت وما يغمك ادع قومك ؟ فقال ياغلام على بقومى ، فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال : أربعمائة ألف . وجاء أعرابى إلى طلحة فسأله وتقرب إليه برحم فقال : إن هذه الرحم ماسألنى بها أحد قبلك ، إن لى أرضا قد أعطانى بها عثمان ثلثمائة ألف فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن .

وقيل بكى على كرم الله وجهه يوما فقيل : مايبكيك ؟ فقال : لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهاننى .

وأتى رجل صديقا له فدق عليه الباب فقال ، ماجاء بك ؟ قال على أربعمائة درهم دين ، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكى ، فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتى فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

بيان ذم البخل

قال الله تعالى ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح

(١) حديث « اياكم والشح ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ « واتقوا الشح فإن الشح .. الحديث » ولأبى داود والنسائى فى الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « اياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح =

فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة (٢) » وفي رواية « ولا جبار » وفي رواية « ولا منان » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض ثلاثة : الشيخ الزاني ، والبخيل المنان ، والمعيل المختال (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق شيئا إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع (٩) » وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت : واشهيداه ! فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه (١٠) » وقال جبير بن مطعم : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فقال « أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا (١١) » وقال عمر رضي الله عنه : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كان أحق به

= أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا » (١) حديث « إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ « حرماتهم » مكان « أرحامهم » وقال صحيح على شرط مسلم (٢) حديث « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة » وفي رواية « ولا منان » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله « ولا منان » فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه « لا يدخل الجنة سيئ الملكة » (٣) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم في العلم (٤) حديث « ان الله يبغض ثلاثا : الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال » أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله « البخيل المنان » وقال فيه « الغني الظلوم » وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي « ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال » وسنده ضعيف (٥) حديث « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب (٧) حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن .. الحديث » أخرجه البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار (٨) حديث « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا » قال عوضاً عنهما « وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا » وكذا رواه أبو داود على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح » فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش .

(٩) حديث « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع » أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد (١٠) حديث « وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وللبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت ليهنك الشهادة وهو عند الترمذي : الا أن رجلا قال له أبشر بالجنة (١١) حديث جبير بن مطعم . بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به ... الحديث » أخرجه البخاري وتقدم في أخلاق النبوة .

منهم ؟ فقال ، إنهم يخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل [١] ، وقال أبو سعيد الخدري : دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين ؛ فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفا وشكرا ماصنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا . فقال صلى الله عليه وسلم ، لكن فلان أعطيته مابين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار ؛ فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال « يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل [٢] » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوبى ، وشدّ أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا ، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ، ألا إنّ السخاء من الإيمان ، والإيمان في الجنة . وخلق البخل من مقته وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ، ألا إنّ البخل من الكفر والكفر في النار [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي ، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل [٤] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بني لحيان « من سيدكم يابني لحيان؟ » قالوا : سيدنا جدّ بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل ، فقال صلى الله عليه وسلم « وأي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح [٥] » وفي رواية أنهم قالوا : سيدنا جدّ بن قيس ، فقال « بم تسودونه ؟ » قالوا : إنه أكثر مالا وأنا على ذلك لنرى منه البخل ، فقال عليه السلام « وأي داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم » قالوا : فمن سيدنا يارسول الله ؟ قالوا « سيدكم بشر بن البراء » وقال علي رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض البخيل في حياته السخي عنه موته [٦] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل [٧] » وقال أيضا : قال صلى الله عليه وسلم « الشح والإيمان لايجتمعان في قلب عبد [٨] » وقال أيضاً « خصلتان لايجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاينبغي لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا [١٠] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول قائلكم الشحيح

---

(١) حديث عمر : قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما ... الحديث » وفيه « ولست بباخل » أخرجه مسلم

(٢) حديث أبي سعيد : في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفا ... الحديث . وفيه « ويأبى الله لي البخل » رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد : إنهما سألاه ثمن بعير . ورواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات (٣) حديث ابن عباس « الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم ... الحديث » بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أقف له على اسناد (٤) حديث « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج في الجنة إلا سخي .. الحديث » تقدم دون قوله « فلا يلج في الجنة » إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده .

(٥) حديث أبي هريرة « من سيدكم يابني لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جد بن قيس ... الحديث » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ « يابني سلمة » « وقال سيدكم بشر بن البراء » وأما الرواية التي قال فيها « سيدكم عمرو بن الجموح » فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن (٦) حديث علي « إن الله ليبغض البخيل في حياته السخي عند موته » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أجد له إسنادا (٧) حديث أبي هريرة « السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل » أخرجه الترمذي بلفظ « ولجاهل سخي » وهو بقية حديث « إن السخي قريب من الله » وقد تقدم (٨) حديث أبي هريرة « لايجتمع الشح والإيمان في قلب عبد » أخرجه النسائي وفي إسناده اختلاف (٩) حديث « خصلتان لاتجتمعان في مؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم (١٠) حديث « لاينبغي لمؤمن أن يكون جبانا ولابخيلا » لم أره بهذا اللفظ .

أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم عند الله من الشح ، حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل [1] » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم « وما ذنبك صفه لى ؟ » فقال : هو أعظم من أن أصفه لك ! فقال « ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ » فقال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم الجبال ؟ » قال . بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم البحار ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم السموات ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم العرش ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم الله ؟ » قال : بل الله أعظم وأعلى ، قال « ويحك فصف لى ذنبك » قال . يارسول الله إنى رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار ، فقال صلى الله عليه وسلم « إليك عنى لا تحرقنى بنارك فوالذى بعثنى بالهداية والكرامة لوقمت بين الركن والمقام ثم صليت ألفى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لأكبك الله فى النار ، ويحك ! أما علمت أنّ البخل كفر وأنّ الكفر فى النار ، ويحك ! أما علمت أن الله تعالى يقول ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . . . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [2] » .

الآثار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما خلق الله جنة عدن قال لها تزيني فتزينت ، ثم قال لها : أظهرى أنهارك فأظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها فى الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فأظهرت فنظر إليها فقال تكلمى فقالت طوبى لمن دخلنى فقال الله تعالى وعزتى لا أسكنك بخيلا . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخيل لو كان البخل قميصاً ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر : كان يقال إذا أراد الله بقوم شراً أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدى بخلائهم . وقال على كرم الله وجهه فى خطبته : إنه سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال عبد الله بن عمرو : الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذى يشح على ما فى يد غيره حتى يأخذه ويشح بما فى يده فيحبسه ، والبخيل هو الذى يبخل بما فى يده . وقال الشعبي لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الكذب ؟ وقيل ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندى : تكلم ، فقال : خير الناس من ألفى سخيا وعند الغضب وقورا وفى القول متأنيا وفى الرفعة متواضعا وعلى كل ذى رحم مشفقا . وقام الرومى فقال : من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ﴾ قال : البخل ، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة فى سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى . وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان اللهم عجل لممسك تلفا

---

(١) حديث « يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح . الحديث » وفيه « لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل » لم أجده بتمامه وللترمذى من حديث أبى بكر « لايدخل الجنة بخيل » وقد تقدم (٢) حديث : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لى . الحديث» فى ذم البخل وفيه قال « اليك عنى لاتحرقنى بنارك ... الحديث » بطوله وهو باطل لا أصل له .

وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كرم الله وجهه والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى ﴿ عرّف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ وقال الجاحظ ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنك إذا لبخيل » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوّامة قوّامة إلا أن فيها بخلا قال « فما خيرها إذاً »(١) . وقال بشر النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وقال يحيى بن معاذ ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام . إبليس في صورته فقال له : يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال : أحب الناس إلى المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخي ، قال له : لم ؟ قال : لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ، ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه وقدّم إليه طباهجة ببيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت ، فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال : لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت ، فقال : هاه ! أتقيأ طباهجة ببيض ! ؟ الموت ولا ذلك . وقيل : أقبل أعرابي يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابي فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا ؟ قال : نعم ، فقرأ ﴿ . . . والزيتون وطورسينين ﴾ فقال : وأين التين ؟ قال : هو تحت كسائك . ودعا بعضهم أخا له ولم يطعمه شيئاً ، فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك ؟ قال : صوت المقلى . ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل : صف لي مائدته فقال : هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش ، قيل فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون ! قال : فما يأكل معه أحد ؟ قال : بلى الذباب ، فقال : سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق ، قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها ، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءا إبرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما فعل ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له . نراك لا تأكل إلا الرءوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ، إن مس عينا أو أذنا أو خدا وقفت على ذلك ، وآكل منه ألوانا ، عينه لونا ، وأذنه لونا ، ولسانه لونا ، وغلصمته لونا ، ودماغه لونا ، وأكفى مؤونة

---

(١) حديث : مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا ... الحديث » تقدم في آفات اللسان .

طبخه ؛ فقد اجتمعت لى فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهدى فقالت له امرأة من أهله : مالى عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال : إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما ! فأعطى ستين ألفا فأعطاها أربعة دوانق . واشترى مرّة لحما بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق ! وقال : أكره الإسراف . وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحا ! فيأبى عليه الأعمش ، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال : سر بنا ، فدخل منزله فقرب إليه كسرة وملحا ، فجاء سائل فقال له رب المنزل : بورك فيك ، فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك ، فلما سأل الثالثة قال له اذهب والله وإلا خرجت إليك بالعصا ! قال فناداه الأعمش وقال اذهب ويحك ! فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه ! هو منذ مدة يدعونى على كسرة وملح فوالله ما زادنى عليهما !

بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجة السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة . وإنما السخاء عبارة عن بذل مالا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشدّ . وكما أن السخاوة قد تنتهى إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهى الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجانا لأكلها . فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له (١) » وقالت عائشة رضى الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا (٢) ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمدّ يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » ونزلت ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (٣) فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ؛ والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال سهل بن عبد الله التسترى قال موسى عليه السلام ، يارب أرنى بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ! فقال ياموسى إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقى ، قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها

---

(١) حديث « أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء وأبو الشيخ فى الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث عائشة : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولوشئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا . أخرجه البيهقى فى الشعب بلفظ : ولكنه كان يؤثر على نفسه . وأول الحديث عند مسلم بلفظ : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز بر حتى مضى لسبيله . وللشيخين : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم : من طعام (٣) حديث : نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله ... الحديث . فى نزول قوله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ متفق عليه من حديث أبى هريرة

من الله تعالى ، فقال : يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال؛ بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار ، ياموسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته من جنتي حيث يشاء : وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه ؛ إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت ! قال فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بارض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أشبع وهو جائع قال ! قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال: أطوى يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ! إن هذا الغلام لأسخى مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه . وقال عمر رضي الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي كان أحوج مني إليه فبعث به إليه ، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول . وبات علي كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة وأحباها ؛ فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل عليه السلام يقول : بخ بخ من مثلك يابن أبي طالب والله تعالى يباهي بك الملائكة ! فأنزل الله تعالى ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾ [1] وعن أبي الحسن الأنطاكي : أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا - وكانوا في قرية بقرب الري - ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء ؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ... فأشار ابن عمي إلى أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه ... فأشار هشام انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهقان : ماخرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبا فمات فيه . وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد ، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة ميتة فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا ، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة ، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد ، فقام ذلك الكلب

(١) حديث : بات علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ... الحديث . في نزول قوله تعالى (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) أخرجه أحمد مختصرا من حديث ابن عباس : شرى علي نفسه فلبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ... الحديث . وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكر .

وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ثم انصرف .

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حدّ البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخيا وربما يراه غيره بخيلا ، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذى يوجب الهلاك ؟ وما حدّ السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها ؟ فنقول : قد قال قائلون حد البخل منع الواجب ، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل ، وهذا غير كاف ؛ فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعدّ بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عدّ بخيلا . وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية ، وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا فى الجود ، فقيل الجود عطاء بلا منّ وإسعاف من غير روية . وقيل : الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر . وقيل : من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود ، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل .

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل ، بل نقول : المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط وهو المحمود وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ؛ إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء ، وقد قيل له ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفى أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه . فإن بذل فى محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخى ، بل ينبغى أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذى يجب بذله ؟ .

فأقول : إن الواجب قسمان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخى هو الذى لايمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخى بالتكلف ، أو الذى يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل .

وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات ، فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه مالا يستقبح مع الأجانب ، ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ، ويستقبح فى الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح فى المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة فى ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب ، إذ يستقبح فى الأطعمة ما لا يستقبح فى غيرها ، ويستقبح فى شراء الكفن مثلا أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح فى غيره من المضايقة . وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبى . وبمن منه المضايقة من صبى أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير . فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال ، فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال ، فمانع الزكاة والنفقة بخيل . وصيانة المروءة أهم من حفظ المال ، والمضايق فى الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين ، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجاته فى الآخرة ، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس ببخل عند عوام الخلق ، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه إن كان فى جواره محتاج فمنعه وقال : قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيرها . ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه . فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل . نعم لايتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة فى العادة فهو جواد بقدر ماتتسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لاتحصر وبعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ماتوجبه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد ، فإنه يشترى المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود فى نفسه ، والجود هو بذل الشىء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولايتصور ذلك إلا من الله تعالى ، أما الآدمى فاسم الجود عليه مجاز إذ لايبذل الشىء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا

الثواب فى الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادا ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة الخلق أو مايتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهى أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لاجواد ، كما روى عن بعض المتعبدات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سلى عما شئت ـ وأشاروا إلى حبان بن هلال ـ فقالت : ماالسخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء والبذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين ؟ قالوا : أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت : فتريدون على ذلك أجرا ؟ قالوا . نعم ، قالت ولم ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت سبحان الله ! فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأى شىء تسخيتم عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت السخاء عندى أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لاتريدون على ذلك أجرا حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ! ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشىء ؟ إن هذا فى الدنيا لقبيح ! وقالت بعض المتعبدات أتحسبون أن السخاء فى الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندى فى المهج . وقال المحاسبى السخاء فى الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك مالاتحسن أن تختار لنفسك .

بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان أحدهما حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لايبخل بماله ، إذ القدر الذى يحتاج إليه فى يوم أو فى شهر أو فى سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام « الولد مبخلة مجبنة مجهلة [1] » . فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجىء الرزق قوى البخل لا محالة .

السبب الثانى : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه مايكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ماجرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولاتسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبا للدنانير عاشقا لها يلتذ بوجودها فى يده وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة ، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما فى كبر السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه : مثال رجل عشق شخصا فأحب رسوله لنفسه ثم نسى محبوبه واشتغل برسوله ، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب فى نفسه وهو غاية الضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب المال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فتعالج حب الشهوات بالقناعة

(١) حديث « الولد مبخلة » زاد فى رواية « محزنة » ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله « محزنة » رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبى سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح .

باليسير وبالصبر ، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الأقران وطول تعبهم فى جمع المال وضياعه بعدهم . وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث ؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة فى ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له ، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر فى قلوب الناس مثل سائر البخلاء فى قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر فى مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقى يدخره لنفسه فى الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلا ، فإن تحركت الشهوة فينبغى أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه .

حكى أن أبا الحسن البوشنجى كان ذات يوم فى الخلاء فدعا تلميذا له وقال : أنزع عنى القميص وادفعه إلى فلان ، فقال : هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال : لم آمن على نفسى أن تتغير ، وكان قد خطر لى بذله ! ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره ؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه ، فكذلك الذى يريد علاج البخل ينبغى أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله ، بل لو رماه فى الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً فى حشمة الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما يسلى الصبى عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدى إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكذلك هذه الصفات الخبيثه ينبغى أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها ، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به ، إلا أن هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من علة ويزيد فى أخرى مثلها ، إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء ، فلذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه ، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغى أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه .

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت ، فكذلك هذه الصفات الخبيثه يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها . ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضى لا محالة أعمالا ، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت . مثل البخل فإنه يقتضى إمساك

المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه ، فإن علاج البخل بعلم وعمل ، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه ، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية فى معالجة علة البخل فى المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توهم فى مريد فرحه بزاويته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوبا خلقا لا يميل إليه قلبه .

فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها ، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له ، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه ، بل هو فى حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك .

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ، ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : اراه مصيبة أو فقرا ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر ، ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال : صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا ! وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار ، وعدوة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها ، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس . والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير ، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل ، ولا يحتاج إليه ، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله ، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف

الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة وما يجرى مجراه .

الثالثة : فى المقدار الذى يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة ، والحاجة

ملبس ومسكن ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان محقا ويجيء من جملة المحقين ، وإن جاوز ذلك وقع فى هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد .

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ويقتصد فى الإنفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله فى حقه ولا يضعه فى غير حقه ، فإن الإثم فى الأخذ من غير حقه والوضع فى غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته فى الأخذ والترك والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على رضى الله عنه : لو أنّ رجلا أخذ جميع ما فى الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة ، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة ، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة فى حقك . وكذلك ينبغى إن تكون نيتك فى كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه فى الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ فى الدين قدمه وعظم فيه علمه . والعامى إذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبى الذى يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها ، فيأخذها اقتداء به فتقتله فى الحال ، إلا أنّ قتيل الحية يدرى أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل :

هى دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير فى تخطى قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامى بالعالم الكامل فى تناول المال .

بيان ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ـ وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ـ ولكنا فى هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال ، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضى الله عنه فى بعض كتبه فى الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه . وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء : بلغنا أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ياعلماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تحكمون ، تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ؛ كذلك أنتم

تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم ؛ ياعبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ولاتنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ؛ بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ؛ فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم ، مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة ! ياعبيد الدنيا لاكعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام ؛ توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . ثم قال الحارث رحمه الله : إخوانى فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد : فإنى رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص ، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصى وإلى البوار والتلف مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه ﴿ خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ فيالها من مصيبة ماأفظعها ورزية ماأجلها ، ألا فراقبوا الله إخوانى ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون . ويحك أيها المفتون إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك ! لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد إزدريت محمداً والمرسلين ؟ ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال (١) وقد علم أن جمع المال خير للأمة ؟ فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فلقد كان للأمة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رءوفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم ؟ أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل فى الجمع فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما فى المال من الخير والفضل لذلك رغبت فى الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون ؟ تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ! ويحك ماينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا ؟

---

(١) حديث : النهى عن جمع المال . أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود « ما أوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ... الحديث » ولأبى نعيم والخطيب فى التاريخ والبيهقى فى الزهد من حديث الحارث بن سويد فى أثناء الحديث « لاتجمعوا مالا تأكلون » وكلاهما ضعيف .

وقد بلغنى أنه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ! فقال كعب : سبحان الله ! وماتخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيبا وترك طيبا ! فبلغ ذلك ابا ذر فخرج مغضبا يريد كعبا فمر بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعبا ، فقيل لكعب . إن ابا ذر يطلبك ، فخرج هاربا حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، واقبل أبو ذر يقص الأثر فى طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبى ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يا ابن اليهودية ! تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال « ياأبا ذر » فقلت : لبيك يارسول الله فقال « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل ماهم » ثم قال « يا أبا ذر » قلت : نعم يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال « ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين » قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال « بل قيراطان » ثم قال « يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل (١) » ، فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبدالرحمن بن عوف ؟ كذبت وكذب من قال ! فلم يرد عليه خوفا حتى خرج .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها : ماهذا ؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن ، قالت : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا ، ولم أر أحدا من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حبوا (٢) » فقال عبد الرحمن : إن العير وما عليها فى سبيل الله ، وإن ارقاءها أحرارا لعلى ادخلها معهم سعيا .

وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها إلا حبوا (٣) » .

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن فى فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال فى سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراه بالجنة (٤) أيضا يوقف فى عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف واصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا ، وأعطى فى سبيل الله سمحا ،

---

(١) حديث أبى ذر « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف : كسب طيباً وترك طيبا . ولإنكار أبى ذر عليه ؟ فلم أقف على هذه الزيادة إلا فى قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغنى كما ذكره المصنف ، وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب : إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لى ذهبا ... الحديث . وفيه ابن لهيعة (٢) حديث عائشة « رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا .. الحديث » فى أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا فى كون عبدالرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين ، وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه (٣) حديث : أنه قال « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت تدخلها إلا حبوا » أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبدالرحمن ابن عوف « ياابن عوف انك من الأغنياء ولن تدخل الجنة الا زحفا » وقال صحيح الإسناد قلت : بل ضعيف فيه خالد بن أبى مالك ضعفه الجمهور (٤) حديث : بشر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنه . أخرجه الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديثه « أبو بكر فى الجنة ... الحديث » وفيه « وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة » وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخارى والترمذى وهذا أصح .

منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو فى آثارهم حبوا ؟ فما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا ؟ وبعد : فالعجب كل العجب لك يامفتون تتمرغ فى تخاليط الشبهات والسحت ، وتتكالب على أوساخ الناس ، وتتقلب فى الشهوات والزينة والمباهاة ، وتتقلب فى فتن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ؟ ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه ! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائحك وفضل الصحابة . ولعمرى لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل فى سبيل الله ، فكسبوا حلالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يمنعوا منها حقا ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا ، فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وبعد : فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبالله فى أرزاقهم واثقين ، وبمقادير الله مسرورين ، وفى البلاء راضين ، وفى الرخاء شاكرين ، وفى الضراء صابرين ، وفى السراء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين . لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم بالبلغه منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا فى نعيمها وزهرتها . فبالله أكذلك أنت ؟

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا : مرحباً بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيبا حزينا ، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحا مسرورا ، فقيل له : إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك ! قال : إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شيء فرحت إذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ، وإذا كان عند عيالى شيء اغتممت إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا : مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن تعاهدنا ربنا . فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذلك أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضداً لأحوالهم ، وذلك أنك تطغى عند الغنى ، وتبطر عند الرخاء ، وتمرح عند السراء ، وتغفل عن شكر ذى النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة ؛ وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم . وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه ، وكفى به إثما ، وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم فربت عليهم أجسامهم »(١) ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ وأنت فى غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيالها حسرة ومصيبة ! نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة فى الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقى الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو

(١) حديث « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ... الحديث » تقدم ذكره فى أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة » .

نعم وعساك المكث فى الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره، وأنت فى غفلة وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدنيا ؛ وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر . وقيل سنة . » وأنت تأسف على مافاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله . نعم ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه [1] » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على مافاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك فى الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تعنى بأمور دنياك أضعاف ماتعنى بأمور آخرتك ، وعساك ترى مصيبتك فى معاصيك أهون من مصيبتك فى انتقاص دنياك ، ونعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب ، وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة فى الدنيا ، وعساك ترضى المخلوقين مساخطا لله تعالى كيما تكرم وتعظم . ويحك ! فكأن احتقار الله تعالى لك فى القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك ، وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله ، تعالى الله عن جهلك ! فكيف تنطق عند ذوى الألباب وهذه المثالب فيك ؟ أف لك ! متلوثا بالأقذار وتحتج بمال الأبرار ؟ هيهات هيهات ماأبعدك عن السلف الأخيار ، والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، إن الذى لابأس به عندكم كان من الموبقات عندهم ، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصى ، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم ؟ وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل؟ ليت صومك على مثال إفطارهم ؟ وليت اجتهادك فى العبادة مثل فتورهم ونومهم ؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال : غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ونهمتهم مازوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم فى الدنيا ولا معهم فى الآخرة ، فسبحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ؟ فريق خيار الصحابة فى العلو عند الله وفريق أمثالكم فى السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله .

وبعد : فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل فى سبيل الله فتدبر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال فى دهرك كما وجدوا فى دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال : كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام ، أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط ؟ لاورب الكعبة ما أحسبك كذلك ! ويحك ! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام [2] » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات ، وبذلها فى سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهما واحدا مخافة أن لايكون حلالا خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لاتدرى

---

(١) حديث « من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه » لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبى كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث « من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

أيحل لك أم لا ؟ فإن زعمت أنك أتق وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل فى سبيل الله ! ويحك ! إن كنت كما زعمت بالغا فى الورع فلا تتعرض للحساب ، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة، وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ماسرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها فى طاعة الله ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجمعة ، قالوا : ولم ذاك رحمك الله ؟ قال : لأنى غنى عن مقام يوم القيامة فيقول عبدى من أين اكتسبت وفى أى شيء أنفقت ؟ فهؤلاء المتقون كانوا فى جدة الإسلام والحلال موجود لديهم ، تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لايقوم خير المال بشره ، وأنت بغاية الأمن والحلال فى دهرك مفقود . تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال ، ويحك ! أين الحلال فتجمعه

وبعد : فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ؟ أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق فى أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء ، ويحك ! إنى لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نوقش الحساب عذب [1] » وقال عليه السلام « يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال فيقال له : قف لعلك قصرت فى طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها ، وفرطت فى شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ولم أضيع شيئا فرضت على ، فيقال : لعلك اختلت فى هذا المال فى شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم أباه فى شيء ، فيقال : لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ولم أضيع شيئا مما فرضت على ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتنى أن أعطيه ، قال : فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون : يارب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا ، فإن كان أعطاهم وما ضيع من ذلك شيئا من الفرائض ولم يختل فى شيء فيقال : قف ، الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل [2] » ويحك فمن ذا الذى يتعرض لهذه المسألة التى كانت لهذا الرجل الذى تقلب فى الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها ، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها ؟ ويحك ، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال ـ بزعمك ـ للتعفف والبذل فى سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله فى شيء من سرائرك وعلانيتك ويحك فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيل الأول فى

---

(١) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل

زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للمسألة والحساب ، فإما سلامة وإما عطب. فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام [١] » ، وقال عليه السلام « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتى أنتم حكام الناس وملوكهم فأرونى ماذا صنعتم فيما أعطيتكم [٢] »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال . ما سرنى أن لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه . ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين فى زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين . لقد بلغنى أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد فى البكاء ، فلما أكثر البكاء قيل له: أكل هذا من أجل هذه الشربة؟ قال : نعم ، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد فى البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول « إليك عنى ! » فقلت له. فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحدا فمن تخاطب ؟ فقال « هذه الدنيا تطاولت إلى بعنقها ورأسها فقالت لى . يا محمد خذنى ، فقلت . إليك عنى ، فقالت . إن تنج منى يا محمد فإنه لاينجو منى من بعدك » ، فأخاف أن تكون هذه قد لحقتنى تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] ياقوم فهؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ! ويحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ؟ أف لك ما أعظم جهلك ! ويحك فإن تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء ، ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير ، ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ؛ ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت وبعد . فإن زعمت أنك فى مثال خيار السلف ، قانع بالقليل ، زاهد فى الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئا لغدك ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة قوى فى أمرك ، لايتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الله ، وحكمت أمورك كلها على ماوافق رضوان الله ولن توقف فى المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين . وإنما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله ، ويحك أيها المغرور فتدبر الأمر وأمعن النظر ! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار . أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافا . بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال . لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان

---

(١) حديث « يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بلفظ « فقراء » مكان « صعاليك » ولهما وللنسائى فى الكبرى من حديث أبي هريرة « يدخل الفقراء الجنة ... الحديث » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفا » .

(٢) حديث « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ... الحديث . لم أر له أصلا (٣) حديث : إن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل ... الحديث . فى دفع النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله « إليك عنى ... الحديث » أخرجه البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال : كنا عند أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ... الحديث . قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا الكتاب .

الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه ابرّ به . وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ، أحدهما . طلب الدنيا حلالا فأصابها ، فوصل بها رحمه وقدم لنفسه . وأما الآخر . فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها ، فأيهما أفضل ؟ قال . بعيد والله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها . ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ، ولك فى العاجل إن تركت الاستغال بالمال ، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهمومك . فما عذرك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل .

وبعد . فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به ، وترضى مااختاره لنفسه من مجانبة الدنيا . ويحك ! تدبر ماسمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى سابقا إلى جنة المأوى . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء ، وإذا استقرض لم يجد قرضا ، وليس له فضل كسوة إلا مايواريه ، ولم يقدر على أن يكتسب مايغنيه ، يمسى مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ »(١) ، ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه ، لا ! ولكنك خوفا من الفقر تجمعه ، وللنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم انك لأعمال البر تجمع المال : ويحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرّا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزريا على نفسك معترفا بإساءتك وجلا من الحساب ، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال . إخوانى اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقودا ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة . فأما جمع المال فى دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه .

وبعد : فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم ؟ دهينا ورب السماء بادواء النفوس واهوائها ، وعن قريب يكون الورود ؛ فياسعادة المخفين يوم النشور وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل . وفقنا الله وإياكم فكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا ، وفى كتاب الفقر والزهد .

ويشهد له أيضاً ماروى عن أبى أمامة الباهلى : أن ثعلبة بن حاطب قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال « ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه » قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال « ياثعلبة أمالك فى أسوة أماترضى أن تكون مثل نبى الله تعالى ؟ أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت » قال : والذى بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، ولأفعلن ولأفعلن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزق ثعلبة مالا » فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت

(١) حديث « سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ... الحديث » عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصرا بلفظ « سادة الفقراء فى الجنة ... الحديث » ولم أره فى معاجم الطبراني .

عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ويدع ماسواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة ، وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة ، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار فى المدينة ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال « مافعل ثعلبة بن حاطب ؟ » فقيل : يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة ؛ وأخبر بأمره كله ، فقال « ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة » قال وأنزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم على الصدقة ، وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين : وقال « مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بنى سليم - وخذا صدقاتهما : فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى فانطلقا نحو السليمى فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ؛ فلما رأوها قالوا : لايجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك ، قال بلى خذوها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرونى كتابكما ، فنظر فيه فقال : هذه أخت الجزية ! انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلماه ودعا للسليمى فأخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السليمى فأنزل الله تعالى فى ثعلبة ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال : لا أم لك ياثعلبة ! قد أنزل الله فيك كذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا عملك أمرتك فلم تطعنى » فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وتوفى ثعلبة بعد فى خلافة عثمان [1] فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ، ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كانت لى من رسول الله منزلة وجاه فقال « ياعمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقلت : نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال « السلام عليكم أأدخل ؟ » فقالت : ادخل يارسول الله قال أنا ومن معى ؟ » قالت ومن معك يارسول الله ؟ فقال عمران بن حصين » فقالت : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة ! فقال « اصنعى بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شدى بها على رأسك » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السلام عليك يابنتاه كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على مابى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لاتجزعى يابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاثة ، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا

---

(١) حديث أبى أمامة : أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال « ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ... الحديث بطوله » أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن فى بيوت من قصب لاأذى فيها ولا صخب ، ثم قال لها ، اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة [1] » فانظر الآن إلى حال فاطمة رضى الله عنها وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وتركت المال . ؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك فى أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوقى من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال .

وقد روى عن جرير عن ليث قال : صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : أكون معك وأصحابك ، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين وبقى رغيف ثالث ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدرى ، قال : فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها ، قال : فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ، ثم قال للخشف : قم بإذن الله فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدرى ، ثم انتهيا إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى ، فانتهيا إلى مفازة فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبا ، فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال ثلث لى وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف ، فقال أنا الذى أخذت الرغيف ، فقال كله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان فى المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه ، فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشترى لنا طعاما نأكله ، قال فبعثوا أحدهم فقال الذى بعث لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأقتلهما وآخذ المال وحدى ، قال ففعل ، وقال ذانك الرجلان لأى شئ نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا ، قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها .

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم ، وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذو القرنين ، فقال مالى إليه حاجة ، فإن كان له حاجة فليأتنى ! فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتينى فأبيت ، فها أنا قد جئت ، فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك ، فقال له ذو القرنين مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وما ذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناهما

---

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال « فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله وفيه « لقد زوجتك سيدا فى الدنيا وسيدا فى الآخرة » لم أجده من حديث عمران ، ولأحمد والطبرانى من حديث معقل بن يسار : وضأت النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « هل لك فى فاطمة تعودها .. الحديث » وفيه « أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما وإسناده صحيح .

لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تاقت نفسه ودعته إلى ماهو أفضل منه . فقال مابالكم قد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها ؟ قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لاطعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن أدنى العيش من الطعام وإنما ماجاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام ؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة ؛ فقال : ياذا القرنين أتدرى من هذا ؟ قال : لا ؛ ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا ؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى ؛ وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : ياذا القرنين هل تدرى من هذا ؟ قال : لأدرى ومن هو ؟ قال : هـذا ملك ملكه الله بعده ؛ قد كان يرى مايصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر ؛ فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل فى أهل مملكته ؛ فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال . وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر ياذا القرنين ماأنت صانع ؟ فقال له ذو القرنين : هل لك فى صحبتى فأتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتانى الله من هذا المال ؟ قال : ماأصلح أنا وأنت فى مكان ولا أن نكون جميعا ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولى صديق ، قال : ولم ؟ قال : يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ! ولا أجد أحداً يعادينى لرفضى لذلك ولما عندى من الحاجة وقلة الشىء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به ، فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ماقدمناه من قبل وبالله التوفيق .

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذى لايقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك . والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ماأخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية التى هى أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء [1] » ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة

كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث « إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا « الشرك » بدل « الرياء » وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقى فى الشعب بلفظ المصنف .

العلماء فضلا عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم ؛ فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده ، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا فى التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا فى بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموه فى المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه فى البيع والمعاملات ، وقدموه فى المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له فى أغراضه موقرين ، فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات وشهوة هى أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها فى الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات ، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التى تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ، ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال ، وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين . وهذه مكيدة للنفس لايسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ، ولذلك قيل : آخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة .

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ، ويتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين ؛ الشطر الأول : فى حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى ، وبيان مايحمد من حب الجاه ومايذم ، وبيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم . وبيان العلاج فى حب الجاه وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهة الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم . فهى اثنا عشر فصلا منها تنشأ معانى الرياء ، فلا بدّ من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم ، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه إلا من عصمه الله [1] » ، وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه

(١) حديث أنس « حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس اليه بالأصابع فى دينه ودنياه » أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

بالأصابع فى دينه ودنياه . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[1] » ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلا ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث فقيل له : يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ، فقال : إنه لم يعن هذا وإنما عنى به المبتدع فى دينه والفاسق فى دنياه وقال على كرم الله وجهه : تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم ابن أدهم رحمه الله : ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السختيانى : والله ماصدق الله عبد إلا سره أن لايشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان . أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة . وعن أبى العالية . أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال : ذباب طمع وفراش نار . وقال سليم بن حنظلة : بينا نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة . فقال انظر ياأمير المؤمنين ماتصنع ؟ فقال : إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوما من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال : علام تتبعونى فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان ؟ وقال الحسن : إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى . وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن . وروى أن رجلا صحب ابن محيريز فى سفر فلما فارقه قال : أوصنى ، فقال : إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشى ولا يمشى إليك وتسأل ولا تسئل فافعل . وخرج أيوب فى سفر فشيعه ناس كثيرون فقال : لولا أنى أعلم أن الله يعلم من قلبى أنى لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه فقال . إن الشهرة فيما مضى كانت فى طوله وهى اليوم فى تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبى قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال : إياكم وهذا الحمار الناهق ! يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثورى : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحارث . أوصنى ، فقال أخمل ذكرك وطيب مطعمك . وكان حوشب يبكى ويقول : بلغ اسمى مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضاً : لايجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين ،

بيان فضيلة الخمول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره[2] منهم البراء بن مالك » وقال ابن مسعود : قال النبى صلى الله عليه وسلم « رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا[3] » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا

---

(١) حديث جابر « بحسب امرئ من الشر ... الحديث » مثله وزاد فى آخره « إن الله لاينظر إلى صوركم ... الحديث » هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره ، وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ « كفى بالمرء إثما » ورواه ابن يونس فى تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ « هلاك بالرجل » وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق وإسناده ضعيف

(٢) حديث « رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وللحاكم « رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » وقال صحيح الإسناد ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أنس ضعيف « رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه (٣) حديث ابن مسعود « رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا » أخرجه ابن أبى الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف .

أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرّه وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ [١] » وقال أبو هريرة : قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخلل فى صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن من أمتى من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما منعها إياه إلا لهوانها عليه ، رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره [٢] » وروى أن عمر رضى الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنّ اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة [٣] »

وقال محمد بن سويد : قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم فى دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال : يارب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة ! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام ، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق ، فقال : يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم ، وسكن ، وتبع الرجل صاحبه الذى استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال إنى أتيتك فى حاجة ! فقال ماهى ؟ قال تخصنى بدعوة ، قال : سبحان الله ! أنت أنت وتسألنى أن أخصك بدعوة ؟ ثم قال ما الذى بلغك ما رأيت ؟ قال : أطعت الله فيما أمرنى ونهانى فسألت الله فأعطانى . وقال ابن مسعود : كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب ، تعرفون فى أهل السماء وتخفون فى أهل الأرض . وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى . إن أغبط أوليائى عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر كان غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك » قال : ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه [٤] » وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما . أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ، قال : الفارّون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمن به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أخمل ذكرك ! وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى عند نفسى من أوضع خلقك ، واجعلنى عند الناس من أوسط خلقك . وقال الثورى : وجدت قلبى يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء . وقال إبراهيم بن أدهم : ماقرت عينى يوما فى الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة فى بعض مساجد قرى الشام وكان بى البطن ، فجرنى المؤذن برجلى حتى أخرجنى من المسجد . وقال الفضيل : إن قدرت على أن لا تعرف فافعل ،

---

(١) حديث « ألا أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف ... الحديث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٢) حديث « إن من أمتى من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله « ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه الا لهوانها عليه » .

(٣) حديث معاذ بن جبل « ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الأتقياء الأخفياء ... الحديث » أخرجه الطبرانى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقى متروك (٤) حديث أبى أمامة « ان أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه بإسنادين ضعيفين .

وما عليك أن لاتعرف وما عليك أن لايثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عندالله تعالى ؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول . وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب ، وحب الجاه هو منشأ كل فساد .

فإن قلت : فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ! فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لايعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم ، وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

بيان ذم الجاه ومعناه

قال الله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو ، وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعا . وقال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون ﴾ وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأسرع إفسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم [2] » وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء [3] » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده ، وقد يعتقد ماليس كمالا كمالا ، ويذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده ، فإن انقياد القلب حال للقلب . وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها ، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد

---

(١) حديث « المال والجاه ينبتان النفاق ... الحديث » تقدم فى أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم ... الحديث » تقدم أيضاً هناك (٣) حديث « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء » لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم فى العلم من حديث أنس « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ... الحديث » ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف « حب الثناء من الناس يعمى ويصم »

فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية والطاعة له ، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذاً معنى الجاه : قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه . فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده ، فيثنى عليه ، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه ، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال فى صورة أو قوة فى بدن أو شىء مما يعتقده الناس كمالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا ، بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار ، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس ، وإنما هى والحصباء بمثابة واحدة ، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات ، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب ، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض ، فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه .

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصيل بالمال إلى الجاه ، فالعالم أو الزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذى لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ، فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال ، فمن ملك الجاه فقد ملك المال ، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال ، فلذلك صار الجاه أحب .

الثانى : هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهى على التحقيق خزائن عتيدة ، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب ، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ ، وأما خزائن القلوب فهى محفوظة محروسة بأنفسها ، والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها . نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله .

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها ، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر . لأن ذلك إذا استطار فى الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين ، وأما المال فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبداً فى النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال فى مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال . وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت فالإشكال قائم فى المال والجاه جميعا فلا ينبغى أن يحب الإنسان المال والجاه . نعم القدر الذى يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه المال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفى الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثا ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التى يعلم قطعا أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ؛ ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت فى الطبع ، ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان ؟ أحدهما : جلى تدركه الكافة . والآخر : خفى وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفى فى النفس وطبيعة مستكنة فى الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفيا فى الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال الذى فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة ، فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة ؛ ويقدر هجوم الحاجات ؛ ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر ، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما فى الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال [1] » ومثل هذه العلة تطرد فى حبه قيام المنزلة والجاه فى قلوب الأباعد عن وطنه وبلده ، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ؛ ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه فى قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

---

(١) حديث « منهومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبزار والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

وأما السبب الثانى وهو الأقوى : لأن الروح أمر ربانى ، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ أو معنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ولارخصة فى إظهاره إذا لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء ؛ وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الربانى يحب الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوبا بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة فى الوجود نقص لامحالة ، فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن المعية توجب المساواة فى الرتبة ، والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال ، بل الكامل من لا نظير له فى رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فإذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكنه ليس يجد له مجالا وهو كما قال ، فإن العبودية قهر على النفس . والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التى أومأ اليها قوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال ، فهى محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ؛ ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود فى الاستيلاء على كل الموجودات ؛ فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستوليا عليه ، فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به ، إلا أن الاستيلاء على الشىء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير فى نفسه كذات الله تعالى وصفاته . وإلى مايقبل التغيير ولكن لايستولى عليه قدرة الخلق ، كالأملاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ؛ وكالجبال والبحار . وإلى مايقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس ، فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

وإذا انقسمت الموجودات إلى مايقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء ؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه ، فلذلك أحب أن يعرف

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ،وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهى اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يعجز عن وضع الشطرنج ، فأنه قد يشتهى أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع ؟ وكمن يرى صنعة عجيبة فى الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل أو غيره وهو مستشعر فى نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه .

وأما القسم الثانى : وهو الأرضيات التى يقدر الإنسان عليها ، فانه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهى قسمان : أجساد وأرواح

(أما الأجساد) فهى الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ماشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فان ذلك قدرة والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فلذلك أحب الأموال وإن كان لايحتاج إليها فى ملبسه ومطعمه وفى شهوات نفسه ، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر منزلته فيها ، فان الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة .

(القسم الثانى) نفوس الآدميين وقلوبهم وهى أنفس ماعلى وجه الأرض ، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية ، والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فان كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الربانى من جملة معانى الإنسان ، وهو الذى لايبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه فإذن معنى الجاه تسخير القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية . فإذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات ، وما دام يبقى معلوم ، أو مقدور فالشوق لايسكن والنقصان لايزول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، منهومان لايشبعان ، فإذن مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر مايدركه من الكمال ، فهذا هو السبب فى كون العلم والمال والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يحب الإنسان من العلوم مالا يصلح للتوصل به الى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم فى جميع العجائب والمشكلات ، لأن فى العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذى هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع ، إلا أن فى حب كمال العلم والقدرة أغاليط لابد من بيانها إن شاء الله تعالى .

بيان الكمال الحقيقى والكمال الوهمى الذى لاحقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا فى العلم والقدرة ، ولكن الكمال الحقيقى فيه متلبس بالكمال الوهمى ، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : (أحدها) من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط

بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى (الثانى) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما ، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهى عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم فى تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى (الثالث) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لايتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لايتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لايقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى .

والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات .

أما المتغيرات : فمثالها العلم بكون زيد فى الدار ، فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه فى الدار كما كان فينقلب جهلا ، فيكون نقصانا لا كمالا ، فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ، ويعود علمك جهلا . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كعلمك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض ، وبعد البلاد وتباعد مابينها من الأميال والفراسخ ، وسائر مايذكر فى المسالك والممالك ، وكذلك العلم باللغات التى هى اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا فى الحال ولا يبقى كمالا فى القلب .

القسم الثانى : هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لايستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالا ولا المحال واجباً . فكل هذه الأقسام داخلة فى معرفة الله وما يجب له ، وما يستحيل فى صفاته ، ويجوز فى أفعاله ، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته فى ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقى الذى يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالا للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نور للعارفين بعد الموت ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ أى تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف فى الدنيا ، كما أن من معه سراج خفى فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل النور الخفى على سبيل الاستتمام ، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له فى ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع فى هذا النور ، فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها بل (كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) فإذن لاسعادة إلا فى معرفة الله تعالى وأما ماعدا ذلك من المعارف فمنها مالا فائدة له أصلا كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منفعة فى الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار ، فان معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة مافى القرآن من كيفية العبادات والأعمال التى تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى (قد أفلح من زكاها) وقال عز وجل (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى ، وإنما الكمال فى معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هى فعل الله تعالى . ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة ، فهى من تكملة معرفة الله تعالى ، وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى وليس له قدرة حقيقية ، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهى حادثة بإحداث الله - كما قررناه فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل وفى مواضع شتى من ربع المنجيات — فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا . نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهى وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشى وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوة آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم ، وقد يحتاج فى استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فان لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التى تنقضى على القرب ، ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل ، فالخلق أكثرهم هالكون فى غمرة هذا الجهل ، فإنهم يظنون أنّ القدرة على الأجساد بقهر الحشمة ، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه ؛ كمال ، فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقى الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية (أما العلم) فما ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرية) فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذى هو من صفات الملائكة . ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة ، وإنما لم نورده فى أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإنّ التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص فى الذات وفى صفات الكمال .

فإذن الكمالات ثلاثة — إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها) كمالا ككمال العلم وكمال الحرية ؛ وأعنى به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية —وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم ، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت ، ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالا فيه ووسيله إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذى لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذى إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له ، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس ، والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الآية وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى قوله (فأصبح هشيما تذروه الرياح) وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظنى لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل : الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقى اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك .

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل ما خلق فى الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة ، وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس ، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يبتاع به الطعام ، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له فى قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له فى قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له فى قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له من المحل فى قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال ، فلا فرق بينهما إلا أنّ التحقيق فى هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له فى داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء ، فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أنّ الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة ، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ، ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به ، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها ؛ فهذا هو الحب دون الأول ، وكذلك الجاه والمال . وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين ، فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمل الحب على مباشرة معصية . وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور ومالم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإنّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى .

فإن قلت : طلبه المنزلة والجاه فى قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور : فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها ، مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك . فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس أما بالقول أو بالمعاملة .

أما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ فإنه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان

محتاجا إليه وكان صادقا فيه (والثانى) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه ، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضا مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز ، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة فى العلم به ، كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه ورع ، فإن قوله : إنى ورع ، تلبيس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب .

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية ، وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول ، وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال فإنا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيذ . فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ، فإن الوصف الذى به مدح لايخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ، ولكنه لايخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته ، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أوكمال الورع أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه وفى كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لايجازف فى القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه فى غاية اللذة ، وإن صدر ممن يجازف فى الكلام أو لايكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة ، وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت الشعور به مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه فى المدح .

السبب الثانى : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح ممن لايؤبه له ولايقدر على شىء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وبهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم .

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لاسيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه ، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى

قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس .

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لايعتقد فى الباطن مامدح به ، ولكن كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها. أما العلة الأولى وهى استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخى أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة فهذا مايكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة ، فإن مالا يعرف سببه لايمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم ، ولايزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا إلى مايعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لامحالة إلى التساهل فى العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب ؛ ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال عليه السلام « إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل » إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق .

فحب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال ؛ وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بينا أنّ ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لايبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له . فهذا لاينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لاانقطاع لها ، ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى ـ كما سبق ـ صغر الجاه فى عينه ، إلا أنّ ذلك إنما يصغر فى عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصرى حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز (أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات) فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كائنا . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب فى جوابه (أما بعد : فكأنك بالدنيا لم تكن

وكأنك بالآخرة لم تزل) فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة ، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمال فى الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لايمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وقال عزوجل ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ﴾ فمن هذا حدّه فينبغى أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر فى الأخطار التى يستهدف لها أرباب الجاه فى الدنيا ، فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته فى القلوب ، والقلوب أشدّ تغيرا من القدر فى غليانها وهى مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى مايبنى على أمواج البحر فإنه لاثبات له ، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه ، فلايفى فى الدنيا مرجوها بمخوفها فضلا عما يفوت فى الآخرة ، فبهذا ينبغى أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملامتية ؛ إذ اقتحموا الفواحش فى صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن الدين فى قلوب المسلمين ، وأما الذى لايقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات مايسقط قدره عند الناس ؛ كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد: الحمد لله الذى صرفك عنى . ومنهم من شرب شرابا حلالا فى قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس . وهذا فى جوازه نظر من حيث الفقه إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لايفتى به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون مافرط منهم فيه من صورة التقصير ، كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف فى الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا : إنه طرار وهجروه وأقوى الطرق فى قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول ، فإن المعتزل فى بيته فى البلد الذى هو به مشهور لايخلو عن حب المنزلة التى ترسخ له فى القلوب بسبب عزلته ، فإنه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربما يحتاج فى إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولايبالى به ، وبه ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإن فتنة الجاه أعظم ، ولايمكنه أن لايحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأسا أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال ، فلايبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن ، كما لايبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق لأنه لايراهم ولايطمع فيهم ، ولايقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن ، ولايتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة فى ذم

الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم : المؤمن لايخلو من ذلة أوقلة أو علة . وينظر فى أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلم أنّ أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم ، فصار حركاتهم كلها موقوفة على مايوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم ، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها فهى إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع ، وإما صفة لاتستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح ، وهذا من قلة العقل ، بل العاقل يقول كما قال المتنبى :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا ، وإن فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى أن لايفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى ، وخطر الخاتمة باق ففى الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل مافى الدنيا ، بل الدنيا دار أحزان وغموم لادار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح ، فان اللذة فى استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغى أن تفرح بالمدح ، والمدح لايزيدك فضلا وإن كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه ؟ إذا قضى حاجته ، وهو يعلم ماتشتمل عليه أمعاؤه من الاقذار والأنتان ، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك ـ كان ذلك من غاية الجهل : فاذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التى هى من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغى أن يغمك ذلك ولاتفرح به .

وأما السبب الثانى : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة فى القلوب ـ وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله ! فكيف تفرح به ؟

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التى اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ولاتستحق الفرح ، بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف ـ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ـ كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان ـ قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل . وروى فى بعض الاخبار ـ فان صح فهو قاصم الظهور ـ

أنّ رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال « لوكان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فمات على ذلك دخل النار [١] » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّة للمادح « ويحك قصمت ظهره لوسمعك ماأفلح إلى يوم القيامة [٢] » وقال عليه السلام « ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب [٣] » فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال : أنت ياأمير المؤمنين خير منى وأعلم ، فغضب وقال : إنى لم آمرك بأن تزكينى وقيل لبعض الصحابة : لايزال الناس بخير ماأبقاك الله ، فغضب وقال : إنى لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم ـ لما مدح ـ اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشهدك على مقته . وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق ، لأن الممدوح هو المقرب عندالله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى فى النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق . ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيدالله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه . والله الموفق للصواب برحمته .

بيان علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة فى كراهة الذم هو ضدّ العلة فى حب المدح ، فعلاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه أن من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال .

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ؛ وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذبا .

فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغى أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغى أن تتقلد منته فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه ، فينبغى أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل ، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به ، وأذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قبحه فى عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماسمعته من المذمة . فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لاتدرى ، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال قائل : أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك ، فينبغى أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة ، وجميع مساوى الأخلاق مهلكة فى الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغى أن يغتنمه . وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به ؟

---

(١) حديث : أن رجلا أثنى على رجل خيرا فقال « لوكان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار » لم أجد له أصلا (٢) حديث « ويحك قطعت ظهره ... الحديث » قاله للمادح تقدم (٣) حديث « ألا لاتمادحوا وإذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » تقدم دون قوله « ألا لاتمادحوا » .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغى أن لاتكره ذلك ولا تشتغل بذمه ، بل تتفكر فى ثلاثة أمور (أحدها) أنك إن خلوت من ذلك العيب فلاتخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ماأنت برىء عنه . (والثانى) أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه ، بل ينبغى أن تقول : اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر لقومى اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون [١] » لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد . ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له فى ذلك فقال : علمت أنى مأجور بسببه وما نالنى منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببى . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبه ، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين ، فلا ينبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه فإن ذلك بعيد جدا .

بيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح :

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ماقبله كمال .

الحالة الثالثة : وهى أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره استثقالا . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته . وعلاماته أن لايجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده فى المادح ، وأن لايجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح فوق مايجده فى قضاء حاجة الذام ، وأن لايكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لايكون موت المادح المطرى له أشد نكاية فى قلبه من موت الذام ، وأن لايكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام ، وأن لاتكون زلة المادح أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام . فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب ! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن فى قلوبهم وهم لايشعرون حيث لايمتحنون

---

(١) حديث « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » قاله لما ضربه قومه . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة وقد تقدم والحديث فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبى من الأنبياء حين ضربه قومه .

أنفسهم بهذه العلامات ، وربمـا شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض . وهذا محض التلبيس ، فإن العابد لو تفكر علم أن فى الناس من ارتكب كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام فى مذمته ، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ، ويعلم أن المادح الذى مدح لا يخلو عن مذمة غيره ، ولا يجد فى نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه ، والمذمة من حيث إنها معصية لاتختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض ، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسره فى الآخرة ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة ؛ أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له فى الدين ، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى [1] » وقد روى فى بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح ، إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من ... » فقيل يارسول الله إلا من ؟ فقال « إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة [2] » وهذا شديد جدا ، وغاية أمثالنا الطمع فى الحالة الثانية ، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل ؛ فأما الحالة الثالثة وهى التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لاتفى بها ، لأنها لابد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ، ولا نقدر على أن نسوى بينهما فى الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه فى سريرة القلب ، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام فى ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة فى هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات فى المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائى بالعبادات ، ولايبالى بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات ، وهذا على شرف جرف هار ، فإن حدود الكلام الذى يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد ، فهو قريب من الهالكين جدا . ومنهم من لايريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التى قبلها وإن جاهد نفسه فى ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكر فى آفات المدح ، فهو فى خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه . ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقى عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن

---

(١) حديث « رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى » لم أجد له أصلا (٢) حديث « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف ... الحديث » لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » ولم يخرجه ولده فى مسنده .

لا ينتهى به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه ، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه ، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه ؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال فى حق الذام ، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو ، والإنسان يفرح بمن يذم عدوه ، وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذ صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس ، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التى هو عاجز عن إماطتها ، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطويل

الشطر الثانى من الكتاب : فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء : وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء وما يرائى ، وبيان درجات الرياء ؛ وبيان الرياء الخفى ؛ وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه ؛ وبيان الرخصة فى إظهار الطاعات وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب ؛ وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق ؛ وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها . وهى عشرة فصول وبالله التوفيق .

بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار .

أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ﴾ وقوله عز وجل ﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال مجاهد هم أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء ضده وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا [1] ﴾ نزل بعد ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال : يارسول الله فيم النجاة ؟ فقال « أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » وقال أبو هريرة فى حديث الثلاثة — المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه فى كتاب الاخلاص — : وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه

(١) حديث : نزول قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه) الآية فيمن يطلب الآخرة بعباداته وأعماله . أخرجه الحاكم من حديث طاوس : قال رجل انى أقف الموقف أبتغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية . هكذا فى نسختى من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة ، وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف « من صام رياء فقد أشرك ... الحديث » وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

وسلم أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم [١] وقال ابن عمر رضى الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به [٢] » وفى حديث آخر طويل « إن الله تعالى يقول لملائكته إن هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سجين [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ « قال الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « استعيذوا بالله عز وجل من جب الحزن، قيل وما هو يارسول الله ؟ قال « واد فى جهنم أعد للقراء المرائين [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عزوجل : من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك [٦] » وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم ، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لايقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء [٧] » وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكى : مايبكيك ؟ قال : حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعنى النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن أدنى الرياء شرك [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهرة الخفية [٩] » وهى أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى ظل العرش يوم لاظل إلا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله [١٠] » ولذلك ورد « أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا [١١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له [١٢] » وقال شداد بن أوس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكى فقلت مايبكيك يارسول الله ؟

---

(١) حديث : أبى هريرة فى الثلاثة : المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتابه فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم كذبت . رواه مسلم وسيأتى فى كتاب الإخلاص (٢) حديث ابن عمر « من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به » متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله ، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ « من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره » وفى الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع لنه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث « ان الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه فى سجين » أخرجه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الإخلاص وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج (٥) حديث « استعيذوا بالله من جب الحزن » قيل وما هو ؟ قال « واد فى جهنم أعد للقراء المرائين » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وضعفه ابن عدى (٦) حديث « يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله ... الحديث » أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبى هريرة دون قوله « وأنا منه برىء » ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهى عند ابن ماجه بسند صحيح .

(٧) حديث « لايقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء » لم أجده هكذا (٨) حديث معاذ « إن أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبرانى هكذا والحاكم بلفظ « إن اليسير من الرياء شرك » وقد تقدم (٩) حديث « أخوف ما أخاف عليكم الرياء ... الحديث » تقدم فى أول هذا الكتاب (١٠) حديث « إن فى ظل العرش يوم لاظل إلا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه فى حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله » (١١) حديث : تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ، ضعفه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء « ان الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به فى السر يضعف أجره سبعين ضعفا » قال البيهقى هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين ، وروى ابن أبي الدنيا فى كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف « يفضل الذكر الخفى الذى لاتسمعه الحفظة على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين درجة »

(١٢) حديث « ان المرائى ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك .... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابى لم يسم وزاد « ياكافر ياخاسر » ولم يقل « يامرائي » وإسناده ضعيف .

قال « إنى تخوفت على أمتى الشرك أما إنهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراءون بأعمالهم[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتاداً للأرض ، فقالت الملائكة : ماخلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال ، فخلق الله الحديد فقطع الجبال ، ثم خلق النار فأذابت الحديد ، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار ، وأمر الريح فكدرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نسأل الله تعالى ، قالوا : يارب ما أشد ماخلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلقا خلقه[2] » وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قال لى « يامعاذ » قلت لبيك بأبى أنت وأمى يارسول الله قال « إنى محدثك حديثا إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة ، يامعاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها قد جللها عظما فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى ، له نور كنور الشمس ، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزنى إلى غيرى ، قال « ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يفتخر به على الناس فى مجالسهم » قال « وتصعد الحفظة بعمل يبتهج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بها العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم » قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب فى عمله » قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى » قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به ، أنا ملك الرحمة أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى » قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل

(١) حديث شداد بن أوس « إنى تخوفت على أمتى الشرك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا

(٢) حديث « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها . الحديث » وفيه « لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله » أخرجه الترمذى من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

وجه صاحبه ، اضربوا به جوارحه اقفلوا به على قلبه إنى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه ربى إنه أراد بعمله غير الله تعالى ، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا فى المدائن ، أمرنى ربى أن لاأدع عمله يجاوزنى إلى غيرى ، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولايقبل الله عمل المرائى » قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عزوجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله» قال « فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى ، فتقول الملائكة كلهم : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول السماوات كلها : عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السماوات السبع والأرض ومن فيهن » قال معاذ : قلت يارسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال « اقتدبى وإن كان فى عملك نقص ، يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة فى إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولاتحملها عليهم ولاتزك نفسك بذمهم ولاترفع نفسك عليهم ولاتدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة ولاتتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك ، ولاتناج رجلا وعندك آخر ، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ، ولاتمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال الله تعالى ﴿ والناشطات نشطا ﴾ أتدرى من هن يامعاذ» ؟ قلت : ماهن بأبى أنت وأمى يارسول الله؟ قال « كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم » قلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟ قال « يامعاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه [1] » قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث .

وأما الآثار : فيروى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطئ رقبته فقال : ياصاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للمرائى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان فى الناس ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس ، قال : لاشىء لك ، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول : لاشىء لك ، ثم قال فى الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ... الحديث . وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر ، فقال له : اتحب أن تمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك . لايقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولايقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لاشريك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص منى ! فقال : لابل أدعها لله ولك . فقال له عمر : ماصنعت شيئا إما أن تدعها لى فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده ، فقال : ودعتها لله وحده ، فقال : فنعم إذن . وقال الحسن : لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى فى الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة ويقال : إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرائى ياغادر ياخاسر يافاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن عياض : كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون

---

(١) حديث معاذ الطويل « إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها ... الحديث بطوله فى صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى إسناده كما ذكر من لم يسم ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات .

بما لا يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله لأن النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح ، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء ؟ فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار القراء : ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء الملوك ، وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضل : من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى : أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان ، فقيل له وكيف ذاك ؟ قال يحب أن لايذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن أدهم : ماصدق الله من أراد أن يشتهر .

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادة وإظهارها فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالمرائى هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم ، والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى إظهارها ، والرياء هو قصده إظهار ذلك ، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو : البدن ، والزى والقول ، والعمل ، والاتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات .

(القسم الأول) الرياء فى الدين بالبدن : وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم ، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أوضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روى عن أبى هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ؛ ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن .

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها .

(الثانى) الرياء بالهيئة والزى : أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس فى المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله

الصالحين ، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف فى الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم .

والمراءون بالزى على طبقات : فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائى بغلاظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفاً مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح ، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب فى الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها ، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الديبقى والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم - لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا فى زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته فى زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى مافوقه وإن كان مباحا خيفة من المذمة .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون فى بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا فى الزينة .

(الثالث) الرياء بالقول : ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل الاستعمال فى المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس المعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل فى لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته علم الدين . والرياء بالقول كثير وأنواعه لاتنحصر .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح فى العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب .

(الرابع) الرياء بالعمل : كمراءاة المصلى بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام ، وبالإخبات فى المشى عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار فى الكلام ، حتى إن المرائى قد يسرع فى المشى إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من

أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار ، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته ، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له ، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء ، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته فى الخلوة مشيته بمرأى من الناس ، فيكلف نفسه المشية الحسنة فى الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه ، فإنه صار فى خلوته أيضا مرائيا ، فإنه إنما يحسن مشيته فى الخلوة ليكون كذلك فى الملأ لا لخوف من الله وحياء منه .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة .

(الخامس) المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين : كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا ، أو عابدا من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه ، أو ملكا من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته فى الدين . وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقى شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيباهى بشيوخه ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته ، فيقول لغيره : من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ ؟ وما يجرى مجراه فهذه مجامع ما يرائى به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد . ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة ؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه فى قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة فى ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة فى إزالة ذلك من قلوبهم ، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه - فإنه لذيذ كما ذكرناه فى أسبابه - فإنه نوع قدرة وكمال فى الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد . ومنهم من يريد انتشار الصيت فى البلاد لتكثر الرحلة إليه . ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التى ذكرناها . فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء .

فإن قلت : فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل ؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات ، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود ، وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام حيث قال ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه ، وكما أن كثير المال يلهى ويطغى وينسى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال ، وكما أنا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال ، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصى القلب واللسان وغيرها ، وأما سعة

الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه ؛ فلا جاه أوسع من جاه ورسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم ، فعلى هذا نقول : تحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا ، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ماروى عن عائشة رضى الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة فكان ينظر فى جب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت : أو تفعل ذلك يارسول الله ؟ قال « نعم إنّ الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم [1] » نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم فى الاتباع واستمالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه ، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم ، فإنّ أعين عوام الخلق تمتدّ إلى الظواهر دون السرائر ، فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم حذرا من ذمهم ولومهم واسترواحا إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا ، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم .

فإذن المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة ، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا فى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخى فهذا مراءاة وليس بحرام وكذلك أمثاله .

أما العبادت كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائى فيه حالتان إحداهما : أن لايكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيات ، وهذا ليس بقصد العبادة ، لايقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات .

والمعنى فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك ، والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضاً ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر . (والثانى) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله . ولذلك قال قتادة : إذا راءى العبد قال الله لملائكته انظروا إليه كيف يستهزئ بى .

ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من من جوارى الملك أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدا من عبيده ، فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لايملك له ضرا ولانفعا ؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقريب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته ؟ وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا

---

(١) حديث عائشة : أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر فى جب الماء ويسوى عمامته وشعره ... الحديث أخرجه ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الطهارة .

سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر [1] .

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض ـ كما سيأتى بيانه فى درجات الرياء إن شاء الله تعالى ـ ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولو لم يكن فى الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ، ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا، إلا أن الرياء هو الكفر الخفى لأن المرائى عظم فى قلبه الناس ، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فمن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكله الله تعالى إليهم فى الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا ؟ فكيف فى يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس ؟ فلا ينبغى أن تشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والقياس جميعا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص . وقد ذكرنا حكمه فى كتاب الإخلاص، ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت : إنه لا أجر له فيه أصلا .

بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض ، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب ، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً :

(الأولى) وهى أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلا ، كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى ، بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس ، فهذا جرّد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولا خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء .

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضعيفاً ، بحيث لو كان فى الخلوة لكان لا يفعله ، ولا يحمله ذلك القصد على العمل ، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل ، فهذا قريب مما قبله

(١) حديث : سمى الرياء الشرك الأصغر . أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج لجعله فى مسند رافع وتقدم قريبا والحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس : كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر .

وما فيه من شائبة قصد ثواب لايستقل بحمله على العمل لاينفى عنه المقت والإثم .

(الثالثة) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل ؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لايسلم ، وقد تكلمنا عليه فى كتاب الإخلاص .

(الرابعة) أن يكون إطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولو لم يكن لكان لايترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذى نظنه والعلم عند الله أنه لايحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح .

الركن الثانى : المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول وهو الأغلظ : الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات .

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد فى النار ، وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائى بظاهر الإسلام ، وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى كقوله عز وجل ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أى فى دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وقال تعالى ﴿ يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك ﴾ والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض ، وذلك مما يقل فى زماننا ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة ، أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين فى النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها ، أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع وعادته ترك الصلاة فى الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لايحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والديه لاعن رغبة ولكن خوفا من الناس ، أو يغزو أو يحج كذلك . فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لامعبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته فى محمدتهم أشد من رغبته فى ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد .

(الثالثة) أن لايرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لايعصى ، ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ولإيثار لذة الكسل على مايرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرياء على فعلها ، وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت ، وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ولكنه دون ماقبله ، فإن الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق . وهذا أيضا قد فعل ذلك واتقى ذمّ الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على شطر من الأول وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثانى : الرياء بأوصاف العبادات لابأصولها ، وهو أيضاً على ثلاثة درجات .

(الأولى) أن يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أى أنه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدى إنسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لامحالة وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملا دون الخلوة . وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الردىء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته ، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة ، فهذا أيضا من الرياء المحظور لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات .

فإن قال المرائى : إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ؟ فيقال له : هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس ، وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك ، فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر ، وماأنت فى هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالى به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه ؛ وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغى أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم للمرائى فيه حالتان : إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعا . والثانية : أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص فى تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتى عندهم ناقصة وآذانى الناس بذمهم وغيبتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره النية فينبغى أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق .

(الدرجة الثانية) أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته ، كالتطويل فى الركوع والسجود ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال

والزيادة فى القراءة على السور المعتادة ، وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الأجود على الجيد فى الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

(الثالثة) أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجرى مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى مايرائى به وبعضه أشد من بعض . والكل مذموم .

الركن الثالث : المرائى لأجله ، فإن للمرائى مقصودا لامحالة ، وإنما يرائى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة ، وله أيضاً ثلاث درجات :

(الأولى) وهى أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية ، كالذى يرائى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها ، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها ، أو تسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصدة الفاسدة فى المعاصى . وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم فى فسقهم ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفى التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفى التهمة كالذى جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

(الثانية) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة ، كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب فى نكاحه النساء ، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، وكالذى يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب فى تزويجه ابنته . فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح فى نفسه .

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة الآدمى عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان

لايفعل شيئاً من ذلك ، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم ، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لايصرح بأني صائم ولكن يقول : لي عذر ، وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كي لايظن به أن يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا ؛ مثل أن يقول : إن فلانا محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح علي اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه . ومثل أن يقول : إن أمي ضعيفة القلب مشفقة علي تظن أني لو صمت يوما مرضت فلا تدعني أصوم ، فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه ؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره مايخالف علم الله فيكون ملبسا ، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور ـ وسيأتي شرح ذلك وشروطه ـ .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي ، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو مالايحمل على العمل بمجرده ، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لايصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك مالا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكنا في القلب استكنان النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضا وإن كان لايدعو إلى التصريح ، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل ، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد ، وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لايريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أو يبدءوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه

وأن ينشطوا فى قضاء حوائجه وأن يسامحوه فى البيع والشراء وأن يوسعوا له فى المكان ، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا فى نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التى أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس فى حقه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من دبيب النمل(١) وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ، ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدءون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج . وفى الحديث « لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم » وقال عبد الله بن المبارك . روى عن وهب بن منبه انه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب فى موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك ، فقال للغلام ائتنى بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم؟ فقالوا هذا ، قال كيف أنت ؟ قال كالناس ، وفى حديث آخر : بخير ، فقال الملك ماعند هذا من خير ! فانصرف عنه ، فقال السائح الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون لذلك فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله فى القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل فى القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة وانه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزى والد عن ولده ، ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد . نفسى نفسى ! فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص لعلمهم أن أرباب البوادى لا يروج عندهم الزائف والبهرج ، والحاجة تشتد فى البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من النقد ، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذى يتزودونه له من التقوى . فإذن شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا ، فلو كان مخلصا قانعا بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل .

فإن قلت : فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول . أولا ، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم .

فأما المحمود فأربعة أقسام (الأول) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه

---

(١) حديث « فى الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث أبى موسى الأشعرى « اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » ورواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر الصديق وضعفه هو والدارقطنى .

الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله ، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به ، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به .

(الثانى) أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا أنه كذلك يفعل فى الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا إلا ستره عليه فى الآخرة [1] فيكون الأول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

(الثالث) أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ، ومن اقتدى به فى طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لامحالة .

(الرابع) أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله . وعلامة الإخلاص فى هذا النوع أن يكون فرحه بحمده غيره مثل فرحه بحمدهم إياه .

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام فى مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط

فنقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل ، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالما عن الرياء فما يطرأ بعده فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره وبإظهار الله ، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف .

وفى الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له : صمت الدهر يارسول الله . فقال له « ماصمت ولا أفطرت [2] » فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذى مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها ،

---

(١) حديث « ماستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا إلا ستره عليه فى الآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث قال لرجل قال : صمت الدهر « ماصمت ولا أفطرت » أخرجه مسلم من حديث أبى قتادة : قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال « لاصام ولا أفطر » وللطبرانى من حديث أسماء بنت يزيد فى أثناء حديث ، فيه : فقال رجل إنى صائم ، قال بعض القوم إنه لا يفطر إنه يصوم كل يوم قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاصام ولا أفطر من صام الأبد » ولم أجده بلفظ الخطاب .

بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لايؤثر فى العمل وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره . ومثاله : أن يكون فى تطوع فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان فى فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله [1] » أى النظر إلى خاتمته . وروى « أنه من راءى بعمل ساعة حبط عمله الذى كان قبله [2] » وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لايمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات ، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه ، لأنا نكتفى بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لايطرأ عليها مايغلبها ويغمرها ، ويحتمل أن يقال لايفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى إلى الإحباط فى أمر هو أهون من هذا وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ــ يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه ــ قال ؛ قد اختلف الناس فى هذا ؛ فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته ، ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد فى العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبى أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى ؛ إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لم تضره الثانية . وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال « لك أجران أجر السر وأجر العلانية [3] » ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله : لايضره ، أى لايدع العمل ولاتضره الخطرة وهو يريد الله ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره ، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ . (الثانى) أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران؟ (والثالث) أنه قال: أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبى هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح ، ومنهم من يرفعه ، فالحكم

---

(١) حديث « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ « إذا طاب أسفله طاب أعلاه » وقد تقدم (٢) حديث « من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله » لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب « من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به » ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث : أن رجلا قال أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال « لك أجران ... الحديث » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال « له أجر السر والعلانية » قال الترمذى غريب وقال إنه روى عن أبى صالح وهو ذكر أنه مرسل .

بالعمومات الواردة فى الرياء أولى . هذا ماذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الإحباط .

والأقيس عندنا : أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره فى العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام .

وأما الأخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق ، وأما ماورد فى الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه ، أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ، ولاينبغى أن يفسد الصلاة ، ولا يبعد أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ـ والخالص مالا يشوبه شىء ـ فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا فى كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ .

القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولايعتد بصلاته ، وإن ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه (قالت فرقة) لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف (وقالت فرقة) تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقدا (وقالت فرقة) لايلزم إعادة شىء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله .

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لاتكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لايبالى بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته . ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدح فى النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح ، فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح مابعده ، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لاباعث ولا إجابة . فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وماليس فيه تحليل وتحريم أو فى عقد صلاة وحج ، فإن كان فى صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولايحبط أحدهما الآخر . وإن كان فى صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا ، فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه ، إذ اجتمع فى قلبه الباعثان ، ولايمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صلى

التراويح وتبين من قرائن حاله أن يصده الرياء بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلافى بيت وحده لما صلى لايصح الاقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جدا ، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص ، فأما إذا كان فى فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لايستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه ، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله ، وإن كان كل باعث مستقلا حتى لولم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ، ولولم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا ، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لايمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى فى دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة فى الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال فى تعارض البواعث فى أصل الصلاة ، أما إذا كان الرياء فى المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة فى أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لايبتدئ صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد من القدح فى النية ، هذا فى رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه ، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر فى العمل فبعيد أن يفسد الصلاة . فهذا ما نراه لائقا بقانون الفقه ، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه ، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب المقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فى شرب الأدوية المرة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطر اليها العباد كلهم ، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتميز ممتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم ؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك فى نفسه ، وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات . ولا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشق أولا وتخف آخراً وفى علاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه (والثانى) دفع مايخطر منه فى الحال .

(المقام الأول) فى قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهى لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس . ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائى ماروى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله الرجل يقاتل (١) حمية — ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب — وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر

(١) حديث أبى موسى : أن أعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ... الحديث » . متفق عليه

فى القلوب ـ والرجل يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم ؛ فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك ، والقتال للملك إشارة إلى الطمع فى الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه : يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم « من غزا لا يبغى إلا عقالا فله مانوى [1] » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كى لا يبخل ، وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفا من الذم وهو لا يطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم ، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع فى الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ، ويفتى بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم . فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك المرائى إلى الرياء ، وعلاجه ماذكرناه فى الشطر الأول من الكتاب على الجملة .

ولكنا نذكر الآن مايخص الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشىء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما فى الحال وإما فى المآل ، فإن علم إنه لذيذ فى الحال ولكنه ضار فى المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه ، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه ؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم مافيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزى الظاهر . حيث ينادى على رءوس الخلائق : يافاجر ياغادر يامرائى ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله ، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله ، أما كان أحد أهون عليك من الله ! فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى وقابل مايحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا بما يفوته فى الآخرة وبما يحبط من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوى إلى النار ، فلو لم يكن فى الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا فى معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فى زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، رد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع مايتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فكل مايرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم فى سخط بعضهم ، ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ، ثم أى غرض له فى مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ؟ ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة . وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ، ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء

(١) حديث « من غزا لا يبغى الا عقالا فله مانوى » أخرجه النسائى وقد تقدم .

كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ ، وإذا أصاب فلاتفى لذته بألم منته ومذلته ؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئا مالم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند الله ، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه ، فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكفيه أن الناس لو علموا مافى باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه ، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله ، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال فى مدحهم ولا نقصان فى ذمهم كما قال شاعر بنى تميم : إن مدحى زين وإن ذمى شين ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبت ؛ ذاك الله الذى لا إله إلا هو »(1) ، إذ لا زين إلا فى مدحه ولا شين إلا فى ذمه ، فأى خير لك فى مدح الناس . وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين ؟ فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صـــدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات مايزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص . فهذا وما قدمنا فى الشطر الأول هى الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء .

وأما الدواء العملى : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو إطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخص فى إظهار هذا القدر لأن فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها ، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد و ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ﴿ والله لا يضيع أجر المحسنين ؛ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

(المقام الثانى) فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا ، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه فى أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحى بالكلية ، فلابد وأن يتشمر لدفع مايعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة ـ قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج ـ فالأول : العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة

---

(1) حديث : قال شاعر من بنى تميم إن مدحى زين وإن ذمى شين : فقال « كذبت ذاك الله » أخرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل « ذلك » دون قوله « كذبت » ورجاله ثقات إلا أنى لا أعرف لأبى سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل « إن حمدى » .

من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثانى : حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعل يسمى العزم وتصميم العقد. وإنما كمال القوة فى دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثانى ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله فى القيامة وخيبته فى أحوج أوقاته إلى أعماله ، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ، إذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما .

فإذن لا بد فى رد الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة ، والكراهة والإباء . وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها ، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم ، وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الأسباب مايشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه ، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين [1] حتى نودى : يا أصحاب الشجرة فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الإيمان . ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة . وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذى خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ولايقدر على ترك لذة الحال ، فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد ؟ إذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإذن لا فائدة إلا فى اجتماع الثلاث : وهى المعرفة ، والكراهة ، والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضا ويثمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هى التى تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم ،

---

(١) حديث جابر : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لانفر ... الحديث . أخرجه مسلم مختصرا دون ذكر « يوم حنين » فرواه مسلم من حديث العباس .

فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محب إليه ، فهل يكون فى زمرة المرائين ؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ماتطيق وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها ، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ماروى أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شكوا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها ، فقال عليه السلام «أوقد وجدتموه» قالوا : نعم قال « ذلك صريح الإيمان »(١) ، ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ، ولايمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة ، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة ، والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال « الحمد لله الذى رد كيد الشيطان إلى الوسوسة »(٢) ، وقال أبو حازم : ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ماهو من عدوك ، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه . فإذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لاتضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة ، والخواطر التى هى العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هى من الشيطان ، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل ، إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهى أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب ، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله .

والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب (الأولى) أن يرده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه ، وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذى هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك . (الثانية) أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته (الثالثة) أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لأن ذلك وقفة وإن قلت ، بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة . (الرابعة) أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظا للشيطان ، وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لايرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلانا يذكرك ، فقال ، والله لأغيظن من أمره ، قيل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان ، اللهم اغفر له . أى لأغيظنه بأن

(١) حديث : شكوى الصحابة مايعرض فى قلوبهم وقوله « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال « ذلك محض الإيمان » والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه ورواه النسائى فيه من حديث عائشة . (٢) حديث ابن عباس « الحمد لله الذى رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ « كيده » .

أطع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته . وقال إبراهيم التيمى : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيرا ، فإذا رآه كذلك تركه: وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك ، وإذا رآك مداوما ملك وقلاك

وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا ، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره . فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع فى نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . فمر الرابع فلم يتوقف له ، وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته وترك التأنى فى المشى ، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله .

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه :فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم ـ كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة إلى الخمر والزنا ـ فصارت ملاذ الدنيا عندهم ـ وإن كانت مباحة ـ كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله ، فمن أيقن بأن لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع ، والعارف يستحيى منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر . وقالت فرقة من أهل العلم :لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم ؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا ، بل فى صفات الله تعالى وأسمائه ، وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك ، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى [1] » مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير [2] فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فى الجنة التى هى دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن نبى من الأنبياء وهو فى الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن فى دار

---

(١) حديث « إنه ليغان على قلبى » تقدم (٢) حديث : لن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير . تقدم أيضا .

والدنيا وهى منبع المحن والمتن معدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ والقرآن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه ؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافى الاشتغال بحب الله ، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به ، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان ، فكيف وليس فى الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفى إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية فى ظنهم أن ذلك قادح فى التوكل ، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح فى توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح فى التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه ؟ وقد ذكرنا فى كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ لا يناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيى والمميت هو الله تعالى ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادى والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة ـ كما ذكرناه فى التوكل .

وهذا ما اختاره الحارث المحاسبى رحمه الله وهو الصحيح الذى يشهد له نور العلم ، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم ، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال فى بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه فى كيفية الحذر فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغى أن يكون شىء أغلب فى قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له ، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدى إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين ، فإنا إن نسينا ربما عرض من حيث لا نحتسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله ، فالجمع أولى . وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان ؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا يخفى غلطه ، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدى ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى ، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه ، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت فى القلب بين ذكر الله والشيطان ، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله ، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ـ إبليس وغيره ـ فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان ، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له ،

وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لايمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ؛ فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه فى ذلك الوقت فيتنبه فى الليل مرات قبل أوانه لما أسكن فى قلبه من الحذر ، مع أنه بالنوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ؟ ومثل هذا القلب هو الذى يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافى . فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر ، والذى جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر ، والبصير هو الذى جعل لمجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافى فاذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب .

بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات

إعلم أن فى الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس فى الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ، ولكن فى الإظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ .

والإظهار قسمان (أحدهما) فى نفس العمل (والآخر) التحدث بما عمل

القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة فى الملإ لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبى صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه[1] » وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازى إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو فى أصله من أعمال العلانية لايمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض بمجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به . فكل عمل لايمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لايكون فيه شوائب الرياء ، وأما مايمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس فى الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس فى الأفضل فقال قوم : السر أفضل من العلانية وإن كان فى العلانية قدوة ، وقال قوم : السر أفضل من علانية لاقدوة فيها ، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين . ويدل عليه قوله عليه السلام « فله أجرها وأجر من عمل بها » ، وقد روى فى الحديث

---

(١) حديث « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » وفى أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلى .

« إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا[1] » وهذا لاوجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد فى الحالتين فما يقتدى به أفضل لامحالة ، وإنما يخاف من ظهور الرياء ، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به ، فلا خلاف فى أن السر أفضل منه .

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ، ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه ، وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق ، وربما يقتدى به أهل محلته ، وإنما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة ، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به ، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ماهم . فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لايشعر ، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك ، والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله ، لابل عذابه دائم مدة مديدة ، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء فى الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء ، والتفطن لذلك غامض ، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك فى السر مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم فى الخير ، فإنهم قد رغبوا فى الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم ؟ فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب ، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيئا والسلامة فى الإخفاء ، وفى الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا ، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .

القسم الثانى : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر فى هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس فى عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة فى الخير بسببه فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات ، لأنه ترغيب فى الخير ، والترغيب فى الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ :

---

(١) حديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية إذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين ، وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر « عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة « يفضل ـ أو يضاعف ـ الذكر الخفى الذى لايسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا » وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف .

ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق . وقال عمر رضى الله عنه : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر لأنى لاأدرى أيهما خير لى ؟ وقال ابن مسعود : ماأصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضى الله عنه : ماتغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقال شداد بن أوس . ماتكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها ، غير هذه ! وكان قد قال لغلامه : ائتنا بالسفرة لنبعث بها حتى تدرك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لاتبكوا على فإنى ماأحدثت ذنبا منذ أسلمت وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ماقضى الله فى بقضاء قط فسرنى أن يكون قضى لى بغيره ، وما أصبح لى هوى إلا فى مواقع قدر الله .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائى بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التى ذكرناها فلا ينبغى أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار المرائى للعبادة إذ لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائى . فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله ؟ وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان فى سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصنف بعضهم كتابا فى دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف ! فإظهار المرائى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم (٢) كما ورد فى الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

بيان الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

اعلم أن الأصل فى الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضى الله عنه لرجل : عليك بعمل العلانية ، قال : ياأمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال . ما إذا اطلع عليك لم تستحى منه . وقال أبو مسلم الخولانى : ما عملت عملا أبالى أن يطلع الناس عليه إلا إتيانى أهلى والبول والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائى .

وأما الصادق الذى لا يرائى فله ستر المعاصى ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه فى ثمانية أوجه :

(الأول) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره فى القيامة ، إذ ورد فى الخبر « أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنباً ستره الله عليه فى الآخرة (٣) » وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان .

---

(١) حديث عثمان قوله : ماتغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه أبو يعلى الموصلى فى معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه فى أثناء حديث وإن عثمان قال : يارسول الله ، فذكره بلفظ منذ بايعتك ، قال « هو ذاك ياعثمان » (٢) حديث « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم » هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم والثانى رواه النسائى من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً .

(٣) حديث « إن من ستر عليه فى الدنيا يستر عليه فى الآخرة » تقدم قبل هذا بورقة .

(الثانى) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم «من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله[١]» فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصى ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ويغتم بسببه .

(الثالث) أن يكره ذم النـاس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة ، وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة فى فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان .

(الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى مالا يجوز حذرا من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به . نعم كمال الصدق فى أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنـافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون ؛ وذلك قليل جدا ، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين فإنهم شهداء الله ، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان فى الدين فكيف لا يغتم به ؟ نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يحب أن يحمد بالورع ، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره ، فإن وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد .

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك ، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما ، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ؟ إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم ، وأما الذم فإنه مؤلم ؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال ، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان فى الدين ، بل ينبغى أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر .

(الخامس) أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمـان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع .

(السادس) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم ، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره ، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه .

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر ، وهو خلق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحيي من القبائح إذا شوهدت وهو منه وصف محمود إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحياء خير كله[٢]» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الحياء شعبة من الإيمان[٣]» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الحياء لا يأتى إلا بخير[٤]» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الحيي الحليم[٥]» ، فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه

---

(١) حديث « من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله » أخرجه الحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

(٢) حديث « الحياء خير كله » أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٣) حديث « الحياء شعبة من الإيمان » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٤) حديث « الحياء لا يأتى إلا بخير » متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٥) حديث « إن الله يحب الحيى الحليم » أخرجه الطبرانى من حديث فاطمة ، وللبزار من حديث أبى هريرة « إن الله يحب الغنى الحليم المتعفف » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه .

للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة وفقد الحياء ، فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحيى ، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ، ويدعى كل مراء أنه مستحى وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائى معه .

وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لاتسخو بإقراضه إلا أنه يستحيى من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لايستحيى ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب ، فله عند ذلك أحوال ؛ أحدها : أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالى فينسب إلى قلة الحياء ، وهذا فعل من لاحياء له . فإن المستحيى إما أن يتعلل أو يقرض .

فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال :

أحدها . أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد ، فيهيج خاطر الرياء ويقول : ينبغى أن تعطى حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغى أن تعطى حتى لايذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء .

الثانى : أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى فى نفسه البخل فيتعذر الإعطاء ، فيهيج داعى الإخلاص ويقول له : إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه .

الثالث : أن لايكون له رغبة فى الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لايعطيه فأعطاه بمحض الحياء ، وهو مايجده فى قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ، ولو جاءه من لايستحى منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه ، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا فى القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرائى يستحى من المباحات أيضا ، حتى إنه يرى مستعجلا فى المشى فيعود إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح ، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس فى الصلاة ، وهو فى الصبيان والنساء محمود وفى العقلاء غير محمود . وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحيى من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذى الشيبة المسلم ، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحيى من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف ، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لايقدر عليه فهذه هى الأسباب التى يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب .

(الثامن) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدى به ، وهذا العلة الواحدة فقط هى الجارية فى إظهار الطاعة وهو القدوة ، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به ، وبهذه العلة ينبغى أيضا أن يخفى العاصى أيضا معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه .

ففى ستر الذنوب : هذه الأعذار الثمانية ، وليس فى إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه وقد قال رجل للنبى صلى الله عليه

وسلم : دلنى على مايحبنى الله عليه ويحبنى الناس قال « ازهد فى الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك [1] » ؟ فنقول : حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما . فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك ، فإنه تعالى إذا أحب عبدا حببه فى قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة ؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما .

بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لايترك لخوف الآفات مانذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : مالا لذة فى عينه ؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيذ ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : ماهو لذيذ ؛ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة .

القسم الأول : الطاعات اللازمة للبدن ـ التى لاتتعلق بالغير ولا لذة فى عينها ـ كالصوم والصلاة والحج ، فخطرات الرياء فيها ثلاث (إحداها) ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغى أن يترك لأنه معصية لاطاعة فيه ، فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك لاتسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده ؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل . (الثانية) أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها ، فلا ينبغى أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع فى العمل وليجاهد نفسه فى دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التى ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول (الثالثة) أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه ، فينبغى أن يجاهد فى الدفع ولا يترك العمل لكى يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتمم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تجب ودفعت بقى يقول لك : هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأى فائدة لك فى عمل لا إخلاص ؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه . ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زوان وقال : خلصها من الزوان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ويقول : أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا . فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له . ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله به . فهذا من مكايد الشيطان لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب

---

(1) حديث : قال رجل دلنى على مايحبنى الله عليه ويحبنى الناس قال « ازهد فى الدنيا يحبك الله .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ « وازهد فيما فى أيدى الناس » وقد تقدم

العبادة ، وترك العمل خوفا من قولهم إنه مراء هو عين الرياء ، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأى فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مراء ، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر ؟ بل ترك العمل أشد من ذلك . فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف يطمع فى أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لايخليه بل يقول له : الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لايشتهى الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تهرب ، فإن هربت ودخلت سربا تحت الأرض ألقى فى قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر فى الآخرة ولا نفع فيه فى الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك ، وتستمر مع ذلك على العمل ولاتبالى ، وإن نزغ العدو نازغ الطبع فإن ذلك لاينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات . فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك ، بل إن قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل . فإن قال لك الشيطان : أنت مراء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى ، وإن لم تجد فى قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث دينى بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع فى العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب .

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعى دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال : لايرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن : إن كان أحدهم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة ؟ قلنا : هذا يعارضه ماورد من إظهار الطاعات مما لايحصى ، وإظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام فى الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد فى الإخلاص ولايتركه ، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف ، فالاقتداء ينبغى أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق إبراهيم النخعى المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بكالمته ، فرأى أن لايراه فى القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هى أكبر من رفع خشبة من الطريق ، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هى أكبر منها لابمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة فى الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذرا من العجب . فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه ، على أن الآفة مما تعظم فى الكلام فهو واقع فى القسم الثانى ، وإنما كلامنا فى العبادات الخاصة ببدن

العبد بما لايتعلق بالناس ولاتعظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن فى تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لايعرفون الأفضل ولايدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا من طلبها .

القسم الثانى : مايتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار ، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة : فهى من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما [1] » فأعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة ، وقال صلى الله عليه وسلم « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط [2] » أحدهم . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لاترد دعوتهم الإمام العادل [3] » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة إمام عادل [4] » رواه أبو سعيد الخدرى . فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا : فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعيا فى حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل مايقدح فى جاهه وولايته وإن كان حقا ، ويقدم على مايزيد فى مكانته وإن كان باطلا ، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذى ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول : من يأخذها بما فيها ، وكيف لاوقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره [5] » رواه معقل بن يسار ، وولاه عمر ولاية فقال : ياأمير المؤمنين أشر على ، قال : اجلس واكتم على . وروى الحسن « أن رجلا ولاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى : خر لى قال « اجلس [6] » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم « ياعبد الرحمن لاتسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها [7] » وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر : لاتأمر

---

(١) حديث « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما ... الحديث » أخرجه الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عياض بن حماد « أهل الجنة ثلاث : ذو سلطان مقسط ... الحديث » ولم أر فيه ذكر الأولية (٣) حديث أبى هريرة « ثلاثة لاترد دعوتهم الإمام العادل » تقدم (٤) حديث أبى سعيد الخدرى « أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة إمام عادل » أخرجه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفى وهو ضعيف عنه وفيه أيضا إسحق بن إبراهيم الديباجى ضعيف أيضاً

(٥) حديث « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلولة إلى عنقه لايفكها إلا عدله » أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبى زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة ورواه البزار والطبرانى من حديث أبى هريرة ورواه البزار والطبرانى من حديث بريدة والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبى الدرداء « مامن والى ثلاثة إلا لقى الله مغلولة يمينه ... الحديث » وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار « مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة » متفق عليه (٦) حديث الحسن : أن رجلا ولاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : خر لى قال « اجلس » أخرجه الطبرانى موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ « الزم بيتك » وفيه الذراب بن أبى الذراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق .

(٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لاتسل الإمارة ... الحديث » متفق عليه .

على اثنين ، ثم ولى هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لى لاتأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله ، يعنى لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين لاينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لاينبغى أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعنى بالقوى الذى لاتميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولاتأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا فى الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم ، فهؤلاء لايحركهم إلا الحق ولايسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل فى الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات ، ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات فى غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلى الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ؛ فهذا قد اختلف العلماء فى أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية ؟ فقال قائلون : لايجب لأن هذا خوف أمر فى المستقبل وهو فى الحال لم يعهد نفسه إلا قوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس ، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد . ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع لاتسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوى به فى قعر جهنم ، ولايستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرا ، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة الشر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنا لانولى أمرنا من سألنا (١) » فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض .

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو فى معناهما ، فإن كل ذى ولاية أمير ـ أى له أمر نافذ ـ والإمارة محبوبة بالطبع ، والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق ، والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار وقاض فى الجنة (٢) » وقال عليه السلام « من استقضى فقد ذبح بغير سكين (٣) » فحكمه حكم الإمارة ينبغى أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن فى عينه ، وليتقلده الأقوياء الذين لاتأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أولم يطيعوه ، فليس له أن يتقلد القضاء ، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولايكون خوف العزل عذرا مرخصا له فى الإهمال أصلا ، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ؟ وهو مع الظلمة فى الدرك الأسفل من النار .

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية ـ وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به

---

(١) حديث « انا لانولى أمرنا من سألنا » متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث « القضاة ثلاثة ... الحديث» أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم واسناده صحيح (٣) حديث «من استقضى فقد ذبح بغير سكين» أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ « من جعل قاضيا » وفى رواية « من ولى القضاء » واسناده صحيح .

القدر : فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات ، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ماوجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون : حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدثنا ، فقد قال أوسعوا لى . ودفن بشر كذا وكذا قمطرا من الحديث وقال : يمنعنى من الحديث أنى أشتهى أن أحدث ، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت . والواعظ يجد فى وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لاتوازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ، ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقا ، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى مايحرك قلوب العوام ويعظم منزلته فى قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكمة إلاويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ، ثم يقول : إذا أنعم الله على بهذه النعمة ونفعنى بهذه الحكمة فأقصها ليشاركنى فى نفعها إخوانى المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات ، فمن لاباعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغى أن يتركه ويخالف الهوى فيه ، إلى أن ترتاض نفسه وتقوى فى الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة ، فعند ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق ؟ فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة وتوعد عليها [1] حتى قال « إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها [2] » وقال « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة [3] » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبى بن كعب — رأى قوما يتبعونه — وهو فى ذلك يقول : أبى سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فمنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع ، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال : أتمنعنى من نصح الناس ؟ فقال : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه مخايل الرغبة فى جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه فى دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى ، وفى كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نهيك عن ذلك يؤدى إلى اندراس العلم فهو غلط ، إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء [4] لم يؤد إلى تعطيل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرياسة لايترك العلوم تندرس ، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التى فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لايضيعهم وانظر لنفسك ، ثم إنى أقول مع هذا إذا كان فى البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس فى النهى عنه إلا امتناع بعضهم ، وإلا فليعلم أن كلهم لايمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن فى البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته فى الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما

---

(١) حديث : النهى عن طلب الإمارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة « لاتسل الإمارة » وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٢) حديث « انكم تحرصون على الإمارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الا من أخذها بحقها » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة دون قوله « الا من أخذها بحقها » وزاد فى آخره « فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ودون قوله « حسرة » وهى فى صحيح ابن حبان (٣) حديث « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وهو بقية الحديث الذى قبله ورواه ابن حبان بلفظ « فبئست المرضعة وبئست الفاطمة » (٤) حديث : النهى عن القضاء ... أخرجه مسلم من حديث أبى ذر « لاتؤمرن على اثنين ولاتلين مال يتيم » .

يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا تمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفسي فنقول : اشتغل وجاهد ، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لاقائم به غيره ، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده ، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم »[1] ، ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف المسلمين ، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان ، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره ، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام ياعلماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون مالا تعملون ، فياسوء ماتحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى ، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم : لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم ، ياعبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لاتنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأي ناس أخس منكم لو تعلمون ، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون في محلة المتحيرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ! كذلك لايغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة ! ياعبيد الدنيا ، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا ، فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه »[3] ، إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغي أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة لاتترك العمل ولكن أتم العمل وجاهد نفسك ؟ فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة ، ولا نقول لأحد من عباد الله اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث ، ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد

---

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » أخرجه النسائي وقد تقدم قريبا (٢) حديث « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ « خير لك من حمر النعم » وقد تقدم في العلم

(٣) حديث « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة في أوله ولمسلم من حديث أبي هريرة « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ... الحديث » .

فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء ، أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجردفيها باعث الرياء وجب تركها ، أما إذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء فى العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم فى الولايات وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم .

وبالجملة فالمراتب ثلاث (الأولى) الولايات ؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة (الثانية) الصوم والصلاة والحج والغزو ؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة . وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة (الثالثة) وهى متوسطة بين الرتبتين ؛ وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس ، والآفات فيها أقل مما فى الولايات وأكثر مما فى الصلاة ، فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء ، والولايات ينبغى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما ، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه ، وأن الحذر منه فى حق الضعيف أسلم والله أعلم .

وهنا رتبة رابعة وهى : جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين ، فإن فى الانفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفى إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضا كثيرة .

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال : القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء : مايسرنى أنى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها ، أما إنى لا أحرم البيع والشراء ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم : الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبر ؛ وقال . أقل مافيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات ، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لاخلاف فى أنه أفضل

وبالجملة : مايتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات ، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه ، وليزن مافيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل مايدل عليه نور العلم دون مايميل إليه الطبع .

وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لاتشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا فى بعض الأحوال ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفى وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع مايريبه إلى مالا يريبه ، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل . ولا خلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب : أن الأفضل الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر؟ وذلك لما فى الكسب من الآفات ، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال .

فإن قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس ؟ فاعلم أن لذلك علامات (إحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه (والأخرى) أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقى كما كان عليه ، فينظر إلى الخلق بعين واحدة (والأخرى) أن لا يحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الأسواق . ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال : كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر ، فدخل المسجد على برذونه ، فجعل يلتفت فى المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له عن ناحية مجلسه ، قال سعيد : وتجافيت له أيضا عن ناحية مجلسى حتى صار بينى وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج ، فجاء الحجاج حتى جلس بينى وبينه والحسن يتكلم بكلام له ـ يتكلم به فى كل يوم ـ فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت فى نفسى ؛ لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد فى كلامه يتقرب إليه ، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه ؟ فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوا مما كان يتكلم به فى كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه ، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال : صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقا وعادة فإنه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن مجالس الذكر رياض الجنة [1] » ولولا ماحملناه من أمر الناس ماغلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها ، قال : ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ طفق فقام ، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن ـ حين قام الحجاج ـ فقال : عباد الله المسلمين ألا تعجبون أنى رجل شيخ كبير ، وأنى أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ، وأن لى ثلثمائة درهم من العطاء وأن لى سبع بنات من العيال ؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له ولأصحابه ، والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال : مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عدو الله غزا فى الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة ، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا ؟ فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده ، فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذى تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم ، وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك إنما كان يتبسم ، فأقبل حتى قعد فى مجلسه فعظم الأمانة وقال : إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا فى الدينار والدرهم ، إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار ! إنى أتيت هذا الرجل فقال : أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله غزا كذا وكذا ، وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا ! لا أبالك ! تحرض علينا الناس ؟ أما إنا على ذلك لانتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك ، قال : فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل فبينما هو يسير إذا التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال : هل لكم من حاجة أو تسألون عن شىء وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد ؟ فبهذه

(١) حديث : أن مجالس الذكر رياض الجنة . تقدم فى الأذكار والدعوات .

العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك ياأرحم الراحمين .

بيان مايصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لايصح

اعلم أنّ الرجل قد يبيت مع القوم فى موضع فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم فى بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ماكان يعتاده ، أو يصلى مع أنه كان لايعتاد الصلاة بالليل أصلا ، وكذلك قد يقع فى موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط فى الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط ، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب فى عبادة الله تعالى وفى قيام الليل وصيام النهار ، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة ، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال فى بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل فى منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع فى منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء ، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم ، وفى منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه فى منزله على الدوام والنفس لاتسمح بالتهجد دائما وتسمح بالتهجد وقتا قليلا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها ، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين ، فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم ، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لاتعمل فإنك تكون مرائيا إذا كنت لاتعمل فى بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة ، وقد تكون رغبته فى الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لاتسمح بأن يسقط من أعينهم ويريد أن يحفظ منزلته ، وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ولست تصلى لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم . وهذا أمر مشتبه إلا على ذوى البصائر ، فإذا عرف أنّ المحرك هو الرياء فلا ينبغى أن يزيد على ماكان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله ، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لايرونه ؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق ، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعثه الرياء . وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم ، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد ، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا

ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد ، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى - تارة رياء وتارة مع الصدق - إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا ، وذلك محمود . وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال ، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود ، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء ، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله تعالى به . وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء ، وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء ، فقد يهيج من الخوف مالا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة ، فيزعق ويتواجد تكلفا ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق ، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعا فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة ، وإنما هي كبرق خاطف ، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله ، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه ، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكئ على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي . فهذه كلها مكايد الشيطان ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه ، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتا ، كما روى عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال ياشيخ ! الذي يراك حين تقوم ؟ فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين .

وقد جاء في الخبر « تعوذوا بالله من خشوع النفاق (١) » وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهي مع تقاربها متشابهة ، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو ؟ فإن كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا ؟ لخوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً ،

(١) حديث « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الأيادي ضعفه أحمد وابن معين .

فإذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ومقته لك . وتذكر ماقاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال : ياأيوب أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته . وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما : اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ، محافظا على رياء الناس من نفسى مضيعاً لما أنت مطلع عليه منى ، أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقرباً إلى الناس بحسناتى وفرارا منهم إليك بسيآتى ، فيحل بى مقتك ويجب على غضبك ، أعذنى من ذلك يارب العالمين . وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : ياأيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء . فليراقب العبد قلبه ليقف عليها فى الخبر « إن للرياء سبعين بابا [1] » وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض ، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل ، وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة ؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع فى إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها ؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

بيان ماينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لايخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله ، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التى لايقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصا على الإفشاء وتقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك ! فما فى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ؟ فى مثل هذا الأمر ينبغى أن يثبت قدمه ، ويتذكر فى مقابلة عظم عمله : عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده ، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول : وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لايقدرون لى على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغى أن ييأس عنه فيقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم ، فيترك المجاهدة فى الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقى ، لأن المتقى إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة ، والمخلط لاتخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض وهلك به ، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج . وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكمل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ

(١) حديث « الرياء سبعون بابا » هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه « الرياء » بالمثناة وإنما هو « الربا » بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ « الربا سبعون حوبا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » وفى إسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الربا ثلاث وسبعون بابا » وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين فى أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ « الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك » وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه « الرياء » بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم .

بطرفيه فألقى فى النار [1] ، فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل ، وأما المتقى فجهده فى زيادة الدرجات فإن حبط تطوعه بقى من حسناته مايترجح على السيئات فيدخل الجنة .

فإذن ينبغى أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به ، وإذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها ورد عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده إلا فى ابتداء العقد ، بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص مايريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله ، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك فى أنه هل أفسده برياء ؟ فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات . فالإخلاص : يقين ، والرياء : شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذى يتقرب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة ، أو مرافقه فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لاينتظره ولا يريده منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى إن بعضهم وقع فى بئر فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه فحلف عليهم أن لايقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخى : أهديت لسفيان الثورى ثوبا فرده على ، فقلت له : يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده على قال : علمت ذلك ولكن أخوك يسمع منى الحديث فأخاف أن يلين قلبى لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا ، فقال له : ياأبا عبدالله فى نفسك من أبى شىء ؟ فقال : يرحم الله أباك - كان وكان وأثنى عليه - فقال : ياأبا عبد الله قد عرفت كيف صار هـــذا المال إلى ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك (قال) فقبل سفيان ذلك (قال) فلما خرج قال لولده : يامبارك الحقه فرده على ، فرجع فقال : أحب أن تأخذ مالك ، فلم يزل به حتى رده عليه . وكأنه كانت أخوته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده : فلما خرج لم أملك نفسى أن جئت إليه فقلت : ويلك أى شىء قلبك هذا ! حجارة ؟ عد أنه ليس لك عيال ! أماترحمنى ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالنا ؟ فأكثرت عليه فقال لى : يامبارك تأكلها أنت هنيئا مريئا وأسأل عنها أنا .

فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اهتداء الناس به فقط ، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده ، لاعند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أن له أن يرائى بطاعته لينال عند المعلم رتبته ، فيتعلم منه ، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران فى الحال ، والعلم ربما يفيد وربما

(١) حديث تميم الدارى : فى إكمال فريضة الصلاة بالتطوع أخرجه أبو داود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة .

لايفيد ؟ فكيف يخسر فى الحال عملا نقدا على توهم علم ! وذلك غير جائز ، بل ينبغى أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله ، لاليكون له فى قلبه منزلة ، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة ، فإن العباد أمروا أن لايعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخدم أبويه لاينبغى أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه فى رضا الوالدين ، ولا يجوز له أن يرائى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين ، فإن ذلك معصية فى الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً . وأماالزاهد المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ، ولايخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله ، فإن ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليه العبادات فى خلوته به ، وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لايدرى أنه المخفف للعمل عليه .

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه فى صومعته فقلت : ياسمعان منذ كم أنت فى صومعتك ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : ياحنيفى وما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم ، قال : فى كل ليلة حمصة قلت . فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال: ترى الدير الذى بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتونى فى كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتى ويطوفون حولها ويعظمونى ، فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ! فاحتمل ياحنيفى جهد ساعة لعز الأبد ، فوقر فى قلبى المعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى لى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لى : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا : ياحنيفى ما الذى أدلى إليك الشيخ؟ قلت : من قوته قالوا : فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا : ساوم ! قلت : عشرون دينارا فأعطونى عشرين دينارا فرجعت إلى الشيخ فقال : ياحنيفى ماالذى صنعت ؟ قلت : بعته منهم ، قال : بكم ؟ قلت : بعشرين دينارا ، قال : أخطأت ! لوساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك ، هذا عز من لاتعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده ؟ ياحنيفى أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة .

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة فى القلوب يكون باعثا فى الخلوة وقد لايشعر العبد به ، فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ،فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلا كراهة ضعيفة ، إن وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وإيمانه ، فإنه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه ؛ إلا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لا ينبسطوا إليه ، فذلك لابأس به ولكن فيه غرور ، إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك ؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم، ولاينجو من ذلك إلا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنى والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغنى زيادة هزة

في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طامع ، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة ، والنظر إلى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير ؟ وقد حكي أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري ، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير ألبته ، فإن الفقير أكرم على الله من الغني ، فإيثارك له لا يكون إلا طمعا في غناه ورياء له ، ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي، كما قال ابن السماك لجارية له مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة ؟ فقالت : الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت ! فإن اللسان ينطق عند الغني بما لا ينطق به عند الفقير ، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير . ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة ، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات ، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه ، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها ، فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه ، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء وبدن صحيح وقلب رخي وأمر نافذ ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل ، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه ، فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد ، ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا وبهم رءوفا وعليهم عطوفا ولو شاء لأغناهم عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا ، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته ، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب وهو الذي يقول « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا » ، ويقول تعالى « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم أشد شوقا » فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته .

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصوّر العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لايضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع ، فهو القهار الذى لايدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولامنازع ، القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حدّ قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه ، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه ، فالعظمة إزاره والكبريا رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه [2] » فالكبر والعجب داءان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات . ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين : شطر فى الكبر ، وشطر فى العجب .

الشطر الأول من الكتاب : فى الكبر ؛ وفيه ؛ بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين ومافيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر . وبيان امتحان النفس فى خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه .

بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ وقال عزوجل ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ وقال تعالى ﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه لايحب المستكبرين ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوّا كبيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وذم الكبر فى القرآن كثير وقد

كتاب ذم الكبر والعجب

(١) حديث « قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته » أخرجه الحاكم فى المستدرك دون ذكر « العظمة » وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم فى العلم ، وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » أخرجه البزار والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولايدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان (١) » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولاأبالى (٢) » وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا ، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكى ، فقالوا مايبكيك ياأبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا - يعنى عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه (٣) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ماأصابهم من العذاب (٤) » وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما - للطير والإنس والجن والبهائم : اخرجوا ، فخرجوا فى مائتى ألف من الإنس ومائتى ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لوكان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته . وقال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر وبالمصورين (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة بخيل ولا جبار ولاسيئ الملكة (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى (٨) » وعن ثابت أنه قال : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ! فقال « أليس بعده الموت (٩) » وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال : إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله . فإن السموات والأرضين ومافيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرضين ومافيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله

---

(١) حديث « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولايدخل النار رجل فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود . (٢) حديث أبى هريرة « يقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له ، وقال أبوداود « قذفته فى النار » وقال مسلم « عذبته » وقال « رداؤه » و « ازاره » بالغيبة وزاد مع أبى هريرة أبا سعيد أيضاً (٣) حديث عبدالله بن عمرو « من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله فى النار على وجهه » أخرجه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح (٤) حديث « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله « من العذاب »

(٥) حديث « يخرج من النار عنق له أذنان ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح غريب

(٦) حديث « لايدخل الجنة جبار ولا بخيل ولاسيئ الملكة » تقدم فى أسباب الكسب والمعاش والمعروف « خائن » مكان « جبار » (٧) حديث « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٨) حديث « بئس العبد عبد تجبر واعتدى . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس إسناده بالقوى ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه ورواه البيهقى فى الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه (٩) حديث ثابت : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال « أليس بعده الموت » أخرجه البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا بلفظ « تجبر » .

وبحمده فإنها صلاة كل شىء وبها يرزق كل شىء [١] ، قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال صلى الله عليه وسلم « أهل النار كل جعظرى جوّاظ مستكبر جماع مناع ، وأهل الجنة الضعفاء المقلون [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ المتكبرون [٣] » . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر تطؤهم الناس ، ذراً فى مثل صور الرجال يعلوهم كل شىء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار [٤] » وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى [٥] » وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له يابلال إن أباك حدثنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يابلال أن تكون ممن يسكنه [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء [٨] » وقال « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والغلول [٩] » .

الآثار : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لايحقرن أحد أحداً من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه فقال : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم ، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات . وقد قيل فى ﴿ وفى أنفسكم

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو « إن نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال : إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك والكبر ... الحديث » أخرجه أحمد والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم بزيادة فى نقله قال صحيح الاسناد .

(٢) حديث « أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع » وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعى « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » (٣) حديث « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى بلفظ « إلى » و « منى » وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبى ثعلبة وقد تقدم فى رياضة النفس أول الحديث (٤) حديث « يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال ... الحديث » أخرجه الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال غريب .

(٥) حديث أبى هريرة « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر ... الحديث » أخرجه البزار هكذا مختصرا دون قوله « الجبارون » وإسناده حسن (٦) حديث أبى موسى « إن فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار » أخرجه أبو يعلى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد ، قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له فى الضعفاء هذا الحديث (٧) حديث « إن فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال « توابيت » مكان « قصرا » وقال « فيقفل » مكان « يطبق » وفيه أبان بن أبى عياش وهو ضعيف .

(٨) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » لم أره بهذا اللفظ ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » قال : نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة ، ولأصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه ، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذى هو أشهر حديث فى هذا الباب .

(٩) حديث « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاثة دخل الجنة : الكبر والدين والغلول » أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور فى الرواية أنه الكبر (بالموحدة والراء) لكن ذكر ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدارقطنى قال إنما هو الكنز (بالنون والزاى) وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث فى تفسير (والذين يكنزون الذهب والفضة)

أفلا تبصرون ﴾ هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن على : مادخل قلب امرئ شىء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر مادخل من ذلك قل أو كثر . وسئل سليمان عن السيئة التى لاتنفع معها حسنة فقال : الكبر وقال النعمان بن بشير — على المنبر — إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « بينما رجل يتبختر فى بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من جر ثوبه خيلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة » وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول : أى بنى ارفع إزارك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء[3] » وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال « يقول الله تعالى : ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق ! وأنى أوان الصدقة[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض[5] » قال ابن الأعرابى : هى مشية فيها اختيال . وقال صلى الله عليه وسلم « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان[6] » .

الآثار : عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز ، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف ... أف ... شامخ بأنفه ثانى عطفه مصعر خده ينظر فى عطفيه ، أى حميق أنت تنظر فى عطفيك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها ، والله أن يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون فى كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة ، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال : لاتعتذر إلى وتب إلى ربك ، أماسمعت قول الله تعالى ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾؟ ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله ، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ، ويحك ! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر

---

(١) حديث « لاينظر الله الى من جر ازاره بطرا » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث « بينما رجل يتبختر فى برديه قد أعجبته نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٣) حديث ابن عمر « لاينظر الله الى من جر ازاره خيلاء » رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن المـار رجل من بنى ليث غير مسمى (٤) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال « يقول الله : ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحـاكم وصحح إسناده من حديث بسر بن جحاش (٥) حديث « اذا مشت أمتى المطيطاء .. الحديث » أخرجه الترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث ابن عمر : المطيطاء (بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت) مصغرا ولم يستعمل مكبرا
(٦) حديث « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيه لقى الله وهو عليه غضبان » أخرجه أحمد والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر .

ابن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف ؛ فنظر إليه طاوس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خراء ؟ فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أمك فأشتريها بمائتى درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ! ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال : إنّ للشيطان إخوانا — كررها مرتين أو ثلاثا — ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز ، فقال : ياعبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أماتعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة ! فمضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أى يتبختر وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وإن وضع نفسه قالا اللهم ارفعه [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة [٣] » وعن أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال « ماهذا ؟ » قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال « أما إنى لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله [٤] » وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من أصحابه فى بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له « اطعم » فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « خيرنى ربى بين أمرين أن أكون عبداً رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار وكان صفيي من الملائكة جبريل فرفعت رأسى إليه فقال : تواضع لربك فقلت عبداً رسولا [٦] » وأوحى الله

---

(١) حديث « مازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث « مامن أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها ... الحديث » أخرجه العقيلى فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف . (٣) حديث « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ... الحديث » أخرجه البغوى وابن قانع والطبرانى من حديث ركب المصرى والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه فى العلم وبعضه فى آفات اللسان (٤) حديث أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما الحديث » وفيه « من تواضع رفعه الله ... الحديث » رواه البزار من رواية طلحة بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » ولم يقل « بقباء » وقال الذهبي فى الميزان إنه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل ... الحديث » وفيه « أما إنى لا أزعم أنه حرام ... الحديث » وفيه « من أكثر ذكر الموت أحبه الله » وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد دون قوله « ومن بذر أفقره الله » وذكرا فيه قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وتقدم فى ذم الدنيا

(٥) حديث السائل الذى كان به زمانة منكرة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال « اطعم » الحديث لم أجد له أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب

(٦) حديث « خيرنى ربى بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيا ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

تعالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى وقال صلى الله عليه وسلم « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى [1] » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم : بلغنى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله فى موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « أربع لايعطيهم الله إلا من أحب : الصمت وهو أوّل العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد فى الدنيا [3] » وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله [5] » ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جدرى قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم إلى جنبه [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه [7] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما « مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة ، قالوا : وماحلاوة العبادة ؟ قال « التواضع [8] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار [9] » .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : إنّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله فى الأرض وقال اخسأ خسأك الله ، فهو فى نفسه كبير وفى أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبدالله : انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ، ثم إنّ الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسى ، فذكرت له ماصنعت فقال لى : ياجرير تواضع لله فى الدنيا فإنه من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة ياجرير أتدرى ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت : لا ، قال : إنه ظلم الناس بعضهم فى الدنيا . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات ، التواضع .

---

(١) حديث « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الاسناد . (٢) حديث « إذا هدى الله عبدا الاسلام وحسن صورته ... الحديث » أخرجه الطبرانى موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودى مختلف فيه .

(٣) حديث « أربع لايعطيهن الله الا من يحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله والتواضع ، والزهد فى الدنيا » أخرجه الطبرانى والحاكم من حديث أنس « أربع لايصبن الا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشىء » قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس « اذا تواضع العبد رفع الله رأسه الى السماء السابعة » أخرجه البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور (٥) حديث « إن التواضع لايزيد العبد الارفعة ... الحديث » أخرجه فى الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف (٦) حديث : كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدرى فجعل لايجلس الى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم الى جنبه . لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٧) حديث « انه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » غريب

(٨) حديث « مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة » قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال « التواضع » غريب أيضاً .

(٩) حديث « اذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار » غريب أيضاً .

وقال يوسف بن أسباط : يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ماهو ؟ فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولوسمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أوعلما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامه . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك . وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع بها درجة فى الآخرة ، وماأنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلامنعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه إن شاءالله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان : أى الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السماك على هرون فقال : ياأمير المؤمنين إنّ تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك ، فقال : ماأحسن ماقلت ! فقال : ياأمير المؤمنين إنّ امرأ آتاه الله جمالا فى خلقته وموضعا فى حسبه وبسط له فى ذات يده فعف فى جماله وواسى من ماله وتوضع فى حسبه كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله ، فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجىء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول : مسكين مع مساكين . وقال بعضهم : كما تكره أن يراك الأغنياء فى الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء فى الثياب المرتفعة . روى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن : أتدرون ماالتواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلارأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إنّ الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودى فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان : إنّ الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشدّ تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات : لم أشك فى الرحمة لولاأنى كنت معهم إنى أخشى أنهم حرموا بسببي . ويقال : أرفع مايكون المؤمن عندالله أوضع ما يكون عند نفسه ، وأوضع ما يكون عندالله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمرى : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لاتثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ماكان أحد يسبقنى إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أو سعى قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبدا . وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبدالله أنت إمامنا فادع الله عزوجل لنا ، فبكى ثم قال : ليتنى لم أكن سبب هلاككم ، قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : إنّ الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلى رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التى تحت الباء فقال له الشبلى : أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلى فى بعض كلامه : ذلى عطل ذل اليهود . ويقال : من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبى الفتح بن شخرف قال : رأيت على أبى طالب رضى الله عنه فى المنام فقلت له يا أبا الحسن عظنى ، فقال لى : ماأحسن التواضع بالأغنياء فى مجالس الفقراء رغبة منهم فى ثواب الله ! وأحسن من تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل ، وقال أبو سليمان : لايتواضع العبد حتى يعرف

نفسه . وقال أبو يزيد : مادام العبد يظنّ أنّ فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقيل له : فمتى يكون متواضعا؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لواجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحي بن خالد البرمكى : الشريف إذا تنسك تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحي بن معاذ . التكبر على ذى التكبر عليك بماله تواضع ، ويقال : التواضع فى الخلق كلهم حسن ، وفى الأغنياء أحسن ، والتكبر فى الخلق كلهم قبيح ، وفى الفقراء أقبح . ويقال : لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولاربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عزوجل . وقال أبو على الجوزجانى . النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به فى ذلك ، فإذا هاجت فى نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى ، وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه لولا أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم (١) » ما تكلمت عليكم : وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ، ولعل مراده أنّ التواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لايثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها . وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لى : مالك تنظر إلى ؟ فقلت له : شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس . وقال المغيرة كنا نهاب إبراهيم النخعى هيبة الأمـــير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء . وكان عطاء السلمى إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافى يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم . ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه ، فقال إنّ الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسى رضى الله عنه يوما فقال سلمان لكننى خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجدنا الكرم فى التقوى ، والغنى فى اليقين ، والشرف فى التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا

---

(١) حديث « يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة « اذا اتخذ الفىء دولا ... الحديث » وفيه « كان زعيم القوم أرذلهم ... الحديث » وقال غريب وله من حديث على بن أبي طالب « اذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » فذكر منها « وكان زعيم القوم أرذلهم » ولأبى نعيم فى الحلية من حديث حذيفة « من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة » فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف .

ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب - كما سيأتى - فإن العجب لايستدعى غير المعجب بل لولم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولايتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبرا ، ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يكفى أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل ينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لأن هذه الرؤية تنفى الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل فى قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز فى نفسه بسبب ذلك ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من نفخة الكبرياء [(١)] » وكذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذى استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح . فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتعزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما ، ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ﴾ قال عظمة لم يبلغوها ، ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن هى ثمرات ويسمى ذلك تكبرا ، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته ، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدم عليه فى مضايق الطرق وارتفع عليه فى المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول ، وإن وعظ عنف فى النصح ، وإن رد عليه شىء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهى أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة . فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر [(٢)] » ؟ وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين مايحب لنفسه وفيه شىء من العز ، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز : ولا معنى للتطويل فما من خلق

(١) حديث « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » تقدم فيه . (٢) حديث « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم فيه .

ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه . والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر مايمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى ﴿ والملائكة باسطو أيديهم ﴾ إلى قوله ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ ثم قال ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ وقال تعالى ﴿ فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ قيل فى التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفى بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام : إنّ الزرع ينبت فى السهل ولا ينبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل فى قلب المتواضع ولا تعمل فى قلب المتكبر ، ألا ترون أنّ من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكنه . فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق فى حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال « من سفه الحق وغمص الناس [1] » .

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم أنّ المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظلوما جهولا ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول : التكبر على الله ؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة . بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذ استنكف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى ﴿ إنّ الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

القسم الثانى : التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنه محق فيه ، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لاتطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، كما حكى الله قولهم ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ وقولهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . وقالوا لولا أنزل عليه

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس » أخرجه من حديث ابن مسعود فى أثناء حديث وقال « بطر الحق وغمط الناس » ورواه الترمذى فقال « من بطر الحق وغمص الناس » وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى ريحانة هكذا .

ملك ﴾ وقال فرعون فيما أخبر الله عنه ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً . قال وهب : قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان ، فشاور هامان فقال هامان : بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام . وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال قتاده : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفى ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا ؟ فقال تعالى ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ أى استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ إلى قوله ﴿ ماعليك من حسابهم ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا[1] ﴾ ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ﴿ مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضى الله عنهم ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونهُ صلى الله عليه وسلم محقا ، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ وقال ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله .

القسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثانى فهو أيضا عظيم من وجهين ؛ أحدهما : أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لايليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لايقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر ؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لاتليق إلا بجلاله ، ومثاله : أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره ، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال ! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ماتعاطاه ! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى « العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته » أى إنه خاص صفتى ولا يليق إلا بى ، والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى ، وإذا كان الكبر على عباده لايليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له فى بعض أمره ، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون ، هو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته فى أصل الملك .

---

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء ... الحديث » فى نزول قوله تعالى (ولاتطرد الذين يدعون ربهم) أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص الا أنه قال « فقال المشركون » وقال ابن ماجه « قالت قريش » .

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ، ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق . وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال : يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ،فقتل المتكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا . وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال : عليك نفسك ! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « كل بيمينك » قال لاأستطيع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لا استطعت » فما منعه إلا كبره ، قال . فما رفعها بعد ذلك [1] أى اعتلت يده . فإذن تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله ، وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال : أنا خير منه ، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به ، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد ، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال : يارسول الله إنى امرؤ قد حبب إلى من الجمال ماترى أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس [2] » وفى حديث آخر « من سفه الحق [3] » وقوله « وغمص الناس » أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذه الآفة الأولى « وسفه الحق » هو رده وهى الآفة الثانية ، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار ، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

بيان مابه التكبر

اعلم أنه لايتكبر إلا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال . وجماع ذلك يرجع إلى كمال دينى أو دنيوى ، فالدينى هو العلم والعمل ، والدنيوى هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب .

الأول : العلم ؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء ! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء [4] » فلا يلبث

---

(١) حديث : قال لرجل « كل بيمينك » قال : لا أستطيع قال « لااستطعت » الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .
(٢) حديث : قول ثابت بن قيس بن شماس إنى امرؤ قد حبب إلى من الجمال ماترى... الحديث » وفيه « الكبر من بطر الحق وغمص الناس » أخرجه مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين (٣) حديث « الكبر من سفه الحق وغمص الناس » تقدم معه
(٤) حديث « آفة العلم الخيلاء » قلت : هكذا ذكره المصنف والمعروف « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » هكذا رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس « آفة الجمال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحميد الكوفى لايدرى من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان .

العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدءوه بالسلام ، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغى أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه ، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره فى حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه ، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما فى أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثرمما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما ، بل العلم الحقيق هو الذى يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجةالله على العلماء وعظم خطر العلم فيه - كما سيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم - وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره فى القيام بشكر نعمة العلم . ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ؟

فاعلم أن لذلك سببين : (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا ، وإنما العلم الحقيق مايعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره فى لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن . قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقا ، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما ، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة ، وهذه تورث التواضع غالبا .

(السبب الثانى) أن يخوض العبد فى العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيئ الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه فى عبادة ربه فبقى خبيث الجوهر ، فإذا خاض فى العلم - أى علم كان - صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر فى الخير أثره . وقدضرب وهب لهذا مثلا فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا ، وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا وإشفاقا وذلا وتواضعا ، فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وقال عزوجل ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ووصف أولياءه فقال ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون : قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ، ثم التفت إلى أصحابه وقال « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم

وقود النار (١) ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفى علمكم بجهلكم . ولذلك استأذن تميم الدارى عمر رضى الله عنه فى القصص فأبى أن يأذن له وقال : إنه الذبح ، واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال : إنى أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال : لتلتمسن إماما غيرى أو لتصلن وحدانا فإنى رأيت فى نفسى أنه ليس فى القوم أفضل منى . فإذا كان مثل حذيفة لايسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة ؟ فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لايحركه عز العلم وخيلاؤه ، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه ، فلا ينبغى أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ؛ لو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسرى إلينا سيرته وسجيته ، وهيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا فى القرن الأول ومن يليهم ، بل يعز فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز . ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « سيأتى على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا (٢) » لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع مانحن عليه من سوء أعمالنا ، ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ماكانوا عليه ، وليتنا تمسكنا بعشر عشره . فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله .

الثانى : العمل والعبادة ، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا .

(أما فى الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ ـ إلى جميع ماذكرناه فى حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق .

(وأما فى الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا ـ مهما رأى ذلك ـ قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم (٣) » ، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته ، وكيف لايخاف ؟ ويكفيه شرا احتقاره لغيره . قال صلى الله تعالى عليه وسلم « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم (٤) » وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه ، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، كأنه مترفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته فى العمل ! وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال ! كما روى أن رجلا فى بنى إسرائيل كان يقال له : خليع بنى إسرائيل ـ لكثرة فساده ـ مر برجل آخر يقال له عابد بنى إسرائيل ، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع فى نفسه : أنا خليع بنى إسرائيل وهذا عابد بنى إسرائيل ،

---

(١) حديث العباس « يكون قوم يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق (٢) حديث « سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا » أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبى ذر .

(٣) حديث « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ « امرىء من الشر » .

فلو جلست إليه لعل الله يرحمنى ! فجلس إليه فقال العابد : أنا عابد بنى إسرائيل وهذا خليع بنى إسرائيل فكيف يجلس إلى ؟ فأنف منه وقال له : قم عنى ! فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان : مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد . وفى رواية أخرى : فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع .

وهذا يعرّفك أنّ الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصى إذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلا فى بنى إسرائيل أتى عابدا من بنى إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال : ارفع فوالله لايغفر الله لك [1] فأوحى الله إليه أيها المتألى بل أنت لايغفر الله لك وكذلك قال الحسن : وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز ، أى أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله ، ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون مايجرى عليه ؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به . ولعله فى مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين .

(وأما الأكياس من العباد) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : مايصيب الناس مايصيبهم إلا بسببى ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كونى فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقى الله ظاهراً وباطنا ؛ وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه ، وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ماهو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله . ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله ، فإن الجهل أفحش المعاصى وأعظم شىء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلا ذكر بخير للنبى صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا : يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك ، فقال « إنى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان » فسلم ووقف على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس فى القوم أفضل منك » قال : اللهم نعم [2] فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة مااستكن فى قلبه سفعة فى وجهه . وهذه آفة لاينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله .

لكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) أن يكون الكبر مستقرا فى قلبه يرى نفسه خيرا من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل

---

(1) حديث « الرجل من بنى إسرائيل الذى وطىء على رقبة عابد من بنى إسرائيل وهو ساجد فقال : ارفع فوالله لايغفر الله لك الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة فى قصة العابد الذى قال للعاصى « والله لايغفر الله لك أبدا » وهو بغير هذا السياق وإسناده حسن . (2) حديث : أن رجلا ذكر بخير للنبى صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك فقال « إنى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان » الحديث أخرجه أحمد والبزار والدارقطنى من حديث أنس

فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد رسخ فى قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية .

(الثانية) أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر فى حقه ، وأدنى ذلك فى العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم ، وفى العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الوجه حتى يعبس ولا فى الخد حتى يصعر ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا فى الذيل حتى يضم ؛ إنما الورع فى القلوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره [1] فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا [2] ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك ، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه ، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله . ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو فى (الرتبة الثالثة) وهو الذى يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير فى العلم والعمل .

أما العابد فإنه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد . من هو وما عمله ومن اين زهده ؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص ، ثم يثنى على نفسه ويقول : إنى لم افطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن فى كل يوم ، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة ، وما يجرى مجراه ، وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول : قصدنى فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض ، أو مايجرى مجراه ، يدعى الكرامة لنفسه . وأما مباهاته : فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلى ، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر له قوته وعجزهم ، وكذلك يشتد فى العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه فى دين الله .

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول : أنا متفنن فى العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذى سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه . وأما مباهاته : فهو أنه يجتهد فى المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل ، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه .

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التى يثمرها التعزز بالعلم والعمل ، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعرى من الذى عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر [3] » كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار ؟ وإنما العظيم من خلا عن هذا ، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر ، والعالم هو الذى فهم أن الله تعالى قال له : إن لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم

---

(١) حديث « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث « كان أكرم الخلق وأتقاهم ... الحديث » تقدم فى كتاب أخلاق النبوة . (٣) حديث « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » تقدم

هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن عليه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث : التكبر بالحسب والنسب ، فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلما ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم ، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره : يانبطى وياهندى ويا أرمنى من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلان ابن فلان ، وأين لمثلك أن يكلمنى أو ينظر إلى ؟ ومع مثلى تتكلم ؟ ومايجرى مجراه . وذلك عرق دفين فى النفس لاينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لايترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبى ذر أنه قال : قاولت رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا ابن السوداء ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم « يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل [(١)] » فقال أبوذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى . فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لايقمعه إلا الذل ؟ ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لاأم لك ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذى افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم [(٢)] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تذدرف بآنافها القذر [(٣)] » .

الرابع : التفاخر بالجمال وذلك أكثر مايجرى بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ماروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى أنها قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قد اغتبتها [(٤)] » وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لوكانت أيضاقصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ماقالت .

الخامس الكبر بالمال ؛ وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم ، فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ ومامعك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أنفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة ؟ وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ﴾ حتى أجابه فقال ﴿ إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا ﴾ وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ،

(١) حديث أبى ذر : قاولت رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له ياابن السوداء ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولاأسود إلا أن تفضله بتقوى » (٢) حديث « أن رجلين تفاخرا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لاأم لك ؟ ... الحديث . أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط (٣) حديث « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقدصاروا فحمافى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث أبى هريرة . (٤) حديث عائشة : دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا ، أى أنها قصيرة ... الحديث . تقدم فى آفات اللسان .

ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ﴿ ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ﴾ ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف .

السابع : التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين .

وبالجملة فكل ماهو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئا فيه . فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشىء منه على من لايدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده فى نفسه . نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شىء قدير .

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن ، وأما مايظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة ، وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر ـ كما سيأتى معناه ـ فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشىء من أسبابه استعظم وتكبر .

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب فى المتكبر وسبب فى المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما .

أما السبب الذى فى المتكبر فهو : العجب ، والذى يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد ، والحسد . والذى يتعلق بغيرهما هو الرياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء . (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يثمر التكبر الظاهر فى الأعمال والأقوال والأحوال . (وأما الحقد) فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذى يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدا ورسخ فى قلبه بغضه ، فهو لذلك لاتطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع ، فكم من رذل لاتطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه ، وإن علم أنه لايستحق ذلك ، وعلى أن لايستحله وإن ظلمه ، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولايسأله عما هو جاهل به .

(وأما الحسد) فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم ، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه ؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

(وأما الرياء) فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه

وبينه معرفة ولامحاسدة ولاحقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه ، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا معه بنفسه لكان لايتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث ، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولايرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بأنه لايستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين ، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار ، وهو إن سمي متكبرا فلأجل التشبه بأفعال الكبر . نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم .

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصعر في وجهه ونظره شزرا وإطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته ، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض .

فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال علي كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك [1] .

ومنها أن لايمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه . قال أبو الدرداء : لايزال العبد يزداد من الله بعدا مامشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لايعرف من عبيده ، إذ كان لايتميز عنهم في صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال : مايبقى هذا من قلب العبد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم [2] ، إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين [3] .

ومنها أن لايزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدثنا ، فجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا ؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ؟ .

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي

(١) حديث أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له : الحديث تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة (٢) حديث : كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أخرجه منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا : أنه خرج يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال « إني سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر » وهو منكر فيه جماعة ضعفاء . (٣) حديث : إخراجه الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليع قلت : المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية ، وكلاهما تقدم في الصلاة

ماتفعلون بالجبابرة وإنى لا أعرف رجلا منكم شرا منى ؟ وقال أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء [1] .

ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر : دخل رجل ـ وعليه جدرى قد تقشر ـ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه [2] وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لايحبس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته .

ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته ، والتواضع خلافه : روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه ، قال : أفأنبه الغلام ؟ فقال : هى أول نومة نامها ، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا فقال الضيف : قمت أنت بنفسك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر مانقص منى شىء ! وخير الناس من كان عند الله متواضعا .

ومنها أن لايأخذ متاعه ويحمله إلى بيته ، وهو خلاف عادة المتواضعين ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك [3] وقال على كرم الله وجهه : لاينقص الرجل الكامل من كماله ماحمل من شىء إلى عياله وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام . وقال ثابت بن أبى مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان ، فقال : أوسع الطريق للأمير ياابن أبى مالك وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأنى أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما فى يده اليسرى وفى يده اليمنى الدرة ، يدور فى الأسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله فى ملحفته ، فقلت له : أحمل عنك ياأمير المؤمنين فقال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « البذاذة من الإيمان [4] » فقال هرون : سألت معنا عن البذاذة فقال : هو الدون من اللباس . وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم وعوتب على كرم الله وجهه فى إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء فى القلب وقال طاوس : إنى لأغسل ثوبى هذين فأنكر قلبى ماداما نقيين . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول : ما أجودها لولا خشونة فيها : فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه ! فقيل له : أين لباسك ومركبك وعطرك ياأمير المؤمنين ؟ فقال إن لى نفسا ذواقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التى فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة وهى أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست ؟ فنكس

---

(١) حديث أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم فى آداب المعيشة
(٢) حديث : الرجل الذى به جدرى وإجلاسه الى جنبه تقدم قريبا . (٣) حديث حمله متاعه الى بيته . أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة فى شرائه السراويل وحمله وتقدم . (٤) حديث « البذاذة من الإيمان » أخرجه أبو داود وابن ماجه حديث أبى أمامة بن ثعلبة وقد تقدم .

رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة الله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عبقرى الجنة [١] »

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال « لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس [٢] » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال ، وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس إذ قال : إنى امرؤ حبب إلى من الجمال ماترى [٣] فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالى إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شىء ولو فى خلوته وحتى فى ستور داره ، فذلك ليس من التكبر . فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله : خيلاء القلب ؛ يعنى قد تورث خيلاء فى القلب ، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم « إنه ليس من الكبر » يعنى أن الكبر لا يوجبه ، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر . وبالجملة فالأحوال تختلف فى مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة [٤] » . « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده [٥] » وقال بكر بن عبد الله المزنى : البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ، وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية .

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وقد أوردنا مانقل عن السلف من احتمال الأذى فى كتاب الغضب والحسد . وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيه فينبغى أن يقتدى به ومنه ينبغى أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة . قلت لأبى سعيد الخدرى ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟ فقال : يا ابن أخى كل لله واشرب لله والبس لله ، وكل شىء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشىء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله فى طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير والكبير والصغير ، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحى من أن يجيب إذا دعى وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ، هين المؤنة

---

(١) حديث « من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله .... الحديث » أخرجه أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس « من ترك زينة لله ... الحديث » وفى إسناده نظر (٢) حديث : سئل عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر ؟ فقال « لا » الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث : إن ثابت بن قيس قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنى امرؤ حبب إلى الجمال ... الحديث . هو الذى قبله سمى فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة » أخرجه النسائى وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » أخرجه الترمذى وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد فى غير عنف متواضع فى غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذى قربى ومسلم ، رقيق القلب دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ماأخطأ منه حرفا ولقد قصر إذ ماأخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم يبث إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل ، وربما بكيت رحمة له مما اوتى من الجوع فأمسح بطنه بيدى واقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول « ياعائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحيي إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غداً فى الآخرة وما من شىء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى » قالت عائشة رضى الله عنها : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل (١) .

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله ! فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض ، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع فى غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لايموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه ، واعلم ياأخى أنهم لايلعنون شيئا ولا يؤذونه ولايحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا ، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم فى خشية وغداً فى غفلة ولكن مدامين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لاتدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة ، قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخيرات ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ قال الراوى : فقلت : ياأبا الدرداء ماسمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لى أن أبلغها ؟ فقال : مابينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا ، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة ، وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا وبقدر ذلك تبصر ماينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة ، واعلم ياابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال يحيى بن كثير : فنظرنا

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى وعائشة : قال الخدرى لأبى سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج فى بيته كان يعلف الناضح .. الحديث . وفيه : قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبى سعيد فقالت : ماأخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعا .. الحديث بطوله لم أقف له على إسناد

فى ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لايصلح لحبك إلا من ارتضيته . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه ، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمنى بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له . وفى معالجته مقامان (أحدهما) استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها فى القلب . (الثانى) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره .

(المقام الأول) فى استئصال أصله ، وعلاجه علمى وعملى ، ولايتم الشفاء إلا بمجموعهما :

أما العلمى : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة ، وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من ذلك ماينفع فى إثارة التواضع والمذلة ، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله فإن فى القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان فى حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأى شيء أخس وأقل من المحو والعدم ؟ وقد كان كذلك فى القدم ، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظما ، ثم كسا العظم لحما ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت ! إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لايسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ ومعنى قوله ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه ﴾ كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له فى مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال ﴿ من نطفه أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا ، وأسمعه بعد ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبعه بعد الجوع ، وكساه بعد العرى ، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ؟ فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد

الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر ؟ فكان فى ذاته لاشىء وأى شىء أخس من لاشىء ؟ وأى قلة أقل من العدم المحض ؟ ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه ، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لايليق الكبرياء إلا به جل وعلا . ولذلك امتن عليه فقال ﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ﴾ وعرف خسته أولا فقال ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة ﴾ ثم ذكر منته عليه فقال ﴿ فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع . فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء ؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة ، من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبى رضى أم سخط ، فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا ، يريد أن يعلم الشىء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشىء فينساه ويريد أن ينسى الشىء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى مايهمه فيجول فى أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، ويشتهى الشىء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشىء وربما تكون حياته فيه ، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ، ويستبشع الأدوية وهى تنفعه وتحييه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع مايهواه فى دنياه ، فهو مضطر ذليل إن ترك بقى وإن اختطف فنى ، عبد مملوك لايقدر على شىء من نفسه ولا شىء من غيره ، فأى شىء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله .

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته ، فيعود جمادا كما كان أول مرة ، لايبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الأول نطفة مذرة ، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميما رفاتا ، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما ، وبسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ماكان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان ، فيصير مفقودا بعد ماكان موجودا . وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدا كما كان فى أول أمره أمدا مديدا ، وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا . لابل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له ﴿ اقرأ كتابك ﴾ فيقول : وماهو ؟ فيقال: كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك

ماكنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود ، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب ، فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد مافيها من مخازيه ، فإذا شاهده قال ﴿ ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ﴾ فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم ؟ بل ماله وللفرح فى لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر ؟ فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا ، وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لايهرب منه الخلق . ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة ، فمن هذا حاله فى العاقبة ـ إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ـ كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا ؟ وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه ، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولاقوة إلا بالله . أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدرى أيعفى عنه أم لا ؟ كيف يكون ذله فى السجن أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ ومامن عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخر أمره ؟ فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة وذلا . فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر .

وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه « كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد[1] » وقيل لسلمان . لم لاتلبس ثوبا جديداً ؟ فقال : إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوما لبست جديداً أشار به إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ، ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على أن لاأخرّ إلا قائما فبايعه النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك[2] فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق ، فإن الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذى يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل مايتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا ، فإن القلوب لاتتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا ، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر

(١) حديث : كان يأكل على الأرض ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » تقدم فى آداب المعيشة .

(٢) حديث حكيم بن حزام : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما . الحديث رواه أحمد مقتصرا على هذا وفيه إرسال خفى .

الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت (المقام الثانى) فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل ، فأما ماعداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الأسباب السبعة .

الأول : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين (أحدهما) أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوى شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا فى صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ؟ بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لى : ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولى ؟ أفترى أن الدودة التى خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التى من بول فرس ؟ هيهات ! بل هما متساويان والشرف للانسان لا للدودة . (الثانى) أن يعرف نسبه الحقيقى ، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر ؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة .

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالقريب دون البعيد ، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته ؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعه لولده ؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك فى قولهم أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك فى صدقهم ، أفترى أن ذلك يبقى شيئا من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب ، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم ، فكيف إذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التى يتنزه عنها هو فى نفسه ؟

السبب الثانى : التكبر بالجمال ، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقذار فى جميع أجزائه : الرجيع فى أمعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت إبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا فى حال توسطه .

وفى أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور ، من النطفة ودم الحيض ، وأخرج من مجرى الأقذار . إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول

مرتين : وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من فى بطنه خراء ؟ إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه .

ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط . فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن فى أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار فى البوادى ، فبينما هو كذلك إذ صار هشيما تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه ؟ كيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب ؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى ، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه وأن بقة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة . فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ! ثم إن قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم ؟ .

السبب الرابع والخامس : الغنى وكثرة المال ، وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع الكبر ، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا ، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، فإن تغير عليه كان أذل الخلق ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل ؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودى ! وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا ؟ فهذه أسباب ليست فى ذاته ، وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو فى الآخرة وبال ونكال ، فالتفاخر به غاية الجهل ، وكل ما ليس إليك فليس لك ، وشىء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك ، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شىء . ومن عرف ذلك لابد وأن يزول كبره .

ومثاله : أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له ، فعلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا فى الخلاص ألبتة ، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله أم يذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه

يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله ، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هى كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لايتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لاقدرة له ولا قوة . فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفى كما سنذكره .

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد ، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل . ولذلك قال كعب الأحبار : إنّ للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين : (أحدهما) أن يعلم أنّ حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل مالايحتمل عشره من العالم ، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه »(1) ، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ أراد به علماء اليهود . وقال فى بلعم بن باعوراء ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ حتى بلغ ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتابا فأخلد إلى شهوات الأرض أى سكن حبه إليها فمثله بالكلب ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لايدع شهوته ، ويكفى العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه ؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالملك المخاطر بروحه فى ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا ، فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال ؟ والعياذ بالله منه . فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ؟ فلا ينبغى أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلدنى أمى ! ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول : ياليتنى كنت هذه التبنة ! ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أوكل ! ويقول الآخر : ليتنى لم أك شيئا مذكورا ! كل ذلك خوفا من خطر العاقبة ، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب . ومهما أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق .

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل النقصان فى بعضها وشك فى بعضها أنه هل أداها على مايرتضيه سيده أم لا ؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ماهو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه فى الحرّ والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه

---

(1) حديث « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ... الحديث » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ « يؤتى بالرجل » وتقدم فى العلم .

وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لايروح عنه ساعة ، وقدعلم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لايدرى من أى الفريقين يكون ؟ فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب ، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب فى باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره ، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة .

(الأمر الثانى) أن العالم يعرف أن الكبر لايليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندى قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى ، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه . وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لاذنب له مثلا أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قصمه ، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم ، فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لامحالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر ، والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لايدرى ذلك ، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين ؟ إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة ، وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة . فإذن من حق العبد أن لايتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال : هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر منى . وإن نظر إلى عالم قال : هذا قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناقال : هذا قد أطاع الله قبلى فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى صغير قال : إنى عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : مايدرينى لعله يختم له بالإسلام ويختم لى بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداؤها إلى ؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفى الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله ، لافيما يظهر فى الدنيا مما لابقاء له ، ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لا أن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة فى جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره .

فإن قلت : فكيف أبغض المبتدع فى الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض ؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق ، إذ يمتزج غضبك لله فى إنكار البدعة والفسق

بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع ، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عند بكبر باطن فى نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله ؟ كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم ؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب ، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه ، وهما ممتزجان ملتبسان لايميز بينهما إلا الموفقون .

والذى يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور : (أحدها) التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك . (والثانى) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لاتعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر . (والثالث) ملاحظة إبهام عاقبتك ، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولاك وسيدك ، إذ أمرك أن تغضب له لالنفسك ، وأنت فى غضبك لاترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول : إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لايليق به ، ويغضب عليه . فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده مايكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه ، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لامحالة من الغلام . فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى فى الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء فى الأزل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى مايكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة . فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع . وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر .

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة ، وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد ، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغى أن يتكبر عليه كيفما كان ، لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى »[1] ، إلى غير ذلك مما ورد فى فضل العلم .

---

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وتقدم فى العلم .

فإن قال العابد : ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغى أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » ؟ فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وخاتمة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به ، وإذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا ، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغى أن يكون الغالب عليه فى حق نفسه الخوف وفى حق غيره الرجاء ، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال . فهذا العابد مع العالم ، فأما مع غير العالم فهم منقسمون فى حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين ، فينبغى أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل عنه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ماتزيد عليه ذنوبك فى طول عمرك . فلا ينبغى أن تتكبر عليه ، ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك وذنوب غيرك فى طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك فلا ينبغى أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة فى صفات الله تعالى وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله ، فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ماصرت به عند الله ممقوتا ، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه ، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف فى حقك ، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك ، فإذا تفكرت فى هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك .

وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال ، فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة ! وما العاشرة ! بها ساد مجده وبها علا ذكره : أن يرى الناس كلهم خيرا منه . وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هى أفضل منه وأرفع ، وفرقة هى شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ، ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبرى ظاهر فذلك شر لى . فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها ، ثم قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال .

نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل فقيل له فى النوم : ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك . فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب

فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه ، فرجع وهو يقول : إن هـذا لحسن ، ولكن ليس هـذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى فى النوم ثانيا فقيل له : ائت فلانا الإسكاف فقـل له : ماهـذا الصفار الذى بوجهك ؟ فأتاه فسأله فقال له : مارأيت أحداً من الناس إلا وقع لى : أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال العابد : بهذه

والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى ﴿ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدءوب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لايفترون وهم من خشيته مشفقون ﴾ فمتى زال الإشفاق والحذر عما سبق به القضاء فى الأزل — وينكشف عند خاتمة الأجل — غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك . والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ؛ فإذن مايفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال . فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لاغير ، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها ، فعلى هذا لا ينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر فى النفس .

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الأول : أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه ، فان ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه . أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لايليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن مافطنت له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما نبهتنى له ! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغى أن يشكر من دله عليها . فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر ، فان كان ذلك لايثقل عليه فى الخلوة ويثقل عليه فى الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته فى كماله فى ذاته وعند الله لاعند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه فى الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما مالم يتخلص من الثانى . فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعا مهلكان .

الامتحان الثانى : أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم ، فان ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغى أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف

النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن .

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث فى الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ماذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر .

الامتحان الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر ، وإن كان لايثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة ، والقلوب لاتدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له ياأبا يوسف قد كان فى غلمانك وبنتك مايكفيك ! قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك ؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة ؟ وفى الخبر « من حمل الفاكهة أو الشىء فقد برئ من الكبر [1] » .

الامتحان الخامس : أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن نفور النفس عن ذلك فى الملأ رياء وفى الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه له مسح يلبسه بالليل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر [2] » وقال عليه الصلاة والسلام « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألعق أصابعى وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتى فليس منى [3] » . وروى أن أبا موسى الأشعرى قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس . وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون فى الخلوة فهو الكبر ؛ فاعرف فإن من لايعرف الشر لايتقيه ، ومن لايدرك المرض لايداويه ،

بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة : فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا . والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس ، فإن كلا طرفى الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع : أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل ، وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل ؛ وهو أن يعطى كل ذى حق حقه ، فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوق فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال وإجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلك وأن لايرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لايعرف خاتمة

---

(١) حديث « من حمل الشىء والفاكهة فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة وضعفه بلفظ « من حمل بضاعته » . (٢) حديث « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بزيادة فيه وفى إسناده القاسم اليعمرى ضعيف جدا . (٣) حديث « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ... الحديث » تقدم بعضه ولم أجد بقيته .

أمره . فإذن سبيله فى اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود فى محاسن العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع ، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكاف لا متواضع ، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم ، وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر ، كما أن الميل إلى طرف التبذير فى المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش ، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع .

الشطر الثانى : من الكتاب فى العجب ، وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه .

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ذكر ذلك فى معرض الإنكار وقال عز وجل (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فرد على الكفار فى إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـ) وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[1]» وقال لأبى ثعلبة ـ حيث ذكر آخر هذه الأمه فقال ـ إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك[2] » . وقال ابن مسعود: الهلاك فى اثنتين القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمر ، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة فى اعتقاد القانط ، فمن ههنا جمع بينهما . وقد قال تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم) قال ابن جريج : معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم . لاتبروها ، أى لاتعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب . ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه ، فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح ، فتفرس ذلك عمر فيه فقال . مازال يعرف فى طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] والنأو : هو العجب ـ فى اللغة ـ إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة ؟ قال : ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن

---

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث أبى ثعلبة « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وقد تقدم .

(٣) حديث « وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه » أخرجه البخارى من رواية قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم .

لم يأخذوا حذرهم ؟ وقال مطرف : لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلى من أبيت قائما وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب [1] » فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة ، فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يعجبنك ما رأيت منى ، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ماصار إليه . وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا : قالت ؟ إذا ظن أنه محسن ، وقد قال تعالى ﴿ لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب . فظهر بهذا أن العجب مذموم جدّا .

بيان آفة العجب

اعلم أنّ آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه - كما ذكرناه - فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى ، هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا عجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا ، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان وأنّ له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة وعطية من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه ، فإن كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه ، وإن كان فى أمر دينى لاسيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ، ومن اعظم آفاته أن يفتر فى السعى لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذى لاشبهة فيه . نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أنّ العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة ، وللعالم بكمال نفسه فى علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحداهما) أن يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أوسلبه من أصله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه

---

(١) حديث « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك العجب العجب » أخرجه البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى منكر الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف جدا .

وهذا أيضا ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هى العجب وهى أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه . فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا إدلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه .

وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى لا تدل بعملك وفى الخبر « إنّ صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك »[1] ، والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه ، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته ؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل ، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له فى الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التى بها يتم عمله أنها من أين كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلى بها فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة ، فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ؟ ولا ينبغى أن يعجب بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول : الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرنى بها ، فيقال : وتلك الصفة أيضا هى من خلعة الملك وعطيته التى خصصك بها من غيرك ، من غير وسيلة ، أو هى عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا

---

(١) حديث « إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ... الحديث » لم أجد له أصلا .

فلم تعجب به . فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، فيقال : وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ! فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لانفسك . وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصوّر فى حق الملوك ولا يتصوّر فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت : وفقنى للعبادة لحبى له ، فيقال : ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فتقول : هو ، فيقال : فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ! فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغنى بغناه ! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده .

فإن قلت : لا يمكننى أن أجهل أعمالى وإنى أنا عملتها فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب ؟ وإن كانت الأعمال منى وبقدرتى فكيف لا أعجب بها ؟ فاعلم أن جوابك من وجهين (أحدهما) هو صريح الحق (والآخر) فيه مسامحة .

أما صريح الحق : فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه ، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين ، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات فى أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق فى العضو قوة وفى القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علما بالمراد ، ولم يخلق علما ما لم يخلق القلب الذى هو محل العلم ، فتدريجه فى الخلق شيئا بعد شىء هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت . وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه أليق به فارجع إليه .

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك ! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهى بيد الله لا محالة . أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح . فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك ، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شىء منها إليك ، فمن العجائب أن تعجب بنفسك

ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه فى إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعى الفساد على الفساق وصرفها عنك ، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك ، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر ! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصى ، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصى وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك ! فإذن لا تتصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها ، فكأنه الذى اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لا لك — وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب - إذا رزقه الله عقلا وأفقره — ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعنى قوت يومى وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظلما ، ولا يدرى المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال ، إذ يقول الجاهل الفقير : يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما فهلا جمعتهما لى أو هلا رزقتنى أحدهما ؟ وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له : ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه ! فإذن ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ؟ ولا تدرى المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال ؟ فإذن نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه : يارب لم حرمتنى الدنيا وأعطيتها الجهال ؟ كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول : أيها الملك لم لا تعطينى الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول : كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس ! فهب أنى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى ؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها ، ومنشأ جميع ذلك الجهل ، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداه بها قبل الاستحقاق ، وهذا ينفى العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام : يارب ما تأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم — وفى رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك — فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ومن أين لهم ذلك ! إنّ ذلك لم يكن إلا بى ولولا عونى إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك ، قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود : يارب إنّ بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحق ويعقوب ، فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : يارب وأنا إن ابتليتنى صبرت ، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى : فإنى لم أخبرهم بأى شىء أبتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم ، وأنا مخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك ، فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم

ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لانغلب اليوم من قلة [1] وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ . روى ابن عيينه أن أيوب عليه السلام قال : إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى ، فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت . ياأيوب أنى لك ذلك ؛ أى من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال : منك يارب منك يارب ، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكا منكم من أحد أبدا ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس « مامنكم من أحد ينجيه عمله ، قالوا : ولاأنت يارسول الله ؟ قال « ولاأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته [2] » ولقدكان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أويدل به ولايخاف على نفسه ؟ فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب . ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إنّ من لايبالى أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لايبالى أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء ! وهذا لايبقى معه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه

اعلم أنّ العجب بالأسباب التى بها يتكبر ـ كما ذكرناه ـ وقد يعجب بما لايتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

(الأول) أن يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجملة تفصيل خلقته ، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال ، وعلاجه ماذكرناه فى الكبر بالجمال وهو التفكر فى أقذار باطنه وفى أول أمره وفى آخره ، وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع .

(الثانى) البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت فى عنقه ، وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ! ولم يقل إن شاء الله تعالى ، فحرم ما أراد من الولد [1] وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتنى صبرت ، وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوة الهجوم فى الحروب وإلقاء النفس فى التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه ماذكرناه ، وهو أن يعلم أنّ حمى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه .

---

(١) حديث : قولهم يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا : أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) ولابن مردويه فى تفسيره من حديث أنس : لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا : اليوم نقاتل ؛ ففروا . فيه الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور (٢) حديث « مامنكم من أحد ينجيه عمله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث : قال سليمان : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقارا لهم وإهانة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه ! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ماأوتى من العلم إلا قليلا وإن اتسع علمه ، وأن ماجهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمق كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لايدرى . فإن القاصر العقل قط لايعلم قصور عقله ، فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لامن نفسه ، ومن أعدائه لامن أصدقائه ، فإن من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لايظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبا .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية ، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساواهم فى النسب وشاركهم فى القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ أى لاتفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد ، ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل : من ينتمى إلى نسبى ولكن قال « أكرمهم أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا (١) » وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة : فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فقال تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية — أى كبيرها — كلكم بنو آدم وآدم من تراب (٢) » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يامعشر قريش لاتأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يامحمد يامحمد وأقول هكذا - أى أعرض عنكم - (٣) » فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعملا لأنفسكما فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا (٤) » فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى

---

(١) حديث : لما قيل له : من أكرم الناس من أكيس الناس ؟ قال « أكثرهم للموت ذكرا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله « وأكرم الناس » وهو بهذه الزيادة عند ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت آخر الكتاب .

(٢) حديث « إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة ورواه الترمذى أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب .

(٣) حديث « يامعشر قريش لايأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم .. الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال : يامعشر بنى هاشم وسنده ضعيف . (٤) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال « يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة .

والتواضع ، وإلا كان طاعنا فى نسب نفسه ـ بلسان حاله ـ مهما انتمى إليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية « إنى لا أغنى عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها[1] » وقد عليه الصلاة والسلام « أترجو سليم شفاعتى ولا يرجوها بنو عبد المطلب[2] » فذلك يدل على أنه سيخصص قرابته بالشفاعة ؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه ، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد فى شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن فى الشفاعة له ، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذى مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك ، فمن الذنوب مالا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وبقوله ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ﴾ وبقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وبقوله ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وإذا انقسمت الذنوب إلا مايشفع فيه وإلى مالا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لامحالة ، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها فى اتباع الشهوات لتكمل لذاتها فى الدنيا ثم يشفع لها فى الآخرة لتكمل لذاتها فى الآخرة . فالانهماك فى الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهى انهماك المريض فى شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من اب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه تنفع فى إزالة بعض الأمراض لا فى كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب ، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن فى الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغى أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا ، وذلك لا يزيل الخوف والحذر ، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم ؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم ؟

(الخامس) العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر فى مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد فى دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى ، ولو نظر إلى صورهم فى النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذارا واستحقار لهم ، ولو انكشف له ذلهم فى القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم إلى جهنم فى مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم ، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين ! فأما العجب فجهل محض .

---

(١) حديث : قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية « ألا ان لكما رحما سأبلها ببلالها » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها » (٢) حديث « أترجو سليم شفاعتى ولا ترجوها بنو عبد المطلب » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا .

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين : لانغلب اليوم من قلة ، وعلاجه ماذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وفي أحوج أوقاته إليهم ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ الآية . فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك .

(السابع) العجب بالمال كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام « أخشيت أن يعدو إليك فقره [1] » وذلك للعجب بالغنى ، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة [2] » وأشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر ، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي « يا أبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال « ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي « يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا [3] » وجميع ماذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى ، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله ؟

(الثامن) العجب بالرأي الخطأ . قال الله تعالى ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ وقال تعالى ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة [4] وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾ وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله

---

(١) حديث : رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه ... الحديث . رواه أحمد في الزهد .
(٢) حديث « بينما رجل في حلة قد أعجبته نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
(٣) حديث أبي ذر : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي « ياأبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسي ... الحديث . وفيه « هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » أخرجه ابن حبان في صحيحه .
(٤) حديث « أنه يغلب على آخر هذه الأمة الإعجاب بالرأي » هو حديث أبي ثعلبة المتقدم « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك » وهو عند أبي داود والترمذي .

عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطاب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر فى الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور ، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب ولا يصغى إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن خاض فى المذاهب والبدع والتعصب فى العقائد هلك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل فى عمره بشىء غير العلم ، فأما الذى عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة فى أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور ، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور .

أما بعد : ففتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعى إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم ﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ والمغترون قلوبهم ﴿كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان

دليلا ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه ، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه ، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور ، الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء ، وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف (الصنف الأول) من العلماء (الصنف الثانى) من العباد (الصنف الثالث) من المتصوفة (الصنف الرابع) من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ، فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ المسجد ويزخرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة . ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ﴾ الآية . كاف فى ذم الغرور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [2] » وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشىء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعى الغرور : مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يغره . فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا سمى الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور .

كتاب ذم الغرور

(١) حديث « حبذا نوم الأكياس وفطرهم ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات : أبى الورد ، موضع أبى الدرداء ، ولم أجده مرفوعا (٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

(المثال الأول) غرور الكفار ، فهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور ، أما الذين غرتهم الحياة الدنيا : فهم الذين قالوا : النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهي إذن خير فلا بد من إيثارها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان ؛ أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ماعندكم ينفد وما عند الله باق﴾ وفي قوله عز وجل (وما عند الله خير) وقوله (والآخرة خير وأبقى) وقوله (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقوله (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان [١] ، ومنهم من قال : نشدتك الله أبعثك الله رسولا ؟ فكان يقول « نعم » فيصدق [٢] وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور ، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور اللعب مع أنه لايدري وجه كونه خيرا . وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغروره سبب ، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لايشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان (أحدهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح (والآخر) قوله : إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير ، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه ، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل ؛ فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة . فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حدّ وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة ، فإذن قد غلط في قوله : النقد خير من النسيئة ، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغفل به المغرور عن خصوص معناه . فإن من قال : النقد خير من النسيئة ، أراد به خيرا من نسيئة هي مثله وإن لم يصرح به .

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو : أن اليقين خير من الشك إذاً الآخرة شك وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصليه باطل ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله ، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين

---

(١) حديث : تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السنن ، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه : حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . الحديث » وهي عند أحمد بإسناد جيد .

(٢) حديث : قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا ؟ فيقول « نعم » فيصدق . متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام ابن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم آلله أرسلك للناس كلهم ؟ فقال « اللهم نعم » وفي آخره : فقال الرجل آمنت بما جئت به والطبراني من حديث ابن عباس في ضمام قال : نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى ؟ قال « نعم » الحديث .

وفى ربحه على شك ، والمتفقه فى جهاده على يقين وفى إدراكه رتبة العلم على شك والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين وفى الظفر بالصيد على شك ، وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ، ولكن التاجر يقول : إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضررى ، وإن اتجرت كان تعبى قليلا وربحى كثيرا ؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ، ولكن يقول : ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت ، فكذلك من شك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى مايقال من أمر الآخرة ، فان كان ماقيل فيه كذبا ؛ فما يفوتنى إلا التنعم أيام حياتى وقد كنت فى العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم ، فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ماقيل صدقا ، فأبقى فى النار أبد الآباد وهذا لايطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ماقلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا ، وإن كان ماقلناه حقافقد تخلصنا وهلكت : وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور .

وأما الأصل الثانى من كلامه : وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان .

أحدهما : الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثالهم مثال مريض لايعرف دواء علته ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب ، بل لاعلم له بالطب ، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ، ولا يغتر فى علمهم بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا ، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل ، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبى وقول السوادى لايزيل طمأنينة القلب إلى مااتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغبى الذى استرقته الشهوات لايشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لامحالة والغرور يزول به .

وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء ، ولا تظنن أن معرفة النبى عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط وهيهات ! فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لاعن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ؟ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات

بل العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق ، ولله الخلق والأمر ، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق إذ الخلق عبارة عن التقدير فى وضع اللسان ، وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة فى ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذى منع من إفشائه. فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانى بطبعه وفطرته ، وأنه فى العالم الجسمانى غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه فى ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهى التى حطته عن الجنة التى هى أليق به بمقتضى ذاته فإنها فى جوار الرب تعالى ، وأنه أمر ربانى وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعى ذاتى ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه . ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ أى الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم . يقال : فسقت الرطبة عن كامها ؛ إذا خرجت عن معدنها الفطرى . وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا ، وهى مبادى مقامات الأنبياء . وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء

ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدى ، وأما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنين بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصى فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من المغرورين فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفى للفوز قال تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ وقال تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه »(١) ، وقال تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فوعد المغفرة فى جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده ، فهؤلاء أيضا مغرورون أعنى المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها . الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا .

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين . فأما غرور الكفار بالله : فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم وبألسنتهم : إنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ وجملة أمرهما كما نقل فى التفسير : أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار ، وفى ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويخرب ألا اشتريت قصرا فى الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يخرب ويفنى ألا اشتريت بستانا فى الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفى كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ما هناك شىء وما

---

(١) حديث « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم .

قيل من ذلك فهو أكاذيب ! وإن كان فليكونن لى فى الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول ﴿ لأوتين مالا وولدا ﴾ فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا ﴾ وروى عن خباب بن الأرت أنه قال : كان لى على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لى فقلت : إنى آخذه فى الآخرة ؛ فقال لى : إذا صرت إلى الآخرة فإن لى هناك مالا وولدا أقضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا [1] ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إنّ لى عنده للحسنى ﴾ وهذا كله من الغرور بالله.

وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ فقال تعالى جوابا لقولهم ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ ومرة ينظرون إلى المؤمنين ؛ وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم ، فيقولون ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ ويقولون ﴿ لو كان خيرا ماسبقونا إليه ﴾ وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا فى المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كـذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب إذ يقول : لولا أنى كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلى . والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لابل تحت ظنه أنّ إنعامه عليه فى الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لايدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله : أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر ، فالذى يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التى تضره ، ويسقيه الأدوية التى تنفعه . والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولايدخل المكتب ويأكل كل مايشتهى ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه ولم يحجر عليه ، وذلك محض الغرور ، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، فإن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه [2] ، هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر .

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظنّ أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ﴾ فأجاب الله عن ذلك ﴿ كلا ﴾ أى ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت ، فبين أنّ ذلك غرور . قال الحسن كذبهما جميعا بقوله ﴿ كلا ﴾ يقول ليس هذا بإكرامى ولا هذا بهوانى ، ولكنّ الكريم من أكرمته بطاعتى غنيا كان أو فقيرا ، والمهان من أهنته بمعصيتى غنيا كان أو فقيرا .

---

(١) حديث : خباب بن الأرت ، قال كان لى على العاص بن وائل دين لجئت أتقاضاه . الحديث . فى نزول قوله تعالى ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا ﴾ الآية أخرجه البخارى ومسلم (٢) حديث « إن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد (أما البصيرة) فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعد عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام فى منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة (وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى ﴿ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون ﴾ وفى تفسير قوله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة لزيد غرورهم وقال تعالى ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ إلى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا ! فقال تعالى ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ وقال عزوجل ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد ، بل ينبغى أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك فى حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى ، فإذن من أمن مكر الله فهو مغتر ، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور .

(المثال الثانى) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم : إن الله كريم وإنا نرجو عفوه ، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود فى الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم ، وأين معاصى العباد فى بحار رحمته وإنا موحدون ومؤمنون ؟ فنرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية . أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة ، وينسى المغرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة فلم يرد فكان من المغرقين ﴿ فقال رب إن ابنى من أهلى ﴾ فقال تعالى ﴿ يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله [1] فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له الاستغفار • الحديث أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

تعالى يحب المطيع ويبغض العاصى ، فكما أنه لايبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصى فكذلك لايحب الولد العاصى بحبه للأب المطيع ، ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا بل الحق أن لاتزر وازرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشى أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس ، وعند الله جزاء التقوى ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه﴾ إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب الله عليه فيأذن فى الشفاعة له ـ كما سبق فى كتاب الكبر والعجب .

فإن قلت : فأين الغلط فى قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته ، وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب ؟ فاعلم أن الشيطان لايغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [1] » وهذا هو التمنى على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه : رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ يعنى أنّ الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أنّ ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ وقال تعالى ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعد ولايخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأوانى وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أنّ المستأجر كريم ، أفيراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا ؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرّة . قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال : هيهات هيهات ! تلك أمانيهم يترجحون فيها ، من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاى ! فقال له رجل : إنا لنرجو الله ! فقال مسلم : هيهات هيهات ؟ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل ! فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصى فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل بقى مترددا فى الولد يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لايقبل منه وأن لايدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لايميل إلى المعاصى فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ـ ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون﴾ أى علمنا أنه كما لايولد إلا بوقاع ونكاح ولاينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر ، فكذلك لايحصل فى الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك فى قولك ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ـ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ أى ألم نسمعكم سنة الله فى عباده وأنه ﴿توفى

(١) حديث : الكيس من دان نفسه تقدم قريبا .

كل نفس ماكسبت ﴾ وأن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فما الذى غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ ﴿ قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾ .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود فى موضعين :

أحدهما : فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى ﴿ فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر ﴿ إنّ الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وأنّ الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأنّ التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وانيبوا إلى ربكم ﴾ أمرهم بالإنابة وقال تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو فى السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنك لاتدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التى لايعرفها فهو مغرور .

الثانى : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وماوعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فالرجاء الأول : يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى : يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر ، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة ، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك وللإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم ؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبد الآباد، مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا وهو قادر على إزالتها ، فمن هذه سنته فى عباده وقد خوفنى عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتربه ؟ .

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل ، فما لايبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعى للآخرة، فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة (١) وقد كان ماوعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون

---

(١) حديث « إن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة » تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبى ثعلبة . فى إعجاب كل ذى رأى برأيه .

لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور فى كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار « يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبل منى ، وإن أساء قال : يغفر لى (١) » فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ ومعناه أنهم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى هم علماء ﴿ ويأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا . وقد قال تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف ، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه . وترى الناس يهذونه هذا ، يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم مع أن ما فى كفة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين ! وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان وفى الكفة الأخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله . نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ فهذا أبدا يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين ، يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور . ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه ! فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته فى الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه ! ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها ! لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ! فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ،

---

(١) حديث : معقل بن يسار « يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل .

وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم .

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق :

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل فى الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة ؛ وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة : علم المعرفة .

فأما العلم بالمعاملة : كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل . فمثال هذا : كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى فى طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التى منها تجتلب ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه ، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها ، أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا ؟ هيهات هيهات ! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه ، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره . وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور ، إذ قال تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس ! وعند هذا يقول له الشيطان : لا يغرنك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ، ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل ، وإن كان كيسا فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العالم وتنسينى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه كقوله تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ وكقوله تعالى ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ فأى خزى أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا [1] » وقال أيضا « يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار فى الرحى [2] » وكقوله عليه الصلاة والسلام « شر الناس العلماء السوء [3] » وقول أبى الدرداء : ويل للذى لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات ، أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له : ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله ؟

(١) حديث « من ازداد علما ولم يزدد هدى ... الحديث » تقدم فى العلم (٢) حديث « يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه ... الحديث » تقدم غير مرة (٣) حديث « شر الناس علماء السوء » تقدم فى العلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه [١] » فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر ، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور ، فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ماذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال . فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة : كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه ، وعاطل عن جميع مايحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلا عن جميع مايحبه ، متوسلا إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به ، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني ، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفني كما تخاف السبع الضاري . نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ماعرف الأسد ، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وفاتحة الزبور « رأس الحكمة خشية الله » وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا لايقولون ذلك ، فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لايداري ولايماري ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله . فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ماأحبه وما كرهه وهو العالم ﴿ ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ﴾ وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم « أدنى الرياء شرك [٢] » وإلى قوله عليه السلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر [٣] » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [٤] » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل [٥] » إلى

---

(١) حديث « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه » تقدم فيه . (٢) حديث « أدنى الرياء شرك » تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث لايدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم غير مرة (٤) حديث « الحسد يأكل الحسنات ... الحديث » تقدم في العلم وغيره (٥) حديث « حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب ... الحديث » تقدم

غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(١) ، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب — والقلب هو الأصل — إذ لاينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره ، ولا يخفى أن ذلك غرور ، بل أقرب مثالي إليه : رجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يجز رءوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت ، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب ، فمن لايطهر القلب منها لاتتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ماعلى ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فقنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول مايزيد في المادة ، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن .

(وفرقة أخرى) علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا : ماهذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ! وإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذلي ذلا على الإسلام ونسي المغرور أن عدوه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسي ماروى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبق والإبريسم — المحرم — والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين ! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال : إنما هذا غضب للحق ورد على المبطل في عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد ، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لايغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع ؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه ، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال : هيهات ! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ـ كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول : إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي ! هذا مايظنه

(١) حديث « إن الله لاينظر إلى صوركم ... الحديث » تقدم

بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان : هيهات ! إنما ذلك عند الطمع في مالهم فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك ! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل . وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان : هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين ! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ .

فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور (احدها) في أنه مال لا مالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء ، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم ، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف في أنه مال حرام ، ولا يقال هو مال لا مالك له ، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة ، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر (الثاني والثالث) في قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين . إذ الإمام : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف . والدجال : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا . فلعل موت هذا انفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين . ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء : إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع . وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس مادق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها واهملوها ، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الارض وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته . ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه

بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات وإيثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا ، لاعن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص . ولعل هذا المسكين المغرور حياته فى الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوش عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه . وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب فى تغطية عيبه . وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره ، وينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد إصغاء إليه وأحرص على خدمته ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون فى العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه . وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب فى إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده فى العزلة ولاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع منى فبجهله وقع فى حبائلى . وعساه يصنف ويجتهد فيه ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف ، فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ، ولعله فى تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة وإما ضمنا بالطعن فى غيره ، ليستبين من طعنه فى غيره ، أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان فى غنية عن الطعن فيه ، ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يجتهد فى تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف فى الحكمة فأوحى الله إلى نبى زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقا وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا . ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعا أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه ، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد فى نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة وسلامته عنها فى تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ، ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن فى دينه وفى ورعه ليحمل غضبه على ذلك ، ويقول إنما غضبت لدين الله لا لنفسى . ومهما

ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه ، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه - يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين - وسر قلبه راض به ومريد له ، والله مطلع عليه فى ذلك . فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله بعبدخيرا بصره بعيوب نفسه ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا فى العمل بالعلم .

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاقتصارهم عليه . فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشى إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات . فهؤلاء مغرورون من وجهين (أحدهما) من حيث العمل (والآخر) من حيث العلم .

اما العمل : فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم إدواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لايحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول : ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألنى عن ذلك ، وذلك غاية الغرور . فكذلك المتفقه المسكين قديسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يخطفه الموت قبل التوبة والتلافى فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شىء من ذلك قط فى عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان فى المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدرى أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية . هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى ، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه فى جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل .

وأما غروره من حيث العلم : فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما طعن فى المحدثين وقال : إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لايفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى ، فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوم دينه ، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التى هى اهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ماسمع فى الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى ، إذ قال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا

إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم : حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات ، والمال فى طريق الله آلة والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شىء ولا بسبيله - وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم - ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسنيبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمهم السفه ، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ، بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ، وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة : فالضالة هى التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هى التى تدعو إلى السنة والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة : فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا ، وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما الفرقة المحقة : فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس بكامل الإيمان ولا مقرب عند الله

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها فى تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد

أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى قد جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته ، وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه فى الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[1] ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان[2] - حمرة من الغضب - فقال « ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا » فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم فى مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام ، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد فى المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم ، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفيه الجدل والإلزام ، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا فى المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا فى يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ فى تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشددا فى بدعته ، فاشتغالى بمخاصمة نفسى ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى ، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه ؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أتفقد نفسى وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا فى علم المحبة إلا وهم محبون لله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون : ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل فى طريق الله ! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو أمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص فى الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائى بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها

---

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » تقدم فى العلم وفى آفات اللسان . (٢) حديث : خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون ، فغضب حتى كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان ... الحديث » تقدم .

فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن . ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا - لو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه إلى الله اضاقت عليه الأرض بما رحبت - ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب فى الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به . فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه ؟ وإنما الخوف مايتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله فما الذى تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف فما الذى امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد فما الذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعى الأنس بالله فمتى طابت له الخلوة ! ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلئ بالحلاوة إذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعانى وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها وذهب عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف بل فى القدرة على الوصف ، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف فى قلبه حب الله تعالى ؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته ، ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب ، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل ، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم .

(وفرقة أخرى) منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله ، على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للإغراب . وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر هممهم بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد

أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء فإنهم يصدّون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصى ورغبة فى الدنيا ، لاسيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمراكب فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لايصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولايخفى وجه كونه مغرورا .

(وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم فى المحاريب ، وبعضهم فى الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض ، وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث أعنى فى سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعى من الإسناد ماليس مع غيرى . وغرورهم من وجوه : منها أنهم كحملة الأسفار فإنهم لايصرفون العناية إلى فهم معانى السنة فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولايعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولايعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالى منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لايقيمون بشرط السماع فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم فى نفسه للوصول إلا إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم ، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبى يحضر فى مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبى يلعب ، ثم يكتب اسم الصبى فى السماع فإذا كبر تصدى ليسمع منه والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولايسمع ولايصغى ولايضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير مايقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع . فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغى لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لاتغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا أو اخطأ علمت خطأه .

ولحفظك طريقان (أحدهما) أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الأحوال . (والثانى) أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لاتصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره ، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف .

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجز لك أن تقول : سمعت هذا الكتاب ، فإنك لاتدرى لعلك لم تسمع مافيه بل سمعت شيئا يخالف مافيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ

بقلبك ولانسخة صحيحة استوثقت عليها اتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ ولاتقف ماليس لك به علم ﴾ وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان إنا سمعنا مافى هـذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذى ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي فى المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولاخلاف فى عدم جوازه ، ولوجاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لايكتب سماع الصبي فى المهد لأنه لايفهم ولايحفظ ، فالصبي الذى لايلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولايحفظ ، وإن استجرأ جاهل فقال : يكتب سماع الصبي فى المهد فليكتب سماع الجنين فى البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لايسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فماينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ، فليقتصر إذا صار شيخا على أن يقول : سمعت بعد بلوغى أنى فى صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولاأدرى ما هو ؟ فلاخلاف فى أن الرواية كذلك لاتصح ومازاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركى الذى لايفهم العربية لأنه سمع صوتا غفلا لجاز إثبات سماع صبي فى المهد وذلك غاية الجهل . ومن أين يأخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها [1] » ، وكيف يؤدى كما سمع من لايدرى ماسمع فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا إلا الذين سمعوه فى الصبا على هذا الوجه مع الغفلة ، إلا أن للمحدثين فى ذلك جاها وقبولا ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك فى حلقهم فينقص جاههم ، وتقل أيضا أحاديثهم التى قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا ، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لايدرى مايجرى ؟ وصحة السماع لاتعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وماذكرناه مقطوع به فى قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين فى اقتصارهم على النقل وإفناء أعمارهم فى جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معانى الأخبار ، بل الذى يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة وسالك طريقها ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه [2] » ، فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحو وفى صناعة الشعر وفى غريب اللغة ، ومثالهم كمن يفنى جميع العمر فى تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لايمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقى زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع له فى معرفة لغة الترك والهند ، وإنما فارقتها لغة

---

(١) حديث « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها . الحديث » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذى حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس

(٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسلا وقد تقدم .

العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفي من اللغة علم الغريبين فى الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لاتتناهى فهو فضول مستغنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور ، بل مثاله مثاله مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن واقتصر عليه وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول مابه من الصفراء وضيع أوقاته فى تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين ، فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق فى مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها ـ أكثر مما يحتاج إليه فى تعلم العلوم التى هى فرض عين ـ فاللب الأقصى هو العمل والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى مافوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية ، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى مافوقه ، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ماوراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره فى حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات . فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان فى المنزل القريب أو فى المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع ، لأن العلوم الشرعية مشتركة فى أنها محمودة كما يشارك القشر اللب فى كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى . والثانى محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به .

(وفرقة أخرى) عظم غرورهم فى فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه فى مجلس القضاء فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطئوا فيها . وهذا من قبيل الخطأ فى الفتوى والغرور فيه والخطأ فى الفتاوى مما يكثر . ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فلنشير إلى أمثلة : فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى ، وذلك خطأ بل الزوج قد يسىء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب ، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن . نعم القاضى فى الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدى القاضى الأكبر فى صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا فى تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالا على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله فى خلوة حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما

فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين ، والسؤال فى مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر ، وإنما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما فى القلب ، وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه ، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء فى قصة داود عليه السلام حيث قال — بعد أن غفر له — يارب كيف لى بخصمى ؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر بندائه فى صخرة بيت المقدس ، فنادى : يا أوريا ، فأجابه : لبيك يانبى الله أخرجتنى من الجنة فماذا تريد ؟ فقال : إنى أسأت إليك فى أمر فهبه لى ، قال : قد فعلت ذلك يا نبى الله ، فانصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما عملت ؟ قال : لا ، قال : فارجع فبين له ، فرجع فناداه فقال : لبيك يا نبى الله ، فقال : إنى أذنبت إليك ذنبا ، قال : ألم أهبه لك ؟ قال : ألا تسألنى ماذلك الذنب ؟ قال : ماهو يانبى الله ؟ قال : كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب ، فقال ياأوريا ألا تجيبنى ؟ قال : يانبى الله ماهكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدى الله ، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه فى الآخرة . فهكذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لاتفيد ، وأن طيبة القلب لاتحصل إلا بالمعرفة ، فكذلك طيبة القلب لاتكون فى الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلى الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة ، فالفقيه يقول : سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه فقد صدق فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال ، وإن ظن أنه يسلم فى القيامة ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ، فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع [1] » ، وإنما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا . فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه المال وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة ، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات وبين الحاجات ، بل كل مالا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور ، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها فى العبادة وسلوك طريق الآخرة ، فكل ماتناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ، ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء فى أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول .

الصنف الثانى : أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره فى الصلاة . ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن . ومنهم فى الحج . ومنهم فى الغزو . ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ماهم .

(فمنهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة

والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولايرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء وذلك منهى عنه[1] ، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء ، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنى ، ولايقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك .

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته ، لايهمه غيره ولايتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره . وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

(وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه فى اليوم والليل مرة ، ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لايتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة ـ فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد حفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هى لذته فى صوته ،

---

(١) حديث : النهى عن الإسراف فى الوضوء . أخرجه الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب « أن للوضوء شيطانا يقال له الولهان ... الحديث » وتقدم فى عجائب القلب .

ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لايقوم بحقه وذلك غاية الغرور .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولايحذرون فى الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء فى الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصى الله تعالى فى كسب الحرام أولا وفى إنفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه فى حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) أخذت فى طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر على ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم أخذ حقى وزوحمت على مرتبتى ، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

(وفرقة أخرى) جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك ، وتراه يتحدى ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة ، وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد يجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ، ولايعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة ، وفى الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق فى الكتب .

(وفرقة أخرى) زهدت فى المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين ، فإن الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا

مغرور إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدر أنّ منتهى لذاتها لرياسة وأنّ الراغب فيها لابدّ وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لايدرى ، وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ، ولو قيل له إنه حلال فخذه فى الظاهر ورده فى الخفية لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس ، فهو راغب فى حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لايخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد ، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه . وفى العباد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدرى أنّ ذلك مهلك ، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات ! وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ، ثم لايخلو هذا المغرور - مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه - عن الرياء وحب الثناء ، فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا ، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه .

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه « ماتقرّب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم [1] » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يتعين فى الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا . ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض ، كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية ، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم مايفوت على ما لا يفوت ، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له : من أبر يارسول الله ؟ قال « أمك » قال : ثم من ؟ قال « أمك » قال : ثم من ؟ قال « أمك » قال : ثم من ؟ قال « أباك » قال : ثم من ؟ قال « أدناك فأدناك [2] » فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع . وكذلك من لايفى ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغى أن يقدّم حقهما على الحج ، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه . وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال

---

(١) حديث « ماتقرب المتقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ « ماتقرب الى عبدى » . (٢) حديث : من أبر ؟ قال « أمك... الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة .

بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة فى نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لاتنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور فى غاية الغموض لأن المغرور فيه فى طاعة إلا أنه لايفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هى أهم منها . ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه فى حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة مايحتاج إليه غيره فى حوائجه . فمعرفة مايحتاج هو إليه فى قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يغتر به مع نفسه ويظن أنه مشغول بمهم دينه .

الصنف الثالث : المتصوفة وماأغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة .

(ففرقة منهم) وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والمنطق ، فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم وفى ألفاظهم وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض الصوت فى الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ،ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية ؟ كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبت أسماؤهم فى الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم فى الميدان وكيف تحريكهم الأيدى وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى والمنطق والحركات والسكنات ، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ماتحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها فى الشجاعة ، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هى عجوز ضعيفة زمنة لاتطيق حمل الدرع والمغفر؟ فقيل لها أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل . فكهذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضى الأكبر الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع بل إلى القلب .

(وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء فى الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ماهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة

لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم .

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ؛ ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمق الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه .

(وفرقة أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي ؟ وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال . ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون إنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول .

(وفرقة أخرى) : جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها . فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى . وليس يدري أن كل ذلك يناقض

الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح دعوى التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به ، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات فى ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

(وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها فى أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق فى غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك للرياسة وجمع المال ، وإنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم ، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم ، وبعضهم يأخذها لينفق فى طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق ، وباعث جميعهم الرياء والسمعة ، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه . ومثال من ينفق الحرام فى طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة ، فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها ، فيقولون هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والالتفات إلى كونه عيبا عيب ، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات فى تلفيقها ومن جعل طول عمره فى التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وفى كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار فى الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين فى السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا فإن لله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب فى الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى

إخبارا عنه ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ﴾ وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها فى الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهى كثيرة وليست واحدا ، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغرّه الكوكب الذى لا يغرّ السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التى هى من حجب الله عز وجل وهى على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهى حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر ، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه فى أوّل ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترق إليه ويقول : قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده ، فقال ﴿ هذا أكبر ﴾ فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ﴿ قال لا أحب الآفلين - إلى أن قال - إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ﴾ وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول ، وأوّل الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضا أمر ربانى وهو نور من أنوار الله تعالى ؛ أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو فى أوّل الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق مايدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس ، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما فى الزجاج بالزجاج كما قيل :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء فيظن أن الكوكب فى المرآة أوفى الماء فيمدّ يده إليه ليأخذه وهو مغرور ، وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لاتحصى فى مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لارخصة فى ذكره ، ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لايحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ، ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذى هو فيه بل ربما يصدّق بأنّ الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدّق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التى أخبر عنها أولياء الله ، ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل .

الصنف الرابع : أرباب الأموال ؛ والمغترون منهم فرق : (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك . وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة ، فهم قد تعرّضوا لسخط الله فى كسبها وتعرضوا لسخطه فى إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فإذن قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما بردبدلها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير .

والوجه الثانى : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك ،

(وفرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهى أيضا مغرورة من وجهين :

أحدهما . الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها ، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس .

والثانى أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التى هى منهى عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم [(١)] والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ، ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره ، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتهون مثل ذلك فى بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله فى رقبته ؛ إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال : مثلى لا يدخل بيت الله ، فكتبه الملكان عند الله صديقا . فهكذا ينبغى أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون للمسيح عليه السلام : انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه ! فقال : أمتى أمتى بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التى تعجبكم شيئا ، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم [(٢)] » وقال الحسن « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له : ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء لا تزخرفه ولا تنقشه [(٣)] » فغرور هذا من حيث أنه رأى المنكر واتكل عليه .

(وفرقة أخرى) ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن

---

(١) حديث : النهى عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش . أخرجه البخارى من قول عمر بن الخطاب : أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر (٢) حديث « إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم » أخرجه ابن المبارك فى الزهد وأبو بكر ابن أبى داود فى كتاب المصاحف موقوفا على أبى الدرداء (٣) حديث الحسن مرسلا : لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه لم أجده .

الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصدق فى السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على إنفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود : فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ويبسط لهم فى الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لايواسيه . وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرنى بشىء ؟ فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفى درهم . قال بشر : فأى شىء تبتغى بحجك ؟ تزهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغنى عياله ، ومربى يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا مافى قلبك ؟ فقال : ياأبا نصر سفرى أقوى فى قلبى ، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

(وفرقة أخرى) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لايحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال : المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

(وفرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، ومن يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض ، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره ، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لايحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور .

(وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه ، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ، ومايراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة

النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلم ! أو نعوذ بالله أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لايغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير افعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا .

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذ يوجب اليأس إذ لايقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟ فأقوو : الإنسان إذا افترقت همته فى شىء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق ، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق فى الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق فى جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضه من تحت الجبال استخرجه ، وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة فى البرارى والصحارى اقتنصها ، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعى ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها ، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه ، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات ، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازى لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى . كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه ، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل ، وقال هذا محال ومن الذى يقدر عليه ؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد بل هو كما يقال « لو صح منك الهوى أرشدت للحيل » فهذا شىء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان . فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها .

فإن قلت : قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالفعل والعلم والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل : فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور ، فصفاء العقل وذكاء الفهم لابدّ منه فى أصل الفطرة ، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن . نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الله الذى قسم العقل بين عباده أشتاتا (١) » إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب احد ، وماقسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين . وعن أبى الدرداء أنه قيل : يارسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق

---

(١) حديث « تبارك الذى قسم العقل بين عباده ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفى أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبى حميد وهو ضعيف أيضا .

ويغزو فى سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما يجزى على قدر عقله »[(١)] ، وقال أنس : أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف عقله ؟ » قالوا : يارسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال « كيف عقله فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر . وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم »[(٢)] ، وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال « أرجوه » ، وإن قالوا غير ذلك قال « لن يبلغ »[(٣)] ، وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كيف عقله » قالوا : ليس بشىء قال « لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون » فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى فى أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها .

الثانى . المعرفة ؛ وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة : فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريبا فى هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه فى كتاب المحبة وفى كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه ، فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطنب فى هذا الكتاب إلا فى علوم المعاملة . وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره مايوصله إلى الله تعالى وينفعه فى الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها ، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة . وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية . ومادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم : أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله ومايبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله (وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب

---

(١) حديث أبى الدرداء « أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ... الحديث » وفيه « إنما يجزى على قدر عقله » أخرجه الخطيب فى التاريخ وفى أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبى الدرداء .

(٢) حديث أنس : أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « كيف عقله ؟ » . الحديث » أخرجه داود بن المحبر فى كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم فى العلم (٣) حديث أبى الدرداء : كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة ، سأل عن عقله .. الحديث . أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عدى ومن طريقه البيهقى فى الشعب وضعفه .

حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التى ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الذى يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق اونشر العلم ودعوته الناس إلى ماعرفه من دين الله ، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا فى عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم سكارى فى دينهم صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه ، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل مايكون وفى أزجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفى من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة ، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الدبيب فى قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع فى الزى والهيئة ، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم فخدموه وقدموه فى المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين ، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع فى أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله فى كل مايحفظ عليه تلك اللذة . وأمارة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدى الخلق غضب ، فإذا أنكر على نفسه ماوجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع فى الغرور ، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع فى الغيبة المحظورة بعد ترك الحلال المتسع ، ووقع فى الكبر الذى هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحذر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ،

وربما زاد فى الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ، ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه فى القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك ، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا فى بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقى من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه ، أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغى أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم ؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ؟ ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن أعوجاج النفس بعد الاستواء .

وإن قلت : فتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه ، أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى ، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم . أما إلى السادات : فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة . وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم فإنه لا يبالى كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع ؛ بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه . فما لم ير سائر الناس كالماشية التى لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالى بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم . نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضىء لغيره ويحترق فى نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب ؟ فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة »(١) ، ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والأبدان جميعا ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم ، ولم يترك النصح وذكر ما فى حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول : إن الوعظ لحب الرياسة حرام ، كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصى بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام ، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ،

---

(١) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا .

فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ ، فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا .

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى بقى بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار ؟ فاعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أنّ الشيطان يقول له : قد أعجزتنى وأفلت منى بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهرى ومكنك من التفطن لجميع مداخل غرورى ! فيصغى إليه ويصدّقه ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان : ياابن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت فى حبائلى .

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لامنه وإنّ مثله لايقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذى يخاف عليه بعد نفى العجب ؟ فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولايخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدّا ، بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه ، ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولاغافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لامحيص عنه وخوف لانجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزع وكان قد بقى له نفس فقال : أفلت منى يا فلان ؟ فقال : لا ، بعد . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فإذن المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لايفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا .

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإنّ الأمور بخواتيمها .

تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربع المهلكات ، ويتلوه فى أول ربع المنجيات « كتاب التوبة » والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لانبى بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين
ويليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة

فهرس

الجزء الثالث من إحياء علوم الدين

صحيفة

٢ كتاب شرح عجائب القلب
وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات
٣ بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل
وما هو المراد بهذه الأسامى
٥ بيان جنود القلب
٦ بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٧ بيان خاصية قلب الإنسان
١٠ بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته
١٣ بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة
١٦ بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم
العقلية والدينية والدنيوية والأخروية
١٨ بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق
بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق
وطريق النظار
٢٠ بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس
٢٣ بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل
التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم
ولا من الطريق المعتاد
٢٦ بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس
ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها
٣٢ بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
٤١ بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس
القلوب وهمها وخواطرها وقصودها
وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به
٤٣ بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع
بالكلية عند الذكر أم لا
٤٥ بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب
فى التغير والثبات

صحيفة

٤٨ كتاب رياضة النفس
وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب
وهو الكتاب الثانى من ربع المهلكات
٤٩ بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق
٥٢ بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق
٥٦ بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة
٥٨ بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق
على الجملة
٦٠ بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق
٦٢ بيان علامات أمراض القلوب وعلامات
عودها إلى الصحة
٦٤ بيان الطريق الذى يعرف به الانسان
عيوب نفسه
٦٥ بيان شواهد النقل من أرباب البصائر
وشواهد الشرع على أن الطريق فى
معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات
وأن مادة أمراضها هى اتباع الشهوات
٦٩ بيان علامات حسن الخلق
٧٢ بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول
نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم
٧٤ بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدين
وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة
٧٩ كتاب كسر الشهوتين
وهو الكتاب الثالث مع ربع المهلكات
٨٠ بيان فضيلة الجوع وذم الشبع
٨٤ بيان فوائد الجوع وآفات الشبع
٨٩ بيان طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن

صحيفة

٩٦ بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه
٩٨ بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك الشهوات وقلل الطعام
٩٩ القول فى شهوة الفرج
١٠١ بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله
١٠٤ بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين
١٠٧ كتاب آفات اللسان
وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات
١٠٨ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت
١١٢ الآفة الأولى من آفات اللسان الكلام فيما لا يعنيك
١١٤ الآفة الثانية فضول الكلام
١١٥ الآفة الثالثة الخوض فى الباطل
١١٦ الآفة الرابعة المراء والجدال
١١٨ الآفة الخامسة الخصومة
١٢٠ الآفة السادسة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة الخ
١٢١ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان
١٢٣ الآفة الثامنة اللعن
١٢٦ الآفة التاسعة الغناء والشعر
١٢٧ الآفة العاشرة المزاح
١٣١ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء
الآفة الثانية عشرة إفشاء السر
١٣٢ الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب
١٣٣ الآفة الرابعة عشرة الكذب فى القول واليمين
١٣٧ بيان ما رخص فيه من الكذب
١٣٩ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
١٤١ الآفة الخامسة عشرة الغيبة
١٤٣ بيان معنى الغيبة وحدودها
١٤٤ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
١٤٦ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
١٤٨ بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

صحيفة

١٥٠ بيان تحريم الغيبة بالقلب
١٥٢ بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة
١٥٣ بيان كفارة الغيبة
١٥٤ الآفة السادسة عشرة النميمة
١٥٦ بيان حد النميمة وما يجب فى ردها
١٥٨ الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين
١٥٩ الآفة الثامنة عشرة المدح
١٦١ بيان ما على الممدوح
١٦١ الآفة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام
١٦٢ الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ
١٦٤ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد
وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات
١٦٤ بيان ذم الغضب
١٦٦ بيان حقيقة الغضب
١٦٩ بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا
١٧٢ بيان الأسباب المهيجة للغضب
١٧٣ بيان علاج الغضب بعد هيجانه
١٧٥ بيان فضيلة كظم الغيظ
١٧٦ بيان فضيلة الحلم
١٧٩ بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام
١٨١ القول فى معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق
١٨٢ فضيلة العفو والإحسان
١٨٤ فضيلة الرفق
١٨٦ القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته
بيان ذم الحسد
١٨٩ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

صحيفة
١٩٢ بيان أسباب الحسد والمنافسة
١٩٤ بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه
١٩٦ بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب
١٩٩ بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب
٢٠٢ كتاب ذم الدنيا
وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات
٢٠٢ بيان ذم الدنيا
٢١١ بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها
٢١٤ بيان صفة الدنيا بالأمثلة
٢١٩ بيان حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد
٢٢٤ بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم
٢٣١ كتاب ذم البخل وذم حب المال
وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات
٢٣٢ بيان ذم المال وكراهة حبه
٢٣٤ بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم .
٢٣٥ بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٢٣٧ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس
٢٤١ بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة
٢٤٣ بيان فضيلة السخاء
٢٤٧ حكايات الأسخياء
٢٥٢ بيان ذم البخل
٢٥٦ حكايات البخلاء
٢٥٧ بيان الإيثار وفضله
٢٥٩ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما
٢٦١ بيان علاج البخل

صحيفة
٢٦٢ بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله
٢٦٤ بيان ذم الغنى ومدح الفقر
٢٧٤ كتاب ذم الجاه والرياء
وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات وفيه شطران
٢٧٤ الشطر الأول فى حب الجاه والشهرة وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول الخ
بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
٢٧٦ بيان فضيلة الخمول
٢٧٨ بيان ذم حب الجاه
٢٧٨ بيان معنى الجاه وحقيقته
٢٧٩ بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة
٢٨٢ بيان الكمال الحقيقى والكمال الوهمى الذى لا حقيقة له
٢٨٥ بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم
٢٨٦ بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه
٢٨٧ بيان علاج حب الجاه
٢٨٩ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم
٢٩٠ بيان علاج كراهة الذم
٢٩١ بيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم
٢٩٣ الشطر الثانى من الكتاب فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء إلى آخره
٢٩٣ بيان ذم الرياء
٢٩٧ بيان حقيقة الرياء وما يراءى به
٣٠١ بيان درجات الرياء
٣٠٥ بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

صحيفة
٣٠٧ بيان مايحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط
٣١٠ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه
٣١٧ بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات
٣١٩ بيان الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم لها
٣٢٢ بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات
٣٣٠ بيان مايصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
٣٣٢ بيان ماينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه
٣٣٦ كتاب ذم الكبر والعجب
٣٣٦ بيان ذم الكبر والعجب
٣٣٩ بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثياب
٣٤٠ بيان فضيلة التواضع
٣٤٣ بيان حقيقة الكبر وآفته

صحيفة
٣٤٥ بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه
٣٤٧ بيان مابه التكبر
٣٥٣ بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له
٣٥٤ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
٣٥٨ بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له
٣٦٨ بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع
٣٦٩ بيان ذم العجب وآفاته
٣٧٠ بيان آفة العجب
٣٧١ بيان علاج العجب على الجملة
٣٧٤ بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه
٣٧٨ كتاب ذم الغرور
٣٧٩ بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته
٣٨٨ بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف

﴿ تم فهرست الجزء الثالث ﴾

إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء، للإمام الغزالي، رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث : عوارف المعارف: للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الرابع

دار المعرفة

بيروت – لبنان

١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدّر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب ، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب ، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

أما بعد ؛ فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدمى واجترم ، فهى شنشنة نعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين ؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ؛ فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد

لمحض الخير لخارج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما لايخلصه إلا إحدى النارين : نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : (الركن الأول) فى نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . (الركن الثانى) : فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر . (الركن الثالث) : فى بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك مامضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة . (الركن الرابع) : فى السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين .

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول : فى نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الأول والحال الثانى ، والفعل الثالث . والأول موجب للثانى ، والثانى موجب للثالث إيجابا اقتضاه إطراد سنة الله فى الملك والملكوت . أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال والماضى وبالاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضى فبتلافى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب فى قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ثلاثة معان مرتبة فى الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة [1] » ، إذ لا يخلو الندم عن علم

(١) حديث « الندم توبة » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود » ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره ؛ وبهذا الاعتبار قيل فى حدّ التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ، ولذلك قيل : هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل فى حدّ التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل ابن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ، وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير ؛ فسيرهذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الإيمان ، وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار ؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول فى كل واقعة ، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هى ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك فى ثبوته لها ، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل : صار واجباً بالإيجاب ، حديث محض فإن ما لا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به ، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لا سعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم . وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفانى والإكباب على حب ما لابد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقترب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب ، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم ، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد ، وما لم يتوجع فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والعزم ، فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول

---

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة : اخرج مسلم من حديث الأغر المزنى « يا أيها الناس توبوا الى الله .. الحديث » ولابن ماجه من حديث جابر « يا أيها الناس توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ... الحديث » وسنده ضعيف .

إلى المحبوب ، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة ، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . .﴾ الآية ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ وقال عليه السلام « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له »(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ؛ فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »(٢) ، وفي بعض الألفاظ ، قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبدي ، ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عزوجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا : يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : ياجبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي ؟ فأوحى الله إليه : يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة ، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب . والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ؛ إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى ، وهذا داخل في وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف في وجوبها . ومن معانيها : ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير في سابق الأحوال ، وذلك لا يشك في وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب ، وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافي ، فكيف لايكون واجبا ، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله .

فإن قلت : تألم القلب أمر ضروري لايدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لابمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال .

فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله تعالى ، بل الاختيار أيضا من خلق الله ، والعبد مضطر في الاختيار الذي له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة

---

(١) حديث « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول ، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف « ان الله يحب الشاب التائب » ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي « ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب »

(٢) حديث « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس . زاد مسلم في حديث أنس « ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرا .

وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام فى المعدة وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول ؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولا بدّ من حصوله عند تمام أسبابه ؛ فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا فى النفس ، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاماً ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما فى الحال أو فى المآل ، ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم ؛ فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فلذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ؛ فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لا لأن الحياة تتولد من الجسم ، ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا أنّ العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة لا أنّ العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حى عالم ، ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، والإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال ، فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة ؛ وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير ، وظهورها بالتفصيل مقدّر بقدر لا يتعدّاها وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ، ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة ، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت ، وقالوا ياأيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ، ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . وما قتلت إذ قتلت . ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . وعندهذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة ؛ فمن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأنّ القصور شامل لجميعهم . فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه ، وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب ، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة

من لم يدخل فى حيز الارتضاء ، ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه .

* فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ فاعلم أنّ جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه ، فقالوا لا بدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفنا انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم ، فقال الذى لمس الرجل : إنّ الفيل ماهو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها ، وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس فى غلظ الأسطوانة أصلا بل هو مثل عمود ، وقال الذى لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة ، فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل ، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر مااختلف الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا ، فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم والندم والترك ، وأنّ الندم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور المتقصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه ، فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصى عن عهدته ما لم يصر باعثا عليه ؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا لتركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن [(١)] » ، وماأراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى ، وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت ، كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدّق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقى البشرة عن

---

(١) حديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها ، وهذا مثال مطابق ، فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح ، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر فى الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ؛ فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنتشر فى الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا مايسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول العاصى للمطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة ، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار :

سوف ترى إذا انجلى الغبار ٭ أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة ، وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة التى لا يثبت عليها إلا الأقلون ؛ فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا لا يقع فجأة ، فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت ، وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار ؛ فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك المعاصى ، فإذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك ، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فمتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبتة ؛ فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ولا يغرنك لفظ الإيمان ، فنقول: المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن ، فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هى أصل ؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع ،

ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد : وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها ، فإن هى لم تعمل عملها الذى تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ، ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الأخبار فى كتاب العلم .

بيان أن وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان . إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين ، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما الآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وإلف لامحالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئا فشيئا على التدريج ، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿ لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ، ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى ، وليس فى الوجود آدمى إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل إنسان نبيا كان أو غبيا ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام ، وقد قيل :

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها   سجية نفس ، كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الإلهية التى لا مطمع فى تبديلها ، فإذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره ، فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا مالم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه ، وكل هذا رجوع وتوبة . فدل على أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم ، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو

أنّ كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه ، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد فى القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ؟ فإن خلا فى بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقه المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصوّر الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير ، فأما الأصل فلا بدّ منه ، ولهذا قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة (١) » الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ .

فإن قلت : لايخفى أن مايطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأنّ الكمال فى الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وإنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأنّ الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لافرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة فى كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب فى الشرع : فما المراد بقولك : التوبة واجبة فى كل حال ؟ فاعلم انه قد سبق أنّ الإنسان لايخلو فى مبدإ خلقته من اتباع الشهوات أصلا ، وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك مامضى ، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة ، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس فى وجهه المرآة عند تراكمه خبثا ، كما قال تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ، ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل ، بل لابد من محو تلك الاريان التى انطبعت فى القلب ، كما لايكفى فى ظهور الصور فى المرآة قطع الانفاس والبخارت المسودة لوجهها فى المستقبل مالم يشتغل بمحوما انطبع فيها من الاريان ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات ، فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » ، فإذن لايستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ؛ هذا فى قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة ؛ فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ؛ إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدإ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة ؛ فهذه أشغال طويلة لاتنقطع أصلا ، وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك : إن هذا لايسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أنّ الواجب له معنيان : أحدهما مايدخل فى فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ، ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى ، بل شغل الحياكة

---

(١) حديث « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » أخرجه مسلم من حديث الأغر المزنى ، إلاأنه قال « فى اليوم مائة مرة » وكذا عند أبى داود ، وللبخارى من حديث أبى هريرة « إنى لأستغفرالله فى اليوم أكثر من سبعين مرة » وفى رواية البيهقى فى الشعب « سبعين » لم يقل « أكثر » وتقدم فى الأذكار والدعوات (٢) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر بزيادة فى أوله وآخره وقال حسن صحيح ، وقد تقدم فى رياضة النفس .

والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار ، والواجب الثانى هو الذى لابدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين ، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة فى الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة فى صلاة التطوّع أى لمن يريدها . فإنه لايتوصل إليه إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها ، كما يقال : العين والأذن واليد والرجل شرط فى وجود الإنسان ، يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا ، فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل ، فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذى حدث فقال : توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض ، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا فى فتاوى العامة ؟ أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه [1] وشغله شراك نعله الذى جدّده حتى أعاد الشراك الخلق [2] لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده ، فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ؟ أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر ؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه ؟ فلم تاب عن شرابه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر فى صدره عرّفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصدّيقون ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله ، وإياك مرة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى فى كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدّ ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد ، وأى جواهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا ، وإن صرفتها إلى معصية

---

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الثوب الذى كان عليه فى الصلاة : تقدم فى الصلاة أيضاً (٢) حديث نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق : تقدم فى الصلاة أيضاً .

فقد هلكت هلاكا فاحشا . فإن كنت لا تبكى على هذه المعصية فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة ، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه بقى من عمرك ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا ، وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين مايشتهون ﴾ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ﴾ فقيل : الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد ياملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى ، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : فأخرنى ساعة فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شراسفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال ، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ، ولمثل هذا يقال ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ وقوله ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه : يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو (الثانى) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد فى الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسويف[1] » فما هلك من هلك إلا بالتسويف . فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر .

قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام : (أحدهما) إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقانى . (والثانى) عند خروج روحه يقول : عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء ، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ أوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ .

---

(١) حديث « إن أكثر صياح أهل النار من التسويف » لم أجد له أصلا .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة ، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون فى جواره ، وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة ، فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول ، فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذى لا مرد له ، وهو المسمى فلاحا فى قوله ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما ، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه ، إذ بقلبه يعرف غير قلبه ، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه ، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به ، فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية ، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به ، وقد قال تعالى ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم ... الحديث » ، والفرح وراء القبول ، فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل إلى النهار ولمسىء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها[1] » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم[2] » ، وقال أيضا « إن العبد ليذنب

---

(١) حديث « إن الله يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل إلى النهار ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبى موسى بلفظ « يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ... الحديث » وفى رواية الطبرانى « لمسىء الليل أن يتوب بالنهار . الحديث » (٢) حديث « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة وإسناده حسن بلفظ « لو أخطأتم » وقال « ثم تبتم » .

الذنب فيدخل به الجنة ، فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائبا منه فارًا حتى يدخل الجنة[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة[٢] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

ويروى « أن حبشيا قال : يارسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة ؟ قال « نعم » فولى ثم رجع فقال : يارسول الله أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال « نعم » فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه[٣] » .

ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه[٤] .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ[٥] » والأخبار فى هذا لاتحصى .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى ﴿ إنه كان للأوابين غفوراً ﴾ فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم ، وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم .

وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه فى أم الكتاب .

ويروى أن نبيا من أنبياء بنى إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه : وعزتى لئن عدت لأعذبنك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمنى لأعودن فعصمه الله تعالى .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس : ليتنى لم أوقعه فى الذنب .

وقال حبيب بن ثابت : تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول . أما إنى قد كنت مشفقا منه ، : فيغفر له .

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان ؛ فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم : تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ﴿ إن ينتهوا

---

(١) حديث « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ، ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة « إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه ، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له .. الحديث » وفيه صالح المرى ، وهو رجل صالح لكنه مضعف فى الحديث . ولابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عمر « إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » والحديث غير محفوظ ، قاله العقيلى (٢) حديث « كفارة الذنب الندامة » أخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس ، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكرى ضعيف .

(٣) حديث : أن حبشيا قال يارسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة قال « نعم » الحديث لم أجد له أصلا

(٤) حديث « إن الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم القيامة فقال: وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد أن الشيطان قال : وعزتك يارب لاأزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى ، أورده المصنف بصيغة : ويروى كذا ولم يعزه الى النبى صلى الله عليه ، فذكرته احتياطا (٥) حديث « ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » لم أجده بهذا اللفظ ، وهو صحيح المعنى ، وهو بمعنى « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذى وتقدم قريبا .

يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ، ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل أو كتاب منزل ، إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين .

قال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل : ومتى ؟ قال : إذا تاب على .

وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة ، أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة .

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا : أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا ، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكم ، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة ، فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة .

فإن قلت : أفتقول ما قالته المعتزلة من أنّ قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله : إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش ، وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش ، وأنه إذا دام العطش وجب الموت ، وليس فى شىء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى ، بل أقول : خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى ، ولكن ماسبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة

فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته ، والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه ؟ فأقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة ، فإنّ للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشكه فى حصول شروط الإسهال فى الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته ، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك فى قبولها لا محالة على ما سيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى ،

الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أنّ التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا ، فمعرفة الذنوب إذن واجبة ، والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أوفعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ، ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته .

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أنّ للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله ، ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفه ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران فى السكنجبين آثارا مختلفة ، فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدّوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى كما استقصيناه فى ربع المهلكات (الثانية) هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال . (الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . (الرابعة) الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرّع عنها جمل من الذنوب ، وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة ، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أوّلا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر والحيلة وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق . فهذهأمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضهاعلىالبطن والفرج ، وبعضها علىاليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

قسمة ثانية : أعلم أنّ الذنوب تقسم إلى مابين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به ومايتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير ، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعه والترغيب فى المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب ، وقد جاء فى الخبر ، الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لايغفر ، وديوان لا يترك : فالديوان الذى يغفر . ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى : وأما الديوان الذى لايغفر : **فالشرك**

بالله تعالى . وأما الديوان الذى لا يترك . فظالم العباد [١] ، أى لابد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها .

قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهى كبيرة ، وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر [٢] » وفى لفظ آخر « كفارات لما بينهن إلا الكبائر » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص « الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس [٣] » واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود : هن أربع . وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو : هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع ، يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع ، وقال مرة : كل مانهى الله عنه فهو كبيرة : وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة ، وقيل : إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة ؛ وقال ابن مسعود لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ فكل مانهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى : الكبائر سبع عشر جمعتها من جملة الأخبار [٤] ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر

---

(١) حديث « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وفيه صدقة بن موسى الدقيق ضعفه ابن معين وغيره ، وله شاهد من حديث سلمان ، رواه الطبرانى . (٢) حديث « الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر » رواه مسلم من حديث أبى هريرة . (٣) حديث عبد الله بن عمرو « الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس » رواه البخارى .

(٤) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبى طالب المكى أنه قال : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم . الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره ، وشهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس ، والسحر ، وشرب الخمر والمسكر ، وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا ، والزنا ، واللواط ، والقتل ، والسرقة ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . انتهى . وسأذكر ما ورد منها مرفوعا ، وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : يارسول الله وماهى ؟ قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات » ولهما من حديث أبى بكرة « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ـ أو قال قول الزور ـ » ولهما من حديث أنس : سئل عن الكبائر قال « الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين » وقال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور ، أو قال شهادة الزور » ولهما من حديث ابن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم : قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قلت ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » . وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس : « إنما هى أربع : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وفى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر » وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو « أعظم الكبائر شرب الخمر » وكلاهما ضعيف . وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن : أن رجلا قال يارسول الله ما الكبائر ؟ قال « الشرك بالله ، والإياس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله » وله من حديث بريدة « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضل الماء ومنع الفحل » وفيه صالح ابن حبان ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما ، وله من حديث أبى هريرة « الكبائر أولهن الاشراك بالله » وفيه « والانتقال الى الأعراب بعد هجرته » وفيه خالد بن يوسف السمتى ضعيف وللطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن أبى حثمة فى الكبائر « والتعرب بعد الهجرة » وفيه ابن لهيعة ، وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى « الكبائر سبع » وفيه « والرجوع الى الأعرابية بعد الهجرة » وفيه أبو بلال الأشعرى ضعفه الدارقطنى ، وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه « الكبائر تسع » فذكر منها

وغيرهم : أربعة فى القلب وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع فى اللسان ، وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس ـ وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواكا من أراك . وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار . والسحر : وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث فى البطن : وهى شرب الخمر والسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم واثنتان فى الفرج وهما : الزنا واللواط . واثنتان فى اليدين وهما : القتل والسرقة وواحدة فى الرجلين : وهى الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد وهى عقوق الوالدين ، قال : وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما ، وأن يسباه فيضربهما ، ويجوعان فلا يطعمهما : هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه ، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهى جناية على الأموال ، ولم يذكر فى كبائر النفوس إلا القتل ، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك فى أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفى الخبر « من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم [1] » وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر [2] . وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة

= واستحلال البيت الحرام » والطبرانى من حديث واثلة « إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل » وله أيضا من حديثه « إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده » ولمسلم من حديث جابر « بين الرجل وبين الشرك ـ أو الكفر ترك الصلاة » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « من الكبائر شتم الرجل والديه » ولأبى داود من حديث سعيد بن زيد « من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق » وفى الصحيحين من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وإنه لكبير ، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » الحديث ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » الحديث ولأبى داود والترمذى من حديث أنس « عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها » سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبى شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس « لا صغيرة مع إصرار » وفيه أبو شيبة الخراسانى والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله . وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال : الكبائر الإشراك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله ، وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، والسحر ، والزنا ، واليمين الغموس الفاجرة ، والغلول ، ومنع الزكاة . وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة وشرب الخمر ، وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ، ونقض العهد ، وقطيعة الرحم . وروى ابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عباس : كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة ، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله : لا صغيرة مع الإصرار ، وإسناده جيد ؛ فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون ، إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم ، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد فى المرفوع وما ورد فى الموقوف . وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له : الكبائر سبع ، فقال : هى إلى السبعين أقرب . وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال : كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

(١) حديث « من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم » عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد ، والذى عندهما من حديثه « من أربى الربا استطالة الرجل فى عرض المسلم بغير حق » كما تقدم . (٢) حديث أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر . أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال « من الموبقات » بدل الكبائر . ورواه البخارى من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال . صحيح الإسناد .

أم لا : لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة ، والمراد بها كقول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ ولا مطمع فى تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة ؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع ، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونعنى بوصفه بالكبيرة : أن العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ما عجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد فى نص الكتاب النهى عنه فيقول : تخصيصه بالذكر فى القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على شىء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فإن هذا إثبات حكم الكبائر . والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم إنها معدودة فى الصغائر ، وإلى ما يشك فيه ، فلا يدرى حكمه ، فالطمع فى معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : إنى أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها فإن لم يرد هذا ـ بل ورد فى بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر[1] » وفى بعضها « سبع من الكبائر[2] » ثم ورد « أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر » ، وهو خارج عن السبع والثلاث : علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر ، فكيف يطمع فى عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها ، نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصد الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه ، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أى ليكونوا عبيد لى ، ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ، ولكن لا يتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة[3] » فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال ، فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسد باب حياة النفوس ويليه باب ما يسد المعايش التى بها حياة الناس ، فهذه ثلاث مراتب ، فحفظ

---

(١) حديث « ثلاث من الكبائر » أخرجه الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاث ـ الحديث » وقد تقدم . (٢) حديث « سبع من الكبائر » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد « الكبائر سبع » ولد تقدم وله فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر « من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ... الحديث » ثم عدهن سبعا . وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » . (٣) حديث « الدنيا مزرعة الآخرة » لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ، الحديث » وإسناده ضعيف .

المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل ، فلا يجوز أنّ الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال ، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : (الأولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر ، فلا كبيرة فوق الكفر ، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل ، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة ، وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله ، ويتلو الجهل الذى يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته ، فإن هذا أيضا عين الجهل ، فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ، ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشدّ من بعض ، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر ، وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرآن ، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطمع . (المرتبة الثانية) النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر ، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود ، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها ، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح ، وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل وينبغى أن يكون أشدّ من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته . (المرتبة الثالثة) الأموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما ، بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها . نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهى السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك . الثانى : أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولى والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشدّ من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس : وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع

فى مثله ، وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة ، والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر ، وذلك واقع فى مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين ، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ، وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا ، لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة ، بل لا خير فى النفس دون العقل ، فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لايجرى فى قطرة من الخمر ، فلاشك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر ، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس ، والقطرة وحدها فى محل الشك ، وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، ولا فللتوقف فيه مجال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الرتبة ، ولتناولها مراتب ، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره ، وأظن ظنا غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل مايجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لاتكفره الصلوات الخمس ، وهو الذى نريده بالكبيرة الآن ، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته ، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته ، فإن لم تقبل شهادته لحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات ، فإذن هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أوظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف ، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شىء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم ، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر - إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ماقيل فيه - فالتوقف فى هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعنى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات بحكم الشرع . وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ماينبغى أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه ، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة ، وإذن لامطمع فيه - فطلب رفع الشك فيه محال .

* فإن قلت . فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها ، فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده ؟ فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هى دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة ، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما ، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس ، وكذلك اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس ، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه ؛ فهذا معنى تكفيره ، فإن كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا ، وكل من يشتهى الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التى هى مقدماته كسماع الملاهى والأوتار ، نعم من يشتهى الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها فى السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع ، فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع ، بل ورد بألفاظ مختلفات ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث : إشراك بالله ، وترك السنة ، ونكث الصفقة [1] » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة . ونكث الصفقة : أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله ، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما .

* فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ! فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر ، فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب فى أوانى الذهب والفضة لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعى رضى الله عنه : إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة ، فدل على أن الشهادة نفيا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر ، بل كل الذنوب تقدح فى العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات . كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات . وليس لبس الحرير وسماع الملاهى واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة ، ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة ، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم ، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة ، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

(١) حديث « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة ... الحديث أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد .

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت ، وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك ، يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة ، فإنا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت ، ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال ، ولذلك قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا (١) » وما سيكون فى اليقظة لايتبين لك فى النوم إلا بالأمثال المحوجة إلى التعبير ، فكذلك ماسيكون فى يقظة الآخرة لايتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال ، وأعنى بكثرة الأمثال مانعرفه من علم التعبير ، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة .

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال : إنك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل طلوع الفجر ، قال : صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون ، فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت فى صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل ، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر رأيت كأنى أقلد الدر فى أعناق الخنازير ، فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال ، وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا ، وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا : فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط ، وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذى يراد الختم له ، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شىء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وعرفوا أن المثل صادق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) » وهو من المثال الذى لايعقله إلا العالمون ، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير مايرى من الأمثلة فى النوم تعبيراً فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً ـ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته (٣) » ، فإنه لايفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ــ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . من ههنا زل من زل فى صفات إلهية حتى فى الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول ، وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده ، كقوله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح (٤) » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : ياسبحان الله ، الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما ؟ وهل هذا إلا

(١) حديث « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » لم أجده مرفوعا ، وإنما يعزى الى على بن أبى طالب .
(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » تقدم (٣) حديث « ان الله خلق آدم على صورته » تقدم .
(٤) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح ... » الحديث متفق عليه من حديث أبى سعيد .

محال ، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسراره فقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ولا يدرى المسكين أن من قال رأيت فى منامى أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد وذبح فقال المعبر: صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذن المعبر صادق فى تصديقه وهو صادق فى رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذى يطلع الأرواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ عرّفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له ، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا ؛ فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس فى الدنيا وهى بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقوله « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كن فيكون ﴾ عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقليب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى « كتاب قواعد العقائد » من ربع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض ، فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلنفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته . فنقول : الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له . وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس . فنقول : الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون ، فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له فى أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ، ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم فى المعاندة ، وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر ، فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون ، فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل فى دار السلامة ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحلون فى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس ، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر (١) ، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم ، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى ، فلنذكر كيفية توزعها عليها .

---

(١) حديث « ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

(الرتبة الأولى) وهى رتبة الهالكين ونعنى بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معانى المثال ، وهذه الدرجة لاتكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه ، فإن السعادة الأخروية فى القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التى يعبر عنها بالإيمان والتصديق ، والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب من محبوبه فحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ، ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره ، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا ، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فعدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما فى قلبه ، وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها فى الحال لأن الغضب نار فى القلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار [1] » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام ، فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبى لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال : العدو فى الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا . ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا ، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لايناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب ، وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان ، وليس لكل إنسان قلب ؛ ولو كان لما صح قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر ، واللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء

(١) حديث « الغضب قطعة من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه ، وقد تقدم .

عالمه وبملكته ، ولله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه ﴿قل الروح من أمر ربى﴾ هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق ، وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ؛ من عرفها فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إنّ الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين فى طريق تأويله . وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر ، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وحكمته يختص بها من يشاء ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب ، فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليس إلاللجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاتدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها .

(الرتبة الثانية) رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه ، فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد : وهو أن لايعبد إلا الله ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ولما كان الصراط المستقيم الذى لايكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف فى الآخرة . فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قادح فى كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم ، فذلك يقتضى لامحالة نقصانا فى درجات القرب ، ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ؛ فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين ، أحدهما : قوة الإيمان وضعفه ، والثانى : كثرة اتباع الهوى وقلته ، وإذ لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى ﴿ وإنّ منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا فى النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان [1] قال الحسن : ياليتنى كنت ذلك الرجل . واعلم أن فى الأخبار مايدل على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأنّ الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ثم يعفو ؛ وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع ، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد

(١) حديث « من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان » أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى من أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

والأنف والأذن وغيره ؛ فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع ، وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدّة العذاب فبشدّة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها ، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات ؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ۞ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال ، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه ، وجانب العفو والرحمة أرجح ؛ إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتى غضبى [1] » ، وقال تعالى ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ فإذن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض - أعنى الأركان الخمسة - ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط ، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته ، إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفرا للصغائر ، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب ، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه ، فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان وبعد الفراغ من الحساب فى عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله فى جنات عدن أو فى الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدى كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه . وإيمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه ، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى فى الأزل ؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازلة ؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فمن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين ، وهم أيضا على درجات ؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها — أعنى الأركان الخمسة التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام ، فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلا ، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال

---

(١) حديث « سبقت رحمتى غضبى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

بأدنى شك وخيال ، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يغفر الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة فى الحساب ، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين ؛ ففى الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف »⁽¹⁾ ، فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام ، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين ؛ فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال، بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار ؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الأخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها ؛ فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته ، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيته عشرة أمثاله ، كان صادقا ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون ؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به الصبى بل القروى والبدوى ويقول: ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب فى قوله : إنى أعطيته عشرة أمثاله، والكاذب بالتحقيق هو الصبى ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة فى السموات »⁽²⁾ ، كما ورد فى الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة ، وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذ بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ، وغنى قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل »⁽³⁾ ، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل »⁽⁴⁾ ، فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن ؛ فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر »⁽⁵⁾ ، فإذن لا تخلو الأنبياء

---

(1) حديث « ان آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(2) حديث كون الجنة فى السموات : أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن » (3) حديث « ارحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ... الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس ، وعيسى ضعيف ، ورواه فيه من حديث ابن عباس الا أنه قال « عالم تلاعب به الصبيان » وفيه أبو البخترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين . (4) حديث « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكر الأولياء والطبرانى من حديث فاطمة « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ... الحديث » . (5) حديث « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود.

عن الابتلاء بالجاحدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ؛ وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين ، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام « إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات » وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهى عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم ؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله ، إذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس ، وكل من نسى الله أنساه الله ـ لامحالة ـ نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الفانى وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ﴾ فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال ؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ، ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا فى عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدى الغانمين عن ماله ، ومدة الرقبة والمال مدة الحياة ، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان ، وإنما ينفع الصدق فى التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه ، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل ، وهذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال . ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان [1] » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة ، والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود ، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك ، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها ، ففى الأثر « إن العبد

(١) حديث « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان » الحديث تقدم .

ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لاتبقى له حسنة ، فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير ، فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار ، وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال : لاأفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى أريد أن أزين بها صحيفتى ، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لامحالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال ، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لايشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لايطلع عليه ، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم ، إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة لها أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التى لايطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ؛ فإن الاعتماد على التقوى والتقوى فى القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لاعفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ولا قوله تعالى ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة ﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ماسعى ، وسعيه هو الذى يرى ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر ، إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لايمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

(الرتبة الثالثة) رتبة الناجين ، وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف ، وحلول طائفة من الخلق [1] فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف : أخرجه البزار من حديث أبى سعيد الخدرى : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال « هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، وهم على سور بين الجنة والنار ... الحديث » وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبرانى من رواية =

أنوار الاعتبار ، فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم ؛ فهذا مظنون وليس بمستيقن ؛ والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة ؛ ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ، والأخبار فى حق الصبيان أيضا متعارضة . حتى قالت عائشة رضى الله عنها لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « وما يدريك » [1] فإذن الإشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام .

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين ، وهم المقربون السابقون ؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان ، والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان ، والذى لايمكن التعبير عنه فى هذا العالم فهو الذى أجمله قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقوله عز وجل « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لايتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فإنهم لايحرصون عليها ولو اعطوها لم يقنعوا بها ، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهى غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك فى الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لايحس بما يصيبه فى بدنه ، ويعبر على هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لانفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لايتصور أن

= أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا ، وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ، ويحيى بن شبل لايعرف . وللحاكم عن حذيفة قال : « أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ... الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الثعلبى عن ابن عباس قال : الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر ... الحديث ، هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين .

(١) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال « مايدريك » رواه مسلم ، قال المصنف : والأخبار فى حق الصبيان متعارضة . قلت : روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه « وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة » فقيل : يارسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال وأولاد المشركين » وللطبرانى من حديثه : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال « هم خدمة أهل الجنة » وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة ، وهو ضعيف يرويه عن عيسى ابن شعيب ، وقد ضعفه ابن حبان . وللنسائى من حديث الأسود بن سريع . كنا فى غزاة لنا .. الحديث فى قتل الذرية ، وفيه « ألا إن خياركم أبناء المشركين » ثم قال « لاتقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ... الحديث » وإسناده صحيح ، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » وفى رواية لأحمد « ليس مولود يولد إلا على هذه الملة » ولأبى داود فى آخر الحديث : يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وفى الصحيحين من حديث ابن عباس : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصارى : كانت يهودى إذا هلك لهم صبى صغير قالوا . هو صديق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كذبت يهود ، مامن نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ... الحديث » وفيه عبدالله بن لهيعة ، ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة فى النار » وله من حديث عائشة : قلت يارسول الله ذرارى المؤمنين ؟ فقال « مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : فذرارى المشركين؟ قال « مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وللطبرانى من حديث خديجة : قلت يارسول الله أين أطفالى منك ؟ قال « فى الجنة » قلت: بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : أطفالى قبلك ؟ قال « فى النار » قلت : بلا عمل ؟ قال « لقد علم الله ما كانوا عاملين » وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة . وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين « هم من آبائهم » وفى رواية « هم منهم »

تخطر في هذا العالم على قلب بشر ، كما لايتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه ، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره ، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه .

بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولايتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأعمال أدومها وإن قل [١] » والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يزنى الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لايؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة فإن القلب لايتأثر بما يجرى في الغفلة ، وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره [٢] » وقال بعضهم : الذنب الذى لايغفر قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لاتنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لاصغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : إنكم لتعملون أعمالا هى في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه ،

---

(١) حديث « خير الأعمال أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحب » وقد تقدم .

(٢) حديث « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ... الحديث » أخرجه البخارى . من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله ابن مسعود حديثين : أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والآخر عن نفسه ، فذكر هذا وحديث « لله أفرح بتوبة العبد » ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهقى في الشعب من هذا .

كما يقول : أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ، ويقول المناظر فى مناظرته : أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما ، فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ، وفى الخبر « كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لاتذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ، ولذلك قال تعالى ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لايقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آماد متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لاينقص من أوزارهم شيئاً (٢) » قال تعالى ﴿ ونكتب ماقدموا وآثارهم ﴾ والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل . وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق . وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الإسرائيليات : أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الإصلاح دهرا ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا ، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين

---

(١) حديث « كل الناس معافى إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « كل أمتى » وقد تقدم

(٢) حديث « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم فى آداب الكسب .

وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب فى جميع ذلك ، لحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران ، وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها .

الركن الثالث : فى تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط فلا بدّ من بيانها : أما العلم فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شىء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لطال فى الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار ، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفى الخبر « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة (١) » ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفى الإسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ـ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال ـ وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه .

فإن قلت : فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت : لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة ، بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى الموت وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل بما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار فى كل ذنب . وأما القصد الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال ؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال . وله تعلق بالماضى ؛ وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت .

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من

(١) حديث « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة » لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال « جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب » وقال أيضا « فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب » وقال أيضا « التائب أسرع دمعة وأرق قلبا » .

عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها ؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها فى ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهلة بشرط النية فيقضيها عن آخرها ، فإن شك فى عدد مافاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقى وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسى النية بالليل ولم يقض ؛ فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشتغل بقضائه .

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه - لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة فى مال الصبى - فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته ، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية اوأخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزيه أصلا ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

وأما الحج فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات مايحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا »(١) ، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغيره ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها »(٢) ، بل من قوله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه ، وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هى المتناسبات فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة

---

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا ... الحديث » تقدم فى الحج (٢) حديث « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله فى آداب الكسب وبعضه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس .

به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا فى المحو فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهموم [١] » وفى لفظ آخر « إلا الهم بطلب المعيشة » وفى حديث عائشة رضى الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه [٢] » ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لايعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع .

فإن قلت : هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام فى السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال : فماله عند الله ؟ قال : أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا ، فمايتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها ، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار مايعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب ـ لأن تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إيجاد لايقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ماذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه مالم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما فى النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو فى عهدة ذلك قبل الوصول . وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولى الدم ويحكمه فى روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لايلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين ، فإن أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ماروى أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ! فرده فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إنى قد زنيت ! فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به

---

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهموم » وفى لفظ آخر « إلا الهم فى طلب المعيشة » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف تقدم فى النكاح .

(٢) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم » وتقدم أيضا فى النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ « ابتلاه الله بالحزن » .

فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم (١) » وجاءت الغامدية فقالت : يارسول الله إنى قد زنيت فطهرنى ! فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا ، فوالله إنى لحبلى : فقال صلى الله عليه وسلم « أما الآن فاذهبي حتى تضعى » فلما ولدت أتت بالصبي فى خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه » فلما فطمته أتت بالصبي وفى يده كسرة خبز فقالت : يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها لحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال « مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت . (٢) »

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده ، فإن ما يجب فى مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولى قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالباً به ، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبي والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب فى القيامة ، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه ، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحدا وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره . فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف ؟ وربما يكون الأجل قريبا ؟ فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته .

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام .

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم فى الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أوغاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة ، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

---

(١) حديث : اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله « لقد تاب توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم « لقد تابت توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذى قبله .

وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي ، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته ، فإن كان في جملة جنايته على الغير مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب .

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال ، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته ، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في اذاه ، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه ، كمن أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى ، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين . وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا مابين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة (١) » وفي رواية « فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها » وفي رواية « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » فبهذا تعرف أنه لاخلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه ،

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض .. الحديث » هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

فإن رأس المعاصى أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولايكتفى بالحلال وترك الشبهات من لايقدر على ترك الشهوات فى المأكولات والملبوسات ؟ وقد قال بعضهم من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر . من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم مايجب عليه فى المستقبل ومايحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا ، وليست هذه توبة مطلقة

وقد قال بعض الناس إنّ هذه التوبة لاتصح ، وقال قائلون تصح ، ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل ، بل نقول لمن قال لاتصح : إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بلا وجوده كعدمه فما أعظم خطأك ! فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ ! بل النجاة والفوز بترك الجميع . هذا حكم الظاهر ولسنانتكلم فى خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لاتصح إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم . وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية فإنّ العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لأنّ توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض ؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصى دون البعض ، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولايتصور الندم على بعض المتماثلات ، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لايصح أى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك ، وتحقيق هذا أنّ ثمرة مجرّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ماتركه وثمرة الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لايكفر السرقة بل الندم عليها ولايتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى ، وهوكلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء .

فنقول : التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لانه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته ، والصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها فلايستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه ، كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه ويجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقرا للجناية على الدابة ، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى . وهذا ممكن وجوده فى الشرع فقد كثر التائبون فى الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ، ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لايظهر ضرر السكر أصلا ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر .

الثانى : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشدوأغلظ عند

الله ، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لايترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه ، فهذا أيضاً ممكن كما فى تفاوت الكبائر والصغائر ، لأنّ الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لاتتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أنّ الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لايدرى فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذى يتوب عن الغيبة أوعن النظر إلى غير المحرم أو مايجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه مامن مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لايكون مليا بتحريك العزم ولاقويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ماهو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشتدضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قدبلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ؟ بل يقول هذا الفاسق فى نفسه : إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى فلاينبغى أن أخلع العذاروأرخى العنان بالكلية بل أجاهده فى بعض المعاصى ، فعسانى أغلبه فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى . ولولم يتصور هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلى ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى مالم تتقرب بترك الفسق؛ وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان ، وأنا ملى فى أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ماعجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لايتصوّر هذا وهو حال كل مسلم ؟ إذ لامسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولاسبب له إلاهذا ، وإذا فهم هذا فهم أنّ غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لاذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها ، وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل إنّ التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة فى حق الشهوة وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما فى اقتضاء السخط ، ويتوب عن الكثير دون القليل لأنّ لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى ، كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لايستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لايمكن أن يتوب عن شىء ولايتوب عن مثله بل لابدّ وأن يكون ماتاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما فى شدّة المعصية وإما فى غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله فى الخوف والندم ، فيتصوّر اختلاف حاله فى الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهى .

فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا ، لأنّ التوبة عبارة عن ندم

يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، ومالا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لابتركه إياه ، ولكنى أقول لوطرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإنى أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته ، إذ لاخلاف فى أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أنّ ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لوظهر قصده ، فإذن لايستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لايعرفه من نفسه ، فإن كل من لايشتهى شيئا يقدّر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف ، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه ، بل الظاهر أنه يقبله .

والحقيقة فى هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين ، أحدهما : حرقة الندم . والآخر : شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل . وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لاتقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما لايدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا .

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى : إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد : وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل لأنه لوفتر فى توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لايخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة .

والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان (إحداهما) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ؛ وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا . وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل : العنين أفضل من الفحل لأنه فى أمن من خطر الشهوة ، والصبى أفضل من البالغ لأنه أسلم ، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لاعدو له والملك ربما يغلب مرّة وإن غلب مرّات ، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز فى الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل كقول القائل : الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه ، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديبها أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل : ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود

الجهاد فإن الجهاد كان مقصودا لعينه ، بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت فى المجاهدة فأنت بعد فى طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم . ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، ولقد زل فى هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال : هذا محال ، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل فى اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات .

فإن قلت : فما قولك فى تائبين أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينه ولايزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذنبين عندنا على حق ولكن بالإضافة إلى حالين .

وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره ، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك فى أصل الهداية ؟

فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدىء ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك ، فإن ظهر له مبادىء الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال . بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر فى عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل ، ولو جلس على شاطىء البحر بعد عبوره يبكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاءه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لايعود إلى مثله ، فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه ، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك — وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم وفى ربع المهلكات — بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته ، ولكن إن كان شابا فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لانظير له فى الدنيا .

فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة ،فالمبتدى أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك . ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام ، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس فى غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع امهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم ، فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إنى لا أنسى ولكنى أنسى لأشرع [1] » وفى لفظ « إنما أسهو لأسن » . ولا تعجب من هذا فإن الأمم فى كنف شفقة الأنبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء ، وكالمواشى فى كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ [2] » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه ؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فإنها حرام ، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته . بل الذى يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا فى تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك مافرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التى لاينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التى ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا [3] » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات . فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملى بمجاهدتها وردها . ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع . وكذلك يختلفون من حيث طول العمر : فمن مختطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة . ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء : إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى ، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لاينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع فى الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن

---

(١) حديث « أما إنى لا أنسى ولكن أنسى لأشرع » ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر لايوجد فى الموطأ إلا مرسلا لاإسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطى : وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا

(٢) حديث أنه قال للحسن « كخ كخ » لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه : أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث « سبق المفردون المستهترون بذكر الله .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم .

اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته فى الابتداء .

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هى النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب احوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب [1] » وفى خبر آخر « المؤمن كالسنبلة يفىء أحيانا ويميل أحيانا [2] » وفى الخبر « لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة [3] » أى الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه . بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبى صلى الله عليه وسلم « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون [4] » ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ فما وصفهم بعدم السيئة أصلا .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوات فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها ، هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى

---

(١) حديث على « خياركم كل مفتن تواب » أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٢) حديث « المؤمن كالسنبلة تفىء أحيانا وتميل أحيانا » أخرجه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا « تقوم » بدل « تفىء » وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس .

(٣) حديث « لابد المؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أخرجه الطبراني والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون » أخرجه الترمذى واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال « التوابون » بدل « المستغفرون » قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى (٥) حديث « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا « فسعيدهم » بدل « فخيرهم »

فى قهرها ، لكنه تسوّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى : النفس المسوّلة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه ، وإذا يسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس ، فكما لايصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الارباب . ولذلك قال تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم « إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها »[1] ، فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو خاتمة ماقبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ، فليراقب الأنفاس وإلا وقع فى المحذور ودامت الحسرات حين لاينفع التحسر .

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين ، وهذه النفس هى : النفس الأمارة بالسوء ، الفرارة من الخير ؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده ، وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له ، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم . وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب يعدّ عنه ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين ـ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ـ فكذلك من ينتظر

---

(١) حديث « ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله « سبعين سنة » ولمسلم من حديث أبى هريرة « ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ... الحديث » ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة » وشهر مختلف فيه .

المغفرة من فضل الى تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين . والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة إذ يقول : إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتى ليست تضره ، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك ، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول : ماهذا الهوس ! السماء لاتمطر ذهبا ولافضة وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولاتبديل لسنة الله ، ولايعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لاتبديل لها فيهما جميعا ، وأنه قد أخبر إذ قال ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا ؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا ؟ وينسى قوله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس فى ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ﴾ أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ وأن ليس الإنسان إلا ما سعى ﴾ فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعى الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب .

بيان ما ينبغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب
إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه ، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد ، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات .

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : رب ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى ذنوبى ، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار - كما أوردناه فى كتاب الدعوات والأذكار .

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات . وفى الآثار مايدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا ؛ أربعة من أعمال القلوب وهى : التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهى : أن تصلى عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده ، مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم

يوما ، وفى بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين [١] وفى بعض الأخبار : تصلى أربع ركعات [٢] وفى الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية [٣] » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفى الخبر الصحيح « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم « أو ماصليت معنا صلاة الغداة » قال : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات [٤] » وهذا يدل على أنّ مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » ، فعلى الأحوال كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الخبر « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله [٥] » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ! فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ـ ذكرناها فى كتاب الأذكار والدعوات ـ حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقى الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا [٦] فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله ، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة [٧] »

---

(١) أثر « إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه « مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » ، لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا ولعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابى

(٢) حديث : التكفير بصلاة أربع ركعات : أخرجه ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ... الحديث وفيه : فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « صل أربع ركعات » فأنزل الله عزوجل (وأقم الصلاة طرفى النهار) الآية وإسناده جيد .

(٣) حديث « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ « وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ... الحديث » (٤) حديث : أن رجلا قال يارسول الله إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس ... الحديث فى نزول (إن الحسنات يذهبن السيئات) متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ماصليت معنا صلاة الغداة » ورواه مسلم من حديث أنس وفيه « هل حضرت معنا الصلاة » قال : نعم ، ومن حديث أبى أمامة وفيه « ثم شهدت الصلاة معنا » قال : نعم ... الحديث (٥) حديث « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله » أخرجه ابن أبى الدنيا فى التوبة ومن طريقه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « كالمستهزئ بربه » وسنده ضعيف .

(٦) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية « كان لنا أمانان ذهب أحدهما » أخرجه أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه « أنزل الله على أمانين ... الحديث » وضعفه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس (٧) حديث « ما أصر من استغفر ... الحديث » تقدم فى الدعوات .

وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لابدّ للعبد فى كل حال من مولاه ، فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء فإن عصى قال يارب استر على ، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب على ، فإذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة ، وإذا عمل قال يارب تقبل منى وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال : أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش . وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقال: إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر فى قوله تعالى ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية . وقال : الحبيب هو الذى لايدخل فيما يكرهه حبيبه .

والمقصود أن للتوبة ثمرتين (إحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لاذنب له (والثانية) نيل الدرجات حتى يصير حبيبا . وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات ـ وإن خلا عن حل عقدة الإصرار . من أوائل الدرجات ـ فليس يخلو عن الفائدة أصلا ، فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها أن قول الله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ صدق وأنه لاتخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لايرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لاتقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط وماوقع ذلك فى الثياب ؟ ولاتدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة . فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لاتضيع عند الله أصلا . بل أقول : الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل . فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوّده الذكر ولم يستعمله فى الشر ولم يعوّده الفضول . وماذكره حق فإن تعوّد الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى . فمن تعوّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا ؛ سبق لسانه إلى ماتعوّد فقال: استغفر الله . ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك ! ومن تعوّد الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان : نعوذ بالله ، وإذا تعوّد الفضول قال : لعنه الله ، فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى ، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ومعانى قوله تعالى ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه

أجرا عظيما ﴾ فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان ، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات ، وتضعيف الآخرة ﴿ أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ فإياك وأن تلمح فى الطاعات بمجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر ، فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب ؟ فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب ، فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه وأما الظالم المغرور : فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل : وافق شن طبقه وافقه فاعتنقه . وأما المقتصد : فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير . فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا ، والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا ، والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة . ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغى أن تفهم ذم مايذم وحمد مايحمد وإلا جهلت معنى ماقال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه ، وغضبه فى معاصيه فلا تحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله تعالى . وزاد : وخبأ إجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة [١] » ، وهذا عزيز نادر . والقسم الثانى : هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين ، وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لايحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لايقف على الداء ، إذ لامعنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله . ولا يبطل الشىء إلا بضده . ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع

---

(١) حديث « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى ﴿ وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار . فإن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما .

فإنْ قلت : أينفع كل علم لحل الإصرار أم لابد من علم مخصوص ؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه ، كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

(الاول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإنّ من لايؤمن به لايشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك . وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع ، وهذا لابدّ من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

(الثانى) أنه لابد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لايلبس ولا يكذب ، فإنّ إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه : العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل مايقوله حق وصدق لا كذب فيه ولاخلف .

(الثالث) أنه لابد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء . ووزانه من الدين : الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع مايلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذى هو الركن الآخر فى العلاج

(الرابع) أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل مايضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شىء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص . ووزانه من الدين : أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ؟ وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ماسبق منها .

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فالعاصى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم ، وإن كان لايدرى أنّ مايرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز مايضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغى أن يصبر إلى أن يسئل عنه ، بل ينبغى أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ماتركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كما أنّ الذى ظهر على وجهه برص

ولا مرآة معه لايعرف برصه مالم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة . وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فإنّ الخلق لايولدون إلا جهالا فلا بدّ من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ، والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لايحتمى أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل ؛ إحداها : أنّ المريض به لايدرى أنه مريض .

والثانية : أنّ عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال ؛ فقد الطبيب ، فإنّ الأطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لايظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا ، لأنّ الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء ، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ! وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ فى الأسماع وأخف على الطباع ، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله :

ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه . فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادى العلة . أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لاتطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية : فتكسر سورة إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال . وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت : يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب . فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذن فساد الأطباء هى المعضلة الزباء التى لاتقبل الدواء أصلا .

فإن قلت : فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق ؟ فاعلم أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع .

(الأول) أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار

مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ! ويقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ! فيقول الآخر : ياليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا [1] » وفى بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ماعلموا ! ويقول الآخر : ياليتهم إذلم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف : مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إنّ الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها [2] » وفى حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسدّ على القلب فذلك هو الطبع [3] » وقال الحسن : إنّ بين العبد وبين الله حدّا من المعاصى معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير .

والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه [4] .

(النوع الثانى) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ، ونودى من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لايجاورنى من عصانى . قال : فالتفت آدم إلى حوّاء باكيا وقال : هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما ، وقيل : لأنّ المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل ، وقيل : بل أحب بقلبه أن

---

(١) حديث « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ... الحديث » غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « إن لله ملكا ينادى فى كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده .. الحديث » وفيه « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذخلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ... الحديث » .

(٢) حديث عمر « الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات ... الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة » قلت هكذا قال المصنف : وفى حديث مجاهد ، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الإيمان للبيهقى من قول حذيفة (٤) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة أخرجه البخارى من حديث عمرو بن الحارث قال : ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة . ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا . وفى حديث أبى الدرداء : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم .. الحديث وقد تقدم فى العلم .

يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فإني سليمان بن داود شج وطرد وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية : أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين - أيام العقوبة - قال : فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال : لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذركم الآن إنّ هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه . وروى في الإسرائيليات : أنّ رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم . قال : فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني إسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام : بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدا فكأنه أعجبه ! قال : فوضعته الريح ، فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت : إنما نطيعك إذا أطعت الله . وروى أنّ الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال : لقولك لإخوته ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال : لا ، قال : لأنك رجوتني وقلت ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعا﴾ وبما قلت ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا ﴾ وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ قال الله تعالى ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار وورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ؟ نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشدّ وأكبر . فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

(النوع الثالث) أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله ، فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر ، كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه ، قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه [1] » وقال ابن مسعود : إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه ؛ وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا [2] » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا في الوجه ونقصا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة

---

(١) حديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال « الرجل » بدل « العبد » من حديث ثوبان (٢) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا » تقدم .

العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ، فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول : هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في الذنوب خوضا . وهو إشارة إلى أنّ الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ، ولذلك قال الفضيل : ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورّثتك ذلك . وقال بعضهم إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت : ياأبا عبدالله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار ! فغمز يدي وقال : لتجدنّ عقوبتها بعد حين ، قال : فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال : لايفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم [1] » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي [2] » . وحكي عن أبي عمرو بن علوان ـ في قصة يطول ذكرها ـ قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكري حتى تولد منه شهوة الرجال ، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلي فأشخصني من الرقة ، فلما أتيته قال لي : أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة ؟ .

واعلم أنه لايذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه فإن كانَ سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب مابعده صفته ، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه . وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

(النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد ، وكل ذلك مما لايمكن حصره ، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أوّلا بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها ، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصني يارسول الله ولا تكثر علي قال « لاتغضب [3] » ، وقال له آخر أوصني يارسول الله فقال

---

(١) حديث « ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم » أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هانئ . قلت : هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .
(٢) حديث « يقول الله إني أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي » غريب لم أجده .
(٣) حديث : قال رجل أوصني ولاتكثر علي قال « لاتغضب » تقدم .

عليك السلام « عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه »(١) ، وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى ، فقال : أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة قال : وكيف لى بذلك ؟ قال : الزم الزهد فى الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه ، وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ : أوصنى ، فقال : كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم ، أوصنى فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولا بدّ من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا فى ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنها : أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس »(٢) ، والسلام عليك . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها ؟ وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى . أما بعد، فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان .

فإن قلت : فإن كان الواعظ يتكلم فى جمع أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم وإلا على الأكثر ، فإن فى علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل .

ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبى سعيد الخدرى : أوصنى ، قال : عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن : أوصنى ، فقال : أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه : يابنى زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا ، وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه: يابنى لا تضحك من غير عجب ولا تمش فى غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت ، يابنى إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لأبى حازم : أوصنى ، فقال : كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة

(١) حديث قال له آخر : أوصنى قال « عليك باليأس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

(٢) حديث عائشة « من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ... الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وفى مسند الترمذى من لم يسم .

فالزمه وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام : أوصنى ، فقال : كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام : أوصنى ، فقال : اجتهد فى رضا خالقك بقدر ماتجتهد فى رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف : أوصنى فقال : اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات ، قال . وما غلاف الدين ؟ قال . ترك طلب الدنيا إلا مالا بدّ منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لابدّ منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لابدّ منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهم الله تعالى أما بعد ، فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ؛ فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بدّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ، فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة . أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله . أما بعد ؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عزوجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدرى خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصى واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ما ليس فى سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب ، بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف .

فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . (الأصل الثانى) الصبر : ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله مايضره ، وإنما يتناول ذلك : إما لغفلته عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته ؛ فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة . فيبقى علاج الشهوة ـ وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس ـ وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه ، فلا بدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه فى السعى وراء شهوته فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخلوقات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا اشتدّ خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج . هو

حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل : تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لايتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولايخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم ، وينبعث من تمامه لامحالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه مااشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لايمكن إلا بالصبر عنه والصبر لايمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب ، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ؟ فاعلم أن هذا لايكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان ، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب فى الآخرة . ولكن سبب وقوعه فى الذنب أمور .

(أحدها) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر .

(الثانى) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهى فى الحال آخذة بالمخنق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف ـ والعادة طبيعة خامسة ـ والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات [1] » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ! فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها . وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد [2] » فإذاً كون الشهوة مرهقة فى الحال وكون العقاب متأخرا إلى المآل سببان ظاهران فى الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر فى حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر .

(الثالث) أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات ، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير ، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان .

(الرابع) أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها ،

---

(١) حديث « حفت الجنة بالمكاره . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « ان الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى . فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان .

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه وهو كونه شاكا فى صدق الرسل وهذا هو الكفر ، كالذى يحذره الطبيب عن تناول مايضره فى المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر .

فإن قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر ، وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الأول وهو تأخر العقاب ، أن كل ماهو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب ، والمتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال ، إذ يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الربح الذى يظن أنه قد يحتاج إليه فى ثانى الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف مابعده ، ومفارقته للدنيا لابد منها ، فكم نسبة وجوده فى الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه فيقول : كيف يليق بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندى دون قول نصرانى يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوف يبنى الأمر على ماليس إليه وهو البقاء فلعله لايبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غدا كما لايقدر عليه اليوم ، فليت شعرى هل عجز فى الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد ! فليست الشهوة التى أكدها الإنسان بالعادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق . وما مثال المسوف إلا مثاله من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف .

وأما المعنى الرابع : وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة ، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان ، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر أمواله فى صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لايتفرغ إلى دارى أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار ! فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة ! وقد حكى فى الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه فى غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون .

وأما الخامس وهو شك فهذا كفر ، وعلاجه الأسباب التى تعرفه صدق الرسل وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله ، فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة ؟ فإن قال : أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء . وإن قال : أنا شاك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك فى البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة ؟ فيقول : أتركه لا محالة لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء — ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب — عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول ؟ فليس فى العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا فى كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد ، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا ، فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

لذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت ! أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال .

فإن قلت : هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ؟ وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله ؟ فاعلم أن المانع من الفكر أمران (أحدهما) أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . (والثانى) أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ، وما من إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك .

أما علاج هذين المانعين : فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقعته ، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟ وأما الثانى وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهى مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته

وطول الأنس به ؟ ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا ، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ؟ نعم هذه اللذة لاتكون فى ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قابلة - ما عودتها تتعود - والخير عادة والشر لجاجة .

فإذن هذه الأفكار هى المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل فى الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق ، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة . وقد روى فى حديث طويل : أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ؟ فقال على رضى الله عنه : بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسى الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد ، ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر فى التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره فى كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء : ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء .

أما بعد : فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر [1] كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان ، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . (الشطر الأول) فى الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف

كتاب الصبر والشكر

(١) حديث « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف .

أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لى وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان (١) » على ما سيأتى وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم (٢) » الآية وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة (٣) » وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة (٤) » وسئل مرة « ما الإيمان ؟ فقال : الصبر (٥) » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة (٦) » معناه معظم الحج عرفة وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٧) » وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وأن من أخلاقى أنى أنا الصبور وفى حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال « أمؤمنون أنتم » فسكتوا ، فقال عمر : نعم يارسول الله قال « وما علامة إيمانكم ؟ » قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم فى الصوم

(٢) حديث « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث » بطوله تقدم فى العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله

(٣) حديث جابر : سئل عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة » أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده

(٤) حديث « الصبر كنز من كنوز الجنة » غريب لم أجده . (٥) حديث : سئل مرة عن الإيمان فقال « الصبر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس مرفوعا « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » ويزيد ضعيف (٦) حديث « الحج عرفة » تقدم فى الحج .

(٧) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » لا أصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس .

« مؤمنون ورب الكعبة »[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم « فى الصبر على ماتكره خير كثير »[2] ، وقال المسيح عليه السلام : إنكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ماتكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين »[3] ، والأخبار فى هذا لاتحصى .

وأما الآثار . فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر . الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه . بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا . الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولاجسد لمن لارأس له ولاإيمان لمن لاصبرله . وكان عمر رضى الله عنه يقول . نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين ؛ يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير وأشاربه إلى قوله تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ بكى وقال . واعجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى . وقال أبو الدرداء . ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل ، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور . معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هى الأصول وهى تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى . واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل ـ كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب قواعد العقائد ـ وكذلك الصبر لايتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة . فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ، ولايعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم . فإن الصبر خاصية الإنس ولايتصور ذلك فى البهائم والملائكة . أما فى البهائم فلنقصانها . وأما فى الملائكة فلكمالها .

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا .

وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة مايصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الإنسان فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، على الترتيب ، وليس له قوة الصبر ألبتة ؛ إذ الصبر عبارة عن

---

(١) حديث عطاء عن ابن عباس : دخل على الأنصار فقال « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا ، فقال عمر : نعم يارسول الله . . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء .

(٢) حديث « فى الصبر على ماتكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث « لو كان الصبر رجلا » لكان كريما أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي

ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس فى الصبي إلا جند الهوى كما فى البهائم ، ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ؛ أحدهما يهديه ، والآخر يقويه ، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم . واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لامعرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط ، فلذلك لاتطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال فلا تطلبه ولاتعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية مالم تكن له قدرة على ترك ماهو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لاقدرة له على دفعه ؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لاينحصر .

فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها : باعثا دينيا ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين .

فإن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى : الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه - أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى - قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة ، فلايتم ترك الشهوة إلابقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، الذى ينبغى أن يكون مسلما له . فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال .

وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه فيكتب أعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين .

أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لايطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ماتعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة فى القيامة الصغرى ومرة فى القيامة الكبرى ، وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته[1] » وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ وفيها يقال ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنه والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لابزلزلة مسكن غيره ، فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التى أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزلها أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لاتخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا ، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت مافيها وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكنى أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولايفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل مايخص غيرك . فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التى بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس فمن لارأس له لاسماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟ فهذه هى القيامة الصغرى . والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال وتمت الأهوال .

---

(١) حديث « من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف .

واعلم أنّ هذه الصغرى وإن طولنا فى وصفها فإنا لم نذكر عشير أوصافها وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ؛ فإن للإنسان ولادتين (إحداهما) الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله فى سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت . والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال .

فما أعظم غفلتك يا مسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا [١] » أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هوّن على محمد سكرات الموت [٢] » أو ما تستحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ؟ فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، أفيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ؟ ﴿ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أم يحسبون أنّ الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ ولكن ﴿ ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وذلك لأنا ﴿ جعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هى أعلى من علوم المعاملة فنقول : ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا عن الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة فى الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمرى إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز وتنمو على التدريج إلى سنّ البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضارّ الآخرة بل إلى مضارّ الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر فى الآخرة ، بل على القيم العدل والولى البر الشفيق

(١) حديث « كفى بالموت واعظا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد . (٢) حديث « اللهم هون على محمد سكرات الموت » أخرجه الترمذى وقال غريب والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ « اللهم أعنى على سكرات الموت . »

ـ إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ـ أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولى هذا سمته فى حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها فى حق الصبي . فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصدّيقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة [1] » وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أنّ الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات . ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين .

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا . فيكون للإيمان ركنان : (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر . والمراد باليقين . المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار . ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث » إلى آخره

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ماينفعه فى الدنيا والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافه إلى مايضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأوّل . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين ، باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ؛ فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب : قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصوم نصف الصبر » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان : والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الأسامى التى تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر

أعلم أن الصبر ضربان ؛ أحدهما : ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها . وهو إما بالفعل : كتعاطى

(١) حديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين » أخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر : وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرهما . وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر . وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن . وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر . وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص . وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال « هو الصبر » لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال « الحج عرفة »(1) ، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى ﴿ والصابرين فى البأساء ﴾ أى المصيبة ﴿ والضراء ﴾ أى الفقر ﴿ وحين البأس ﴾ أى المحاربة ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال ؛ أحدها : أن يقهر داعى الهوى فلاتبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا

(1) حديث « الحج عرفة » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج .

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [1] » وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتى . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ، ومحله عندالله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لايستسخر ، وسلط ماحقه أن لايتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه ، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته ! لأن الهوى أبغض إله عبد فى الأرض عندالله تعالى . والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهذا من المجاهدين يعد مثله لامن الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ هذا باعتبار القوة والضعف . ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد مايصبر عنه : فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لايغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى . والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا ، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ، ولذلك قيل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى مايشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ، وإلى مايكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لايلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا ـ كما سيأتى فى كتاب الرضا ـ فالرضا

(١) حديث « الكيس من دان نفسه ... الحديث » تقدم فى ذم الغرور .

أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير [١] » .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين .

وسنبين فى كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا ، كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكأن هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا . وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على مايجرى على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لاينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لايستغنى عنه فى حال من الأحوال

اعلم أن جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين (أحدهما) هو الذى يوافق هواه . (والآخر) هو الذى لايوافقه بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما وهو فى جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لايستغنى قط عن الصبر .

(النوع الأول) مايوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا . وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى لايصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال . والزوج والولد فقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجبنة محزنة [٢] » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ إنى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته [٣] » ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لايركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لايرسل نفسه فى الفرح بها ولاينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق ، وكذلك فى سائر ماأنعم الله به عليه

---

(١) حديث « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٢) حديث « الولد مجبنة مبخلة محزنة » أخرجه أبو يعلى الموصلى من حديث أبي سعيد وتقدم (٣) حديث « لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر — كما سيأتى — وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك ؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

(النوع الثانى) مالا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب . أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصيه وهما ضربان:

(الضرب الأول) الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهر فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء.

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى »[1] ، وقال تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾.

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا ﴾ أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

(الضرب الثانى) المعاصى : فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه »[2] ،

---

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث « المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه » أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائى فى الكبرى بالشطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد تقدما

والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا [1] ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلاينجيه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس ، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه ، كمن أصبح وهمومه هم واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(القسم الثاني) مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ، كما لو أوذي بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى ﴿ ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين؟ هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال « يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر [2] » ، وقال تعالى ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك [3] » ، ورأيت في الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام ، لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم لاتقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه

---

(١) حديث « إن الغيبة أشد من الزنا » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث : قسمه ص مالا وقول بعض الأعراب : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(٣) حديث « صل من قطعك ... الحديث » تقدم

الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا .

(القسم الثالث) مالا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره ؛ كالمصائب : مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه ؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم.

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصدّيقين فإنّ ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أسألك من اليقين ماتهوّن على به مصائب الدنيا[(١)] فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على مانكره؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم «قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أوماله وولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا[(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم «انتظار الفرج بالصبر عبادة[(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ اللهم اؤجرنى بمصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله به ذلك[(٤)] » وقال أنس : حدّثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله عز وجل قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا قال الله تعالى جزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى[(٥)] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى إلى عوّاده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتى[(٦)] » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو

---

(١) حديث « أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا » أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات (٢) حديث « قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ولده أوماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل ... الحديث » أخرجه ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث « انتظار الفرج بالصبر عبادة » أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله « بالصبر » وكذلك رواه أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود « أفضل العبادة انتظار الفرج » وتقدم فى الدعوات (٤) حديث « مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون) ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة

(٥) حديث أنس « إن الله قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه ... الحديث » أخرجه الطبراني فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسملى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ « إن الله عزوجل قال اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة » رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ « إذا أخذت كريمتى عبدى لم أرض له ثوابا دون الجنة » قالت يارسول الله وإن كانت واحدة قال « وإن كانت واحدة » وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٦) حديث « يقول الله إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ... الحديث » أخرجه مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة .

الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لايتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلى رحمه الله فى المارستان فدخل عليه جماعة فقال : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك جاءوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال : لوكنتم أحبائى لصبرتم على بلائى . وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ويقال إن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك[1] » ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفى كمه صرة فافتقدها فإذا هى قد أخذت من كمه فقال : بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى . وروى عن بعضهم أنه قال : مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى وبه رمق فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جرنى قليلا إلى العدو واجعل الماء فى الترس فإنى صائم فإن عشت إلى الليل شربته . فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون فى نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل فى اختيار ؟ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله ، أنها قالت : توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل ، فقال : كيف الصبى ؟ قلت : بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ! قال : مالهم ؟ قلت : أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بئس ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال « اللهم بارك لهما فى ليلتهما[2] » ، قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة » وقد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبى صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال « إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا ، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه ـ وسيأتى

---

(١) حديث « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال « من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكى نفسك »

(٢) حديث الرميصاء أم سليم : توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت . . الحديث » أخرجه الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية والقصة فى الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

ذلك فى كتاب الرضا إن شاء الله تعالى . وكتب ابن أبى نجيح يعزى بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له : واعلم أن الماضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر فى نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . وقد قيل : من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة . فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال ، فإن الذى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لايستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا ، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لايسكن . وأكثر جولان الخواطر إنما يكون فى فائت لا تدارك له أو فى مستقبل لابد وأن يحصل منه ماهو مقدر ، فهو كيفما كان تضييع زمان . وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون ، هذا إن كان فكره ووسواسه فى المباحات مقصورا عليه ، ولا يكون ذلك غالبا ، بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لايزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه ، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس فى حبه حتى فى أهله وولده ، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به فى مخالفته ، ولا يزال فى شغل دائم ، فللشيطان جندان : جند يطير وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة ، فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه . وانقياده بالإذعان سجود منه ـ فهو روح السجود ـ وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك ، كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة ، فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب ! فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك ، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء فى القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت فى غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين لايخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ [1] » وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا ، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ، ثم تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار ، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع ألبتة بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال . فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لاتبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة ، فإذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهى صفة . نفسك ، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج - حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو ؟ فقال : هى نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

فإذن حقيقة الصبر وكماله : الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ، وهذا صبر دائم لايقطعه إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة .

فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لاتزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول ، قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ؛ فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور .

(أحدها) أن تنظر إلى مادة قوتها وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة - من حيث نوعها ومن حيث كثرتها - فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الأفطار على طعام قليل فى نفسه ضعيف فى جنسه ، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

(الثانى) قطع أسبابه المهيجة فى الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم من سهام إبليس [2] » وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه . فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه .

(الثالث) : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه وذلك بالنكاح ، فإن كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات

---

(١) حديث « إن الله يبغض الشاب الفارغ » لم أجده . (٢) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس » تقدم غير مرة

من جنسه مايغني عن المحظورات منه : وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لايقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » .[1]

فهذه ثلاثة أسباب ، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام : يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته . الثاني : يضاهي تغيب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لاتتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب .

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين ، أحدهما : إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة (وفي الأثر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته مالايبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له مايبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال . وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوى قوى باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وإن ضعف ضعفه . وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ماأوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثاني : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرئ عليها وتقوى منته في مصارعتها ، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين . وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول : يضاهي إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال ﴿ وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ .

والثاني : يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه ، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر ، فإن الوسواس لايزال يجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لاعلاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ، ثم كل ذلك لايكفي مالم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك مالم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن

(١) حديث « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم ... الحديث » تقدم في النكاح .

لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة : من القراءة والأذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ؛ إذ لايخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط ، إذ لايستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى أشدّ ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة ، وفى تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى فى ملكوت السموات والأرض مالايقدر على عشر عشيره فى زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ مايرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ ، والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد فى أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإنّ المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدرى متى يقدّر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلى سنة عن مطر ، فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات : فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهاب رياح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما فى يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان ، فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدرّ بها الأمطار فى أوقات الاستسقاء ، وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا فى القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا ، فقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال تعالى ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾

فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر .

قال الجنيد رحمه الله : السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق فى حب الحق شديد ، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق .

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه . فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهى الربوبية ؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وليس القلب مذموما على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر . فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه . وعزا لاذل فيه وأمنا لاخوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه ؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية . وليس مذموما على طلب ذلك ، بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له . وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو فى الدنيا وملك مخلد دائم لايشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل ... وقد خلق الإنسان عجولا راغبا فى العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة ـ التى فى طبعه ـ فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحق فوعده بالغرور فى الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه . ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة . فعبر عن المخذولين بقوله تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال تعالى ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجله ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقى عن الملك المجازى الذى لاأصل له إن سلم ولادوام له أصلا فنادوا فيهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ .

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة . أما ملك الدنيا : فالزهد فيها والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا لاذل فيه وقرة عين أخفيت فى هذا العالم لاتعلمها نفس من النفوس .

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضرتان ، ولعلمه بأن الدنيا لاتسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ، ولكن ملك الدنيا لايخلو عن المنازعات والمكدرات وطول

الهموم فى التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضى العمر ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس﴾ فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ والزهد فى الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه .

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا ! وينال الربوبية بأن يصير عبدا ! ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا فى الدنيا منكوسا فى الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ؟ فقال كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبد لى ! فقال كيف ذلك ؟ قال . أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لى . فهذا إذن هو الملك فى الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة . فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط فى ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته ؛ إذ تصير بتركه ملكا فى الحال وترجو به ملكا فى الآخرة .

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه فى العلاج مجرد العلم والكشف ؛ بل لابد وأن يضيف إليه العمل . وعمله فى ثلاثة أمور (أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كى لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله فى سعة الأرض إذ قال تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (الثانى) أن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده ، فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزى التواضع ، وكذلك كل هيئة وحال وفعل : فى مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغى أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة (الثالث) أن يراعى فى ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج ، فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض ، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض ، إلى أن يقنع بالبقية . وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى [1] » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه [2] » .

---

(١) حديث « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » الحديث أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقى من حديث جابر وتقدم فى الأوراد (٢) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه » تقدم فيه .

فإذن ماذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ماذكرناه من قوانين طرق المجاهدة فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر فى جميع الأقسام التى فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير فى العادات ، فإن الصبى يحمل على التعلم فى الابتداء قهرا . فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ماحكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلى عن الصبر أيه أشد ؟ فقال: الصبر فى الله تعالى ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، فقال : ~~الصبر مع الله ، فقال~~: لا ، فقال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ؛ فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل فى معنى قوله تعالى ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ اصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا : الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

الشطر الثانى من الكتاب فى الشكر

وله ثلاثة أركان : (الأول) فى فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثانى) فى حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) فى بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول : فى نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ فقال تعالى ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ وقال عزوجل إخبارا عن إبليس اللعين ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين فى الخلق فقال : ولا تجد أكثرهم شاكرين . وقال تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ واستثنى فى خمسة أشياء فى الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ وقال ﴿ فيكشف ماتدعون إليه إن شاء ﴾ وقال ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ وقال ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى ﴿ والله شكور حليم ﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ وقال ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (١) » وروى عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت : وأى شأنه لم يكن عجبا ؟ أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى - أو قالت فى لحافى - حتى مس جلدى جلده ثم قال « يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى » فقالت : قلت إنى أحب قربك لكنى أوثر هواك فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبدا شكورا ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ الآية (٢) » وهذا يدل على أن البكاء ينبغى أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ فأنا أبكى من خوفه ، فسأله أن يجيره من النار فأجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال : لم تبكى الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور ! وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعا . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » قيل : ومن الحامدون ؟ قال « الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٣) » وفى لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٤) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى - فى كلام طويل - وأوحى الله تعالى إليه أيضاً فى صفة الصابرين : أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، وبالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل فى الكنوز ما نزل ؛ قال عمر رضى الله عنه : أى المال نتخذ ؟ فقال عليه السلام « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا (٥) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل فى حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه .

---

(١) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » علقه البخارى وأسنده الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفى إسناده اختلاف .

(٢) حديث عطاء : دخلت على عائشة فقلت لها : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : وأى أمره لم يكن عجبا ... الحديث فى بكائه فى صلاة الليل . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزى فى الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبى حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبى سليمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا . وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث

(٣) حديث . ينادى يوم القيامة « ليقم الحامدون ... الحديث » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « أول من يدعى إلى الجنة الحامدون ... الحديث » وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور .

(٤) حديث « الحمد رداء الرحمن » لم أجد له أصلا وفى الصحيح من حديث أبى هريرة « الكبر رداؤه .. الحديث » وتقدم فى العلم (٥) حديث عمر : ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا .. الحديث » تقدم فى النكاح .

(فالأصل الأول) العلم : وهو علم بثلاثة أمور ؛ بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة فى حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى فى معارف الإيمان: التقديس . ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس : وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه ، فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة ، إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد : كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله[2] » وقال « ليس شىء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله[3] » ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب « فسبحان الله » كلمة تدل على التقديس و « لا إله إلا الله » كلمة تدل على التوحيد و « الحمد لله » كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق . فالحسنات بإزاء هذه المعارف التى هى من أبواب الإيمان واليقين .

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشىء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به فى النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا فى حق الملك . نعم لا يغض من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد الذى كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك . وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا ، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من إضافة النعمة إلى الملك .

وكذلك من الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها ، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل ـ شاءت أم أبت ـ كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده . فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى ! وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك ، وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه ، فهو إذن إنما يعطيك

(١) حديث « من قال سبحان الله فله عشر حسنات » . الحديث تقدم فى الدعوات (٢) حديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر
(٣) حديث « ليس شىء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن إبراهيم النخعى . يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفا .

لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والإرادات ماصار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا وقدرت على شكره ، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا .

ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك : فهذا بيان هذا الأصل .

(الأصل الثانى) الحال المستمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ، ولعل هذا يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول : الملك الذى يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس ، وهذا فرح من لاحظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثانى) أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه ، لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ليركبه ليخرج فى خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه ، وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية ، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب ، فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه ، وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، فهذا هو الرتبة العليا ، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلى رحمه الله : الشكر رؤية المنعم

لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب . وشكر الخاصة على واردات القلوب ، وهذه رتبة لايدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فإن القلب لايلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه ، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة ، كما قيل : ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية ، أما الأولى فخارجة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك ، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العينين : أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين : أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل « كيف أصبحت ؟ » قال بخير ، فأعاد صلى الله تعالى عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « هذا الذى أردت منك [1] » وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين ، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شىء إلى عبد مملوك لا يقدر على شىء ؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز ، والشكوى إلى غيره ذل ؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر : الكبر الكبر ! فقال : ياأمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك ! فقال : تكلم ، فقال : لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك ، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته .

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل:

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل « كيف أصبحت ؟ » فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال « هذا الذى أردت منك » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه ، قال فى الثالثة : أحمد الله . وهذا معضل ، ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال : أحمد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ، ورواه مالك فى الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح

إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة : جامع لأكثر معانى الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا ، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط وقول الجنيد الشكر : أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة : إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم ؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحالة السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه ؛ فلا ينبغى أن تظن أن ماذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ فى أن اسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى ، أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعانى تكون من توابعه ولوازمه ؟ ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شىء ، والله الموفق برحمته .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يفعل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر ، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التى هى إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم فى صورة الخدم ، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم ، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشىء من ذلك ، وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين : (أحدهما) أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا ؛ فشكرنا إياه بما لا حظ فيه يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع ، إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ، ولا حظ لله تعالى فى أفعالنا كلها (الوجه الثانى) أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للأول منا بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك فى الأمرين جميعا ، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفى لفظ آخر : وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتنى . وفى خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا .

فإن قلت : فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم ؛ فإنى أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه ، فإن هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ؟ وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر ، وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى ، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه * فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهى أعلى

من علوم المعاملة ، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول : ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب ، وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره وأن كل شىء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا ، لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد ، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه . وما ليس له بنفسه قوام وليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود ألبتة ، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ، ولا قيوم إلا واحد ، ولا يتصور أن يكون غير ذلك ؛ فإذن ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد ؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه ، فهو الشاكر وهو المشكور ، وهو المحب وهو المحبوب ، ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه ، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرئ بين يديه ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال : لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك ، فلا يخفى عليك أنّ المصنف إذا أحب تصنيفه لقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل ما فى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته ؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه ، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز ، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إنّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون ﴾ وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فهذا أحد النظرين . النظر الثانى : نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم ، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا ، وفرق بين الموجود وبين الموجد ، وليس فى الوجود إلا موجود واحد وموجد ، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، وإذا كان كل من عليها فان ، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثانى : ليس بهم عمى ولكن بهم عور ، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه ، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق ؛ فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما

أن الذى قبله جاحد تحقيقا : فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين ، فأثبت عبداً وربا ، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل فى حد التوحيد ، ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر مايزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى ؛ فإن بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو ، فينمحى عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله ، ليكون قد بلغ كمال التوحيد ، وحيث أدرك نقصا فى وجود ماسوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لاتحصى ،فبهذا تتفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار ، والأنبياء هم الكحالون ، وقد جاءوا داعين الى التوحيد المحض ، وترجمته قول « لا إله إلا الله » ومعناه أن لايرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون ، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد ، إذ عبدة الأوثان قالوا ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفاً ، والمتوسطون هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لايثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لايدوم والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له ﴿ واسجد واقترب ﴾ قال فى سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [(١)] » فقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بعفوك من عقابك » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله ، ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال « أعوذ برضاك من سخطك » وهما صفتان ، ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وأعوذ بك منك » وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال « لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقوله صلى الله عليه وسلم « لاأحصى » خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شىء هالك إلا وجهه ؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لايرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل : فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لايرقى من رتبة الى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة الى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه ، واليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة [(٢)] » فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق البعض : أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالإضافة الى آخرها ، فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضى الله عنها : أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وماهذا الجهد الشديد ؟

---

(١) حديث قال فى سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة : أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ... الحديث (٢) حديث « انه ليغان على قلبى ... الحديث » تقدم فى التوبة ، وقبله فى الدعوات .

قال « أفلا أكون عبداً شكوراً[1] » معناه . أفلا أكون طالباً المزيد فى المقامات . فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾

وإذا تغلغلنا فى بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة : فنقول الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الحق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر فى ذلك المقام بإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لأجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، ثم يكون له حالتان : (إحداهما) أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية فى خدمته (والثانية) أن لا يكون الملك حظ فى العبد ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد فى ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغنى فيه غناء ، وغيبته لا تنقص من ملكه ؛ فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه ، فمنزل العباد من الله تعالى فى المنزلة الثانية لا فى المنزلة الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرا فى الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه . وأما فى الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا ، ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه ، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد فى بعده منه ؛ فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا فى الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته فى محبته : أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه ، وإن ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه ، وإن جلس ولم يركب لا فى طلب القرب ولا فى طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته إذا أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم فى القرب منه فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا ﴾ الآية ، فإذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها فى معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق فى الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها فى طريق البعد فهو كافر جار فى غير محبة الله تعالى ؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة ، بل رب مراد

---

(١) حديث عائشة لما قالت له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء .. الحديث. رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث ، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو فى الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة .

محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا الإشكال الأول : وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر ؛ وبهذا أيضا ينحل الثانى ؛ فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك ؛ فهو الذى أعطى وهو الذى أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ، ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك ؛ فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شىء ، إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشىء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك ؛ فأما باعتبار النظر إلى الذى جعل الأشياء شيئا فأنت شىء إذ جعلك شيئا ؛ فإن قطع النظر عن جعله كنت لاشىء تحقيقيا ، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له [1] » لما قيل له : يارسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعملوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو فعل من أفعاله ، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى ، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة ، وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى ، وهو سبب لحركة الأعضاء وهى أيضا من أفعال الله تعالى ، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لايخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ، ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لغيره بل يمهد شرط الحصول لغيره ، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه .

فإن قلت : فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شىء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى ؟ فاعلم أنّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا ، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف ، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها ، فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ، ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ؛ فإذا لم يسمع لم يعلم ، وإذا لم يعلم لم يخف ، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا ، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين ؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه ، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ،

(١) حديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » من حديث على وعمران بن حصين .

ولا قادر إلا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لاذلك اليوم على الخصوص ، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لاينفعهم الكشف ؛ فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

بيان تميز مايحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لايتم إلا بمعرفة مايحبه الله تعالى عما يكرهه ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه . ولتميز مايحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان (أحدهما) السمع ، ومستنده الآيات والأخبار (والثانى) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز ، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد ، فمن لايطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه ، إذ ماخلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لاكل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه ، إذ قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ﴾ الآية . وأما الحكمة فى سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لايطلع عليها كافة الخلق ، والقدر الذى يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لاتخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف ، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلا ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للمشى ، والرجل للمشى لا للشم ، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس ، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما فى علم الله تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ فإذن كل من استعمل شيئا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى ، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه مايهلكه ويأخذ ماينفعه لا ليهلك بها غيره ، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ماينفعه فى دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملها فى غير ما أريدتا به ، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به فى الدنيا والتجافى عن غرور الدنيا ، ولا أنس

إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطنا ، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فلذلك قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ﴾ الآية ، فكل من استعمل شيئا فى غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لابد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثالا واحداً للحكم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة فى أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك مايستغنى عنه . كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولامناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله فى الوزن أو الصورة . وكذا من يشترى داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لاتناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا ، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينهما بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان ، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لاغرض فى أعيانهما ولو كان فى أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك فى حق من لاغرض له فلا ينتظم الأمر ، فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة أخرى وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان فى أنفسهما ولا غرض فى أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء ، لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب لأن غرضه فى دابة مثلا فاحتيج إلى شيء وهو فى صورته كأنه ليس بشيء وهو فى معناه كأنه كل الأشياء ، والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرآة لا لون لها ، وتحكى كل لون فكذلك النقد لاغرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لا معنى له نفسه وتظهر به المعانى فى غيره ، فهذه هى الحكمة الثانية ، وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لاغرض للآحاد فى أعيانهما فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب ، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة فى صفحات الموجودات بخط إلهى لاحرف فيه ولا صوت الذى لايدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ـ أخبر هؤلاء العاجزين

بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس ، والحبس أهون منه،وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد ، وإنما الأوانى لحفظ المائعات ، ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم [1] ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض فى عينهما ، فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لايقدر على أن يشترى به طعاما ودابة ، إذ ربما لايباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فانهما وسيلتان إلى الغير لا غرض فى أعيانهما ، وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : إنّ الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره ، وكموقع المرآة من الألوان ؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز ، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم ، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادخار وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ؛ ولما جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ،ففى المنع منه مايشوش المقصود الخاص به ؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره : وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، ونحن لانخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا نمنع مما لاتتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لايتصور جريانه ؛ إذ صاحب الجيد لايرضى بمثله من الردىء فلا ينتظم العقد ، وإن طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر اليهما فيما يقصد فى عينه ، وما لا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلا مضافات دقيقة فى صفاته ، وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى أعيانها وحقها أن لاتقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لأنه لايقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان فى القرض وهو مكرمة ممدوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر. والمعاوضة لاحمد فيها ولا أجر ، فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها فى معرض المعارضة ، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدى ويؤخر عنها الأكل الذى أريدت له ، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها ؛ إذ من معه طعام فلم

(١) حديث « من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » متفق عليه من حديث أم سلمة ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

لايأكله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة ، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه ، فأمامن يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ، ولهذا ورد فى الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ماذكرناه فى كتاب آداب الكسب ؛ نعم بائع البر بالتمر معذور ،إذ أحدهما لايسدّ مسدّ الآخر فى الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لاتسمح به إلا عند التفاوت فى الجودة ؛ ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لايرضى بها صاحب الجيد وأما جيد برديئين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوى الردىء فى أصل الفائدة ويخالفه فى وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام ، فهذه حكمة الشرع فى تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أوى من جميع ماأوردناه فى الخلافيات ، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله فى التخصص بالأطعمة دون المكيلات ، إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ؛ ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات ، ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء ؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لايقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق فى أتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص. فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحدّ ضروريا ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ولأنّ أصول هذه المعانى لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف فى وجوه التحديد ، كما يحدّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر ؛ لأنّ قليله يدعو إلى كثير ، والداخل فى الحدود داخل فى التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجلة الأصلية ، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين ، فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغى أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ولكن لا تصادف جواهر الحكم فى قلوب هى مزابل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لايتذكر إلا أولوا الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[1] » وإذ عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك ، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما ، وبعض ذلك نصفه فى لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر ، فأقول مثلا : لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه فى الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر بالعدل ، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال : بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ، وكذلك إذا بصقت مثلا فى جهة القبلة أو استقبلتها فى قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى فى خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعك فى حركتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة

---

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء » تقدم فى الصوم .

لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك فى تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك ، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هى شريفة كالطاعات وإلى ما هى خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق ، فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التى بوضعها كمال عبادتك ، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ؛ لأن الخف وقاية الرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداءة فى الحظوظ ينبغى أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل ، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها ، حتى إن بعضهم كان قد جمع إكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر فى هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الإنعام وهم مغموسون فى ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ؛ فقبيح أن يقال : الذى شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ، ومن باع خمرا فى وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين (أحدهما) بيع الخمر ، والآخر البيع فى وقت النداء . ومن قضى حاجته فى محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب فى قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصى كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، فيمنحق بعضها فى جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية فى نفسه ، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه فى الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة ، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب ، بعضها يؤثر فى العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذى هو مستقر الشياطين ، وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى فى خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل ، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان ، فإنهما جميعا فانيان هالكان ، فإفناء الأخس فى بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا ، لأن كل شجرة بعينها لا تفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفى بحاجة واحدة ، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما ، فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك ، فإن نبت ذلك فى موات الأرض لا بسعى آدمى اختص بمغرسه أو بغرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه ، فللسابق خاصية السبق ، فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقراء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذى له ما فى السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ، كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها

من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد — فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك — ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والأخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كلام غير مهم، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه، إذ قال تعالى ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ وفرح إبليس لعنه الله بقوله ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير.

* فإن قلت: فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق: وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى؟ فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الإيضاع في السير فضلا عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير فنقول: إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس، لا لغموض

فى نور الشمس ولكن لضعف فى أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جدًا ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ، ثم الخلق ينقسم فى الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة ، فهى توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف وأصوات المتفاهمين بها ، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدر ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ماينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى مايقف دون الغاية ، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تم القسمة والاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، وقيل : إنهما جميعاً داخلان فى وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصية أخرى فى النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة ، منهما أمرا مجملا عند طالبى الفهم من الألفاظ واللغات ، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور ، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال ، وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال ياجميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة ، فهكذا كانت الأمور فى الآزال ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولم يكن ذلك على اتفاق وبخت بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب ، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادى إلى غير نهاية . وقيل : إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل ، وكان بعضهم لقصوره لايطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه ، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم ﴿ لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والأرض ، وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، فمسته نار فاشتعل نورا على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هى عليه فقيل لهم : تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا ، وإذا

ذكر القدر فأمسكوا (١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عنــد طيب ... كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كاس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلا له ، وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك ، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما ؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى ، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر ، فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشى على الماء إلى المشى على الأرض ، والسباحة يمكن أن تتعلم ؛ فأما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ؛ ولذلك قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء ! فقال صلى الله عليه وسلم « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء (٢) » فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران ، لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها ، وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم ، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين : ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة ، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى غضب عليه ، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه ، وعندك فى العادة له مثال ، فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغى أن تقول « هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ؟ » فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك ، بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل ، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك فإنك أيضا من أفعاله ، فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب

---

(١) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم فى العلم ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا . (٢) حديث قيل له : يقال إن عيسى مشى على الماء قال « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء » هذا حديث منكر لا يعرف هكذا ، والمعروف . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال : فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء ، فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل « لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال » .

حركاتك فى التعبير هو فعله الذى رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لاترى إلا نفسك فتظن أنّ مايظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت ، فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل الصبي الذى ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهى مؤلفة من خرق لاتتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لاتظهر فى ظلام الليل ورءوسها فى يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد . وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ، ولكنهم ربما لايعلمون كيف تفصيله ، والذى يعلم بعض تفصيله لايعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر إليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لايعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لاتدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ، ثم شاهدوا رءوس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها ، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدى الملائكة المحركين للسموات ، وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كى لايعصوا الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن وقيل ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل ﴿ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ وهذه أمور لايعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم . وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين فى العلم بعلوم لاتحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى ، وفى لفظ آخر : لقلتم إنه كافر .

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ماليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول :

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملا فى إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب ، وما منهم إلا وله مقام معلوم ، وأعلاهم فى رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام ، وإنما علو درجتهم لأنهم فى أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام ، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ، ويلى درجتهم درجة الأنبياء فإنهم فى أنفسهم أخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته ، وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم فى أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ، ثم يلى العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ، ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع .

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغى أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر [1] » . وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل : أى الناس خير ؟ فقال : السلطان ، فقيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلا ، إن لله تعالى له كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ، ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنبه ، وكان يقول : الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصا يقصون .

الركن الثانى من أركان الشكر : ما عليه الشكر

وهو النعمة ، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر ، كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الأخروية ، وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز ، كتسمية السعادة الدنيوية التى لاتعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشىء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بوسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات :

(القسمة الأولى) أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ماهو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا : كالعلم وحسن الخلق وإلى ماهو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ماينفع فى الحال ويضر فى المآل : كالتلذذ باتباع الشهوة ، وإلى مايضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل : كقمع الشهوات ومخالفة النفس ، فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يعده نعمة إن كان جاهلا ، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال : ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبى الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه ، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها ، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه

---

(١) حديث « سيكون عليكم أمراء يفسدون ومايصلح الله بهم أكثر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة « يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون » ورواه الترمذى بلفظ « سيكون عليكم أئمة » وقال حسن صحيح ، والبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر « السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أوظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » وأما قوله « ومايصلح الله بهم أكثر » فلم أجده بهذا اللفظ ، إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله : اصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـ فذكر حديثا فيه « والإمارة الفاجرة خير من الهرج » رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد لابأس به .

ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوّا له ؛ ولو عقل لعلم أن الأم عدوّا باطنا فى سورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشدّ من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شر من العدّو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو .

(قسمة ثانية) اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى ماتفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ماضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى مايكافئ ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص ؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذه التوفيق نعمة فى حقه ، ورب انسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه .

(قسمة ثالثه) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ماهو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره ، فالأول : مايؤثر لذاته لالغيره : كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التى لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها . الثانى : مايقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته : كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لاتقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابه واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والضلال الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره : كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا ، وتقصد أيضا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذى تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة ، فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة .

(قسمة رابعة) اعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل ، فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال ، والنافع هو الذى يفيد فى المآل ، والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الأحوال : والشرور أيضا تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان : مطلق ومقيد ، فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما فى الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة ، وأما فى الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك

الكبر وذل التعلم ، ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة . الضرب الثانى : المقيد ، وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح فى الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ، ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال فى البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها . والنافع قسمان : ضرورى كالإيمان وحسن الخلق فى الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما ألبتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء ؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه .

(قسمة خامسة) اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلذة العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل ، وهذه أقل اللذات وجودا وهى أشرفها ، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ودائمة لا تمل ، فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل ، ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد إذا رضى بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد فهو مصاب فى عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه : أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال ، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدى السراق بالأخذ ولا أيدى السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه فى روح الأمن أبدا ؛ وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا ، ثم العلم نافع ولذيذ وجميل فى كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ، ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع وإن سماه خيرا فى مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم . فإما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذى لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء ، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة ، إما من لم يحى باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات : وقوله تعالى ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة ، وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء ، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء ، وذلك موجود فى الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة . مايشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا وهى أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج حتى الديدان والحشرات ، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة ، وهو

أشدها التصاقا بالمتغافلين ، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب ، وآخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلا الصديقون : فأما قمعها بالكلية ـ حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفى اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر . نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ، ولكن ذلك لايدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل ، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام : قلب لايحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لايدرى ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه فى بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية . وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه فى بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكناً فى الوجود فهو فى غاية البعد . وأما الثانى فالدنيا طافحة به . وأما الثالث والرابع فوجودان ولكن على غاية الندور ، ولا يتصور أن يكون ذلك نادراً شاذاً ، وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة ، وإنما تكون كثرته فى الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ، فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادى ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لايكثرون ، فكما لا يكون الفائق فى الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم ، فكذا فى ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة ، والصورة فى المرآة وإن كانت هى الثانية فى رتبة الوجود فإنها أولى فى حق رؤيتك ، فإنك لاترى نفسك ، وترى صورتك فى المرآة أولا فتعرف بها صورتك التى هى قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ؛ فالقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة والقلب المتأخر متقدما ؛ وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر فى شىء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس فى عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الأفئدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابا ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك ، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لايكون إلا فى الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ﴾ أى فى الدنيا ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى فى الآخرة ، فإذن قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا .

(قسمة سادسة) حاوية لمجامع النعم : اعلم أن النعم تنقسم إلى ماهى غاية مطلوبة لذاتها وإلى ماهى مطلوبة لأجل

الغاية ؛ أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعه أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عيش إلا عيش الآخرة [1] » وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس ، وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدّة الضر ؛ وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ؛ وذلك عند إحداق الناس به فى حجة الوداع [2] . وقال رجل : اللهم إنى أسألك تمـام النعمة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « وهل تعلم ماتمام النعمة ؟ قال :لا . قال « تمـام النعمة دخول الجنة [3] » .

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس ؛ وإلى مايليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى ، وإلى مايليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المـال والأهل والعشيرة ؛ وإلى مايجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية ، فهى إذن أربعة أنواع : (النوع الأوّل) وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمـان وحسن الخلق ، وينقسم الإيمـان إلى علم المـكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لايمتنع أصلا ولايقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى ﴿أن لاتطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان﴾ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح ، أو ترك النـكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أوترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان . ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان ، وإنمـا العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان ، فإذن الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة . ولايتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر ولاتتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة : المـال والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة ، ولاينتفع بشىء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين مايناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة هداية الله ، ورشده ، وتسديده ،وتأييده . فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمـان وحسن الخلق إذ لاسبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ماسعى وليس لأحد فى الآخرة إلا ماتزود من الدنيا ، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التى تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى : وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المـال والعز والأهل ، فإن ذلك لو عدم ربمـا تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

• فإن قلت : فمـا وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المـال والاهل والجاه والعشيرة ؟ فاعلم أنّ هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المـال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس

(١) حديث قوله عند حفر الخندق « لاعيش إلا عيش الآخرة » متفق عليه من حديث أنس .
(٢) حديث قوله فى حجة الوداع « لاعيش إلا عيش الآخرة » رواه الشافعى مرسلا ، والحاكم متصلا وصححه ، وتقدم فى الحج
(٣) حديث قال رجل : اللهم إنى أسألك تمـام النعمه ... الحديث ، أخرجه الترمذى من حديث معاذ بسند حسن .

له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال [٢] » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولاتندفع إلابسلاح المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات .

وقال بعض الحكماء ـ وقد قيل له ما النعيم ؟ فقال : الغنى فإنى رأيت الفقير لاعيش له . قيل : زدنا ! قال : الامن ، فإنى رأيت الخائف لاعيش له . قيل : زدنا ! قال : العافية ، فإنى رأيت المريض لاعيش له. قيل : زدنا ! قال : الشباب ، فإنى رأيت الهرم لاعيش له . وكأن ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [٣] » وأما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال صلى الله عليه وسلم «نعم العون على الدين المرأة الصالحة [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ... الحديث » [٥] وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد فى كتاب النكاح . وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه مالو انفرد به لطال شغله ، وكل مايفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة . وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لاينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ، كما لامعنى للغنى إلا ملك الدراهم ، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه ، فكما يحتاج إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لاملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين لاعلى قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة [٦]

---

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد .
(٢) حديث « نعم العون على تقوى الله المال » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر . ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا : ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا
(٣) حديث « من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث عبيد الله ابن محصن الأنصارى ، وقد تقدم . (٤) حديث « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » لم أجد له إسنادا ، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . (٥) حديث « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وتقدم فى النكاح .
(٦) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة . رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال « لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ... الحديث » وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس « لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد =

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش [1] » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام [2] وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن » فقيل : وما خضرا. الدمن ؟ قال « المرأة الحسناء فى المنبت السوء [4] » فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل .

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول : لاخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لايتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى [5] » وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال ، فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمرى الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا : أما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها ، وأما فى الآخرة فمن وجهين (أحدهما) أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لايقدر عليها القبيح ، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثانى : أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والمخبر كثيرا مايتلازمان ، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم ، ولذلك قيل : طلاقة الوجه عنوان مافى النفس . وقيل : مافى الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال : الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه [6] » ، وقال عمر

= ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال » قال الترمذى : معنى هذا حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال . وللبخارى عن عروة قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فدفعه عنه ... الحديث . وللبزار وأبى يعلى من حديث أنس قال : لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه ، فقام أبو بكر فجعل ينادى : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . وإسناده صحيح على شرط مسلم : (١) حديث « الأئمة من قريش » رواه النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح

(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم . الأرومة الأصل ، هذا معلوم ، فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » وفى رواية الترمذى « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسمعيل » وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبى وداعة وحسنه « إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم » وفى حديث ابن عباس « مابال أقوام يبتذلون أصلى ، فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا » (٣) حديث « تخيروا لنطفكم » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة ، وتقدم فى النكاح . (٤) حديث « إياكم وخضراء الدمن » تقدم فيه أيضا .

(٥) حديث « أفضل السعادة طول العمر فى عبادة الله » غريب بهذا اللفظ ، وللترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال : يارسول الله ، أى الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح .

(٦) حديث « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » أخرجه أبو يعلى من رواية إسمعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة ، وخيرة وأمها لاأعرف حالهما . ورواه ابن حبان من وجه آخر فى الضعفاء ، والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر ، وله طرق كلها ضعيفة .

رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة ، وقال تعالى ممتنا بذلك ﴿ وزاده بسطة فى العلم والجسم ﴾ ولسنا نعنى بالجمال مايحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة ، وإنما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الأعضاء وتناسب خلقة الوجه بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليه .

* فإن قلت . فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد فى حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وكذا العلماء . قال تعالى ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب : الناس أبناء مايحسنون وقيمة كل امرئ مايحسنه . وقيل : المرء بنفسه لابأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا ؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهى عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى ؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها ، إلا أن فيها فتنا ومخاوف ؛ فمثال المال مثال الحية التى فيها ترياق نافع وسم ناقع ، فإن أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وإن أصابها السوادى الغر فهى عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر واللآلئ ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ، ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى المال » وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحببه فى قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه ، ولكن المنقول فى مدحهما قليل ، والمنقول فى ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب ، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص فى بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ، ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام : فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزمون ، فقد يضر الصبى مالا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك ، فله غرض فى الترياق وله غرض فى حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبى ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبى بالهرب ويقبح صورتها فى عينه ويعرفه أن فيها سما قاتلا لاينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك .

(١) حديث ذم المال والجاه . أخرجه الترمذى من حديث كعب بن مالك « ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه » وقد تقدم فى ذم المال والبخل .

فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل . فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة فى حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده[١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم[٢] » وحظهم الأوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك ، وليس لهم فى المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه ، فإن الإنفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم ، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق ، فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها ؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم ، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده فى السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله ؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب[٣] » معناه لأنفسكم خاصة ولا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ويفرقها فى موضعه ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه فى أن يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف[٤] ... الحديث فإذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها ؛ فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا فى حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه .

• فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد ؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد : وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق ، وكذا الارتداد ، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى　　فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ، لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته

---

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله « لولده » وقد تقدم .

(٢) حديث « إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « مثلى ومثل الناس » وقال مسلم « ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه » ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى »

(٣) حديث « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال « بلغة » وقال « مثل زاد الراكب » وقال صحيح الإسناد قلت : هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه « عهد الى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب » .

(٤) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال : مره أن يطعم المسكين ... الحديث أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد ، قلت . كلا ، فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا .

ولكن إذا لم يعلم مافيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا فائدة فى الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ، ولذلك قال تعالى ﴿ ربنا الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أى بهدايته ، فقيل : ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا[1] » وللهداية ثلاث منازل (الأولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فأسباب الهدى هى الكتاب والرسل وبصائر العقول ، وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا ، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، قال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ومن جملة المعميات : الإلف والعادة وحب استصحابهما ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ الآية . وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه ﴾ فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء ، والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمدّ الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ والهداية الثالثة وراء الثانية : وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهتدى بها إلا مالا يهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات ؛ وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ وهو المسمى حياة فى قوله تعالى ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ﴾ والمعنى بقوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على مافيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها ، فالصبى إذا بلغ خبيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لايسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذى لايدرى أنه يضره ولكن ماأعطى الرشد ، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهى نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد فى صوب الصواب فى أسرع وقت ، فإن الهداية بمجردها لا تكفى ، بل لابد من هداية محركة للداعية وهى الرشد والرشد لايكفى ، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء فى صوب السداد ، وأما التأييد فكأنه جامع للكل ، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عزوجل ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وتقرب منه العصمة ، وهى

(١) حديث « مامن أحد يدخل الجنة الا برحمة الله » متفق عليه من حديث أبى هريرة « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا ولاأنت يارسول الله ؟ قال « ولاأنا الا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة » وفى رواية لمسلم « مامن أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » واتفقا عليه من حديث عائشة ، وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

عبارة عن وجود إلهى يسبح فى الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر يصير كمانع من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فهذه هى مجامع النعم ، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير المراعى المتواضع والمعلم الناصح والمال الزائد على مايقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ، ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب ، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وبالله التوفيق .

بيان وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى
وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا ، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة المتأخرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التى بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولابد لها من قدرة على الحركة ، ولابد من إرادة للحركة ، ولابد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للأكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه ؛ فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

الطرف الأول : فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التى لا تنمى ولا تغذى ؛ فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التى فى الأرض ، وهى له آلات ، فبها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط فى أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة فى طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس التى هى آلة الإدراك ، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس بحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه ، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة ، وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التى فى الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب ، لا كالنبات فإن النبات يقطع فلا ينقبض إذ لايحس بالقطع ، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت

ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط ، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية ، فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوّا لا حجاب بينك وبينه ؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا ، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات ، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ، ولولاه لطال الأمر عليك ؛ فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم أنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا ، وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات ، إذ للشاة هذه الحواس كلها ؛ فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا ؛ فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت ، وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا ، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهى أشرف من الكل وهو العقل ، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك وهو أخس فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه ، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحى المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به ، فواحدة منها بأخبار الألوان ، والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ، والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها ، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك ، والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها ؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذى هو الأمير والملك سلم الإنهامات إليه مختومة ، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الأعضاء : مرة فى الطلب ومرة فى الهرب ومرة فى إتمام التدبيرات التى تعنّ له ،

فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الإدراكات ، ولا تظن أنا استوفيناها ؛ فإن الحواس الظاهرة هى بعض الإدراكات ، والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية ، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة ، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب ، ولو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم ، فهذا فى حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس ؛ بل لا يمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة ، مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة ؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثانى : فى أصناف النعم فى خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلا فى حقه ، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة ؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضى الذى يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء ، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات . ثم هذه الشهوة لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى ، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها فى أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء : لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب ، فضلا عما تراه الآن ، ولكنا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى فى الأكل وحده كى لا يطول الكلام ؛ فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب ؛ فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ، فإن كل واحد يشتهى ما فى يديك فتحتاج إلى داعية فى دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلى إلا ما يضر وينفع فى الحال ، وأما فى المآل فلا تكفى فيه هذه الإرادة ، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرّد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة ، وهذه

الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبنى آدم كما أفردت بمعرفة العواقب ، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينيا ، وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

الطرف الثالث : فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب ، فكم من مريض مشتاق إلى شىء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما ، فلا بدّ من آلات للحركة وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا ، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها ؛ فمنها ماهو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدوابّ ، ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان ، وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا ؛ فمنها مايكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ، ومنها ماخلق له أربع قوائم ؛ ومنها ماله رجلان ، ومنها مايدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفى مالم تتمكن من أن تأخذه ؛ فافتقرت إلى آلة باطشة ؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدّتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات فتمتدّ وتنثنى إليك فلا تكون كخشبة منصوبة : ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ؛ ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجعلها فى صفين بحيث يكون الإبهام فى جانب ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض ، ثم خلق لها أظفارا وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا مالم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن ، فلابد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمتين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك ، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحى الأسفل متحركا حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى ، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى ، فسبحانه ماأعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان ، أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها ، وكيف يتصرف باليد فى داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف فى جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى ،

هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام ، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ، ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى إلى المعدة فى دهليز المرىء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ، ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق ، وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية ؛ فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد ، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر فى أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هى التى تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ : إحداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ، ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخلا فى تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى ، فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء ، فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافى فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الاعضاء ، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة ، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها ، وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة : أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف

بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له فى ثفل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث فى الأمعاء لذع يحركها للدفع، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك . وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض، ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقى مع الثفل ، وأما الكلية فإنها تتغذى بما فى تلك المائية من دم وترسل الباقى إلى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الأسباب التى أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها ـ لطال الكلام ، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه ، بل فى الآدمى آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شىء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لاتعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لاتعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهى فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا مايعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك ؟ وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط ، فقس على الإجمال ماأهملناه من جملة ماعرفناه حذرا من التطويل ، وجملة ماعرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب ، ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله فى تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته ؛ وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ؛ ومحله القلب ، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود الذى فى باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذى تشبث به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء ؛ فإنه لايقبل الغذاء الذى يبقى به الروح كما لايقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به ؛ وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل ، وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لايكون إلا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح ؛ وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم

البدن كله وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح وهى أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر مايجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿ لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ عز وجل : فتعسا لمن كفر بالله تعسا ؛ وسحقا لمن كفر نعمته سحقا .

فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال «قل الروح من أمر ربى [1] » فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح ، فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها نحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا ، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه فى الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى فى الأعضاء به . حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ فى شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ومايرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التى هى الأصل وهى التى إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولارخصة فى وصفه إلا بأن يقال : هو أمر ربانى كما قال تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق ، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتتزلزل فى ذكر مبادئ وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شىء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال ، وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا ، فكما يدرك الصبى المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ، ولجناب الحق صدر وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الأمر الربانى ؛ فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان ، فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ، ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا خزانة الأطباء ؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الربانى كالكرة التى يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبى فظن أنه أدرك الأمر الربانى كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ، ولا يشك فى أن خطأه فاحش ، وهذا الخطأ أفحش منه جدا ، ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ، ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته ، أما نسبته ففى قوله تعالى ﴿ من أمر ربى ﴾ وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى ﴿ ياأيها النفس

(١) حديث : أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال « الروح من أمر ربى » متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم فى شرح عجائب القلب .

المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى فى الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الأكل .

الطرف الرابع : فى نعم الله تعالى فى الأصول التى يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمى بعد ذلك بصنعته

اعلم أن الأطعمة كثيرة ، ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لاتتناهى ، وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول ، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية ، فانأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا ، فأحوجك إلى أن تنمو الحبة فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك ! فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك ، فإن النبات إنما يفارقك فى الحس والحركة ولا يخالفك فى الاغتذاء لأنه يغتذى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ، ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء إلى نفسه ، ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لايغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لاتغتذى بكل شىء بل تحتاج إلى شىء مخصوص ، بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ، ولو تركتها فى الماء لم تزد ، ولو تركتها فى أرض لا ماء فيها لم تزد ، بل لا بدّ من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا ... ﴾ الآية ؛ ثم لا يكفى الماء والتراب ، إذ لو تركت فى أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثم الهواء لايتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وإنما إلقاحها فى إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ، ثم كل ذلك لايغنيك لو كان فى برد مفرط وشتاء شات ، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ؛ فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة ، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد ، إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقى ، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار ، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لاترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهى سحب ثقال حوامل بالماء ، ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا ، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى ؛ ونعم الله فى الجبال والسحاب والبحار والأمطار لايمكن إحصاؤها ، وأما الحرارة فإنها لاتحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر ! فهذه إحدى حكم الشمس - والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ! ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر

الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التى يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ، ولانطول فيما لامطمع فى استقصائه ، بل نقول : كل كوكب فى السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لاتفى قوة البشر بإحصائها ، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ﴿ ربنا ماخلقت هذا باطلا ﴾وقوله عزوجل ﴿ وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ وكما أنه ليس فى أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس فى أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحادأجسامه كالأعضاء لهوهى متعاونة تعاون أعضاء بدنك فى جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول ، ولاينبغى أن تظن أنّ الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه فى أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة - مخالف للشرع لما ورد فيه من النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم [1] ، بل المنهى عنه فى النجوم أمران (أحدهما) أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها : وهذا كفر (والثانى) تصديق المنجمين فى تفصيل مايخبرون عنه من الآثار التى لايشترك كافة الخلق فى دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ماهو مختلط لايتميز فيه الصواب عن الخطإ ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى فى الأرض وفى النبات وفى الحيوان ليس قادحا فى الدين بل هو حق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قدطلعت وحمى النهار والهواء لايلزمك تكذيبه ولايلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى لم يلزمك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار ، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول . فالمجهول لايجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر ؛ فإذن الكواكب ماخلقت عبثا ، بل فيها حكم كثيرة لاتحصى ، ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته [2] » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا ، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته ، فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى ؛ فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له ، فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم

---

(١) حديث النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم . أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد مازاد » وللطبرانى من حديث ابن مسعود وثوبان « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » وإسنادهما ضعيف ، وقد تقدم فى العلم . ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يارسول الله ، أمورا كنا نصنعها فى الجاهلية كنا نأتى الكهان ! قال « فلا تأتوا الكهان ... الحديث » .

(٢) حديث قرأ قوله تعالى (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ثم قال « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أى ترك تأملها . أخرجه الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ « ولم يتفكر فيها » وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حية ضعيف .

كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده ، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار ؛ فإذن المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التى هى مركوزة فيها ، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه ، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم فى غالب الأمر شىء ، بل يجمعون فإما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرروا بالأرواح فى ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك ! وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى ، وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج ! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز .

الطرف السادس : فى إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذى ينبت فى الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل ، وهو كذلك ، بل لا بد فى كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى ، واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول ، فلنعين رغيفا واحدا ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض ، فأول ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذى يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرك والتنقية ، ثم الطحن ، ثم العجين ثم الخبز ؛ فتأمل عدد هذه الأفعال التى ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره ! وانظر إلى أعمال الصناع فى إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار ، وحداد وغيرهما ! وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ! وانظر كيف خلق الله تعالى

الجبال والأحجار والمعادن ! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ! فإن فتشت علمت أنّ رغيفاً واحداً لايستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ، فابتدئ من الملك الذى يزجى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهى النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان فى تلك الآلات ، حتى إن الإبرة التى هى آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبرى خمساً وعشرين مرة ويتعاطى فى كل مرة منها عملا، فلولم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفذ عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ! فانظر إلى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشىء معاً ويقطعانه بسرعة ، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التى بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق فى إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ؛ فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان ، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد ، أو عن الحجام الذى هو أخس العمال ، أو عن الحائك ، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ! فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع : فى إصلاح المصلحين

إعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين الأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لاتحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿ لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففى جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدى إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد ، وصار الحجام ينتفع بالحراث، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض . وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة فى ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه

ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين! وانظر كيف أصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذى لاواسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد، والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ لما اهتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لامعطى لما منع ولا مانع لما أعطى، لأنا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار.

الطرف الثامن: فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة: عليهم السلام

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله فى خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحى إليهم، ولا تظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه دون مايجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرها. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لايغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ماوراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الأمر، ثم يصير لحما وعظما، وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهى لاتتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لايكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لايصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديراً مخبوزاً إلا بصناع، فكذلك الدم بنفسه لايصير لحما وعظما وعروقا وعصباً إلا بصناع والصناع فى الباطن هم الملائكة كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة، فأقول: لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم؛ فان الغذاء لايتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره، ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لايكون منفصلا، ولا بد من سابع يرعى المقادير فى الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبى مايجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغى أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته مايليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة

وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع ، بل لو لم يراع هذا الملك العادل فى القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ماينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت فى حد الصغر وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا فى ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فرعاة هذه الهندسة فى هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإن محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لايدرى مايقول ؛ فهذه هى الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت فى النوم تستريح وفى الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم وذلك فى كل جزء من أجزائك الذى لايتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للايجاز ، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لايحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب [1] أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به .

• فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك ، والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس ، وما من واحد منهم إلا وهو وحدانى الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما منا إلا وله مقام معلوم ﴾ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم فى تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس ، فإن البصر لايزاحم السمع فى إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعان الشم ؛ وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفاً فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التى هى آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذى يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحدانى الصفة فلم يكن وحدانى الفعل ، ولذلك نرى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة

---

(١) حديث الأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب ... ؛ فى الصحيحين من حديث أبى ذر فى قصة الإسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا : افتح ، وفيه : أتى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح ... الحديث ، ولهما من حديث أبي هريرة « ان لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » وفى الصحيحين من حديث عائشة فى قصة عرضه نفسه على عبد ياليل « فنادانى ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .. الحديث » ولهما من حديث أنس « ان الله وكل بالرحم ملكا .. الحديث » وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمى « مامن نبت ينبت الا وتحته ملك موكل حتى يحصد ... الحديث » وفيه محمد بن صالح الطبرى وأبو بحر البكراوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف . والطبرانى من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف « ان لله ملائكة ينزلون فى كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة الا دابة فى عنقها جرس » والترمذى وحسنه من حديث ابن عباس : قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » ولمسلم من حديث أبى هريرة : « بينما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة .. الحديث » .

لامجال للمعصية فى حقهم ، فلا جرم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لايفترون ، والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف فى أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لايتعداه ، وطاعتهم لله تعالى من حيث لامجال المخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف فى طاعتك مرة ومعصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا بإشارتك ، فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه ، إذ الجفن لاعلم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون ؛ فإذن هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما فى غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ؛ فإنا لم نطول بذكرها ؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لايمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد مايدخل تحت مجامع الطبقات ، فإذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ فترك باطن الإثم مما لايعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول : كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما ، فإن كل ماخلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به فإن لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ، ونعمة الله تعالى فى ترتيبها صفا واحداً أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبثا للأقذاء التى تتناثر فى الهواء ، وله فى كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها ، وله فى اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل : وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ماتتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر ، فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الاجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء إلى زوايا العين والاجفان ، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين ، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الأجفان ، ولاتقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس : ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ، ولايقوم شىء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشىء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذن قد كفر كل نعمة فى الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولاحيوان ولانبات ولاجماد إلا ويلعنه ، ولذا ورد فى الأخبار أن البقعة التى يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر

(١) حديث « ان البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم » لم أجد له أصلا .

له كل شيء حتى الحوت فى البحر [1] وأن الملائكة يلعنون العصاة [2] فى ألفاظ كثيرة لايمكن إحصاؤها ، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع مافى الملك والملكوت ، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه . وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام « ياأيوب مامن عبدلى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرنى على نعمائى قال الملكان : اللهم زده نعما على نعم ، فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علو رتبة ، وعندى أنى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم » .

وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة ، فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من أجزاء العالم ، فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ قال : إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان : أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها ؟ وكذا ورد فى الأثر : أن من لم يعرف نعم الله فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه .

وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لاتقع عينه فى العالم على شيء ولايلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه ، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع فى غير مطمع .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولايتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : الحمد لله ، الشكر لله . ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما ؛ فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال ، والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر فى بعضها ؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينيه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره

---

(١) حديث « إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر » تقدم فى العلم (٢) حديث « ان الملائكة يلعنون العصاة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة الملائكة تلعن أحدكم اذا أشار الى أخيه بحديدة وان كان أخاه لأبيه وأمه .

أحس به وشكره وعدّه نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق وبذل لهم فى جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهل نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا فقال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا : فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال : لا ، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشر آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا !

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا ، فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له : تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف؟ قال : لا ، فعدّد عليه سوراً ثم قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظنى ! فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم . قال : فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء .

فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة — وقد ذكرنا النعم العامة — فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول : مامن عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد ، وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور : فى العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل . فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه، فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه فى حقه كالباقى .

وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها ، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء .

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره وما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ! فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله ، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد ؛ فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقا. وأما فى بعض الأمور فلنتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا ، فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو فى سائر محابه أموراً

لوسلب ذلك منه وأعطى ماخصص به غيره لكان لايرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليما لامعيبا ؛ فإنّ كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها ، بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا ، وذلك إما أن يكون بحيث لايبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر ؛ فإذا كان لايبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لايعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما فى أمر خاص ؛ فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير مما هو فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه ، وما باله لا يسوى دنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن فى الفساق كثرة ! فينظر أبدا فى الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ، فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خير منه ، وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق ،فكيف لايلزمه الشكر و إذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا. ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه وفى الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا »[(١)] ، فإذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ، ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ... فى دينه ثم فى دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله »[(٢)] ، وهذا إشارة إلى نعمة العلم. وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه »[(٣)] ، وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أنّ أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله »[(٤)] ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[(٥)] ، وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى »[(٦)] ، وقال بعض السلف : يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة « إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه » وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

---

(١) حديث « من نظر فى الدنيا الى من هو دونه ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المثنى بن الصباح ضعيف . (٢) حديث « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » لم أجده بهذا اللفظ . (٣) حديث « ان القرآن هو الغنى الذى لاغناء بعده ولا فقر معه » أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ « ان القرآن غنى لافقر بعده ولاغنى دونه » قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا ، وهو أشبه بالصواب .

(٤) حديث « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » أخرجه البخارى فى التاريخ من حديث رجاء الغنوى بلفظ « من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم » وقد تقدم فى فضل القرآن ، ورجاء مختلف فى صحبته . وورد من حديث عبدالله بن عمرو وجابر والبراء بنحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » تقدم فى آداب التلاوة . (٦) حديث « كفى باليقين غنى » رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ، ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [1] » ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ؛ مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الإيمان الذى به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم ، بل البصير ينبغى أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك : لم يأخذه ، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى فى الآخرة ، بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات فى الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به ، لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها ، هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا تكون مابقى من الزمان إذ ماخلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت ، كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها فى تعب قائم وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها فى لحظة ، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره ، فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها ، ولا ينبغى أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ، فإن المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها ، وتألم المعرض يفضى إلى لذة فى الآخرة وتألم المقبل يفضى إلى الألم فى الآخرة ، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ فإذن إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة .

• فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها ، فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية ، إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التى تقام فيها الحدود ، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل فى صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله تعالى فليتدارك ، وأما من أطاع فليزد فى طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبنى إذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات ، وأما العاصى فغبنه ظاهر ، فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقى لهم من العمر مابقى له ، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهى أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى فى بقية العمر ، بل فى الإمهال فى كل نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى

---

(١) حديث « من أصبح آمنا فى سربه ... الحديث » تقدم غير مرة .

فعساها تشكر . وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة ، فكان قد حفر فى داره قبرا فكان يضع غلا فى عنقه وينام فى لحده ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا ﴾ ثم يقوم ويقول: يا ربيع قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد .

ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفى الخبر « ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال (١) » وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول : ما ذكرته فى النعم إشارة إلى أن لله تعالى فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لاوجود له أصلا فما معنى الصبر إذن . وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء . وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة ، فكيف يتصور الشكر على البلاء ، وكيف يشكر على مايصبر عليه والصبر على البلاء يستدعى ألما والشكر يستدعى فرحا وهما يتضادان ، وما معنى ماذكرتموه من أن لله تعالى فى كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان فنقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه : أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول فى جوار الله تعالى ، وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق ومايعين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه ، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق فى الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا . وأما فى الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهى التى تفضى إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التى لاتكون بلاء فى الدين بل فى الدنيا ، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق فى الدنيا فقد لايؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية ، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصى ، نعم الكافر قد لايعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليها ، والعاصى يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية ، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ؛ فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون

(١) حديث « ماعظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه .: . الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ « الا عظمت مؤنة الناس عليه ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة... الحديث » ورواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وقال : انه موضوع على حجاج الأعور .

سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده . والصحة أيضا كذلك ؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك مامن بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة ؛ فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى ؛ قال الله تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ﴾ وقال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه »[1] ، وكذلك الزوجة والولد والقريب ، وكل ماذكرناه فى الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصور أن تكون بلاء فى حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعما فى حقهم ، إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد فى بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة ، مثاله : جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه ؛ وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه فى الدنيا والآخرة ، بل جهله بالصفات المحمودة فى غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته ، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم ، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف . ومنها : إبهام الله تعالى أمر القيامة ، وإبهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإبهامه بعض الكبائر ، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل فكيف فى العلم . وحيث قلنا إن لله تعالى فى كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك مطرد فى حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التى يخلقها فى بعض الناس ، وهى أيضا قد تكون نعمة فى حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة فى حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به ، وألم الكفار فى النار فهو أيضا نعمة ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها ، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا فى آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة ، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهى أحسن من كل بستان لهم فى الأرض يجتهدون فى عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فإذن قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم ، فإذن فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة ، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعا .

• فإن قلت : فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم ، ولا شكر إلا على فرح ؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله

(١) حديث « ان الله ليحمى عبده من الدنيا ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا . (الثانى) أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه : قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى ! فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه. وكان لبعض أرباب القلوب صديق لحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال : اشكر الله ، فجيء بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى ، فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال : اشكر الله ، فقال : إلى متى هذا ، وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع؟ فإذن ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة ، وقيل لبعضهم : لا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ! فقال : أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر .

* فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فاعلم أن الكافر قد خبئ له ما هو أكثر ، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ وأما المعاصى فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ، ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال تعالى فى مثله ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك . وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر : وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا [1] » . (الرابع) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة . (الخامس) أن ثوابها

---

(١) حديث « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث على « من أصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ... الحديث » لفظ ابن ماجه . وقال الترمذى « من أصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنيا » وقال حسن . وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت « ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ... الحديث » .

أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين ، أحدهما : الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة حق الصبى ، فإنه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التى هى أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان فى بعض الأحوال ، بل العقل الذى هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه ، فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه ، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا ، كما يشكر الصبى بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روى أنّ رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى قال « لا تتهم الله فى شيء قضاه عليك »(١) ، ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال « عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له »(٢) ، الوجه الثانى : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته ، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »(٣) ، والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأنّ إليها ، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى ، وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى ، بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب إلا الواحد الحق ؛ فإذن فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضرورى ، وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا ، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح ، فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل ، بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه ، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد ؛ فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ؛ فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ، ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصوّر منه الشكر ؛ لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ،

---

(١) حديث : قال له رجل أوصنى قال « لاتتهم الله فى شيء قضاه عليك » رواه أحمد والطبرانى من حديث عبادة بزيادة فى أوله ، وفى إسناده ابن لهيعة . (٢) حديث : نظر إلى السماء فضحك . فسئل فقال « عجبت لقضاء الله المؤمن ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء ، وضحكه « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث سعد بن أبى وقاص « عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر .. الحديث » (٣) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة . وحكى أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما ٭ صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده ٭ والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس : ماعزانى أحد أحسن من تعزيته .

والأخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه [١] » وقال صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى « إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا » وقال عليه السلام « ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى ﴿ إنا لله وإنه إليه راجعون ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله ذلك به » وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى « من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى » وروى أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالى وسقم جسمى فقال صلى الله عليه وسلم لا خير فى عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره [٢] » وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك [٣] » وعن خباب بن الأرت قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه فى ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يارسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال « إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له فى الأرض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه [٤] » وعن على كرّم الله وجهه قال : أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد ، وإن ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على مايفنى وتذرون مايبقى ، ألاحبذا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى : لبيك عبدى وسعديك لا تسألنى شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك عندى ماهو أفضل منه ، فإذا كان يوم القيامة جىء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان : أهل

---

(١) حديث « من يرد الله به خير يصب منه » رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالى وسقم جسدى فقال « لاخير فى عبد لايذهب ماله ولايسقم جسده ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض والكفارات من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث « إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك » رواه أبو داود فى رواية ابن داسه ، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمى عن أبيه عن جده ، وليس فى رواية اللؤلؤى . ورواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من هذا الوجه ، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقى ، وكذلك لم يروعن خالد إلا ابنه محمد ، وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم ، فالله أعلم . وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامرى ذاك مشهور روى عنه جماعة . ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة من رواية عبد الله بن أبى إياس بن أبى فاطمة عن أبيه عن جده . ورواه البيهقى من رواية إبراهيم السلمى عن أبيه عن جده فالله أعلم .

(٤) حديث خباب بن الأرت : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء فى ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث ... تقدم .

الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون مايذهب به أهل البلاء من الثواب [(١)] ، فذلك قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ، ويكون الكافر لا يطيعك ويجترئ عليك وعلى معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ؛ فأوحى الله تعالى إليه « إنّ العباد لى والبلاء لى وكل يسبح بحمدى ، فيكون المؤمن عليه من الذنوب ، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه ، حتى يلقانى فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا ، حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته .

وروى أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ؟ ألست يصيبك الأذى ؟ ألست تحزن ؟ فهذا مما تجزون به [(٢)] » يعنى أن جميع مايصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله مايحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج » ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ [(٣)] » يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أى بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة .

وعن الحسن البصرى رحمه الله : أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية ، فكلمها ثم تركها ، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا [(٤)] » وقال على كرم الله وجهه : ألا أخبركم بأرجى آية فى القرآن ؟ قالوا : بلى ، فقرأ عليهم ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار ؛ فإذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ماتجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها . ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله ، أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله . وما خطا عبد

---

(١) حديث أنس « إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشى عن أنس أخصر منه دون قوله « فإذا كان يوم القيامة ... إلى آخره » وبكر بن خنيس والرقاشى ضعيفان . ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشى ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف . (٢) حديث لما نزل قوله تعالى (من يعمل سوءا يجز به) قال أبو بكر الصديق : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ... الحديث » ، من رواية من لم يسم عن أبى بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه . قال : وليس له إسناد صحيح . وقال الدارقطنى : وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير ، قال : وليس فيها شيء يثبت . (٣) حديث عقبة بن عامر « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله مايحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ... الحديث » رواه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن .

(٤) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط ... الحديث ، وفيه « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا » أخرجه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مغفل مرفوعا ومتصلا . ووصله الطبرانى أيضاً من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس ، وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى .

خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة ، وخطوة إلى صلة الرحم (١) » .

وعن أبي الدرداء قال : توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر : ماتقول ؟ فقال : أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه . فقال سليمان عليه السلام : ولم بذرت على الطريق ، أما علمت أن لابد للناس من الطريق ؟ قال : فلم تحزن على ولدك ، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك .

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يابني ، لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك ، فقال ياأبت ، لأن يكون ماتحب أحب إلى من أن يكون ماأحب .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي إليه ابنة له ، فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ، ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله تعالى ، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال : قد صنعنا ماأمر الله تعالى : قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه مجوسي يعرفه ؛ فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك : اكتبوا عنه هذه .

وقال بعض العلماء إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وماله ذنب .

وقال الفضيل إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير .

وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم .

وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك ، فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه أنة ؛ فأوحى الله تعالى إليه يازكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة ، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين .

وقال أبو مسعود البلخي : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل .

وقال لقمان رحمه الله لابنه : يابني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء ، فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضرسي ، فقلت لعمي : ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام « إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلى

---

(١) حديث أنس « ماتجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين ، وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث . وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد : مامن جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة « ماقطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عزوجل من دم رجل مسلم في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل ... الحديث » وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي المنكر الحديث .

كما لاأشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائحك ، نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة .

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول : هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ فأقول : لاوجه لذلك ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة (٢) » وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها (٣) .

وقال على كرم الله وجهه . اللهم إنى أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت البلاء فاسأله العافية (٤) » وروى الصدّيق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية ، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين (٥) » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

• وقال الحسن رحمه الله الخير الذى لاشر فيه : العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر .

وقال مطرّف بن عبد الله : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلى فأصبر .

وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه « وعافيتك أحب إلى (٦) » .

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد ، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ماهو أكثر منه إما فى الدنيا أوفى الدين ، والآخر بالإضافة إلى مايرجى من الثواب ؛ فينبغى أن نسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع مافوقه من البلاء ، ونسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطى على الشكر مالايعطيه على الصبر .

فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا فى النار . وقال سمنون رحمه الله تعالى :

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة رواه أحمد من حديث بشر بن أبى أرطاة بلفظ « أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » واسناده جيد . ولأبى داود من حديث عائشة « اللهم انى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة » وفيه بقية وهو مدلس ، ورواه بالمنعنة .

(٢) حديث : كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » أخرجه البخارى ومسلم من حديث أنس : كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم آتنا فى الدنيا ... الحديث » ولأبى داود والنسائى من حديث عبد الله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مابين الركنين « ربنا آتنا ... الحديث » (٣) حديث : كان يستعيذ من شماتة الأعداء : تقدم فى الدعوات (٤) حديث قال على رضى الله عنه : اللهم انى أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فسله العافية » رواه الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث وحسنه ، ولم يسم عليا وإنما قال : سمع رجلا . وله وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث على : كنت ساكنا فر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول .. الحديث . وفيه : فإن كان بلاء فصبرنى ، فضربه برجله وقال « اللهم عافه واشفه » وقال حسن صحيح .

(٥) حديث أبى بكر الصديق « سلوا الله العافية ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد جيد ، وقد تقدم . (٦) حديث « وعافيتك أحب الى » ذكره ابن اسحق فى السيرة فى دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ « وعافيتك أوسع لى » وكذا رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ! فاعلم أنه حكى عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الإنسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظنّ المحب بنفسه حبا لمثل ذلك ، فمن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع فى الكلام ، ولو زايله سكره علم أن ماغلب عليه كان حالة لاحقيقة لها ، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعوّل عليه ، كما حكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذى يمنعك عنى ـ ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك ؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال : يانبى الله كلام العشاق لايحكى ، وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد مالا يريد ، لأن من أراد الوصال ماأراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذى لم يرده ، بل لايصدق هذا الكلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال (الثانى) أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث إنه رضاه فقط ، ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته ، فعند ذلك يتصور أن يريد مافيه الرضا ، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا ، فهؤلاء إذا قدروا رضاه فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لايبعد وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لاتثبت ، وإن ثبتت مثلا فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لايليق بما نحن فيه ، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المنانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أنّ الناس اختلفوا فى ذلك ، فقال قائلون : الصبر أفضل من الشكر . وقال آخرون : الشكر أفضل . وقال آخرون : هما سيان . وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل ، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول . فى بيان ذلك مقامان :

(المقام الأول) البيان على سبيل التساهل : وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولايطلب التفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة ، وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمده الوعاظ ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم ، والظئر المشفقة لاينبغى أن تصلح الصبى الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف ، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوته ، ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته فنقول : هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع ، وذلك يقتضى تفضيل الصبر ، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ماورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر ، بل فيه ألفاظ

صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر [١] » وفى الخبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أماترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول : نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كلا ، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت ، لأضعفن لك الأجر عليه ، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين [٢] ، وقد قال الله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر [٣] » فهو دليل على أنّ الفضيلة فى الصبر إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر ، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل [٤] » وكقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن [٥] » وأبدا المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لايدل على أنّ الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام « الصوم نصف الصبر » فإنّ كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت ، كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوى العلم . وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه . وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه [٦] » وفى خبر آخر « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا [٧] » وفى الخبر « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد ، وأوّل من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام [٨] » .

وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ؛ لأنّ الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

(المقام الثانى) هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف

---

(١) حديث « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » تقدم (٢) حديث : يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض ... الحديث . لم أجد له أصلا . (٣) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

(٤) حديث « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » أخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، أو الطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت : كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ قال : طاعة أزواجهن . وفى رواية : ماجزاء غزوة المرأة ؟ قال طاعة الزوج... الحديث » وفيه القاسم بن فياض ، وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات ، (٥) حديث « شارب الخمر كعابد الوثن » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ « مدمن الخمر » ورواه بلفظ « شارب » الحارث بن أبى أسامة من حديث عبد الله بن عمر ، وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى : لن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى .

(٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه ، وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ بن جبل « يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما » وقال : لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفى ثقة . وروى البزار من حديث أنس « أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن ابن عوف » وفيه أغلب بن تميم ضعيف . (٧) حديث « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا » تقدم حديث معاذ قبله . ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ، ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس . والحديث منكر : (٨) حديث « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد .. الحديث » لم أجد له أصلا ولاف الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة ؛ فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده لن مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان : ولقد ذكرنا أن مابين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما ، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان . والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم ، وأحوال ، وأعمال ، والشكر والصبر وسائر المقامات هى كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين فى الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال ، والأعمال هى الأفضل ; وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك ؛ فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم ؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال ؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه : وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد المعارف ، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهى أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة ؛ ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ؛ وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ؛ فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب ، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته وصفاته ، وأفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهى الغاية التى تطلب لذاتها ، فإن السعادة تنال بها بل هى عين السعادة ، ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها فى الآخرة ، فهى المعرفة الحرة التى لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها . وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها . ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الإفضاء إلى معرفة الله تعالى : فإن بعض المعارف يفضى إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة ، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهى أفضل وأما الأحوال فنعنى بها أحوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها فى إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة ، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هى أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود ، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا ، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه . واسم الأول المعصية ، واسم الثانى الطاعة ، والمعاصى من حيث التأثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات فى تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره ، ولكن التحقيق فيه أن الغنى الذى معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام ، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه ، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره ، وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به ، بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه ، والشح المطاع من جملة

المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال ؛ فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذه مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه ، فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ ، إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب ؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل : السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر ؟ لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا : السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء ، لأن السكنجبين مراد له ، وما يراد لغيره فلذلك أفضل منه لا محالة ، فإذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه ، فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل .

• فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به . والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه .

واضرب مثلا أقرب من هذا : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به ، وأعلم أن لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن ، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري ، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا ، فأي معنى لقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ولو شاء الله اطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ وقالوا أيضا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ﴾ فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو جل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا : هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل

العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه وتأكده فى قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به فى استجراره إلى ما فيه سعادته ، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق ، فإذن هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك ؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرض فى أن يصنع شيئا بالدم ، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) ، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) ، والمقصود أن الأعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة ، فهذا هو القول الكلى والقانون الأصلى الذى ينبغى أن يرجع إليه فى معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ، ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول : فى كل واحد منهما معرفة وحال وعمل ، فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال ، أو العمل فى الآخر ، بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب ، وبعد التناسب يظهر الفضل ، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر : أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى . ومعرفة الصابر : أن يرى العمى من الله ، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرنا فى البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية ، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين ، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة : وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة ، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشىء على نفسه ؛ فإذن مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء وقد ظهر حكمهما فى الطاعة والمعصية ، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة ، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا ، وإما أن تقع فى محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال ، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى فى بعض المعاصى ، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما فى الطاعة ، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر ؛ فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين ؛ وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ؛ فقد دخل الصبر فى شكره ، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ، ولكان الكمال فى أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا

(١) حديث النهى عن كسب الحجام : تقدم : (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها . أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة « ان هذه الصدقة لا تحل لنا انما هى أوساخ القوم وانها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » وفى رواية له « أوساخ الناس » .

لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة فى الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين ، وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين ، وذلك لا يكون إلا بصبر ، وأما مايقع فى محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ماوراءه ، ففى الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ، ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل فى المعصية ، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح ، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها ، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الغنى الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغنى الصارف ماله إلى الخيرات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى ، وهذه الحالة تستدعى لامحالة قوة ؛ والغنى أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لابد من قوة فى الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التى يدل العمل عليها ، فإن الأعمال لاتراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة فى الإيمان فهو أفضل لامحالة ، وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فى الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولايستعين بالنعمة على المعصية ، لا أن يصرفها إلى الطاعة ، فإذن الصبر أفضل من الشكر ، أى الصبر الذى تفهمه العامة أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة ، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر : أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ولامدح الفقير بالعدم ، وإنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما ، فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها ، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما كان الذى ألم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها . والأمر على ماقاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر فى القسم الأخير الذى ذكرناه ، وهو لم يرد سواه . ويقال : كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك وقال : الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة ، فكان يقول : دعوة الجنيد أصابتنى ، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر .

ومهما لاحظت المعانى التى ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجها فى بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لايمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقى يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه ، على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولاتقليد منه ، بل أداء لحق الله تعالى فى تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر .

* فإن قلت : فهذا لايثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر ؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر ؛ فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته فى القدرة على الإنفاق * فاعلم أنّ الذى تراه أنّ من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها ، وذلك يضاهى ضرب كلب الصيد ، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة فى البداية ولايحتاج إليهما فى النهاية ، بل النهاية أن يصير ماكان مؤلما فى حقه لذيذا عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا . وقد كان مؤلما له أولا ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين فى البداية - بل قبل البداية بكثير - كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذى يؤلم صفته أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذن إذا كنت لاتفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر أطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام ؛ فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإنّ للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا وهو الرضا وهو مقام وراء الصبر ، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا ؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لاألم فيه ولافرح ، والشكر لايمكن إلا على محبوب مفروح به ، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ، ويدخل فى جملتها أمور دونها ؛ فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأنّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر ، والعلم بأنّ الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ؛ إذ قال عليه السلام « من لم يشكر الناس لم يشكر الله (١) » وقد ذكرنا حقيقة ذلك فى كتاب أسرار الزكاة ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لاتنحصر آحادها ؛ وهى درجات مختلفة ؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد فى الأخبار والآثار .

وقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت فى بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن فى السن فسألته عن حاله فقال : إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى ؛ فاتفق أنها زوجت منى ، فليلة زفافها قلت : تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله تعالى على ماجمعنا ، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فمذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يافلانة ؟ قالت العجوز : هو كما يقول الشيخ ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة ، أولو لم يجمع الله بينهما ، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أنّ هذا الشكر أفضل ؛ فإذن لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق . والله أعلم .

---

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم فى الزكاة .

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه . وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته ، وصدهم عن التعرض لأنمته والتهدف لسخطه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته .

(أما بعد) فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ـ إلا أزمة الرجاء . ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ـ مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ـ إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف ، فلا بد إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما . ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشمل على شطرين : الشطر الأول فى الرجاء ، والشطر الثانى فى الخوف .

أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء ، والطرق الذى يجتلب به الرجاء .

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال ، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل ، وإلى ماهو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب ؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال . والحال يقتضى العمل ،وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة ، وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر فى الاستقبال ، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكرا وتذكرا ، وإن كان ماخطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وإدراكا ، وإنما سمى وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شىء فى الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمى انتظارا وتوقعا ، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم فى القلب سمى خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو محبوب عنده ، ولكن ذلك

المحبوب المتوقع لابدّ وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنى أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على مايتردد فيه ، أما مايقطع به فلا ، إذ لايقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأنّ ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقه الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لاينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ، ولاينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لاينمو بذر فى أرض سبخة ، فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوّس ، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل مايمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته : سمى انتظاره رجاء . وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لاينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه : سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة ولكن لاماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا : سمى انتظاره تمنيا لارجاء ؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة : وكان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت : وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنه »[1] ، وقال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ وقال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ﴿ ماأظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا ﴾ فإذن العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وماتمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصى فإذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير لحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبل التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق إليها ، لحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأنّ كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود

(١) حديث « الأحمق من اتبع نفسه هواها .. الحديث » تقدم غير مرة .

الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لايتعهده بسق ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد ، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد ، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لاينبت : فيترك لامحالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها ، والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لايظهر ذلك فى حق الله تعالى ؟ فإن كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ؟ فقال « كيف أصبحت ؟ » قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شىء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه ، وإذا فاتنى منه شىء حزنت عليه وحننت إليه . فقال « هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالى فى أى أوديتها هلكت » فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير ، فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور [1] » .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما فى وقت الموت : قال تعالى ﴿ لاتقنطوا من رحمة الله ﴾ فحرم أصل اليأس ، وفى أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه . أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . وقال صلى الله عليه وسلم « لايموتن

(١) حديث : قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لايريد ... الحديث . أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، وفيه أنه قال « أنت زيد الخير » وكذا قال ابن أبى حاتم سماه النبى صلى الله عليه وسلم زيد الخير يروى عنه حديث ، وذكره فى حديث يروى : فقام زيد الخير فقال : يارسول الله ... الحديث ، سمعت أبى يقول ذلك

أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء (٢) » . ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى . فقال صلى الله عليه وسلم « ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه مما يخاف (٣) » وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجاء غفرانه غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله عزوجل عير قوما فقال ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته قال : يارب رجوتك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعالى . قد غفرته لك (٤) » وفى الخبر الصحيح : أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيرا قط ، فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا (٥) » فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات . وقال تعالى ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ ولما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم » فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقنط عبادى ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم (٦) . وفى الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى خلقى . فقال : يارب ، كيف أحببك إلى خلقك ؟ : اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل (٧) ورئى أبان بن أبى عياش فى النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال : أوقفنى الله تعالى بين يديه فقال : ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحببك إلى خلقك ، فقال : قد غفرت لك . ورئى يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم ، فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى الله بين يديه وقال . ياشيخ السوء ، فعلت وفعلت ، وقال : فأخذنى من الرعب مايعلم الله ، ثم قلت : يارب ماهكذا حدثت عنك ، فقال : وماحدثت عنى ؟ فقلت : حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء ، وكنت أظن بك أن لا تعذبنى ، فقال الله عزوجل : صدق جبريل وصدق نبيى ، وصدق أنس ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين

---

(١) حديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) حديث أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة دون قوله « فليظن بى ماشاء » .

(٣) حديث : دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال : « كيف تجدك ؟ الحديث » رواه الترمذى وقال غريب ، والنسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من حديث أنس وقال النووى : إسناده جيد

(٤) حديث « إن الله يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد ، وقد تقدم فى الأمر بالمعروف .

(٥) حديث : إن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى مسعود « حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عزوجل : نحن أحق بذلك ، تجاوزوا عنه . واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه .

(٦) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ... الحديث » وفيه « فهبط جبريل ... الحديث » أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، فأوله متفق عليه من حديث أنس ، ورواه بزيادة « ولخرجتم إلى الصعدات » أخرجه أحمد والحاكم ، وقد تقدم .

(٧) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى .. الحديث » لم أجد له أصلا ، وكأنه من الإسرائيليات كالذى قبله .

يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت : يالهـا من فرحة . وفى الخبر « أنّ رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط النـاس ويشدّد عليهم ، قال : فيقول له الله تعالى يوم القيامة . اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى : ياحنان يامنان ، فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فائتنى بعبدى . قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان . قال : فيقول ردّوه إلى مكانه . قال : فيمشى ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عزوجل : إلى أى شىء تلتفت ! فيقول : لقد رجوت أنْ لاتعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة [2] » فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفى الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصى فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لايستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظرا إلى مواقع العلل معالجـاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها ؛ وإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد فى ميله عن الوسط ، وهذا الزمان زمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا . قال على كرّم الله وجهه إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله .

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذى يظن أنّ كل شىء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين ، أحدهما . الاعتبار ، والآخر . استقراء الآيات والأخبار والآثار .

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ماذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الإنسان حتى أعدّ له فى الدنيا كل ما هو ضرورى له فى دوام

---

(١) حديث : أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ... الحديث » رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم ، فذكره مقطوعا . (٢) حديث أن رجلا يدخل « النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله ، والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث أنس .

الوجود كآلات الغذاء وماهو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لاينثلم بفقده غرض مقصود ؛ وإنما كان يفوت به مزية جمال ، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة فى الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لايعذب بعد الموت أبدا مثلا أولايحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة ، وإنما الذى يتمنى الموت نادر ، ثم لايتمناه إلا فى حال نادرة وواقعة هاجة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لاتجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ، ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له : ومافيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط فى حفظ دينه ، فكيف لايحفظ دينه الذى لاعوض له منه ؟

الفن الثانى : استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر ، أما الآيات فقد قال تعالى ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولايبالى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه ، وإنما خوف بها أولياءه فقال ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ ويقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له : أماترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم (٢) ﴾ . وفى تفسير قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال « لايرضى محمد وواحد من أمته فى النار ، وكان أبو جعفر محمد بن على يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية ، ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة عجل الله عقابها فى الدنيا : الزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتى رجل من أهل الكتاب فقيل : هذا فداؤك من النار (٣) »

---

(١) حديث : قرأ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى أخرجه الترمذى من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب . (٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له : أماترضى وقد أنزل عليك (ولن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) لم أجده بهذا اللفظ . وروى ابن أبى حاتم والثعلبى فى تفسيرهما من رواية على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحدا العيش ... الحديث » . (٣) حديث أبى موسى « أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها عجل الله عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن .. الحديث » أخرجه أبو داود دون قوله « فإذا كان يوم القيامة ... الخ » فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف ، وفى صحيحه من حديث أبى موسى كما سيأتى ذكره فى الحديث الذى يليه .

وفى لفظ اخر « يأتى كل رجل من هذه الأمة بيهودى أونصرانى إلى جهنم فيقول : هذافدائى من النارفيلق فيها[١] » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار [٢] » وروى فى تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة السلام : إنى أجعل حساب أمتك إليك . قال « لايارب أنت أرحم بهم منى » فقال « إذن لانخزيك فيهم [٣] » . وروى عن أنس : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال « يارب اجعل حسابهم إلى لئلايطلع على مساويهم غيرى » فأوحى الله تعالى إليه : هم أمتك وهم عبادى ، وأناأرحم بهم منك ، لاأجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولاغيرك [٤] . وقال صلى الله عليه وسلم « حياتى خير لكم وموتى خير لكم ، أما حياتى فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع . وأما موتى فإنّ أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه ، ومارأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم يوما « ياكريم العفو » فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير : ياكريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه [٦] . وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة . فقال « هل تدرى ماتمام النعمة ؟ » قال لا . قال « دخول الجنة [٧] » قال العلماء : قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وفى الخبر « إذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عزوجل لملائكته : انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أنّ له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له [٨] » وفى الخبر « لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له مااستغفرلى ورجانى [٩] » وفى الخبر « لولقينى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقراب الأرض مغفرة [١٠] » وفى الحديث « إنّ الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة [١١] » وفى لفظ آخر : « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب

---

(١) حديث « يأتى كل رجل من هذه الأمة بيهودى أو نصرانى الى جهنم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى موسى « اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول : هذا فداؤك من النار » وفى رواية له « لايموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا » . (٢) حديث « الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار » أخرجه أحمد من رواية أبى صالح الأشعرى عن أبى أمامة ، وأبو صالح لايعرف ولايعرف اسمه . (٣) حديث « ان الله أوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم إنى أجعل حساب أمتك اليك . فقال « لايارب أنت خير لهم منى .. الحديث » فى تفسير قوله تعالى (يوم لايخزى الله النبى) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله . (٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال « يارب اجعل حسابهم الى . الحديث » لم أقف له على أصل . (٥) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم .. الحديث أخرجه البزار من حديث عبدالله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح ، الا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وان أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائى فقد ضعفه كثيرون ، ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف .

(٦) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما « يا كريم العفو » فقال جبريل . أتدرى ماتفسير ياكريم العفو ؟ الحديث : لم أجده عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل ، هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد . ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثنى بعض الزهاد ... فذكره .

(٧) حديث سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة ... الحديث : تقدم . (٨) حديث « اذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « ان عبدا أصاب ذنبا فقال : أى رب أذنبت ذنبا فاغفر لى ... الحديث » وفى رواية « أذنب عبد ذنبا فقال ... الحديث »

(٩) حديث « لوأذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس « يابن آدم لوبلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك » وقال : حسن . (١٠) حديث « لولقينى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر « ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لايشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة » وللترمذى من حديث أنس الذى قبله « يابن آدم لو لقيتنى ... الحديث . (١١) حديث « ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه . الحديث » قال : وفى لفظ آخر « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال =

الشمال وهو أمير عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه السيئة » وروى أنس فى حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال « إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه » فقال أعرابى: وإن تاب عنه ؟ قال « محى عنه » قال : فإن عاد ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم « يكتب عليه » قال الأعرابى : فإن تاب ؟ قال « محى من صحيفته » قال : إلى متى ؟ قال « إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل ، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار ؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل[1] » .

وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله فى مالى صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم معى ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل ، والحسد ؛ ولسانك من اثنتين: الغيبة، والكذب؛ وعينيك من اثنتين : النظر إلى ماحرم الله ، وأن تزدرى بهما مسلما ـ دخلت معى الجنة على راحتى هاتين[2] » وفى الحديث الطويل لأنس : أن الأعرابى قال : يارسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ فقال « الله تبارك وتعالى » قال : هو بنفسه ؟ قال « نعم » فتبسم الأعرابى ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « مم ضحكت يا أعرابى ؟ » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صدق الأعرابى ، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الأكرمين » ثم قال « فقه الأعرابى[3] » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى » قال الأعرابى : ومن أولياء الله تعالى ؟ قال « المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ » وفى بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة[4] » و « المؤمن طيب

= وهو أمير عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا أطول منه وفيه « ان صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال » وليس فيه : أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ، ولم أجد لذلك أصلا .

(١) حديث أنس « إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه » فقال أعرابى : فإن تاب عنه ؟ قال « محى عنه » قال : فإن عاد ؟ .. الحديث . وفيه « إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار » الحديث أخرجه البيهقى فى الشعب بلفظ: فقال : يارسول الله إنى أذنبت ذنبا . قال « استغفر ربك » قال : فأستغفر ثم أعود . قال « فإذا عدت فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعا . قال : فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحجور المحسور » وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصرى منكر الحديث . وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر : أحدنا يذنب ؟ قال « يكتب عليه » قال: ثم يستغفر ويتوب ؟ قال « يغفر له ويتاب عليه » قال: فيعود .. الحديث . وفيه « لا يمل الله حتى تملوا » وليس فى الحديثين قوله فى آخره « فإذا هم العبد بحسنة . . الخ » وهو فى الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه « فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » زاد مسلم فى رواية « أو محاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » ولهما نحوه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : جاء رجل فقال : يارسول الله إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله فى مالى صدقة ولا حج ولا تطوع ... الحديث تقدم . (٣) حديث أنس الطويل : قال أعرابى : يارسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ قال « الله تبارك وتعالى » فقال هو بنفسه ؟ قال « نعم » فتبسم الأعرابى .. الحديث ، لم أجد له أصلا .

(٤) حديث « المؤمن أفضل من الكعبة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ « ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا » وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وقد تقدم .

طاهر [١] » و « المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة [٢] » وفى الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة [٣] » . وفى خبر آخر « يقول الله عز وجل : إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم [٤] » وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه [٥] » وفى الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى تغلب غضبى [٦] » وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة [٧] » . و « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار [٨] » و « من لقى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار [٩] » . و « لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان [١٠] » وفى خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد [١١] » ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ قال « أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام : قم فابعث بعث النار من ذريتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مالكم لا تعملون » فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال « كم أنتم فى الأمم ؟ أين تاويل وتاريس ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لا يحصيها إلا الله تعالى ، إنما أنتم فى سائر الأمم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، وكالرقمة فى ذراع الدابة [١٢] » فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة

---

(١) حديث « المؤمن طيب طاهر » لم أجده بهذا اللفظ ، وفى الصحيحين من حديث حذيفة « المؤمن لا ينجس » .

(٢) حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائكة » أخرجه ابن ماجه من رواية أبى المهزم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة بلفظ « المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة » وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف . (٣) حديث « خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى الجنة » لم أجده هكذا ، ويغنى عنه ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة « عجب ربنا من قوم يجاء بهم الى الجنة فى السلاسل » .

(٤) حديث « قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم » لم أقف له على أصل .

(٥) حديث أبى سعيد « ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم ، وقال صاحب الميزان : ليس بواه ولا بمجهول .

(٦) حديث « إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى تغلب غضبى » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم . (٧) حديث معاذ وأنس « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » أخرجه الطبرانى فى الدعاء بلفظ « من مات يشهد . » وتقدم من حديث معاذ ، وهو فى اليوم والليلة للنسائى بلفظ « من مات يشهد ... » وقد تقدم من حديث معاذ ، ومن حديث أنس أيضا ، وتقدم فى الأذكار . (٨) حديث « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » . (٩) حديث « من لقى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار » أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار » وزاد البخارى « صادقا من قلبه » وفى رواية له « من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة » ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ « جعله الله فى الجنة » وللنسائى من حديث أبى عمرة الانصارى فى أثناء حديث فقال « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة » . (١٠) حديث « لا يدخلها من فى قلبه وزن ذرة من إيمان » أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء « من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار » وفيه انقطاع ، وله من حديث عثمان ابن عفان « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار » قال عمر بن الخطاب : هى كلمة الإخلاص ، وإسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة ، نعم لا يبقى فى النار من فى قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبى سعيد ، وفيه « فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه » وقال مسلم « من خير » بدل « من إيمان » . (١١) حديث « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (١٢) حديث : لما تلا (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) قال « أتدرون أى يوم هذا ؟ ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عمران بن حصين وقال : حسن صحيح . قلت : هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه ، وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد .

الرجاء إلى الله تعالى ، إذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال ، والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر فى الأول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر ، فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة ، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفى الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفرلهم [١] » ، وفى لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم » ، وفى الخبر « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب قيل : وما هو ؟ قال : العجب [٢] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها [٣] » ، وفى الخبر « ليغفرنّ الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد ، حتى إن إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه [٤] » ، وفى الخبر « إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة وأظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق ، فتحنّ الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها . فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض . قال : فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك [٥] » ، وفى الخبر « مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته [٦] » ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وابشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله [٧] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى أترونها للمطيعين المتقين بل هى للمتلوثين المخلطين [٨] » ، وقال عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة [٩] » ، وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى « أحب أن يعلم أهل الكتابين أنّ فى ديننا سماحة [١٠] » ، ويدل على معناه استجابة الله تعالى المؤمنين فى قولهم ﴿ ولا تحمل علينا إصرا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ وروى محمد بن الحنفية عن على رضى الله تعالى عنهما أنه قال . لما نزل قوله تعالى ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال « يا جبريل ، وما الصفح الجميل »؟ قال عليه السلام : « إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال « يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه ، فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى

---

(١) حديث « لولم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم » . وفى لفظ « لذهب بكم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى أيوب ، واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه . (٢) حديث « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شرمن الذنوب » قيل ماهو ؟ قال « العجب » أخرجه البزار وابن حبان فى الضعفاء ، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ، وتقدم فى ذم الكبر والعجب .

(٣) حديث « والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بنحوه .

(٤) حديث « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف . (٥) حديث « ان لله تعالى مائة رحمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٦) حديث « مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

(٧) حديث « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله » تقدم أيضا .

(٨) حديث « انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ... الحديث » أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة « لكل نبى دعوة وانى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى » . ورواه مسلم من حديث أنس ، والترمذى من حديثه . وصححه ، وابن ماجه من حديث جابر « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ولابن ماجه من حديث أبى موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ... الحديث » وفيه من لم يسم .

(٩) حديث « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله « السهلة » وله وللطبرانى من حديث ابن عباس « أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة » وفيه محمد بن اسحق رواه بالعنعنة .

(١٠) حديث « أحب أن يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة » رواه أبو عبيد فى غريب الحديث ، وأحمد .

إليهما ميكائيل عليه السلام وقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا مالا يشبه كرمى [١]

والأخبار الواردة فى أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار فقد قال على كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة ، ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة وقال الثورى : ماأحب أن يجعل حسابى إلى أبوى لأنى أعلم أن الله تعالى أرحم بى منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه : إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يارب حجبت الملائكة صوته ، وكذا الثانية والثالثة ، حتى إذا قال الرابعة : ياربى ، قاله الله تعالى . حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى ، قد علم عبدى أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيرى ، أشهدكم أنى قد غفرت له وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : خلالى الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة ، فوقفت فى الملتزم عند الباب فقلت : يارب اعصمنى حتى لا أعصيك أبدا ، فهتف بى هاتف من البيت : يا إبراهيم أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون منى ذلك ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ وكان الحسن يقول : لو لم يذنب المؤمن لكان يطير فى ملكوت السماوات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين . ولقى مالك بن دينار أبانا فقال له : إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ، إنى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح . وفى حديث ربعى بن حراش عن أخيه ـ وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت ـ قال : لما مات أخى سجى بثوبه وألقيناه على نعشه ، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إنى لقيت ربى عز وجل فحيانى بروح وريحان وربى غير غضبان ، وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تغتروا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال : ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت فى طشت ، فحملناه ودفناه .

وفى الحديث أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا فى الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره ، فكان يقول : دعنى وربى ، أبعثت على رقيبا ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك . قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحد أن يحظر رحمتى على عبادى ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته [٢] .

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق فى بنى إسرائيل أربعين سنة ، فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى إسرائيل من الحواريين ، فقال اللص فى نفسه : هذا نبى الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا ، قال : فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى ويقول فى نفسه : مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد . قال : وأحس الحوارى به ، فقال فى نفسه : هذا يمشى إلى جانبى ، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فمشى بجنبه فبقى اللص خلفه ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة

---

(١) حديث محمد بن الحنفية عن على : لما نزل قوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) قال : « ياجبريل وما الصفح الجميل ؟ » قال : إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ... الحديث » أخرجه ابن مردويه فى تفسيره موقوفا على على مختصرا ، قال : الرضا بغير عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفى إسناده نظر . (٢) حديث « ان رجلين من بنى اسرائيل تواخيا فى الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا ... الحديث » رواه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد جيد .

والسلام . قال لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ماسلف من أعمالهما ؛ أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه ، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه فى سياحته وجعله من حوارييه .

وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته ، قال: فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال « اذهب فلن يغفر الله لك » فأوحى الله تعالى إليه : تتألى على فى عبادى ، إنى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ الآية ، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للاسلام [1]

وروى فى الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة ، قال : فاذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعته على فى عليين ، فيقول الله سبحانه : إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله ،

وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما [2] » وقال « إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى ؛ فإن الله تعالى لايتعاظمه شىء [3] » .

وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ قال : لا أدرى ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب ، ثم مابرحنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته : يكاد رجائى لك من الذنوب يغلب رجائى إياك مع الأعمال ؛ لأنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف .

وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفتك ؛ فمر المجوسى ،

---

(١) حديث ابن عباس : كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته ، فنزل قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ فترك الدعاء عليهم ... الحديث ، أخرجه البخارى من حديث ابن عمر أنه كان اذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول « اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا » بعد مايقول « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » فأنزل الله عزوجل ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ الى قوله ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ ورواه الترمذى وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد « فتاب عليهم فأسلموا فحسن اسلامهم » وقال حسن غريب . وفى رواية له « أربعة نفر » ولم يسمهم وقال « فهداهم الله للاسلام » وقال حسن غريب صحيح .

(٢) حديث « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما » لم أجده بهذا اللفظ . وللترمذى من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل » وقال : هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ .

(٣) حديث « اذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لايتعاظمه شىء » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة « اذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لى ان شئت ، ولكن ليعزم وليعظم الرغبة ، فإن الله عزوجل لايتعاظمه شىء أعطاه » والبخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت .

فأوحى الله تعالى اليه : يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؛ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسى فرده وأضافه ؛ فقال له المجوسى ما السبب فيما بدا لك ؟ فذكر له ؛ فقال له المجوسى : أهكذا يعاملنى ثم قال : اعرض على الإسلام فأسلم .

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له : كيف حالك ؟ فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا .

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له : يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى بربى .

وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء ؟ قال : فجاءوا ، ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال : فقلنا يارب قصرنا وأسأنا : قال : فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت . أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه ، فقال : اذهبوا به فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل : كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشترى شيئا من الفواكه للمجلس ، فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع الغلام إليه الدراهم ، فقال منصور : ماالذى تريد أن أدعو لك ؟ فقال : لى سيد أريد أن أتخلص منه ، فدعا منصور وقال : الأخرى . قال : أن يخلف الله على دراهمى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى . قال : أن يتوب الله على سيدى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى ، فقال : أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيده : لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال : وبم دعا ، فقال : سألت لنفسى العتق . فقال له : اذهب فأنت حر . قال : وأيش الثانى ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك . قال تبت إلى الله تعالى . قال : وأيش الرابع ؟ قال : أن يغفر الله لى ولك وللقوم ، قال . هذا الواحد ليس إلى ، فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أفترى أنى لا أفعل ما إلى ، قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال : رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة ، قال : فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت ، فقلت للمرأة : من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى . قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت : وأيش كان هذا ؟ قالت : مخنثا ، قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا ، قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى ، فقلت من أنت ؟ فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس إياى

وقال إبراهيم الأطروش : كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون ، فقالوا لمعروف أما تراهم يعصون الله مجاهرين ، ادع الله عليهم ، فرفع يديه وقال إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة ، فقال القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم ! فقال : إذا

فرحهم فى الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول فى دعائه : يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك ياربنا لاتغضب .

فهذه هى الأسباب التى بها يجاب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ماسنورده فى أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء والصبى العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا .

الشطر الثانى من الكتاب : فى الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال ، وقد ظهر هذا فى بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام : لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولارجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطى حيث قال : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف ؛ وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا فى الشهود ، وإنما دوام الشهود غاية المقامات ، ولكنا الآن إنما نتكلم فى أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه فى حقه ، وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وإن كان افتراسه بالاختيار ، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه ، كخوف من وقع فى مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق ؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه ، وذلك الإحراق هو الخوف ، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه ﴿لايسئل عما يفعل وهم

يستلون ﴾ فتكون قوة خوفه ؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم «أنا أخوفكم لله »[1] ، وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما فى البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفضى إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذى النون : متى يكون العبد خائفا : قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام . وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر فى خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع فى مخالب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره : هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحتراقه ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال : أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا ، فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى : أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق فى التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ، ويدخل فى الصدق التقوى ، ويدخل فى التقوى الورع ، ويدخل فى الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ؛ فإذن الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ، ووراءه اسم الصديق والمقرب ، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم ؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول : الإنسان إما عربى وإما عجمى ، والعربى إما قرشى أو غيره ، والقرشى إما هاشمى أو غيره ، والهاشمى إما علوى أو غيره ، والعلوى إما حسنى أو حسينى ، فإذا ذكرت أنه حسنى مثلا فقد وصفته بالجميع ، وإن وصفته بأنه علوى وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه ، فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت : إنه تقى وورع وعفيف ، فلا ينبغى أن تظن أن كثرة هذه الأسامى تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

---

(١) حديث « أنا أخوفكم لله » أخرجه البخارى من حديث أنس « والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له » والشيخين من حديث عائشة « والله انى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

على من طلب المعانى من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعانى ، فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

بيان درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد ! وهو غلط ، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والأصلح للبهيمة أن لاتخلو عن سوط وكذا الصبى ، ولكن ذلك لايدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال . والمحمود هو الاعتدال والوسط ؛ فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف ، بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده الآن ؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت « لا » كفرت ، وإن قلت « نعم » كذبت ، وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا . وأما المفرط فإنه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ؛ فالمراد من الخوف ماهو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لأن المخوف هو الذى يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لايقدر على دفعه ؛ فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى ، وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل مايجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال فى ذاته ، وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت ، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذى يقتل الصبى والسوط الذى يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها ، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط أوأحد هذه الأمور ، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل مايقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم .

* فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموما ؟ فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينالها لومات فى ذلك الوقت لابسبب الخوف ، فهو بالإضافة إليه فضيلة ، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة ، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق

الفكر والمجاهدة والترقى فى درجات المعارف فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولى يموت حتف أنفه ، وهو محال ؛ فلا ينبغى أن يظن هذا ، بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى ؛ فكل ما أبطل العمر أوالعقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر ؛ كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصدّيقين ، فإذن الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذى لا يزيد فى حركة الدابة ، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره ، فإن لم يحمل إلا على العفة وهى الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة ، فإذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين : وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لايبقى لغير الله تعالى فيه متسع ؛ فهذا أقصى ما يحمد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل ؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ، ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى مايخاف منه

اعلم أن الخوف لايتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه أما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه ، كما تكره المعاصى لأدائها إلى مكروه فى الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت ، فلابد لكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة ، فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره : كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة . أو خوف الميل عن الاستقامة ، أوخوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التى اتكل عليها وتعززبها فى عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أوخوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم : أوخوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب ، أوخوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء ، أوخوف مالايدرى أنه يحدث فى بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه . أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أوخوف السابقة التى سبقت له فى الأزل . فهذه كلها مخاوف ، ولكل واحد خصوص فائدة : وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس ، وهكذا إلى بقية الأقسام . وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر ، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ؛ لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد ، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه

عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ماالذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ماهو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى مايظهر فى الأبد ؛ وإليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة . وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقى من شقى بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم[1] » وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته ، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى الهيبة لا محالة ، فهذا أعلى رتبة ، ولذلك يبقى خوفه وإن كان فى طاعة الصديقين ، وأما الآخر فهو فى عرصة الغرور والأمن . إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى ، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأن يخاف من غير جناية ؛ بل العاصى لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ، ولولا أنه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها ، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات ، فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا المطيع فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله ، فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا ، والذى عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا ، فليت شعرى ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه ، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعى المعصية عليه ، وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلى من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرئ على ذكره ذو بصيرة ، فقد جاء فى الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود خفنى كما تخاف السبع الضارى[2] . فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالى ، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة ، إذ لا يقدح

---

(١) حديث « هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب . (٢) حديث « ان الله تعالى أوحى الى داود : ياداود ، خفنى كما يخاف السبع الضارى » لم أجد له أصلا ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فانه عبر عنه بقوله : جاء فى الخبر ، وكثيرا مايعبر بذلك عن الإسرائيليات التى هى غير مرفوعة

ذلك فى عالم سبعيته وماهو موصوف به من قدرته وسطوته ، ولله المثل الأعلى ، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التى هى أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق فى قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى » ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة . الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل فى أنفسهم ماهو المكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدته ، أوسؤال منكر ونكير ، أوعذاب القبر ، أو هول المطلع ، أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير ، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه ، أوالخوف من النار وأغلالها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات ، أوالخوف من الحجاب عن الله تعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى نفسها فهى لامحالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها . وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وماقبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق ، وإذا ذكر له أن العارف لايخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك فى باطنه منكرا وتعجب منه فى نفسه ، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره ، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لايصدق به لأنه لايعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان ، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم ؛ فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره ، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار .

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشىء بقدر غنائه فى الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة ، إذ لامقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا فى لقاء مولاه والقرب منه ؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لاوصول إلى سعادة لقاء الله فى الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به فى الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشىء كما تنقمع بنار الخوف ؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب إلى الله زلفى .

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان ، وقال الله تعالى ﴿ وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وصفهم بالعلم لخشيتهم . وقال عز وجل ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم ، ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخائفون

فإنّ لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء . ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول « أسألك الرفيق الأعلى »(١) ، فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد فى فضائلهما ، حتى إنّ العاقب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين . وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف - كما سبق - ولذلك قال تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه فى الإيمان ، فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول : يا أيها الناس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هى أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إنى قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم ، قلت ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب »(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله »(٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى »(٤) ، وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلى رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين . وفى خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما فى يديه إلا الورعين فإنى أستحى منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب .

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف ، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامى ، وكذلك ما ورد فى فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال ﴿ سيذكر من يخشى ﴾

---

(١) حديث : لما خير فى مرض موته كان يقول « أسألك الرفيق الأعلى » متفق عليه من حديث عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح « إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير » فلما نزل به ورأسه فى حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال « اللهم الرفيق الأعلى » فعلمت أنه لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح ... الحديث . (٢) حديث « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم نادام بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم فيقول : يا أيها الناس إنى قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هى أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس إنى جعلت نسبا ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف والثعلبي فى التفسير مقتصرا على آخره « إنى جعلت نسبا ... الحديث » من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث « رأس الحكمة مخافة الله » رواه أبو بكر بن لال الفقيه فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى الشعب ، وضعفه من حديث ابن مسعود ، ورواه فى دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا .

(٤) حديث « إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى » قاله لابن مسعود : لم أقف له على أصل .

وقال تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل : وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة »[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شىء ، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شىء »[٢] ، وقال صلى الله عليه وسلم « أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى ، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً »[٣] ، وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه . وقال ذو النون أيضا : ينبغى أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لاتجد الخوف حتى تأكل الحلال. وقيل للحسن، ياأبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير ! فقال : والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ؛ خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله مافارق الخوف قلبا إلا خرب . وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويزنى ؟ قال « لا ، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه »[٤] ، والتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشىء ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول : كل ماورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته ، فإن كان لايخاف فوته فهو إذاً لايحبه فلايكون بانتظاره راجيا ، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولايلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولايخاف ؛ فإذن المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة ؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ؛ وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لامحالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ ولذلك عبر العرب عن الخوف

---

(١) حديث « لاأجمع على عبدى خوفين ولاأجمع له أمنين » أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة ، ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا .

(٢) حديث « من خاف الله خافه كل شىء ... الحديث » رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبى أمامة بسند ضعيف جدا . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل ، وقد تقدم .

(٣) حديث « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ... الحديث » لم أقف له على أصل ، ولم يصح فى فضل العقل شىء .

(٤) حديث عائشة : قلت يارسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويزنى ؟ قال « لا ... الحديث » رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . قلت : بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن الرحمن بن حازم عن أبى هريرة .

بالرجاء ، فقال تعالى ﴿ مالكم لاترجون لله وقارا ﴾ أى لاتخافون ، وكثيرا ماورد فى القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه ، بل أقول : كل ماوردفى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإنّ البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ وقال عز وجل ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولاتبكون وأنتم سامدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حرّ وجهه إلا حرّمه الله على النار [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « لايلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع [٣] » وقال عقبة بن عامر : ما النجاة يارسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك [٤] » وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت فى سبيل الله سبحانه وتعالى [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقنى عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع مع خشيتك قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمرا [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله » وذكر منهم « رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه [٨] »

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك .

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول . بلغنى أن النار لاتأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لويعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه .

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : ماتغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولاذلة يوم القيامة ،

---

(١) حديث « مامن مؤمن يخرج من عينه دمعة ولن كانت مثل رأس الذباب ... الحديث » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٢) حديث « إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه ... الحديث » أخرجه الطبرانى والبيهقى فيه من حديث العباس بسند ضعيف . (٣) حديث « لايلج النار عبد بكى من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث قال عقبة بن عامر : ما النجاة يارسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك ... الحديث » تقدم .

(٥) حديث عائشة : قلت أيدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى » لم أقف له على أصل .

(٦) حديث « مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : حسن غريب ، وقد تقدم . (٧) حديث « اللهم ارزقنى عينين هطالتين يشفيان القلب بذروف الدمع .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير فى الدعاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ، ورواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر « لله » وذكر الدارقطنى فى العلل أن من قال فيه « عن أبيه » وهم ، وإنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا ، قال : وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربى وليس بابن عمر انتهى ، وماذكره من أنه سالم المحاربى هو الذى يدل عليه كلام البخارى فى التاريخ ومسلم فى الكنى وابن أبى حاتم عن أبيه وأبى أحمد الحاكم فإن الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة ، وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربى والله أعلم . نعم حكى ابن عساكر فى تاريخه الخلاف فى أن الذى يروى عن سالم المحاربى أو سالم بن عبد الله بن عمر . (٨) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ، ولو أن رجلا بكى فى أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال كعب الأحبار رضى الله عنه . والذى نفسى بيده ؛ لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار .

وروى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا فى الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت فى نفسى . قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة ، فخرجت وجعلت أنادى . نافق حنظلة ، فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال . كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول . نافق حنظلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « كلا لم ينافق حنظلة ، فقلت يارسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه . فقال صلى الله عليه وسلم « ياحنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطريق وعلى فراشكم ؛ ولكن ياحنظلة ساعة وساعة [1] »

فإذن كل ماورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف ؛ لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليها فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما ، وقول القائل . الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهى قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ وجوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب : فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ؛ ففضلهما بحسب الداء الموجود ؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقا : الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجبين مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل ، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ؛ لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب ، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ، ومستقى الخوف من بحر الغضب ، ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء .

---

(١) حديث حنظلة : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ... الحديث ، وفيه « نافق حنظلة الحديث » وفيه « ولكن ياحنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم مختصرا .

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده : يابنى خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى ؛ فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه ؛ فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره .

فإن قلت : مثل عمر رضى الله عنه لاينبغى أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغى أن يغلب رجاؤه كما سبق فى أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغى أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح فى أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغى أن تكون أحوال المتقين ! فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله ، وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهى مانحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة ، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها ، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها ، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث فى أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها ، وهى فى بلاد ليس يدرى أتكثر الصواعق فيها أم لا ، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه ، والبذر فى مسألتنا هو الإيمان ـ وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ـ وخفاياخبثه وصفائه من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان وإن سلم فى الحال ، وذلك مما لايتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب مالا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله ، والصواعق هى أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لم يجرب مثله ، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب ، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على رجائه لامحالة كما سيحكى فى أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين ، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يغلب رجاؤه فلا ، ولقد كان عمر رضى الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضى الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين[1] ، فمن ذا الذى يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفى ، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه ؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة إلا شبر[2] » . وفى رواية « إلا قدر فواق

(١) حديث : أن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حذيفة « فى أصحابى اثنا عشر منافقا » تمامه « لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ... الحديث » .

(٢) حديث « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة الا شبر » وفى رواية « الاقدر فواق =

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ، وقدر فواق الناقة لايحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج فى القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء ، فكيف يؤمن ذلك ؟ فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء فى غالب الناس تكون مستندة الاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما فى وصف من أثنى عليهم فقال تعالى ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعاً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وأين مثل عمر رضى الله عنه ؟ فالخلق الموجودة فى هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لايخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك فى المعاصى فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذى يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور فهو الخوف المحمود ، دون حديث النفس الذى لايؤثر فى الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط .

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق فى بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة الادّكار .

وقال مكحول الدمشقى : من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد .

فإذن لابد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لايقدر على العمل ثم لايطيق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاؤه ، ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى ، فإنّ من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه ، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه ، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب : فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا ، فالدنيا جنته ، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين مايشتهيه ، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه ، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر ، فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولاخطر على قلب بشر ، وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من

= ناقة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار » وللبزار والطبرانى فى الأوسط « سبعين سنة » وإسناده حسن . وللشيخين فى أثناء حديث لابن مسعود « ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع ... الحديث » ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولاذكر « شبر » ولا « فواق ناقة » .

الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزى والنكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع فى إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن ، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب مايقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد [1] » والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه [2] » وقال تعالى « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة قال لابنه : يابنى حدثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به ، وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت : اذكر لى الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أن حببنى إلى عبادى . فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكر لهم آلائى ونعمائى ، فإذن غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الدارانى فى المنام وهو يطير ، فسأله ؟ فقال : الآن أفلت ، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ماذكرناه فى حال الصبر وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر هو كاف فى هذا الغرض ، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء ، لأن أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر ، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ؛ والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ، ولذلك قال على كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويؤدى دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ، ويؤدى كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين ، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل ، فإذن فيما ذكرناه فى علاج الصبر كفاية ، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملى فنقول : الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن الصبى إذا كان فى بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف ، وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها ، فإذا نظر الصبى إلى أبيه

(١) حديث « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث معاذ ، وتقدم فى الأذكار والدعوات . (٢) حديث « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » أخرجه مسلم من حديث جابر ، وقد تقدم .

وهو ترتعد فرائصه ويحتال فى الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه فى الهرب ؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف فى نفسه ، فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه ، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه ؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله عز وجل ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة ، وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير ، وأما الثانى وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى : خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هى خوف الصبى من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب ، حتى إن الصبى ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه ، والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار ؛ فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : خفنى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى مخالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل مايشاء ولا يبالى ، ويحكم ما يريد ولا يخاف ، قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة ، بل صفته ماترجمه قوله تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى ، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة ، فإن كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل ، وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال « احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما ، فحج آدم موسى عليه السلام ، قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض . فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال نعم . قال : أفتلومنى على

أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال صلى الله عليه وسلم ، فحج آدم موسى [١] ، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ، ومن سمع هذا فآمن به وصدّق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ؛ فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع ، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمى اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا ، والواقع في مخالب السبع لوكملت معرفته لكان لايخاف السبع ؛ لأنّ السبع مسخر : إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك ، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته ، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أنّ الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأنّ المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أنّ سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له ، فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر ، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين [٢] وكان أشدّ الناس خوفا [٣] حتى روى أنه كان يصلي على طفل : ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول «اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار [٤] » ، وفي رواية ثانية : أنه سمع قائلا يقول : هنيئا لك ، عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك أنه كذلك ، والله إني رسول الله ، وما أدري ما يصنع بي ! إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم [٥] » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة : هنيئا لك الجنة ، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك : والله لا أزكى أحدا بعد عثمان [٦] ، وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو متفق عليه بألفاظ أخر .

(٢) حديث : كان سيد الأولين والآخرين . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ... الحديث » .

(٣) حديث : كان أشد الناس خوفا . تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا . قوله « والله إني لأخشاكم لله » وقوله « والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

(٤) حديث انه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أو صبية وقال « لوكان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي » واختلف في اسناده ، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي » (٥) حديث : انه سمع قائلة تقول لطفل مات : هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت : توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة ... الحديث وليس فيه فغضب ، وقد تقدم . (٦) حديث : لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة : هنيئا لك الجنة ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، قال « وما يدريك » الحديث » وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد ، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة .

وسلم ولا أبى الذى ولدنى ، قال : فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع مالا يضره [١] » وفى حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئا لك الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألية على الله تعالى ؟ » فقال المريض : هى أمى يارسول الله ، فقال « وما يدريك ، لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه [٢] » وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتنى هود وأخواتها [٣] » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى ﴿ ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ ﴿ ألا بعدا لثمود ﴾ ﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفى سورة الواقعة ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة : إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا . وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى ﴿ وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما احضرت ﴾ وفى عم يتساءلون ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ الآية ، وقوله تعالى ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشد منه قوله تعالى ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾ وقوله عز وجل ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ وقوله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ الآيتين . وقوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ الآية وقوله ﴿ اعملوا ماشئتم ﴾ الآية : وقوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ﴾ الآية . وقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ الآيتين . وقوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل ﴾ الآية . وكذلك قوله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ﴾ إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران ، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ حتى روى أن النبى وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ [٤] وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لاوقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله « قد أمنتكما » ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما

---

(١) حديث : ان رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه : هنيئا لك يا بنى الجنة . رواه البيهقى فى الشعب ، إلا أنه قال فقالت أمه : هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى ، إلا أنه قال : ان رجلا قال له : أبشر بالجنة ، وقد تقدم فى ذم المال والبخل مع اختلاف . (٢) حديث : دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئا له الجنة ... الحديث ، تقدم أيضا .

(٣) حديث « شيبتنى هود وأخواتها ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس ، وهو فى الشمائل من حديث أبى جحيفة وقد تقدم فى كتاب السماع . (٤) حديث : أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عزوجل ، فأوحى الله اليهما : لم تبكيان ؟ الحديث ، أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر ، ورويناه فى مجلس من أمالى أبى سعيد النقاش . بسند ضعيف

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المنجنيق قال : حسبى الله ، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء ، حتى قال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبى الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى بموجب قوله : حسبى الله ، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ؛ إذا لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم « اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك »(١) ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك ، فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر ؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لامحالة ، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾ وقال ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ﴾ الآية ، فوض الأمر الى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شىء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان ، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم ﴾ الآية ؛ فكيف لا يخاف ما حق من القول فى الأزل ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح ؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا : كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ؛ ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلبا من القدر فى غليانها ، وقد قال مقلب القلوب عز وجل ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين

(١) حديث قال يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك » : أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بلفظ « اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم ... الحديث » .

سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لأنى لا أدرى ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادةعلى باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام ، لأنى لا أدرى مايعرض لقلبى بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال ﴿وقلوبهم وجلة﴾ .

ولما احتضر سفيان جعل يبكى ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبى أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا .

وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى ، فإن رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة ، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه .

وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر

وكان أبو زيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن فى وسطى زنارا أخاف أن يذهب بى إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار ، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات .

وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصى ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر .

وروى فى أخبار الأنبياء أن نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الكفر .

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لايخافه الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس وماعنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر [1] ، وفى لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » » .

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لايخلو عن شىء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذى يخلو عن هذه المعانى

(١) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم فى قواعد العقائد.

بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسى كونها منكر بالكلية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ! حتى قال حذيفة رضى الله تعـــالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيصير بها منافقا إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات [(١)] . وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الكبائر [(٢)] . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتى مثله ، وأن تحب على شىء من الجور ، وأن تبغض على شىء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشىء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٣)] . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به ؟ قال : لا . قال : كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] . وأشدّ من ذلك ما روى أنّ نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون فى شىء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ؛ فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٥)] . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتى على القلب ساعة يمتلئ بالإيمان حتى لايكون للنفاق فيه مغرز إبرة ، ويأتى عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لايكون للايمان فيه مغرز إبرة ، فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأنّ سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصى ، ومنها النفاق ، و متى يخلو العبد عن شىء من جملة ذلك ! وإن ظنّ أنه خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إنى أخاف على نفسى النفاق ، فقال : لوكنت منافقا لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفا منهما ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فوالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار [(٦)] » ، والله المستعان .

بيان معنى سوء الخاتمة

• فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله : إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ماغلب على

---

(١) حديث حذيفة : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا . الحديث ، أخرجه أحمد من حديث حذيفة ، وقد تقدم فى قواعد العقائد .

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أنس وأحمد ، والبزار من حديث أبى سعيد ، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده ، وتقدم فى التوبة . (٣) حديث : قال رجل لابن عمر : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون ... الحديث ، رواه أحمد والطبرانى ، وقد تقدم فى قواعد العقائد . (٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ... الحديث ، تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج . (٥) حديث : إن نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون فى شىء من شأنه ، فلما خرج سكتوا ... الحديث ، لم أجد له أصلا . (٦) حديث « العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم فى ذم الدنيا : ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد بلاغا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس

القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب . ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه ؛ فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار : جز يامؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبى ، فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر مخطر ، لأن المرء يموت على ماعاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه ، إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال ؛ فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين .

« فإن قلت : فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة ؟ فاعلم أنّ كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى الأبصار ماصحت به الأخبار وهو : أنّ القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[1] وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم[2] ، كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الخاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات ، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر[3] والتعذيب بعده[4] ، ثم المناقشة فى الحساب[5] والافتضاح على ملأ من الأشهاد فى القيامة[6] ، ثم بعد ذلك خطر الصراط[7] وهول الزبانية[8] . . . إلى آخر ماوردت به الأخبار ، فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته « ولا تظنن أن محل الإيمان لا يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التى هى محل الإيمان ، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية .

---

(١) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب ، وتقدم فى الأذكار (٢) حديث « إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم » لم أجد له أصلا . (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر : تقدم فى قواعد العقائد . (٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه : (٥) حديث المناقشة فى الحساب : تقدم فيه . (٦) حديث الافتضاح على ملأ الأشهاد فى القيامة : رواه أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر بإسناد جيد « من انتفى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رءوس الأشهاد » وفى الصحيحين من حديث ابن عمر « وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » والطبرانى والعقيلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » وهو حديث طويل منكر . (٧) حديث خطر الصراط : تقدم فى قواعد العقائد
(٨) حديث هول الزبانية أخرجه الطبرانى من حديث أنس « الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران » قال صاحب الميزان : حديث منكر . وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا « خزنة جهنم مابين منكبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب » .

* فإن قلت : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها : أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين :

(أحدهما) يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الأعمال : كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جدا ، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة ؛ فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعنى بالبدعة : أن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ماهو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر ، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله ؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أنّ كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق فى إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها ، فإن اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وكما أنه ينكشف فى النوم ماسيكون فى المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف فى سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هى المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع مافى اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ماهى عليه ، فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك فى بقية الاعتقادات ، وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليداً وإما نظرا بالرأى والمعقول ، فهو فى هذا الخطر والزهد والصلاح لايكفى لدفع هذا الخطر ، بل لاينجى منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله »(١) ، ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً وبكل ماجاء من الظواهر مع اعتقاده نفى التشبيه ، ومنعوهم عن الخوض فى التأويل لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم وعقباته كئودة ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض ، والقلوب لما ألقى إليها فى مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة ، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة ، فإذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناس فى قرائحهم واختلافهم فى طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على

---

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البزار من حديث أنس ؛ وقد تقدم .

أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم ، فكانت سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم : ولكن الآنّ قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظنّ وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وينبغى أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ولم تخف سوء مايأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث ، فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين بضاعة عقولهم إما مع الأدلة التى حرروها فى تعصباتهم أو دون الأدلة ، فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقا فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص ، وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين ، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وإنى يتيسر ، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا فى هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة فى سوء الخاتمة .

(وأما السبب الثانى) فهو ضعف الإيمان فى الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطفئ مافيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهى المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ماقدر عليه من الموت وكراهة ذلك . من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، كما أنّ الذى يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا ، والسبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ؛ فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى ، إذ لايحبه إلا من عرفه ؟ ولهذا قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ فإذن كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ؟ فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا

لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخفى مايستحقه من الخزى والنكال ، وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه ، فلا يخفى مايلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الأولى وليست مقتضية للخلود فى النار ، فلها أيضا سببان :

(أحدهما) كثرة المعاصى وإن قوى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى ، وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الإلف والعادة ، وجميع ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر مايحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت ؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى ، فالذى لايقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر ، والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر ، والذى غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ، ونعرف هذا بمثال : وهو أنه لايخفى عليك أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، حتى إنه لا يرى إلا مايماثل مشاهدته فى اليقظة ، وحتى إن المراهق الذى يحتلم لايرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ، ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثم لايخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة ، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ؟ لأنه إنما يظهر فى حال النوم ماحصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب ، والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الإلف ، فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح ، وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق ، فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها ، وكما أن مايخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى ، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها ، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشىء إلى مايناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان ، وقد ينتقل الخاطر من شىء إلى شىء ولا يدرى وجه مناسبته له ، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين ، مثل أن ينتقل من شىء إلى ثان ، ومنه إلى شىء ثالث ، ثم ينسى الثانى ، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة وبين الثانى والأول مناسبة ، فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت ، فعلى هذا ـ والعلم عند الله ـ من كانت الخياطة أكثر أشغاله ، فإنك تراه يومئ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التى لها عادة بالكشتبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمد يده إلى المقراض ،

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر فى فطامه نفسه عنها وفى قمع الشهوات عن القلب ، فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرء على ماعاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتى الشهادة فيقول : خمسة ستة أربعة ، فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت . وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلألأ نورا ، فلايكون العبد على حال إلا انطبع مثاله فى العرش على الصورة التى كان عليها ، فإذا كان فى سكرات الموت كشف له صورته من العرش ؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف مايجل عن الوصف ، وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإن النائم يدرك مايكون فى المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهى جزء من أجزاء النبوة ، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وإن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لايرى فى المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر فى النوم لما غلب فى اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذى رحمة الله عليه يصف لى وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لايكون فى قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا فى لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخى أبى القاسم الكرمانى مناما لى وقلت : رأيتك قلت لى كذا ، فقلت : لم ذاك ؟ قال : فهجرنى شهرا ولم يكلمنى وقال : لولا أنه كان فى باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك فى النوم وهو كما قال ؛ إذ قلما يرى الإنسان فى منامه خلاف مايغلب فى اليقظة على قلبه ؛ فهذا هو القدر الذى نسمح بذكره فى علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل فى علم المكاشفة ، وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هى عليه من غير جهل وتزجى جميع العمر فى طاعة الله من غير معصية ؛ فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم فى النفس الأخير الذى عليه خروج الروح ، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : إنى لأعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكنى أعجب ممن نجا كيف نجا ! ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا . وكان الثورى يوما يبكى فقيل له علام تبكى ؟ فقال : بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبكى على الإسلام . وبالجملة من وقعت سفينته فى لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة فى حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر ، وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب [1] » ولا يتسع

---

(١) حديث « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة ... الحديث » تقدم .

فراق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هى الخواطر التى تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبى فسألتهم : ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة . وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذى بايعه الله به ، إذ قال تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ؛ ومجرد حب العوض المطلوب فى قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب فى بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة ، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله وإن قتل فى المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار [1] .

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصى ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضا يؤثر فى قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك فى كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك ، هذا مادمت فى يقظتك ، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه ، وأنه لا يغلب فى النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك فى نومك ، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة ، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه فى يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه فى نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك فى خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل . والناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقى كله فضول ، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك ، فينبغى أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك فى قضاء حاجتك ،

---

(١) حديث « المقتول فى الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة » متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى « أن رجلا قال : يارسول الله ، الرجل يقاتل المغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وفى رواية : الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء . وفى رواية غضبا .

إذ لافرق بين إدخال الطعام فى البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان فى الجبلة ، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التى يشتغل بها قلبك فلا ينبغى أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك ، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك ، فعلامة ذلك تظهر فى ثلاثة أمور : من مأكولك فى وقته وقدره وجنسه ، أما الوقت فأقله أن يكتفى فى اليوم والليلة بمرة واحد فيواظب على الصوم ، وأما قدره فبأن لايزيد على ثلث البطن ، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق ، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مئونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لاتأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز ولا يفى بجميع الشهوات ، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة ؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم فى تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة ، وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ؛ فكل ماحصل مقصود اللباس إن لم تكتف به فى خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده . بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب ، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا ؛ فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد ، فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك ، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت فى مهواة يبعد رقيك منها ، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك ، وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله فى أى واد أهلكك ؛ فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير ، فإذا دفعته يوما بيوم فى تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة فى غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية فى تخويفك فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك ، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك فى أحوالهم : لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا إلى الأرض ، ولا غرو إن كان ذلك لايؤثر فى قلبك فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فى الخوف

روت عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله[1] . وقرأ صلى الله عليه وسلم آية فى سورة الواقعة فصعق[2] ، وقال تعالى ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل

---

(١) حديث عائشة : كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ... الحديث ، متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) حديث : قرأ فى سورة الحاقة فصعق ، المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) فصعق ، كما رواه ابن عدى والبيهقى فى الشعب مرسلا ، وهكذا ذكره المصنف على الصواب فى كتاب السماع كما تقدم

عليه السلام بالأبطح فصعق [١] . وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيزا كأزيز المرجل [٢] . وقال صلى الله عليه وسلم « ما جاءنى جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار [٣] » وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يارب ، ما نأمن مكرك ؟ فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لاتأمنا مكرى .

وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق بنو آدم عادت .

وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مالى لا أرى ميكائيل يضحك ؟ » فقال جبريل : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار [٤] .

ويقال : إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال « يا ابن عمر ، مالك لا تأكل : » فقلت : يا رسول الله لا أشتهيه ، فقال « لكنى أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربى لأعطانى ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين فى قلوبهم ؟ » قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنّ الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فإنّ الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد [٥] » .

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام فى الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لايرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه ، فنودى : ياداود أجائع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقى ؟ أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حرّ جوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال : يارب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة ، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته ، قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا

---

(١) حديث : انه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق : أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد : سأل النبى صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه فى صورته ؟ فقال : ادع ربك ، فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير ، فلما رآه صعق . ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ : فغشى عليه . وفى الصحيحين عن عائشة : رأى جبريل فى صورته مرتين وفيهما عن ابن مسعود : رأى جبريل له ستمائة جناح .

(٢) حديث : كان اذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذى فى الشمائل ، والنسائى من حديث عبد الله بن الشخير ، وتقدم فى كتاب السماع . (٣) حديث « ماجاءنى جبريل قط الا وهو ترتعد فرائصه من الجبار » لم أجد هذا اللفظ . وروى أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال: ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقا من عذاب الله ... الحديث ، وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج الى معرفته .

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل « مالى لاأرى ميكائيل يضحك » فقال : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار . رواه أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ، ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا ، وورد ذلك أيضا فى حق اسرافيل . رواه البيهقى فى الشعب ، وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين .

(٥) حديث ابن عمر : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث . أخرجه ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر ، قال البيهقى : هذا اسناد مجهول ، والجراح بن منهال ضعيف .

تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحى ، سبحانك إلهى أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى ، فبؤسا للقانطين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا أريدكم ، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلنى إلا البكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يعاتب فى كثرة البكاء فيقول ، دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : إلهى بح صوتى فى صفاء أصوات الصديقين . وروى أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه ، فقال : يارب أماترحم بكائى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال : إلهى وسيدى كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلنى الطير على رأسى وأنست الوحوش إلى محرابى ، إلهى وسيدى فما هذه الوحشة التى بينى وبينك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، ياداود آدم خلق من خلقى خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى وأسجدت له ملائكتى وألبسته ثوب كرامتى وتوجته بتاج وقارى ، وشكا لى الوحدة فزوجته حواء أمتى وأسكنته جنتى ، عصانى فطردته عن جوارى عريانا ذليلا ، ياداود اسمع منى والحق أقول : أطعتنا فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحيى بن أبى كثير : بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية ، فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وماحولها من الغياض والآكام والجبال والبرارى والصوامع والبيع ، فينادى فيها : ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت ، قال : فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن ، وتجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ فى الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ فى أهوال القيامة وفى النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بنى إسرائيل ومن الوحوش والهوام ، فيأخذ فى الدعاء ، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بنى إسرائيل : ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك ! قال فيخر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتى بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يامن قتله ذكر النار ، يامن قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجى ربه ، فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول : يا أبتاه تقو بهذا على ماتريد ، فيأكل من

ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيبكون بينهم . وقال يزيد الرقاشى . خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم ، فخرج فى أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا فى عشرة آلاف ، قال : وكان له جاريتان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقى وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون ، فقالوا له : يايحيى ، هلم بنا نلعب فقال : إنى لم أخلق للعب ، قال : فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا ، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب ، فخرج أبواه فى طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكانى منك ، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه ، فمدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر ، ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه ، فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين ، فقالت له أمه : يابنى لو أذنت لى أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها ، فعمدت إلى قطعتى لبود فألصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعى أمه قال : اللهم هذه دموعى وهذه أمى وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين ، فقال له زكريا يوما . يابنى إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عيناى بك ، فقال يحيى ، ياأبت إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لايقطعها إلا كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام : يابنى فابك .

وقال المسيح عليه السلام : معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا . بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل .

وقيل : كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له : ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول ياجبريل إنى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى ، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين فى شدة الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك ياطائر ولم أخلق بشراً .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان رضى الله عنه : وددت إنى إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة رضى الله عنها وددت أنى كنت نسيا منسيا .

وروى أن عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه ، فكان يعاد أياما . وأخذ يوما تبنة من الأرض فقال ياليتنى كنت هذه التبنة ، ياليتنى لم أك شيئا مذكوراً ، ياليتنى كنت نسيا منسيا ،

ياليتنى لم تلدنى أمى . وكان فى وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع مايريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون . ولما قرأ عمر رضى الله عنه ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ خرّ مغشيا عليه . ومر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى ﴿ إنّ عذاب ربك لواقع * ماله من دافع ﴾ نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه .

وقال علي كرّم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثا صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكأن بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام ، فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم .

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رماداً تنسفنى الرياح فى يوم عاصف ،

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى

وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ اصفرلونه ، فيقولون له أهله : ماهذا الذى يعتادك عندالوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه .

وقرأ مضر القارئ يوما ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . . . الآية ﴾ فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لاعصيتك جهدى أبداً ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك .

وكان المسور بن مخرمة لايقوى أن يسمع شيئا من القرآن : لشدّة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياما ، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين ، أعد على القول أيها القارئ ، فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة .

وقرئ عند يحيى البكاء ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعادمن أطراف البصرة .

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول: يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ! يارب أماكان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكى ؛ فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك : فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخا أقول : ثكلت مالكا أمه .

وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكى بكاء الثكلى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت ، ثم انقلب مع الناس .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال : قلوبهم بالخوف فرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون : كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا .

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه وهو جالس مع قوم فى مجلس ؛ فقال له الحسن : يافتى ، هل مررت بالصراط ؟ قال : لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال : لا . قال فما هذا الضحك ؟ قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه ، فيقال له : لو اطمأننت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى .

وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ثم ينطلقوا بى إلى ربى كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده .

وقال حاتم الأصم : لاتغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقى آدم عليه السلام فيها مالقى : ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقى مالقى ! ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى ! ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه !

وقال السرى : إنى لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى . وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال : إنى اجترأت البارحة على الله سألته الجنة .

وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها : يابنى إنى أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً ، وكأنك أحدثت حدثاً موبقا لما أراك تصنع فى ليلك ونهارك ! فقال : يا أماه ، مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال : وعزتى وجلالى لاغفرت لك

وقال الفضيل : إنى لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبداً صالحا ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة ، إنما أغبط من لم يخلق .

وروى : أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكى حتى حبسه ذلك فى البيت ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا ، فقال صلى الله عليه وسلم « جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده »(١) .

وروى عن ابن أبى ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : ياليت أمى لم تلدنى ، فقالت له أمه : ياميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك : هداك إلى الإسلام ، قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها .

وقيل لفرقد السبخى : أخبرنا بأعجب شىء بلغك عن بنى إسرائيل ! فقال : بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا فى يوم واحد .

وكان عطاء السلمى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له فى مرضه : ألا تشتهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعا للشهوة : إنه مارفع رأسه إلى السماء ولا ضحك

(١) حديث : أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه فى البيت ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى الخائفين من حديث حذيفة ، والبيهقى فى الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر .

أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق فى بطنه فتق ، وكان يمس جسده فى بعض الليلة مخافة أن يكون قدمسخ . وكان إذا أصابتهم ريح أوبرق أوغلاء طعام قال : هذا من أجلى يصيبهم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم فى رءوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قدخرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين ، فبينما هم يمشون إذ مرّ أحد بمكان فخرّ مغشيا عليه ، فجلس أصحابه حوله يبكون فى يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا ، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره ؟ فقال : إنى ذكرت أنى كنت عصيت الله فى ذلك المكان .

وقال صالح المرى : قرأت على رجل من المتعبدين ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ فصعق ثم أفاق فقال : زدنى ياصالح فإنى أجد غما ، فقرأت ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ فخر ميتا .

وروى أن زرارة بن أبى أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ خرّ مغشيا عليه ، فحمل ميتا .
ودخل يزيد الرقاشى على عمر بن عبد العزيز فقال : عظنى يا يزيد : فقال يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لست أول خليفة يموت ، فبكى ثم قال : زدنى ، قال : ياأمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت ، فبكى ثم قال : زدنى يايزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل ، فخرّ مغشيا عليه .

وقال ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإنّ جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسى ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه (١) .

ورأى داود الطائى امرأة تبكى على رأس قبر ولدها وهى تقول : يا ابناه ، ليت شعرى أى خديك بدأ به الدود أولا ؟ فصعق داود وسقط مكانه .

وقيل : مرض سفيان الثورى فعرض دليله على طبيب ذمى فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده ، ثم جاء وجس عروقه ثم قال : ماعلمت أن فى الملة الحنيفية مثله .

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ، ففتح فخفت على عقلى؛ فقلت : يارب على قدر ما أطيق ، فسكن قلبى .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه ، وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٢) »

وقال العنبرى : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف ، فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ! ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق ، إنما هذا زمان : احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر .

---

(١) حديث ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية (وان جهنم لموعدهم أجمعين) صاح سلمان الفارسى : لم أقف له على أصل
(٢) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » تقدم فى قواعد العقائد .

ورؤى الفضيل يوماوهو يمشى ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : لا أدرى ، وكان يمشى والهامن الخوف .

وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ، فقال : يابنى ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

وحكى أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى فقالوا : ما الذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال : قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم قالوا : وما هى ؟ قال : روعة النداء بالعرض على الله عز وجل .

وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته : قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فأعتقنى .

وقال صالح المرى : قدم علينا ابن السماك مرة فقال : أرنى شيئا من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل فى بعض الأحياء فى خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا ، فقرأت عليه ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ه فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله ، وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه ، فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فقرأت ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس . فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ، ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا . فإذا امرأة من داخل الخص تقول : ادخلوا ، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس فى مصلاه ، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا ، فقلت بصوت عال : ألا إن للخلق غدا مقاما ، فقال الشيخ : بين يدى من ويحك ! ثم بقى مبهوتا فاتحا فاه شاخصا ببصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت ، فقالت امرأته : اخرجوا فإنكم لاتنتفعون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم ؟ فإذا ثلاثة قد أفاقوا ، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى . وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل .

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال ، وكان قد حلف أن لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمنا أبدا ، فما رؤى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله .

وقال الحجاج لسعيد بن جبير : بلغنى أنك لم تضحك قط ! فقال . كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت .

وقال رجل للحسن : ياأباسعيد كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، قال : كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ؟ ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة ؟ على أى حال يكون ؟ قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حالى أشد من حالهم .

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد فى بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها : فرقدت فاستبكت فى منامها ، ثم انتبهت فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى والله رأيت عجبا ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط ووضع على متنها ، فقال : هيه ، قالت : فجىء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط ، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه ، قالت : ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جىء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جىء بك والله ياأمير المؤمنين : فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خر مغشيا عليه ،

فقامت إليه لجعلت تنادى فى أذنه : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيتك والله قد نجوت ! إنى رأيتك والله قد نجوت ! قال : وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه . ويحكى أن أويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه ، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : إن المؤمن لايسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه .

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة فى المقلى ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طير ذكر جهنم نوم الخائفين .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، ياليتنى كنت ذلك الرجل ، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ما ضحك أربعين سنة ؛ قال : وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه ، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، فإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه . وعوتب فى شدة حزنه وخوفه فقال : ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع فى على بعض مايكره فمقتنى فقال : اذهب فلا غفرت لك ؛ فأنا أعمل فى غير معتمل .

وعن ابن السماك قال : وعظت يوما فى مجلس ، فقام شاب من القوم فقال : يا أبا العباس ، لقد وعظت اليوم بكلمة ماكنا نبالى أن لا نسمع غيرها . قلت : وما هى رحمك الله ؟ قال قولك : لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النار . ثم غاب عنى ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره ، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد ، فأتيته أعوده فقلت : يا أخى ما الذى أرى بك ؟ فقال : يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النار . قال : ثم مات رحمه الله فرأيته فى المنام فقلت : يا أخى مافعل الله بك؟ قال : غفر لى ورحمنى وأدخلنى الجنة . قلت بماذا ؟ قال بالكلمة .

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا ، بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يزعجنا ؛ فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا .

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا . وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا ، ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس فى بيوتنا فنقول : اللهم ارزقنا ، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والذى إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لايجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا ؛ علامة للخذلان أعظم من هذا ؛ فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله .

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفى ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغنى . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولانى ـ وكان من خيار العباد ـ أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله مايكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى : لما رأيته هالنى منظره ، فقلت : أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك ، فقال : يا أخى بماذا أوصيك ، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل ، فهو فى المخافة ليله وإن أمن المغترون ، وفى الحزن نهاره وإن فرح البطالون . ثم ولى وتركنى فقلت : لو زدتنى شيئا عسى أن ينفعنى ؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره ، وقد صدق فإنّ القلب الصافى يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغى أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق ؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهى التى لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها ؛ فإذا انكشف الغطاء ووضعت فى قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك فى قبرك وإنما هى صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك ، والسلام .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب رابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتدكدك من هيبته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ، ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادى إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزى وضربت فى قالب النكال ، وهى متلفلفة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال ، فهى تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ، ثم لا تجتزئ معهم بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال ، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

(أما بعد) فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل ، وبمكرها زل من زل ، فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات . وقد استقصينا مايتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات . فلا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ، ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب والزهد فى شطر آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشطر الأول من الكتاب فى الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء ، وبيان فضيلة الفقير على الغنى ، وبيان أدب الفقير فى فقره ، وبيان أدبه فى قبوله العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق بلطفه وكرمه .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا ، وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وإذا فهمت هذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فإن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولايتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا ، فليس فى الوجود إلا غنى واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام ، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ هذا معنى الفقر مطلقا ، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص ، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لاينحصر ، لأن حاجاته لاحصر لها . ومن جملة حاجاته مايتوصل إليه بالمال ، وهو الذى نريد الآن بيانه فقط ، فنقول : كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذى فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر . ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها :

(الحالة الأولى) وهى العليا : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد .

(الثانية) أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولايكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا .

(الثالثة) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع مافيه من الرغبة الضعيفة .

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أوهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

(الخامسة) أن يكون مافقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته فى الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال : أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه ، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هى أعلى من الزهد وهى أن يستوى عنده وجود المال وفقده ؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ ، وإن فقده فكذلك ، بل حاله كما كان حال عائشة رضى الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ، فقالت : لو ذكرتينى لفعلت ، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لافى يد نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره . وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا ، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد ، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال فى يده ، وإنما هو هو غنى عن دخول المال فى يده لاعن بقائه ؛ فهو إذن فقير من وجه ، وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال فى يده وعن بقائه فى يده وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه ، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه . وليس فاقدا له ليحتاج إلى الدخول فى يديه ، فغناه إلى العموم أميل ، فهو إلى الغنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب ، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لابقرب المكان ، ولكنا لانسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ، ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شىء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه ، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر ، والله تعالى هو الذى أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى أوقات متقاربة ، لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا .

واعلم أن الزهد درجة هى كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم صار الزهد فى حقه نقصانا ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لابعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا ، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس هو فى مكان حتى تكون السماوات والأرض حجابا بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، وأنت لاتزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لاتزال محجوبا عنه ، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى ، والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله ، مثاله مثال الرقيب الحاضر فى مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكمال فى أن لايلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لايجتمع فى القلب حبان

فى حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب فى حالة واحدة ؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب ، إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود ؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين فى طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما ، سيان بالإضافة إلى الحال فى أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف فى الكعبة الملازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة فى الوصول إليها ؛ فلا ينبغى أن تظن أن بغض الدنيا مقصود فى عينه ، بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ، ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : من زهد فى الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة ، بل ينبغى أن يشتغل بالآخرة ؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج ، فإذن قد ظهر أن الزهد فى الدنيا إن أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى ، بل الكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء ، وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ، ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد ، فهكذا ينبغى أن يكون المال ؛ لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة ، وإنما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به العالم : علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ما سيأتى بيانه فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الركوة التى أهديتها لى فإن العدو يوسوس لى أن اللص قد أخذها ، قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية: قد زاده فى الدنيا ما غلبه من أخذها ، فبين أن كراهية كون الركوة فى بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان .

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار ؟ فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ماشربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه فى القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم ، بل تركوه فى الأنهار والآبار والبرارى للمحتاجين إليه ، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فأخذوها ووضعوها فى مواضعها وما هربوا منها [1] ، إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر ، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف

(١) حديث : إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها فى مواضعها هذا معروف ، وقد تقدم فى آداب المعيشة من عند البخارى تعليقا مجزوما به من حديث أنس : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فقلما كان يرى أحدا إلا أعطاه . ووصله عمر بن محمد البحيرى فى صحيحه من هذا الوجه . وفى الصحيحين من حديث عمرو ابن عوف : قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه ... الحديث ، ولهما من حديث جابر : لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا ، فلم يقدم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر أبو بكر مناديا فنادى : من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا ، فقلت : إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدنى ، فحثا لى ثلاثا ،

أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البغض للمال والهرب منه فى حقهم كمال ؛ وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به فى الترك ؛ إذ لو اقتدوا به فى الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل المعزم بين يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون ، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء ، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص . وأما المضطر فيتصور فى حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجه تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال ، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيراً فلا وجه لها بهذا المعنى ، بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى فى جميع أموره عامة وفى بقاء استغنائه عن المال خاصة ، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ؛ فانه أحق باسم العبد من الغافلين . وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير ، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر [1] » وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفراً [2] » لايناقض قوله « أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا [3] » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ ساق الكلام فى معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .

وأما الأخبار فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصى : روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير ؟ » فقالوا : موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله . فقال « نعم الرجل هذا وليس به » قالوا : فمن خير الناس يارسول الله ؟ قال « فقير يعطى جهده [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « ابلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال [6] » وفى الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام [7] » وفى حديث آخر

---

(١) حديث « أعوذ بك من الفقر » تقدم فى الأذكار والدعوات .

(٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا » تقدم فى دم الحسد . (٣) حديث « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا » رواه الترمذى من حديث أنس وحسنه ، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم . (٤) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أى الناس خير ؟ فقالوا . موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله . فقال : نعم الرجل هذا وليس به قالوا : فمن خير الناس ؟ قال : فقير يعطى جهده ، أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بإسناد ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له . (٥) حديث : قال لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا » أخرجه الحاكم فى كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال . ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ « مت فقيرا ولا تمت غنيا » وكلاهما ضعيف .

(٦) حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين ، وقد تقدم

(٧) حديث « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال : حسن صحيح وقد تقدم ،

« بأربعين خريفا [1] » أى أربعين سنة ، فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص ، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب ، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء فى درجاتهم ، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ، ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق ، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [2] » فإنه تقدير تحقيق لا محالة ، لكن ليس فى قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين ، فأما بالتحقيق فلا ، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبى ويفارق به غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص : أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف . والثانى : أن له فى نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهى القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى . والثالث . أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون فى الغيب إما فى اليقظة أو فى المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب ، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم بجامع الصفات التى بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير ، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، وأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس فى قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به ، والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا « خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لى حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى : الفقر والجهاد [4] » وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد . إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول . أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا [5] »

---

(١) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا : أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ، إلا أنه قال : فقراء المهاجرين ، والترمذى من حديث جابر وأنس . (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد ، ورواه هو ومسلم من حديث أبى هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ « رؤيا المؤمن جزء ... الحديث » وقد تقدم .
(٣) حديث « خير الأمة فقراؤها ، وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها » لم أجد له أصلا . (٤) حديث إن لى حرفتين اثنتين .. الحديث » وفيه « الفقر والجهاد » لم أجد له أصلا . (٥) حديث : أن جبريل نزل فقال : إن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ... الحديث ، وفيه « إن الدنيا دار من لا دار له . . الحديث » هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبى أمامة « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما » الحديث وقال . حسن ولأحمد من حديث عائشة « الدنيا دار من لا دار له ... الحديث » وقد تقدم فى ذم الدنيا .

وتكون معك أينما كنت ، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « ياجبريل ، إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له » فقال له جبريل : يامحمد ثبتك الله بالقول الثابت

وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة ، فأيقظه وقال : يانائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال ماتريد منى ؟ إنى قد تركت الدنيا لأهلها ، فقال له فنم إذن ياحبيبى .

ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة، فقال : يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه : ياموسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها .

وعن أبى رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر وقال « قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقا إلى هلال رجب » قال فأتيته فقال : لا والله إلا برهن ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال « أما والله إنى لأمين فى أهل السماء أمين فى أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفنى لأديت إليه ، اذهب بدرعى هذا إليه فارهنه » فلما خرجت نزلت هذه الآية ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) ﴾ الآية ، وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم « الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣) »

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراسانى : مر نبى من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال : بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شىء ، ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ماكان يتقاعس من كثرتها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يارب ماهذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك ، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما ، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال : رضيت يارب .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء » وفى لفظ آخر « فقلت أين الأغنياء ؟ حبسهم الجد » وفى حديث آخر « فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ماشأنهن ؟ فقيل شغلهن الأحمران الذهب والزعفران (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر (٥) » وفى الخبر « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦) » وفى حديث آخر « رأيته يدخل الجنة زحفا (٧) » .

---

(١) حديث أبى رافع : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر .. الحديث فى نزول قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم ﴾ أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

(٢) حديث « الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس » رواه الطبرانى من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، رواه ابن عدى فى الكامل هكذا (٣) حديث « من أصبح منكم معافى فى جسمه ... الحديث أخرجه الترمذى وقد تقدم (٤) حديث « اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء ... الحديث » تقدم فى آداب النكاح مع الزيادة التى فى آخره . (٥) حديث « تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر » رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر ، وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لابأس به ، ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا . (٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان . الحديث » تقدم ، وهو فى الأوسط للطبرانى بإسناد فرد ، وفيه نكارة . (٧) حديث . رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة .

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه . قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا [1] » .

وفى الخبر « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته [2] » .

وقال موسى عليه السلام : يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال . كل فقير فقير ؛ فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر .

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء ، وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين . ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجىء ، ونجىء إليك ولايجيئون ، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر ؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم ؛ فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ؛ فنزل عليه قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ يعنى الأغنياء إلى قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [3] ﴾ الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ يعنى ابن مكتوم ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى [4] ﴾ يعنى هذا الشريف .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ، اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك ، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة [5] » .

---

(١) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى .

(٢) حديث « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبى الدرداء ولم يسمع منه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام . ياموسى ... » فذكره بزيادة فى أوله . ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف .

(٣) حديث : قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم . اجعل لنا يوما ولهم يوما ... الحديث فى نزول قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... ﴾ الآية ، تقدم من حديث خباب ، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف وفوح ريحهم إذا عرقوا ، وهذه الزيادة من حديث سلمان . (٤) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى (عبس وتولى) أخرجه الترمذى من حديث عائشة وقال غريب قلت : ورجاله رجال الصحيح

(٥) حديث « يؤتى بالعبد يوم القيامه فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول وعزتى وجلالى مازويت =

وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة ، قالوا : يارسول الله ، وما دولتهم ؟ قال « إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فإذا بلال ، ونظرت فى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ، ونظرت فى أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل ؛ فقلت يارب ما شأنهم ؟ قال : أما النساء فأضربهن الأحمران الذهب والحرير ، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ، وتفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى ، فقلت : ما خلفك عنى ؟ قال : يارسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالى [2] » فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة [3] ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا [4] » ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم [5] » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره [6] » .

وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه ، فقال « يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » فقالت : ادخل يارسول الله . قال « أنا ومن معى ؟ » قالت : ومن معك يا رسول الله ؟ قال « عمران » فقالت فاطمة : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة قال « اصنعى بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شدى على رأسك » ثم أذنت له فدخل فقال

= عنك الدنيا لهوانك على » الحديث أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائى ، فتقول الملائكة : ومن أحباؤك ؟ فيقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه فيقول : أما إنى لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتى اليوم ، فتمنوا على ما شئتم اليوم . . . الحديث دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم فى الحلية ، وسيأتى فى الحديث الذى بعده .

(١) حديث « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف « اتخذوا عند الفقراء أيادى ، فإن لهم دولة يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيروا الى الفقراء ، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم الى أخيه فى الدنيا .

(٢) حديث « دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى ، فنظرت فإذا بلال ، ونظرت الى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه ، وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر .

(٣) حديث كون عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد ، قال الترمذى : حسن صحيح . (٤) حديث « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٥) حديث : دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال « لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم » لم أجده . (٦) حديث « ألا أخبركم عن ملوك الجنة ... الحديث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل « ملوك » وقد تقدم ، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ « ألا أخبركم عن ملوك الجنة .. الحديث » دون قوله « أغبر أشعث » .

« السلام عليكم يا ابنتاه ، كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث ، وإني لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا » ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة » قالت . فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ قال « آسيه سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب » ثم قال لها « اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيداً في الآخرة [١] » .

وروى عن علي كرم الله وجهه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاة الأحكام ، والشوكة من الأعداء [٢] » .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذو الدرهمين أشدّ حبسا أو قال أشدّ حسابا من ذي الدرهم .

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال : أشدّ من ذلك ، ثم قال : أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، حتى إنّ الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج [٣] » .

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد .

وقيل : جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له : تخط ، لو كنت غنيا لما قربتك ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال المؤمل : ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله .

وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ،ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا

وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر .

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين .

وفي الأخبار عن الكتب السالفة : أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام . احذر أن أمقتك فتسقط

---

(١) حديث عمران بن حصين . كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه ، فقال « ياعمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك في عيادة فاطمة ؟ الحديث » تقدم (٢) حديث « إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة ، وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام .. الحديث » وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها ، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال « تسعين عاما » وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه ، وفي رواية له « بأربعين سنة » وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه ، وقد تقدم .

من عيني فأصب الدنيا عليك صبا .

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم فى يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية : لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ! وكانت صائمة، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه [1] » .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه أن يقبلها ، فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم : أتريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل ذلك أبدا ـ رضى الله عنه .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا [3] » فالأول القانع وهذا الراضى ، ويكاد يشعر هذا بمفهومه : أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة فى فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ، ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة فى فعله ، فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة [4] » .

وروى عن على كرم الله وجهه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى [5] » . وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا [6] » وقال « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا [7] » وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا [8] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتى من خلقى ؟ فتقول الملائكة : ومن هم يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون بقدرى ،

---

(١) حديث : قال لعائشة « إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه نحوا من حديثها ، وقد تقدم .

(٢) حديث « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » رواه مسلم ، وقد تقدم .

(٣) حديث « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم .. الحديث » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة ، وهو ضعيف جدا ، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث .

(٤) حديث « إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين ... الحديث » رواه الدارقطنى فى غرائب مالك ، وأبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق ، وابن عدى فى الكامل ، وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر .

(٥) حديث « أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى عن الله » لم أجده بهذا اللفظ ، وتقدم عند ابن ماجه حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف » (٦) حديث « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وهو متفق عليه بلفظ « قوتا » وقد تقدم (٧) حديث « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس ، وقد تقدم (٨) حديث « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا » لم أجده بهذا اللفظ

أدخلوهم الجنة . فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس فى الحساب يترددون [١] » فهذا فى القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة ، ولايخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه : إن الطمع فقر واليأس غنى ، وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس وقنع استغنى عنهم .

وقال أبو مسعود رضى الله تعالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : يا ابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : مامن أحد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك ، ويح ابن آدم ماينفع مال يزيد وعمر ينقص .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ؛ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام فجئنى به ، فلما قام جاء به إليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعت ؟ قال نعم ، قال ثم نمت طيبا ؟ قال نعم . فقال إبراهيم فى نفسه ، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر .

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا ، فقال له : ياعبدالله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى . قال من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول : من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ، ثم قرأ ﴿ وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وكان أبو ذر رضى الله عنه يوما جالسا فى الناس فأتته امرأته فقالت له : اتجلس بين هؤلاء ؟ والله مافى البيت هفة ولاسفة ، فقال : ياهذه ، إن بين أيدينا عقبة كئودا لاينجو منها إلا كل مخف ، فرجعت وهى راضية .

وقال ذو النون رحمه الله : أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس .

وروى أن الله عزوجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة : ياابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك .

وقد قيل فى القناعة :

اضرع إلى الله لاتضرع إلى الناس واقنع بيأس فإن العز فى اليأس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم إن الغنى من استغنى عن الناس

---

(١) حديث « يقول الله يوم القيامة : أين صفوتى من خلقى ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس .

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه ... مقدرا أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته ... أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا وقل لى هل جمعت له ... يا جامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ... أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يبق فى ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا ، فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء . الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه فى هذا فأصابته محنة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر — ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل .

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار فى تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول إنما يتصور الشك فى مقامين (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على إمساك المال (والثانى) فقير حريص مع غنى حريص ، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص ، أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا فى ضعف الحرص على المال ، والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه ، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال وإن كان فى مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع ، وقد يشهد له ما روى فى الخبر : أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد ، فعلمهم كلمات فى التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق مانالة الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال عليه السلام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١) » .

وقد استشهد ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال : الغنى أفضل لأنه وصف الحق ، أما دليله الأول ففيه نظر ؛ لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك : وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى رسول الفقراء إليك ؛ فقال « مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم » قال : قالوا يارسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ، ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « بلغ عنى

---

(١) حديث . شكى الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات ... الحديث ، وفى آخر : فقال « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه .

الفقراء أنّ لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء : أما خصلة واحدة : فإن فى الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء ، لايدخلها إلا نبى فقير ، أو شهيدفقير ، أومؤمن فقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة : إذا قال الغنى : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيهاعشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها ، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : رضينا رضينا [1] فهذا يدل على أنّ قوله « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم . وأماقوله : إنّ الغنى وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أترى أنّ الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض ، فانقطع ولم ينطق ، وأجاب آخرون فقالوا . إنّ التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ، ثم قالوا : بل هذا يدل على أنّ الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لاينبغى أن ينازع فيها ، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قصمته [2] » .

وقال سهل : حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى ؛ فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها ، إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد ، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم ، فكشف الغطاء عن هذا هو ماذكرناه فى كتاب الصبر : وهو أن ما لايراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى ، ولا الفقر مطلوبا لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التشاغل عنه ، وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما ، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصد فى الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل ، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى فى القلب ، والمحب للشىء مشغول به سواء كان فى فراقه أو فى وصاله ، وربما يكون شغله فى الفراق أكثر ، وربما يكون شغله فى الوصال أكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ، فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال فى حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده ، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لاسبيل المعرفة . وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقير عن الخطر أبعد ؛ إذ فتنة السراء أشدّ من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لايقدر ، ولذلك قال الصحابة رضى الله تعالى عنهم : بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذى لا يوجد فى الأعصار الكثيرة إلا نادرا .

---

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس : بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا : ان الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ... الحديث ، وفيه « بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء . . . الحديث » لم أجده هكذا بهذا السياق ، والمعروف فى هذا المعنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر : اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مافضل الله به عليهم أغنياءهم ، فقال « يامعشر الفقراء ألا أبشركم ان فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام » وإسناده ضعيف . (٢) حديث « قال الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى » تقدم فى العلم وغيره .

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم .

وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان .

وفى الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم [1] » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا ، واستواء المال والماء ، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إن كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول للدنيا « إليك عنى [2] » إذ كانت تتمثل له بزينتها . وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غرى غيرى ، ويا بيضاء غرى غيرى ، وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه ، وذلك هو الغنى المطلق ، إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس [3] » وإذا كان ذلك بعيدا فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون فى القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة فى بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ؟ وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها ، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة إلى الله ، إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره ، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثالهما مثال المشرق والمغرب فإنهما جهتان ، فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر ، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها ، فإذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط ، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما ، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور ، فإن الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقده ، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا ، فكم من رجل باع سريته لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التى كنت مستكنة فيه ، فتحقق إذن أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء ، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته ، فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور ، ولا يكون تأثيرها فى إثارة الأنس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك .

---

(١) حديث « لكل أمة عجل : وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم » رواه أبو منصور الديلمى من طريق أبى عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة . (٢) حديث : كان يقول للدنيا « إليك عنى .. الحديث » رواه الحاكم مع اختلاف . وقد تقدم (٣) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها : أفضل من عبادة غنى ألف عام .

وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب ، كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لى فقد أضر بى العيال فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولاخبز فادع الله لى فى ذلك الوقت ، فإن دعاءك أفضل من دعائى . وكان يقول : مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء . وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضى الله عنه فى كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده هذا ، مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ، ومن نوقش الحساب فقد عذب ، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى : قيل : وما تكره ؟ قال : سوء الحساب ، ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب ، وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما ، فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقائه فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى ، لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق ، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذم غنى يريد بقاء المال ، وما ذكر من أن صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح ، بل العلم من صفاته وهو أفضل شىء للعبد ، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى ، وقد سمعت بعض المشايخ يقول : إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له : أى يكون له من كل واحد نصيب ، وأما التكبر فلايليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى ، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى ، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شىء وأنه يعلم أنه كذلك ، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس ، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصى ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات ، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة فى حقه ، إلا أنه لاسبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يختم للكافر بالإيمان ، وقد يختم له بالكفر ، فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشىء على ما هو به كان العلم كمالا فى حقه لأنه

فى صفات الله تعالى ، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا فى حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التى لا ضرر فيها هى التى تتصور فى العبد من صفات الله تعالى ؛ فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء ، فإذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجوه الغنى الذى يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة ، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا ، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثانى فى نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص

ولنفرض هذا فى شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود ، فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول : ننظر فإن كان مطلوبه ما لابد منه فى المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل ، لأن الفقر يشغله بالطلب ، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل ؛ والمكفى هو القادر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » وقال « كاد الفقر أن يكون كفرا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه ، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ؛ فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنهما استويا فى الحرص وحب المال ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ؛ ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه ، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا ؛ فحاله أشد لامحالة ؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه [1] » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد ، فينبغى أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا ، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ؛ وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصا عليها ، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا فى موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم ؛ والثانى الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى ؛ ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل ؛ فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا ؛ فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر . ويبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه ، وفى غنى دونه فى الحرص على حفظ المال ، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، وهذا فى محل النظر ، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده ؛ والعلم عند الله تعالى فيه .

---

(١) حديث « أن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه » تقدم .

بيان آداب الفقير فى فقره

اعلم أنّ للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى أن يراعيها .

فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله - وإن كان كارها للفقر - كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام ، بل ربما يتقلد منه منة ، فهذا أقل درجاته وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » وأرفع من هـــذا أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به ، وأرفع منه أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ، ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر ؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته - إذا كان عقوبة - أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء ، وهذا يدل أنّ كل فقير فليس بمحمود ، بل المحمود الذى لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقرويرضى لعلمه بثمرته ، إذ قيل : ما أعطى عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب .

وأما أدب ظاهره : فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففى الحديث « إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال » وقال تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر .

وأما فى الأعمال فأدبه : أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال على كرم الله وجهه : ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل ، فهذه رتبة ، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثورى رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . وينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً فى العطاء .

وأما أدبه فى أفعاله : فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإنّ ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى : روى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم » قيل : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدّق بها ، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف »[1] ، وينبغى أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات (إحداها) أن لا يدخر إلا ليومه وليلته وهى درجة الصدّيقين (والثانية) أن يدخر لأربعين يوما فإنّ مازاد عليه داخل فى طول الأمل ، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام

---

(١) حديث زيد بن أسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف » قيل : وكيف يارسول الله ؟ قال « أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة متصلا ، وقد تقدم فى الزكاة ، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا .

ففهم منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما . وهذه درجة المتقين (والثالثة) أن يدخر لسنته وهى أقصى المراتب وهى رتبة الصالحين ، ومن زاد فى الادخار على هذا فهو واقع فى غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه فى قوت سنته ، وغنى الخصوص فى أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

بيان آداب الفقير فى قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى ، وغرضه فى الأخذ .

أما نفس المال فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب .

وأما غرض المعطى فلا يخلو : إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما ممزوجا ببقية الأغراض .

أما الأول ـ وهو الهدية ـ فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، ولكن ينبغى أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض ؛ فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقط ورد الكبش [2] ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض [3] ، وقال « لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى [4] » وفعل هذا جماعة من التابعين . وجاءت إلى فتح الموصلى صرة فيها خمسين درهما فقال : حدثنا عطاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أتاه رزق من غير مسألة فرده فإنما يرده على الله [5] » ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرها . وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد فى قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم التيمى يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله فى قلبك أفضل منى قبل القبول فأخبرنى

---

(١) حديث أن قبول الهدية سنة : تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية .

(٢) حديث : أهدى الى النبى صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش . أخرجه أحمد فى أثناء حديث ليعلى بن مرة : وأهدت إليه كبشين وشيئاً من سمن وأقط ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر » وإسناده جيد . وقال وكيع . مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه .

(٣) حديث : كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة « وايم الله لا أقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا .. الحديث » فيه محمد بن إسحق ورواه بالعنعنة .

(٤) حديث « لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال : روى من غير وجه عن أبى هريرة ، قلت : ورجاله ثقات . (٥) حديث عطاء مرسلا « من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فإنما يرد على الله عزوجل » لم أجده مرسلا هكذا ، ولأحمد وأبى يعلى والطبرانى بإسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى « من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عزوجل إليه » ولأحمد وأبى داود الطيالسى من حديث أبى هريرة « من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله » وفى الصحيحين من حديث عمر « ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه . الحديث » .

حتى آخذه وإلا فلا ، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين . وقال بشر : ماسألت أحداقط شيئا إلا سريا السقطى لأنه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على ما يحب . وجاء خراسانى إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال : أفرقه على الفقراء، فقال : ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال : ما أريد أن تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلاوات والطيبات ، فقبل ذلك منه ، فقال الخراسانى : ما أجد فى بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد : ولا ينبغى أن يقبل إلا من مثلك .

الثانى : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وقدذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمعصية فى السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة ، فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول : لو علمت أنهم لايذكرون ذلك افتخارا به لأخذت وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم .

وأما غرضه فى الأخذ فينبغى أن ينظر : أهو محتاج إليه فيما لابد منه أو هو مستغن عنه ، فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالأفضل له الأخذ ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا »(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه »(٢) ، وفى لفظ آخر « فلا يرده » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السرى : يا أحمد ، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد : أعد على ماقلت ! فأعاده ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لأن عندى قوت شهر ، فاحبسه لى عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلى ، وقد قال بعض العلماء يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول فى شبهة أو غيره ؛ فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو : إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما فى طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى ، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان (أحدهما) أن يأخذ فى العلانية ويرد فى السر ، أو يأخذ فى العلانية ويفرق فى السر ، وهذا مقام الصديقين ؛ وهو شاق على النفس لايطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة (والثانى) أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه . أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما فى السر أو كليهما فى العلانية ؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار

---

(١) حديث « ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ اذا كان محتاجا » رواه الطبرانى من حديث ابن عمر ، وقد تقدم فى الزكاة . (٢) حديث « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه » وفى لفظ آخر « فلا يرده » تقدما قبل هذا بحديث .

الأخذ أو إخفاؤه ؟ فى كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله ، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ؛ فإن فى ذلك آفات وأخطارا ، والورع يكون حذراً من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندى دراهم أعددتها للإنفاق فى سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفى : أنا جائع كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يامن يرى ولا يرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت فى نفسى : لا أجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا ؛ فحملتها إليه ، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثة فلا حاجة بى إلى الباقى فرده . قال : فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس فى نفسى منه شىء . فالتفت إلى فأخذ بيدى، فأطافنى معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال . هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدى الخلق لأن هذه أثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، والمقصود من هذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب »(١) فإذن أنت فى أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب . ومن الاختبار أيضاً : أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسراً لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها فى نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها ، فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون : وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره ، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو فى قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع فى المال والتنعم فى المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاه ، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة ، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ قيل معناه : ليبع أحد ثوبيه . وقيل معناه : فليستقرض بجاهه ، فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم : إن لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم ، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف : الأقوياء ، والأسخياء ، والأغنياء ، فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أما الأقوياء فهم أهل

---

(١) حديث « لاحق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب » أخرجه الترمذى من حديث عثمان بن عفان وقال « وجلف الخبز والماء » بدل قوله « طعام يقيم صلبه » وقال صحيح .

التوكل على الله تعالى ، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى ، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى ، فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المال وفى المعطى فليأخذه ، وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى ؛ لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء ، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعى والإرادات والاعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل مائدة حسنة ، فلما قعد قال لأصحابه : إن هذا الرجل يقول : من لم ير أنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام ، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة . فقال صاحب المنزل لشقيق : ماقصدت بهذا ؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائى ، أجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم . فلا ينبغى أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضاً مايدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس[١] » وفى الحديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق[٢] » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه والإعطاء إعانة . فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، وإن كان عنها بد فهو حرام ، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لاينفك عن ثلاثة أمور محرمة .

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى ، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة .

(الثانى) أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه ، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة، وفى السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول .

(الثالث) أنه لاينفك عن إيذاء المسئول غالبا ؛ لأنه ربما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء ، ففى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم « مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها[٣] » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح

---

(١) حديث « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود من حديث الحسين بن على ، ومن حديث على ؛ وفى الأول يعلى بن أبى يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وفى الثانى شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود ، وما ذكره ابن الصلاح فى علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال : أربعة أحاديث تدور فى الأسواق ليس لها أصل منها « للسائل حق .. الحديث » فإنه لا يصح عن أحمد ، فقد أخرج حديث الحسين بن على فى مسنده . (٢) حديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق » رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح ، والنسائى واللفظ له من حديث أم بجيد . وقال ابن عبد البر . حديث مضطرب .
(٣) حديث « مسألة الناس من الفواحش ، وما أحل الله من الفواحش غيرها » لم أجد له أصلا .

لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره . وقال صلى الله عليه وسلم « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم [١] » ، « ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم » وفى لفظ آخر « كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً فى وجهه [٢] » وهذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد . وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً [٣] » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول « من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير » قالوا : ومنك يارسول الله ؟ قال « ومنى [٥] » وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيته ، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال : لست سائلا ولكنك تاجر ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال : لا تعد . ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته ، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول : أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه ، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده ؟ أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا فى معصية الله وحاشاه ، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله ، وهيهات ؛ إن ذلك أيضاً معصية ، بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذبا فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه ، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لا مالك له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ العلوى بقوله إنى علوى وهو كاذب . فإنه لا يملك ما يأخذه ، وكأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه — وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء ، وقد قررناه فى مواضع ، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر .

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء . إما أن يكون مضطراً إليه ، أو محتاجا إليه حاجة

---

(١) حديث « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم ... الحديث » رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ماذكر منه وتقدم فى الزكاة ، ولمسلم من حديث أبى هريرة « من يسأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ... الحديث . وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمر « ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه » وفى إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم » وإسناده جيد .

(٢) حديث « من سأل وله ما يغنيه كانت مسئلته خدوشا وكدوحا فى وجهه » رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة (٣) حديث : بايع قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً » أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعى (٤) حديث « من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى ، وفيه حصين بن هلال لم أر من تكلم فيه ، وباقيهم ثقات . (٥) حديث « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير ... الحديث » أخرجه البزار والطبرانى من حديث ابن عباس « استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك » وإسناده صحيح ، وله فى حديث « تعففوا ولو بحزم الحطب » وفيه من لم يسم ، وليس فيه : وما قل من السؤال ... الخ .

مهمة أو حاجة خفيفة . أو مستغنى عنه ؛ فهذه أربعة أحوال .

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا فى الباطن ، وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب ، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة .

وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف ، وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال ليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذينى أذى أطيقه ولكن يشق على ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى .

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز ، وكمن يسأل الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام ، وإن لم يكن وكان فيه شىء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شىء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

﴿ فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس ، فيخرج به عن حد الشكوى ، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك ، فإن الذل لازم للمنة لا محالة . وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة ، وإن كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا إلى التغافل إن أراد ، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذ به ، وينبغى أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى .

﴿ فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول : ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة ، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام ، وضرب الباطن أشد نكاية فى قلوب العقلاء ، ولا يجوز أن يقال هو فى الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله

عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »[1] ، فإن هذه ضرورة القضاء فى فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه ، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر فى مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا ، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه ، فإن كان يستحيى من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته ، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته ، فإن تلف فى يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذى حصل به الأذى .

* فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا ؟ فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال : لأنى علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب ، وإنما عظم النكير فى السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا ، لأن الأذى إنما يحل بضرورة : وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة ، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكبش والسمن والأقط ، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ، ولكن قد تكون رغبته طمعا فى جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك ، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا فى موضعين : أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء فى موضع الضرورة : سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك فى أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب فى إعطائهم . والثانى : السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم ، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم فى اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك ، فأما فى تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها فى الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك فى الكراهة ، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال ، فالأخذ فى الحالة الأولى حلال طلق ، وفى الثانية سحت ، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم ، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته ، فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة ، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله

(١) حديث « إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » لم أجد له أصلا ، وكذا قال المزى لما سئل عنه

صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه [1] » وقد أوتى جوامع الكلم ، لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدى الناس ، وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه ، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما ، وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة ، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك ، فإذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير .

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فإنما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر » صريح فى التحريم ، ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير ، وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد فى الحديث « استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره . قالوا : وما هو قال : غداء يوم وعشاء ليلة [2] » وفى حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا [3] » وورد فى لفظ آخر « أربعون درهما » ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة ، فإن الحق فى نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع ، وغاية الممكن فيه تقريب ، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى به عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب » فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهى هذه الثلاث ويلحق بها ما فى معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشى وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ، ولا ينبغى أن يطلب رقة الثياب وكون الأوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف ، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه مالم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره فى اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير . والأدم على الدوام فضلة ، وقطعة بالكلية إضرار ، ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة ، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى ، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات (إحداها) ما يحتاج إليه فى غد (والثانية) ما يحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما . (والثالثة) ما يحتاج إليه فى السنة ، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال

---

(١) حديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » تقدم .

(٢) حديث « استغنوا بغنى الله » قالوا : وماهو ؟ قال « غداء يوم وعشاء ليلة » تقدم فى الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما يغنيه ؟ قال « ما يغديه أو يعشيه » ولأحمد من حديث على بإسناد حسن : قالوا وما ظهر غنى ؟ قال « عشاء ليلته » وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة (٣) حديث « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا » وفى لفظ آخر « أربعون درهما » تقدما فى الزكاة .

لسنه فسؤاله حرام ، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث ، فإن خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة إذا اقتصد ، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن فى الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر . وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال ، لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا وكان ما لأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخى المدة التى فيها يحتاج إلى السؤال ، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستفتى فيه قلبه ويعمل به إن سالكا طريق الآخرة ، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق فى المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عزوجل ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ والسؤال من الفحشاء التى أبيحت بالضرورة ، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه فى السنة أشدّ من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة ، وكلاهما مباحان فى الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا مع الروحانيين فى عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة .

قال شقيق البلخى لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال : تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا ـ وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء ، فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا ، فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق ؟ فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال : صدقت يا أستاذ .

فإذن درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة ، فلا بدّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقى من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى أعليين ، وقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقى قطعا ، وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه ، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روى أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النورى رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس فى بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال : لا يعظم هذا

عليك ، فإنّ النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لايضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المعطى هى العليا[1] » فقال بعضهم : يد المعطى هى يد الآخذ للمال لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه ، ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال : احملها إليه ، فقلت فى نفسى : إنما يوزن الشىء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال : ردها عليه وقل له : أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال : فزاد تعجبى ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه : وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه . قال : فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال : أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الأسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا ، وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل ، بل البصير أحد رجلين : إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين . ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين ﴿ آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .

الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل ، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه ، وإن لم يكن صادرا عن حال سمى إسلاما ولم يسم إيمانا والعلم هو السبب فى حال يجرى مجرى المثمر ، والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة ، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل : أما الحال فنعنى بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شىء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته

(١) حديث « يد المعطى هى العليا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

فى غيره ؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا ، فإذن يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لايسمى زاهدا ، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لايسمى زاهدا ، وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة ، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لايقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ معناه باعوه ، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا فى العوض ، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة ؛ ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل فى وضع اللسان . ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شىء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال ، والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولايحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول ، والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ، ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين ، وهو زهد صحيح ، كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة ؛ فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لايسمى زاهدا وإن كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات ، فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهى الدرجة العليا ، وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه ، فإن ترك ما لايقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك : يازاهد ، فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيماذا زهدت ؟ . وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى ، أى لذاتها خير فى أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة ، فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لايزال فى الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذى لافناء له ، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة ، حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ﴾ فليس يحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدر : وهو أن الآخرة

خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لايقدر على ترك الدنيا ، إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه وكونه مقهورا فى يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت : وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ﴾ فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ، ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه قال رجل فى دعائه : اللهم أرنى الدنيا كما تراها ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « لاتقل هكذا ، ولكن قل : أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك »[1] ، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هى ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة فى نفسه بالإضافة إلى ماهو خير له ، ولايتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا ، لأنه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس ، والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى ، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات ، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن ، فإذا وفى بشرط الجانبين فى الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به ؛ فإن الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد ، فمن سلم حاضرا فى غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد ، وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وإن كانوا قد قالوا ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ، ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع ، فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج : فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا ، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لايقدر عليه لايقوى على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغى أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها ، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها فى المباحات ، والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها ، أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة ، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما ، ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر ، فإنها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ماترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبى ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا

---

(١) حديث : قال رجل : اللهم أرنى الدنيا كما تراها ، فقال له « لاتقل هكذا ، ولكن قل : أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك » ذكره صاحب الفردوس مختصرا « اللهم أرنى الدنيا كما تريها صالح عبادك » من حديث أبى القصير ولم يخرجه ولده

لانفتى فى مسألة إلا رد علينا — يعنى أبا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لا أدرى أهو ابن الحائك أم ماهو ؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها ، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم [١] ﴾ . قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت منهم — يعنى من القليل . قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة [٢] ﴾ . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لامدخل لشىء منه فى العبادات ، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة ؛ فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لايؤمن بالآخرة ؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ، ولكن لا يكون زهدا ؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى ألذ وأهنأ من المال ، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس من الزهد ، فكذلك تركه طمعا فى الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما فى حفظ المال من المشقة والعناء . والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا ، بل هو استعجال حظ آخر للنفس ؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها ، فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ، ويكون مشركا فى حب الله تعالى غيره . أو تركها طمعاً فى ثواب الله فى الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً فى أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعاً فى الحور العين ، وترك التفرج فى البساتين طمعاً فى بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً فى زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً فى فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ فآثر فى جميع ذلك ماوعد به فى الجنة على ماتيسر له فى الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن مافى الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها فى الآخرة أصلا .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى ﴿ فخرج على قومه فى زينته ... إلى قوله تعالى ... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وجاء فى التفسير على الزهد فى الدنيا وقال عز وجل ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : معناه أيهم أزهد فيها ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فوصف الكفار بذلك ، فمفهومه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

---

(١) حديث قال المسلمون . انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية : لم أقف له على أصل . (٢) حديث ابن مسعود . ماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ الآية أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة بإسناد حسن .

وأما الأخبار : فما ورد منها فى ذم الدنيا كثير ، وقد أوردنا بعضها فى كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات ، وهو المعنى بالزهد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة [٢] » وقال تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ﴾ ولذلك قيل من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يارسول الله ، أى الناس خير ؟ قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان ، قلنا يارسول الله وما محموم القلب؟ قال « التقى النقى الذى لاغل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد ، قلنا : يارسول الله ، فمن على أثره ؟ قال « الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة [٣] » ومفهوم هذا أن شر الناس الذى يحب الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا [٤] » فجعل الزهد سببا للمحبة ، فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ، فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضا أن من محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفى خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان فى القلوب كل ليلة ، فإن صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا [٥] » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا قال « وما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عرفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وكأنى بالجنة والنار ، وكأنى بعرش ربى بارزا ، فقال صلى الله عليه وسلم « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان [٦] » فانظر كيف بدأ فى إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : عبد نور الله قلبه بالإيمان . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وقيل له : ماهذا الشرح ؟ قال « إن النور إذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قيل يارسول الله . وهل لذلك من علامة؟ قال « نعم ، التجافى عن دار الغرور ؛ والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله [٧] » فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافى عن دار الغرور ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء » قالوا : إنا لنستحيي منه تعالى ، فقال « ليس كذلك تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون [٨] » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال « وما علامة إيمانكم ؟ » فذكروا

---

(١) حديث « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذى من حديث أنس بسند ضعيف نحوه .

(٢) حديث « إذا رأيتم العبد قد أوتى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة » رواه ابن ماجه من حديث أبى خلاد بسند فيه ضعف (٣) حديث : قلنا يارسول الله وما محموم القلب ؟ قال « التقى النقى ... الحديث » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله : يارسول الله فمن على أثره ، وقد تقدم ، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٤) حديث « إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا » رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه ، وقد تقدم . (٥) حديث « الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة ، فإن صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا » لم أجد له أصلا . (٦) حديث : لما قال له حارثه : أنا مؤمن حقا ، فقال « وما حقيقة إيمانك .. الحديث » أخرجه البزار من حديث أنس ، والطبرانى من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديثين ضعيف .

(٧) حديث : سئل عن قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه ﴾ ... الحديث . أخرجه الحاكم ، وقد تقدم .

(٨) حديث « استحيوا من الله حق الحياء ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف

الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام « إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون[١] » لجعل الزهد تكملة لإيمانهم . وقال جابر رضى الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من جاء بلا إله إلا الله لايخلط بها غيرها وجبت له الجنة » فقام إليه على كرم الله وجهه ، فقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله مالا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا فسره لنا ، فقال « حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبارة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة[٢] » . وفى الخبر « السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ، والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك[٣] » . وقال أيضاً « السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار[٤] » والبخل ثمرة الرغبة فى الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد . والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وروى عن ابن المسيب عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرّفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام[٥] » وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر فى أصحابه بعشار من النوق حفل وهى الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، ولعظمها فى قلوبهم قال الله تعالى ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر إليها ؟ فقال « قد نهانى الله عن ذلك » ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به ﴾ الآية[٦] وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله ؛ ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع ؛ فقال ياعائشة ؛ والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض ؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ ياعائشة إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد ؛ ياعائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكلفنى ما كلفهم ؛ فقال ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله[٧] » . وروى عن عمر رضى الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها .

---

(١) حديث : لما قدم عليه بعض الوفود قالوا . إنا مؤمنون . قال « وماعلامة إيمانكم . الحديث » رواه الخطيب وابن عساكر فى تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر . (٢) حديث جابر « من جاء بلا إله الا الله لايخلط معها شيئاً وجبت له الجنة » لم أره من حديث جابر ، وقد رواه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف . (٣) حديث السخا من اليقين ولايدخل النار موقن ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى الدرداء ، ولم يخرجه ولده فى مسنده .

(٤) حديث « السخى قريب من الله ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

(٥) حديث أبى ذر « من زهد الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ... الحديث » لم أره من حديث أبى ذر ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ، ولابن عدى فى الكامل من حديث أبى موسى الأشعرى « من زهد فى الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقال حديث منكر . وقال الذهبى باطل : ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية مختصرا من حديث أبى أيوب « من أخلص لله » وكلها ضعيفة .

(٦) حديث مر فى أصحابه بعشار من النوق حفل .. الحديث . وفيه : ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولاتمدن عينيك ﴾ الآية : لم أجد له أصلا

(٧) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله ، ألا تستطعم ربك فيطعمك ، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع . . الحديث . وفيه « ياعائشة ، ان الله لم يرض لأولى العزم من الرسل الا الصبر ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى عبد الرحمن السلمى من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبى عن مسروق مختصرا « ياعائشة ان الله لم يرض من أولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض الا أن كلفنى ما كلفهم ، فقال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ ومجالد مختلف فى الاحتجاج به .

البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر : ياحفصة ، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبى صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا كذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال « منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها » ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج [1] . وفى بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال : كان لى صاحبان سلكا طريقا ، فإن سلكت غير طريقهما سلك بى طريق غير طريقهما ، وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد .

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلى يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة ، وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم [2] » .

وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى فى بطنه من الهزال ، فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز فى الآخرة .

وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

---

(١) حديث : أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة : البس لين الثياب إذا قدمت عليك الوفود ... الحديث بطوله ، وفيه : ناشدتك الله هل تعلمين كذا : يذكرها ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى ... الخ . لم أجده هكذا مجموعا فى حديث ، وهو مفرق فى عدة أحاديث ؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقى ربه ، وفيه عمرو بن عبد الله القدرى متروك الحديث ، وللترمذى من حديث عائشة قالت : ماأشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت ، قلت : لم ؟ قالت : أذكر الحال التى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها ، والله ماشبع من خبز ولحم مرتين فى يوم . وقال حديث حسن ، وللشيخين من حديثها : ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض . وللبخارى من حديث أنس : كان لا يأكل على خوان ... الحديث ، وتقدم فى آداب الأكل ، وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت : ما كان فراش النبى صلى الله عليه وسلم ؟ مسح نثنيه ثنتين فينام عليه .. الحديث . ولابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة : أنها كانت تفرش للنبى صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين ... الحديث ، وتقدما فى آداب المعيشة . وللبزار من حديث أبى الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد . وقال : لانعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد . قال يونس بن بكير : قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على مافيها . قلت : فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم . ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى فى شملة قد عقد عليها زاد الطريفى فى جزئه المشهور : فعقدها فى عنقه ماعليه غيرها وإسناده ضعيف ، وتقدم فى آداب المعيشة . (٢) حديث أبى سعيد الخدرى : كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة ... الحديث ... بإسناد صحيح فى أثناء حديث أوله : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل

فى سبيل الله﴾ قال صلى الله عليه وسلم « تباً للدنيا تبا للدينار والدرهم » فقلنا : يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة ، فأى شيء ندخر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته [١] » .

وفى حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : هما لايفارق قلبه أبدا وفقرا لايستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا [٢] » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف ؛ وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته [٣] » .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له : يانبى الله لو أمرتنا أن نبنى بيتا نعبد الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتا على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟ .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ياجبريل ، والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمر الله القيامة أن تقوم ؟ » قال : لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال « نبيا عبدا » ثلاثا [٤] .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه [٥] » .

---

(١) حديث عمر : لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ الآية ، قال « تبا للدينار والدرهم ... الحديث » وفيه : فأى شيء ندخر ؟ أخرجه الترمذى وابن ماجه وتقدم فى النكاح دون قوله « تبا للدينار والدرهم » والزيادة رواها الطبرانى فى الأوسط وهو من حديث ثوبان ، وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أى المال يتخذ ؟ كما فى رواية ابن ماجه ، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس ،

(٢) حديث حذيفة « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث . الحديث » لم أجده من حديث حذيفة ، أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن : من أشرق فى قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث : شقاء لاينفد عناه ، وحرص لايبلغ غناه ، وأمل لايبلغ منتهاه ، وفى آخره زيادة . (٣) حديث « لايستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته » لم أجد له إسنادا ، وذكره صاحب الفردوس من رواية على بن أبى طلحة مرسلا « لايستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته ، وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب إليه من أن يعرف فى غير ذات الله » ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس ، وعلى بن أبى طلحة أخرج له مسلم . وروى عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسلة ، فالحديث إذن معضل (٤) حديث ابن عباس : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ... الحديث فى نزول إسرافيل . وقوله : إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة . الحديث تقدم مختصرا . (٥) حديث « إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس دون قوله « ورغبه فى الآخرة » وزاد « فقهه فى الدين » وإسناده ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل «ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس [1]» .

وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا [2]» وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لهـا عن الشهوات ، ومن ترقب الموت ترك اللذات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات [3]» .

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشىء [4]» وإيراد جميع الأخبار الواردة فى مدح بغض الدنيا وذم حبها لايمكن ، فإن الأنبياء مابعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان .

وأما الآثار : فقد جاء فى الأثر : لاتزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا مانقص من دنياهم . وفى لفظ آخر : مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم ، لستم بها صادقين .

وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد فى الدنيا .

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد فى الدنيا منكم

وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد .

وقال بلال بن سعد : كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها .

وقال رجل لسفيان : أشتهى أن أرى عالما زاهدا ، فقال : ويحك : تلك ضالة لاتوجد .

وقال وهب بن منبه : إن للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لايدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إنى لأشتهى من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ، ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله .

وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال : أتدرون مامثلى ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها ، كذلك أنتم أردتم ذبحى على كبرسنى ، موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا !

وقال عبيد بن عميرة كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر ، وليس له ولد يموت ولابيت يخرب ولايدخر لغد ، أينما أدركه المساء نام ،

وقالت امرأة أبى حازم لأبى حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب !

---

(١) حديث «ازهد فى الدنيا يحبك الله ... الحديث» تقدم . (٢) حديث «من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا» لم أجد له أصلا . (٣) حديث «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ... الحديث» رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بن أبى طالب . (٤) حديث «أربع لايدركن الا بتعب : الصمت وهو أول العبادة ... الحديث» رواه الطبرانى والحاكم من حديث أنس وقد تقدم .

فقال لها أبو حازم : من هذا كله بدّ ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وقال ابراهيم ابن أدهم : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا .

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا ، وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه (١) » فإذا فهم هذا علم أن النعمة فى المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها فى الإعطاء المؤدى إلى السقم .

وكان الثورى يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لايخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعرى ، والفقر والذل .

وقال الحسن البصرى : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشى من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شى منها أدبر ، ولهى كانت فى أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من فى بيته بصنعة طعام قط ، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم. كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ماسلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ؛ وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أنّ الزهد فى نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث: (الدرجة الأولى) وهى السفلى منها : أن يزهد فى الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها ، وهذا يسمى المتزهد ، وهو مبدأ الزهد فى حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أوّلا نفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه فى الطاعات لا فى الصبر على مافارقه ، والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير . (الدرجة الثانية) : الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذى يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لايشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده ، ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه ، وهذا أيضا نقصان (الدرجة الثالثة) وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لايرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أنّ الدنيا لاشىء

(١) حديث « ان الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا ... الحديث » تقدم .

فيكون كمن ترك خزفه وأخذ جوهرة ، فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ، ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال فى الزهد . وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أنّ تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة فى البيع .

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبى موسى عبد الرحيم : فى أى شىء تتكلم ؟ قال : فى الزهد ، قال : فى أى شىء ؟ قال فى الدنيا : فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم فى شىء ، والدنيا لاشىء ، إيش يزهد فيها .

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره فى جميع مملكته ، أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ماقدناله ؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها فى حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثفلها فى المعدة ، ثم تنتهى إلى النتن والقذر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى مايسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، إذ لا نسبة للمتناهى إلى مالا نهاية له ، والدنيا متناهية على القرب ، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد ، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية ، فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد ، فإذن لايلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى مازهد فيه ، ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتدا به ، ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة ، فهذا تفاوت درجات الزهد ، وكل درجة من هذه أيضا لها درجات ، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده .

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات : (الدرجة السفلى) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر مابين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار ، إذ فيها « إن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء [1] » فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا ، فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم . (الدرجة الثانية) أن يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيرها ، وهذا زهد الراجين ، فإنّ هؤلاء ماتركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له (الدرجة الثالثة) وهى العليا : أن لايكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ؛ وهو الذى أصبح وهمومه هم واحد ؛ وهو الموحد الحقيقى الذى لايطلب غير الله تعالى ؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفى ، وهذا زهد

(١) حديث « ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء » أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ، ومؤمن فقير ... الحديث ، وفيه : « انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ماوصلت اليك حتى سال منى العرق ما لورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء » وفيه دريد غير منسوب يحتاج الى معرفته قال أحمد : حديثه مثله .

المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه ، وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل . فنقول : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل . أما الإجمال فى الدرجة الأولى : فهو كل ماسوى الله ، فينبغى أن يزهد فيه حتى يزهد فى نفسه أيضا ، والإجمال فى الدرجة الثانية : أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها . وفى الدرجة الثالثة : أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس . وفى الدرجة الرابعة : أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم رده فى آية أخرى إلى خمسة فقال عزوجل ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ ثم رده تعالى فى موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى ﴿ وإنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ ثم رد الكل إلى واحد فى موضع آخر فقال ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هى المأوى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا ، فينبغى أن يكون الزهد فيه . وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه فى الشرح مرة والإجمال أخرى .

فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا فقصر أمله لامحالة ، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ؛ فإنّ من أراد شيئا أراد دوامه ، ولامعنى لحب الحياة إلا حب دوام ماهو موجود أوممكن فى هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردها ، ولذلك لما كتب عليهم القتال ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ فقال تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا ، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله

أو نيل رتبه الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى إنّ خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول : كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز ، فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات ، هكذا كان حال الصادقين فى الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأما المنافقون ، ففرّوا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ﴿ إنّ الموت الذين تفرّون منه فانه ملاقيكم ﴾ فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون ، فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، فهذا بيان المزهود فيه .

وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكره المتكلمون فى حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه ، فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد فى الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف ، فبقدر ماتملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد فى شهوة واحدة ، ولعمرى هى أغلب الشهوات على الأكثر وهى المهيجة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل : الزهد فى الدنيا هو القناعة ، وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثورى : الزهد هو قصر الأمل ، وهو جامع لجميع الشهوات ، فإنّ من يميل إلى الشهوات يحدّث نفسه بالبقاء فيطول أمله ، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه ، وماقصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للمضمون ، وهو إشارة إلى الرزق وقال أهل الحديث : حب الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول ، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة ، وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا فهو صحيح ، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات ، فإنّ من العلوم ما لا فائدة فيه فى الآخرة ، وقد طوّلوها حتى ينقضى عمر الإنسان فى الاشتغال بواحد منها ، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن : الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال ، هذا أفضل منى ، فذهب إلى أنّ الزهد هو التواضع ، وهذا إشارة إلى نفى الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد . وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول : الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك فى أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول : من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد .

وفى الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر فى نقلها فائدة ، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق فى نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والأحوال تختلف ، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق فى نفسه

فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف ، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل : ما قاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شىء يشغلك عن الله عز وجل ، وقد فصل مرة وقال : من تزوج أو سافر فى طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ فقال : هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى وقال : إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه ؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض : هو الزهد فى الحرام . والنفل : هو الزهد فى الحلال . والسلامة : هو الزهد فى الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد ؛ إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال : التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفايا مايتركه فلا نهاية للزهد فيه ، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس فى الخطرات واللحظات وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإن ذلك لايطلع عليه إلا سماسرة العلماء ، بل الأحوال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى ، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا فى نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا فما الذى بدا لك ؟ قال : وما الذى تجدد ؟ قال : توسدك الحجر : أى تنعمت برفع رأسك عن الأرض فى النوم ، فرمى الحجر وقال : خذه مع ما تركته لك . وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس ، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت على الدنيا ، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه . وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العرى أن جلس فى قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام فى ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقمتنى أنت إنما أقامنى الذى لم يرض لى أن أتنعم بظل الحائط ، فإذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لاحصر لها ، وأقل درجاته : الزهد فى كل شبهة ومحظور . وقال قوم : الزهد هو الزهد فى الحلال لافى الشبهة والمحظور ، فليس ذلك من درجاته فى شىء ، ثم رأوا أنه لم يبق حلال فى أموال الدنيا فلايتصور الزهد الآن .

• فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى ؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ، ولايتصور ذلك إلا مع البقاء ، ولابقاء إلا بضروريات النفس ؛ فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله ؛ فإن مالايتوصل إلى الشىء إلا به فهو منه ؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها فى طريق الحج ليس معرضا عن الحج ، ولكن ينبغى أن يكون بدنك فى طريق الله مثل ناقتك فى طريق الحج ، ولاغرض لك فى تنعم ناقتك باللذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسيربك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغى أن تكون فى صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن ، فتقتصر على قدر الضرورة ولاتقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فذلك لايناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد ، وإن قلت : فلا بدّ وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ؛ فاعلم أن ذلك لايضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قديستريح بذلك

ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد ، فلا يكون القلب منصرفا إليه ؛ فالإنسان قد يستريح فى قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ، ولقد كان فى الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان فى الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ، ولذلك كان داود الطائى له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم فى جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد ، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين فى معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم ؛ فالفضول كالخيل المسومة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشى والمهم كالأكل والشرب ، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضرورى ، والمهم أيضا يتطرق إليه فضول فى مقداره وجنسه وأوقاته ، فلابد من بيان وجه الزهد فيه ، والمهمات ستة أمور : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنكح ، والمال . والجاه يطلب لأغراض . وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة .

(الأول المطعم) ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض ، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد ؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به ، وأما عرضه ففى مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله ؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه ، وهذه هى الدرجة العليا . (الدرجة الثانية) أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . (الدرجة الثالثة) أن يدخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدى الناس ، كداود الطائى فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها فى عشرين سنة ؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد ، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته فى اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مد واحد : وهو ما قدره الله تعالى فى إطعام المسكين فى الكفارة ، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب ، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ، ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول ، فإذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل فى التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله . وأما الأدم : فأقله الملح أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أى دهن كان ، وأعلاه اللحم أى لحم كان ، وذلك فى الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرتين فى الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً فى البطن أصلا ، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله فى اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما ، وأوسطه

أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه أن ينتهى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه فى ربع المهلكات ، ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم فى كيفية زهدهم فى المطاعم وتركهم الأدم :

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مصباح ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين التمر والماء [1] . وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم .

وقال الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض . ويقول « إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد ، وأجلس كما تجلس العبيد [2] » .

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير .

وقال الفضيل ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر [3] .

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يا بنى إسرائيل ، عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره . وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف فى المطعم والمشرب فى ربع المهلكات فلا نعيده .

ولما أتى النبى صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال « أما إنى لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى [4] » .

وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال : اعزلوا عنى حسابها . وقد قال يحيى ابن معاذ الرازى : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ؛ والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

(المهم الثانى) الملبس . وأقل درجته : ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة . وهو كساء يتغطى به . وأوسطه : قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه . أن يكون معه منديل وسراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه . بل يلزمه القعود فى البيت . فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار . أما الجنس فأقله المسوح

---

(١) حديث عائشة : كانت تأتى أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة : كان يأتى على آل محمد الشهر مايرى فى بيت من بيوته دخان ... الحديث . وفى رواية له : مايوقد فيه بنار . ولأحمد : كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد فى بيت من بيوته نار . وفى رواية له : ثلاثة أهلة .

(٢) حديث الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار الحديث ، تقدم دون قوله « إنما أنا عبد » فإنه ليس من حديث الحسن ، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم .

(٣) حديث : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ، تقدم .

(٤) حديث : لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ... الحديث ، تقدم .

الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ . وأما من حيث الوقت ، فأقصاه مايستر سنة ، وأقله مايبقى يوما ، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه ، وأوسطه مايتماسك عليه شهرا ومايقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد ، وإلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه ؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس : قال أبو بردة : أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين [1] وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس [2] » وقال عمرو بن الأسود العنسى : لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام بليل أبدا على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفى من طعام أبدا فقال عمر : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود [3] . وفى الخبر « ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا [4] » واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . [5]

وكانت قيمة ثوبيه عشرة [6] وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا [7] واشترى سراويل بثلاثة دراهم [8] . وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف [9] وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفى الخبر : كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات [10] . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم [11] فكان أصحابه يلمسونه ويقولون

---

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . رواه الشيخان وقد تقدم فى آداب المعيشة . (٢) حديث « ان الله يحب المتبذل لايبالى مالبس » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث عمر « من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى هدى عمرو بن الأسود » رواه أحمد بإسناد جيد . (٤) حديث « مامن عبد لبس ثوب شهرة ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث أبى ذر بإسناد جيد دون قوله « وان كان عنده حبيبا » . (٥) حديث . اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم. أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة ، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس الى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ... الحديث ، واسناده ضعيف .

(٦) حديث : كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم ، لم أجده . (٧) حديث : كان ازاره أربعة أذرع ونصفا . أخرجه أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلا : كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف ... الحديث ، وفيه ابن لهيعة . وفى طبقات ابن سعد من حديث أبى هريرة : كان له ازار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر فى ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدى .

(٨) حديث : اشترى سراويل بثلاثة دراهم ، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبى يعلى ، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه ، قال الترمذى : حسن صحيح .

(٩) حديث : كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ ، تقدم فى آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففى الصحيحين من حديث البراء : رأيته فى حلة حمراء ولأبى داود من حديث ابن عباس حين خرج الى الحرورية وعليه أحسن مايكون من حلل اليمن وقال : رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل . وفى الصحيحين من حديث عائشة : أنه صلى الله عليه وسلم قبض فى ثوبين أحدهما ازار غليظ مما يصنع باليمن ، وتقدم فى آداب المعيشة . ولأبى داود والترمذى والنسائى من حديث أبى رمثة : وعليه بردان أخضران ، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذى . وللبزار من حديث قدامة الكلابى : وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن ابراهيم لايعرف ، قاله الذهبى .

(١٠) حديث : كان قميصه كأنه قميص زيات . أخرجه الترمذى من حديث أنس بسند ضعيف : كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات . (١١) حديث : لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم اهداه له المقوقس ثم نزعه ... الحديث .

يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا ـ وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيدا للتحريم ، كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه[1] فحرم لبسه على الرجال ، وكما قال لعائشة فى شأن بريرة « اشترطى لأهلها الولاء »[2] ، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه ، وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح[3] وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها علم ، فلما سلم قال : شغلنى النظر إلى هذه ، اذهبوا بها إلى أبى جهم وائتونى بأنبجانيته[4] يعنى كساءه ، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم ، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه ، فلما سلم قال « أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإنى نظرت إليه فى الصلاة » ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال « شغلنى هذا عنكم ، نظرة إليه ونظرة إليكم[5] » وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين ؛ فأعجبه حسنهما ، فخر ساجدا وقال « أعجبنى حسنهما فتواضعت لربى خشية أن يمقتنى » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه[6] . وعن سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال « انظروا ما أحسنها ! ما ألينها ! » قال : فقام إليه أعرابى فقال يارسول الله هبها لى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به ، قال : فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فمات صلى الله عليه وسلم وهى فى المحاكة[7] . وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله تعالى عنها وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها بكى وقال « يافاطمة ؛ تجرعى مرارة الدنيا لنعيم الأبد » فأنزل الله عليه ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى[8] ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن من خيار أمتى فيما أنبأنى الملأ الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ، ويبكون سرا من خوف عذابه ، مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة ، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان ؛ أجسامهم فى الأرض وأفئدتهم عند العرش[9] » فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه ، إذ قال « من أحبنى فليستن بسنتى[10] » وقال « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ[11] » وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال « إن أردت اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه[12] » وعد على قميص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم .

(١) حديث : لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه . متفق عليه وقد تقدم . (٢) حديث قال لعائشة فى شأن بريرة « اشترطى لأهلها ... الحديث » متفق عليه من حديثها . (٣) حديث : أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها . أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع . (٤) حديث : صلى فى خميصة لها علم ... الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الصلاة .

(٥) حديث : لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال « شغلنى هذا عنكم ... الحديث » تقدم .

(٦) حديث : احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ... الحديث ، تقدم . (٧) حديث سنان بن سعد : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أنمار ... الحديث ، رواه أبو داود الطيالسى والطبرانى من حديث سهل بن سعد دون قوله : وأمر أن يحاك له أخرى ، فهى عند الطبرانى فقط ، وفيه زمعة بن صالح ضعيف ، ويقع فى كثير من نسخ الإحياء : سيار بن سعد وهو غلط . (٨) حديث جابر : دخل على فاطمة وهى تطحن بالرحى .. الحديث . أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف . (٩) حديث أن من خيار أمتى فيما آتانى الملى الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ، ويبكون سرا من خوف عذابه ... الحديث ، تقدم ، وهو عند الحاكم والبيهقى فى الشعب وضعفه .

(١٠) حديث « من أحبنى فليستن بسنتى » تقدم فى النكاح . (١١) حديث « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ... الحديث » رواه أبو داود والترمذى وصححه ، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية . (١٢) حديث قال لعائشة « إن أردت اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء » أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وقد تقدم .

واشترى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو فى الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذى كسانى هذا من رياشه . وقال الثورى وغيره : ألبس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال ، وكان يقول : إن الفقير ليمرّ بى وأنا أصلى فأدعه يجوز ، ويمرّ بى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز . وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابى ماخدمنى وشرها ماخدمته . وقال بعض السلف : البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها مايشهرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الدارانى : الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو مايستر العورة ، وثوب للنفس وهو مايطلب لينه ، وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه . وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما ، وكان الخواص لايلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته ، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف : أول النسك الزى ، وفى الخبر « البذاذة من الإيمان » وفى الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعاً لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة فى تخات الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : قل لأوليائى لايلبسوا ملابس أعدائى ولا يدخلوا مداخل أعدائى فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال : انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق — وكان عليه ثياب رقاق ، وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبى ذرّ فى بزته ، فجعل يتكلم فى الزهد ، فوضع أبى ذرّ راحته على فيه وجعل يضرط به ، فغضب ابن عامر ، فشكاه إلى عمر فقال : أنت صنعت بنفسك ، تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرّم الله وجهه : إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره . ولما عوتب فى خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم . ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال « إن لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين [1] » وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له : أنت الأمير وتفعل هذا ؟ فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه ، وأمرنا أن نحتفى أحيانا [2] . وقال على لعمر رضى الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع . وقال عمر : اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر ، وقال على كرم الله وجهه : من تزيا بزى قوم فهو منهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، ولاجناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما أسفل من ذلك ففى النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطرا [4] » وقال أبو سليمان الدارانى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايلبس الشعر من أمتى إلا مراء أو أحمق [5] » وقال الأوزاعى : لباس الصوف فى السفر سنة ، وفى الحضر بدعة . ودخل محمد بن واسع

---

(١) حديث : نهى عن التنعم وقال « إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وقد تقدم .

(٢) حديث فضالة بن عبيد : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه ، وأمرنا أن نحتفى أحيانا . أخرجه أبو داود بإسناد جيد . (٣) حديث « إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف « سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ... الحديث » وآخره « أولئك شرار أمتى » وقد تقدم .

(٤) حديث « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ... الحديث » رواه مالك وأبو داود والنسائى وابن حبان من حديث أبى سعيد ورواه أيضاً النسائى من حديث أبى هريرة قال محمد بن يحيى الذهلى : كلا الحديثين محفوظ .

(٥) حديث أبى سليمان « لايلبس الشعر من أمتى إلا مراء أو أحمق » لم أجد له إسنادا .

على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف ؛ فقال له قتيبة : مادعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت فقال : أكلمك ولاتجيبني! فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو فقراً فأشكو ربي . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه : أن وار عورتك من الأرض ، وكان لايتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين ! فاذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لايأتى عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسى رضي الله عنه : مالك لاتلبس الجيد من الثياب ؟ فقال وما للعبد والثوب الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لاتبلى أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي . وقال الحسن لفرقد السبخي : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ، بلغني أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : أرأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها ، فقلت : إنك تكسى خيرا من هذا ! فقال : ماضرهم ما أصابهم فى الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة ، فجعل يحيى ابن معين يحدث بها ويبكى .

﴿ المهم الثالث ﴾ المسكن ، وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات (أعلاها) أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة . (وأوسطها) أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو مايشبهه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة ؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن ؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق ، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجراً أو مستعاراً ، والزهد مدخل فى جميع ذلك . وبالجملة كل مايراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة ، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وماجاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى ، وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جداً ، وقد قيل : أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعنى بالتدريز : كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلا والتشييد : هو البنيان بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد [1] . وقد جاء فى الخبر « يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم علية كان قد علا بها [2] . ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال « لمن هذه ؟ » قالوا لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر ، فذهب فهدمها ؛ فمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالموضع فلم يرها . فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير [3]

---

(١) حديث : كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد . أماشل الثياب من غير كف فروى الطبرانى والحاكم أن عمر قطع مافضل عن الأصابع من غير كف وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما البناء ففى الصحيحين من حديث أنس فى قصة بناء مسجد المدينة : فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة ... الحديث ، ولهما من حديث أبى سعيد : كان المسجد على عريش فوكف المسجد . (٢) حديث : أمر العباس أن يهدم علية له كان قد علاها . رواه الطبرانى من رواية أبى العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « اهدمها ... الحديث » وهو منقطع .

(٣) حديث : مر بجنبذة معلاة فقال « لمن هذه ؟ » فقالوا : لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه ... الحديث . أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ : فرأى قبة مشرفة الحديث ، والجنبذة القبة .

وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (١) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين (٢) » وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا ، فقال « ماهذا ؟ » قلنا خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك (٣) ، واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له : لو بنيت ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت. وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال : كم من رجل قدمات وهذا قائم على حاله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من بنى فوق مايكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة (٤) » وفي الخبر « كل نفقة في الأرض يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين (٥) » وفي قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولا فسادا ﴾ إنه الرياسة والتطاول في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنّ من حرّ أو برد (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله « اتسع في السماء (٧) » أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر ، فكبر وقال : ماكنت أظنّ أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون ؛ يعني قول فرعون ﴿ فأوقد لي ياهامان على الطين ﴾ يعني به الآجر ، ويقال : إنّ فرعون هو أول من بنى له بالجص والآجر ، وأول من عمله هامان ، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ، ثم رأيته من رهص ، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خير من أصحاب اللبن . وكان من السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي إلى السقف . وقال عمرو بن دينار : إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال : لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه . وقال الفضيل : إني لم أعجب ممن بنى وترك ، ولكن أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين ، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم .

---

(١) حديث الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة . الحديث ، رواه ابن حبان في الثقات ، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلا . وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة « من سأل عني أوسره أن ينظر الي فلينظر الى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث » وإسناده ضعيف .

(٢) حديث « إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين » رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد « خضر له في الطين واللبن حتى يبني » . (٣) حديث عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا قد وهى الحديث . رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه .

(٤) حديث « من بنى فوق مايكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع (٥) حديث « كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين » رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ : إلا في التراب أو قال في البناء . (٦) حديث « كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد » رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ « إلا مالا » يعني مالابد منه .

(٧) حديث قال للرجل الذي شكى اليه ضيق منزله « اتسع في السماء » قال المصنف : أي في الجنة . رواه أبو داود في المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال : شكى خالد بن الوليد فذكره ، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد الوليد ، الا أنه قال : ارفع إلى السماء واسأل الله السعة ، وفي إسناده لين .

(المهم الرابع) أثاث البيت ، وللزهد فيه أيضا درجات (أعلاها) حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز ، وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود ، فإذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ، ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف فى كل ما يكفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف (وأعلاها) أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس ، فإن زاد فى العدد أو فى نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضى الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف [١] . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف [٢] . وروى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط فى جنبه عليه السلام ، فدمعت عينا عمر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب ؟ » قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » قال : بلى يارسول الله ؛ قال « فذلك كذلك [٣] » ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال : ياأباذر، ما أرى فى بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا ، فقال : إنه لابد لك من متاع ما دمت ههنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له : مامعك من الدنيا ؟ فقال : معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعى جرابى أحمل فيه طعامى ، ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى . ومعى مطهرتى أحمل فيها شرابى وطهورى للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى ، فقال عمر : صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة ، فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال « من أجل الستر والسوارين » فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : قد تصدقت بها فضعهما حيث ترى ، فقال « اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة » فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بها عليهم ، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال « بأبى أنت قد أحسنت [٤] » ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه

---

(١) حديث عائشة : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف . رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح ، وابن ماجه . (٢) حديث : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف . رواه الترمذى فى الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة ، وقد تقدم ، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه . (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه ... الحديث ، متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم .

(٤) حديث : قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع ... الحديث، لم أره بجموعه ولأبى داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد : أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتى الباب فرأى القرام قد ضرب فى ناحية البيت فرجع ، فقالت فاطمة لعلى : انظر فأرجعه . الحديث رواه النسائى من حديث ثوبان باسناد جيد قال : =

وقال « كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان [1] » وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية ؛ فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لها « أعيدى العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة [2] » وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضى الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال « ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده [3] » وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار مالأحدهم إلا ثوبه وماوضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط : كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

(المهم الخامس) المنكح ، وقد قال قائلون : لامعنى للزهد فى أصل النكاح ولافى كثرته ، وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال : قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية . والصحيح ماقاله أبو سليمان الدارانى رحمه الله إذ قال : كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم ، والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . وكشف الحق فيه : أنه قد تكون العزوبة أفضل فى بعض الأحوال كما سبق فى كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ؟ وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولافعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد ، فإن علم أن المرأة لاتشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات ، واللذة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لاتضره ، إذ لم تكن هى المقصد والمطلب ، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شىء ، لأن فى ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا ماعناه سهل لامحالة ، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه لايشغله كثرة النسوة ولااشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن [4] فلامعنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ، فأكثر الناس يشغلهم

= جاءت ابنة هبيرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يدها فتخ من ذهب .. الحديث . وفيه : أنه وجد فى يد فاطمة سلسلة من ذهب . وفيه « يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار » وأنه خرج ولم يقعد ، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبد فأعتقته ، فلما سمع قال « الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار » .

(١) حديث : رأى على باب عائشة سترا فهتكه ... الحديث . أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائى فى الكبرى من حديثها .

(٢) حديث : فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا . وفيه : كان ينام على عباءة مثنية ... الحديث ، رواه ابن حبان فى كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلى بفراش حشوه صوف ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا .. الحديث » وفيه : أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته ، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه ، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل .

(٣) حديث : أتته دنانير خمسة أوستة عشاء فبيتها فسهر ليله .. الحديث ، وفيه « ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده » أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه « ياعائشة ، مافعلت بالذهب » فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول « ماظن محمد ... الحديث » وزاد « انفقها » وفى رواية : سبعة أوتسعة دنانير ، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه ، قالت : فحسبت ذلك من وجع ، فقلت: يانبى الله ، مالك ساهم الوجه ؟ فقال « من أجل الدنانير السبعة التى أتتنا أمس أمسينا وهى فى خصم الفراش » وفى رواية « أمسينا ولم تنفقها » (٤) حديث : كان لايشغله كثرة النسوة ولااشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، تقدم فى النكاح

كثرة النسوان ، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه فى ذلك .

قال أبو سليمان : الزهد فى النساء : أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة .

وقال الجنيد رحمه الله : أحب للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث والتزوج . وقال : أحب للصوفى أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه ؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا .

(المهم السادس) مايكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه : أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة فى الأغراض والأعمال ، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لامحالة فى قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته ، وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه ؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لاعمق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج إلى المحل فى القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو الخلاص من ظلم ، فأما النفع فيغنى عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده المستأجر قدر ، وإنما يحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم بغير أجرة ، وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له فى قلوبهم أو محل له عند السلطان ، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب ، والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل فى القلوب مايدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ، فأما التوهمات والتقديرات التى تحوج إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة ، إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى فى بعض الأحوال ، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فإذن طلب المحل فى القلوب لارخصة فيه أصلا ، واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضرورى فى المعيشة أعنى القليل منه ، فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام ، هذا شرط الزهد ؛ فإن جاوز ذلك إلى مايكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا ، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين فى التوكل فأمسك منها مقدار مايكفى ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل مايفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد ، فإن شرط التوكل فى الزهد كما شرطه أويس القرنى رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا : إنه خرج من حدّ الزهاد نعنى به أن ماوعد للزاهدين فى الدار الآخرة من المقامات المحمودة لاينا له ، وإلا فاسم الزهد قد لايفارقه بالإضافة إلى مازهد فيه من الفضول والكثرة ، وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لاينبغى أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء : معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك فى عياله ، نعم لاينبغى أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حدّ الاعتدال ، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذاً مايضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء

نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، ومابينهما مشتبه أمره ، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى مالا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لا محالة . والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ماروى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه ، فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فإذن قدر الحاجة من الدين ، وما وراء ذلك وبال فى الآخرة ، وهو فى الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة فى كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لايقدر على قطعها ، ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا فى هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة . فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها فهى تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذى ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لابطريق السراية إليه من غيره ، فهذا أول عذاب يلقاه قبل مايراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب . قال الله تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ۞ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار ، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ؟ فنسأل الله تعالى أن يقرر فى أسماعنا مانفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له : أحبب من أحببت فإنك مفارقه [1] . وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر :

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه : رفضوا الدنيا بالكلية ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفى لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا

(١) حديث : نفث فى روعه أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، تقدم .

ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا اشراركم قالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده ، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ . وقال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك فى سياحتك ، فقال: أخرج مالك والحقني . فقال : لا أستطيع ، فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغنى الجنة — أو قال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون فى الآفاق بأربعة أصوات ، ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم بالمشرق : يا باغى الخير هلم ، ويا باغى الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب ، أحدهما : لدوا للموت وابنوا للخراب . ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة ، بل لابد من الزهد فى المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة ، كما قال الخواص فى وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق ، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله ؛ فإذن معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل .

وينبغى أن يعول فى باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك : وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد فى المال والثانى علامة الزهد فى الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح ، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال : إلى الأنس بالله ؛ فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ، ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام :

اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبي .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس — وهـذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه — وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بدّ وأن يكون فى أحـــد هذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلا من المـال على فقد زهده أصلا .

قال ابن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان : أكان داود الطائى زاهدا ؟ قال : نعم . قلت : قد بلغنى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الغاية ، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجرئ على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال .

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها .

وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول أبنى رباطا أو أعمر مسجدا .

وقال يحيى بن معاذ . علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

وقال أبو سليمان : الصوف عـــلم من أعلام الزهد فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفى قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سرى : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه .

وقال النصراباذى : الزاهد غريب فى الدنيا ، والعارف غريب فى الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة. وقال أيضا الزاهد يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر . وقال له رجل : متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك ، فأما مالم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السرى : مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد فى الناس فإنى لم أبلغه ولم أطقه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشركله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لايتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت . الرافع السماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ماعداه والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لايبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، ومامن دابة إلا على الله رزقها ؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

(أما بعد) فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغماس فى غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ، ولايقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا . ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى .

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات ، فقد قال تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه ، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه : فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لايعذب ولايبعد ولايحجب . وقال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل : هو المكذب لهذه الآية . فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز لايذل من استجار به ، ولايضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى

ذمامه وحماه ، وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر . حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه . وقال تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتى كثرتهم وهيأتهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت : نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يارسول الله ، قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة وقال . يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم اجعله منهم » فقام آخر فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم « سبقك بها عكاشة [١] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا [٢] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب : ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها [٣] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه [٤] » ويروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قوموا إلى الصلاة » ويقول « بهذا أمرنى ربى عز وجل » قال عز وجل ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [٥] الآية . وقال صلى الله عليه وسلم « لم يتوكل من استرقى واكتوى [٦] » .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود ، مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا .

وأما الآثار . فقد قال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب فأقسمت على أمى لتسترقين ، فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ .

---

(١) حديث ابن مسعود « أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل . . . الحديث » رواه ابن منيع بإسناد حسن ، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس .

(٢) حديث « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير . الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وصححاه من حديث عمر ، وقد تقدم (٣) حديث « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ، ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه ، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم

(٤) حديث « من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يده » رواه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٥) حديث : كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قوموا الى الصلاة » ويقول « بهذا أمرنى ربى » قال تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية . ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه . (٦) حديث « لم يتوكل من استرقى واكتوى » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبير والطبرانى واللفظ له ، إلا أنه قال : أو من حديث المغيرة بن شعبة ، وقال الترمذى « من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل » وقال النسائى : ماتوكل من اكتوى أو استرقى .

وقرأ الخواص قوله تعالى ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت ﴾ إلى آخر ، فقال : ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك .

وقال يحيي بن معاذ : فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنّ الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا .نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لاتنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من ـ علم هو الأصل و ـ عمل ـ هو الثمرة و ـ حال ـ هو المراد باسم التوكل .

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا . ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبنى عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك (لاإله إلا الله وحده لاشريك له) والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك (له الملك) والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك (وله الحمد) فمن قال (لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لانتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له ، فنقول .

للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فإنّ له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالرتبة الأولى من التوحيد : هى أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أومنكر له كتوحيد المنافقين . والثانية : أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام . والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة : أن لايرى فى الوجود إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصدّيقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لايرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضا ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ؛ فالأول موحد بمجرّد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان . والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعفه

بالمعاصى عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته . والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذلم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ؛ فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب . وكما أن القشرة العليا من الجوز لاخير فيها بل إن أكل فهو مر المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ حطبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك فى البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ؛ لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت : والقشرة السفلى هى القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه ، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافه إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

* فإن قلت . كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة : فكيف يكون الكثير واحدا ؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ذكر مايكسر سورة استبعادك ممكن . وهو أن الشىء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد ؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه ، والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة فى تفرقه ، فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد من

الاعتبارات واحد , وباعتبارات أخر سواه كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك . وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر ، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار فقال : فيماذا أنت ؟ فقال : أدور فى الأسفار لأصحح حالتى فى التوكل وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : قد أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ؟ فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال .

* فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه ! فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه ، وليس التوكل أيضا مبنيا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول وهو النفاق فواضح وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى عالم الكلام ، وقد ذكرنا فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذى يبنى عليه التوكل ، فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به دون تفصيله الذى لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله : أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثانى الالتفات إلى الجمادات , أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها : وهذا كله شرك فى التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ قيل : معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا . ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهى إلى المحرك الأول الذى لا محرك له ولا هو متحرك فى نفسه عز وجل ؛ فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول . لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه وإنما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك

الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فإذا انكشف لك أن جميع مافى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له أيضا نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زل أقدام الأكثرون إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف فى الطريق على الكاتب وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض بقدرته التى بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لايسمعه الذين هم عن السمع معزولون ، ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لايجاوز بالأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولاقدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى .

فإن قلت : فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لى كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ؟ فاعلم أن لكل ذرة فى السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لانهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر ﴾ الآية ، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار ملك قد نوجى بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولايضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢) ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا » (٣) ، ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فإذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان (أحدهما) استحالة إفشاء السر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكنا فى المثال الذى كنا فيه - وهى حركة القلم -

(١) حديث « لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث النهى عن إفشاء سر القدر : رواه ابن عدى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر « القدر سر الله فلا تفشوا لله عزوجل سره » لفظ أبى نعيم ، وقال ابن عدى « لاتكلموا فى القدر فإنه سر الله الحديث » وهو ضعيف ، وقد تقدم .

(٣) حديث « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث » أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء ، وتقدم فى العلم (٤) حديث : أنه خص حذيفة ببعض الأسرار ، تقدم .

نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفا وأصواتا ، ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغد : ما أنصفتنى فى هذه المقالة ! فإنى ماسودت وجهى بنفسى ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ! فقال : صدقت ، فسأل الحبر عن ذلك ؟ فقال : ماأنصفتنى فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لاعلى ! فقال صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه فقال : سل اليد والأصابع فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ومزقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى وفصلت بين أنابيبى ، ثم برتنى وشقت رأسى ، ثم غمستنى فى سواد الحبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى ، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عنى وسل من قهرنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ماأنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة ، فهى التى ترددنى ، وتجول بى فى نواحى الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لايتعدى شىء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بينى وبين القلم ، فسل القدرة عن شأنى فإنى مركب أزعجنى من ركبنى ، فقال صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع عنك لومى ومعاتبتى ، فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لاذنب له . وكيف خفى عليك أمرى ؟ وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا استسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدومة ، لأنى ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى إلى ما تراه منى ، فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجنى من غمرة النوم وأرهقنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيى ، فقال : صدقت ، ثم سأل الإرادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت الإرادة : لا تعجل على فلعل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإنى ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت ، وما انبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنى أدرى أنى فى دعة وسكون ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة ، لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه والتحير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك ،

فإنى كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا　　أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت ، وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى ، فسل القلم عنى لأنّ الخط لايكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق وكثرت منازلى ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكنى كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا لا فى الفؤاد وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال : فأما قولك : إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه فإنى لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولاسراجا إلا من النار ، وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا : أسمع جعجعة ولا أرى طحنا : فقال له القلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت إليها كثيرة : فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أنّ العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثانى عالم الملكوت وهو ورائى ؛ فإذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله وفيه المهامة الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ، ولا أدرى كيف تسلم فيها ، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ؛ لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الارض والماء ، فلا هى فى حدّ اضطراب الماء ، ولا هى فى حدّ سكون الأرض وثبوتها ، وكل من يمشى على الارض يمشى فى عالم الملك والشهادة ؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع ؛ فإن كنت لا تقدر على المشى على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى ، وأوّل عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء »(١) ، لما قيل له إنه كان يمشى على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامة التى وصفتها أم لا ؟ فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم فى أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك

---

(١) حديث : قيل له ان عيسى يمشى على الماء ، قال « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء » تقدم .

الأكرم ه الذى علم بالقلم ه علم الإنسان مالم يعلم ﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت أنّ متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أنّ الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدى ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدى ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ؟ ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا ، كما يقال : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾ فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه : ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكأن له فى كل قلب رأسا ولا رأس له ، فقضى منه العجب وقال : نعم الرفيق العلم ، فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ؛ فإنى أراه قلما لا كالأقلام ؛ فعند هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقامى عندك ومرادّتى لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ماتبعث به الإرادات إلى إشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات ؟ فقال : أو قد نسيت مارأيت فى عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ؟ قال : لم أنس ذلك . قال ؛ فجوابى مثله جوابه. قال : كيف وأنت لاتشبهه ؟ قال القلم : أما سمعت أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فانى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ؛ فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الآدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة . فقال : فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ؟ قال : نعم . قال : والأقلام أيضا فى قبضة يمينه هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم ولايجوز وصف شىء من ذلك ولا شرحه ، بل لاتحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالإيمان ، ويد لا كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع ؛ فرأى القلم محركا فى قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ؟ فقال : جوابى مثل ماسمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لاحكم لها فى نفسها وإنما

محركها القدرة لامحالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لاعلى الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة ﴿ لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ فغشيته هيبة الحضرة ، فخر صعقا يضطرب فى غشيته ، فلما أفاق قال : سبحانك ماأعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك ، فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لسانى لأثنى عليك ؛ فنودى من وراء الحجاب : إياك أن تطمع فى الثناء وتزيد على سيد الأنبياء ، بل إرجع إليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه ، وماقاله لك فقله ؛ فإنه مازاد فى هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] ، فقال . إلهى ، إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك ، فنودى : إياك أن تتخطى رقاب الصديقين ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به ؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، أماسمعته يقول : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا ؛ فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها : اقبلوا عذرى فإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ؛ فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخر وهما وصفان متناقضان ، وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؛ فالأول ليس بآخر ، والظاهر ليس بباطن ؛ فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لايزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود ، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت ، فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

* فإن قلت : قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لاتدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فإن قال : وأنا منهم فإنى لا أهتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه ، فيقال : إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا : مانراه لانثق به ، فلعلنا نراه فى المنام . فإن قال . وأنا من جملتهم فإنى شاك أيضا فى

---

(١) حديث « سبحانك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه ، فيترك أياماً فلائل ، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء : هذا حكم الجاحد . وأما الذى لايجحد ولكن لايفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت ، فإن وجدوها صحيحة فى الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه ؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإن فى عالم الشهادة أيضاً توحيدا ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأميرين ، فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله ، وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم فى المحاورة .

* فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول : نعم ؛ فإن الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف فى إثارة الأحوال إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً ، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شىء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا ، كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الإسفار لايزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته ، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامرى ؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ بل ﴿ قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ فإن البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ونسوا أنه لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لامحالة إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا .

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات ، وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الإنسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟ فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء ، لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ، ولكن علم أنه يفعل مايشاء إذا شاء إن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه ، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية ، وإذا لم تكن إليه المشيئة فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب . فهذا ضرورات ترتب بعضها على بعض . وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف

القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر فى الجميع .

فإن قلت : فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لاتنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا؟ فأقول: لو انكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور ، فهو إذن مجبور على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فإنّ هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة ، ولكنى أقول لفظ الفعل فى الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه ، إذ يقال : الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق فى الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ، ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا ، والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الخرق بعد التخطى ضروريا ، والتنفس فى معناه فإنّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن ؛ فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادى ، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة فى مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة ، وحدثت الحركة بها ، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا . وأما الثالث ـ وهو الاختيار ـ فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق ، وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة لا يشاء ، ؛ فيظن من هذا أنّ الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه : أنّ الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشىء موافق لك ، والأشياء تنقسم إلى ماتحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ماقد يتردد العقل فيه ؛ فالذى نقطع به من غير تردد أن من يقصد عينك مثلا بإبرة أو بدنك بسيف ، فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلاجرم تنبعث الإرادة بالعلم . والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ، ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء مايتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك ، فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية فكر ، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان ؛ فإذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أى هو انبعاث إلى ماظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ، ولم ينتظر فى انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه ، إلا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية ، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهى التى انبعثت بإشارة العقل فيما له فى إدراكه توقف ، وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ، ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة فى اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان فى عقوبة مؤلمة لا تطاق ؛ فإنّ العقل هنا يتوقف فى الحكم ويتردد؛ لأن

تردده بين شر الشرين ؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لاميل فيه ولاصارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ، كالذى يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا وإن مهلكا ولايبالى ولايمكنه أن لايرمى نفسه ، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمى فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولاتنبعث له داعية ألبتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدّر بالضرورة فيه من حيث لايدرى ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه فكلا ولا ، فإذن معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فإذاهو مجبور على الاختيار ، ففعل النار فى الإحراق مثلا جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ، لأنه لما كان فنا ثالثا واتبعوا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ، وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لايفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد ، فإن ذلك فى حقه محال ، وجميع الألفاظ المذكورة فى اللغات لايمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لايليق بهذا العلم ويطول القول فيه ،

* فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة ، وأن كل متأخر حدث من المتقدم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شىء لامن قدرة الله تعالى ، وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على معنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية ، وهو الأصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون فى العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول ، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولاعلم إلا بعد حياة ولاحياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لايجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدم متقدم ولايتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم ، وكذلك جميع أفعال الله تعالى ، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين - تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلاليعبدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ﴾ فكل مابين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لايتصور أن يكون إلاكما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لايوصف بكونه مقدورا ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلالفقدشرط الحياة ، ولاتتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم ، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس فى شىء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير ، وتفهيم ذلك عسير ، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة ، وذلك بأن

نقدر إنسانا محدثا قد انغمس فى الماء إلى رقبته ، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له ، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه ، فإذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء عمل الماء فى سائر أعضائه وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبه ، إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل ، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم ، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها لا بغسل الوجه ، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا ينبغى أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ، فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد فى الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد ، واستيفاء ذلك فى عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه ، وكل ذلك ينطوى تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ! وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين فى العلم فكيف عند غيرهم .

• فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع : ومعنى التوحيد : أن لا فاعل إلا الله تعالى ؛ ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ؛ فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ؟ وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد ، وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض ، كما يقال : قتل الأمير فلانا ، ويقال : قتله الجلاد ، ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ، فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر ؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع ، وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا ؛ لأن القتل ارتبط بقدرتها ولكن على وجهين مختلفين ، فلذلك سمى فعلا لهما ، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال فى القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه ، فقال الله تعالى فى الموت ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ أضاف إلينا ثم قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وكان النافخ جبريل عليه السلام ، وكما قال تعالى ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قيل فى التفسير : معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين

القتل ، بل صرح وقال تعالى ﴿ فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى ﴾ وهو جمع بين النفى والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه : وما رميت بالمعنى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذى يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ وقال ﴿ علمه البيان ﴾ وقال ﴿ ثم إنّ علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة فى يده ثم يصوّرها جسدا ، فيقول ، يارب ، أذكر أم أنثى ، أسوى أم معوّج ؟ فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك [1] » وفى لفظ آخر « ويصوّر الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » . وقد قال بعض السلف : إنّ الملك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج فى جسم ،ولذلك سمى روحا ، وماذكره فى مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم ، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد ، وكذلك ذكر الله تعالى فى القرآن من الأدلة والآيات فى الأرض والسموات ، ثم قال ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ وقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة . فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيى والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ، ففى الخبر « أنّ ملكى الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة . أنا أحيى الموتى ، فأوحى الله تعالى إليهما : كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع ، وأنا المميت والمحيى لا يميت ولا يحيى سواى [2] » . فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعانى إذا فهمت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الذى ناوله التمرة « خذها ، لو لم تأتها لأتتك [3] » أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أنّ التمرة لا تأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها ، وكذلك لما قال التائب : أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم « عرف الحق لأهله[4] » فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة ، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوز والمستعير فى كلامه ، وللتجوز وجه كما أنّ للحقيقة وجها ، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أنّ نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد ، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أنّ الأمر بالعكس

---

(١) حديث : وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا . . الحديث ، رواه البزار وابن عدى من حديث عائشة « ان الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول : يارب ماذا ... الحديث » وفى آخره « فما من شىء الا وهو يخلق معه فى الرحم » وفى سنده جهالة . وقال ابن عدى : انه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه . (٢) حديث « ان ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحيى الأموات ، فأوحى الله اليهما : أن كونا على عملكما ... الحديث » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث : قال الذى ناوله التمرة « خذها لو لم تأتها لأتتك » أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل ، ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح . (٤) حديث انه قال للذى قال أتوب الى الله ولا أتوب الى محمد « عرف الحق لأهله » تقدم فى الزكاة .

وقالوا : إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز . أى تتجوز به عما وضعه اللغوى له ، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » [1] ، أى كل ما لا قوام له بنفسه - وإنما قوامه بغيره - فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه ، فإذن لا حق بالحقيقة إلى الحى القيوم الذى ليس كمثله شىء ، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته ، فهو الحق وما سواه باطل ، ولذلك قال سهل : يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا : كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان .

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول بإعادته ، فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول ، فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه . وهو أن يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى ، وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية ، بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره ، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة ، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران ، وفداء

(1) حديث « أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد : * ألا كل شىء ما خلا الله باطل * متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « قاله الشاعر » وفى رواية لمسلم « أشعر كلمة تكلمت بها العرب » .

أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ، وما لم يخلق الناقص لايعرف الكامل ، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإنّ الكمال والنقص يظهر بالإضافة ، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا ، وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك الأمر فى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لاجور فيه وحق لا لعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب فى السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل أنّ الخير والشر مقضى به ، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشطر الثانى من الكتاب

فى أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ماقاله الشيوخ فى حد التوكل ، وبيان التوكل فى الكسب للمنفرد والمعيل ، وبيان التوكل بقدر الادخار وبيان التوكل فى دفع المضار ، وبيان التوكل فى إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أنّ مقام التوكل ينتظم من : علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم .

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته ، وقد أكثر الخائضون فى بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم ، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهل التصوف به ، ولا فائدة فى النقل والإكثار ، فلنكشف الغطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكل أمره إلى فلان أى فوّضه إليه واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكول إليه وكيلا ، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة . أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لايخفى عليه من غوامض الحيل شىء أصلا . وأما القدرة والقوة فليستجرئ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحى ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به : وأما الفصاحة فهى أيضا من القدرة إلا أنها قدرة فى اللسان على الافصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه : فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس : وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر

عليه فى حقه من المجهود ، فإنّ قدرته لاتغنى دون العناية به إذا كان لايهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك ؛ فإن كان شاكا فى الأربعة أو فى واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه ، والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لاينحصر إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لاضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لاجله ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية ، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقدرهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى ، فإن ثبت فى نفسك بكشف او باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإنّ الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له عن غير نقصان فى اليقين ، فإنّ من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنا بكونه ميتا وأنه جماد فى الحال وأنّ سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه ، كما أنها مطردة بأن لايقلب القلم الذى فى يده حية ولا يقلب السنور أسدا وإن كان قادرا عليه ، ومع أنه لايشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش أو المبيت معه فى البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات ، وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعيف قلما يخلو الإنسان عن شىء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه ، فإذن لايتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون فى القلب شىء واليقين شىء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ فالتمس أن يكون مشاهدا إحياء الميت بعينه ليثبت فى خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ؛ وذلك لا يكون فى البداية أصلا ، وكم من مطمئن لايقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فإنّ اليهودى مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصرانى ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه ، فإذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها ، فهى أحد الأسباب التى تضاد حال التوكل ، كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب ، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى ؛ وقد قيل : مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته إنسان مثله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« من استعز بالعبيد أذله الله تعالى (١) » وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التى سميت توكلا فاعلم أنّ تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) ماذكرناه : وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل (الثانية) وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لايعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر فى قلبه أمه فإنها مفزعه ، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذى له ، ويظن أنه طبع من حيث إنّ الصبى لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا فى ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبى بأمه فيكون متوكلا حقا : فانّ الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لأنّ له التفاتا إلى توكله وشعورا به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك الأمانى . قيل : وأوسطه ؟ قال ترك الاختيار ، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لايعرفه إلا من بلغ أوسطه (الثالثة) وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لايفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبى فإنّ الصبى يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل هو مثل صبى علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه ، وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق ، والمقام الثانى لايقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط .

• فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثانى والثالث أعزها ، والأول أقرب إلى الإمكان ، ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لايكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل ، فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض ، كما إنّ انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض . والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة ، فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لايدوم ، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لايدوم ، وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوما ويومين ، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول .

---

(١) حديث « من اعتز بالعبيد أذله الله » أخرجه العقيلى فى الضعفاء ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر ، أورده العقيلى فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى وقال : لايتابع على حديثه ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : يخالف فى روايته .

* فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال ؟ فاعلم إنّ المقام الثالث ينفى التدبير رأسا مادامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثانى ينفى كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لاينفى أصل التدبير والاختيار ولكن ينفى بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لايترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته ، فأما الذى يعرفه بإشارته بأن يقول له : لست أتكلم إلا فى حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته فى إظهار الحجة ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له ؛ إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمداً له فى قوله لما حضر ؛ فقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته : فهو أن يعلم من عادته أن لايحاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلا عليه : أن يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها : وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته ؛ فإذن لايستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى إحضار السجل ، ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصا فى توكله فكيف يكون فعله نقصا فيه ، نعم بعد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظراً إلى محاجته فقد ينتهى إلى المقام الثانى والثالث فى حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لايفزع إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة ، وقد كان فزعه إلى حوله وقوته فى الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته ، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى ، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فى التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأنّ كل تدبير وعمل لايجوز أيضا مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتى تفصيله فى الأعمال ، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته فى الحضور والإحضار لايناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلا وتعباً محضا بلا جدوى ؛ فإذن لايصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إنّ الوكيل جعله معتمداً لمحاجته ، وعرّفه ذلك بإشارته وسنته ، فإذن لاحول ولا قوة إلا بالوكيل ، إلا أن هذه الكلمة لايكمل معناها فى حق الوكيل لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين فى أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وإنما يصدق ذلك فى حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق فى التوحيد وهو الذى جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذن لاحول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقا ، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الأخبار فيمن يقول لاحول ولا قوة إلا بالله [1] ، وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التى ذكرناها فى التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لاإله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى ، إذ فى هذه الكلمة إضافة إلى شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل اليه ، فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا ، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين ، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات ، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين ، وإلى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله

(١) أحاديث ثواب قول لاحول ولاقوة الا بالله : تقدمت فى الدعوات .

صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة (١) ، وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح فى بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان فى بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح ، فالملك لاينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس ، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما ، ولا ينصب سرير الملك إلا المقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم فى الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لاتنتهى إلا بالملك ، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر فى سورة الواقعة المقربينَ السابقين تعرض لسرير الملك فقال ﴿ على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ﴾ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد فى ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور العين ، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام ، وأين لذات البهائم من لذة الملك ، والنزول فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ، ولوكان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة ، أفترى أنّ أحوال البهائم - وهى مسيبة فى الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد - أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة - من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين ، هيهات هيهات ماأبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام ! وليس يخفى أنّ شبه كل شىء منجذب إليه ، وأنّ النفس التى نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفه أشبه فى جوهره منه بالكتاب ، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة ، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففى قوته ذلك ، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال . وإذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لاحول ولاقوة إلا بالله) وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل .

• فإن قلت : ليس فى قولك (لاحول ولاقوة إلابالله) إلا نسبة شيئين إلى الله ، فلوقال قائل ، السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولامساواة بين الدرجتين ولاينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا ، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى ، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره ، فهى مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا وهو شرك فى التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى ، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لاحول ولاقوة إلا بالله ، وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد إلا عقبتان (إحداهما) النظر

---

(١) حديث « من قال لااله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة » رواه الطبرانى من حديث زيد بن أرقم ، وأبو يعلى من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات (والثانية) النظر إلى اختيار الحيوانات وهى أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها ؛ فإذاً رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ماقاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أنّ شيئا منها لايخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال ، فقد قال أبو موسى الديلى : قلت لأبى يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ماتقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل ، فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث ، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة ، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا فى المقام الأول من التوكل ؛ فقد احترز أبو بكر رضى الله عنه فى الغار إذ سدّ منافذ الحيات [1] إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال : إنما فعل ذلك شفقة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فى حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه ، وللنظر فى هذا مجال ، ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإنّ حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لاحول للحيات ولا قوة لها إلا بالله ، فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير .

وسئل ذو النون المصرى عن التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب ، فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له : زدنا ! فقال : إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية ، وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط .

وسئل حمدون القصار عن التوكل ؟ فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك فى عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لاتيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك ، وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن فى المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل ؟ فقال : التعلق بالله تعالى فى كل حال ، فقال السائل : زدنى ! فقال : ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك ، فالأول عام للمقامات الثلاث ، والثانى إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، إذ كان سؤاله سببا يفضى إلى سبب وهو حفظ جبريل له ، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك ، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره ،

(١) حديث : ان أبا بكر سد منافذ الحيات فى الغار شفقة على النبى صلى الله عليه وسلم . تقدم .

وهو حال عزيز فى نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز .

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ولعله يشير إلى المقام الثانى ، فسكونه بلا اضطراب : إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون : إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها .

وقال أبو على الدقاق . التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد ، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شىء من ذلك ؛ وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكرناه فلانطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل ، فهذا مايتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يثمر الأعمال ، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ، بل نكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه ، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

(الفن الأول : فى جلب النافع) فنقول فيه : الأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لاتثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه .

(الدرجة الأولى) المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لايختلف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد إليه سعى وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض وليس من التوكل فى شىء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك : فقد جهلت سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام : فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه ، أليس التوكل فى هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج ؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال مايزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى

من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول ، فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل .

(الدرجة الثانية) الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لايطرقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا في التوكل ، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ، ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص .

فإن قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين (أحدهما) أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى (والثاني) أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ومايتفق من الأشياء الخسيسة ؛ فبعد هذين الشرطين لايخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزئ به فيحيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول : هذا لايقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لايكون الماء فيها على وجه الأرض ، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة ؛ فإن المسافر مع حرارة الحركة لايصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولايوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ، ولايقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي ، فكل مافي معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لايتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه ، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ، ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا ، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه ، كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي ، فقعد سبعة فكاد يموت ولم يأته رزق ، فقال : يارب إن أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك ، فأوحى الله جل ذكره إليه . وعزتي لأرزقنك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس . فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه . أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا ! أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي ، فإذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لايناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب .

فإن قلت: ما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأنه كفعل صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت: فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه، فإن الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: اختلف الناس فى كل شىء إلا فى الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا مميت إلا الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال [1]» وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسى: المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون. وقال بعضهم: العبيد كلهم فى رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة (الدرجة الثالثة) ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذى فيه الناس كلهم: أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح، فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التى نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والكى بالإضافة إلى إزالة الضار، فإن النبى صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب، وأمثال هذه الأسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل فى التوكل: إنه ترك التدبير وقال: إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجابهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهى التى تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية، فإذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى مالا يخرج، وأن الذى يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات

---

(١) حديث «لو توكلتم على الله حق توكله ... الحديث» وزاد فى آخره «ولزالت بدعائكم الجبال» وقد تقدما قريبا دون هذه الزيادة، فرواها الإمام محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه ابن «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» ورواه البيهقى فى الزهد من رواية وهيب المكى مرسلا دون قوله «لمشيتم على البحور» وقال: هذا منقطع.

فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا ، والمتوكلون فى ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

(الأول) مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شىء من ذلك ، فإن الذى يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده .

(المقام الثانى) أن يقعد فى بيته أو فى مسجد ولكنه فى القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ، لكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود فى الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذى يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم .

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب ، وهذا السعى لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة ، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع ، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ؟ وإلى ماذا يميل ؟ وبم يحكم ؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع ؛ فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته ، والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذا الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال : لاتشغلونى عن عيالى فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ، ويستحيل أن يقال : لم يكن الصديق فى مقام التوكل ! فمن أولى بهذا المقام منه ؟ فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره ، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا ، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد - وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق : كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول : أستحى أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى . واعلم أن الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل ، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والعلم ، كتوكل المكتسب ؛ وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل

إليهم فهذا أقوى فى توكلهم ، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق ، ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق .

* فإن قلت : فما الأفضل أن يقعد فى بيته ، أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا يستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى ، فالقعود له أولى . وإن كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب ، وما كان المتوكلون يأخذون ماتستشرف إليه نفوسهم : كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه ، فرده ، فلما ولى قال له أحمد : الحقه وأعطه فإنه يقبل ، فلحقه وأعطاه فأخذه ، فسأل أحمد عن ذلك ؟ فقال : كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد فى العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب مارآه فى أسفاره : رأيت الخضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى إليه فيكون نقصا فى توكلى ، فإذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا .

* فإن قلت : فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول : علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه ، بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحدا ، فإن من لم يسكن إلى شىء لم يضطرب لفقده ، ومن اضطرب لفقد شىء فقد سكن إليه ، وكان بشر يعمل المغازل فتركها ، وذلك لأن البغادى كاتبه قال : بلغنى أنك استعنت على رزقك بالمغازل ، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك فى قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل : تركها لما نوهت باسمه رقصد لأجلها . وقيل : فعل ذلك لما مات عياله ، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فرقها .

* فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا مافيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغى أن يعتقد أن الموت جوعا خير له فى الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته ، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ، ففى الخبر « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه : من سبقنى ؟ من دهانى ؟ وماهى إلا رحمة رحمه الله بها[1] » ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا : فإنى

---

(١) حديث « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه ، إلا أنه قال « إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا ... الحديث » بنحوه .

لا أدرى أيهما خير لى ، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإنى ماشممت منه رائحة ، هذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال : ما أدركته ، ولعله أراد إدراك أقصاه ، وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد : لم يكمل حال التوكل ؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ـ كما سبق ـ وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد .

* فإن قلت : فهل من دواء ينتفع به فى صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى فى تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم ، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله تعالى : قال الله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ، ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظن مولع ، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل ، فقد حكى عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام : لو اكتسبت لكان أفضل لك ، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال فى الرابعة : يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك ، فقال : يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك .

وينفع حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية : أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيها عجائب قهر الله تعالى فى إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا ، كما روى عن حذيفة المرعشى وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم ، فقيل له : ما أعجب مارأيت منه ؟ فقال : بقينا فى طريق مكة أياما لم نجد طعاما ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : ياحذيفة ، أرى بك الجوع ، فقلت : هو مارأى الشيخ ، فقال : على بدواة وقرطاس ، فجئت به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ، وكتب شعرا :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر   أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها   فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال : اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك ، فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة . فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو فى المسجد الفلانى ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة

فقال : هذا نصرانى ، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يجىء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا ، فحدثتنى نفسى بالخروج فخرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئا يسكن ضعفى ، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها ، فوجدت فى قلبى منها وحشة وكأن قائلا يقول لى : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدى ووضع قمطرة وقال : هذه لك ، فقلت كيف خصصتنى بها ؟ قال : اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين ، وأنت أول من لقيته ، فقلت : افتحها ، ففتحها فإذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم ، وقد قبلتها ، ثم قلت فى نفسى : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى .

وقال ممشاد الدينورى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه ، فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول : يابخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما .

وحكى عن بنان الحمال قال : كنت فى طريق مكة أجىء من مصر ومعى زاد ؛ فجاءتنى امرأة وقالت لى : يابنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لايرزقك ، قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى : أحمله حتى يجىء صاحبه فربما يعطينى شيئا فأرده عليه ، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى يجىء صاحبه فآخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت : أنفقها ، فاكتفيت بها إلى قريب مكة .

وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا : هو ذا يجىء النفير فنشترى مايوافق ، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح له ، فقالوا لصاحبها . بكم هذه ، فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة .

وقيل : كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص فقال : إن أكلته مت ، فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره ، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقى القرص عنده .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ، إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه ، فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية .

وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقائل يقول : ياهذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة ، فجاءه عمر فقال له . إنى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عنى ؟ فقال : إنى قرأت القرآن فأغنانى

عن عمر وآل عمر ، فقال عمر . رحمك الله فما الذى وجدت فيه ، فقال وجدت فيه ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فبكى عمر وقال ، صدقت ، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه ،

وقال أبو حمزة الخراسانى : حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشى فى الطريق إذ وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث ، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد ، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصيح فقلت فى نفسى : إلى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشىء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بى فى همهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلقت به فأخرجنى ، فإذا هو سبع ، فمر وهتف بى هاتف : ياأبا حمزة أليس هذا أحسن ، نجيناك من التلف بالتلف ، فمشيت وأنا أقول :

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب حتى كأنما تبشرنى بالغيب أنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لك وحشة فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف
وتحيى محبا أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر ، وإذا قوى الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه : تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات ، وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد ، لأن المنفرد لايصح توكله إلا بأمرين (أحدهما) قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس (والآخر) أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جملتها : أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه ، علما بأن رزقه الموت والجوع ، وهو إن كان نقصا فى الدنيا فهو زيادة فى الآخرة ، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له : وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذى به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له ، وبهذا يتم التوكل المنفرد ، ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه فى نفسه إن اتفق ذلك نادرا ، وكذا سائر أبواب الإيمان ، فإذن لا يمكنه فى حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث ، كتوكل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ خرج للكسب ، فأما دخول البوادى وترك العيال توكلا فى حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا فى حقهم فهذا حرام ، وقد يفضى إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم ، بل التحقيق أنه لافرق بينه وبين عياله، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة ، فله أن يتوكل فى حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة ، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ، ولذلك روى أن أبا تراب النخشبى نظر إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام . فقال له . لا يصلح لك التصوف . الزم السوق أى لا تصوف إلا مع التوكل .

ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ، وقال أبو على الروذبارى : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب ، فإذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله فى عياله ؛ وإنما يفارقهم فى شىء واحد : وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك فى عياله ، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتياد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادى التى لاتخلو عن حشيش وما يجرى مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل فى الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل فى البوادى ، وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى فى الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ، ومن نظر فى ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه ، أما ترى الجنين فى بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهى إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل فى قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذى لايحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف فى ثدى الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ! فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب ، فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهى الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه فى اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة ، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه فى كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ، ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه ، فما رؤى إلى الآن فى سنى الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التى خلقها فى قلوب عباده فلماذا ينبغى أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل فى الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها مايفيد الغرض ، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم ! فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

• فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون : هو مثلنا فليجتهد لنفسه ؟ فأقول : إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل فى حقه فإن التوكل من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى ؛ فما للبطال والتوكل ؟ وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه فى ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه فى قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته ، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما رؤى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو فى الأمصار فمات جوعا ولا يرى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه ، فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه فى قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها ، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت . فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم مادبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة ، وقد يقع ذلك أيضا فى بعض الأحوال لكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة ، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا ، وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب : فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب ؛ فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس أثمر ماقاله الحسن البصرى رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة فى عيالى ، وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك . فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه ، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين : الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما ؛ فإذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لا تحتسب ، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة ؛ فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه ؛ فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه فى السماء . قال الله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وأسرار السماء لا يطلع عليها ، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال : ماذا تطلبون ؟ قالوا : نطلب الرزق ، فقال : إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه . قالوا : نسأل الله . قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، فقالوا : ندخل البيت ونتوكل وننظر مايكون . فقال : التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى

الخزاز : كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت : ليس هذا من أفعال المتوكلين ، فطالبتنى أن أسأل الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب ... وأنا لانضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهداً ... كأنا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أنّ من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى : كان مطمئن النفس أبداً واثقا بالله عزوجل ؛ فإنّ أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من ليس مطمئنا فإذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق ، فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك ، ولا تكن فى توكلك منتظراً للأسباب بل لمسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم ، والمحرك الاول واحد فلا ينبغى أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد أو يقعد فى الأمصار وهو خامل . وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام ، بل يأتيه أضعافه ، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الخامل مع الاكتساب ، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأنّ شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن : فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ، ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى علم أنّ الرزق ليس على قدر الأسباب ، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أنّ العقل رزق صاحبه : فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... هلكن إذن من جهلهن البهائم

بيان أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى أن لايغفلوا عن واحد منهم ، وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فإنّ الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم : فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإنى أختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ، ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ، ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان

ولا قائلا ليته أوصل إلى رغيفا فإنى غدا أستوزره وأفوض ملكى إليه فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام : قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ؛ وقالوا : من اليوم إلى غد فرج ! ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فى الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة ، وقسم قالوا : إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به ؛ فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة ؛ وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا : إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد ، وإن أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة ، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك ، فما نفعهم ذلك ، إذ اتبعهم الغلمان فى كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا ، وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش ، فباتوا فى جوع شديد ، فقال اثنان منهم : ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر ، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة ، فهذا مثال الخلق ، والميدان هو الحياة فى الدنيا ، وباب الميدان الموت ، والميعاد المجهول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والمتعلق بالغلمان هو المعتدى فى الأسباب ، والغلمان المسخرون هم الأسباب ، والجالس فى ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الأمصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون ، والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى البوادى على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور ، وإن مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى ، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية فى الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم ، وساح فى البوادى ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان ، وفاز بالقرب واحد ، ولعله كان كذلك فى الأعصار السالفة ، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهى إلى واحد من عشرة آلاف .

(الفن الثانى فى التعرض لأسباب الادخار) فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب ، فله فى الادخار ثلاثة أحوال (الأولى) أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكل إن كان جائعا ، ويلبس إن كان عاريا ، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ، ويفرق الباقى فى الحال ، ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية ، فهذا هو الوفى بموجب التوكل تحقيقا وهى الدرجة العليا (الحالة الثانية) المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يدخر لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلا ؛ وقد قيل . لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة ، والنملة ، وابن آدم (الحالة الثالثة) أن يدخر لأربعين يوما فما دونها ، فهذا : هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه : فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل . وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المكى : لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا ، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل ، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلك الرتبة لها بداية

ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات : السابقين ، وأصحاب البدايات : أصحـــاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعالى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير فى مثل هذا ؛ بل التحقيق أنّ التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل ؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو فى نفس ، فإنّ ذلك كالممتنع وجوده ؛ أما النـاس فتفـاوتون فى طول الأمل وقصره ، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه ما يتصوّر أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لاحصر لها ، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة ، وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام : بعيد ؛ فإنّ تلك الواقعة ما قصد بها بيـان مقدار مارخص الأمل فيـه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لايتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعـالى فى تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام « إنّ الله خمر طينة آدم بيده أربعين صـباحا [1] » لأنّ استحقـاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ماذكر ، فإذن ماوراء السنة لايدّخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب ، فهو خارج عن مقـام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإنّ أسباب الدخل فى الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمـل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما فى الرتبة ، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لايدّخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقـد روى فى الفقير الذى أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرّم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه « إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضـاحية ، قلنا : وما هى يارسول الله ؟ قال ، كان صوّاما قوّاما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتـاء ادخر حلة الصيف لصيفه ، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر [2] » الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام فى معنى ذلك ، فإنّ ادخاره لاينقص الدرجة ، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه فى الصيف ، وهذا فى حق من لاينزعج قلبه بترك الادخار ولاتستشرف نفسه إلى أيدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيـل الحق ، فإن كان يستشعر فى نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى ، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى ، لأنّ المقصود إصلاح القلب ليتجرّد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمحذور مايشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا فى عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ؛ ولذلك بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهـل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التجار بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أنّ فوزهم ونجـاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعـالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أنّ صواب القوى ترك الادخار ،

---

(١) حديث « خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسى باسناد ضعيف جدا وهو باطل .

(٢) حديث : أنه قال فى حق الفقير الذى أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته : أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ... الحديث . وفى آخره « من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » لم أجد له أصلا ، وتقدم آخر الحديث قبل هذا .

وهذا كله حكم المنفرد ؛ فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم ، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأنّ الأسباب تتكرر عند تكرر السنين ؛ فادخاره مايزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل ، فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . وقد ادخر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعياله قوت سنة[١] ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد ، [٢] ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ [٤] » اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول « مايدريني لعلى لا أبلغه [٥] » وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته ، فإنّ أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته ، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفى عياله ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر : « إنّ الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه [٦] » تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم ، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلى : أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم « فتشوا ثوبه » فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم « كيتان [٧] » . وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه ، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى ﴿ تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس (والثانى) أن لا يكون ذلك عن تلبيس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه ، وذلك لا يكون عن تلبيس ، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل ، فيشهد له ماروى عن بشر . قال الحسين المغازلى من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار ، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال : وما رأيته قام لأحد غيره ، قال : ودفع إلى كفا من دراهم وقال : اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب ، وما قال لى قط

---

(١) حديث : ادخر لعياله قوت سنة ، متفق عليه ، وتقدم فى الزكاة . (٢) حديث : نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لغد : تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها . (٣) حديث : نهى بلالا عن الادخار وقال « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا » رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة وبلال : دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر ، فقال ذلك . وروى أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط حديث أبى هريرة ، وكلها ضعيفة . وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز ، فلم أره

(٤) حديث قال لبلال « إذا سئلت فلا تمنع ، وإذا أعطيت فلا تخبأ » رواه الطبرانى والحاكم من حديث أبى سعيد وهو ثقة .

(٥) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول « مايدريني لعلى لا أبلغه » أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٦) حديث « إن الله يحب أن تؤتى رخصه ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٧) حديث أبى أمامة : توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة إزاره ، فقال صلى الله عليه وسلم « كيتان » رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

مثل ذلك ، قال : فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال : فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شيء كثير ، فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف ، فعجبت من ذلك وكرهته له ، فقال لى بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت : نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال : ذاك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أنّ التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار .

(الفن الثالث فى مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرّض للخوف) اعلم أنّ الضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسا ؛ أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهى عنه ، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة ، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهى التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكى والرقية ؛ فإنّ الكى والرقية قد تقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكى والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل ما فى معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر فى الشتاء تهييجا لقوّة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكى بخلاف الجبة ، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى ﴿ فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وقال تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وهذا فى أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء إذ لا فائدة فيه ، ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعانته على الدين ، وترتب الأسباب ههنا كترتبها فى الكسب وجلب المنافع فلانطول بالإعادة ، وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال ، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابى لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله « اعقلها وتوكل [1] » ، وقال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وقال فى كيفية صلاة الخوف ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ فأسر بعبادى ليلا ﴾ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر [2] ، وأخذ السلاح فى الصلاة فليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعا ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه .

﴿ فإن قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول : وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغى أن يغترّ بذلك المقام ؛ فإنه وإن كان صحيحا فى نفسه فلا يصلح للاقتداء

---

(١) حديث « اعقلها وتوكل » أخرجه الترمذى من حديث أنس ، قال يحيى القطان : منكر . ورواه ابن خزيمة فى التوكل ، والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى بإسناد جيد « قيدها » . (٢) حديث : اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر ، تقدم فى قصة اختفائه فى الغار عند أرادة الهجرة .

بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع فى الكرامات وليس ذلك شرطا فى التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .

* فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ . فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه : أن يسخر لك كلب هو معك فى إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويعض غيرك ، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذى هو ملك السباع ، وكلب دارك أولى أن يكون مسخرا لك من كلب البوادى ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك ، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع فى استسخار الكلب الظاهر .

* فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأى اعتبار يكون متوكلا فأقول : يكون متوكلا بالعلم والحال ، فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته فى إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ؛ فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب ؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب ، كما ضربنا المثل فى الوكيل فى الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوته ، وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به فى بيته ونفسه ويقول : اللهم إن سلطت على ما فى البيت من يأخذه فهو فى سبيلك وأنا راض بحكمك ، فإنى لا أدرى أن ما أعطيتنى هبة فلا تسترجعها ، أو عارية ووديعة فتستردها ، ولا أدرى أنه رزقى أو سبقت مشيئتك فى الأزل بأنه رزق غيرى ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك فى ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب ؛ فإذا كان هذا حاله وذلك الذى ذكرناه عله لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا عاد فوجد متاعه فى البيت فينبغى أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى ، وإن لم يجده بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه فى الآخرة فقد صح مقامه فى التوكل وظهر له صدقه ، وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا فى دعوى التوكل ؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتى ، بل يكون على العكس منه ، فكيف يصح له التوكل ؟ نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه فى الطلب والتجسس ، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه ، فقد كانت السرقة مزيدا له فى ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه فى جميع الدعاوى ؛ فبعد هذا ينبغى أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه فى دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها ؛ فإنها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير .

* فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت ، وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله ، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده ، وإنما ذلك فى

المأكول وفى كل مال زائد على قدر الضرورة ؛ لأنّ سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين فى زوايا المساجد ، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا فى التوكل ، ولذلك كان الخوّاص يأخذ فى السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين .

* فإن قلت : فكيف يتصوّر أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذى هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه ، وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه ؟ فأقول : إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له فى أن يكون له ذلك المتاع ، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه ، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته فى أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب فى تحصيل غرضه ويكون ثوابه فى النصب والتعب أكثر ؛ فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه فى جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به ، فيقول : لولا أنّ الله عز وجل علم أنّ الخيرة كانت لى فى وجودها إلى الآن والخيرة لى الآن فى عدمها لما أخذها منى ، فبمثل هذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا ، وهو كالمريض بين يدى الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أنّ الغذاء ينفعنى وقد قويت على احتماله لما قربه إلى ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال : لولا أنّ الغذاء يضرنى ويسوقنى إلى الموت لما حال بينى وبينه ، وكل من لا يعتقد لطف الله تعالى ما يعتقده المريض فى الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته فى إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدرى أى الأسباب خير له ، كما قال عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ؛ فإنى لا أدرى أيهما خير لى ؛ فكذلك ينبغى أن لا يبالى المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فإنه لا يدرى أيهما خير له فى الدنيا أو فى الآخرة ، فكم من متاع فى الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ! وكم من غنى يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتنى كنت فقيرا !

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب فى متاع بيته إذا خرج عنه (الأول) أن يغلق الباب ولا يستقصى فى أسباب الحفظ كالتماس من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة ؛ فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول : لولا الكلاب ما شددته أيضا (الثانى) أن لا يترك فى البيت متاعا يحرض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال : خذها لا حاجة لى إليها . قال : لم ؟ قال : يوسوس إلى العدو أن اللص يأخذها ، فكأنه احترز من أن يعصى السارق : ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد فى الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أن ما يضطر إلى تركه فى البيت ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : ما يأخذه السارق فهو منه فى حل أو فى سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة ، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى ، فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (إحداهما) أن يكون

ماله مانعا من المعصية ، فإنه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله فى حل (والثانية) أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما ينوى حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوى دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما [(١)] » ونصر الظالم : أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له ، وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلى . ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل وأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل فى سبيل الله تعالى وإن لم يولد له [(٢)] ، لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع ، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه ، فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله فى سبيل الله عز وجل ، فلا يبالغ فى طلبه وفى إساءة الظن بالمسلمين ؛ وإن كان قد جعله فى سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة ، فإن أعيد عليه ، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله فى سبيل الله عز وجل ، وإن قبله فهو فى ملكه فى ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين .

وقد روى أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال . فى سبيل الله تعالى ، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك فى مكان كذا فلبس نعله وقام ، ثم قال : استغفر الله وجلس ، فقيل له : ألا تذهب فتأخذها ! فقال : إنى كنت قلت فى سبيل الله .

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنة وعرض على منازلى فيها فرأيتها ، قال : وهو مع ذلك كئيب حزين ! فقلت : قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ! فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إنى لا أزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت : ولم ؟ قال إنى لما رأيت منازلى فى الجنة رفعت لى مقامات فى عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هى لمن أمضى السبيل ، فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لى كنت تقول للشيء إنه فى سبيل الله ثم ترجع فيه ، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك .

وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به ، فقال له كم كان فى هميانك ؟ فذكر له ، فحمله من البيت ووزنه من عنده ، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه ، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب ، فأبى وقال خذه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود فى مال أخرجته فى سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنه وجعل يصره صررا ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء .

فهكذا كانت أخلاق السلف ، وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر ، وكذلك يفعل فى الدراهم والدنانير وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات

---

(١) حديث « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » متفق عليه من حديث أنس ، وقد تقدم . (٢) حديث « من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ... الحديث » لم أجد له أصلا .

أن لايدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات ، وبطل زهده ، ولو بالغ بطل أجره أيضا فيما أصيب به ؛ ففى الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر [1] » . وحكى أنّ الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى ، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه ، فجاءه قوم يعزونه فقال : أما إنى قد كنت رأيته وهو يحله : قيل : ومامنعك أن تزجره ؟ قال : كنت فيما هو أحب إلى من ذلك ـ يعنى الصلاة ـ فجعلوا يدعون عليه فقال : لاتفعلوا وقولوا خيرا فإنى قد جعلتها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم فى شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال : ماأحب أن أكون عونا للشيطان عليه . قيل : أرأيت لو رد عليك ؟ قال : لا آخذه ولاأنظر إليه لأنى كنت قد أحللته له .

وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال : ماظلمنى أحد ، ثم قال : إنما ظلم نفسه ، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا .

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه ، فقال : لاتغرق فى شتمه ، فإنّ الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه .

وفى الخبر « إنّ العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم [2] » (السادس) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا فى دنياه لانقصا فى دينه ، فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال : إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين .

وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن ، فقال : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لاوالله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولاتكون له حجة .

وقيل لبعضهم : ادع على من ظلمك ، فقال : إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه ؛ فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

(الفن الرابع : فى السعى فى إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله) اعلم أنّ الأسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب ، أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالكى والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين ، وأقواها الكى ، ويليه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص فهى على درجة بين الدرجتين ، ويدل على أنّ التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » تقدم . (٢) حديث « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة . . . الحديث » تقدم .

وسلم وقوله وأمره به ؛ أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام [١] » يعني الموت . وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإنّ الله خلق الداء والدواء [٢] » . وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هي من قدر الله [٣] » ، وفي الخبر المشهور « مامررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة [٤] » ، وفي الحديث أنه أمر بها وقال « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لايتبيغ بكم الدم فيقتلكم [٥] » فذكر أنّ تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أنّ إخراج الدم خلاص منه ، إذ لافرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة [٦] » ، وأما امره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية [٧] ، وقطع لسعد بن معاذ عرقا [٨] أي فصده ، وكوى سعد بن زرارة [٩] ، وقال لعلي رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين « لاتأكل من هذا ، يعني الرطب ، وكل من هذا فإنه أوفق لك [١٠] » يعني سلقا قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرا وأنت أرمد ، فقال : إني آكل من الجانب الآخر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم [١١] » . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقدروي في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة [١٢] قيل : السنا المكي .

---

(١) حديث « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام » رواه أحمدوالطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله « إلا السام » وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله « عرفه ... إلى آخره » وإسناده حسن ، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك « إلا الهرم » والطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف ، والبخاري من حديث أبي هريرة « ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » ولمسلم من حديث جابر « لكل داء دواء » . (٢) حديث « تداووا عباد الله ... » رواه الترمذي وصححه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة ابن شريك . (٣) حديث : سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال « هي من قدر الله ... » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزامة ، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه ، قال الترمذي : وهذا أصح . (٤) حديث « ماصورت بملأ من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة » رواه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين ... الحديث » أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ، ورفعه الترمذي بلفظ « إن خير ماتحتجمون فيه سبع عشرة... الحديث » دون ذكر التبيغ ، وقال : حسن غريب ، وقال البزار : إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ، ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف « من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ... الحديث » .

(٦) حديث « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة » رواه الطبراني من حديث معقل بن يسار ، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على راويه في الصحابي ، وكلاهما فيه زين العمي وهو ضعيف . (٧) حديث أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه « تداووا ... الحديث » وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده . (٨) حديث: قطع عرقا لسعد ابن معاذ ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال : رمي سعد في أكحله فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص . . الحديث .

(٩) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة ، رواه الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ، ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل . (١٠) حديث قال لعلي وكان رمدا « لاتأكل من هذا . . . الحديث » رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم المنذر . (١١) حديث قال لصهيب وقدرآه يأكل التمروهو وجع العين « تأكل تمرا وأنت رمد ...الحديث » تقدم في آفات اللسان . (١٢) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ، أخرجه ابن عدي من حديث عائشة وقال : إنه منكر ، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين .

وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها (١) . وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء (٢) . وفى خبر : أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ، وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا (٣) ، وما روى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى طب النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء فى الإسرائيليات، أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته ؛ فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا أتداوى حتى يعافينى هو من غير دواء ، فطالت علته فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرّب ، وإنا نتداوى به فنبرأ ، فقال : لا أتداوى ، وأقامت علته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزتى وجلالى لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك ، فقال لهم : داوونى بما ذكرتم ، فداووه فبرأ ، فأوجس فى نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيرى ؟ .

وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة ، قيل هو الضعف عن الجماع .

وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم ، فأوحى الله تعالى إليه : مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل، والنفساء الرطب .

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة ، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب ، فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين (أحدهما) أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلى واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص ، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالأول (والثانى) أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر فى الباطن وأسباب فى المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة ، وقد يتفق من العوارض ما يوجب داء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين ، وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره ، وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته ، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء ؛ فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ، ممن الداء والدواء ؟ فقال تعالى : منى . قال : فما يصنع الأطباء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس

---

(١) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها ، رواه الطبرانى بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس ... الحديث ، وله فى الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ، ولأبى يعلى والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ما سم ، وفيه جابر الجعفى ضعفه الجمهور .

(٢) حديث : كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فيغلفه بالحناء ، أخرجه البزار وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة ، وقد اختلف فى إسناده على الأحوص بن حكيم : كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ، رواه الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى ، قال الترمذى : غريب . (٣) حديث : جعل على قرحة خرجت بيده ترابا ، رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة : كان إذا اشتكى الإنسان الشىء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبى صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ، ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابته بالأرض ثم رفعها وقال « بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا » .

عبادى حتى يأتى شفائى أو قضائى ؛ فإذن معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال ، كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع ، فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه .

« فإن قلت : فالكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول : ليس كذلك، إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للمحرور . وأما الكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، وقلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب ؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرق ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احراق النار فى الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكى إلا وله دواء يغنى عنه ليس فيه إحراق ، فالإحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى (١) . وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع ، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى ، فكان يقول . كنت أرى نوراً وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة ، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى ، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى ، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة . وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى الملائكة التى كان أكرمنى الله بها قد ردها الله تعالى على ا بعد أن كان أخبره بفقدها ؛ فإذن الكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ، ثم هو مذموم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم

بيان أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل
وأن ذلك لايناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لاينحصرون ، ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر ، فربما يظن أن ذلك نقصان ، لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لايكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله .

وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قيل له : لو دعونا لك طبيبا ؟ فقال : الطبيب قد نظر إلى وقال : إنى فعال لما أريد . وقيل لأبى الدرداء فى مرضه : ماتشتكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهى ؟ قال : مغفرة ربى . قالوا ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى .

وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه : لو داويتهما ؟ قال : إنى عنهما مشغول ؛ فقيل : لو سألت الله تعالى أن يعافيك ؟ فقال : أسأله فيما هو أهم على منهما .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له لو تداويت ؟ فقال : قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء ، فهلك المداوى والمدوى ، ولم تغن الرقى شيئا .

وكان أحمد بن حنبل يقول : أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله .

---

(١) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى ، رواه البخارى من حديث ابن عباس « وأنهى أمتى عن الكى » وفى الصحيحين من حديث عائشة : رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من كل ذى حمة .

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : إذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه .

فإذا منهم من ترك التداوى وراءه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول : إن لترك التداوى أسبابا (السبب الأول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لاينفعه ، ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث : إنما هن أختاك ، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى ، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله ، وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به (السبب الثانى) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله ، وعليه يدل كلام أبى ذر إذ قال : إنى عنهما مشغول وكلام أبى الدرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبى ، فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالخائف الذى يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول عن ألم الجوع ، فلايكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعاً من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال : هو ذكر الحى القيوم ، فقيل : إنما سألناك عن القوام ؟ فقال : القوام هو العلم . قيل : سألناك عن الغذاء ؟ قال : الغذاء هو الذكر . قيل : سألناك عن طعمة الجسد ؟ قال : مالك وللجسد . دع من تولاه أولا يتولاه آخرا : إذا دخل عليه علة فرده إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية ، فيتركه المتوكل ، وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال : ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به ، وهذا قد يكون كذلك فى نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ، ولا شك فى أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا فى الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة ، وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد ، هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح فى بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح فى البعض ، ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا ، فيرى التداوى تعمقا فى الأسباب كالكى والرقى ، فيتركه (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر . فقد ورد فى ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء . وإن كان فى إيمانه ضعف خفف عنه البلاء »(١) وفى الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار

---

(١) حديث « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل ... الحديث » رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف ، وقد تقدم مختصرا ، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبى وقاص وقال : صحيح على شرط الشيخين .

فنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، لا يزيد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود محترقا [١] » وفى حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون [٣] » وقال ابن مسعود رضى الله عنه ، تجد المؤمن أصح شىء قلبا وأمرضه جسما ، وتجد المنافق أصح شىء جسما وأمرضه قلبا ، فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه ، وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة، ففى الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فإنه فى وثاق إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ، وإن توفيته توفيته إلى رحمتى [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس [٥] » فقيل : معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وكان سهل يقول : ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوى الناس منها ، وكان إذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما ، وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل فى شىء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف ، ومن لم يدخل فى شىء فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب : مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة .

السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة [٦] » وفى الخبر « حمى يوم كفارة سنة [٧] » فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للإنسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل

---

(١) حديث « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٢) حديث : من طريق أهل البيت : إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ... الحديث ، ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده ، وللطبرانى من حديث أبى عنبة « إذ أراد الله بعبد خيرا ابتلاه ، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا » وسنده ضعيف . (٣) حديث « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون » أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ، وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى فاطمة ، وهو صدر حديث « إن الرجل تكون له المنزلة عند الله ... الحديث ، وقد تقدم . (٤) حديث « إن الله يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فإنه فى وثاق ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٥) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » تقدم ولم أجده مرفوعا .

(٦) حديث « لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة » أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث أبى هريرة ، والطبرانى من حديث أبى الدرداء نحوه وقال « الصداع » بدل « الحمى » وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفائها ولونها » وأسانيده ضعيفة . (٧) حديث « حمى يوم كفارة سنة » رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال « ليلة » بدل « يوم » .

ألم كفارة يوم . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى ، سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لايزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لاتزايلهم (١) ولما قال صلى الله عليه وسلم « من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة (٢) » قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام : لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال : يارب ارحمه فقال تعالى : كيف أرحمه فيما به أرحمه — أى به أكفر ذنوبه — وأزيد فى درجاته .

السبب السادس : أن يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان ، أو طول الأمل والتسويف فى تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصى ، وأقلها أن تدعو إلى التنعم فى المباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات ، وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب ، ولذلك قيل : لايخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة . وقد روى « أن الله تعالى يقول : الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى » فإذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية فى ترك المعاصى ، فقد قال بعض العارفين لإنسان : كيف كنت بعدى ؟ قال . فى عافية ، قال : إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت فى عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية ؟ ماعوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد : ماهذا الذى أظهروه ؟ قالوا : ياأمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم ، فقال : كل يوم لايعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد .

وقال تعالى ﴿ من بعد ماأراكم ماتحبون ﴾ قيل العوافى ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وكذلك إذا استغنى بالعافية . قال بعضهم : إنما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى لطول العافية ، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ـ لعنه الله ـ ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات (٣) » وقيل : الحمى رائد الموت فهو مذكّر له ودافع للتسويف .

وقال تعالى ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون ﴾ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها . ويقال . إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت : ياغافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب .

---

(١) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموما ... الحديث ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار : أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد : أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله : أرأيت هذه الأمراض تصيبنا مالنا فيها قال « كفارات » قال أبى : وإن قلت ؟ قال « وإن شوكة فما فوقها » قال : فدعا أبى أن لايفارقه الوعك حتى يموت ... الحديث ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال : يارسول الله ، ماجزاء الحمى ؟ قال : تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق ، فقال : اللهم إنى أسألك حمى لاتمنعنى خروجا فى سبيلك ولاخروجا الى بيتك ولا لمسجد نبيك . . . الحديث ، والإسناد مجهول ، قاله على بن المدينى . (٢) حديث « من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة » تقدم المرفوع منه دون قوله : فلقد كان فى الأنصار من يتمنى العمى .

(٣) حديث « أكثروا ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال . وقالوا : لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروّع روعة أو يصاب ببلية حتى روى أنّ عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم « عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وإنها مامرضت قط ، فقال لاحاجة لى فيها (١) » . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ماأعرفه ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم « إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٢) » لأنه ورد فى الخبر « الحمى حظ كل مؤمن من النار (٣) » .

وفى حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما : قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٤) » وفى لفظ آخر « الذى يذكر ذنوبه فتحزنه » ولا شك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها إذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التداوى نقصانا ؟ وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ؟ .

بيان الرد على من قال : ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسنّ لغيره وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ؟ فيقال : ينبغى أن يكون من شروط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم .

فإن قيل : إنّ ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ؟ فيقال : ينبغى أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لاقائل به .

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته . ويدل على أنّ ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لاندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفرّ من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون فى رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ، قال عمر : نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة : والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ـ وكان غائبا ـ فلما أصبحوا جاء

---

(١) : حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل : فإنها ما مرضت قط ، فقال « لاحاجة لى فيها » أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد . (٢) حديث : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ، ما أعرفه ؟ فقال « إليك عنى » . الحديث » رواه أبو داود من حديث عامر الرام أخى الخضر بنحوه ، وفى إسناده من لم يسم . (٣) حديث « الحمى حظ كل مؤمن من النار » رواه البزار من حديث عائشة ، وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ، وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود ، وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان . (٤) حديث أنس وعائشة : قيل يارسول الله ، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة » لم أقف له على إسناد .

عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه ياأمير المؤمنين شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : الله أكبر ، فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع فى أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه (١) » ، ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمدالله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل ؟ .

• فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء فى الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر وترك التوكل فى أمثال هذا مباح ، وهذا لايدل على المقصود ، ولكن الذى ينقدح فيه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له ، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن ، فالخروج من البلد لايخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل ، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ، ولكن صار منهيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيا فى إهلاكهم تحقيقا ، وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الأصحاء منتظر ؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع فى إهلاك الباقين ، والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه . فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لولم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيا فى إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماسمعه ، وغلط العباد والزهاد فى مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

فإن قلت : فى ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها ، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة ، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى فى الأدوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع ؛ فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى ، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف « إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلا تقدموا عليه ... الحديث » وفى أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء ... الحديث ، رواه البخارى . (٢) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف : رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد ، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف ، وقد تقدم .

مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها ، فإنه لم يكن له نظر فى الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة فى المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالا فهى أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر ، وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده ، وكان لايمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (١) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لاضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه ، والمؤمن فى غالب الأمر لا يقصد ذلك ، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا ، فحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها ، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه ، فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكى والرقى فإن ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .

بيان أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات : لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات .

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه ، وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول : إنما أصف قدرة الله تعالى فى .

الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ،

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف أنت ؟ قال : بشر ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية ، فقال : أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبى صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه

(١) حديث : أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . تقدم ، ولفظه : عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية [١] » .

فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام ـ كما ذكرته فى تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ـ ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى ، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة ، ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء ، وقد قال بعضهم : من بث لم يصبر ، وقيل فى معنى قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ لا شكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام : ما الذى أذهب بصرك ؟ قال : مر الزمان وطول الأحزان ! فأوحى الله تعالى إليه . تفرغت لشكواى إلى عبادى ، فقال : يارب أتوب إليك : وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالا : يكتب على المريض أنينه فى مرضه ، وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل : ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه فى مرضه ، فجعل الأنين حظه منه .

وفى الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فإن حمد الله وأثنى بخير دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون [٢] » وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة فى الكلام ، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم : فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول : أشتهى أن أمرض بلا عواد ، وقال : لا أكره العلة إلا لأجل العواد . رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى : كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق .

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته ، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم

---

(١) حديث : مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء ، فقال « لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية » تقدم مع اختلاف .   (٢) حديث « إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا مايقول لعواده ... الحديث » تقدم .

كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت فى بيداء كبريائه وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ماغبر فى وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى فى بحر معرفته ، ومحترقة بنار محبته ، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لامعنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال . ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ونحن نذكر فى هذا الكتاب : بيان شواهد الشرع فى المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لامستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ، ثم بيان السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول فى علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ، ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لاتناقضه وكذا الفرار من المعاصى، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ؛ إذ قال أبو رزين العقيلى : يارسول الله ما الإيمان ؟ قال « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما [1] » ، وفى حديث آخر « لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما [2] » ، وفى حديث آخر « لايؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين [3] » وفى رواية « ومن

---

(١) حديث أبي رزين العقيلى : أنه قال يارسول الله ما الإيمان ؟ قال « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » أخرجه أحمد بزيادة فى أوله . (٢) حديث « لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » متفق عليه من حديث أنس بلفظ « لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله » وذكره بزيادة . (٣) حديث « لايؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » وفى رواية « ومن نفسه » متفق عليه من حديث أنس ، واللفظ لمسلم دون قوله « ومن نفسه » وقال البخارى « من والده وولده » وله من حديث عبد الله بن هشام : قال عمر يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى ، فقال « لاوالذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى ، فقال « الآن ياعمر » .

نفسه ، كيف وقد قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ﴾ الآية . وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله إياى [١] » ويروى أن رجلا قال : يارسول الله إنى أحبك ، فقال صلى الله عليه وسلم « استعد للفقر » فقال إنى أحب الله تعالى ، فقال استعد للبلاء [٢] » وعن عمر رضى الله عنه قال : نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « انظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون [٣] » .

وفى الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال ياملك الموت الآن فاقبض [٤] » وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب مايقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد [٥] » وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب [٦] » قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لايلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الدارانى : إن من خلق الله خلقا مايشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ .

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال حق على الله أن يعطيكم ماترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم فى الثلج فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سرى السقطى : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

---

(١) حديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » الحديث . أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقال حسن غريب .
(٢) حديث إن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك ، فقال « استعد للفقر .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ « فأعد للفقر تجفافا » دون آخر الحديث وقال حسن غريب . (٣) حديث عمر قال : نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ... الحديث ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية بإسناد حسن .
(٤) حديث : إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ... الحديث ، لم أجد له أصلا .
(٥) حديث « اللهم ارزقنى حبك وحب من يحبك . . . الحديث » تقدم . (٦) حديث قال أعرابى يارسول الله متى الساعة ؟ قال « ماأعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبى موسى وابن مسعود بنحوه .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال يحيى ابن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده ينسى مادونه فكيف لطفه ؟ وفي بعض الكتب : عبدي أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محباً . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ : إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك ، صغيرا أخذتني إليك وسربلتني بمعرفتك وأمكنتني من لطفك ونقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لأمرك ومشغوفا بقولك ، ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلى مابقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف .

وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار مالا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى :

فأول ماينبغي أن يتحقق ؛ أنه لايتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لايحب الإنسان إلا مايعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك . ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، وإلى ماينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى مالا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل مافي إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، ومافي إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ، ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه ، ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمى مقتا فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لابد من معرفته

(الأصل الثاني) أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم في الروائح الطيبة ، ولذة الذوق في الطعوم ، ولذة اللمس في اللين والنعومة .

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة ، أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة [1] » فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ؛ بل للشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهن إلا للبصر واللمس دون

---

(١) حديث « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء ... الحديث » أخرجه النسائي من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

الشم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب لايدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس ـ حتى يقال إن الله تعالى لايدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب ـ فإذن قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذى يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه وهيهات ، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التى تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافى إدراكه لذة ـ كما سيأتى تفصيله ـ فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا .

(الأصل الثالث) أن الإنسان لايخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه ؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها ، وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حى : نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأى شىء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده؟ وأى شىء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل ، لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم فى الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب . وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال . والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات . وكمال الوجود كما أنه ممقوت فى أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

فإذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه . فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ، والمال محبوب لأنه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها ، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخلفه فى الوجود بعد عدمه ، فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه فى بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه أبدا نعم لو خير بين قتله وقتل ولده ـ وكان طبعه باقيا على اعتداله ـ آثر بقاء نفسه على بقاء ولده ، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فإنه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذن المحبوب الأول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ودوام

ذلك كله ، والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب .

السبب الثانى : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبى (١) » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرارا لايستطاع دفعه ، وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذى لاقرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود ، إلا أنّ الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب ؛ فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لالذاته بل لأنه سبب الصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب . وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام . فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأنّ إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته ، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجارى (٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر . فهذه الاسباب ملذة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع ، فإن ثبت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال (٣) » .

(الاصل الرابع) فى بيان معنى الحسن والجمال : اعلم أن المحبوس فى مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لامعنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإنّ الحسن الاغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم

---

(١) حديث « اللهم لاتجعل لكافر على يدا فيحبه قلبى » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس : من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع ، وقد تقدم . (٢) حديث : كان يعجبه الخضرة والماء الجارى ... أخرجه أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر الى الخضرة والى الماء الجارى ، وإسناده ضعيف .

(٣) حديث « إن الله جميل يحب الجمال » رواه مسلم فى أثناء حديث لابن مسعود .

إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا ملوّنا مقدّر فلا يتصوّر حسنه ، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن فى إدراكه لذة فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة . فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن ، فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا فى الصورة ؟ ومعلوم أنّ العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة . وما من شىء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء ؟ فلا بدّ من البحث عنه . وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شىء فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال ، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ماحضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفرّ عليه ، والخط الحسن كل ماجمع مايليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شىء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضدّه فحسن كل شىء فى كماله الذى يليق به . فلا يحسن الانسان بمايحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ، ولا تحسن الأوانى بما تحسن به الثياب ، وكذلك سائر الأشياء .

وإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لاتنفك عن إدراك الحواس لها فهى محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس ؟ فاعلم أنّ الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات إذ يقال : هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير ، وشىء من هذه الصفات لايدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته . وآية ذلك وأنّ الأمر كذلك أنّ الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا ، بل حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم ؛ حتى أنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن تنفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى إمامه ومتبوعه . فكم من دم أريق فى نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعرى من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته ، فاستحسانه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لالصورته الظاهرة ، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات فى العالم ، وهذه أمور جميلة لايدرك جمالها إلا بنور البصيرة . فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره . فمعلوم أنّ من يحب الصدّيق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدّل وانعدم ، ولكن بقى ما كان الصدّيق به صديقا وهى الصفات المحمودة التى هى مصادر السير الجميلة ، فكان

الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور . وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة . وليس للجزء الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله فإذن الجمال موجود فى السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصبى المخلى وطبعه إذ أردنا أن نحبب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة . فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب فى وصف المحاسن والمقابح التى لا تدرك بالحواس ؟ بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأى الديار . فإذن ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب ، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ؛ فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم ، « فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »(١) ، وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب فإذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه . وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه . وحبه من كان محسنا فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه . وحبه لكل ما هو جميل فى ذاته ؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة . وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن . فلو اجتمعت هذه الأسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها ، فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات . فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى ، وحب الرسول

---

(١) حديث « فما تعارف منها ائتلف » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التى ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة فى حق الله تعالى ، ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له . ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ماتخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، وبان أن التحقيق يقتضى أن لا تحب أحدا غير الله تعالى .

فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها ، وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله ، فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته وبالجملة فليس فى الوجود شىء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره ، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها . وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن الكل من آثار قدرته ، ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها ، وهو خطأ محض إذا انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق . فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا لحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ، إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم ،

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن عليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصرته

وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده . وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرارا مجرى الماء فى جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه ، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقى ماله فى البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال ، وقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة . فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين .

(أحدهما) أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك . (والثانى) أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان فى الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل ، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين احسانا اليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان ، فإن كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان

من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده ، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن فى نفسه وإلى لم يصل إليك إحسانه . وهذا أيضا موجود فى الطباع . فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ؛ فإنك تجد فى قلبك تفرقة بينهما إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأول وهو الحب ، ونفرة عن الثانى وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما : فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإنّ الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق ؛ أولا : بإيجادهم ، وثانيا : بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم ، وثالثاً : بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هى فى مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن فى مظانّ الضرورة ، ورابعاً . بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضرورى من الأعضاء : الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه : العين واليد والرجل . ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة .

ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الإنسان . الماء والغذاء . ومثال الحاجة : الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد : خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذن هو المحسن ؛ فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال من وراء إدراك الجمال : فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثانى يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هى مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل

حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك مايقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به .

فإذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . (والثانى) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة (والثالث) تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى .

أما العلم : فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة الى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لايخلو عن علم ماتتقاضاه معيشته . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور فى الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهى أيضا كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ ، حتى إن الإنسان ليسمع فى الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف فى قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا فى القلب ضروريا للمتصف به فإنه نوع كمال ، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره — مامنتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس فى بعض الأمور وهو مع ذلك لايملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عد مايعجز عنه فى نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لاتتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلاقدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد

قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال فى أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال ﴿ إنا مكنا له فى الأرض ﴾ فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه فى جزء من الأرض ، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه والأرض وملكها وما عليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة . وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة ، والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك والقدوس ذى الجلال والإكرام

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار وللإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون فى درجات النقصان .

فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لا ضد له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلى الذى لا أول لوجوده ، الأبدى الذى لا آخر لبقائه ، الضرورى الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، والمتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول وتخرس فى وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] ، وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك . سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال

(١) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه ؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ؛ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور : من أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع . ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا : نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم : مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا : نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال : أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم . وقال أبو حازم : إنى لأستحى أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفى الخبر « لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل [1] » .

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشىء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبى يألف الصبى والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح . وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه . وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر كمناسبة الصبى الصبى فى معنى الصبا ، وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع فى مال أو غيره كما أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك .

فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عزوجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات .

وأما ما لا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمى فهى التى يومئ إليها قوله تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ إذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى ﴿ إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله

(١) حديث « لا يكونن أحدكم كالأجير السوء ان لم يعط أجرا لم يعمل » لم أجد له أصلا .

عليه وآله وسلم « إنّ الله خلق آدم على صورته [١] » حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام « مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده [٢] » وهذه المناسبة لاتظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى « لايزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به [٣] » وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون : اتحد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون . ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد فى قول القائل :

لا زلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك . وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا . فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفى أعلى الدرجات لافى أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غير لمشاركه إياه فى السبب ، والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله . ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لايكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق - إذاً لأصل المحبة - ولكمال المحبة استحقاقا لايساهم فيه أصلا .

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لايتصور أن لايؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها المقتضى طبعها الذى خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى

---

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » تقدم . (٢) حديث قوله تعالى « مرضت فلم تعدنى » فقال : وكيف ذاك ! قال : مرض فلان ... الحديث » تقدم . (٣) حديث قوله تعالى « لايزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامى فإن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، كإدراكه خلق العالم أوافتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى أن تذم ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به ، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقيرة . فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لايطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أوحائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وماهو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لأن لذته فيه أعظم . فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ماهو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شعرى هل فى الوجود شىء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟ فإن كنت لاتشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الإطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها ؟ وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره فى مملكته ـ من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين ـ فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوات والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة . وهى مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه فى الجمال . وإنما تعرف أقوى

اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا الأذن ولا للمس ولا للذوق ، والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة : فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة. نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبى ، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وأنه أعد لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس فى بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لابد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض يرتع فى رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم هى أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى ، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفى الخبر « إن الشهيد يتمنى فى الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء [1] » .

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض . وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم

---

(١) حديث « ان الشهيد يتمنى أن يرد فى الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم ، وليس فيه « وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء ... الحديث »

وسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبى ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة ، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين ، لأنه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف . ولعمرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها ، فإنها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشىء اليسير فإنه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لا لذة فوقها .

ولهذا قال أبو سليمان الدارانى : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنى يا أبا محفوظ أى شىء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت فقال : ذكر الموت ، فقال : وأى شىء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شىء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة ، فقال : وأى شىء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفى أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث فى النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان ، قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النظر إليه . وعن على بن الموفق قال : رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا ، قال : ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف ، فقلت لرضوان : من هذا ؟ قال : معروف الكرخى عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين : بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى   وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له   فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له : الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر (١) » وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنى أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبى أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب ؛ وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة ؛ أى يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أوكفرا . فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهى قرة العين التى لا تعلم نفس ماأخفى لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغة الغاية التى ليس فوقها غاية ، وليت شعر من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل ؟ وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم ؟ بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

كانت لقلبى أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط .

ومثال أطوار الخلق فى لذتهم ما نذكره : وهو أن الصبى فى أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها فى الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر ، وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر ﴾ الآية . ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز ، وحب النساء والزينة فى سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهى الغاية العليا وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة ؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ﴾ .

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت . . . الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل فى الخيال ؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى مالا يدخل فى الخيال ، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة ، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا ، وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء ؛ فإنه لا تفــــارق إحدى الحالتين الأخرى إلا فى مزيد الانكشاف . فإذن الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف ، وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه فى العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا أستحق أن يسمى رؤية .

وإذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لا تتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان (إحداهما) أولى (والثانية) استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئى ، فيسمى الثانى أيضا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية . وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل بمجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول فى سبب كونها حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ لن ترانى ﴾ وقال تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أى فى الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج [1] . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة ، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها فى حق المؤمنين ـ كما وردت به الأخبار ـ سبعة آلاف سنة [2] ولن ترتحل نفس عن

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج فى الصحيح ، هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ، ففى الصحيحين : أنها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ولمسلم من حديث أبى ذر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال « نورانى أراه » وذهب ابن عباس وأكثر العلماء الى اثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبى ذر قال فيه أحمد : مازلت له منكرا . وقال ابن خزيمة : فى القلب من صحة اسناده شىء ، مع أن فى رواية لأحمد فى حديث أبى ذر « رأيته نورا انى أراه » ورجال اسنادها رجال الصحيح . (٢) حديث « ان أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة « انما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى ... الحديث » وفيه « وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة » واسناده ضعيف .

هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما ، وإن قلت ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ماوعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة ـ وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فإنه واقع بعد القيامة ؛ ووقت القيامة مجهول ـ فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لايرهق وجهه غبرة ولا قترة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ماتخيله . وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية ، فإذن الرؤية حق ، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة ، فتراه فى الآخرة كذلك . بل أقول : المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة ، والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربناه من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هى بعينها لاتفترق منها إلا فى زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ إذ تمام النور لا يؤثر إلا فى زيادة الكشف ، ولهذا لايفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ، ومن لانواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر ، إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ، ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة »(١) ، فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره ، ولما فضل من الناس بسر وقر فى صدره فضل لامحالة بتجل انفرد به ، وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ؛ فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ؛ وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فبينت أنه ليس فى قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة . وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه

(١) حديث « ان الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة » أخرجه ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الإسناد وفى الميزان للذهبي أن الدارقطنى رواه عن المحاملى عن على بن عبدة وقال الدارقطنى ان على بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة .

فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به ؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهى ، فمن لا يشتهى إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره ، بل ربما يتأذى به . فإذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته ؛ فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان .

فإن قلت : فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهى قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لاينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها ؟ فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع .

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول : لذة النظر إلى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة فى النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة . (والثانى) كمال قوة الحب والشهوة والعشق ؛ فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه . (والثالث) كمال الإدراك ، فليس التذاذ برؤية المعشوق فى ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذذاه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهم من المهمات .

فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو فى هذه الحالة لايخلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها ، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن ، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور ، والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، ولكن يكون ذلك

كالبرق الخاطف وقلما يدوم ؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة فإن المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال ، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله »[1] ، لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زمانا لا محالة ، فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة بالغا إلى منتهى ما يسر له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر ، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة .

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة . والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان ، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان .

• فإن قلت : فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين فى الآخرة ؟ فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو جبهته ، بل يقصد الرؤيا ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له ، والحق فيه أن القدرة الازلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا فى حكم الجواز ، فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع[2] والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين ليكون لفظ الرؤية والنظر ، وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع يجرى على ظاهره ، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه ، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من

---

(١) حديث « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله » أخرجه ابراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله » ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف فى صحبته ولأحمد من حديث جابر « ان من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة » والترمذى من حديث أبى بكرة : أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم . (٢) حديث « رؤية الله فى الآخرة حقيقة » متفق عليه من حديث أبى هريرة : أن الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ... الحديث » .

غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع ! إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لاينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ وكمال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وبقدر ما يبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ بل هو معنى قولك « لا إله إلا الله » أى لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به . وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد فى الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة [1] » ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب ، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه ، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولايؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها ، فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين ، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء . فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هى مقدمات ليكتسب بها أحد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما . ثم ينجر ذلك إلى الزهد فى الدنيا وفى المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركنى المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « الطهور شطر الإيمان [2] » كما ذكرناه فى أول كتاب الطهارة .

(السبب الثانى) لقوة المحبة « قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر فى الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهى الكلمة الطيبة التى ضرب الله بها مثلا حيث قال ﴿ ضرب الله مثلا كلمة

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » تقدم . (٢) حديث « الطهور شطر الإيمان » أخرجه مسلم حديث أبى مالك من الأشعرى وقد تقدم .

طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ﴾ وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ أى المعرفة ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالعمل الصالح كالحمال لهذه المعرفة وكالخادم وإنما العمل الصالح كله فى تطهير القلب أولا من الدنيا ثم إدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة ، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل ، فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافى والذكر الدائم والجد البالغ فى الطلب والنظر المستمر فى الله تعالى وفى صفاته وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى (الأقوياء) ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره . وإلى (الضعفاء) ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى ولولا ربى لما عرفت ربى ، وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الآية وبقوله عز وجل ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة فى إيراده فى الكتب ، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ؛ وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول :

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر فى عجائبها ، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها - أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات - فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم فى الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هى مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى

فلكها الذى هى مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه وهى فى السماء الرابعة ، وهى صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك . فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ! بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ! فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض »[1] ، ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ، ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب - الذى هو جزء من الأرض - وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجرى مجراه ، فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ! إذ خلق له خرطوما مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ؟ ودبر فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب فى سائر الحيوانات ، هذا فى شكله وصفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ! وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه فى واحدمنها ! ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ! وكيف علمه المص والتجرع للدم ! وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى إلى باطنه وينتشر فى سائر أجزائه ويغذيه ! ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته ! وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهى بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب! ثم إذا سكنت اليد يعود ! ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار - خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه . وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهى تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه فى بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضىء ، فلايزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الآدمى فى الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولايدرى أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلايزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك

(١) حديث « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض » لم أجد له أصلا .

هلاكا مؤبدا ، فليت كان جهل الآدمى كجهل الفراش ! فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت فى الحال والآدمى يبقى فى النار أبد الآباد أو مدة مديدة ، ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول « إنى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش [1] » فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته ، فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى .

ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره ، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ـ حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ماوقع منها على نجاسة ـ لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا ، لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها : المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لاتضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لوبناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لايبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، وهذه خاصية هذه الشكل ، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه ، فسبحانه ماأعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه !

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بل كل ماعرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى ، فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات

(١) حديث « انى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش » متفق عليه من حديث أبى هريرة « مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه » لفظ مسلم واقتصر البخارى على أوله ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدى » .

والأسماء التى قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون . وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ الآية . فإن كنت لاتفهم الأمور إلا بالأمثلة فانضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول : أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى — رحمه الله — الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، ولكن العامى يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشد ، فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لامحالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه ، وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدرى مافى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل ، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامى يعلم ذلك ويعتقده : وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى فى البعوض — مثلا — من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا ، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا . وبحر هذه المعرفة — أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى — بحر لاساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له ، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لايتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه . فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة . والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لاتفهمه إلا بمثال : وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ، لحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات

لانحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل مافى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة - وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع مافى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته . والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ماأحسسنا به من حركة يده ؛ فكيف لايظهر عندنا مالا يتصور فى الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله ؟ إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنه نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق فى الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخفى مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ولكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لاضد له عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر . ومثاله : نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لاغروب لها لكنا نظن أنه لاهيئة فى الأجسام إلا ألوانها وهى السواد والبياض وغيرهما ، فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد وفى الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور ، هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر فى نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ؟ فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك

والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ، ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدّة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه فى حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ؛ يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله . وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهى تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر فى شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف . وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله ، فهذا الذى يقال فيه إنه فنى فى التوحيد وإنه فنى عن نفسه . وإليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم . فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال « سبحان الله » وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها .

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة ، فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة . فهذا سر هذا الأمر فليحقق . ولذلك قيل :

فقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أنّ من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار . أما الاعتبار فيكفى فى إثباته ما سبق فى إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه فى غيبته

لامحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لايطلب . ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فأما مالايدرك أصلا فلا يشتاق إليه، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه ولا يتصور أن يشتاق إليه ، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ؛ وهو من وجهين لاينكشف إلا بمثال من المشاهدات .

فنقول مثلا : من غاب عنه معشوقه وبقى فى قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية ، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الضوء عليه (والثانى) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته ، وإن لم يرها قط ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له مالم يره قط .

والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن مااتضح للعارفين من الأمور الإلهية — وإن كان فى غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفتر فى هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهى مكدرات للمعارف ومنغصات ، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ولايكون ذلك إلا فى الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعى الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما (الثانى) أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ماغاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا ، لامعرفة واضحة ولامعرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولايتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضرنى القلق ، قال : فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه وقال ياإبراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ، فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ماأقول فاغفر لى وعلمنى ماأقول ، فقال قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمائك . فإن هذا الشوق يسكن فى الآخرة .

وأما الشوق الثانى فيشبه : أن لايكون له نهاية لافى الدنيا ولافى الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ماهو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له . ولايزال العبد عالما بأنه بقى من الجمال والجلال مالم يتضح له فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لايظهر فيه ألم ولايبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبدالآباد ،

وتكون لذة مايتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل : وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا ، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لايتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام . وقوله سبحانه وتعالى ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور فى غير ما استنار فى الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ـ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ يدل على أن الأنوار لابد وأن يتزود أصلها فى الدنيا ثم يزداد فى الآخرة إشراقا ، فأما أن يتجدد نور فلا ، والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد مايوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى ، فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك »(١) ، وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية ـ يعنى فى التوراة ـ فقال : يقول الله تعالى ؛ طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا . قال : ومكتوب إلى جانبها ؛ من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا . وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى قال ياداود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ، ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ؛ فارفضوا ياأهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا إلى بإنعامى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد ، بعينى مايتحملون من أجلى ، وبسمعى مايشتكون من حبى ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ماأريد أن أعطيه ؟ .

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ؛ ياداود إلى كم تذكر الجنة ولاتسألنى الشوق إلى ،

---

(١) حديث : أنه كان يقول فى دعائه « اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

قال : يارب من المشتاقون إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلى الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى ، فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ، ياداود إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون فى كل يوم شوقا ، قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : ياداود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول ، فإذا أتيتهم فأقرئهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عزوجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة ؟ قال : فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيد أفنجترئ على الدعاء وقد علمت أنه لاحاجة لنا فى شىء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك ؟ وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك ؛ لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ؛ وفرغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقالو الآخر : كيف يجترئ العبد على سيده ؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك ـ فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا فى شىء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبى عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شىء دونك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال داود : يارب بم نالوا هذا منك ؟ قال : بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشىء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر

بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي ، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقي لا يرى غيرى ولا أرى غيره ، فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفا وعبادة ، وعزتي وجلالي ياداود لأقعدنه في الفردوس ولأشفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا .

وفي أخبار داود أيضا . قل لعبادى المتوجهين إلى محبتي ماضركم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بعيون قلوبكم ، وما ضركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم ، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي . وفي أخبار داود أيضا : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبي وحبها لايجتمعان في قلب . ياداود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أماما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به ، وأماما أشكل عليك فقلدنيه حقا على أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدى وأنه لا غنى به عني . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إلى لاتضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حدّا فليس لها غاية ، ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة مني حدّا ، ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندى أبح لهم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعني بين عينيك وانظر إلى ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فإني حلفت بعزتي وجلالي لاأفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف ، تواضع لمن تعلمه ولاتطاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . ياداود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عبادى من رحمتي ، اقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي مابال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي ، وإنما عقوبة الأقوياء عندى في موضع التناول أدنى مايصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها . ياداود لاتجعل بيني وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين ، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة في الإفطار فإن محبتي للصوم إدمانه . ياداود تحبب إلى بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به وإني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي .

أوحى الله تعالى إلى داود : ياداود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظارى لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . ياداود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين على

يا داود أحوج ما يكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى ، وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أنّ شواهد القرآن متظاهرة على أنّ الله تعالى يحب عبده فلا بدّ من معرفة معنى ذلك ، ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ثم تلا ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ [1] » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضى بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب [2] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله [3] » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به [4] » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ما شئت فقد غفرت لك . وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر .

وقد ذكرنا أنّ محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أنّ الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضاً ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر .

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ، بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى إن اسم « الوجود » الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع . وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما ، لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه ، وهذا التباعد فى سائر الأسامى أظهر كالعلم والإرادة

---

(١) حديث أنس « اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لاذنب له » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابن مسعود وتقدم فى التوبة . (٢) حديث « ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب . الحديث » أخرجه الحاكم وصحح اسناده والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد حسن دون قوله « ومن أكثر ... إلى آخره » ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث « قال الله تعالى لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

والقدرة وغيرها فكل ذلك لايشبه فيه الخالق الخلق . وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامى أولا للخلق فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل . والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فاتها مايوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن فى حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولايتصور تجدده ولازواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن ليس فى الوجود غيره ، فمن لايحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هى متعلقة بذاته ، فهو إذن لايحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه ، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه .

ولايفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره فى رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه ، فيقال : إن الملك يحبه ، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له . وقد يقرب عبدا ولايمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الأخلاق المرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لاغرض له فيه أصلا ، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد توصل وحبب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لايسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التى هى الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لابالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا إذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال فى حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال ، بل لايزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزال .

ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر ، بل القرب فى الصفات أيضا كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كمال العلم وجماله والأستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا

فى التغـــير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغى أن يفهم ترقى العبد فى فى درجات القرب ، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك فى حق الله محال ، فإنه لانهاية لكماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له فى المساواة ، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لانهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه ، قيل : وما اقتناه ؟ قال « لم يترك له أهلا ولا مالا »[1] ، فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام : لم لاتشترى حمارا فتركبه ؟ فقال : أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر « إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه[2] » وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشىء من المحبة ، فقال : يابنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع فى المحبة فإنه لايعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إذ أحب الله تعالى عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه[3] » ، وقد قال « إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه[4] » ، فأخص علاماته حبه لله تعالى فإن ذلك يدل على حب الله تعالى له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا فى قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته . فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد . فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضا من علامات حب الله تعالى للعبد .

القول فى علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أنّ المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان

---

(١) حديث « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم .

(٢) حديث « اذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده . (٣) حديث « اذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ « اذا أراد الله بعبد خيرا » . (٤) حديث « اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف .

وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وثمارها تظهر فى القلب واللسان والجوارح . وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام ، فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محبا للموت غير فار منه ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه [1] » وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد ربط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . ويروى عن إسحق بن سعد بن أبى وقاص قال : حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ فخلوا فى ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال : يارب إنى أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى ويبقر بطنى ، فإذا لقيتك غدا قلت يا عبدالله من جدع أنفك وأذنك ، فأقول : فيك يارب وفى رسولك ، فتقول صدقت قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط [2] قال سعيد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله . وقد كان الثورى وبشر الحافى يقولان : لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطى لبعض الزهاد : أتحب الموت ؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته ، وتلا قوله تعالى ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فقال الرجل : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يتمنين أحدكم الموت [3] » فقال : إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فإن قلت : من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا ينافى كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون فى الحب . ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟ فقال : والله لقد أنكحته إياها

(١) حديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبى هريرة وعائشة . (٢) حديث اسحق بن سعد ابن أبى وقاص قال : حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد . ألا ندعو الله ؟ فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال : يارب انى أقسم عليك اذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ويجدع أنفى وأذنى .. الحديث » أخرجه الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية واسناده جيد . (٣) حديث « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

وإنى لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف وهى أختك وهو مولاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم [1] » فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثانى للكراهة : فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لايدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال الحب أصلا ، وعلامته الدءوب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه . وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال ﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ومن بقى مستقرا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى ... فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار وقالت : يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا ، حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين ، فقالت : أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى ، فعندها سكنت إليه . فإذن من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته ... فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عزوجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى : وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته .

---

(١) حديث أبى حذيفة بن عتبة : أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك . وفيه : فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم » لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر « أن سالما يحب الله حقا من قلبه » وفى رواية له « ان سالما شديد الحب لله عزوجل لو لم يخف الله عزوجل ماعصاه » وفيه عبد الله بن لهيعة .

ولذلك قال تعالى ﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ .

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل مايضره مع العلم بأنه يضره ؟ وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه . ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة . ويدل عليه ماروى أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوما فحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر مايؤتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله »[1] ، فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصى . وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أتحب الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء : ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشىء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لايفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر مايتعلق به ، فعلامة حب الله : حب ذكره وحب القرآن الذى هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فإن من يحب إنسانا يحب كلب محلته . فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل مايكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة فى الحب فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه ، فكيف لايحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الأخوة والصحبة ولذلك قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لله تعالى »[2] ، وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله . وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة قال : فسمعت قائلا يقول فى المنام : إن كنت تزعم أنك تحبنى فلم جفوت كتابى أما تدبرت مافيه من لطيف عتابى ، قال : فانتبهت وقد أشرب فى قلبى محبة القرآن فعاودت إلى حالى . وقال ابن مسعود : لاينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عزوجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل ـ رحمة الله تعالى عليه ـ علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لايأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟

---

(١) حديث : أتى بنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال : ما أكثر مايؤتى به ؟ فقال « لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله » أخرجه البخارى وقد تقدم . (٢) حديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ... الحديث » تقدم .

فقال : من الأنس بالله . وفى أخبار داود عليه السلام : لاتستأنس إلى أحد من خلق ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين رجل استبطأ ثوابى فانقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه فى الدنيا حيران ، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ ـ وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ـ أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام : إنّ برخا نعم العبد هو لى إلا أنّ فيه عيبا ، قال : يارب وماعيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء وروى أنّ عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا فنظر إلى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى إليها ويصفر عندها ، فقال : لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال : ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لاتنالها بشىء من عملك أبدا . فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه ، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لايفهم أمور الدنيا مالم تكرر على سمعه مرارا ، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه . فالمحب من لايطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به . وقال الصدّيق رضى الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال مطرف بن أبى بكر : المحب لايسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادّعى محبتى إذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضاً : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لايتأسف على مايفوته مما سوى الله عزوجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين : إنّ لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما ، وماشاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم . وحق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ، ويسأله ويقول : رب بأى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه . ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أنّ المحبوب لم يقدّر له إلا مافيه خيرته ، ويذكر قوله ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ .

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولايستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة . ثم تنعمت به

عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والدءوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لايدخله الفتور . وقال بعض العلماء : والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل . فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات ، فإن العاشق لايستثقل السعى فى هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه . ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لامحالة ماهو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه . وقيل لبعض المحبين ـ وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ـ : ما كان سبب حالك هذه فى المحبة ؟ فقال : سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عنى بوجهك كله ! فقال له المحبوب : إن كنت تحبنى فأيش تنفق على ؟ قال : ياسيدى أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقلت : هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال الله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، وبه وصف الله أولياءه إذ قال الذين يكلفون بحبى كما يكلف الصبى بالشيء ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكره ، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لايبالى قل الناس أو كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإن الصبى إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه فى ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لايملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا فى الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم فى الآخرة بقدر حبه ، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى فى الأبرار ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ ثم قال ﴿ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾ فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذى هو للمقربين . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال ﴿ إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾ ثم قال ﴿ يشهده المقربون ﴾ فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون ، وكما أن الأبرار يجدون المزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم فى الآخرة ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وكما قال تعالى ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أى وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب . وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب فى حبه وأعماله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ وإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ـ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فمن كان حبه فى الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور : مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان ؛ فهناك تنتهى لذته فى الآخرة لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق : أنزل ﴿ فى مقعد

صدق عند مليك مقتدر ﴾ فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان . والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب [١] » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ كما قال تعالى ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ .

ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم ، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد المحبين [٢] إذ سمع قوله تعالى ﴿ ألا بعدا لثمود ـ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، لحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ، ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون [٣] » وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي فى اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة [٤] » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثانى ، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق والالتفات إلى غير المحبوب ، كما روى أن الله تعالى يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى أن أسلبه لذيذ مناجاتى . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المكر الخفى الذى لايقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ، ثم خوف فوت ما لايدرك بعد فوته سمع إبراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحة وكان على الجبل :

كل شيء منك مغفو ر سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فا ت فهب لنا ما فات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت .

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد ، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته . والسلو يدخل عليه من حيث لايشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لايشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، فإذا

---

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب » أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول ، وقد تقدم ، والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى ولعله أدرج فيه .

(٢) حديث « شيبتنى هود » أخرجه الترمذى وقد تقدم غير مرة . (٤) حديث « من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » لاأعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يارسول الله أوصنى ، فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد . (٤) حديث « إنه ليغان على قلبي » متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان ، وكما أنّ من أوصاف الله تعالى مايظهر فيقتضى هيجان الحب وهى أوصاف اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان . ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها . وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت ـ نعوذ بالله منه ـ وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإنّ من أحب شيئا خاف لامحالة فقده فلايخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبدالله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقرّبه ومكنه وعلمه ، فالمحب لايخلو عن خوف والخائف لايخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو فى مقام المحبة ويعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب . فقد روى فى بعض الأخبار : أنّ بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشىء ولا ينتفع به شىء ، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يارب أنقصه من الذرّة بعضها ، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة ، وذلك أنّ مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا ، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ماأصابه من ذلك ، فقال : سبحانك ياأحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته ! فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقى معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد ... عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب ... كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت ... عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد فى الأوقات تجرى ... له فى كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد ... ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره . وهى هذه الأبيات :

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم ... لحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم عنها لما هو أكمل

تروح بعز مفرد من صفاته وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به ما يصونه وأبذل منه ماأرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ، فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له فى الخير أسراراً وحكما ، ولا منتهى لحكمته كما لاغاية لقدرته .

ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا . نعم قد يكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول :

وقالوا : قريب ، قلت : ماأنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى ؟
فمالى منه غير ذكر بخاطر يهيج نار الحب والشوق فى صدرى !

والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبدى الدمع أسراره ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم ؟

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد : من يكثر التعريض به فى كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه - ممن كان يذكر المحبة - فرآه مبتلى ببلاء فقال : لايحبه من وجد ألم ضره ! فقال الرجل: لكنى أقول لايحبه من لم يتنعم بضره ، فقال ذو النون : ولكنى أقول : لايحبه من شهر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق المحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله . وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك فى الحب

وقادح فيه ، كما ورد فى الإنجيل: إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ماصنعت يمينك . فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال : يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين ! فهذا الذى رأيته من مجانينهم . ومما يكره : التظاهر بالحب ، بسبب أن المحب إن كان عارفا - وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لايفترون ولايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها : فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شىء ، فقلت : من أنتم فقالوا : نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره ، قال : فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم .

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته ؛ كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا ، فوصف لنا طبيب حاذق . فأخذ قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى : أراه بول عاشق ! قال الجنيد : فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم قال : قاتله الله ما أبصره ! قلت : يا أستاذ وتبين المحبة فى البول ! قال : نعم . وقد قال السرى مرة : لو شئت أقول : ما أيبس جلدى على عظمى ولاسل جسمى إلاحبه ! ثم غشى عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته .

ومنها . الأنس والرضا - كما سيأتى .

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ، ولذلك قال الجنيد : الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه . وعدو الله إبليس - وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل - فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله فى أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يا دوست - أى يا حبيب - فقيل له : قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا : لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا : فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس : وقد

قال أبو تراب النخشبي - في علامات المحبة - أبياتا :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد ؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا . وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالأنس معناه استبشار القلب فرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف .

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، كما حكي أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كل

ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه : يامن آنسنى بذكره وأوحشنى من خلقه ، وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لى مشتاقا وبى متأنسا ومن سواى مستوحشا وقيل لرابعة : بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت ؛ بتركى مالا يعنينى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : ياهذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادة ، فقلت ياراهب ما أقل ما تجده فى الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم فصارهما واحد فى الطاعة ، وقال بعض الحكماء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ؟ عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك ؟ .

فإن قلت : فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر ، فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى انكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب ، يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا ، وقال : ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل ما يدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل ؛

بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسق لهم فى سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ويأمنون مكرى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود ، فى شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسق لنا . فخرج فقال فى كلامه : ماهذا من فعالك ولا هذا من حلمك ؟ وما الذى بدالك أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ماعندك أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف ، أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال : فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى ؟ فهم موسى عليه السلام به ، فأوحى الله تعالى إليه : إن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات .

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص ، قال : فأتى بشيخ فقال : ياشيخ ما بال خصك لم يحترق ؟ قال : إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم ، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم [1] » قال : ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار ، فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار ، فقال : إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار ، قال : فاعزم على النار أن تطفأ ، قال : فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حفص : ماأصابك ؟ فقال : ضل حمارى ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره ، قال : فظهر حماره فى الوقت ومر أبو حفص رحمه الله .

فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك . وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهـو بسيدهم   والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيتـه عما سواه له   يا حسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ، ففى القرآن تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هى عند ذوى الاعتبار من الأسماء .

فأول القصص . قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة . أما إبليس فأبلس عن رحمته ، وقيل إنه من المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ .

---

(١) حديث الحسن عن أبى موسى « يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الإعراض عن عبد والإقبال على عبد ، وهما فى العبودية سيان ولكن فى الحال مختلفان ، فقال ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ وقال فى الآخر ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم ﴾ حتى قال ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ .

فكذلك الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ وقوله فى التعليل والاعتذار لما قيل له ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ فقال ﴿ ولهم على ذنب ﴾ وقوله ﴿ إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ وقوله ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت ـ فى ظلمات ثلاث ـ ونودى عليه إلى يوم القيامة ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ . قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقد قال ﴿ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه ، فقال ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال ﴿ وسلام عليه ﴾ .

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء : قد عددت من أول قوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ـ فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل محى من ديوان النبوة ! وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه . فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام : يارأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصينى ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتى وجلالى لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده ، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كثيبا من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال : إلهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب على وكيف أستعصم ؟ إن لم تعصمنى لأعودن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه .

وفى الخبر : إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك قد أهلكت فى دونه أمة من الأمم . فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية .

وهذه القصص وردت فى القرآن لتعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل ، فما فى القرآن شىء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ﴿ قل هو الله أحدالله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ وتارة يتعرف إليهم فى أفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول ﴿ ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ـ ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

ولايعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهى : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده . ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن [1] » لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحدا فى ثلاثة أمور ؛ لايكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ لم يلد ﴾ ولايكون حاصلا عن هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ ولم يولد ﴾ ولايكون فى درجته وإن لم يكن أصلا له ولافرعا من هو مثله . ودل عليه قوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ويجمع جميع ذلك قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وجملته تفصيل قول « لا إله إلا الله » فهذه أسرار القرآن ولاتتناهى أمثال هذه الأسرار فى القرآن ﴿ ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين ﴾ ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : ثوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حدّ استطاعة البشر . وأكثر أسرار القرآن معبأة فى طى القصص والأخبار ، فكن حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ماتستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه . فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذى هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

القول فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وماورد فى فضيلته

اعلم أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين ، ومايدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه فى الدين ، فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شىء لأنه فعل الله فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل [2] » فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ،

---

(١) حديث « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد من حديث أبى بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخارى من حديث أبى سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه . (٢) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » متفق عليه دون قوله « وعلمه التأويل » ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم فى العلم .

ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر مايظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ﴿ ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ فكما أن مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطالب سكان الجنان .

وفى الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك [1] » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولايجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما امروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب . وقال الله تعالى ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال بعض المفسرين : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ؛ إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها فذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ﴾ والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ والثالثة : يقول الله تعالى : إنى عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما من الأخبار : فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه « ماأنتم » فقالوا : مؤمنون ، فقال « ما علامة إيمانكم » فقالوا : نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال « مؤمنون ورب الكعبة [2] » وفى خبر آخر أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء [3] » وفى الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل [5] » وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى

---

(١) حديث « ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك » أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين وفيه « فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل إكرامى فسلونى فيسألونه الرضا .. الحديث » ورواه أبو يعلى بلفظ « ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك... الحديث » ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث : سأل طائفة من أصحابه « ماأنتم » فقالوا : مؤمنون فقال « ماعلامة إيمانكم ... الحديث » تقدم .

(٣) حديث : أنه قال فى حديث آخر « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » تقدم أيضا . (٤) حديث « طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به » أخرجه الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ « وقنع » وقال صحيح وقد تقدم

(٥) حديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل » رويناه فى أمالى المحاملى بإسناد ضعيف من حديث على بن أبى طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس .

الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : مارأينا حسابا ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : مارأينا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : مارأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول : ناشدناكم الله حدثونا ماكانت أعمالكم فى الدنيا ، فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا [(٢)] » .

وفى أخبار موسى عليه السلام ؛ إنّ بنى إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى عليه السلام . إلهى قد سمعت ماقالوا ، فقال : ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب أن يعلم ماله عند الله عزوجل فلينظر ما لله عزوجل عنده ، فإنّ الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه [(٣)] » .

وفى أخبار داود عليه السلام ؛ ما لأوليائى والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ، ياداود إنّ محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لايغتمون .

وروى أنّ موسى عليه السلام قال : يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره ، قال : يارب دلنى عليه ، قال : فإنّ رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام : أى رب أى خلقك أحب إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى ، قال . فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روى ماهو أشد من ذلك وهو أنّ الله تعالى قال « أنا الله لاإله إلا أنا من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى [(٤)] » ومثله فى الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى [(٥)] ، وفى الخبر المشهور « يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف [(٦)] » .

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عزوجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ماأراد ، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو ، هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات

---

(١) حديث « إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها » رواه ابن حبان فى الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمى من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن على القيسى ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة فى الورود وغيره . (٢) حديث « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » تقدم . (٣) حديث « من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ « منزلته » و « منزلة الله » . (٤) حديث « قال الله أنا الله لاإله إلا أنا من لم يصبر على بلائى ... الحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله « من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى » » وإسناده ضعيف . (٥) حديث « قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا ... الحديث » لم أجده بهذا اللفظ ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة « خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين ... الحديث » وإسناده ضعيف . (٦) حديث « يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه .. الحديث » أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة بإسناد ضعيف .

والأرض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيامن أجلك أم تريد أن أبدل ماقدرته عليك فيكون ما تحب فوق ماأحب ويكون ماتريد فوق ما أريد ، وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ـ يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لاينطق ولايرفع رأسه ـ فقال له بعض ولده : ياأبت ! أماترى مايصنع هذا بك لونهيته عن هذا ! فقال : يابنى إنى رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا ، إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبنى مالا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ، ولا لشىء لم أفعله لم لافعلته ، ولاقال فى شىء كان ليته لم يكن ، ولافى شىء لم يكن ليته كان ، وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضى شىء لكان (١) . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود إنك تريد وأريد وإنما يكون ماأريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتك ماتريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لايكون إلا ما أريد .

وأما الآثار : فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : مابقى لى سرور إلا فى مواقع القدر ، وقيل له : ماتشتهى ؟ فقال : مايقضى الله . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبى رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عزوجل وقال عبد الله بن مسعود : لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشىء كان ليته لم يكن أو لشىء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع . فقال : إنى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إنى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عينى .

وروى فى الإسرائيليات ؛ أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام : فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال : أمالك عمل غير مارأيت ؟ فقالت : ماهو والله إلا مارأيت لاأعرف غيره ، فلم يزل يقول : تذكرى ، حتى قالت : خصيلة واحدة هى فى ؛ إن كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خصيلة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد .

وعن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه . ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عنى ، فقالت : أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال ؛ أستغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعى : فمتى يكون العبد راضيا عن الله

(١) حديث أنس : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم .

تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحوارى : قال أبو سليمان الدارانى إنّ الله عزوجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت : وكيف ذاك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت : نعم ، قال : فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط [1] » .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أنّ من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر ؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله : الرجل المحارب فإنه فى حال غضبه أو فى حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لايحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لايدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه ! فكيف إذا أصابه من حبيبه ؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم ، فإنّ الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصوّر تضاعف الألم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لايقاس به جمال ولا جلال ، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بمايجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له فى ذلك فقال : يادوست ضرب الحبيب لايوجع !

(وأما الوجه الثانى) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له - أعنى بعقله - وإن كان كارها بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان

(١) حديث « إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال « بقسطه » وقد تقدم .

يلاحظ الثواب والإحسان الذى يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهى العين الخسيسة التى تغلط فيما ترى كثيرا ، فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك فى حب الجمال الأزلى الأبدى الذى لامنتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت؟ حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم .

فقد قال شقيق البلخى : من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها ؟ وقال الجنيد : سألت سريا السقطى هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا ، قلت وإن ضرب بالسيف ! قال : نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ـ ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شىء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته فقلت له : لم ضربت؟ فقال لأنى عاشق ، فقلت له ولم سكت ؟ قال لأن معشوقى كان بحذائى ينظر إلى ، فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ! قال فزعق زعقة خر ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم ، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ؟ إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان فى بدايتى فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى إربا إربا ما ازددت له إلا حبا ؟ قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مدية وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول والموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجتى التى تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا ، فسألت عنه وعن أمره فقيل لى إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلنى على أعبد أهل الأرض ؟ فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول إلهى متعتنى بهما ما شئت أنت ، وسلبتنى ما شئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد

وجده عليه حتى قال بعض القوم : لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث ، فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته وما رجل أشد سروراً أبداً منه ، فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزنى رحمة له ، فلما وقع أمر الله رضينا به . وقال مسروق . كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم ، قال : فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل :عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبى من حولهم وبقوا هم ، قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة ، فكانت الخيرة لهؤلاء فى هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذن من عرف خفىّ لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . ويروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى : يا هذا أى شىء من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال : ياروح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك ، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة ! وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه . وقطع عروة بن الزبير رجله — من ركبته — من أكلة خرجت بها ثم قال : الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وايمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة . وكان ابن مسعود يقول : الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيتهما ركبت ؟ إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل . وقال أبو سليمان الدارانى : قلت قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا قد نلته ، لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق علىّ إلى الجنة ثم ملأ بى جهنم — تحلة لقسمه وبدلا من خليقته — لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه . وهذا كلام من علم أنّ الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بقى إحساس فيغمره مايحصل من لذته فى استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه فى النار . واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغى أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أنّ ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذبارى : قلت لأبى عبد الله بن الجلاء الدمشقى : قول فلان ؛ وددت أنّ جسدى قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه ؛ ما معناه ؟ فقال : ياهذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف ، قال : ثم غشى عليه . وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد — قد نقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته — فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكى لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكى ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة ! قال : لاتبك فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إلى ! ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم على حتى أموت ، إنّ الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ! فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف لايكون راضيابه ؟ قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده ، فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلى

فداؤك ما نطعمك . ما نسقيك ؟ فقال : طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياما ، وما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة ـ وقد كان كف بصره ـ جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ـ وكان مجاب الدعوة ـ قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم. فذكر قصة قال فى آخرها : فقلت له : ياعم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك ! فتبسم وقال : يابنى قضاء الله سبحانه عندى أحسن من بصرى ! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر ، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال : اعتراضى عليه فيما قضى أشد على من ذهاب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال : إنى أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ـ وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشىء كان ، ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلى من أن أقول لشىء قضاه الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه . وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصده فقال له : ياحبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به ؟ قال : لا ، قال أنست به ؟ قال : لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال : لا ، قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أنى أستحيى منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ! ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعد فى طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه فى أعمال الجوارح التى هى مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة ، فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتى إن صدقتم فاصبروا على بلائى !

وللشبلى رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران ؟

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه ، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ، ولو كان بها شلل ظل يواريها ؛ يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق فى السوق فقيل للسرى : احترق السوق وما احترق دكانك ! فقال الحمد لله ، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله .

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا فى حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا فى حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين (أحدهما) الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . (والثانى) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب فى مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو فى هلاك روحه . كما قيل : * فما لجرح إذا أرضاكم ألم *

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة

دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه ! لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .

وقد روى عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدتي أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت : مت راشدا ! قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي ؟ فقال : قد علم الله أني صادق فيما أورده ، حتى لو قلت لي مت لمت ، فقال : إن كنت صادقا فمت ، قال : فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه ! قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك مافي القدر بيده حتى سقطت أصابعه ! فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا مكان قولك ـ آه . وحكى عن محمد ابن عبدالله البغدادي قال ، رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت !

ثم رمى بنفسه إلى الأرض ، فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال ، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال . نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة ، فالذي فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لامظنة لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه أيضا . وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع .

فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام ـ على مانقلناه في كتاب الدعوات ـ تدل عليه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات من الرضا . وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم ﴾ وفي الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضي به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله [1] » وعن ابن مسعود إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه وقيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان

(١) حديث « الدال على الشر كفاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا .

شريكا فى قتله [١] » وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها فى الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق [٢] » وفى لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتانى الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل »

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا ﴾ وفى الخبر « إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن [٣] » وقال عليه السلام « المرء مع من أحب [٤] » وقال « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة [٥] » وقال عليه السلام « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله [٦] » وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة ، وفى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فلا نعيده .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى [٧] فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح فى التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شىء واحد ؟ فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شىء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد فى شىء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه ؛ إذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع فى إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال :

---

(١) حديث « لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله » لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولابن عدى من حديث أبى هريرة « من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها » وتقدم فى كتاب الأمر بالمعروف . (٢) حديث « لاحسد إلا فى اثنتين ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم . (٣) حديث « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ... الحديث » لم أجد له أصلا . (٤) حديث « المرء مع من أحب » تقدم . (٥) حديث « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم » أخرجه الطبرانى من حديث أبى قرصافة وابن عدى من حديث جابر « من أحب قوما على أعمالهم حشر فى زمرتهم » زاد ابن عدى « يوم القيامة » وفى طريقه إسماعيل بن يحيى التيمى ضعيف .

(٦) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » رواه أحمد وتقدم فى آداب الصحبة . (٧) الأخبار الواردة فى الرضا بقضاء الله رواها الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص « من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عزوجل ... الحديث » وقال غريب وتقدم حديث « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وحديث « إن الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا » وتقدم فى حديث الاستخارة « واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به » وحديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل وحديث « أسألك الرضا بالقضاء ... الحديث » وغير ذلك .

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدى محبيه . إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى ، وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لى . حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوا لى ، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبى . ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض وحصل البغض الذى هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق فى محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة ـ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك ! وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه ، فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت ، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك وتعويقا فى مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك ، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لامن حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا . وأما بغضه لك فإنى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعى البغض ، ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك ، فهو ممقوت عندى لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضاً عندى مكروه من حيث أنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى . وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه ، وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ، ويشهد لذلك كل مايكره من وجه ويرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لاتحصى .

فإذن تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب المعصية ويجره الحب إلى فعل المعصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ؛ ليجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره ، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ـ أعنى تسليط دواعى المعصية عليه ـ يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من أبعده الله عن حضرته ـ وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ـ فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين ـ موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

بهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر ـ الذى لارخصة فى إفشائه ـ وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به . فمن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنهما جميعا منه ـ من غير افتراق فى الرضا والكراهة ـ فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب

الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم « القدر سر الله فلا تفشوه [1] » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه .

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش ، وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لايناقض التوكل ـ واستقصيناه فى كتاب التوكل ـ فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لايناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لايقول هذا يوم حار ـ أى فى معرض الشكاية ـ وذلك فى الصيف فأما الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى . وقول القائل : الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قادح فى الرضا ، بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ماقاله عمر رضى الله عنه : لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فإنى لاأدرى أيهما خير لى .

بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لايقدح فى الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون [1] يدل على النهى عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال ؛ بل العلة فى النهى عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقى فيه المرضى مهملين لامتعهد لهم فيهلكون هزالا وضرا ، ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف [2] ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف ـ وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل ـ وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التى تدعو إلى المعاصى والأسباب التى تدعو إليها ـ لأجل التنفير عن المعصية ـ ليست مذمومة . فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد ! قيل : وكيف ؟ قال : هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله . ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال : مارأيت بها إلا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ! ولاينبغى أن تظن أن ذلك

---

(١) حديث « القدر سر الله فلا تفشوه » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر وابن عدى فى الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : النهى عن الخروج من بلد الطاعون . تقدم فى آداب السفر . (٣) حديث : أنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف . تقدم فيه .

من الغيبة ؛ لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة - وقد كان مقامه ببغداد - يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه . وقد ذم العراق جماعة : كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضى الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال : العراق ، قال : فما تصنع به ؟ بلغنى أن ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال . وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء ؛ على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفى متدرع بعباءة ، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال: أين تسكن ؟ فقال : بغداد : فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم فى زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال فى عش الظلمة ؟ وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد فى الحش . وكان يقول : لا تقتدوا بى فى المقام بها ! من أراد أن يخرج فليخرج . وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى ! قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير .

فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصى ويقل فيها الخير فلا عذر له فى المقام بها ، بل ينبغى أن يهاجر قال الله تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغى أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغى أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذن ليس فى شىء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هى فى نفسها فلا وجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء فى الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى ؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن أسباط ، فقال الثورى كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، واليوم وددت أنى مت ، فقال له يوسف لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف لكنى لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعلى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا ، فقيل لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثورى بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحب متعوب . وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة ؟ فقال أنا كل السبعة . وكان يقول إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بدلا ، قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قال لأنى رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام ؟ فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه ! وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسى يوما قط أنه لم يبق ولى لله تعالى إلا عرفته

إلا ورأيت فى ذلك اليوم وليا لم أعرفه . وقيل لأبى يزيد البسطامى مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك ! قيل لحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك فى الله تعالى . فقال وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل لحدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك ، فقال نعم ، دعوت نفسى إلى الله فجمحت على فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد ـ فى بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ـ مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف ، قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إنّ قوما طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طى الأرض فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك . حتى عدّ نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت فرآنى فقال : يحيى ! قلت : نعم ياسيدى ، فقال : مذ متى أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت ، فقلت : ياسيدى حدثنى بشىء فقال : أحدثك بما يصلح لك ، أدخلنى فى الفلك الأسفل فدورنى فى الملكوت السفلى وأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوف بى فى السموات وأرانى ما فيها من الجنان إلى العرش ، أوقفنى بين يديه فقال : سلنى أى شىء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت : ياسيدى ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه ! فقال : أنت عبدى حقا تعبدنى لأجلى صدقا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء . قال يحيى : فهالنى ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت : ياسيدى لم لا سألته المعرفة به ؟ وقد قال لك ملك الملوك سلنى ما شئت ، قال : فصاح بى صيحة وقال : اسكت ويلك ! غرت عليه منى حتى لا أحب أن يعرفه سواه . وحكى أنّ أبا تراب التخشبى كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال : إنى عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله « لو رأيت أبا يزيد » هاج وجد المريد فقال : ويحك ما أصنع بأبى يزيد قد رأيت الله تعالى فأغنانى عن أبى يزيد ؟ قال أبو تراب : فهاج طبعى ولم أملك نفسى ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة ! قال : فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ؟ فعرف ما قلت ، فقال : احملنى إليه ، فذكر قصة قال فى آخرها : فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ـ وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع ـ قال : فمرّ بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى : هذا أبو يزيد فانظر إليه ! فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه فقلت لأبى يزيد : ياسيدى نظره إليك قتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن فى قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله ، لأنه فى مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الاموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إنّ لله عبادا فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات فى ليلة واحدة ؛ ولكن لا يفعلون ، قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها ، حتى قال : ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها . وهذه أمور ممكنة فى أنفسها فمن لم يحظ بشىء منها ، فلا ينبغى أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت

كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لاغاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ماوراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة ، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به ، وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء ، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال ، وقيل لى : انظر إليهن ، قال : فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر إليهن وقلت : أعوذ بك مما سواك ! لا حاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى .

فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول : فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهى أعز موجود فى الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادى الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى ما فى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لامستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادى الطريق ، كما قيل لبشر : بأى شىء بلغت هذه المنزلة ؟ قال : كنت أكاتم الله تعالى حالى . معناه : أسأله أن يكتم على ويخفى أمرى . ورُوى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لى ، فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت زدنى ، قال وسترها عليك . فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال أقلقنى الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء على ، قال فرأيته فما غلب على همى ولا همتى إلا أن قلت له ياأبا العباس علمنى شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل اللهم أسبل على كثيف سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك ، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك ، فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم ، فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن - حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه فى الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به - فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله فى ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى ، ففى أمثال هؤلاء ينبغى أن يطلبوا ، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفى المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى أوليائى تحت قبابى لايعرفهم غيرى . وقال صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره [1] » .

---

(١) حديث « رب أشعث أغبر ذى طمرين » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعاراً إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته . فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح ، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله ، فمن لايقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب . ويشهد لهذا ماروى أن عيسى عليه السلام قال لبنى إسرائيل أين ينبت الزرع ؟ قالوا فى التراب ، فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحكمة إلا فى قلب مثل التراب . ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله فى المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ، فقال : قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت . وعنه أيضا أنه قال نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فتشتت على قلبى ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت ، وجعلت أمشى قليلا قليلا . فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا ، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لايفارق مجلس أبى يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد فى قلبى من هذا العلم الذى تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ماوجدت من هذا ذرة ! قال : ولم ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال فلهذا دواء ؟ قال : نعم ، قال : قل لى حتى أعمله ، قال : لاتقبله ، قال : فاذكره لى حتى أعمل ، قال : اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل : كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة ، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ! تقول لى مثل هذا ! فقال أبو يزيد : قولك « سبحان الله » شرك ، قال : وكيف ؟ قال : لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك ! فقال : هذا لا أفعله ولكن دلنى على غيره ! فقال : ابتدئ بهذا قبل كل شىء . فقال : لا أطيقه ، قال : قد قلت لك إنك لاتقبل ؟ . فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ، ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله ، فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر إمكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا . فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا .

وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله

عليه وآله وسلم «لايستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لايعرف أحب من أن يعرف [١]» وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لايخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا [٢]» وقال عليه السلام «لايكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له [٣]» وفى حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود : العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وخشية الله فى السر والعلانية [٤]» فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمان ؛ وفى الأخبار أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : إنما اتخذ لخلتى من لايفتر عن ذكرى ولايكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقى وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ماوراء الحب من الكرامات والمكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لا حصر له . ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله تعالى عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى وأعطانى مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم [٥]» وفى حديث آخر «إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ، فقال أبو بكر : يارسول الله هل فى منها خلق فقال «كلها فيك يا أبا بكر وحبها إلى الله تعالى السخاء [٦]» وقال عليه السلام «رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر فى كفة وجيء بأمتى فوضعت فى كفة فرجح بهم [٧]» ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال «لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى [٨]» يعنى نفسه .

---

(١) «حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف» ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طلحة ، وعلى هذا فهو معضل فعلى بن أبى طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلا . (٢) حديث «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لايخاف فى الله لومة لائم ... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنسائى ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد . (٣) حديث «لايكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق .. الحديث» أخرجه الطبرانى فى الصغير بلفظ «ثلاث من أخلاق الإيمان» وإسناده ضعيف . (٤) حديث «ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود : العدل فى الرضا والغضب» غريب بهذا اللفظ ، والمعروف «ثلاث منجيات» فذكرهن بنحوه وقد تقدم . (٥) حديث : أنه قال للصديق «إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى . الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف . (٦) حديث «إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ... الحديث» أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس مرفوعا عن الله «خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة» ومن حديث ابن عباس «الإسلام ثلثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة» وفيه وفى الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ «الإيمان» وللبزار من حديث عثمان بن عفان «إن الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ... الحديث» وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبى بكر وجوابه وكلها ضعيفة .
(٧) حديث «رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم ... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٧) حديث «لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... الحديث» متفق عليه وقد تقدم .

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال غيره : دوام الذكر ، وقال غيره إيثار المحبوب وقال بعضهم : كراهية البقاء فى الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد : حرّم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله : صف لنا العارف والمحب ؛ فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحب إن سكت هلك ، وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفونى أنت بما مر بى عليم

ولغيره :

عجبت لمن يقول ذكرت إلفى وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت؟
فليت خياله نصب لعينى ! فإن قصرت فى نظرى عميت

وقالت رابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ، فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبى وتوليته بحفظى . وقيل : تكلم سمنون يوما فى المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتنى من محبتك وآنستنى بذكرك وفرغتنى للتفكر فى عظمتك ، وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش . وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إنى لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين . وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال : الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة : إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلى : الحب دهش فى لذة وحيرة فى تعظيم . وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شىء راجع منك إليك ، وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات . وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه . وقيل معاملة المحب على أربع منازل ؛ على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم ، وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة : وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول ـ وهى باكية والدموع على خدها جارية ـ والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه ، قال

فقلت لها : فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين علي ، يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إلي : وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له : إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه ، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلي رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكري للذاكرين ، وجنتي للمطيعين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق إليه جد في مسيره . وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمي ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أقعد ، وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا مني إليك . وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال « المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة [1] » وقال ذو النون سبحان من جعل الأرواح جنود مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات ، فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا ، فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والأنس ، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق .

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ، ونشهد أن لا إله

(١) حديث علي : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال « المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني ... الحديث » ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسنادا .

إلا الله رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ فما لله إلا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ؛ والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء ، وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص .

ونحن نذكر معانى الصدق والإخلاص فى ثلاثة أبواب :

(الباب الأول) فى حقيقة النية ومعناها .

(الباب الثانى) فى الإخلاص وحقائقه .

(الباب الثالث) فى الصدق وحقيقته .

الباب الأول فى حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيرا من العمل ، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس ، وبيان خروج النية عن الاختيار .

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ والمراد بتلك الإرادة هى النية . وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [١] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته [٢] » ، وقال تعالى ﴿ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ فجعل النية سبب التوفيق . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم [٣] » ، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية : وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات ... الحديث » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة .

(٣) حديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه [١]» وقال صلى الله عليه وسلم «الناس أربعة: رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء [٢]» ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه. وكذلك في حديث أنس بن مالك: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولاوطئنا موطئا يغيظ الكفار ولاأنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة! » قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال، حبسهم العذر فشركوا بحسن النية [٣]» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئا فهو له» فهاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس [٤]» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار [٥]» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته. وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالا فله مانوى [٦]» وقال أبي: استعنت رجلا يغزو معي فقال: لا حتى تجعل لي جعلا، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال «ليس له من دنياه وآخرته إلا ماجعلت له [٧]» وروي في الإسرائيليات، أن رجلا مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان هذاالرمل طعاما لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب مالو كان طعاما فتصدقت به» وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة [٨]» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب مايكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد مايكون فيها [٩]» وفي حديث أم سلمة: أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت: يارسول الله يكون فيهم المكره والأجير فقال «يحشرون على نياتهم [١٠]» وقال عمر رضي الله

---

(١) حديث «إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ... الحديث» أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن
(٢) حديث «الناس أربعة: رجل آتاه الله علما ومالا ... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ... الحديث» وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه «وإنما الدنيا لأربعة نفر ... الحديث» وقال حسن صحيح.
(٣) حديث أنس «إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا ... الحديث» أخرجه البخاري مختصرا وأبو داود. (٤) حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئا فهو له» هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس: أخرجه الطبراني بإسناد جيد. (٥) حديث «إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار» لم أجد له أصلا في الموصولات، وإنما رواه أبو إسحق الفزاري في السنن من وجه مرسل. (٦) حديث «من غزا وهو لاينوي إلا عقالا فله مانوى» أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة، (٧) حديث أبي: استعنت رجلا يغزو معي فقال لاحتى تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال «ليس له من دنياه وآخرته إلا ماجعلت له» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى». (٨) حديث «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة» متفق عليه وقد تقدم. (٩) حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه ...الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله «وفارقها أرغب مايكون فيها» ودون قوله «وفارقها أزهد مايكون فيها» وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو. (١٠) حديث أم سلمة: في الجيش الذي يخسف بهم «يحشرون على نياتهم» أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم.

عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما يقتتل المقتتلون على النيات [١] » وقال عليه السلام « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيافلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله [٢] » وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على ما مات عليه [٣] » وفى حديث الأحنف عن أبى بكرة « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « لأنه أراد قتل صاحبه [٤] » وفى حديث أبى هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى أداءه فهو زان ، ومن ادان دينا وهو لاينوى قضاءه فهو سارق [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة [٦] » .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرّم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : اعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائى : البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثورى : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تنوى الخير فأنت بخير . وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلنى على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى فإنى لاأحب أن يأتى على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله ، فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإنّ الهام بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم مابين ذلك . وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولاتهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ يبكى ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا . وقال الحسن إنما خلد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بالنيات وقال أبو هريرة مكتوب فى التوراة ما أريد به وجهى فقليله كثير ، وما أريد به غيرى فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد إنّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر فى عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه ، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك

(١) حديث « إنما يقتتل المقتتلون على النيات » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ « إنما يبعث » ورويناه فى فوائد تمام بلفظ « إنما يبعث المسلمون على النيات » ولابن ماجه من حديث أبى هريرة « إنما يبعث الناس على نياتهم » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه .

(٢) حديث « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع فى الصحيحين من حديث أبى موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . (٣) حديث جابر « يبعث كل عبد على مامات عليه » رواه مسلم . (٤) حديث الأحنف عن أبى بكرة « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » متفق عليه . (٥) حديث أبى هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى أداءه فهو زان » أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة : الدين ، دون ذكر : الصداق . (٦) حديث « من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ... الحديث » أخرجه أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبى طلحة مرسلا .

فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية فى نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق .

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل (العلم) يقدمه لأنه أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختيارى فإنه لايتم إلابثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان مالايعلمه فلابد وأن يعلم ، ولايعمل مالم يرد فلابد من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض إمافى الحال أوفى المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لايبصر الغذاء ولا يعرفه لايمكنه أن يتناول ، ومن لايبصر النار لايمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهى الحواس الظاهرة والباطنة - وليس ذلك من غرضنا - ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلايكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، شهوة له باعثة عليه ، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة إليه ، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة - وأعنى به نزوعا فى نفسه إليه وتوجها فى قلبه إليه - ثم ذلك لايكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا ؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أوالظن والاعتقاد وهو أن يقوى فى نفسه كون الشىء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولابد وأن يفعل ، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء ، رة خادمة للإرادة ، والإرداة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهى الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما فى الحال وإما فى المآل . فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوى ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع ؟ وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا . فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام : فلنذكر لكل واحد مثالا واسما .

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : نيته للفرار من السبع لا نية له فى القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها ، إخلاصا ، بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته .

وأما الثانى : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شىء بمقدار من القوة كان كافيا فى الحمل لو انفرد . ومثاله فى غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة

فيقضيها الفقره وقرابته ، وعلم أنه لولافقره لـكان يقضيها بمجرّدالقرابة وأنه لو لاقرابته لـكان يقضيها بمجرّد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غنى فيرغب ، فى قضاء حاجته ، وفقير أجنبي فيرغب أيضافيه . وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لولم يكن يوم عرفة لـكان يترك الطعام حمية ، ولو لا الحمية لـكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة ، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثانى رفيق الأول . فلنسم هذا « مرافقة للبواعث »

والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولـكن قوى بمجموعهما على إنهاض القدرة . ومثاله فى المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل مالا ينفرد أحدهما به . ومثاله فى غرضنا أن يقصده قريبه الغنى فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدّق بين يدى الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء ، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب فى التصدّق عليه لـكان لا يبعثه مجرّد الرياء على العطاء ، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب . ولنسم هذا الجنس « مشاركة »

والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثانى لا يستقل . ولـكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله فى المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ، ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإنّ ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر فى تخفيفه . ومثاله فى غرضنا أن يكون للإنسان ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات فاتفق أن حضر فى وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أنّ عمله لولم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرياء يحمله عليه ، فهو شوب تطرّق إلى النية . ولنسم هذا الجنس « المعاونة »

فالباعث الثانى إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا . وسنذكر حكمها فى باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات ، فإنّ العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها وإنما الحكم للمتبوع :

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله[1] »

اعلم أنه قد يظن أنّ سبب هذا الترجيح أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل . وهذا صحيح ولـكن ليس هو المراد ؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر فى مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر ، وقد يظن أنّ سبب الترجيح أنّ النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف ، لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا فى لحظات معدودة والأعمال تدوم ، والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إنّ معناه أنّ النية بمجرّدها خير من العمل بمجرّده دون النية ، وهو كذلك ولـكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجرّدها خير ؛ وظاهر الترجيح للمشتركين فى أصل الخير ، بل المعنى أنّ كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولـكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أى لـكل واحد منهما أثر فى المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل ،

---

(١) حديث « نية المؤمن خير من عمله » أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان ، وكلاهما ضعيف ،

فمعناه : نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما ؛ فهذا معناه .

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق فى الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فمن قال : الخبز خير من الفاكهة ، فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها فى الآخرة ، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى ، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له . فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته فى الآخرة منوطة بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما . وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها . فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله فى الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع ، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق . بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبرا ودفعا فى وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحى . وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هى التى تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هى التى تراد بها الدنيا لا الآخرة . وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الامير والراعى والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد [1] » ، وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعى والرعية [2] » ، وأراد بالراعى القلب وقال الله تعالى ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

---

(١) حديث « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم .
(٢) حديث « اللهم أصلح الراعى والرعية » تقدم ولم أجده .

منكم ﴾ وهى صفة القلب . فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له .

وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأنّ طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع .

فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظنن أنّ فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب ، فإنّ من يجد فى نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة فى قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنه يمسح ثوبا ـ لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة ، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا ، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهى صفة الرياء التى هى من الميل إلى الدنيا . فهذا وجه كون النية خير من العمل .

وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأنّ هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات ، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا ، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق ف﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ والتقوى ههنا صفة القلب ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم « إنّ قوما بالمدينة قد شركونا فى جهادنا » ـ كما تقدم ذكره ـ لأنّ قلوبهم فى صدق ارادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات . وبهذه المعانى تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه ـ فهى ثلاثة أقسام : معاص وطاعات ومباحات .

(القسم الأول) المعاصى ، وهى لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أنّ المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يغتاب إنسانا مراعاة لقلب

غيره ، أو يطعم فقيرا من مال غيره ، أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام ؛ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والنية لاتؤثر فى إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية . بل قصده الخير بالشر - على خلاف مقتضى الشرع - شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ؟ هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى ؛ فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ! قيل : ياأبامحمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال ، لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم ، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل . فإن من لايعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم ؛ والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه ﴿ فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « لايعذر الجاهل على الجهل ، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ، ولا للعالم أن يسكت على علمه [1] » .

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، وانتهض كل واحد منهم فى بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرى الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله تعالى ، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة فى الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصى من أقواله وأفعاله وفى مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة فى العالم ألف سنة مثلا وألفى سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو فى الفساد فالمعصية منه لا منى وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك فى قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه : وليت شعرى ماجوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس فى سبيل الله تعالى ، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصى . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب إليه

(١) حديث « لايعذر الجاهل على الجهل ولايحل للجاهل أن يسكت على جهله . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله « لايعذر الجاهل على الجهل » وقال « لاينبغى » بدل « ولايحل » وقد تقدم فى العلم .

بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء »[١] ، فليت شعرى لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغى أن يسعى فى سلب سلاحه لاأن يمده بغيره ؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى ! فن لايزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته ؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلو رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل ، حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لايكلمه ، فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو لا يذكره ، حتى قال . بلغنى أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم . فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم . وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التى لاتشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء إليها ، بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران .

فإذن قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى ؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد ، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها - كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة .

(القسم الثانى) الطاعات . وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها . أما الأصل : فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لاغير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل : فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها[٢] ، كما ورد به الخبر .

ومثاله القعود فى المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين (أولها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال « من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره »[٣] ، (وثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى ﴿ورابطوا﴾ (وثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف - وهو فى معنى

(١) حديث « إن لله ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء » تقدم فى كتاب المحبة والشوق .

(٢) حديث : تضعيف الحسنة بعشر أمثالها ، تقدم . (٣) حديث « من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما فى الصلاة .

الصوم - وهو نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رهبانية أمتى القعود فى المساجد »[١] ، (ورابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد (وخامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى فى الخبر « من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى »[٢] ، (وسادسها) أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر ، إذ المسجد لايخلو عمن يسىء فى صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يعلم منه فتتضاعف خيراته (وسابعها) أن يستفيد أخا فى الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله (وثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله مايقتضى هتك الحرمة ، وقد قال الحسن بن على رضى الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا فى الله ، أو رحمة مستنزلة ، أو علما مستظرفا ، أوكلمة تدل على هدى ، أو تصرفه عن ردى ، أو يترك الذنوب خشية أو حياء .

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ، وإنما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له وتفكر فيه . فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات .

(القسم الثالث) المباحات : وما من شىء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ، ولا ينبغى أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصد به ؟ هذا فى مباح محض لايشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عقاب »[٣] ، وفى حديث معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه »[٤] ، وفى خبر آخر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » فاستعمال الطيب مباح ولكن لابد فيه من نية .

فإن قلت : فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله ؟ فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولأمور أخرى لاتحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة فى القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ، ومن

---

(١) حديث « رهبانية أمتى القعود فى المساجد » لم أجد له أصلا . (٢) حديث « من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى » هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه فى جزء ابن طوق والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة « من غدا إلى المسجد لايريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجه » وإسناده جيد وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح » . (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » تقدم . (٤) حديث معاذ « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه » لم أجد له إسنادا .

نوقش الحساب عذب . ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستعجل مايفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى . وأما النية الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (١) ، وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله . فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية فى شىء .

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ، ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إنى أستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى إلى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه ، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله ، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيآته وستنقل إلى ديوانه حسناته ، ولينوى ذلك بسكوته عن الجواب . ففى الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول : يارب هذه أعمال ماعملتها قط ؟ فيقال : هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك (٢) » وفى الخبر « إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة . فتقول الملائكة : قد فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من

---

(١) حديث « ان لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب ان كان عنده ولبس أحسن ثيابه ... الحديث » ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله ابن سلام « ماعلى أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » وفى اسناده اختلاف وفى الصحيحين : أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة ... الحديث » . (٢) حديث « ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة مايستوجب به الجنة ... الحديث » وفيه « هذه أعمال الذين اغتابوك ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شيث بن سعد البلوى مختصرا « ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر » وفيه ابن لهيعة .

سيآتهم ثم صكوا له صكا إلى النار [١] ، وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لى فتحرجت ثم قلت : تراب وما تراب ! فتربته فهتف بى هاتف : سيعلم من استخف بتراب جاره مايلقى غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه ، فسأله عن ذلك فقال : إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بينى وبينك الله ! فيقول : والله ما أعرفك ؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبى !

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ، وماذا تقصد ، وما الذى تنال به من الدنيا ، وما الذى يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة ، فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفى لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار

فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل فى حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم فقدموا له رغيفا ـ إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ـ فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير فى طلب المساعدة فى الطعام ، فقال : إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لأتقوى به على عملهم ، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر فى البواطن بنور الله ، فإن ضعفه عن العمل نقص فى فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص فى فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمنى حتى لعق أصابعه ثم قال : لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد ، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثانى تعريضه أخاه لما يكره لو علمه . فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته فى سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار .

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » فيقول فى نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله أو آكل لله . ويظن ذلك نية وهيهات ! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ماظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا .

والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبى ، فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب

---

(١) حديث « ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال » وفيه « ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا ... الحديث » تقدم مع اختلاف

صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قدم يقدر عليه وقد لايقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لايقدر على اعتقاده فى كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لايمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا فى الولد دينا ولادنيا لايمكنه أن يواقع على نية الولد بل لايمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية هى إجابة الباعث ولاباعث إلا الشهوة ، فكيف ينوى الولد ؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لايمكن أن ينوى بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه ، وهو حديث محض ليس بنية . نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى فى تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد ، فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا ، فإن لم يكن كذلك فما يقدره فى نفسه ويردده فى قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية ، حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال : ليس تحضرنى نية . ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى، فقالت : أجيء بالمرآة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم ، فقيل له فى ذلك فقال : كان لى فى المدرى نية ولم تحضرنى فى المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى . ومات حماد بن سليمان ـ وكان أحد علماء أهل الكوفة ـ فقيل للثورى : ألاتشهد جنازته ؟ فقال : لو كان لى نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول : إن رزقنى الله تعالى نية فعلت . وكان طاوس لايحدث إلابنية ، وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولايسئل فيبتدئ ! فقيل له فى ذلك قال . أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتنى نية فعلت . وحكى أن داود بن المحبر لما صنف : كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال : مالك ؟ قال : فيه أسانيد ضعاف ، فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت ، قال أحمد : فرده على حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا فقد انتفعت به . وقيل لطاوس : ادع لنا ! فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ قال : ليس من نيتى .

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية ، وكانوا لايرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وعلموا أن النية ليست هى قول القائل بلسانه : نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر فى بعض

---

(١) حديث « ان النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » تقدم فى آداب النكاح .

الأوقات وقد تتعذر فى بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب فى الدنيا ، وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها . ونيات الناس فى الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة فى الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه - كالأجير السوء - ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله . وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فى الجنة فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ! بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعمى أكثر القلوب عن ابصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت اليه ، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ﴿ ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم ﴾ . حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام فقال له : كل الناس يطلبون منى الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبنى ، ورأى أبو يزيد ربه فى المنام فقال : يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال إلى . ورؤى الشبلى بعد موته فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد : قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟ فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى .

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإنا نقول : من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات . وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل . ومثل أن يكون له نية فى الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات فى المستقبل وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له . بل لو مل العبادة

لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسى بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق . وقال على كرم الله وجهه : روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت . وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر فى الطب وإنما يبتغى به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد ، والحاذق فى لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة ، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه . وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدى قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكرّ عليه فيقهره . فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى للمريد أن يضمر إنكارا على مايراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغى أن يقف عند حدّ بصيرته ومالا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

الباب الثانى : فى الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخــــلاص

قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وقال تعالى ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله (١) » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظنّ أبى أنّ له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم (٢) » وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى (٣) » وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يجزك منه القليل (٤) » وقال عليه السلام « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه (٥) »

الباب الثانى فى الإخلاص

(١) حديث « ثلاث لايغل عليهن قلب رجل مسلم : اخلاص العمل لله » أخرجه الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير .
(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه : أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم «انما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم» رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ « هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم » . (٣) حديث الحسن مرسلا « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته : سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبي طالب بسند ضعيف . (٤) حديث أنه قال لمعاذ « أخلص العمل يجزك منه القليل » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع. (٥) حديث «مامن عبد يخلص لله أربعين يوما » أخرجه ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن أبى موسى وقد تقدم .

وقال عليه الصلاة والسلام « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول : يارب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول : يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك . ورجل قتل فى سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول ، يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك ، قال أبو هريرة ، ثم خبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذى وقال « يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة [1] » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآية

وفى الإسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا : إنّ ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى ، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة ، قال : وماأنت وذاك ! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك ! فقال : إنّ هذا من عبادتى ، قال : فإنى لا أتركك أن تقطعها ، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس : أطلقنى حتى أكلمك ، فقام عنه فقال إبليس : ياهذا إنّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ! وما تعبدها أنت وماعليك من غيرك ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ! فقال العابد لا بدّ لى من قطعها ، فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له : هل لك فى أمر فصل بينى وبينك وهو خير لك وأنفع ؟ قال : وما هو ؟ قال : أطلقنى حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس : أنت رجل فقير لا شىء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس ! قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر ولك علىّ أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها ! فتفكر العابد فيما قال وقال : صدق الشيخ ! لست بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة ولا أمرنى الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ، ثم أصبح اليوم الثالث ومابعده فلم ير شيئا . فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له : إلى أين ؟ قال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها ، قال : فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال : هيهات ، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال : لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك ؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به ، قال : يا هذا غلبتنى فخل عنى وأخبرنى كيف غلبتك أولا وغلبتنى الآن ؟ فقال : لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرنى الله لك ، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

(١) حديث « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم ... الحديث » قد تقدم .

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول · يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختيانى ، تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صفى له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم فى المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك فقال : كل شىء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها فى كفة الحسنات ، وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته فى كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لى قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت : موت سنور فى كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها ؟ فقيل لى : إنه قد وجه حيث بعثت به ، فإنه لما قيل لك : قدمات ، قلت : فى لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : فى سبيل الله ، لوجدته فى حسناتك . وفى رواية قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبنى نظرهم إلى فوجدت ذلك لا علىّ ولا لى . قال سفيان ـ لما سمع هذا ـ ما أحسن حاله ؟ إذلم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ ، الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم . وقيل : كان رجل يخرج فى زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبى عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمر به بعض إخوانه من الأبدال فساره بشىء فقال أبو عبيد : لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عينى ، فقلت لأبى عبيد : ماقال لك ؟ فقال : سألنى أن أحج معه ، قلت : لا ، قلت : فهلا فعلت ؟ قال : ليس لى فى الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأنى أدخل فى عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندى من سبعين حجة . ويروى عن بعضهم قال : غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت أشتريها فأنتفع بها فى غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها ، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : اكتب الغزاة ، فأملى عليه ، خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان فى سبيل الله ، ثم نظر إلى وقال : اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت . الله الله فى أمرى ! ما خرجت أتجر وما معى تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو ، فقال : ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت : لا تكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى ؟ فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين فى خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أوسبعمائة بعلو وقال بعضهم : فى إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز . ويقال : العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص . وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا ، أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم ، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه

الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إنّ لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل . فإذن أنت سعدت بهذين وفزت فى الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنّ كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ، ويسمى الفعل المصفى المخلص : إخلاصا . قال الله تعالى ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية . والشرك - منه خفى ومنه جلى وكذا الإخلاص . والإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات . وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوى ، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك - ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات - وأقل أموره ما ورد فى الخبر من « إن المرائى يدعى يوم القيامة بأربع أسام : يامرائى ياخادع يامشرك ياكافر [1] » .

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أو ليهرب عن عدو له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما . أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها . أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع . أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث . أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا فى الدنيا . أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه . أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء . أو توضأ ليتنظف أو يتبرد . أو اغتسل لتطيب رائحته . أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن . أو صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى

(١) حديث : « ان المرائى يدعى يوم القيامة : يامرائى ياخادع ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب النية والإخلاص وقد تقدم .

ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشركة» وبالجملة، كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب - قل أم كثر - إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون فى رتبة الموافقة أو فى رتبة المشاركة أو فى رتبة المعاونة - كما سبق فى النية - وبالجملة؛ فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر - كما سنذكره - وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا، بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى. فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص فى الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا، فالذى يغلب على نفسه: الدنيا والعلو والرياسة - وبالجملة غير الله - فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا. فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى، فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان يسرنى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر. وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى ﴿وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ وبقوله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه،

وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لايخليه ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده . وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لوكان ذلك لكان مذموما . لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع مافيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر . فما بال العلماء لايفرحون بمثل ذلك ؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد . وذلك لايعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها ، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لايشعر .

بيان أقاويل الشيوخ فى الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص . وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تعرض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض ، وفى معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل : أى شىء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم : الإخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين . وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا . والعابد لأجل التنعم بالشهوات فى الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو فى طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لايتحرك الإنسان إلا لحظ ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال : هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه ؛ فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية

الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط . وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص فى العمل أن لايطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ؛ فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص مااستتر عن الخلق وصفا عن العلائق . وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبى : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة إلى مجرد نفى الرياء . وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذى يعمل لله تعالى لايحب أن يحمده عليه أحد . وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجنيد : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها . وهذا هو البيان الكامل والأقاويل فى هذا كثيرة ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال « أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت [1] » أى لاتعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ، ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا .

فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته ؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ! فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ؛ وهذا هو الرياء الظاهر ؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين .

الدرجة الثانية : يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر فى صلاته كما كان . فيأتيه فى معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت ،فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة ! وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ؟ فهذا محض التلبيس ، بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه

(١) حديث : سئل عن الإخلاص فقال « أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أمرت » لم أره بهذا اللفظ والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال « قل ربى الله ثم استقم » وهو عند مسلم بلفظ : قل لى فى الإسلام قولا لاأسأل عنه أحدا بعدك قال « قل آمنت بالله ثم استقم » .

فأما هـذا فمحض النفاق والتلبيس ، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به .

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها ، أن يجرب العبد نفسه فى ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ، ويصلى فى الملأ أيضا كذلك . فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفاته فى الخلوة والملأ إلى الخلق . بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيي من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلا والملا وهيهات ! بل زوال ذلك بأن لايلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات فى الخلا والملأ جميعا ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملا والخلا جميعا ، وهذا من المكايد الخفية للشيطان .

الدرجة الرابعة : وهى أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان : تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة كما يألفه فى الملأ ، ولايكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر كما لايكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفى من الرياء ، وهذا الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء [1] ، كما ورد فى الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لايغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات حتى فى كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن فى أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغى أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية ،أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه ، ومالا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يتعكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخفى فى سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك فى ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر ، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمرى الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة . فمنها مايغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه . ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير . وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا .

---

(١) حديث « الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة » تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء .

ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف فى نفسه ، وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغِرّ الغبى . فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم . ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا ، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة فى التفصيل .

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أنّ العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أوحظوظ النفس فقد اختلف الناس فى أنّ ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لايقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه ؟ أما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر فى المشوب ، وظاهر الأخبار تدل على أنه لاثواب له [1] ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه . والذى ينقدح لنا فيه ـ والعلم عند الله ـ أن ينظر إلى قدر قوة الباعث . فإن كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب . نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب . وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ولقوله تعالى ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شىء من عقوبة القصد الفاسد . وكشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها . فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها . فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما . فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته ، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو إبعاده ، فإذا جاء بما يقربه شبرا مع مايبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان

---

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لاثواب له قال : وليس تخلو الأخبار عن تعارض رواه أبو داود من حديث أبى هريرة : أن رجلا قال يارسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاأجر له ... الحديث » وللنسائى من حديث أبى أمامة بإسناد حسن : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال « لاشىء له » فأعادها ـ ثلاث مرات ـ يقول « لا شىء له » ثم قال « إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » وللترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبى هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال « له أجران أجر السر وأجر العلانية » وقد تقدم فى ذم الجاه والرياء .

فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان العمل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ، وقدقال النبي صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها »[١] ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بدّ وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما . وعندي : أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم . بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوى هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب . نعم لا يساوى ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا ؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب ، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف ـ أو قال يتصدّق ـ فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ [٢] وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أدنى الرياء شرك »[٣] ، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له »[٤] ، وروى عن عبادة « أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملا فأشرك معي غيرى ودعت نصيبي لشريكي » ، وروى أبو موسى : أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[٥] ، وقال عمر رضى الله عنه : تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له »[٦] ، ؟ فنقول : هذه الأحاديث لا تناقض ماذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله « من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا » ، وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها ، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له

(١) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » تقدم في رياضة النفس وفي التوبة . (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف ـ أو قال يتصدق ـ فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

(٣) حديث معاذ « أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم . (٤) حديث أبي هريرة « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له » تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة « من عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشريكه » وفي رواية مالك في الموطأ « فهو له كله » . (٥) حديث أبي موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » تقدم فيه . (٦) حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له » تقدم في الباب الذي قبله .

ولا عليه ، فلا ينبغى أن يرجى عليه ثواب . ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا فى خطر فإنه لايدرى أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ أى لايرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ، ويجوز أن يقال أيضاً : منصب الشهادة لاينال إلا بالإخلاص فى الغزو . وبعيد أن يقال : من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو ـ وإن لم يكن غنيمة ـ وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء ـ لإعلاء كلمة الله وللغنيمة ـ لاثواب له على غزوه ألبتة ، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لاينفك الإنسان عنها إلا على الندور ، فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب ، فأما أن يكون فى إحباطه فلا . نعم الإنسان فيه على خطرعظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء . فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط ، فلذلك ينبغى أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها . وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر ، وهكذا ينبغى أن يكون كل ذى بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه الله : لاأعتد بما ظهر من عملى . وقال عبد العزيز بن أبى رواد . جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شىء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ، ليته لا لى ولا على . ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لايفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله فتكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوما ـ يريد إخلاص الحركات ـ فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها ، فقال أبو سعيد : لاتفعل إذ الإخلاص لايقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل ؟ وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك .

الباب الثالث : فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضـــيلة الصدق

قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا [1] » ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال

الباب الثالث فى الصدق

(١) حديث « إن الصدق يهدى إلى البر ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

﴿ واذكر فى الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح : الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر ابن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس . وقال أبو عبدالله الرملى رأيت منصورا الدينورى فى المنام فقلت له : مافعل الله بك ؟ قال : غفرلى ورحمنى وأعطانى مالم أؤمل ، فقلت له : أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق وأقبح ماتوجه به الكذب . وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : مارأيت صادقا ! فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد بن على الكتانى قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان ؛ على الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثورى فى قوله تعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته . وصاح رجل فى مجلس الشبلى ورمى نفسه فى دجلة ، فقال الشبلى : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ـ ولا يتم بعضها إلا ببعض ـ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى فى الأعمال ، وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بنى إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها : لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا غنى أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شىء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق . وقيل لذى النون : هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه ؟ فقال : الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل : زدنا ، فقال : التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال « قول الحق والعمل بالصدق [1] » وعن الجنيد فى قوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ،

---

(١) حديث ابن عباس : سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ .

وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة فى الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شىء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . (الصدق الأول) صدق اللسان وذلك لا يكون إلا فى الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان :

(أحدهما) الاحتراز عن المعاريض ؛ فقد قيل : فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشىء على خلاف ما هو عليه فى نفسه ، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره[1] « وذلك كى لا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب فى شىء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا [2] » ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ما حكى عن بعضهم ، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته : خطى بأصبعك دائرة وضعى الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا ، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس فى الدار . فالكمال الأول فى اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة (والكمال الثانى) أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ﴾ فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب . وكقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ وقوله : أنا عبدالله ، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ، ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله : أنا عبد الله ، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله . وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام : ياعبيد الدنيا ! وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة[3] » فسمى كل من تقيد قلبه بشىء عبدا له .

وإنما العبد الحق ـ لله عز وجل ـ من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا ، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد

---

(١) حديث : كان إذا أراد سفرا ورى بغيره : متفق عليه من حديث كعب بن مالك . (٢) حديث « ليس بكاذب من أصلح بين الناس . . . الحديث » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وقد تقدم . (٣) حديث « تعس عبد الدينار . . . الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

إلا الله تعالى ، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا . وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى ، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض ، بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى . فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى ، وماقبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا : فهذا هو معنى الصدق فى القول .

(الصدق الثانى) فى النية والإرادة ؛ ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا - كما روينا فى فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم [1] - فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد . وكذلك قول الله تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر . وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب فى دلالته بقرينة الحال على ما فى قلبه ، فإنه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا .

(الصدق الثالث) صدق العزم ؛ فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه . إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه - أو بشطره ، أو إن لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى . والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد : بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر - رضى الله عنه - فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبى بكر الصديق .

(الصدق الرابع) فى الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم

(١) « حديث الثلاثة : حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت ... الحديث » تقدم .

والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ماأصنع ! قال : فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال . ياأبا عمرو إلى أين ؟ فقال : واها لريح الجنة ! إنى أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون مابين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر : ماعرفت أخى إلا بثيابه ، فنزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [١] ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير - وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر ﴾ [٢] وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا »ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته - قال الراوى : فلاأدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - « ورجل جيد الإيمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الرابعة [٣] » وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ وقال بعضهم : إنما هو شىء نووه فى أنفسهم لم يتكلموا به فقال ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا . وهذا الصدق أشدّ من الصدق الثالث ، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلاأن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا أجده الآن لأنى لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم . وقال أبو سعيد الخراز : رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لى : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

(الصدق الخامس) فى الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لايتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن

---

(١) حديث أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول (رجال صدقوا) الآية أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا ان هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر . (٢) حديث : وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية . أخرجه أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا . (٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن .

المرائى هو الذى يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرائيا إياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة [1] » وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا :

إذا السر والإعلان فى المؤمن استوى ... فقد عزّ فى الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق ... ومغشوشه المردود لايقتضى المنا

وقال عطية بن عبدالغافر : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا . وقال معاوية بن قرة : من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار . وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشىء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شىء كان من أترك الناس له . ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة - ويبكى . وقال أبو يعقوب النهرجورى : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية .

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق .

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشىء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه، كما يقال : فلان صدق القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هى الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له : سألناك عن الإيمان ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية [2] .

ولنضرب للخوف مثلا : فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ،

---

(١) حديث « اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى ... » الحديث ، تقدم ولم أجده . (٢) حديث أبى ذر : سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ رواه محمد بن نصر المروزى فى تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له اسنادا .

ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة ، أما تراه إذا خاف ، سلطانا أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره ، حتى لا ينتفع بأهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها [١] » فالتحقيق فى هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقا فيه . فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك ، فقال لا تطيق ذلك قال ، بل أرنى ، فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق - يعنى جوانب السماء - فوقع النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ماظننت أن أحدا من خلق الله هكذا » قال : وكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع [٢] يعنى كالعصفور الصغير ، فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد ؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى [٣] » يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير ، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله . وقال مطرف : ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير [٤] » فالصادق إذن فى جميع هذه المقامات عزيز . ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ؛ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها ، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبى عليه السلام . فهذا صدق فى هذه الأمور ، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ؟ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه . والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى نعم قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة ؛ صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ وصدق الطاعة لأهل العلم

---

(١) حديث « لم أر مثل النار نام هاربها الحديث » تقدم . (٢) حديث : قال لجبريل « أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك » فقال : لا تطيق ذلك ... الحديث . تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا ، والذى ثبت فى الصحيح أنه رأى جبريل فى صورته مرتين . (٣) حديث « مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله ... الحديث » أخرجه محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن محمد بن عمير بن عطارد وهذا مرسل . (٤) حديث « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر الى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير » لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع .

والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض ـ وكل هذا يدور على ماذكرناه فى الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام ـ وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لاتختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى ﴿ هو اجتباكم ﴾ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إنى إذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لاتقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا ، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولاأبالى . فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة ، والحمد لله .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت ، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت ، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ماتيسرت ، فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون

فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة . فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة : المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله ، وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم يرمنها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه فى أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير . ولذلك قيل :

أشد الغم عندى فى سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل . فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته . فيقول للنفس : مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنسأ فى أجلى وأنعم على به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبى

أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى يانفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه [1] » وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حسرة وغبنا . وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لاتفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته .

ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لا سيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة فى الكلام وغير ذلك ـ مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله ـ مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لايحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر : فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (وأما البطن) فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال

كتاب المحاسبة والمراقبة

(١) حديث « ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته ... » الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة . ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها . هكذا يشرط عليها فى جميع الأعضاء . واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعاتها .

ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة ، ثم النوافل التى يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاعت فى بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقى ، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه فى ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد : فإن النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ . فهذا وما يجرى مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى ﴿ واعلموا أنّ الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ﴾ وهذا للمستقبل . وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه فى المستقبل . وروى عبادة بن الصامت : أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه [1] » . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شدّاد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [2] » دان نفسه : أى حاسبها . ويوم الدين : يوم الحساب . وقوله ﴿ أئنا لمدينون ﴾ أى لمحاسبون . وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر : وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدّة . وقال لكعب : كيف تجدها فى كتاب الله؟ قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء ؛ فعلاه بالدرّة وقال : إلا من حاسب نفسه ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها فى التوراة مابينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت . ومعناه : وزن الأمور أوّلا وقدّرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

المرابطة الثانية : المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ماذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها

---

(١) حديث عبادة بن الصامت « اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ... الحديث » تقدم .
(٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » تقدم .

بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه [١] » وقال عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [٢] » وقد قال تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وقال الله تعالى ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى ؛ فسأله عن تفسيره فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل مايلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصلين ؛ أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص ، إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده ، فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعا لايراني فيه أحد إذ الله مطلع علي في كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حق لك أن تكرم . وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ! وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال : ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت : فأين مكوكبها ؟ وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل . وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة ، قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل وإنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الله تعالى . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة . ويروى أن الله تعالى قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لاتنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لاتستغني عنه واجعل خضوعك لمن لاتخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ فقال معناه . ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده وسئل ذوالنون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب

---

(١) حديث : سأل جبريل عن الإحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « اعبد الله كأنك تراه ... الحديث » تقدم .

له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على : عظنى ، فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثورى عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة وقال فرقد السنجى إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال إنى مملوك ، فقال قل لسيدك أكلها الذئب ؟ قال فأين الله ؟ قال فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب . أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه . وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا ـ أعنى أنها خلت عن الشك ـ ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته ؛ فرب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فراقبتهم على درجتين .

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين ؛ وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه مراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد . بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى ، والقلب هو الراعى ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم . ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لاصمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى فحركنى . ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص

الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لعبد الواحد ابن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة ! فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال من موضع كذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام : أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم . فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله تعالى أشهى ! فقلت وحدك ؟ فقال : معى ربى وملكاى ! فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شىء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى ـ المعروف بالزاهد ـ إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ؟ فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شىء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما على السلام ! فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا ؛ قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى ، فلما كان وقت العصر قلت : عظنى ! فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة ، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا ، فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى : أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما ، فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك ، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله ، والسلام ؛ قم عنا ! فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ؛ فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء ، فإن

مشاهدته وإن كانت لاتدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى .

ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ، ونظر فى العمل (أما قبل العمل) فلينظر أن ماظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لامحيص لأحد عنه ، فإن فى الخبر : إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأول : لم ؟ والثانى كيف ؟ والثالث: لمن؟ [١] ومعنى « لم » أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له : كيف فعلت هذا ؟ فإن لله فى كل عمل شرطا وحكما لايدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له : كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له . لمن عملت ألوجه الله خالصا وفاء بقولك « لا إله إلا الله » فيكون أجرك على الله ؟ أو لمراءاة خلق مثلك لخذ أجرك منه ؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك ؟ وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أماسمعتنى أقول ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ ويحك أماسمعتنى أقول ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ « إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فتّه الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه [٢] » وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر . وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عند همك إذا هممت [٣] » وقال محمد بن على : إنّ المؤمن وقاف متأنّ يقف عند همه ليس كحاطب ليل . فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته ، فلايسلم فى هذه المراقبة . بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظنن أنّ الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات ! بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم

---

(١) حديث « ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وان صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن » لم أقف له على أصل .

(٢) حديث : قال لمعاذ « ان الرجل ليسأل عن كحل عينيه ... الحديث » تقدم فى الذى قبله . (٣) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن : اتق الله عند همك اذا هممت » أخرجه أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم .

أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك ، والجاهل لايعرفه فكيف يحترز منه ؟ فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران . فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطوة الأولى فى الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ؛ والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ماوراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى ، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضىء بنور علماء الدين ، وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لاتسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهى شهوات الدنيا ؟ فلتكن همة المريد أولا فى أحكام العلم ، أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات [1] » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات . ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا [2] » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ماقصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت [3] » ، ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهه بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ ولاتقف ماليس لك به علم [4] ﴾ وقوله عليه السلام « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث [5] » ، وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه : اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولاتجعله متشابها على فأتبع الهوى وقال عيسى عليه

(١) حديث « ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ... الحديث» أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعفه الجمهور . (٢) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا » تقدم ولم أجده .
(٣) حديث « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت» لم أجده . (٤) حديث « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ... الحديث » تقدم . (٥) حديث « اياكم والظن ... الحديث » تقدم .

السلام « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه [١] » وقد كان من دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم [٢] » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وأراد به العلم وقال تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن علينا للهدى ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفى الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرا التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك ، واستدل على مالم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله « ومن التوفيق التوقف عند الحيرة » فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف فى الله لومة لائم ، ولا يرائى بشىء من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا [٣] » وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه [٤] » .

النظر الثانى للمرقبة عند الشروع فى العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه ، وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم « خير المجالس ما استقبل به القبلة [٥] » ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه ، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينام . فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة - مع سائر الآداب التى ذكرناها فى موضعها - فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة .

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة ، أو فى معصية ، أوفى مباح .

فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات .

---

(٢) حديث « قال عيسى الأمور ثلاثة ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم » لم أجده . (٣) حديث « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » تقدم . (٥) حديث « خير المجالس ما استقبل به القبلة » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم .

وإن كان فى معصية فراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر .

وإن كان فى مباح فراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابدّ له من الصبر عليها ونعمة لابدّ له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لاينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لابدّ من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإنّ من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة . فإنّ الساعات ثلاث : ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية . وساعة مستقبلة لم تأت بعد لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها ؟ وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه . فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لايدرى ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على مارواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام « لايكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم [1] » ، وما روى عنه أيضا فى معناه « وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب [2] » فإن فى هذه الساعة عونا له على بقية الساعات . ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ـ كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر ـ وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل مايتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله فى النظر منه إلى

---

(١) حديث أبى ذر « لايكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ... الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه صلى الله عليه وسلم قال إنه فى صحف موسى وقد تقدم . (٢) حديث « وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى ربه .. الحديث » وهى بقية حديث أبى ذر الذى قبله .

الصانع بجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على مافاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر [١] » فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول .

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفى الخبر : أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصنى فقال « أمستوص أنت ؟ » فقال نعم ، قال « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه » وفى الخبر وينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة [٢] » وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وعن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم؟ وعن ميمون ابن مهران أنه قال لايكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ، ثم قال لها كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز على من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبى طلحة حين شغله الطائر فى صلاته ـ فتدبر ذلك ـ فجعل حائطه صدقة لله تعالى ، ندما ورجاء للعوض مما فاته [٣] .

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له ياأبا يوسف قد كان فى بنيك وغلمانك مايكفونك هذا ، فقال أردت أن أجرب نفسى هل تنكره ؟ وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات حيل بينى وبينك ! وهذا حساب قبل العمل ، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا ؟ والله لاأعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله ! وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول ـ وبينى وبينه جدار ـ وهو فى الحائط : عمر

---

(١) حديث « لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة » تقدم غير مرة . (٣) حديث أبى طلحة : حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة . تقدم غير مرة .

ابن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك . وقال الحسن فى قوله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ قال : لايلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه : ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدما لايعاتب نفسه. وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ، ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح . وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسى يانفس أى شىء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا ! قلت : فأنت فى الأمنية فاعملى . وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكانى . وحكى صاحب للأحنف ابن قيس قال : كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل ، الدعاء ، وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : ياحنيف ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟ ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟ .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ـ كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمارة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به مافرط ـ كما يصنع التاجر بشريكه ـ وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شىء منها فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس . وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها : فبالغرامة والضمان ، وبعضها : برد عينه . وبعضها

بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ،فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة - كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه ؛ فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال ياويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلا يقول ياله ركضة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ؛ ولو رمى العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ .

المرابطة الرابعة

فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغى أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغى أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ! رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود فى صومعتى لا يكون والله ذلك أبدا ! فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت ؛ فشكر الله له ذلك وأنزل فى بعض كتبه ذكره . ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبى يقول : أصابتنى ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة ، فوجدت فى نفسى تأخرا وتقصيرا فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسى فقلت : واعجبا أنا أعامل الله فى طول عمرى فيجب له على حق فلا أجد فى المسارعة وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه ! وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها فى الشمس ، ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال: إنك للحاظة إلى مايضرك . ونظر بعضهم نظرة واحدة امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ؟ لأعاقبنك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر فقلنا : إنه نائم ، فقال : أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفا فأتبعناه رسولا وقلنا له: ألا نوقظه لك ! فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء ! وما يدريك أن هذا ليس وقت

نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله على عهدا لا أنقضه أبدا ! لا أوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل أو لعقل زائل ، سوأة لك أما تستحيين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لا تنتهين ؟ قال : وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ؛ فقام سنة لم ينم فيها ، عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوقى ! ونار جهنم أشد حرا ! أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتنى نفسى ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة » ثم قال لأصحابه « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له : يافلان ادع لى ! يافلان ادع لى فقال ! النبى صلى الله عليه وسلم « عمهم » فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم سدده » فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مآبهم [1] وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها ؟ ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات ـ وهو فى بيته على التراب ـ فقال : ياداود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبة : أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك ! فنزل إليه ملك وقال : ياابن آدم ؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس : كنا فى غزاة لنا فحضر العدو ، فصيح فى الناس فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك ! فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان فى موضعه ، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل ، فو الله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا ، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة : لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم ؟ وعن مجمع : أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه : ويحك ! إنما أريد بك الخير . ورأى محمد بن بشر داود الطائى ، وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ! فقال له : لو أكلته بملح ! فقال : إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحا مادام فى الدنيا .

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل

---

(١) حديث طلحة : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه : ونار جهنم أشد حرا ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو معضل ، ولا أدرى من طلحة هذا .

نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصدق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت : إن كانت نفسى لاتطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : سبيلك فى ذلك أن تسمعها ماورد فى الأخبار من فضل المجتهدين [1] ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لايقتدى بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ! ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل مايشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك .

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم مايحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى [2] » قال الحسن : أجهدتهم العبادة ! قال الله تعالى ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ قال الحسن : يعملون ماعملوا من أعمال البر ويخافون أن لاينجيهم ذلك من عذاب الله ! وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله [3] » ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة : مابال عبادى مجتهدين ، فيقولون : إلهنا خوفتهم شيئا فخافوه وشوقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه ! فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا ، وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت

---

(١) الأخبار الواردة فى حق المجتهدين أخرجها أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » وله وللنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته » وللترمذى من حديث بلال « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ... الحديث » وقال غريب ولايصح وقد تقدم فى الأوراد مع غيره من الأخبار فى ذلك .

(٢) حديث « رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وما بمرضى » لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع لالكن رواه أحمد فى الزهد موقوفا على على فى كلام له قال فيه : ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض . (٣) حديث « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن بسر وفيه بقية رواه بصيغة « عن » وهو مدلس وللترمذى من حديث أبى بكرة « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح وقد تقدم

طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطئونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم ، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يافتى ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : ياأمير المؤمنين أسقام وأمراض ، فقال : سألتك بالله إلا صدقتنى ! فقال : ياأمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عند ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له فى ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن فى سقف بيتك جذعا مكسورا فقال : يا ابن أخى إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ! فقيل له فى ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة ! وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا ؟ فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة ، حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ! وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فأذن لى أن أصلى فى قبرى . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السرى ! أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعا إلا فى علة الموت . وقال الحارث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون ، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ؟ فبكى القوم عن آخرهم . وعن أبى محمد المغازلى قال : جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجليه ، فعبر عليه أبو بكر الكتانى فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطنى فأعانني على ظاهرى ، فأطرق الكتانى ومشى مفكرا . وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه

يبكى ـ حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ـ فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة ! فقلت : ولم بالله يافتح بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتنى بالله ماأخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفى عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لى الدموع ؟ قال : فرأيته بعد موته فى المنام فقلت : ماصنع الله بك ؟ قال : غفر لى . فقلت له : فماذا صنع فى دموعك ؟ فقال : قربنى ربى عز وجل وقال لى : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت : يارب على تخلفى عن واجب حقك ، فقال : والدم على ماذا ؟ فقلت على دموعى أن لا تصح لى ، فقال لى يافتح ما أردت بهذا كله ، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك مافيها خطيئة . وقيل إنّ قوما أرادوا سفرا لحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد ، فقالوا يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار ان يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخلق غدا عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم ، فقالوا أوصنا ، فقال تزودوا على قدر سفركم فإنّ خير الزاد مابلغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته ياراهب فلم يجبنى فناديته الثانية فلم يجبنى فناديته الثالثة فأشرف على وقال ياهذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله فى سمائه وعظمه فى كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ! فقلت ياراهب فما الذى قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه وقيل لداود الطائى لو سرحت لحيتك فقال إنى إذن لفارغ . وكان أويس القرنى يقول هذه ليلة الركوع فيحيى الليل كله فى ركعة ، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيى الليل كله فى سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لايتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك ! قال الرفق أطلب ! دعينى أتعب قليلا وأتنعم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وكان سفيان الثورى يقول عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى . وقال عبد الله بن داود كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لاينام طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومى يا مأوى كل شر ! فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول ذهب نصف عملى . وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له يا أبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول يابنتاه إنّ أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يابنى لعلك قتلت قتيلا ! قال نعم ياأماه، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك ، فيقول : ياأماه هى نفسى . وعن عمر ـ ابن أخت بشر بن الحارث ـ قال سمعت خالى بشر بن الحارث يقول لأمى ، ياأختى جوفى وخواصرى تضرب على ، فقالت له أمى يا أخى أتأذن لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ! فقال لها ويحك ! أخاف أن يقول أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى إيش

أقول له . فبكت أمى وبكى معهما وبكيت معهم . قال عمر : ورأت أمى ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمى : ياأخى ليت أمك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك ! فسمعته يقول لها وأنا فليت أمى لم تلدنى وإذ ولدتنى لم يدر ثديها على . قال عمر وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع . أتيت أويسا فوجدته جالسا حتى صلى الفجر ، ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا تشبع ! فقلت حسبى هذا منه ، ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال ياأبا عبدالله مالى أراك كأنك مريض ؟ فقال وما لأويس أن لايكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم ابن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فحاك ذلك فى صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا وفى أودية النار أحيانا فهل فى ذلك نوم . وقال ثابت البنانى أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لايضع جنبه على فراش ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لايعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة . وعن أبى بكر المطوعى قال كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة - شك الراوى ، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جادت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لاتسكت لعلك يابنى أصبت نفسا لعلك قتلت قتيلا ؟ فيقول ياأمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر ابن عبدالله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول مارأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين - يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومى فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لامنى فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتى وكان يقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما

حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى . وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها أسلم عليها ، فغدوت يوما إليها فإذا هى تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ وتبكى وتدعو وتردد الآية ، فقمت حتى مللت وهى كما هى ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت : أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو . وقال محمد بن إسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن ابن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين ، وقيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى ، وتميتنى ولا تعلمنى ، وخلقت معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ، ثم قلت لى : استمسك ، إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى ؟ إلهى فى الدنيا الهموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح ؟ وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة ، قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح ! وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب - وكان له أهل وبنات - وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم الظاهر مناديل ، مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ إلى قوله ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه ، فقلت : وا أسفاه هذا لشقائى . ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال : لك خشعت قلوب الخائفين وإليك

فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا ومالدنيا ومالى ؟ عليك يادنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك ! إلى محبيك فاذهبي ! وإياهم فاخدعى ! ثم قال : أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة ، فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون ، فناديته : ياعبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك ! فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه؟ وبقيت آثامه ؟ ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها عنى ساعة وقرأ ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشيا عليه ! فقلت : قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم افاق وهو يقول : من أنا ، ماخطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ! وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك ! فقلت له : بالذى ترجوه لنفسك ! وتثق به إلا كلمتنى ! فقال : عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أو بقته ذنوبه ، إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى فلم يجد عونا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك ؟ فإليك عنى يامخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى ! وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ويتفضل على برحمته . قال : فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا ! فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها ، فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى : ياهذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجه فاتبعته فسمعته وهو يقول ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ اللهم بارك لى فى الموت ، فقلت : وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ، ثم قال : يامن لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذلك التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ، ثم مضى وتركنى . وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته : أغثنى ياعمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا :

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حال حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا ... ويظهر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى ... من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له : قد أجهدت نفسك ! فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل : خمسون ألف سنة ، فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ؟ يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت

سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا ، فكيف وعمرك قصير والآخرة لاغاية لها ؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها . فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر فى الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط فى سلك الحمق وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء .

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لايطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها : يانفس لاتستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها ! ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات ؛ فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنا أم رددتها على فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ماأبقيتنى ، وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع فى نفسى من جودك وكرمك . ويروى عن عجزة أنها كانت تحيى الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين فى درجة المقربين وأن تلحقنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لاتزال تدعو وتبكى إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ماتصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لى : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك ، قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ماتريدين ؟ قال فبكت ثم قالت والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دما حتى لاتبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء وأنى لى بالبكاء . فلم تزل تردد « وأنى لى بالبكاء » حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لى قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها ! فقلت ومن هذه المرأة ؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختى والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت : يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك ؟ قالت فتبسمت إلى وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين ألزمى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولايضرك متى مت

وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول بحبك لى إلا ماغفرت لى ذنوبى ، فقلت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك ، فقالت : يامولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض

ديارنا ، قال : فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لى : أشرف على هذه المرأة ، ماذا تصنع قال : فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل ، وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هى امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت ؟ غير فزعة منى ، فقلت : رجل غريب ، فقالت : ياهذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال : فبكيت لقولها فقالت : ما الذى أبكاك ؟ فقلت : قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه ، قالت : فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت يرحمك الله والصادق لا يبكى ؟ قالت لا ، قلت ولم ذاك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن على استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول اللهم إنى أعوذ بك من جاء يشغلنى عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعى لنا ، فقالت جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ، ثم قالت لنا مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فأصابه فتق فى بطنه ، فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ! وياليتها إذا عصت لم تعد ! وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك ، قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع ، فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت يامولاى لا تعجل على إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكرا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع ! فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران ، وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما . وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يابريرة كيف أصبحت ! قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب ، فقلنا لها ماهذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ؟ فقالت إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما فى الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ؟ ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شيء غير ما نحن فيه وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح : وقال أبو سليمان الدارانى بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شعوانة تقول فى دعائها إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ؛ فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهى قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى

ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه ، إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجميل فى حياتى ، إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن محبتى لك قد أجارتنى فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله ، إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فتمتعنى بما له هديتنى وأدم لى مابه سترتنى ، إلهى ماأظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى ، إلهى لولا ماقارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ماعرفت من كرمك مارجوت ثوابك ، وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت ـ وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر ، قال : فشهقت ثم قالت : علمى بنفسى قرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئاً مذكورا ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك على سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجرى عليك إلا مايجرى عليهم والمصيبة إذا عمت طابت ـ فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال : وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك : أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك ، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لايتمادى إلا ساعة فكيف لاتهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لاتترك معاتبتها وتوبيخها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المرابطة السادسة : فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس إلا فاستحى منى ، وقال تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها : يانفس ماأعظم جهلك تدعين الحكمة

والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ! أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريباً ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لايأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ويحك يانفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ، ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ! جربي نفسك ! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال في أمر الآخرة ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يانفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات ! أتحسبين أنك تتركين سدى ! ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك ! أما تتفكرين أنه مما ذا خلقك ؛ من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله . ثم إذا شاء أنشرك ؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرك ولو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة

الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ! أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه ! ما هذا أفعال العقلاء ! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ! ثم هبي أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده ، أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين : غدا غدا ؛ فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته ؟ أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الأمس لا بل الذى تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا ، فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب . بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك ! إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات . وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته . وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى . أما الكفر الخفى : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلى : فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك — مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها

من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل . وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

ويحك يانفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها ، يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدّة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدّة والبرودة ؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات ! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ، كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين . ويحك يانفس انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ و ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده ﴾ و ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لامحالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها إلا المجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ماشئت فإنك ميت[1] » . ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لا يدرى ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون : يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا . أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء

(١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث » تقدم فى العلم وغيره .

والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء . يانفس ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك ، عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لامعنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك . أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ فكيف تبيعين يانفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يانفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فمالك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها ؟ أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! فبادرى ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك ؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزيينن ظاهرك للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك ! ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصى ! ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير

مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ! ما أنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ! فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لايبلغه فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟ فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظرى يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، اعملى قبل أن لا تعملى اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لايشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولاينتهى ، واعلمى يانفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر . فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فـالمواظبة على الصيام ، فإن لم يزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ـ والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ـ فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت ـ فستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع الرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واستعينى بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرع واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة

المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به بر رءوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولى يا أرحم الراحمين يارحمن يارحيم ياحليم ياعظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجرىء الذى لاأقلع أنا المتمادى الذى لا أستحى هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتى وفرجى وأرنى آثار رحمتك وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عظمتك يا أرحم الراحمين . اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لاترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ماهذا الجهد الذى أرى بك ؟ قال : يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتى وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكى على خطيئتى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى ، ألم أخلقك بيدى ونفخت فيك من روحى وأسجدت لك ملائكتى فعصيت أمرى ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدوننى ويسبحوننى ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيدالله البجلى كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله : إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى ! واعبيداه إن كانت النار لك مقيلا ومأوى ! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لاتقضى . وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول يارب وعزتك ماأردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى وأعانى على ذلك شقوتى وغرنى سترك المرخى على فعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى ؛ فمن عذابك الآن من يستنقذنى أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ ويلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى ويلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما آن لى أن أستحى من ربى ! .

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لايكون الله تعالى عنه راضيا والسلام تم كتاب المحاسبة والمراقبة . يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين فى بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيلى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا ، وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى ، وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، وإيمانا وكفرا ، وعرفانا ونكرا ، فإن جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادى إشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته فخرا ، صلاة تبقى لنا فى عرصات القيامة عدة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة [١] » ، وكثر الحث فى كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذى يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه ؟ فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعا؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر . ثم حقيقة التفكر وثمرته . ثم مجارى الفكر ومسارحه . إن شاء الله تعالى .

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى

كتاب الفكر

(١) حديث « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » أخرجه ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ « ثمانين سنة » وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ « خير من قيام ليلة » .

خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره [١] » وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مالكم لا تتكلمون ؟ » فقالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل قال « فكذلك فافعلوا ، تفكروا فى خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين » قالوا : يارسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال « مايدرون خلق الشيطان أم لا » قالوا : من ولد آدم ؟ قال « لا يدرون خلق آدم أم لا [٢] » وعن عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت : ياعبيد مايمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر غبا تزدد حبا » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكت وقالت كل أمره كان عجبا ، أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « ويحك يابلال ومايمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها [٣] » فقيل للأوزاعى ماغاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر - بعد موت أبى ذر - فسألها عن عبادة أبى ذر فقالت كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة ، فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا مايتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة فنى كل شىء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ؛ ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فإنه مثلى . وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو ، وفى قوله تعالى ﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق﴾ قال أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى . وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه [٤] » وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فى الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه فيقول يالقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو

---

(١) حديث ابن عباس : لن قوما تفكروا فى الله عزوجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره » أخرجه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك . (٢) حديث : خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مالكم لا تتكلمون » فقالوا : نتفكر فى خلق الله ... الحديث » رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام . (٣) حديث عطاء : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث ... » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث فى نزول ﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾ وقال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » تقدم فى الصبر والشكر وأنه فى صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء . (٤) حديث أبى سعيد الخدرى « أعطوا أعينكم حظها من العبادة ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان : إنّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن على ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت ! قال : الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وبينا أبو شريح يمشى إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكى فقيل له : مايبكيك ؟ قال : تفكرت فى ذهاب عمرى وقلة عملى واقتراب أجلى . وقال أبو سليمان : عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر . وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب ، وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه . ويروى أنّ الله تعالى قال فى بعض كتبه : إنى لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لى جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن : إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكى حتى وقع فى دار جار له ، قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال ، من ذا الذى طرحك من السطح ؟ قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ، ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه . وقال الشافعى رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم : والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا الفضائل أربع (إحداها) الحكمة وقوامها الفكرة . (والثانية) العفة وقوامها فى الشهوة . (والثالثة) القوة وقوامها فى الغضب ، (والرابعة) العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس . فهذه أقاويل العلماء فى الفكرة وما شرع أحد منهم فى ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وإراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان (أحدهما) أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله ، وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . (والطريق الثانى) أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى . فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين .

فإحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا

وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكر : فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة . وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر : فهي مختلفة المعانى وإن كان أصل المسمى واحد ؛ كما أن اسم : الصارم ، والمهند ، والسيف ؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة . فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد .

فكذلك الاعتبار : ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم : التذكر ، لا اسم : الاعتبار . وأما النظر والتفكر : فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا ، فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب . وفائدة التفكر : تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر .

والمعارف إذا اجتمعت فى القلب وازدوجت فى القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت . أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة فى العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التى بها تستثمر العلوم ، كالذى لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضى إلى النتاج فيها .

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهى فى القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ـ وذلك عزيز جدا ـ وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الإيراد . فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أن الأبقى أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة .

وأما ثمرة الفكر : فهى العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة . العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذى يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة . وذكر القلب خير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر . فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل هو الذى ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ، ولذلك قال تعالى ﴿ لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار ، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا

فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال ، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح فى اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فههنا خمس درجات : (أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين فى القلب . (وثانيتها) التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . (والثالثة) حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . (والرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . (والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال .

فكما يضرب الحجر على الحديدفيخرج منه نار يستضىء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه . ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره . فإذن ثمرة الفكر : العلوم والأحوال ، والعلوم لا نهاية لها ، والأحوال التى تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التى هى مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جمليا فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة . فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

بيان مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين . وإنما غرضنا مايتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى ؛ فجميع أفكار العبد : إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين . ومايتعلق بالعبد : إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى ، أو فيما هو مكروه ، ولاحاجة إلى الفكر فى غيرهذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى : إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما فى السموات والأرض وما بينهما .

وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه .

فإن تفكر فى معشوقه ، فإما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذة ومقويا لمحبته .

وإن تفكر فى نفسه ؛ فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر فى شىء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ؛ ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره . فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا . فلنبدأ بالقسم الأول وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة .

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصى . وإلى باطن ، كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب ـ وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات .

والمعاصى : تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون فى المسكن الحرام . ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور (الأول) التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شىء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر (والثانى) التفكر فى أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه ؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال فيتركه أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه ؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر فى الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما فى جميعها أو فى أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم فى أربعة أنواع : الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات . فلنذكر فى كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

(النوع الأول : المعاصى) ينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ؟ أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؟

فينظر فى اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى ، إلى غير ذلك من المكاره ، فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لايتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا فى فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له : فهكذا يكون الفكر فى حيلة الاحتراز .

ويتفكر فى سمعه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهى عن المنكر :

فمهما كان ذلك فيتفكر فى بطنه ؛ أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال

فإن ذلك مكروه عند الله ومقوى للشهوة التى هى سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ؟ ويتفكر فى طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر فى طريق الحيلة فى الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام [1] كما ورد الخبر به .

فهكذا يتفكر فى أعضائه ففى هذا القدر كفاية عن الاستقصاء . فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

وأما النوع الثانى : وهو الطاعات فينظر أولا فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ؟ ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلا :

إن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله ؟

وكذلك يقول فى سمعه : إنى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فمالى أعطله وقد أنعم الله على به وأودعنيه لأشكره ؟ فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟

وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول : إنى قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة .

وكذلك يتفكر فى ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فإنى مستغن عنه ، ومهما احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منى إلى ذلك المال .

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه فى البدار إلى تلك الطاعات ، ويتفكر فى إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات .

(وأما النوع الثالث : فهى الصفات المهلكة التى محلها القلب) فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات : وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه هذه الصفات : فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف ، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها فى كظم الغيظ وكذلك فى سائر الصفات . وهذا تفكر فى أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ؟ ولذلك علامات ذكرناها

---

(١) حديث « إن الله لا يقبل صلاة عبد فى ثوبه درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

فى ربع المهلكات،فإذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الأسباب التى تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة .

كالو رأى فى نفسه عجبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عمل ببدنى وجارحتى وبقدرتى وإرادتى ، وكل ذلك ليس منى ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على ، فهو الذى خلقنى وخلق جارحتى وخلق قدرتى وإرادتى ، وهو الذى حرك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وإرادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ولا أقوم لنفسى بنفسى ؟

فإذا أحس فى نفسه بالكبر قرر على نفسه مافيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت ، وكم من كافر فى الحال يموت مقربا إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة ؟

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين

وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر فى أن هذه صفة البهائم ، ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ، ولما اتصف به البهائم ، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد . وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب ، ثم يتفكر فى طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب . فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما فى هذه الكتب .

•(وأما النوع الرابع : وهو المنجيات) فهو التوبة ، والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف ، والرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والإخلاص ، والصدق فى الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له . وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته . فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة إلى الله تعالى ؟ فإذا افتقر إلى شىء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار . فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم : فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه . ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى ، حتى ينبعث له حال الندم . وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى إحسان الله إليه وأياديه عليه وفى إرساله جميل ستره عليه - على ماشرحنا بعضه فى كتاب الشكر فليطالع ذلك . وإذا أراد حال المحبة والشوق : فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه - كما سنشير إلى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر - وإذا أراد حال الخوف : فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر فى الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ، ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ، ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم فى المناقشة فى الحساب فى النقير والقطمير ، ثم فى الصراط ودقته وحدته ، ثم فى خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها . وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا ، إلى جميع ماورد فى القرآن من شرحها . وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء : فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم .

فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر ، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، وفيه مايورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة ، فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة ! فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم ، فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرارا لاتنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتى جوامع الكلم [١] وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به [٢] » فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهى كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية .

فهذا هو طريق الفكر فى علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هى محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدئ ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب ؛ كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق .

فأما ما ذكرناه فهو تفكر فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره فى إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخواص يدور فى البوادى فلقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور فى البوادى أصلح حالى فى التوكل ، فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد ؟ فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة فى النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة وجهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ؛ فإن استغرقت جميع عمرها ، فى تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب .

فهكذا ينبغى أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا فى الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مريد فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم . تقدم .
(٢) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث » تقدم غير مرة .

جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة ـ فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ـ وهى : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له .

فهذه عشرون خصلة ؛ عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ؛ فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر .

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة ؛ كأكل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس ، والإفراط فى معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه ، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا فى معاص هم بمعزل عنها . مثاله : العالم الورع ، فإنه لا يخلو فى غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ، ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون ، فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع ؛ وذلك من المهلكات . وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه فى القلب إعلاء لدين الله . فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون الموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة ، وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء ، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه فى دينه . وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها ، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له فى سلامة العوام .

فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل .

فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى . وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعندهذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس إذا قالوا لاتفعل هذا ؛ فإنّ هذا الباب لوفتح لاندرست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عنى ، فإنه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ، ولو مت لاتنهدم أركان الإسلام فإنّ الدين مستغن عنى ، وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لوحبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لايندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لايفتر عن عمله إلى يوم القيامة . بل ينتهض لنشر العلم أقوام لانصيب لهم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم [1] » و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر [2] » فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل [3] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفسادا فيها من حب الجاه والمال فى دين المرء المسلم [4] » ولاينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل مايزيد جاهه فى قلوبهم .

فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقى . فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لورآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا : إن هؤلاء لايؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ! فإن من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه : وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصى ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون فى الفرائض منها . فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ويقال ! لوكان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا . فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا . فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر فى جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ، ولايتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات ، وإن ظهر شىء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لايثبت ولايدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولاطريق له فى كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهى مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » تقدم . (٢) حديث « إن الله يؤيدهذا الدين بالرجل الفاجر » تقدم أيضاً فى العلم . (٣) حديث « حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب . الحديث » تقدم .
(٤) حديث « ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم ... الحديث » تقدم .

لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى .

(القسم الثانى) الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه . وفيه مقامان : المقام الأعلى الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولاتفكروا فى ذات الله ، وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه - إلا الصديقون ثم لايطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لايطيقه ألبتة ، بل يختفى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان فى النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولايطيق دوامه ، ويخشى على بصره لوأدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لايتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء وهو : أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولاخارجه ولاهو متصل بالعالم ولاهو منفصل عنه ؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويدوعين وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم . فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمق من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندى لاوصف الإله ! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة فى هذه الأعضاء . وهذا لأن الإنسان لايعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل مالايساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه : نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك فى حق الله - تعالى وتقدس - حتى يفهم العظمة . بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولايد ولارجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقى أنقص منى ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لايقدر على الطيران ؟ أو يكون لى آلة وقدرة لايكون له مثلها وهو خالقى ومصورى ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لاتخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون .

ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لايتعرض لمجارى الفكر فيه ، لكنا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر فى أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته . فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإنا لانطيق النظر إلى صفاته كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لايقوم مقام النظر فى نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لاظلمة أشد من العدم ولانور أظهر من الوجود . ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته - تعالى وتقدس - إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام

نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولانبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال . فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلق الله ولاتتفكروا فى ذات الله تعالى » .

بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره . ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه .

فنقول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (مالا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التى لانعلمها كما قال الله تعالى ﴿ ويخلق مالاتعلمون ـ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون ﴾ وقال ﴿ وننشئكم فيما لاتعلمون ﴾ وإلى (مايعرف أصلها وجملتها ، ولايعرف تفصيلها) فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها . وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذى لاندركه بالبصر . فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك . ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض . فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع والأرض ومابينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، ومابين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هى الأجناس المشاهدة من السموات والأرض ومابينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولانهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر . فلا تتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولانبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه ، وهى الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات .

(فمن آياته) الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شىء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ وقال تعالى

﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوّى ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ وقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ الآية .

فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر فى معناه ، فانظر الآن إلى النطفة ـ وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ؟ .

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ! ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ؛ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف مافى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهى أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد فى حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفى العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ـ كما تراه ـ فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحى الأعلى ، واثنان للحى الأسفل ، والبقية هى الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهى الأنياب والأضراس والثنايا : ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات

وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك . ومجموع عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهى العضلات فخلق فى بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ـ وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هى لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص . وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ـ وشرحه يطول ـ فللفكر مجال فى آحاد هذه الأجزاء ، ثم فى جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعانى والصفات التى لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب ، وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة ، فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته فى أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وماصارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا هل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم فى قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة . وشىء من ذلك ليس من

فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة . وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ، ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة فى حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسه الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب . وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام . وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل . وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص . فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد . فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها . والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها . والكلية تخدمها بجذب المائية عنها . والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه فى طريق الإحليل : والعروق تخدم الكبد فى إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الإبهام على الجميع . ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها مايريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى

لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لوعدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ، ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته ! فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه .

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبى لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدى ؟ ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ، ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ؟ .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه فى الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ! ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه . فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل ، فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ؛ إما كفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ! ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته ؟ فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام ، وتشتهى فتجامع ، وتغضب فتقاتل . والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس ؛ إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير ،

إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وإذا عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرك ، ثم فى أنهارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد . ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ وقال تعالى ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها﴾ وقال تعالى ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾ وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا﴾ .

فانظر إلى الأرض وهى ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شىء حى ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايبح ، يفضل بعضها على بعض فى الأكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ؟ فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة . ثم انظر إلى أرض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ؟ فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف ! فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها . وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر فى الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب فى الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام فى وصف ذلك ؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض : ففى الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروزوج واللعل ؟

وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأوانى والآلات والنقود والحلى منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر ، فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك . وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذى ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ﴾ .

(ومن آياته) أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى مايمشى . وانقسام مايمشى : إلى مايمشى على رجلين ، وإلى مايمشى على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد فى بعض الحشرات . ثم انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ولا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت ـ وهى من صغار الحيوانات ـ فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك . فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا ، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير ؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله . وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم ؟ أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات . وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه ! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التى ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل

ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى إن جميع المكشوف من البوادى والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبى صلى الله عليه وسلم « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض [1] » فانسب اصطبلا إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الأرض ومافيها فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب مافيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ماتشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ماترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان . وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أوطير أو بقر أو إنسان إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لايعهد لها نظير فى البر : وقد ذكرت أوصافها فى مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ماعداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها . ولايستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات . وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر ! وهو كيفية قطرة الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الأجزاء كأنه شىء واحد ، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ماعلى وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى إخراجها ! فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها ! فتأمل فى عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب ، أما ترانى وترى صورتى وتركيبى

(١) حديث « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض » تقدم ولم أجده .

وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى ؟ أتظنّ أنى كوّنت نفسى أوخلقنى أحد من جنسى ؟ أو ماتستحيي أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمى عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الإلهى الذى لاتدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط . ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه .

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون : توهمنى فى ظلمة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى ، فينقش النقاش حدقتى وأجفانى وجبهتى وخدى وشفتى ، فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ولاترى داخل النطفة نقاشا ولاخارجها ، ولاداخل الرحم ولاخارجه ، ولاخبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم ! فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لامن داخل ولامن خارج ؟ فإن كنت لاتتعجب من هذه العجائب ولاتفهم بها أنّ الذى صوّر ونقش وقدر لانظير له ولايساويه نقاش ولا مصوّر ، كما أنّ نقشه وصنعه لايساويه نقش وصنع - فبين الفاعلين من المباينة والتباعد مابين الفعلين - فإن كنت لاتتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب ؟ فإن الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه ، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرّات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه .

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض : يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولايرى بالعين شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فإن شاء جعله نشرا بين يدى رحمته كما قال سبحانه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدّته وقوّته مهما ضغط فى الماء ، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغمسه فى الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته ؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوف فيه هواء لايغوص فى الماء لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوى ممتنع عن الهوى فى البئر . فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص فى الماء ! فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ؛ فهى عجائب مابين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض

ومابينهما لاعبين ﴾ وهذا هو الذى بينهما . وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة ! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع فى استقصائه . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جو السماء إلى أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى وعلى الشكل الذى شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ماينزل منها فى بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب ، ومكتوب على تلك القطرة بخط إلهى لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل إليها عند عطشها فى الوقت الفلانى ! هذا مع مافى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى . كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته ، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : مامعنى الطبع وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالى الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار - فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة - فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل .

(ومن آياته) ملكوت السموات والأرض ومافيها من الكواكب : وهو الأمر كله ، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع ، وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى ﴿ والسماء ذات البروج - والسماء والطارق - والسماء

ذات الحبك - والسماء وما بناها ﴾ وكقوله تعالى ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ وكقوله تعالى ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ وقوله تعالى ﴿والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون - وما أقسم الله بها - فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى ﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾ وأثنى على المفكرين فيه فقال ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته [1] » أى تجاوزها من غير فكر. وذم المعرضين عنها فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب ، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ وقال سبحانه ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ وقال ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾ فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت . ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك فى هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ .

فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبى ربى . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التى هى مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسى ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهى معرفة ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول : قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر إلى ماذا أتطلع ؟

فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام - من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب - وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ، ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب

(١) حديث « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أى قوله تعالى ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ تقدم .

بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا، وانظر إلى إيلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص. وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان. وعجائب السموات لا مطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر، واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره، ثم فى شكله، ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء، وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا فى كبر جسم ولا فى كثرة معانيه. وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الأرض، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة، وفى الأخبار ما يدل على عظمتها [1] ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الأرض ثمانى مرات، وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض. وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها؛ إذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال ﴿رفع سمكها فسواها﴾.

وفى الأخبار: أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام [2] فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها. ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه. وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس؟» فقال: لا ... نعم، فقال «كيف تقول لا ... نعم» فقال. من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام [3] فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها. فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم

---

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال «فى نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض» والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة «وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شىء إلا أحرقته».

(٢) حديث «بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام» أخرجه الترمذى من رواية الحسن عن أبى هريرة وقال غريب، قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبى هريرة، ورواه أبو الشيخ فى العظمة من رواية أبى نصرة عن أبى ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبى نصرة سماع من أبى ذر. (٣) حديث: أنه قال لجبريل «هل زالت الشمس؟» فقال: لا ... نعم، فقال: كيف تقول لا ... نعم؟ فقال: من حين قلت: لا، إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام» لم أجد له أصلا.

كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ! وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه أفما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ! ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ؟ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك . وما مثلك ومثل عقلك إلا مثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها ، فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره . وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته ، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء ، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الانبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب . فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم . وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك . فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا ، وإنما لكل عبد

منهما بقدر مارزق . فلنقتصر على ماذكرناه ولنضف إلى هذا مافصلناه فى كتاب الشكر ، فإنا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا . وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل مانظرنا فيه فإن الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . ومامن ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء ، فمن نظر فى هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ، ومن نظر فيها قاصرا النظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه ، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده ، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا فى حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد . فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا فى الموت ولا ذكر إلا له ، ولااستعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولاتطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل

لما بعد الموت [١] ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر فى المنبهات عليه . ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقى من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ ونحن نذكر ما يتعلق بالموت فى شطرين :

الشطر الأول

فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الأول) فى فضل ذكر الموت والترغيب فيه . (الباب الثانى) فى ذكر طول الأمل وقصره . (الباب الثالث) فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . (الباب الرابع) فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . (الباب الخامس) فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . (الباب السادس) فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . (الباب السابع) فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام .

الباب الأول : فى ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ثم الناس : إما منهمك ، وإما تائب مبتدئ ، أو عارف منته . أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم « من كره لقاء الله كره الله لقاءه [٢] » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد لقائه لحبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا فى غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم : اللهم إن كنت تعلم

كتاب ذكر الموت ومابعده

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » تقدم غير مرة .

الباب الأول : فى ذكر الموت والترغيب فيه

(٢) حديث « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك فإذن التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه . فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى . وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته . وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات [١] » ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا [٢] » وقالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال « نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة [٣] » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « تحفة المؤمن الموت [٤] » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة فى حقه . وقال صلى الله عليه وسلم « الموت كفارة لكل مسلم [٥] » وأراد بهذا : المسلم حقا المؤمن صدقا الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض : قال عطاء الخراسانى : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال « الموت [٦] » وقال أنس رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « كفى بالموت مفرقا [٨] » وقال عليه السلام « كفى بالموت واعظا [٩] » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال « اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلمون

---

(١) حديث « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم . (٢) حديث « لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم . (٣) حديث . قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال « نعم من ذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » تقدم . (٤) حديث « تحفة المؤمن الموت » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلا بسند حسن .

(٥) حديث « الموت كفارة لكل مسلم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب والخطيب فى التاريخ من حديث أنس قال ابن العربى فى سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه فى جزء . (٦) حديث عطاء الخراسانى : مر النبى صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا مرسلا ورويناه فى أمالى الجلال من حديث أنس ولا يصح . (٧) حديث أنس « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد ضعيف جدا . (٨) حديث « كفى بالموت مفرقا » أخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ، ورواه ابن أبى الدنيا فى البر والصلة من رواية أبى عبد الرحمن الحبلى مرسلا . (٩) حديث « كفى بالموت واعظا » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد .

ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا [١] » وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال « كيف ذكر صاحبكم الموت ؟ » قالوا : ماكنا نكاد نسمعه يذكر الموت ! قال « فإن صاحبكم ليس هنالك [٢] » وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال « أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة [٣] » .

أما الآثار ؛ فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا . وقال الربيع بن خثيم . ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا وسلونى إلى ربى سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمى : شيئان قطعا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول - فى وسط مسجد البصرة - قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين . وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضى الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا . وقال عمر بن عبدالعزيز لبعض العلماء : عظنى ؛ فقال : لست أول خليفة تموت ؟ قال ؛ زدنى ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكى عمر لذلك وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الدارانى : قلت لأم هرون ، أتحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل

(١) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « اذكروا الموت ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٢) حديث : ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه . (٣) حديث ابن عمر : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكماله بإسناد جيد .

شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لايتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعندذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم . وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم . وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله ، وكيفية موته وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع . وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله . وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه . وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه . وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه - إلى عشر سنين - في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه . إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألاترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال ، أنه لابد له من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا مانصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا[1] » وروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ماأخاف عليكم خصلتان . اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا » ثم قال « ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض ، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ، ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا

الباب الثاني في طول الأمل

(١) حديث : قال لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ... الحديث » أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث « كن في الدنيا كأنك غريب » .

من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل [١] » وقالت أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال « أيها الناس أما تستحون من الله ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « تجمعون مالا تأكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالا تسكنون [٢] » وقال أبو سعيد الخدرى : اشترى أسامة بن زيد من زيد ابن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ، ثم قال « يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده ﴿ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ [٣] » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول « ما يدرينى لعلى لا أبلغه [٤] » وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال « هل تدرون ما هذا ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال « هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل [٥] » وقال عليه السلام « مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم [٦] » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل . قال عبد الله خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعاً ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم ، قال « هذا الإنسان - للخط الذى فى الوسط - وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراض - للخطوط التى حوله - تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الأمل - يعنى الخط الخط الخارج [٧] » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل [٨] » وفى رواية « وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث على « ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ... الحديث » بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف . (٢) حديث أم المنذر « أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى » قالوا : وماذاك يارسول الله ؟ قال « تجمعون مالا تأكلون . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث أبى سعيد : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ألا تعجبون من أسامة ... الحديث» أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس : كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول « ما يدرينى لعلى لا أبلغه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف .

(٥) حديث : أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه ... الحديث . أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزى فى الأمثال من رواية أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى وإسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا أيضا من رواية أبى المتوكل مرسلا . (٦) حديث : مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن . (٧) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا ... الحديث » رواه البخارى . (٨) حديث أنس : يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان : الحرص والأمل » وفى رواية « ويشب معه اثنان : الحرص على المال والحرص على العمر » ورواه مسلم باللفظ الثانى وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح .

« نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل »[1] ، وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل ، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ! فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى : والله لابد لك من عيش مابقيت ، فقمت إلى مسحاتى . وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قال « قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء »[2] وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل »[3]

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ؟ ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتهنأوا بعيش ولاقامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولاهما ما مشى المسلمون فى الطرق وقال الثورى بلغنى أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش : وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيـــا بقلة عقول أهلها ، وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه . ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى ، مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى ، فراق الأحبة ـ محمد وحزبه ـ وهول المطلع والوقوف بين يدى الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بى أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبى أوفى بعد موته فى المنام فقلت : أى الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الأمل . وقال الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عن شهوة الطعام والشراب ، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب ، وقيل للحسن : ياأبا سعيد ألا تغسل قميصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم . وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائى : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتنى قد أتيت عظيما ، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار ؟ وحكى أنه جاء شقيق البلخى إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرمانى ـ وفى طرف كسائه شىء مصرور ـ فقال له استاذه : إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات دفعها إلى أخ لى وقال : أحب أن تفطر عليها ، فقال ياشقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبدا ، قال : فأغلق فى وجهى الباب ودخل . وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن لكل سفر زادا لامحالة فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ماأعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولايطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله مابسط أمل من لايدرى لعله لايصبح بعد مسائه ولايمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا ، وإنما تقر عين من

---

(١) حديث « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) حديث الحسن « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يارسول الله قال « قصروا من الأمل ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا ، (٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى أسناده ضعف وجهالة ولا أدرى من حوشب .

وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لايداوى كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لاأنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى وتظهر عيبتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة ، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما . وكتب رجل إلى أخ له : أمابعد ؛ فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام . وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام - قبل أن يخطئ - أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميط : سمعت أبي يقول ، أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم ، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ، إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ماقد تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون ، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لايمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك ، أماعلمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبوزكريا التيمى : بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة ، فبكى سليمان بكاء شديدا ، وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ، سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لاإله إلا هو أما بعد فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم ، فياليت شعرى ماحالى وحالك يومئذ ففى هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام وخطب عمر بن عبد العزيز ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شىء وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عزوجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولاممهد ،

قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب ، وايم الله إنى لأقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ووضع كمه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تأخير شىء عن شىء . وقال الثورى : رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول : أنا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى ، ولو أتانى ما أمرته بشىء ولا نهيته عن شىء ، ولا لى على أحد شىء ولا لأحد عندى شىء . وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار . وقال أبو محمد بن على الزاهد : خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن ، فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا أخى أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون ، وروى أن معروفا الكرخى رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال محمد بن أبى توبة فقال لى تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل . وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول فى خطبته : أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا !

بيان السبب فى طول الامل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج

يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية فى وقت لايحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون : واحزناه من سوف . والمسوف المسكين لايدرى أنّ الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ! فما يفرغ منها إلا من طرحها .

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « أحبب من أحببت فإنك مفارقه [1] » .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأنّ الموت فى الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ، ولايدرى أنّ ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولايقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولايقدر أن تشيع جنازته ، لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع فى دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر . وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابدّ وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ، ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لايدرى فتسويفه جهل محض .

وإذا عرفت أنّ سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(وأما حب الدنيا) فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذى أعيا الأوّلين والآخرين علاجه ؛ ولاعلاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغص ، فكيف يفرح بها أويترسخ فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما ، وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا . فلينظر الإنسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة ؟ وكيف تتفتت عظامها ؟ وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شىء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى

(١) حديث « أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث » تقدم غير مرة .

وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هى التى تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس فى طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس فى ذلك يتفاوتون ؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهى ذلك أبدا قال الله تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم [1] » ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ماوراءها فلا يقدر لنفسه وجودا فى عام قابل ، ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف . فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ولا فى الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره وأما للغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم . ومنهم من لايجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « ياعبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح » ومنهم من لايقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول « لعلى لا أبلغه » ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان هو الذى يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى [2] وكما نقل عن الأسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل : ما هذا ؟ قال : أنظر ملك الموت من أى جهة يأتينى .

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله ، فـ ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة ـ ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ثم يظهر أثر قصر الأمل فى المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتنى بأسباب ربما لايحتاج إليها فى سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لايغفل عنه ساعة ، فليستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه .

---

(١) حديث « الشيخ شاب فى حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم » لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال » . (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال : ماخطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما فى غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذى يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذى ينتظر قدومه غد . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجىء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذى مضى ، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا يرى لنفسه متسعا فى تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر [١] » وقال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ [٣] » أى أنه لايغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما ، وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . الا إن سلعة الله غالية ألا أن سلعة الله الجنة [٤] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه [٥] » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة [٦] ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد [٧] » ، وقال ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « مابقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع [٩] » وقال جابر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول . صبحتكم ومسيتكم ، بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وقرن بين أصبعيه ـ [١٠] » ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال « إن النور إذا دخل الصدر انفسح » فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟

---

(١) حديث « ماينتظر أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة بلفظ « هل ينتظرون الا غناء ... الحديث » وقال حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم . (٢) حديث ابن عباس « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسلا . (٣) حديث « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٤) حديث « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن . (٥) حديث « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبى بن كعب . (٦) حديث « كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل من حديث زيد السلمى مرسلا .

(٧) حديث أبى هريرة « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد » أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل وأبو القاسم البغوى بإسناد فيه لين .

(٨) حديث ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « مابقى من الدنيا الا مثل مابقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه باسناد حسن والترمذى نحوه من حديث أبى سعيد وحسنه

(٩) حديث « مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح

(١٠) حديث جابر : كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ... الحديث » أخرجه مسلم وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له .

قال « نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله [(١)] » وقال السدى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا . وقال حذيفة : ما من صباح ولا مساء إلا ومنادى ينادى : أيها الناس الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى ﴿ إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ فى الموت . وقال سحيم - مولى بنى تميم - جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلى فأوجز فى صلاته ثم أقبل على فقال : أرحنى بحاجتك فإنى أبادر ، قلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت رحمك الله ، قال : فقمت عنه وقام إلى صلاته . ومر داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال : دعنى ! إنما أبادر خروج نفسى : قال عمر رضى الله عنه : التؤدة فى كل شىء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة . وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ؛ ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ؛ ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ! حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يرانى . وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة المبادرة فإنما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل ، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ! ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك . واجتهد أبو موسى الأشعرى قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذى بقى من أجلى أقل من ذلك ! قال : فلم يزل على ذلك حتى مات . وكان يقول لامرأته : شدى رحلك فليس على جهنم معبرة . وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائبا يحدّ به الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة ، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له ، والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها ، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ قال بالشهوات واللذات ﴿ وتربصتم ﴾ قال بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ قال شككتم ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ قال الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قال الشيطان وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هى أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة . وقال أبو عبيدة الباجى : دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال : مرحبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا

(١) حديث ابن مسعود : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال « إن النور إذا دخل القلب انفسح ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

وربما لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالأرض واجتهد فى العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك(١) .
وقال عاصم الأحول : قال لى فضيل الرقاشى - وأنا سائله - يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار فى لاشىء ، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم .

الباب الثالث : فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك . وقال لقمان لابنه . يا بنى أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل ، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إلا بالقياس إلى الآلام التى أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذى يشهد له : فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم . والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده !

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم .
وأما الجراحة : فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل

(١) حديث أبى عبيدة الباجى : دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل وابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه .

موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة .

أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد ضعفها . ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر فى داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ! ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تقبل توبة العبد مالم يغرغر (١) » وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ! ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هوّن على محمد سكرات الموت (٢) » والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن على هذه السكرة - يعنى الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت على الموت . وروى أن نفرا من اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال : ياقوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ماسكنت مرارة الموت من قلبى . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا أغبط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل . اللهم فأعنى على الموت وهوّنه على (٣) » وعن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف (٤) » وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف (٥) » ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال « إنى أعلم مايلقى مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته (٦) » وكان على كرّم الله وجهه يحض على القتال ويقول :

---

(١) حديث « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث كان يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت » تقدم . (٣) حديث كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعصة بن غيلان الجعفى وهو معضل سقط منه الصحابى والتابعى . (٤) حديث الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات . (٥) حديث : سئل عن الموت وشدته فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا . (٦) حديث : دخل على مريض فقال « إنى لأعلم مايلقى مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه فى المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات .

إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش . وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره . وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن ، وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة ، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت ؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم « موت الفجأة راحة المؤمن وأسف على الفاجر [1] » ، وروى عن مكحول عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى لأن فى كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشىء إلا مات [2] » ويروى « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت [3] » وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت ياخليلى قال : كسفود جعل فى صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هونا عليك . وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : ياموسى كيف وجدت الموت ، قال : وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير ، وروى عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهم هون على سكرات الموت [4] » وفاطمة رضى الله عنها تقول : واكرباه لكربك ياأبتاه ! وهو يقول « لا كرب على أبيك بعد اليوم [5] » وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار ياكعب حدثنا عن الموت ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ماأبقى وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة [6] » .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه . فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى فإن دواهى الموت ثلاث :

(الأولى) شدة النزع كما ذكرناه .

---

(١) حديث « موت الفجأة راحة المؤمن وأسف على الفاجر » أخرجه أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال « وأخذة أسف » ولأبى داود من حديث خالد السلمى « موت الفجأة أخذة أسف » (٢) حديث مكحول « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة رفعه وفيه « لو أن ألم شعرة » وزاد « وإن فى يوم القيامة لتسعين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف » وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد (٣) حديث « لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت » لم أجد له أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال : ويروى . (٤) حديث : انه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهم هون على سكرات الموت » متفق عليه من حديث عائشة .

(٥) حديث : ان فاطمة قالت واكرباه لكربك يا أبت ... الحديث . أخرجه البخارى من حديث أنس بلفظ : واكرب أبتاه ، وفى رواية لابن خزيمة : واكرباه . (٦) حديث « ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت ولن مفاصله ليسلم بعضها على بعض . الحديث » رويناه فى الأربعين لأبى هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك .

(الدهية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب ؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرض عني فأعرض عنه . ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ؛ فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه : وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت : من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء ؟ فجاء داود فرآه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه (١) » وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال : تكلمي بإذن الله فقالت : ياروح الله أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي ، إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسي إليه ، فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ! ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ! فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ! فكيف برؤيته في مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ؟ فقال : أدخلنيها ربها ! فقال : أنا ربها ، فقال : أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك ، فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عني ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال : ياملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله ، فإن كان مطيعا قالا له : جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا ، وإن كان فاجرا قالا له : لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ؛ فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين : إما أبشر ياعدو الله بالنار ، أو أبشر ياولي الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الألباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أبي هريرة « إن داود كان رجلا غيورا ... الحديث » أخرجه أحمد باسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه
(٢) حديث « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا « لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار » وفي =

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا : كلنا نكره الموت قال « ليس ذاك بذاك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه [1] » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود ـ وهو لما به من آخر الليل : قم فانظر أى ساعة هى ؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال : قد طلعت الحمراء فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبى هريرة ، فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة : اللهم اشدد ! ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار . وروى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه ، حسبى من عمله ، قد بلوته فوجدته حيث أحب ؛ فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال فيقول له جنوده : مالك ياسيدنا فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به فكان معصوما [2] » وقال الحسن : لا راحة للمؤمن إلا فى لقاء الله ، ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . وقيل لجابر بن زيد ـ عند الموت : ماتشتهى ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ! فرفع طرفه إليه ثم قال : ياإخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة وقال محمد بن واسع ـ عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام ! إلى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهى العظيمة عند الموت . وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه فى كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع . ولكننا لا نطول بذكره وإعادته .

بيان مايستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ! ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

(أما الصورة) فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهى من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به [3] » .

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة) فهى علامة الخير . قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه

= رواية « حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار » وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت مايمهد لذلك « ان المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ... الحديث » . (١) حديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت . (٢) حديث « ان الله اذا رضى على عبده قال : ياملك الموت اذهب الى فلان فأتنى بروحه لأريحه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب الموت من حديث تميم الدارى بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح فى أول الحديث برفعه وفى آخره مادل على أنه مرفوع وللنسائى من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح « اذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجى راضية عنك الى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان .. الحديث » .

(٣) حديث « ارقبوا الميت عند ثلاث : اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح .

وسلم « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله (١) » وفى رواية حذيفة « فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا (٢) » وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لاإله إلاالله دخل الجنة (٣) » وقال عبيدالله « وهو يشهد » وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه « لا إله إلا الله » فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم : لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا ، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول : لا إله إلا الله ، فغفر له بكلمة الإخلاص (٤) » .

وينبغى للملقن أن لا يلح فى التلقين ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة .

وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شىء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه . وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر فى خطر المشيئة ، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول .

(وأما حسن الظن) فهو مستحب فى هذا الوقت ـ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الرجاء ـ وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله . دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرنى كيف ظنك بالله ؟ قال : أغرقتنى ذنوب لى وأشرفت على هلكة ولكنى أرجو رحمة ربى ! فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال : الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » ودخل النبى صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو وآمنه من الذى يخاف (٦) » وقال ثابت البنانى . كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يا بنى إن لك يوما فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له : يابنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما ، فقال : يا أمه إن لى ربا كثير المعروف وإنى لأرجو أن لايعدمنى اليوم بعض معروفه ، قال ثابت : فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رهق فاحتضر ، فقالت له أمه : يا بنى توصى بشىء ؟ قال : نعم ، خاتمى لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمنى ، فلما دفن رؤى فى المنام فقال : أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى وأن الله قد غفر لى . ومرض أعرابى فقيل له إنك تموت ، فقال : أين يذهب بى ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتى أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبى لما حضرته الوفاة : يامعتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكى يحسن ظنه بربه .

---

(١) حديث « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله » تقدم . (٢) حديث حذيفة : فإنها تهدم ماقبلها : تقدم . (٣) حديث : من مات وهو يعلم أن لاإله إلا الله دخل الجنة . تقدم . (٤) حديث أبي هريرة : حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المحتضرين والطبرانى والبيهقى فى الشعب وإسناده جيد إلا أن فى رواية البيهقى رجلا لم يسم وسمى فى رواية الطبرانى إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف .

(٥) حديث : دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ وفيه « يقول الله أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقى فى الشعب به جميعا .

(٦) حديث : دخل على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبي .. الحديث » تقدم .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت — واسمه عزرائيل وله عينان عين فى وجهه وعين فى قفاه — فقال : ياملك الموت ما تصنع . إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال : أدعوا الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعى هاتين ، وقال : قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء ، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالى لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك ! إنما هى صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه - بعد مرات - وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفخ فى منخره نفخة فملأه كبرا . ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما ! قال إن لى إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن ، فقهره على لجام دابته فقال اذكرها ! قال ، هو سر ، فأدنى له رأسه فساره وقال ، أنا ملك الموت ! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعنى حتى أرجع إلى أهلى وأقضى حاجتى وأودعهم ، قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا ! فقبض روحه فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقى عبدا مؤمنا فى تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت ! فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ما كان فى الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك ! فقال ملك الموت اقض حاجتك التى خرجت لها ، فقال مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى ! قال فاختر على أى حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إنى أمرت بذلك ، قال فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ثم اقبض روحى وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى جمع رجل من بنى إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أرونى أصناف أموالى ؟ فأتى بشىء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكى فقال له ما يبكيك ؟ فوالذى خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك ! قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة ! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ؟ فقبض روحه . وروى أن رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفس أنعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين ، فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه ، فوثب إليه الغلمان وقالوا ما شأنك ؟ فقال ادعوا إلى مولاكم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم ، فقرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أنى ملك الموت ، فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع ، فقال قولوا له قولا لينا وقولوا هل تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال اصنع فى مالك ما أنت صانع ، فإنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك ، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال ! أنت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن أتخلى لربى ، فأنطق

الله المال فقال لم تسببنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد المتقى عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بى ، وتجلس مجالس الملوك بى وتنفقنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك ؟ خلقت يابن آدم من تراب فنطلق ببر ومنطلق بإثم ، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما فى الأرض مثله ! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لامتعهد له بها . فقالت الملائكة الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء ! قال عطاء بن يسار إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال فإن العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبنى البنيان وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لايدرى . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك اليوم يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه ، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا ، وإن لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم ، وقال يزيد الرقاشى بينما جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على دارى ؟ فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها ، وأما أنا فالذى لايمنع من الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مريد ؟ قال فسقط فى يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت ! قال أنا هو ، قال فهل أنت ممهل حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات ! انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل ! قال فإلى أين تذهب بى ؟ قال إلى عملك الذى قدمته وإلى بيتك الذى مهدته ، قال فإنى لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا ، قال فإلى لظى نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله ، فمن بين صارخ وباك . قال يزيد الرقاشى لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر . وعن الأعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك الموت ، قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدنى قال فماذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند ! ففعلت الريح ذلك ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك ! .

الباب الرابع

فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ـ حيا وميتا وفعلا وقولا ـ وجميع أحواله عبرة للناظرين

وتبصرة المستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ،حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا؟ وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيهات ! بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ماوجده فى اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجب أنا لانعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات ! وقرناء المعاصى والسيئات ! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين ، لعلنا نظن أننا مخلدون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات ! هيهات ! بل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ، ثم لاينجو منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين ؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين ،واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ! وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال « مرحبا بكم حياكم الله ، آواكم الله ، نصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، وأوصى بكم الله ، إنى لكم منه نذير مبين ، ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى ، فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته « من لأمتى بعدى » فأوحى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال « الآن قرت عينى (٢) » وقالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا

الباب الرابع فى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ابن مسعود : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق ... الحديث » رواه البزار وقال : هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة ، قال : وعبد الرحمن الأصبهانى لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة ، قال : ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ماوجه . رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود . ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الأنصارى من رواية الحسن العرنى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان ، والحسن العرنى إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط . (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته « من لأمتى بعدى » فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث جابر وابن عباس فى حديث طويل فيه « من لأمتى المصطفاة من بعدى » قال : أبشر ياحبيب الله فان الله عزوجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال « الآن طابت نفسى » وإسناده ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال « أما بعد : يامعشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على التي هي عليها اليوم ، وإن الأنصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم - يعني محسنهم - وتجاوزوا عن مسيئهم » ثم قال « إن عبدا خير بين الدنيا وبين ماعند الله فاختار ماعند الله » فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على رسلك يا أبابكر سدوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر »(١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت ، فدخل على أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له : آخذه لك ، فأومأ برأسه أن : نعم ، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت : ألينه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » ثم نصب يده يقول « الرفيق الأعلى . . الرفيق الأعلى » فقلت : إذن والله لايختارنا (٢) وروى سعيد بن عبدالله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله ، فمد يده وقال « ها » فتناولوه ، فقال « ماتقولون ؟ » قالوا : نقول : نخشى أن تموت ، وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت ، وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم ؟ هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله عزوجل قال ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ﴾ - إلى آخرها - وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لايعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألاولا تستأثروا عليهم ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا وإن موعدكم الحوض ، حوضي أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظمأ أبدا ، حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك ، من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغي » فقال العباس : يا نبي الله أوص بقريش ! فقال « إنما أوصي بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أئمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى ﴿ وكذلك نولي

---

(١) حديث عائشة : أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد .. الحديث » أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة .

(٢) حديث عائشة : قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت .. الحديث » متفق عليه

بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ [1] ، وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر رضى الله عنه « سل يا أبا بكر » فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل وتدلى » فقال ليهنك يانبى الله ما عند الله ! فليت شعرى عن منقلبنا ، فقال « إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنأ » فقال يا نبى الله من يلى غسلك ؟ قال « رجال من أهل بيتى الأدنى فالأدنى » قال ففيم نكفنك ؟ فقال « فى ثيابى هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر » فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى ثم قال « مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا ، إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ، ثم أخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى على الله عز وجل ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على ، فأول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ، ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتى الأدنى فالأدنى ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان » قال فمن يدخلك القبر ؟ قال « زمر من أهل بيتى الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى » [2] ، وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مروا أبا بكر يصلى بالناس » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال « أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » قالها ثلاث مرات « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء ! فقال « إنكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر ، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة ـ بعد ذلك ـ ويحك ماذا صنعت بى ! والله لولا أنى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله إنى لم أر أحداً أولى بذلك منك ! قالت عائشة رضى الله عنها وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم وهو حى أبدا إلا أن يشاء الله ، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه ، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين [3] وقالت عائشة رضى الله عنها فلما

---

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر ... الحديث فى خروجه متوكئا معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر . فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعى . روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى . (٢) حديث ابن مسعود : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر « سل ياأبا بكر » فقال . يارسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل ... الحديث » فى سؤالهم له : من يلى غسلك وفيم نكفنك ؟ وكيفية الصلاة عليه » رواه ابن سعد فى الطبقات من محمد بن عمر وهو الواقدى بإسناد ضعيف الى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم .

(٣) حديث عبد الله بن زمعة : جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « مروا أبابكر فليصل بالناس » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ... الحديث » أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله « فقالت عائشة إن أبابكر رجل رقيق ... الى آخره » ولم يقل : فى أول ربيع الأول ، وقال « مروا من يصلى بالناس » وقال « يأبى الله ذلك والمؤمنون » مرتين وفى رواية له فقال « لا لا لا .. ليصل للناس ابن أبى قحافة » يقول ذلك =

كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اخرجن عنى ! هذا الملك يستأذن على » فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى فجلس وتنحيت فى جانب البيت فناجى الملك طويلا ، ثم إنه دعانى فأعاد رأسه فى حجرى وقال للنسوة « ادخلن » فقلت . ما هذا بحس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أجل ياعائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال : إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت ، وأمرنى أن لا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك ؟ فقلت : اكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل » فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ، قالت ، وجاء جبريل فى ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمتك فقال « أجدنى وجعا » فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال « ياجبريل إن ملك الموت استأذن على ، وأخبره الخبر فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق ، قال « فلا تبرح إذن حتى يجىء » وأذن للنساء فقال « يافاطمة ادنى » فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال « ادنى منى رأسك » فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجبا ، فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرنى وقال « إنى ميت اليوم » فبكيت ثم قال « إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يجعلك معى » فضحكت ، وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت . وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك . ما تأمرنا يا محمد ؟ قال « الحقنى بربى الآن » فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهنى عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك امامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يارسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا « طوى الوحى وطويت الدنيا وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، ومالى فيها حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم موقفى لا والذى بعث محمدا بالحق ما فى البيت أحد يستطيع أن يحير إليه فى ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله ، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : فقمت إلى النبى صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديى وأمسكت بصدره ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شىء أطيب منه فكنت أقول له ـ إذا أفاق ـ بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح ؟ فقال « ياعائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار » فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بعثه إلى أبى ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجىء أحد ، وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمى عليه قال « بل الرفيق الأعلى » كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال « الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا » الصلاة الصلاة كان يوصى بها حتى مات وهو

= متضيا ، وأماما فى آخره من قول عائشة فى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يارسول الله ان أبابكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ! فقال « لتكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

يقول « الصلاة الصلاة [1] » قالت عائشة رضى الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين [2] قالت فاطمة رضى الله عنها : ما لقيت من يوم الاثنين ، والله لاتزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم - يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة - مثلها : مالقيت من يوم الاثنين ، مات فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه قتل على ؛ وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضى الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بثوبه - فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقى آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدى وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم [3] وفى رواية أنه قال : ياأيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت ، والله لاأسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفى هذا . وأما على فإنه أقعد فلا يبرح البيت . وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا - يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به - ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد ، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبى بكر حتى جاء العباس فقال : والله الذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

وبلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه

---

(١) حديث عائشة : لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اخرجن عنى ، هذا ملك يستأذن على ... الحديث » بطوله فى مجىء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجىء جبريل ثم مجىء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبى وصفيى محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة وارفق به فى قبض روحه . وفيه دخول ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال « ياملك الموت أين خلفت حبيبى جبريل » قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك ، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له ، وفيه ادن ياملك الموت فانته إلى ما أمرت به ... الحديث . وفيه : فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبى صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك ، إلى أن قال : فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث طويل فى ورقتين كبار وهو منكر ، وفيه عبد المنعم بن ادريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد : كان يكذب على وهب بن منبه ، وأبوه ادريس أيضاً متروك قاله الدارقطنى ، ورواه الطبرانى أيضاً من حديث الحسين بن على : أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله « امض لما أمرت به » وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضاً من حديث ابن عباس فى مجىء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله . إن ربك يقرئك السلام فقال « أين جبريل » فقال هو قريب منى الآن يأتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل .. الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث .

(٢) حديث عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين . رواه ابن عبد البر

(٣) حديث عائشة : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه - فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون . وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ... الحديث إلى قوله (عند ربكم تختصمون) لم أجد له أصلا وهو منكر .

ثم أكب عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ماكان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حى لايموت قال الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . الآية ﴾ (١) ، فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفى رواية : أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو يصلى على النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكى ويقول : بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى طبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون ، فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (٢) . وعن ابن عمر : أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى ، كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم ياأهل البيت ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ الآية إن فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة ، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء ، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ، ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لايعرفون صوته : ياأهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبى صلى الله عليه وسلم (٣) واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبى بكر رضى الله عنه فقال : قام أبو بكر فى الناس

---

(١) حديث : بلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبى أنت وأمى ما كان الله ليذيقك الموت مرتين . . . الحديث . الى آخر قوله : وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ أخرجه البخارى ومسلم من حديث عائشة : أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبى وأمى أنت ، والله لايجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها . ولهما من حديث ابن عباس : أن أبابكر خرج وعمر يكلم الناس ... الحديث . وفيه : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . لفظ البخارى فيهما .

(٢) حديث : أن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه ... الحديث ، الى قوله : واحفظه فينا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف : جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه . . الحديث الى آخره . (٣) حديث ابن عمر فى سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم : إن فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا . ثم سمعوا آخر بعده : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع . لم أجد فيه ذكر « اليسع » وأما ذكر « الخضر » فى التعزية فأنكر النووى وجوده فى كتب الحديث وقال : إنما ذكره الأصحاب . قلت : بل قد رواه الحاكم فى المستدرك فى حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بعضادتى باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل =

خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما شرع وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك ، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة فى الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لم يمت ، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا ، وإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذى بلغنى أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ويوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى فى كتابه ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حى لا يموت ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبى بكر .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندرى كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله فى ثيابه ؟ قالت : فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل - لا يدرى من هو - غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثيابه ، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه . حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه . فأقررناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون . فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك

= على أصحابه فقال : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم فى البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب . ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر : على الرجل ، فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا ، فقال أبو بكر : لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا . ورواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبى الدنيا أيضا من حديث على بن أبى طالب : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن فى الله عوضا من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم . فقال على : تدرون من هذا ؟ هو الخضر . وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعى فى الأم وليس فيه ذكر « الخضر » .

سبدا ولالبدا إلا دفن معه . قال أبوجعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكمانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولاوضع قصبة على قصبة [1] ففى وفاته عبرة تامة وللمسلمين به أسوة حسنة .

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمـــرك مايغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا ولكن قولى ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة الأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك؟ قال قد نظر إلى طبيبى وقال : إنى فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده فقال : يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا تخفرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك .

ولما ثقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك ؟ فقال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال : إنى موصيك بوصية ؛ اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل وأن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فيقول القائل : أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء ؛ فإن الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بد لك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فإنا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الأفق المبين ، قالوا : وما الأفق المبين ؟ قال : قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة

---

(١) حديث أبى جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة . أما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا ، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى فى حياته فتقدم أيضاً .

رحمة ، فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان ، اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير ، اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت ، فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء ، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى إليك اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شىء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتى فى تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى ، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك . فأحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت ثقتى ورجائى ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل :

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون ، كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأى خللا قال : استووا ، حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر . قال : وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ـ أو نحو ذلك ـ فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن أكبر فسمعته يقول : قتلنى ـ أو أكلنى ـ الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فمات منهم تسعة ـ وفى رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضى الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحى المسجد ما يدرون ما الأمر ؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس انظر من قتلنى ! قال : فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبة ، فقال عمر رضى الله عنه : قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ! وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس : إن شئت فعلت ؛ أى إن شئت قتلناهم ، قال : بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال : وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ! قال : فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس . فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافا لا على ولا لى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض ، فقال : ردوا على الغلام ، فقال : يا ابن أخى ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك . ثم قال : يا عبد الله انظر ما على من الدين ؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه ، فقال : إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم ؛ وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم ، وأد عنى هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل :

عمر يقرأ عليك السلام ، ولاتقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى ! فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال : مالديك ؟ قال : الذى تحب ياأمير المؤمنين قد أذنت قال : الحمد لله ما كان شىء أهم إلى من ذلك ! فإذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستأذن عمر ! فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا : أوص ياأمير المؤمنين واستخلف ، فقال : ماأرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شىء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك وإلافليستعن به أيكم أمر ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم رده الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لايأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من ورائهم ولايكلفهم إلا طاقتهم . قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى ، فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب ، فقالت أدخلوه ، فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه ... الحديث .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لى جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر [١] » وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال ماخلفت أحد أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ! وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر [٢] » ، فإنى كنت ـ لأرجو أن لأظن ـ أن يجعلك الله معهما .

وفاة عثمان رضى الله عنه

الحديث فى قتله مشهور . وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى ! رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة ـ وهى خوخة فى البيت ـ فقال « ياعثمان حصروك ؟ » قلت نعم ، قال « عطشوك » قلت نعم ، فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت ـ حتى

---

(١) حديث « قال لى جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر » أخرجه أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة من حديث أبى بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٢) حديث ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون ، فذكر قول على بن أبى طالب كنت كثيرا أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر .. الحديث » متفق عليه .

إنى لأجد برده بين ثديى وبين كتفى - وقال لى « إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا » فاخترت أن أفطر عنده ! فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول ، اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم - ثلاثا - قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم على ! قال فجىء بهما كأنما هما جملان أو حماران ، فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة ، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين ، بخير له منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم ، أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم ؛ قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال « اسكن ثبير فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان ؟ » قالوا اللهم نعم ، قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد [1] .

وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ اللهم إنى أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلى لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول

اشدد حيازيمك للمو ت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة ! قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة ؛ وقتل أبى صلاة الغداة . وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة . وعن محمد بن على أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال ياأخى لأى شىء تجزع ؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ! قال ياأخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا ! لحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ! وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيرى : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ... الحديث أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى

معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء ، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرما .

الباب الخامس : فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى ، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ، وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يا رب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش : أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضونا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإنى وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى ! ويا يزيد إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ، ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإنى لم أل من هذا الأمر شيئا .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، لم أل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر ـ بينى وبينه باب وهو فى قبة له ـ فسمعته يقول ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له : انظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت . وقيل له لما حضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ! قال : أحذركم مثل مصرعى هذا فإنه لا بد لكم منه . وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم ! قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال : فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك ، قال : ربى خير مذهوب إليه ، والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى

مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته . اللهم خرلعمر فى لقائك ؛ فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ياأمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا ! فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى أن لاتقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها ، فكيف بكثير مما ضيعنا ؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات . ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى ! فأجلسوه فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت - ثلاث مرات - ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر فقيل له فى ذلك فقال : إنى لأرى خضرة ؛ ماهم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول ﴿ ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ﴾ .

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس إلا هذا ؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة - وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا .

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفرلى فإن الناس يقولون إنك لاتغفرلى . فكان عمربن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل : نعم ، قال : عسى .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين

ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إنى قد كنت أخافك وأنااليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخنقنى خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك .

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ؟ قال : ماأبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب (١) فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما .

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناه فقال : بل واطرباه ! غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

وقيل . فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

ولما حضرت ابراهيم النخعى الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أوبالنار

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال ، والله ماأبكى لذنب أعلم أنى أتيته ؛ ولكن

---

(١) حديث : لما حضرت سلمان الوفاة بكى ، وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب » أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

أخاف أنى أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم .

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكىَ فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل فى الشتاء !

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشى عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه واقلة زاده

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه . اجعل رأسى على التراب ، فبكى نصر فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا ! قال : اسكت ! فإنى سألت الله تعالى أن يحيينى حياة الأغنياء وأن يميتنى موت الفقراء ، ثم قال له لقنى ولا تعد على مالم أتكلم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له : نجوت ! فقال : ما آمنك بعد . وبكى بعضهم عند الموت فقيل له : ما يبكيك ؟ . آية فى كتاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ودخل الحسن رضى الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن أمراً هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله . وقال الجريرى : كنت عند الجنيد فى حال نزعه ـ وكان يوم الجمعة ويوم النيروز ـ وهو يقرأ القرآن فختم ، فقلت له : فى هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال : ومن أولى بذلك منى وهو ذا تطوى صحيفتى ؟ وقال رويم حضرت وفاة أبى سعيد الخراز وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كئوس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى الشكر
همومهم جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا . وقيل لذى النون ـ عند موته ، ماتشتهى ؟ قال : أن أعرفه قبل موتى بلحظة . وقيل لبعضهم وهو فى النزع ! قل الله فقال : إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينورى فقدم فقيرا وقال : السلام عليكم ؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال : فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثم عين ماء ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ومد رجليه ومات . وكان أبو عباس الدينورى يتكلم فى مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا فقال لها : موتى ، فقامت المرأة ، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت : قد مت ووقعت ميتة . ويحكى عن فاطمة ـ أخت أبى على الروذبارى ـ قالت : لما قرب أجل أبى على الروذبارى ـ وكان رأسه فى حجرى ـ فتح عينيه وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا على قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبى بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : مانسيته فأذكره . وسأل جعفر بن نصير بكران الدينورى ـ خادم الشبلى ـ ما الذى رأيت منه ؟ فقال : قال على درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبى شغل أعظم منه ! ثم

قال : وضئنى للصلاة ، ففعلت فنسيت تخليل لحيته ـ وقد أمسك على لسانه ـ فقبض على يدى وأدخلها فى لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال : ماتقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟ وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر ـ وكان يشق عليه ـ كأنك تحب الحياة ؟ فقال : القدوم على الله شديد . وقيل لصالح بن مسمار : ألا توصى بابنك وعيالك ؟ فقال إنى لأستحيى من الله أن أوصى بهم إلى غيره ! ولما احتضر أبو سليمان الدارانى أتاه أصحابه فقالوا أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم ، فقال لهم ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ؟ ولما احتضر أبو بكر الواسطى قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكى ! فقال إن كنت باكية فابكى على نفسك ! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة . وقال الجنيد دخلت على سرى السقطى أعوده فى مرض موته فقلت كيف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبى ما بى والذى بى أصابنى من طبيبى

فأخذت المروحة لأروحه فقال ، كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ؟ ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب إن يك شىء فيه لى فرج فامنن على به ما دام بى رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو فى الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله ، فأنشأ يقول :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج
لا أتاح الله لى فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرنى فإنى كنت فى وردى ! ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات . وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به ! وقفت على باب قلبى أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه . وحكى عن المعتمر قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ـ فذكرت محاسنه ـ فأفاق فقال من المتكلم ؟ فقلت أنا ! فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لى : إنى بكل سخى رفيق ، ثم طفى . ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله فى شىء من عملى ! فقال حذيفة واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شىء من عمله . وعن المغازلى قال دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة ـ وهو عليل ـ وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بى ، ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع ـ من باب الدعاء ـ فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى . وقيل لرويم عند الموت : قل لا إله إلا الله ، فقال : لا أحسن غيره . ولما حضرت الثورى الوفاة قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال أليس ثم أمر ؟ ودخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف أصبحت

يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا والإخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا ولكأس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبي فلما قرنته   بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل   تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد   فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضروية الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يابنى باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى ، لاأدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فأنى لى أوان الجواب .

فهذه أقاويلهم ، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

الباب السادس : فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ، وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكأن قد ، ولعله فى غد أو بعد غد . ويروى عن أبى هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فإنا على الأثر . وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال اغدوا فإنا رائحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لاعقل له . وقال أسيد بن حضير ماشهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشىء سوى ماهو مفعول به وما هو صائر إليه .
ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول والله لاتقر عينى حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولاأعلم مادمت حيا . وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت البنانى كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا .

فهكذا كان خوفهم من الموت . والآن ! لاننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولايتكلمون إلا فى ميراثه وماخلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ماخلفه ، ولايتفكر واحد منهم - إلا ماشاء الله - فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها . ولاسبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت . نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيبتنى والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول :

تروعنا الجنائز مقبلات   ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز : التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع - كما ذكرنا آدابه وسننه فى فن الفقه - ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لاتدرى حقيقتها . ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله ياأبافلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذنب وذو خطايا ؟ فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا ؟ ويحكى أن رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه ، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن ؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال : قيل لى فى المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور له ، فزاد تعجب الناس ! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر ! فقال : انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ؛ ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق (والثانى) أنه كان أبدا لايخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . (والثالث) أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى ويقول : يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ؟ يعنى نفسه . فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على مايفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور [١] » ، وقيل لعلى كرم الله وجهه : ماشأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مارأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه [٢] » ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكى وبكيت وبكوا فقال « مايبكيكم ؟ » قلنا : بكينا لبكائك ! قال « هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ، فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على ، فأدركنى مايدرك الولد من الرقة [٣] » وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ،

---

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « من لم ينس القبور والبلى .. الحديث » تقدم .

(٢) حديث « مارأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

(٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم ... الحديث » وفيه « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ... » وتقدم فى آداب الصحبة أيضاً » ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب » وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هانئ ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

فسئل عن ذلك وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ! وتبكى إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١) » وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه ؟ فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد أول مايكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة ، هذا ما أعددت لك فما أعددت لى ؟ وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم فقرى ، يوم أوضع فى قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول : ياأهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبونى ! ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يافلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ! ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ، قال : ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشى يقول : أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى إخوانك اغتبطت ؟ ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خاركما يخور الثور . وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وكان بكر العابد يقول ياأماه ليتك كنت بى عقيما إن لابنك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا . وقال يحي بن معاذ : ياابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهى فى بواطنك ! وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول ياأهل القبور متم فواموتاه ! وعاينتم أعمالكم فواعملاه ! ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ يرددها ، ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل . وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم ، فتقول يا ابن آدم لم لاتذكر طول بلاك ومابينى وبينك شيء ! وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال ياميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ! أماتراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلا فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ماأعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول ياثابت لايغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

---

(١) حديث عثمان : كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه : ان القبر أول منازل الآخرة . أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة .

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية   لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يئسوا فانقلبوا . وقال أبو موسى التميمى : توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة - وفيهم الحسن - فقال له الحسن : يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنى   أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد   عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى   إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها   من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرم منكم فى قعرها   قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد   لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن   تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة   يفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب   فى حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه   فى شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهى تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها   إذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى   وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت : يا ابناه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار : مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها   فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه   وأين المزكى إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بينها ، أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر   وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى   فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا   أما لك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باك

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تناجيك أجداث وهن صموت   وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه   لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع   وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره   إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربى جنبات قبرى   كأن أقاربى لم يعرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى   وما يألون أن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا   فيالله أسرع ما نسونى

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب مختلس   لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها   يا من يعدّ عليه اللفظ والنفس
أصبحت ياغافلا فى النقص منغمسا   وأنت دهرك فى اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته   ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به   عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف   فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت   قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعى   رأت عيناى بينهم مكانى

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل   صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبه   وحذقه فى الماء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره   من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل   قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل   أمكنه فى حياته العمل
ماأناوحدى نقلت حيث ترى   كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت . والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم ، وليتحقق أنه لوعرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور ، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه لحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت

قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها ، فوطن نفسك على التحسر على تضييعهما عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار . فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لى فى الله ـ فيما يرى النائم ـ فقلت : يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقولها ـ يعنى الحمد لله رب العالمين ـ أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنوننى فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله ـ فى تقدمه عليه فى الموت ـ منزلة مالو كانا فى سفر فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على اقرب ، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر . وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه ، لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله[1] » وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال زيد بن أسلم : توفى ابن لداود عليك السلام لحزن عليه حزنا شديدا فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ قال ملء الأرض ذهبا ! قيل له : فإن لك من الأجر فى الآخرة مثل ذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار » فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو اثنـان ؟ قال « أو اثنان[2] » . وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إنى أصبحت أرجوك له وأخافك عليه لحقق رجائى وآمن خوفى . ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال : اللهم إنى قد غفرت له ماوجب لى عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فإنك أجود وأكرم . ووقف أعرابى على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قام أبوه عمر بن ذر ـ بعد ماوضعه فى لحده ـ فقال : ياذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إن هذا ذر متعتنى به مامتعتنى ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتى ، اللهم ماوعدتنى عليه من الأجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولا تعذبه . فأبكى النـاس ثم قال عند انصرافه : ما علينا بعدك من خصاصة ياذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا مانفعناك ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : مارأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن ! فقالت : ياعبد الله إنى لفى حزن مايشركنى فيه أحد ، قال : فكيف ؟ قالت : إن زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى وكان لى صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاة ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطا فى دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله ، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر ، قالت : فأردانى الدهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب ينبغى أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع ، فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر .

---

(١) حديث « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله » لم أجد فيه ذكر « مائة فارس » وروى ابن ماجه من حديث أبى هريرة « لسقط أقدمه بين يدى أحب إلى من فارس أخلفه خلفى » .

(٢) حديث « لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم ... الحديث » تقدم فى النكاح .

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد (١) » .

روى عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا (٢) » وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ (٣) ، وفى هذا اليوم قال « أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار (٤) » كما أوردنامن قبل . وقال ابن أبى مليكة : أقبلت عائشة رضى الله عنها يوما من المقابر فقلت ياأم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبرأخى عبد الرحمن ، فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت نعم ، ثم أمر بها (٥) » ولاينبغى أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء فى الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن الهجر على رءوس المقابر فلايفى خير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم ، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة فى ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر .

وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين فى ظل الله (٦) » وقال ابن أبى مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة (٧) » وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة فى الأيام ، فتصلى وتبكى عنده . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من زار قبر والديه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا (٨) » وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين (٩) » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من زار قبرى فقد

---

(١) حديث : نهيه عن زيارة القبور ثم اذنه فى ذلك . أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

(٢) حديث على « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غيرأن لاتقولوا هجراً » رواه أحمد وأبو يعلى فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى « غير أن لاتقولوا هجراً » وفيه على بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخارى لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان فى الثقات (٣) حديث : زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له فى الاستغفار لها

(٤) حديث « وقال فى هذا اليوم أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار » تقدم فى الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له فى الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبى هريرة « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى »

(٥) حديث ابن أبى مليكة : أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت : ياأم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن قلت : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها . أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور بإسناد جيد

(٦) حديث أبى ذر « زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى ، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور والحاكم بإسناد جيد (٧) حديث ابن أبى مليكة « زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلا وإسناده حسن . (٨) حديث « من زار قبر أبويه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا » أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث أبى هريرة وابن أبى الدنيا فى القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبرانى يحيى بن العلاء البجلى متروك (٩) حديث ابن سيرين « ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة أبى العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف .

وجبت له شفاعتى [١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة [٢] » وقال كعب الأحبار : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه.

والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء إلى القبر فيقول : السلام على النبى ، السلام على أبى بكر ، السلام على أبى ، وينصرف . وعن أبى أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم [٣] » وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت يارسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لايعرفه وسلم عليه ردعليه السلام . وقال رجل من آل عاصم الجحدرى رأيت عاصما فى منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى ، فقلت أين أنت ؟ قال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر ابن عبد الله المزنى فنتلاقى أخباركم . قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات ! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين ؟ قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده . وقال الضحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل وكيف ذاك ؟ قال لمكان يوم الجمعة . وقال بشر ابن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلى ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم ؟ قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وما هى ؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعو لنا بها ، قلت فإنى أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجرانى رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لى يابشار بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه

---

(١) حديث « من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى » تقدم فى أسرار الحج (٢) حديث « من زارنى بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » تقدم فيه (٣) حديث عائشة « مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلى .

من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار (١) وقال بعضهم مات أخ لى فرأيته فى المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك ؟ قال أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالى لرأيت أنه سيضربنى به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدى شهدت أبا أمامة الباهلى وهو فى النزع فقال يا سعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعدا ، ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن إماما ، فإن منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما ، فقال رجل يارسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال « فلينسبه إلى حواء (٢) »

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روى عن على بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ومحمد بن قدامة الجوهرى معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ماتقول فى مبشر بن اسماعيل الحلبى ؟ قال ثقة : قال هل كتبت عنه شيئا ؟ قال نعم « قال أخبرنى مبشر بن اسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك ، فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن أحمد المروزى سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم . وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكينى يقول لقد آذيتنى منذ الليلة ، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نورا مثل الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ، وللمزور الانتفاع بدعائه . فلا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغنى أنها عوتبت ، فى كثرة إتيانها المقابر فقالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإنى لآتى القبور فكأنى

---

(١) حديث « ماالميت فى قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له .. الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على بن عبد الواحد قال الذهبى حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدى قال : شهدت أبا أمامة الباهلى وهو فى النزع فقال : ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة ... الحديث » فى تلقين الميت فى قبره أخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف .

انظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة ، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان ، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ماذكره عمر بن عبدالعزيز ؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن .

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه (٣) » وقال أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شرا فقال عليه السلام « وجبت » ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وجبت » فسأله عمر عن ذلك فقال « إن هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار ! وأنتم شهداء الله فى الأرض (٤) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى (٥) » .

الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها .

فظن بعضهم : أن الموت هو العدم ، وأنه لاحشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات . وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وظن قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر .

وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا .

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد

---

(١) حديث « إذا مات صاحبكم فدعوه ولاتقعوا فيه » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد

(٢) حديث « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا الى ماقدموا » أخرجه البخارى من حديث عائشة أيضاً

(٣) حديث « لاتذكروا موتاكم الا بخير .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة بإسناد جيد مقتصراً على ماذكر منه هنا بلفظ « هلكاكم » وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شراً فقال « وجبت » الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة « ان العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيرذلك .. الحديث أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزوجل « مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير إلا قال الله عزوجل قدقبلت شهادة عبادى على ماعلموا وغفرت له ماأعلم »

انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات الروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لايتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف الروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث . والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده . وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هى المستعملة لها ، وأعنى بالروح : المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ـ أى لاينعدم ـ ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية .

نعم تغير حاله من جهتين : (إحداهما) أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والألم واحد فى الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

(والثانى) أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا له فى النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده

واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ، ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل فى أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول « الروح من أمر ربى »[1] ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ،

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة (أما الآيات) فما ورد فى الشهداء إذ قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ﴾ ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا » فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب »[2] ، فهذا نص فى روح الشقى وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء . ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة . وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة »[3] ، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته »[4] ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة »[5] ، وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال وعن أبى قيس قال : كنا مع علقمة فى جنازة فقال : أما هذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه :

---

(١) حديث : أنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فى الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى (ويسئلونك عن الروح) وقد تقدم . (٢) حديث : نداؤه من قتل من صناديد قريش يوم بدر « يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ... » أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب . (٣) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف .

(٤) حديث أنس « الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم

(٥) حديث « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر .

حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار ؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة [1] » وقال مسروق : ما غبطت مؤمنا فى اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشى يوما مع أبى الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب ؟ قال : الموت ، قلت : فإن لم يمت ؟ قال : يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن ، والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لابد من فراقه غاية الشقاء . فكل ماسوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو . إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه فهو يتفسح فى الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه ؛ فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذى كان به أنسه من غير عائق ولا دافع .

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ؛ لأنهم ماأقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل فى طلب مرضاته ، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع ، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ماباعه إذا فارقه ! وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الأحوال ولكن لايدركه الموت عليه فيتغير . والقتال سبب الموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة . فلهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان مايريده قال الله تعالى ﴿ ولهم مايشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم . وهذا النعيم يدركه الشهيد - كما انقطع نفسه - من غير تأخير . وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين . وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى ، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك يا جابر » وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال : بلى بشرك الله بالخير فقال « إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال تمن على ياعبدى ماشئت أعطيكه فقال : يارب ماعبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق منى أنك إليها لاترجع [2] » وقال كعب : يوجد رجل فى الجنة يبكى فيقال له : لم تبكى وأنت فى الجنة ؟ قال : أبكى لأنى لم أقتل فى الله إلا قتلة واحدة ! فكنت أشتهى أن أرد فأقتل فيه قتلات .

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ماتكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ،

---

(١) حديث أبى هريرة « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانى القبر » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبى الدنيا « فتان » (٢) حديث عائشة « ألا أبشرك ياجابر ... الحديث » وفيه « ان الله أحيا أباك فأقعده بين يديه . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد فيه ضعيف وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر « ألا أبشرك بما لقى الله به أباك » قال « بلى يارسول الله ... الحديث » وفيه فقال « ياعبدى تمن على أعطك قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه انه سبق منى أنهم لايرجعون » .

ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا فقال لرجل مات « أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه [١] » فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه [٢] » وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه [٣] » أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه . وقال أبو عمر صاحب السقيا : مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة . وعن عمرو بن دينار قال : مامن ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم . وقال مالك بن أنس : بلغنى أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت . وقال النعمان ابن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم [٤] » وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور [٥] » ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبدالله بن رواحة - وكان قد مات وهو خاله - وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هى ؟ قال : فى حواصل طير بيض فى ظل العرش ، وأرواح الكافرين فى الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره [٦] » وقال صالح المرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم : كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أوخبيث ؟ وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم . . . أو

(١) حديث : قال لرجل مات « أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لايسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات .

(٢) حديث « إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلا هكذا

(٣) حديث : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا قدمات فقال « مستريح أو مستراح منه » متفق عليه من حديث أبى قتادة بلفظ : مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبى الدنيا فى الموت باللفظ الذى أورده المصنف

(٤) حديث النعمان بن بشير : ألا إنه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور ، فإن أعمالكم تعرض عليهم » أخرجه ابن أبى الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله « الله الله » ورواه بكماله الأزدى فى الضعفاء وقال لايصح إسناده وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل بكماله فى ترجمة أبى إسماعيل السكونى رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول ، قال الأزدى لايصح اسناده وذكر ابن حبان فى الثقات مالك بن أدى

(٥) حديث أبى هريرة « لاتفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور » أخرجه ابن أبى الدنيا والمحاملى بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع انسانا عن أنس « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ... الحديث » .

(٦) حديث أبى سعيد الخدرى « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره » رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبدالملك بن حسن .

ما قدم عليكم ؟ فيقولون ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد : إن الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره . وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان فى كرب شديد فيسألونه : ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال : مات قبلى قالوا ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ذهب به إلى أمه الهاوية (١) » .

بيان كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال ، التى هى أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بى ! ألم تعلم أنى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بى إذ كنت تمر بى فذاذا ؟ فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إنى إذا أتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى (٢) » والفذاذ هو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى . وقال عبيد بن عمير الليثى : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التى يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا . وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره عذب أو أصابه بعض مايكره ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك فى متقدمنا إياك فكرة ، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة فهلا استدركت مافات إخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض : أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لابد له منه ؟ وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، قال : فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه . قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه . قال فيقال له : هنيئا طبت حيا وطبت ميتا . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له فى قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة

---

(١) حديث أبى أيوب « ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى فى مسند الشاميين بإسناد ضعيف ، ورواه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على أبى أيوب بإسناد جيد ، ورفعه ابن صاعد فى زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث أبى هريرة بإسناد جيد (٢) حديث « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرك بى ألم تعلم أنى بيت الفتنة ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم فى الكنى من حديث أبى الحجاج الثمالى بإسناد ضعيف .

فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره ويقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي » [1] .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر » ثلاثا ثم قال « إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره ، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك وما نبيك ؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد » صلى الله عليه وسلم قال « فينتهرانه انتهارا شديدا وهي آخر فرصة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهي معنى قوله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح والله ما علمت أن كنت لسريعا إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا » قال « ثم ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي » قال « وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول : لا أدري فيقال : لا دريت ، ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول : بشرك الله بشر من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، والله إن كنت لسريعا في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار ترابا ، فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ، ليس الثقلين » قال « ثم ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار » [2] . وقال محمد بن علي ما من ميت يموت إلا مثل له

---

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ... » أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه . (٢) حديث البراء : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر .. الحديث » بطوله =

عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين . وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وأن لها نشيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين [1] » وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت ﴾ قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار ؟ قال : لا ، لعلي أعمل صالحا فيما تركت ، قال : فيقول الجبار ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ أي ليقولنها عند الموت . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيماذا أنزلت ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين ، تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رءوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون [2] » ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذي إيذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم .

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا

(أحدها) وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى .

= أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا .

(١) حديث أبي هريرة « ان المؤمن اذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف . (٢) حديث أبي هريرة « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ... الحديث » ورواه ابن حبان .

(المقام الثانى) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح فى نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان . وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة فى حقه والعذاب حاصل ولكنه فى حقك غير مشاهد . وإذا كان العذاب فى ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذى يلقاك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك فى الأثر الذى يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذى يفضى إليه فى العادة ، فإنه لو خلق فى الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته .

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك فى حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذى يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب ، وحبه الفرس هو الذى يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فليستعد لهذه اللدغات ؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ، ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه ، وييأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك إذا مات ، لأنا قد بينا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد . لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة

بعد الموت ، إذقد انسدّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس . فإذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به ، فإن كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجا المخفون ، وإن كان مثقلا عظم عذابه . وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين (١) » وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل ، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك .

وإنما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها . فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قد مات فى المنام فقال له : يا بنى عظنى ، قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بنى زدنى ، قال : يا أبت لا تطيق ! قال : قل ، قال : لا تجعل بينك وبين الله قميصا . فما لبس قميصا ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان . وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصدّق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذى أوصيك به أن لا تكثر نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان . فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى ؟ وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر

قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ، فيقولان له ما كنت تقول فى النبى ، فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا وينور له فى قبره . ثم يقال له نم فيقول دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقا قال لا أدرى

(١) حديث « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين » لم أجد له أصلا .

كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك [1] » وعن عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « ياعمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك ياعمر ؟ » فقال عمر : ويكون معى مثل عقلى الآن ؟ قال « نعم » قال « إذن أكفيكهما [2] » وهذا نص صريح فى أن العقل لايتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء . فيكون الميت عاقلا مدركا عالما بالآلام واللذات كما كان ، لايتغير من عقله شىء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شىء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذى لاينقسم فى نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لايتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لايحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر : بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء صماء فى يدها سوط من حديد فى رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة ، لاتراه فتتقيه ولاتسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن . وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقد كان يبسطنى للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إنى لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تحاجش عنه أعماله الصالحة كما يحاجش الرجل عن أخيه وأهله وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك فى مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط المؤمن فى هذا ضغطة ترد منه حمائله [3] » وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أونجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ [4] » وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يارسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك ؟ قال « ذكرت ضغطة ابنتى وشدة عذاب القبر ، فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين [5] » .

---

(١) حديث أبى هريرة « اذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن حبان مع اختلاف . (٢) حديث عطاء بن يسار ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب « ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقى فى الاعتقاد · رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا قلت : ووصله ابن بطة فى الإبانة من حديث ابن عباس ، ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمر ؛ فقال عمر : أيرد الينا عقولنا ؟ فقال « نعم كهيئتكم اليوم » فقال عمر : بفيه الحجر . (٣) حديث حذيفة : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ... الحديث رواه أحمد بسند ضعيف . (٤) حديث عائشة « ان للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ » رواه أحمد بإسناد جيد

(٥) حديث أنس : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ... الحديث » وفيه « لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين » أخرجه ابن أبي الدنيا فى الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

اعلم أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا ، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له ؟ وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره ؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة مايجرى عليه ، وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين فى قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لايبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد ابن معاذ وفى حق زينب ابنته [1] وكذلك حال أبى جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر . ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم .

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة فى المنام وهى من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [2] » وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان مايراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا [3] وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضا فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها . ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ما سيكون فى المستقبل ، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى النوم حتى نزل قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ـ [4] وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمى وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ماقدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين ؛ كما ورد فى القرآن . فجميع

---

(١) حديث : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال أبى جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى قبله . (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » تقدم . (٣) حديث : أمره بالطهارة عند النوم . متفق عليه من حديث البراء « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ... الحديث » . (٤) حديث : انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم . أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

ماجرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لايشاهد بهذه العين . ولا تظنن أنّ ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأنّ الكتاب من كاغد أو رق ؛ بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لايشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أنّ ذاته وصفاته لاتشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه . واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لايدوم وهو الغالب . ومادام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلاتورده على القلب ، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع فى قلبه شىء مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما ، إلا أنّ النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه ، فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون المتخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى . وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير . ويكفيك مثال واحد وهو أنّ رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأنّ بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال : أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان ، قال : صدقت ! فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم . وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية .

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه ! وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل فماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازى والفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء ﴿ لقد كنت فى غفلة من هـــذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ ويقال ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وإليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ولا اختلج بضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من

شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ؟ لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر .

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا ! مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا . ولكن أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ماقال لسيد النبيين « أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزى به (١) ؟ » فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (٢) ولم يخلف دينارا ولا درهما (٣) ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال « لو كنت متخذا خليلالاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن (٤) » فبين أنّ خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأنّ حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب ! وقد قال لأمته ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه ماـدعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة ، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هى المأوى ﴾ فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يارجل ـ وكلنا ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لاتسعى إلا فى الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولاتسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾ .

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده ، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى مايعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى (٥) » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فرأيته لا ينظر إلى فقلت : يارسول الله ما شأنى ! فالتفت إلى وقال « ألست المقبل وأنت صائم ؟ » قال : والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضى الله عنه : كنت ودا لعمر فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهدّ لولا أنى لقيته رءوفا رحيما . وقال الحسن بن على : قال لى على رضى الله عنه : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى فقلت : يا رسول الله ما لقيت من أمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى ! فخرج فضربه ابن ملجم . وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله استغفر لى ، فأعرض عنى فقلت : يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر

---

(١) حديث « ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم . (٢) حديث : لم يضع لبنة على لبنة ولاقصبة على قصبة . تقدم أيضا . (٣) حديث : لم يخلف دينارا ولادرهما . تقدم أيضا . (٤) حديث « لوكنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن » تقدم أيضا . (٥) حديث « من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لايتخيل بى » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

عن جابر بن عبد الله : أنك لم تسأل شيئا قط فقلت : لا ، فأقبل على فقال : غفر الله لك[1] ، وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام قال : فرأيته يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحا به ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك ؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ؛ فبينا أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ! قال : فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخلني من ذلك رعب ، فبينا أنا في ذلك الغم إذ غلبتني عيني فنمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم : تنحوا ، فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال : قم فقد بيض الله وجه أبيك ! فقلت له : من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقال : أنا محمد ، قال : فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض ! فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده - فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول : قضي لي ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة .

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ! - وكان ذلك قبل قتله - فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال : ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدي ؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه .

ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له : إنك كنت تقول أبدا في لسانك : هذا أوردني الموارد ، فماذا فعل الله بك ؟ قال : قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

بيان مناميات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمما الدورقي في المنام فقلت : ياسيدي مافعل الله بك ؟ فقال : ديرني في الجنان فقيل لي : يامتمم هل استحسنت فيها شيئا ؟ قلت : لا ياسيدي ، فقال : لو استحسنت منها شيئا لوكلتك إليه ولم أوصلك إلي . ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ؛ قيل : بماذا ؟ قال : ماخلطت جدا بهزل . وعن منصور بن إسمعيل قال : رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت مافعل الله بك ؟ قال : أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا فإني استحييت أن أقر به ، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت .

---

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر : ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا . رواه مسلم وقد تقدم .

ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره . وقال أبو جعفر الصيدلاني : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء ، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما : بيده طشت ، وبيد الآخر : إبريق ، فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدى فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ! فقلت : يا رسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت « المرء مع من أحب » ؟ قال : بلى ، قلت : يارسول الله فإنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء ! فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم . وقال الجنيد : رأيت في المنام كأنى أتكلم على الناس فوقف على ملك فقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خفى بميزان وفى ! فولى الملك وهو يقول : كلام موفق والله . ورؤى مجمع في النوم فقيل له : كيف رأيت الأمر ؟ فقال : رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة ! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فأشخص رجلا يقتلنى ! وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره . وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمى في النوم فقلت له : رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، قال : أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما ، فقلت : في أى الدرجات أنت ؟ فقال ﴿ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ وسئل زرارة بن أبى أوفى في المنام : أى الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال : الرضا وقصر الأمل . وقال يزيد بن مذعور : رأيت الأوزاعى في المنام فقلت : يا أبا عمرو دلنى على عمل أتقرب به إلى الله تعالى ! قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين . قال : وكان يزيد شيخا كبيرا ، فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه . وقال ابن عيينة : رأيت أخى في المنام فقلت : يا أخى مافعل الله بك ؟ فقال : كل ذنب استغفرت منه غفر لى ومالم أستغفر منه لم يغفر لى . وقال على الطلحى : رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت : من أنت ؟ فقالت : حوراء ، فقلت زوجينى نفسك ، قالت : اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى ، قلت : وما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن آفاتها . وقال إبراهيم بن إسحق الحربى : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لى ، فقلت لها : بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت : أما النفقات التى أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها ، وغفر لى بنيتى . ولما مات سفيان الثورى رؤى في المنام فقيل له : مافعل بك ؟ قال : وضعت أول قدمى على الصراط والثانى في الجنة . وقال أحمد بن أبى الحوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية - ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا - فقلت لها : بماذا ضوء وجهك ؟ قالت : تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها ؟ قلت : نعم ، قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهى ، فمن ثم ضوء وجهى كما ترى . وقال الكتانى : رأيت الجنيد في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل . ورؤيت زبيدة في المنام فقيل لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لى بهذه الكلمات الأربع : لا إله إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربى . ورؤى بشر في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمنى ربى عز وجل وقال يابشر أما استحييت منى كنت تخافنى كل ذلك الخوف . ورؤى أبو سليمان في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال رحمنى وما كان شىء أضر على من إشارات القوم إلى . وقال أبو بكر الكتانى : رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ قال : التقوى ! قلت : فأين تسكن ؟ قال : كل قلب حزين ! ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا السقم ! قلت : فأين

تسكنين ؟ قالت : كل قلب فرح مرح ! قال : فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة . وقال أبو سعيد الخراز : رأيت فى المنام كأن إبليس وثب على ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها ، فهتف بى هاتف : إن هذا لا يخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون فى القلب . وقال المسوحى : رأيت إبليس فى النوم يمشى عريانا فقلت : ألا تستحى من الناس ! فقال : بالله هؤلاء ناس ! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية . وقال أبو سعيد الخراز : كنت فى دمشق فرأيت فى المنام كأن النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق فى صدرى ، فقال : شر هذا أكثر من خيره . وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ فقلت له : أوصنى ، قال : أقلل من معرفة الناس ، وروى أبو حاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : ناقشنى حتى أيست ، فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته . ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وجعلنى حجة على المحبين . ورؤى الثورى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمنى ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين . ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال * حاسبونا فدققوا * ثم منوا فأعتقوا * رؤى مالك بن أنس فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت . ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض . ورؤى الجاحظ فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال .

ولا تكتب بخطك غير شىء يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا فقال ألا تستحى من الناس ؟ فقال وهؤلاء ناس ! الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى ! قال الجنيد فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رءوسهم على ركبهم يتفكرون ، فلما رأونى قالوا لا يغرنك حديث الخبيث . ورؤى النصراباذى بمكة بعد وفاته ـ فى النوم فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت لا يا ذا الجلال ، فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى . ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك ، فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى ألقاك . وقيل رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها . فرأى الميت بعضهم فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لى وقال قل لأيوب ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ وقال بعضهم رأيت فى الليلة التى مات فيها

داود الطائى نورا ، وملائكة نزولا وملائكة صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه . وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال : دع التشييخ ، قلت : تلك الأحوال التى شاهدتها ، فقال : لم تغن عنا ! فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز . وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم ـ فى النوم ـ فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد ـ وحياة الحب ـ حلتم وما حلنا

قال : فانتبهت فذكرت ذلك له فقال : كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة . وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثورى ؟ قال : بخ بخ ذاك ﴿ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت : يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال : أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب . ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى ـ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ـ واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القارى الدقيقى رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرنى ، فأتيته فقلت أوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله ، فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى . وقال أبو بكر بن أبى مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء ؟ قال البكاء من خشية الله . وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرآها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة ؟ قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة فى المنام فقلت ، ما صنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك ! قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت (يا هادى المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين) وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت ، يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال بالورع ، قلت فما بال على بن عاصم ؟ قال ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب . ورأى رجل من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يارسول الله عظنى ، قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمنى فى هذه الأيام أمر أمضنى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقيتنى اللهم فوفقنى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية ؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها . فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى

الله زلفى ، فلنذكر بعدها مابين يدى الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

الشطر الثانى

من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل مابين يديه من الأهوال والأخطار .

وفيه بيان نفخة الصور . وصفة أرض المحشر وأهله . وصفة طول يوم القيامة . وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها . وصفة المساءلة عن الذنوب . وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط . وصفة الشفاعة . وصفة الحوض . وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها . وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان . وصفة النظر إلى وجه الله تعالى . وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدائد أحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ماتكتنفه من المصاعب والأهوال ، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن مابين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه ـ الذى أخبر ـ صدقت ، ثم مد يديه لتناوله ؛ كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى شتمنى ابن آدم ومايبنغى له أن يشتمنى ، وكذبنى ومايبنغى له أن يكذبنى ، أما شتمه إياى فيقول إن لى ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدنى كما بدأنى[1] » ، وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور : ولولم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له : إن صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ففى خلق الآدمى ـ مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه ـ أعاجيب تزيد على الأعاجيب فى بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد

(١) حديث « قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى وكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

ذلك فى صنعته وقدرته ؟ فإن كان فى إيمانك ضعف فقو الإيمان بالنظر فى النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاؤهم ؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقال تعالى ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ فلو لم يكن بين يدى الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض - يعنى يموتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ [1] » .

قال مقاتل : الصور هو القرن ؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر ملك الموت فيموت . ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيى الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « حين بعث إلىّ بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة [2] » فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم . بل إن كنت فى الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين فلوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذرة ، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رءوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم

---

(١) حديث « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ « إن صاحبى القرن بأيديهما أو فى أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران » وفى رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه . (٢) حديث « حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى الحديث » لم أجده هكذا بل قد ورد : أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة « إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قال البخارى ولم يصح وفى رواية لأبى الشيخ « ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان » وإسنادها جيد .

النشور من غير خطيئة تدنست بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك .

صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء قاع صفصف لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها . بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يساقون إليه زمرا ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة ، والراجفة هى النفخة الأولى والرادفة هى النفخة الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد [1] » .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع . والنقى : هو النقى عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا فى الاسم قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها . فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها . فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فياهول صوت انشقاقها فى سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ! ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة - زوج النبى صلى الله عليه وسلم راوية الحديث - قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال « شغل الناس عن ذلك بهم ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [2] » ، فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل : يارسول الله وكيف يمشون على

---

(١) حديث « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد » متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله « ليس فيها معلم لأحد » فجعلها من قول سهل أوغيره وأدرجها مسلم فيه .

(٢) حديث « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة راوية الحديث : واسوأتاه ... الحديث » أخرجه الثعلبى والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة « واسوأتاه » ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة « واسوأتاه » .

وجوههم ؟ قال « الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (١) » فى طبع الآدمى إنكار كل مالم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها ! فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة .

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين . ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه (٢) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم (٣) » كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح . وفى حديث آخر « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب (٤) » وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه - وأشار بيده فألجمها فاه - ومنهم من يغطيه العرق - وضرب بيده على رأسه هكذا (٥) » فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق ؟

---

(١) حديث أبى هريرة « يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ... الحديث » رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس : أن رجلا قال : يانبي الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال « أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » . (٢) حديث ابن عمر « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » متفق عليه . (٣) حديث أبى هريرة « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ... الحديث » أخرجاه فى الصحيحين كما ذكره المصنف . (٤) حديث « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب » أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجانى ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لاأظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه . (٥) حديث عقبة بن عامر « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه ... الحديث » رواه أحمد وفيه ابن لهيعة .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله - من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر - فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم ، يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال : يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبدالله بن عمرو ، تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم [1] » وقال الحسن : ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم ، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال : دعونى ! نفسى نفسى ؟ شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه ﴿ لايملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا [2] » فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لامنتهى لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا .

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد

(١) حديث ابن عمر . تلا هذه الآية (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر إليكم » قلت : إنما هو عبد الله بن عمرو ورواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبى حاتم راويا غير ابن وهب ولم غير عبدالرحمن بن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون .

(٢) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » أخرجه أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة بإسناد جيد « يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب ورواه البيهقى فى الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ « إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة » .

سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قدسعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدّت ، يوم ترى الأرض قدزلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ايروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذوقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرالسحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصى من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الأجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ماقدمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصدّيق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال « شيبتنى هود وأخواتها (١) » وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت ، فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذاقنعت بحركة اللسانفقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه . وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميهالنقف بكثرة أساميهاعلى كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرير الأسامى والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفى كل نعت من نعوتها معنى ، فاحرص على معرفه معانيها .

ونحن الآن نجمع لك أساميها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفه ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم المنتهى ويوم الجزع ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويو م المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويو م التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم الساعة ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم

---

(١) حديث « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

لا يغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون ويوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار . يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات ، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم وأغلى الحميم ، وزفرت النار ويئس الكفار ، وسعرت النيران وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير . فبينا أنت فى كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام »[1] ، فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده . وعند نزولهم لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين . فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد ! وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ وقوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول

(١) حديث « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام » لم أره بهذا اللفظ

ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة ؛ إذ يقال لهم : ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة : لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب . وهم فى ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ، فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ماأتانا من نذير . ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فياعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار . ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه مايراه أحد سواه وأنه المأخوذ بالأخذ والسؤال دون من عداه ؛ فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : ياجبريل ائتنى بالنار ، فيجىء بها جبريل ويقول : ياجهنم أجيبى خالقك ومليكك ، فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين يوم ﴿ ترى كل أمة جاثية ﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع ، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم ، فإذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظرا لأمره . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه ، قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب » قالوا لا ، قال « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » قالوا لا ، قال « فوالذى نفسى بيده لاتضارون فى رؤية ربكم ؛ فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ، فيقول العبد بلى ؛ فيقول أظننت أنك ملاقى فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى »(١) ، فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك . ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ، ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيته ، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته ، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت . فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أبى هريرة : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ... الحديث » متفق عليه دون قوله « فيلقى العبد ... إلخ » فانفرد بها مسلم .

فضحك ثم قال « أتدرون مم أضحك » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم » قال « يقول بلى » قال « فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا » قال « فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى » قال « فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل »(١) فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء ، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم »(٢) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة »(٣) فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة ، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم ، فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه : يا ابن آدم ادن منى ، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ؟ فكم لك من خجل وجبن ؟ وكم لك من حصر وعجز ؟ فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ما تقول ؟ ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذ يقول : ياعبدى ؟ أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلق فأظهرت لهم الجميل ، أكنت أهون عليك من سائر عبادى ، استخففت بنظرى إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ، ألم أنعم عليك : فماذا غرك بى أظننت أنى لا أراك وأنك لا تلقانى . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان »(٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة »(٥) وقاله ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بى يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل

---

(١) حديث أنس « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه ... الحديث » رواه مسلم
(٢) حديث : سأل ابن عمر رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ... الحديث » رواه مسلم . (٣) حديث « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة » تقدم .
(٤) حديث « ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ « إلا سيكلمه » الحديث . (٥) حديث « ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان . » الحديث » أخرجه البخارى من حديث عدى بن حاتم .

لك ألم أكن رقيبا على أذنيك ، وهكذا حتى عد سائر أعضائه ، وقال مجاهد : لاتزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماعمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه ؟ فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم - فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون - وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه - وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك !.

صفة الميزان

ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار، فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها (وقسم آخر) لاسيئة لهم فينادى مناد ليقم الحامدون لله على كل حال ؛ فيقومون. ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى . وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها (ويبقى قسم ثالث) وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب ، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال « مايبكيك يا عائشة ؟ » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال « والذى نفسى بيده فى ثلاث مواطن فإن أحدا لايذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل . وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط »(1) ، وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا . وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال « اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ماكانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس » قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال « يأجوج ومأجوج » قال : فسرى عن القوم فقال « اعملوا وأبشروا فوالذى نفس

---

(1) حديث الحسن : أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ... الحديث » وفيه : فقال « مايبكيك ياعائشة » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ... الحديث » أخرجه أبو داود من رواية الحسن : أنها ذكرت النار فبكت فقال « مايبكيك » دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها وأنه نعس وإسناده جيد .

محمد بيده ماأنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة [(١)] » .

صفة الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية ﴾ واعلم أنه لاينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة . فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلببه ، هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وماراعيتنى . فبينا أنت كذلك وقد انشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم - حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس ﴾ الآية

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم ! وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا ؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من المفلس » قلنا : المفلس فينا يا رسول الله من لادرهم له ولا دينار ولا متاع ، قال « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار [(٢)] » فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لاينقضى عنك يوم إلا ويجرى

(١) حديث « يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول : وكم بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ورواه البخارى من حديث أبى هريرة نحوه وقد تقدم .

(٢) حديث أبى هريرة « هل تدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس يارسول الله من لادرهم له ولامتاع ... الحديث . تقدم

على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك ! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات ؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء ؟ فقد روى أبو ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال « ياأبا ذر أتدرى فيم ينتطحان ؟ » قلت : لا ، قال « ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة [١] »

وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شىء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا . فكنت أنت يامسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول : أين حسناتى ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يارب هذه سيئات ماقارفتها قط ! فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات ، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه فمايزال عبد يجىء فيقول رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته فمايزال كذلك حتى لايبقى له من حسناته شىء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم ليحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا [٢] » وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير : يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ! قال « نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه [٣] » قال الزبير : والله إن الأمر لشديد . فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم ! قال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غبرا بهما » قال : قلنا : مابهما ؟ قال ليس معهم شىء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لاينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه ؛ حتى اللطمة » قلنا : وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما ! فقال « بالحسنات والسيئات [٤] » فاتقوا الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذ أموالهم

---

(١) حديث « ياأبا ذر أتدرى فيم ينتطحان » قلت : لا ، قال « ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما » أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبى ذر .

(٢) حديث ابن مسعود « ان الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهى الموبقات ... الحديث » وفى آخره « ولن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة ... الحديث » رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصرا على آخره « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا ... الحديث . واسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر « ان الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم » . (٣) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير : يارسول الله أيكرر علينا ماكان بيننا ... الحديث . أخرجه أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح . (٤) حديث أنس « يحشر العباد عراة غبرا بهما » قلنا : مابهما ؟ قال « ليس معهم شىء ... الحديث » قلت : ليس من حديث أنس وإنما هو عبد الله بن أنيس رواه أحمد باسناد حسن وقال « غرلا » مكان « غبرا » .

والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم ، كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذلى مظلمتى من أخى ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته قال : يارب لم يبق من حسناته شىء فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شىء قال : يارب يتحمل عنى من أوزارى » قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال « إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم » قال « فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صديق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟ قال لمن أعطانى الثمن ، قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملكه ، قال : وما هو ؟ قال عفوك عن أخيك ، قال : يارب إنى قد عفوت عنه ، قال الله تعالى . خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين »(١) ، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق .

فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد ؛ كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رءوس الأشهاد : هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ! أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به .

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال : عليك لعنتى ياعبد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تتناول إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك : لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى الملائكة ويقولون : هذا فلان بن فلان

(١) حديث أنس : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر : ما أضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العالمين ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا ، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة فى قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم ، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدآ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ فالناس من بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ـ وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر ـ فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشى على بساط الأرض فضلا عن حدّة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم وتعلوا أرجلهم ، فياله من منظر ماأفظعه ومرتقى ماأصعبه ومجاز ماأضيقه ! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول « يا رب سلم سلم » والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك ؟ فناديت بالويل والثبور وقلت : هذا ما كنت أخافه فياليتنى قدمت لحياتى ! ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ! ياويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا ! ياليتنى كنت ترابا ! ياليتنى كنت نسيا منسيا ! ياليت أمى لم تلدنى ! وعند ذلك تختطفك النيران ـ والعياذ بالله ـ وينادى المنادى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ! فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولا وفزعا ورعبا ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ » قالوا : نعم يارسول الله قال « فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو [1] » وقال أبو سعيد الخدرى: قال رسول الله

(١) حديث « ينصب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أول من يجيز » متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث طويل

صلى الله عليه وسلم ، يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن فى الشفاعة (١) » وذكر إلى آخر الحديث : وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال « ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضئ مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ، ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار ، قال « فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطانى الله مالم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل (٢) وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتى وإنى لأقول يارب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير (٣) » .

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطول فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك ؟ فما هذا من الخوف فى شىء ؟ بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه . فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته . وأبعد من رقة النساء خوف الحمق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم . فالشيطان يضحك من استعاذتهم . كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول « لا إله إلا الله » صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو

(١) حديث أبى سعيد « يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف . الحديث » متفق عليه مع اختلاف ألفاظ
(٢) حديث ابن مسعود « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء » قال : وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا .
(٣) حديث أنس « الصراط كحد السيف — أو كحد الشعرة ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب وقال هذا اسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميرى عن أنس مرفوعا « الصراط كحد الشعرة — أو كحد السيف » قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

صفة الشفاعة

أعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبأ ولايته فى عباده فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ، ولاتستصغر معصية أصلا فإن الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ، ولاتستحقر أصلا طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه . ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه .

وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ روى عمرو ابن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاقول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه وقال « أمتى أمتى » ثم بكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك ، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك (١) وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة (٤) » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ، ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعدى ، فأقول : يارب أمتى فيقول الله عز وجل : يامحمد وماتريد أن أصنع بأمتك فأقول : يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم

(١) حديث عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه ، ثم قال « أمتى أمتى » ثم بكى ... الحديث . وفيه : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك ولانسوءك فى أمتك ، قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ . (٢) حديث « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ... الحديث » وفيه « وأعطيت الشفاعة » متفق عليه من حديث جابر « اذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى بن كعب قال الترمذى حسن صحيح . (٣) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى . (٤) حديث « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبى هريرة .

إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول : يامحمد ما تركت للنار لغضب ربك فى أمتك من بقية (١) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر (٢) » وقال أبو هريرة أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد المرسلين يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم آدم عليه السلام : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله . فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون : أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون ياموسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام . فيأتون عيسى فيقولون : ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى عليه السلام : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فيأتونى فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : أمتى أمتى يارب ؛ فيقال : يامحمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب » ثم قال « والذى نفسى بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى (٣) » وفى حديث آخر . هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ؛ وهو قوله فى الكواكب هذا ربى ، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله

---

(١) حديث ابن عباس « ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبرى لاأجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفى إسناده محمد بن ثابت والبنانى ضعيف . (٢) حديث « إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث بريدة بسند حسن .

(٣) حديث أبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد الناس ... الحديث بطوله فى الشفاعة ، قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم ، متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم .

إني سقيم . فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (٢) » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يافلان هل تعرفني ؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك ، قال : قد عرفت ، قال : فاشفع لي بها عند ربك ! فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال : هل تعرفني ؟ فقلت : لا من أنت ؟ فقال : أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه ، فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار (٣) » وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (٥) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا ! وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما ! وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ! وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال « قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٦) » .

صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن

---

(١) حديث « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر » رويناه في جزء أبي عمر بن السماك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال « مثل أحد الحيين ربيعة ومضر » وفيه : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجدعا « يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم « قالوا : سواك قال « سواي » قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

(٢) حديث « يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « ان من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة ... الحديث » وقال حسن والبزار من حديث أنس ان الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة » . (٣) حديث أنس « ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يافلان هل تعرفني ؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا يوما فاستسقيتني شربة فسقيتك ... الحديث » في شفاعته فيه وإخراجه من النار . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف . (٤) حديث أنس » أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ... الحديث » أخرجه الترمذي . وقال حسن غريب .

(٥) حديث « فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ... الحديث « أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح . (٦) حديث ابن عباس : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا : إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ... الحديث . رواه الترمذي وقال غريب .

نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا . قال أنس : أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له : يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آية أنزلت على آنفا » وقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ثم قال « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال « إنه نهر وعدنيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء »[(١)] ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « بينما أنا أسير فى الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر »[(٢)] ، وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء - أو مثل مابين المدينة وعمان - »[(٣)] ، وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ، شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان »[(٤)] ، وقال ثوبان - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ حوضى مابين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين » فقال عمر بن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال « هم الشعث رءوسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد »[(٥)] ، فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمنى الله ، لا جرم لا أدهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ . وعن أبى ذر قال : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال « والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المضحية ، من شرب منه لم يظمأ آخر ماعليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله مابين عمان وأيلة ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل »[(٦)] ، وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ لكل نبى حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة »[(٧)] ، فهذا رجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج ، فإنّ الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد ، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذ مغتر ومتمن

---

(١) حديث أنس . أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آية نزلت على آنفا » وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (إنا أعطيناك الكوثر) رواه مسلم . (٢) حديث أنس « بينما أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس: لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء . . الحديث . وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) حديث أنس « مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء أو مثل مابين المدينة مابين المدينة وعمان » رواه مسلم .

(٤) حديث ابن عمر : لما نزل قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ... الحديث » أخرجه الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف . (٥) حديث ثوبان « إن حوضى مابين عدن إلى عمان البلقاء ... الحديث أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه .

(٦) حديث أبى ذر : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال « والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ... الحديث » رواه مسلم . (٧) حديث سمرة « إن لكل نبى حوضا وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب قال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

وليس من الراجين فى شىء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمق . نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

القول فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب . وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد . وينكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها : يامالك قد حق علينا الوعيد يامالك قد أثقلنا الحديد يامالك قد نضجت منا الجلود يامالك أخرجنا منها فإنا لانعود . فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطربون بين غواشيها ، تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون ! فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار فى بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن فى تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا فى أودية جهنم وشعابها فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم

« إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعين ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهى الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله [١] » وقال على كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادى الحزن ، قيل يارسول الله وما وادى ـ أو جب ـ الحزن قال « واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين [٢] » فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهى بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى : جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن فى عمق الهاوية فإنه لاحد لعمقها كما لاحد لعمق شهوات الدنيا ، فكما لا ينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون ماهذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها [٣] » .

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه ما هو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه [٤] » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه . ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات ! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه . وعن هذا عبر فى بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا [٥] بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فأذن لها فى نفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فأشد ماتجدونه فى الصيف من حرها وأشد ماتجدونه فى الشتاء من زمهريرها [٧] »

---

(١) حديث « إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله » لم أجده هكذا بجملته وسيأتى بعده ماورد فى ذكر الحيات والعقارب .
(٢) حديث على : تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادى الحزن .. الحديث » رواه ابن عدى بلفظ « وادى الحزن » وقال باطل وأبو نعيم والأصبهانى بسند ضعيف ورواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ « جب الحزن » وضعفه ابن عدى وتقدم فى ذم الجاه والرياء . (٣) حديث أبى هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ... الحديث » وفيه « هذا حجر أرسل فى جهنم ... الحديث » رواه مسلم . (٤) حديث « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار ... الحديث » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير . (٥) حديث « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا » ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس « وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف « وما وصلت إليكم » حتى أحسبه قال « اضحت بالماء فتضيء عليكم » . (٦) حديث « أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ... الحديث » تقدم . (٧) حديث « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا ، فأذن لها بنفسين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس فى الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه فى النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقال : لا ، ويؤتى بأشد الناس ضرا فى الدنيا فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة ثم يقال له : هل رأيت ضرا قط؟ فيقول : لا وقال أبو هريرة : لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا . وقد قال بعض العلماء فى قوله ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم .

ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق : قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن دلوا من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض (١) » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴾ وقال تعالى ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ﴾ وقال تعالى ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم (٢) » فكيف من يكون طعامه ذلك ؟ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها طيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم (٣) » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، وإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما فى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم ، قال : فيدعون خزنة جهنم ﴿ أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ قال « فيقولون ادعوا مالكا فيدعون فيقولون يامالك ليقض علينا ربك » قال « فيجيبهم إنكم ماكثون (٤) » ، قال الأعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال : فيجيبهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال :

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى « لو أن دلوا من غساق ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض » أخرجه الترمذى وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف . (٢) حديث ابن عباس « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه . (٣) حديث أنس « ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم ... الحديث » لم أجد له إسنادا .

(٤) حديث أبى الدرداء « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام . الحديث » أخرجه الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء ، قال الدارمى : والناس لا يرفعون هذا الحديث ، وإنما روى من الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قوله .

فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ قال « يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه . فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ فهذه طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١)

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهى لاتفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة ! قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه - يعنى أشدافه - فيقول أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ... الآية ﴾ (٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا ، وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له (٣) » ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضرس الكافر فى النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه (٥) » وقال عليه السلام « إن الكافر ليجر لسانه فى سجين يوم القيامة يتواطوه الناس (٦) » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن فى قوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا .

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧) » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى فى وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (٨) » قال محمد بن

---

(١) حديث أبى أمامة فى قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولايكاد يسيغه ﴾ قال يقرب إليه ... الحديث أخرجه الترمذى وقال غريب . (٢) حديث أبى هريرة « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه . (٣) حديث « إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة .. الحديث » أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء .

(٤) حديث أبى هريرة « ضرس الكافر فى النار مثل أحد ... الحديث » رواه مسلم . (٥) حديث « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب .

(٦) حديث « إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس » أخرجه الترمذى من رواية أبى المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف . (٧) حديث « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . (٨) حديث أنس « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف .

كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل فى أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ فيقول الله تعالى مجيبا لهم ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴾ فيقولون ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل به ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس رضى الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت [1] » وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتنى كنت ذلك الرجل . ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكى فقيل له : لم تبكى ؟ فقال: أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى . فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لانهاية له ، فأعظم الأمور عليهم مع مايلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان ؟ فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شىء من نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم إنهم لولم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتها لكنها تعرض عليهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الأولون والآخرون بمثلها ، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا ، فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ماتعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ماحرمتكم من الثواب المقيم [2] » وقال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لايؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام . كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود : إلهى لاصبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على حر نارك؟ ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟ .

فانظر يامسكين فى هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلا لايزيدون ولاينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾

---

(١) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم . (٢) حديث « يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا روائحها . الحديث » رويناه فى الأربعين لأبى هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة هالك .

ولعمرى الإشارة به يوم القيامة ، بل فى أزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك !

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار ، وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

القول فى صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم ، فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقرى الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، يمشين فى درجات الجنان إذا اختالت إحداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لايخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه . فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ويتهنأ بعيش دونها ؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن

من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ! وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته ! كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرير ممتعون لهم فيها كل مايشتهون ، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون ﴾ »[١] .

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقرأ من قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها ، وتأمل أولا عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »[٢] ، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصى . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد » فقال أبو بكر رضى الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[٣] ، وعن عاصم بن ضمرة عن على كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لا أحفظه ثم قال ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما فى بطونهم من أذى أو بأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا ، قال : فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان ـ باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا ـ فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره ، ثم يطأطىء رأسه فإذا أزواجه ﴿ وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ﴾ ثم اتكأ فقال ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى

---

(١) حديث أبى هريرة « ينادى مناد ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد . (٢) حديث « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى . (٣) حديث أبى هريرة « من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة .. الحديث » متفق عليه .

لولا أن هدانا الله ﴾ ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (١) » .

ثم تأمل الآن فى غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها ، فقد قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢) » وقال أيضا « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما (٣) » وقال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أحدثكم بغرف الجنة ، قال : قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا قال « إن فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال : قلت يارسول الله ولمن هذه الغرف ؟ قال « لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام ، قال : قلنا يارسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال « أمتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لقى أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام (٤) » يعنى اليهود والنصارى والمجوس . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ ومساكن طيبة فى جنات عدن ﴾ قال « قصور من لؤلؤ ، فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر ، فى كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر ، فى كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، فى كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن فى كل غداة - يعنى من القوة - ما يأتى على ذلك أجمع (٥) » .

---

(١) حديث « آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أنس .

(٢) حديث أبى سعيد « ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب . . . الحديث » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث « ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد . (٤) حديث جابر « ألا أحدثكم بغرف الجنة » قلت : بلى يارسول الله بأبينا أنت وأمنا قال « ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر . (٥) حديث : سئل عن قوله تعالى ﴿ ومساكن طيبة فى جنات عدن ﴾ قال « قصور من لؤلؤ . . . الحديث » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة والآجرى فى كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال : سألت أبا هريرة وعمران بن حصين فى هذه الآية ولا يصح والحسن ابن خليفة لم يعرفه ابن أبى حاتم ، والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور .

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك [١] » وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص [٢] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا [٣] » وقال « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك [٤] » ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به فى الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها [٥] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها اقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ [٦] » وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ أقبل أعرابى فقال : يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هى ؟ » قال : السدر فإن لها شوكا ، فقال « قد قال الله تعالى ﴿ فى سدر مخضود ﴾ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر [٧] » وقال جرير بن عبدالله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للغلام : انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدرى ! قال : ظلم الناس بعضهم بعضا ، ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال : يا جرير لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده ، قلت : يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة وإنما تفصيله فى الأخبار ؛ فقد روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى

---

(١) حديث أبى هريرة « ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك » أخرجه الترمذى بلفظ « وملاطها المسك » وقال ليس اسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه بإسناد صحيح . (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص » أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره . (٣) حديث أبى هريرة « من سره أن يسقيه الله الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا » أخرجه الطبرانى فى الاوسط بإسناد حسن وللنسائى بإسناد صحيح « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة » .

(٤) حديث « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك » أخرجه العقيلى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة

(٥) حديث « لوكان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان مايحليه الله به فى الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة بإسناد حسن . (٦) حديث « ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٧) حديث أبى أمامة : أقبل أعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية قال « ماهى » قال : السدر ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبى أمامة .

ثيابه ولا يفنى شبابه ، فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر [١] » وقال رجل : يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مم تضحكون ؟ من جاهل سأل عالما » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين [٢] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ أوّل زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية » وفى رواية « على كل زوجة سبعون حلة [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « الخيمة درّة مجوّفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون [٥] » رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس : الخيمة درّة مجوّفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : مابين الفراشين كما بين السماء والأرض [٦] » .

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة ، وقد قال ثوبان ـ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أوّل إجازة ـ يعنى على الصراط ـ ؟ فقال « فقراء المهاجرين » قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد الحوت » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال « من عين فيها تسمى سلسبيلا » فقال : صدقت [٧] وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أبا القاسم ألست تزعم أنّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه : إن أقرّ لى بها خصمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل فى المطعم

---

(١) حديث أبى هريرة « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه .. الحديث » رواه مسلم دون قوله « فى الجنة مالا عين رأت .. الخ » فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة « قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ... الحديث » .

(٢) حديث : قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا ... الحديث أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو . (٣) حديث أبى هريرة « أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ... الحديث » متفق عليه . (٤) حديث : فى قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال « ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه الا من حديث رشد بن سعد .

(٥) حديث « الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ... الحديث » عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى . (٦) حديث أبى سعيد فى قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال « مابين الفراشين كما بين السماء والأرض » أخرجه الترمذى بلفظ « ارتفاعها لكما بين السماء والأرض » وقال غريب لا نعرفه الا من حديث رشد بن سعد .

(٧) حديث ثوبان : جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله الى أن قال : فمن أول الناس اجازة ؟ يعنى على الصراط فقال « فقراء المهاجرين » قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد النون ... الحديث » رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره .

والمشرب والجماع ، فقال اليهودى : فإنّ الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر [١] » ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويا [٢] » ، وقال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ فى الجنة طيرا مثل البخاتى . قال أبو بكر رضى الله عنه : إنها لناعمة يا رسول الله ؟ قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر [٣] » ، وقال عبد الله بن عمر فى قوله تعالى ﴿ يطاف عليهم بصحاف ﴾ قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا . وقال لو أنّ رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

صفة الحور العين والولدان

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « غدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا ومافيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها [٤] » يعنى الخمار ، وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال « تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء مابين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك [٥] » ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن : السلام عليك يارسول الله ؛ فقلت : ياجبريل ماهذا النداء قال : هؤلاء المقصورات فى الخيام استأذنّ ربهنّ فى السلام عليك فأذن لهن ، فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ حور مقصورات فى الخيام [٦] ﴾ » ،

---

(١) حديث زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود فقال : يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... الحديث . وفيه « حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك » أخرجه النسائى فى الكبرى بإسناد صحيح .

(٢) حديث ابن مسعود « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار بإسناد صحيح .

(٣) حديث حذيفة « إن فى الجنة طيرا أمثال البخاتى ... الحديث » غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح « إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة » قال أبو بكر : يارسول الله إن هذه الطير ناعمة قال « أكلتها أنعم منها » قالها ثلاثا « وإنى أرجو أن تكون ممن يأكل منها » وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال « فيه طير أعناقها كأعناق الجزر » قال عمر : إن هذه لناعمة ... الحديث . وليس فيه ذكر لأبى بكر وقال حسن .

(٤) حديث « غدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أنس .

(٥) حديث أبى سعيد الخدرى فى قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) قال « تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من رواية أبى الهيثم عن أبى سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية أبى الهيثم عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا دون ذكر أبى سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة ... الحديث » ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم » .

(٦) حديث أنس « لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ... الحديث » وفيه « أن جبريل قال هؤلاء المقصورات فى الخيام » وفيه « فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط » لم أجده هكذا

وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ قال : من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد. وقال الأوزاعى ﴿ فى شغل فاكهون ﴾ قال : شغلهم افتضاض الأبكار . وقال رجل : يا رسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ قال « يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم [١] » وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا [٢] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة سوقا مافيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له [٣] » وقال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ الحور العين فى الجنة يتغنين : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام [٤] » وقال يحيى بن كثير فى قوله تعالى ﴿ فى روضة يحبرون ﴾ قال السماع فى الجنة . وقال أبو أمامة الباهلى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه [٥] ».

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة فى حبرة ونعمة فى مقام أبدا ونضرة فى دار عالية بهية سليمة ، قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله قال « قولوا إن شاء الله تعالى » ثم ذكر الجهاد وحض عليه [٦] . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل فى الجنة خيل فإنها تعجبنى ؟ قال « إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت » وقال له رجل : إنّ الإبل تعجبنى فهل فى الجنة من إبل ؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت

= بتمامه والترمذى من حديث على « ان فى الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له » وقال غريب ولأبي الشيخ فى كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف « فيجتمعن فى كل سبعة أيام فيقلن بأصوات ... الحديث » .

(١) حديث : قال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ قال « يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم » أخرجه الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع » فقيل أو يطيق ذلك ؟ قال « يعطى قوة مائة » .

(٢) حديث « ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا » أخرجه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى إلا أنه قال « مائة حوراء » ولم يذكر فيه عناقه لهن ، وإسناده ضعيف ، وتقدم قبله بحديث .

(٣) حديث « ان فى الجنة سوقا مافيها بيع ولاشراء إلا الصور من الرجال والنساء ... الحديث » أخرجه الترمذى فرقه فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

(٤) حديث أنس « ان الحور فى الجنة يتغنين فيقلن : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به .

(٥) حديث أبى أمامة « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه » أخرجه الطبرانى بإسناد حسن .

(٦) حديث أسامة بن زيد « ألا هل من مشمر للجنة ان الجنة لا خطر لها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

عيناك »[١] ، وعن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ، يكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة »[٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما فى دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا فى مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا »[٣] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا فى عرض سبعة أذرع »[٤] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب »[٥] وقال صلى الله عليه وسلم « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ، وإذا فيها جارية فقلت ياجارية لمن أنت ؟ فقالت لزيد بن حارثة ، وإذا فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر »[٦] ، وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمى فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا .

وقد ذكر الحسن البصرى رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنها من خمر لذة للشاربين لاتسفه الأحلام ولاتصدع منها الرءوس ، وإن فيها مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثون فى سن واحد طولهم ستون ذراعا فى السماء ، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار ، وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد ، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لايعلم علمها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى

---

(١) حديث جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل فى الجنة خيل فإنها تعجبنى . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك فى الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المدينى عبد الرحمن بن سابط فى ذيله على ابن منده فى الصحابة ولا يصح له صحبة . (٢) حديث أبى سعيد « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ، ويكون حمله وفصاله ونشأته فى ساعة واحدة » أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب ، قال : وقد اختلف أهل العلم فى هذا فقال بعضهم : فى الجنة جماع ولايكون ولد ، انتهى . ولأحمد من حديث لأبى رزين « يلذ ويلم مثل لذاتكم فى الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لاتوالد » ، (٣) حديث « إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان الى الإخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا » أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال : لانعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى . والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس . (٤) حديث « أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله « بيض جعاد » ودون قوله « على خلق آدم » الى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا « أهل الجنة جرد مرد كحل » وقال غريب وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا »

(٥) حديث « أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد منقطعا من أوله الى قوله « وان عليهم التيجان » ومن هنا بإسناده أيضا وقال لانعرفه إلا من حديث رشد بن سعد . (٦) حديث « نظرت الى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب واذا طيرها كالبخت ... الحديث » رواه الثعلبي فى تفسيره من رواية أبى هرون العبدى عن أبى سعيد وأبو هرون اسمه عمارة بن جوين ضعيف جدا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « يقول الله أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت ، لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك ، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أما إنه ليس ليل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدله فى بصره وملكه مسيرة مائة عام فى قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له فى بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها ، فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله ، وإن فى الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار فى كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب . وقال مجاهد . إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير فى ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ؛ وأرفعهم الذى ينظر إلى ربه بالغداة والعشى . وقال سعيد ابن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة ؛ سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهى تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة . وقال أيضا فى طلب الدنيا ذل النفوس ، وفى طلب الآخرة عز النفوس ، فيا عجبا لمن يختار المذلة فى طلب ما يفنى ويترك العز فى طلب ما يبقى !

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك تعالى

قال الله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وهذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله تعالى ، وهى اللذة الكبرى التى ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة ـ وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة . قال جرير بن عبد الله البجلى : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ »[1] وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا : ما هذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ » قال « فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه »[2] ، وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة ، وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى ، وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة الى لذة اللقاء : وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغى أن تكون همة العبد من الجنة بشىء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى .

---

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « انكم ترون ربكم ... الحديث » هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف . (٢) حديث صهيب فى قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ رواه مسلم كما ذكره المصنف .

نختم الكتاب بباب فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الفأل [١] وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا ، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض . ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة [٢] » ويروى أنه كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة [٣] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا [٤] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى [٦] » وقال

---

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل . متفق عليه من حديث أنس فى أثناء حديث « ويعجبنى الفأل الصالح والكلمة الحسنة » ولهما من حديث أبى هريرة « وخيرها الفأل ؟ قال « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » .

(٢) حديث « ان لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان . (٣) حديث « اذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتى سبقت غضبى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت غضبى » لفظ البخارى وقال مسلم « كتب فى كتابه على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى » . (٤) حديث « يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد الا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا » أخرجه مسلم من حديث أبى موسى « اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار » ولأبى داود « أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة ... الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبى موسى أيضا « يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة » وفيه على بن زيد بن جدعان . (٥) حديث « يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » أخرجه الطبرانى من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٦) حديث « ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أوخافنى فى مقام [1] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ماقالوا فيأمر بإخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين [2] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها [3] » وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : ياموسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه . وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر ويأمر بردهما ويسألهما عن فعلهما ، فيقول الذى عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذى تلكأ حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد ماأخرجتنى منها ، فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى [4] » ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ فقال الأعرابى : فوالله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوهامن غير فقيه . وقال الصنابحى : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال : مهلا ... لم تبكى ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله النار عليه [5] » وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مدالبصر ، ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لايارب . فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك

---

(١) حديث « يقول الله عزوجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أوخافنى فى مقام » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب . (٢) حديث « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى فيقولون ماأغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار ... الحديث » فى إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) أخرجه النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح

(٣) حديث « لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله : قصة المرأة من السبى إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته ببطنها فأرضعته . (٤) حديث « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى » رويناه فى سباعيات أبى الأسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة . (٥) حديث الصنابحى عن عبادة بن الصامت « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار » أخرجه مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر .

اليوم ، فيخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله » فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لاتظلم ، قال « فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، قال « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء »[1] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط « إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ، يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ، فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلى الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ، قالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال « فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين ، فيقول الله تعالى إن لكم عندى ماهو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائى عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا »[2] رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عرضت على الأمم يمر النبى ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان والنبى ليس معه أحد والنبى معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق ، فقيل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا ، فقيل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا . أما نحن فولدنا فى الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم يارسول الله فقال « أنت منهم » ، ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « سبقك بها عكاشة »[3] ، وعن عمر بن حزم الأنصارى قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع ، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال « لم يحدث إلا خير إن ربى عز وجل وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لا حساب عليهم وإنى سألت ربى فى هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجدا واجدا كريما فأعطانى مع كل واحد من

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا » فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب . (٢) حديث « إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ... الحديث » فى إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة « فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد . (٣) حديث ابن عباس « عرضت على الأمم يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى ليس معه أحد ... الحديث » إلى قوله « سبقك بها عكاشة » رواه البخارى .

السبعين ألفا سبعين ألفا ، قال ، قلت يارب وتبلغ أمتي هذا ؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب [١] » وقال أبو ذر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ، فقلت ياجبريل وإن سرق وإن زنى ؟ قال: نعم وإن سرق وإن زنى ، قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر [٢] » وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت: وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت: وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وإن رغم أنف أبي الدرداء [٣] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار [٤] »

وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة: أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لايموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه النار يهوديا أو نصرانيا » فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو - ثلاث مرات - أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف له [٥] وروى أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادى عليه فيمن يزيد - في يوم صائف شديد الحر - فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت: ابني ابني ! فبكى الناس وتركوا ماهم فيه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ » قالوا: نعم ، قال صلى الله عليه وسلم « فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها [٦] » فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردنا في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته .

---

(١) حديث عمرو بن حزم الأنصاري: تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه « إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم » وفيه « أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا » أخرجه البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر « فزادني مع كل واحد سبعين ألفا » وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: فهلا استزدته ؟ فقال « قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا » قال عمر: فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته فأعطاني هكذا » وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الربذي ضعيف . (٢) حديث أبي ذر « عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك بأنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ... الحديث » متفق عليه بلفظ « أتاني جبريل فبشرني » وفي رواية لهما « أتاني آت من ربي » . (٣) حديث أبي الدرداء: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت « وإن زني وإن سرق ... الحديث » رواه أحمد بإسناد صحيح . (٤) حديث « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار » رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم . (٥) حديث أبي بردة . أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لايموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا » عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك . (٦) حديث: وقف صبي في بعض المغازي ، ينادى عليه فيمن يزيد ، في يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة ... الحديث . وفيه « الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها » متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لاتطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » لفظ مسلم وقال البخاري: فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيا ... الحديث .

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء .

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي: إني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١ ، وأكملت تبييض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى .

فهرس الجزء الرابع

من إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى

صحيفة

٢ كتاب التوبة
٣ الركن الأول فى نفس التوبة ... الخ
بيان حقيقة التوبة وحدها
٤ بيان وجوب التوبة وفضلها
٧ بيان أن وجوب التوبة على الفور
٩ بيان أن وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة
١٣ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة
١٦ الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب
بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
٢٣ بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا
٣٢ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
٣٤ الركن الثالث فى تمام التوبة ... الخ
٤٣ بيان أقسام العباد فى دوام التوبة
٤٦ بيان ما ينبغى أن يبادر إليه التائب ... الخ
٤٩ الركن الرابع فى دواء التوبة ... الخ
٦٠ كتاب الصبر والشكر
الشطر الأول فى الصبر
٦١ بيان فضيلة الصبر
٦٢ بيان حقيقة الصبر ومعناه
٦٦ بيان كون الصبر نصف الإيمان
بيان الأسامى التى تتجدد للصبر ... الخ
٦٧ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

صحيفة

٦٩ بيان مظان الحاجة إلى الصبر .. الخ
٧٥ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
٨٠ الشطر الثانى من الكتاب فى الشكر
الركن الأول فى نفس الشكر
بيان فضيلة الشكر
٨١ بيان حد الشكر وحقيقته
٨٥ بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى
٩٠ بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
٩٩ الركن الثانى من أركان الشكر ... الخ
بيان حقيقة النعمة وأقسامها
١٠٩ بيان وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر
الطرف الأول فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك
١١١ الطرف الثانى فى أصناف النعم فى خلق الإرادات
١١٢ الطرف الثالث فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة
١١٦ الطرف الرابع فى نعم الله تعالى فى الأصول التى يحصل فيها الأطعمة ... الخ
١١٨ الطرف الخامس فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك
الطرف السادس فى إصلاح الأطعمة
١١٩ الطرف السابع فى إصلاح المصلحين
١٢٠ الطرف الثامن فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام
١٢٣ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

صحيفة

١٢٧ الركن الثالث من كتاب الصبر
بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد
١٣٤ بيان فضل النعمة على البلاء
١٣٥ بيان الأفضل من الصبر والشكر
١٤٢ كتاب الخوف والرجاء
ويشتمل على شطرين
الشطر الأول
بيان حقيقة الرجاء
١٤٤ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
١٤٦ بيان دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء ويغلب
١٥٥ الشطر الثانى من الكتاب
بيان حقيقة الخوف
١٥٧ بيان درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف
١٥٨ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى مايخاف منه
١٦٠ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
١٦٤ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
١٦٧ بيان الدواء الذى يستجلب حال الخوف
١٧٣ بيان معنى سوء الخاتمة
١٨٠ بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فى الخوف
١٨٣ بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين فى شدة الخوف
١٨٩ كتاب الفقر والزهد
١٩٠ الشطر الأول من الكتاب فى الفقر
بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه
١٩٣ بيان فضيلة الفقر مطلقا

صحيفة

١٩٩ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين
٢٠١ بيان فضيلة الفقر على الغنى
٢٠٦ بيان آداب الفقير فى فقره
٢٠٧ بيان آداب الفقير فى قبول العطاء الخ
٢١٠ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه
٢١٤ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال
٢١٥ بيان أحوال السائلين
٢١٦ الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد
بيان حقيقة الزهد
٢١٩ بيان فضيلة الزهد
٢٢٥ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
٢٣٠ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
٢٤١ بيان علامات الزهد
٢٤٣ كتاب التوحيد والتوكل
بيان فضيلة التوكل
٢٤٥ بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب
٢٥٩ الشطر الثانى من الكتاب
بيان حال التوكل
٢٦٤ بيان ماقاله الشيوخ فى أحوال التوكل
٢٦٥ بيان أعمال المتوكلين
٢٧٢ بيان توكل المعيل
٢٧٥ بيان أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال
٢٨١ بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم
٢٨٦ بيان أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ
٢٩٠ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال

صحيفة
٢٩٢ بيان أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه
٢٩٣ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا
بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى
٢٩٦ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
٣٠٠ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
٣٠٧ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى الخ
٣١٢ بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا
٣١٥ بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى
٣١٩ بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب
٣٢٠ بيان السبب قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
٣٢٢ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
٣٢٧ بيان محبة الله للعبد ومعناها
٣٢٩ القول فى علامات محبة العبد لله تعالى
بيان معنى الأنس بالله تعالى
٣٤١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غلبة الأنس
٣٤٣ القول فى معنى الرضا بقضاء الله الخ
٣٤٤ بيان فضيلة الرضا
٣٤٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى.
٣٥١ بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا
٣٥٤ بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضا
٣٥٥ بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم
٣٦٠ خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

صحيفة
٣٦١ كتاب النية والإخلاص والصدق
٣٦٢ الباب الأول فى النية
بيان فضيلة النية
٣٦٥ بيان حقيقة النية
٣٦٦ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله
٣٦٨ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية
٣٧٣ بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار
٣٧٦ الباب الثانى فى الإخلاص وفضيلته ودرجاته وحقيقته
فضيلة الإخلاص
٣٧٩ بيان حقيقة الإخلاص
٣٨١ بيان أقاويل الشيوخ فى الإخلاص
٣٨٢ بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص
٣٨٤ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به
٣٧٦ الباب الثالث فى الصدق وفضيلته وحقيقته
فضيلة الصدق
٣٨٧ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه
٣٩٣ كتاب المراقبة والمحاسبة
المقام الأول من المرابطة المشارطة
٣٩٦ المرابطة الثانية المراقبة
٣٩٨ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
٤٠٤ المرابطة الثالثة محاسبة النفس الخ
فضيلة المحاسبة
٤٠٥ بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل
٤٠٦ المرابطة الرابعة فى معاقبة النفس على تقصيرها
٤٠٨ المرابطة الخامسة المجاهدة
٤١٦ المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها
٤٢٣ كتاب التفكر
فضيلة التفكر

صحيفة
٤٢٥ بيان حقيقة الفكر وثمرته
٤٢٧ بيان مجارى الفكر
٤٣٥ بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى
٤٤٨ كتاب ذكر الموت ومابعده
٤٤٩ الشطر الأول فى مقدماته وتوابعه الخ
الباب الأول فى ذكر الموت الخ
بيان فضل ذكر الموت كيفما كان
٤٥١ بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت فى القلب
٤٥٢ الباب الثانى فى طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته
وفضيلة قصر الأمل
٤٥٦ بيان السبب فى طول الأمل وعلاجه
٤٥٨ بيان مراتب الناس فى طول الأمل وقصره
٤٥٩ بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٦١ الباب الثالث فى سكرات الموت وشدته ومايستحب من الأحوال عنده
٤٦٥ بيان مايستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٦٧ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها
٤٦٨ (الباب الرابع) فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٧٦ وفاة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه
٤٧٧ وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
٤٧٨ وفاة عثمان رضى الله تعالى عنه
٤٧٩ وفاة على كرم الله وجهه
٤٨٠ (الباب الخامس) فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين
٤٨١ بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

صحيفة
٤٨٤ (الباب السادس) فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
٤٨٥ بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور
٤٨٩ بيان أقاويلهم عند موت الولد
٤٩٠ بيان زيارة القبور والدعاء للميت ...الخ
٤٩٣ (الباب السابع) فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور
بيان حقيقة الموت
٤٩٨ بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال
٤٩٩ بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير
٥٠٢ بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر
٥٠٤ (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام
٥٠٦ بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة
٥٠٧ بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين
٥١١ (الشطر الثانى) من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أو النار وتفصيل مابين يديه من الأهوال والأخطار وفيه بيان نفخة الصور ...الخ
صفة نفخة الصور
٥١٣ صفة أرض المحشر وأهله
٥١٤ صفة العرق
٥١٥ صفة طول يوم القيامة
صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه
٥١٧ صفة المساءلة
٥٢٠ صفة الميزان
٥٢١ صفة الخصماء

صحيفة

٥٢٤ صفة الصراط

٥٢٦ صفة الشفاعة

٥٢٨ صفة الحوض

٥٣٠ القول فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

٥٣٥ القول فى صفة الجنة وأوصاف نعيمها

٥٣٨ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

صحيفة

٥٣٨ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

٥٣٩ صفة طعام أهل الجنة

٥٤٠ صفة الحور العين والولدان

٥٤١ بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

٥٤٣ صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى

٥٤٤ نختم الكتاب بباب فى سعة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

تم الفهرس وبه تم الكتاب